

فَقِيهًا

الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ

و  
فَقِيهًا

النُّصِيحَ وَالْإِشَادِ  
وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ

عبد الرحمن بن حنكلة الميمني

دار الفقه

كتاب الدعوة إلى الله  
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فَقِيهًا

الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ

و

فَقِيهًا

النُّصْحَ وَالْإِرْشَادَ

وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ

دراسة استنباطية تشتمل على :

بيان دُهورها ، وأُسُرها ، ومناهِبها ، وسبلها ، ووسائلها

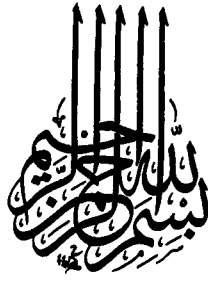
وآدابها ، ومناذج من تطبيقاتها .

الجزء الأول

عبد الرحمن بن جنادة الميداني

دار الفقه

دمشق



فَقِيْرًا  
الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ  
و

فَقِيْرًا  
النُّصْحَ وَالْإِشْرَادَ  
وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ

الطبعة الأولى  
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق: ص ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عمه طريقه

دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## بَيْنَ يَدَيْ الْكِتَابِ

الحمد لله رب العالمين الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِرَهُ  
على الدين كله، وأنزل عليه قوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠  
نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ  
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ ﴾

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على خاتم أنبيائه ورُسُلِهِ مُحَمَّدِ بْنِ  
عَبْدِ اللَّهِ، الَّذِي بَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ  
جِهَادِهِ، لِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ، وَقَامَ بِكُلِّ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ وَأَكْمَلِهِ  
يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ بِهِ إِنْسَانٌ فِي حُدُودِ طَاقَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، فَدَعَا إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى صِرَاطِهِ  
الْمُسْتَقِيمِ، وَعَلَّمَ النَّاسَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ، وَاتَّخَذَ كُلَّ سَبِيلَةٍ أُتِيحَتْ لَهُ لِتَرْكِيَةِ مَنْ  
آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، وَاسْتَجَابَ لِمَا يَحْيِيهِ حَيَاةً سَعِيدَةً طَيِّبَةً.

فَتَحَقَّقَتْ مِنْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، بِرِسُولِهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، ذِي  
الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، مُحَمَّدٍ ﷺ، إِذْ بَدَّلَ غَايَةَ جَهْدِهِ وَاجْتِهَادِهِ لِتَرْكِيَتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ/ ٣ مصحف/ ٨٩  
نزول):

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٨﴾

والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين وآلِ كُلِّ وَصْحِبِ كُلِّ أَجْمَعِينَ،

وبعد:

فهذا كتاب استَجَبْتُ في كتابته لطلبِ عدد من أهل العِلْمِ والفضل والغيرة على قضايا الأمة الإسلامية، إذ رغبوا إليّ بِالْحاحِ في أَنْ أَكْتُبَ كتاباً جامعاً لأُسُسِ الدَّعوةِ إلى الله والنصح والإرشاد والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، وجامعاً لأصولها ومناهجها ووسائلها وآدابها، استنباطاً من مصادر الشريعة الإسلامية، فاجتهدتُ بمعونةِ من الله وفضلِهِ وفتحِ ومددِ أَنْ أشرح فيه فِقْهَ الدعوةِ إلى الله وصراطه المستقيم، وفِقْهَ التُّصحیحِ والإرشادِ والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، بالتأملِ المباشر، في دلالات النصوص القرآنيّة، والأحاديث والسيرة النبويّة، وتاريخ دُعاة المسلمين وأعلام أئمّتهم، مع ملاحظة موازين الحكمة العقلية والتجريبية، والقواعد والأصول الصحيحة التي توصلتُ إليها التجربات الإنسانية، وسألتُ الله، وبرئتُ إليه من حولي وقوتي، وشرعتُ مُتوكِّلاً عليه.

وقد عمدتُ إلى استخراج الأُصول العامة، والقواعد والوصايا والمناهج والسُّبُل والوسائل والآداب التي تُساعِدُ حامل الرسالة من أتباع محمد ﷺ على أن يتعرّف على ما ينبغي له اتّخاذه في أداء رسالته، حتّى يؤدي وظائفها أداءً رشيداً مفيداً، مُهتدياً فيه بهدي كتاب اللّهِ وسنّة رسوله القوليّة والعملية، ومُتأسِّباً فيه بالراشدين من دُعاة المسلمين في التاريخ، الناصحين المرشدين الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وقد تتبّعتُ التُّصوص القرآنيّة المتعلقة بموضوع هذا الكتاب، فجمعتها، واستشهدتُ بها في مواضعها، مع نظرات تدبريّة مفصّلة إليها،

أخذت حجماً كبيراً من صفحات الكتاب .

واجتهدتُ أن أكون مستقصياً كلَّ النُّصوص التي وجدتها ذات دلالاتٍ نافعاتٍ في موضوع هذا البحث الواسع، ومُتَّصلاتٍ به، ليكون الاستخراج والاستنباطُ أصحَّ وأشملَ وأكثرَ تكاملاً .

وقد اشتمل هذا الكتاب على خمسة أبواب :

● أما الباب الأول : فقد اشتمل على مقدماتٍ عامَّاتٍ مُقسَّماتٍ إلى

ثلاثة فصول :

**الفصل الأول :** تناول بيان وظيفة الأمة الإسلامية في حملها رسالة الرسول محمد ﷺ، في الدعوة إلى الله، وإلى سبيله، وفي النُّصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

**الفصل الثاني :** تناول بيان أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الإصلاح، وحماية المجتمع الإسلامي وصيانته .

**الفصل الثالث :** تناول بيان أصناف النَّاس الذين تُوجَّه لهم وظائف الرسالة .

● وأما الباب الثاني : فقد اشتمل على بيان الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حَمَلَةُ الرسالة، وفيه ستة فصول :

**الفصل الأول :** يتناول بيان وجوب تحلِّي حامل الرسالة بصفة الصَّبْر .

**الفصل الثاني :** يتناول بيان وجوب تجرّد حامل الرسالة عن المصالح الشخصية لدى من يُوجَّه لهم رسالته .

**الفصل الثالث :** يتناول بيان وجوب تحلِّي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه من فضائل .



الفصل الرابع: يتناول بيان وجوب تحلي حامل الرسالة بصفات عباد الرحمن، الذين هم أئمة المتقين.

الفصل الخامس: يتناول بيان الأهلية البيانية لحامل الرسالة.

الفصل السادس: يتناول بيان الأهلية العلمية لحامل الرسالة.

● وأما الباب الثالث: فقد اشتمل على بيان قواعد ووصايا كلية عامة لحملة الرسالة، وبيان طائفة من آفات حملة الرسالة، وفيه فصلان:

الفصل الأول: يتناول بيان القواعد والوصايا الكلية العامة.

الفصل الثاني: يتناول بيان الآفات.

● وأما الباب الرابع: فقد اشتمل على بيان مناهج ومسالك ووسائل الهداية والإصلاح والحماية بالقول والعمل، وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: يتناول بيان التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر.

الفصل الثاني: يتناول بيان العقبات الصادات للتوجيه، وأساليب معالجتها.

الفصل الثالث: يتناول بيان المنهاج البياني ومسالكه: (الحكمة - والموعظة الحسنة - والجدال بالتي هي أحسن).

الفصل الرابع: يتناول بيان وسائل الأداء البياني.

الفصل الخامس: يتناول بيان أدوات التوصيل الإعلامي، ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها.

الفصل السادس: يتناول بيان المنهج الرباني للسياسة الحكيمة الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته.

الفصل السابع: يتناول بيان المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً.

● وأما الباب الخامس: فقد اشتمل على استعراض نماذج تطبيقية من هدي الرُّسُل عليهم السلام، ثم من سار على هديهم، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: صور من سياسة الرُّسُل في أدائهم رسالات ربهم.

الفصل الثاني: نماذج دُعاةٍ من غير الرُّسُل عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتهم لدينه.

الفصل الثالث: نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الفصل الرابع: صورٌ ونماذجٌ عامة.

ومع اهتمامي بالاستخراج والاستنباط المباشرين من نُصوص القرآن والسُنَّة القولية والعملية، فإنني قد نظرتُ في كُلِّ ما وَقَعَ تَحْتَ يَدَيَّ من كُتُبٍ قديمة وحديثة، أُلِّفَتْ في موضوعات هذا الكتاب، وأُفِّدَتْ مِمَّا وَجَدْتُ فِيهَا من مُفيدٍ داخلٍ في الشجرة الفكرية الكلية لموضوعات العِلْمِ الَّذِي تُعَالِجُ بَيَّانَ عَنَاصِرِهِ وَتُشْرِحُهَا بِحُوثٍ هذا الكتاب.

غير أن الخطة العامة الشاملة، التي قَصَدْتُ أن تشتمل عليها الدراسة الاستنباطية التي تصوَّرتُها لهذا العِلْمِ، لم أجدها فيما سبق من مؤلِّفات، ولم أستفِدها من كتابٍ سابق، بل هي ممَّا فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ بِمَنِّهِ وَجُودِهِ وَفَيْضِ عَطَائِهِ، وقد كانت تتوارَدُ عَلَيَّ تَوَارِداً تَكَامُلِيّاً خِلالَ البَحْثِ وَالكِتَابَةِ، ولم تكن جاهزة عندي مُنْذُ البِدَايَةِ.

وأرجو أن أكونَ قَدْ وَفَّقْتُ فِي هَذِهِ الدَّرَاسَةِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هَذَا الْكِتَابُ، لِتَأْسِيسِ عِلْمٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ تَدْوِينٌ يَشْمَلُ كُلَّ عَنَاصِرِ شَجَرَتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، لَكِنْ اشْتَمَلَتْ الْمَكْتُوبَاتُ السَّابِقَاتُ عَلَى مَتَفَرِّقَاتٍ مَتَنَاثِرَاتٍ نَافِعَاتٍ، غَيْرِ مِتْكَامَلَاتٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْقَدِيرَ الْمَنَّانَ، ذَا الْجُودِ وَالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانَ، أَنْ يَنْفَعِ

به المسلمين، وأن يجعله بمثابة بناء تأسيسي قابل للتكميل والإضافة  
والتحسين، من قِبَل الباحثين ذوي الاهتمام المجتهدين في البحث والتنقيب،  
ومن قِبَل الدُّعَاةِ الناصحين المرشدين الغيورين المجريين، حتّى يكون هذا  
العِلْمُ صَرْحاً من صروح العلوم الإسلاميّة الراسخة الرصينة.

وفي ختام هذه المقدمة أهدي جَزِيلَ شكري، وعظيم امتناني، إلى مَنْ  
يُهْدِي إِلَيَّ تَضَوِّباً، أو تَعْدِيلاً، أو إِضَافَةً، أو نُضْحاً.  
وَأخِرُ دَعْوَانَا أن الحمد لله ربّ العالمين، وسلامٌ على عباده الذين  
اضطفئ.

عبد الرحمن حسن جبنة الميداني

أستاذ بجامعة أمّ القرى

في مكة المكرمة

مكة المكرمة في يوم الجمعة

١٨ من شهر محرم لعام ١٤١٦ هجرية

و١٦/٦/١٩٩٥ ميلادية

# البَابُ الأوَّلُ

## مُقَدِّمَاتٌ عَامَّاتٌ

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأوَّلُ: الأمة الإسلامية حَمَلَةُ رِسَالَةِ هِدَايَةِ وَإِصْلَاحِ :

● بالدعوة إلى الإيمان بالله، وإلى سلوك صراطه المستقيم، بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، مع المتابعة بالتذكير إن نفعت الذكرى.

● وبالتصحيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل الثاني: أثرُ التصحيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإصلاح وحماية المجتمع الإسلامي وصيانته.

الفصل الثالث: نظرةُ عامَّةٌ إلى أصناف النَّاسِ الَّذِينَ تُوجَّهُ لَهُمْ وظائفُ الرسالة.



## الفصل الأول

### الأمّة الإسلامية حملة رسالة هداية وإصلاح

● بالدعوة إلى الإيمان بالله، وإلى سلوك صراطه المستقيم، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، مع المتابعة بالتذكير إن نفعت الذكرى.

● وبالتّضح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفيه ثماني مقولات :

المقولة الأولى : تعريفات عامّات .

المقولة الثانية: الدعوة والتبليغ .

المقولة الثالثة: الشهادة يوم الدّين على الدّين تلَقَّوا البلاغ .

المقولة الرابعة: حكم تبليغ دين الله للناس .

المقولة الخامسة: التذكير والتّضح والإرشاد .

المقولة السادسة: وظيفتا الهداية، والإصلاح .

المقولة السابعة: منزلة الدعوة إلى دين الله في سلّم الأولويات الجهاديّة .

المقولة الثامنة: أقسام الدّعاة الهداة، والمُصلِحين الحُماة .



## المقولة الأولى

### تعريفات عامات

للدعوة، والتبليغ، والتذكير، والنُّصْح، والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

### ١ - الدَّعوة:

الدَّعوة إلى الشيء أو الأمر لُغَةً: هي الطلبُ بشدَّةٍ وحثٍّ إلى الاستجابة لما تكون الدعوة إليه، أخذاً أو تركاً، من اعتقاد أو قولٍ أو عملٍ.

ومما ينطبق عليه هذا التعريف اللغوي ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... ﴾

وتكون دعوة القريب بنداءٍ منخفضٍ مُسمع، وتكون دعوة البعيد حسياً أو معنوياً بنداءٍ عالٍ وصياح.

وتكونُ الدَّعوة بالمقال ملفوظاً، وقد تكون بالكلام مكتوباً، وقد تكون الدَّعوة بالحال عن طريق عَرْضِ النموذج لتقليده والاقتراء به، وقد تكون بوسائلٍ مُباشرة وبوسائلٍ غير مباشرة، وقد تكون بوسائلٍ إغرائية أو تحذيرية مثيرة لدوافع النفوس ورغباتها في الإقبال أو النفور.



وإطلاقُ عنوان الدعوة على ما يتضمّن معناها بغير الكلام إطلاقٌ مجازيٌّ على سبيل المجاز المرسل، وهو من إطلاق اللفظ على أيّ دليل آخر يؤدّي معناه.

ومن هذا التعريف العامّ للدعوة نستطيع أن نستخلص تعريفاً منضبطاً للدعوة إلى الإسلام.

فالدعوة إلى الإسلام: هي الطلب بشدّةٍ وحثّ على الدخول في دين الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

وعِلْمُ الدَّعْوَةِ إلى الإسلام: هو العِلْمُ الذي تُعْرَفُ به مناهجُ ومسالكُ ووسائلُ وأدابُ الدَّعْوَةِ إلى الدخول في دين الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

والأضلُّ في الدَّعْوَةِ إلى الإسلام أن تكون لغير المسلمين، وقد تكون لبعض المسلمين حينما يكون حالُهُمْ مثَل حال غير المسلمين.

## ٢ - التبليغ:

يُقَالُ لغةً: بَلَغَ الرجلُ الشَّيْءَ تَبْلِيغاً إلى كذا، وأَبْلَغُهُ إبْلَاحاً وبِلاغاً إلى كذا، إذا أوصله إليه.

وعليه نقول: بَلَغَ أو أَبْلَغَ الدَّاعِي إلى الله نُصُوصَ الدِّينِ وبياناته وتعليماته أو شيئاً منها إلى الناس تبليغاً وإبلاغاً وبلاغاً إذا أوصلها إليهم، قولاً مسموعاً، أو كلاماً مكتوباً.

فَتَبْلِيغُ نُصُوصِ الدِّينِ وبياناته وتعليماته، تبليغاً يُوصِلُ المعاني إلى فَهْمِ المُبْلَغِينَ فَهْمًا صَحِيحًا وافيًا، أَوَّلُ واجباتِ حملةِ رسالةِ الدَّعْوَةِ إلى الله، وإلى صِراطِهِ المستقيم، مع دَعْوَتِهِمْ إِيَّاهُمْ إلى الدخول في دين الإسلام، وإشعارِهِمْ بأنَّهُمْ بَعْدَ البلاغِ يحملون هُمْ مسؤولياتِهِمْ تُجَاهَ رَبِّهِمْ، وعليهم أَنْ

يتحمّلوا نتائج ما يختارون هم لأنفسهم من استجابة وطاعة، أو رفض ومعصية.

فإذا استجابوا فعليهم أن يتعلّموا أحكام الإسلام وشرائعها ومطلوبات الله منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وأن يضعوا أنفسهم مستسلمين لوسائل التربية والتأديب والتزكية التي يوجهها لهم الدعاة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، المؤهلون لحمل هذه الرسالة الربانية العظيمة.

### ٣ - التذكير:

التذكير هو إعادة ما سبق تليغته وبيانه وشرحه، ليذكّره من كان قد تبلّغه حتى مُستوى الفهم الصحيح الوافي، بأن يجعله حاضراً في ذاكرته، ويستخرجه من مطويات نفسه، رجاء أن ينتفع به اعتقاداً، أو قولاً، أو عملاً ظاهراً أو باطناً.

يقال لغة: ذَكَرَ الشَّيْءَ ذِكْرًا وَذُكِرَ وَذَكَرْتُ وَتَذَكَّرْتُ، إذا استحضره في ذاكرته، من محفوظاته السابقات، واستخرجه من المَطْوِيَّاتِ في نفسه.

فالتذكُّرُ والتذكُّرُ والتذكُّرُ والتذكُّرُ ضدُّ الطِّيِّ في النَّفْسِ بعيداً عن ساحة الحضور الآني في الذاكرة، وضدُّ النسيانِ الكليِّ إهمالاً وتزكاً، أو عجزاً عن حفظه في مَطْوِيَّاتِ النفس ومحفوظاتها.

والتذكُّرُ: ما يَحْضُرُ به تَذَكُّرُ الشَّيْءِ، حَتَّى لَا يَطْوِيَهُ أَوْ يَسْتَبْعِدَهُ النسيانُ عن الحفظ. ومن هذا أُطْلِقَ على الْقُرْآنِ وآياته، وسائر النصوص الدينية المدوّنة المطلوب حفظها لفظ «تذكُّر» لأنّ تلاوتها وإعادة قراءتها تُذَكِّرُ بمفاهيم الدين وتعليماته وأحكامه وشرائعه، وسائر مطلوبات الله من عباده.

قال الله عزّ وجل بشأن القرآن في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤

نزول):

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴾ (٤٩)

وقال أيضاً بشأنه في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ .

أي: ما أنزلنا عليك القرآن إلا ليكون تذكرة لمن يخشى.

وقال أيضاً بشأنه في سورة (الحاقة/ ٦٩/ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٨)

لمن يكون التذكير؟:

ويكون التذكير لمن تَبَلَّغَ سابقاً، ممن لم يستجب للإسلام، أو ممن استجاب له، وهو بحاجة إلى استذكار ما عَلِمَ سابقاً من نصوصه وتعليماته وشرائعه وأحكامه ووصاياه.

٤ - النصح:

نُصِحَ الإنسان للإنسان بالبيان، أن يَدُلَّهُ على ما هو خير له، وَيُرَغِّبُهُ فيه، وَيَحْتَنِ عليه، وَيُبَيِّنَ له ما يُحِبُّ من عاقبة حسنة، إذا أخذ بما نصحه به، وما يكره من عاقبة سيئة إذا لم يستجب لنصحه، بشرط أن يكون هذا البيان خالياً من الغش والخديعة والتوريط فيما لا خير فيه.

فالنصيحة: هي المقالة الهادية إلى خير المنصوح، الخالية الخالصة من دَخَلٍ وِغْشٍ له.

وأصلُ النصح الخُلُوصُ من الشوائب، يقال: نَصَحَ المَعْدِنُ كالذهب إذا خلص من الشوائب المخالفة لجوهره.

وتوجُّه النصيحة لكل من يُدْرِكُهَا وَيُمْكِنُ أن ينتفع بها، ولو كان كافراً رافضاً الاستجابة للدعوة إلى الإيمان والإسلام، فالنصيحة تكون لغير

المسلمين، بدعوتهم إلى الدخول في الإسلام، وتكون للمسلمين بحتمهم على التزام صراط الله المستقيم، وأداء واجبات الإسلام، واجتناب محرماته، والعمل بما رغب يفعله، وترك العمل بما رغب بتركه.

ومن شواهد استعمال النصيحة في هداية غير المسلمين، قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول) حكاية لما قال نوح لقومه:

﴿ قَالَ يَتَقَوُّوا لِيَسْ بِي ضَلَالَةً وَلِيَكُنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ مِيسِرَةٌ رَّبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

وكذلك ما جاء فيها بشأن صالح وشعيب عليهما السلام.

ولما كانت النصيحة شاملة عامة، جاء في الحديث الصحيح قول الرسول ﷺ: «الدين النصيحة».

روى مسلم عن تميم بن أوس الداري، أن النبي ﷺ قال:

«الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة».

قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال:

«لله، وليكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم».

وكان الرسول ﷺ يتابع أصحابه على النصح لكل مسلم.

روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله، قال: «بأيعت النبي ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم».

وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وُلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ».

## ٥ - الإرشاد:

الإرشاد في اللغة: الهداية، يقال لغة: أرشده إلى الأمر إرشاداً، ورشده تزييداً، أي: هداه إليه.

وإرشاد الضال: هدايته الطريق، وتعريفه به.

الرُّشْدُ والرَّشْدُ والرَّشَادُ: هو السُّلُوكُ الفكري والنفسِي والخُلُقِي والعمليُّ الموافق للحق والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن والأكثرُ نفعاً، والأبعدُ عن الضرر.

ويقال لغة: رَشَدَ يَزُشِدُ فهو رَشِيدٌ، ورَشِدَ يَرِشِدُ رَشِداً ورَشاداً فهو رَشِيدٌ، إذا اهتدى إلى الحق والصواب، أو لما هو الأَحْسَنُ والأفضل.

## ٦ - الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف لغة: هو المَعْلُوم، يقال لغة: عَرَفَ الشَّيْءَ يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً وَعِرْفَاناً، إذا عَلِمَهُ.

ويقال: عَرَفَهُ الأَمْرَ، إذا عَلِمَهُ إِيَّاهُ، وَعَرَفَهُ بَيْنَهُ إذا عَلِمَهُ بمكانه.

فالأَمْرُ المَعْرُوفُ هُوَ الأَمْرُ المَعْلُومُ، والمَعْرُوفُ ضِدُّ المُنْكَرِ بمعنى المجهول.

ويُطْلَقُ المَعْرُوفُ والعَرَفُ عَلَى الجُودِ والإِحْسَانِ، يُقَالُ: فُلَانٌ صَاحِبُ مَعْرُوفٍ أَوْ عُرْفٍ، أَي: جَوَادٌ مُحْسِنٌ.

ويُطْلَقُ المَعْرُوفُ لغةً عَلَى ما يُسْتَحْسَنُ مِنَ الأفعالِ.

أما المعروف في الاصطلاح الإسلامي: فهو يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ ما أَمَرَ الشارِعُ بفعله إلزاماً أو ترغيباً، فهو كُلُّ ما يُسْتَحْسَنُ فِعْلُهُ فِي الإسلامِ، وَيَدْخُلُ فيما هو مُسْتَحْسَنٌ فِي الإسلامِ كُلُّ ما هو حَسَنٌ فِي العقولِ السليمةِ الصحيحةِ الرّشيدةِ.

وأما المنكر في الاصطلاح الإسلامي: فهو يُطلقُ على كُلِّ مَا نَهَى الشَّارِعُ عَنْ فِعْلِهِ نَهْيًا إلزاميًا تحريميًا، فهو كلُّ مُسْتَقْبَحٍ في الإسلام، ويدخُلُ فيما هو مستقبَحٌ في الإسلام ما هو قبيحٌ في العقول السليمة الصحيحة الرشيدة.

ولا يدخُلُ في المنكر ما يُسْتَحْسَنُ تَرْكُهُ وَلَا يَنْبَغِي إنكاره، بل يقال فيه: من المعروف تركه، لأنَّ الشارع أمر بتَرْكِهِ ترغيبًا لا إلزامًا.

ولا يَعْرِفُ مفرداتِ المعروفِ ومفرداتِ المنكرِ في الاصطلاح الإسلامي إلاَّ مُسْلِمٌ تَعَلَّمَ أحكامَ الإسلامِ وشرائعَهُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ مُطَالِبٌ شرعاً بتطبيقها، واتباع ما جاء فيها، فهو الذي يُوجِبُهُ له الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكر وفق الاصطلاح الإسلامي.

وعلى هذا فلا يُوجِبُهُ الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكر وفق الاصطلاح الإسلامي إلاَّ لمن أسلم، وتعلَّم أحكام الإسلام وشرائعَهُ، فعَرَفَ المعروفَ وَعَرَفَ المنكرَ في اصطلاحِهِ.

ويُمْكِنُ توجيهُ الأمرِ بالعُزْفِ وبالمعروفِ لغير المسلمين بمعنى الجود والإحسان للناس، وبمعنى ما يُسْتَحْسَنُ من الأفعالِ في أعرافِ الناسِ بوجهٍ عامٍّ، لأنَّ هذه الأمور لا تَخْتَصُّ بمن أسلمَ والتزمَ العملَ بأحكام الإسلام، بل تُعَمُّ الناسَ جميعاً، ويُدْرِكُهَا الناسُ جميعاً بمفاهيمِهِمُ العامَّة، بشرط أن يكونَ مَا يُوجِبُهُ لَهُ مِمَّا هو مُسْتَحْسَنٌ مَأْمُورٌ بِهِ في الإسلام.

ويُمْكِنُ نَهْيُ غير المسلمين عن المنكر من الأفعال في أعرافِ الناسِ إذا كان مِمَّا هو قبيحٌ منهيٌّ عنه في الإسلام.

\* \* \*

## المقولة الثانية

### الدعوة والتبليغ

١ - مرت البشرية في مراحل كثيرة منذ نشأتها، وكانت ترتقي قرناً بعد قرن في معارج الفكر والعلم والخلق، وفي مختلف الظواهر الحضارية، والعلاقات الإنسانية الاجتماعية السلمية والحزبية، الأسرية والقبلية والقومية والشعوبية بوجه عام، وتتشابك فيها العلاقات الاقتصادية والسياسية والإدارية والحقوقية على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصنافها.

٢ - وكان الله عز وجل يصطفى منهم أنبياءً لوحيه، ويُرسل منهم إليهم رُسلاً بحسب مقتضى حاجة الأمم والشعوب والأقوام المتباعدة التي ليس بينها خطوط مواصلات، وكان يُنزل على الرسل كتباً ليبلغوها من أرسلوا إليهم، وليبلغوهم معها رسالات ربهم الأخرى التي يأمرهم بتبليغها ولو لم يُنزل بيانها في كتبه، وليقوم الذين آمنوا بالرسل بتعلم ودراسة رسالات ربهم، والمحافظة عليها، واتباع ما جاء فيها، والعمل بما أوجب الله عمله، واجتناب ما نهى الله عنه نهياً جازماً، ولتكون رسالات الله في ذكرات أهل الذكر منهم للتذكير بها عند المناسبات الداعيات، فوجود أهل الذكر فيهم على مقادير الحاجات من فروض الكفاية.

وكان على الذين آمنوا برسل ربهم أن يقوموا بدعوة أقوامهم إلى دين

رَبِّهِمْ، وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ، عَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ دَعْوَةِ بَعْلِمَ وَحِكْمَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، وَمَجَادَلَةٍ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ، أَوْ مَنَاصِرَةٍ وَتَأْيِيدٍ لِلرَّسُولِ، أَوْ لِلدُّعَاةِ مِنْ أُمَّتِهِ.

٣ - وَكَانَ الرُّسُلُ يَخْتَارُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ مَنْ يَرَوْنَهُمْ مُؤَهَّلِينَ لِحَمْلِ الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيُكَلِّفُونَهُمُ الْقِيَامَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، مَعَ تَكْلِيفِ جَمِيعِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ بِمَنَاصِرَةِ دِينِ اللَّهِ وَمَنَاصِرَةِ رَسُولِهِ، وَمَنَاصِرَةِ الدُّعَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يَدْعُوا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مِقْدَارِ عِلْمِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ.

فَكَانَ مِنْ خَاصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يُوشَعَ بْنِ نُونٍ» وَ«كَالِبُ بْنُ يَفْنَةَ» وَ«الْعَازَّارُ الْكَاهَنُ بْنُ هَارُونَ» وَغَيْرِهِمْ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ بَقِيَّةُ السَّبْعِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلِقَاءِ الْاِعْتِذَارِ، فَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُؤَهَّلِينَ لِلْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَكَانَ مِنْ خَاصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ الْخَوَارِثُونَ، ثُمَّ الرُّسُلُ السَّبْعُونَ الَّذِينَ كَلَّفَهُمْ أَنْ يَكُونُوا دُعَاةً إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَأَنْ يَنْشُرُوهُ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ فَعَلُوا، وَبِهِمْ انْتَشَرَ دِينُ اللَّهِ فِي مَسَاحَاتٍ وَاسِعَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَفِي أُمَّمٍ كَثِيرَةٍ مَخْتَلِفَةِ الْأَعْرَاقِ وَالْأَقْوَامِ.

٤ - لَكِنَّ الْأُمَّمَ السَّابِقَةَ لَمْ تَكُنْ بِحَسَبِ أَوْضَاعِهَا الْفِكْرِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مُؤَهَّلَةً لِحَفْظِ كِتَابِ اللَّهِ وَحِفْظِ دِينِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، وَلَا أَمِينَةً عَلَيْهِ، وَلَا قَائِمَةً بِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ صَافِيًا مِنَ الشَّوَابِغِ وَالتَّحْرِيفَاتِ وَالمَفَاهِيمِ وَالْأَحْكَامِ وَالعِبَادَاتِ الدَّخِيلَةِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَضْطَفِهَا اللَّهُ لِتَكُونَ وَارِثَةً لِكِتَابِهِ الْخَاتَمِ، وَلَا أَمِينَةً عَلَى نَشْرِ رِسَالَتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ بِالتَّبَاعِ وَالتَّكَامُلِ حَتَّى دَرَجَةِ التَّمَامِ.

٥ - وَلَمَّا وَصَلَتْ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى مَرِحَلَةٍ مِنَ الْاِرْتِقَاءِ الْفِكْرِيِّ وَالْعِلْمِيِّ



والتَّفْسِيّ والحضاري، وإمكاناتِ التّواصلِ بين الشعوب، صالحةٌ لأنّ تتقبَّلَ رسالةً عامّةً واحدةً، كانَ من حكمةِ الله عزَّ وجلَّ أنْ يصطفي للناسِ جميعاً رسالتهُ الخاتِمةَ، والكتابَ الخاتمَ، والرَّسولَ الخاتمَ، والأُمَّةَ الخاتمةَ.

● فاصطفى الله للناس جميعاً الذين كاملاً تامّاً، وأتمَّ به نِعْمَتَه على عباده، وجعله الذين الخاتم، وجعل رسالته فيه الرِّسالة الخاتمة.

● واصطفى لهم القرآن كتاباً هو آيةٌ أنّه كتاب الله لا كتابٌ من بشر، بما فيه من وجوه إعجازٍ تجعل أولي الألباب يؤمنون بأنّه تنزيل العزيز الحميد، وجعله هو الكتاب الرِّباني الخاتم.

● واصطفى مِنَ النَّاسِ لتلقّي الوحي بهذا الذين الخاتم محمدَ بْنَ عبد الله ﷺ من عرب قريش، الذين هم من سلالة إسماعيل بن إبراهيم<sup>(١)</sup> عليهما السلام من زوجته هاجر المصرية، التي أهداها فرعون مصر إلى زوجته سارة، التي استمرت عقيماً حتى كَبُرَتْ سِنُهَا، فأهدتها إلى زوجها إبراهيم، فولدت له إسماعيل عليه السلام، وأمره الله بأن يسكنهما في مَكَّةَ عند بيته المحزّم، إذ كانت وادياً غير ذي زرع ولا ماء ولا ساكنين، ثم أصلح الله لإبراهيم زوجته سارة، فولدت له إسحق عليه السلام، وكان من ذرّيته أنبياءُ ورُسُلُ بني إسرائيل.

● واصطفى الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمد ﷺ جمهوراً من الصادقين الأطهار المجاهدين الذين آمنوا به واتبَعُوهُ مِنْ قومه وَبَعْضِ غَيْرِ قومه، فكانوا أصحابه وأنصاره، فحملوا رسالته عامِلِينَ بها، وداعين إليها، وناشرين لها، ومجاهدين في سبيل الله حقَّ جهاده، مُعْلِنين كلمته، وحَافِظِينَ لكتابه، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ.

(١) إبراهيم عليه السلام عراقي المولد والنشأة، شامي المُهَاجِر، نائر ذرّيته في الشام والحجاز وسيناء.

● واصطفى الله عز وجل لحفظ كتابه وسُنَّةِ رسوله، ولنشر هذا الدين في الناس أجمعين أُمَّةَ الإِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ، فَأُورِثَهُمُ الْكِتَابَ، وَحَمَلَهُمْ وَظِيْفَةَ تَبْلِيغِ هَذَا الدِّينِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ طَائِفَةً ظَاهِرَةً عَلَى الْحَقِّ، تُمَسِّكُ بِالْكِتَابِ، وَتَدْعُو إِلَى هَذَا الدِّينِ بِصِدْقٍ، وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ لَا تَزَالُ تَتَجَدَّدُ وَتَتَوَارَثُ حَمْلَ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ خَلْفًا عَنْ سَلْفٍ حَتَّى انْتِهَاءِ مَدَّةِ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ونظراً إلى فضل الدَّعوة إلى الله وهداية الخلق إلى الحق قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر فيما رواه البخاري ومسلم - من حديث طويل :-

« . . . فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ »<sup>(١)</sup>.

وأمة الإجابة هذه هم كل من آمن بهذا الدين الخاتم، من كل شعوب الأرض، ويبرز منهم مُرْتَفِعاً أئمة المتقين، الموصوفون بأنهم عباد الرحمن، فيتسلَّم رَايَةَ الدَّعوة إلى دين الله خلفاً عن سلفٍ، حَتَّى تَنْتَهِيَ ظُرُوفُ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فالأمة الإسلامية هي الأمة الوارثة لكتاب الله الخاتم، وقد أدَّت وظيفتها بحفظه والحمد لله، وبحفظ سنَّة رسوله ﷺ.

وقام السابقون بتأدية وظيفة تبليغ الإسلام ونشره في الأرض، مع تقصيراتٍ في بعض القرون، مَسَّهُمْ بِسَبَبِهَا ظُلْمٌ وَعَدْوَانٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ، وَبَعْضُ دُلٍّ وَهَوَانٍ.

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة (٩ باب مناقب علي). مسلم: (فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه).

وعلى كل جيلٍ من هذه الأمة أن يقوم بوظيفة تبليغ الإسلام ونشره في الأرض، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل جماعات المسلمين، لصيانتهم وحمايتهم عن انتشار الفساد فيهم، الذي يقذف بهم في أودية الضلال والغيِّ فالمهالك .

وفيما يلي طائفة من النصوص الكاشفة لعناصر هذه الفقرة الأخيرة:

### النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله بشأن القرآن، فيبينا لوارثيه المصطفين من أمة الإجابة:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ .

فالأمة الإسلامية الخاتمة هي الأمة التي اصطفاهَا الله عز وجل بحكمته لورثته كتابه الخاتم القرآن، إذ علم تبارك وتعالى أنها مؤهلة لحفظ هذا الكتاب، ونشره في الناس، على الرغم من وجود قسم منهم هو ظالم لنفسه بالمعاصي والمخالفات على اختلاف دركاتها من دون الشرك بالله، وأما القسم الثاني منهم فهو مقتصدٌ يكتفي بحدود التقوى، فلا يترك الفرائض والواجبات، ولا يرتكب المحرمات، وأما القسم الثالث الذي جعل هذه الأمة بمجموعها أهلاً لهذا الاصطفاء الرباني، فهم السابقون بالخيرات بإذن الله، الذين يتوسعون في مرتبة البرِّ بفعل الصالحات من غير الواجبات، وترك ما دون المحرمات من المكروهات ونحوها، ويتوسعون في مرتبة الإحسان كما وكيفاً، فيعبُدون الله كأنهم يرونه، ويضربون ويصابرون، ويجاهدون في الله حقَّ جهاده.

ولمَّا كَانَ قَضَاءُ اللَّهِ بِتَوْرِيثِ الْأُمَّةِ الْمَحْمُودِيَةِ الْكِتَابَ قَضَاءً مُبْرَمًا

حَكِيمًا، مستنداً إلى عِلْمِهِ بما ستكون عليه هذه الأمة، حَسَنَ التعبيرِ عَنْهُ  
 بالفعل الماضي المعطوفِ بحرف العطفِ «ثُمَّ» الَّذِي يُشِيرُ إِلَى حَدَثٍ  
 سَيَحْصُلُ، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ مع أن هذا التورث  
 لم يحصل بَعْدُ، لأنَّ رسول الله يومئذٍ ما زال حيًّا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الكتاب، ولم  
 يَنْزِلْ عَلَيْهِ مِنْهُ إِلَّا بَعْضُهُ، فسورة (فاطر) من أواسط التنزيل المَكِّيِّ، لكنَّ  
 قضاء الله السابِقَ لَهُ حُكْمُ الأَمْرِ النافذِ الَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِلاغِيًّا بالفعل  
 الماضي، إشارةً إلى أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يتحقَّقَ حتمًا، فَهُوَ أَمْرٌ واقعٌ لا محالة.

### النص الثاني:

لقد عَلِمَ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ أُمَّةَ الإجابة لدعوة الرسول مُحَمَّدٍ ﷺ من  
 مختلف شُعُوبِ الأَرْضِ، وفي مقدِّمتهم المؤمنون المسلمون من الأُمَّة  
 العربيَّة، هي خَيْرُ أُمَّةٍ أخرجها بالتكليف للقيام بنشر رسالته، والدَّعوة إلى دينه  
 الخاتم، وتبليغ كتابه، وإعلاء كلمته، فحَمَلَهَا وَظيفة الدعوة إلى دين الله،  
 والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وَأَثْنَى عَلَيْهَا بِالْأخِيرِيَّةِ على سائر الأمم  
 السابقة لها، فقال تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) مخاطباً  
 الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وبما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ  
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ  
 عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾﴾.

فحَمَلَ اللَّهُ هذه الأُمَّةَ واجب الدَّعوة إلى الخير، نظراً إلى أَنَّ هَذَا الدِّينَ  
 قد اشتملَ على الخَيْرِ الَّذِي تُذَرِّكُهُ العقولُ السَّليمة، وتَشْعُرُ بِهِ النَّفُوسُ  
 والوَجْدَانَاتُ الَّتِي لم تَفْسُدْ فِطْرَهَا الَّتِي فَطَّرَهَا اللهُ عَلَيْهَا، وَحَمَلَهَا أيضاً واجب  
 الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دَاخِلَ جماعات المسلمين الَّذِينَ عَرَفُوا  
 أوامر الدِّينِ وعرفوا حُسْنَهَا، فهي عندهم تندرج تحت عنوان «المعروف»

وعرفوا نواهي الدين وعرفوا قُبْحَهَا، فهي عندهم تندرج تحت عنوان «المنكر».

فإذا قام بهذا الواجب فريقٌ مِنْهُمْ كان على سائر المسلمين أن يُظَاهِرُوهُمْ وَيُمِذُّوهُمْ بما يحتاجون إليه إذا احتاجوا مدداً، كشأن سائر فروع الكفاية التي فرضها الله على عامة المسلمين، وإذا لم يَقُمْ بهذا الواجب فريقٌ منهم يكفي لتبليغ الناس دين الله، ولحماية المجتمع الإسلامي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الانحراف الخطير، كانوا جميعاً آثمين.

عَلَى أَنْ كُلَّ قَادِرٍ عَلَى الدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر مكلفٌ أَنْ يُؤَدِّيَ من هذا الواجب في حُدُودِ مَجَالَاتِ عَمَلِهِ بدءاً من أُسْرَتِهِ فأصحابه فِرْفَاقِ عَمَلِهِ فمن يَتَسَرَّرَ لَهُ أَنْ يدعوه إلى الدين، أو يَنْصَحَهُ أو يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (آل عمران) أيضاً بعد بضع آياتٍ من النص السابق مخاطباً هذه الأمة ومثنياً عليها:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: أي: أنتم خير أمةٍ حُمِلَتْ وظيفَةُ الخروجِ لتبليغِ الناسِ دينِ الله لهم، وهذه الأخيرة قد عَلِمَهَا الله فيكم قبل أن يُخرجكم لأنَّ عِلْمَهُ يشملُ ما كان وما هو كائنٌ وما سيكون، فأنتي عليكم بها.

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: أي: أمرت بالخروج للناس لتبليغ دين الله.

وسبب بقاء هذه الأخيرة فيكم إلى أن تقوم الساعة أنكم ستظلون داخل

مجتمعكم الإسلامي تأمرونَ بالمعروف وتنهونَ عن المنكر، فتخمونَ مجتمعكم بهذا من الانحراف الخطير والانهيار إلى الحضيض الذي بلغتْهُ الأمم قبلكم، وأنكم ستظنونَ تؤمنون بالله مهما اشتدَّت عليكم النكباتُ من الأمم الأخرى بغيّة إخراجكم من الإيمان إلى الكفر.

ولو آمنَ أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى بهذا الدين لكان خيراً لهم، ولدخلوا معكم في هذه الأخيرة، لكنَّ القليلَ منهم الذين استجابوا لدعوة هذا الدين فآمنوا، أمّا أكثرهم فلم يؤمنوا إذ منعهم فسقهم من الإيمان حتى لا يلتزموا بشرائع الإسلام وأحكامه، فيمتنعوا عما هم فيه من فسقٍ وعصيانٍ وكبائرٍ فاجرة.

فالأمة الإسلامية مسؤولة عن تبليغ دين الله الخاتم للناس أجمعين، بمختلف وسائل التبليغ الحكيمة المؤثرة، التي أرشد الله إليها في كتابه، أو أبانها الرسول في سنته، أو توصل إليها الناس بتجاربهم وخبراتهم في حقول الدعوة، والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لهذه الأمة الإسلامية المحمدية بالنظر إلى مجموعها لا إلى كل فرد منها:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴾

أُمَّةً وَسَطًا: أي: أُمَّة ذات عدالة، وهذه العدالة التي جعلها الله عز وجل لهذه الأمة هي التي جعلتها مؤهلة لتقديم شهادتها يوم الدين، وقبول هذه الشهادة منها.

فالوظيفة الأولى للأمة الإسلامية المحمدية بالنسبة إلى غيرها من

شعوب الأرض هي تبليغ دين الله، على ما أنزله الله وبلغه رسوله، وتعليم كتاب الله وسنة رسوله.

#### النص الخامس:

روى البخاري ومسلم عن المغيرة أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

وروى مسلم والترمذي وغيرهما عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

وروى البخاري ومسلم والإمام أحمد عن معاوية، أن النبي ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

هذه الروايات وأشباؤها أبانت أن أختيرية هذه الأمة الخاتمة قد اكتسبتها بسبب وجود طائفة منها في كل جيل تكون ظاهرة ظهور بيان ودعوة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فتؤدي على مقدار استطاعتها ما أوجب الله على هذه الأمة من تبليغ دينه، ودعوة الناس إليه، وتقوم في داخل جماعات المسلمين بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الطائفة لا يضرها من خالفها أو خدَلها فيصرفها عن القيام بهذه الوظيفة العظيمة التي حملها الله الأمة الإسلامية المحمدية.

#### النص السادس:

جاء في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع قوله:

«أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ».

فَحَمَّلَ الْحَاضِرِينَ وَاجِبَ تَبْلِيغِ الْغَائِبِينَ، وَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا تَسَلُّلُ وَظِيْفَةُ التَّبْلِيغِ، فَكُلُّ مَنْ تَبَلَّغَ مِنْ دِينِ اللَّهِ شَيْئاً فَعَلَيْهِ أَنْ يُبَلِّغَهُ.

النص السابع:

رَوَى الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا، وَوَعَاَهَا، وَأَدَاَهَا، فَزَبَّ حَامِلٍ فِقْهِ غَيْرُ فِقْهِهِ، وَزَبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ...». وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ.

فَحَثَّ الرَّسُولُ ﷺ بِهَذَا كُلَّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ يَسْمَعُ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئاً عَلَى أَنْ يَحْفَظَهُ، وَيُعِيَهُ، وَيُؤَدِّيَهُ بِلَاغاً إِلَى غَيْرِهِ، لِيَعْمَ فِي النَّاسِ عِلْمُ هَذَا الدِّينِ.

وَأَبَانَ الرَّسُولُ أَنَّ سَامِعَ الْقَوْلِ قَدْ لَا يَكُونُ قَادِراً عَلَى أَنْ يَفْقَهُ مَعْنَاهُ فِقْهًا عَمِيقًا، فَإِذَا بَلَغَهُ كَمَا سَمِعَهُ فَقَدْ يَتَلَقَّاهُ مِنْهُ مَنْ هُوَ أَقْدَرُ عَلَى فَهْمِهِ فَهَمًّا عَمِيقًا وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْهُ.

النص الثامن:

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْآثَامِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»<sup>(١)</sup>.

فَأَبَانَ هَذَا الْحَدِيثَ فَضَّلَ مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، وَأَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَظَاهِرٌ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيْمَنْ تَبِعَهُ مِنْ اسْتِفَادٍ مِنْ دَعْوَتِهِ وَلَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ إِلَى آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ.

وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) مسلم: «كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة... دعا إلى هدى».



«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»<sup>(١)</sup>.

والعلم الذي يُنتفع به يدخل في عموم الدعوة إلى هدى، والمدون المقروء منه الذي تتوارثه الأجيال بالانتفاع به أكثر دواماً، وأبقى بين الناس، ولا سيما طلاب العلم الذين يقرؤون الكتب الإسلامية الداعية إلى هدى.

### النص التاسع:

ولما كانت وظيفة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخل ضمن المسؤولية الفردية تجاه الآخرين، كانت هذه الوظيفة داخلة في عموم الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

\* \* \*

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وزياداته» ح ٧٩٣.

## المقولة الثالثة

### الشهادة يوم الدين على الذين تلقوا البلاغ

إن وظيفة التبليغ تستلزم شهادة المبلِّغ يوم الدين على مَنْ تلقَّوا بلاغَهُ، بكلِّ ما بلَّغهم إياه من الدين، ولم يستجيبوا له، ويكون ذلك حين يُخضِرُ الله الناسَ يوم الدين ليحاسبهم ويقضي لهم أو عليهم بما قدَّموا في الحياة الدنيا حياة الابتلاء، من إيمانٍ أو كفر، أو عمل صالحٍ أو عمل سيِّئٍ، وبما أَخْرُوا فلم يعملوا من واجبات.

ومن حكمة الله عزَّ وجلَّ أَنَّهُ جعلَ محكمة العدل التي يُقيَّمُها لعباده يومَ الدين مستجمعةً كلَّ الشروط التي تقتضيها محاكم العدل بين العباد.

ومن هذه الشروط سؤال من يُخضِرُ لمحكمة العدل الربَّانية، وتسليمه كتابَ أعماله التي عملها في الحياة الدنيا مطابقةً تامَّةً لما كان منه، وعرضُ صحفِ كتابِ أعمالِهِ عليه، وإشهادُ الشهودِ عليه من الملائكة الذين كانوا يرصدون أعمال العباد ويدوِّنونها، وإشهادُ جوارح الإنسان عليه إذا جحد ما نُسِبَ إليه بلسانه المعبَّر عما يُريد التعبير عنه.

فإذا ادَّعى أَنَّهُ لم يتلقَّ بلاغاً عن الله بما هو مطلوبٌ منه في الحياة الدنيا إيماناً وعملاً أَخضَرَ اللهُ الَّذِينَ تَلَقَّوْا عَنْهُمْ الْبَلَاغَ فَشَهِدُوا عَلَيْهِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوهُ، وفي مقدِّمة هؤلاء الشهودِ المُرسَلونَ وَالتَّيُّونَ الَّذِينَ بَلَّغُوا أَقْوَامَهُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ

عز وجل وأمر بتبليغه، ويأتي بعدهم الدعاة إلى دين الله، الذين بلغوا أقوامهم عن الرُّسل ما تلقَّوه مِنْهُمْ، من كتابٍ مُنزلٍ أو سُنَّةٍ مبيَّنةٍ لشرائع الله وأحكامه ووصاياه.

ويأتي في خاتمة الأمم الرُّسولُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فيشهدُ على من عاصره وسَمِعَ منه، بأنَّه قد بلغهم ما أمره الله عز وجل بتبليغه للناس.

ويأتي الدعاة من أُمَّة الرُّسول الخاتم فيشهدون على الناس بما بلغوهم من دين الله الذي أنزله على خاتم رُسُلِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، في حدود ما بلغوهم منه.

وبيان هذه الشهادة في النصوص القرآنية يستلزم أنهم مكلفون أن يُبلِّغُوا، فإذا لم يفعلوا كانوا غير قائمين بما أوجب الله عليهم من تبليغ، ويكون للذين لم يتبلَّغُوا دين الله من مختلف الأمم والشعوب بعد بعثة مُحَمَّدٍ ﷺ عذْرٌ بأنَّ أتباعه لم يُبلِّغُوهم، وحينئذ يُحاسبُ اللهُ عز وجل المقصِّرين بواجب البلاغ.

ومن أجل تحقيق هذا البلاغ شرع الله عز وجل الجهاد في سبيله، بدءاً من جهاد إصلاح النفس، فالدعوة اللسانية حينما تيسر هذه الدعوة، فبذل المال والنفس في خدمة الدعوة اللسانية، فعرض الدعوة الدينية على حكام الأمم والشعوب وذوي سلطانها بالتدرج الحكيم، فمواجهتهم بهذه الدعوة مدعومة بالقوة القتالية المسلحة بالأسلحة العسكرية، فالقتال الفعلي عند استيفاء شروطه إذا لم تحصل الاستجابة للدعوة، ويشارك في هذا الجهاد كلُّ مُسلمٍ ومُسلمةٍ بما يستطيع مما يلائم فطرته من مشاركة بالنفس أو بالمال، أو بالعلم والرأي والفكر والخطط، وأدائها المشاركة بالدعاء والذكر والمشاعر النفسية.

والغرض الأعظم من الجهاد بالقتال إزاحة العقبات البشرية من طريق

الدَّعْوَةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَتَبْلِيغُ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ لِلنَّاسِ، وَتَأْمِينُ تَوْصِيلِ الدَّعْوَةِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى جَمَاهِيرِ الشُّعُوبِ الَّتِي حَجَبَهَا حُكَّامُهَا وَذُوو السُّلْطَانِ فِيهَا عَنِ  
أَنْ تَتَلَقَّى بِلَاغِ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

فَجِهَادُ التَّبْلِيغِ أَوَّلُ دَرَجَاتِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعْدَ جِهَادِ النَّفْسِ  
وَتَقْوِيمِهَا، وَإِلْزَامِهَا بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ.

إِنَّ وَاجِبَ التَّبْلِيغِ لَا يَتَحَقَّقُ فِي الْوَاقِعِ الْإِنْسَانِي إِلَّا بِالْجِهَادِ، وَهُوَ بَذلُ  
غَايَةِ الْجُهْدِ ضَمْنَ حُدُودِ الْإِسْتِطَاعَةِ وَالصَّبْرِ، وَبِهِ يَتَحَمَّلُ الْمَجَاهِدُ الْمُبْلَغُ لِدِينِ  
اللَّهِ مَتَاعِبَ جَسَدِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ، وَبَعْضَ مَشَقَّاتٍ وَأَذَى مِنَ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ، مُوجَّهًا  
لَهُمْ دَعْوَتَهُ التَّبْلِيغِيَّةَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

فَإِذَا أَرَادَ الْمَجَاهِدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَالْمُحْسِنِينَ فِي جِهَادِهِ، لِأَخْتِنَامِ  
مَرَاتِبَ رَفِيعَةٍ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى مَنَازِلِ الْفِرْدَوْسِ، ضَاعَفَ جِهَادَهُ وَصَبْرَهُ، وَضَحَّى  
بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَمَحَابَّتِهِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَبَّمَا ضَحَّى بِحَيَاتِهِ كُلِّهَا فِي سَبِيلِ  
تَّبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ.

لَكِنَّ الْأَمْرَ الْوَاجِبَ هُوَ الْقِيَامُ بِالتَّبْلِيغِ ضَمْنَ حُدُودِ الْإِسْتِطَاعَةِ، فَهَذَا هُوَ  
الَّذِي تَأْمَرُ بِهِ أَوْامِرُ التَّقْوَى، كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (التَّغَابُنِ/ ٦٤)  
مُصْحَف/ ١٠٨ نَزُولُ):

﴿ فَانْفِرُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ... ﴾

أَمَّا أَوْامِرُ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ فَتَنْدُبُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ.

وَإِنَّ اجْتِنَاءَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مِنْ كُلِّ الشُّعُوبِ وَالْأَقْوَامِ عَلَى اخْتِلَافِ  
الْوَانِهِمْ وَصُورِهِمْ وَلِغَاتِهِمْ، وَاصْطِفَاءِهَا وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَسَطًا عُدُولًا، تَفْضِيلُ  
مِنَ اللَّهِ يُوجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالْقِيَامِ بِتَّبْلِيغِ دِينِهِ الَّذِي وَرَّثَهُ عَنِ  
الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَتَحَقَّقُ هَذَا الْوَاجِبُ بِإِيصَالِ بِلَاغَاتِ هَذَا الدِّينِ إِلَى

الناس أجمعين، بالوسائل الحكيمة التي تقتضيها ظروف الحياة الإنسانية المتطورة.

هذه المفاهيم قد دلت عليها نصوصٌ متعددة من القرآن ومن السنة.

● فمن القرآن المجيد النصوص التالية:

النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦/ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً

لرسول الله ﷺ:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

أي: ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وهو الرسول الذي أرسل إليهم منهم نساً ولغة، أو منهم لغة أو انتماء أو نحو ذلك مما يهتبي له تبليغاً مناسباً لدين الله.

وجئنا بك شهيداً على هؤلاء: أي: وجئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء الذين بلغهم دين الله الذي ينزله عليك.

وأشارت الآية إلى شمول هذه الرسالة الربانية التي بعث الله بها محمداً ﷺ، واشتمالها على تبيان كل شيء يحسن أن تشتمل عليه رسالة عامة للناس أجمعين، وخاتمة لرسالات الله للناس، وفيها هدى ورحمة وبشرى لكل المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله وكتابه، ويعلمون استسلامهم لشرائع هذا الدين وأحكامه وتكاليفه ووصاياه، فقال الله عز وجل فيها خطاباً لرسوله:

﴿ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

فكونُ القرآنِ مشتَملاً على تَبَيَانِ كُلِّ شَيْءٍ من مسائلِ أصولِ الدِّينِ الذي اصطفاه اللهُ للناسِ، وَعَلَى الآياتِ الَّتِي فِيهَا هُدَى عَظِيمٌ دَلَالَةٌ وإِقْنَاعاً، وفيها رَحْمَةٌ وبُشْرَى لِكُلِّ المُسْلِمِينَ، من كُلِّ الأُمَمِ والشُعوبِ، هو بِمِثَابَةِ التَّمْهِيدِ لإِعْلَانِ أَنَّهُ الدِّينُ الخَاتِمُ الَّذِي قَضَى اللهُ أَنْ يَخْتِمَ بِهِ رِسالَتَهُ للناسِ أَجْمَعِينَ.

### النص الثاني:

وخاطب اللهُ عزَّ وجلَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقوله تعالى لهم:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴾ (١١٧)

أُمَّةً وَسَطًا: أي: أُمَّةٌ عُدُولاً في الدَّعوةِ إلى سبيلِ ربِّكم، وفي الشَّهادةِ على الناسِ يومَ الدينِ.

وتشير عبارة: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ خطاباً لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إلى مَا جَاءَ في الآية (١١٩) السَّابِقَةِ في سُورَةِ (البقرة) الَّتِي يَخاطِبُ اللهُ فِيهَا رِسالَةَ بقوله:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... ﴾ (١١٩)

أي: وَكَذَلِكَ الإِرسالِ الَّذِي أَرْسَلْنَا رِسالَتَهُ بِكُمْ بِه بَشِيرًا لِلنَّاسِ وَنَذِيرًا، جَعَلْنَاكُمْ يا مَنْ اتَّبَعْتُمْ مُحَمَّدًا مُؤْمِنِينَ صادِقِينَ مُسْلِمِينَ قَائِمِينَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ أُمَّةً عُدُولاً لِتَكُونُوا حَامِلِي رِسالَةِ رِسالَتِهِ رِسالَتِهِ كَمَا بَلَّغَكُمْ إِيَّاهَا، مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ، بِأَنْكُمْ قَدْ أَدَيْتُمْ الرِّسالَةَ وَبَلَّغْتُمْ الأمانةَ، وَليَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيَّ مَنْ بَلَّغَهُ مِنْكُمْ شَهِيدًا.

وتتسلسل حلقاتُ التَّبليغِ، وحلقاتُ الشَّهادةِ على المبلِّغين من الأُمَّمِ

والشُّعُوبِ وَأَجْيَالِهِمْ، زَمَنًا بَعْدَ زَمَنٍ، حَتَّى تَنْتَهِيَ مُدَّةُ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ بعد بيان أنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرَّة:

﴿ كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۗ ﴾

فدلَّت هذه الآية على أن رسول كل أمة سلفت في تاريخ البشرية يكون هو الشهيد عليها بأنه قد بلغها ما أمر الله بتليغهم إيَّاهُ، وأن الرسول محمداً ﷺ يكون شهيداً على الذين بلغهم من الذين عاصروه.

ويفهم من هذا أن المبلِّغين من أتباع الرُّسُلِ يكونون يومَ الدين شهداءً على من بلغوهم من الناس.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لأمة محمد ﷺ:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۗ ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

لقد أبان هذا النص ما يجب على الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبما أنزل الله عليه في سلوكهم الخاص فقال الله عز وجل لهم:

﴿ .. ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ ۗ ﴾

وبعد هذا التكليف حمَّلَهُمْ وظيفة الجهاد في سبيل الله بِصِدْقٍ، لتبليغ دين الله الذي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ الرسول ﷺ، فقال تعالى لهم:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

حَقَّ جِهَادِهِ: أي: الجهاد الحق في سبيله، والمعنى: وجاهدوا في سبيل الله بتبليغ دينه للناس الجهادَ الحق، الَّذِي لا نفاق فيه، ولا رياء، ولا تقصير.

وبعد ذلك أبان الله لهم أَنَّهُ تبارك وتعالى قد اجْتَبَاهُمْ، أي: اصْطَفَاهُمْ واختارهم من دون سائر الأمم السابقة لحمل الرسالة الخاتمة، وتبليغها للناس أجمعين، كما تَبَلَّغُوها من الرسول ﷺ، فقال تعالى مخاطباً لهم:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾.

وإذ اجْتَبَاهُمُ اللهُ وحمَّلَهُمْ وظيفة تبليغ الدين الخاتم للناس أجمعين، وجَعَلَهُ جزءاً من تكاليف الدين الَّتِي كَلَّفَهُمْ إِيَّاهَا، فإنه لم يَجْعَلْ عليهم في الدين مِنْ حَرَجٍ، وإذ كان التبليغ جزءاً من هذا الدين فإنه لم يجعل عليهم من حرج في هذا التبليغ، فلم يحمِّلُهُمْ مسؤولية تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، ولا من العصيان إلى الطاعة، ولكن عليهم أن يُبَلِّغُوا وَيُعَلِّمُوا وينصحوا للناس، ولم يجعل عليهم أيضاً من حرج في أن يتحمَّلُوا في سبيل الدَّعْوَةِ التبليغيَّةِ ما لا يُطِيقُونَ، أو أن يُدْخِلُوا أَنفُسَهُمْ في مَضَائِقَ شاقَّةٍ عليهم، من أجل دعوة الناس إلى دين الله، لكنَّ هذا لا يقتضي مَنَعَ من شاء من الدَّعَاةِ أن يتوسَّع في أعمال البرِّ والإحسان بالمجاهدة الشاقَّة الَّتِي قد يكون فيها تضحيةٌ بالأموال أو بالأنفس، إذا كانت هذه التضحية تخدِّم قضية انتشار الدَّعْوَةِ وتبليغها للناس.

هذا التوسُّع في أعمال البرِّ والإحسان في سبيل الدعوة إلى دين الله ليسَ



واجباً، بل هو تطوُّعٌ قد يختاره لنفسه بعضُ المجاهدين، فلا يُمنَعُ منه إذا ترَجَّحَ أنه مما يخدمُ قضِيَّةَ الدَّعْوَةِ، ولا يُؤثِّرُ عليها تأثيراً سلبياً.

وهذا البيان المتعلق بدعوة الدعاة من المؤمنين، نجدُه مفصلاً تفصيلاً واسعاً في البيانات التي خاطب الله بها رسوله محمداً ﷺ، إذ لم يكلفه الله عز وجلَ إلا التبليغَ، فلمَ يحمله مسؤولية تحويل من بلغههم من الكفر أو النفاق إلى الإيمان، وطلبَ منه أن لا يُشقي نفسه من أجلهم، وأن لا يكون في صدره حرجٌ مما أنزل إليه، فحدودُ البلاغ هي وظيفة جميع المرسلين وسائر الدعاة إلى سبيل ربهم، فقال الله عز وجلَ لرسوله محمداً ﷺ في سورة (الشورى/ ٤٢/ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا مَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ... ﴾

أي: فإن أعرضوا فلم يستجيبوا لدعوتك فدعهم وإعراضهم، فما أرسلناك عليهم حفيظاً، مكلفاً أن تحفظهم فتكرههم على الإيمان والإسلام والطاعة، كما يكلفُ راعي الغنم أن يحفظ غنمه فيحميها من الذئاب والمهلكات، لأنهم مطالبون بأن يؤمنوا ويُسلموا ويطيعوا عن طريق اختيارهم الحرِّ، لا بالإكراه والإجبار القسري.

إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ: أي: ما يجب عليك بالنسبة إلى دعوتهم إلى سبيل ربك إلا أن تبلغهم ما تؤمرون بتبليغه.

وقال الله عز وجلَ في سورة (النحل/ ١٦/ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن جميع الرُّسل:

﴿ .. فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

أي: فما عليهم إلا البلاغ المبين الواضح الذي يعرف به المدعوون قضايا دين الله لهم.

وقال فيها أيضاً خطاباً لرسوله بشأن الذين يَتَوَلَّوْنَ عَنْ دَعْوَتِهِ أَي: يُدْبِرُونَ وَيَنْصِرُونَ، ولا يقتصرون على مُجَرِّدِ الإِعْرَاضِ:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٧﴾ ﴾

وأكد الله عز وجل هذا البيان في مناسبات ودواعي مختلفات:

في الآية (١٨) من سورة (العنكبوت/ ٢٩/ مصحف/ ٨٥/ نزول) وفي الآية (٢٠) من سورة (آل عمران/ ٣/ مصحف/ ٩٢/ نزول) وفي الآية (٤٠) من سورة (الرعد/ ١٣/ مصحف/ ٩٦/ نزول) وفي الآية (٥٤) من سورة (النور/ ٢٤/ مصحف/ ١٠٢/ نزول) وفي الآية (١٢) من سورة (التغابن/ ٦٤/ مصحف ١٠٨/ نزول) وفي الآية (٩٢) من سورة (المائدة/ ٥/ مصحف/ ١١٢/ نزول).

وقال الله عز وجل خطاباً لرسوله في سورة (فاطر/ ٣٥/ مصحف/ ٤٣/ نزول):

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

وقال تعالى أيضاً في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول):

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ ﴾

فنهى الله رسوله نهياً إرشادياً ووصيياً ونصح أن لا يشتد حزنه على الذين لم يستجيبوا لدعوته من قومه، وهو شديد الحرص على نجاتهم من النار بالإيمان والإسلام والطاعة، فالحزن الشديد من أجلهم قد يؤثّر على جسده ونفسه، فتذهب نفسه عليهم ذهاب حَسْرَاتٍ من تَلَهُّفٍ وأحزانٍ وكُرُوبٍ.

وأبان له في سورة (طه) أنه ما أنزل عليه القرآن ليشقى ببلاغه لقومه، بتحمل ما لا يطيق من كدٍّ ومُجَاهَدَةٍ وحُزْنٍ وكُزْبٍ، بل لِيُبَلِّغَهُ، وليذكّر به مَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَعَذَابَهُ يَوْمَ الدِّينِ.

ونعود بعد هذا إلى استكمال النظرات في فقرات النصّ الرابع الذي من سورة (الحج) فبعد أن قال الله عزّ وجلّ لأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ فِيهِ :

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ... ﴿٧٨﴾﴾

أَبَانَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا الدِّينَ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي هَذَا تَذْكَيرٍ لَهُمْ بِجِهَادِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَمُجَادَلَتِهِ لَهُمْ، وَتَكْسِيرِهِ أَصْنَامَهُمْ، وَإِقَامَتِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، حَتَّى وَصَلَ بِهِ الْأَمْرَ إِلَى أَنْ اشْتَدَّ غَضَبُ مَلِكِ قَوْمِهِ عَلَيْهِ الثُّمُرُودُ، فَأَمَرَ بِإِيقَادِ نَارٍ عَظِيمَةٍ وَقَدَفَهُ فِيهَا، لِيَذُوقَ عَذَابَ مَخَالَفَتِهِ دِينَ قَوْمِهِ وَدِينَ مَلِكِهِمْ، وَقَدْ فَعَلَ وَاتَّخَذَ كُلَّ أَسْبَابِهِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَنْقَذَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ نَارِهِمْ، بِآيَةٍ عَظِيمَةٍ، إِذْ قَالَ لِلنَّارِ: كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيْهِ فَقَطَّ مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تُحْرِقُ كُلَّ مَا تَمَسَّهُ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَيْضًا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ بَشَّرَ بِرَسُولِهِمُ الْخَاتَمِ، وَسَمَّى مِنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْمُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَبْلِ وَجُودِ رَسُولِهِمُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبِعَثَّتِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، إِذْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ الْبَشَارَةَ وَالتَّسْمِيَةَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿وَلِلَّهِ أَسْمَاءُ الْبَشَرِ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾

وَبَعْدَ ذَلِكَ أَبَانَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ سَمَّاهُمْ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الدِّينِ الْخَاتَمِ، وَالْمُسْلِمُونَ هُمُ الْمُسْتَسْلِمُونَ السَّامِعُونَ الْمُطِيعُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمِنْ عُنَاوِرِ هَذِهِ الطَّاعَةِ الْقِيَامُ بِوَأَجِبِ تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَيَقَعُ عَلَيَّ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ هَذَا الْوَأَجِبِ بِمَقْدَارِ مَوْقِعِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ وَاسْتَطَاعَتِهِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، بِدَعْوَةٍ مِنْ أُسْرَتِهِ، ثُمَّ تَوَسَّعًا فِي دَوَائِرِ حَرَكَةِ حَيَاتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ فِي هَذَا ﴾ .

أي: وفي هذا الدين أنتم المسلمون .

وبعد هذا التكليف بالتبليغ، وقيام المسلمين بواجب البلاغ على الوجه المطلوب منهم، يَكُونُونَ مؤهلين لأداء شهادتهم على الناس يوم الدين، كما يشهدُ الرَّسُولُ عَلَى الَّذِينَ بَلَّغَهُمْ مِنْهُمْ، وَتَشْهَدُ كُلُّ دَائِرَةٍ تَبْلِيغٍ مِنْ بَعْدِ الرَّسُولِ عَلَى الدَّائِرَةِ الْأَوْسَعِ الَّتِي بَلَّغْتَهَا، وهكذا تتسلسل الدوائر، فقال الله عز وجل في النص بياناً لهذا:

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

ولكني يُحَافِظُ عُمُومُ الْمُسْلِمِينَ على هذا الاجتباء الزباني المُشْرِفِ لَهُمْ، الذي جعلهم فيه حَمَلَةَ رِسَالَةِ رَسُولِهِ وَمُبَلِّغِيهَا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَعُدُولًا فِي التَّبْلِيغِ وَفِي الشَّهَادَةِ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ، فَإِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَلَا يَضِيْعُوهَا وَلَا يَتَهَاوَنُوا بِشَيْءٍ مِنْهَا، وَأَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلَا يَمْنَعُوا شَيْئًا مِمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَأَنْ يَعْتَصِمُوا مُحْتَمِينَ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ، مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ وَلَا مُتَنَازِعِينَ، وَلَا مُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَ وَمَصَالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ خَاصَّةٍ وَوَسَاوِسَ شَيْطَانِينَ، فقال الله تعالى في النص:

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ .

أي: وَاتَشَرُّوا مَبْلَغِينَ دِينَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ مُحَافِظُونَ عَلَى وَصَايَا اللَّهِ لَكُمْ .

فإذا فعل المسلمون ذلك الذي أمرهم الله به، كَانَ اللَّهُ مَوْلَاهُمْ، أَي: حَافِظُهُمْ، وَمُعِينُهُمْ، وَمُسَدِّدَ خَطَاهُمْ، وَمُمِدَّهُمْ بِعَطَائِهِ، وَنَاصِرَهُمْ، وَمُزِيلَ الْعِقَابِ مِنْ طُرُقِ انْسِيَاحِهِمْ فِي الْأَرْضِ مَبْلَغِينَ، فقال تعالى لهم في خاتمة النص:

﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

● ومن الشئ ما يلي :

النص الأول :

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

قال :

«بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

فَأَمَرَ الرَّسُولُ أَصْحَابَهُ بِأَنْ يُبَلِّغُوا عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ مَا سَمِعُوهُ آيَةً وَاحِدَةً.

النص الثاني :

وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال :

«لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ عَدَا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ».

قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم (أي : يتحدثون ليلتهم) أيهم يُعْطَاهَا،

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كُلهُم يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فقال :

«أَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؟».

فقالوا : يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ» فقال :

«فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَتُونِي بِهِ».

فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع،

فأعطاه الراية، فقال علي : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟. فقال :

«انْفِذْ عَلَيَّ رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ،

وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا

(١) فتح الباري، الحديث ٣٤٦١.

وَاحِدًا خَيْرَ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»<sup>(١)</sup>.

وجاء في رواية عند البخاري عن سَلَمَةَ أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ كَانَتْ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ .

فَأَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْغَزْوِ  
الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ .

النص الثالث :

قال البخاري في «كتاب أخبار الآحاد» باب وَصَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَفُودِ  
العرب أَنْ يُبَلِّغُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ، قَالَهُ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ .

وروى حديثاً بشأنِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .

قال : «مَنِ الْوَفْدُ؟» .

قالوا : رَيْبَعَةٌ .

قال : «مَرْحَبًا بِالْوَفْدِ وَالْقَوْمِ غَيْرِ خَزَائِيَا وَلَا نَدَامِي» .

قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارَ مُضَرٍّ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَدْخُلُ بِهِ  
الْجَنَّةَ، وَنُخْرِجُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا .

فنهاهم عن أَرْبَعٍ وَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ . . وجاء في آخر الحديث أن  
الرسول ﷺ قال لهم :

«اخْفَظُوهُمْ وَأَبْلِغُوهُمْ مَنْ وَرَاءَكُمْ»<sup>(٢)</sup> .

النص الرابع :

وجاء في خطبة للنبي ﷺ في حجة الوداع على ما رواه البخاري

ومسلم :

(١) حُمْرُ النَّعَمِ : أي : الإبل الحمراء، وهي أعظم الأموال عند العرب وأنفسها .

(٢) انظر الحديث (٧٢٦٦) في فتح الباري لابن حجر .

«فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ».

أي: فرُبَّ مُبَلِّغٍ حديث الرسول ﷺ من بَعْدِهِ، يُعْطِيهِ اللهُ مِنَ الْوَعْيِ فِي فَهْمِ قَوْلِ الرَّسُولِ أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ الَّذِي سَمِعَ قَوْلَ الرَّسُولِ مِنْ فِيمَ مَبَاشَرَةً، وَكَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ بَشَّرَ فِي هَذَا بِظُهُورِ الْأُمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ مَعَانِيَ النُّصُوصِ وَدَلَالَاتِهَا الدَّقِيقَةَ، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ أُدْرِكُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

\* \* \*

### حُكْمُ تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ

مِمَّا سَبَقَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ تَبْلِيغَ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ وَاجِبُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّتِي اجْتَبَاهَا اللَّهُ، وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَسَطًا عَدُولًا.

وهذا الواجبُ تَحَمُّلُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَمِيعُهَا مَسْئُولِيَّةَ تَهْيِئَةِ مَا يَلِزَمُ لِلْقِيَامِ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَهْيِئَةُ وَإِعْدَادُ مَنْ يَقُومُ بِالذَّعْوَةِ الرَّصِيَّةِ الْحَكِيمَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَتَبْلِيغِهِ النَّاسَ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ أَجْنَاسُهُمْ وَلِغَائِهُمُ، وَتَبَاعَدَتْ مَوَاطِنُهُمْ وَمَسَاكِينُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ، وَتَهْيِئَةُ وَإِعْدَادُ الْوَسَائِلِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ لِلْقِيَامِ بِهِ.

وَبِالْعَمَلِ الْحَكِيمِ وَالصَّبْرِ يُفْرَزُ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِ الذَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَبْلِيغِ دِينِهِ، مَنْ يَتَحَلَّوْنَ بِالْمَوْهَلَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالذَّعْوِيَّةِ وَالسَّلُوكِيَّةِ لِأَنَّ يَكُونُوا أُمَّةً لِلْمُتَّقِينَ مِنْ جِهَةٍ، وَقُدُوةً حَسَنَةً لِلْمُدْعَوِينَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

وهؤلاءُ يَتَحَمَّلُونَ مَسْئُولِيَّةَ الْقِيَامِ الْفِعْلِيِّ بِهَذَا الْوَاجِبِ، سِوَاءِ أَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مَتَفَرِّغًا لَهُ أَمْ غَيْرِ مَتَفَرِّغٍ، كَطَبِيبٍ دَاعِيَةٍ، وَمُهَنْدِسٍ دَاعِيَةٍ، وَتَاجِرٍ دَاعِيَةٍ، وَأَسْتَاذِ عُلُومٍ دَاعِيَةٍ، وَنَحْوِ هَؤُلَاءِ مِنْ مُخْتَلِفِ الْإِخْتِصَاصَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ.



وعلى كلِّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّه يُفِرِّزُهُ المجتمعُ الإسلاميُّ للقيام بهذا الواجب، متفرغاً له أو غَيْرَ متفرغٍ، أنْ يقومَ به على مقدار استطاعته وإمكاناته الفكرية والعلمية والبيانية والتفسيرية والجسدية الجهادية..

ولا يجوز للواحد منهم أن يَقُومَ بما ليس مؤهلاً له، لئلا يُفتني بغير علم، أو يذعُو بغير الأسلوب الحكيم، فيكونَ في الدينِ محرِّفاً، أو مِن الإسلام منقراً.

وعلى كلِّ مُسلمٍ بعدُ فئة الدعاة المتخصصين، وفئة أئمة المتقين الذين يحملون رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتخصص، أن يقوم بالدعوة إلى دين الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالمقدار الذي يَعْلَمُه من الدين علماً صحيحاً واضحاً، وبالمقدار الذي يُحْسِنُه من الدَعْوَة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾﴾.

فأمر الله عزَّ وجلَّ في هذا النصِّ جميع المؤمنين بأنْ يَكُونُوا منهم أُمَّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ويلاحظُ أنه جاء التعبير عن الدَعْوَة إلى دين الله بأنها دَعْوَةٌ إلى الخير، إذ كُتِبَ ما في دينِ الله من عِلْمٍ واعتقادٍ وخُلُقٍ وسلوكٍ نفسيٍّ وجسديٍّ، فرديٍّ واجتماعيٍّ يدخلُ تحت عنوانِ الخير، وكلُّ ما ناقضُهُ وضادُّه هو شرٌّ لآمحالة.

وقد دلَّ هذا النصّ على أنّ المؤمنين جميعاً مكلفون أن يُعدُّوا أُمَّةَ الدَّعْوَةِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، وأن يُهيئُوا ما يلزم لذلك من وسائل وأسباب.

وسمَّى اللهُ فِئَةَ الدَّعَاةِ والآمِرِينَ بالمعروفِ والنَّاهِينَ عن المنكر أُمَّةً، للإيماءِ إلى وُجُوبِ كونهم مجتمعين على صفاتٍ وخصائصٍ وروابطٍ متميِّزة، تجعلُهُم ظاهرين في الناس كأُمَّةٍ واحدةٍ لا تَفْرُقُ بَيْنَ أَفْرَادِهَا ولا اختلاف، ولا تصدِّعُ ولا تَشْقِيقَ بَيْنَ صَفُوفِهَا، ولا تنازَعُ فيما بينها على المصالح الدنيوية التي تُغذِّيها الأهواءُ والشهوات.

وأكدَ هذا المعنى الذي أوماً إليه لفظُ «أُمَّة» بنهي المؤمنين جميعاً عن التفرُّقِ والاختلاف، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أما الذين تفرَّقوا واختلَفوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ: اليهودُ والنصارى.

ومعلومٌ أنّ التفرُّقَ والاختلافَ لا يكونان في المجتمع البشري إلا بأسبابٍ مِنَ الأهواءِ والشهواتِ ومطالبِ الحياة الدنيا.

أما مطالبُ الآخرة، ونُشْدَانُ الظفرِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ فَأُمُورٌ لَا تُحْدِثُ تَفَرُّقاً وَلَا اخْتِلافاً.

\* \* \*

## المقولة الخامسة

### التذكير والنصح والإرشاد

روى الإمام مُسْلِمٌ عَنْ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

«لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

يُلْحَقُ بالدعوة إلى دين الله التذكير والتُّصْحُحُ والإرشادُ، فَبَعْدَ البلاغِ والبيان وشرح الحقيقةِ الدِّينِيَّةِ شرحاً كافياً مقنعاً لِمَنْ شاءَ أَنْ يَقْتَنِعَ بِالْحَقِّ، تأتي وظيفةُ التذكيرِ بما سَبَقَ تَبْلِيغُهُ وبيانهُ وشرحُ حَقِيقَتِهِ، مع التُّصْحِحِ الحَسَنِ، والإرشادِ بِرَفْقٍ إِلَى التَّغْلِبِ عَلَى عَقَبَاتِ النَفْسِ، لسلوكِ طريقِ النورِ المُسْتَعِدِّ لِسَالِكِيهِ، وهو صراطُ اللهِ المُسْتَقِيمِ.

والتذكيرُ المصحوبُ بالتُّصْحِحِ والإرشادِ إِلَى التَّغْلِبِ عَلَى عَقَبَاتِ النَفْسِ، يُسَاعِدُ بعضَ النفوسِ الَّتِي لَمْ تَصِلْ إِلَى مُسْتَوَى الكُفْرِ العِنَادِيِّ، والإصرارِ عَلَى الباطلِ.

فمن طبيعة كثير من الناس أَنَّ البُلَاغَ الأوَّلَ لَا يَكْفِيهِ حَتَّى يَتَخَلَّصُوا مِنْ عِقَائِدِهِمُ الباطلةِ، وسلوكهم الجائر عن صراطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ، وَحَتَّى تَتَغَلَّبَ إِرَادَاتُهُمْ الواعِياتُ عَلَى أهوائِهِمْ وشهواتِهِمْ وعصبيَّاتِهِمْ وتقاليدِهِم العَمِيَاءِ،

فهم بحاجة قوية إلى التذكير مرّاتٍ متعدّدةٍ مَصْحُوبَاتٍ بالتُّصْحح والإرشاد، حتّى يَفُوقُوا على دوافع استِمْسَاكهم بالباطل، وانحرافهم عن صراط الله، وتَحَطّم العقبات التي في نفوسهم، الحاجزاتُ لهم عن الاستجابة للحقّ الذي دُعُوا إليه، واستَبَانَ لهم أنّه الحقّ.

فلتكرار التذكير أثرُهُ البَالِغُ في النفوس، ولا سيما إذا وَصَلَ إلى المتلقّي من مصادِرٍ شتّى، والمفروضُ في حامل الرسالة أن يُساعد النفوسَ الجافيةَ حتى تستأنسَ، وتَمِيلَ إلى الاستجابة.

ونلاحظُ دوماً ما لتكرار الإعلاناتِ التجاريةِ والدّعَاياتِ السياسيّةِ من تأثير على النفوس، حتى تُصَدِّقَ الأَخْبَارَ الكواذِبَ، فما بِالكَ بالحقّ الجليّ الذي تُؤَيِّدُهُ البراهين الساطعة، والحجج الدامغة، وتستميل إليه النصائحُ الحسنّةُ، والإرشاداتُ المقدّمةُ برفقٍ وتكريم.

ولكن يَجِبُ أن لا يكون تكريرُ التذكير متلاحقاً بصورة مُنْفَرَةٍ.

يضافُ إلى الأثر النَّافِعَ لتكرار التذكير بصورة ليس فيها تنفير، أنّ من طبيعة الناس أن يَنْسُوا بِسُرْعَةٍ ما لا يحبُّون الالتزام به من عقيدة تخالفُ سَوَابِقَ عقيدتهم، أو عمَلٍ يخالفُ عاداتهم وتقاليدهم، ومطالب أهوائهم وشهواتهم، ونزعاتهم وميولاتهم النفسيّة، فهُم بحاجة إلى من يُسَاعِدُهُمْ على نفوسِهِمْ بالتذكير حيناً ثمّ حيناً.

من أجل هذا الذي سبق بيّأته كان من العناصر التابعة للدّعوة إلى سبيل الله، التَّذْكِيرُ بما سَبَقَ به البلاغُ مصحوباً بالتُّصْحح والإرشاد.

والتذكيرُ يُطلَبُ فيه التكرير بحكمة ما دام احتمالُ الاستجابة أمراً قائماً، بالنسبة إلى الفرد، أو إلى بعض أفراد الجماعة، وما دامت الجماعةُ يخرجُ منها كلّ حينٍ مستجيب أو مستجيبةٌ لدعوة الحقّ، فالتذكيرُ في هذه الأحوال نافع، وتجبُ متابعتُهُ، ولا يصحُّ معه اليأس.

لَكِنْ إِذَا مَرَّتْ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ جَدًّا مِنَ الزَّمَنِ عَلَى شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ سَبَقَ تَبْلِيغُهُمْ وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَبُشِّرُوا وَأَنْذِرُوا، وَتَتَابَعَ عَلَيْهِمُ التَّذْكِيرُ الْحَكِيمُ الْمَصْحُوبُ بِالنُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، دُونَ أَنْ تَتَحَرَّكَ قُلُوبُهُمْ وَلَا نَفْسُهُمْ بِأَقْلٍ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ الْمَيْلِ وَالِاسْتِجَابَةِ، بَلْ كَانُوا يَزِدَادُونَ بِالتَّذْكِيرِ نَفُورًا، عِنَادًا وَإِصْرَارًا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ وَانْحِرَافٍ عَنِ طَرَاظِ اللَّهِ، فَمِنَ الْخَيْرِ إِذْنُ الْإِعْرَاضِ عَنِ تَذْكِيرِهِمْ إِذَا تَوَلَّوْا، وَالتَّوَلَّى عَنْهُمْ إِذَا طَعَنُوا.

الإعراض: حالة وسطى بين الإقبال والإدبار.

التولي: الإدبار ويضحيه غالباً الابتعاد.

والسبب في هذا أنهم قد وصلوا إلى حالة مئثوسٍ منها، فمن الخير إنفاق الجهد في آخرين مطموع في استجابتهم لدعوة الحق، أو آخرين لم يجربوا بعد، فهم بمثابة الأرض البكر التي لم تعالج بالحرث والزرع.

هذا هو الأمر الذي يقضي به منطق العقل السليم، وهو ما دعت إليه نصوص القرآن الكريم، في تربية الله رسوله ﷺ وحملة رسالته من أمته.

ومنهج القرآن في التذكير بما سبق تبليغه والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وسبق شرحه شرحاً وافياً من أصول الدين، له نظامٌ حركيٌّ تطوريٌّ بحسبِ المواقف التي يتطوّر إليها الذين يوجه لهم البلاغ، ثم التذكير من بعده.

وهذا النظام الحركي تكشفه النصوص التالية، المرّبة بحسب ترتيب نزول السور التي هي منها، والتي جرى تدبّرها ضمن ملاحظة أطوار الذين كان الرسول ﷺ يُعالجهم بالبلاغ، والبيان الكافي، ثم بالتذكير أنا ثم أنا وفق الحكمة.

## النص الأول:

بعد البلاغات الأولى والبيانات الشارحات لها ومع أوائل التنزيل القرآني، خاطب الله رسوله محمداً ﷺ، ويُلقَّبُ به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربه من أمته، بقوله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعلى / ٨٧ / مصحف / ٨ / نزول):

﴿ فَذَكَرْنَا إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ ۙ ۱ سِيِّدُكُمْ مِنْ يَخْشَى ۙ ۲ وَنَجِّنَهَا الْأَشْقَى ۙ ۳ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ ۙ ۴ الْكَبْرَى ۙ ۵ ﴾ .

الذِّكْرَى: اسم للتذكير، وتأتي بمعنى التَّذْكَرِ، وتأتي اسماً للتَّذْكَرَةِ (أي: للوسيلة التي تُذَكَّرُ، كبطاقة، أو رتيمة، وهي الخيط الذي يُدار على الإصبع للتذكير بشيء ما).

أي: فذكر بما سبق أن بلغته وبيَّنته ولو كان احتمال نفع الذكرى احتمالاً مشكوكاً فيه، باعتباره من أدنى درجات الظنِّ الضعيف، وقد دلَّ على هذا استعمال حرف الشرط (إن) الذي يُستعمل كثيراً فيما يكون احتمال تحققه ضعيفاً، وكثيراً ما يأتي لمطلق الربط الشرطي.

وأطمع الله عزَّ وجلَّ بأنَّ تَحَقُّقَ نفع التذكير سيكون حتماً، لدَى من يخشى عَذَابَ رَبِّهِ، الذي جَاءَ به الإنذارُ ضَمَنَ فقراتِ البلاغ.

وأيأسَ الله عزَّ وجلَّ من استجابةِ الأَشْقَى، مُبَيَّنًا أَنَّهُ سَيَصِلُ حتماً النَّارَ الكبرى يَوْمَ الدِّينِ. والأشقى هو من بلغَتْ شِقْوَتُهُ مَبْلَغَهَا الأَقْصَى، وَيُمْكِنُ اكتشافُهُ من سلوكه وعناده وجبروته وإصراره على باطله وإجرامه، وطغيانه في الأرض.

## النص الثاني:

ثم أمرَ الله عزَّ وجلَّ بالإعراض عن تذكير من تَوَلَّى عن ذكرِ رَبِّهِ جَلَّ وعلا، أي: أدبَر ونأى، ولم يكتفِ بمجرد الإعراض.

الإعراض: حالة وُسْطَى بين الإقبال والتولي، وهو من إعطاء عارض الوجه، وهو جانبُهُ، فعارضا الإنسان: صفحتنا خديه.

التَّوَلَّى: يأتي بمعنى الإدبار، وبمعنى التَّأْيِي.

فأنزل قوله تعالى خطاباً لرسوله ﷺ وَيُلْحَقُ بِهِ كَلِّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فِي سُورَةِ (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾.

النص الثالث:

تم أمر الله عز وجل بالتذكير بالقرآن، وبأن يُوجَّه هذا التذكير لِمَنْ يُسْتَشْعَرُ مِنْهُ أَنَّهُ يَخَافُ مِنْ وَعِيدِ رَبِّهِ خَوْفًا مَآ، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: فذكر بما جاء في القرآن من أصول الدين من يخاف وعيدي الذي أنذرت به الكافرين من عبادي.

النص الرابع:

ثم أمر الله عز وجل بتذكير الذين اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوَ فُلْمَ يَعْبُؤُوا بِبَلَاغَاتِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، أَي: بترك الاهتمام بتذكيرهم، وَأَمَرَ بِتَذْكَيرِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَسْتَوَى الْيَأْسِ مِنْ انْتِفَاعِهِمْ بِالتَّذْكَيرِ، لِإِعْطَانِهِمْ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَسَائِلَ لِهْدَايَتِهِمْ، وَاسْتِجَابَتِهِمْ اسْتِجَابَةً طَوْعِيَّةً لِدَعْوَةِ دَاعِيهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ فِي سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قوله تعالى:

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوَ غُرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ

تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ بِهَا مِنَ الَّذِينَ أُتِيبُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ .

فالذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً فجعلوا يستهزئون به وبالرسول الذي بلغهم إياه، وأصروا بعناد على كفرهم، على الرُّغم من وصول البلاغ إليهم، ومتابعتهم بالتذكير، هؤلاء ينبغي تركُّهم، ومعاملتهم بسياسة الإعراض، إذ حالتهم قاربت أن يكون ميثوساً منها، فيكفي الإعراض عن مواجهتهم، وتذكير غيرهم وهم يسمعون.

أما مَنْ لم تَصِلْ حالتهم إلى هذا المستوى فذكّرهم بالقرآن وجهاً لوجه، واهتمَّ بنصيحهم وإرشادهم، وتكريرِ عَرَضِ البلاغ والبيان عليهم.

وَذَكَرْ بِهِ: أي: وَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ غَيْرَ الَّذِينَ تَرَكْتَهُمْ لِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.

أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ: أي: مُبَادِرًا بِالتَّذْكَيرِ بِالْقُرْآنِ وَقُوْعَ هَذَا الْإِنْسَالِ، فَعَسَى أَنْ يَتَذَكَّرَ مَنْ تُذَكَّرُهُ أَمْرُهُ، فَيُحْيِي نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِالاسْتِجَابَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.

الإنسال: يأتي بمعنى إسلام المجرم ليد العدالة، وبمعنى الارتهان، وبمعنى إنزال العذاب، وتجتمع هذه المعاني هنا.

فمعنى ﴿أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾: مبادرة أن تُسَلِّمَ نفس بجريرتها، وتُرْتَهَنَ بها، في انتظار الحكم عليها بالعذاب يوم الدين، مع احتمال الحكم عليها بالعذاب والهلاك في الدنيا.

والارتهانُ جاء مصرحاً به في قوله تعالى في سورة (المدثر/٧٤)

مصحف/ ٤ نزول):



﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾

ويكون الإنساق بالموت، أو مع بدء نزول العذاب المعجل.

أي: فذكر بالقرآن من لديك أمل ما باستجابته، تدارك أن تبسل نفس بما كسبت، مژتهنة سجيته، صائرة إلى عذابها، حالة كونها ليس لها من دون الله ولي يحميها من عذاب الله، ولا شفيع يشفع لها، وإن تملك فداء ما معادلاً لجزمها لا يقبل منها، على أنها لن تملك فداء ما.

وإن تعدل كل عدل: أي: وإن تعد كل فداء بالعدل لا يؤخذ منها.

وقد جاء التمهيد في هذه السورة نفسها ببيان ما حصل لأمم سابقة دكروا بالمذكرات المتتابعات، فتركوا ما دكروا به حتى لم يتبق له في ذكراتهم آثار فاعلة، فاستحقوا العذاب والهلاك فأهلكوا، وهو ما جاء في قول الله عز وجل فيها: (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٣٨﴾ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

مبلسون: أي: ساكتون يائسون نادمون. يقال: أبلس من رحمة الله، إذا يبس وندم.

النص الخامس:

ولما ظهر في المشركين جماعات عاندوا عناداً شديداً، ولم تليّن المذكرات والإنذارات بالصاعقة المهلكة شيئاً من قسوة قلوبهم، لإصرارهم على ما هم فيه من كفر، وإعدادهم الوسائل لقمع دعوة الرسول بالقوة المادية

المسلّحة، أمر الله رسوله بأن يتولّى عنهم، أي: بأن يُديرَ إليهم ظهره، ويتركهم إلى ربهم، وما يُجرّيه فيهم بحكمتِهِ، فأنزل عليه قوله تعالى في سورة (الصفّات/ ٣٧/ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ فَنُوحٍ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٩﴾ وَأَنْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٠﴾ أَفَعِدْنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٨١﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِلِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَنُوحٍ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٨٣﴾ وَأَنْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

في هذا النصّ إشعارٌ بأنّ حكمة الله قصّت بأنّ ينصّر رسوله والذين آمنوا معه على طغاة المشركين بمعارك قتالية، لا بمهلكات ينزلها عليهم من السماء، دلّ على هذا قوله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وفيه دلالة على أنّهم تحدّوا الرسول بأن يسأل ربه أن ينزل عليهم ما سبق أن أُنذرهم به.

ومع أمر الله رسوله بأن يتولّى عنهم، أمره بأن يُبصرهم ليكونَ على علمٍ وحذرٍ ممّا يمتكرون، وطلبَ منه - ويلحقُ به المؤمنون - أن يترىث ويتربص حتى حِين.

وفيه أيضاً وعيدٌ لهؤلاء المشركين الطغاة الذين ناصبوا الرسول والذين آمنوا العدا، وهذا الوعيدُ جاء في النصّ مكرراً مرّتين بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

فالأولى وعيدٌ بإهلاكِ سَمَويِّ، والثانية وعيدٌ بالهزيمة والقَتْل على أيدي المؤمنين.

النصّ السادس:

ثمّ أمر الله عزّ وجلّ رسوله أن يُوجّه لِمَعَانِدِي قَوْمِهِ الْمُصِرِّينَ على الكفر، المعرضين عمّا يُوجّه لهم من تذكيرٍ بعد البلاغ والبيان، إنذاراً بعقاب

مُعَجَّلٍ مُهْلِكٍ فِي الدُّنْيَا، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١  
مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ فَإِنِ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

«إن» هنا لمطلق الربط الشرطي، ولا تفيد تقييداً ولا تشكيكاً.

النص السابع:

ثم أبان الله عز وجل لرسوله أنه ليس مسؤولاً عن تخويل من دعاهم  
وبيّن لهم وتابعهم بالتذكير، من الكفر إلى الإيمان، وأنه ليس حفيظاً عليهم،  
كما يُعْتَبَرُ رَاعِي القَطِيعِ مسؤولاً عن حِفْظِ قَطِيعِهِ مِنَ الاِفْتِرَاسِ والشُرُودِ أو  
الهلاك، فَهُمْ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَهُمْ مُمْتَحَنُونَ مِنْ خِلَالِ إِرَادَاتِهِمْ، لَا مِنْ  
خِلَالِ إِلْزَامِهِمْ بِالْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ الْقَسْرِيِّ، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ  
(الشورى/ ٤٢/ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ فَإِنِ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ... ﴿٤٨﴾ ﴾ .

«إن» الأولى لمطلق الربط الشرطي، و«إن» الثانية نافية مثل «ما»

النافية.

النص الثامن:

وأخذ طغاة المشركين يُطْلِقُونَ أَسْلِحَةَ التَّشْهِيرِ الإِعْلَامِيِّ بِاتِّهَامِ الرِّسُولِ  
بِأَنَّهُ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ، وَأَبَانَ لَهُ أَنَّهُ إِذَا تَوَلَّى  
عَنْ تَذْكَيرِ هَؤُلَاءِ الطُّغَاةِ، فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُتَابِعَ تَذْكَيرَ مَنْ يَجِدُ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَاداً مَا  
لِأَنْ يُؤْمِنُوا، فَعَسَى أَنْ يَنْتَفِعُوا بِالتَّذْكَيرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ قَوْلَهُ  
فِي سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١/ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥١﴾ أَتَوَّصَوْنَ بِهِمْ بَلْ هُمْ  
قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٢﴾ فَنُورٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ ﴿٥٣﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَى نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ: أي: فأدبر ظهره لهؤلاء الذين هم قَوْمٌ طَاغُونَ، ولا تهتمَّ بهم ولا بتذكيرهم، فقد بلغوا إلى حالةٍ مَيْئُوسٍ منها.

فَمَا أَنْتَ بَمَلُومٌ: أي: فإنَّكَ إذا تَوَلَّيْتَ عن تذكيرهم وأدبرت لهم ظهره بعد أن وصلوا إلى مُسْتَوَى الطغيان، فَلَا يُوجِبُ لَكَ لَوْمًا، إذ قد بَلَغَتْ منهم غَايَةَ العُدْر.

وَذَكَرْنَا فِي الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>: أي: وذكر آخرين لم يَزَلِ الأملُ بإيمانهم قائماً، ولو باستجابة بعض أفرادٍ منهم، فإنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ مَنْ لديهم استعدادٌ ما مستقبلاً لأن يُؤْمِنُوا.

النص التاسع:

ولئلاَّ يَتَصَوَّرَ الرسولُ ﷺ أو أحدٌ من أُمَّته، أنه إذا مَلَكَ قُوَّةٌ مُسَيِّطِرَةٌ، فإنَّ له أن يُجَبِّرَ المعاندين بإصرارٍ على أن يؤمنوا بالقُوَّة، أبان الله عزَّ وجلَّ لرسوله أنه بعد التبليغ والبيان والشرح لأصول الدين، ليس إلاَّ مُذَكِّراً، وأنه ليس مأذوناً بأن يُكْرِهَ أحداً على الإيمان، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قوله في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ فَذَكَرْنَا إِنْ مَّا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾.

إِنْ مَّا أَنْتَ مُذَكِّرٌ: أي: ما أَنْتَ بالنسبة إلى مَنْ بَلَغَتْه بلاغاً تاماً، وَبَيَّنْتَ لَهُ بَيَاناً شَافِئاً، إِلَّا مُذَكِّرٌ، فَلَسْتَ مُجْبِراً أو مُكْرِهاً أو مُسَيِّطِراً.

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ: أي: لَكِنْ مَنْ تَوَلَّى مُدْبِراً

(١) وَجَدْتُ اسمَ الفاعل في كثير من النصوص القرآنية مستعملاً في الاستقبال، كقوله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧) في معرض قصة هود عليه السلام وقومه عاد الذين أهلَكوا: ﴿ فَأَجْبَتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: وما كان لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مستقبلاً.

مُبْتَعِدًا، وَأَصْرَ عَلَى كَفْرِهِ بَعْنَادٍ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرَهُ، وَهُوَ الَّذِي يُعَذِّبُهُ يَوْمَ الدِّينِ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَالْعَذَابُ الْأَكْبَرُ هُوَ عَذَابُ يَوْمِ الدِّينِ.

«إِلَّا» هُنَا هِيَ بِمَعْنَى «لَكِنْ» حَرْفُ اسْتِدْرَاكِ، وَهَكَذَا كُلُّ مَا يُقَالُ فِيهِ: اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ.

النصّ العاشر:

ثُمَّ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَوَاجَهَهَا مَبَاشِرَةً بِالْإِعْرَاضِ، غَيْرَ مَكْتَرٍ لَهَا، فَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨) مَصْحَفٍ/ ٦٩ نَزُولٍ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَاعْرَضَ عَنْهَا...﴾

فَدَلَّ هَذَا النَّصَّ عَلَى مَبْلَغِ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ مَنْ يُقَابِلُ بِالْإِعْرَاضِ الْمُبَاشِرِ مَا يُذَكِّرُ بِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، مُشْعِرًا بِعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ لِلتَّفَكُّرِ فِيهَا.

النصّ الحادي عشر:

ثُمَّ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَيْضًا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بآيَاتِ رَبِّهِ وَنَظَرَ فِيهَا وَأَدْرَكَ دَلَالَاتِهَا، ثُمَّ وَاجَهَهَا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهَا، فَأَنْزَلَ تَعَالَى قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (السَّجْدَةِ/ ٣٢) مَصْحَفٍ/ ٧٥ نَزُولٍ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ اعْرَضَ عَنْهَا...﴾

فَدَلَّ هَذَا النَّصَّ عَلَى مَبْلَغِ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ مَنْ يُضْغِي لِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي يُذَكِّرُ بِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهَا، وَلَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ.

وَقَدْ دَلَّ هَذَا النَّصَّ وَالنَّصَّ الَّذِي قَبْلَهُ عَلَى التَّسَاوِيِّ فِي دَرَكَةِ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ بَيْنَ مَنْ يُعْرِضُ ابْتِدَاءً وَبصُورَةٍ مَبَاشِرَةٍ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِمَا يُذَكِّرُ بِهِ مَنْ

آيات رَبِّهِ، وَيَبَيِّنَ مَنْ يُعْرِضُ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ بَعْدَ أَنْ يُضْغِي لَهُ، وَيُذَكِّرُ مَا فِيهِ مِنْ دَلَالَاتٍ وَبَيِّنَاتٍ وَعِظَاتٍ، فَالْأَوَّلُ بِسَبَبِ الرِّفْضِ دُونَ مَحَاوَلَةِ الإِصْغَاءِ وَالتَّفْهَمِ، وَالثَّانِي بِسَبَبِ الرِّفْضِ بَعْدَ الإِصْغَاءِ وَالتَّفْهَمِ، إِذْ رَفَضَ الْحَقُّ الَّذِي وَضَحَ لَهُ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عُدْرٌ بِالرِّفْضِ.

النص الثاني عشر:

وأخيراً أمر الله عز وجل الرسول بأن يتابع تذكيره للذين لم يصلوا إلى حالة ميثوسٍ منها، غير مكترث للطاغين، الذين يشيعون في قومه أنه كاهن، أو مجنون، أو شاعر، وأنهم يترصون موته ليتخلصوا منه ومن دعوته التي أزعجتهم، وهزت منازلهم الرفيعة في قومهم، فأنزل تعالى قوله في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿ فَذَكَرْنَا مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَرْصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرِصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ .

فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ: أي: فما أنت بنعمة النبوة والرسالة، ونعمة القرآن وتعليمات الدين، التي تفضل الله بإنزالها عليك بمجنون.

وما أنت بشاعرٍ كما اتهموك، وما أنت بمتقولٍ على ربك قولاً لم ينزله عليك بالوحي، ولو كان القرآن من عندك لاستطاعوا أن يأتوا بحديثٍ مثله، فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين في ادعاء أنك تتقول القرآن على ربك تقولاً من عند نفسك.

فتابع تذكيرك لمن تأمل أن يستجيب لدعوتك ولو أملاً يسيراً.

خاتمة:

وهكذا ظهر لنا منهج القرآن في التذكير، ونظامه الحركي المتطور بحسب مقتضيات الحكمة.

وظهر لنا أن المدعوَ بالحكمة والموعظة الحسنة الذي لم يستجب للدعوة، فإنه ما دام في منزلة الإعراض فالمطلوب متابعة تذكيره تذكيراً مصحوباً بالتّضح والإرشاد.

فإذا هبط إلى دَرَكَه التّولي، فقد صار ميئوساً منه، وعندئذٍ يُكتَفَى بالإعراض عن تذكيره بصورة مباشرة وبالمواجهة، وتُتْرَكُ لَهُ فُرْصُ استماع التذكير الذي يُوجَّهُ لِغَيْرِهِ بحضوره.

فإذا تَسَقَّلَ إلى قاع الطغيان، ومُنَاصِبَةِ الدَّعْوَةِ والدَّعَاةِ العداء، وتَدْبِيرِ أنواع المكر والكَيْدِ ضِدَّهُمَا، فينبغي معاملته بسياسة التّولي بالإدبارِ عنه تَمَاماً، والاشتغال بغيره من المظموع باستجابتهم، ولو في حدودِ طَمَعِ يسير هو من الآمال..

وهؤلاء المتسفلون إلى قاع الطغيان تُتْرَكُ مصائبهم إلى بارئهم. أما أعمال المكر والكَيْدِ التي يُدَبِّرُونَهَا فَلَهَا سياساتٌ أُخْرَى غَيْرُ دَعْوِيَّةٍ، وهي بَعْدَ الصَّبْرِ تَدْوُرُ حَوْلَ الهَجْرَةِ، والدَّفَاعِ، وإعدادِ القُوَّةِ المُرْهِبَةِ، ومُنَاجَزَةِ القتالِ إِذَا لَزِمَ الأَمْرُ، وتهيأتِ الأسبابِ.

\* \* \*

وظيفتا

- الهداية بالدعوة والتذكير والنصح والإرشاد
- الإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- ١ -

الفرق بين الوظيفتين:

يُوجد فرّقٌ بين وظيفة: «الهداية بالدعوة إلى الله وإلى سبيله» بوصفها حُطَّةً من خطط العمل لخدمة الناس جميعاً بغية إنقاذهم من الضلال والكفر والشقاء، وعذاب الله الأبديّ في دار العذاب يوم الدين، وخدمة الإسلام بنشره، وخدمة جماعة المسلمين بتوسيع قاعدتهم البشرية.

وبين وظيفة: «الإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر والنهي» بوصفها حُطَّةً من خطط العمل لخدمة أفراد المسلمين وجماعتهم بغية إصلاحهم وحمايتهم من الانحراف عن صراط الله، إلى سبيل الضلال والغي والفسق والفجور فالرَّذَّةِ وَالْكَفْرِ، والشقاء العاجل والآجل، وبغية حماية المجتمع الإسلامي من التَّفَكُّكِ والانهيارِ بعوامل الفساد، التي قد تظهر فيه من قبل ذوي الانحراف فيه عن صراط الله، وما يكون من نتيجة انحرافهم من عَدْوِيٍّ وتأثيرٍ على هيكل المجتمع الإسلامي بوجه عام.

● وبما أنّ الإسلام هو صراط الله المستقيم اعتقاداً وخلقاً وسلوكاً



نفسياً وجسدياً، فمن كان خارجاً عنه غَيْرَ سَالِكٍ فِيهِ مع المسلمين، فَإِنَّهُ يُدْعَى دَعْوَةً إِلَى دُخُولِهِ، والانتفاء إلى الأمة الإسلامية، وسُلوَكه مع السالِكين فِيهِ، على ما يختار من مراتبهم ودرجاتهم في هذه المراتب.

فالمرتبة العليا: هي مرتبة المحسنين، وفيها درجات كثيرات.

والمرتبة الوسطى: هي مرتبة الأبرار، وفيها درجات كثيرات. وأصحاب هاتين المرتبتين سَابِقُونَ فِي الْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

والمرتبة الدنيا: هي مرتبة المتقين، وفيها درجات كثيرات. ولمرتبة المتقين درجةً علياً تبدأ بعدها مرتبة الأبرار، وأصحابُ الدرجة العليا من مرتبة المتقين هم المقتصدون، الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكَ الْمَحْرَمَاتِ وَمَنْ يُلْحَقُ بِهِمْ.

وتأتي دونها درجاتُ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، ولم تَزِدْ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ زِيَادَةً فَاحِشَةً. وتأتي دون هذه الدرجات درجات الذي أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي وَالْمَخَالَفَاتِ، وَزَادَتْ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ زِيَادَاتٍ فَاحِشَاتٍ.

وأصحابُ هَذَيْنِ الْمَسْتَوِيَيْنِ الْهَابِطَيْنِ: (الذين خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وَالَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ) يَشْتَرِكُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ.

هذا ما دَلَّتْ عَلَيْهِ التَّعْبِيرَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي عِدَّةِ نصوصٍ مُتَكَامِلَةِ الدَّلَالَاتِ فِيمَا بَيْنَهَا.

ومن كان داخلاً في الإسلام، وسالِكاً في صراطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ مع المسلمين، ضَمَّنَ دَرَجَةً مِنْ دَرَجَاتِ مَرَاتِبِهِمْ، وَمُنْتَمِياً إِلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَاَلْمَفْرُوضُ فِيهِ أَنْ يَجْتَهِدَ لِتَعَلُّمِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ شَرٍّ.

فما أمر الله به في الإسلام من خَيْرٍ، يدخل تحت عنوان «المعروف».

وما نهى الله عنه في الإسلام من شَرٍّ، يدخل تحت عنوان «المنكر».

والأصل أن تكون وظيفة عمَل إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايته من الانحراف والانهيار بالبيان، نصحاً وإرشاداً وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، إذ المفروض في المسلمين أن يكونوا قد عَلِمُوا أوامر الدين ونواهيه، فعملوا ما يدخل تحت عنوان «المعروف» وَعَلِمُوا ما يدخل تحت عنوان «المنكر».

ولكن انتشار الجهل بين المسلمين، وانتشار الانحرافات الفكرية والمفاهيم الباطلات، والبدع والخرافات، ووافدات الغزو الفكري مما صدره أعداء الإسلام إلى شعوب الأمة الإسلامية، أدّى إلى أن يكون كثير جداً من المسلمين لا يعلم «المعروف» في الدين، حتّى يَعْمَلَ به، وَيَحْتَّ عليه أهله وذويه، ولا يَعْلَمُ «المنكر» في الدين، حتّى يجتنبه ويحْتَّ على اجتنابه أهله وذويه.

فهؤلاء لا يُلائِمُهُمْ أن يُوجَّه لهم الأمر بالمعروف الذي لا يَعْلَمُونَ أنّه يدخل تحت عنوان «المعروف».

ولا يُلائِمُهُمْ أن يُوجَّه لهم النهي عن المنكر الذي لا يَعْلَمُونَ أنّه يدخل تحت عنوان «المنكر».

بل ينبغي أن تُوجَّه لهم الدَّعْوَةُ بغاية الرِّفْقِ والحكْمَةِ ليعلموا ما يجهلون أنّه يَدْخُلُ تحت عنوان «المعروف» وأنّه يجب عليهم أن يعملوا به، وليعلموا ما يَجْهَلُونَ أنّه يدخل تحت عنوان «المنكر» وأنّه يَحْرُمُ عليهم أن يفعلوه ويرتكبوا إثمه، فإذا عَلِمُوا وأَعْلَنُوا استجابتهم وطاعتهم صار من المناسب أن يُوجَّه لهم بالنسبة إليه الأمر بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر.

يُضَافُ إِلَى مَا سَبَقَ أَنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي تَدْخُلُ فِي دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، أَوْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُنْدَبَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا نَدْباً تَطَوُّعِيّاً، لَا تَضْلُحُ مَعَهَا سِيَاسَةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَلْ تُلَاثِمُهَا الدَّعْوَةُ بِغَايَةِ الرَّفْقِ، وَالتَّشْجِيعُ عَلَى الْأَخْذِ بِهَا بِأَسْلُوبِ النَّدْبِ التَّطَوُّعِيِّ، فَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ اسْتِعْدَاداً وَهَمَّةً لِأَنْ يَرْتَقِيَ فِي دَرَجَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، تَوَسَّعَ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ لِزَيْتَقِي فِي دَرَجَاتِ الْأَبْرَارِ، وَزَادَ فِي إِحْسَانِ عَمَلِهِ حَتَّى كَانَهُ يَرَى رَبَّهُ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَعْبُدُهُ، لِزَيْتَقِي فِي دَرَجَاتِ الْمُحْسِنِينَ.

إِنَّ تَرْكَ الْمُنْدُوبَاتِ وَالسُّنَنِ وَالْآدَابِ، وَارْتِكَابَ الْمَكْرُوهَاتِ وَمَا هُوَ خِلَافُ الْأَوْلَى لَيْسَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ حَتَّى تَسْتَعْمَلَ فِيهَا عِبَارَاتُ النَّهْيِ الْإِجْرَائِيِّ الَّتِي تَسْتَعْمَلُ فِي النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاتِّخَاذُ سِيَاسَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْأُمُورِ سِيَاسَةٌ سَيِّئَةٌ مَنْفَرَةٌ.

وَإِذَا وُجِدَ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْأُمُورِ خِلَافٌ عِنْدَ أَهْلِ الْاجْتِهَادِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ الْوُجُوبِ وَالنَّدْبِ، أَوْ بَيْنَ التَّحْرِيمِ وَالْكَرَاهَةِ، فَمَنْ الْخَيْرُ فِي الْإِرْشَادِ إِلَيْهَا الْابْتِعَادُ عَنِ سِيَاسَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَى الدَّعْوَةِ بِالرَّفْقِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّشْجِيعِ.

لَكِنْ يَنْبَغِي لِلدَّاعِي وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْأَكْمَلِ دَوَاماً، مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً، لِيَكُونَ أُسُوءَ حَسَنَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَإِمَاماً صَالِحاً يُقْتَدَى بِهِ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِبَعْضِ هَؤُلَاءِ ظُرُوفٌ خَاصَّةٌ بِيئَةٌ فِي مَجَالَاتِ أَنْشِطَتِهِمْ يَحْسُنُ مَعَهَا الْأَخْذُ بِسِيَاسَةِ التَّرْخُصِ بِعَدَمِ الْإِتْرَامِ بِمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَكْمَلُ دَوَاماً، كَمَنْ يَقُومُ بِالدَّعْوَةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ضِمْنَ أَقْلِيَّاتِ مُسْلِمِيَّةٍ، فِي بِلْدَانِ أَهْلِ الْكُفْرِ، أَوْ فِي بِلْدَانٍ كَثِيرَةٍ الْإِنْحِرَافِ مِنْ بِلْدَانِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.

## الخلاصة:

● سياسة الدعوة إلى سبيل الله وظيفة من وظائف الأمة الإسلامية، التي يضطلع بمهامها المؤهلون علمياً وفكرياً ونفسياً وبيانياً وخلقياً وسلوكياً، للقيام بها، على مقادير معرفتهم الصحيحة الثابتة من الدين مع التزامهم بواجبات الدعوة وآدابها، وهي توجه:

١ - لمن هم خارج صراط الإسلام الذي يُدْعَوْنَ إلى الدخول فيه، وسلوكه مع المؤمنين المسلمين، على وفق مرضي الله فيه، وإلى الانتماء الإرادي إلى الأمة الإسلامية الربانية الواحدة.

٢ - وللمسلمين الذين هم بسبب جهلهم بشرائع الإسلام وأحكامه، وبسبب انتشار الأفكار الباطلة والانحرافات والخرافات والبدع لديهم، بمثابة غير الداخلين في صراط الإسلام.

٣ - وللمسلمين الذين يُنْدَبُونَ نَدْباً تَطَوُّعِيّاً للارتقاء في درجات الأبرار ودرجات المحسنين.

● سياسة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وظيفة من وظائف الأمة الإسلامية التي يضطلع بمهامها المؤهلون علمياً وفكرياً ونفسياً وبيانياً وخلقياً وسلوكياً، للقيام بها على مقادير معرفتهم الصحيحة الثابتة من الدين، مع التزامهم بواجبات هذه الوظيفة وآدابها، وهي توجه:

للمسلمين العالمين بالفروض والواجبات الإسلامية، فهم يَعْلَمُونَ دخولها تحت عنوان «المعروف» والعالمين بالمحرّمات الإسلامية، فهم يَعْلَمُونَ دخولها تحت عنوان «المنكر».

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عملٌ إرشاديٌّ تذكيريٌّ، يُوجَّهُ لكلِّ مسلم في حدود ما يَعْلَمُ عامّةُ المسلمين من الواجبات والمحرّمات الدينيّة.

فما هو واجبٌ معلومٌ الوجوب عند جماهير المسلمين يُطلق عليه عنوان «المعروف» كما سبق بيانه في التعريفات .

وما هو حرامٌ معلومٌ الحُرْمَةِ عند جماهير المسلمين يُطلق عليه عنوان «المنكر» كما سبق بيانه في التعريفات .

فالتذكيرُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوجّه للذين عرفوا الواجب في الدين فهو «معروف» لديهم، وعرفوا المحرّم في الدين فهو «منكر» لديهم .

والمذكّرُ إذا رأى شخصاً مُسليماً جاهلاً ببعض الواجبات أو المحرّمات الدينية فعليه أن يُعلّمه، ويكون بالنسبة إليه في ذلك داعياً هادياً مُرشدّاً، ولا يَصيحُ أن يقف منه موقف الأمر بالمعروف النَّاهي عن المنكر، لأنّ الأمر الذي يُريدُ أن يُقدّم له التّصحّح حوله لم يَصِرْ بعدُ لَدَيْهِ معروفاً إذا كان من الواجبات، ولا مُنكراً إذا كان من المحرّمات .

\* \* \*

- ٢ -

مادة فعل «دعا» في اللغة وفي النصوص الدينية

جاء في كتب اللّغة أنّ الدّعوةَ، والدّعاءَ، والدّعوَ، والدّعوَى، والدّعايةَ، والدّاعيةَ، بعضها مصادر وبعضها بمثابة المصادر لفعل «دعا - يدّعو» بمعنى: نادى يُنادي، وَطَلَبَ يطلب، وشأن النّداء لأمر ما، أو طلب أمر ما، أن يكون برفق ولينٍ وتلطّفٍ، وقد يُصاحِبُه أحياناً استعطافٌ واستجداءٌ واستغاثةٌ واستشارةٌ للعواطف الدافعة للاستجابة .

يقال لغة: دَعَا الرَّسُولُ قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ دَعْوَةً، وَدُعَاءً، وَدَعَا، وَدَعَاؤِي، وَدِعَائِيَّةً، وَدَاعِيَةً، إِذَا نَادَاهُمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ الدَّخُولَ فِيهِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، وَعَلَى الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالانْتِمَاءَ إِلَى الْأُمَّةِ الْمُؤْمِنَةِ الْمُسْلِمَةِ.

ويقال: دَعَا فُلَانٌ إِلَى مَذْهَبِهِ غَيْرِ الدَّخِلِينَ فِيهِ، إِذَا نَادَاهُمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ اعْتِقَادَ صِحَّتِهِ، وَالدَّخُولَ فِيهِ وَسُلُوكَهُ.

ويقال: دَعَا الشَّيْطَانُ حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ، أَي: نَادَاهُمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، فَيَكْفُرُوا بِرَبِّهِمْ، وَاسْتَعْمَلَ لِإِغْرَائِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ وَسَائِلَ الْاسْتِهْوَاءِ، وَالإِطْمَاعَ بِالْبَاطِلِ، وَإِرْضَاءَ الشَّهَوَاتِ، وَعَرَّضَهُ أَنْ تَكُونَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمُ الْعَذَابَ فِي النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

ويقال: دَعَا أُمَّةٌ الضَّلَالِ أَقْوَامَهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ طَرَائِقِهِمُ الضَّالَّةِ، وَإِلَى نُصْرَتِهِمْ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ.

وجاء في كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل:

«أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْتَ تَسَلَّمَ...» وفي رواية: «أَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ...» أَي: بِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ.

والدَّعْوَةُ إِلَى شَيْءٍ مَا تُقَابِلُ بِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ:

● إِمَّا بِالِاسْتِجَابَةِ وَالِاتِّبَاعِ.

● وَإِمَّا بِالرَّفْضِ وَالِامْتِنَاعِ.

وُسْتَعْمَلَ هَذِهِ الْمَادَّةُ بِمَعْنَى طَلَبٍ مُرْغُوبٍ فِيهِ، مِمَّنْ تُرْجَى مِنْهُ اسْتِجَابَتُهُ، كَدُعَاءِ الْمُؤْمِنِ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَهُ مَا يَرْغَبُ فِيهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا، أَوْ خَيْرِ الْآخِرَةِ، وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِ الْمَعْنَى اللَّغْوِيِّ.

وبما أن هذا الدعاء الموجة لمدعُو غائبٍ عن الحواسِّ يدخل في عموم العبادة، فقد حصل توسُّع في معنى الدعاء، فصار بمعنى العبادة، فيقال: دعا المؤمنُ رَبَّهُ بمعنى عبده.

ومن عبادة الله ذكرُهُ بالأذكار التي يحبُّ من عباده أن يذكره بها، ولهذا جاء في قول الرسول ﷺ الذي رواه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه، أن النبي ﷺ قال:

«خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالتَّبَيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». قال الترمذي: حديث حسن.

فجعل الرسول ﷺ هذا الذكر دُعَاءً، لأنه لون من ألوان عبادة الله عزَّ وجلَّ، مع ما في الاشتغال بذكر الله من تعويضٍ يُعَادِلُ أَفْضَلَ مَا يَسْأَلُ السَّائِلُونَ، كما جاء في بعض الأحاديث.

ومن عبادة الله الدَّعْوَةُ إِلَى سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وعلى هذا يمكن أن نفهم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الجن/ ٧٢/ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۗ﴾

أي: لما قام رسولُ الله محمد ﷺ يعبُدُ رَبَّهُ بالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ فِي قَوْمِهِ، عَادَاهُ قَوْمُهُ، واجتمعوا ضده، وأحاطوا به ليتخلصوا منه ومن دعوته، حتَّى كادوا يكونون عليه في حَزْبِهِمْ لَهُ وَمُقَاوَمَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ مجتمعين كاجتماع الشَّعْرِ وَالصُّوفِ المتلبِّد، الذي ضغط بعضه على بعض.

وحول هذه المعاني التي سبق بيانها جاء استعمالُ مادَّة «دَعَا» ومشتقاتها في النُّصوصِ القرآنيَّةِ والحديثيَّةِ، ونلاحظ فيها كلُّها أن الدَّعْوَةَ شَيْءٌ غَيْرُ الْأَمْرِ

بالمعروف والنهي عن المنكر حتماً، وأنها تكونُ نداءً وتَرْغيباً في قبولِ أمرٍ  
غيرِ مُلتزمٍ به سابقاً، ولم يُؤخَذْ بالتزامه عهدٌ ولا بيعةٌ.

أما وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتوجّه لِمن بايَعَ على  
الإسلام، وأعلن الالتزام بأحكامه وشرائعه، وعرفَ تفصيلاً أحكامَ ما يؤمَّرُ به  
فيه، وما يُنهي عنه فيه، مما هو معلومٌ لدى عامّة المسلمين.

فمن النصوص التي جاء فيها استعمال مادة «دَعَا - يَدْعُو» ما يلي:

١ - قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في سورة (القصص/ ٢٨  
مصحف/ ٤٩ نزول) بشأن المشركين من قومه:

﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢٨) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ  
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

وادْعُ إِلَى رَبِّكَ: أي: وادْعُ إِلَى الإِيمَانِ به واتباع صراطه المستقيم  
الكافرينَ وَالْمُشْرِكِينَ.

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ: أي: وَلَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ فِي عِبَادَتِكَ الْخَاصَّةِ،  
وَفِي عِبَادَتِكَ بِدَعْوَتِكَ إِلَى رَبِّكَ إِلَهًا آخَرَ، إِذِ الْحَقُّ فِي الْوُجُودِ أَنَّهُ: ﴿ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ ﴾ وكيف يكون معه إلهٌ غيرُهُ؟ فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي: إِلَّا  
ذَاتَهُ.

٢ - وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فُضِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦١)

أي: لَا يُوجَدُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ قَوْلًا وَيَكُونُ قَوْلُهُ أَحْسَنَ مِمَّنْ دَعَا  
إِلَى اللَّهِ بِمِقَالِهِ، فَهَذَا الْقَائِلُ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ دَعْوَةٌ دَاعِيَةً إِلَى اللَّهِ مِثْلَهُ، أَوْ غَيْرَ دَاعٍ إِلَى



الله، فإن كان داعياً إلى الله فقد اشتركا في جنسِ القولِ، وإن كان غيرِ داعٍ إلى الله، فلن يرقى قوله إلى قولِ الداعي إلى الله في سمو الغاية، والآثارِ الحميدة، مهما كان ذا جمالٍ أدبيٍّ زخرفيٍّ رائعٍ.

لكن أفضلية قولِ الداعي إلى الله مشروطةٌ بأن يكونَ الداعي في سلوكه الخاصِّ ملتزماً بالعملِ الصالحِ من قَبْلِ دعوته إلى الله، ليكونَ فُدوةً حسنةً لمن يدعوهم، وبأن يُعلنَ للجميعِ بأنه واحدٌ من المسلمين، فليس له ميزةٌ خاصةٌ على سائرِ المسلمين بإعفاءاتٍ خاصةٍ أو تسهيلاتٍ، أو تقليلِ واجباتٍ، أو إباحةٍ محرّماتٍ أو نحو ذلك، وهكذا كان الرسلُ والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، باستثناء بعضِ خصوصياتٍ تقتضيها رسالتهم، وأما التكاليفُ فهُم أكثرُ الناسِ أعباءً وواجباتٍ، وأكثرهم بلاءً.

٣ - وقول الله عز وجل في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول)  
يحكي مقالة نوح عليه السلام في شكواه لربه من عدم استجابة قومه لدعوته:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٣﴾ إِذْ أَنبَتِ بَعْضُهُمْ أَسْتَفْسَافًا ﴿٤﴾ وَأَصْرًا وَأَكْثَرُوا الشُّكْرَ ﴿٥﴾ وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ ﴾ .

فجاء في هذا النص استعمال: «دَعَوْتُ - دُعَايَ - دَعَوْتُهُمْ» بمعنى نَادَيْتُهُمْ وَطَلَبْتُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكَ رَبِّي، وَيُنْبِذُوا الشُّرْكَ، وَيَتَّبِعُوا سَبِيلَ الْهُدَى الَّذِي أَنْزَلْتُهُ، فلم يستجيبوا.

٤ - ولما كان المنافقون خارجين عن سبيل الله في حقيقة الأمر، كان المناسب في توجيههم ليحكم الله ورسوله بينهم أن تُستعمل سياسة الدعوة، لا سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن المعروف لدى المسلمين ليس معروفًا في اعتقادهم، ولأن المنكر لدى المسلمين ليس منكرًا في اعتقادهم، ولهذا جاء في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأنهم:

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴾ (٤٩) .

فجاء في هذا النَّصِّ بشأنِ الْمُتَأَفِّقِينَ استعمالُ عبارة ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنَّ حالَهُمْ في حقيقة الأمرِ حالُ الكافرين الذين يُدْعَوْنَ دَعْوَةً، لا حالُ المؤمنين العالمين الذين يُؤْمَرُونَ بالمعروفِ ويُنْهَوْنَ عن المنكرِ .

٥ - ولَمَّا كان القتالُ في سبيلِ الله عَمَلًا من أعمالِ البرِّ والإحسانِ وليس أمرًا واجبًا وتكليفًا لازمًا تقتضيه مَرْتَبَةُ التقوى، كان المناسبُ في توجيه المؤمنين له أن تُسْتَعْمَلَ سياسةُ الدَعْوَةِ لا سياسةُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وهكذا كان حالُ القتالِ في سبيلِ الله إِبَّانَ عَزْوَةِ بَدْرٍ، فقال الله عزَّ وجلَّ خطاباً للذين آمنوا في سورة (الأنفال/ ٨ / مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (١١٤) .

لَقَدْ كانت الدَعْوَةُ يَوْمَئِذٍ إلى قتالِ المشركين وكان نَدْبًا، وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وجلَّ أنَّ استجابتهم لهذه الدعوة ستكون سببَ حياتِهِمْ .

أما الذين يُسْتَشْهِدُونَ فهم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، وأما الآخرون فإنَّ الله يمنحهم النَّصْرَ على عدوِّهم فيكون ذلك حياةً عزيزة سعيدة لهم، بعد ما كانوا فيه من حياةِ الدَّلِّ والاضطهاد والخوف، ويكونُ حياةً للدَعْوَةِ الإسلامية إذ تمتدَّ وتنتشر بسببِ الظفر الذي يُحَقِّقُه اللهُ لهم على مُشركي مَكَّة .

٦ - ولَمَّا كان الإنفاق في سبيلِ الله لإعدادِ المستطاع من القوة، بُغْيَةً مُوَاجَهَةَ الأعداءِ بالقتال، أو بُغْيَةً نَشْرِ الإسلام، عَمَلًا تَطَوُّعِيًّا مِنْ أَعْمَالِ البرِّ والإحسانِ، ولم يكن فريضةً واجبةً كالزكاة، كانَ المناسبُ في توجيه

المؤمنين له أن تُستعمل سياسة الدَّعوة، لا سياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله عز وجل خطاباً للذين آمنوا في سورة (محمد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول):

﴿ هَاتِرَهُ هَتُولَاءُ تُدْعُونَ لِئِنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۗ وَأَن تَرِءُ الْفُقَرَاءَ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا عَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (٢٨)

إنه لما كان الإنفاق في سبيل الله الذي جاء في هذه الآية أمراً تطوعياً لا أمراً واجباً مفروضاً، كان المناسب أن يجيء فيها عبارة: ﴿ تُدْعُونَ لِئِنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

٧- ويقابل الدَّعوة إلى سبيل الله لمن كان خارجاً عنه، الدَّعوة إلى سبيل الطاغوت لدخوله والسير في متاهاته، والدَّعوة إلى سبيل الشياطين وأئمة الضلال في الأرض، والدَّعوة إلى مذاهبهم وكفرياتهم.

وقد جاءت عدة نصوص قرآنية تُبين هذا:

● فقال الله عز وجل في سورة (فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول) خطاباً للناس أجمعين:

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۗ إِن الشَّيْطَانَ لَكَرَّهَدُوًّا فَانْحَدُوا عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٦)

فالشيطان يدعو الناس، ليستجيب له منهم من يكونون حزبه، فإذا صاروا حزبه قادهم أو ساقهم فكانوا من أصحاب السعير يوم الدين.

● وقال الله عز وجل بشأن فرعون وجنوده في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (١١)

أي: وجعلناهم بمقتضى النظام العام الذي فطرنا الناس عليه، إذ جعلناهم ذوي خصائص قيادية ومختيرين مُمتحنين في الحياة الدنيا، أئمة يَدْعُونَ إلى مذهبهم الكفريّ الباطل، فمن استجاب لهم كان مصيره إلى عذاب النار، وكلّ من الدّاعين والمستجيبين يعملون أعمالهم باختيارهم الحرّ، بمقتضى النظام التكوينيّ العام الذي جعله الله في فطرته التي فطر الناس عليها.

● وقال تعالى في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزل) مبيّناً ما يقول الشيطان يوم القيامة للذين استجابوا له بعد أن يقضي الله بين العباد:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْوَ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ .

فبين الشيطان أنه لم يكن منه إلا أن دَعَاهُمْ فاستجابوا له، فلم يكن منه إكراه ولا تكليف إلزامي.

ما أنا بمصرخكم: أي: ما أنا بمغيثكم.

● فمن استجاب وانتظم في حزب الشيطان، أو في حزب إمام من أئمة الكفر والضلال، وجد نفسه خاضعاً للأوامر والنواهي التي تُوجّه له من قِبَل مَنْ جعله لنفسه إماماً.

وقد أبان الله أن الأتباع يخاصمون أئمتهم يوم الدين، بأنهم كانوا يَمَكُرُونَ بهم ليلاً ونهاراً، فيأمرونهم بأن يكفروا بالله وأن يجعلوا له أنداداً، فقال جلّ وعلا في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزل):

﴿ . . . وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْخُنْ صَدَدْنَا عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَ كُرْبًا بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَتْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ .

لقد كانوا يوجهون لهم الأوامر والنواهي لأنهم استجابوا لدعوتهم، وانتظموا في حزبهم .

\* \* \*

### منزلة الدّعوة إلى دين الله في سلّم الأولويات الجهادية

على المسلمين جميعاً ولا سيما الدعوة إلى الله أن يضعوا نُصْبَ أعينهم دوماً أن الدعوة إلى دين الله بين الناس، بعد مجاهدة النفس لإصلاحها، تحتل منزلة الدرجة الأولى في مُدَرَج الأولويات الجهادية لإعلاء دين الله ونشره في العالمين.

إنّ الوضع الذي يتهيأ به انتشار الإسلام عن طريق الدّعوة إلى الله هو الفتح الحقيقي الأعظم عند الله، أمّا نصرُ المسلمين على أعدائهم، وسُقُوطُ بُلدان الكفر في أيدي المسلمين بالقوة المسلّحة، فهو فتح من الدرجة الثانية، إلا أن يكون سبباً لانتشار الإسلام ودُخُولِ الناس فيه أفواجاً.

فقد وصف الله عزّ وجلّ في أوّل سورة (الفتح/ ٤٨) مصحف/ ١١١ نزول) صلح الحديبية الذي جرى بين الرسول ﷺ ومشركي مكة بأنه فتح مبين، فقال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾

أي: إنّنا فتحنا لك فتحاً واضحاً جلياً لانتشار الإسلام وامتداده عن طريق الدّعوة إلى دين الله، وصراطه المستقيم.

وذلك لأنّ الدّعوة إلى الله قد انطلقت بسببه دون أن تَقِفَ في وجهها

عوائق من ألد أعدائها يومئذٍ، وهم مشركو قُريش، لقد انطلقت الدعوة إلى الإسلام بعد صلح الحديبية في مكة، وفيما حولها، وفي قبائل العرب، وأخذ الإسلام ينتشر بحرية، وسعى الدعاة المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنين، في أهل مكة وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بالدعوة بعد صلح الحديبية خلقٌ كثير.

قال الزهري: فما فُتِحَ في الإسلام فَتُحَ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ التَّقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقَوُا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقُلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْبِكَ السَّنَتَيْنِ (أي: من صلح الحديبية الذي كان في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة حتى فتح مكة) مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ<sup>(١)</sup>.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتَيْنِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ.

أقول:

ويغلط كثير من حاملي راية الجهاد في سبيل الله، فيَقْفِرُونَ عن إدراك هذه الحقيقة، ولا يَضَعُونَ من صور الجهاد في سبيل الله نُصَبَ أَعْيُنِهِمْ إِلَّا الْجِهَادَ بِالْقِتَالِ الَّذِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ ذُرْوَةِ السَّنَامِ مِنَ الْجَمَلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذُرْوَةَ السَّنَامِ تَقَعُ فِي الْحَاشِيَةِ الْمَرْتَفِعَةِ مِنْ جِسْمِ الْجَمَلِ، فَلَا يُبْدَأُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ الْجَمَلُ مَطَالِبَهُ، حَتَّى يَنْهَضَ وَيَقُومَ عَلَى قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ، وَيَصِيرُ قَادِرًا عَلَى حَمْلِ الْأَثْقَالِ، وَاجْتِيَازِ الصَّحَارِيِّ وَالْوُدْيَانِ، وَارْتِقَاءِ الْجِبَالِ.

\* \* \*

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).

## المقالة الثامنة

### أقسام الدعاة إلى دين الله والأمين بالمعروف الناهين عن المنكر

فريق حَمَلَة رسالة الدعوة إلى دين الله، وفريق حَمَلَة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلُّ منهما ينقسم إلى فئتين كُبرَيَّين، وكلُّ فئة من هاتين الفئتين الكُبرَيَّين ينقسمون إلى أقسام ذوات مستوياتٍ ودَرَجاتٍ متفاوتة، على حسب تفاضل المؤهلات والقدرات والمواهب لدى الأفراد.

وأَقْتَصِرُ على ذكر الفئتين الكبيرين، وهما الفئة العامة، والفئة الخاصة.

أما الفئة العامة: فهي فئة غير المتخصصين، ويدخُلُ فيها كلُّ مؤمن مسلم يَعْلَمُ شيئاً من دين الله علماً يقينياً، شهد له به عالم متخصص من علماء الدين الموثوق بهم لدى جماهير علماء الدين الإسلامي المتخصصين.

وأفرادُ هذه الفئة العامة يتحمَّلون من مسؤولية دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومن مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مقادير ما يعلمون بيقين من أمور الدين.

ويؤدِّي هؤلاء رسالتهم ما وجدوا لأدائها سبيلاً، خلال أعمالهم، وأنشِطَتِهِمْ، وفي أوقات فراغهم، ويتحرَّون أداءها متلطفين بالتوجيه والتبليغ



والتعليم والتُّضح لمن يَأْتَسُونَ أنهم ذَوُو حَاجَةٍ لها، تعليماً أو تذكيراً أو موعظةً بالترغيب والترهيب، ومن الخير دائماً أن يكون أداؤهم لرسالاتهم بصورة غير مباشرة، وأن تُتَهَيَّرَ فيها المناسبات العارضات، والمحادثات والمذاكرات والمداومات في مختلفِ أُمُورِ الحياة، التي لا يَشْعُرُ معها المقصودُ بالتوجيه والتعليم والتُّضح والموعظة، أن الحديث موجَّهٌ له قصداً.

ويكون هذا في مجال الأسرة، وفي مجالات الأعمال والأنشطة التي تكتسبُ بها معاش الحياة، وفي مجالس التسلية، ومجالس السَّمَر، وعند كلِّ لقاء مع إنسان مُسْتَعِدٌّ لأن يستمع حديثاً، في إقامة أو سفر.

ويكون هذا أيضاً في مختلفات الأحوال، في الصحة والمرض، والسُّلْم والحرب، والنَّعمة والمصيبة، والعُسْر واليسر، والاستمتاع والبؤس، والمسرات والأحزان، والجُدُّ والهزل، إلى غير ذلك من أحوال.

ومن صُورِ الأنشطة التي يمكن وَيَحْسُنُ أن يُوَدِّيَ أفراد هذه الفئة العامة رسالتهم بها ما يلي:

● بيان إتقان صَنَعَةِ الخالق في كونه - بيان أن الله واحدٌ لا شريك له في ربوبيته فلا يصحَّ عقلاً أن يُشْرِكَ الناس بعبادته شيئاً - حديثٌ حَوْلَ عَدَلِ الله وَحِكْمَتِهِ في خَلْقِهِ - حَدِيثٌ حَوْلَ أن الله قد خلق الناس ليمتحنهم في هذه الحياة الدنيا فلا بُدَّ أن يُحَاسِبَهُمْ على أعمالهم ويجازيهم - حديثٌ حَوْلَ الدار الآخرة والجنة والنار - حديثٌ حَوْلَ إعجاز القرآن وأنه حقٌّ لا رَيْبَ فيه، وأنَّ المُنْصِفِينَ من علماء العلوم الكونية من غير المسلمين يَدْخُلُونَ في الإسلام كلِّما اكتشفوا ما جاء في القرآن من حقائق علمية - إلى غير ذلك مما يَصْلُحُ في الدعوة.

● تعليمُ آيةٍ أو سورة من القرآن - تَعْلِيمُ حديثٍ صحيحٍ من أحاديث الرسول تلقاهُ حَامِلُ الرسالة بالضَّبْطِ التام عن عالم بالدين متخصص - نَصِيحَةٌ

حول خلق من أخلاق الإسلام كالصدق، والأمانة، والعفة، والوفاء بالعهد والوعْد، ورعاية حقوق الجار، ورعاية حقوق الفقراء والمساكين واليتامى والضعفاء، ومن الخير أن تكون هذه النصيحة بأسلوب غير مباشر، كعرض قصة فيها تحقيق المقصود والإقناع بالمراد - نصيحة بشأن وجوب اجتناب رذيلة خلقية أو سلوكية، كالظلم، والعدوان على حقوق الناس أو أعراضهم وكراماتهم، والقتل، وأكل أموال الناس بالباطل، والسرقة، والزنا، وغيرها من كبائر الإثم، ومن الخير دائماً أن تكون النصيحة بأسلوب غير مباشر.

● عَرَضُ حَدِيثٍ مِنْ أَحْدَاثِ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ قِصَصِ الصَّحَابَةِ وَفَضْلَاءِ التَّابِعِينَ وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ أَوْ عَاقَبَهُمْ بِعَذَابٍ مَعْجَلٍ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

قراءةٌ بحث من كتاب من كتب أحاديث الرسول ﷺ، أو من كتب الأخلاق، أو قراءةٌ تفسير آية، أو سُورَةٍ مِنْ كِتَابِ مُعْتَمَدٍ لِدَلِي الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ بِعِلْمِ الدِّينِ - قِرَاءَةُ قِطْعَةٍ أَدْبِيَّةٍ مِنْ شِعْرِ أَوْ نَثْرٍ تَتَضَمَّنُ مَعَانِيَ دِينِيَّةً صَحِيحَةً.

إلى غير ذلك من أمورٍ كثيرةٍ جداً يَتَفَتَّقُ عَنْهَا ذَهْنُ حَامِلِ الرِّسَالَةِ، لِتَوْصِيلِ الْفِكْرَةِ أَوْ النَّصِيحَةِ أَوْ الْمَوْعِظَةِ لِمَنْ يُقْصَدُ تَبْلِيغُهُ أَوْ تَوْجِيهِهُ، كِاسْمَاعِ شَرِيطٍ مَسْجَلٍ لِأَحَدِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ، وَكَعَرْضِ شَرِيطٍ فِدْيُو قَدْ سُجِّلَ عَلَيْهِ حَدِيثٌ دِينِيٌّ أَوْ حِوَارٌ دِينِيٌّ بَيْنَ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْفِكْرِ وَالرَّأْيِ.

وقد دلّ على هذه الفئة العامة بالنسبة إلى رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة) ٩/ (مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ .

ودلَّ عليها بالنسبة إلى رسالة الدعوة إلى دين الله، ذكُرَ اللهُ عزَّ وجلَّ قصةً مؤمِنِ آلِ فرعونَ ودَعْوَتِهِ لقومه، وقد كان من آحاد الناس غير المتخصصين، ونظيرها قصة مؤمِنِ أصحاب القرية التي جاءها المرسلون والتي جاء بيانها في سورة (يس/ ٣٦/ مصحف/ ٤١ نزول) ونصوصٌ من أقوال الرسول ﷺ سبق بيانها في هذا الباب .

الفئة الخاصة: وهي فئة المتخصصين من حملة رسالة الدعوة إلى دين الله، أو من حملة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه الفئة يجبُ أن يتحقَّق في كُلِّ فردٍ من أفرادها المؤهلاتُ الملائمات للمستوى التخصصي الذي يقوم به، ومنها المؤهلاتُ العلمية، والمؤهلاتُ الفكرية، والمؤهلاتُ البيانية، والمؤهلاتُ النفسية والخُلُقِيَّة، مع الأوصاف الإيمانية والسلوكية التي تُرشِّحُ صاحبها لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين، ومع الالتزام بواجبات وآدابِ الدَّعوةِ إلى الله، إذا كان يحمل رسالة الدعوة إلى الله، والالتزام بواجبات وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان يحملُ بين المسلمين هذه الرسالة .

وسياتي إن شاء الله تفصيل كل ذلك .

\* \* \*

## الفصل الثاني

### أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايته وصيانته

وفيه مقولتان:

#### المقولة الأولى: نظرات تحليلية

وفيها خمس فقرات .

١ - ظاهرة تعاوية .

٢ - الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من الحماية والإصلاح .

٣ - من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض .

٤ - حماية سَفِينَةِ المجتمع الإسلامي من الغرق .

٥ - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها، وما يجب على من تُوَجَّه له الرسالة .

المقولة الثانية: استعراض طائفة من النصوص .



## المقولة الأولى

### نظرات تحليلية

- ١ -

### ظاهرة تعاونية

قال الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف / ١١٢ نزول) خطاباً  
للذين آمنوا:

﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْمُدُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ  
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

بالتأمل المتأنّي والتفكير الدقيق، نلاحظ أن التّصحّ والإرشاد والأمر  
بالمعروف والنهي عن المنكر بالرّفق واللين والموعظة الحسنة، ظاهرة  
اجتماعية تعاونية على البرّ والتّقوى بين أفراد وجماعات المجتمع الإسلاميّ  
المثالي.

فالإنسان الفرد ضعيف عن السيطرة على أهواء نفسه وشهواتها، وكبح  
جماعها، ولا سيّما إذا نزعّه من الشيطان نزعاً، وتواترت عليه وسائسه  
وتسويلاته<sup>(١)</sup>، وأحاط به قرناء الشوء.

(١) التسويل: هو الإطماع بالباطل.

فهو مع الاستعادة بربه في هذه الحالة يحتاج إلى مُسَاعَدَةٍ من أخ مؤمن أو أكثر، لتَقْوَى بهم إرادته، وتَنْجِلِي بهم بِصِيرْتُهُ، وعندئذٍ يستطيع أن يتغلب على نوازع نفسه، التي تَدْفَعُهُ إلى تلبية رغبات أهوائها وشهواتها الجانحات عن سِوَاءِ الصراط .

فنفسُ الإنسان متى انطلقت مُطْلَقَةً العِنَان، دُونَ قِيَادَةِ حَكِيمَةٍ من عَقْلِ رشيد، وإرادة حازمة، جازت ذات اليمين أو ذات الشمال، وخرجت عن غاية حَدِّي الصراط المستقيم، وتوغّلت في متاهات السُّبُل والمسالك، التي تستدرج سَالِكَهَا إلى المهالك، إذ تَسْتَهْوِيهِ لارتكاب كبائر الإثم والعصيان، من الفِسْقِ إلى الفجور، فالكُفْرِ والطغيان .

لكن المجتمع الذي يكون أفرادُه بعضهم على بعضٍ رُقباءً، رجالاً ونساءً، يكون له ضَغْطٌ اجتماعيٌّ يَمْنَعُ الأفراد من الانحراف العلنيِّ، ويكون له قُوَّةٌ انتظام تَسْرِي في الأفراد، فتُحَبِّبُ إلى نفوسهم الانسجامَ مع حركته وعاداته وتقاليده، وتُكْرَهُ إليها الشُّذُوذَ والخروجَ عن نظام مسيرته المشهودة للْعُمُوم، في حركته وعاداته وتقاليده ومَحَابِّهِ ومَكَارِهِه .

على أن الانحراف السريِّ الَّذِي قد يحدثُ من بعض الأفراد لا بُدَّ أن يَنْكَشِفُ يوماً ما، وعندئذٍ يَخْضَعُ المنحرف للمراقبة الزائدة والمتابعة، وتَوَجَّهَ له الضواغط الاجتماعية القويَّة المقومة لاعوجاجه، والمعدلة لانحرافه .

وهذا من شأنه أن يُخَفِّفَ الانحرافَ في المجتمع إلى أدنى الحدود المُمَكِنَةِ في واقع مجتمعاتٍ بشريَّةٍ سَوِيَّةٍ .

وإذْ جَعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ المؤمنين إخوةً، برابطة الإيمان والإسلام، مع رابطة الاشتراك في الإنسانيَّة المنحدرة من أصل واحد، في حين أن الأخوة تَسْتَدْعِي التوادَّ والتحابُّ والتعاونَ والتناصرَ والموالاتة بكلِّ معانيها، فالإخوة المؤمنون بعضهم أولياء بعض، وهذا يوجب أن يكون بعضهم رقباء على

بعض فيما يظهر من أمورهم، وأن يكون بعضهم لبعض أعواناً وأنصاراً على كلِّ عدوِّ لهم، حتَّى نفوسهم ووساوسِ شياطينهم، وما يُوحون إليهم من تسويلات، وأن يكون بعضهم لبعض نصيحة مُرشدين، ثمَّ أمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يُريدون لهم الخير، ويكرهون لهم الشرَّ، ويخافون عليهم من الانزلاق إلى مهالكهم بالمعاصي وكبائر الإثم، ويخافون عليهم أن يكونوا من أهل النار، يُعدَّبون فيها مع المعدِّين.

فِدافع الأخوة الإيمانيَّة، والمحبة النابعة منها، وبدافع ابتغاء رضوانِ الله والظفر بالمنازل الرفيعة بجناتِ النعيم، وبمشاعر الرحمة بإخوانهم في الدِّين، ينصرون كلِّ فزْدٍ منهم على نفسه، إذا نزعَتْ به إلى معصية ربِّه، متأثرة بوساوس الشياطين ونزغاتهم وتَسويلاتهم، فيقدِّمون له التُّصحَّ بسدادٍ في الرأي، وإخلاصٍ في القول، واستِعْطافٍ بالمودة، ويُرشدونه إلى التي هي أقوم، ويأخذون بيده برفق ولُطفٍ ومساعدةٍ جَميلةٍ، لالتزام صراطِ الله المستقيم، ويحْمُونَهُ من الانزلاق، ومن العثرات، ويُنْهَضُونَهُ إذا عَثَرَ، ويُخْرِجُونَهُ من المزالقِ إذا انزَلَقَ فيها.

فإذا تعنَّت عليهم، مُستَحِبّاً ما هو فيه من لذاتِ محرّمات، أمرّوه بالمعروف، ونهّوه عن المنكر، بشيء من الحزم، وأعانوه على الاستمتاع بما أباح الله من لذاتِ، عسى أن يغلب صوتُ الحقِّ النافذُ من أذنيهِ إلى قلبه، صوتَ نَفْسِهِ الأُمارة بالسوء، وصوتَ الشيطانِ الموسوسِ داخلِ نفسه، يدعوه إلى الاستمتاع باللذاتِ المحرّمات، فيستجيبَ لهم ويُطع، ويستقيم على صراطِ الهدى، في سلوكه الظاهر والباطن.

وبهذا يتبادل المؤمنون مُساعَدةً بعضهم بعضاً، ونُصرةً بعضهم بعضاً على نفسه، برّدعه عن ظلمِ نفسه، وعن ظلمِ غيره، وهنا يأتي مَوْفِعُ القولِ الحكيمِ ذي المعنى الدقيق الذي قاله سيّدنا رسولُ الله ﷺ، فيما رواه البخاريّ



والإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:  
«انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا».

قيل: كَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟!..!

قال: «تَحْجِرُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

- ٢ -

### الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من الحماية والإصلاح

وبهذا التعاون التناضري بين المؤمنين المسلمين لحماية بعضهم بعضاً من الوقوع في معصية الله عز وجل، تظهرُ ذرورةٌ معاني كونهم بمثابة الجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمى، كما أبان الرسول ﷺ فيما رواه مُسلمٌ والإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال:  
قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

أي: تسارعت بقية الأعضاء لنصرتِه ومؤازرتِه وحمايته، ومشاركته الآلام، وللسهر من أجله، وارتفاع درجة حرارتها لإمداده بالمعونة، وإنقاذه من ورطته.

فبِنصرة المؤمنين بعضهم بعضاً على أنفسهم بالتضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفقٍ وتلطُّفٍ وحُسنِ عبارة، وبراعةِ أسلوب، يظهرُ حقاً أن بعضهم أولياء بعض، إذ إن من أبرز عناصر الولاية النصرة.

فمن معاني الولي: الناصر، والمحِبُّ، والتابع، والحليف، والمنعم، والمنعم عليه.

ومن أهم عناصر النَّصْرَةِ نُصْرَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى نَوَازِعِ نَفْسِهِ، وَنَوَازِعِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِينَ يَسْتَهْوُونَ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، الَّتِي تَجْرُهُ إِلَى عَذَابِ أَلِيمٍ.

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (التوبة/ ٩) مِصْحَفٍ/ ١١٣  
نَزُولٍ) يَصِفُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

فَأَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ عُنَاوِرِ الْوِلَايَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَأْمُرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَبْلَ هَذَا يَأْتِي فِي سَلْمِ الْإِضْلَاحِ التُّصْحُحِ وَالْإِرْشَادِ، بِمَقْتَضَى التَّرْتِيبِ الطَّبِيعِيِّ لِلْأُمُورِ، وَبِمَقْتَضَى اتِّبَاعِ السِّيَاسَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الْقِرَائِيَّةِ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (العصر/ ١٠٣) مِصْحَفٍ/ ١٣) نَزُولٍ) أَنَّ مِنْ صِفَاتِ التَّاجِينَ مِنَ الْخُسْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنَّهُمْ يَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ وَيَتَوَاصَوْنَ بِالصَّبْرِ، فَهَمَّ يَتَعَاوَنُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْحَقِّ، وَأَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ، فَهَذَا التَّوَاصِي هُوَ مِنْ أَهَمِّ عُنَاوِرِ كَوْنِ بَعْضِهِمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ.

- ٣ -

مِنْ شُرُوطِ بَقَاءِ التَّمَكِينِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَرْضِ

حَتَّى الْوَعْدُ بِاسْتِخْلَافِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَرْضِ بِالْحَكْمِ وَالسُّلْطَانِ الْمَعَانِ بِالْمَعُونَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، الْمَسْتَتَبِعُ بِالْوَعْدِ بِأَنْ يُمَكِّنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ ذَوِي قُوَّةٍ وَسُلْطَانٍ، مَشْرُوطًا بِاتِّصَافِهِمْ بِصِفَاتٍ، مِنْهَا أَنْ يُوَاطِبُوا عَلَى الْأَمْرِ

بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكونَ هذا ظاهرة اجتماعية فيهم.

فقال الله عز وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَنَكَّرُوا عَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا  
أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ  
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾  
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ .

وانزَلَ اللَّهُ عز وجل بَعْدَهُ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ  
وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾ .

فجعل الله من الصفات الدائمة للمؤمنين سواءً أكان لهم تمكين في الأرض أم لم يكن لهم تمكين أن يعملوا الصالحات، وذلك بأن يعبدوه لا يشركون به شيئاً، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويطيعوا الله ورسوله.

أما الذين يُمكنُ الله لهم في الأرض بالقوة والسلطان فشرط بقاء هذا التمكين مع الصفات السابقة أن تكون لهم ثلاث صفات ظاهرات:

- إقامة الصلاة.
- وإيتاء الزكاة.
- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع ما يسبقه من وسائل تربية منها التوضيح والإرشاد إحدى الظواهر اللازمة للمجتمع الإسلامي الذي يُمكنُ له في الأرض، ويبقى له هذا التمكين.

فإذا اختلَّت شروط بقاء التمكين لهم في الأرض لم يكن لهم عند الله

وَعَدُّ بَانَ يُتَّقِي لَهْم هَذَا التَّمَكِينِ الْمُعَانَ بِمَعُونَاتٍ غَيْبِيَّةٍ مِنْ لَدُنْهُ، بَلْ يَكْلُهُمْ  
إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِلَى أَسْبَابِهِمْ.

- ٤ -

### حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق

وبقيام أفراد وجماعات المجتمع الإسلامي بوظيفة التُّصْح والإرشاد،  
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وَفَقَّ المنهج التربويِّ القرآنيِّ، تسييرُ سفينةِ  
المجتمعِ المؤمنِ المسلمِ في بَحْرِ الزَّمَنِ آمَنَةً مِنَ التَّعَرُّضِ لِلغَرَقِ، لِأَنَّ رُكَّابَهَا  
يَسِيرُونَ بِهَا وَفَقَّ مِنْهُجِ اللَّهِ لَهُمْ، فَيَحْمِيهَا اللَّهُ لَهُمْ، بِسَبَبِ قِيَامِهِمْ بِحِمَايَتِهَا  
وَحِرَاسَتِهَا الْمُسْتَمِرَّةِ، مُتَعَاوِنِينَ مُتَنَاصِرِينَ، مُتَنَاصِحِينَ، مُتَوَادِّينَ، آمِرِينَ  
بِالمَعْرُوفِ وَنَاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخِذِينَ عَلَى أَيْدِي الْمَفْسِدِينَ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ  
خَرَقِ السَّفِينَةِ بِاسْمِ حَرِّيَاتِهِمُ الْفَرْدِيَّةِ، وَذَرَائِعِهِمُ الْمَضَلَّةِ.

فَكُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ رَقِيبٌ وَحَارِسٌ وَقَائِمٌ بِوَجْهِهِ ضَمْنٌ مَجَالِ حَرَكَتِهِ فِي  
مَجْتَمَعِهِ، فَإِذَا ضَعُفَتْ إِرَادَةُ أَحَدِهِمْ فِي صِرَاعِهِ مَعَ نَفْسِهِ، وَمَالَ إِلَى الْإِنْحِرَافِ  
أَعَانَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ الْقَرِيبُ مِنْهُ، فَنَصَحَهُ وَأَرْشَدَهُ وَأَنْهَضَهُ مِنْ كَبُوتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ  
بِالمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِحِزْمٍ إِذَا لَمْ يَسْتَجِبْ بِالرَّفَقِ، فَإِذَا تَمَادَى أَخَذَ  
عَلَى يَدِهِ بِقُوَّةٍ إِنْ تَسَرَّ لَهُ ذَلِكَ، وَإِلَّا اسْتَعَانَ بِمُؤْمِنِينَ آخَرِينَ فِي دَائِرَةِ حَرَكَتِهِ  
الْمُنْحَرَفِ، فَإِذَا عَظُمَ الْإِنْحِرَافُ فِي الْمَجْتَمَعِ تَدَخَّلَتْ دَائِرَةٌ أَوْسَعُ مِنْ دَائِرَةِ  
حَرَكَتِ الْمُنْحَرَفِينَ، وَهَكَذَا حَتَّى يَهْبَ أَهْلُ الْبَلَدِ لِتَقْوِيمِ الْإِنْحِرَافِ وَتَغْيِيرِ  
الْمُنْكَرِ، وَتَتَّسِعُ الدَّوَائِرُ كُلَّمَا تَمَادَى الْإِنْحِرَافُ فِي الْإِتْسَاعِ، وَتَتَدَخَّلُ الدَّوَائِرُ  
الْكُبْرَى لِلْقَمْعِ إِذَا كَانَ الْمُنْكَرُ مِمَّا يَخْشَى مِنْهُ غَرَقُ سَفِينَةِ الْمَجْتَمَعِ.

ويبدأ تغييرُ المنكرِ بِالْإِنْكَارِ الْقَلْبِيِّ، الَّذِي يَظْهَرُ لَهُ آثَارٌ فِي قِسْمَاتِ  
الْوَجْهِ، وَحَرَكَاتِ الْجِسْمِ، وَأَبْرَزُهَا مَفَارِقَةُ مَجْلِسِ الْمُنْكَرِ، ثُمَّ بِالْإِنْكَارِ

اللِّسَانِيَّ، نَصْحًا وَإِرْشَادًا فَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، ثُمَّ بِالتَّغْيِيرِ الْعَمَلِيِّ بِالْيَدِ إِذَا كَانَ الْقَائِمُ بِهَذَا التَّغْيِيرِ أَوْ الْقَائِمُونَ بِهِ يَمْلِكُونَ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يَتَسَبَّبَ عَمَلُهُمْ بِشَرِّ أَكْبَرَ مِنْ وَقُوعِ الْمُنْكَرِ، هَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْقِرَائِيُّ الْإِضْلَاحِيَّ الَّذِي يُسْتَفَادُ مِنْ قَوَاعِدِهِ التَّرْبُويَّةِ الْعَامَّةِ، وَعَلَيْهِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

إِنَّ دَلَالََةَ التَّرْتِيبِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَتَعَلَّقُ بِحَالَةِ وَصُولِ فَاعِلِي الْمُنْكَرِ إِلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْاسْتِجَابَةِ لَوْسَائِلِ النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِرَفْقٍ وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، فَإِذَا اسْتَجَابُوا فَلَا دَاعِيَ لِمَبَاشَرَةِ عَمَلِيَّةِ التَّغْيِيرِ، لِأَنَّ فَاعِلِي الْمُنْكَرِ هُمُ الَّذِينَ يُحَقِّقُونَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ.

لَكِنْ إِذَا أَصْرَرُوا عَلَى فِعْلِ الْمُنْكَرِ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ نَصِيحَتِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ، وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ بِرَفْقٍ وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، ثُمَّ بِحِزْمٍ وَشَيْءٍ مِنَ الْعَنْفِ الْقَوْلِيِّ، فَإِنَّهُ عِنْدئذٍ يَأْتِي دَوْرُ التَّغْيِيرِ الْقَسْرِيِّ، وَوَسِيلَتُهُ التَّغْيِيرُ بِالْيَدِ، إِذَا أَمَكَّنَ ذَلِكَ دُونَ حَدُوثِ فِتْنَةٍ وَشَرِّ أَكْبَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ.

لَكِنْ إِذَا كَانَ التَّغْيِيرُ بِالْيَدِ غَيْرَ مُمَكِّنٍ، أَوْ كَانَ يُحْدِثُ فِتْنَةً وَشَرًّا أَكْبَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ الْاِقْتِصَارُ عَلَى الْإِنْكَارِ بِاللِّسَانِ، وَهُوَ أَحَدُ عُنَاوِرِ الْمَرْحَلَةِ السَّابِقَةِ، وَإِذَا كَانَ الْإِنْكَارُ بِاللِّسَانِ يُحْدِثُ فِتْنَةً وَشَرًّا أَكْبَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ الْاِقْتِصَارُ عَلَى الْإِنْكَارِ بِالْقَلْبِ، مَعَ اتِّخَاذِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي قِسْمَاتِ الْوَجْهِ، وَحَرَكَاتِ الْجِسْمِ، وَمَفَارِقَةِ مَجْلِسِ الْمُنْكَرِ إِنْ أَمَكَّنَ ذَلِكَ، وَلِلضَّعِيفِ أَنْ يَتَّخِذَ ذَرَائِعَ لِمَفَارِقَةِ الْمَجْلِسِ.

لكن المجتمع الإسلامي إذا كان مجتمعاً قائماً بوظيفته دواماً فإن حالة الضعف هذه لا تُوجد فيه، إذ تكون قوة جمهور المسلمين هي الدرع الواقي لحماة سفينة المجتمع وحراسيها، الناصحين المرشدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وعليهم تنطبق صورة المثل الذي ضربهُ الرَّسُولُ ﷺ للمجتمع الإسلامي المثالي الذي يملك أن يأخذ على أيدي المفسدين الذين يتذرعون بذرائع شتى لتزيين إفسادهم، الذي له صفة التأثير على سفينة المجتمع الإسلامي.

فقد روى البخاري بسنده عن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا.

فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا».

القائم في حدود الله: هو العامل بما هو واجب عليه، التارك لما هو محرّم عليه، فحدود الله أوامره ونواهيه الإلزامية، وأحكام شريعته لعباده.

استهّموا على سفينة: أي: اقترعوا على مكان كل منهم فيها.

أما المجتمع الإسلامي الذي كثر الفساد فيه فسفينة غرقى، وأهلها يتخبطون أفراداً وجماعات على أمواج البحر، أو في زوارق، وعلى خشبات متفرقات متكسرات من سفينتهم، وبعضهم غرق وأمسى من غير أهلها، أما أهلها فهم في شتات.

اللهم أجمع شتات المسلمين بفضلك ومَنَّك وكرمك، وأعدّ لهم  
مُجْتَمَعَهُمُ الإِسْلَامِي السَّوِيّ، وأضِلِّحْ لهم سفينتهم.

وسياتي إن شاء الله مزيد بيان وشرح لموضوع تغيير المنكر باليد في  
الفصل السابع من الباب الرابع.

\* \* \*

- ٥ -

ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها،  
وما يجب على مَنْ تُوَجَّهَ لَهُ الرسالة

أولاً - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها:

على المسلم حينما يَحْمِلُ الرِّسَالَةَ وَيُرِيدُ تَأْدِيَةَ وِظَائِفِهَا، أَنْ يَضَعَ نُصْبَ  
عَيْنِيهِ دَوَامًا، أَنَّهُ يَحْمِلُ رِسَالَةَ رَبَّانِيَّةٍ، وَأَنَّهُ مُكَلَّفٌ أَنْ يُؤَدِّيَهَا ضِمْنَ الحُدُودِ  
الَّتِي أَوْصَى اللّهُ وَرَسُولُهُ بِهَا، فَلَا يَتَجَاوَزُهَا، مُتَأَثِّرًا بِعَوَامِلَ نَفْسِيَّةٍ تَجْعَلُهُ  
يَخْرُجُ عَنِ آدَابِ آدَاءِ الرِّسَالَةِ؛ وَإِلَّا كَانَ ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ، وَكَانَ خَارِجًا  
عَنِ مَنَهاجِ المرسلين.

فعلية إذا أَرَادَ أَنْ يُؤَدِّيَ وِظَائِفَ رِسَالَتِهِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِآدَابِ التَّبْلِيغِ وَالتُّصْحِ  
وَالإِرشَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ الَّتِي سِيَّاتِي فِي أَثْنَاءِ الكِتَابِ  
تَفْصِيلُهَا مَعَ إِدْلِيَّتِهَا إِنْ شَاءَ اللّهُ، أَخْذًا مِمَّا جَاءَ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَنِ.

ومما ينبغي هُنَا بيانه ما يلي:

أَنْ يَلْتَزِمَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ بِالحِكْمَةِ، وَتَكْرِيمِ مَنْ يُوجَّهَ لَهُ رِسَالَتِهِ، وَالرَّفْقِ  
بِهِ، وَمَخَاطَبَتِهِ بِلَيِّنِ القَوْلِ مَعَ حُسْنِ بَيَانٍ، وَأَنْ يَهْتَبِلَ الفُرْصَةَ المُنَاسِبَةَ المَلَائِمَةَ  
لِاجْتِيَازِ عَقَبَاتِ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُشْعِرَهُ بِبَالِغِ حِرْصِهِ عَلَى صَلَاحِ حَالِهِ، وَنَجَاتِهِ مِنْ

عذاب الله، وظفره بالسعادة العاجلة والآجلة يوم الدين، وأن لا يُشهر به فاضحاً.

وأن لا يُواجهه باستغلاء واستكبار وترفع، وأن لا يُشعره بأنه خير منه عند الله وأفضل، وأن لا يستثير غضبه بما يجرخ مشاعره تجاه شخصه، أو ذويه الأقربين، أو آبائه وأجداده الموتى، أو عشيرته، أو قبيلته، أو قومه، أو لغته، أو لونه، أو بلده، أو غير ذلك مما يمكن أن يثير في نفسه غضباً، أو كراهية، أو نفوراً.

وأن لا يقسو عليه، ما لم يجدّه مُجَاهراً مكابراً معانداً متحدّياً لأحكام الدين وشرائعه، مع ادعائه أنه مُسلمٌ.

وقد يُؤذّن لعالم ذي مكانة في مجتمعه، بأن يقسو بالعبارة أحياناً على سلطانٍ مُستهين بتطبيق أحكام الإسلام في إدارته وحكمه، لا في سلوكه الشخصي الخاص الذي لا يُجاهر به أمام العامة، فقد تكون هذه القسوة في بعض الأحيان جزأةً حكيمة نافعة تزدع السلطان عن غيّه، إذ يخشى أن يتقلب عليه جمهور الناس انتصاراً لعالمهم الموقر المحبوب لديهم.

● روى الحاكم في مستدركه بسنده إلى جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، أَنَّ عِيَاضَ بْنَ غَنَمِ الْأَسْرِيَّ وَقَعَ عَلَى صَاحِبِ دَارِ حَيْنٍ فُتِحَتْ (أي: عذبه بالضرب والجلد) فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ فَأَغْلَظَ لَهُ الْقَوْلَ، وَمَكَثَ هِشَامٌ لَيْالِي فَأَتَاهُ هِشَامُ مُعْتَدِراً فَقَالَ لِعِيَاضَ:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً لِلنَّاسِ»؟

فقال له عياضٌ: يَا هِشَامُ إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا الَّذِي قَدْ سَمِعْتَ، وَرَأَيْنَا الَّذِي قَدْ رَأَيْتَ، وَصَحِبْنَا مَنْ صَحِبْتَ، أَلَمْ تَسْمَعْ يَا هِشَامُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:



«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ لِدَيِّ سُلْطَانٍ فَلَا يُكَلِّمُهُ بِهَا عَلَانِيَةً، وَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ، وَلْيَخْلُ بِهٖ، فَإِنْ قَبِلَهَا قَبِلَهَا، وَإِلَّا كَانَ قَدْ آدَى الَّذِي عَلَيْهِ وَالَّذِي لَهُ».

وَإِنَّكَ يَا هِشَامُ لِأَنْتَ الْمُجْتَرِيءُ إِنْ تَجْتَرِيءَ عَلَى سُلْطَانِ اللَّهِ، فَهَلَّا حَسِبْتَ أَنْ يَتَتَلَكَ سُلْطَانُ اللَّهِ، فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللَّهِ؟!».

قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرِّجَاهُ<sup>(١)</sup>.

● وروى الإمام أحمد في مسنده عن عامر بن واثل، أن رجلاً مرَّ على قومٍ في حياة رسول الله ﷺ، فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، فلما جاوزههم قال رجلٌ منهم:

إني لأبغضُ هذا في الله.

فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت، والله لنبئنته، ثم قالوا: يا فلان - لرجلٍ منهم - فم فأدرِكُهُ وأخبره بما قال.

فأدرِكُهُ رسولُهُم فأخبره، فأتى الرجلُ رسولَ الله ﷺ، ودكَّرَ له ما قال، وطلبَ منه أن يستدعيَ الرجلَ، فدعاه الرسولُ له، وسأله، فقال الرجلُ: قد قلتُ ذلك.

فقال الرسولُ ﷺ: «لِمَ تُبغِضُهُ؟».

فقال الرجلُ: أنا جاره، وأنا به خابِرٌ، والله ما رأيته يُصلي صلاةً قطُّ إلا هذه المكتوبة.

قال: فاسأله يا رسولَ الله، هل رأيته أخزئها عن وقتها؟ أو أسأت الوضوءَ لها؟ أو الركوعَ والسُّجودَ فيها؟

فسأله الرسولُ، فقال الرجلُ: لا، والله ما رأيته يصومُ شهراً قطُّ إلا هذا

(١) انظر المستدرک على الصحيحین للحاکم ج ٣ ص ٢٩٠.

الشَّهْرَ الَّذِي يَصُومُهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ .

قال : فاسأله يا رسول الله ، هل رأيتني أفطرتُ فيه ؟ أو نَقَصْتُ مِنْ حَقِّهِ شَيْئاً ؟  
فقال الرجل : لا ، واللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُعْطِي سَائِلاً وَلَا مِسْكِيناً قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُهُ  
يُنْفِقُ شَيْئاً مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا هَذِهِ الزَّكَاةُ الَّتِي يُؤَدِّيهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ .  
قال : فاسأله يا رسول الله ، هل رأيتني نَقَصْتُ مِنْهَا ؟ أَوْ مَا كُنْتُ فِي طَالِبِهَا  
الَّذِي يَسْأَلُهَا ؟

فسأله ، فقال الرَّجُلُ : لا ، فقال رسول الله ﷺ : « قُمْ فَلَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ » .

● وروى الإمام مسلم بسنده ، أن رجلاً قال : واللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ .

فقال رسول الله ﷺ ، يُحَدِّثُ عَنْ رَبِّهِ أَنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :  
« مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ إِلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ ، وَأَحْبَطْتُ  
عَمَلَكَ » .

● وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ مرَّ بقَبْرِ وهو في طريقه إلى  
الطائف ، فسأل أبا بكر عن صاحبِ هذا القَبْرِ ، فقال : هذا قَبْرُ رَجُلٍ كَانَ عَاتِيَا  
عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ .

فغضب ابنه عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ ، وقال : يا رسول الله ، هذا قَبْرُ رَجُلٍ كَانَ  
أَطْعَمَ لِلطَّعَامِ ، وَأَضْرَبَ لِلسَّهَامِ ، مِنْ أَبِي قُحَافَةَ .

فقال أبو بكر : يُكَلِّمُنِي هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ ؟ !

فقال الرسول ﷺ : اكْفَفَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ . فانصرف الرجل . ثم أقبلَ  
الرسول ﷺ على أبي بكرٍ فقال :

« يَا أَبَا بَكْرٍ ، إِذَا ذَكَرْتُمُ الْكُفَّارَ فَعَمَّمُوا ، فَإِنَّكُمْ إِذَا خَصَصْتُمْ غَضِبَ الْأَبْنَاءُ  
لِلْآبَاءِ » .

فَكَفَّ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ .

ثانياً - ما يجب على من توجّه له الرسالة :

على المُسْلِمِ الذي تُوَجَّهَ لَهُ رِسَالَةُ التُّصْحِحِ والإِرشَادِ، أو الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، أَنْ لَا يَأْتَفَ وَلَا يَسْتَكْبِرَ وَلَا يَغْضَبَ، وَلَا تَأْخُذُهُ العِزَّةُ بالإثم، إذا كان من ذوي القوّة أو المال، أو الجاه، أو السُّلْطَانِ .

بل عليه أن يتقَبَّلَ ما يُوجَّهُ له حامداً شاكراً، وأن يسألَ اللهَ أَنْ يُلهمه السَّدَادَ والرُّشْدَ في أمرِهِ كُلِّهِ، وأن يَصْرِفَ عنه نَزَعَاتِ الشيطان، وأن يُقَدِّرَهُ على أن يتَغَلَّبَ على أهواءِ نفسه وشهواتها الجانحاتِ الجامحات .

وقد ذم الله عز وجل الذي تأخذه العِزَّةُ بالإثم إذا قيل له : اتقِ الله، وتوعَّدهُ بعذابٍ في جهنَّمَ على استكباره عن تقبُّلِ الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخويفِ من عذابِ الله، فقال اللهُ عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِيُنَّسَ أَلْمَاحِدُ ﴿٢٧﴾ .

وهو أَلَدُّ الْخِصَامِ : أي : وهو أشدُّ الخُصُومَةِ بالباطل من غيره، وأكثر المناخمين جَدَلًا، وأغلبهم لأقرانه بغير حق .

الْخِصَامِ : مَصْدَرُ خَاصَمَ، يقال : خاصم يخاصم مخاصمةً وخصاماً .

وَإِذَا تَوَلَّى : أي : إذا أدبَرَ، وإذا صار ذا وِلَايَةٍ عامَّة .

أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثم : أي : هو يَغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ، فتأخذهُ مشاعر اعتزازه بنفسه مُكَبَّلًا بسلاسل الإثم بعيداً عن مواطنِ تقوىِ الله، فتوقَّعهُ في جهنَّمَ يوم الدين،

بجريرة الإثم الذي ارتكبه .

لهذا لم يكن السلفُ الصالح يستكبرونَ عن الاستجابة للأمرِ بتقوى الله عزَّ وجلَّ، ولو كان من وجهه لهم مخطئاً في اجتهاده وفي وجهه نظره .

رُوي أنَّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير للمؤمنين، في حوارٍ بينهما: اتَّقِ اللَّهَ .

فأنكرَ على الرَّجُلِ بعض الحاضرين، وقال له: أتقولُ لأمير المؤمنين: اتَّقِ اللَّهَ؟!

فقال عمر رضي الله عنه: دَعُهُ فَلْيَقُلْهَا لِي، نِعَمَ مَا قَالَ، لَا خَيْرَ فِيكُمْ إِذَا لَمْ تَقُولُوهَا، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِذَا لَمْ نَسْمَعْهَا .

وجاء في خُطْبَةِ عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا وَلِيَ الخِلافةَ فيما رُوي عَنْ سَعِيدِ بنِ المسَيْبِ قَوْلُهُ:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَأَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِكَفِّهَا عَنِّي، وَأَعِينُونِي عَلَى نَفْسِي بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِحْضَارِي التَّصِيحَةَ فِيمَا وَلَانِي اللَّهُ مِنْ أَمْرِكُمْ»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

(١) انظر كنز العمال، الحديث ١٤١٨٤ .

## المقولة الثانية

### استعراض طائفة من النصوص

من غير النصوص التي سبق الاستشهاد بها حول هذا الموضوع استعرض طائفة أخرى، تُفيد الدارس المتدبر، وتعيّنه على الاستبصار إن شاء الله عزّ وجلّ.

١ - سياسة الأنبياء والمرسلين في أقوامهم كانت سياسة نُضح وإرشاد إلى طريق الهدى بصِدقٍ وأمانة.

دلّ على هذا قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَبْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٣﴾ أَبْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

وقول هود عليه السلام لقومه كما جاء في (الأعراف) أيضاً:

﴿أَبْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١١﴾﴾

وقول صالح عليه السلام كما جاء فيها أيضاً يخاطبُ قومه بعد أن أهلكوا:

﴿... يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ  
التَّصْحِيحَ﴾ (٧٨).

وقولُ شُعَيْبٍ عليه السلام كما جاء فيها أيضاً يخاطب قومه بعد أن  
أهلَكوا:

﴿... يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأَسَى عَلَى قَوْمٍ  
كَافِرِينَ﴾ (٩٢).

والنُّصْحُ في البيان الدَّعَوِيّ والإرشاديّ والإصلاحيّ هو أن يدلَّ الناصح  
مَنْ يَنْصَحُهُ على ما هو خيرٌ لَهُ في عاجل أمره أو آجله، ويُرْعَبُهُ فيه، ويَحْتَنُ  
عليه، ويبيِّن له عاقبة الأخذ بما نصحه به من خير، وعاقبة ما حذَّره منه من  
شر إذا لم يجتنبه.

٢ - وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص،  
أن رسول الله ﷺ خطبهم في سفرٍ عند منزِلٍ نزلوه، فقال:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ خَيْراً لَهُمْ، وَيُحَذِّرُهُمْ  
مَا يَعْلَمُهُ شَرّاً لَهُمْ...».

هذا أولُ الخطبة ولها في المُسْنَدِ تَبَيُّهُ (١).

أي: ما من نبيٍّ إِلَّا نَصَحَ أُمَّتَهُ بالتزام كلِّ ما يَعْلَمُهُ خيراً لهم، واجتناب  
كلِّ ما يَعْلَمُهُ شراً لهم.

٣ - وروى البخاريُّ ومسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال:  
«بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالتَّصْحِيحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

ومن النصح لكلِّ مُسْلِمٍ إرشاده وتعليمه، وترغيبه في الخير، وتحذيره

(١) انظر المجلد الثاني ص ١٦١.

من الشرّ، والأخذُ بيده إلى الاستقامة على صراط الله، وأمرُهُ بالمعروف ونهيه عن المنكر.

٤ - وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَلَهُ وَشَرِيْبَهُ وَقَعِيدَهُ.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ».

ثم قال من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٦﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٧﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم قال:

«كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْضُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَضْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرحلة تأتي بعد التَّصْحِحِ والإرشاد. والأخذُ على يد الظالم يكون من قبل مَنْ بأيديهم سُلْطَةُ الأخذِ على أيدي

(١) وروى الترمذي نحوه وقال: حديث حسن، انظر «رياض الصالحين» الحديث (١٩٦).

المجرمين، كما سيأتي إن شاء الله تفصيله .

وَلَتَأْتِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا: أي: وَلَتَعْطِفُنَّهُ عَطْفًا بوسائل مُلَيَّنَةٍ، كَمَا تُعْطَفُ الخَشْبَةُ أو الحديدية حَتَّى تَكُونَ إِطَارًا.

وهذه وظيفة الجماعة المؤمنة التي تَضَعُ على المنحرف بِقُوَّة الضغَط الجماعي، وبدوام مراقبتها، ودوام نُصْحِهَا، وحرارة عاطفتها ومودتها، وخوفها عليه من عذاب الله المعجل والمؤجل .

وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا: أي: وَلَتُحِيطُنَّهُ بِمَا يَحْسِبُهُ عن التَفَلُّتِ والخُرُوجِ عن دائرة رقابة جماعته المسؤولين عن الإحاطة به وِحْرَاسَتِهِ .

فَبَعْضُ النَّاسِ إِذَا لَمْ يُحَظْ هذه الإحاطة من جماعة حريصة عليه، حَارِسَةٍ له، تَفَلَّتْ وخرَجَ عن منهج الاستقامة، وعندئذٍ تجتأله الشياطين من كلِّ جهة .

٥ - وروى أبو داودَ والترمذيُّ عن أبي سَعِيدِ الخدري رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» .

قال الترمذي: حديث حسن .

٦ - وروى الترمذيُّ عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» .

قال الترمذي: حديث حسن .

٧ - وروى مُسْلِمٌ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:



«إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أَمْرًا، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَءٌ،  
وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ.»

قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال:

«لَا مَا صَلَّوْا.»

فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ: أي: فَتَرُونَ بعض أعمالهم مَعْرُوفَةً مُطَابِقَةً لأحكام  
الدين، وَتَرُونَ بَعْضَ أعمالهم مُنْكَرَةً مُخَالَفَةً لأحكام الدين.

فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَءٌ: أي: فَمَنْ كَرِهَ المنكر بقلبه فقد برىء.

وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ: أي: وَمَنْ أَنْكَرَ بلسانه أو بقلبه، ولم يُتَابِعْ ولم  
يُداهنْ ولم يُسائر، فقد سَلِمَ، والسَّلَامَةُ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْبُرْءِ.

وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ: أي: وَلَكِنَّ الَّذِي لَا يَبْرَأُ وَلَا يَسْلَمُ هو من رضي  
بقلبه ولم يُنْكَرْ بل تَابَعَ ووافق.

٨ - وروى الحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ بإسنادٍ حسن أن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ  
الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ،  
فَقَتَلَهُ.»

فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ: أي: أَمَرَهُ بالمعروف، وَنَهَاهُ عن المنكر، فغضب من  
توجيه الأمر والنهي له فقتله، إِذْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ.

\* \* \*

## الفصل الثالث

### نظرة عامة

### إلى أصناف الناس الذين تُوجّه لهم وظائف الرسالة

وفيه بيان ثمانية أصناف:

الصنف الأول: صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو منفتح النفس لها، لا يَرْفُضُ عرضها عليه، بل لديه استعداد لتقبّلها.

الصنف الثاني: صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة الدينية، إلاّ أنّه مُغْلَقُ النفس دُونَهَا، لاستغراقه بمطالب دُنْيَاهِ وَلذَاتِهِ وَأَهْوَاؤِهِ وَالْجَمْعِ وَالْمَنْعِ، فَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا.

الصنف الثالث: صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة بالإسلام، إلاّ أنّه مُغْلَقُ النفس عن تقبُّل شيء يتعلّق به، تعصّباً لما هو عليه من دينٍ أو مذهب. أو حرصاً على مصالحِهِ مما هو فيه من دينٍ أو كفرٍ بكلِّ دين.

الصنف الرابع: صنف عالمٌ بالعقائد الإسلامية، مستيقنٌ متابع، إلاّ أنّه ناقص المعرفة، وتغلبه أهواؤه وشهواته فهو عُرْضَةٌ دَوَاماً لارتكاب المعاصي والمخالفات.

الصنف الخامس: صنف عالمٌ بأسس الإسلام وعقائده، إلاّ أن عِلْمَهُ لَمْ يَقْتَرِنْ بِاعتقاد وإيمان جازم، وقد أعلن إسلامه منتسباً للأمة الإسلامية، ولَمَّا

يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ، وَلَيْسَ مَنَافِقًا فِي إِعْلَانِهِ.

الصف السادس: صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقنٌ مؤمنٌ بها، إلا أنه غافل عن مُقتَضِيَّاتِ إيمانه، قد استحوذت عليه أهواؤه وشهواته.

الصف السابع: صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، وعالمٌ بأنّها حقٌّ، إلا أنه جاحِدٌ لها ظلماً وعدواناً، غير راغب في الإيمان بها والعمل بأحكامها، فهم مغضوبٌ عليهم.

الصف الثامن: هو كالصف السابع عالم بأسس الإسلام وعقائده، وعالمٌ بأنّها حقٌّ، وجاحِدٌ لها ظلماً وعدواناً، وزادَ بأنّه شيطانٌ مُضِلٌّ فَتَّانٌ، فاسِدٌ مُفسِدٌ في الأرض، ومن هذا الصنف الجبّارة الطغاة.

مقدمة:

إِنَّ حَمَلَةَ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَرِسَالَةِ النَّصْحِ وَالْإِرشَادِ وَالْأَمْرِ  
بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، يُواجِهونَ ثمانية أصنافٍ مِنَ النّاسِ، ولكلِّ  
صُنْفٍ مِنْهُمُ أُسْلُوبٌ يلائمه، وفيما يلي بيانهم:

الصنف الأول:

صنّفٌ جاهلٌ خالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو مُنْفَتِحُ النَّفْسِ  
لها، لا يَرْفُضُ عَرَضَها عليه، بل لديه استعداد لتقبُّلها.

وهذا الصنف من الناس هو الحقلُ الممتاز ذو الأرض الخصبة الصالحة  
للحَرْثِ والبَذْرِ، والإنتاج الوفير، والعطاء الكثير، بعمَلٍ قليل، وجَهْدٍ غَيْرِ  
مُضْنٍ، وزَمَنِ غير طويل.

فعلَى حامل الرسالة أن يكون شديد العناية والاهتمام بالبحث عن هذا  
الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ، والتعرُّفِ عليه، والظَّفَرِ به، واستثماره استثماراً مُمْتَازاً،  
ليكونَ عطاؤه غزيراً، وإنتاجه وفيراً، مع اقتصَادٍ في الجَهْدِ والجِهادِ، والإِنفاقِ  
والإمداد.

ويكثُرُ وجودُ هذا الصنف من الناس في الفقراء والكادحين، والمكتوبين  
بِنيرانِ ظُلْمٍ مجتمَعهم لهم.

وفي طليعة هذا الصنف من الناس الناشئون والناشئات من الفتيان

والفتيات، مَمَّنْ لَمْ تَزَلْ صَفَحَاتُ أَفْكَارِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ بِيَضَاءِ قَابِلَةٍ لِمَلْئِهَا  
بِالْمَعَارِفِ الصَّحِيحَةِ، وَالْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ، وَقَابِلَةٍ لِإِذَاقِهَا لِذَاتِ جَمَالِ فِضَائِلِ  
الْأَخْلَاقِ، وَمَكَارِمِ الشَّيْمِ، وَمَحَاسِنِ السُّلُوكِ.

إِنَّ عَمَلَ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ، كَعَمَلِ  
الرَّارِعِ فِي جَنَّةِ بَرَبُوتِهِ، إِذَا أَصَابَهَا وَابِلٌ آتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ  
كَفَاهَا طَلٌّ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ نَتَائِجَ عَمَلِهِ، وَمَشِيئَتُهُ جَلٌّ جَلَالُهُ لَا تُفَارِقُ  
حُكْمَتَهُ، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَمْنَحُ الْعَامِلِينَ الصَّادِقِينَ الْمُخْلِصِينَ مَدَدًا مِنْهُ  
عَظِيمًا، يُضَاعِفُ بِهِ ثَمَرَاتِ أَعْمَالِهِمْ أضعافًا مضاعفةً بغيرِ حسابٍ ثُمَّ يُبَيِّهُهُمْ  
عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَعَلَى ثَمَرَاتِهَا وَنَتَائِجِهَا وَأَثَارِهَا أضعافًا مضاعفةً بغيرِ حسابٍ.

وهذا الصنف من الناس هو الحَقْلُ الَّذِي تَوَافَدَ مِنْهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِدَعْوَةِ  
الرَّسُولِ الْأُولَى ﷺ الْقِسْمُ الْأَعْظَمُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ قَوْمِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

ومن الأدلة ما جاء في قصة لقاء أبي سفيان له رقل عظيم الروم في  
الشام، ومعه ركب من تجار قريش، وسؤال رقل له عن الرسول ﷺ وجواب  
أبي سفيان له، وكان هذا بعد صلح الحديبية، وقيل نقض قريش له، في  
حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه،  
عن أبي سفيان:

فقد جاء فيه أن رقل سأل أبا سفيان أسئلة متعددة، عن الرسول ﷺ،  
منها ما يلي:

قال رقل: فَهَلْ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟

فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

قال رقل: أَيْرِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟

فقال أبو سفيان: بل يزيدون.

قال هرقل: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قال أبو سفيان: لا.

ثم قال هرقل في تعليقه على الأسئلة وأجوبتها لأبي سفيان: وسألتك: أشرافُ الناسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعُفَاؤُهُمْ، فذكرت أن ضعفاؤهم اتَّبَعُوهُ، وهم اتِّبَاعُ الرُّسُلِ.

وسألتك: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فذكرت أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وكذلك أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وسألتك: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ.

وسألتك: هَلْ يَغْدُرُ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرُّسُلُ لَا تَغْدُرُ.

وسألتك: بما يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَأَكُمْ عَنِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعِفَافِ، فَإِنَّ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ.

إلى آخر ما جاء في الحديث.

الصنف الثاني:

صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة الدينيّة، إلاّ أنّه مُغْلَقُ النَّفْسِ دُونَهَا، لا يريد أن يتعلّم من مسائل الدين شيئاً، إذ هو منصرفٌ لأُمُورِ دُنْيَاهُ، غَارِقٌ فِيهَا، لا يُحِبُّ إِلَّا الْعَاجِلَةَ، ولا هَمَّ لَهُ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فهو لا يُفَكِّرُ بِخَالِقِهِ، ولا يَلْتَفِتُ إِلَى شُؤْنِ الْآخِرَةِ، ولا يُحِبُّ أَنْ يُوجَّهَ انْتِبَاهُهُ ولا شيئاً من تفكيره لها، ومن حاول أن يَلْفِتَ نَظْرَهُ إِلَيْهَا ضَاقَ بِهِ صَدْرُهُ، وَاشْمَأَزَّتْ مِنْهُ نَفْسُهُ.

إنَّ حال هذا الصنفِ من الناس كحال الأنعام بل هو أضلُّ سبيلاً، لأنَّ  
لديه أدواتِ التفكير والتأمل والعقل، وهو لا يستعملُها فيما خُلقتَ له،  
وينطبقُ على أهلِ هذا الصنفِ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥)  
مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٢٢﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ  
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا: أي: كَشَانِ الوكيلِ على قُطْعَانِ الأنعامِ،  
المسؤولِ عن حمايتها وحِرَاسَتِها وغِذائِها وشرابِها ومنامِها، فإذا افترس الذئبُ  
شيئاً منها أُدينَ بتقصيره.

إِنَّكَ لَسْتَ يَا مُحَمَّدُ وَايَا كُلِّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ وَكِيلًا عَلَيْهِمْ، بل هُمْ  
المسؤولون عن أنفسهم، لأنَّ لهم إراداتٍ خاصَّةً حُرَّةً مسؤولةً عن الإيمانِ  
والإسلام، أما أنتَ فما عَلَيْكَ إِلَّا البلاغُ المبين.

إِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ، لِأَنَّهُمْ عَلِقُوا كُلَّ هُمُومِ أَنْفُسِهِمْ بِشُؤْنِ  
الحياةِ الدُّنيا، فلا تَنَقُّلُ أذَانُهُمْ إِلَى مَرَاكِزِ السَّمْعِ فِي أَدْمِغَتِهِمْ شَيْئاً مِنْ بَلَاغَاتِ  
الدينِ وبياناته، ولا تَعْقِلُ عُقُولُهُمْ شَيْئاً مِنْهَا، لَا فَهْماً، وَلَا حِفْظاً، وَلَا عَمَلًا.

إِنَّهُمْ كَالْأَنْعَامِ فِي الظَّاهِرِ أَكْلاً وَشُرْباً وَسِقَاداً، وَأَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ فِي  
الباطنِ لتعطيلهم أدواتِ التفكير والفهم والتأمل والعقل، التي وَهَبَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا  
لِيَبْلُغُوهُمْ أَخْسَنُ عَمَلًا، فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهَا.

ومعالجة هذا الصنفِ من الناس تكون باستغلالِ حالةِ فراغِ نفوسِهِمْ مِنْ  
شواغلِ دنياهم، وَبَثِّ بَلَاغَاتِ الدينِ إِلَيْهِمْ، وَلَا سِيَّما أُمُورَ الآخرةِ بَدْءاً بِمَا  
بَعْدَ الموتِ، فَالْبَعْثِ والحسابِ والجزاءِ بالجنةِ وما فيها مِنْ نعيمِ، والنارِ وما  
فيها مِنْ عذابِ أليم.

وَيَحْسُنُ فِي مَعَالِجَةِ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ، اسْتِغْلَالُ الْأَزْمَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا أَحَدُهُمْ، وَالَّتِي تُسَبِّبُهَا الْمَصَائِبُ الْمَالِيَّةُ، أَوْ الْمَصَائِبُ الْبَدَنِيَّةُ، كَالْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ، وَأَنْوَاعِ الظُّلْمِ الَّتِي تَأْتِي مِنْ قِبَلِ قُوَى سُلْطَانِيَّةٍ غَاشِمَةٍ قَاهِرَةٍ، وَكَذَلِكَ الْمَصَائِبُ فِي الْأَهْلِ وَالْأَقْرَبِينَ، وَمِنْهَا مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، وَالْآلَامُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي يُسَبِّبُهَا الْحِزْمَانُ مِنْ مَطْلُوبٍ مَعْشُوقٍ، كَجَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ زَوْجَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

فَالْمَصَائِبُ وَالْحَرَمَانَاتُ تُوقِظُ النَّفُوسَ مِنْ سَكَرَاتِهَا، وَتُبَيِّهُهَا عَلَى مَرَاتِبَاتٍ كَانَتْ مَحْجُوبَةً عَنْهَا، بِسَبَبِ مَا هِيَ مَفْتُونَةٌ فِيهِ مِنْ شُؤْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، أَوْ بِسَبَبِ انْشِغَالِهَا بِتَهْيِئَةِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَتَصَوَّرُ أَنَّهَا تَجْلُبُ لَهَا مَا تَشْتَهِي مِنْ مَتَعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا.

فَهِيَ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ قَدْ تَكُونُ نَفُوسُهَا مَفْتُوحَةً الْأَبْوَابَ لِدُخُولِ الْمَعَارِفِ الَّتِي تَحْمِلُ إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الثَّوْرِ وَالْهَدَايَةِ، وَلَا سِيْمَا إِذَا أُعْطِيَتْ مَعَهَا جِرْعَاتٍ تَهْدِيهِ تَبْرُدُ حَرَارَةَ مَطَالِبِهَا وَأَشْوَاقِهَا.

وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي تَرْبِيَةِ عِبَادِهِ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمُ الْبَأْسَاءَ وَالضَّرَاءَ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَنْفَتَحَ أَبْوَابُ قُلُوبِهِمْ لَوَارِدَاتِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَيَتَضَرَّعُوا لِلَّهِ مُنْكَسِرِينَ دَاعِينَ، فَإِذَا تَضَرَّعُوا لَهُ اسْتَقْبَلُوا بِسَكِينَةٍ بِلَاغَاتِ الدَّعَاةِ الْمُبْلَغِينَ، وَنُصَحِ النَّاصِحِينَ، وَإِرْشَادِ الْمُرْشِدِينَ، وَمَوَاعِظِ الْوَاعِظِينَ.

قال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِينَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِإِلْبَاسَاءٍ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

ففي حالة انفتاح النفوس للتضرع لله عز وجل، ينبغي بث أنوار الهداية الدعوية أو الإرشادية إليها، فعسى أن تجد هذه الأنوار قابلية داخلية



للاستجابة لِلْحَقِّ وَالْهُدَى، أو لقبول التُّصْحِ والإِزْشَادِ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَكْذُبُ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ مِنْ كُلِّ الْوَجْهِ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، ذَاهِلًا فِيمَا هُوَ فِيهِ عَنِ اللَّهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَغَايَتُهُ إِسْعَادُ وَلَدِهِ الْوَحِيدِ، بَأَنْ يُهَيِّئَ لَهُ ثَرْوَةً عَظِيمَةً تَكُونُ سَبَبَ سَعَادَتِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقْضِي اللَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْقَهَّارُ بَأَنْ يَأْخُذَ لَهُ وَلَدَهُ بِحَادِثٍ مَفْاجِئٍ، أَوْ بِمَرَضٍ مَا، أَوْ بِمَوْتٍ عَادِيٍّ كَمَا يَمُوتُ كُلُّ مَنْ انْتَهَى أَجَلُهُ، وَعِنْدَئِذٍ يُصَابُ الرَّجُلُ جَامِعَ الْمَالِ الْوَفِيرِ لَوْلَدِهِ بِخَبِيَّةٍ أَمَلٍ تُسَلِّمُهُ إِلَى حُزْنٍ شَدِيدٍ عَمِيقٍ، فَيَزْهَدُ بِكُلِّ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَمَعَهَا لَوْلَدِهِ، وَيُعْرِضُ عَنْهَا.

إنه في هذه الحالة تكون أبواب نفسه مفتحة تماماً لبث أنوار الهداية التي تدخل إلى أعماقها.

وهنا يكون على حامل الرسالة أن ينتهز الفرصة المواتية للتوجيه الرشيد، دعوة إلى الله، أو نُصْحًا وإِزْشَادًا، أو أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

### الصنف الثالث:

صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة بالإسلام، إلا أنه مُغْلَقُ النَّفْسِ عَنِ تَقَبُّلِ أَيَّةِ مَعْرِفَةٍ تَتَعَلَّقُ بِحَقَائِقِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، لِأَنَّ لَهُ عَقَائِدَ ثَابِتَةً رَاسِخَةً مُضَادَّةً لِمَا يُرَادُ إِعْلَامُهُ بِهِ، وَتَوْصِيلُهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَقْبَلُ بِهَا بَدِيلًا، تَعْصَبًا لَتَقَالِيدِهِ، وَمَوَارِيثِهِ وَعَادَاتِهِ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْ ذَاتِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بَاطِلَةً وَضَارَّةً وَفَاسِدَةً، أَوْ حِرْصًا عَلَى تَحْقِيقِ أَهْوَاؤِهِ وَشَهْوَاتِهِ وَمَصَالِحِهِ الَّتِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا مَا دَامَ مُسْتَمْسِكًا بِمِلَّةِ الْبَاطِلَةِ، أَوْ اسْتِجَابَةً لِنَوَازِعِ كِبْرِهِ وَرَغْبَتِهِ فِي الْفُجُورِ الْمُنَافِيَةِ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِسْلَامِ لَهُ.

ومن هذا الصنف من الناس أتباع الأديان والملل والمذاهب الفكرية الباطلة، كعامة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والبوذيين والهندوس والوثنيين والملاحدة.

فهم ضالون بسبب العصائب والشُّورِ الكثيفة التي وضعوها على بصائرهم، فهي لا تستقبل عن طريق مداركهم أية معارف مضادة لما هم عليه، وعلى حامل الرسالة أن يختال على من يتفرس لديه استعداداً لتقبل الهداية، حتى يفتح بعض أبواب نفسه ويدخل إليها بالمعرفة الحق.

إن مواريتهم الدينية الباطلة، واعتقاداتهم لها بطريقة عمياء، تجعل على أبصارهم وأسماعهم وبصائرهم غشاوات من العسير جداً إزالتها لرؤية الحق، إلا عن طريق من يضحو منهم من أهل بصيرة ورشد علمي، إذ يعملون عقولهم إعمالاً هادئاً رشيداً، فيستنبصون الحق، ويرشدون بعض أتباع مللهم إلى أن ما هم فيه باطل، وأنهم على ضلالة، وأن ما جاء به الإسلام هو الحق المبين.

وهذه الظاهرة قد بدأت فعلاً في كثير من الشعوب غير المسلمة، فمع ضعف تعصب هذه الشعوب لأديانها ومللها الموروثة، وشيوع الحرية الفكرية بين أفرادها، والدفاع عن هذه الحرية، وانتشار المذاهب الفكرية المعاصرة المعارضة للمواريت الاعتقادية السابقة، دون اعتراض المجتمع على الفرد فيما يختار لنفسه من مذهب يدين به، بدأ يظهر في الغرب مفكرون كثيرون، يدرسون الإسلام دراسات متجردة، ويتعرفون عليه من مصادره، أو من مكتوبات بعض الكتاب المسلمين.

ومن هؤلاء علماء من مختلف التخصصات العلمية، وباحثون متفكرون متحررون من مواريتهم الاعتقادية السابقة.

وبعض هؤلاء توجهوا ضمن أسس علمية صحيحة، يدرسون القرآن

الكريم، وأركانَ الإيمان، وأركانَ الإسلام، وشرائعه وأحكامه دراساتِ جادَات، غير مقيدات بِجبالِ عَصَبِيَّاتٍ مُضَادَّات، وغير مشحوناتِ بركاماتِ عداةٍ للإسلام والمسلمين .

وقد بدأ هؤلاء يُعَرِّفُونَ مَنْ حولهم بأنَّ الإسلام هو الدِّينَ الحقَّ الذي لم يَدْخُلْهُ تحريفٌ ولا تَبْدِيلٌ، في أسسه ومفاهيمه ومَصَادِرِهِ المتفق عليها .

وقد بدأ يتوافد من فئاتٍ مثقفي الغرب وعلمائه أفواجٌ إلى الإسلام، وهذه الأفواج تُبَشِّرُ بمستقبلٍ زاهرٍ للإسلام في الغرب .

فعلَى حَمَلَةِ الرسالة الإسلامية الصَّادِقِينَ المخلصين أن يتصَيَّدُوا من هذا الصنْفِ علماء وعقلاء وأهلَ أناةٍ وبصيرةٍ، ويصادقوهم ويُعَرِّفُوهم بالإسلام تعريفاً هادئاً، عن طريق الحوار التَّزْيِيهِ المتجرَّد، أو عن طريق نشر الكتب التي تُعَرِّفُ بالإسلام تعريفاً علمياً وَعَقْلِيّاً، وبالأسلوبِ الذي يَقْتَنِعُ به الْمُثَقَّفُ الغَرْبِيُّ، مع الاهتمام بأسس الإسلام وعقائده، وأركانِهِ، وأخلاقه، وكَبَائِرِ المحرَّماتِ فيه .

فمن استبصر الحقَّ منهم وآمَنَ به، طُولَبَ بأن يتحمَّلَ مسؤوليَّةَ تبليغِ ما آمن به إلى مَنْ حَوْلَهُ من ذَوِيهِ وَقَوْمِهِ، ثمَّ انتقالاً إلى آخَرِينَ، على اتِّسَاعِ الدوائرِ الاجتماعيَّةِ .

إنَّ البيئات التي لها أديانٌ سابقاتٌ كانت تَتَعَصَّبُ لها، وكانت تُوصِدُ أَبْوَابَ نُفُوسِهَا عن التعرفِ على غير أديانها، قد أصبح كثيرٌ من شعوبها مُتَحَرِّراً من قُيُودِ هذا التعصُّبِ الأعمى، ولم يَبْقَ لَدَيْهَا إِلَّا وِلَاءَاتُ اسْمِيَّةٌ لأقوامها، ولأذْيَانِهَا الَّتِي فَرَعَتْ من محتواها .

وهذه فُرْصَةٌ مُواتيةٌ جداً لِنَشْرِ الإسلام بين أفرادها عن طريق مَنْ يُؤْمِنُ وَيُسَلِّمُ من مُثَقِّفِي شعوبها، فينبغي إمدادُ هؤلاء بما يَحْتَاجُونَ إليه، حتَّى يَكُونُوا حَمَلَةَ رسالةِ الدعوةِ إلى اللَّهِ في أقوامهم .

ومن الحاجات الأساسية، التعليم الصحيح السليم، والكتب الملائمة، والأموال.

وباستطاعتنا أن نقول: إن كثيراً من بيئات هذا الصنف الثالث، قد تحوّل فصار من بيئات الصنف الأول، الخالي الذهن من المعرفة الإسلامية، وهو مُنْفَتِح النفس لها، لا يَرْفُض عَرْضَهَا، بل لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لِقَبُولِهَا، وَهَذِهِ غَنِيْمَةٌ مُعَاَصِرَةٌ لِلْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ الْحَقِّ، وَقَابِلِيَّةٌ اِمْتِدَادُهُ فِي الشُّعُوبِ بِوَسِيلَةِ الْفَتْحِ الْفِكْرِيِّ الْعِلْمِيِّ.

#### الصنف الرابع:

صنفٌ عالم بالعقائد الإسلامية مُسْتَيَقِنٌ مُتَابِعٌ، إِلَّا أَنَّهُ نَاقِصُ الْمَعْرِفَةِ، وَتَغْلِبُهُ أَهْوَاؤُهُ وَشَهَوَاتُهُ، فَهُوَ عُرْضَةٌ دَوَاماً لِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ.

وأصحابُ هذا الصَّنْفِ على درجاتٍ متفاوتات، وكلُّهم من المؤمنين الملتزمين ببعض حقوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، إِلَّا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَوْفِينَ لِكُلِّ حَقِّقِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَهُمْ الْغَالِبِيَّةُ الْعَظْمَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

ووظيفةُ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ بالنسبة إلى هذا الصنف تهيئة عقائد أفرادها وتعميقها، وتكميلُ معارفهم بمفاهيم الإسلام وأحكامه وشرائعه، والأخذ بأيديهم برفق، ومساعدتهم على نفوسهم بالتعليم والموعظة والتدريبات التطبيقية العملية ارتقاء بهم علماً وعملاً، في دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، فَدَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، فَدَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

ولا بُدُّ في التدريب على السلوك الإسلامي من العناية دوماً بنوعِي السلوكِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ معاً، لِثَلَا يُكُونَ الظَّاهِرُ عَامِراً وَالْبَاطِنُ حَرِياً.

ومن الْبَاطِنِ الصِّدْقُ وَالْإِحْلَاصُ لِلَّهِ فِي الْعَمَلِ، وَإِتِّغَاءُ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَالْبِرَاءَةُ مِنَ الشُّرْكِ وَالرِّيَاءِ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ، وَمِنِ الْاِعْتِرَاضِ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ

عز وجل، وعلى مجاري قضائه وقدره في عطايه ومنعه، ونعمه ومصائبه، إلى غير ذلك من أعمال القلوب والنفوس.

وهذه الوظيفة قد كان العلماء المسلمون المرثون المسلمون لتلاميذهم يقومون بها قياماً حسناً، اتباعاً لمنهج مدرسة رسول الله ﷺ في تربيته لأصحابه رضوان الله عليهم.

الصف الخامس:

صف عالمٌ بأسس الإسلام وعقائده، إلا أن علمه لم يقترن باعتقاد وإيمان جازم، وقد أعلن إسلامه منتسباً للأمة الإسلامية، ولما يدخل الإيمان في قلبه، وليس منافقاً في إعلانه.

هذا الصف من الناس قد جاء بيانه في قول الله عز وجل في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً: أي: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً. يقال لغة: لَاتَ فَلَانًا حَقَّهُ، إِذَا نَقَصَهُ إِيَّاهُ.

ومعالجة هذا الصف من الناس تكون بالصبر على تزويد أفراده يوماً فيوماً بالبراهين الإيمانية القرآنية، والعقلية، والكوينية، والتجريبية من أحداث الجزاء الرباني بالثواب المعجل للمحسنين، والعقاب المعجل للمسيئين، ويكون أيضاً بإذاعة أفراد حلاوة السلوك الإسلامي، النابع من صدق الإيمان، وهذه تكون بأنواع من التجارب الوجدانية التي تذيب القلوب والنفوس هذه الحلاوة، بعبادة الله عبادة خاشعة تفيض معها الدموع، ويحسن الصلة بالله دواماً عن طريق الذكر والدعاء، والمراقبة لله في السر والعلن، وفعل الخير، والمشاركة في الأعمال الاجتماعية ذات الآثار الإصلاحية، ولا سيما التي

ترَفَعُ البؤسَ عن البائِسينَ، والظُّلمَ عن المظلومينَ، وتُسَعِدُ الصَّغارَ والضعفاءَ، بالطعامِ والكساءِ، والمَسْكَنَ والدَّواءَ، فهذه الأعمالُ ترافقها في القلوبِ غالباً مشاعرٌ لَذَّةٌ إيمانِيَّةٌ حُلُوَّةٌ، مصحوبةٌ بسكينةٍ وطمأنينةٍ، وهي تُشْبِهُ مشاعرَ الأمِ الحنونِ حينَ تُرَضِعُ طِفْلَهَا الجائعَ.

الصف السادس:

صنف عالمٌ بأسس الإسلامِ وعقائده، مستيقنٌ مؤمنٌ بها، إلاَّ أَنَّهُ غافلٌ عن مقتضياتِ إيمانه، قد استحوذت عليه أهواؤه وشهواته، فهو مُنْدَفِعٌ لتحقيقِ مطالبِ حياته العاجلةِ وزينتها، والاستكثارِ من الأموالِ والأنصارِ والعقارِ والمراكبِ الفارهةِ والجَاهِ والسلطانِ، ونحو ذلك، وفي الغالبِ يكونُ من أهلِ المعاصي بسببِ غفلته واستغراقه في أمورِ دنياه.

ومعالجةُ هذا الصنفِ من الناسِ تُكوْنُ بإيقاظِه من غفلاته وسكراته، بتذكيره بما يَعْلَمُهُ ممَّا هو مُؤْمِنٌ به، وباستخراجِ عناصرِ إيمانه من مَكانِها، وإحضارِها في ساحةِ تصوّراته المتحرّكةِ العاملةِ الموجهةِ لإرادته، حتّى تُوجّهَ أوامِرَها في داخله للاجتهادِ في مُمَارَسَاتِ السلوكِ الإسلاميِّ الباطنِ والظاهرِ.

وتكونُ أيضاً بتحركِ مِخْوَرِي الطمعِ والخوفِ في نفسه بالترغيبِ فيما عند الله من أجرٍ عظيمٍ، وبالتهريبِ ممَّا عند الله من جزاءٍ بعذابِ أليمٍ.

وتكونُ باستصحابه إلى مجالسِ العِلْمِ والذِّكْرِ والعِبَادَةِ، وبغَمْسِهِ في البيئاتِ الصالحاتِ، التي يجدُ فيها مُتَعَةً لِقَلْبِهِ ونفسه، مع أَصْحَابِ ورفاقِ صالحينَ، مؤنسينَ، أوفياءَ، ودُودينَ، يؤثرونَ على نَفْسِهِ.

وتكونُ بترقيقِ قَلْبِهِ بالمواعظِ النافعةِ، والمشاركاتِ الوجدانيةِ المشيرةِ للعواطفِ النبيلةِ، وباستخراجه ممَّا هو منغمسٌ فيه من أُمُورِ دُنْيَاهُ، ببدايلِ يجدُ فيها لَذَّةً نَفْسِيَّةً ومُتَعَةً ضمنَ حدودِ طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، وهذه البدائلُ

مصحوبةٌ بدروسِ علمٍ وموعظةٍ وذكرٍ ومجاهدةٍ في نشر الإسلام، وخدمةٍ  
قضايا المسلمين العامة.

### الصفحة السابع:

صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده، مستيقن في قلبه بصدق محمد  
رسول الله ﷺ وبما جاء به عن ربه، إلا أنه جاحدٌ لها بغياً أو كبراً أو حسداً أو  
رغبةً في الفجور، أو غير ذلك من دوافع نفسية خبيثة، فهو لا يريد أن يؤمنَ  
بالحق لهوى في نفسه وعصبيّة عمياء، ويتعلّل بالمعاذير، ويصطنع لنفسه ما  
يُزيّن لها جحود الحق.

وأهل هذا الصنف مغضوبٌ عليهم، لأنهم عرّفوا الحق وجحدوه ظلماً  
وعدواناً.

ويَدْخُلُ في هذا الصنفِ علماءُ اليهود الذين عرفوا صدقَ الرسول ﷺ  
وجحدوا رسالته بغياً وحسداً من عند أنفسهم، ويُلقَقُ بهم كُلُّ مَنْ عَرَفَ أَنَّ  
الإسلامَ حقٌّ وجحدَهُ ظلماً وبغياً، من نصارى وملاحدة، وبوذيين،  
وهندوسيين، ووثنيين.

وفي شأن علماء اليهود الجاحدين للحق مع معرفتهم له، قال الله  
عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ  
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وأهل هذا الصنف تَضَعُبُ مُعَالِجَتُهُمْ، لأنهم لم يكفروا عن جهلٍ  
بالحق، أو عن غفلةٍ عنه، بل كفروا بغياً وظلماً وِعناداً، فلا يُجِدِي فيهم إلا  
العقاب الذي يجدون آلامه، حتّى الإنذارُ بالعقاب المؤجّل لا يُغيّر فيهم شيئاً،  
وبشأن هذا الصنف من الكافرين قال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢  
مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ .

ومع أن أهل هذا الصنف لا يُجدي فيهم الإنذار، فينبغي الإغذار إليهم بإنذارهم بعذاب الله المؤجل إلى يوم الدين، مع ما قد يُنزّل الله بهم من عذابٍ معجلٍ في الحياة الدنيا.

#### الصنف الثامن:

هو كالصنف السابع عالم بأسس الإسلام وعقائده، وعالم بأنها حق، وجاحدٌ لها ظلماً وعدواناً، وزادَ بأنه شيطانٌ مُضِلٌّ فِتَانٌ فَاسِدٌ مُفْسِدٌ فِي الْأَرْضِ، ومن هذا الصنف الجبارة الطُّغَاة.

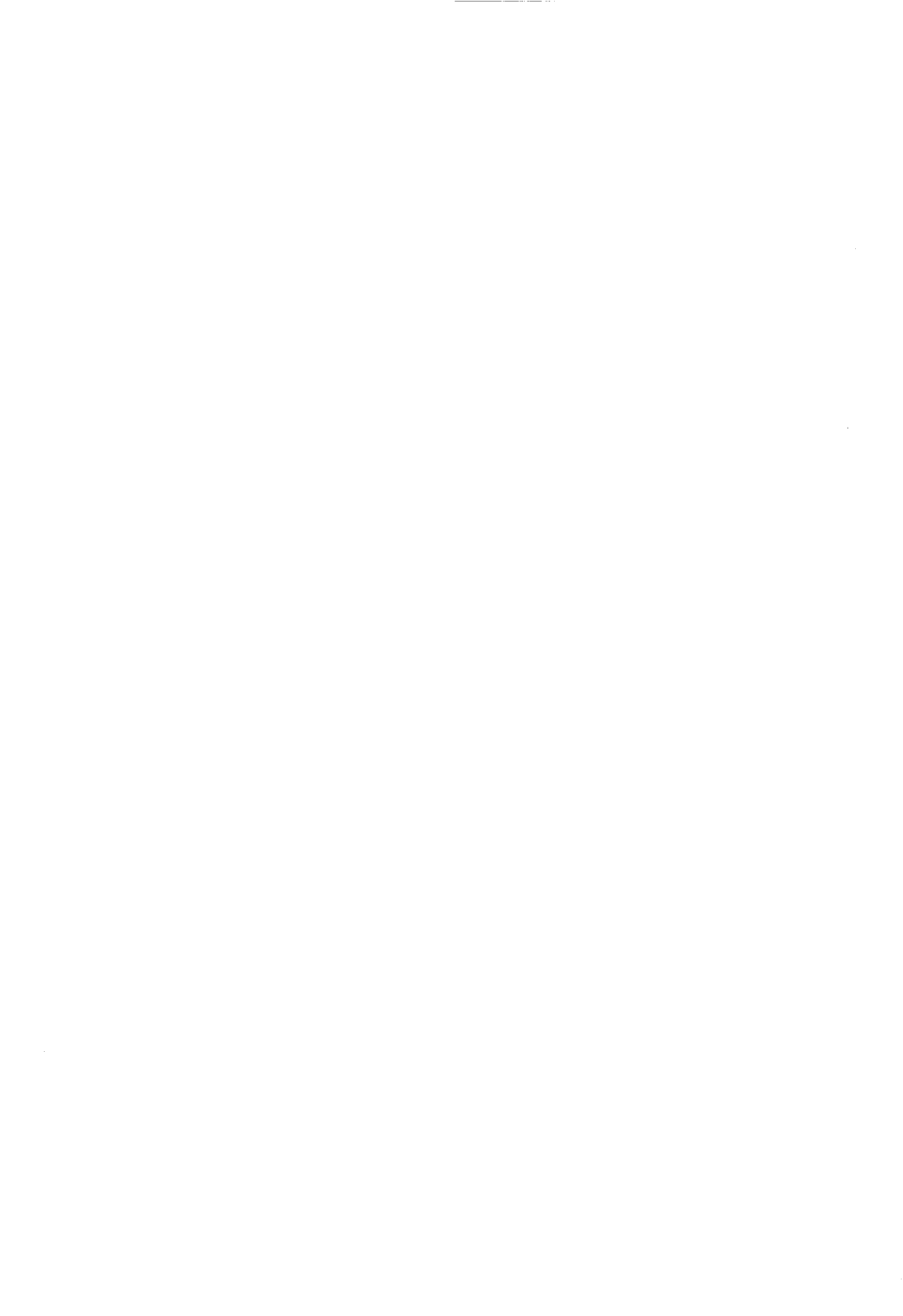
هذا صنف من الناس قد جعل نفسه من جنود إبليس مغوياً مُضِلاً فاسداً مُفْسِداً.

وهذا الصَّنْفُ من المتعذّر بحسب العادة إضلاًحُه، والتعاملُ معه يكونُ بدزءٍ شرِّه، وكفٍّ ضرِّه، وإبعاده عن التأثير في الناس، ومكافحةٍ وسائِله المضلَّةِ قَدْرَ المستطاع، ومقاومةٍ اضطهادِه وإكراهه وإجباره الناسَ على الكُفر والفسوقِ والعصيان، ولو بالقتال عند الاستطاعة.

أما المنافقونَ فهم كافرون، أو مُتردّدونَ في الباطن، متظاهرون كذباً بالإسلام والإيمان، فيدخلون في بعض الأصناف الثمانية السابقة، بحسبِ أحوالهم الباطنة، ولا قيمةَ لأحوالهم الظاهرة.

\* \* \*





## البَابُ الْيَانِي

### الصِّفَاتُ

### الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا حَمَلَةُ الرِّسَالَةِ

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة الصبر وعدم التضجر، وعدم اليأس، مهما اشتدّ عليه الأذى، وضعفت آثار أعماله الرشيدة.

الفصل الثاني: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة التجرد عن المصالح الشخصية، لدى من يُؤدّي بينهم رسالته.

الفصل الثالث: وجوب تحلي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه من فضائل الإسلام وأحكامه.

الفصل الرابع: وجوب تحلي حامل الرسالة بالصفات التي ذكر الله عزّ وجلّ أنّها صفاتُ عباد الرحمن، ليكون أسوةً حسنةً.

الفصل الخامس: وجوب تحلي حامل الرّسالة بالأهليّة البيانيّة.

الفصل السادس: وجوب تحلي حامل الرّسالة بالأهليّة العليّة.



## الفصل الأول

وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة الصبر  
وعدم التضجر واليأس مهما اشتد عليه الأذى  
وضغفت آثار أعماله الرشيده

وفيه أربع مقولات :

المقولة الأولى : قيمة خُلُق الصبر ووجوب تحلي حامل الرسالة به .

المقولة الثانية : نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر لحاملي  
الرسالة من أمة محمد ﷺ .

المقولة الثالثة : نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر  
للسول ﷺ ، ويلحق به حاملو رسالته من أمة .

المقولة الرابعة : نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر .



## المقولة الأولى

قيمة خلق الصبر ووجوب تحلي حامل الرسالة به

الصبر: خلقٌ نفسيٌّ فطريٌّ أو مكتسب، من آثاره القدرة على الدأب في الأعمال الظاهرة أو الباطنة، وعلى تحمُّل المشقَّات النفسية والجسدية، ممَّا يُخالفُ أهواءَ النفس وشهواتها ورغباتها في فعل ما تكرهه فعلاً، أو ترك ما تُحبُّ فعلاً.

وهو خلقٌ يُمكنُ من يتحلَّى به ويضعه في المواضع الملائمة له من الظفر بأفضل النتائج التي يُريدُ الحصول عليها، ممَّا يقوم به من أعمال ظاهرة أو باطنة.

والصَّبْرُ من أجَلِّ الصِّفَاتِ النفسية ذواتِ الأثر في السلوك الباطن والظاهر، وذواتِ القيمة الثمينة، ممَّا يتحلَّى به العقلاء ذُوو الإرادات القويَّات، والأنفُسِ العاليات الزاكيات.

وهو من صفات الله جلَّ جلاله، فمن أسمائه تبارك وتعالى: «الصَّبُور» وهو يُحبُّ الصَّابِرِينَ، وهو مع الصَّابِرِينَ، وهو يُبَشِّرُ الصَّابِرِينَ بالنتائج التي يُحبُّونها، وبالأجر العظيم عنده يوم الدين، فقد جاء في النصوص القرآنية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ - إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ - إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ - وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ إلى غيرها من نصوص.

وأكثر الخصمين أو المتنافسين ذوي القوة المتكافئة أو المتقاربة حظاً من الظفر بما يُريدُ أكثرُهُمَا صَبْرًا.

والمَخْرُومُ من خَلْقِ الصَّبْرِ يُصَابُ بالسَّامِ والمللِ، فالتضجُّرُ، وأخيراً يُصَابُ بداء اليأس وتَرْكِ مَا هو فيه من عَمَلٍ، وكثيرٌ مِمَّنْ أُصِيبَ بداء اليأس فترك العملَ، لو صَبَرَ صبراً قليلاً لظفر بما يُريدُ الوصولَ إليه، أو بأكثر مما يريد الوصولَ إليه.

وأكثرُ النَّاسِ حاجةً إلى التحلِّيِ بخلقِ الصَّبْرِ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، والنُّصْحِ والإرشادِ، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والاضْطِّلاعِ بِمَهَامِّهَا.

فالسَّامُ والمللُ والتضجُّرُ يَجْعَلُ حَامِلَ الرِّسَالَةِ ييأس من فائدة قيامه برسالتِهِ، فيكفُّ عن أدائها، أو يتهاونُ في القيام بها، وقد يلجأ إلى اعتزال النَّاسِ والانكفاء على نَفْسِهِ، ورُبَّمَا يَجِدُ نَفْسَهُ مع أسرته الخاصة بعد حين يطولُ أو يَقْصُرُ منساقاً مع مؤثرات البيئة التي يعيش فيها، ومُتَنَازِلاً عَنْ بَعْضِ مبادئه التي دَعَا إليها، أو عن التزامه السُّلُوكِيِّ بما كَانَ يدعو إليه، أو بما كان يَأْمُرُ بِهِ وينهى عنه.

فصاحبُ الرِّسَالَةِ إذا لم يكن حاملاً لرسالته بصورة عملية نشيطة، قائماً بوظائفها ومهماتها، مناضلاً من أجلها، مهتماً بأن يبلغ رسالته، مبيّناً، شارحاً، داعياً، أو مذكراً، أو أمراً ناهياً، رجاء التأثير في الآخرين، وتقويم المنحرفين، وتحقيق الإصلاح المنشود، فإنه يتحوّل تلقائياً إلى مُدَافِعٍ، ثم إلى مراقبٍ غَيْرِ مُدَافِعٍ، ثم إلى متأثرٍ شيئاً فشيئاً، وَقَدْ يَصِلُ إلى مُسَايِرِ مُتَابِعٍ، تأثراً بضواغط البيئة التي لم يستطع أن يكون فيها صامداً صابراً على القيام بوظائف رسالته في الدعوة، والتقويم والإصلاح.

وهنا نلاحظ أن حكمة الله العليّ الجليل اقتضت أن يأمر رُسُلَهُ عليهم

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والدُّعَاءَ إِلَيْهِ وَالْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ وَرَائِهِمْ، بِالصَّبْرِ فِي قِيَامِهِمْ بِوُضَائِفِ رِسَالَتِهِمْ وَمَهَامِّهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، وَفِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وجاء في القرآن المجيد الأمرُ بالصَّبْرِ في مناسباتٍ متعدّدة، تشمَلُ جوانبَ مختلفاتٍ مِنْ مُشْكَلاتٍ يتعرَّضُ لها الدُّعَاةُ، وَكُلُّ مُشْكَلةٍ مِنْهَا تَحْتَاجُ مِنْ حَامِلِ الرِّسَالَةِ الصَّبْرَ، وَتَقْتَضِي الحِكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ أَنْ يُوجَّهَ لَهُ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ مَعَهَا، لِثَلَا يُتَصَرَّفَ تَصَرِّفًا يَتَنَافَى مَعَ مَقْتَضِيَّاتِ رِسَالَتِهِ.

\* \* \*



## المقولة الثانية

نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر لحاملي الرسالة  
من أمة محمد ﷺ

ظهر لدى استقراء نصوص الأمر بالصبر في القرآن المجيد وجود خمسة نصوص أنزلت في المرحلة المدنية من تاريخ دعوة الرسول محمد ﷺ، وضمت هذه النصوص إلى سور أنزلت في المرحلة المكية، ووضعت منها في مواضع ملائمة لها فكرياً، وجاء الخطاب فيها موجهاً للرسول ﷺ، باعتباره أول المؤمنين والمسلمين من هذه الأمة.

ويلاحظ المتدبر في هذا الإجراء البديع أن الغرض منه الإشعار بأن الرسول محمداً ﷺ قد كان متحققاً بالصبر الأمور به في هذه النصوص، إلا أن حاملي رسالته من أمته يحتاجون إلى هذا التوجيه في مثل المراحل التي مرّ بها الرسول ﷺ، وكان فيها متحلياً بفضيلة خلق الصبر.

فنفهم من هذا الإجراء أن المقصود بالتوجيه في هذه النصوص هم حملة رسالة الرسول من أمته.

وهذا من لطائف الإجراءات في القرآن المجيد التي يلاحظ فيها اقتضاء ان؛ اقتضاء فكري واقتضاء زمني، ويحسن بالمتدبر التأني في تدبر القرآن، والنظر إلى إجراءاته بإمعان، ليكتشف المقاصد الدقيقة من أساليب البيان.

فلننظر في تدبر النصوص الخمسة التي كشفها الاستقراء، ممَّا أُنزل في العهد المدني، وضمَّ إلى سورِ مكِّيَّة التنزيل:

### النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨/ مصحف/ ٢/ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، والمقصودُ به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربّه وأميرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من أمته، وناصح مُرشد:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٦٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٦٩﴾ فَأَجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَجَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

كصاحب الحوت: أي: كيونس عليه السلام، إذ ترك قومه أهل نينوى مغاضباً، لما كذّبوه ورفضوا الاستجابة لدعوته، قبل أن يأذن الله له بذلك، ولم يصبر على متابعة دعوته لهم حتّى يأتيه من الله أمرٌ بما يعملُ.

إذ نادى وهو مكظومٌ: أي: اذكرُ إذ نادى داعياً ربّه وهو في فم الحوت قائلاً: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١).

وهو مكظومٌ: أي: حابسٌ غيظُهُ من قومه الذين رفضوا دعوته، ومعترفٌ بذنبيّه إذ تركهم قبل أن يأذن الله له.

﴿ فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمَسِيحِينَ ﴿٣٧﴾ لَلِيتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ كما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧).

ولولا أن تداركهُ نعمةٌ من ربّه لنُذِبَ بالعراء وهو مذموم، لكن تداركته هذه النعمةُ فنُذِبَ بالعراء سقيماً غير مذموم، وأنبت الله عليه شجرةً من يقطين، وشفاه، واجتباها وجعله من الصالحين، وأرسله إلى قومه فأمنوا به.

وفي هذا النصّ تلويحٌ بتهديد حامل رسالة الدعوة إلى الله والامر بالمعروف والناهي عن المنكر، إذا تضجّر وييسّ وتَرَكَ وظيفته، أن يُعاقبه الله على ذلك بما يشاء من عقابٍ ملائم.

وقد علمنا أن الرسول ﷺ قد كان متحققاً بالصبر المطلوب في هذا النصّ، خلال المرحلة الدعوية التي نزلت فيها سورة (القلم) وقد وصفه الله فيها بأنه على خلقٍ عظيم، فالصبر لحكم الله أحدُ عناصر هذا الخلق العظيم.

إنّ حاملَ رسالة الرسول من أُمَّته المؤهلَ لحملها، مُطالبٌ بأن يصبر مستمراً في القيام بوظائفها، دون أن يتضجّر أو ييأس ويكفّ عن القيام بالدعوة إلى الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مُتسرعاً مغاضباً، بل كلّما ييسّ فعلاً من مدعوّ معانيد استبان له الحق وأصرّ على الكفر، تحوّل إلى آخرين لم يبلّغوا بعد إلى دركة العناد والإصرار على الكفر، فهذا التحوّل هو من عناصر الاستمرار على القيام بوظائف هذه الرسالة الربّانية.

وعلى هذا الفهم يكون معنى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فاصبر مُتابعاً القيام بوظائف رسالتك انتظاراً لحكم ربك فيمن عاندوا وأصروا على الكفر، مع استبانة الحقّ لهم، فله حكمته في حكمه بعباده، أو فاصبر مُستسلماً لحكم ربك.

لكنّ متابعة توجيه الدعوة لأشخاصٍ بأعيانهم تخضع لقاعدة: ﴿فَذَكِّرْ﴾ إن نفع الذكرى أي: فإذا وصلَ بعض أفراد الناس إلى حالة ميؤوسٍ منها كلياً، فلا تنفعه الذكرى بدلالة التجربة الطويلة، فمن الخير توجيه جهود الدعوة والتذكير لغيره من الذين لم يصلوا بعد إلى حالة ميؤوسٍ منها، وسيأتي إن شاء الله مزيد تفصيل لهذه القاعدة.

\* \* \*

## النص الثاني :

قول الله عز وجل لرسوله في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول)  
خطاباً لرسوله ﷺ، والمقصودُ به كلُّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّه وأمرٍ بالمعروفِ ناهٍ  
عن المنكر من أُمَّته :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١١﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ  
قَلِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

لقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمون هذا التوجيه الرباني إبان نزول  
سورة (المزمل) فأحَرَ اللهُ إنزالَهُ إلى العَهْدِ المدني، للإشعار بأن المقصودَ به  
كلُّ حاملٍ لرسالة الرسول من أُمَّته .

وذلك لأنَّ كلَّ داعٍ إلى سبيلِ ربِّه وأمرٍ بالمعروفِ ناهٍ عن المنكر، لا بُدَّ  
أنَّ يَتَعَرَّضَ مُنْذُ أوائلِ قيامه بوظائف رسالته لأقوالٍ جارحاتٍ وأتِّهَامَاتٍ  
بِاطِلَاتٍ من بعض الذين يُوجِّه لهم دعوته أو تذكيره، والمطلوبُ منه في هذه  
الحالة أن يَصْبِرَ على ما يَقُولون فيه من أقوالٍ مُؤَلِّمَةٍ لِنَفْسِهِ، وأن لا يُقَابِلَهُمْ  
عليها بمثلها .

وحين لا يستطيع تحمُّلُ مواجَهَتهم وهم يقولون فيه ما يقولون ممَّا  
يُؤَلِّمُهُ، فباستطاعته أن يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا .

الهَجْرُ الجميل يكون بالتواري عنهم بصورة مؤقتة، وعَدَمِ مقابلتهم على  
أقوالهم بأمثالها، والاشتغالِ بغيرهم مدَّة من الزمن، حتَّى إذا شَعَرَ بأنَّهم كَفُّوا  
عن أقوالهم عادَ إلى دَعْوَتِهِم وتوجيه النَّصْح والتذكير لهم، لإشعارهم بأنَّه قد  
هجرهم هَجْرًا مُوقَّتًا لئلا يُجَرِّئَهُمْ على إهانته، ولئلا يَرُدَّ على إساءاتهم  
بأمثالها .

فالهَجْرُ الجميل المؤقت لا يَحْمِلُ أكثر من إشعارٍ بأنَّهم قد أساءوا إليه،

ولم يقابلهم على إساءاتهم بأمثالها، وهذا الأسلوب من التَّعَامُلِ يَجْعَلُ ذَوِي  
الفطر السليمة السوية تَشْعُرُ بِإِكْبَارِهِ، وَحُسْنِ خُلُقِهِ، وَسُمُو سَجَايَاهُ.

وأمر الله عَزَّ وَجَلَّ حاملَ رسالة الرسول من أمته بأن يَتْرُكَ لِرَبِّهِ الكفْرَةَ  
المكذَّبين بالدين أولي النُّعْمَةِ (أي: أولي الرفاهية وطيب العيش لكثرة ما  
لديهم من أموال) فَلَا يَتَّخِذَ معهم وسائل مُوْاجِهَاتٍ عَنِيفَةٍ ومصادمات، بل  
يجب عليه أن يزيد في معاملتهم بالإمهالِ والمطاولة والصَّبْرِ وسَعَةِ الصَّدْرِ.

لقد أمر الله حاملَ رسالة الرُّسُولِ من أمته بالصَّبْرِ على ما يُقال فيه،  
والهجرِ الجميل إذا اقتضى الحال ذلك، وبالإمهالِ والمطاولة وسَعَةِ الصَّدْرِ،  
لأنَّ هذه السياسة هي الأجدى والأَنْفَعُ لإقامة الحجَّة، ولانتشار الدَّعوة،  
ولتحقيق الإصلاح المنشود، وتبليغ دينِ الله للناس على أكمل وجهٍ وأتمه.

\* \* \*

النص الثالث:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول) خطاباً  
لرسوله ﷺ، والمقصودُ به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربِّه، وأمرٍ بالمعروف ناهٍ عن  
المنكر من أمته:

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ  
الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

لقد كان الرسول ﷺ متحلياً بالمطلوب منه في هذا النص، إذ أنزل الله  
عليه قبل سورة (طه) أربعة نصوص أمره الله فيها بالصَّبْرِ، أولها في سورة  
(المدثر/ ٧٤/ مصحف/ ٤/ نزول) ثم في سورة (ق/ ٥٠/ مصحف/ ٣٤/ نزول)  
وأمره فيها بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل وأدبار  
السجود، ثم في سورة (ص/ ٣٨/ مصحف/ ٣٨/ نزول) ثم في سورة

(الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

ولم يكن الرسول ﷺ إبان نزول سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بحاجة إلى أن يُوجَّهَ لَهُ الأمر بالصَّبْر، والتسبيح بحمد ربّه، وأن لا يَمُدَّ عينيه إلى زهرة الحياة الدنيا التي أتاها بعض عباده، لكنّ الدُّعاة من أمته في مثل المرحلة التي نزلت فيها سورة (طه) يحتاجون إلى هذا التوجيه، فأنزله الله عزّ وجلّ في المرحلة المدنيّة، وضَمَّه إلى سورة (طه) التي أنزلت في أواسط المرحلة المكيّة.

فكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه مطالبٌ بالصَّبْرِ كلِّما تعرّضَ لما يُؤلِّمُه ويؤذيه من الذين يدعوه، ومطالبٌ باستعمالِ الدواء الذي يَسْتَعِينُ به، حتى يصرف اللّه به عنه الضواغِطَ النفسيّة التي قد تستنفد لَدَيْهِ طاقات الصَّبْر، وهو أن يُسَبِّحَ بحمد ربّه:

- قبل طلوع الشمس.
- وقبل غروب الشمس.
- ومن آناء اللّيل، أي: من ساعات اللّيل، آناء: أي: ساعات، مفردُه: «أنيّ» و«إنيّ».
- وأطرافَ النهار، أي: وفي أوقات صلاتي الظهر والعصر، اللّتين تقعان في مفصلين من النّهار لهما طرفان.

وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه مُطالبٌ بأن لا يَمُدَّ عينيه متطلّعا بهوى أو شهوة أو رغبة قويّة إلى شيءٍ من زهرة الحياة الدّنيا، ممّا متّع الله به أصنافاً من عباده.

وقد كان الرسول ﷺ مُتَحَلِّياً بهذا الخُلُق الرّفيع، فلم يكن مقصوداً بالتوجيه، إذ أُخِّرَ تنزيلُ النّص إلى المرحلة المدنيّة، للإشعار بأنّ المقصود به حملةٌ رسالته من أمته.

فقال لكل حامل رسالة الرسول من أمته :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٢٦﴾ .

مَدُّ الْعَيْنِ كِنَايَةٌ عَنِ تَطَّلُعِ النَّفْسِ وَتَشَهُّيْهَا، وَهُوَ أَمْرٌ يُفْسِدُ نَفْسَ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ طَلَّابِ الدُّنْيَا، وَقَدْ تُغْرِيهِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَيَزِيغُ عَنِ الْحَقِّ فِي فِكْرِهِ أَوْ فِي سُلُوكِهِ .

إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ: أَي: إِلَى شَيْءٍ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَّعْنَا بِهِ مَتَاعًا مُوقْتًا عَاجِلًا، أَصْنَافًا مِنَ النَّاسِ، وَالْمَتَاعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ مُوقْتًا وَالزَّوَالُ يَلْحَقُهُ .

وَسَمَّى اللَّهُ كُلَّ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا زَهْرَةً لِأَنَّهَا بِمِثَابَةِ الزَّهْرَةِ الْمَغْرِيَةِ السَّرِيعَةِ الذَّبُولِ .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ: أَي: لِنَمْتَحِنَهُمْ فِيهِ خِلَالَ رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .  
لَكِنَّ رِزْقَ رَبِّكَ الدَّائِمُ فِي الْآخِرَةِ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .  
النصّ الرابع :

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦/ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لرسوله والمقصود به كلُّ داعٍ إلى سبيل ربِّه وأميرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من أمته :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۝١٢٧ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي صَبِّحٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ .

لقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمون هذا التوجيه الربّاني إبان نزول

سورة (النحل) فَأَخْرَجَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنزَالَهُ إِلَى الْعَهْدِ الْمَدْنِيِّ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ كُلَّ حَامِلٍ لِرِسَالَةِ الرَّسُولِ مِنْ أُمَّتِهِ .

إِنَّ الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ قَدْ يَتَعَرَّضُ لِأَذَى عَمَلِيٍّ مِنْ بَعْضِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَإِلَى تَرْكِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ بَاطِلٍ وَشَرٍّ وَضَلَالٍ، وَقَدْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ .

وَهُنَا يَكْتَبِحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَ الدَّاعِيَ الْقَادِرِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، وَيَقْتِدُهُ بِحُدُودِ مُقَابَلَةِ الْأَذَى بِمِثْلِهِ فَقَطْ دُونَ زِيَادَةٍ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ الْأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ وَالْمُسَامَحَةُ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ .

جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ (إِنْ) الَّتِي تَفِيدُ التَّشْكِيكَ بِحُدُوثِ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، أَوْ تَقْلِيلَهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاقِبَةَ مَأْذُونٌ بِهَا ضَمِنَ مَبْدَأَ الْعَدْلِ، لَكِنَّ السِّيَاسَةَ الرَّشِيدَةَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَقْتَضِي اسْتِبْعَادَ الْمَعَاقِبَةِ، أَوْ تَقْلِيلَ حَدُوثِهَا جَدًّا، وَأَنَّ الْمُسَامَحَةَ وَالصَّفْحَ وَالصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، إِذْ إِنَّ هَذِهِ السِّيَاسَةَ أَنْفَعُ وَأَجْدَى لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ .

فَالْمَعْنَى: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْتِمَالِ الَّذِي نَفَّضَ لَكُمْ اسْتِبْعَادَهُ، فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ مِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ، وَسَمَّى اللَّهُ الْأَذَى الَّذِي يُوجِّهُهُ رَافِضُوا دَعْوَةَ الْحَقِّ لِلدَّعَاةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ عِقَابًا مَجَارَاةً لَهُمْ فِي مَفْهُومَاتِهِمُ الْبَاطِلَاتِ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَا يُتْرَكُونَ بِهِ بِالْدَّعَاةِ مِنْ أَذَى أَوْ تَعْذِيبٍ، إِنَّمَا هُوَ عِقَابٌ لَهُمْ عَلَى مَخَالَفَةِ مَا عَلَيْهِ قَوْمُهُمْ، مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ نُظْمٍ أَوْ قَوَانِينٍ مَعْمُولٍ بِهَا مِنْ أَوْضَاعِ النَّاسِ، أَوْ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدٍ موروثة .

بَعْدَ هَذَا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْأَذَى خَيْرٌ مِنَ الْمَعَاقِبَةِ، فَقَالَ



تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ .

أي: ولئن صبرتُم على الأذى، فصفتُم عنه، ولم تعاقبوا عليه مع قدرتكم على المعاقبة، لهو خير لكم.

وجاء في الآية وضع الاسم الظاهر وهو لفظ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ موضع الضمير، للإشعار بأن الخير الذي يأتيهم إنما يأتي بسبب الصبر.

وبعد هذا التوجيه العام لكل الدعاة إلى سبيل ربهم، وجّه الله عز وجل لكل واحد منهم بأسلوب التوجيه الإفرادي فقال تعالى له:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ <sup>(١٣٦)</sup> إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٧﴾ .

في هذا التوجيه الإفرادي لحامل رسالة الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربع قضايا:

القضية الأولى: الأمر الإرشادي الترغيبي بالصبر على الأذى وعدم اللجوء إلى المعاقبة بالعدل، مع بيان أن هذا الصبر لا يمكن تحقيقه إلا بالاستعانة بالله عز وجل، دلّ على هذه القضية قول الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .

القضية الثانية: النهي الإرشادي الترغيبي لحامل الرسالة عن أن يحزن على من يرفض دعوته ويختار لنفسه سبيل الضلال والشر.

وهذه القضية تُعالج ما يعتري أنفس بعض الدعاة من حرص وشفقة على أرحامهم وأقاربهم أو أصدقائهم أو قومهم، فإذا وجدوهم قد رفضوا الحق بإصرار ومعاندة وإيثار للباطل على الحق حزنوا عليهم، لأنهم يؤمنون بأنهم إلى عذاب الله في جهنم صائرون، وأنهم على النار يتهافتون، فقال الله للداعي إلى سبيل ربه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ .

أي: إِنَّهُمْ بسبب ما اختاروه لأنفسهم من الشرِّ والإثم والضلّال يستحقُّون عقابَ الله بالعدل، فالله يُعاقِبُهُم على ما اختاروه لأنفسهم، وهو أرحم الرّاحمين، فلا يستحقون أن يَحْزَنَ عليهم أحدٌ من عباد الله، ولو كانوا أقرب الأقربين إليهم.

وقد خاطب الله الداعي بهذا كما خاطب بمثله رسوله في الآية (٧٠) من سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨ نزول):

القضية الثالثة: النَّهْيُ الإرشاديّ الترغيبي لحامل الرسالة عَنْ أَنْ يكون في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُ أعداءُ رسالته لصدّه عنها، أو منعه من القيام بها، أو تحويله واجتذابه إلى طريقتهم، أو التَّخْلِصِ منه ومن أتباعه المُنَاصِرِينَ له بالقتل أو السجن أو غير ذلك، فقال الله تعالى للداعي إلى سبيلِ ربّه: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

الضَّيْقُ: والضَّيْقُ: يأتي بمعنى الأَلَمِ النفسي الذي يَضْغَطُ عليها فيضيقُ عليها مجاريها، وهو المراد هنا، ويأتي بمعنى الشدّة والفقْر.

وشعورُ الإنسان بمكر أعدائه لإيقاع الضَّرِّ به يُؤلِّدُ لَدَيْهِ هذا الضَّيْقَ في نفسه.

وفي نهْيِ الله الداعي عن أن يَكُونَ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُ أعداءُ دَعْوَتِهِ، إشعارٌ ضمنيٌّ بأنّه جلٌّ وعلاٌ سَيُخِطُّ مكرهم، ويرُدُّهُ إلى نحورهم، وينصُرُ أوليائه، كما قال تعالى في سورة (الأنفال/ ٨): ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ وهو من التنزيل المكيّ المضاف إلى سورة مدنية.

وقد خاطب الله الداعي بهذا النهي الإرشاديّ الترغيبي كما خاطب بمثله رسوله في الآية (٧٠) من سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨ نزول).

القضية الرابعة: بيان أن الله عز وجل مع أوليائه معيناً وناصرًا، سواءً أكانوا من المتقين الذين يُعاقِبُونَ بِمِثْلِ مَا عُوِقُوا بِهِ، أم كانوا من المحسنين الصابرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ .  
ومعيتة الله لهم هي معيتة إعانة وحفظ ونصر وإحباط لمكر أعدائهم الكافرين المجرمين .

ونلاحظ أن هذا النص المدني التنزيل قد وضع عقب الآية المكية التي يُبين الله فيها لرسوله ولحاملي رسالته من بعده القواعد الرئيسة العامة لمنهاج الدعوة إلى سبيل الله، وهي قوله عز وجل فيها:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

والحكمة في هذا أن الداعي إلى سبيل ربه في مجتمعات كافرة معاندة لا بُدَّ أن يتعرَّض لأحوال مختلفة تستدعي إرشاده إلى ما ينبغي أن يفعلها، فجاء النص المدني التنزيل مُرشداً معلماً .

أما تحليل ما جاء في هذه الآية (١٢٥) فله موضع آخر من هذا الكتاب .

وهكذا وضَّح لنا من هذه النصوص الأربعة ذات التنزيل المدني، والموضوعية في سور مكية أنها موجهة لحاملي رسالة الدعوة إلى سبيل ربهم، والأمين بالمعروف والناهي عن المنكر، من أمّة محمد ﷺ، وإن كان ظاهر الخطاب مُوجهاً للرسول، إذ التوجيه له ملاحظ في أنه أول المؤمنين والمسلمين، وأول الدعاة إلى سبيل الله، وأول الأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر، وإمامهم جميعاً، والخطاب للإمام هو خطاب لكل المؤمنين به .

\* \* \*

## النص الخامس :

قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

هذه الآية أنزلت في المرحلة المدنية وضممت إلى سورة هي من أواخر التنزيل المكي، للإشعار بأن المقصود بالخطاب فيها قادة الدعوة الذين يُشرفون على تربية الدعاة وتعليمهم وتزكيتهم بغية إعدادهم وتأهيلهم للقيام برسالة الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ كان الرسول ﷺ متحققاً بما جاء فيها من توجيه، لكن المرحلة التي أنزلت فيها سورة الكهف مرحلة قد تهيأ فيها قادة مربون من أصحاب الرسول ﷺ، وهم محتاجون للتوجيه الذي جاء فيها، وكذلك كل من وصل إلى مثل هذا المستوى من بعدهم، وقد كان هؤلاء الأصحاب يتأسون بالرسول ﷺ، إلا أن أهمية الموضوع تستدعي إنزال قرآن يتلى به، فحصل هذا الإجراء البديع.

إن العالم الديني ينبغي أن يكون عالماً وداعياً وهادياً ومربياً اقتداءً بالرسول ﷺ، فهو مسؤول عن تربية الدعاة إلى الله والأمين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهذه التربية تتطلب منه الإشراف على من يُعلمهم ويزكيهم إشرافاً متتابعاً بالغداة والعشي، حتى يكونوا مؤهلين لأداء هذه الوظيفة الجليلة.

ولما كان هذا الإشراف التعليمي التربوي المتتابع يتطلب بذل جهد كبير، بدأ منتظم لا ينقطع، وهذا لا يتحقق إلا بصبر عظيم، أنزل الله هذه الآية يخاطب فيها رسوله، والمقصود أئمة الدعاة المرثون المعلمون من أمته، وجاء فيها الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي، لإشعار كل فرد منهم بأنه

مُطَالِبٌ بِخَطَابٍ خَاصٍّ بِهِ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْجِيهِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ  
الآيَةُ .

وَاضْبِرْ نَفْسَكَ : أَي : وَاضْبِرْ يَا أَيُّهَا الْعَالَمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ،  
الْمَسْئُولُ عَنْ إِعْدَادِ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ وَالْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،  
حَامِلًا نَفْسَكَ عَلَى تَحْمِيلِ مَشَقَّاتِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّزْكِيَةِ ، مَعَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ  
رَبَّهُمْ بِإِعْدَادِ أَنْفُسِهِمْ ، لِيَكُونُوا دَعَاةً إِلَى دِينِ اللَّهِ ، وَأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ نَاهِينَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ .

مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ : أَي : مَعَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ بِتَعَلُّمِ عُلُومِ  
الدِّينِ ، وَإِعْدَادِ أَنْفُسِهِمْ لِيَكُونُوا دَعَاةً مُؤَهَّلِينَ .

فَالدَّعَاءُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ تَعَلُّمُ عُلُومِ الدِّينِ ،  
وَالْقِيَامُ بِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَإِعْدَادُ النَّفْسِ لِهَذِهِ الْوِظِيْفَةِ الْعَظِيمَةِ .

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ : أَي : فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ .

وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ : أَي : وَلَا تَتَجَاوَزْ عَيْنَاكَ مُرَاقَبَتَهُمْ وَالْإِشْرَافَ  
عَلَيْهِمْ ، لِثَلَاثِ زَمَانٍ قِيَادَتَهُمْ مِنْ يَدِكَ ، بِغَفْلَتِكَ عَنْهُمْ ، وَإِهْمَالِكَ مُرَاقَبَتَهُمْ .

تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : أَي : تُرِيدُ بِتَجَاوُزِ عَيْنِكَ مُرَاقَبَتَهُمْ وَالْإِشْرَافَ  
عَلَيْهِمْ ، وَبِغَفْلَتِكَ عَنْهُمْ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ شَهَوَاتٍ وَنَحْوِهَا .

وَلَا تُطْعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا : أَي : وَلَا تُطْعِ مُثَبِّطًا لَكَ عَنْ عَمَلِكَ ،  
أَوْ مُسْتَدْرَجًا إِيَّاكَ إِلَى مَزَالِقِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ ، فَهَذَا قَدْ وَجَدْنَا قَلْبَهُ غَافِلًا  
عَنْ ذِكْرِنَا ، وَإِذْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ تُثَبِّطُ عَنِ تَرْبِيَةِ الدَّعَاةِ وَتَعْلِيمِهِمْ  
وَتَزْكِيَتِهِمْ .

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا : أَي : وَمِنْ عِلَامَاتِ كَوْنِهِ غَافِلًا عَنِ

ذكر الله، أَنَّهُ اتَّبَعَ هَوَاهُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ. وَكَانَ أَمْرُهُ فِي حَيَاتِهِ وَسُلُوكِهِ  
النَّفْسِي وَالظَّاهِر مُجَاوِزاً حُدَّ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ بِالْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ.  
الْقُرْطُ: هُوَ مَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ مُجَاوِزاً حُدَّ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى.

\* \* \*

## المقولة الثالثة

نصوص قرآنية يُلاحظُ فيها توجيه الأمرِ بالصَّبْرِ للرسول  
ويُلحَقُ به حاملو رسالته من أمته ﷺ

مقدمة:

اشتمل القرآن المجيد على نحو عشرين نصّاً فيها توجيه الأمرِ بالصَّبْرِ في مجال الدعوة إلى سبيل الله، للرسول ﷺ، ويُلحَقُ به حاملو رسالته من بعده. وقد وردت هذه النصوص في مناسباتٍ شتى تشمل جوانب مختلفة من مشكلات يتعرّض لها حامل رسالة الدّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ مُشكِلةٍ منها تحتاج من حامل الرسالة الصَّبْر. وقد اقتضت الحكمة الرّبّانية أن يُوجَّه له الأمرُ بالصَّبْرِ معها لئلا يتصرّف تصرّفاً يتنافى مع مقتضيات رسالته.

ونظراً إلى واجب تربية الدّعاة إلى سبيل الله، والأمين بالمعروف والناهي عن المنكر على فضيلة خُلُقِ الصَّبْرِ في مختلف المشكلات التي يتعرّضون لها، ومختلف المواقف التي أمر الله فيها رسوله بالصَّبْرِ، ويُلحَقُ به كلّ حاملٍ لرسالته من بعده، فقد وجَدْتُ من الخَيْرِ تَتَبَعُ هذه النصوص بحسب ترتيب نزولها، مصحوبةً بنظرات تدبّريّة تهديّ حاملِي رسالة الرسول ﷺ، إلى ما يَنبَغِي لهم الالتزام به من الصَّبْرِ، في المواقف المختلفة

التي يتعرّضون لها في مسيرتهم التي يؤدّون فيها مهامّ رسالتهم .

نظرات تدبّرية للنصوص مع مراحل الدعوة:

١ - بدأ الله عزّ وجلّ نبوّة رسوله فأوحى إليه أوائل سورة (العلق) أولِ سُورَةِ أَنْزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَلَمْ يُؤَمَّرْ فِيهَا بِأَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ .

بل كان إنزالها وقيام الرسول بمقتضى إيمانه وإسلامه في صلواته، وتلاوته ما أنزل عليه منها، بمثابة البيان التمهيدي بأنّه نبيّ يُوحى الله إليه بقرآن يُتلى .

فتعرّض من بعض قومه للأذى، بُغْيَةً مَنَعَهُ عَنْ صَلَاتِهِ الْخَاصَّةِ، إِذْ صَارَ يُصَلِّي لِرَبِّهِ مَنفَرِدًا، عَلَى خِلَافِ طَرِيقَةِ قَوْمِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَقِيَةَ السُّورَةِ .

\* \* \*

٢ - وتذاكر ملاً قريش بنبوّته، فاستنكر بعضهم أن يكون نبياً يُوحى إليه، فاتَّهَمَهُ بِالْجُنُونِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ سُورَةَ (القلم/٦٨) ثَانِي سُورَةِ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ .

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيهَا مَا فِيهِ تَثْبِيْتُ لَهُ، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ، وَأَبَانَ لَهُ فِيهَا أَنَّ مِنْ عَارِضِهِ مِنْ قَوْمِهِ وَأَتَّهَمَهُ بِالْجُنُونِ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِدَافِعِ الْحَسَدِ، وَوَجَّهَ اللَّهُ فِيهَا النِّكَيرَ الشَّدِيدَ مُنْصَبّاً عَلَى مَنْ تَوَلَّى كِبَرَ ذَلِكَ، مَعَ سَوْقِ أَدَلَّةٍ إِقْنَاعِيَّةٍ، تَعْتَمِدُ عَلَى حُجَجٍ عَقْلِيَّةٍ بَرَهَانِيَّةٍ، وَتَقْدِيمِ إِنْذَارٍ بِعَذَابِ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ .

\* \* \*

٣ - واقتضت الحكمة التربويّة أن يُعَدَّ اللهُ رسوله للقيام بوظيفة الدّعوة والإنذار إعداداً نفسياً ملائماً للمهمة العظيمة التي سيكلّف القيام بها، فأُنزِلَ عَلَيْهِ سُورَةُ (المزمل/٧٣) ثَالِثُ سُورَةِ أَنْزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَكَلَّفَهُ فِيهَا



أن يقوم الليلَ إلا قليلاً، عابداً ربّه، وكلفه أن يذكر اسم ربّه، ويتبتّل إليه تبتيلاً، أي: يتفرّغ تفرُّغاً كاملاً لعبادة ربه، وكلفه أن يتخذة وكيلاً في أمره كله.

ولم يأمره في هذه المرحلة بأن يقول لقومه: إني رسول الله إليكم.

لكنّ الله عزّ وجلّ حذّر فيها الناس من عذابه، وخاطبهم فيها خطاباً مباشراً بقوله:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ .

فأبان لهم عاقبة فرعون إذ كذب رسول ربّه، وأنذرهم فيها إن كفروا بعذاب أليم يوم الدين.

والإعدادُ النفسيّ الذي أعدّ الله به رسوله جعله يَحْمِلُ همّاً عظيماً، ومع الهمّ العظيم للقيام بأمر عظيم يُصَابُ جسد الإنسان بعوارض بزْدٍ يحتاجُ معها إلى أن يتدبّر بأعطيّة تعطيه دفأً، وهذا هو الذي شعر به الرسول ﷺ، فصار يقول دَثْرُونِي دَثْرُونِي، كما جاء في روايات السّيرة.

\* \* \*

٤ - وبعد أن أعدّ الله رسوله للقيام بمهمّته العظيمة إعداداً نفسياً مُلائماً أنزَلَ عليه سورة (المدثر/ ٧٤) رابع سورة أنزلت من القرآن المجيد، فقال له:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴿٣﴾ وَبِابِكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦﴾ وَلَا تَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

أي: نَحَّ عَنْكَ دِثَارَكَ فقد انتهت مرحلة الإعداد، وقم بالدعوة إلى سبيل ربّك وفقّ مراحلها، تبليغاً وإقناعاً وتبشيراً بثواب الله العظيم يوم الدين، حتّى آخر مراحلها وهي الإنذارُ بعذاب الله المعجل والمؤجل إلى يوم الدين، دلّ

على هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ .

وعلمه ربُّهُ الأسس العامّة الكُبرى للدين الذي يلتزم به ويدعو إليه،

وهي:

(أ) تكبيرُ الله وحده، فلا شريك له في ذاته ولا في صفاته، وهذا يلزم منه توحيد الله في ربوبيّته وفي إلهيّته، فقال: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ وتوحيدُ الله في إلهيّته يلزم منه إفراده في العبادة، وهذا تندرج تحته كلّ أحكام الدين .

(ب) التّطهّر من الأرجاس والأدران، فقال له: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ وهذا يلزم منه تطهيرُ جسده، وتطهيرُ الثيابِ والبَدَنِ من الأرجاس والأنجاس والأدران المادّية، يدلُّ على وجوب تطهيرِ النفس من النجاسات المعنوية من باب أولى .

(ج) الابتعادُ عن كلّ الوثنياتِ والشركيات ولوازم الاقتراب منها في الاعتقاد والسلوك، فقال له: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ أي: واخصُص الرُّجْزَ (وهو الشرك) بالهَجْرِ الكامل، فلا تقترِب من شيءٍ منه مُطلقاً، وادعُ إلى هَجْرِهِ في رسالتك .

وأزسده ربُّهُ إلى ما يجذبُ به قلوب من يدعوهم في مسيرته الدّعوية، وإلى ما يحمي به نفسه من التّخادُلِ والضّجَر، فأبان له فضيلتين خُلقيّتين:

الفضيلة الأولى: العطاءُ ابتغاء مرضاة الله فقط، دون ابتغاء الفوائد الدنويّة من الناس، فقال الله له: ﴿وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾﴾ .

المنّ: التفضُّل بالعطاء الحسن .

أي: وأنعمْ بالعطاء الحسنِ ممّا تملكُ من جسديك ونفسيك ومالك عطاء لا يراؤُ منه الربحُ من الناس، والمعنى: فامننْ بعطاءاتك غيرَ مستكبرٍ بها أعواضاً من الناس .

وهذا يَدُّ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ يَبْغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ ذَا بَدَلٍ وَعَطَاءٍ، حَتَّى يَمْلِكَ مَشَاعِرَ النَّفْسِ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَطَاؤُهُ وَسِيلَةً لِتَحْصِيلِ الْعَطَايَا مِنَ النَّاسِ مُسْتَكْرَأً، فَمَنْ اسْتَكْرَأَ مِنْ عَطَاةِ النَّاسِ بِعَطَاةِ رَبِّهِ لَهُمْ، زَهَدَ بِهِ النَّاسُ، إِذْ يَرَوْنَهُ تَاجِرًا طَالِبًا لِلرِّزْقِ مِمَّا يَبْذُلُهُ.

الفضيلة الثانية: الصَّبْرُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، فقال الله له: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

أي: ولا ابتغاء مرضاة ربك وثوابه الجزيل فاصبر على ما تلقاه من الذين تدعوهم إلى سبيل ربك، من إعراضٍ أو إذبارٍ، أو أذى بأقوالهم أو بأعمالهم. وكان هذا أول توجيه من الله لرسوله بأن يصبر على ما سيلقى من قومه من مؤلماتٍ له، وهو يقوم بأداء رسالته التي حمّله الله أعباءها.

\* \* \*

٥ - وقام الرسول ﷺ بمهمات رسالته كما أمره الله، وتعرض فعلاً لاتهماتٍ وأقوالٍ جارحاتٍ أثرت في نفسه صلوات الله عليه، فأنزل الله عليه قوله في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٣٩)   
 وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾.

فأمر الله رسوله بالصبر، ووصف له الدّواء الذي يستعين به، حتى يصرف الله به عنه الضّواغظ النفسية التي تستنفد طاقات الصبر عادةً في نفوس الناس، وهو أن ينقطع متبتلاً لذكر ربه مُسَبِّحاً بحمده في الأوقات التالية:

- قبل طلوع الشمس، وهذا الوقت يستمر حتى طلوعها.
- وقبل غروب الشمس، وهذا الوقت يكون من بدء اصفرار الشمس حتى غروبها.

● وأثناء الليل، وهذا يكون في وقت أو أوقات ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء، وما بين صلاة العشاء وطلوع الفجر.

● وعقب كل صلاة.

وهذا التعليم الموجه للرسول ﷺ تعليمٌ موجه أيضاً لكل الدعاة إلى الله من أمته، الَّذِينَ سَيَتَعَرَّضُونَ فِي مَسِيرَتِهِمُ الدَّعْوِيَّةَ لِمَا قَدْ يَسْتَهْلِكُ طَاقَاتِ الصَّبْرِ لَدَيْهِمْ، فَالتَّسْبِيحُ بِحَمْدِ اللَّهِ بِعِبَارَةٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» وَنَحْوَهَا فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي أَرَشَدَ اللَّهُ إِلَى التَّسْبِيحِ فِيهَا يُمَدُّ طَاقَاتِ الصَّبْرِ فِي النَّفْسِ بِفِيوضٍ مِنْ مَعُونَةِ اللَّهِ وَمَدَدِهِ.

\* \* \*

٦ - ثُمَّ تَعَرَّضَ الرَّسُولُ ﷺ لِاتِّهَامِهِ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ وَبِأَنَّهُ صَاحِبُ غَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ خَاصٍّ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَبِأَنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ قَضِيَّةٌ يَخْتَلِقُهَا مِنْ عِنْدِهِ اخْتِلَافًا، فَالْمِلَّةُ الْآخِرَةُ وَهِيَ التَّصْرَانِيَّةُ مِلَّةٌ فِيهَا عَقِيدَةُ التَّثْلِيثِ، وَفِيهَا تَعْظِيمٌ لِلْأَوْثَانِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ (ص/ ٣٨/ مَصْحَف/ ٣٨ نَزُول) قَوْلَهُ:

﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ... ﴾

وَأَشْعَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ فِيهَا ضَمْنًا بِأَنَّ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِ قَدْ امْتَحِنُوا امْتِحَانَاتٍ شَدِيدَاتٍ فَصَبَرُوا عَلَى مَا ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِهِ، فَذَكَرَ لَهُ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ وَأَيُّوبُ، مَبِينًا مَا امْتَحِنُوا بِهِ، وَذَكَرَ لَهُ: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكُفْلِ، فِي إِشَارَةِ ضَمْنِيَّةٍ إِلَى أَنَّهُمْ امْتَحِنُوا فَصَبَرُوا، دُونَ التَّصْرِيحِ بِهَذَا.

\* \* \*

٧ - ثُمَّ تَعَرَّضَ الرَّسُولُ ﷺ لِاتِّهَامِهِ بِأَنَّهُ يَفْتَرِي الْقُرْآنَ عَلَى رَبِّهِ، وَبِأَنَّهُ يُعِينُهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، وَبِأَنَّهُ يَنْقُلُهُ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ.

وَشَكَكَ كُفْرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي أَنْ يَكُونَ رَسُولًا بِسَبَبِ أَنَّهُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لِكَسْبِ رِزْقِهِ .

واقترحوا أَنْ يُنَزَّلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا، حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ بِأَنَّهُ صَادِقٌ فِي رِسَالَتِهِ .

واقترحوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ أَنْ تَكُونَ لَهُ فِي مَكَّةَ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا، فَاللهُ الَّذِي اصْطَفَاهُ بِالنَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ كَمَا يَدَّعِي قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لَهُ ذَلِكَ .

وقالوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا .

ويظهر أَنَّ بعض أصحابِ الرسول ﷺ رَغِبَتْ نفوسهم فِي إجابةِ الكافرين إِلَى بعض مطالبهم رجاءَ إيمانهم، لكنَّ الله يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُتَعَتِّتُونَ مُتَشَبِّهُونَ، فلو أجابهم إِلَى مقترحاتهم لما آمَنوا، فَأَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ . . . وَحَمَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ .

فأبان اللهُ لرسوله ولكلِّ أُمَّتِهِ أَنَّ مِنْ سُنَنِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضَمِنَ قَانُونُ الْخَلْقِ الْعَامِّ، أَنْ يَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ فِتْنَةً لِبَعْضٍ، أَي: يَمْتَحِنُ اللهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ مِنْ خِلَالِ مَجْرَى سُنَّتِهِ فِي كَوْنِهِ، فإِذَا الْكَافِرِينَ لِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَحَدُ مَوَادِّ الْامْتِحَانِ الرَّبَّانِيِّ لِعِبَادِهِ .

وأبانَ لَهُمْ أَنَّ اجْتِيَاظَ هَذَا الْامْتِحَانِ الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ بِنَجَاحٍ إِنَّمَا يَكُونُ بِالصَّبْرِ، فَقَالَ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِفْهَامِ التَّرغِيبِيِّ: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ ؟! أَي: إِذَا صَبَرْتُمْ ظَفَرْتُمْ وَفُزْتُمْ، وَإِنْ لَمْ تَصْبِرُوا فَإِنَّكُمْ لَنْ تَغَيَّرُوا مِنَ الْوَاقِعِ شَيْئًا، وَتُسَخَّرُونَ ثَوَابَ الصَّابِرِينَ، وَتُصَابُونَ بِالْأَمِّ الْمُتَضَجِّرِينَ .

\* \* \*

٨ - واستمرَّ قادةُ المشركين على مواقفهم في اتهام الرسول بأنه ساحر مبین، نظراً إلى تأثيره بالقرآن وبدعوته الحكيمة، وتزايد الذين يؤمنون به وبما جاء به عن ربه .

وفي أواسط المرحلة المكيّة عرض قادةُ المشركين عليه أن يأتي بقرآن غير القرآن الذي أنزله الله عليه، أو أن يُبدّله تبديلاً يوافق أهواءهم .

ولعلَّ الرسولَ تحدّثت نفسه بأن يسأل ربه إنهاء مدّة إمهالهم، والحكم بمعاقتهم، فأُنزلَ الله عليه قوله في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ۝ ﴾ .

فأمر الله بهذا رسوله أن يخاطب الناس جميعاً بأنه قد جاءهم الحقُّ من ربهم، وأن من اهتدى فإنه هو وخذهُ المستفيد من هدايته، وأن من ضلَّ فإنه هو وخذهُ الذي يتضرر من ضلالته .

وأمره أن يبيّن لهم أنه ليس وكيلاً عليهم، بمعنى أنه ليس مكلفاً أن يهديهم بالإكراه والإجبار، كالوكيل على قطع من الغنم .

وأمره بأن يتبع ما يوحي إليه، فلا يكثر لِقَوْلِ المشركين له: ائت بقرآن غير هذا أو بدّله .

وأمره أخيراً بأن يصبر حتى يحكم الله بشأنِ المصيرين على كُفرهم، وهو خير الحاكمين، فلا يسأل ربه التعجيل بإهلاكهم، إنه هو أعلم بعباده .

\* \* \*

٩ - ثم عرض الله على رسوله لِقِطَّةٍ من قصّة نوح عليه السلام وصبره على قومه، في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وقال له بعدها:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴾ (١١٤)

أي: فتأس بنوح، واصبر كما صبر على قومه.

والصبر هنا هو من مستوى الصبر الواجب، لقوله تعالى بعده: ﴿ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴾ فمرتبة التقوى تقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات.

وقال له فيها أيضاً:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥)

والصبر المأمور به في هذه الآية هو من الصبر المندوب إليه، لقوله تعالى بعد: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥) فمرتبة الإحسان مرتبة يصل إليها من يتوسعون في فعل مرضي الله من نوافل الصالحات.

\* \* \*

١٠ - ثم اشتدت لهجة تربية الله عز وجل لرسوله ﷺ في توجيهه لأن يصبر على ما يلقى من كبراء قومه من تكذيب وإيذاء واضطهاد لأصحابه، وضمنه وعداً بالنصر، وأبان له أن كثيراً من الرسل من قبله قد كذبوا وأودوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله لهم، فأنزل عليه قوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِنَافِئَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٥)

ولا مبدل لكلمات الله: أي: ولا مبدل لكلمات الله التكوينية ومنها سننه في ابتلاء بعض عباده ببعض، التي منها ابتلاء رسله بتكذيب الكافرين

وإيذائهم لهم، لاختبار مقدار صبرهم، ولا مُبدّل لكلماتِ اللهِ التكليفيةِ  
والجَزَائِيَّةِ.

ويظهرُ أَنَّ الرُّسُولَ ﷺ رَغِبَتْ نَفْسُهُ فِي أَنْ يُجْرِيَ اللهُ لَهُ بَعْضَ الْآيَاتِ  
الْخَوَارِقِ الَّتِي طَلَبَهَا كُفْرَاءُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، رَجَاءً أَنْ يُؤْمِنُوا، لَكِنْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ  
مُعَانِدُونَ مُتَعَثِّتُونَ، وَأَنَّ إِجْرَاءَ الْخَوَارِقِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا لَا يُغَيِّرُ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ  
شَيْئاً، بَلْ يَزِيدُهُمْ إِصْرَاراً وَعِنَاداً وَتَشَهَّيَاتٍ فِي طَلَبِ الْمَعْجَزَاتِ، وَحِيْتَيْدٍ  
تَقْتَضِي الْحِكْمَةَ إِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكاً شَامِلاً، فَقَالَ اللهُ لَهُ:

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبْرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلَغِنِي فَفَقَا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي  
السَّمَاءِ فَتَاتِيهِمْ بِآيَةٍ ﴾.

أي: فإن استطعت ذلك فافعل، لكنه لن يستطيع ذلك ما لم يُقدِّره اللهُ  
عليه. وفي هذا تأديبٌ له بأسلوبِ التعجيز، والغرضُ تربيةٌ حاملي رسالته من  
بعده.

وفي عبارة ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ إشعارٌ بأنهم في مجموعهم ما زالوا في مرحلة  
الإعراض الذي يُزجى معه استجابةُ فئاتٍ منهم حيناً فحيناً، ولم يصلوا بعد  
إلى مرحلة الإدبار والتولي التي تكونُ حالهم معها حالةً ميثوساً منها.

ولو شاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى: أي: ولو شاء اللهُ هدايتهم هدايةً  
إجباريةً لسلبهم إراداتهم الحرّةَ فجمعهم على الهدى، لكنَّ اللهُ أراد اختبارهم  
فأعطاهم إراداتٍ حرّةً، فالمطلوبُ منهم أن يهتدوا باختيارهم الحرِّ لا بالجبرِ.

فاعلم هذه الحقيقة واعمل بمقتضاها دوماً.

\* \* \*

١١ - ثم تطلعت نفوسُ أصحابِ الرسولِ ﷺ بقوّةٍ لطلبِ نصرِ اللهِ،



فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ نزول) قوله:

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٥١).

وبعد ثلاث آيات قال تعالى خطاباً لرسوله فليُكلَّ حامل رسالته من

أمته:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٥٥).

فوعده الله رسوله والذين آمنوا بالنصر في الدنيا وفي الآخرة يوم يقوم  
الأشهاد، وهم الذين يشهدون للعباد أو يشهدون عليهم بما كان منهم، مُبَيَّنًا  
أَنَّ النَّصْرَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ .

وأمر أمراً إفرادياً الرسول ﷺ وكلَّ حامل رسالته من أمته بالصَّبر، وبأن  
يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ لِدُنْبِهِ، وبأن يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ .

ويظهر أن المقصود بهذا التوجيه حامل رسالة الرسول من أمته، وجاء  
الخطاب بصورة الخطاب الإفرادي بدءاً بالرسول ﷺ نظراً إلى أنه أوَّل  
المؤمنين المسلمين الدعاة، وقائدهم، ويتقلَّ توجيه الخطاب تَلَفَاتِيماً إلى كلِّ  
حاملٍ لرسالة الرسول من أمته، فحال أصحاب الرسول ﷺ في الثلث الأخير  
من المرحلة المكيَّة تستدعي هذا التوجيه الحازم.

وبعد عشرين آية من السورة نفسها قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا  
يُرْجَعُونَ ﴾ (٧٧).

ويظهرُ أَنَّ نَفْسَ الرَّسُولِ ﷺ تَطَلَّعَتْ إِلَى أَنْ يُجْرِيَ اللَّهُ لَهُ آيَةً إِعْجَازِيَّةً  
كُبْرَى تُكُونُ سَبَباً فِي هِدَايَةِ كَثِيرٍ مِنْ كِبْرَاءِ قَوْمِهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِيهَا:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضُصْ

عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ .

أي: إذا أتى الله رسوله آية كبرى استجابة لطلب قومه، ثم أصر قومه على العناد والكفر، قضت إرادة الله الحكيمة بإهلاك القوم كما حصل لشمود إذ أصرّوا على الكفر بعد آية الناقة.

\* \* \*

١٢ - وبعد أن أبان الله عز وجل لرسوله ﷺ أن الحكمة تقتضي عدم إجراء آية إعجازية كبرى له، لئلا يتعرض قومه للإهلاك الشامل إذا أصرّوا على الكفر بعد إجرائها، يظهر أن الرسول خطرت له خواطر تعجيل معاقبة مستحقي العقاب من قومه، دون أن يسأل ربه شيئاً من ذلك، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأحقاف/ ٤٦/ مصحف/ ٦٦ نزل):

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٥﴾ .

أي: ولا تستعجل لهم الإهلاك المعجل في الدنيا، فالعذاب الذي وُعدوا به يوم الدين آتٍ لا محالة، وحين يرون يوم القيامة العذاب يشعرون أنهم لم يلبثوا بين الموت والبعث إلا ساعة من نهار.

وأعلن الله عز وجل في آخر الآية بلاغاً عاماً لكل المؤمنين لقطع تطلعات نفوسهم لإهلاك جماعات الكافرين، فأبان في هذا البلاغ أن الإهلاك الشامل لقوم من الأقوام إنما يكون حينما يكون فسقهم أمراً عاماً شاملاً، ويُمنسي إصلاح أفرادٍ منهم ميثوساً منه، فقال تعالى: ﴿ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي: فما داموا لم يصلوا إلى هذا الحضيض فإنهم لا يهلكون إهلاكاً عاماً شاملاً.

\* \* \*

١٣ - ثم أبان الله عز وجل دعوة الرسل السابقين لأقوامهم، وحوارهم لهم، وإعلانهم صبرهم على إيذاء قومهم لهم، ليتأسى الدعوة إلى الله من أمة محمد ﷺ بهم، فقال تعالى: في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿الر يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قور فوج وعاد وشمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم رسلهم بالبينت فردوا أيديهم في أفوههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإننا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴿١٠﴾ قالت رسلهم آفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطين مبين ﴿١١﴾ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمتن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتيكم بسلطين إلا بإذن الله وعلى الله فليستوكل المؤمنون ﴿١٢﴾ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولصبرت على ما آذيتموناً وعلى الله فليستوكل المتوكلون ﴿١٣﴾ وقال الذين كفروا لرسليهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في مياتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴿١٤﴾ ولستكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴿١٥﴾ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴿١٦﴾﴾.

في هذا النص عرض شامل، لمنهاج الرسل في دعوة أقوامهم إلى سبيل ربهم، ولمجادلتهم لهم بالتي هي أحسن، وصبرهم على أذاهم الذي آذوهم به من أجل قيامهم برسالة ربهم بينهم، وبيان أن الطغاة من الأقوام يوجهون التهديد لرسل ربهم بالإخراج من بلادهم، إذا لم يعودوا إلى دين قومهم.

وأخيراً يتدارك الله رسله بالتصر، وبإهلاك أعدائهم الكافرين الطغاة.

وظاهر من هذا النص التوجيه للاقتداء بالرسل السابقين في دعوتهم، وفي حوارهم وجدالهم، وفي إعلان الصبر على أذى كل جبار عنيد.

وهذا من أساليب التربية بالأسنوة الحسنة، ومعلوم أنّ الرُّسُلَ عليهم الصلاة والسلام هم أكمل من يُقتدى بهم في مهمّات رسالاتهم.

\* \* \*

١٤ - ثم أبان الله عزّ وجلّ أنّه جعل من بني إسرائيل أُمَّةً من الدُّعاة إلى سبيل ربّهم، يَهْدُونَ الناسَ بأمرِهِ، لَمَّا صَبَرُوا صَبْرًا مَبْنِيًّا عَلَى قَاعِدَةِ اليَقِينِ بآياتِ الله .

وفي هذا تشجيعٌ لِنُحْبَةِ من أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أن يوقنوا بآياتِ الله، ويصبروا حتّى يجعلَ اللهُ منهم أُمَّةً يَهْدُونَ الناسَ ملتزمين بأمرِ اللهِ في منهاجِ دعوتهم إلى سبيلِ ربّهم، فقال اللهُ عزّ وجلّ في سورة (السجدة/٣٢ مصحف/٧٥ نزول):

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

أي: ولقد آتينا موسى كتاب التوراة، فلا تكن في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ موسى، وقد حصل هذا ليلة الإسراء والمعراج، وجعلنا موسى والتوراة هُدًى لبني إسرائيل، وجعلنا من بني إسرائيل أُمَّةً دعوة إلى دينِ اللهِ يَهْدُونَ بأمرِ ربّهم، لَمَّا صَبَرُوا عَلَى ما أصابهم في سبيلِ اللهِ، وكانوا بآياتِ ربّهم يُوقِنُونَ .

والمعنى: فاصبروا يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وكونوا بآياتِ ربّكم موقنين، حتّى يجعل اللهُ منكم أُمَّةً يَهْدُونَ بأمرِ ربّهم .

\* \* \*

١٥ - ثم وجه اللهُ رسوله لأن يصبر لحكم ربّه، وأبان له أنّه مَحْفُوظٌ بحفظه، محروسٌ بأعْيُنِهِ، وأكَّدَ لَهُ لُزُومَ استعمالِ دواءِ التَّسْبِيحِ بحمدِ ربّه عند

كُلَّ حَرَكَةِ قِيَامٍ يُفَعِّلُهُ، كَقِيَامٍ مِنْ نَوْمٍ أَوْ قَعُودٍ أَوْ اضْطِجَاعٍ أَوْ تَوَقُّفٍ عَنْ مِتَابَعَةِ سِيرٍ، وَأَنَاءِ اللَّيْلِ وَهِيَ سَاعَاتُهُ، وَعِنْدَ السَّحَرِ إِذْ تُدْبِرُ النُّجُومُ آخِذَةً إِلَى الْمَغِيبِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَذَرَ الْكُفْرَةَ الْمَعَانِدِينَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُضْعَفُونَ، بِمَوْتٍ فِي آجَالِهِمْ حَتْفَ أَنْوْفِهِمْ، أَوْ بِقَتْلِ بَأْيَدِي الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فِي سُورَةِ (الطُّورِ/ ٥٢/ مَصْحَفٍ/ ٧٦ نَزُولٍ):

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُضْعَفُونَ ﴿٤٩﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٥٢﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٥٣﴾ .

أَضَافَ دَوَاءَ التَّسْبِيحِ فِي هَذَا النَّصِّ أَوْقَاتًا لَمْ تُذَكَّرْ فِي التَّصَوُّصِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَهُ، وَهِيَ عِنْدَ حَرَكَةِ كُلِّ قِيَامٍ، وَعِنْدَ السَّحَرِ فِي وَقْتِ إِذْبَارِ النُّجُومِ .

والتَّوَجِيهُ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا النَّصُّ مُوجَّهٌ أَيْضًا لِقَادَةِ الدَّعْوَةِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَعَلَى حَامِلِ رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَضْبِرَ قَائِمًا بِمُهَمَّاتِ رِسَالَتِهِ تَارِكًا أَمْرَ الْمَدْعُوعِينَ الْمَعَانِدِينَ لِحُكْمِ رَبِّهِ، وَأَنْ يَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُضْعَفُونَ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ، عَلَى أَنَّ لَهُمْ دُونَ ذَلِكَ الْعَذَابِ عَذَابًا آخَرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا سَيِّئَاتِهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ .

\* \* \*

١٦ - ثُمَّ أَرشَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَصْبِرَ صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى الَّذِينَ يَرَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ الدِّينَ أَمْرًا بَعِيدًا .

وَالصَّبْرُ الْجَمِيلُ هُوَ الصَّبْرُ الَّذِي يَكُونُ مُضْحُوبًا بِالتَّلَطُّفِ وَحُسْنِ مِقَابَلَةِ أذى الْمَدْعُوعِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ بِالْعَطَاءِ وَبِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، وَسِيلَةً إِلَى تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ .

ففي معرض الحديث عن سؤال سائلٍ بعذابٍ واقع، للكافرين ليس له دافع، وهذا السائل يستبَعِدُهُ إذ يَرَاهُ وعيداً مؤجَّلَ التنفيذ إلى يوم القيامة، قال الله عزَّ وجلَّ لرسوله في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَرَأَيْنَاهُ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْتَلُّ حِمِيمٌ حَمِيمًا ۝ ﴾ .

كَالْمُهْلِ: كالمعدنِ المُذاب، وَيُظْهَرُ أَنَّهُ كالتَّحَاسِرِ المذاب إذ جاء أن السماء تكون يومئذٍ كالوردة الحمراء .

كَالْعِهْنِ: كالصوف المنفوش ذي الألوان المختلفة .

حَمِيمٌ حَمِيمًا: الحميم هو القريب الذي توذُّهُ وَيُوذُّكَ .

\* \* \*

١٧ - ثم أشار الله عزَّ وجلَّ إلى أن المشركين تَابَعُوا مطالبَتَهُمُ الرسول ﷺ بأن يَأْتِيَهُمْ بآية مَادِّيَّةٍ من الآياتِ ذواتِ الإعجازِ المادي الخارق للعادات، ويظهر أن طائفة من أصحاب الرسول ﷺ تمنَّوا لو يجري الله لرسوله ما يطالبُ به المشركون من آيات مادية معجزة، رغبةً منهم في أن يستجيب المُصِرُّون على كفرهم لدعوة الرسول ﷺ، فأبانَ الله لهم أن حال هؤلاء المطالبين بالآيات المادية المعجزة متشهُون، ليسوا على استعدادٍ لأن يؤمنوا ولو جَاءَهُمُ الرسول بما يطلبون، لأنَّ قلوبهم مقلقة مطبوعٌ عليها بسبب عنادهم وإصرارهم على الكفر، واتباعهم أهواءهم وشهواتهم من زينة الحياة الدنيا، فهي لا تقبل الحق، ولا تقنعها الآيات الخارقات .

فما على الرسول والذين آمنوا معه إلا أن يَصْبِرُوا حَتَّى يَحَقِّقَ اللهُ وَعْدَهُ بنصرهم، وإنزالِ الهزيمة أو القتل بأعدائهم، فأنزل عزَّ وجلَّ قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿... وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴿٥٨﴾  
 كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا  
 يَسْتَخْفَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: ولئن جئت هؤلاء المعاندين المتعنتين بآية مادية معجزة على  
 حسب طلبهم ليقولن الذين كفروا منهم للرسل وللذين آمنوا معه ما أنتم إلا  
 مبطلون، فما هذه الآية التي جاء بها محمد إلا عمل من أعمال السحر.

إنهم لا يطالبون بالآية ليستفيدوا منها الاقتناع بالحق، فقد دمغتهم  
 الحجب البرهانية، وكشفت لهم وجه الحق المشرق، لكنهم مصرون على  
 رفضهم وعدم استجابتهم لدعوة الحق، غير مستعدين لأن يفتحوا أقفال  
 قلوبهم للإيمان بالحق الدامغ لأفكارهم بالبراهين العقلية.

إن من ظواهر السنن الربانية التكوينية التي فطر الله عليها النفوس  
 الإنسانية، أن من رفض الحق أتباعاً لأهوائه وشهواته ورغباته من الحياة الدنيا،  
 وأصر على أن يقيم الشر والحجب بين براهين الحق، وبين ما لديه من مراكز  
 تفكير سليم، ومستقبلات علم صحيح، في أجهزة المعرفة التي وهب الله إياها،  
 فلا بد أن يظل قلبه مقفلاً عن دخول واردات الخير إليه، وأن يطبع على ختم  
 أقفالها، إشعاراً بعدم استعدادها للاستجابة لدعوة الحق، وعدم تقبلها  
 لواردات المعارف والعلوم التي تخالف أهواءها وشهواتها ورغباتها الدنيوية.

إنهم برغبة داخلية عميقة مسيطرة على إراداتهم لا يريدون أن يعلموا  
 الحقائق التي تخالف هذه الأهواء والشهوات والرغبات الدنيوية، وبسبب ذلك  
 أقفلت قلوبهم، وختم على أقفالها، وطبع على أختام الأقفال، إيداناً بأنّها  
 صارت غير قابلة للفتح، وكل هذا على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه  
 القلوب بالبيوت ذات الأبواب التي تقفل ويوضع الطين على القفل، ثم  
 يضرب الختم على الطين.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي: فالذين لا يُريدون أن يعلموا بعضَ الحقائق لمخالفتها لأهوائهم وشهواتهم ورغبات نفوسهم من الحياة الدنيا، تجري فيهم من سنن الله السببية أن تُقفل قلوبهم ويُطَبَعُ على أختام أفعالها، فهي لا تستقبل الحق، ولا تستجيب له، ويكون حالها كحال من عصى فأدخلَ يده في النار، فإن الله عزَّ وجلَّ يحرقها له، وكحال من عصى فشرِب الخمر بإرادته، فإن الله يُجري في جسده سنة الإدمان عليها، مع إصابته بالأمراض التي تُسببها، وكذلك حال متعاطي المخدرات بإرادته.

\* \* \*

١٨ - وأخيراً أنزل الله عزَّ وجلَّ في أواسط المرحلة المدنية من تاريخ دعوة الرسول ﷺ قوله في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) خطاباً لرسوله ويُلقَى به كلُّ حاملٍ لرسالته من أمته:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾  
وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

لقد كان هذا النصُّ هو النصُّ الختاميُّ في توجيه الله رسوله لفضيلة خُلُقِ الصَّبْرِ في مجال نُهوِضِهِ بالدَّعوة إلى سبيلِ رَبِّهِ.

وأبان الله فيه أن تعرُّض الرسول وحمله رسالته من أمته لأنواع الامتحان في الحياة الدنيا من الأحكام المبرمة في قضاء الله وقدره، والمطلوبُ في هذا المجال الامتحانيِّ الصَّبْرُ في القيام بمهمات الرسالة لغاية تحقُّق حُكْمِ الله في المدعوين.

وحذَّر الله فيه من طاعة أيِّ آثم يدعو إلى تركِ مهمات الرسالة أو



الخروج فيها عمّا أمر الله به، أو الاستجابة لمطالبه التي لم يأذن الله بها،  
كإباحة ما حرّم الله، أو تحريم ما أحلّ الله، أو الاستهانة ببعض شرائع الإسلام  
وأحكامه.

وحذّر الله فيه أيضاً من طاعة أيّ كفّورٍ، وهو الآثم الذي بلغت آثامه  
مَبْلَغَ الكُفْرِ بما يجب الإيمان به، فهذا الكفور خارج خروجاً كُليّاً عن الإيمان  
والإسلام.

وأكدّ الله فيه لزوم استعمال دواء ذكر الله وتسيّحه والسجود له في  
أوقات من النهار والليل، فقال تعالى:

﴿وَأذْكُرْ أُمَّةَ رَبِّكَ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلاً ﴿١٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا  
طَوِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

ومن اللّيل فاسجد له: أي: واجعل لك مواظبة على الصلاة في جوف  
الليل.

\* \* \*

## المقولة الرابعة

### نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر

١ - أخرج البخاري وغيره عن حَبَابِ رضي الله عنه قال: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَشَكُونَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟! أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟! فَجَلَسَ مُحَمَّرًا وَجْهَهُ فَقَالَ:

«قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤَخِّدُ الرَّجُلُ فَيُخْفِرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُؤْتِي بِالْمِنْشَارِ فَيَجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيَجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّايِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ».

٢ - وثبت في الصحيحين البخاري ومسلم، عن عُرْوَةَ بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حدَّثته أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ عليك من يومٍ أُحد؟ قَالَ:

«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَيَّ مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا يَقْرِنُ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيْلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا

مَحَمَّدُ، قَدْ بَعَثَنِي اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلِكُ الْجِبَالِ، قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، لِتَأْمُرَنِي مَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ<sup>(١)</sup>؟» .

فقال النبي ﷺ:

«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» .

٣ - مَا لَقِيَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أَدَى شَدِيدٍ حِينَ خَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ يَلْتَمِسُ مِنْ تَقِيْفِ النَّصْرَةِ وَالْمَنْعَةِ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ .

وقد خرج إليهم وحده، فلما انتهى إلى الطائف، توجه إلى سادة تقيف وأشرافهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلمهم فيما جاءهم له من نصرتهم على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فلم يستجيبوا له، فطلب منهم أن يكتموا أمره إذ يئس منهم فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط<sup>(٢)</sup> لعنبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه لا ينصرانه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء تقيف.

فلما اطمأن قال يدعو ربه:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَيَّ مَنْ تَكَلَّمَنِي، إِلَيَّ بَعِيدَ يَتَجَهَّمَنِي، أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنْ عَافِيَتِكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُنْتَبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» .

(١) الأخشبان: جبلاً مكة.

(٢) حائط: أي: بستان.

## الفصل الثاني

وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة التجرد من المصالح  
الشخصية لدى من يوجّه لهم رسالته

وفيه ثلاث مقولات :

المقولة الأولى : نظرة تحليلية .

المقولة الثانية : البيانات القرآنية حول تجريد الرّسل من المصالح  
الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم ، ويُلاحقُ بهم سائر حَمَلَة رسالاتهم .

المقولة الثالثة : معايش حَمَلَة الرسالة المتفرغين لها .



## المقولة الأولى

### نظرة تحليلية

● من أوليات ما يُطلب من حامل رسالة الدعوة إلى سبيل ربّه، والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يكون متجرداً من المصالح الشخصية لدى من يُوجّه لهم رسالته، كأجرٍ ماليٍّ يَطلبه منهم على ما يقوم به من أداء رسالته، أو زواجٍ هو راغبٌ فيه، أو زعامَةٍ، أو جاهٍ، أو رياسة أو سلطانٍ أو مُلكٍ، أو رغبةٍ في الاستعلاء على الأتباع والاستنصار بهم للاستعلاء في الأرض على الناس، أو أيّ شيءٍ من مطالب الحياة الدنيا يرجو الوصول إليه، والظفر به، والاستمتاع بلذائذه وطيباته الجسديّة أو النفسية.

● وإنّ الدعوة إلى سبيل الله عزّ وجلّ دعوةٌ إلى تبديل المعتقدات السابقات التي رسخت في أعماق المدعوين بالتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد، وبالممارسات العملية الطويلة الأمد لمقتضياتها من السلوك النفسي والجسديّ الظاهر، حتّى صارت بمثابة جزءٍ من كيان نفس كلِّ واحدٍ منهم، فهم يُدافعون عنها كما يُدافعون عن ذواتهم، ويرفضون تبديلها كما يرفضون تبديل ذواتهم.

ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتضمن المطالبة بالكفّ عن شهوات النفوس ومحابّتها، والقيام بما يشقّ عليها وتحمل ما تكره.

ومتى أحسن المدعوون أو الذين يُوجّه لهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنّ حامل الرسالة ومبلّغها ذو مصلحة شخصية لديهم من قيامه بوظائف رسالته - ولو بعد حين - فإنهم يرفضون ما يُوجّههم له بتلقائية غير واعية، وغير مقترنة بمناقشة فكرية ولا محاكمة لما ينصحهم به، ويصدّون عنه مهما كانت الأدلة التي يُقدّمها لهم صحيحة سليمة، وواضحة وُضوح الشّمس في رائعة النهار.

● وإن اقتران دعوة الداعي إلى سبيل ربه بمصلحة شخصية يسعى للحصول عليها لدى من يدعوهم، وكذلك أيضاً رسالة الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر، يُقيم عقبة صلبة كثيفة بينه وبين من يُوجّه لهم رسالته.

وهذه العقبة الصلبة الكثيفة تحجب عن قلوبهم ونفوسهم ما يُوجّه لهم من بيان، ولو كان حقاً جلياً، وما ينصحهم به ولو كان فيه خيرهم وهدايتهم وصلاخ دُنياهم وأخراهم، وتحجب عنهم ما يأمرهم به من معروف وما ينهاهم عنه من منكر.

ولهذا نجد الدعاة الساعين إلى مصالح شخصية دنيوية من خلال دعوتهم لدى من يدعونهم إلى سبيل ربهم، ذوي آثار ضعيفة جداً، وذلك لأنّ المدعوين يلاحظون أنّ هؤلاء الدعاة غير مخلصين في دعواتهم، ويعتقدون أنّهم يريدون تحقيق مصالح شخصية دنيوية من وراء دعواتهم التي يقومون بها.

ونظير حال الدعاة حال الأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر، كلما كان قيامهم برسالاتهم مقترناً بتحقيق مصالح شخصية دنيوية لدى من يوجهون لهم أوامرهم ونواهيهم ونصائحهم، ولو زينوا سعيهم لهذه المصالح الشخصية الدنيوية بأنّها حقوق لهم على المسلمين، مُقابل تفرغهم لتعلم علوم الدين، وقيامهم بواجبات تعليم المسلمين أمور دينهم، وصيانة المجتمع

الإسلامي من الانحراف عن صراط الله، وانتشار الفساد فيه، إذ يُؤدُون وظيفة تذكير أفرادهِ وجماعته بواجباتهم الدنيّة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

فالنفس البشرية قلّما تثق بنصائح ذوي المصالح الشخصية الذين ترتبط مصالحهم هذه بتوجيه نصائحهم، ما لم يكونوا أساساً مُستشارين بالأجر لتقديم هذه النصائح، كما يستشار الطبيب بالأجر ليقدم للمريض مشورته الصحيّة أو الدوائية .

على أن إرادة حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تضعف عن القيام بأداء رسالته على الوجه المطلوب منه في الدين، متى كانت حاجات معيشته أو مصالح دنياه مرتبطة بمن يؤدي فيهم رسالة ربّه، إنّه قلّما يجد الجرأة الكافية لنصحهم بما يخالف أهواء نفوسهم، أو لأمرهم بالمعروف الذي لا يراهم مستعدين لأدائه، أو لنهيهم عن منكر لا يراهم مستعدين لاجتنابه أو تركه، ويخشى إذا وجّه لهم نصائحهُ وأوامره ونواهيهِ وأظهر استنكاره لأعمالهم أن يُغضبهم فيمنعوا عنه حاجات حياته، أو يحجّبوا عنه مصالح دنياه التي يحققونها له بأنفسهم أو بسلطانهم .

وكم سقط حاملو رسالة الدعوة إلى دين الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في أحوال مُداراة فمجاراة الذين ارتبطت مصالح دنياهم بهم، من الذين يؤدُون رسالاتهم بينهم، فأغضوا عن موبقاتهم وكبائر معاصيهم، وربما شاركوهم فيها، ورُبّما تجرّأ بعضهم على الفتوى بغير ما أنزل الله استرضاءً وتزلفاً لسُلطانٍ فاسقٍ أو جائرٍ أو كافرٍ ليحتفظ لنفسه بمصالح دنياه التي تتحقّق له عن طريقه، أو ليستزيد منها .

● وإنّ من توجّه له الدعوة إلى سبيل ربّه، أو يوجّه له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متى استقرّ في نفسه اتّهام حامل الرسالة بأنه ذو مصلحة شخصية لدى من يوجّه له مضمون رسالته، تولّدت في نفسه غالباً عقبة صلبة



كثيفة من ردود أفعالها التلقائية رفضُ التُّضح الذي يوجهه له، دون تفكُّرٍ في صحَّته أو عَدَمِ صحته، ودون بَحْثٍ في عناصره، ولو كان حقاً وخيراً وجالباً لنفع عظيم.

لكنَّ هذه العقبة الصلبة تتحطَّم وتَصِيرُ كثيراً مهياً حينما يُدْرِكُ من توجِّه الرسالة أنَّ حامل الرسالة مُخْلِصٌ في نُضجِه، ليسَ له مصلحةٌ خاصَّةٌ لدى من يُوجِّه لهم نصائحه أو أوامره التي يأمرهم فيها بالمعروف، ونواهيهِ التي ينهاهم فيها عن المنكر، وأنَّ الباعث له رضوانُ الله عزَّ وجلَّ، وإرادة الخير للناس بعاطفة الرحمة بهم، والشفقة عليهم، والحرص على نجاتهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، وعلى ظفرهم بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

● ومن أجل تبرئة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام من أن يكونوا عُزْصَةً للاتِّهام بالمصالح الشخصية لدى من يدعونهم إلى دين الله الحق، حتَّى لا يكون هذا الاتِّهامُ ذريعةً لرفض دعوتهم إلى سبيل ربهم، كَلَّفَ الله رسُله عليهم الصلاة والسلام أن يتجرّدوا من المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم، وأنَّ يُعلِنُوا إعلاناً صريحاً واضحاً بين الناس أنهم لا يسألون أقوامهم على ما يقومون به من تبليغ رسالات ربهم أجراً ما، قليلاً أو كثيراً، مادّياً أو معنوياً.

ويُلْحَقُ بالرُّسل في هذا كلّ الدعاة إلى الله من الذين اتَّبَعُوهم بإحسان، وكلُّ الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر والناصحين المرشدين.

● فَمِنْ أخطرِ آفات الدعوة إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر الأعمال الإسلامية، استخدامها وسيلةً للحصول على الأموال، أو الجاهِ والسُّلْطَانِ والمَنَاصِبِ الرفيعة، أو غير هذه الرغائب من مطالب الحياة الدنيا ولذاتها وشهواتها، كحُبِّ السيطرة على الأتباع والأنصار والطلاب والمريدين والمحبيين، وتَسْخِيرِهم لمطالب النَّفسِ وإرضاء شهوة العظْمَة والاستعلاء في الأرض.

## المقالة الثانية

### البيانات القرآنية

حول تجريد الرّسل من المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم  
ويلحق بالرسل سائر حَمَلَةِ رِسَالَتِهِمْ

أظهر استقراء ما جاء في القرآن المجيد حول تجريد الله رُسُلَهُ وتجرؤدهم عليهم السلام من المصالح الشخصية الدنيوية لدى من يُوجِّهُون لهم رسالات ربهم اثني عشر نصّاً، نزلت جميعها خلال المرحلة المكيّة لدعوة الرسول محمد ﷺ، بدءاً مِنْ أوائلها، وهو ما نَزَلَ منها في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) ثم في مناسبات ملائمتِ أثناء هذه المرحلة، وحتى قبيل أواخرها، وهو ما نزل منها في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول).

ويحسُن بنا أن نتدبّر هذه النصوص وفقّ مراحل تنزيلها، لنُدرك مبلغَ الاهتمام في سياسة الدَّعْوَةِ إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوجوب تجرّد الدّاعي إلى سبيل ربّه من كلّ مصلحةٍ شخصيةٍ دنيويةٍ لدى من يدعوهم، لئلا يكون الاتهام بالمصلحة الشخصية عقبةً صادةً لنفوس الناس عن الاستجابة لبيانات الدَّعوة، والاهتداء بأنوار الهداية الربّانية، ولئلا يتخذوا من مصالح رُسُلِ الله لديهم ذرائع يتذرّعون بها لرفض دعواتهم، ومعاذير يعتذرون بها لعدم استجابتهم لهم فيما يدعوهم إليه من حقٍّ وخيرٍ وهُدًى.

وفيما يلي تدبُّرٌ موجزٌ لهذه النصوص :

### النصّ الأول :

في سورة (القلم/ ٦٨/ مصحف/ ٢ نزول) عرض الله عزّ وجلّ على طريقة الاستفهام الإنكاري طائفة من الاحتمالات التي لو وُجد واحدٌ منها في الواقع لكان لمشركي مكّة عُذْرٌ ما في عدم استجابتهم لدعوة الرسول محمد ﷺ، لكنّ أيّ واحدٍ منها غير موجودٍ في الواقع، فلا عُذْرَ لهم في عدم استجابتهم لدعوته التي هي دعوة إلى الحق والخير وفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، ومن هذه الاحتمالات كون الرسول محمد ﷺ يسألهم أجراً على ما يقوم به من مجاهدة في دعوتهم، ونصحهم، وتعليمهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فقال الله تعالى فيها خطاباً لرسوله في تعريضِ باستفهام إنكاريٍّ عليهم إذ لم يستجيبوا لدعوته :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرُوقٍ مُنْقَلُونَ ﴾

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا: أي: بل أتسألهم أجراً ما من الأجور المادية أو المعنوية؟! .

فَهُمْ مِنْ مَفْرَمٍ مُنْقَلُونَ: أي: فهم مُنْقَلُونَ بتحميلهم ثقلِ أجرٍ هو عليهم عُزْمٌ، أي: خسارة. المَفْرَمُ، وَالْمَفْرَمَةُ: الخسارة في الأموال أو الأنفس أو غيرهما ممّا للإنسان فيه حظٌّ ما كالأهل والولد والأنصار.

فكان هذا النصّ أوّل ما أنزل في هذا الموضوع، وقد جاء بأسلوب التعجيب من إعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ وهي دعوة حقّ وخير، مع أنّه لم يسألهم أجراً على ما يُقدّم لهم من نصح وهداية إلى سبيل الله، فهو ليس له مصلحة شخصية من هذا عندهم مادية ولا معنوية، وفي هذا الأسلوب الاستفهامي التعجيب من إعراضهم إنكاراً عليهم.

\* \* \*

## النص الثاني:

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ / مصحف/ ٣٨ / نزول) توجيهاً للرسول محمد ﷺ أمره فيه بأن يقول لقومه: ما أسألكم عليه من أجر، مُعلِّناً لهم هذا المقال، لطمأننتهم بأنه لا يبتغي لنفسه مصالح دنيوية لدى الذين يستجيبون لدعوته، ولقطع تعللاتهم بأنه طالبُ مصالح دنيوية لديهم، من مالٍ، أو زعامة أو مُلكٍ، أو غير ذلك، وليزُدَّ على عروضهم التي عرضوها عليه من أمور الدنيا بشرط أن يترك دعوته، فقال الله تعالى فيها لرسوله:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ: أي: قُلْ يا محمد ما أسألكم على دعوتي لكم ومجاهدتي في نصحتكم أيّ أجرٍ ماديٍّ أو معنويٍّ مهما كان قليلاً، إذ أُجري أخذه عند ربّي الذي أُرسلني .

وهذا التوجيه يُطالبُ به كلُّ الدعاة إلى سبيل الله من أمة الرسول ﷺ، إذ هو ليس من خصوصيات الرسول، بل هو من مطلوبات الدعوة إلى دين الله .

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ: أي: وما أنا من الذين يتصنعون الأمور فيما تعهدون من شأني، حتى أكون عندكم مُتَّهماً بالتقول على الله، وباختراع ما لم يُنزل الله عليّ، فخلقي عندكم معروف، وحالي لديكم غير خافٍ، فقد لبثت فيكم مدة علمتم بها صدقي ونزاهتي وأمانتي وحرصني على الالتزام بالحق وعدم مجافاة فضائل الأخلاق ومحاسن السلوك .

إِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ لِلْعَالَمِينَ: أي: ما الذي أبلغكم إياه وأدعوكم إلى اتباعه هو لكم وحدكم من دون سائر الناس، إنّما هو بلاغ للعالمين كلِّ العالمين، وعليهم أن يعوّه ويتدبروا معانيه، وأن يكون لهم ذكراً دواماً، يذكرونه عند كلّ مناسبة داعية ليعملوا بما فيه من أوامر ونواهي ووصايا، وليتفهموا ما اشتمل عليه من علوم .

وبما أنه ذكر لكلّ الناس فليس من المناسب أن تشكّوا في غاية رسولكم، وتتهموه بأن له مصلحة خاصّة لنفسه فيما يدعوكم إليه .

\* \* \*

### النصّ الثالث :

ثم أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) تأكيداً لما جاء في سورة (ص) مع إضافة استثناء من شاء من المؤمنين أن يتخذ إلى مرضاة ربّه سبيلاً، فيقدّم هدية أو خدمة أو مصلحةً دنيويّة للرسول ﷺ، لا على أنّها أجرٌ على ما يقوم به من وظائف رسالته، بل يريد بها التقرب إلى الله بما يحبُّ من عبده من وجوه العطاء المقصود به وجهه تعالى، فقال الله عزّ وجلّ فيها :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۗ ﴾ .

قُلْ: ما أسألكم عليه من أجرٍ: أي: قل يا محمد ما أسألكم أيها المؤمنون على تعليمي ونصحي لكم وحرصي عليكم ورحمتي بكم ومجاهدتي من أجلكم، من أجرٍ مادي أو معنويٍّ مهما كان قليلاً، فأجري على ربي الذي أرسلني وحملني وظائف رسالتي ومهمّات قيادتي لكم .  
ويُلحق بالرسول كلُّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته .

إلا من شاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً: أي: ولا أقبل منكم شيئاً من أمور الدنيا إلا شيئاً أراد مقدّمه لي أن يتخذ به إلى مرضاة ربّه سبيلاً، فهو يبذله لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا على سبيل أنّه أجرٌ يبذله لي، فأجري على ربي، وثوابكم على ما تقدّمون عند ربكم، أو نعتبر «إلا» بمنزلة «لكن» حرف استدراك كشأن كلّ ما يُقال فيه: استثناء منقطع، والمعنى: لكن من شاء أن يتخذ إلى مرضاة ربّه سبيلاً فللرسول أن يقبل منه ما يقدم له من إكرام أو خدمة .

النص الرابع :

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول) ما يفيد أن سياسة تجريد الداعي إلى سبيل الله من المصالح الشخصية الدنيوية لدى المدعوين إحدى المبادئ الرئيسة التي ألزم الله عز وجل بها رُسُلَه السابقين، فكلٌّ من نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيب عليهم السلام قد قال لقومه :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد جاء بيان هذا في الآيات (١٠٩ - ١٢٧ - ١٤٥ - ١٦٤ - ١٨٠) من

السورة .

فعلى الدعاة إلى سبيل الله أن يقتدوا في هذا برسُلِ الله عليهم السلام .

\* \* \*

النص الخامس :

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥١/ نزول) بيان مقالته قالها نوحٌ عليه السلام لقومه بعد أن لبثَ فيهم زمناً يدعوهم إلى سبيل الله، فأوضح لهم فيها أنه ما سألهم من أجرٍ ماديٍّ أو معنويٍّ حتى يكون هذا الطلبُ ذريعةً لتوليهم عن دعوته وعدم استجابتهم لها، وأوضح لهم فيها أنه بالنسبة إلى التطبيقات الإسلامية التي هي ظواهر سلوكية للإيمان بالقاعدة الإيمانية في دين الله، أخذُ المطبقين لها، فقد أمره الله بأن يكون واحداً من المسلمين المطبِّقين لأحكام الإسلام في سلوكه الباطنِ والظاهر، فقال الله عز وجل فيها حكاية لما قاله نوح عليه السلام لقومه :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

فإن تَوَلَّيْتُمْ : أي : فإن أذْبَرْتُمْ مُتَّبِعِينَ عن الاستجابة لدعوتي .

فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ: أَي: فَمَا كَانَ مِنِّي مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَذَرَّعُوا بِهِ لِرَفْضِ دَعْوَتِي، لِأَنِّي مَا سَبَقَ أَنْ سَأَلْتُكُمْ لِنَفْسِي مِنْ أَجْرِ مَادِّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ، بَلْ كُنْتُ مُجَرَّدَ مَبْلَغِ إِيَّاكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَدَاعٍ لَكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَمَا فِيهِ نَجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ.

إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ: أَي: مَا أَجْرِي عَلَى قِيَامِي بِوِظَائِفِ رِسَالَتِي فِيكُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأَبْلَغِكُمْ رِسَالَاتِهِ، وَأَدْعُوَكُمْ إِلَى نَجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ، وَأَبِينَ لَكُمْ الْحَقَّ وَالْخَيْرَ وَالْهُدَى وَصِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَأَمْرُتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: أَي: وَحَالِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَضْمُونِ رِسَالَتِي كَحَالِ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، مُطَالَبٌ بِفِعْلِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَلَيْسَ لَهُ إِعْفَاءَاتٌ خَاصَةٌ مِرَاعَاةً لِكُونِي حَامِلَ رِسَالَةِ رَبِّي إِلَيْكُمْ.

\* \* \*

#### النصّ السادس:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيانَ مقالةٍ ثالثة قالها نوح عليه السلام لقومه أَوْضَحَ لَهُمْ فِيهَا أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى تَبْلِيغِهِمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَتَعْلِيمِهِمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَمُتَابَعَةَ تَذَكِيرِهِمْ . . مَالًا، فَخَصَّصَ نَوْعَ الْأَجْرِ الْمَالِيِّ، إِذْ رَأَاهُمْ بُخْلَاءَ ذَوِي حِرْصٍ عَلَى أَمْوَالِهِمْ يَحْذَرُونَ إِذَا آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَنْ يُحْمَلَهُمْ أَعْبَاءٌ مَالِيَّةٌ لِنَفْسِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا حِكَايَةً لِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الَّتِي قَالَهَا نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿وَنَقُورٍ لَّا أَتَلُكُمُ عَلَيْهِ مَالًا إِنِ اجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُورٌ رَبِّهِمْ وَلِنُكْفِيَ زُرَّكَرًا قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (١٧)

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ: دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ طَابُوهُ بِأَنْ يَطْرُدَ عَنْهُ مِنْ آمَنَ بِهِ مِنْ طَبَقَةِ الْفُقَرَاءِ الضَّعْفَاءِ الْمُنْبُوذِينَ، إِذْ يُسَمُّونَهُمْ أَرَادَلَهُمْ، فَأَجَابَهُمْ بِالرَّفْضِ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ بِشَرِّ

مثلهم، مطالبون بالإيمان والإسلام، وسَيَلَقُونَ رَبَّهُمْ لِيَحْسِبَهُمْ وَيَجَازِيَهُمْ  
على ما قَدَمُوا في الحياة الدُّنْيَا من إيمانٍ وعملٍ، فهو مرسلٌ إليهم كما هو  
مرسلٌ إلى غيرهم من مختلف طبقات الناس.

ولكنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ: أي: وعلى طول العهد بكم، وكثرة  
تعليمي وتذكيري إياكم، ومُحَاجَّتي لكم بالأدلة البرهانية المُقْنِعَةَ، ما أراكم  
تتعلمون ولا تَقْتَنِعُونَ ولا تستجيبون، ولكنِّي أراكم تُتَابِعُونَ إِضَافَةَ جَهْلٍ إِلَى  
جهلٍ، بإضافة مَفْهُومَاتِ باطِلَاتِ جَدِيدَاتٍ، إلى مفهومات باطِلَاتِ سَابِقَاتٍ،  
هذا ما دلَّ عليه الفعل المضارع: «تَجْهَلُونَ» الذي يَدُلُّ على التكرار والتجديد.

\* \* \*

النص السابع:

وفي سورة (هود/ ١١ / مصحف/ ٥٢ نزل) أيضاً أنزل الله عز وجل بيان  
مقالة قالها هود عليه السلام لقومه، فقال تعالى فيها حكاية لمقالته لقومه:

﴿.. يَنْقُورُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٠﴾  
يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾.

وهذه ثاني مقالة قالها هود عليه السلام لقومه عادٍ حول هذا الموضوع،  
إلا أنه أضاف في هذه المقالة قوله لَهُمْ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مستنكراً عدم عقلهم  
عقلاً عِلْمِيًّا، وَعَقْلاً إِرَادِيًّا، وأضاف أيضاً بياناً أَنَّ أَجْرَهُ عَلَى الَّذِي فَطَرَهُ،  
وهو الله الذي أَرْسَلَهُ.

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ: أي: ما أَنْتُمْ إِلَّا تَفْتَرُونَ الكذب على الحقيقة، إذ  
تَتَّخِذُونَ مع الله آلِهَةً تَعْبُدُونَهَا من دونه.

إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي: أي: ما أَجْرِي عَلَى ما أقوم به من  
تَبْلِيغِكُمْ رسالات ربي، ودعوتكم ومجاهدتكم هادياً معلماً ناصحاً، إلا على  
الذي أوجدني من العدم وخلقني.



أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! : استفهام إنكارِيٌّ وَجَّههُ هود عليه السلام لقومه عاد، لأنهم لم يعقلوا الحقائق بأدوات التفكير التي لديهم عقلاً علمياً، ولم يعقلوا نفوسهم عن اتباع أهوائهم وشهواتهم عقلاً إرادياً.

إنه عَلَيْهِ السلام قد أنكر عليهم إنكاراً بشدة كَوْنَهُمْ لا يعقلون، إذ لا يتخذون ما يلزم حتى يعقلوا ما يُبَيِّن لهم، وحتى يعقلوا نَفُوسَهُمْ عن اتباع أهوائهم وشهواتهم التي تَقُودُهُمْ إلى شقائهم.

\* \* \*

النص الثامن:

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ شَهِدَ لَهُ فيه بآته قد التزم بوَصِيَّةِ الله له التي أوصاه فيها أن لا يسأل قومه أجراً على ما يقوم به من أجل نجاتهم وسعادتهم بهدايتهم إلى الحق والخير والفضيلة، وأبان له فيه أن أكثر الناس لَنْ يختاروا لأنفسهم سبيل الإيمان ولو حَرَصَ على إيمانهم رحمةً بهم، ورجاء نجاتهم وسعادتهم، فَعَلَيْهِ أن يَقْضِرَ مطامعه على هذا الواقع مع مُجَاهَدَتِهِ جميع المدعويين إلى سبيل ربه، وعليه أن لا يُعَلِّقَ مطامعه بإيمان الناس جميعاً، أو إيمان أكثرهم أو إيمان نصفهم، إذ أكثرهم سوف يختارون لأنفسهم سبيل الكفر الذي يجدون فيه تحقيق أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم من زينة الحياة الدنيا، فقال الله عز وجل لرسوله فيها:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

فعلَى الدُّعَاةِ إلى دِينِ اللَّهِ أَنْ يذكروا دوماً هذه الحقيقة من حقائق المجتمع البشري، وأن لا يُعَلِّقُوا مطامعهم بأن يتحوّل أكثر الناس ولا نصفهم إلى الإيمان والعملِ الصالح، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُلَاحِظُوا دوماً أَنَّ الإيمانَ عَمَلٌ

إرادتي اختياري مَرَكُزُهُ الرَّئِيسِيُّ الْقَلْبُ، وَلَيْسَ جَبْرِيًّا، وَأَنْ وَظِيفَةُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ إِنَّمَا هِيَ التَّبْلِيغُ وَالتَّعْلِيمُ وَالتَّذْكِيرُ وَالإِقْنَاعُ وَالتَّبَشِيرُ وَالإِنذَارُ وَالمَجَاهِدَةُ فِي كُلِّ ذَلِكَ .

فَمِنْ اسْتِجَابٍ فَقَدْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ سَبِيلَ النِّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ، وَمِنْ أَسْبَى فَقَدْ آثَرَ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا القَصِيرِ الفَانِي عَلَى النِّعَمِ الخَالِدِ، جَا حِدًا الدَّارِ الآخِرَةِ أَوْ مُعْرِضًا عَنِ التَّفْكِيرِ فِيهَا، وَالتَّبَصُّرِ بِأَدِلَّتِهَا، وَأَدِلَّةَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ .

\* \* \*

### النص التاسع :

ثم أنزل الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بياناً أمر فيه رسوله بأن يهتدي بهتدي الرُّسُلِ السابقين، في التجرد من المصالح الشخصية لدى من يدعوهم، والمقصودُ الدُّعَاةُ من أمتهم، فقد سبق أن شهد الله له بأنه لم يسأل قومه على دعوته ومجاهدته من أجلهم أجراً، فقال الله عز وجل مشيراً إلى الرسل السابقين :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِم مَّتَّعْتَهُمْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ .

فأضاف هذا النص بيان أن جميع الرسل السابقين لمحمد ﷺ قد كان من هديهم التجرد من المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم، وأن يقول كل واحد منهم لقومه: لا أسألكم عليه أجراً.

وإذ قد شهد الله لرسوله محمد في النص السابق الذي جاء في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) بأنه متحقق بمضمون هذا التكليف، فلا بُدَّ أن نفهم أن المقصود بهذا التوجيه الذي في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) هم الدعاة إلى سبيل الله من أمة محمد ﷺ، لإعلامهم بأن جميع الرُّسُلِ

السابقين قد كان هذا من هديهم، وأنهم مكلفون تبعاً لتكليف الرسول محمد ﷺ أَنْ يَتَجَرَّدُوا فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ لَدَيْهِمْ مِنْ يَدْعُونَهُمْ.

فعلى الدعاة إذا كانوا صادقين في دعوتهم أن لا يسألوا الناس أجراً على دعوتهم إلى سبيل الله، وأن لا تتعلّق مطامعهم بمنافع مادية دنيوية ينالونها من مجاهدتهم في تبليغ الناس دين الله، وإقناعهم به، وتعليمهم شرائعهم وأحكامهم، وتذكيرهم به على مقدار حاجات التذكير.

فمن تعلّقت مطامعهم بأجورٍ ومنافعٍ ومصالح دنيوية من دعوته لم يكن مخلصاً لله فيها، وكان من طلاب الدنيا الذي يتخذون الدين سلماً للوصول إلى مصالحهم الدنيوية.

\* \* \*

#### النص العاشر:

ثم أنزل الله عز وجل على رسوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بياناً أرشده فيه إلى محااجة قومه بأنه ليس صاحب مصلحة شخصية عندهم، إذ يدعوهم إلى دين الله، فهو لم يطلب منهم أي أجر على دعوته وتبليغه وتعليمه ونضجه، فقال الله تعالى فيها خطاباً لرسوله:

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

شهِدٌ ﴿٤٧﴾

مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ: أي: إن كنتم تزعمون أنني أريد من دعوتي أجراً لنفسي عندكم من مطالب الحياة الدنيا، أو تزعمون أنني سألتكم أجراً على ما أقوم به من مجاهدة لنجاتكم وسعادتكم فاذكروه، حتى أبين لكم أنه لكم، وليس لي منه شيء، وإن وجدتموه عندي فخذوه فهو لكم، وهذا بمثابة التعجيز الذي يتضمّن نفى وجود الأجر بأبلغ صورة.

وهذا نظير قولِ مُتَّهِمٍ بحيازة مالٍ لغيره في داره: فتشوا داري، فإن وجدتُم فيها شيئاً ممّا تزعمون أنه موجود فيها فَخُذُوهُ، يقول هذا على سبيل التحدّي لهم، إذ يَعْلَمُ أنه لا يوجد في داره شيءٌ ممّا يزعمون.

أو: ما سألتكم من إيمان وعمل صالح يحقّق أجراً عند الله فهو لكم، وليس لي منه شيء، أمّا أجري على مجاهدتي من أجلكم فعلى الله، وليس عليكم منه شيء، وأجري عند ربّي لا ينقص شيئاً من أجور الذين يؤمنون ويعملون الصالحات استجابة لدعوتي.

وهو على كلّ شيء شهيد: أي: والله عزّ وجلّ شهيد حاضرٌ يعلم حالي وحالكم لا تخفى عليه خافيةٌ من أمورنا، وهو جلّ وعلا يَعْلَمُ أنّي ما سألتكم أجراً، ولا أحقّقُ لنفسي لدى الذين آمنوا بي أجراً، إن أجري إلّا على الله.

شهيد: أي: حاضرٌ عليمٌ مُدْرِكٌ إدراكاً تاماً كلّ شيء.

\* \* \*

#### النص الحادي عشر:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) على رسوله قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾ ﴿١٣﴾.

فأرشد الله عزّ وجلّ بهذا البيان رسوله إلى أن يستثني من عموم ما يُتَوَهَّمُ أنه أجرٌ خصوصَ المودة في القربى.

هذا نص مدنيّ التنزيل أضيف إلى سورة مكية للإشعار بأن المعنيّ به مشركو مكة أهل قرابة الرسول الذين عادوه وأخرجوه من بلده وقاتلوه، فيعتبر ترتيبه الفكري مع ترتيب السورة التي ضمّ إليها.

ويظهر أن الله أرشد رسوله إلى أن يقول هذا القول لكبراء مشركي مكة

بعد أن عَادَوْه أشد العداة وأخرجوه وقتلوه، فهو بهذا يستعطفهم إلى أن يكفُوا عن معاداته ومقاتلته .

والمعنى: كافئوني على نُصْحِي، ومجاهدتي من أجل نجاتكم وسعادتكم، وحسن معاملتي لكم، وصَبْرِي على أذاكم، بالموَدَّة التي تقتضيها قرابتي فيكم، إذ أنتم أهلي وعشيرتي وأهلُ قرابتي، فإن كنتم تعتبرون أن معاملتكم لي بالموَدَّة التي تقتضيها قرابتي لكم أجراً، فمن محاسن الشيم أن تكافئوني بهذه الموَدَّة، مع أنها في الحقيقة ليست من قبيل الأجر على دعوتي ومجاهدتي فيها، بل هي إحدى مقتضياتِ القرابة بين ذوي القربى، أَيْلِقُ بمحاسن الشيم التي تؤمنون بها أن تُعَادُونِي، وتخرجوني من بلدي وتقاتلوني وأنتم أهلُ قرابتي .

إنني حريص على نجاتكم وسعادتكم رحمةً بكم بدافع إنسانيّ عام، ولأنكم عشيرتي وأهل قرابتي، فلا أقلّ من أن تقابلوني بالموَدَّة في القربى، فتكفُوا عَنِّي أذاكم، وتتركوني أسعى في نشر دعوتي بين الناس، فإذا بلغتُ مأمولي كان هذا خيراً لكم وعِزّاً، وإلّا فَحَسْبُكُمْ أنكم حفظتم الموَدَّة في القربى، ولم تُفْسِدُوا بإيذائي ومُقاتلتي واضطهاد من آمن بي .

هذا المعنى هو مضمون ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره لهذه الآية .

وهذا المعنى هو المعنى الأرجح لهذا النصّ فيما ظهر لي، لأنّه نصٌّ مدنيٌّ أُضيفَ إلى سورة مَكِّيّة، فما تَصَمَّنَه إرشادٌ للرّسول ﷺ إلى أن يستعطف ملاً قومه المشركين في مكة، باستشارة عاطفة القرابة التي بيّنه وبينهم، ليؤمنوا به، أو ليكفُوا أذاهم عنه، وحرزهم له، واضطهادهم للذين آمنوا به . ولا يبدو منه فيما أرى - والله أعلم - تكليفُ الرّسول أن يقول هذا القول للذين آمنوا به، حتى يُحمَل على موَدَّة قرابته من أهل بيته، فموقع هذا النصّ الفكري هو

ما جاء في سورة (الشورى) وتأخر إنزاله ليكونَ عرضه على مشركي مكة في الوقت الذي وصل فيه الرسول إلى بناء الدَّولة الإسلامية، ذاتِ الأرض المحصنة، والجيشِ ذي البأس.

\* \* \*

النصّ الثاني عشر:

وأخيراً أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله حول هذا الموضوع في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قوله تعالى خطاباً لرسوله:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿١﴾﴾.

فختم الله عزّ وجلّ عقْدَ هذا الموضوع مع اقتراب انتهاء المرحلة المكيّة من حياة دَعْوَةِ الرسول ﷺ بمثل العبارة التي بدأ بها هذا الموضوع في أوائل المرحلة المكيّة في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول).

وكان هذا الختام بمثابة القُفْل الذي انطبّق على نظيره الذي كان به البَدْءُ، واكتمل بجملته هذه النصوص عقْدُ الموضوع من كلِّ أطرافه، وظهرت حركيّة التَّوجِيهِ التربويّ في مراحلهِ الزمنية خلال المدّة المكيّة من دعوة الرسول ﷺ، وفي النصّ المدني المضاف إلى سورة (الشورى) المكيّة.

والحمد لله على توفيقه وفتحهِ.

\* \* \*

## المقولة الثالثة

### معايش حملة الرسالة المتفرّغين لها

بعد كَفِّ حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى دين الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عَنُّ أن يكون لهم أجرٌ ما لدى الذين يقومون برسالاتهم بَيْنَهُمْ، لا بُدَّ من النظر في الوسائل الأخرى التي يكتسبون بها أرزاقهم ومعايشهم من مطالب حياتهم وحياة أسرهم.

وبالنظر في مفاهيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه نلاحظ ما يلي :

**أولاً:** كلّ مؤمن مسلم مؤهل للقيام بمستوى ما من مستويات رسالة الدعوة إلى الله، والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب عليه أن يقوم بهذا المستوى الذي هو مؤهل للقيام به أثناء قيامه بأعماله الخاصة التي يكتسب بها معاشه، ومعايش أسرته، ضمن الذين يتعامل معهم، وفي وَقْتٍ أو أوقاتٍ يخصّصها من كلّ يوم، أو من كلّ أسبوعٍ للقيام برسالته التي هو مُؤَهَّلٌ للقيام بها في مجتمعه.

كما يجب عليه أن يقتطع أوقاتاً لصلاته المفروضة، ولطعامه وشرابه ومَنَامِهِ وحَاجَاتِهِ الطبيعيّة، ولإيناسِ أَهْلِهِ، ورعاية أسرته بالتربية والتعليم والإيناس.

وهكذا كان كثير من الفقهاء في الدِّينِ وعلماء الشريعة الإسلامية على

اختلاف تخصصاتهم، لهم أعمال يكتسبون بها معاشهم كالتجارة والصناعة والزراعة، وهم مع ذلك يقومون برسالاتهم أثناء أعمالهم، وفي أوقاتٍ يخصصونها لها، صباحاً، وبعد صلاة العصر، وما بين المغرب والعشاء، ورُبما في أكثر من ذلك، وكان لهؤلاء نفعٌ عظيم في كثير من حواضر العالم الإسلامي وقراه.

وهذا القسم من حملة الرسالة قسم غيرٌ مُتفرِّغ لها، وهو يكسب معاشه من أعماله كسائر الناس، وتنطبق عليه الأحكام العامة التي تشمل جميع أفراد المجتمع، فإن كانت أعمالُ اكتساب المعاش التي يقوم بها الواحد من أفراد هذا القسم لا تكفي حاجاته وحاجات أسرته، فإن له حقاً في صندوق الزكاة كما للفقراء والمساكين بوجه عام، ويُعطى منه ما يفي بمطالب حياته وحياة من يعولهم.

ثانياً: أما حملة الرسالة المؤهلون والمتفرغون للقيام بها، وليس لهم أعمالٌ يكتسبون بها معاشهم، فحکمهم هو حكم المجاهدين في سبيل الله، لأن رسالة الدعوة إلى دين الله والتّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رسالةٌ داخلة في عموم الجهاد في سبيل الله.

أما الدّعوة إلى دين الله فهي جهاد بالنفس لتبليغ الدين والإقناع به، وإعلاء كلمة الله في الأرض، وهي في مفاهيم النصوص القرآنية أوّل مراحل الجهاد في سبيل الله بالنّفس.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الوظيفة الدائمة لصيانة المجتمع الإسلامي من الانحراف عن دين الله، والبُعد عن التزام حدوده، وهو بهذا المعنى جهادٌ في سبيل الله، فتبليغ الدين والتذكير به، وصيانة المجتمع الإسلامي عن الانحراف عنه، كلُّ ذلك مشمول بعنوان «في سبيل الله» ويدخل في عموم «الجهاد» فكلُّ ذلك من الجهاد في سبيل الله.



ولمّا كان المجاهدون في سبيل الله داخِلينَ في أحد الأصناف الثمانية المستَحِقِّينَ للزكاة، كان المتفرغون لرسالة من هاتين الرسالتين أو لِكِلَيْهِمَا داخِلينَ حتماً في صنف «في سبيل الله» من الأصناف الثمانية المُبَيَّنِّينَ في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَدْرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

فعلى صندوق الزكاة أن يكفل لهؤلاء معاشهم في الحياة على حسب مستوياتهم، حتّى لا تكون مطالبُ حياتهم مرتبطةً بالذين يُوجِّهون لهم رسالاتهم.

وأفضل هؤلاء هم الذين تكون لهم موارِدُ مآلِيّة يعيشون منها، ثم يقومون متبرّعين برسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذا لم تقم السلطة الإدارية بكفالة معاش هؤلاء من صندوق الزكاة، أو من بيت مال المسلمين بحسب مستوياتهم، لفساد الأوضاع العامّة، أو فساد الأوضاع الإدارية، أو انحراف السلطة عن صراط الله، فعلى جماعات المسلمين أن ينظّموا جمعيات أو مؤسسات خاصة لكفالة حملة رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولإعداد من يُرَجَى أن يكونوا مؤهلين لحمل هاتين الرسالتين أو لإحداهما، من الذين يُتَوَسَّمُ فيهم الاستعداد، وتَبَدُّو عليهم أماراتُ أن يصيروا في المستقبل ذوي أهليّة مناسبة لذلك العمل الجليل، ويجب أن تصل نسبة حملة هاتين الرسالتين إلى المقدار الذي يفي بأداء مهمّاتهما.

ولهذه الجمعيات أو المؤسسات الخاصّة أن تُمدّد صناديقها بأموالٍ من أموال الزكاة، وأموال الصدقات العامة، وأموال الأوقاف، والمساعدات من

الدولة، والاستثمارات المشروعة المختلفة، وشأنها في هذا كشأن تمويل المقاتلين في سبيل الله إذا اقتضى الأمر ذلك.

وحين تُرْسِلُ داعياً مؤهلاً من الدعاة إلى دين الله، وتكلفه أن يتفرغ لهذه الدعوة، فإنَّ عليها أن تكفُل معيشته ومعيشة أسرته بحسب حالته الاجتماعية، وبحسب حالة البلد الذي تبعته إليه.

وحين تُكَلِّفُ مؤهلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتفرغ للقيام بهذه الرسالة الشريفة في بلد أو ناحية، فعليها أن تكفُل معيشته ومعيشة أسرته، بحسب حالته الاجتماعية، وبحسب حالة البلد أو الناحية التي يؤدي فيها رسالته.

ويُرَاعَى في هؤلاء وهؤلاء نظراًؤهم من عمال الدولة وموظفيها.

وعندئذ فليس لحامل رسالة الدعوة إلى دين الله، أو لحامل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يمدَّ يدهُ إلى صدقات المحسنين، وعطاءات ذوي الهبات، بغية تجميع ثروة يجاري بها الأغنياء، لكن لا يمنع من أن تكون له أعمال كسب مشروع من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غيرها بشرط أن لا يكون ذلك على حساب الأوقات التي يجب عليه فيها أن يقوم برسالته التي كُفِّت القيام بها من قبل الجمعية، أو المؤسسة الخاصة باعتباره متفرغاً لحمل رسالته.

وينبغي أن لا ننسى ما تقوم به جمعيات ومؤسسات التنصير (= التكفير) في العالم من جهود جبارة، وما تجمعه من أموال ضخمة جداً، من الدول والبنوك والشعوب النصرانية، وما تفرضه الكنيسة من ضريبة على كل فرد لتمويل مشروعاتها التنصيرية، وإعداد المبشرين الكثيرين جداً، الذين ينشرونهم في العالم، ولا سيما بلدان الشعوب الإسلامية، ويمدّونهم بكل ما يحتاجون إليه من أموال للقيام بمهماتهم.

أليس عجيبياً أن يكون المبطلون حملةً رسالاتِ التكفير في العالم أكثر  
بَدَلًا، وأحسَنَ تنظيمًا، وأكثر تجميعاً وتحمّساً، للقيام بمهمّاتهم التضليليّة،  
من المتسبين إلى الإسلام الحقّ؟! .

بلى إنه لعجيب حقّاً فيما يظهر، إلاّ أنّه ظاهرة طبيعيّة للاضطراب  
الفكري، والخللِ والشتاتِ النفسيّ الذي يعيشه المسلمون، وظاهرةً طبيعيّة  
لأنّ إسلامَ أكثرهم إسلامٌ تقليديٌّ نسبيّ، وليسَ انتماءً إرادياً قائماً على بصيرة  
واعية بالإسلام في نظرة شاملة، والسبب في هذا فقدُ المؤهلين من حملة  
الرسالتين بنسبة كافية، رسالة الدعوة إلى الله، ورسالة الأمر بالمعروف والنهي  
عن المنكر، مع التّصح والإرشاد في كلّ منهما.

\* \* \*

## الفصل الثالث

وجوب تحلي حامل الرسالة  
بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: تحليل وتفصيل.

المقولة الثانية: أمثلة من أخلاق الرسول وسيرته العظيمة.



## تحليل وتفصيل

- ١ -

### بيان تحليلي عام

كلُّ مؤمن مسلم مطالبٌ بأن يتحلَّى بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم،  
فخير المسلمين أحاسنهم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون،  
كما جاء في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ.

غير أنّ التحلّي بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم يبدو أمراً ضرورياً جداً  
لحملة رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
والنصح والإرشاد.

فالإنسان الذي لا يكون من ذوي الأخلاق الفاضلة والشيم الحميدة لا  
يصلح لحمل هاتين الرسالتين أو إحداهما، ولا يصلح لأن يواجه الناس  
ويخالطهم لأداء رسالته بينهم.

إنّ حامل رسالة غايتها إصلاح الفساد، وتقويم الانحراف في الناس،  
وتحويلهم عن عاداتهم السيئة، ومفاهيمهم الباطلة، وما يهوّون وما يشتهون  
من مضاّر وشرور، لا بدّ أن تتوافر لديه الصفات الخلقية الحميدة التي من  
شأنها أن تملك النفوس والقلوب، وتقبض على أعنتها، وتقودها إلى الحقّ

والخير والفضيلة، ومخالفة أهوائها وشهواتها الضارة، وتقاليدها العمياء، وترك سائر الأخلاق والأعمال التي فيها معصيةٌ لله ولرسوله .

إنَّ حامل الرسالة المتخصَّص ينبغي أن يتحلَّى بنسبة رفيعة من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، كالصدق، والأمانة، والحلم، وسعة الصَّدر، والعفة، وعدم التَّطلُّع إلى ما آتَى الله عباده من زينة الحياة الدنيا، والكرم، والتواضع، ولين الجانب، وحُسنِ المجاملة والمعاشرة للناس والرفق بهم، والشجاعة الحكيمة، وعواطف المحبة والتوَدُّد للناس صغارهم وكبارهم، ضعفائهم وذوي المكانة فيهم، فقرائهم وأغنيائهم .

ولستُ هنا في صدد شرح مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وبيان فضْلِها، وبيان خِسة أضرارها، فقد كتبت في موضوع الأخلاق كتاباً موسعاً يقع في مجلدين، بعنوان: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» ويحسُنُ بحامل الرسالة أن يرجع إليه، وإلى ما كُتِبَ حول الأخلاق الإسلامية من كتب نفيسة اعتمدت على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلاَّ أنَّ ما ينبغي التوجيه له هنا هو ضرورة التحلِّي بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بالنسبة إلى حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتَّصُحُّ والإرشاد .

فمما لا شكَّ فيه أنَّ من يتحلَّى بنسبة رفيعة من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم التي سبق ذكر طائفة منها، يَمْلِكُ من أدوات التأثير في الناس وتألُّف قلوبهم للتلقِّي منه والاستجابة له، ما لا يملكه مَنْ تنخفض لديه النسبة التي يتحلَّى بها من هذه المكارم والمحاسن .

\* \* \*

أما المحروم من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم فتأثيره في الناس تأثير مضادُّ تماماً، إنَّه بسوء خلقه يجعل الناس تنفر منه، وتتباعده عنه، وتَجْفُو

مجالسَه، ولا تكثرث لأقواله ونصائحه، وإن كانَ من أكثر الناس علماً وفصاحةً وحُسنَ بيان، ومثل هذا لا يصلح لمخالطة الناس ومعاشرتهم ودعوتهم إلى دين الله، أو أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فإن كان لديه علمٌ نافع، وكلام صالح، وبيان مؤثر، فعلى القيادة الإدارية المنسقة للأعمال، والموزعة لها على الأكتفاء من النساء والرجال، بحسب كفاءاتهم وتخصّصاتهم ومواهبهم الفطرية التي وهبهم الله إياها، أن تستفيد منه في كلام يكتُبُه، أو خُطبةٍ يخطُبُها ويُنصِرِفُ عن الجماهير عقبها إلى عزلته، أو حديث من وراء مذياع، حتّى لا يَحْتَكَّ مع الذين يُوجّه لهم حديثه، ويَحْسُن أن لا يتصل به الناس إلاّ عن طريق الرسائل المكتوبة، وبوساطة مُنقّحٍ يُصَفّي الوارد إليه والصادر عنه.

كيف يقبل الناس نُضح كذابٍ معروف لديهم بالكذب، أو ينكشف لهم كذبه في تَعَامُلِه معهم، وفيما يخبرهم به من أخبارٍ يسهُلُ عليهم معرفة حقيقتها؟!!

كيف يستجيب الناس لإرشادٍ وتوجيهٍ خائِنٍ لا أمانة عنده؟!!

كيف يصبر الناس على التلقّي من غضوب ضيق الصدر نُفورٍ يخاطبهم بلسان المُعَاضِبِ المشاتم المؤذي بأقواله؟!!

كيف يثِقُ الناس بدنيء النفس غير عفيف، فيقبلون منه دعوته، أو نصائحه، أو أوامره ونواهيهِ؟!!

كيف يقبل الناس نُضح حَسُودٍ يتَطَلَّعُ إلى ما آتاهم الله ممّا يحبون من زينة الحياة الدنيا من أموال أو نساء أو ذرّيّة أو جاه أو سلطان أو غير ذلك؟!!

كيف يصبر الناس على ملازمة فظٍّ غليظ القلب تنفّر النفوس من ملاقاته، والاجتماع به، والاستماع لأحاديثه؟!!

\* \* \*



لكن، كم نشاهد داعياً إلى الله، أو أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ذا علم قليل، وبيان ضعيف، تجتمع عليه الجماهير وتُحِبُّه، وتتأثر بنصائحه ومواعظه، لأنه صدوق، أمين ودودٌ حلِيم، واسع الصدر، عفيفٌ، كريمٌ، متواضعٌ، لين الجانب، حسن المجاملة والمعاشرة، شجاع بحكمة في مرضاة الله عز وجل، بريء من داء الحسد والتطلع إلى ما آتى الله بعض عباده من زينة الحياة الدنيا، لا يَحْمِلُ الحقدَ والضغينةَ لِسَمَاحَةِ نفسه، ونقاء سريرته.

\* \* \*

فحامل رسالة إصلاحية يجب أن تتفوق في الصفات الخلقية الكريمة، التي تُؤثّر في النفوس أثراً حسناً، وتؤلف القلوب على الحق والخير والهدى، مع أهليته العلمية والفكرية المناسبة للقيام بالمستوى الذي يضطلع بمهامه من رسالته التي يقوم بأدائها بين الناس..

\* \* \*

- ٢ -

### بيان تفصيلي

أولاً - أهمية البراءة من التطلع إلى ما وهب الله الناس :

ونظراً إلى خفاء وأهمية براءة حامل إحدى الرسالتين أو كليهما من التطلع إلى ما آتى الله الناس من زينة الحياة الدنيا، لئلا تتفاعل في نفسه رغباتُ التَّشَهِّي والتَّمَنِّي التي تُصِيبُ النفوسَ بداء الحسد، خاطب الله عز وجل رسوله بخطاب يظهر أن المقصود به أُمَّتُهُ، ولا سيما الدعاة إلى الله منهم، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فقال تعالى له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

هذه الآية مع آية قبلها أنزلنا في المدينة وأضيفنا إلى سورة (طه) التي هي من أواسط التنزيل المكي، للإشعار بأن المقصود توجيه أمة الرسول ﷺ ولا سيما حَمَلَةُ رسالة الدعوة إلى الله منهم أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حينما يكونون في أحوال مثل الحالة التي كان فيها الرسول صلوات الله عليه في أواسط المرحلة المكية التي أنزلت فيها سورة (طه) فقد كان الرسول ﷺ حينئذ في حالة ضعف وفقر واضطهاد من قبل كُبراء قومه في مكة، وكان هؤلاء الكبراء فيها سادة أقوياء ذوي سلطان فيها وَعَلَبَة، لكن الرسول ﷺ لم يتطلع إلى ما هم فيه من زينة الحياة الدنيا، فقد عرضت عليه أن تكون له جبال مكة ذهباً فأبى ولو قبِلَ هذا العرض لكان أكثر الناس عزاً وسلطاناً وقوةً في الأرض، ولملك من زينة الحياة الدنيا ما لم يملك أحدٌ سواه، لكنّه لم يَخْتَر لنفسه هذا من الدنيا.

أما في المدينة فقد كان السيد المطاع فيها، وذا السلطان المفدَى بالأموال والأنفُس، ولو شاء الاستمتاع بما يشاء لفعل، فلم يكن شأنه فيها ممّا يُتَوَهَّمُ معه أن يَمُدَّ عينيه إلى شيء من زينة الحياة حينئذ.

فإنزال هذا التوجيه له وهو في العهد المدنيّ ظاهرٌ منه تماماً أن المقصود به أُمَّتُهُ، ولا سيما حاملو رسالته منهم.

وبما أن الرسول هو قائد أُمَّتِهِ، والممثل لهم في تَلَقِّي أوامر الله ونواهيه وتوجيهاته، خاطَبَهُ اللهُ بالإفراد، لِيَشْعُرَ كُلُّ حَامِلٍ لرسالته من أُمَّتِهِ أَنَّهُ مخاطَبٌ به على طريقة الخطاب الإفرادي، كما خاطب الله به الرسول، لكن الرسول ﷺ قد كان متحققاً بمضمون الخطاب في النص من قبل أن يُنزل عليه، فدلّ هذا على أن المقصود به كل فرد من أُمَّتِهِ، ولا سيما حَمَلَةُ رسالته

في الدعوة إلى دين الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي النصيحة والإرشاد.

وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ: التعبير بمدّ العين كناية عن تشهّي النفس وتمنيّتها، وذلك لأنّ من نظر إلى شيء فاستحسنه واشتهاه وتمناه لنفسه، ثبت نظره فيه، ومع تثبيت النظر تتوالى رغباتُ التشهّي والتمنيّ النفسية، وتندفع هذه الرغبات مع توالي النظرات وتُطَلِّقُ طاقاتٍ خَفِيَّةً على خطوط النظر بالعينين، حتّى كأنّ العينين أنفسهما تمتدان إلى الشيء الذي استحسنته النفس، فاشتتهته، فتمنته، وهنا يتفاعل في النفس داء الحسد، ومن هنا قد تكون الإصابة بالعين، إذا كان لدى المتمنيّ إرادة حسد، وكانت لديه قوة خفية تؤثّر في المحسود أو في أشياءه التي يمتلكها.

فعلى المؤمن أن يغيض بصره عمّا آتى الله بعض عباده من زينة الحياة الدنيا، لئلا تتعلّق نفسه به، فيتمناه لنفسه، فيتفاعل فيها داء الحسد الخبيث، وإذا تفاعل في النفس هذا الداء بحرارة التشهّي والتمنيّ، كان من آثاره خُدوشٌ تُذمي وجه الإيمان السليم في القلب، فيشكُّ الحاسدُ بحكمة الله عز وجلّ في عطائه ومنعه، ويستغلُّ شيطانُ النفس هذا الشك، فيحرّك قوى خبيثة ضارة مؤذية فيها، فتتطلق منها بعض هذه القوى الكامنة فيها، وربّما انطلق هو معها، فتحدّث بإذن الله وعلمه الإصابة بالعين على درجات متفاوتات.

إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم: أي: إلى شيء متّعنا به أصنافاً وجماعات وأفراداً من الناس من متاع الحياة الدنيا، فما في الحياة الدنيا كلّ متاع، والمتاع كلّ ما يُنتفعُ به مؤقتاً وهو إلى فناء وزوال.

زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أي: حالة كون ما متّعناهم به زهرة الحياة الدنيا، شبه الله عز وجلّ كلّ ما في الحياة الدنيا من زينتها المحبّبة للنفوس بالزّهرة، لأنّ الزهرة التي تتفتح في الشجر قبل أن تنعقد منها الثمرة ذات زينة ورونق

وجمال وإغراء، إلا أنها قصيرة العمر جداً يُسرَعُ إليها الذبول، ونظيرها كل ما في الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما في الدار الآخرة.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ: أي: لنختبرهم أو لنعذب كفارهم في هذا الذي متعناهم به من زينة الحياة الدنيا الذي هو كالزهرة السريعة الذبول والقصيرة العمر.

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى: أي: ورزق ربك الذي أعدّه في دار النعيم يوم الدين لمن آمن وعمل صالحاً ولم يتطّلع إلى ما أتى بعض عباده من زهرة الحياة الدنيا خيراً من كل ما في هذه الحياة من متاع وزينة، وأبقى أنواعاً وأصنافاً وأفراداً، لأنّ دار النعيم هي دار البقاء، أمّا الحياة الدنيا فهي دار الفناء، ودائر الأكدار.

فعلى كل من يحمل رسالة الدّعوة إلى الله أو رسالة التّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون شديد الحذر، من مدّ النظر إلى ما متّع الله به غيره من زهرة الحياة الدنيا بتشوّه وطلب وتمنّ، لأنّ هذا يكدر صفاء نفسه ويُفسدُها ويحوّل طريقه من ابتغاء مرضاة الله في أداء رسالته، إلى ساعٍ لتحصيل ما يشتهي من زهرة الحياة الدنيا، ويجعله مستعدّاً للتنازل عن رسالته أو تسخيرها في غير ما هي له، إذا عرضت عليه المغريات مما يشتهي ويتمنّى، وعندئذٍ يستغلّه شياطين الإنس والجنّ لتحريف الدّين، والتلاعب في مفاهيمه، وتحسين أعمال المفسدين والمجرمين والفاسقين في الأرض، ثم مشاركتهم فيما هم فيه.

وكم ابتلي أناسٌ من حاملي رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا الداء، فكانوا شراً وضرراً ونقمةً على الرسالة التي حملوها.

\* \* \*

ثانياً - أهمية البراءة من الفظاظة وغلظ القلب :

ونظراً إلى أهمية براءة حامل إحدى الرسالتين أو كليهما من أن يكون فظاً، أي: خشن الكلام سبب الخلق شرساً، ومن أن يكون غليظ القلب، أي: قاسياً لا رَحْمَةً عنده، مع عدم توجيه الكثيرين أنظارهم لمراعاة البراءة منهما. . أثنى الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ بأنه لعلي خُلِقَ عظيم، وكان هذا في أوائل المرحلة المكية، ثم أثنى عليه في أوائل المرحلة المدنية بأنه ليس فظاً ولا غليظ القلب، لتوجيه أمته ولا سيما حملة رسالته لأن يقتدوا به، ويتحلوا بمثل أخلاقه وسيرته في دعوته إلى دين ربّه، وفي قيادته لأمته .

أما ثناؤه عليه بالخلق العظيم في أوائل المرحلة المكية فنجدّه في قوله تعالى له في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿ ت وَالْقَلِيمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

أي: وَإِنَّكَ لَمْتَمَكِّنٌ بَعْلُوٌّ مِنْ خُلُقٍ عَظِيمٍ تَسِيرُ بِهِ فِي حَيَاتِكَ، وَقَدْ عَرَضَتْ لَنَا السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ أُمُثْلَةً رَائِعَةً كَثِيرَةً جَدًّا مِنْ سِيرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَشِمَائِلِهِ الْفَدَّةِ، الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ خُلُقِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَلَكَ بِهِ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ، وَمَلَكَ بِهِ إِعْجَابَ خُصُومِهِ وَالْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرِسَالَتِهِ .

وأما ثناء الله على رسوله بأنه ليس فظاً ولا غليظ القلب، وأنه لو كان فظاً غليظ القلب لانفض أصحابه من حوله نافرين، فنجدّه في قول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)<sup>(١)</sup> خطاباً لرسوله :

(١) سورة آل عمران ثالث سورة نزلت في المرحلة المدنية: (البقرة - الأنفال - آل عمران).

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْبَثْ  
عَنْهُمْ وَاسْتَفِيزْ لَهُمْ وَسَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ  
الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

● ففي هذه الآية ثناء من الله على رسوله بأنه ليس فظاً ولا غليظ القلب، وبيان أنه لو كان فظاً غليظ القلب لانفضَّ أصحابه من حوله نافرين. وفي هذا توجيه بصورة غير مباشرة لكل من يضطلع بمهمات إمامة المتقين أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أسوة حسنة لهم، أن لا يكون فظاً سَيِّءَ الْخُلُقِ شَرِساً، وأن لا يكون غليظ القلب قاسياً لا رحمة عنده، فمن كان كذلك نَفَرَ عَنْهُ المتأثرون ببياناته الدينيَّة، وانفَضُّوا من حوله، وصار مهوداً فيه، وغير ذي تأثير في دعوته، ولا في أمره بالمعروف، ولا في نهيه عن المنكر، ولا في نُصْحِهِ وإرشاده.

وما يجب أن يتحلَّى به إمام المؤمنين المتقين من صفات تجعلهم ينضمُّون إليه، ويلتقون حوله، ويقفون به محبين مُقَدِّرِينَ ومناصرين، ويستجيبون له إذا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، يجب من باب أولى أن يتحلَّى به الداعي إلى دين الله الذي يدعو غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام بصدقٍ والتزام وحسن اتباع وعمل.

فاللفظ السَيِّءُ الْخُلُقِ، أو الغليظ القلب، لا يصلح ابتداءً لأن يكون داعياً لأحد من غير المسلمين إلى دين الله، لأنه سَيُفْزَرُ من الدِّينِ لأوَّلِ بادرة سوء خُلُقٍ وفضاظة يلاحظها فيه، ويجفوه إذا أدرك أنه غليظ القلب عديم الرحمة جافُّ العواطف النبيلة، فلا يَسْتَمِعُ إليه، ولا يُصْغِي إلى أقواله ونصائحه.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ: أي: فبسبب رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ فُطِرَتْ عَلَيْهَا بفطرة من الله، لِنْتَ يَا مُحَمَّدٌ لِمَنْ اتَّبَعَكَ فِي أَقْوَالِكَ وَأَعْمَالِكَ، وَكُنْتَ رَوْفًا بِهِمْ، رَافِقًا فِي سِيَاسَتِهِمْ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ.

أُضِيفَ حَزْفُ (ما) بين الجار والمجرور للتأكيد ، وللدلالة على عظمة خُلِقَ الرحمة التي فَطَرَهُ اللهُ عليها، فهي في قلبه رحمةٌ عظيمةٌ جليلة المقدار .

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ : أي : لم تكن يا مُحَمَّدٌ فَظًّا وَلَا غَلِيظًا ولذلك لم يَنْفَضْ عَنْكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوكَ ، بل اسْتَمَرُّوا حَافِينَ بِكَ ، مجتمعين عليك ، محبين معظمين مُوقِّرِينَ ناصرين لك ولكل ماجتتهم به ، مطيعين لأوامرك ونواهيك .

الْفُظُّ : هو ذو الكلام الخشن المؤذي المنفر ، يقال لغة : رجلٌ فظٌ ذو فظَاظة ، إذا كان جافياً خشن القول يخاطب الناس بما يقسو على نفوسهم . والفظُّ أيضاً من الناس : من كان سَيِّءَ الْخُلُقِ شَرِساً فِي طَبِيعِهِ وَتَعَامُلِهِ .

الغليظ : هو من لا رِقَّةَ فِي خَلْقِهِ وَطَبِيعِهِ ، أو في قوله أو فعله . وَغَلِظُ الْقَلْبِ كناية عن كونه خالياً من عاطفة الرحمة ، أو كون رحمته قليلة بالنسبة إلى ما يُطَلَّبُ من أمثاله .

وأصل الْغِلَظِ فِي الْأَشْيَاءِ تَكَاثُفُ ذَرَاتِهَا وَعِظَمُ سُمْكِهَا وَثَخَانَتُهَا ، فتكونُ بِذَلِكَ صُلْبَةً قَاسِيَةً لَا تَلِينُ ، وَالصُّلْبُ الْقَاسِي مِنَ الْأَشْيَاءِ تَعْدَمُ رَطوبته أو تَقَلُّ ، فهو لا يَرِشْحُ وَلَا يُعْتَصِرُ ، أو يكون رَشْحُه قَلِيلاً جِداً .

فالقلبُ الغليظ لا يَرِشْحُ بِرَحْمَةٍ ، أو يكون رَشْحُه قَلِيلاً ضئيلاً .

والله عزَّ وجلَّ أثنى على رسوله محمد ﷺ بأنه عظيم الرحمة ، وهذا قد ظهر في مُعَامَلَتِهِ لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللِّينِ فِي أَقْوَالِهِ ، وَأَعْمَالِهِ ، وَمَشَاعِرِهِ ، رَفَقاً وَرَأْفَةً بِهِمْ ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُ مَوْجِهاً بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ كُلِّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَوْ أَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهٍ عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَاصِحٍ مُرْشِدٍ :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

أي: إنك لست فظاً ولو من أدنى مستوياتِ الفِظاظَةِ، ولستَ غليظَ القلبِ ولو من أدنى مستوياتِ الغِلاظَةِ، بل أنت لَينٌ حسنٌ المعاشرة، رفيقٌ رقيقٌ في أقوالك وأعمالك، ذو خُلقٍ عظيم. وذو قلبٍ رحيم، يفيضُ برغباتِ العطاء والمعونة، وَيَفِيضُ بالشفقة على عبادِ الله، ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب، لما اجتمع عليك هذا الجَمُّ الغفير من أصحابك الذين يُحِبُّونَكَ ويعظِّمُونَكَ ويؤوِّقُونَكَ وينصرونك وَيَفِدُونَكَ بأموالهم وأنفسهم، ولو أنهم اجتمعوا عليك ابتداءً لإعجابهم ببيانك وصحة مبادئك، ومصانعتك لهم باللين والخُلقِ الكريمِ على خلاف الخُلقِ الحقيقي لنفسك وقلبك، لانفضوا من حولك متى طال بهم العَهْدُ، إذ لا بُدَّ أن تَنهَارَ يوماً ما مُصانعتُك لهم بما يؤلِّفُ قلوبهم، فالمصانعةُ المُتكلفةُ على خلاف خُلقِ النفس لا تدوم طويلاً.

ويلزُمُ من هذا الخطاب للرسول خطابُ حَمَلَةِ رسالته، فالمعنى: ويا أيها الدعاة إلى الله، ويا أيها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، اقتدوا برسولكم محمد، فليَنُوا للناس في أقوالكم وفي أعمالكم، ولا يَكُنْ واحداً منكم فظاً ولا غليظاً في مواجهة عِبَادِ الله ومخاطبتهم ومُعَامَلَتِهِمْ، وإن أنكرتم عليهم انحرافَهُمْ عن الحقِّ وصِراطِ الله في أفكارهم أو أقوالهم أو أعمالهم.

ولمَّا كان اللين بالقول من واجبات الدعوة إلى دين الله، إذ هو من وسائلها النافعة غير المنفرة، أوصى الله عزَّ وجلَّ موسى وهارون عليهما السلام بأن يقولوا لفرعون قولاً لَيناً، راجيين بأسلوب القول اللين في عرض الحقِّ عليه وتخويفه من عذابِ الله أن يتأثر، فيتذكَّرُ أصولَ الحقِّ التي فطر الله عليها العقولَ فيؤمن، أو يخشى عقابَ الله وعذابه بما في نفسه من مشاعر الرَّهْبِ على مصيره عنده، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه) ٢٠ / مصحف / ٤٥ نزول) في حكاية خطابِ خاطبٍ به موسى عليه السَّلام إذ ناداه بالوادي المقدس طوى، وأبانَ له فيه أنه اجتباه رسولاً، وجعل له أخاه هارونَ وزيراً:



﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿٤١﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٢﴾ فَقُولَا  
لَهُ قَوْلًا لِنِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٣﴾ .

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي : أي : مصحوبين بآياتي البينانية والإعجازية  
والجزائفة .

وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي : أي : ولا تفترا في الاشتغال بذكرى في أنفسكما  
وقلوبكما وأفكاركم وألسنتكما ، ولا تضعفا ولا تكلا ، وذكر الله يشمل  
تسبيحه وحمده ، والتفكر في صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى ، والتفكر في  
آياته وآياته الكونية ، وآياته المنزلة وتدبر دلالاتها ومعانيها ، والدعوة إلى  
الإيمان به وبما أنزل على رسوله مع الشرح والبيان .

يقال لغة : « وَنَى يَنِي » إذا فترَ وَضَعُفَ وَكَلَّ .

إِنَّهُ طَغَى : أي : إنه تجاوز الحد ظلماً وتكبراً ، وكفراً وفجوراً .

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِنِنَّا : أي : فقولا له في دعوتكما له إلى الإيمان ، وترك ما  
هو فيه من ادعاء الربوبية ، واتخاذ أوثانٍ من دون الله قولاً لِنِنَّا .

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى : أي : راجيين من دعوته بالقول اللين أن يتذكر ما  
هو كامنٌ في فطرة عقله من أصول الحق والإيمان ، أو يتعظ فيخشى عقاب الله  
وعذابه ، بما في نفسه من مشاعر الخوف على مصيره من الرب الخالق ، وبما  
في ذاكرته من قصص الجبابرة الأولين الذين أهلكهم الله ، كعادٍ وثمود وقوم  
نوح عليه السلام .

● وبعد أن أنشئ الله على رسوله محمد ﷺ بأنه رحيم بالمؤمنين ،  
فبهذه الرحمة لأن لهم في أقواله وأعماله وعواطفه ، وبعد أن أبان له أنه لو  
كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله ، توجيهاً للمؤمنين ولا سيما حملة  
رسالته أن لا يكون أحدٌ منهم فظاً ولا غليظ القلب ، أمر الله رسوله بأن يعفو

عن المُسيء من المؤمنين، وأن يستغفر للمذنبين منهم، وأن يُشعرهم بأنهم شركاؤه في أمور الدولة الإسلامية ومصالح المسلمين العامة، فيشاورهم في الأمر، ويبني عزمه على ما ظهر له من مصلحة للمسلمين بعد المشاورة، فإذا عزم على أمرٍ فليَتَوَكَّلْ على الله في تنفيذه، فالله يُحِبُّ من يتوَكَّلْ عليه فَيَمِدُّه بمعونته، فقال الله عزَّ وجلَّ له في الآية التي نتدبرها من سورة (آل عمران):

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩).

أي: فيما أنك يا مُحَمَّدٌ رحيمٌ بالمؤمنين برحمةٍ فطريةٍ رشيدةٍ من ربك، وهذه الرحمة جَعَلَتْكَ تلين لهم، وبرئت بها من أن تكونَ فظاً غليظَ القلب، فاجعل من مظاهر رحمتك بهم في معاملتك لهم، ثلاثَ خصالٍ مُهِمَّةٍ لازمةٍ للقائد الحكيم الرشيد في قيادته وسياسته:

الخصلة الأولى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي: إذا أساء إليك مُسيءٌ منهم في مقاله أو في عمله فاعفُ عنه، فلا تُعاقبه على إساءته، ولا تُعاقبه عليها، واجعلها غيرَ ظاهرةٍ الأثر في معاملتك له، ومن شأن هذه الخصلة أن تَمْلِكَ القلوب.

العَفْوُ: أعلى درجةٍ من العُفْران، لأنَّ العُفْران ستر الذنب مع بقاء الأثر الدالَّ عليه، أما العَفْوُ فهو مَحْوٌ للأثر من بَعْدِ السِّتْرِ، فالزَّارِعُ يَدْفِنُ البزورَ ويغطيها بالتراب، لكن تبقى الآثار، والرياح تسوي الأرض فتعفو هذه الآثار.

الخصلة الثانية: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: واسأل الله أن يغفر لهم ذنوبهم ومعاصيهم التي تتعلق به، وإذا جاءك مذنبٌ منهم بذنبٍ وسألك أن تستغفر له، فاستغفر له، فدعاء الرسول لأمته مستجاب، ومن شأن هذا الاستغفار أن يزيد في امتلاك القلوب، ويُسعِرَ المؤمن من أصحاب الرسول أن خطيئته مع ربه قد مُحِيتْ فلم يبقَ لها أثرٌ، لأنَّ الرسول قد سأل ربه أن يغفر له.

الخصلة الثالثة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: وشاورهم في قضايا ولايتك للأمر، فوليّ أمر الأمة هو الذي يدير ويسوس شؤونها العامة، باعتباره قائداً ذا سلطان، يقضي في شؤونهم ويحكم ويصدر الأوامر والقرارات في السلم والحرب.

ومع كون الرسول ﷺ هو قائد أمته ووليّ أمورها العامة، ومع كونه مؤيداً ومُسدداً بالوحي، فقد أمره الله بأن يُشاوِرَ أهل المشورة من أمته، ليكون أسوة في هذا لمن بعده من أئمة المسلمين وقادتهم وأولياء أمورهم.

فالمشاورة أذعَى لصِحَّةِ رُؤْيَةِ الْقَضِيَّةِ الْمَهْمَةِ من كلِّ جوانبها، وتقلُّ نسبة احتمالات الخطأ في الأمر الذي يتجه له العزم، وتُعطي المستشارين تكريماً واحتراماً وشعوراً بأنهم شركاء في الأمر، وأن قرار قائدهم صدر بعد مشاورتهم، ولم يكن مستقلاً في الأمر ولا مستبداً ولا مُتبعاً لمزاجه ولأهوائه الخاصة.

وبعد المشاورة واستعراض مختلف الآراء وترجيح الرأي الأكثر نفعاً وسداداً لعامة المسلمين، يعزِمُ الرسول على بت القرار المناسب، فيُصدِرُه، ويوجّه فيه أمره للتنفيذ، وعليه عندئذ أن يتوكَّل على الله ويقوم بما يلزم لتنفيذ ما أصدره من قرارات وأوامر.

وبياناً لهذا قال الله لرسوله:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى تَوَكُّلٍ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

أي: فإذا عزمْتَ بعد المشاورة على تنفيذ أمرٍ من أمور المسلمين في السلم والحرب فاعمل على تنفيذه متوكلاً على الله، والله سيمدك بمعونته وتسديده، لأنه يحبُّ المتوكلين عليه مع قيامهم بكل ما تقتضيه حاجات التنفيذ من أسباب.

وما أمر الله به رسوله بوصفه قائد أمة وولي أمورهم، مطالب بمثله كل إمام من أئمة المتقين، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومطالب بمثله كل إمام من أئمة المسلمين الذين يتولون قيادة وسياسة أمورهم العامة، إلا أن رأي الأكثرية في المشورة ملزمة لغير الرسول فيما ظهر لي<sup>(١)</sup> لقول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

فعلى حامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتحلّى بالأخلاق والخصال التي أثنى الله بها على رسوله، والتي أمره بها، فمن تحلّى بها كان أكثر توفيقاً ونجاحاً، وأكثر سداداً في رسالته التي يضطلع بمهماتها.

وعليه أن يكون هاشماً باشاً مع كل الناس، وأن لا ينظر إلى المخالفين مهما كان شأنهم بتقطيب وعُبُوسٍ واشمئزاز.

وعليه أن يكون حسن المحادثة، حكيم المجاملة، جميل المعاشرة، خدوماً، ينهض بمصالح الآخرين كأنها مصالحه الشخصية، تأليفاً لقلوب الناس على حب الالتزام الإسلامي والعمل الإسلامي، وحب الدعوة إلى الله والأمين بالمعروف الناهين عن المنكر الناصحين المرشدين.

\* \* \*

---

(١) انظر ما كتبه حول هذا في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» بمبحث نظام الحكم في الإسلام.

## المقولة الثانية

### أمثلة من أخلاق الرسول ﷺ وسيرته العظيمة

أعرض في هذه المقولة طائفة مما ورد في السنة حول السيرة العظيمة والأخلاق العظيمة، التي كان الرسول محمد ﷺ يتحلّى بها، ليتخذها حملة رسالة الدعوة إلى دين الله، ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمثلة يحتذون حذوها تأسياً برسولهم العظيم، حتى يكونوا مؤهلين لإمامة المتقين، في أخلاقهم ومحاسن سلوكهم.

#### المثال الأول:

روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه، أنه غزا مع النبي ﷺ قبل نجد، فلما قتل رسول الله ﷺ قتل معهم، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة<sup>(١)</sup>، فنزل رسول الله ﷺ، وتفزق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة<sup>(٢)</sup>، فعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال:

«إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ<sup>(٣)</sup> عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقِظْتُ وَهُوَ فِي يَدِي صَلْتًا<sup>(٤)</sup>، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ ثَلَاثًا» ولم يعاقبه وجلس ﷺ.

- (١) القائلة: وقت الظهيرة. والعضاة: الشجر الذي له شوك.
- (٢) تحت سمرة: أي: تحت شجرة كبيرة من هذه الأشجار.
- (٣) اخترط السيف: أي: سلّه من غمده.
- (٤) صلتاً: أي: مجزداً جاهزاً للضرب به.

وفي رواية عن جابر، أن المشرك قال للرَّسُولِ ﷺ: تَخَافُنِي؟ قال رسول الله ﷺ: «لا» فقال: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قال: «الله».

وجاء في رواية أخرى: فسقط السيفُ مِنْ يَدِهِ، فأخذ رسول الله ﷺ السَّيْفَ، فقال للأعرابي: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي» فَقَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فقال: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ» قال: لا، وَلَكِنِّي أَعَاهِدُكَ أَنْ لَا أَقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يِقَاتِلُونَكَ، فخلَّى سبيله، فَأَتَى الرَّجُلُ أَصْحَابَهُ فقال لهم: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ!!.

### المثال الثاني:

روى البخاري عن سهل بن سعد، أن امرأةً جاءت إلى النبي ﷺ بِبُرْدَةٍ منسوجة<sup>(١)</sup>، فقالت: نَسَجْتُهَا بِيَدَيَّ لِأَكْسُوَكَهَا، فأخذها النبي ﷺ مُحْتَاجاً إليها، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فقال فلان: اكْسِينِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا!، فقال: «نعم» فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَّأَهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فقال له القوم: ما أحسنت، لِسِهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجاً إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يُرَدُّ سَائِلاً، فقال: إني والله ما سألتُهُ لِأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قال سَهْلٌ: فكانت كفنه.

### المثال الثالث:

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنْتُ أُمْسِي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُرْدٌ<sup>(٢)</sup> نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فأدركه أعرابيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً، فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ<sup>(٣)</sup> النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي

(١) بريدة منسوجة: أي: بكساء موشى له هُدبٌ.

(٢) البرد: كساء مخطط يُلتحفُ به.

(٣) العاتق: ما بين المنكب والعتق، والمنكب: مجتمع رأس العضد والكتف.

عِنْدَكَ، فَالتَفَّتْ إِلَيْهِ فَضَحَكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعِطَاءٍ!!.

المثال الرابع:

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَلى الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجلٌ فأعطاه غَنَمًا بين جبلين، فَرَجَعَ إلى قومه فقال: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِن مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ.

وإن كان الرجل لِيُسَلِّمَ ما يُريد إلا الدنيا، فَمَا يَلْبَثُ إلا يسيراً، حتَّى يكون الإسلامُ أَحَبَّ إليه من الدنيا وما فيها.

المثال الخامس:

روى البخاري عن جبير بن مطعم: بينما هو يسير مع رسولِ الله ﷺ مَقْفَلُهُ من حُنَيْنٍ، فَعَلِقَتِ الأعرابُ يسألونه، حتَّى اضْطَرَّوهُ إِلَى سَمْرَةَ، فَخَطَفَتْ رِداءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فقال:

«أَعْطُونِي رِدايَ، لَوْ كانَ لي عَدَدُ هَذِهِ العِضاهِ نَعَمَ لَقَسَمْتُه بَيْنَكُم، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً».

سَمْرَةَ: أي: شجرةٌ من شجر الطَّلح.

العِضاهُ: الشجر الذي له شوْكُ.

المثال السادس:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسولَ الله، اذعُ على المشركين، قال:

«إني لَم أَبْعَثْ لَعاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحمةً».

المثال السابع:

روى البخاريُّ ومُسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها قالت: يا رسولَ الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحدٍ؟ فقال:

«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، فَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَاَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أُسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ<sup>(١)</sup>، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَطْلَتْنِي، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيْلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ».

قال: «فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ».

فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَانَ هَمَا جِبَلَا مَكَّةَ.

المثال الثامن:

رُويَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَطْلُبُ مِنْهُ عَطَاءً، فَأَعْطَاهُ الرَّسُولُ، ثُمَّ قَالَ: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا، وَلَا أَجْمَلْتُ.

فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ وَقَامُوا إِلَيْهِ، وَقَدْ هَمُّوا أَنْ يُؤَدِّبُوهُ بِالْعَنْفِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ كُفُّوا، ثُمَّ قَامَ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَزَادَهُ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعَشِيرَةِ خَيْرًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ، وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّى يَذْهَبَ مَا فِي صُدُورِهِمْ عَنْكَ» قال: نعم.

(١) قَرْنُ الثَّعَالِبِ: مِيقَاتُ الْإِحْرَامِ لِلْقَادِمِ إِلَى مَكَّةَ مِنَ الطَّائِفِ، وَيَسْمَى أَيْضًا قَرْنُ الْمَنَازِلِ.



فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ جَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَرِذْنَاهُ، فَرَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ، أَكْذَلِكْ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعَشِيرَةٍ خَيْرًا.

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

«مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا، فَقَالَ لَهُمْ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَرْفُقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ مِنْ قُمَامٍ<sup>(١)</sup> الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا، حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاحَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رِجْلَهَا، وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوُ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

وفي سيرة الرسول من نظائر هذه الأمثلة روايتٌ تُحْتَدَى، صلوات الله وسلاماته عليه.

\* \* \*

---

(١) قُمَامٌ: جَنْعٌ قُمَامَةٌ، وهي الكُنَاسَةُ التي تجمع من البيوت والطرق.

## الفصل الرابع

وجوب تحلي حامل الرسالة  
بالصفات التي ذكر الله عز وجل أنّها صفات عباد الرحمن  
ليكون أسوة حسنة

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: مقدمة تحليلية عامة مع بيان الشروط التي هي بمنزلة  
الأسس الأولى لكل داعٍ لأمر أو ناصحٍ به .  
المقولة الثانية: صفات المرشّح لأن يكون إماماً للمتقين .



كلّ من يحمل مسؤولية رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد، أو رسالة الدعوة إلى دين الله، من مستوى الفئة الخاصة فئة المتخصصين لحمل إحدى هاتين الرسالتين أو كليهما، يجب أن يكون أسوة حسنة لمن يُؤدّي رسالته بينهم، ويجب أن يتحلّى بصفات تؤهّله لأن يكون إماماً للمتقين.

فحامل رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فئة المتخصصين يَضَعُ نفسه إماماً لمن يَحْمِلُ بينهم رسالته، وكلُّ مؤمن مسلم داخلٌ في عموم المتقين، إذ له درجةٌ ما من درجات مرتبة التقوى، ومن يَضَعُ نفسه إماماً للمتقين أمراً بينهم بالمعروف ناهياً عن المنكر ناصحاً مرشداً، لا بُدَّ أن يَزْتَقِيَ في صفاته السلوكية حتى يتجاوز أعلى درجات المتقين، ويَكُونُ ولو ببعض أعماله من الأبرار، ليكون أسوة حسنة للمتقين، وأن يجتهد أيضاً حتى يكون ولو ببعض أعماله من المحسنين.

وكذلك الداعية المتخصصة الذي يَحْمِلُ رسالة الدعوة إلى دين الله بين غير المسلمين، أو من هم بحكم غير المسلمين، ويَضَعُ نفسه في منزلة داعٍ متخصص، لا بدّ أن يكون في أخلاقه وسلوكه ودعوته مثلاً صالحاً للاقتداء

به، ولا أقل من أن يكون إماماً للمتقين، مع زيادة أهلية فكرية، ونفسية، وعلمية، وبيانية، تتطلبها رسالة دعوة غير المسلمين إلى الإسلام بصفة تخصصية.

- ٢ -

الشروط الأساسية الأولى لكل داعٍ لأمرٍ أو ناصحٍ به مُرشدٍ إليه

لا يكون حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسوةً حسنةً، ما لم يكن مؤمناً بما يدعو إليه، أو ينصح به، ومطبّقاً بسلوكه النفسي وسلوكه الجسدي ما يدعو إليه أو ينصح به، وعلى بصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به، أو يرشد إليه.

فهي ثلاثة شروط أساسية أولى لكل داعٍ إلى أمر، أو ناصح به ومُرشدٍ إليه :

١ - شرط الإيمان بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

٢ - شرط الأداء الفعلي لما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

٣ - شرط البصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

وفمياً يلي شرح هذه الشروط :

الشرط الأول: الإيمان بما يدعو إليه أو ينصح به ويرشد إليه .

من البدهي أن هذا الشرط شرطٌ طبيعيٌّ لا بُدَّ من تحققه في كلِّ داعٍ إلى قضية ما، أو مبدأ من المبادئ، وإلا فهو منافقٌ كذابٌ، أو صاحبٌ مصلحةٍ خاصّةٍ من قيامه بدعوته، ويكون حاله كحال أهل بلدة مات مؤذن جامعها الكبير الذي كان نديّ الصوت وحسنه، فلم يجدوا في المسلمين ذا صوت نديّ حسنٍ يؤذن لهم، فاستأجروا رجلاً غير مسلم أعجبهم صوته ليؤذن لهم،

فما استطاع أن يقول في أذانه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» لأنه غير مؤمن بمضمون هاتين الشهادتين، فصار ينادي: أشهد أن مسلمي هذا البلد يشهدون أن لا إله إلا الله، وأشهد أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله.

وبما أنه شرط عقلياً بدهيِّ كان من الحكمة أن يُبين الله تعالى أن رُسُلَهُ من المؤمنين بما دعوا إلى الإيمان به، أو من أول المؤمنين إذا كانوا في الواقع أول من آمن بما دَعَوْا إلى الإيمان به، إذ قد يُوجد من أقوامهم من سَبَقَهُم إلى الإيمان، باعتبار أن ما يدْعُونَ إليه مبنيٌّ على رسالة سابقة، يُوجد في القوم بَقِيَّةٌ يؤمنون بها، أو هو رسولٌ تابعٌ كهَارُونَ مع موسى عليهما السلام.

ونجد في القرآن المجيد أدلَّةً على هذه الحقيقة، فمنها ما يلي:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

٢- ولَمَّا كان موسى عليه السلام أول مَنْ آمَنَ إيماناً غيبياً كاملاً من قومه قال بعد أن أفاق من صعقته التي صعقها في مُناجاةِهِ لِرَبِّهِ: ﴿ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أولُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ كما أبان الله عزَّ وجلَّ هذا بقوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي لِئَظُنَّرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا فَلَمَّا آفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أولُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

٣ - وَلَمَّا سَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ قَائِلًا: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّبُ الْمَوْتَى» قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنُ﴾ فقال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. «انظر الآية (٢٦٠) من سورة (البقرة)».

فكلُّ داعٍ إلى الله سواءً أكان رسولاً أم تابعاً من أتباع الرسول لا بُدَّ أن يكون من المؤمنين المستوفين للإيمان الصحيح الصادق، وهذا أوَّل شرط من الشروط اللازمة له.

الشرط الثاني: الأداء الفعلي لما يدعو إليه أو ينصح به ويُرشد إليه.

إن التزام الداعي في سلوكه بأداء ما يدعو إليه، والتزام الناصح المرشد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بفعل ما يأمر بفعله، وترك ما ينهى الناس عن فعله شرط أساسي في مفاهيم الناس لتقبُّلهم ما يدعوهم إليه، أو يأمرهم به، أو ينهاهم عنه، وقليلٌ جدًّا من الناس الذين يَفْصِلُونَ بَيْنَ دَعْوَةِ الداعي، أو نُصْحِ الناصح، وَيَبَيِّنُ سلوكه الخاص.

إن المخالف في سلوكه لما يدعو إليه أو يأمر به أو ينهى عنه بمثابة من يقول للناس بلسان حاله: إن ما أنصحكم به ليس ذا قيمة حقيقية، ولو كان ذا قيمة حقيقية لَكُنْتُ من الملتزمين بتطبيق ما أنصحكم به.

● ولهذا خاطب الله عزَّ وجلَّ رسوله بقوله تعالى في سورة (هود/١١) مصحف/٥٢ نزول):

﴿ فَاسْتَوِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

● وخاطب الله عزَّ وجلَّ رسوله في سُورَةِ (الشورى/٤٢) مصحف/٦٢ نزول) بعد أن ذَكَرَ له أَنَّهُ شَرَعَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ الرُّسُلَ

السابقين، وما أوصى به إليه، فقال تعالى له:

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ... ﴾ (١٥)

● ولما كان الالتزام بالصرراط المستقيم في التطبيق العملي هو الإسلام التنفيدي، لإعلان الطاعة والإسلام لله في أوامره ونواهيه، قال الله عز وجل لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خَيْرًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٦) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ .

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ: أي: وأنا أول الذين يُعَلِّنون إسلامهم وطاعتهم لله عز وجل، وأول المنفذين لأحكام الإسلام، وتطبيق أوامر الله ونواهيه في سلوكي النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ.

وقال نوح عليه السلام لقومه كما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ ... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٧)

أي: من المطبقين لأحكام الدين، فليس لي استثناء خاص من التطبيق.

● وأبان الله عز وجل ميزة من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم في سلوكه العملي الظاهر والباطن، وأنه خير أقسام الناس، فقال الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٧)

ونفهم من هذا أن الأبكم الذي لا يقدر على شيء هو أعلى منزلة ممن



يَدْعُو إِلَى ضَلَالَةٍ أَوْ يَأْمُر بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَأَعْلَىٰ مُنْزَلَةً مِنَ الَّذِي يَأْمُر بِالْعَدْلِ بِلِسَانِهِ فَقَطْ، وَهُوَ مُتَنَكِّبُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي عَمَلِهِ، فَأَقْسَامُ النَّاسِ أَرْبَعَةٌ:

١ - دَاعٍ إِلَى ضَلَالَةٍ يَأْمُر بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ.

٢ - دَاعٍ إِلَى هُدًى يَأْمُر بِالْعَدْلِ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ.

٣ - أَبْنَكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتُ بِخَيْرٍ، فَهُوَ مَعذُورٌ لِأَنَّهُ نَاقِصُ الْأَهْلِيَّةِ بِالْخَلْقَةِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَهُوَ أَعْلَىٰ مُنْزَلَةً مِنَ الْقَسْمِينَ السَّابِقِينَ.

٤ - دَاعٍ إِلَى هُدًى يَأْمُر بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، وَهُوَ كَامِلُ الْأَهْلِيَّةِ، وَهَذَا أَشْرَفُ الْأَقْسَامِ.

وإيجازاً في التعبير القرآني عُرضتِ القسمةُ فيه ثنائِيَّةً، لأنَّ القسَمينِ الأوَّلينِ ساقطان ببداهة الفكر، ويمكن إدراكهما بالتأمل.

فينبغي أن يكون حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متحققاً في سلوكه بما يدعو إليه، أو ينصح به.

● وقد ذمَّ الله عزَّ وجلَّ علماء اليهود الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسونَ أَنفُسَهُمْ، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) مخاطباً عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أفلا تعقلون؟: استفهام إنكاري في تلويمٍ وتوبيخ.

● وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى ملكي عُمان، بعثه مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، جاء فيه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد بن عبد الله إلى جَيْفَرَ وَعَبْدِ ابْنِي  
الْجَلَنْدِيِّ، سَلَامٌ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ بِدَعَايَةِ  
الْإِسْلَامِ، أَسْلِمًا تَسْلِمًا، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيَّ النَّاسِ كَافَّةً، لِأُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا،  
وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ الْكَافِرِينَ، فَإِنَّكُمْ إِن أَقْرَزْتُمْ بِالْإِسْلَامِ وَلَيْتَكُمْ، وَإِن أُبَيْتُمْ  
أَنْ تُقْرَأَ بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ مُلْكَكُمْ زَائِلٌ عَنْكُمْ، وَخَيْلٌ تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمْ، وَتَنْظَهُرُ  
نُبُوتِي عَلَيَّ مُلْكِكُمْ».

وَكَتَبَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ وَخَتَمَ الْكِتَابَ.

وبعد حوارٍ طويلٍ بينَ عمرو بن العاصِ والملِكَيْنِ الأَخَوَيْنِ أَسْلَمًا،  
وجاء في بعض أخبار إسلام مَلِكِ عُمان «جَيْفَرَ» أَنَّهُ قَالَ:

«إِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ دَلَّنِي عَلَيَّ هَذَا النَّبِيِّ الْأَمِيِّ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ  
مَنْ أَخَذَ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَنْظُرُ،  
وَيُغْلَبُ فَلَا يَضْجُرُ، وَأَنَّهُ يَفِي بِالْعَهْدِ، وَيُنْجِزُ الْمُوعُودَ».

فَاسْتَدَلَّ مَلِكُ عُمانَ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ بِتَحْلِيهِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ،  
فَاسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ، كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ.

الشرط الثالث: البصيرة بما يدعو إليه أو ينصح به.

البصيرة هي العلم الجليلي الواضح بما يدعو إليه أو ينصح به، وهي في  
القلب والفكر بمثابة البَصَرِ بالنسبة إلى المَرِيئَاتِ الحسِيَّةِ،

وهذا الشرط شرطٌ طبيعيٌّ عَقْلِيٌّ بَدَهِيٌّ أَيْضًا، فَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ بَصِيرَةٌ،  
بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ أَوْ يَنْصَحُ بِهِ، فَقَدْ يَدْعُو إِلَى بَاطِلٍ وَهُوَ يَحْسِبُهُ حَقًّا، وَقَدْ يَأْمُرُ  
بِالْمُنْكَرِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ يَنْهَى عَنِ الْمَعْرُوفِ وَهُوَ يَحْسِبُ  
أَنَّهُ يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ.

● وتنبهها على هذا الشرط قال الله عز وجل لرسوله في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

فدلّت هذه الآية على أن الرسول ﷺ يدعو إلى الله وهو على بصيرة تامّة بما يدعوه إليه، أي: على علم جليّ واضح لا شبهة فيه، فهو متمكّن من هذه البصيرة بمقتضى علوه عليها: ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾.

ودلّت على أن من اتّبع الرسول مُشارك له في الدعوة إلى الله على بصيرة، وهذا يدلُّ على قضيتين:

الأولى: أن كلّ قادرٍ على أن يمتلك البصيرة بأسس أركان الإيمان فإنّ عليه أن يسعى أخذاً بأسباب العلم حتّى يمتلئها.

الثانية: أن من كانت لديه هذه البصيرة، فإنّ عليه أن يساهم بنصيب ما في الدعوة إلى الله، في أيّ مجالٍ من مجالات أنشطته في الحياة.

\* \* \*

- ١ -

نظرة إجمالية

إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين

جاء في القرآن المجيد بيان صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين، بأنه ينبغي أن يكون من عباد الرحمن، وأن يتحلّى بصفات عباد الرحمن، التي من ضمنها دُعاؤه ربّه أن يجعله للمتقين إماماً.

وعباد الرحمن المرشحون لأن يكونوا أئمةً للمتقين يجب أن يتحقّقوا

بأمرين:

الأمر الأول: أن يكونوا مُستوفين لكلّ حقوق مرتبة التقوى، ويكونُ استيفاء هذه الحقوق بالتزامهم بأداء الواجبات وترك المحرّمات، وإذا وقعت منهم خطايا فعليهم أن يتداركوا أنفسهم بما يكفّرُها أو يَمْحُوها، وذلك بإتباع السيئات بالحسنات، وبالتعويض بنوافل الطاعات والقُرْبَات، وبالاستغفار والتوبة والندم.

والتزامهمُ بحقوق مرتبة التقوى يُوصِلُهم إلى أعلى درجات مَرْتَبَةِ المتقين.

الأمر الثاني: أن يرتقوا فوق مرتبة التقوى بالقيام بأعمال صالحة هي من مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان.

فأعمال البرّ هي من قبيل التوسّع في الصالحات من السّنن والمندوبات ونوافل القُرْبَات من أفعال الخير التي تُطلَبُ من المتقين على سبيل التطوّع، لا على سبيل الإلزام.

وأعمال الإحسان هي من قبيل زيادة إتقان الأعمال الصالحة بسبب شدّة مُراقبة الله عزّ وجلّ عند أداء العمل الصالح، حتّى كأنّ العامل يرى الله عزّ وجلّ وهو يؤدّي من أجله عمله، إذ يَسْتَضِحُّ مع عمله الصالح الشُّعُورَ في داخل نفسه بأنّ الله عزّ وجلّ يراه دوماً، وهو حاضرٌ معه دوماً، لا تغيبُ عنه حَرَكَةٌ ظاهرة ولا حركةٌ باطنة، حتّى ما يَمُرُّ في خواطر الفكر وحركات النفس ومشاعرها.

وقد جاء في القرآن المجيد لدى بيان صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين، ذكُرُ الصفات المطلوبة التي هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان، وذكُرُ بعض الصفات المهمة التي هي من حقوق مرتبة التقوى، للإشعار بأنّ الارتقاء إلى منزلة عباد الرحمن بأعمال البرّ والإحسان التي يرتقي بها العبد المؤمن في درجات الأبرار والمحسنين، لا بدُّ أن يكون بعد الارتقاء في درجات مرتبة التقوى، فاستيفاء حقّ المرتبة الأذنى شَرْطٌ طبيعيٌّ للارتقاء إلى المَرْتَبَةِ التي فَوْقَهَا.

إنّ مرتبة المتقين ذاتُ درجاتٍ كثيرات، تبدأ بالإيمان الصحيح، وترتقي الدرجات حتى درجة أداء كلّ الواجبات، وترك كلّ المحرمات، ولا يهبط عن أعلى درجاتها من أحلّ ببعض حقوقها أحياناً إلاّ أنّه تدارك نفسه بالتكفير أو المحو أو التعويض كما سبق بيانه.

ومرتبة الأبرار ذات درجاتٍ كثيرات أيضاً، ويكون الارتقاء في درجاتها بالتوسّع في أعمال الخير المشروعة التطوعيّة، التي يتقرّب بها العبد إلى ربّه بمراضيه.

ومرتبة المحسنين ذات درجات كثيرات أيضاً، ويكون الارتقاء في درجاتها بمقدار تحقيق الإحسان في الأعمال التي هي من مرتبة المتقين، والأعمال التي هي من مرتبة الأبرار، والإحسان في العمل قد شرحه الرسول ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» وقد سبق آنفاً تحليله.

فكل ما يُطلب على وجه الإلزام من المتقين مطلوب من عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين.

ثم عليهم بعد ذلك أن يتحققوا بصفات أخرى ذكرها الله عز وجل أوصافاً لعباد الرحمن، وهي من مرتبة البر، أو مرتبة الإحسان.

- ٢ -

### نظرة تفصيلية

إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين

الصفات التي ذكرها الله عز وجل لعباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: صفات متغلغلة في عمق النفس.

القسم الثاني: صفات في السلوك الظاهر.

● أما الصفات المتغلغلة في عمق النفس فهي ثلاث:

الصفة الأولى: الإيمان بالرحمن إيماناً صحيحاً صادقاً متنامياً، ومعلوم أن مقداراً من هذه الصفة هو من مطلوبات مرتبة التقوى، أما المقادير الزائدة فوق حدود حقوقها فهو من مرتبة البر، أو من مرتبة الإحسان، والمطلوب من المرشح لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين أن يكون إيمانه زائداً على مطلوبات مرتبة التقوى.

والمذهب الحق أن الإيمان يزيد وينقص، وله مقدارٌ هو من مطلوبات مرتبة التقوى، فإذا زاد دخل في درجات مرتبة البرّ، فدرجات مرتبة الإحسان.

الصفة الثانية: صدق التوكل على الرحمن، مع القيام بالأسباب التي أمر الله عزّ وجلّ باتخاذها.

ولهذه الصفة درجات دنيا هي من حقوق مرتبة التقوى، أما الدرجات العليا فهي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، والمطلوب من المرشح لأن يكون من عباد الرحمن وإماماً للمتقين، أن يكون توكله على الرحمن من مستوى الدرجات العليا.

وقد دلّ على هاتين الصفتين قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (المُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) خطاباً للرسول فلكلّ داعٍ إلى الله من أمته، في تعليم جدليّ يجادل به الداعي إلى الله الكافرين المعاندين:

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

أي: أمناً به إيماناً عظيماً متنامياً، وتوكلنا عليه توكلأً عظيماً لا يتزلزل.

الصفة الثالثة: خشيةُ الرحمن بالغيب، وهذه الصفة ثمرةٌ من ثمرات الإيمان القويّ المائل في التصوّرات ذات الأثر في حركة النفس ومشاعر القلب.

ومن آثار خشية الرحمن بالغيب، أن يكون العبد المؤمن أو اباً إلى الله بالتوبة والنَّدَم، واتباع السيئة الحسنّة، عند كلّ معصية أو مخالفة، حَفِيظاً على التّرامِ حُدودِ الله وفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

وقد دلّ على هذه الصفة قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ وَأَزَلَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٢٦﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٢٧﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

والأواب الحفيظ لا تنزل درجته عن أعلى درجات المتقين، ولا بد أن يكون من المتطوعين بالنوافل ومن المحسنين أحياناً، فهو سالك في أعمال عباد الرحمن من مرتبتي الأبرار والمحسنين.

\* \* \*

● وأما صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين في السلوك الظاهر، فهي اثنا عشرة صفة جاء بيانها في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وبعض هذه الصفات هي من حقوق مرتبة التقوى، وقد ذكرت ضمن الصفات التي هي من حقوق مرتبة البر، أو من حقوق مرتبة الإحسان للإشعار كما سبق بيانه بأن حق المرتبة الأدنى شرط طبيعي للارتقاء إلى المرتبة التي فوقها.

وفيما يلي ذكر مفصل لهذه الصفات دون شرح موسع، لأنني شرحتها في رسالة مفردة بعنوان: «صفات عباد الرحمن في القرآن - دراسة في طريق التفسير الموضوعي» وفي كتابي: «تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع» فأحيل عليهما، ولا داعي إلى إعادة الشرح في هذا الكتاب.

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، أي: يمشون على الأرض لتحقيق مطالبهم من الحياة بخفة ورفق وسكينة ووقار، فهم لا يمشون بعُنفٍ، ومَرَحٍ، وبطَرٍ، وتَبَخُّرٍ، وتعاضم، وضربٍ على الأرض، وتطاؤلٍ في السماء، ولا يَسْعَوْنَ في الأرض فساداً، أو طلباً للعلو فيها، والاستئثار بحظوظها الفانية، ولا يطلبون معاشهم بالسعي الحثيث، بل بالمشي هَوْنًا برفق.

ولدى التحليل نلاحظ أن بعض ما يخالف هذه الصفة هو من منافيات



حقوق مرتبة التقوى، كمشية المستكبرين البَطْرِين، وكمشية الساعين في الأرض فساداً، وكمشية أهل الفسق والفجور، فهي مَشِيَاتٌ محرّمات تنافي التقوى .

ونلاحظ أنّ بعض ما يخالف هذه الصفة هو من منافيات حقوق مرتبة البرّ، فَالْحَقُّ فِي الْأَسْوَاقِ بِسَعْيِ حَثِيثٍ وَهَمَّةٍ مُجْهِدَةٍ لَطَلِبَ مَعَايِشَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يَنَافِي أحوالَ الْمُتَّقِينَ، لَكِنَّهُ يَنَافِي أحوالَ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ .

فاستكمال صور هذه الصفة هو من حقوق مرتبة البرّ، أو من حقوق مرتبة الإحسان، وهذا الاستكمال هو من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين .

الصفة الثانية: أَنَّهُمْ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا، أَي: إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ بِجَهَالَةٍ وَسَفَهٍ مُسْتَثِيرِينَ غَضَبَهُمْ، قَالُوا لَهُمْ: سَلَامًا، أَي: نُسَلِّمُ سَلَامًا، وَيَفَارِقُونَ بِإِعْلَانِ السَّلَامِ مَجْلِسَ الْجَاهِلِينَ، وَلَا يَرْدُونَ عَلَى الْجَهَالَةِ بِمِثْلِهَا، بَلْ يَضْبُطُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ وَسِعَةِ الصَّدْرِ .

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان، لأن ردّ الأذى بمثله لا يُنَافِي حقوقَ مرتبة التقوى، إذ هو من العدل، ولكنه لا يكون من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين .

إِنَّهُمْ يَقْطَعُونَ عَلَى الْجَاهِلِينَ طَرِيقَ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ، وَيُطْفِئُونَ الشَّرَارَةَ الْأُولَى الَّتِي لَوْ قُوبِلَتْ بِمِثْلِهَا لَكَانَتْ نَارًا مُتَأَجِّجَةً قَدْ تَجَرَّ إِلَى قِتَالٍ كَبِيرٍ، وَشَرٌّ مُسْتَطِيرٌ .

الصفة الثالثة: أَنَّهُمْ يَبْتَئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا، أَي: يَجْعَلُونَ قِسْمًا مِنْ لِيْلِهِمْ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، يَتَهَيَّجُونَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحَدِهِ، وَكَثْرَةِ الْقِيَامِ لِلَّهِ وَحَدِهِ، ذَاكِرِينَ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَقُلُوبِهِمْ، وَأَفْكَارِهِمْ، يُمَجِّدُونَهُ، وَيَحْمَدُونَهُ، وَيُسَبِّحُونَهُ، وَيَقْدَسُونَ لَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ خَوْفًا وَطَمَعًا، يَخْشَوْنَ عَذَابَهُ، وَيَرْجُونَ ثَوَابَهُ .

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، لأن قيام الليل وإحياءه بعبادة الله في الصلاة والذكر هو من نوافل القُرْبَات، وليس من الواجبات، فهو من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكون أئمةً للمتقين.

الصفة الرابعة: أنهم يقولون في دعائهم لربّهم الذي يكرّونه: رَبَّنَا اضْرِبْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، أَي: وَقُقْنَا لأداء الواجبات وترك المحرّمات، واغْفِرْ لَنَا خطايانا وذنوبنا حتّى تَحْمِينَا بذلك من عذاب جهنّم.

ويظهر أنّ هذه الصفة هي من حقوق مرتبة التقوى، إذ يكفي للحماية من عذاب جهنم أن يَسْتَوْفِيَ المؤمن حقوق هذه المرتبة، وقد علمنا أنّ كلّ حقوق هذه المرتبة هي من صفات عباد الرحمن، لأن حق المرتبة الأدنى شرط طبيعيٌّ للازْتِقَاء إلى المرتبة التي فوقها.

الصفة الخامسة: أَنَّهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، أَي: إنهم يُنْفِقُونَ باعتدال فلا يُسْرِفُونَ في الإنفاق على أنفسهم وأهليهم، ولا يُضَيِّقُونَ مع استطاعتهم أن يوسّعوا على أنفسهم وأهليهم، وهذا من عقلهم وإدارتهم الاقتصادية الحكيمة.

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، لأن الإسراف في المباحات بمقدارٍ لا يَصِلُ إلى حدّ التبذير الذي هو سِمَةُ إخوان الشياطين قد لا يتنافى في كثير من صوره مع واجبات التقوى، فالحكمة الاقتصادية في الإنفاق هي من صفات عباد الرحمن المرشّحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين.

الصفة السادسة: أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، أَي: لا يسألون في دعائهم غير الله، ولا يَعْبُدُونَ في عباداتهم إلاّ الله وحده، فلا يشركون بعبادته شيئاً.

وهذه الصفة هي أولى حقوق مرتبة التقوى، والإخلال بها ينقض

الإيمان، ويُدخل في الكفر، لأن الله عز وجل لا يغفر أن يُشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وقد سبق أن علمنا أن كلَّ حقوق مرتبة التقوى هي من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين، وذكرُ هذه الصفة يُشعرُ بأن أئمة المتقين قد يتعرَّضون لضغوط سُلطانية أو غيرها تجعلهم يُخلون بمقتضيات هذه الصفة مداراةً أو خوفاً على مناصبهم، فكان من الحكمة التَّنبُّه عليها.

الصفة السابعة: أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

ومعلومٌ أنَّ هذه الصفة هي من كبريات حقوق مرتبة التقوى، فقتل النفس التي حَرَّمَ الله قتلها من الكبائر العظمى، وقد علمنا أن كلَّ حق من حقوق مرتبة التقوى هو من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين.

وذكر هذه الصفة ضمن صفات عباد الرحمن يُشعرُ بأن أئمة المتقين قد يتعرَّضون لضغوط سُلطانية أو غيرها تجعلهم يخلون بمقتضيات هذه الصفة، كأن يُقتلوا بإهدار دمٍ مُعارضٍ للسُلطانٍ معارضةً لا تقتضي إهدار دمه، فتكون فتوَاهُم مشاركةً في القتل الذي حَرَّمه الله، وإنَّما أفتوا مداراةً للسُلطان أو خوفاً على مناصبهم.

وقد يَفْتِنُهُمْ ما هم فيه من سلطانٍ فَيَقْتُلُونَ منافسيهم فيه بغير حقٍّ، لِيَسْلَمَ لَهُمْ سُلْطَانُهُمْ.

الصفة الثامنة: أَنَّهُمْ لَا يَزْنُونَ، ومعلومٌ أنَّ هذه الصفة هي من كبريات حقوق مرتبة التقوى، وكلَّ حقٍّ من حقوق مرتبة التقوى هو من صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمةً للمتقين.

وذكر هذه الصفة ضمن صفات عباد الرحمن، يُشعرُ بأن أئمة المتقين

وهم في مناصبهم قد يَتَعَرَّضُونَ لفتنة قوية من قبل بعض النساء، فَتَنَهَاؤُ مَعَهَا  
مقاومتهم، فيزنون، فكان من الحكمة التَّنْبِيه عليها.

ونحن نعلم أَنَّ لأئمة الضلال مكرًا كَبَارًا يَتَّخِذُونَهُ لِإِغْوَاءِ أئمة المتقين،  
حَتَّى يُسَايِرُوهُمْ أَوْ يُغَضُّوا الْأَنْظَارَ عَنْهُمْ.

الصفة التاسعة: أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الرُّورَ، أَي: لَا يَشْهَدُونَ شَهَادَةً كاذبة،  
فَالرُّورُ الكذب والباطل، وَلَا يَحْضُرُونَ فِي مَجْلِسِ يَمِّمْ فِيهِ أَمْرٌ بَاطِلٌ غَيْرُ  
مَشْرُوعٍ لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَيْهِ، كَعَقْدِ رَبَا، وَكِقِسْمَةِ جَائِزَةٍ.

وهذه الصفة هي من كبريات حُقُوقِ مرتبة التقوى، وَذِكْرُهَا ضمن  
صفات عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين، يُشْعِرُ بِأَنَّ أئمة  
المتقين وهم فِي مَنَاصِبِهِمْ فِي الْقَضَاءِ أَوْ فِي الْإِفْتَاءِ قَدْ يَتَعَرَّضُونَ لِفِتْنَةٍ قَوِيَّةٍ  
تَجْعَلُهُمْ يَنْزَلِقُونَ فِي شَهَادَةِ زور، أَوْ يَقْبَلُونَ شَهَادَةَ زور وهم يعلمون  
بطلانَهَا، أَوْ يَحْضُرُونَ مَجْلِسًا يَتَمُّ فِيهِ أَمْرٌ بَاطِلٌ غَيْرُ مَشْرُوعٍ لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ  
عَلَيْهِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّنْبِيهِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ.

الصفة العاشرة: أَنَّهُمْ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا.

اللَّغْوُ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْغَى وَيُتْرَكَ، لِعَدَمِ تَحْصِيلِ فَائِدَةٍ مِنْهُ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ  
أُخْرَوِيَّةٍ.

إِنَّ عِبَادَ الرَّحْمَنِ الْمُرْتَضِينَ لِأَنَّ يَكُونُوا أئمةً لِلْمُتَّقِينَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ  
مَرُّوا وَهُمْ كِرَامٌ فِي نَفْسِهِمْ، يَكْرَهُونَهَا عَنْ أَنْ تَضِيْعَ أَوْقَاتُهُمْ فِي اللَّغْوِ، سِوَاءِ  
أَكَانَ قَوْلًا أَمْ عَمَلًا، إِنَّهُمْ يُدْرِكُونَ قِيَمَةَ الْوَقْتِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي يَمُرُّ  
عَلَيْهِمْ هُوَ رَأْسُ مَالِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، مَعَ مَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ طَاقَاتٍ جَسَدِيَّةٍ  
وَفِكْرِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ، فَإِذَا سَمَحُوا لِأَوْقَاتِهِمْ أَنْ تَضِيْعَ فِي اللَّغْوِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ مِنْهُ  
لِدُنْيَاهُمْ أَوْ أُخْرَاهُمْ، فَقَدْ بَدَّدُوا مِنْ رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ بِمِقْدَارِ الزَّمَنِ الَّذِي أَنْفَقُوهُ  
فِي اللَّغْوِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخَسَارَةَ الَّتِي يَخْسِرُونَهَا بِذَلِكَ لَا تُعْوَضُ.

وهذه الصفة هي من حقوق مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، إذ اللغو الذي لا تُتْرَكُ بسببه واجبات، ولا تُتْرَكُ بسببه مُحْرَمَاتٌ، لا يَتَنَاقَى مع حقوق مرتبة التقوى، لكنّ عباد الرحمن المرشحين لأن يكونوا أئمة للمتقين يَتَرَفَّعُونَ عن إضاعة أوقاتهم في اللغو، وإذا مَرُّوا به مَرُّوا كِرَامًا، أي: مَرُّوا مُرُورًا عارضاً وسريعاً، فهم لا يطيلون المقام فيه، لأنهم حريصون على أوقاتهم أن تضيع بلا فائدة لآخرتهم أو لديناهم.

الصفة الحادية عشرة: أَنَّهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا.

أي: هم إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ تَذَكَّرُوا وَتَدَبَّرُوا، وَخَرُّوا لِهَيْبَةِ اللَّهِ سُجَّدًا، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، غَيْرِ مُسْتَكْبِرِينَ، مع حضورِ فكريٍّ بمعاني آياتِ الله التي ذُكِّرُوا بِهَا، وَلَا يَخِرُّونَ عَلَيْهَا كَمَا يَقْعَلُ الْغَافِلُونَ وَالْمَنَاقِقُونَ خُرُورًا سُكَلِيًّا، لَا مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ، إِذْ تَكُونُ أَفْكَارُهُمْ وَتَصَوُّرَاتُهُمْ مُنْصَرَفَةً عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا فِيهَا مِنْ دَلَالَاتٍ، مُنْشَغَلَةٌ لِأَهْيَةِ شَأُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا وَلذَاتِهَا وَمَطَامِعِهَا، فَهَمُّ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْهُودَةِ بِمِثَابَةِ الْعُمِيِّ، وَعَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَتَلَوَّةِ بِمِثَابَةِ الصُّمِّ.

أما عباد الرحمن المرشحون لأن يكونوا أئمة للمتقين فإنهم إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ خَرُّوا سَاجِدِينَ لِلَّهِ سَامِعِينَ وَاعِينَ، مُبْصِرِينَ مُتَفَكِّرِينَ.

وهذه الصفة في مستوياتها المرتفعة هي من حقوق مرتبة البرّ، أو مرتبة الإحسان.

الصفة الثانية عشرة: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِقَوْلِهِمْ: رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا.

فعبادُ الرحمن المرشحون لأن يكونوا أئمة للمتقين يَهْتَمُّونَ بِأَنْ يَدْعُوا

رَبِّهِمْ بِدَعَاءِ ذِي شَقِيْنِ :

الشَّقَّ الْأَوَّلُ: أَنْ يَهَبَهُمُ اللَّهُ قُرَّةَ أَعْيُنٍ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَهَذَا لِذُنُبِيَّاهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ لَهُ امْتِدَادٌ إِلَى أُخْرَاهُمْ، وَإِنَّمَا يَكُونُونَ قُرَّةَ أَعْيُنٍ لَهُمْ فِي أُخْرَاهُمْ إِذَا كَانُوا مَتَقِينَ أَوْ أَبْرَاراً أَوْ مُحْسِنِينَ.

الشَّقَّ الثَّانِي: أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ لِلْمَتَقِينَ إِمَاماً، وَهَذَا لِأَخْرَاهُمْ، أَي: أَنْ يُعَيِّنَهُمْ وَيُوقِّعَهُمْ لِلْقِيَامِ بِاسْتِيفَاءِ حَقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، وَالْقِيَامِ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، حَتَّى يَكُونُوا أُمَّةً لِلْمَتَقِينَ، يُقْتَدَى بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَأَنْ يُوقِّعَهُمْ لِلْإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِهِمْ حَتَّى تَكُونَ مَقْبُولَةً عِنْدَهُ.

فَعَلَى فِئَةِ الْمُتَخَصِّصِينَ لِلْقِيَامِ بِرِسَالَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِلْقِيَامِ بِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، أَنْ يَتَحَلَّوْا بِالصِّفَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِ الرَّحْمَنِ، إِذْ وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَوْضِعِ أُمَّةِ الْمَتَقِينَ النَّاصِحِينَ الْمُرْشِدِينَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

\* \* \*



## الفصل الخامس

### وجوب تحلّي حامل الرسالة بالأهليّة البيانيّة

وفيه ثلاث فقرات :

- ١ - وظيفة البيان في حياة الإنسان .
- ٢ - الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى .
- ٣ - البيان المطلوب من حامل الرسالة . وهو يشتمل على ذكر الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها الداعي ، ليكون ذا بيان مؤثر نافع .





## وظيفة البيان في حياة الإنسان

البيان بالكلمة التي ينطق بها اللسان، أو يكتبها القلم، وقد شاع عند أهل اللغة دلالتها الاصطلاحية على المعنى المراد بها، هو من نعم الله الجليلة على الناس، إذ جعله أيسر وأوسع وسائل التعبير عن الأفكار، وعن صور الأشياء في الذهن، وعن المعاني المجردة، وعن الإحساسات والمشاعر الظاهرة والباطنة.

فالبيان بالكلمة بمثابة الجسر الذي يوصل ما تدلُّ عليه في ذهن أو نفس المُعَبِّرِ إلى ذهن أو نفس المتلقِّي، ولو تباعدت بينهما المسافات المكانية والزمانية، فيذكر المتلقِّي المراد من كلام متكلم يعلم لغته التي عبر بها، ولو كان في أبعد الأرض عنه، أو في أبعد الأزمان الخوالي عنه، إذا سمع ما نطق به، أو قرأ ما كتبه.

هذه الوسيلة التعبيرية سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة هي من أهم وأوسع وسائل تبليغ رسالة الداعي، إلى من يراد تبليغه إيّاها، وتبليغ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد إلى من هي موجهة له.

وقد امتنَّ الله عزَّ وجلَّ على الإنسان بأنَّه علَّمه البيان، لما يؤدِّيه البيان المنطوق والمكتوب من نشر العلوم والمعارف وتدوينها، وتعبير الناس عما يختلج في نفوسهم وأفكارهم وأذهانهم وإحساساتهم ومشاعرهم مما يريدون

إعلام الآخرين به، لغرض من أغراضهم في الحياة، فقال الله عز وجل في أول سورة (الرَّحْمَنُ/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ .

وامتنَّ الله عز وجل على الإنسان بأنه هداه إلى كتابة الرموز الدالة على الكلام المنطوق بالقلم، فكان القلم من أجلِّ وسائل تدوين العلوم وتناقُلها عبر الأجيال، فقال الله عز وجل في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) خطاباً للرسول محمد ﷺ ولكل فرد من أمته:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝١ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٢ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٣﴾ .

والبيان الكلامي هو وسيلة خطاب الله لعباده عن طريق المبلِّغين من رُسُلِهِ، وهذا الخطاب قد اشتمل على الإقناع والتَّصْحيح والموعظة الحسنة بالترغيب تبشيراً، والترهيب إنذاراً، وقد جاءت هذه العناصر البيانية بأسلوب الحديث من مُحدِّثٍ هو الرَّبُّ جلَّ وعَلا، ومُتحدِّثٍ إليه هو العَبْدُ الذي أوجدهُ ربُّهُ وهو يحيا بهياتِ ربِّه له، وإمداده إياه لحظةً فلحظةً بالحياة وأسبابها، ولو كان هذا العبد جاحداً كافراً بربِّه أبقاً عن طاعته .

ولمَّا كانت هذه العناصر البيانية قد جاءت بأسلوب الحديث الذي هو خَيْرُ وسائل التبليغ وأكرمها لمخلوق وضعه خالقه في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ومنحه الحرية في أن يؤمن أو يكفر، ويطيع أو يعصي، كان من دقة البيان أن يُعبّر الله عز وجل عن كلامه الذي تضمّن الدلالة عليها بأنه حديثٌ منه لعباده، وقد جاء هذا في قرابة عشرة نصوص قرآنية، فمنها ما يلي:

١ - قول الله عز وجل في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) خطاباً

لرسوله:

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ .

أي: فدعني مع من يكذب الآن ومستقبلاً، بهذا القرآن الذي أنزله بأسلوب حديث الداعي المعلم الناصح المرشد الذي يُقدّم الإقناع بالحكمة، والاستعطاف بالموعظة الحسنة المشتملة على الأخبار التبشيرية، والأخبار الإنذارية.

سنستدرجهم فيما هم فيه من مالٍ ونعمةٍ وقوةٍ، من حيث لا يعلمون أنهم مُستدرجون.

وأُملي لهم بتطويلِ مُدّةِ اختبارهم حتّى لا يبقَى لهم عُذرٌ يعتدرون به يوم الحساب والجزاء.

إن كيدي الذي أنزله بهم يوم أصبّ عليهم سوطَ عذابي متينٌ قويٌّ لا يستطيعون مُقاومته.

٢ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣/ مصحف/ ٢٣ نزول) خطاباً لمنكري أنّ القرآن كلامُ الله، الذين قدّموا إنكارهم بأسلوب التعجّب الذي يَسْتَبِيرُ ضَحِكَهُمْ:

﴿ أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجِبُونَ ﴿٥١﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٥٣﴾ .

أي: إنّ الذي يُبَيِّرُ التّعجّبَ والضّحكَ حقّاً هو حالكم، إذ تعجبون وتضحكون من هذا الحديث الموجه لكم في آيات القرآن، وهو يشتمل على حقائق وإقناع وإرشادات ونصائح وبيانات وإنذارات فيها الخير العظيم لكم في دنياكم وأخرآكم.

سامدون: لأهون لاعبون - ساهون غافلون - مشغولون بالغناء - متكبرون بطؤون أشرون - قائمون جامدون لا تتأثرون - أغبياء - متحيرون .

وكل هذه المعاني مرادة، لأن المخاطبين كانوا جماعات ذوات أحوال مختلفة، وكل واحد منهم له وصف من هذه الأوصاف.

٣ - وقول الله عز وجل في آخر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي اشتملت على بيانات إقناعية إنذارية تخلع قلوب أولي الألباب:

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

وقد جاءت هذه العبارة في الآية (١٨٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً.

٤ - وقول الله عز وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفَسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكِ هُدًى لِّلَّهِ يَهْدِي بِهِ ۖ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾

فوصف الله عز وجل كتابه القرآن بأنه أحسن الحديث.

إلى سائر النصوص التي جاء فيها وصف خطاب الله لعباده بالقرآن بأنه من نوع الحديث، إذ أنزله الله عز وجل بأسلوب الحديث، لا بأسلوب قرارات سلطانية، أو بلاغات عسكرية، أو شتائم عدوانية، أو إنذارات حربية، أو نحو ذلك، وفي الحديث تكريم عظيم لمن يوجه له من رب كريم.

- ٢ -

الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى

المعنى الواحد ولو كان حقاً لا شك فيه، يُمكن التعبير عنه بوجوه مختلفة وأساليب من القول شتى، منها الحسن اللين المقبول، ومنها دون ذلك، حتى دركة أقبح القبيح المنفر المذموم.

فيمكن أن تقول عن ذي العين الواحدة: هو أعور، أو إحدى عينيه عمياء.

ويمكن أن تقولَ عنه: هو يرى بعين واحدة، وأن تخاطبه بقولك: سلمَ الله عينك المبصرة. أو بقولك: إنك ترى بعينك المبصرة ما لا يراه ذو عينين مبصرتين. أو بقولك: حافظَ على عينك السليمة فهي ميراثك من البصر. أو بقولك: لو سلِّمَت عينك لأرئتنا الأعاجيب.

ويأتي أديب فيقول له: وجهك كالسما في النهار، أي: ليس فيها إلا عين واحدة قويّة الإبصار فهي كالشمس.

إلى غير ذلك من تَعْبِيرَاتٍ لا حصر لها.

● ويمكنُ أن تقولَ: جاءني السّاقى بكأس نصفها فارغ، فتَلَفْتُ النظرَ إلى النصفِ الفارغِ منها.

يمكن أن تقول: جاءني بكأسٍ قد ملأ لي نصفَها، فتلفت النظر إلى النصف الممتلئ منها.

● وقَدَّمَ أَحَدُ طُلَّابِ الدَّاسَاتِ العَلِيَا بحثاً قرأه لأستاذه بحضور الزملاء، فلم يشأ الأستاذ الحكيم أن يصدّم مشاعر كاتب البحث بما يجرحه بعنف، فقال له: لك أجرٌ واحد، مشيراً ضمناً إلى قول الرسول ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْمُجْتَهِدُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ».

● واستدعى أحد الملوك معبّرَ أخلام فقال له الملك: رأيت في حلمي أن أسناني كلّها قد سقطت من فمي، فما تأويل هذا الحلم عندك؟!!

قال المعبر بسذاجة: يموت كلُّ أهيك الذين يجمعهم بيتك، فالأسنانُ: الأهلُ والأقارب، والفم: البيت الجامع لهم.

فغضب الملك وأمر بأخذه إلى السّجن وضربه، واستدعى معبّراً آخرَ، فقصَّ عليه رؤياه، وسأله عن تعبيرها.

فقال هذا المعبر: يا سيدي يطول عُمرُكَ في حياتك أكثر من كلِّ أهلِكَ الذين يجمعهم بيتُكَ .

فابتهج الملك ومنحه كيساً من الذهب، وأذن له بالانصراف، ثم قال لحاشيته: تعبير هذا للرؤيا لا يختلف عن تعبير المعبر الأول، إلا أن أسلوب عبارتيهما هو الذي اختلف، فالأول ساءني إذ أخبرني بموت أهلي، فاستحق السجن والضرب، وهذا قد سرنني إذ بشرني بطول عمري أكثر من كلِّ أهل بيتي، فاستحقَّ الشاء والمكافأة .

● والأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، يمكن أن يخاطب الفساق العصاة المسرفين على أنفسهم فيقول لهم:

يا معشر الفسقة الرناة الكذابين الخونة الأكلين لأموال الناس بالباطل، إنكم ستلقون عذاب الله في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، ما لم تتوبوا إلى بارئكم وتكفروا عن معاصيكم .

ويمكن أن يخاطبهم بقوله:

يا أيها الذين آمنوا وبايعوا على الإسلام لله عز وجل في أوامره ونواهيه، إياكم والزنا والكذب والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل، فإنها مهالك، وما بال أقوام يفعلون هذه الكبائر، ألا يخشون عذاب الله المعجل في الدنيا وعذابه الأليم المؤجل إلى يوم الدين؟!!

فالأسلوب الأول منقر، والأسلوب الثاني جذاب مؤثر .

من هذه الأمثلة نذكر أن الكلام ذو وجوه مختلفة، وأساليب من البيان شتى .

١ - فمنه ما هو سهل الفهم مبيّن، ومنه ما هو صعب شديد الكثافة غير مبيّن، ومنه ما هو وسط بينهما، وهو في هذا على درجات متفاوتات .

٢ - ومنه ما هو جميل محبب للنفوس، ومنه ما هو دون ذلك، حتى دركة الكلام القبيح المنقر الذي تسمتّر منه النفوس، وتنتقز منه الطباع

وللكلام في مستويات الجمال والقبح درجات ودَرَكَات متفاوتاتٌ كثيرات .

٣ - ومن الكلام ما هو لَيِّنٌ، رَفِيقٌ، رَقِيقٌ، لَطِيفٌ، يَسْتَعِظُفُ القلوب والنفوس، وله في هذا درجات متفاوتات .

ومنه ما هو خَسِنٌ جَافٌ جارِحٌ يؤذي ويثير الغضب، وله في هذا دركاتٌ متنازلات .

٤ - ومن الكلام ما هو مُزَيَّنٌ بعناصر جماليَّة أدبيَّة، وله في هذا درجات متفاوتات .

ومنه ما هو خالٍ من أيِّ عنصر جمالي .

٥ - ومن الكلام ما هو مُعَقَّدٌ ركيكٌ ممجوج، ومنه ما هو سويُّ البناء والتركيب، ملتزمٌ بضوابط الكلام الفصيح البليغ .

٦ - ومن الكلام ما يُؤدِّي المعنى بصورة مباشرة، ومنه ما يُؤدِّيهِ بصورة غير مباشرة، كأن يُساق المعنى مُغَطَّىً بستور رقيقة أو كثيفة، أو يُساق بصورة متوارية، وقد يصل إلى حدِّ الغموض، أو الرَّمْزيَّة إذا كثرت السُّتُورُ الفكريَّة، أو كثر التواري وابتعدت المسافة<sup>(١)</sup> .

ومن الخيرِ دوماً أَنْ يُخْتَارَ من وجوه الكلام ما هو أكثر تأثيرات، ونافعاً ومُفيداً في نفس من يُوجِّه له الخطاب، أو يكون هو المقصود به، ولو لم يُوجِّه له بصورة مباشرة .

وحامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مُطالَبٌ إلزاماً بهذا، حتَّى تُؤدِّي رسالته

(١) يحسن بالقارئ الرجوع إلى كتابي «مبادئ في الأدب والدعوة» فقد بسطت فيه وجوه الكلام بَسْطاً يُفيدُ حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والرجوع أيضاً إلى كتابي: «البلاغة العربية» .



وظيفتها النافعة، وحتى لا يكون في أدائه لها مُنقراً، وذا تأثير ضارٍّ مُضادٍّ لما هو مرْجُوٌّ من أدائه رسالته.

- ٣ -

### البيان المطلوب من حامل الرسالة

حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والإرشاد يُطلَبُ منه في بيانه أن يكون مُتَحَلِّياً بِعِدَّةِ صفات:

**الصفة الأولى:** أن يكون حريصاً على التأثير النافع في نفس وفكر من يُوجّه له رسالته، فلا يختار من البيان ما يَعُسرُ عليه فهمه، ولا يَسْتَطِيعُ استيعابَ معناه، ولا يَخْتارُ من أساليب البيان ما يُنْفِرُه وَيُبْعِدُه عن دين الله وصراطه المستقيم، بل يختار من البيان ما يَسْهُلُ عليه فهمه، وَيَسْتَطِيعُ استيعابَ معناه، ويختار من أساليب البيان ما يجذبه ويملك قلبه ونفسه ويُمْتع فكره ويخلو لديه، ومن ذلك اختيار القول اللين، والموعظة الحسنة، التي تبلغ إلى أعماق النفس، والقول الذي يبلغ إلى أعمال النفس هو المستجمع للرفقة والجمال والحكمة ورعاية كرامة المخاطب به، أما القول الخشن القبيح المهين المجاني لشروط الحكمة فلا يمكن أن يكون بليغاً.

**الصفة الثانية:** أن يُؤدِّي رسالته وهو مشحونٌ بمشاعرِ الرَّحْمَةِ بِمَنْ يُوجّه له رسالته، والشفقةِ عليه، والحرصِ على سعادته ونجاته من عذاب الله المعجّل والمؤجّل، والحرصِ على ظفره بجنّات النعيم يوم الدّين، اقتداءً بالرّسولِ الرَّحِيمِ ﷺ.

وعليه أن يضع في تصوّره دواماً أنه يَحْمِلُ الرّسالة التي كان الرّسول ﷺ يضطلع بعبتها الأعظم، وأن الله عزّ وجلّ قد بعثه رحمة للعالمين، فقال له في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢١٧)

الصفة الثالثة: أن يضع في تصوّره دوماً أنه مكلف أن يقتدي بالرسول في تأدية رسالته، وأن الرسول ﷺ لم يكن يؤدّي رسالته بدوافع نفسه وأهوائه، بل كان يؤدّيها بالأسلوب البياني الذي أمره الله به، أو أذن له به.

فبالأسلوب البياني الذي أمره الله به نجده في النصوص القرآنية التعليمية المصدّرة بقول الله له: ﴿ قُلْ ﴾ ونحوه.

والأسلوب البياني الذي أذن الله له به، تدلّ عليه سيرته ﷺ في دعوته، وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فهذه السيرة تكشف ما أذن الله له به في قوله له في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٥) ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (١٦).

والشاهد في هذا النصّ قوله تعالى فيه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾.

أما أصل قيام الرسول بالدعوة إلى الله فقد أمر الله به على سبيل الوجوب، في عدّة نصوص، مثل: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ - وادْعُ إِلَى رَبِّكَ - فَلِلذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ - ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾.

وأما ما علّم الله رسوله أن يقوله لقومه في المعنى والأسلوب فهو مأمورٌ به على سبيل الوجوب أيضاً أو النذب أو الإرشاد. ثم أذن الله لرسوله بعد ذلك بأن يجتهد في اختيار الأسلوب البياني الذي يراه مُحَقِّقاً للحكمة والموعظة الحسنة، في دعوة ليس فيها تكليفٌ خاصٌّ من الله بأسلوبٍ خاصّ.

وتتبع دعوة الرسول ﷺ في سيرته وفي السنّة الثابتة عنه، يكشفُ وجوه الحكمة والموعظة الحسنة التي أذن الله له بها، ليقْتَدِيَ بها حَمَلَةٌ رسالته من بعده.

فالدعاة إلى الله من بعده مُلَزَّمُونَ بالتقيّدِ بمنهاج الدعوة الربّاني، وبما أذن الله به لرسوله، وكشفته سيرته وسنته صلوات الله وسلاماته عليه.

الصفة الرابعة: أن يضع في تصوّره دوماً أنّه بمثابة الأب المربّي الحكيم في معاملة من يؤدّي بينهم رسالته، فعَلَيْهِ أَنْ يُعَالَجَهُمْ بدافع الأبوة الحانية، لا بدافع الغضب للنفس، والانتقام لها، إذا لم يُسْتَجَبْ له.

إنّ المربّي لا يَصِحُّ بحالٍ من الأحوال وهو يُؤدّي وظيفته التربوية أن يغضب لنفسه، مهما استعصى عليه من يُشْرِفُ على تربيته، فمن يَغْضَبُ لنفسه يسعَى للانتقام متشقيماً لا مؤدّباً، ومن يغضب لله في دعوته وتربيته ونُصْحِهِ وأمره ونهيه يتقيّد بما أذن الله به، لأنّه لا يعمل من أجل نفسه، بل يعمل ابتغاء مرضاة ربّه وطاعة له.

ومنذ اللحظة التي يتجاوز فيها حامل الرسالة حدود ما أذن الله به، يكون تصرفه من أجل نفسه، غضباً وثأراً لكرامته، أو انتقاماً وتَشْفِيّاً، أو يكون جاهلاً أو غافلاً عن واجبات رسالته التي يؤدّيها.

الصفة الخامسة: أن يضع في تصوّره دوماً أنّه بمثابة الطبيب الذي يعالج مرضاه بالشفقة والنُصْحِ والحكمة، والحذر عليهم من الهلاك، والحذر على المجتمع من سرّيانِ الداء إليه.

إنّ من شأن الطبيب أن يستعطف المريض الذي يُعَالَجُه، وأن يَصْبِرَ عليه، ولو نفر منه وآذاه، وأن لا يعتبره عدوّاً فَيَقَاتِلُهُ وَيُسَاتِمه، بل يُشْعِرُه دوماً بأنّه يعمل لمصلحته رحمةً به، وشفقةً عليه لتخليصه من الداء النازل به، وحماية المجتمع من سرّيانِ الداء إليه.

وإذا اقتضت حالة المريض معالجته بالإكراه في بعض الأحيان، فعلى الطبيب أن يُشْعِرَه بأن استخدام هذه الوسيلة الإكراهية إنّما اقتضتها حالته

النفسية، مع وجوب استعماله الدواء الذي يَرْفُضُهُ، لأنَّ صحته متوقفة على استعماله، ومن هذا القبيل معالِجَةُ مدمني المخدراتِ بالقوَّة، وهُم كارهون لوسائلِ العلاجِ.

فحامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبيب معالج للمنحرفين عن دين الله وصراطه المستقيم، فعليه أن يسير في معالجته على صراط الله، ويعمل بما أمر الله به أو أذن به، وينتهي عمَّا نهى الله عنه، وأن يكون همّه دواماً الإصلاح والتقويم وإعلاء كَلِمَةِ الله، وأن يُراقب نَفْسَهُ حتى لا تَدْخُلَهَا شوائب الانتصار للنفس، وحبّ الاستعلاء والتفوقِ على الناس برسالته التي يضطلع بمُهَمَّاتها.

الصفة السادسة: أن يكون على علم بأساليب البيان البليغ المهدَّب المؤثر، وأن يتعلَّم كيف يُواجه الناس برسالته، وكيف يخاطبهم أفراداً وجماعات، بحسب مُستوياتهم الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، وبحسب أحوالهم النفسية، في السُّلم والحرب، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والنشاط والكسل، إلى غير ذلك من أحوال.

فمن المعلوم المشاهد في كلِّ مجتمع أن الناس على مستويات مختلفات متفاوتات، من العلم، والفهم، والذكاء، والمكانة الاجتماعية، وأن كلَّ مستوى من مُستوياتهم له أسلوبٌ ومستوى من الخطاب يلائمه، وأنه لا يصحُّ أن يُخاطب الناس جميعاً بأسلوبٍ واحدٍ، ولا بمضمونٍ فكريٍّ واحدٍ.

إنَّ خطاب العلماء يختلف عن خطاب العامة، وخطاب الأذكياء الفطناء يختلف عن خطاب متوسطي الذكاء والأغبياء، وخطاب الملوك والرؤساء والقادة يختلف عن خطاب من دونهم من الناس، وخطاب المرضى يختلف عن خطاب الأصحاء.

وللأغنياء خطابٌ يُخَصُّهم، وللفقراء خطابٌ يلائم أحوالهم، والخطابُ في السُّلم يختلف عن الخطاب في حالة الحرب، وهكذا إلى سائر أحوال النَّاسِ المختلفة.

فعلى حامل الرسالة أن يُدَرِّبَ نفسه تدريباً طويلاً على استخدام وجوه الخطاب المختلفة، وعلى وضع كلِّ منها في الموضع الملائم له، وعلى اختيار الأسلوب البياني الأكثر نفعاً للموقف التوجيهي الذي يؤدي رسالته فيه، وينبغي أن يكون هذا التدريب قبل أن يحمل رسالته التخصصية في الدعوى إلى دين الله، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون تدرُّبه وهو في طريق التخصص.

ومن الخير أن يكون أديباً بليغاً رقيقَ الحاشية مُهذَّباً، مع شجاعة أديبة حكيمة، ويتهيأ له هذا إذا كان لديه الاستعداد الفطري، بكثرة اطلاعه على النفيس من كلام الأدباء، والنفيس من شعر الشعراء، وممارسته الكتابة والمحادثة والخطابة والمحاضرة من مُرتَجَلٍ ومكْتُوبٍ، وبكثرة تدبُّره لآيات القرآن المجيد، وتفهُمه لأقوال الرسول العظيم ﷺ.

ولا بد أن يكون لديه قَدْرٌ مناسبٌ من المحفوظات القرآنية التي تُناسب موضوعاته التي يطرَحُها لدى أدائه رسالته، وقَدْرٌ وافِرٌ من أحاديث الرسول ﷺ الصالحة للاستشهاد بها عند المناسبات الداعيات لها، فهذه المحفوظات تُساعده على أن يكونَ بيانه أكثرَ ارتقاءً في معارج البلاغة الرفيعة، وأكثرَ تأثيراً، ولا سيَّما إذا استطاع أن يستنبط منها نفائس المعاني، ويعرِّضها بتناسق فكري حَوْلَ موضوعٍ متشابك العناصر، في نظرة تكاملية من الموضوعات التي يُقدِّمها لدى أدائه رسالته.

وقد يكون من المفيد جداً أن تكون لديه ثروة من المحفوظات الشعرية، ذاتِ الأدب الرفيع والبيان البليغ لكبار الشعراء، ممَّا يصلح

للاستشهاد به في موضوعاته التي يُقدِّمها لدى أدائه رسالته، وثروة من المحفوظات الثرية لكبار العلماء والمفكرين عبر التاريخ البشري، ومن الحكم والأقوال المأثورة، ممَّا يَصْلُحُ للاستشهاد به، مع اطلاع واسع على مُستجدات العلوم الكونيَّة الثابتة الصحيحة، لأنَّها تخدم رسالته التي يقوم بها، وترفع من قيمة بيانه.

وسياتي إن شاء الله تفصيل بعض هذه المطلوبات من حامل الرسالة، لدى بيان أهليته العلميَّة، فذكرها هنا قد جاء في معرض الأهلية البيانية إذ دعت المناسبة لذكرها.

ومن المفيد جدًّا لاكتساب الملكة البيانيَّة، أن يُمارِسَ كتابة الموضوعات التي تَصْلُحُ لمضمون رسالته، ممَّا يُعِدُّ نفسه لمخاطبة الناس به، وأن يَعْرضَهُ على ذوي خبرة، وأن يُضْغِي إلى انتقاداتهم، كما ينبغي أن يُضْغِي إلى انتقادات الرُّملاء المنافسين، ولا يغضب منها، وأن يفرح بالثَّقْد أكثر من فرجه بالمدح والثناء، وأن يُعدِّل ويصلح ويُحسِّن فيما سَبَقَ أن كتبه، ليُدْرِكَ الفروق بين مستويات الكلام حول موضوع واحد.

وينبغي أن يتعد فيما يقول أو يكتب عن التعقيد، وعن الركافة في التعبير، وعن التكرار والإسهاب المملِّ، وأن يستخدم في كثير من توجيهاته الأساليب غير المباشرة، وأن يستخدم الإيجاز في البدايات والخواتيم، وعليه أن يلاحظ دواماً أنَّ الحقَّ المخالف لشهوات النفوس وأهوائها مُرُّ المذاق، وهو يحتاج تغليفاً بما يجمِّله ويُحسِّنه ويجعل مذاقه في الظاهر حلواً.

وقد شرحتُ وظيفة البيان البليغ ووجوب أن يكون مطابقاً لمقتضى حال المخاطب في كتابي «مبادئ في الأدب والدعوة» وكتابي «البلاغة العربية» فيَحسُنُ الرجوع إليهما.

الصفة السابعة: أن يكون على علم بخصائص النفوس الإنسانية،

واختلاف الصفات النفسية بين الناس، واختلاف أحوال هذه الصفات، وأن يكون ذا دراية بالفروق الفردية، وذا دراية بما يلائم كلَّ صفةٍ نفسيةٍ وكلَّ حالةٍ من أحوالها من خطاب، ليختار نوع البيان الملائم للحالة النفسية التي يتَّصفُ بها مَنْ يوجَّه له البيان، أو يكونُ هو المقصود به.

خاتمة:

ولتحقيق الأهلية البيانية المناسبة لا بُدَّ من تدريب من يُعَدُّ لِحَمْلِ الرِّسالة على الخطابة، والمحاضرة، والمحادثة، والمحاورة، وكلِّ وسائل التأثير والإقناع البيانية.

\* \* \*

## الفصل السادس

### وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية العلمية

وفيه مقدمة، وفقرتان:

- ١ - بيان وجوب تحقّق الأهلية العلميّة لدى حامل الرسالة.
- ٢ - عناصر الأهلية العلمية المطلوبة للمستوى التّخصّصي.





## مقدمة:

ليست الأهلية العلمية المطلوبة في هذا الفصل من الفئة القيادية ذات التخصص في حمل رسالة الدعوة إلى دين الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خطة لدراسة جامعية محددة بأربع سنوات أو حتى ست سنوات، حتى يتخرج بها داع إلى دين الله، أو أمر بالمعروف ناه عن المنكر من مستوى تخصصي ومؤهل تأهيلاً علمياً وافياً بالمطلوب.

فقد أصبحت لا أومن بأن الدراسات الجامعية التي تخضع لأنظمة الجامعات صالحة لإعداد مؤهلين لأن يكونوا حَمَلَةً لأحدى الرسالتين بصورة قيادية صحيحة، باستثناء أفراد لهم دراسات خاصة على علماء المسلمين وفق طرائقهم القديمة، واهتمامات خاصة تؤهلهم بالصبر الطويل حتى يكونوا مؤهلين حقاً بصورة جيدة أو أكثر من جيدة.

بل ما في هذا الفصل هو بمثابة مخطط عام يُوجّه للراغبين من ذوي الاختصاصات الجامعية المختلفة، في أن يؤهلوا أنفسهم بدراسات حرة مقارنة لدراساتهم الأخرى، أو لأعمالهم في الحياة، حتى يكونوا حَمَلَةً إحدى الرسالتين من فئة القياديين، ذوي التخصص العالي.

- ١ -

### بيان وجوب تحقق الأهلية العلمية

كلّ داعٍ إلى قضية ما أو مُوجِّهٍ لنصيحةٍ حول قضية ما، سواء أكانت

أنشطته من مستويات دنيا، أم مستويات متوسطات، أم من مستويات تخصصية عُلْيَا، لا بُدَّ أن يكون على علم بما يدعو إليه، أو ينصح به، وعلم بما يخالفه، لتكون لديه قدرة ما على الإقناع بالقضية التي يدعو إليها، أو ينصح بها.

والداعي إلى دين الله، والامرُ بالمعروف الناهي عن المنكر، ولو لم يكن من الفئة القيادية ذات التخصص في حمل إحدى الرسالتين أو كليهما، لا بُدَّ أن يكون عالماً علماً يقينياً بما يدعو إليه، أو يأمر به من معروف أو ينهى عنه من منكر، ولا بُدَّ أن يكون عالماً بالأسلوب الذي ينبغي له أن يستخدمه، وذلك للأسباب التالية:

**السبب الأول:** الحذر من أن يدعو إلى باطل وهو يخسبه حقاً، فيكون ضرره على الدين أشدَّ من ضرر الصامتين، وأشدَّ من ضرر أعداء الدين، ولا سيما إذا اتَّخَذَ قُدُوةً فيما يدعو إليه من باطل في سلوكه الخاص.

**السبب الثاني:** الحذر من أن يتَّخِذَ أسلوباً مُنْفَرَاً، وهذا أيضاً ضرره أكثر من نفعه.

**السبب الثالث:** الحذر من أن يَسْتَدِلَّ للقضية التي يدعو إليها أو ينصح بها ويُوَجِّه لها بأدلة باطلة، فيكون ضرره أكثر من نفعه، لأنَّ المدعُوَّ أو الموجَّه له النَّصْح متى اكتشف أنَّ الدليل باطل سَقَطَتِ القضيةُ كُلُّها من نظره أو اعتباره، ولو كانت في واقع أمرها حقاً، إذ يكون غَيْرَ مُسْتَعِدِّ لِيَبْحَثَ عن دليل صحيح لها، نظراً إلى أنه لم يؤمن بها بَعْدُ، وقليلٌ من الناس من يترك دليلَ الداعي إلى القضية، إذا كان دليُّه باطلاً، وَيَهْتَمُّ بالبحث لِيَصِلَ إلى دليل صحيح لها.

**السبب الرابع:** الحذر من أن يُسأل عن مسألة فيُفْتِيَ فيها بغير علم، فيضِلَّ وَيُضِلَّ.

وأنسوا جهلة الدعاة إلى الله والآخرين بالمعروف الناهين عن المنكر، هم الذين يتخذهم الناس رؤساء قياديين للقيام برسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء هم الذين ذكروهم الرسول ﷺ في الحديث الصحيح.

فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمْوَهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَرِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَقْبِضُ نَاسٌ جُهَالًا يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أخرى عند البخاري ومسلم وغيرهما، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَرِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

- ٢ -

### عناصر الأهلية العلمية المطلوبة للمستوى التخصصي

#### ● نظرة إجمالية:

حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من المستوى التخصصي، لا بُدَّ أن يكون مؤهلاً علمياً بثمانية أقسام من العلوم:

القسم الأول: المواد العلمية التي تشتمل على أدوات البحث والفهم

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري الحديث رقم ٧٣٠٧.

والإفهام والقدرة على الإقناع، والقدرة على التأثير التربوي.

القسم الثاني: المواد العلمية التي تشتمل على أصول الدين وما يناقضها وتشتمل على فروع الدين.

القسم الثالث: مقداراً مناسباً من المواد العلمية الكونية المشتملة على معارف ثابتة أو مؤكدة برُجْحان، مما يُسَاعِدُ منها على فهم الدين، وما جاء في نصوصه من حقائق عن الكون، ويُسَاعِدُ على الإقناع بأن الدين حقٌّ من عند الله عزّ وجلّ، وأنّ صراط الله فيه هو الصراط المستقيم، وأنّ أحكام السلوك التي جاء بها هي الأقومُ من كلّ ما يَضَعُ الناسُ ويبتدعون من أحكام لسلوكهم النفسي والظاهر في الحياة الدنيا.

القسم الرابع: البحوث التي تكشف زيوف المذاهب الفكرية المعاصرة الوافدة إلى العالم الإسلامي من الغرب والشرق، وتكشِفُ انحرافاتهما عن الحقّ وعن صراط الله المستقيم، وعمّا هو خيرٌ للإنسانية وسعادتها وأمنها واستقرارها وحضارتها الرشيدة.

القسم الخامس: البحوث التي تكشف وسائل الغزو الفكري الذي تعرّض له المسلمون، وأساليب وحبائل شياطين الإنس والجنّ، لصدّ الناس، أو إخراجهم عن الحقّ، وصراط الله المستقيم، وعن العمل بشرائعه وأحكام دينه الذي اصطفاه لعباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وتكشِفُ ما يتخذونه من طرائق شديدة المكر والكيد والخُبثِ للعبثِ بالأفكار والأهواء والشهوات، والإغراء بزينات الحياة الدنيا الخادعات، بُغْيَةَ تحقيق مصالحهم الخاصة، عن طريق فتنة الناس عن دين الله، لاستغلال جماهيرهم واستعبادهم وإذلالهم وتسخيرهم عبيداً لهم بالقوّة أو بالحيلة.

القسم السادس: التمكن من التحدّث بِلِسَانِ القوم الذين يُؤدّي رسالته بينهم، إذا كان لسانهم مخالفاً للغة الأم التي تعلّمها منذ نشأته.

القسم السابع: متابعة العلوم والثقافات المعاصرة في مستجداتها، والأحداث الإنسانية، وواقع المسلمين المعاصر، ليستفيد منها حامل الرسالة في أداء رسالته على أحسن وجهٍ يستطيعه بحسب إمكاناته واستعداداته الفِطْرِيَّة.

القسم الثامن: أن يكون لديه إلمام مناسب بالتاريخ البشري، وإلمامٌ بجغرافية العالم القديم والحديث، ولا سيما تاريخ الأمة الإسلامية بدءاً من سيرة الرسول ﷺ وحياة النخبة الرائدة من أصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان، ولا سيما أيضاً جغرافية العالم الإسلامي بحسب أطوارها امتداداً وانحساراً.

#### ● البيان التفصيلي لهذه الأقسام:

- أما القسم الأول: وهو قسم المواد العلميّة التي تشتمل على أدوات البحث، والفهم، والإفهام، والقدرة على الإقناع والتأثير، فهو يشتمل على المواد العلمية التالية:

#### أولاً - علوم اللّغة العربية:

القرآن الكريم قد أنزله الله عزّ وجلّ باللّغة العربيّة الفصحى، وأحاديثُ الرسول الخاتم ﷺ قد نطق بها الرسول ورواها عنه أصحابُه والتابعون من بعدهم باللّغة العربية الفصحى، وقد دُوِّنَتْ في كُتُبِ السُّنَّةِ كما رُوِيَتْ باللّغة العربية الفصحى.

والقرآن والسنة هما مصدرا الإسلام، ووعاؤهما اللُّغَوِيُّ اللّغة العربيّة الفصحى، ولا يستطيع الباحث تدبُّر القرآن الكريم تدبُّراً سليماً، وتفهُم معاني أحاديث الرسول ﷺ تفهُماً صَحِيحاً، ما لم يكن عالماً باللّغة العربيّة الفصحى، على مستوى يكفي لسلامة التدبُّر والفهم.

وقد بذل علماء المسلمين جهوداً عظيمةً وجليلاً، لاستخراج واستنباطِ

قَوَاعِدِ نَحْوِ هَذِهِ اللُّغَةِ، وَقَوَاعِدِ صَرْفِهَا، وَدَلَالَاتِ صِيغِهَا، وَتَرَاقِيْبِهَا، وَأَسَالِيْبِهَا الْبَيَانِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمَجَازِيَّةِ، وَتَصْنِيفِهَا فِي عِدَّةِ عِلْمٍ.

وَبَذَلُوا جُهُوداً عَظِيْمَةً وَجَلِيْلَةً لَجَمْعِ مَا أَحْصَوْهُ مِنْ كَلِمَاتِهَا وَتَدْوِينِهَا مَعَ بَيَانِ مَعَانِيهَا فِي مُعْجَمَاتٍ مُوسَّعَاتٍ.

وَقَدْ أُنتِجَتْ هَذِهِ الْجُهُودُ الْعَظِيْمَةُ الْجَلِيْلَةُ أَرْبَعَةَ عِلْمٍ:

١ - عِلْمُ النَّحْوِ الَّذِي نَضِجَ بِجُهُودِ كِبَارِ أُمَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

٢ - عِلْمُ الصَّرْفِ الَّذِي نَضِجَ أَيْضاً مَعَ عِلْمِ النَّحْوِ.

٣ - عِلْمُ الْبَلَاغَةِ الَّذِي شَقَّ طَرِيقاً مَهْماً جَدّاً لِحُسْنِ تَدْبِيرِ النُّصُوصِ الْقَرَأْنِيَّةِ وَالْحَدِيثِيَّةِ.

٤ - عِلْمُ مَعَانِي مَفْرَدَاتِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَدْوُونِ فِي الْمَعَاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ.

وَالْتَمَكَّنَ مِنْ هَذِهِ الْعِلْمِ وَلَوْ عَنْ طَرِيقِ مَرَاجَعَةِ مَسَائِلِهَا فِي مُدَوَّنَاتِهَا الْكَبْرَى، مَعَ حِفْظِ مَقْدَارِ كَافٍ مِنْهَا لِلْفَهْمِ الْمَعْتَادِ، أَحَدُ الشُّرُوطِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي لَا يَسْتَعْنِي عَنْهَا حَامِلُ الرِّسَالَةِ مِنْ مَسْتَوَى تَخْصُّصِيٍّ.

فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْتَمِلَ إِعْدَادُ الْمُؤَهَّلِ لِذَلِكَ عَلَى مَنَهِاجِ تَدْرِيسِيٍّ جَادٍ يُحَقِّقُ هَذَا الشَّرْطَ مَعَ تَطْبِيقَاتٍ يَكُونُ بِهَا لِسَانُهُ مَنْضَبُطاً أَنْضَبُطاً يَنْدُرُ مَعَهُ اللَّحْنُ وَالخَطَأُ.

ثَانِياً - عِلْمُ أَصُولِ الْفِقْهِ:

لَقَدْ وَجَدَ عِلْمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عِبْرَ تَارِيخِ الْبَحْثِ التَّدْبِيرِيِّ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلَا سِيْمَا الْفُقَهَاءُ الْمُسْتَنْبِطُونَ لِلْأَحْكَامِ الْفِقْهِيَّةِ مِنْهُمَا أَنَّ الْحَاجَةَ الشَّدِيدَةَ تَدْعُو لِاسْتِخْرَاجِ قَوَاعِدِ كَلِيَّةٍ تَهْدِي الْبَاحِثِينَ الْمَتَدَبِّرِينَ لِاسْتِنْبَاطِ الْمَعَانِي الَّتِي يَدُلُّانِ عَلَيْهَا، بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ، أَوْ بِصُورَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، كَالْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِاللِّزُومِ الْعَقْلِيِّ، وَالْمَعَانِي وَالْأَحْكَامِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ

عليها بقياس الأمثال غير المدلول عليها بطريقة مباشرة في نصوص القرآن والسنة، على أمثالها المدلول عليها بطريقة مباشرة.

وقد دونوا هذه القواعد في علم اصطلاحوا على تسميته: «علم أصول الفقه» وهو علم يُسَاعِدُ على تَفْهَمِ النصوص، واستنباط أحكام الدين كله منها، بفهم مُتَعَمَّقٍ من مستوى الفقه<sup>(١)</sup>، وليس خاصاً في استنباط الأحكام التي اصْطَلَحَ على تَسْمِيَتِهَا فِقْهًا، ودُوِّنَتْ فيها كتب الفقه.

فعلمُ أصول الفقه يُسَاعِدُ على فهم النصوص المشتملة على العقائد التي هي أصول الدين، والنصوص المشتملة على الأخلاق، والمشتملة على الآداب، والمشتملة على مسائل تُصَنَّفُ في علم النفس، ومسائل تُصَنَّفُ في علم الاجتماع، ومسائل تُصَنَّفُ في العلوم الكونية أو الطبيعية أو المنطقية أو الفلسفة أو غير ذلك.

وحامل الرسالة المتخصص لا بُدَّ أن يكون لديه مقدارٌ كافٍ من هذا العلم، باعتباره أحد أدوات البحث السليم، لفهم كتاب الله عزّ وجلّ، وفهم سنة نبيه ﷺ، ولا استخراج المعاني والأحكام المدلول عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

### ثالثاً - علم المنطق:

استطاع الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل أن يتوصّل إلى اكتشاف ضوابط عقلية تُسَاعِدُ المتفكّر على حماية فكره من الخطأ في فهم كثيرٍ من حقائق الأمور التي هي من جذور الفكر وأصوله الكلية العامة، وأن يُدَوِّنَهَا في علم اصطلاح العلماء على تسميته «علم المنطق» وهو مقدمات عقلية تتفق عليها العقول مما كان يُسَمَّى قديماً بعلم الفلسفة، الذي اختلطت فيه حقائق فكرية ورياضية، بنظرات تكهنيّة نفسية وكونية وإنسانية فيها باطل كثير، وغث

(١) الفقه في اللغة: الفهم المتعمق الدقيق.



كثير، وآراءٌ بعضها حقٌّ، وبعضها مقبولٌ في بحثٍ علميٍّ متطوّر، وبعضها مردود، كشأن بدايات كلّ البحوث الإنسانية، التي تختلط فيها منتجات الفكر بمنتجات الأهواء والشهوات ورغبات النفوس وخرافات المنحرفين .

أما علم المنطق الذي عزله علماء المسلمين عن سائر ما جاء في الفلسفات القديمة، فهو موازين وضوابط عقلية فطرية فطر الله عقول الناس عليها.

وأرى أن الفكر الإنساني قد توصل إليها قبل الإسلام بهديٍّ ممّا أنزل الله على رُسُلِهِ السابقين .

وقد تحقّق من صحة السليم منها بعد الإسلام جمٌّ غفير من علماء المسلمين الباحثين في مجالات الفكر بهديٍّ ممّا جاء في القرآن المجيد من أصول عقلية، ومناظراتٍ ومجادلات تستند إلى أصولٍ وموازين وضوابط عقلية، وقد فتح الله عزّ وجلّ عليّ في تيسير هذا العلم، وتزويد كثير من مسائله بأمثلة متعدّدة، ومنها أمثلة قرآنية وحديثية، في كتاب بعنوان: «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة».

وحامل الرسالة المتخصص ينبغي له أن يكون على علم بمقدار مُناسب من هذه الضوابط والموازين العقلية التي اشتمل عليها علم المنطق، لأنها تُساعده على الحماية من الخطأ في الفكر، في كلّ ما يُعده أو يُقدّمه من بحوث، وما يتعرض له من مناظراتٍ ومجادلات ومناقشات .

فمن لا يملك هذه الحماية يكثر لديه التعرّض للخطأ في أفكاره، وهو يحسب الخطأ صواباً، والباطل حقّاً، وربما اشتدّ في نصرته خطئه والدفاع عنه بكلّ قوّة .

فإذا اكتشف الذين يؤدي رسالته بينهم أنّه مخطيء بين الخطأ، وآته متناقض في فهمه مع أصول الفكر الصحيح وموازينه وضوابطه التي تتفق

عليها العقول، ولو في بعض القضايا، وهو مع ذلك يُصِرُّ على تصويب مفاهيمه الخاطئة، سَقَطَ احترامه من نفوسهم، ولم يَبْقَ لكلامه أثرٌ فيها، وزَهْدُوا فيه، وعزَفُوا عنه، وعزَلُوهُ في نفوسهم عن المكانة التي وَضَعَ نفسه فيها، قائداً من قادة الدَّعوة إلى دين الله، أو من قادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُّصح والإرشاد.

#### رابعاً - علم آداب البحث والمناظرة:

وضع علماء المسلمين قواعد للمناظرة والجدل، ضبطوا بها الآداب والخطوات والمراحل التي يجب أن يلتزم بها المتناظران أو المتجادلان، حتَّى لا يخرج كلُّ منهما عن موضوع البحث الذي تجري حوله المناظرة، فتحوّل إلى مهاترة ومشاتمة، أو مشاغبة ومغالطات، وهذه لا يمكن أن تخدم قضيةً فكرية، أو توصل إلى الإقناع بحقيقة يُرادُ الإقناع بها.

وسمى علماء المسلمين هذه القواعد: «آداب البحث والمناظرة».

فعلى حامل الرسالة المتخصص أن يكون على علم بهذه القواعد، لأنه قد يتعرض وهو يؤدّي رسالته إلى مجادلين حول القضايا التي يطرحها، فلا يُحسِنُ مناظرتهم بضوابط جدليّة، وقد يستدرّجُه شياطين المناظرين المضلّين بخطوات مُزَلِّقة، فيخرجونه عن أصل الموضوع إلى مواطن تكثُر فيها الشُّبهات ومataهات الأفكار ويُسَقِطُونَه في أغاليط يُسَلِّمُ بها مع بطلانها، وخلاصة هذا الفن مُيسِّرة في كتابي «ضوابط المعرفة وأصول استدلال والمناظرة» بتوفيق الله ومعونته.

#### خامساً - علوم النفس والاجتماع والتربية:

توصّلت الدراسات النفسية النظرية والتجريبية الإنسانية التي قام بها طائفة من الباحثين في علم النفس، إلى اكتشاف أشياء مُهمّة من صفات النفس ودوافعها وطرق التأثير عليها.

وبعض ما توصلوا إليه لا يتعارض ولا يتنافى مع تعاليم الإسلام وعقائده وشرائعه وأحكامه، ويجد الباحث المنقّب في النصوص الإسلامية ما يُشير إلى طائفة كثيرة ومهمّة منه .

ومعرفة هذه الأمور مما يفيدُ حامل الرسالة المتخصص، ويُسهّل عليه أداءه لرسالته أداءً حسناً، إذ هو يتعامل في أداء رسالته مع نفوس بشرية متنوّعة الصفات، وذوات فروق فردية، فينبغي له أن يعرفها فيُحسن التعامل معها، والتأثير عليها .

إلا أن علم النفس المعاصر علّمُ موجه بصفة عامة بوجهات نظر باحثين لا يعرفون تعاليم الإسلام، ولا يؤمنون بها، حتّى يهتدوا بهديها إلى السلوك الأقوم في الحياة، وحتّى لا يتخذوا من الوسائل ما لا تُجيزه هذه التعاليم . وبعض الباحثين فيه ذوّو أغراض تدميرية للبشرية تعتمد على الإلحاد ونشر الإباحية، وتفكيك المجتمعات الإنسانية، وإقامة الصراعات فيما بينها، كدراسات فرويد ومدرسته، ومن تأثر بالشعارات اليهودية، لإطلاق دوافع النفس من قيود الدين والأخلاق والسلطات الأسرية والاجتماعية .

فينبغي لحامل الرسالة المتخصص أن يكون على معرفة بما هو صحيح من صفات النفس الإنسانية وخصائص أنواعها وفتاتها ودوافعها وكيفية التأثير عليها، وما يجذبها وما يُفّرّها، بغية الاستفادة من هذه المعرفة في التوجيه الأقوم نحو الخير والفضيلة ومرضاة الله عزّ وجلّ، وتأليف قلوب الناس والإصلاح بينهم .

ويجب أن تُقدّم له لدى إعداده للقيام برسالته مُصفاةً من كلّ ما يتعارض مع تعليمات الإسلام ومبادئه وشرائعه وأحكامه، ممّا يتعلّق بالفكر، أو بالسلوك الظاهر والباطن .

ونظير علم النفس علم الاجتماع وعلم التربية، لأنّ فيهما قدرًا مناسباً

مما يفيد حامل الرسالة في التأثير الفردي والجماعي، بشرط أن تُقدّم له لدى إعدادهِ مُصَفَّاةً من كلِّ ما يتعارض مع الإسلام فكراً وسلوكاً ظاهراً وباطناً.

\* \* \*

- وأما القسم الثاني: وهو قسم العلوم التي تتناول بيان أصول الدين وفروعه، فهو يَشْتَمِلُ على المواد العلمية التالية:

أولاً - علم العقيدة الإسلامية:

إنَّ أساس الدِّين وقاعدته العظمى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورُسُلِهِ واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله عزَّ وجلَّ.

وهذه الأركان الستة ذواتُ أُسُسٍ فكريةٍ ثمَّ خبريةٍ عن الله عزَّ وجلَّ، وذواتُ تفصيلاتٍ كثيراتٍ.

وقد أفرد علماء المسلمين للبحوث المتعلقة بأركان الإيمان مؤلفات متخصّصة اهتمتْ ببيان أدلّة أركان الإيمان، وبيان أقوال المخالفين وشبّهاتهم والرّدّ عليها، واهتمتْ ببيان كثير من عناصرها التفصيلية، وأدخلوا هذه المؤلفات تحت اسم «علم التوحيد» لأنَّ مسألة توحيد الله كانت أهمّ المسائل التي دارت حوّلها العقيدة الإسلامية في مقابل عقائد المشركين.

ثم اختار كتاب المؤلفات المعاصرة وواضعو المناهج التدريسية المعاصرة لهذا العلم اسم «العقيدة الإسلامية» لشموله كلِّ بحوث هذا العلم.

وبما أن هذا العِلْمَ قد اختصَّ بالبحوث المتعلقة بأركان الإيمان التي هي أصلُ الدِّين، وبالبحوث المتصلة بها سواءً أكانت مشتقةً منها أم معارضةً لها، كالمِلل والنَّحل والأديان والمذاهب الاعتقاديّة الباطلة، فلا بُدَّ أن يكون هذا العلم من أوّل العلوم التي يَجِبُ أن يتمكّن منها حامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُصْح والإرشاد المتخصّص، وأن يكون على علم بها بصورةٍ إجمالية كلِّ مسلم، لأنّها أساس الدين.

## ثانياً - علم الأخلاق الإسلامية :

من الملاحظ في مراحل تنزيل القرآن الأولى، والبيانات النبوية الأولى، اهتمام الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم الفردية والاجتماعية، فعليها تعتمد الانطلاقة الأولى إلى الإيمان الصحيح الصادق، والسلوك الفاضل الذي تتفق عليه العقول والنفوس، وعليها تعتمد مصالح الحياة الإنسانية الاجتماعية السعيدة، باعتبارها معاهد الترابط الاجتماعي بين الناس.

فمنزلة الأخلاق الفاضلة في الإسلام تقع في المرتبة الثانية بعد منزلة الإيمان.

ولهذا كان على حامل الرسالة المتخصص، أن يكون لديه زاد واسع من علم الأخلاق الإسلامية، ليوجه اهتمامه للدعوة إليها مع الدعوة إلى الإيمان، وليكون قدوة حسنة فيها، وليربّي من يستجيب له عليها بوسائل التربية المؤثرة النافعة.

## ثالثاً - علمُ فقه أحكام العبادات والمعاملات :

كان عامة المسلمين في بداية الأمر بعد عصر الرسول ﷺ يسألون علماء الصحابة والتابعين وفقهاءهم عن أحكام دينهم، المتعلقة بعبادات الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة، وبالمعاملات الشاملة لكل النظم الإسلامية، مع ملاحظة أن العمل بكل حكم إسلامي عبادة.

ثم ظهر أئمة متخصصون في استنباط هذه الأحكام، وبدأت اجتهاداتهم في فقه العبادات والمعاملات تدون في مؤلفات، وبرز من هؤلاء الفقهاء الأئمة الأربعة المجتهدون من أئمة أهل السنة والجماعة، أبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، الذين دونت آراؤهم الاجتهادية تدويناً كاملاً، وكان لهم أتباع من كبار العلماء صنّفوا في مذاهبهم كتباً محرّرة على أبواب فقه العبادات والمعاملات.

ووجد آخرون لم تُدَوَّن ولم تحرَّرْ مذاهبهم تحريراً كاملاً، كالأوزاعي، وسفيان الثوري، وأبي ثور.

وظهر للزيدية الشيعة المنتسبين إلى زيد بن عليّ (زين العابدين) بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب مذهبٌ مدوّن، وظهر غيرهم.

وحامل الرسالة المتخصّص لا بُدَّ أن يكون متمكناً من مهمّات أحكام فقه العبادات والمعاملات التي ينبغي أن يُبيِّنَها لمن يؤدّي رسالته بينهم، وأن تكون لديه المملّكة لمراجعة آية مسألة فقهية يُسألُ عنها في أيّ بابٍ من أبواب الفقه.

ولا مانع من أن تكون دراسته للفقه من خلال مذهب من المذاهب المعتمدة لدى جمهور علماء المسلمين، بشرط إطلاعه على الأدلّة وعلى اجتهادات فقهاء المذاهب الأخرى وأدلّتها، لئلا يُصابَ بداءِ التعصُّب المذهبي، الذي يُحدِثُ الشقاق بين المسلمين، ويجعلهم فرّقاً وأحزاباً.

والأفضل أن يدرُسَ حملة الرسالة المتخصّصون فقه الكتاب والسنة دراسةً تقتزن الأحكام فيها بأدلّتها الشرعية، وتُعرَضُ فيها اجتهادات أصحاب المذاهب، متى تهيأت الأسباب لهذه الدراسة بشكل منظم على أبواب الفقه التي حرَّرَ فقهاء المذاهب بمقتضاها مذاهبهم الفقهية.

رابعاً - دراسات قرآنية:

وتشمل هذه الدراسات ما يلي:

- ١ - ضبط تلاوة القرآن كلّه مجوِّداً.
- ٢ - حفظ ما لا يقلُّ عن خمسة أجزاء، ومنها الجزء الثلاثون، والأفضل حفظ القرآن كلّه.
- ٣ - تفسير القرآن كلّه في حدود شرح المفردات والجمل. وتفسير ما

لا يقلّ عن خمسة أجزاء منه تفسيراً موسعاً، ضمن منهج وحدة موضوع السّورة القرآنيّة<sup>(١)</sup>.

ودراسة عدّة موضوعات قرآنيّة ضمن منهج التفسير الموضوعي الذي تُجمَعُ فيه الآيات القرآنيّة المتعلقة بموضوع واحدٍ من القرآن كلّهُ، وتُدْرَسُ دراسةً متكاملة، كموضوع الإيمان والمؤمنين، والكفر والكافرين، والنفاق والمنافقين، والتقوى والمتقين، وكقصة من قصص الأنبياء وأقوامهم، مثل قصة نوح عليه السلام وقومه<sup>(٢)</sup>.

٤ - دراسة كتاب موسع معتمد من كتب علوم القرآن مثل كتاب «البرهان في علوم القرآن» للعلامة بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥ - ٧٩٤هـ).

٥ - دراسة كتاب معتمد تناول بيان شبهات المستشرقين حول القرآن وكشف زيوافها كشفاً محكماً.

٦ - دراسة كتاب اهتمّ بإبراز الجوانب الأدبية في القرآن، ويمكن الاستفادة من كتابي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

خامساً - دراسات حديثيّة:

وتشمل هذه الدراسات ما يلي:

١ - الاطلاع على أمّهات المصنفات التي دُوِّنت فيها الأحاديث النبويّة، ومنها: «صحيح الإمام البخاري - صحيح الإمام مسلم - سنن أبي داود - سنن الترمذي - سنن النسائي - سنن ابن ماجه - مسند الإمام أحمد بن حنبل

(١) مثل تدبر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع. وتدبر سورة (الرعد) في وحدة موضوع، للمؤلف.

(٢) يمكن الاستفادة من منهج كتاب (ظاهرة النفاق) وكتاب (نوح عليه السلام وقومه في القرآن) للمؤلف.

- مستدرك الحاكم - صحيح ابن حبان - معاجم الطبراني الثلاثة الكبير والأوسط والصغير - مصنف عبد الرزاق الصنعاني) مع التعرف على خصائص كل منها، وترجمة مؤلفة.

٢ - دراسة «علوم الحديد» مع ما يتعلّق بتدوينه، ومع بيان شبّهات المستشرقين حول الحديث الشريف، وكشف زيوفها كشفاً محكماً.

٣ - حفظ ما لا يقلّ عن مئتي حديثٍ مختارات في موضوعات مختلفات دعوية وأخلاقية، من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة، مع شرحها شرحاً موسعاً.

٤ - دراسة ما لا يقلّ عن الجزء الأوّل من «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر.

٥ - دراسة ما لا يقلّ عن جزء مختار من شرح النووي على صحيح مسلم، وينبغي أن يكون من أبواب لم يتعرّض لها الجزء الأوّل من «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

٦ - معرفة كتب تراجم رواة الحديث، وكيفية مراجعة الأسماء فيها.

٧ - دراسة أدبية لنخبة مختارة من أحاديث الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

- وأما القسم الثالث: وهو قسم الموادّ العلميّة الكونية الطبيعيّة، فهو قسم يشتمل على ما لا يقلّ عن مستوى مناهج الدراسة الثانوية في القسم العلمي، وهي علوم «الفيزياء - الكيمياء - الرياضيات - الأحياء - الجيولوجيا - الفلك - الحاسب الآلي».

(١) يمكن الاستفادة من كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف، وكتاب «أمثال الحديث» للدكتور عبد المجيد محمود.



إنَّ حامل الرسالة المتخصص للقيام بأداء وظائفها، لا يصحَّ أن يكون بعيداً عن معرفة علوم عصره الكونية الطبيعية، وأن يعزل نفسه في العلوم الدينية، وعلوم اللّغة العربيّة والعلوم المساعدة لفهم نصوص الكتاب والسنة، لما يلي:

١ - لأنَّ كلمات الله البيانية المنزّلة على رسله، وكلماته التكوينية التي تحققت فيما خلق الله، وتحقق فيما يخلق من شيء في الكون، وفيما يُجري فيه من تصاريف، لا يمكن أن يتناقض بعضها مع بعض، ولا يمكن أن يُصادم بعضها بعضاً، ولا بُدَّ أن تُفهم مُتطابقة فيما يتوارد منها على قضايا واحدة، أو متكاملة فيما لا يتوارد منها على قضايا واحدة، ولا بُدَّ أن يُؤيّد الحقُّ من كلّ منها الحقُّ من القسم الآخر، إذا كانا يتعلقان بموضوع واحد، أو قضية واحدة.

٢ - ولأنَّ حامل الرسالة يتعامل مع مجموعات إنسانية مختلفة، وفيهم متعلّمون على المناهج الدراسية التي عُزلت قصداً، وبتخطيط كيديّ من الدول العلمانية، والمؤسسات المعادية للإسلام، عن علوم الدين الحقّ، ودُسَّت فيها أفكار وآراء تعليية فلسفية مناقضة لأسس الدين، وقُدِّمت فيها على أنّها حقائق كسائر الحقائق التجريبية التي اشتملت عليها هذه العلوم، والحقائق النظرية ذات البراهين العقلية الصحيحة، أو الأدلة المقبولة برجحان.

والجاهل بهذه العلوم لا يستطيع المحاورة حول المقرّرات فيها ولو كانت مقرّرات باطلات، ولا يستطيع الإقناع بأنَّ ما اندسَّ فيها من تعليقات فلسفية ليس له قيمة علمية، إذ لا يعتمد على براهين عقلية، ولا على أدلة تجريبية.

فينبغي له أن يكون ذا معرفة ما بهذه العلوم، وكبريات مقرّراتها، في الحدود التي لا تقلّ عن مستوى مناهج الدراسة الثانوية العامة، في قسمها

العلمي، ولكن يجب لدى دراسته هذه العلوم أن يكون على بصيرة بما هو مندرسٌ فيها من تعليقات وتفسيرات فلسفيّة لا تستند إلى براهين عقلية، وما هو مندرسٌ فيها من أفكارٍ مناقضة لأسس الدّين ومفهوماته وأحكامه ووصاياه، وأن تكون لديه الحجج البرهانيّة، أو الأدلّة الكافية للإقناع، التي تكشف أنّها باطلة، أو منحرفة عن الصراط المستقيم الذي يُحقّق لمن سلكه السعادة في الدنيا والآخرة، وتكشف أنّها آراء لا علاقة لها أصلاً بالعناصر الأساسيّة لهذه العلوم.

وعليه أن يُتابع تطوّرات حركة العلم في العالم، لأنّ كثيراً ممّا كان يُدرّس في المؤسسات التعليميّة في كلّ الدّول الغربيّة والشرقية على أنّه من الحقائق العلميّة، صار في مقرّرات العلم المعاصر نظريات قابلة للتعديل والتبديل، أو فرضيات لا يصحّ الاعتماد عليها أصلاً، كالآراء الداروينيّة في التطور الذاتي للأشياء والأحياء.

\* \* \*

- وأما القسم الرابع: وهو قسم البحوث التي تكشف زيوف المذاهب الفكرية المعاصرة الوافدة إلى شعوب العالم الإسلاميّ من دول الكفر وشعوبها، ففيما يلي بيان موجزٌ حوله.

نتيجة أسباب كثيرة داخلية وخارجية تخلف المسلمون في مختلف مجالات الحياة، وانتشرت الأميّة في مختلف علوم الدين وعلوم الكون الطبيعيّة.

بينما كانت شعوبٌ غير مسلمة في الغرب ثمّ في الشرق تتقدّم في العلوم الكونيّة، التي ترتقي بها الحضارة المادّية، مستفيدين ممّا كان قد وصل إليه المسلمون في عصورهم الذهبيّة العلميّة الحضاريّة، قبل مرحلة الانحطاط الذي نزل بهم.

ومع تقدّم هذه الشعوب غير المسلمة في العلوم الكونيّة الطبيعيّة، ظهرت لديهم مذاهب فكريّة معاصرة كثيرة، قائمة على إنكار الخالق عزّ وجلّ وعدم الإيمان به، أو على عزل الدّين وتعليماته في شؤون الكون والسلوك الإنساني، وعزل ما جاء به الرُّسُل عليهم السلام بالنسبة إلى شؤون الحياة الدُّنيا كلّها، وكان وراء ظهور هذه المذاهب المعاصرة المكر اليهودي، ومخططاته الرّاميّة إلى محاربة الدّين، والأخلاق، والنظم الاجتماعيّة التي تربط الجماعات الإنسانيّة برباط وحدة متماسكة.

ولمّا زحف الاستعمار الغربيّ إلى بُلدان العالم الإسلاميّ، الذي أضعفه وفكّكه بَعْدَهُ عن أسس الإسلام وصراطه المستقيم، زحفت معه العلوم الكونيّة الطبيعيّة وما هو مندرسٌ فيها من باطل، وزحفت معه المذاهب الفكريّة المعاصرة الفلسفيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيّة والأدبيّة وغيرها.

لقد كان المسلمون يعانون من عُقدة التخلّف والانحطاط الذي نزل بهم، ففُتِنُوا بما جاءهم من الغرب، ثمّ بما جاءهم من الشرق، فابتلع كثيرون من المتطلعين إلى العلوم الكونيّة الطبيعيّة التي ترتقي بها الحضارة الماديّة، ما وَقَدَّ معها من زيوف، وما وَقَدَّ معها من مذاهب فكريّة معاصرة، فمنها ما يَهْدِمُ الدّين من جذوره، ومنها ما يهدم نُظْمَهُ وشرائعه وأحكامه ووصاياها.

ثمّ بدأت الصّحوة الإسلاميّة ترجع إلى رؤوس كثير من مفكري المسلمين، من دارسين على المناهج الغربيّة، ومن دارسين لعلوم الدّين وأساسه الفكريّة والعلميّة، فتوجّه هؤلاء للتّنبيه على وجوب فَضْلِ المُنْدَسَّاتِ الباطلات في العلوم عنها، وللتّحذير من المذاهب الفكريّة المعاصرة، ونقّدها وكشّف زيوفها<sup>(١)</sup>.

(١) يمكن الاستفادة في هذا الموضوع من كتاب: «كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة =

فعلى حامل الرسالة المتخصص أن تكون لَدَيْهِ معرفة ما بهذه المذاهب،  
وَقُدْرَةٌ على بيان ما فيها من زيوف، وعلى إقناع المفتونين بها من المسلمين  
وغيرهم بالحق الذي جاء به الإسلام، وبأنه هو الخير لإسعاد الناس،  
وَلتَقْدُمِهِم الحَضَارِي السليم.

\* \* \*

- وأما القسم الخامس: وهو قسم البحوث التي تكشف وسائل  
وأساليب الغزو الفكري الذي تعرّض له المسلمون من قِبَل أعداء الإسلام،  
ففيما يلي بيان موجزٌ حوله.

على الرغم من وصول المسلمين إلى حالة التَّخَلْف التي سبق بيانها  
أنفأ، وانتشار الأُمِّيَّة بينهم، فقد كان اعتزازهم بماضيهم، وارتباطهم بالإيمان  
بالله وبرسوله محمّد ﷺ، وارتباطهم بالقرآن، وإيمانهم بأنه لا يأتيه الباطل من  
بين يديه ولا من خلفه، قد جعلهم في حِصْنِ نَفْسِي حَصِينٍ يَصْعُبُ جدًّا  
اختراقه وتهديمه من داخله إلا بأسباب شتَّى ووسائل شيطانيَّة مآكرة، تَعْتَمِدُ  
على الحيلة وازتداء الأتقنة الخادعة المزورة الكثيرة.

وهذا ما اتَّخذه أعداء الإسلام لينشروا في المسلمين مفاهيم الباطلة،  
والقوانين الموضوعية بدل أحكام الفقه الإسلامي، والسلوك المنحرف عن  
صراط الله المستقيم، وقد دخلوا بها إلى بُلْدَانِ العالم الإسلامي مع دخول  
جيوشهم الاستعمارية الغازية، في استعمار ماديٍّ سافر، أو في استعمار  
مُسْتَخْفٍ غير ظاهر.

وقد هبَّ الله عزَّ وجلَّ طائفة من أهل الفكر الإسلامي، لكشف حيل  
أعداء الإسلام، ووسائلهم الكثيرة، وأساليبهم الرامية إلى إخراج المسلمين

= المعاصرة» للمؤلف. وكتاب «المذاهب الفكرية المعاصرة» للأستاذ محمد قطب.

عن دينهم إخراجاً كلياً أو جزئياً، وإبعادهم عن حصونهم الفكرية والاعتقادية والنفسية والسلوكية، وتطويرهم حتى يتقبلوا أن يكونوا خاضعين لاستعمار الغرب الكافر بدين الإسلام لهم.

وكان هذا الكشف محدوداً في مقالات متناثرات في صحف ودوريات وبعض فصول من كتب، ولم تكن قد دُوِّنت به كتب محررة تبين أسس هذا الغزو الفكري، وتبين مناهجه ومخططاته وخطواته، ومراحله، ووسائله وأساليبه وحيلته وعناصره، كما لم يكن لدى المسلمين تأريخ له متابع لتحركاته، سواء ما كان منه بالمساعي الكيدية التي تولي كبرها اليهود، أو قام بها المبشرون بالنصرانية، أو المستشرقون، أو المستعمرون، أو الملاحدة الشيوعيون، أو غيرهم.

ثم ألهم الله ذوي غيرة من المسلمين الذين جعل في أيديهم بعض سلطات إدارية، فاستجابوا لمطالب أهل الفكر والرأي والقلم من أساتذة بعض الجامعات، فأدخلوا في المواد الدراسية ببعض الكليات الجامعية مادة دراسية باسم «الغزو الفكري».

وكنْتُ أحد الذين اشتركوا في هذا بجامعة أمّ القرى بمكة المكرمة، وأسند إليَّ فيها تدريس هذه المادة التي سبق أن كتبت فيها أكثر من ألف حديث يومي كان يُداع من إذاعة الرياض عقب نشرة الأخبار التي كانت تُداع في الساعة العاشرة والربع ليلاً، باسم «برنامج أعداء الإسلام» الذي استمر أكثر من ثلاث سنوات متتابعات.

ثم دُوِّنت هذه البحوث وغيرها في كتب خاضعة لأسس التصنيف والتقييد والتنظيم الشجري<sup>(١)</sup>، وكتب كاتبون آخرون كتباً في الغزو الفكري صالحة للتدريس والدراسة، وغدَّت المادة علماً يدرس بحمد الله وتوفيقه.

(١) انظر مجموعة الكتب المترجمة تحت عنوان «أعداء الإسلام» للمؤلف.

فعلى حامل الرسالة المتخصص وعلى كل مؤمن مُسَلِّم متعلّم أن يكون على علم بما تشتمل عليه هذه المادة من بحوث، ليُحذّر جماهير المسلمين من مكايد أعداء الإسلام في كلّ مجالٍ من مجالات الحياة.

- وأما القسم السادس: وهو التمكن من التحدّث بلسان القوم الذين يؤدّي حامل الرسالة رسالته بينهم، إذا كان لسانهم مخالفاً لِلُغَةِ الأمّ التي تعلّمها منذ نشأته، ففيما يلي بيان موجز عنه:

الإسلام دين أنزله الله عزّ وجلّ في خاتمة رسالاته للناس، وجعله ديناً للناس أجمعين حتّى أحرّ حياة الناس في الأرض، وبعث به رسوله محمداً ﷺ للناس كافة، وأمره أن يُعلّم الناس جميعاً بهذه الحقيقة، فقال له في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ... ﴾ (١٥٨)

وخاطب الله عزّ وجلّ في تتمّة هذه الآية الناس أجمعين بقوله تعالى:

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ  
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٩)

ولمّا كان المسلمون مسؤولين عند الله عن تبليغ هذا الدين للناس أجمعين، كما سبق به البيان في الباب الأول من هذا الكتاب، فإنّ حَمَلَةَ رسالة الدعوة إلى هذا الدين وتبليغه للناس، مكلفون أن يُبلّغوه على وجه يفهمه كلُّ قوم بلُغَتِهِمْ، ولا يتحقّق هذا التّبليغ ما لم يتعلّم مُبلِّغُ كلِّ قوم لُغَتَهُمْ الخاصة إذا لم يكن على علم بها، وقُدرة على أن يخاطبَهُمْ ويُفهمَهُمْ ويُقنِعَهُمْ بها.

ويمكن تحقيق هذه الغاية باستقدام جماعات من كلِّ قوم، وتعليمهم

العربية، فإذا أسلموا واستقاموا اختير منهم صَفْوَةٌ ليُكونوا دعاة إلى دين الله من المستوى التخصصي، وليقوموا بين أهل لُغَاتِهِم بتبليغهم هذا الدين ودعوتهم إليه.

فما لا يتحقق الواجب إلّا به فهو واجب بالبدئية العقلية.

\* \* \*

- وأما القسم السابع: وهو متابعة العلوم والثقافات المعاصرة في مُستَجِدَّاتِهَا، ومتابعة الأحداث الإنسانية وصفات مجتمعاتها، ومتابعة واقع المسلمين المعاصر، في مختلف بلدان العالم، ليستفيد منها حامل الرسالة في أداء رسالته على أحسن وجهٍ يستطيعه، بحسب إمكاناته واستعداداته الفطرية، ففيما يلي بيان موجز حوله.

إنّ ممّا هو ملاحظٌ لكلّ الناس أنّ العلوم والثقافات في حركة تَطَوُّرٍ مُستَمِرٍّ، وفيها دائماً مُستَجِدَّاتٌ ينفع العلم بها حامل رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح والإرشاد.

وكذلك الأحداث الإنسانية، وتطوّرات المجتمعات البشرية تأتي دائماً بجديد يفيد حامل الرسالة لدى أدائه رسالته.

وقد سهّلت وسائل الإعلام المعاصرة هذه المتابعة المفيدة، على أنّ من أهمّ الأحداث الإنسانية ما يتصل بواقع حال المسلمين المعاصر، سواء أكانوا أكثرية في بلدان إقامتهم أم أقلّيات، ولا يَلِيْقُ بحامل الرسالة أن يكون جاهلاً بها.

وهذا القسم ليس مادة دراسية تُدرّسُ في كتب، إلّا أنّه يَتَطَلَّبُ متابعة دائمة مع رحلة الحياة.

وينبغي أن تُوجَدُ مؤسسة إسلامية، أو فصيلة من فصائلها، تقدّم

خلاصات موجوات شهريًا أو أسبوعيًا، لأهمّ المُستجِدَّات والأحداث الإنسانية، بما فيها واقع حال المسلمين المعاصر، ليطلع عليها المسلمون، ولا سيّما حملة الرسالة منهم، بأقلّ جَهْدٍ وزمن، ليوفروا على أنفسهم ساعاتٍ كثيرات في متابعة ما تنشره وسائل الإعلام المملوءةُ بغثِّ كثير، وسمين قليل لا يُنتقى إلاّ بجهد جهيد وصبر مديد، وتمييز للحقّ من الباطل.

\* \* \*

- وأما القسم الثامن: وهو الإلمام المناسب بالتاريخ البشري، والإلمام المناسب بجغرافية العالم القديم والحديث، ولا سيّما تاريخ الأمة الإسلامية بدءاً من سيرة الرسول ﷺ، وحياة النُخبة الرائدة من أصحابه الكرام، ولا سيّما أيضاً جغرافيّة العالم الإسلامي بحسب أطوارها امتداداً وانحساراً، ففيما يلي بيان موجز عنه:

إنّ الداعي إلى دين الله يحتاج في دعوته إلى علم ما بالتاريخ البشري، وما تعرّضت له الأقوام والأمم من إهلاك وتدمير بسبب تكذيبها رُسل ربّها، وبسبب فسقها وفجورها وظلمها وطغيانها.

وقصصُ الأنبياء مع أقوامهم في مقدّمة هذه الدراسة التاريخية لما فيها من العظات التي تَصْلُح في مجال الدعوة إلى دين الله، وفي بيان أنّ الرسالات الرّبّانية واحدة في أصولها الاعتقادية والأخلاقية والتعبّدية.

ويحتاج أيضاً إلى علم بجغرافية العالم القديم لتحديد أماكن الأقوام الذين أُهْلِكُوا بسبب كفرهم وظلمهم وطغيانهم، والتعرّف عليها، فالعلم بها والتعرّف عليها بالمباشرة، أو عن طريق الصُّور والرسوم يفيد في تعميق الاتعاظ بالمهلكين الأولين.

ولأهميّة معرفة تاريخ المهلكين الأولين من أهل القرون الأولى، ومشاهدة آثار مواطنهم التي أهلكوا فيها، جاء في القرآن المجيد خمسة



نصوص قرآنية تتضمن التوجيه للسير في الأرض بغية مشاهدة آثارهم، وكيف كانت عاقبة إجرامهم وتكذيبهم رسل ربهم، وأول هذه النصوص بحسب ترتيب النزول قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨/ نزول) خطاباً لرسوله فلكل داع إلى الله من أمتة:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٦٩)

ثم أنزل الله عز وجل قوله في سورة (الأنعام/ ٦/ مصحف/ ٥٥/ نزول) خطاباً لرسوله أيضاً فلكل داع إلى الله من أمتة:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١١)

فأضاف هذا النص فكرتين:

الأولى: فكرة البحث والتنقيب للتوصل بعد حين إلى النظر في آثار المهلكين الأولين، دل عليها العطف بحرف العطف «ثم» بخلاف ما جاء في سورة (النمل) فقد جاء العطف فيه بالفاء: ﴿ فَانظُرُوا ﴾ فدلّت على الآثار الظاهرة التي لا تحتاج إلى بحث وتنقيب وحفريات.

الثانية: فكرة التكذيب لرسول الله، والتكذيب بما جاءوا به عن الله، فهم مجرمون بلغوا ذرّة الإجرام بسبب تكذيبهم بما أتاهم عن الله على السنة رُسُلُه، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾.

ثم خاطب الله المكذبين خطاباً مباشراً منه، فأنزل قوله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦/ مصحف/ ٧٠/ نزول):

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٧١)

ثم أضاف النص الذي أنزل في الآية (٤٢) من سورة (الروم/ ٣٠/ مصحف/ ٨٤/ نزول) فكرة أن أكثر المهلكين الأولين كانوا مشركين.

ثم أضاف النص الذي أنزل في الآية (١٣٧) من سورة (آل عمران/ ٣/

مصحف/ ٨٩ نزول) فكرة أنّ إهلاك المكذّبين سنّةٌ من سننِ الله في عباده. فتكاملت النصوص في دلالاتها.

والعلم بتاريخ الأمة الإسلاميّة بدءاً من سيرة الرّسول ﷺ والعلم بحياة النخبة الرائدة من أصحابه الكرام فالتابعين لهم بإحسان، يفيد حامل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في تقديم نماذج الأُسوة الحسنة لدى تأديته رسالته، ومن المُشاهد أنّ للتاريخ تأثيراً عظيماً في النفوس، فقَصَصُ الأُسوة الحسنة في العلم والخلقِ والتقوى والورع والجهاد من شأنها أن تحرك النفوس الصالحة للاقتداء بها، ولترسّم خطواتها في حياتها.

مع ما في عرض تاريخ أمجاد الأمة الإسلاميّة من سُحنِ نفوس الأُحفاد، بالاعتزازِ والافتخارِ بأمجاد وبطولات الأجداد، وهذا يُؤلّد في النفوس شدّة الارتباط بهذه الأمة المجيدة، وعَدَمَ التخلّي عن الانتماء إليها وإلى مبادئها، التي كانت سببَ تحقّقِ أمجادها في التاريخ.

ويرتبط بدراسة التاريخ البشري معرفةً جغرافيّة الأرض التي عاشت فيها الأُقوام والشعوب السالفة، وتعيش فيها الأُقوام والشعوب المعاصرة، فهذه الدراسة ذات فائدة جدّاً للدُّعاة إلى دين الله، وللأمّرين بالمعروف والناهين عن المنكر والناصحين المرشدين.

ومن المهمّ جدّاً دراسة جغرافية بلدان الدُّول والشعوب الإسلاميّة في أطوارها، امتداداً وتوسُّعاً بالفتوح وإسلام الشعوب، وانحساراً بالانحطاط والتخلُّف وما جرّه ذلك من هزائم في المعارك الحربيّة التي واجه بها المسلمون الغزاة من الصليبيين والوثنيين والملاحدة.

\* \* \*



# البَابُ الثَّلَاثُ

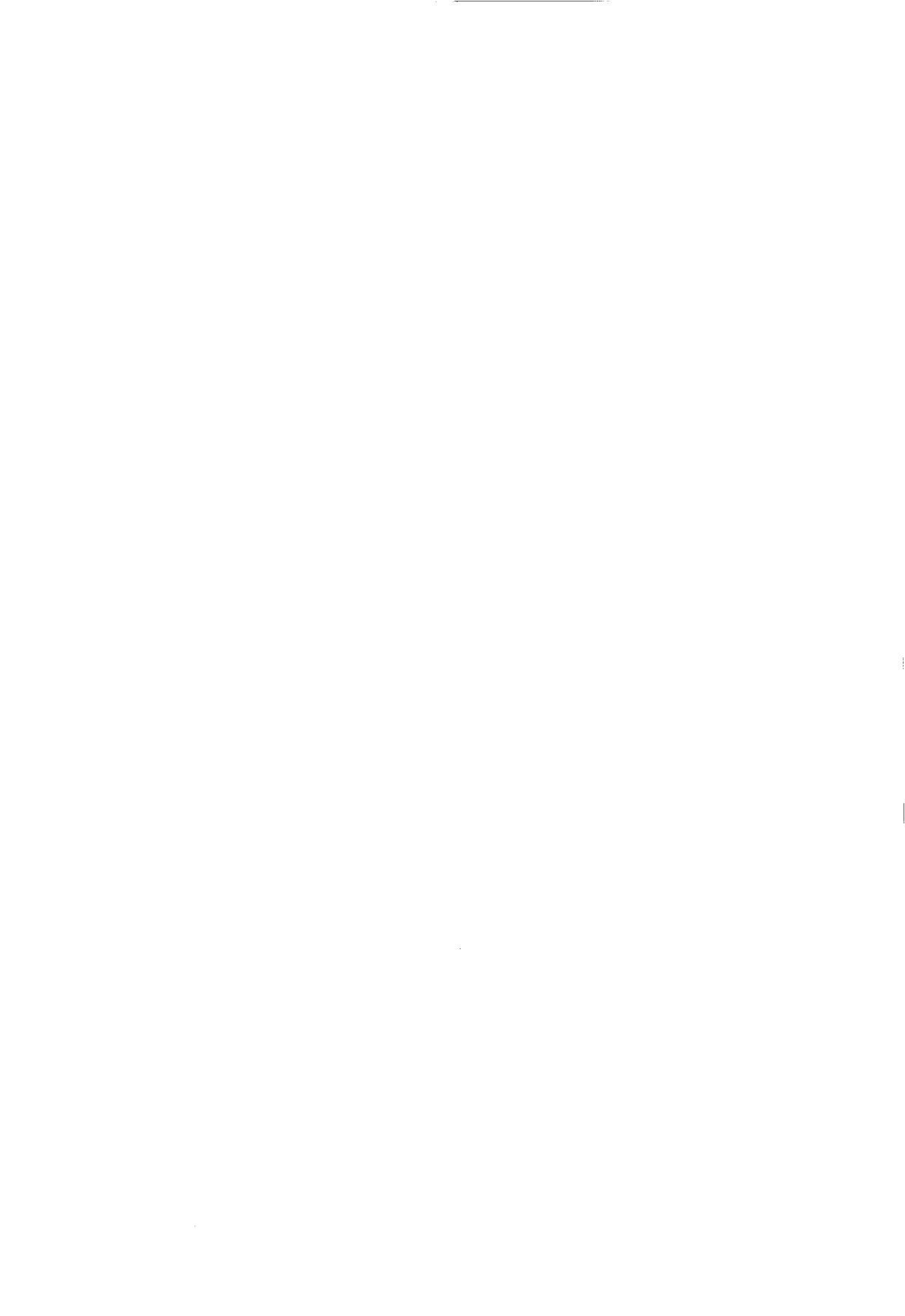
## قَوَاعِدُ وَوَصَايَا كَلِيَّةٍ عَامَّةٍ

### وبيان لطائف من آفات حملة الرسالة

وفيه مقدمة وفصلان:

الفصل الأول: قواعد ووصايا كلية عامة.

الفصل الثاني: آفات حملة الرسالة.



## مقدمة

فتح الله عزّ وجلّ في هذا الباب باستخراج قواعد كلية، ووصايا عامة، تنفع حامل الرسالة المتخصّص وغير المتخصّص.

ولكنّ بعض هذه القواعد والوصايا ليست بمثابة الأختام التي تُطَبَّعُ عند كلّ حالة، وفي كلّ الظروف، إنما هي بمثابة العلاجات والمستحضرات الصيدلانية، التي يَنْتَقِي منها الطبيب الحكيم ما يلائم الشخص الذي يُعالِجُه، والحالة المرضية التي يُعاني منها.

فَرُبَّ علاجٍ يَصْلُحُ لبعض الناس، وهو نفسه لا يصلح لبعض آخر من الناس، لاختلاف البيئة، واختلاف العادات والمآكل والمشارب، ورُبَّ علاجٍ يصلح لحالة مريض من المرضى، في حين يكون هذا العلاج نفسه ضاراً جداً بالنسبة إلى مريض آخر.

وكما يجب على الطبيب أن يلاحظ المقادير والأوقات لاستعمال العلاج الملائم، ملاحظاً أنّه إذا زاد في المقادير، أو أساء في تحديد الأوقات، كان علاجه ضاراً، وربما كان قاتلاً، فعلى حامل الرسالة أن يكون حكيماً في الانتقاء من هذه القواعد والوصايا، وحكيماً في تحديد المقادير، وتحديد الأوقات، واختيار الأسلوب الذي يؤدي به رسالته أداءً ناجحاً موفقاً، يعطي النتائج الحسنة المرجوة من عمَلِه إن شاء الله.

إنّ حامل الرسالة لا يتعامل مع جامدات، ولا مع نباتات ولا مع بهائم

ذواتِ طبائعٍ متماثلةة، إنما يتعامل مع بشرٍ ذوي إراداتٍ حُرَّة، وطبائعٍ مختلفة، ونفوسٍ ذواتِ صفاتٍ مُعقَّدة متشابكة، تحتاج فِراسةً، وحُسنَ بَصيرةٍ، وتجرباتٍ تُكْتَسَبُ بها خبراتٌ واسعات.

فما يَصْلُحُ لبعضِ طبائعِ الناسِ لا يَصْلُحُ لآخرينِ مخالفينِ لأولئكِ في الطِّباعِ، وما يَصْلُحُ لصفاتِ بعضِ النَّاسِ لا يَصْلُحُ لصفاتِ آخرينِ مخالفينِ لهم في صفاتهم، فالحليم مثلاً يلائمه أسلوبُ علاجيّ، وحادُّ الطِّبعِ الغضوبُ يلائمه أسلوبٌ علاجيٌّ آخر.

وما يَصْلُحُ توجيهُهُ لمؤمنٍ لا يَصْلُحُ توجيهُه لشاكِّ في الدين، أو كافرٍ بالإسلام، أو مُلحدٍ لا يُؤمِنُ بالله ولا بالدِّينونة والجزاء.

وما يَنْفَعُ في إنسانٍ لَدَيْهِ حَوْفٌ مَامنِ الله ونِقَمَتِهِ، لا يَنْفَعُ في إنسانٍ عاصٍ مُسْرِفٍ على نفسه، مُسْتَعْرِقٍ في الغفلات، منغمسٍ في الشهوات.

ولليهوديّ الذي نَبَتَ في مَنَابِتِ المِكرِ والكِذِبِ والحِيلةِ والحرصِ على أن يكون اليَهُودُ سادةِ النَّاسِ أجمعين، أسلوبٌ دَعَوِيٌّ يلائمه.

وللتصّرانيّ أسلوبٌ آخرٌ يلائمه، ولمَن يستحلُّ الكذبَ أو يُوجِبُه تَقِيَّةً أُسْلُوبٌ يَتَّفِقُ مَعَ ما يَعتَقِدُه، وللوثنيّ أسلوبٌ يلائمه، ولمَن يَرى تَقديسَ العقلِ والوسائلِ والأدلةِ العلميّةِ الماديّةِ أسلوبٌ يلائمه، وهكذا إلى سائرِ أصنافِ الناسِ وسائرِ طبائعهم، وعلى الحكيم أن ينتقي ويختار ويستفيد من التجربات.

إلّا أن بعض هذه القواعد يجب الالتزام بها دوماً لأنها بمثابة التنفّس لحامل رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة التّصحّح والإرشاد والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقد يجد مُطالِعُ هذا الكتاب تفصيلاً موسعاً، وشرحاً مستفيضاً لكثير

من هذه القواعد والوصايا، في أبوابِ وفصولِ هذا الكتاب، إلا أنني رأيتُ الحاجةَ داعيةً إلى جَمْعِهَا موجزةً في هذا الباب على شكل قواعد، تيسيراً لاستيعابها وحفظها واستذكارها.

ورأيتُ أن أجعلَ هذا الباب سابقاً لمعظم الأبواب التي تشتمل على التفصيلات الموسَّعة والشُّروح المستفيضة، ليكون بمثابة المَتْنِ المختصر الذي يستتبعُ الشَّرْحَ الموسَّعَ بالأدلة والشواهد من القرآن والسنة، على أن بعض هذه القواعد قد سبق في الباب الثاني شرح له وتفصيل .  
وبالله التوفيق والسداد.

\* \* \*





## الفصل الأول

### قواعد كليتة بوصايا لحامل الرسالة

وفيه إحدى وخمسون قاعدة:

القاعدة الأولى: على حامل الرسالة أن يكون مؤهلاً تأهيلاً علمياً وتأهيلاً بيانياً، للمستوى الذي يُريد أن يضطلع بمهامه لدى أدائه رسالته، وأن يكون متمكناً تمكناً كافياً من الموضوع الذي يُريد أن يُعرّف به، وَيُشْرَحَهُ لِلْمُتَلَقِّينَ، وقادراً على عرض أفكاره حوله، وردّ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَرِدَ على عناصر مَوْضُوعِهِ الَّذِي يُرِيدُ بَيَانَهُ وشرحه .

القاعدة الثانية: على حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله في أدائه رسالته، متجرداً من المصالح الشخصية الدنيوية لدى من يُوجِّهُ لهم رسالته، ليكون أداؤه لها بينهم مَرْجُوءَ التأثير .

القاعدة الثالثة: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون قويّ الإرادة، واثقاً من نفسه، ثابتاً رَابِطَ الرَّابِطِ الْجَاشِ، جواداً بوقته وماله ونفسه، وهذه الصفات قد يكتسبها من التمكن العلمي، والتمكّن البياني، والإخلاص لله عز وجل في أدائه رسالته، ومن الممارسة الطويلة، مع التوكّل على الله والاعتماد عليه والثقة به .

القاعدة الرابعة: ينبغي لحامل الرسالة إذا أراد أن يُؤدِّي بعض وظائف

رسالته البيانية، أَنْ يُحْسِنَ اخْتِيَارَ الموضوع الذي يريد بيانه لجمهوره مراعيًا في اختياره واقع حالهم، وأن يُحْسِنَ تناوله من أسسه وجذوره الفكريَّة إلى سُوقِهِ ففروعه، وأن يكون حكيماً في بيان ترابط الأفكار ترابطاً منطقيّاً، وأنْ يَكْشِفَ ما استطاع شرايين وأوردة وأعصاب الترابط، وأن يُحْسِنَ اختيارَ الزمان والمكان الملائمين لاستماع الجمهور وتقبُّلهم.

**القاعدة الخامسة:** يَحْسُنُ بحامل الرسالة المعلمُ أَنْ يَسْتَشِيرَ في نفوس المتلقِّينَ عنه ما يجعلُهُمْ يسألونَ عما يُريدُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ به، أو يَهْدِيَهُمْ إِلَيْهِ، حتَّى يكونَ ما يُلْقِيهِ إليهم جواباً على مطلوبِ لهم، أو تَسْأُؤَلَاتٍ يَطْرَحُونَهَا أو يَرْغَبُونَ في طرحها.

وينبغي لَهُ أَنْ يَتْرَكَ لَهُمْ فُرْصَةً لَطْرَحِ بعض التساؤلات حول الموضوع الذي يُريدُ إعلامَهُمْ به، وشرحه لهم، ليكونَ البيان جواباً لسؤالٍ مطروح، أو حلاً لإشكالٍ قائم.

**القاعدة السادسة:** على حامل الرسالة أَنْ يَبْدَأَ مع من يَدْعُوهُ من نُقْطَةِ الخلاف الرئيسيَّة، بالاستناد إلى المسلّماتِ بينه وبين مَنْ يدعوه.

**القاعدة السابعة:** على حَامِلِ الرسالة أَنْ يَتَّقَيِدَ بالاستدلال بالحق، وأن يَجْتَنِبَ الاستدلال بالأباطيل والأكاذيب والموضوعات المفتريات، فالحق لا يُنْصَرُ إِلَّا بالحق.

**القاعدة الثامنة:** لا يُحْتَجُّ على المخالفِ بِحُجَّةٍ لا يُؤْمِنُ بها، فالَّذي يجحد النُّصُوصَ الدِّينيَّةَ لا يُسْتَدَلُّ لإقناعه بها.

**القاعدة التاسعة:** مَنْ رَأَيْتَهُ يُعَالِطُ في دَلِيلِكَ فانتقله إلى دليلٍ لا يستطيع أَنْ يُعَالِطَ فِيهِ.

**القاعدة العاشرة:** على حامل الرسالة أَنْ يَكُونَ في مقدِّمة المؤمنين بما

يَدْعُو إِلَيْهِ، والمُلْتَمِزِينَ بِأَحْكَامِهِ، حَتَّى يَكُونَ قُدْوَةً حَسَنَةً، وَمَوْثِرًا بِحَالِهِ أَكْثَرَ مِنْ تَأْثِيرِهِ بِمَقَالِهِ، وَأَنْ يَبْدَأَ بِدَعْوَةٍ وَإِصْلَاحِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ.

القاعدة الحادية عشرة: على حامل الرسالة الثبات على الحق، والاستقامة على صراط الله، مهما واجه من عقبات وصعوبات ومغريات.

القاعدة الثانية عشرة: على حامل الرسالة أن يدأب في القيام بأداء وظائف رسالته بصبر وحلم وتحمل للأذى، وكلما يئس من فرد أو جماعة انتقل إلى آخرين غير ميئوس منهم.

القاعدة الثالثة عشرة: على حامل الرسالة أن لا يُمَيِّزَ طبقة اجتماعية من الناس على طبقة لدى قيامه بأداء وظائف رسالته، فالطبقات الاجتماعية أمام الدين وتعاليمه سواء.

القاعدة الرابعة عشرة: على حامل الرسالة أن يتلطف ويرفق بمن يوجه له بعض مضامين رسالته، وأن يكون حسن المجاملة والمعاملة بمكارم الأخلاق، وأن يتحلى بالإغضاء عن السيئة التي توجه ضده، وبالعفو والصفح، وأن يكون هاشا باشا لا عبوساً قمطيرياً<sup>(١)</sup>، وأن يكون همُّه الإصلاح والنصيحة، لا التشهير بالناس والفضيحة.

القاعدة الخامسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون دواماً هيناً ليناً حسن العلاقات الاجتماعية بجميع أفراد مجتمعه، لتأليف القلوب، وعقد المودات، واكتساب حُبِّ النَّاسِ وتقديرهم له.

القاعدة السادسة عشرة: من وسائل تأليف القلوب وإزالة عقبات النفوس، الإحسان إلى الناس وصنع المعروف، فعلى حامل الرسالة أن يستخدم ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

(١) القمطير: المجتمع المتقبض، وهو عكس المنبسط المنفرج الأسارير.

القاعدة السابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يُبَيِّرَ شُكُوكًا  
وَجَدَلِيَّاتٍ افتراضيةً بُغْيَةَ الإجابة عليها.

فإذا طُرِحَتْ مِنْ قِبَلِ المدعُوِّينَ أو المتلقِّينَ لبيانات مسائل الدِّينِ أَجَابَ  
عليها بمقاديرها، ولا يَزِيدُ مِنْ عنده شيئاً، ثُمَّ إِذَا طُرِحَ غَيْرُهَا مِنْ قِبَلِهِمْ أَجَابَ  
عليه، وهكذا، تَأْسِياً بالمنهج القرآني.

القاعدة الثامنة عشرة: على حامل الرسالة أن يكون مقتنعاً اقتناعاً تاماً،  
ومنفعلاً انفعالاً حقيقياً بما يُريدُ توصيلَهُ إلى غَيْرِهِ من عناصر رسالته.

القاعدة التاسعة عشرة: على حامل الرسالة أن لا يُبَدِّرَ بِجُهُودِهِ وَبَوَقْتِهِ  
الشمينِ فِي الَّذِينَ دَلَّتِ التجربات على أَنَّ قابليَّتَهُم للاستجابة غير مطموحٍ فيها.

القاعدة العشرون: إِذَا دَعَتْ حَالُ مُتَلَقِّي الرِّسَالَةِ لإقناعه مُجَادَلَتَهُ حول  
قضيةٍ من قضايا الدِّينِ، فعَلَى حامل الرسالة أن يُجَادِلَهُ بالتِي هي أَحْسَنُ.

القاعدة الحادية والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون يقظاً دائم  
التنبُّه للأحداث الطارئة، وأن يكون حَسَنَ المُعَالَجَةِ لكلِّ حَدَثٍ طَارِءٍ بما  
يلائمه، مع رجاحة عقل وروية وحكمة، وبدون ثَوْرَةٍ انفعالية ولا طَيْشٍ،  
وبدون اندفاع مع رُدُودِ الأفعالِ التلقائية غير الواعية.

ويُنْبَغِي له أيضاً أَنْ يتكَيَّفَ مع المتغيِّراتِ الطارئاتِ بوسائلِ المعالجة  
وأساليبها، دون أن يتنازل عن مبادئه وعن أيِّ شيءٍ ممَّا يؤمن به.

القاعدة الثانية والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يواجه الناس دوماً  
بزيٍّ حسن، ومُظَهَّرٍ جميل، ونظافة تامّة، وأناقة جذابة عاديةٍ ثلاثم وضعه،  
حتى يكون لمظهره من الحُسْنِ ما تميل إليه النفوس والحواس، ولا يكون في  
جَسَدِهِ أو بَرْتِهِ ما يُنْفَرُهَا، أو يجعلها تتقرَّرُ كراهية.

القاعدة الثالثة والعشرون: على حامل الرسالة أن يتَّبِعَ سياسة التدرُّج

والتنمية المتصاعدة علماً وعملاً، فيبني الأفكار بناءً تكاملياً صاعداً ويبدأ في التطبيقات العملية بالأهم فالمهم فما دون ذلك بحسب نظام الأولويات .

القاعدة الرابعة والعشرون: من الحكمة التربوية في بيانات حامل الرسالة أن ينبّه المُتلقِّين على ارتباط كُلِّ فرعٍ يشرحه أو يُذكر به بالجذر الاعتقادي الذي يرتبطُ به .

القاعدة الخامسة والعشرون: على حامل الرسالة أن يهتمَّ في بياناته بمحاصرة من يوجه له رسالته من كلِّ أركانه الداخلية: الفكرية والوجدانية والنفسية .

القاعدة السادسة والعشرون: من الحكمة أن يتصيّد حامل الرسالة الحريص على تأديتها في أحسن الظروف، المناسبات الملائمات للبيئ والتوجيه، وأن يَحْتال لإيجاد المناخ المناسب الذي تفتح فيه نفوس المتلقين لتقبُّل ما يُوجَّه لها .

القاعدة السابعة والعشرون: على حامل الرسالة أن لا يتَّخذ من الوسائل والأسباب إلا ما أذن به الإسلام .

القاعدة الثامنة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة المُهمَّتُ بتربية الأجيال المؤمنة المسلمة أن يَستَخدم أسلوبَ بذرِ البزور في الأرض بسَترها، وتعهُّدها دواماً بعدَ نباتها حتَّى تصيرَ أشجاراً قويّة سامقةً تُؤتي أكلها كُلَّ حينٍ بإذن ربِّها .

القاعدة التاسعة والعشرون: على حامل الرسالة أن يضع في حسابه دواماً أن الوضع الذي يتهيأ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتحُ الحقيقيُّ الأعظم عند الله، وهو الأحقُّ بالاختيار من البدائل .

القاعدة الثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُجزِّىء توجيهه لجمهوره،

ويُبيّئ بين مجالس موعظته، لثلا يَقَع المَخاطِبُون والمتلقُونَ بالسَّام فيَنفِرُوا.  
القاعدة الحادية والثلاثون: على حامل الرسالة الثبات والتحلي  
بالشجاعة الأدبية الحكيمة في قول الحقِّ وتُصْرَتَه بكلِّ الأحوال.

القاعدة الثانية والثلاثون: ليس على حامل الرسالة إلاَّ البلاغُ المبين،  
ولا يُسألُ عن عَدَد من استجابَ له واتَّبعه، ولا يسأل عن التغيير بيده للمنكر  
ما لم تكن لديه سلطة هذا التغيير داخل المسلمين.

القاعدة الثالثة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يقدم مضامين رسالته  
بأساليب بيانيةً أدبيةً جميلة مشرقة، تستثير الرغبة في الاستماع والمعرفة.

القاعدة الرابعة والثلاثون: على حامل الرسالة وسائر المسلمين أن  
يعاملوا غير المسلمين بكلِّ فضائل الإسلام وتعاليمه وأخلاقه وشرائعه،  
ليكونوا دعاة إلى الإسلام بأحوالهم مع أقوالهم.

القاعدة الخامسة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يغرّس في المسلمين  
مشاعر الانتماء والولاء لله ولرسوله، ولكل ما ينتمي إليهما ومن ينتمي  
إليهما.

القاعدة السادسة والثلاثون: على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يبتعدَ  
عن مسائل الخلاف التي اختلفَ فيها علماء المسلمين، لدى دعوته لغير  
المسلمين، وليُحذِر من التعصّب لمذهب أو رأي يراه هو الصواب ما لم يكن  
هو الأقرب لإقناع المدعوِّ والأبعدَ عن إثارة الشبهات في نفسه.

القاعدة السابعة والثلاثون: على الداعي إلى دين الله أن يُعلن لدى  
حواره لمن يدعوهُ تَجَرُّدَهُ عن التعصّب لسوابق الأفكار التي يؤمن بها، وأنّه  
حريص أن يبحث الموضوع الذي يدعو إليه، على مائدة بحث مشتركة سواء.

القاعدة الثامنة والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يسبَّ ما يؤمن به

الكافرون من طواغيت لثلا يَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُنَزَّهُ لِسَانَهُ عَنِ  
كُلِّ مَا فِيهِ إِذْيَاءٌ لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ هِدَايَتَهُمْ، وَعَنْ كُلِّ مَا فِيهِ اسْتِثَارَةٌ لِمَشَاعِرِ  
الغضب في نفوسهم .

القاعدة التاسعة والثلاثون: من الحكمة التربوية للاستفادة من التَّدْرِيبَاتِ  
العملية على السلوك الإسلامي، وَغَرَسِهِ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ، جَعَلَهَا مُقْتَرَنَةً بِمَا  
تُحِبُّهُ النَّفْسُ مِنْ مَشَاعِرِ وَجْدَانِيَّةٍ سَعِيدَةٍ، وَمَشَاعِرِ أُخْرَى تَذُوقُ بِهَا لَذَاتِ  
مُبَاحَاتٍ مِمَّا تَرَعَّبُ فِيهِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

القاعدة الأربعمون: حامل الرسالة الإسلامية الداعي إلى الله، هو بمثابة  
الطبيب الرحيم الناصح، لا يَنْظُرُ إِلَى الْمُخَالَفِ عَلَى أَنَّهُ عَدُوٌّ يَنْبَغِي أَنْ يَتَخَلَّصَ  
مِنَهُ، إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ مَرِيضٌ يُرِيدُ أَنْ يُنْقَذَهُ مِنْ مَرَضِهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ  
غَنِيمَةً يَغْنَمُهَا لِلْإِسْلَامِ.

القاعدة الحادية والأربعون: على حامل الرسالة أَنْ لَا يَحْمِلَ مِنْ يَقْتَدُونَ  
بِهِ عَلَى الْأَخْذِ بِأَشَدِّ الْأَعْمَالِ وَأَشَقَّهَا عَلَى نَفْسِهِمْ، أَوْ بِأَشَدِّ الْاجْتِهَادَاتِ  
الْفَقْهِيَّةِ، مَا دَامَ فِي الدِّينِ فَسْحَةٌ وَسَعَةٌ.

القاعدة الثانية والأربعون: حامل الرسالة الذي يُرَبِّي تَلَامِيذَهُ  
والمستجيبين له، إِذَا وَجَّهَ اهْتِمَامَهُ الْبَالِغَ لِلصِّغَاثِرِ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ، وَحَمَلَهُمْ  
حَمَلًا شَدِيدًا عَلَى الْإِتْرَامِ بِهَا، جَعَلَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِسَقُطُونِ فِي ارْتِكَابِ  
كِبَائِرِ الْإِثْمِ، نَظْرًا إِلَى أَنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ، فَلَأَنْ تَكُونَ خَطِيئَتُهُ فِي الصِّغَاثِرِ  
خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ خَطِيئَتُهُ فِي الْكِبَائِرِ.

القاعدة الثالثة والأربعون: على حامل الرسالة أَنْ يُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى  
مُقَادِيرِ أَفْهَامِهِمْ، وَبِمَا يُذَكِّرُونَ مِنْ مَسْتَوِيَّاتِ فِكْرِيَّةٍ، وَبِمَا يَعْجَبُهُمْ مِنْ أَسَالِيبِ  
بَيَانِيَّةٍ، وَبِالْأَسَالِيبِ الْمَشْوَقَةِ الْجَدَّابَةِ.



القاعدة الرابعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يتَّخَذَ وسائل لتوصيل  
دعوته وبياناته للنساء، ولو بأنَّ يَعْقِدَ مجالس يَخْصُصُهُنَّ بها، على أن تكونَ  
مَحْفُوفَةٌ بما يجعل اللقاءَ بِهِنَّ مَصُونًا لا تكون فيه خلوات.

القاعدة الخامسة والأربعون: على حامل الرسالة أن يكون حَسَنَ  
الإصغاء والاستماع والإنصاتِ لمن يُوجِّهُ لَهُ رسالته، إذا أراد أن يتكَلَّمَ،  
ليَعْرِفَ مَا لَدَيْهِ من شُبُهَاتٍ، أو مُشْكَلَاتٍ، أو عَرُوضٍ مَزَالِقٍ، أو غيرها،  
فيعالجها بما يلائمها علاجاً حكيماً.

القاعدة السادسة والأربعون: على حامل الرسالة أن لا يتجسَّسَ على  
المسلمين مُتَّبِعاً عوراتهم في بيوتهم ومنازلهم، وأن لا يُوجِهَ بمقالة التلويح  
إلا مَنْ كان مجاهراً بمعاصيه، أمَّا المُتَسَتِّرُ بمعاصيه فيَحْسِبُهُ أن يقول في شأنه  
قولاً عاماً: ما بالُ أقوام يفعلونَ كَذَا وكذا، دون أن يُعَيِّنَ المقصود، لا بالاسم  
ولاً بالوصفِ المميز، أو أن يَنْصَحَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِرًّا، وإلا كان فاضحاً له لا  
ناصحاً، وقاصداً للتشهير به لا إصلاحه.

القاعدة السابعة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُنَزِّلَ النَّاسَ  
منازلهم، تأليفاً لقلوبهم، ومنه إعطاءُ ذي المكانة والوجاهة في قومه ما  
تحتاجه نفسه من تمجيدٍ وتقدير.

القاعدة الثامنة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون خبيراً  
بمُجْتَمَعِهِ الذي يَعِيشُ فيه، مُتَّبِعاً الاطلاع على أحواله، حتَّى يُحَسِّنَ توجيهه،  
ويُحَسِّنَ معالجة كُلِّ حَدَثٍ بما يلائمه.

القاعدة التاسعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يكون شديد الحذر  
من الانحياز إلى فئة دون أخرى، لأنه يجب أن يكون للجميع مُعَلِّماً وناصحاً  
ومُرْشِداً وأمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وناصرراً للحقَّ حيثُ كان،  
وحاكماً على الباطل بأنه باطلٌ حيثُ كان.

القاعدة الخمسون: يَحْسُنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَكُونَ جَوَاداً سَخِيّاً،  
فَالجُودُ وَالسَّخَاءُ مِنْ أَعْظَمِ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَلَّفُ الْقُلُوبَ وَتَمْتَلِكُ الْمَشَاعِرَ  
النَّبِيلَةَ، وَتَعْقِدُ الْمَوَدَّاتِ .

القاعدة الحادية والخمسون: عَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، أَنْ  
يُقَدِّمَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ الْبِشَارَةَ عَلَى الْإِنْذَارِ، وَأَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَوْتَارِ الطَّمَعِ  
بِثَوَابِ اللَّهِ الْجَزِيلِ، قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلَى أَوْتَارِ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي نَفُوسِ  
مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سُلُوكِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، حَتَّى إِذَا يَسَّ مِنْ اسْتِجَابَةِ  
مَنْ يَدْعُوهُ، وَظَهَرَ لَهُ عِنَادُهُ وَكُفْرُهُ وَجَهَّ ثِقَلَ بَيَانِهِ لِلْإِنْذَارَاتِ وَالتَّحْذِيرَاتِ مِنْ  
عَذَابِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ عَلَى مِقْدَارِ مَا يَرَى مِنْ عِنَادِهِ وَإِصْرَارِهِ  
عَلَى الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ .

ومهما وَجَدَ لَدَيْ مَنْ يَدْعُوهُ، وَلَوْ قَلِيلاً مِنْ لَيْنٍ نَحْوَ قَبُولِ الْحَقِّ، فَتَحَّ  
لَهُ أَبْوَابَ الطَّمَعِ بِغَفْرَانِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ، وَقَدَّمَ لَهُ الْبُشْرِيَّاتِ الْمُرْتَبِطَاتِ بِإِيمَانِهِ  
وَاتَّبَاعِهِ الْحَقِّ .

وفيما يلي شرح موجز لهذه القواعد إن شاء الله .

\* \* \*



## شرح القواعد

### القاعدة الأولى:

«على حامل الرسالة أن يكون مؤهلاً تأهيلاً علمياً وتأهيلاً بيانياً للمستوى الذي يُريد أن يضطلع بمهامه لدى أدائه رسالته، وأن يكون متمكناً تمكناً كافياً من الموضوع الذي يُريد أن يُعرّف به وَيَشْرَحَهُ للمتلقين، وقادراً على عَرْض أفكاره حَوْلَهُ، وَرَدَّ الشبهات التي يمكن أن تَرِدَ عَلَى عَنَاصِرِ موضوعه الذي يُريدُ بيانهُ وشرحه».

### الشرح:

إنَّ التَّاهُلَ العِلْمِيَّ وَالتَّاهُلَ البَيَانِيَّ من الشُّرُوطِ الأَسَاسِيَّةِ البَدْهِيَّةِ، الَّتِي يَجِبُ عَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا، قَبْلَ أَنْ يَتَصَدَّرَ لِلْقِيَامِ بِمِهْمَاتِ أَدَائِهِ وَظَائِفَ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ رِسَالَةِ التُّصْحِحِ وَالإِرشَادِ العَامِ، أَوْ رِسَالَةِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ للجَمَاهِيرِ.

فالجَاهِلُ لا يَصْلِحُ بَدَاهَةً لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ، وَغَيْرِ القَادِرِ عَلَى البَيَانِ لِتَوْصِيلِ المَفْهُومَاتِ الَّتِي يُرِيدُ التَّعْرِيفَ بِهَا لا يَصْلِحُ بَدَاهَةً لِحَمْلِ رِسَالَةٍ للجَمَاهِيرِ.

فإذا تَصَدَّرَ الجَاهِلُ، أَوْ غَيْرُ القَادِرِ عَلَى البَيَانِ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ قِيَادِيَّةً، وَأَخَذَ يَهْرِفُ بِمَا لا يَعْرِفُ، أَضَرَّ وَأَسَاءَ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَنَفَرَ مِنْهُ النَّاسَ،

وَجَلَبَ إِلَى نَفْسِهِ الْمَعْرِءَ بِالْجَهْلِ أَوْ بِالْعِزِّ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### القاعدة الثانية:

«على حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله في أدائه رسالته، متجرداً من المصالح الشخصية الدنيوية لدى من يُوجّه لهم رسالته، ليكون أداؤه لها بينهم مرجوً التأثير».

### الشرح:

إنّ اتهام الناس لحامل الرسالة بالمصلحة الشخصية الدنيوية من أدائه رسالته بينهم، يُؤلّد في نفوسهم عَقَبَةً من رُدود أفعالها رفضُ الاستجابة لدعوته، والإعراضُ عن قبول نصائحه وإرشاداته، قبل أن يتفكّروا فيما يدعوهم إليه، ولا سيما إذا رأوا لديه دلائل أو أمارات تُؤكّد صحّة ما يتهمونه به.

لكنّهم إذا اقتنعوا بأنّه مُخلصٌ في تأدية رسالته، يبتغي رضوان الله وثوابه، ولا يبتغي لديهم مصلحة شخصية دنيوية، من مالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو شهواتٍ أو نحو ذلك، فإنّهم ينظرون إليه بإكبار وتقدير، وتفتح آذانهم غالباً لاستماع ما يقول، وتفتح عقولهم لوعى ما يُوجّهه لهم من دعوة إلى الحقّ، أو نصّح وإرشاد، أو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

فعلى حامل الرسالة أن يكون مخلصاً لله عزّ وجلّ في أدائه وظائف رسالته، وأن يُعلِن تجرّده من كلّ مصلحة شخصية دنيوية عند الناس، قائلاً

(١) انظر مزيد شرح لمضمون هذه القاعدة في الفصلين الخامس والسادس من الباب الثاني «الصفات التي يجب أن يتحلّى بها حملة الرسالة».

كما قال كل رسول من رسل الله لأمة: لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على رب العالمين<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### القاعدة الثالثة:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون قوي الإرادة، واثقاً من نفسه، ثابتاً، رابط الجأش، جواداً بوقته وماله ونفسه، وهذه الصفات تأتيه من التمكن العلمي، والتمكن البياني، ومن الإخلاص لله عز وجل في أداء الرسالة، ومن الممارسة الطويلة الأمد، في تجربات متكررات، مع التوكل على الله، والاعتماد عليه، والثقة بمعونته، فإذا أضيفت إليها شجاعة فطرية فيه ارتقت ارتقاءً مذهماً».

### الشرح:

إن مواجهة الجماهير بما يُخالفُ معتقداتهم ومفهوماتهم في الحياة، وأنواع سلوكهم، بغية إقناعهم للتحوّل عن اتجاهاتهم التي هم فيها، والسلوك في صراط الله المستقيم عقيدة وعملاً، هو بمثابة إعلان حرب فكرية على معتقداتهم ومفهوماتهم في الحياة، وحرب أخرى ضد أنواع سلوكهم.

ومعلوم أن مفهومات الإنسان وعقائده وأنواع سلوكه جزء من ذاتيته، التي يمتلكها وحده، فهو لا يتنازل عنها ما لم يقتنع بالبدائل الأفضل له، ليبتدئها ويأخذ الأفضل ويستمسك به.

والناس من طبيعتهم أنهم حينما يجدون من يعلن خلاف معتقداتهم

---

(١) انظر مزيد شرح لمضمون هذه القاعدة في فصل «العقبات الصادة للتوجيه» العقبة الأولى: عقبة الاتهام بالمصلحة الشخصية، والفصل الثاني من الباب الثاني «وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة التجرد من المصالح الشخصية لدى من يؤدي بينهم رسالته».

ومفهوماتهم في الحياة وأنواع سلوكهم، يَقْفُونَ منه موقف الحَذَرِ، فالمدافع فالمُحَارِبِ، ما لم يجدوا حامل الرسالة يتحلَّى بقوة الإرادة، والوثوق من نفسه بما يدعو إليه وينصَحُ به، مَعَ الثباتِ ورباطة الجأشِ، ومع الحكمة في الاستدلال، والحكمة في أسلوب العرض والبيان، فإنهم عندئذٍ يشعرون داخلياً بأنه قد يكونُ لهم ناصحاً، وعلى خيرهم وسعادتهم حريصاً، وقد يظهر فيهم من يُتَابِعُه، لأنه كان بينه وبين نفسه مُسْتَنَكِرًا ما عليه قومه، إلا أنه لم يكن يَمْلِكُ الجِراءَ ولا وُضُوحَ الرُّؤية، حتى يكون حاملاً لمثل هذه الرسالة بينهم.

ثم متى وُجِدَ العَدَدُ القليل من المستجيبين لحامل الرسالة، وتكونت حَوْلَهُ حَلَقَةٌ من المتابعين المناصرين، تلاحق من ورائهم مَنْ لَهُمْ شِبَهُ ما .  
ثم تَتَسَّعُ الحلقة، ويتكاثر الأتباع، حتَّى تتكوّن لحامل الرسالة جماعة ذات قُوَّةٍ يناصرونه ويؤازرونه، وينشرون ما تلقَّوه عنه في الناس .

ويستمرّ الاتساع بحسب سُنَّةِ الله في الاجتماع البشري، ويظَهَرُ حزب الله قَوِيًّا، وتنتشر فروعه بحسب استعداد أفراد الناس للاستجابة، وتغيّر ما هم فيه من شرٍّ وفساد، إلى ما ينصحهم به حَامِلُ الرِّسَالَةِ من خيرٍ وصلاح .

\* \* \*

#### القاعدة الرابعة :

«ينبغي لحامل الرسالة إذا أُرِدَ أن يُؤدِّيَ بعض وظائف رسالته البيانية أن يُحسِنَ اختيار الموضوع الذي يريد بيانه لجمهوره، وأن يُحسِنَ تناوله من أسسه وجذوره الفكرية، إلى سوقه، وفروعه، في درس هادئ، وأن يكون حكيماً في بيان ترابط الأفكار ترابطاً منطقيّاً، وفي كشف تسلسلها، سواءً بدأ من جَذْرِ شَجَرَتِهَا، أم من ساقها، أم من بعض فروعها، وعليه أن يكشف ما استطاع شرايين الترابط وأوردته، وأصولَ جملته العصبية وفُرُوعِهَا، وعليه أن

يُحَسِّن اختيار الزمان والمكان الملائمين لاستماع الجمهور وتقبُّلهم ما يُلقى إليهم».

الشرح:

إنَّ كلَّ موضوع من الموضوعات الفكرية الصحيحة التي لا خلط فيها ولا تلفيق يخضع للنظام الشجريّ في الوجود.

فالشجرة لها جذور وشرابين وأوردة وساقٌ أو أكثر، وفروعٌ ثم فروع فروع وأوراق وثمرات، وكلّ جزء منها له ارتباط، إمّا بالذي فوقه أو بالذي تحته أو بالذي فوقه وبالذي تحته معاً.

والإنسان في تكوينه الجسدي كشجرة بأعضائه وأوردته وأعصابه وخلاياه وأعماله ووظائف كلّ جزء منه، وكذلك كل حيوان في الوجود.

والوجود كلّهُ يخضع لهذا النظام الشجريّ، حتّى الموازين الفطرية الفكرية تخضع أيضاً للنظام الشجريّ.

فإذا أراد حامل الرسالة الربانية أن يبحث موضوعاً ما، أو يشرح لطلابه موضوعاً ما فعليه أولاً أن يتفكر فيه حتّى يكتشف شجرته الفكرية.

ثم من الأفضل والأكثر نفعاً أن يُقدِّمه للَّذين يتلقَّونه عنه في دَرَس هادىءٍ، موضَّحاً لهم ترابط عناصره ضمن شجرته الفكرية التي اكتشفها، إذا كانت حالتهم الفكرية تتحمَّل ذلك.

وبهذا تتمكَّن المعارف الإسلامية في قلوب المتلقِّين مقرونةً بالافتتاح التام، إذ جاء العلمُ بها مُنسجماً مع النظام الفكريّ الذي فطر الله عزّ وجلّ عقولَ الناس عليه.

وينبغي أيضاً لحامل الرسالة إذا أراد شرح بعض الموضوعات الفكرية الإسلامية لجمهوره، أن يُحَسِّن اختيارَ الزَّمان والمكان الملائمين



لاجتماعهم، وللحالة النفسية التي يكونون معها مستعدين لتقبل ما يعرضه عليهم ويعرفهم به، وللحالة الاجتماعية التي تحيط بهم، وتكون مؤثرة فيهم.

\* \* \*

القاعدة الخامسة:

«يَحْسُنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَسْتَشِيرَ فِي نَفُوسِ الْمُتَلَقِّينَ عَنْهُ مَا يَجْعَلُهُمْ يَسْأَلُونَ عَمَّا يُرِيدُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ بِهِ، أَوْ يَهْدِيَهُمْ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكُونَ مَا يَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ جَوَاباً عَلَى مَطْلُوبٍ لَهُمْ، أَوْ تَسْأُولَاتٍ يَطْرَحُونَهَا، أَوْ يَرِغْبُونَ فِي طَرَحِهَا.

وَيُنَبِّغِي لَهُ أَنْ يَتْرَكَ لَهُمْ فُرْصَةً لَطْرَحَ بَعْضَ التَّسْأُولَاتِ حَوْلَ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُرِيدُ إِعْلَامَهُمْ بِهِ وَشَرْحَهُ لَهُمْ، لِيَكُونَ الْبَيَانُ جَوَاباً لِسْأُولٍ مَطْرُوحٍ، أَوْ حَلًّا لِإِشْكَالٍ قَائِمٍ».

الشرح:

إِنَّ أَرْسَخَ الْعِلْمِ وَأَثْبَتَهُ وَأَوْضَحَهُ مَا أَشْبَعَ فِي الْإِنْسَانِ الرَّغْبَةَ فِي التَّعْرِفِ عَلَيْهِ، وَالْحِرْصَ عَلَى إِذْرَاكِهِ إِدْرَاكاً صَحِيحاً وَاضِحاً، وَهُوَ نَظِيرُ الطَّعَامِ الَّذِي يَكُونُ عَنْ جُوعٍ، وَالشَّرَابِ الَّذِي يَكُونُ عَنْ ظَمَأٍ.

وقد كان من الحكمة الربانية في تنزيل القرآن، أن كثيراً من آياته قد نزلت جواباً لسؤال، أو بياناً لحكم استدعته حادثة وقعت، أو نازلة نزلت، أو ردّاً على اعتراض وجهه الكافرون، أو تعليقا على حادثة جرت كحوادث الغزوات للتوجيه واستخلاص العبر، وبيان الأحكام.

● فمما نزل جواباً على سؤال قول الله عز وجل في سورة (الأنفال/ ٨

مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

● ومما نزل بياناً لحكم استدعته حادثة وَقَعَتْ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي  
سورة (التحریم/ ٦٦/ مصحف/ ١٠٧/ نزول):

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرَضَاتٍ أَرْوَجُكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾﴾.

ومنه ما نزل في سورة (النور/ ٢٤/ مصحف/ ١٠٢/ نزول) بشأن حادثة  
الإفك:

● ومما نزل ردّاً على اعتراض قول الله عز وجل في سورة  
(الفرقان/ ٢٥/ مصحف/ ٤٢/ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا  
فِي الْأَسْوَاقِ... ﴿٢٠﴾﴾.

ردّاً على اعتراض المشتركين إذ قالوا كما جاء فيها أيضاً:

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ... ﴿٧﴾﴾.

● ومما نزل تعليقاً على حَدَثٍ جَرَى، النصوص الكثيرة التي نزلت  
بمناسبة الغزوات وما جرى فيها.

إن هذا ليدلنا على أن من عناصر المنهج التعليمي التربوي الأمثل تصيّد  
المناسبات، واستشارة الأسئلة، لتوجيه البيان الديني الملائم، فهو الأسلوب  
الأكثر تأثيراً وثبتيّاً، والأعظم نفعاً، وبه تكون رؤية عناصر الموضوع رؤية  
أكثر وضوحاً وجلاءً.

\* \* \*

القاعدة السادسة:

«يجب البدء من نقطة الخلاف الرئيسة بالاستناد إلى المسلمات بين  
الداعي والمدعو، وعلى حامل الرسالة أن يقدم العقائد والمبادئ الإسلامية  
الأولى مقرونة بحججها العقلية المنطقية، أو براهينها وأدلتها الحسية، انطلاقاً

من أرضية ومفهومات يُسَلَّمُ بها المدعو إلى دين الله».

الشرح:

ينبغي للداعي إلى الله أن يكون هو الآخذ بزمام المبادرة، فيبدأ مع من يدعوهُ إلى دين الله الحق من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وأن يبني حوارهُ معه على قاعدة من المُسَلَّماتِ الفكرية والعلمية التي يُسَلَّمُ بها كلا الطرفين: الداعي والمدعو، وأن يقدم له ما يدعوهُ إليه مقروناً بالأدلة والبراهين التي يُسَلَّمُ بها.

هكذا كانت سياسة الرُّسل عليهم السلام في دعواتهم لأقوامهم، وهكذا يُبْغِي أن يكون عمل الدُّعاة إلى الله دوماً.

وعلى الداعي إلى الله أن يكون شديد الحذر من أن يُسْتَدْرَجَ إلى جدلياتٍ فكرية تتعلق بالفروع قبل تأسيس الأصول التي تتفرع عنها.

إن البحث في الفروع دون النظر إلى ارتباطها بأصولها، يجرُّ إلى مناهاتٍ جدلية لا نهاية لها، ولا خلاصَ منها، وعن طريقها يجد الشخصُ المدعو منافذَ ومسارِبَ يروغُ فيها، ليتَهَرَّبَ من أن يُلْزَمَ بالحق، ويعترف به.

إن الفروع ولا سيما البعيدة منها عن الأصول تختلف وجهات أنظار الناس إليها، فيجادلون فيها جدلاً طويلاً، وكثيراً ما لا يصلُّ المتحاورون حَوْلَهَا إلى نتيجة مقنعة يُسَلَّمُ بها الطرفان المتنازعان المتحاوران، ولا تكادُ تتفق الأفكار على رأي ثابتٍ بشأنها ما دامت منقطعة الصلة بأصولها.

وقضايا الدِّين ترجع أصولها إلى الإيمان بالله ربّاً خالقاً لا ربَّ في الوجود غيره، وإلهاً معبوداً لا إله في الوجود يُعْبَدُ بحقِّ سواه، وأنَّ الله خلقَ الناسَ ليمتحنهم في ظروفِ هذه الحياة الدنيا، وليحاسبهم بعد البعث يوم الدين، وليفصل القضاء بينهم، وليجزئهم على ما قدَّموا وأخروا في الحياة الدنيا، والامتحان في الحياة الدنيا مادُّهُ أوامر الربِّ جلّ وعلا ونواهيهِ

وشرائعه التي يُبَلِّغُهَا لِلنَّاسِ رُسُلُهُ، وَالَّتِي تَنْزَلَتْ بِهَا كُتُبُهُ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَكَانَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ خَاتَمَ كُتُبِ اللَّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ حَفِظَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ إِذْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُ خَاتَمَةَ كُتُبِهِ، وَالْحَاوِي عَلَى الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وحين لا يضع الناس هذه الأصول لدى بحث أية قضية من قضايا فروع الدين، فمن الصعب جداً أن يتفوقوا على تحريم ما تشتهيهِ النفوس، وتميلُ إليه الأهواء، وأن يتفوقوا مثلاً على وجوب عبادة الله بالصَّلواتِ المفروضة، أو بصيام شهر رمضان، أو بالزكاة، أو بالحجِّ، أو بغير ذلك من سائر أحكام فروع الدين في كلِّ مجال من مجالات الحياة.

فحين يرى المؤمنون بالإسلام عُريَ النساءِ واختلاطهم بالرجال وشيوعَ الفاحشة عملاً منكرًا، ومُحرَمًا يستحقُّ العقابَ مِنْ بَارِيءِ الْعِبَادِ، نَجْدُ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْلَامِ أَوْ بَدِينِ رَبَانِيٍّ لَا يَحْرَمُ هَذِهِ الْأُمُورَ، يَرَوْنَ أَنَّهَا ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ حَضَارِيَّةٌ. وَتَعْبِيرٌ فِطْرِيٌّ يَنْبَغِي إِطْلَاقُهُ، وَيَرَوْنَ أَنَّ حَجَرَ حُرِّيَّةِ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَجَالِ كَبْتُ يُؤَلِّدُ أَمْرًا نَفْسِيَّةً سَيِّئَةً، وَمَهْمَا قَدَّمَ الدَّاعِي إِلَى الْحَشْمَةِ وَالْعَفَةِ وَتَحْرِيمِ الْفَاحِشَةِ مِنْ أَدَلَّةٍ، فَإِنَّ بَاسْطِعَاةِ الدَّاعِي إِلَى إِطْلَاقِ الْحُرِّيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ أَدَلَّةٌ كَثِيرَةٌ تُزَيِّنُ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَتُحَسِّنُهُ بِزُخْرَفِ الْقَوْلِ، وَتَجِدُ هَذِهِ الْأَدَلَّةَ الزُّخْرَفِيَّةَ اسْتِجَابَةً لَدَى كَثِيرٍ مِنَ النَّفُوسِ، لِأَنَّهَا تَدْعُدُ الشَّهَوَاتِ وَالْأَهْوَاءَ وَتَسْتَشِيرُهَا وَتَرْضِيهَا.

ومن الفروع التي يَسْتَجِرُّ الْمُضِلُّونَ إِلَى الْمَحَاوِرَةِ حَوْلَهَا مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ، وَيَجُولُونَ فِيهَا بِزُخْرَفِ الْقَوْلِ، وَيُؤَثِّرُونَ فِيهَا عَلَى الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالدِّينِ وَأَصُولِهِ، وَلَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْهَدَفِ مِنْ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حُكْمُ إِبَاحَةِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ فِي الْإِسْلَامِ، وَجَعْلُ الْإِسْلَامِ الْقَوَامَةَ وَالطَّلَاقَ بِيَدِ الرَّجُلِ،

وَتُسَكُّ رَمِي الْجِمْرَات فِي الْحَجِّ، وَاسْتِلَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِي الطَّوَافِ، وَأَشْبَاهُ  
هَذِهِ الْأُمُورِ.

فَعَلَى الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يَأْخُذَ هُوَ زَمَامَ الْمُبَادَرَةِ فِي الْحَوَارِ، وَيَطْرَحَ  
أَسْئَلَتَهُ حَوْلَ نَقْطَةِ الْخِلَافِ الْأُولَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَحَاوِرُهُ، وَأَنْ لَا يَتْرَكَ لِمَحَاوِرِ  
مُرَاوِغٍ مَجَالاً يَسْتَجِرُّ فِيهِ إِلَى تَشْكِيكَاتٍ حَوْلَ فُرُوعِ أَحْكَامِ الدِّينِ، قَبْلَ اسْتِيفَاءِ  
الْكَلَامِ حَوْلَ الْأَصُولِ الَّتِي تَتَفَرَّغُ عَنْهَا الْفُرُوعُ وَفُرُوعُ الْفُرُوعِ.

فَمَثَلًا: حِينَ يَكُونُ الْمَدْعُوُّ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ مَادِيًا مَلْحَدًا، يَعْتَقِدُ بِأَنَّ  
الْوُجُودَ كُلَّهُ مَادَّةٌ لَا حَيَاةَ فِيهَا، وَهَذِهِ الْمَادَّةُ تَطَوَّرَتْ ضَمْنَ حَرَكَةِ آلِيَّةٍ ذَاتِيَّةٍ،  
وَلَا تَرَالُ تَتَطَوَّرُ، وَبِسَبَبِ هَذَا التَّطَوُّرِ تَوَلَّدَتِ النَّبَاتَاتُ، ثُمَّ عَالَمُ الْأَحْيَاءِ، فِي  
مُدْرَجِ هَرَمِيٍّ تَصَاعِدِيٍّ، وَيُظْهِرُ هَذَا الْإِعْتِقَادَ الْبَاطِلَ لَدَى شِيعِيِّ مَفْتُونٍ  
بِالْمَادِيَّةِ الْجَدَلِيَّةِ الْمَارْكَسِيَّةِ.

فَإِنَّ عَلَى الدَّاعِي إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ أَنْ يَعْرِفَ أَوْلَى الْأَصُولِ الْمَادِيَّةِ  
الْجَدَلِيَّةِ، وَيَعْرِفَ الْحُجُجَ وَالْأَدْلَةَ الَّتِي تُسْقِطُهَا فِكْرِيًّا وَعِلْمِيًّا، وَأَنْ يَطْرَحَ  
أَسْئَلَتَهُ مُحَاصِرًا مَنْ يَحَاوِرُهُ بِالْأَدْلَةِ الْبَرْهَانِيَّةِ، وَكَاشَفًا لَهُ أَنَّ الْمَادِيَّةَ الْجَدَلِيَّةَ  
فِكْرًا خِيَالِيَّةً وَهَمِيَّةً، لَا تَدْعُمُهَا دَلَائِلٌ عَقْلِيَّةٌ، وَلَا شَوَاهِدٌ عِلْمِيَّةٌ، وَمَبِينًا لَهُ  
أَقْوَالَ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْكُونِ الْمَحَايِدِينَ بِشَأْنِهَا، الَّتِي يَثْبُتُونَ بِهَا أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ دَلِيلًا  
صَحِيحًا يَثْبُتُهَا.

وَمِنْ أَدْلَةٍ سَقُوطِهَا أَنَّ عُلَمَاءَ الدَّوْلَةِ الشِّيعِيَّةِ الْمَارْكَسِيَّةِ الْعَظْمَى لَمْ  
يَسْتَطِيعُوا طَوَالَ سِتِينَ عَامًا مِنَ الْبَحْثِ وَالدَّرْسِ وَالتَّجْرِبَاتِ الْكَثِيرَاتِ  
الْمُخْتَلِفَاتِ، أَنْ يُولَدُوا مِنَ الْمَادَةِ الْمَيْتَةِ خَلِيَّةً حَيَّةً وَاحِدَةً، نَبَاتِيَّةً أَوْ حَيَوَانِيَّةً،  
وَبِذَلِكَ سَقَطَتْ فِكْرَتُهُمُ الْقَائِلَةُ بِأَنَّ الْحَيَاةَ ظَهَرَتْ نَتِيجَةً تَطَوُّرَاتٍ ذَاتِيَّةٍ فِي  
الْمَادَةِ.

وَحِينَ يَكُونُ الْمَدْعُوُّ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ نَصْرَانِيًّا يُؤْمِنُ بِالتَّثْلِيثِ، فَإِنَّ

على الداعي أن يبدأ معه من نقطة الخلاف، وهي قضية التثليث ويبيّن له أن الرب الخالق للكون لا يمكن أن يكون متعدداً، ولا يمكن أن ينفصل منه جزء فيكون له أبناً، وأنّ مثل عيسى عليه السلام عند الله كمثّل آدم وحواء.

فكما أن آدم خلقه الله عزّ وجلّ من التراب دون أب ولا أم، وكما أن الله عزّ وجلّ خلق حواء من ذكر بلا أنثى، خلق عيسى عليه السلام من أم هي مريم عليها السلام بلا أب.

فإذا استجاب النصراني إلى الإيمان بأنّ عيسى عبّد الله ورسوله، تمكن الداعي إلى الله من أن ينتقل به إلى عقائد الإسلام الأخرى حول الرسول ﷺ، وحول القرآن الذي أنزل عليه، وهكذا ارتقاءً إلى سائر العقائد فالشرائع فأحكام الفروع.

وأنبئه هنا على أن المبشرين بالنصرانية قد امتحنوا طرح حواراتهم التبشيرية بين المسلمين، بدءاً من أصول دينهم الباطلة التي يؤمنون بها، فأصيبوا بالهزائم الفكرية المنكرة.

إذ كان عامّة المسلمين فضلاً عن طلاب العلم فيهم يستطيعون إبطال أصولهم الاعتقادية القائمة على التثليث والتجسّد بشخص إنسانية.

وحين تكاثرت عليهم الهزائم الفكرية في هذا المجال، حتى في البلدان النائية عن قلب العالم الإسلامي، وجّه قادّتهم للعاملين في أنشطة التبشير بالنصرانية، الوصايا بأن يكفّوا نهائياً عن إثارة جدليات وحوارات ومناقشات حول أسس العقيدة النصرانية، وأن يقتصروا على توجيه الأسئلة التشكيكية التي تُثير شبهات حول فروع الأحكام الشرعية الإسلامية، وأن ينشروا بين المسلمين العلمانية، وظواهر الحضارة الغربية والشرقية الكافرة، وأسلوب الحياة القائمة على الحريات الجنسية، وأن ينشروا بينهم المذاهب الفكرية المعاصرة المضادة لمبادئ الإسلام وشرائعه، فإذا تركوا الإسلام وأمسوا بلا

دين، أمكن يوماً ما جلبُ ذراريهم إلى النصرانية.

وأنبئه أخيراً على أن من الخير لحامل الرسالة الإسلامية، أن يجتهد في استخراج الأدلة والبراهين لأصول الدين من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم يعرضها بلغة العصر وأسلوب بيانه، مما يسهل على المعاصرين إدراكه وتفهمه، ويشعرهم بعد الاقتناع بها بأنها أدلة قرآنية، أو أدلة نبوية، والجديد فيها هو أسلوب العرض، والبيان الملائم لطرائق البيان المعاصرة وأدلتها وحججه.

\* \* \*

القاعدة السابعة:

«على حامل الرسالة أن يتقيد بالاستدلال بالحق، وأن يجتنب الاستدلال بالأباطيل والأكاذيب والموضوعات المفتريات، فالحق لا يُنصر إلا بالحق».

إنه لا يصح للداعي إلى الله أو إلى سبيله، أن يستدلّ بدليل باطل في ذاته ليؤيد به ما يدعو إليه من الحق، وإن قبله المدعو.

فكلُّ خرافة، وكلُّ باطلٍ وكلُّ افتراء، وكلُّ كذب، وكلُّ وهم، أمورٌ مرفوضةٌ مبنوذةٌ في مفاهيم الإسلام، ولا يجوز بحالٍ من الأحوال اتخاذاً وسائلاً لنصرة الإسلام، فالحق الرباني لا يُنصر إلا بالحق».

الشرح:

إن الإسلام دينٌ حقٌّ، مُنزَلٌ من الله الحق، بوساطة الوحي الذي هو حقٌّ، على رسول الله المؤيد من الله بآياتٍ هي حقٌّ في ذاتها.

وللعقائد الإيمانية في الإسلام، وللنصوص الإسلامية المنزلة من عند الله، والثابتة بلاغاً عن الرسول محمد ﷺ، أدلة برهانية، تعتمد على حقائق تُدركها العقول السليمة وتُدعِن لها القلوب المستعدة للاعتراف بالحق، وهي

القلوب التي لم تَطْمَسْ بِصِيرَتِهَا الأهواءُ والشهوات، ونوازغ الجحود والإنكار، وعواملُ الاستعلاء والاستكبار، ورغباتُ الفجور في الأرض، دون إحساسٍ بمشاعر الإثم ووخز الضمير.

فعلى الداعي إلى الله، أو إلى سبيله، أن يبحث عن الأدلة البرهانية والحجج الصحيحة التي هي حقائق في ذاتها، ثم يستدل بها لإقناع من يدعوهُ إلى دين الله، وعليه أن يختار منها ما يُلائم مدارك من يدعوهُ، ومستواه العلمي، وحالته النفسية.

فإذا احتاج إلى تبسيط الأدلة وتيسيرها، بسّطها له ويسرّها، وتسلسل معه فيها على وفق النظام العقلي الذي فطر الله عقول الناس عليه.

وإذا رأى أن لدى فكر من يدعوهُ أغشية لا تسمح له برؤية الحقيقة حاول إزالتها برفق، حتى تنجلي بصيرة فكره.

وإذا وجد لديه مسلمّات يراها حقائق، وهي تناقض ما يريد إقناعه به حاول برفق أن يكشف له بطلان هذه المسلمّات بالحجج الصحيحة التي يقبلها، أو تلجئه إلى أن يبهت ولا يجد حجة تدفعها أو تدعم مسلمّاته.

وبعد أن يُزلزل اعتقاده بمسلمّاته يُقدّم له الأدلة الصحيحة التي تنتهي مراحلها بإثبات القضية التي يريد أن يدعوهُ إليها.

إنه لا يجوز للداعي إلى دين الله الحق أن يحتج بأدلة خرافية سوفسطائية، أو أدلة إيهامية، لإثبات القضية التي يدعو إليها من الدين.

كأن يذكر مثلاً لمن يدعوهُ إلى الإيمان بالملائكة، مدّعياً أن الشواهد العلمية في معامل العلماء الفيزيائيين في بلد متقدم كأمريكا، قد أثبتت وجود كائنات روحانية خيرةً علياً، ذوات أجساد شفافة لا تراها أعين الناس، وهذه الكائنات لها طاقات عظيمة، وقدرات على اجتياز المسافات الكونية



الشاسعة بسرعة تزيد على سرعة الضوء بمئة مرة، أو بألف مرة.

إن أمثال هذه الشواهد لم تَصُدُرْ بَعْدُ عن مؤسسة علمية مُعْتَرِفٍ بها عالمياً، فلو أن أَحَدَ الدُّعَاةِ الإسلاميين ذَكَرَ مِثْلَ هذا لينصُرَ به وجود الملائكة، أمام جماعة غير متعلّمة، وهي تُحَسِّنُ الظَّنَّ به، وتَعْتَقِدُ أَنَّهُ صادقٌ فيما يذكُرُهُ لهم، لكان عَمَلُهُ هذا جريمةً كُبْرَى في حقِّ الإسلام، لأنّه يُريدُ أن يَنْصُرَ الحقَّ بما يَدَّعِيهِ من باطل، ولو قَبِلَهُ المتلقُّونَ عنه، وآمَنُوا بما يَدَّعُوهُم إليه.

إنَّ الحقَّ لَا يَنْصُرُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ولكلِّ حقٍّ من الحجج والأدلة الصحيحة ما يكفي لإثباته، لدى أهل العقول الصحيحة السليمة من الخَلَلِ والعِلَلِ، فهو لا يحتاجُ إلى أكاذيب وأباطيل حتّى يَسْتَنْصِرَ بها.

وقد سَدَّ الرسول ﷺ على الوضاعين الكذّابينَ باب الافتراء عليه، ولو كان ذلك لتأييده ونُصْرَةِ ما جاء به، فقد ثبت عنه في حديثٍ متواترٍ قطعيٍّ قوله:

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

وراوي الكذب وناقِلُهُ والمستَدِلُّ به دون بيان أَنَّهُ كَذِبٌ مِثْلُ مَنْ افتراه.

إنَّ الكذب في مسائل الدين ولو في الأدلة والحجج هو من الافتراء على الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الدِّينَ كُلَّهُ لِلَّهِ، فلا يجوزُ الكذبُ في عناصر الدين، ولا في أدلة عناصره، ومن هانَ عليه أن يفترى الكَذِبَ لُنُصْرَةِ الدِّينِ، هانَ عليه أن يفترى في كلِّ شيءٍ حتّى في هدم الدِّينِ، وفي قضايا الإيمان الكبرى، متى وجد لنفسه مصلحةً في ذلك.

وقد أبان القرآن المجيد في عدّة نصوص تناولت موضوعات مختلفات من الدين، أن من أظلم الظلم افتراء الكذب على الله، فمنها ما يلي:

١ - قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ... ﴾ (٣٧)

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٨)

٣ - وقول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩/ مصحف/ ٨٥

نزول):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (١٨)

يُضَافُ إِلَى مَا سَبَقَ أَنْ مَنَاصِرَةَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ تُضَعِفُ قِيَمَةَ الْحَقِّ، وَقَدْ تُوْحِي بِأَنَّهُ بَاطِلٌ إِذَا اكْتَشَفَ أَحَدُ الْمُتَلَقِّينَ أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي سِيقَ لِنَصْرَتِهِ دَلِيلٌ بَاطِلٌ، وَرَبَّمَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ مِنْ آمَنَ بِهِ بِدَلِيلٍ بَاطِلٍ إِذَا اكْتَشَفَ يَوْمًا مَا أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي كَانَ السَّبَبَ فِي إِيمَانِهِ بِهِ دَلِيلٌ بَاطِلٌ.

وكثير من الجهلاء يحاولون نُصْرَةَ الْإِسْلَامِ وَحَقَائِقِهِ وَمَفَاهِيمِهِ بِالْبَاطِلِ، أَوْ بِأَدْلَةٍ وَاهِيَةٍ ضَعِيفَةٍ لَا تَقْوَى فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ عَلَى نُصْرَةِ الْحَقِّ، وَضَرَرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ شَدِيدٌ جَدًّا، وَرَبَّمَا كَانَ أَشَدَّ ضَرَرًا مِنْ ضَرَرِ بَعْضِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَيُقَالُ فِي شَأْنِهِمْ: عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ.

\* \* \*

القاعدة الثامنة:

«لَا يُحْتَجُّ عَلَى الْمُخَالَفِ بِحُجَّةٍ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَلَا يَصَحُّ لِحَامِلِ الرِّسَالَةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَوْ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِهِ أَنْ يُقَدَّمَ حُجَّةٌ لَيْسَتْ مِمَّا يُؤْمِنُ بِهِ الْمَدْعُوُّ إِنَّمَا يُحْتَجُّ لَهُ بِمَا هُوَ مُسَلِّمٌ لَدَيْهِ مِنَ الْحَقِّ».

الشرح :

مما هو ساقط مرفوض عقلاً وشرعاً ومُتَافٍ لأساليب الأدلة القرآنية، الاستدلال لمنكري الإسلام كُلَّهُ أصوله وفروعه، بِأدلة نصية من القرآن أو من السنة.

إنَّ بعض الجَهَلَةِ من المتحمسين لنُصرة الإسلام إذا اجتمعوا ببعض الملاحدة أو العلمانيين، صَبُّوا عليهم أدلة لما يدعونهم إليه من محفوظاتهم من نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وهذه النصوص تشتمل على أوامر ونواهي وتحذيرات وإنذارات بعذاب الله يوم الدين، أو يذكرون لهم أقوالاً واجتهادات وآراء لبعض علماء المسلمين.

مع أن الملاحدة أو العلمانيين غير مؤمنين أصلاً بوجود الله عز وجل، أو غير مؤمنين بأن القرآن المجيد هو كلام الله المنزل من لدنه، أو بأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً، وغير مُسلمين بصحة الأخبار والتحذيرات والإنذارات التي تشتمل عليها نصوص القرآن والسنة، وغير معترفين بصحة أقوال علماء المسلمين واجتهاداتهم.

فكيف يُستدلُّ لإنسانٍ بدليل ما وهو لا يؤمن بهذا الدليل، ولا يَعترف بصحته؟!.

إنَّ هذا لأمرٌ مرفوضٌ بالبدیهة العقلية.

فالسُّلوب الحكيم الذي ينبغي للداعي إلى الله أو إلى سبيله أن يتَّخذه، أن يطرح على المدعو الذي يشعر بأنه شاكٌّ في أصول الإسلام الكبرى، ولو كان من ذراري المسلمين، أسئلة تتعلق بأسس الحقائق الكبرى في الإسلام.

كأن يقول له مثلاً:

● هل تؤمن بوجود الله عز وجل ربّاً خالقاً لا ربّ سواه في الوجود؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة البرهانية على هذه الحقيقة حتى يُسلمَ بها،  
ويُدعِنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأنّ الرّبّ الخالق الذي لا ربّ سواه في الوجود، هو  
المستحقّ للعبادة وحده، وهو الذي يُدعَى، والذي يُرجى لَدَيْهِ كُلُّ مطلوبٍ  
من مطالب الحياة، وحده لا شريك له، فلا يُدعَى، ولا يُرجى مَلَكٌ ولا جِنٌّ  
ولاً وثنٌّ ولا أيُّ قوّةٍ غيبيةٍ، إنّما يُدعَى ويُرجى الله الرّبّ الخالق وحده؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة البرهانية على هذه الحقيقة حتى يُسلمَ بها،  
ويُدعِنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأنّ الله الرّبّ الحكيم العليم القدير قد خلق الناس  
ليمتحنهم في هذه الحياة الدنيا، وبأنّه جعل الموتَ فاصلاً بين حياة الامتحان  
وحياة الحساب، وفَصَلَ القضاء، وتنفيذِ الجزاء بالعدل أو بالفضل على ما  
قدّم الإنسانُ في رحلَةِ الحياة الدنيا رحلة الامتحان، فإذا جاء يوم البعث  
أحيا الله الموتى وساقهم إلى المحاسبة على أعمالهم، وقضى بينهم، ثمّ  
يُسَاقُونَ بحسَبِ أحكامِ الله فيهم إلى مصائرهم، فيُسَاقُ الذي قُضِيَ عليه  
بالعذاب جزاء ما قدّم في الحياة الدنيا، إلى دار العذاب النارِ وبئسَ المصير،  
ويُسَاقُ الذي قُضِيَ له بالنعيم جزاء ما قدّم في الحياة الدنيا من إيمانٍ وعملٍ  
صالح، إلى دار النعيم، جنة الخلد التي أعدّها الله عزّ وجلّ للمتقين ونِعَمَ  
المصير؟.

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة المستندة إلى حكمة الله الدالة على هذه  
الحقيقة، حتى يُسلمَ بها، ويُدعِنَ لها.

وإذا قال: نعم، سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأن الله عز وجل قد أرسل إلى الناس رُسُلًا منهم، ليبلِّغوا عنه مطلوبه منهم في رحلة امتحانهم؟ .

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة على هذه الحقيقة حتى يُسَلِّمَ بها ويُذعن لها.

وإذا قال: نعم، . سأله السؤال التالي:

● هل تؤمن بأن محمداً خاتم رُسُل الله أجمعين، وبأن القرآن الكريم منزَّلٌ عليه من ربه؟ .

فإذا قال: لا، أقام له الأدلة على هذه الحقيقة حتى يُسَلِّمَ بها، ويُذعن لها.

وإذا قال: نعم، بدأ يسوق له الأدلة من آيات القرآن المجيد، ومن أحاديث الرسول ﷺ الثابتة عنه بالأسانيد الصحيحة، ويشرح له دلالاتها على وفق اجتهادات كبار علماء المسلمين الموثوق بهم في تاريخ الأمة الإسلامية، وضمن قواعد فهم النصوص .

وباستطاعة الداعي أن يتفرس في حال المدعو، فإذا شعر بأنه من المؤمنين ببعض الأصول الإسلامية الكبرى، اختصر على نفسه سلسلة الأسئلة التي يَلْحَقُ بعضها بعضاً، فيأتي اللاحق منها مبنياً على التسليم بالحقيقة التي يُتَوَصَّلُ إليها نتيجة السؤال السابق منها .

هكذا يجب أن تُبْنَى السلاسل الفكرية بعضها على بعض بناءً تدرُّجياً، ولا يصحُّ بناءً درجةً علياً إلا بعد استكمال بناءِ الدرجة التي تَحْتَهَا بناءً صحيحاً سليماً، وكلُّ ما بُنِيَ على باطلٍ فهو باطل، أو لا يصحُّ الثقة به والاعتماد عليه، ولو كان هو في ذاته صحيحاً، لأن له أصلاً آخر صحيحاً هو مبنياً

عليه، فالثقة به، والاعتماد عليه، لا يتحققان إلا إذا بُنيَ على الأصل الآخر الصحيح الذي يَفْضِي العقل بوجوب التسليم به.

إن إثبات هلالِ ذهبيّ، على بُرْجِ قَصْرِ عَظِيم، في جزيرة، وسط البَحْرِ الواقع في صحراء الربع الخالي، من شبه الجزيرة العربية، يَتَطَلَّبُ سلسلةً فكريّةً تتراجَعُ إلى الأصول.

فقبل إثباتِ وجود الهلال الذهبيّ، لا بُدَّ من إثباتِ وُجُودِ البُرْجِ، وقبل إثباتِ وجود البُرْجِ، لا بُدَّ من إثباتِ وُجُودِ القصر؛ وقبل إثباتِ وجود القصر لا بُدَّ من إثباتِ وجود الجزيرة التي هي وسط البحر، وقبل إثباتِ وجود الجزيرة لا بُدَّ من إثباتِ وجود البحر حولها.

لكن البحر المذكور في الادعاء لا وُجُودَ له مطلقاً، لأنّ الادعاء يَجْعَلُهُ في الربع الخالي من شبه الجزيرة العربية.

فلسلسلةُ هذه الادعاءات ترجع إلى أمرٍ لا وجود له مطلقاً، فجميع حلقات هذه السلسلة ساقطةٌ بداهة، بسبب سقوط الأصل الأوّل الذي بُنِيَ عليه.

والتزاماً بهذه القاعدة البديهية نجدُ الأدلة القرآنية المسوقة لإثبات وجود الرّب الخالق الواحد الأحد جلّ جلاله، تعتمد على أدلّة كونيّة وفكريّة يُشَارِكُ في التسليم بها وبأصولها الكافرون والمشركون، وهي أدلّة الظواهر الكونيّة المشهودة بالحسّ، والتي تدلُّ صفاتها بالبراهين العقلية على أنّ لها ربّاً خالقاً واحداً، ومن الأدلة القرآنية أدلّة عقلية صِرَف يُدْرِكها العلماء المتفكرون، والفلاسفة المتعمّقون في التأمّلات الفلسفيّة.

ثم تنتقل الأدلة القرآنية إلى حُجَج وبراهين عقلية تُثَبِّتُ أنّ من له الرّبوبيّة وحده هو الذي يجب أن يكون وحده الإله المعبود.

ثم تنتقل إلى إثبات حكمة الله في الخلق، وحكمته في إرسال الرسل، وهكذا حتى إثبات أن القرآن المجيد كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، بدليل أنه آيةٌ معجزة. فإذا بلغ المدعو إلى التسليم بما سبق ووجهت له نصوص التكاليف المصدرة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

\* \* \*

### القاعدة التاسعة:

«مَنْ رَأَيْتَهُ يُعَالِطُ فِي دَلِيلِكَ فَانْقُلْهُ إِلَى دَلِيلٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَالِطَ فِيهِ».

### الشرح:

من المدعوين إلى الإيمان بالله أو إلى سلوك صراطه المستقيم من يكون مُرَاوِغاً قادراً على أن يُجَادِلَ بالباطل، فإذا سُقَّتْ له دليلاً صحيحاً يتضمَّنُ حُجَّةً دامغة، وَجَدَ لَدَيْهِ القدرة على أن يُرَاوِغَ فيحتالَ في حَمْلِ الألفاظ التي سُقَّتْ بها دَلِيلِكَ عَلَى غَيْرِ مُرَادِكَ مِنْهَا، وعلى أن يَدُورَ بها مغالطاً.

فإذا وَجَدْتَ إنساناً من هذا القبيل قادراً على المغالطة في الألفاظ، فاتركْ دليلك الذي استطاع أن يُعَالِطَ فِيهِ، ولا تشغَلْ نفسك مَعَهُ بتحريرِ مرادك من الألفاظ التي سُقَّتْ بها دليلك، وانتقلْ إلى دليلٍ آخَرَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَالِطَ فِيهِ، وتأسَّ فِي هذا بإبراهيم عليه السلام:

إذ قال له «نمرود» الجبار: مَنْ رَبُّكَ؟.

قال إبراهيم: رَبِّي الَّذِي يُخَيِّي وَيُمِيتُ.

قال «نمرود»: أَنَا أُخَيِّي وَأُمِيتُ.

قال إبراهيم: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ.

فَبِهَتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ<sup>(١)</sup>.

(١) انظر شرح هذه المناظرة في الفصل الأول من الباب الخامس (الصورة الرابعة).

## القاعدة العاشرة:

«على حامل الرسالة أن يكون في مقدّمة المؤمنين بما يدعو إليه، والملتزمين بأحكامه، وأن يبدأ بدعوة وإصلاح عشيرته الأقربين».

الشرح:

● إن على كلِّ داعٍ إلى سبيلِ الله، وكلِّ ناصِحٍ وأعِظِ أمرٍ بالمعروفِ ناهٍ عن المنكرِ أن يكون من المؤمنين بما يدعو إليه، وأن يكون في مقدّمة الذين يطبقون ما يدعو إليه، أو ينصح به، أو يأمر به أو ينهى عنه.

إذ لا أثرٍ لحاملِ رسالةِ دينه ربّانيةٍ ما لم يكن أوّلَ المؤمنين بها، والمُلتزمين بتطبيقِ أحكامها وتكاليّفها.

وعليه أن يبدأ بدعوة وإصلاح عشيرته الأقربين، فقد أمر الله رسوله في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول) بقوله:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٦)

إنّ إيمان الدعاة بما يدعون إليه والتزامهم به، من أولى الواجبات التي عليهم أن يتحلّوا بها، لأنهم يختلّون بحملهم رسالة الدعوة إلى الله، والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر منصّب الإمامة، والإمام يقدم نفسه لياتم الناس به.

ولكون هذا من البدهيات الأولى وجدنا الأنبياء والمرسلين أوّل المؤمنين والمسلمين في أقوامهم، بأقوالهم وبأعمالهم.

● وقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يُعلن لقومه بأن الله عزّ وجلّ أمره بأن يكون أوّل المسلمين، جاء هذا في عدّة نصوص:

١ - قول الله عزّ وجلّ له في سورة (الأنعام/ ٦/ مصحف/ ٥٥/ نزول):

﴿... قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أكونَ أوّلَ مَنْ أسلمَ...﴾ (١٤)



٢ - وقول الله عز وجل له فيها أيضاً:

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِإِذْنِهِمْ خَافًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٦﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ لَا شَرِيكَ لََّ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

٣ - وقول الله عز وجل له في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١٦﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ: أي: وَأُمِرْتُ بِالْأوامر والتكاليف الدينية لأجل أن أكون أول المسلمين المستسلمين المطيعين لأوامر الله من أُمَّتِي .

● وأبان شعيب عليه السلام لقومه أنه من الملتزمين بطاعة ربه، في اجتناب كل ما ينهاهم عنه، فقال لهم كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ ... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكُمُ بِهِ إِنْ أَنهَلَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكُمُ عَنْهُ: أي: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَ شَيْئًا من الأعمال التي أنهاكم عنها. يقال لغة: خالفك إلى كذا، إذا قصد الشيء وأنت مُنصرف عنه .

● وسأل موسى عليه السلام ربه أن يُريه ذاته، وقال الله له: لن تراني، وأجرى الله عز وجل له تجربة تجلّي نوره للجبل فاندك الجبل وخر موسى صعباً، فلما أفاق قال لربه: سُبْحَانَكَ تَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

قال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِن نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَلَىٰ رَبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَمَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْغًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

\* \* \*

### القاعدة الحادية عشرة:

«على حامل الرسالة الثبات على الحق والاستقامة على صراط الله، مهما واجه من عقبات وصعوبات ومغريات».

### الشرح:

«إنَّ مما يجب على حامل الرسالة الربانية أن يُثبَّت على الحق، ويستقيم على صراط الله الحق، وأن لا يتأثر بزيوف المبطلين، وبما يقدمونه من زخرف القول، للفتنة والإغراء والتغدير، ولا يتأثر بمغريات الحياة الدنيا وزينتها من مالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو شهواتٍ أو تحقيقٍ مصالح، فإنه متى تأثر بشيءٍ من ذلك اجتالته شياطين الإنس والجن، فسخره جُنْدِيًّا من جنودهم، ومُساهِمًا في الإضلال والإفساد من حيث يشعرُ أو لا يشعرُ، وهو يَرْتَدِّي ألبسة المصلحين حاملي الرسالة الإسلامية، إذ يُزِمونه بأن يحافظ على مظاهره وصور أعماله التي تدلُّ على أنه من حملة الرسالة الإسلامية، ومن الدعاة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، ويُوْحون له بالذرائع التي تُزَيِّنُ انحرافه ومسايرته للضالين والمضلين من ذوي السلطان في الأرض، أو ذوي المال والجاه.

إنَّ وظيفة حمل الرسالة الربانية بالدعوة إلى الله، أو إلى صراطه المستقيم وظيفَةٌ جليلةٌ خطيرة، تُشبهُ وظيفة الأنبياء والمرسلين، باستثناء الوحي والعصمة.

فمن انحرف عن واجبات رسالته وهو مُتصدِّرٌ للإمامة فيها كان ضرره

أشد من ضرر المضلّين المفسدين في الأرض منذ نشأتهم الأولى، لأن كثيراً من الناس يفتنون به على أنه حامل رسالة إسلامية يبلّغها ويبينها بصديق وأمانة، وأنه في مقدمة المتلزمين بها، والمنفذين لأحكامها، المستقيمين على صراط الله، فيقعون في الضلالة، ويتكبون صراط الله اقتداءً به، وهم يحسبون أنهم مهتدون، ويحسنون صنعا، إذ يتبعون إماماً هادياً مُرشداً مُصلحاً.

إن المتظاهر بحمل الرسالة الربانية الذي يكون سبباً في تضليل أفكار من يأتّم به، وفي إفساد مفاهيمهم، وفي إخراجهم عن صراط الله المستقيم بأقواله وأعماله، شيطان خبيث، يلبس ثياب قديس، ويفسد إفساد إبليس، وهو شرٌّ وأخبث من الذي يأمر بالمعروف في ظاهره، ولا يأتيه في سره، وينهى عن المنكر في ظاهره، ويأتيه في سره، وقد جاء في أقوال الرسول ﷺ بشأن هذا الذي تخالف أعماله أقواله وعيّد شديد.

روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«يُوتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنَدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟!، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟!». فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

أَقْتَابُ بَطْنِهِ: أي: أمعاء بطنه.

واهتماماً بمراعاة هذه القاعدة أمر الله رسوله محمداً ﷺ وأمر من تاب إلى ربه معه بأن يستقيموا كما أمرُوا، ونهاهم عن أن يطغوا، وحدّرتهم من أن يركنوا إلى الذين ظلموا، فقال الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿ فَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَرُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٦) وَلَا تَزْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَتَّسِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٧﴾ .

وبعد أن أبان الله عز وجل في سورة (الشورى/ ٤٢/ مصحف/ ٦٢ نزول) أنه شرع للناس في هذا الدين الخاتم ما وصى به الرُّسُلَ السَّابِقِينَ، خاطب رسوله محمداً ﷺ بقوله:

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَبِغْ أَهْوَاءَهُمْ... ﴾ (١١٧)

وَيُلْحَقْ بِالرُّسُولِ كُلِّ حَمَلَةً رِسالته من أمته .

إن الثبات على الحق، والاستقامة على صراط الله، وعدم التأثر بأهواء المضللين، ومزالق المُفسِدِينَ، ومُغْرَبَاتِ الحياة الدُّنيا وزينتها، من شواهد الصِّدْقِ مع الله، وإبتغاء مرضاته، والحرص على طلب الآخرة، ومن المؤهلات الواجبات لاحتلال المنصب الديني الرفيع، وهو مَنْصِبُ «إمام المتقين» .

وإمام المتقين الصادق يَهْدِي بأقواله، وأعماله، وكُلِّ حاله الظاهر والباطن .

\* \* \*

القاعدة الثانية عشرة:

«على حامل الرسالة الإسلامية أن يدأب في القيام بأداء رسالته بصبرٍ وحِلْمٍ وتحملٍ لِلأذى، وكلِّما يئس من فَرْدٍ أو جماعةٍ انتقل إلى آخرين غير ميثوسٍ منهم، ويظلُّ طَوَالَ عُمُرِهِ حاملاً رسالته مؤدياً لها حَسَبَ استطاعته حتَّى آخِرِ لحظةٍ من عُمُرِهِ» .

## الشرح:

إن رُسل الله وأنبياءه في التاريخ هم الأسوة الحسنة لكل من يَحْمِلُ رسالة الدَّعوة إلى دين الله وصراطه المستقيم، ورسالة التُّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن تقوم السَّاعة.

وقد دأب أنبياء الله ورُسله على الدعوة إلى دين الله وصراطه المستقيم، والتُّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصبرٍ وحلمٍ وتَحَمُّلٍ للأذى، ولم يكفُّوا عن القيام بأداء رسالات ربهم حتى جاءهم اليقين وهو الموت، أو حَكَمَ اللهُ بينهم وبين أقوامهم، فأهلك الكفرة المكذبين.

وبعض الرسل لم يستجب لهم من أقوامهم إلا الأعداد القليلة، ومنهم من لم يُصدِّقه من أمته إلا رجلٌ واحد.

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول شَفِيعٍ في الجَنَّةِ، لَمْ يُصَدِّقْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا صَدَّقَهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ».

عن مشكاة المصابيح رقم ٥٧٤٤.

ونستطيع أن نفهم أن على حامل رسالة ربه أن يقوم بأداء وظائفها حتى تُوفِّيه منيته، من قول الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: واعبد ربك حتى يأتيك الموت الذي هو يقين لا يشك فيه أحد.

ومعلوم أنّ القِيَامَ بوظائف الدّعوة إلى الله والتّصحّح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أعظم عَنَاصِرِ عِبَادَةِ الله عزّ وجلّ، وهو من الجهاد في سبيل الله، بل من أوائل واجباته.

وقد جاء قوله تعالى لرسوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ في سياق قوله له: ﴿فَاصْبِرْ بِمَا تُوْمَرُ﴾ للدلالة على أنّ صَدْعَهُ بما يُؤْمَرُ بِتَبْلِغِهِ هو من واجبات عِبَادَتِهِ لربه.

\* \* \*

### القاعدة الثالثة عشرة:

«على حامل الرسالة أن لا يُميّز طبقةً من الناس على طبقة لدى قيامه بوظائف رسالته، فيخصّ مثلاً باهتمامه وعنايته، أو بمجالس دعوته ونصحه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، طبقةً ذوي المال والجاه والسُّلطان وكُبراء القوم، ويُعرض عن الفقراء والضعفاء والمُسْتَضْعَفِينَ، غَيْرِ مُعْتَنٍ بِهِمْ، ولا حريص على هدايتهم وتعليمهم وتزيكثهم ونصحهم».

### الشرح:

إنّ دين الله عزّ وجلّ موجّه للناس أجمعين على سواء، ويأخذ كلّ إنسانٍ من بلاغاته ما يناسبُ حاله، وما هو عليه من أوصاف، وليس دين الله موجهاً بتخصيصٍ لملأ القوم وكبرائهم وذوي المال والجاه فيهم، دون فقرائهم ومستضعفيهم، ولا للرجال فقط دون النساء، ولا للأقوياء فقط دون الضعفاء، ولا للأغنياء فقط دون الفقراء، ولا لذوي السلطان والحكم والإدارة فقط دونّ عامة الناس.

وعلى حامل الرسالة أن يضع في تصوّره دواماً أنّ الله عزّ وجلّ عاتبَ رَسُوْلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ في سورة (عبس/ ٨٠ / مصحف/ ٢٤ / نزول) عقب أنّ بَدَرَتْ منه بادرة إعراضٍ عن إجابة الأعمى ابن أمّ مكتوم، إذ جاءه سائلاً عن بعض

أمور دينه، بينما كان الرسول ﷺ مهتماً بدعوة بعض كبراء قومه إلى دين الله الحق.

ثم لم تتكرَّر منه هذه البادرة ولا أقلُّ منها، وقد كان ﷺ موجَّهاً اهتمامه لبعض كبراء قومه في تلك الساعة التي لم يرَ فيها من المناسب الانصراف عنهم وإجابة السائل الأعمى ابنِ أم مكتوم، لشدة حرصه على إيمان من يعتزُّ الإسلامُ بهم إذا أسلموا، وليس احتفاءً بهم من أجل أنَّهم من كُبراء قومه، وذوي المكانة والوجاهة فيهم.

وعلى حامل الرسالة أن يذكُرَ دوماً أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) إذ طلبَ منه بعض كبراء قومه، ومنهم: (عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والمطعم بن عدي، والحارث بن نوفل) إبعادَ الضعفاء والفقراء والمساكين عن مجالسه، كخبَّاب، وبلال، وعمار، وصُهَيْب، حتَّى يؤمنوا به ويتَّبِعوه:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعُدْوَانِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

أي: ما عليك يا مُحَمَّد من حساب الناس من شيءٍ إذا كفروا ولم يؤمنوا، بل كلُّ واحدٍ منهم يُحاسبُ عن نفسه، فلا تطرُدِ الفقراء والضعفاء طمعاً بإيمان الكبراء الأغنياء، فتتخلص من مسؤولية محاسبتك على عدم إيمانهم، إذ لا تتحمل أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنك تقوم بواجب التبليغ فإنَّ عليهم أن يتبلغوا، ويشاركوا في مجالس التبليغ سائر طالبي الهداية، والمستجيبين لدعوتها.

وأنت مسؤولٌ عن تبليغ دين الله لجميع طبقات الناس على سواء، فقرائهم وأغنيائهم، ضعفائهم وساداتهم، فإذا طرَدت الفقراء والضعفاء

وابعدتَهُمْ عن مَجَالِسِكِ استجابة لطلب الأغنياء والكبراء، فَإِنَّكَ تُعَرِّضُ نَفْسَكَ للمحاسبة والمؤاخذة على إبعادهم عن مجالس العلم الديني، الذي أمركَ ربُّكَ بتبليغه للناس، دون تمييزٍ ولا تخصيص، وإنَّ أغنياء المشركين وكبراءهم الذين تُريد إرضاءهم والاستجابة لطلبهم لِيُسَلِّمُوا لا يَحْمِلُونَ عنكَ من مسؤولية الحساب شيئاً، بل سَتُدَانُ وَحَدَّكَ بِطَرْدِ الفقراء والضعفاء، وعدم تبليغهم دين ربِّهم، وبعَدَمِ تعليمهم وتزكيتهم.

وعلى هاتين القاعدتين من قَوَاعِدِ المسؤولية والمحاسبة جاء التفريعُ بقول الله عزَّ وجلَّ لرسوله:

﴿... فَطَرَدْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

أي: فَطَرَدُ الفقراء والضعفاء عن مجالس العلم الديني، ومواطن الهداية والاستجابة لدعوة الحقِّ ظُلْمٌ، فإذا طردتهم كُنْتَ مِنَ الظالمين.

والغرض توجيه حملة رسالة الرسول من بعده باعتبار أنَّ خطاب الأمة يُوجَّهُ لإمامها وقائدها وهم تبعٌ له.

وعلى حامل الرسالة أن يذكر دواماً أنَّ نوحاً عليه السلام قال لقومه بتوجيه من ربِّه إذ طلبوا منه أن يطرد عن مجالسة الضعفاء والفقراء والوضيعين، كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَتَقْوِمُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقال لهم أيضاً كما جاء فيها:

﴿... وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

\* \* \*



## القاعدة الرابعة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يتلطف ويرفق بمن يوجه له بعض مضامين رسالته، وأن يكون حسن المجاملة والتودد والإناس والمعاملة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأن يُعرضَ عن مقابلة من يُسيءُ إليه بمثل إساءته، وأن يَغفوَ عنه ويصفح، ويعتبره مريضاً يجب علاجه وإنقاذه مما هو فيه، وليحذر من أن يعتبره عدوًّا في معركة قتالية، فمجالات تأدية الرسالة الدعوية مجالاتُ إصلاحٍ وهدايةٍ وعلاجٍ دوائي بحكمة، لا مجالاتُ قتالٍ غايته قتلُ العدوِّ أو أسرُهُ والانتصار عليه، وسلْبُهُ، وإبعاده عن مواطن سُلْطَتِهِ في قومه، لتأمين تبليغ كلمة الله في جماهير قومه.

وعلى حامل الرسالة أن يكون همُّه الإصلاح والنصيحة، لا التشهير بالناس والفضيحة».

## الشرح:

لقد أبانت لنا شمائل الرسول ﷺ، وما صحَّ من شمائل الأنبياء والمرسلين من قبله، أنهم كانوا أحسنَّ الناس خُلُقاً، وأكملهم تَلُطُفاً وَرِفْقاً، وحُسنَ مُجَامَلَةٍ ومعاملة وتسامحٍ وعَفْوٍ وَصَفْحٍ، في علاقاتهم مع كلِّ الناس، سواءً مِنْهُمْ من استجاب لدعوتهم واتبعهم أم من لم يستجب لها.

فقد كانوا يُقَابِلُونَ الشَتائم بالإعراض والتجاهل، وإذا اتَّهَمُوا بما ليس فيهم أجابوا بالنفي المُجَرَّد، ولا يردون الإساءة بمثلها.

لقد كانوا يحرصون أشدَّ الحرص على امتلاك القلوب بالوسائل التي من شأنها أن تغرس فيها محبتهم وإكبارهم، مع المهابة منهم، ومن هذه الوسائل البِشْرُ، والبِشَاشة، وطلاقة الوجه، وحُسنُ الاستقبال، ولينُ القول، والتكريم، والجود، والمعونة، والمؤانسة، والعفة، والتواضع مع عِزَّة النفس والترفع عن الصغائر.

أما الذين آمنوا بهم واتبعوهم فقد كانوا يغمرونهم بالرحمة، ويحيطونهم بالعناية، ويؤاسونهم، ويجودون عليهم جوداً عظيماً، ويتواضعون لهم، ويؤانسونهم، ويعطون كلاً منهم مما يناسب حاله ما يجعل قلبه يتدقق بحبهم وتقديرهم وتعظيمهم، حتى كان بعض أصحاب الرسول محمد ﷺ يَفْدُونَهُ بأنفسهم وأحب الناس والأشياء إليهم من شدة محبتهم له.

وحملة الرسالة مأمورون بالتأسي بالرسول ﷺ، وبالأنبياء والمرسلين من قبله.

أما من هو فظٌ غليظ القلب سيء الخلق والمعاملة، سيء المعاشرة، فاحش القول، فعليه أن يعتزل هذا الأمر، حتى يضلح من شأنه ويستقيم، ويكون أهلاً لحمل الرسالة، مهما كان ذا علم بعناصر الرسالة التي يؤديها، ويُمكن الاستفادة منه في مجالات لا يواجه فيها الناس، لئلا يُنفرهم عن الدين بسبب نفرتهم منه.

وعلى حامل الرسالة أن يذكر دواماً ما كان عليه الرسول ﷺ، وفضلاء أصحابه، ومن تبعهم بإحسان من علماء المسلمين ومرشديهم وهداتهم.

وعليه أن يُراجع دواماً ما كان عليه الرسول ﷺ من خلقٍ عظيم، فيما جاء من شمائله في السنة والسيرة النبوية، وحسب الرسول القائد أن الله عز وجل أثنى عليه بالخلق العظيم فخاطبه بقوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٦٨﴾ ﴾

إن النفوذ إلى القلوب على جسر المحبة، والمواخاة، والمصافاة، والمعاملة الحسنة، والبذل، والعطاء، والتسامح، يجعل حامل الرسالة يسلك إلى قلوب من يوجه لهم رسالته من أسهل الطرق وأيسرها وأحبها إليهم.

فعلية أن يكون شديد البُعدِ عن الفظاظَةِ، والغِلَاطَةِ، والاستكبار،  
والعنجهية، والجفاء، وكلُّ تعبيرٍ فيه إيذاءٌ للنَّاسِ، أو سوءُ أدبٍ معهم، وكلُّ  
تعبيرٍ فاحشٍ أو نابٍ تنفّرُ منه أذواقُ العقلاء والحكماءِ وأهلِ التهذيبِ.

إنَّ حاملَ الرسالةِ يجبُ أن يكونَ حكيماً في كلِّ تصرّفاته، وأن يكونَ  
قُدوةً حسنةً فيها، وأن يعبُرَ إلى قلوبِ الناسِ على جِسْرِ المحبَّةِ والرفقِ  
والتلطفِ والحُسْنَى.

وليتذكّرْ دوماً ما جاء في بيانات الرسول ﷺ عن الرفق، ومنها ما يلي:

● روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

● وروى مسلم عن عائشة أيضاً، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى  
الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ».

● وروى مسلم عن عائشة أيضاً. أن رسول الله ﷺ قال لها:

«عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ  
إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنَزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

● وروى مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي، أن النبي ﷺ قال:

«مَنْ يُحْرَمِ الرَّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ».

وعلى حامل الرسالة أن يكون همُّه الإصلاح والنصيحة، لا التشهير  
بالناس والفضيحة.

إنَّ الأصل في دعوة الأفراد ونصحهم، أن يكون على سبيل المناجاة في

خَلْوَةٌ وَسِرٌّ، رِعَايَةٌ لِحَالَةِ السِّرِّ الَّتِي يَحْرُصُونَ عَلَيْهَا، وَلِيَكُونَ كَلَامُ النَّاصِحِ مَسْمُوعاً مِنْ قِبَلِهِمْ.

فكثيرٌ من الناس يرفضون توجيه النصيحة العلنية لهم، لأنهم يَعتَبِرُونَ ذلك فضيحةً لهم، وتَشْهيراً بهم، وربما أخذتْهُمُ العِزَّةُ الَّتِي هُمْ فِيهَا بِأَسْبَابِ الإِثْمِ الَّذِي فِي نَفْسِهِمْ، فدفعتْ بهم إلى الانتقامِ مِمَّنْ وَجَّهَ لَهُمُ النِّصِيحَةَ علناً، وتحدثُ عندئذٍ ما لا تُحْمَدُ عقباه.

إنَّ النَّاصِحَ لِشَخْصٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مَعِيْنَةٍ فِي السِّرِّ صَادِقٌ مُخْلِصٌ يُرِيدُ الإِصْلَاحَ، أَمَّا النَّاصِحُ فِي الْعَلَنِ فَهُوَ فَاضِحٌ مُشَهَّرٌ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمَغْتَابِ، وَهُوَ لَيْسَ حَرِيصاً عَلَى الإِصْلَاحِ وَالتَّقْوِيمِ.

وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَدِيَ بِالرَّسُولِ ﷺ، إِذْ كَانَ يَقُولُ عَنْ نَاسٍ يَعْرِفُهُمْ وَيُرِيدُ نَصِيحَتَهُمْ، وَلَا يُرِيدُ التَّشْهِيرَ بِهِمْ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا».

لَكِنْ مَنْ أَبَى النِّصِيحَةَ فِي السِّرِّ، وَأَصْرَعَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ إِثْمٍ وَشَرٍّ، أَوْ جَاهَرَ بِمَعْصِيَتِهِ غَيْرَ عَابِيٍّ بِدِينِ اللَّهِ وَأَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ لِعِبَادَتِهِ، وَهُوَ مِنَ الْمَتَمِّينِ إِلَى الإِسْلَامِ، فَلَا مَانِعَ مِنْ تَوْجِيهِ النِّصِيحَةَ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَهُ عَلَنًا وَفِي مَلَأٍ مِنْ قَوْمِهِ.

وَحَامِلُ الرِّسَالَةِ الْحَكِيمِ، يَخْتَارُ دَوَاماً الْأَجْدَى وَالْأَقْرَبَ لِلِإِصْلَاحِ وَالتَّقْوِيمِ.

\* \* \*

#### القاعدة الخامسة عشرة:

«يَنْبَغِي لِحَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِجَمِيعِ أَفْرَادِ مَجْتَمَعِهِ، وَمِنَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تَوْلَفُ الْقُلُوبَ وَتَعْقِدُ الْمَوَدَّاتِ وَتُكْسِبُ حُبَّ النَّاسِ: الْبَدْءُ بِالسَّلَامِ، وَالزِّيَارَاتِ، وَحُضُورِ مَنَاسِبَاتِ الْأَفْرَاحِ وَالتَّعَازِي مَا أَمْكَنَ، وَزِيَارَةِ الْمَرْضَى، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَتَقْدِيمِ

الخدمات، ومؤانسةً وملاطفةً مختلفٍ طبقات الشعب، ولا سيما الفقراء والضعفاء والمساكين والصغار، ومخاطبةً كلِّ إنسان بحسب ما يلائمه ويسرُّه، أسوةً بالرسول ﷺ».

الشرح:

إنَّ حُسْنَ العلاقات الاجتماعية من الوسائل التي تؤلف القلوب، وتَعْقِد المودات بين الناس، وتربط بينهم بوشائج التحابب، والتوادد، فالترابط بهذه الوشائج يجعلُ التناصح بينهم والتواصي بالحق والصبر وعمل الخير والمسارة إلى الفضائل واجتناب الرذائل، من الأمور التي تُؤخَذُ بقبول حسن.

فمن الخير لحامل الرسالة أن يَبَيِّنَ بينه وبين الناس جُسُورَ المودة والمحبة، لتكون دَعْوَتُهُ لهم، ونُصْحُهُ، وإرشادُهُ، وأمرُهُ بالمعروف ونهيُهُ عن المنكر مقبولةً لديهم.

ولهذا أوصى الرسول ﷺ المسلمين بأن يتبادلوا فيما بينهم العلاقات الاجتماعية الحسنة.

وكان صلوات الله عليه وسلامه إمام الأئمة جميعاً في خُلُقهِ العظيم، وحُسْنِ علاقته الاجتماعية بكلِّ طبقات الناس، فتعلقت القلوب بحبِّهِ وتعظيمه والتأسي به تعلقاً عظيماً.

ومن دعوته ﷺ إلى كثير من فضائل العلاقات هذه الطائفة التالية من النصوص:

١ - روى البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعَوِّدُوا الْمَرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِي».

العاني: الأسير.

٢ - وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ، رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ».

٣ - وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ».

قيل: ما هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال:

«إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

ومن تطبيقاته الكثيرة ﷺ:

ما روى البخاري عن أنس قال: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فمرض، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمُ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: أَطْعِ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ.

فخرج النبي ﷺ وهو يقول:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».

والتُّصُوصُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

\* \* \*

#### القاعدة السادسة عشرة:

«من وسائل تأليف القلوب وإزالة عقبات النفوس الإحسان إلى الناس بالبذل من المال، وبالبذل من النفس في الخدمات والمساعدات والمعونات، فعلى حامل الرسالة أن يستخدم هذه الوسيلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً».

## الشرح:

جعل الله عزَّ وجلَّ أَحَدَ مصارف الزكاة الثمانية مصرف «المؤلفة قلوبهم» وجعل للمسؤولين عن توزيع أموال الزكاة صلاحية بذل قسم منها لتأليف قلوب فريق من غير المسلمين بغية استمالتهم إلى التبصُّر بحقائق الإسلام، فعسى أن يؤمنوا ويُسلموا أو يكفُّوا أذاهم وشورهم عن الإسلام والمسلمين.

وربما يكون إسلام بعض المؤلفة قلوبهم سبباً في إسلام أتباع كثيرين لهم، أو سبباً في قوَّة الإسلام وإعلاء كلمته.

وهذا البذل الذي يُضَحِّي فيه المسلمون بالمال قد يخدم الدعوة إلى الله أكثر من القتال في سبيل الله الذي تُقَدَّم فيه النفوس ضحايا لنشر الدين، وإعلاء كلمة الله في الأرض.

وقد كان بذلُ المالِ الوفير لتأليف القلوب، وجذبها إلى قبول الإسلام، وإزالة ما في النفوس من عقبات ضده أو ضدَّ المسلمين، من الوسائل العظيمة، ذات التأثير القويِّ جدًّا، في سياسة الرسول الحكيمة صلوات الله وسلاماته عليه.

ويجد متتبع سيرة الرسول ﷺ أمثلة كثيرة من هذه السياسة الحكيمة.

\* \* \*

## القاعدة السابعة عشرة:

«ينبغي لحامل الرسالة أن لا يثير شكوكاً وجدلياتٍ افتراضيةً بغية الإجابة عليها، فإذا طرحت من قِبَل المدعويين أو المتلقين لبيانات الدين أجاب عليها بمقاديرها، ولا يزيد من عنده شيئاً، ثم إذا طُرِح غيرها من قبلهم أجاب عليه وهكذا.

إنَّ طرحها من قبل حامل الرسالة ليجيب عليها يقترن بخطورة تَمَكُّنِ الشكوك من نفوس المتلقِّين، وصعوبة إزالتها بعد، وربما يكونون غير محتاجين أصلاً إلى هذه الإجابات، لأن لديهم القناعة التامة الكافية بالحق، فالمناسب بالنسبة إليهم عدم طرحها، وعدم شغل أفكارهم بها».

الشرح:

إنَّ مُتَابِعِ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِإِمْعَانٍ، يُلَاحِظُ أَنَّ مَنِهْجَ الْقُرْآنِ التَّبَوِيَّ أَنْ لَا يُقَدِّمَ شُكُوكاً افْتِرَاضِيَةً لِيُجِيبَ عَلَيْهَا، وَلِيَبَيِّنَ وَجْهَ الْحَقِّ فِيهَا، بَلْ يَتَرَقَّبُ طَرَحَ الشُّكُوكِ وَالْجَدَلِيَّاتِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى، ثُمَّ يُنْزِلُ فِي كِتَابِهِ مَا يُجِيبُ عَلَى هَذِهِ الشُّكُوكِ وَالْجَدَلِيَّاتِ بِالْحُجُجِ الدَّامِغَةِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَالْأَدَلَّةِ السَّاطِعَةِ.

إنَّ طَرَحَ الشُّكُوكِ لِلْإِجَابَةِ عَلَيْهَا فِيهِ خَطُورَةٌ عُلُوقٍ هَذِهِ الشُّكُوكِ فِي نَفُوسِ الْمُتَلَقِّينَ، وَصُعُوبَةٌ إِزَالَتِهَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهَا.

أَمَّا عَدَمُ طَرَحِهَا وَالْإِجَابَةُ عَلَيْهَا ففِيهِ تَوْفِيرٌ لِلزَّمَنِ وَالْجُهْدِ الْفِكْرِيِّ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ عَدَمِ تَعَرُّضٍ لِلْخَطُورَةِ الْآنَفَةِ الذِّكْرِ.

فَعَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَتَّبِعَ هَذَا الْمَنِهْجَ الْقُرْآنِيَّ الرَّبَّانِيَّ، لِأَنَّهُ هُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَسْلَمُ، وَالْأَكْثَرُ نَفْعاً وَتَحْقِيقاً لِلْأَهْدَافِ الدَّعْوِيَّةِ وَهَدَايَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ، وَإِبْعَادِهِمْ عَنِ مَزَالِقِ الشُّكُوكِ الَّتِي إِذَا عَلِقَتْ فِي النَّفْسِ اخْتَبَاجَتْ إِزَالَتَهَا إِلَى جُهُودٍ فِكْرِيَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَيِّنَاتٍ وَاسِعَاتٍ وَمُحَاوَرَاتٍ جَدَلِيَّةٍ حَكِيمَةٍ.

\* \* \*

القاعدة الثامنة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يكون مقتنعاً اقتناعاً تاماً ومنفعلاً انفعالاً حقيقياً بما يريد توصيله إلى غيره من عناصر رسالته، حتى يكون تبليغُه ونصحه وإرشاده ممَّا له أثرٌ حقيقيٌّ فيمن يتلقَّى منه أو يَسْتَمِعُ إليه، فما يَصُدُّرُ من



القلب بانفعال حقيقي يصل إلى القلوب» .

إنَّه كلما كانت مشاعر حامل الرسالة حول ما يريد توصيله إلى الآخرين أصدق وأعمق، وكان إحساسه بها أغنف وأوضح، كان تأثيره في المتلقين منه أكثر وأعمق، ولهذا نجد التأثير العظيم للمخلصين، فيما يقولون، أو يدعون له ويهدون إليه، أو ينصحون به .

ويرتقي حامل الرسالة في قدراته على التأثير في غيره لدى أدائه وظائف رسالته بمقدار ارتقاء تجاربه الإيمانية، وتجاربه الوجدانية، ومشاعره النفسية الحلوّة، في مجالات صلته بالله، وطاعته له، وتوبته له، وفي مجالات عطاءات الخير، والتطبيقات الإسلامية المُسعدّة للنفوس، والمريحة للضماير، والممدّة للقلوب بالطمأنينة . وبمقدار ما في نفسه وقلبه من كراهية وبُغضٍ للكُفر والفسوق والعصيان، والتشكُّب لصراط الرحمن، مع شهودٍ داخلي لما فيها من خباثت، ولما لآثارها من أضرار وأنواع أذى، ثم لما لآثارها من عقوباتٍ بالعدل لدى ربّ العباد .

\* \* \*

القاعدة التاسعة عشرة:

«على حامل الرسالة أن يوفر جهودَه العظمى من جهود أدائه وظائف رسالته، فلا ينفقها تبذيراً في الذين دلت التجربات المتكررات على أنّ قابليتهم للاستجابة غير مطموح فيها، لبلوغهم إلى حالة ميئوس منها، وعليه أن يوجّه صرف طاقات أعماله الجهادية الدعوية والإرشادية إلى آخرين مطموح باستجابتهم، أو هم في أولى مراحل تلقّي البلاغات والبيانات وتوجيهات النصّح والإرشاد» .

الشرح:

إنّ حامل الرسالة الحكيم ذا العقل والرُّشد، يتبع سياسة التاجر الحكيم

الذي يعمل في السوق الذي يكون ربحه فيه أكثر، وسياسة الزارع الحكيم الذي يبذر في الأرض التي يكون إنتاجها أكثر وأنفع، فلا يُصَيِّع وقته وجهده في استصلاح أرض سبخة وعنده أرض أخرى ذات عطاءٍ وفير إذا زرَعها، مع العلم بأن الوقت في الحياة الدنيا محدود، وطاقات كلِّ عاملٍ كادح فيها محدودة، فهو لا يستطيع أن يعمل معاً في المُنتجِ النافع وفي غير المنتج.

إنَّ الذين قد وصلوا إلى حدِّ اليأس من أن يستجيبوا لدعوة الداعي الحكيم، ونُصِّح الناصح الرشيد، بعد محاولات متعدّدة، في أزمانٍ كافيّاتٍ لاستجابة من لَدَيْهِ أدنى عقل ورُشد، وظَهَرَ تعنُّتُهُم وعنادُهُم، وعداؤُهُم للحقِّ والخير، وحملةِ رسالتُهُما، ينبغي الإعراض عنهم، إذا كانت حالتهم تقتضي الإعراض، أو التولّي عَنْهُم، إذا كانت حالتهم تقتضي التولّي، حَسَبَ المنهج القرآني، لتوجيه جهود الأعمال الجهادية الدعوية والإرشادية لآخرين مطموح في هدايتهم واستجابتهم بما ظهر من الأمارات، أو لآخرين ما زالوا في أوّلِ مراحل تلقي جهود هذه الأعمال.

إنَّ طاقات الأعمال الجهادية الدعوية والإرشادية طاقاتٌ نادراتٌ في الناس، فينبغي استغلالها أحسنَ استغلال، وهذا إنَّما يكون بتوجيهها للذين لم تتحجّر قلوبُهُم بَعْدُ، ولم يَصِلُوا إلى حالةٍ مَيُوسٍ منها.

ولهذا وَجَّه الله عزَّ وجلَّ الَّذِينَ آمَنُوا بأن لا يطمعوا في إيمان يهود المدينة، ذوي العِلَلِ النفسية الكثيرة التي تصدُّهم عن الإيمان بمحمد ﷺ، فليس من الحكمة أن يَصْرِفُوا جهودهم المحدودة في الإلحاح عليهم بالدعوة بغية هدايتهم إلى الحق، بل عليهم أن يوجِّهوا جهودهم الدعوية للَّذِينَ يَرَوْنَ لديهم قابلياتٍ أفضل، وأرضاً أصْلَحَ لِبَذْرِ بزور الهدى والخير فيها، وسوقاً أفضل للتجارة الرابعة.

فقال الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضِبِهِمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوا اتَّخَذُواهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِينَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ ﴿٧٨﴾ .

إن معرفة إمكان تحقق غاية من الغايات في مجتمع ما من المجتمعات البشرية تتوقف على دراسة واقع حال هذا المجتمع .

فإذا كانت ظاهراتُ هذا المجتمع بِفِرَقِهِ وَأَقْسَامِهِ، تَدُلُّ بِحَسَبِ سُنَنِ الْجَمَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، عَلَى أَنَّهُ لَا مَطْمَعَ فِي إِصْلَاحِ النِّسْبَةِ الْكُبْرَى مِنْهُ، كَانَ الطَّمَعُ بِإِصْلَاحِهِ، وَاسْتِجَابَةُ أَفْرَادِهِ لِلْهُدَايَةِ، تَعْلِيقًا لِرَغْبَاتِ النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ بِأَمْرِ غَيْرِ ذِي جَدْوَى سَارَةٍ .

فمن الحكمة السياسية في سير الدعوة - والحال كذلك - أَنْ تُصَرَّفَ الْجُهُودُ إِلَى مَجَالَاتٍ وَمَجْتَمَعَاتٍ تَكُونُ الدَّعْوَةُ فِيهَا ذَاتَ جَدْوَى سَارَةٍ، أَوْ جَدْوَاهَا أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ، وَأَنْ يَاقْتَصِرَ تَوْجِيهِ الْإِهْتِمَامِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الَّتِي تَدُلُّ ظَاهِرَاتِهَا عَلَى أَنَّهَا مِيُوسُّ مِنْ إِصْلَاحِ جَمَاهِيرِهَا وَلَا مَطْمَعَ فِيهِ، عَلَى تَصَيُّدِ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ يَكُونُ الْأَمَلُ بِهُدَايَتِهِمْ قَوِيًّا، أَوْ تَكُونُ هُدَايَتِهِمْ أَمْرًا غَيْرَ مِيُوسٍ مِنْهُ بَعْدَ .

ومجتمع اليهود في عصر الرسول ﷺ، ومنذ أوائل العهد المدني قد دلت ملاحظة واقع حالهم مع تكرار التجربات، على أن الطمع بهداية النسبة العظمى منهم طمَعٌ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الظواهر الاجتماعية الَّتِي تَكْشِفُهَا الْمَلَاخِظَةُ فِي مَخْتَلَفِ فِرَقِهِمْ وَأَقْسَامِهِمْ وَطَبَقَاتِهِمْ، وَتُثْبِتُهَا التَّجْرِبَاتُ الْمُتَكَرِّرَاتُ لَهُمْ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُدَايَةَ جَمُوهَرِهِمْ هِيَ بِمِثَابَةِ الْأَمْرِ الْمِيُوسِ مِنْهُ، أَوِ الَّذِي لَا مَطْمَعَ فِيهِ، فَيَنْبَغِي إِذَا التَّعَامُلُ مَعَهُمْ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ،

توفيراً للجهْد، واستغلالاً له فيما هو أجدى.

ومن البدهيات أن التعامل مع مطموع بهدايته، غير التعامل مع ميؤوس من هدايته بحسب الظواهر الاجتماعية المعتادة، أو الطمع في هدايته ضعيفاً جداً.

هذه قاعدة من قواعد الدعوة إلى الله، علّمها الله عزّ وجلّ للمؤمنين، بقوله تعالى في معرض الكلام عن اليهود:

﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾!؟.

بصيغة الاستفهام التعجيبى.

أي: أفنظّمون أيها المؤمنون أن يؤمن جمهور اليهود، لأجل دعوتكم، وحرصكم على هدايتهم، واتخاذ مختلف الأساليب لإقناعهم واسترضائهم؟!.

إنّ هذا الطمع في غير محلّه، لأنّ الظواهر الاجتماعية التي برزت في مجتمع اليهود تدلّ على أنّ هداية معظم أفرادهم أمرٌ لا يصحّ أن يكون مطموعاً فيه، فالتعامل معهم على أساس هذا الطمع يبدّد جهودكم، ويضرفها عمّا ينبغي أن توجه له، ومن ذلك توجيه الجهود لدعوة من يرجى من أفرادهم أن يستجيب، وتوجيه الجهود لدعوة مجتمعات أخرى يكون بذلّ الجهود فيها أنفع وأجدى، إذ هي للهداية والاستجابة والإصلاح أرجى.

وخاطب الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى دين الله من أمته بقوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (١٦) إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿١٧﴾.

أي: وما أنت بقادر على أن تخرق سنّة الله فتسمع الموتى وهم في

قُبُورِهِمْ، أَوْ تُسْمَعَ أَشْبَاهَ الْمَوْتَىٰ وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ  
عِنَادًا، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْتَزَّلَاتِ، وَقَطَعُوا  
صَلَةَ كُلِّ حَوَاسِئِهِمْ بِقَضَايَا الدِّينِ، فَكَانُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا مَوْتَىٰ مَقْبُورِينَ .

إِنَّ الْقَادِرَ عَلَىٰ تَغْيِيرِهَا هُوَ اللَّهُ وَاضِعُهَا، وَمَحَدِّدُ حُدُودِهَا، وَمُنظِّمُ  
أَنْظِمَتِهَا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَغْيِرُهَا إِلَّا فِي خَارِقَةٍ تَقْتَضِيهَا حِكْمَتُهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ .

ولكن لا تقتضي حكمته بالنسبة إلى الذين وضَعَهُمْ موضع الامتحان أن  
يُسْمِعَ بَعْضَهُمْ بِإِرَادَةٍ مِنْهُ جَبْرِيَّةً، إِذَا رَفَضُوا عَلَيَّ عِلْمَ الْاسْتِمَاعِ بِاخْتِيَارِهِمْ،  
ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ فِيهِمْ، قَاطِعِينَ الصَّلَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَضَايَا الدِّينِ، وَلَا تَقْتَضِي  
حِكْمَتُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُعَامِلَهُمْ مَعَامِلَةً مُخَالَفَةً لِمَعَامِلَةِ نَظَرَاتِهِمُ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا  
لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ، وَسَمِعُوا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَ، ضَمْنَ سُنَنِ اللَّهِ وَأَنْظَمَتِهِ فِيهِمْ، الَّتِي  
وَضَعَهَا فِي النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ نِسْبَةٍ سِوَاءٍ فِي الْاسْتِجَابَةِ وَالرَّفْضِ .

وقد وصف الله الكافرين المعاندين المصريين على التزام الباطل،  
والتَّوَلَّىٰ عَنِ الْحَقِّ، بِوَصْفٍ مِنْ لَوَازِمِهِ أَنْ يَكُونُوا مَقْبُورِينَ، لِأَنَّهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ  
دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ مَوْتَىٰ .

فحسبُ الداعي إلى الله أن يُبَلِّغَ وَيُنذِرَ وَيَقْطَعُ بِتَذْكِيرِهِ الْعِذْرَ .

وخطب الله عز وجل رسوله وكلّ داعٍ إلى الله من أمته في سورة  
(النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن منكري القرآن وما جاء فيه من حقّ  
حوّل مختلف قضايا الدين بقوله تعالى :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقَدَمَاءَ  
إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الضَّالِّينَ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ  
مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾ .

أي: إنك لا تسمع الذين هم موتى بالنسبة إلى قضايا الدين، إذ فقدوا كل حواسهم التي تستجيب لمثيرات دعوة القرآن، التي تستثير من كانت لديهم هذه الحواس، وظاهر أن فقد كل الحواس الظاهرة والباطنة التي تستثيرها دعوة القرآن، هو نوع من الموت لجانب من جوانب المحسّات، وهو الجانب الذي كان لديه بالفطرة استعداد لأن يحس بالمثيرات المتعلقة بقضايا الدين الحق.

وقد سمّاهم الله موتى، لأن نفوسهم منصرفة عن كل القضايا التي تتصل بالله واليوم الآخر انصرافاً كلياً، فليس بينهم وبينها وسائل اتصال، وبانقطاع الاتصال ينعدم التلقّي، وتنعدم الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالموتى، وقد وُضع الممثل به موضع الممثل له تأكيداً للمماثلة.

﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وُلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ .

أي: وإنك لا تسمع الصمّ الذين نزل بهم داء الصمّ بالنسبة إلى دعوة الدين الحق، ففقدوا القدرة على استماع أي دعاء أو نداء يتعلّق بها، لأن كل أجزاء أسماعهم متصلة بأمور شهواتهم وأهوائهم ومطالبهم من دنياهم، فليس فيها خطّ استماعي يستجيب لمثير يتعلّق بالله واليوم الآخر والواجبات الدينية، فهم بالنسبة إلى النداءات التي تتعلّق بهذه الموضوعات مصابون بداء الصمّ.

ولفرز حالة الصمّ هذه عن حالة العمى قيدها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿إِذَا وُلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ وذلك لأن الأصمّ البصير إذا كان يواجه ببصره من يتأديه، فإنه قد يفهم من حركات شفاهه ووجهه بعض ما اشتمل عليه نداؤه، وبذلك لا تكشف حالة الصمّ كشفاً تاماً إلا إذا كان الأصمّ قد ولى مُدْبِرًا.

وقد سمّاهم الله صمًا لأن نفوسهم منصرفة عن استماع كل نداء يتعلّق

بقضايا الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر قضايا الدين انصرافاً كلياً، فليس بينهم وبينها وسائل اتصالٍ سمعي، وبانعدام الاتصال ينعدم التلقي، وتندم الاستجابة، فهم بالنسبة إليها كالصم، وقد وُضِعَ الممثلُ به موضعَ الممثلِ له تأكيداً للمثالة.

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ :

أي: وإنك لا تهدي العُمَىٰ بأنوار معرفة آيات الله مهما وجهتها لأبصار بصيرتهم.

إنهم لا يرونها، فهم لا ينصرفون عن ضلالتهم التي هم فيها، إذ فقدوا القدرة على رؤية الحق الذي جاء في القرآن مهما كشفتهُ الأنوار، بسبب أنهم عُمَىٰ بالنسبة إلى القضايا التي تتعلق بالدين، وإن كانوا حديد الأَبصار بالنسبة إلى شؤون دنياهم وأهوائهم وشهواتهم ولذاتهم فيها.

وقد سماهم الله عز وجل عُمَيًّا، لأنَّ نُفُوسَهُم وبصائرهم منصرفَةٌ عن رؤية كلِّ ما يتصلُّ بقضايا الدين انصرافاً كلياً، فليس بين بصائرهم وبينها وسائل اتصالٍ بصري، وبانعدام الاتصال البصري تندم الاستجابة بالرؤية، فهم بالنسبة إليها كالعمى، وقد وُضِعَ الممثلُ به موضعَ الممثلِ له تأكيداً للمثالة.

وأبان الله عز وجل السبب الحقيقي الذي جعلهم صمًا وعُمَيًّا وأشباه الموتى، وهو أنهم لم يؤمنوا بآياته، ومعلومٌ في طبائع النفوس أن من لا يؤمنُ بالشيء فإنه لا يهتمُّ له، ولا يستجيبُ لدعوته، بخلاف الذين آمنوا بآيات الله فإنهم يروون سعادة أنفسهم منوطةً بالعمل بما جاء فيها، فهم يستمعون إليها، ويُسلمون طائعين مجتهدين أن يعملوا بما جاء فيها، فقال تعالى:

﴿ إِنْ سَمِعْتُمْ إِلَّا مَنْ يَأْتِيَنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ :

أي: لا تُسْمَعُ إِلَّا الَّذِينَ يُتَابِعُونَ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا يَدْرِكُونَ مِنْ آيَاتِنَا  
استناداً إلى موازين فطرتهم، وهم حريصون على معرفة منهاج سعادتهم،  
مستسلمون، فمن استسلم وأسلم اجتهد في أن يعمل بما علم مما آمن به،  
وارتبطت بالعمل به سعادته.

إنَّ الاستجابة للدَّعْوَةِ تنحصر فيمن يؤمن بالآيات الربانية الأولى،  
والأدلة الجذور، فمن اقتنع بها وآمنَ صار بينه وبين الداعي أرضية مشتركة  
صالحة للبناء عليها، وإلا فهو أعمى أو ميت تماماً بالنسبة إلى قضايا الدين.

وعلى هذا النمط ينبغي فهم كثير من النصوص القرآنية المؤكدة لهذا  
التوجيه الذي دلَّت عليه هذه النصوص، ومنها النصوص التالية:

● قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ  
إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥٢﴾ .

● وقوله الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٦١﴾ .

● وقول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٢﴾ .

● وقول الله عز وجل في سورة (الجنائفة/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحَمَّ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ  
غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾ .

● وقول الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ



الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالِهِمْ ۗ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ .

● وقول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن الذين كفروا معاندين بعد معرفة الحق:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ .

● وقول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بشأن الذين كفروا معاندين بعد معرفة الحق:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقُّ بِمَا لَا يَسْمَعُ ۖ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ ۚ صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٧﴾ .

ويجد القارئ شرح هذه النصوص وتحليلها في كتابي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» .

\* \* \*

بعد البيان الكافي يأتي التذكير:

ولا بُدَّ هنا من التنبيه على أن الوظيفة الأولى لحامل الرسالة هي التبليغ المقرون بالبيان الكافي الذي ينقطع به العذر، فمن أبى أن يستجيب بعد ذلك وُجَّه له الإنذار بعقاب الله وعذابه .

أما التذكير بما سبق به البلاغ والبيان الكافي والإنذار الأخير بعذاب الله وعقابه، فالأمر به مشروط بوجود احتمال نفع الذكرى لدى من يُوجَّه له التذكير .

قال الله عز وجل في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً لرسوله فكلُّ داعٍ إلى الله من أمته:

﴿ فَذَكِّرْ ۚ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿١﴾ سِيذَكَّرْ مَنْ يَخْشَىٰ ﴿٢﴾ وَيَنْجِبْهَا ألسَفَىٰ ﴿٣﴾ الَّذِي يَصَلَّىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿٤﴾ .

الذِّكْرَى: اسمٌ للتذكير، وتَكُونُ بمعنى التذْكَرِ.

أي: إن رأيتَ أنَّ من تُوجِّه له خطابك غيرُ ميؤوس منه، إذ ما زال لديك طَمَعٌ ما في أن يَنْفَعَهُ تذكيرُك فذكِّره بما سَبَقَ أن بيَّنَّته له من أمور الدين.  
أما إن رأيتَ أنَّ تذكيرك له لا يُؤثِّر فيه أيُّ أثرٍ، فلا تُضِعْ وَقْتَك وجَهْدَكَ في تذكيره.

وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الذاريات/ ٥١ / مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: وذكِّرْ من تجد لديه استعداداً ما لأن يُؤمن في المستقبل، فإن الذكري تنفع هؤلاء الذين لديهم استعداداً ما لأن يؤمنوا، أما الذين لا تجد لديهم مثل هذا الاستعداد فلا حرج عليك في أن تتولَّى عنهم.

وقد جاءت هذه الآية عقب الحديث عن آخرين تحجرت قلوبهم فهم لم يستجيبوا للدعوة، وينفرون من التذكير بسبب طغيانهم، وقال الله لرسوله بشأنهم:

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾

أي: فأدِرْ ظهرك إليهم، وانصرف عنهم، واشتغل بآخرين غير ميؤوسٍ منهم ممَّن تدلُّ الآمارات على أن إيمانهم مطموح به.

\* \* \*

أحوال الذين لم يستجيبوا والسياسة القرآنية في التعامل معهم:  
دلَّت النصوص القرآنية على أن عدم الاستجابة لدعوة مؤدِّي الرسالة الربانية أو نصحهم وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، له سبع دركات مُتَنَازِلَة انحطاطاً بحسب شدتها.

الدركة الأولى: «لِي الرأس» وهي حركة عدم استجابة خفيفة تُشعرُ برفق بأن المدعو إليه لم يحظَ باستجابة النفس إليه بعد، لكنها لا تدلُّ على الرفض الجازم، وهي أخفُّ من حركة الإعراض.

دلَّ على هذه الدركة قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿١٣٥﴾

فأبان هذا النصُّ أنَّ دَرَكَه اللَّيِّ مخالفةٌ لدركة الإعراض، وليُّ الرؤوس في المفهوم اللغوي أخف من الإعراض الذي هو إعطاء عارض الوجه وهو جانبه.

وعلى حامل الرسالة بالنسبة إلى هذه الدركة أن يتجاهلها، ويتابع وسائله في الدعوة والتُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع استخدام الأساليب الملائمة لها.

فاللِّيُّ حركة ابتدائية قد تكون من المترث ذي الشكوك الخفيفة، الذي يحتاج مزيد بيان أو استيثاق بالأدلة والحجج ليقتنع.

الدركة الثانية: «الإعراض» وهو إعطاء الجانب بعد المواجهة أو اللَّيِّ، والإعراض منزلة وسطى بين الإقبال والإدبار.

عُرضُ الشيء في اللُّغة جانبه، وعارضاً الإنسان صفحتا خديّه.

والإعراض قد يدلُّ على الرفض الجازم بأسلوب ليس فيه شدةٌ ضدَّ مبلغ الرسالة ومؤدِّي وظائفها، وقد يكون صاحب الإعراض راغباً نفسياً بمتابعة الاستماع والتلقّي دون مواجهة، فإذا وجد ما يُقنعه عاد إلى الإقبال والمواجهة.

وقد جاء في القرآن المجيد استعمال الإعراض في الحديث عن الرافضين بجزم، وفي الحديث عن الذين لم يَزُفُوا بَعْدُ رَفْضاً جازماً، وفي الأمر بالإعراض عن معاقبة المنافقين وبعض المذنبين، وفي الأمر بالإعراض عن دعوة من تولى من المشركين دون مواجهتهم بها، فهم يَسْمَعُونَ كلام الداعي دُونَ أَنْ يُشْعِرَهُمُ الداعي بأنهم مقصودون بالتوجيه.

وعلى حامل الرسالة أن يتابع تذكير من أعرض ولم يُظْهِرْ إِذْبَارَهُ وَتَوَلَّيْهِ، لأنه لم يَكْشِفْ من حاله ما يَدُلُّ على رَفْضِهِ الجازم.

الدركة الثالثة: «الإعراضُ مع التأيي بالجانب» وهذه دركةٌ أشدُّ من سابقتها، لأنَّ الإعراض اقترن بالابتعاد عن مجلس حامل الرسالة ومؤدِّيها، وبالابتعاد عن قوَّة تأثير صوته، مع بقاء المُعْرِضِ في الدائرة التي تصل إلى أطرافها بيانات حامل الرسالة.

دلَّ على هذه الدركة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يتحدث عن الإنسان الظالم لنفسه:

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾.

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ

عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ .

أي: ففي حالة يكون يؤوساً إذا لم يكن له بالله صلة، أما من كان له صلةً ما بالله فذو دعاءٍ عريض.

وعلى حامل الرسالة أن يتابع تذكير من أعرض ونأى بجانبه ولم يَصِلْ بَعْدُ إلى دركة الإذبار، لكن نسبة الاهتمام به تكون أقل قليلاً من نسبة المعرض فقط دون أن ينأى بجانبه.

الدركة الرابعة: «التَّوَلَّى» وهو يأتي بمعنى الإذبار، ويأتي بمعنى الابتعاد الكلّي، أما الإذبار فهو عكسُ المقابلة بالوجه، ونظيره الابتعاد التام. والتوجيه القرآني بالنسبة إلى من تولى مُذبراً عن التلقّي أو مُبتعداً عن حامل الرسالة وبياناته، يُوصي بمقابلته بالإعراض فقط، لا بالتولي والإذبار. والاختصارُ على الإعراض عمّن تولى يُقصدُ منه تَرْقُبُهُ، وترصُدُ احتمال عودته إلى الدركة الأُخف لإسماعه بيانات رسالته.

وقد دلّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ حاملٍ لرسالته من أمته:

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾.

الدركة الخامسة: «التولي مع الانصراف الكامل والابتعاد» وقد سمّيه «الهجر» أخذاً من قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾.

والتوجيهُ القرآني بالنسبة إلى الهاجر الإعراض عنه كشأن صاحب الدركة الرابعة.

الدركة السادسة: «إعلان العداة والمشاقّة وممارسة أنواع الأذى».

دلّ على هذه الدركة عدّة نصوص، منها ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿٦﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ ﴾.

والتوجيه القرآني بالنسبة إلى أصحاب هذه الدركة الصَّبرُ على أذاهم، ومراقبة خططهم دوماً، وترصُّد أعمالهم، والإعدادُ سِرّاً لِقِتَالِهِمْ إذا أرادوا قمع الدَّعوة الإسلاميَّة بالحرب.

الدركة السابعة: «إعلان حالة الحرب ضدَّ الإسلام وجماعة المسلمين» والتوجيه القرآني بالنسبة إلى أصحاب هذه الدركة مُقَاوَمَتُهُمْ بِالْقُوَّةِ العسكريَّة الحربيَّة إذا تهيأت أسبابُ قتالهم، فإن لم تنهياً بعدُ فينبغي دَفْعُ شرورهم ما أمكن، والصَّبرُ على أذاهم، ريثما تنهياً أسبابُ مُحَارَبَتِهِمْ مع سؤال الله الانتصار عليهم.

\* \* \*

القاعدة العشرون:

«إذا دعت حالٌ متلقِّي الرسالة لإقناعه مجادلته حول قضية من قضايا الدين، فعلى حامل الرسالة أن يُجَادِلَهُ بِالتِّي هي أحسن، ولا يَحْسُنُ اللَّجْوُ إلى المجادلة إلا بعد استفاد الوسائل الإقناعيَّة الحكيمة، ووسائل الموعظة الحسنة، بالترغيب والترهيب».

الشرح:

هذه القاعدة مستفادة من قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لرسوله فلكل داعٍ إلى سبيل الله من أمته بصورة إفرادية:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

ومن قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾ .

فالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة تكون بالهداية الفكرية الإقناعية التي هي أقوم .

والموعظة الحسنة تكون بالترغيب عن طريق تبشير المؤمنين بأن لهم عند الله أجراً كبيراً، وبالترهيب عن طريق إنذار الذين لا يؤمنون بأن الله أعتد لهم عذاباً أليماً .

والجدال بالتي هي أحسن يكون بالحوار الجميل الهادئ الذي يأخذ بيد المدعو برفق حتى يدرك الحق ويهتدي إليه .

ويجد القارئ شرح وتفصيل هذه القاعدة في الفصل الثالث «المنهاج البياني ومسالكه» من الباب الرابع «مناهج ومسالك ووسائل الهداية والإصلاح والحماية بالقول والعمل» .

\* \* \*

القاعدة الحادية والعشرون :

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون يَقِظاً دائم التنبُّه للأحداث الطارئة، وأن يكونَ حَسَنَ المعالجة لكلِّ حَدَثٍ طارئ بما يلائمه، مع عقل وروية، وبدون انفعال ولا طيش، وبدون اندفاع مع ردود الأفعال التلقائية غير الواعية .

وينبغي له أيضاً أن يتكَيَّفَ مع المتغيِّرات الطارئات بوسائل المعالجة وأساليبها، دون أن يتنازل عن أيِّ عنصر من عناصر المبدأ الذي يؤمن به، وعن أيِّ عنصر مما يدعو إليه من فكر واعتقاد وخلق وعَمَلٍ نَفْسِيٍّ أو ظاهر» .

الشرح :

إنَّ شياطينَ الإنس والجنَّ لا يفتنونَ يُغَيِّرُونَ في وسائلهم، مع الاستمسك بباطلهم وضلالاتهم، كُلِّمَا قَلَّ أو ضَعُفَ تأثير وسائلهم السابقة،

ولا يفتنون ويتكرون وسائل جديدة لإضلال عباد الله ومقاومة الحق والخير والهدى، ولنشر الفساد في الأرض وفي الأنفس.

فإذا بقي حَمَلَةُ رسالة الهدى لا يستخدمون إلا وسائلهم القديمة نفسها، كانوا كالأمم البدائية التي ما تزال تحارب بالحجارة والسيوف والرماح، في حين توصلت الأمم المتقدمة في الصناعة إلى ابتكار الأسلحة النارية العظيمة، والطائرات ذوات الأنواع المختلفة، والصواريخ، وأشعة الليزر، والقنابل الذرية والهيدروجينية، وأسلحة الدمار الشامل.

ومعلوم في سنن الله الكونية أن القوى لا تقاوم إلا بأفئتها وأمثالها، أو بما هو أشد منها وأقوى.

ومراعاة لسننه تطوّر القوى في المجتمع البشري أمر الله الذين آمنوا بأن يُعدّوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوّة حتى يصلوا بها إلى مستوى إرهاب عدو الله وعدوهم وآخرين من دونهم، وأن تكون قواهم في الأرض هي القوى المتفوقة السابقة دوماً، بحسب أنظمة الله السببية، فقال الله عز وجل في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٨١﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وعلى مثل وجوب إعداد الوسائل الحربية المادية في سباق تطوّر، يكون فيه الذين آمنوا هم السابقين دوماً، يجب عليهم أيضاً أن يكونوا هم السابقين دوماً في وسائل التأثير الفكري والوجداني والنفسي في مجالات القوى المعنوية، وهم السابقين في مجالات العلوم المختلفة، لأن السبق في العلم أحد مجالات السبق في القوّة التي أمر الله الذين آمنوا أن يُعدّوا منها ما استطاعوا لمواجهة أعدائهم الكثيرين في الأرض.



## القاعدة الثانية والعشرون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يواجه الناس دواماً بزِيٍّ حَسَنٍ، ومظهر جميل، ونظافة تامة، وأناقة جذابة عادية تلائم وضعه، حتَّى يُكُونَ لمظهره من الحُسْنِ ما تميل إليه النفوس والحواس، ولا يكون في جَسَدِهِ أو بَزْتِهِ ما يُنْفَرُهَا، أو يجعلها تتقزز كراهية».

### الشرح:

كان النبي ﷺ كثير العناية بنظافة جسمه، ونظافة فَمِهِ بالسواك، ونظافة ثيابه، وترجيل شعره، وإزالة الشعور الأخرى من جَسَدِهِ، لثلاً تتجمع فيها الروائح غير المستحبة، مع أن عرقَهُ صلوات الله عليه قد كان طيبَ الرائحة، كما ثبت في شمائله.

وكان كثير العناية بالطيب، فلا يَشَمُّ الناس منه إلا الرائحة الطيبة. واحتفاءً بأمر النظافة شرع الله في الإسلام الوضوء والاعتسال، وأبان الرسول ﷺ أنها من سنن الفطرة.

وجاء في الصحيح من كلام الرسول ﷺ قوله:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ».

وروى الإمام أحمد وأبو داود والبيهقي عن عمّار بن ياسر أن النبي ﷺ

قال:

«إن من الفطرة المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقصّ الشوارب، وتقليم الأظافر، وتنتف الإبط، والاستحداد، وغسل البراجم، والانتضاح بالماء والاختتان».

وهذه كُلهَا من وسائل النظافة.

الاستحداد: حلقُ شعر العانة.

البراجم: هي العقد في ظهور الأصابع، إذ تتجمع فيها الأوساخ.

الانتضاح بالماء: أي: غسل الفرج بالماء.

\* \* \*

### القاعدة الثالثة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن يتبع سياسة التدرج والتنمية المتصاعدة، بدءاً بالأسس وارتقاءً إلى ما فوقها، ثم إلى الفروع الكبيرة، فالأصغر فالأصغر، فالأطراف، فالكماليات ذوات التزيين والتحسين في السلوك الإسلامي.

وعليه أن يبنى الأفكار بناءً تكاملياً صاعداً، وأن يبدأ في التطبيقات العملية بالأهم فالمهم، ثم ما يليها بالأهمية وما يتفرع عنها من فروع، حتى الأطراف من المندوبات والمستحبات والمكروهات وخلاف الأولى».

### الشرح:

أنزل الله عز وجل الرسالة الإسلامية على سيدنا محمد ﷺ وفق أسلوب التدرج التكاملي الذي اقتضته حكمته في تربية الناس علماً وعملاً.

فبدأ بالعقائد الأصول، وبكبريات الأخلاق الفردية والاجتماعية، ثم ترقى شيئاً فشيئاً في إنزال فروع العقائد وتفصيلاتها، وفروع الأخلاق، ثم تدرج في تنزيل أحكام التكليف التعبدي فبدأ بالصلاة، ثم بالزكاة والصيام، ثم فرض الحج.

وتدرج في تنزيل أحكام المحرمات، فكان من أوائلها تحريم القتل والعدوان على الناس، والزنا والسرقه وأكل أموال الناس بالباطل.

وتأخر إنزال أحكام المعاملات وفي آخرها تحريم الربا.

وبعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن فعلمه سنة التدرج في تربية الناس على تطبيق أحكام الدين.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ  
لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن:

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَيَّ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا  
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ  
قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ  
فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ،  
فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ  
لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

فتح الباري رقم الحديث ١٩٤٦ ج ٣

إنَّ أسلوب التدرج التعليمي والتطبيقي للإسلام لا يفتضي تغيير شيء  
من أحكامه، ولكن الحكمة التربوية تقتضي عدم حمل الناس على الأخذ  
بالمهم مع حملهم على الأهم، أو قبل حملهم على الأهم، بل ينبغي الأخذ  
بأسلوب البناء التدريجي بدءاً بالعقائد وكبريات الأخلاق، وتدرجاً حكيماً إلى  
ما بعدها بحسب الأولويات.

وهذا ما كان عليه السلف رضوان الله عليهم، فعن ميمون بن مهران،  
عن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، أنه قال لأبيه:

يا أبت، ما متعك أن تمضي لِمَا تُرِيدُ مِنَ الْعَدْلِ؟ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَبَالِي  
لَوْ غَلَّتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ فِي ذَلِكَ.

فقال له أبوه عمر بن عبد العزيز: «يا بُنَيَّ إِنَّمَا أَرُوضُ النَّاسَ رِيَاضَةَ  
الصَّعْبِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْيِيَ الْأَمْرَ مِنَ الْعَدْلِ، فَأَوْخَرُ ذَلِكَ حَتَّى أُخْرِجَ مَعَهُ  
طَمَعاً مِنْ طَمَعِ الدُّنْيَا، فَيَنْفِرُوا مِنْ هَذِهِ وَيَسْكُنُوا لَهُذِهِ».

وقال له كما جاء في رواية أخرى: «لَا تَعَجَلْ يَا بُنَيَّ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ الْخَمْرَ

في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحقّ جملةً فيَدَعُوهُ جُمْلَةً، فيكون من ذَا فِتْنَةٍ»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

القاعدة الرابعة والعشرون:

«من الحكمة التربوية في بيانات حامل الرسالة أن يُنبّه المتلقين على ارتباط كلّ فرع يشرّحه أو يُذكرُ به من فروع الإسلام بالجذر الاعتقاديّ الذي يرتبط به، تأصيلاً لهذا الفرع ببيان ارتباطه بالجذر الإيمانيّ، وتحريضاً للبواعث الإيمانية الدافعة بقوة لتطبيق أنواع السلوك الإسلامي».

الشرح:

إنّ ربط الفرع الاعتقاديّ أو العمليّ بأصله الذي تفرّع عنه يجعل له تمكناً في القلوب، ويستثير للالتزام به الدوافع العميقة الداخليّة الذاتية في الإنسان، فيُنقذ الإنسان المطلوب منهم كما يُنقذ ماله فيه رغبة ذاتية.

فمنها رُبط وجوب طاعة الله في أوامره ونواهيه بأنّه الخالق المالك الذي له الحُكْمُ والأمرُ المحاسبُ المجازي، وربط واجب الشكر لله بأنّ هو المتفضل المنعم على عباده بكل ما فيهم من نعم، وبأنّ شكره على نعمه يستدعي بفضل الله زيادتها، وربط النهي عن المحرمات بأنّ الله خلق الناس ليمتحنهم في ظروف الحياة الدنيا، وربّ على طاعتهم له الثواب الجزيل العظيم، وعلى معصيتهم له العقاب بالعدل.

إلى غير ذلك من أنواع الربط الحكيم بالأصول الاعتقاديّة.

ويلاحظُ مُتدبّر كتاب الله عزّ وجلّ أنّ هذا الربط أحدُ عناصر المنهج التربوي القرآنيّ للمؤمنين المسلمين.

(١) انظر «الأمر بالمعروف» للخلال ص ٨٢.

فالتكاليف الشرعية التي تدلُّ عليها آيات أحكام السلوك النفسي والظاهر تشتمل غالباً على استشارة دوافع الإيمان في نفوس المؤمنين، لتكون القوى الإيمانية محرّضاً ذاتياً للمؤمن المسلم على الطاعة والاستجابة لمطلوب الله من عباده.

هذا ما نلاحظه في النصوص القرآنية الكثيرة:

● فمنها نصوصٌ تخاطب الذين آمنوا بقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مستثيرةً فيهم دوافع الإيمان لتحقيق المطلوب منهم.

● ومنها نصوصٌ يأتي في آخرها مثل: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ - إِنْ كُنْتُمْ بِرِيسَالَتِنَا مُؤْمِنِينَ - ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

● ومنها نصوصٌ يفترون بيانُ الأحكام فيها بالتوجيه لتقوى الله، مثل: ﴿ذَلِكَ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ - خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ - لَقَوْمٍ يَتَّقُونَ - وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

● ومنها نصوصٌ تُطمعُ بثوابِ الله أو تُحذّرُ من عقابه مع بيان الأحكام أو بعد بيانها.

● ومنها نصوصٌ تُختتمُ ببيانِ بعضِ صفاتِ الله أو أسمائه الحُسنى . إلى غير ذلك مما فيه ربط فروع الأحكام بالأصول الاعتقادية .

\* \* \*

القاعدة الخامسة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن يهتم في بياناته بمحاصرة من يوجه له رسالته من كلِّ أركانه الداخلية الفكرية والوجدانية والنفسية .

فالمحاصرةُ الفكريةُ تكون عن طريق إقناعه بالبراهين والأدلة الصحيحة الحسية أو العقلية أو الخبرية التي يؤمن بها، مع انتقاء ما يلائم حالته منها .

والمحاصرةُ الوجدانيةُ تكونُ باستثارةِ ضميره المفظور على حبِّ الحقِّ والخير والفضيلة، والمفظور على كراهية الباطل والشرِّ والرذيلة.

والمحاصرةُ النفسيَّةُ تكونُ بتنبية محورِ الطمع فيما يرغبه فيه من الأجر العظيم عند الله، ومُحَوِّرِ الخوفِ ممَّا يُحذِّره منه من عذاب الله».

الشرح:

الإنسان له في أعماقه ثلاثة أركان رئيسة، إذا تلاقت على شيء واحدٍ تولدت في داخله قُوَّةٌ ذاتيَّةٌ عظيمة، تدفعه من عمق كيانِه لتحقيق السُّلوكِ النفسيِّ أو الظاهر الذي يدعو إليه ذلك الشيء.

الركن الأول: فكره العِلْمِيُّ، والسبيل إليه البيان الإقناعيُّ المقترن بالحجَّة والبرهان والأدلة الصحيحة، من المدركات الحسيَّة، والمستنبطات العقلية، والأخبار الصحيحة الثابتة التي يؤمن بها من يوجَّه له الإقناع.

الركن الثاني: وجدانه المفظور على حبِّ الخير والنزوع إليه، وكراهية الشرِّ والنفور منه، والسبيل إلى استثارتِه البيان العاطفي الذي يحرك فيه حبه الفطريِّ للخير والفضيلة، وكراهيته الفطرية للشرِّ والرذيلة، واستثارتهما من مكامنهما في أعماقه.

الركن الثالث: حاشية نفسه التي تدور في ساحتها الأهواء والشهوات والرغبات واللذات، والسبيل إلى استثارتِها البيانُ الترغيبِي الذي يحرك فيها محور الطمع فيما تحبُّ وتهوى وتشتهي، والبيان الترهيبِي الذي يحركُ فيها محور الخوف مما يُسبِّبُ لها الآلام والأحزان والهموم والأكدار.

إن من يتتبعُ أساليب البيانِ القرآنيِّ يدرك بوضوح أنها تهتمُّ بمحاصرة الإنسان من هذه الأركان الثلاثة فيه بالأدلة الإقناعية، وبالاستثارات الوجدانية، وبالترغيب والترهيب.

وقد جاء في وُضفِ القرآن قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧)  
مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ .

إنّ هداية القرآن للتي هي أقوم تشتمل على عنصر الحصار الفكري بالبيان الإقناعي ، وهذه تستلزم استشارة وجدانه ومحاصرته .

أما المحاصرة النفسية فتكون بالتبشير بثواب الله وأجره الكبير الذي يحرك في النفس محور الطمع ، وبالإنذار بالعذاب الأليم الذي يُحرّك محور الخوف .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝ ﴾ .

إنّ الدعوة بالحكمة مع المجادلة بالتي هي أحسن تشتمل على عنصري الحصار الفكري بالبيان الإقناعي ، والحصار الوجداني بالبيان العاطفي .

أما الموعظة الحسنة فتؤدّي وظيفة الحصار النفسي بالترغيب الذي يحرك في النفس محور الطمع ، وبالترهيب الذي يحرك فيها محور الخوف .

وقد تُستخدَم الموعظة الحسنة في استشارة الوجدان والتأثير فيه ومحاصرته .

مدى جدوى الإثارات الانفعالية العاطفية :

يُلاحظ أنّ كثيراً من مؤدّي الرسالة يُلجّؤون إلى أسلوب الإثارة الانفعالية العاطفية ، ويقتصرون عليها ، وقد يبدؤون بها قبل الإقناع الفكري العلمي الهادئ ، وقبل الهادية للتي هي أقوم .

وهذا الأسلوب قد غدا في الإنسان المثقف المعاصر أسلوباً غير ذي تأثيرٍ فعّالٍ في بناء الأمة بناءً راسخاً متراصاً، على الرغم من الحاجة إليه في كثير من المواقف، وفي تجميع الجماهير حول قضيةٍ تحتاج إلى رأي عامٍ تؤيده الجماهير وتنصره.

إنّ تحريك العواطف وتهيجها هو بمثابة تحريك البركة المملوءة بالأسماك، واستثارة ما في قاعها من طين ومُترسّبات، فتهتاج المجموعة السمكية مختلطةً في البركة، ثم تنتهي مرحلة التحريك وتعود الأسماك إلى مثل ما كانت عليه، فينبغي اقتران هذا بما يُصطادُ به الأفراد الصالحون للبناء.

هكذا الخُطب الانفعالية الحماسية، التي لا تُستتبعُ مُباشرةً باصطياد بعض الأفراد، ونقلهم إلى أحواض التعليم التأسيسي الهادىء، الذي لا إثارة فيه ولا انفعال، فالاعتصار عليها ضعيفُ الجدوى في تأسيس الأفراد، وبناء الأمة الصالحة.

والمجدي في بناء الناس هو مخاطبتهم بالفكر الصحيح المتسلسل تسلسلاً منطقيّاً رصيناً، حتى تتكوّن لديهم العقائد والمفاهيم الراسخة.

ولقد غدت الأقوال المبالغ فيها، والقائمة على الوعظ والإثارة الانفعالية، أقوالاً مزهوداً فيها، وكثيرٌ من إحساسات الناس قد تبلّدت تُجاهها لكثرة تكرارها على أسماعهم دون أن تُستتبع بما يؤسّس تأسيساً يوصلُ إلى أعماق القلوب اعتقاداً راسخاً، وقد صار المثقفون يتصوّرونها مائدة كلامية تُقدّم لجمهور العامة، لا لجمهور المثقفين، الباحثين عن المعرفة الصحيحة.

ومع اتّساع قاعدة المثقفين فقد غدا الوعظ المبالغ فيه أمراً غير مرغوب فيه لديهم، فهم يُعرضون عنه.

باستثناء نفحات تُتصيّدُ حينما يرى مؤدي الرسالة نفوس المتلقين



مستعدة لتقبلها، فينبغي الاقتصار في الخطب الحماسية على مقدار حاجة الجماهير في المواقف المناسبة لها.

\* \* \*

### القاعدة السادسة والعشرون:

«من الحكمة أن يتصيد حامل الرسالة الإسلامية الحريص على تأديتها في أحسن الظروف المناسبات الملائمات للثب والتوجيه، وأن يحتال لإيجاد المناخ المناسب الذي تفتح فيه نفوس المتلقين لتقبل ما يُوجه لها، وعندئذ يتسلل من الأبواب النفسية المنفتحة، فيدخل منها، ليبذر بزوره، ويغرس غراسه، ثم يتعهد لها بعد ذلك بما يُغذيها وينميها».

### الشرح:

النفس الإنسانية بمثابة بيت لصاحبه، ولهذا البيت أبواب كثيرة مختلفة، وفي الحالة العادية تكون هذه الأبواب مغلقة، لأن الإنسان يحب أن يكون بيته له، لا يشاركه أحد فيه.

ومداهمة الإنسان وهو في داخل بيته دون استئذان منه يثير لديه قوى المدافعة والحماية لممتلكاته فيه.

وأفكار الإنسان ومفاهيمه وعقائده وعواطفه ورغباته هي ممتلكاته داخل نفسه، فلا يصح مهاجمته وهو في داخل بيته، والدخول عليه عنوة، لأنه سيقابل الداخل عليه بالعداء والمقاومة، ولو كان المهاجم يريد أن يجلب له خيراً كثيراً.

والحكمة والرشد يجعلان حامل الرسالة يتخذ ما يستطيع من وسائل ذكية تجعل من يريد هدايته ونصحه يفتح له بعض أبواب نفسه أو كلها، ويدعوه إلى الدخول، وعندئذ يدخل ضيفاً كريماً، ويجلس داخل نفسه في أحسن المجالس، وعندئذ تتهيأ له الفرصة الملائمة العظيمة ليقول لرب البيت

الذي استضافه ما يريد أن يقوله له .

فكما يقول الضيف لصاحب البيت المبنى من الطين :

أليس من الأفضل أن تَفْتَحَ نافذةً في الجدار الذي تمتدُّ من جهته أشعةُ الشمس، لتدخل منها هذه الأشعة؟! .

أليس من الأفضل أن تفتح نافذةً أُخرى في الجدار الذي تأتي من جهته الرياح النظيفة النقيّة، حتّى يتجدّد هواء البيت منها حيناً فحيناً؟! .

أليس من الأفضل أن تُزِيلَ هذا الجدار الترابيّ الذي أكلته الرطوبة، فهو يكاد يسقط، فنبيّ مكانه جداراً حَجَرِيّاً لا يمتدُّ إليه رشحُ الماء المجاور لأرض الدار؟! .

إنّ كلام هذا الضيف الناصح سَيَجِدُّ عند صاحب البيت آذاناً مصغية، وفكراً واعياً، وقلباً مستجيباً.

وكذلك حامل الرسالة إذا دخل إلى نفس من يدعوه ويُرشدُه ويهديه، من بعض أبواب نفسه أو كُلِّهَا، فَإِنَّهُ سَيَجِدُّ لَدَيْهِ الاستجابة التامة لما يَنْصَحُه به .

فإذا وجد لديه أفكاراً باطلةً سهَّلَ عليه أن يُرِيَهُ بُطْلانَهَا، وأن يهديه إلى الحق والصواب .

وإذا وجد نفسه مُتعلِّقةً بما فيه معصيةً لله عزَّ وجلَّ، سهَّلَ عليه أن يَنْصَحَهُ، لِيُقْلَعَ عن المعصية وَيَلْتَزِمَ الطاعة .

وإذا وجد نفسه مُتعلِّقةً بالدُّنيا وزينتها ومنصرفه عن الآخرة، سهَّلَ عليه أن يأخذَه برفقٍ للتعلُّق بالآخرة وما فيها من نعيمٍ مقيم .

وهكذا إلى سائر مجالات الهداية والتُّصح والإرشاد .

\* \* \*

## القاعدة السابعة والعشرون:

«على حامل الرسالة أن لا يتخذ من الوسائل والأسباب لتحقيق أهدافه في الدعوة أو التّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا ما أذن به الإسلام، فلا يجوز اتّخاذ وسيلة محرّمة لذاتها، أو سبب محرّم لذاته بحجّة تحقّق تَبليغ رسالة الإسلام أو هداية الخلق إلى الحقّ».

### الشرح:

يرى بعضُ المسلمين أنّ اليهود والنصارى وسائر الكفرة قد يتّخذون لنشر مبادئهم ومذاهبهم وأفكارهم وأنواع سلوكهم ومصالح أهل ملّهم، وسائلَ محرّمة في أديانهم ووسائل غير أخلاقية، مما تتفق عقولُ الناس جميعاً على تحريمه، كاستخدامهم النساء وبذل الفواحش المحرّمة، واستخدامهم المسكرات والمخدّرات ونقض العهود والمواثيق، فيخطُر لهم أن يُقاوموا هذا السلاح بنظيره لنشر الإسلام وتقوية الأمة الإسلامية.

لكنّ مثل هذا الأمر لا تَسْمَحُ به الشريعة الإسلامية، فلا يجوز للمسلم أن يتخذ أمراً مُحرّماً لذاته في الإسلام لنشر الإسلام، أو خدمة مصالح المسلمين.

غَيْرَ أَنَّهُ لا يدخل في المحرّمات من الوسائل مثل الكذب المأذون به شرعاً لحماية المسلمين، أو نقض عَهْدٍ مَنْ بدأ هو بنقض عهده، أو مُقاتلة من بدأ هو القتال في الشهر الحرام أو في البلد الحرام.

فعلى المسلم ولا سيما حاملُ الرسالة أن يَسْتَفْتِيَ فقهاء المسلمين في كلّ أمرٍ كبيرٍ أو صغير، ليَعْلَمَ حُكْمَ الإسلام فيه، وعليه أن يتقيّد بالحكم الشرعي ولا يتجاوزَه في كلّ أمرٍ من أموره، وفي كلّ وسيلة من وسائله أو سببٍ من أسبابه.

\* \* \*

## القاعدة الثامنة والعشرون :

«ينبغي لحامل الرسالة الذي يهتمُّ بتربية الأجيال المؤمنة المسلمة، التي تنطلق منها كتائب الجهاد الإسلامي، في الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يَسْتَحْدِمَ أسلوب بذر البزور في الأرض بسترها، وتعهدِها دوماً بعد نباتها، حتَّى تصير أشجاراً قويّة سامقة، لا تقتلعها الرياح الشديدة من مغارِسِها، بل تكون ثابتة تُؤتي أكلها كُلَّ حين بإذن رَبِّها».

### الشرح :

يتعجّل كثيرٌ من الذين يهتمون بتكوين الجماعات التي يستخدمونها لنصرة الإسلام وقضايا المسلمين، فيكتفون بالتجميع العاطفي المندفع المتحرّك، دون أن يَسْتَنْبِتُوا بزورهم في أرضٍ صالحةٍ محميّة، ودون أن يسلكوا لما يقصدون صراط التعليم الرصين الهادئ، والتربية الحكيمة الرشيدة، بالبداية بتأصيل الأصول، ثم الانتقال إلى ما فوقها من سوق، فما فوقها من فروع وأغصان، حتَّى تكون بزورهم التي زرعوها وتعهدوها أشجاراً صالحة لأن تُنْقَلَ إلى مواطنٍ ثباتِها واستقرارها، وعطائها المتوالي من الثمرات الناضجات.

وبسبب تعجّلهم المخالف لسنن الله في كونه تتعرّض أعمالُهُم الكثيرة المضنية، لعدّة نتائج غير سارة، مناقضة لما تقدّمت به شعاراتُهُم ودعاياتهم، فمن هذه النتائج غير السارة ما يلي :

١ - تعريض كثيرٍ من الذين جمعوهم من أنصار لم يُؤصِّلُوا تأصيلاً إسلامياً رصيناً، لنهب أعداء الإسلام لهم، من مواطن الضعف في نفوسهم، التي لم تُسدَّ بالتربية الإسلامية الصحيحة تُغرأُتها.

٢ - إغراء بعضهم بالظهور والشُهرة لاستقطاب المدح والثناء، والقفز

إلى القمم، طلباً لزيينة الحياة الدنيا، من استعلاء في الأرض، وجمع الثروات، وانتهاج للشهوات واللذات.

٣ - دفع بعضهم لاحتلال مراكز إسلامية قيادية، وهم جهلة بالإسلام، فيصدرون أحكاماً ومفاهيم ينسبونهم إلى الإسلام، وهي في الحقيقة مباينة للإسلام مباينة كلية، ويستفتون، فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون.

٤ - قيام كثير منهم بأعمال يدعون أنها أعمال إسلامية، مع أن الإسلام لا يوافق عليها، فيشوهون صورة الإسلام بأعمالهم التي يقومون بها لدى جماهير المسلمين، ولدى عامة الشعوب غير المسلمة.

٥ - تنافسهم على المصالح بسبب اختلاف الآراء والاجتهادات الخاصة، ثم تصارعهم على حطام الدنيا، ثم تدخل فيهم الانشاقات والانشطارات إلى فرق وأحزاب وجماعات، ويندفع كل فريق منهم باجتهاده الخاص الذي يراه هو الإسلام وحده، ويرى ما ذهب إليه غيره خارجاً عن الإسلام ومناقضاً له، ومعادياً لأنصار الحق، وتحدث بذلك طامة كبرى.

فعلى حامل الرسالة أن يتبصر بالمنهج الرباني الذي وصف الله به أمة محمد في الإنجيل، بأن إنشاءهم يكون كزرع استنبتت شجرته في أرض صالحه، فأخرج شطأه فأزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، فصار أشجاراً عظيمة وارقة الظلال، تمتد أياؤها في مشارق الأرض ومغاربها، فقال تعالى في سورة (الفتح/ ٤٨/ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١١﴾ .

وَالَّذِينَ مَعَهُ: أي: أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم.

أَشْدَاءُ: أي: أقوياء شجعان كالأسود.

رُكْعًا: جمع رُكْعٍ، وهو من رُكْعِ الصلاة المعروف.

سُجْدًا: جمع ساجد، وهو من سجود الصلاة المعروف.

سِيَمَاهِمُ: أي: علامتُهُمُ الظاهرة، السِّيَمَا في اللُّغَةِ العَلَامَةُ.

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ: أي: وصفُهُمُ.

كَزَّرَعٍ: أي: كنباتِ، الزَّرْعُ واحدِ الزروع.

أَخْرَجَ شَطَأَهُ: شَطَأُ الزَّرْعِ وَالتَّبَاتِ فِرَاخُهُ.

فَآزَرَهُ: أي: فقَوَاهُ وَأَعَانَهُ.

فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ: أي: فاعتدلَ ووصل إلى درجةِ كماله قائمًا على

جدوعه.

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ: أي: ليغِيظَ اللَّهُ بِهِمُ الْكُفَّارَ إِذْ يَرَوْنَهُمْ أَشْدَاءَ أَقْوِيَاءَ.

لقد دلَّ تشبيه أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل بزراعٍ أُخْرِجَ شَطَأُهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يَعِجِبُ الزَّرَاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، عَلَى أَنَّهُمْ فِي تَنَامِيهِمْ وَتَكَاثُرِهِمْ وَاشْتِدَادِ قُوَّتِهِمْ وَالمَظْهَرِ البَهِيجِ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ قَدْ سَارُوا وَفَقَّ سَنَةَ البِنَاءِ التَّكَامِلِي، المَشبِهُةَ لِلزَّرْعِ الَّذِي يَنْبَتُ نَبَاتًا حَسَنًا، وَفَقَّ نِظَامَ النِّبَاتِ، فِي أَحْصَابِ أَرْضِ، وَأَحْسَنِ شُرُوطِ.

وهكذا ينبغي أن يكون استنبات الأمة القيادية الصالحة التي يحميها الله

في مجاري سُنَنِهِ من عوارض الفساد<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر شرح النص باستيفاء في كتاب «الأمثال القرآنية وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف ص (٣٦٦ - ٣٧٣).

## القاعدة التاسعة والعشرون :

«على حامل الرسالة أن يضع في حسابه دواماً أن الوضع الذي يتهيأ به انتشار الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله هو الفتح الحقيقي الأعظم عند الله، كما حصل في صلح الحديبية.

وعليه أن يستبعد من نفسه ما أمكن رغباتها في الانتصار العسكري، وحمياتها النزاعة إلى الغلبة والثأر للكرامة.

فما يتشتر به الإسلام بنسبة أكبر وأعظم هو الأولى دائماً بالاعتبار، وهو الأحق من البدائل بالاختيار».

### الشرح :

إن القتال في سبيل الله إنما شرع لنشر الإسلام، وإقامة أحكامه في الأرض، وردّ عدوان المعتدين، فإذا تحقق نشر الإسلام بغير القتال كان هو الذي يجب المصير إليه.

ولقد أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ سورة (الفتح) في طريق رجوعه مع من كان معه من المسلمين من صلح الحديبية، في شهر ذي القعدة من سنة ستّ من الهجرة، حين صدّه مشركو مكة عن الوصول إلى المسجد الحرام لأداء عُمرتهم فيه، وبعد مفاوضات تمّ الصلح على أن يرجع الرسول ﷺ والذين معه عامهم هذا، ثم يأتي في السنة القادمة إن شاء، وتحلّل الرسول ﷺ والمسلمون من عُمرتهم تحلّل المُحصّرين، بعد أن ذبحوا هديهم، وكان هذا التحلّل أمراً صعباً على كثير من الصحابة رضي الله عنهم، إلّا أن إرادة الله الحكيمة شاءت ذلك.

وبينما هم قافلون ومتجهون للمدينة أنزل الله على رسوله سورة (الفتح) فأبان لهم فيها أنه قد حصل بهذا الصلح فتحٌ مُبين، وذلك بسبب أن الدعوة إلى الدخول في الإسلام قد انطلقت بعد الصلح، دون أن تقف في وجهها

عوائق من ألد أعدائها، وهم مشركو قريش، سواء في مكة، أم فيما حولها، أم في قبائل العرب، فقد أخذ الإسلام بعد الصلح ينتشر بحرية، وأخذ الدعاة من أصحاب الرسول ﷺ يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنين في أهل مكة، وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بعده خلق كثير.

قال الزُّهري: «فما فُتِحَ في الإسلام فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حِينَ التَّقْيِ النَّاسِ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّقْوَا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقُلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْبِكَ السَّنَتَيْنِ (أي: من صلح الحديبية حتى فُتِحَ مَكَّةُ عَسْكَرِيًّا) مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ»<sup>(١)</sup>.

فعلى حامل الرسالة أن يراعي هذه القاعدة بعناية في كل تحركاته التي يروم منها نشر الإسلام، وتبليغ دين الله للناس، وإقامة الحكم الإسلامي في الأرض.

\* \* \*

القاعدة الثلاثون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يُجْزِيءَ تَوْجِيهَهُ لجمهوره، وَيُبَاعِدَ بَيْنَ مَجَالِسِ مَوْعِظَتِهِ، لِئَلَّا يَقَعَ الْمُخَاطَبُونَ بِالسَّامِ فَيَنْفَرُوا».

الشرح:

من طبيعة النفوس البشرية أنها تُصَابُ بِالسَّامِ وَالْمَلَلِ مِنْ طَوْلِ مَجَالِسِ الْمَوْعِظَةِ وَالنُّصُوحِ وَالْإِرْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ الدِّينِيِّ، وَمَنْ تَوَالَيْهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً، أَوْ يَوْمِيًّا، وَمَعَ السَّامِ يَتَبَدَّلُ الْإِحْسَاسُ، أَوْ تَنْصَرِفُ الْأُذْهَانُ عَنِ الْاسْتِمَاعِ، وَيَدِبُّ التُّعَاسُ إِلَى الْعَيُونِ، إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَسْتَمِعَ الْجَرَأَةَ عَلَى مَفَارِقَةِ الْمَجْلِسِ خَوْفًا أَوْ حَيَاءً.

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).



وقد يُجَدِّد حياة المجلس السُّؤال والجواب، والمناقشة المتبادلة، والحوار الذي يستحثُّ الأفكار للمشاركة والإدلاء بالرأي.

وقد يجدد حياة المجلس طرح بعض الطرائف والمداعبات الطريفة، والنكات الأدبية المُحتشمة، التي لا تجرح ولا تُؤذي جالساً.

فمن أساليب التربية النبوية أن الرسول ﷺ قد كان يبيِّت مواعظه بيَّاتاً مُتفرِّقاً في أوقاتٍ متفاوتة، ولا يكثفها رصاً في مجلسٍ واحدٍ، ولا يتابعها يوماً لثلاثين يوماً.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يتخولُّنا بالموعظة في الأيامِ كراهة السَّامةِ عَلَيْنَا».

يتخولُّنا بالموعظة في الأيام: أي: يتعهَّدنا بالموعظة في الأيام ولا يجعلها كلَّ يوم، كراهة السَّامة أن تنزلَ علينا، أو أن تشقَّ علينا.

يقال لغة: تخولَّ الشيء إذا تعهَّده بالإصلاح.

وروى البخاري عن أبي وائل، قال: «كان عبْدُ اللهِ (يعني ابن مسعود) يذكر الناس في كلِّ خميس، فقال له رجلٌ يا أبا عبد الرحمن، لو دذت أنك ذكرتنا كلَّ يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أتّي أكره أن أملككم، وإني أتخولُّكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولُّنا بها مخافة السَّامةِ علينا».

\* \* \*

#### القاعدة الحادية والثلاثون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلَّى بالشجاعة الأدبية الحكيمة التي لا شتيمة فيها ولا تطاول ولا استعلاء في قول الحقِّ ونُصْرته، بالمواقف ذات الخطر، فهي تستعطف قلوب معظم الناس للاستمسك بالحقِّ، والأخذ به،

ومُنَاصَرَتَه، بسبب ما يظُنُّفَرُّ به الشُّجَاع من إعجاب الجماهير به، وتقديرهم لبَسَالَتِه وتضحيتِه.

فعلى حامل الرسالة أن يكون مع ثباته على الحقّ دواماً، شجاعاً حكيماً في قول الحقّ ومناصرتِه، بعقلٍ وحُسنٍ تصرفٍ وأدبٍ جَمِّ، إذ هو يناضل من أجل الحقّ المنزَّل من لدن حكيمٍ عليمٍ، وَيَنْصُرُ دين الله للناس أجمعين، أو يَنْصُرُ قضايا المسلمين لينالوا حقوقهم أو لِيَرْفَعُوا الظلم عنهم».

الشرح:

إنّ الثبات على الحقّ سِمَةٌ كل مسلم مؤمن صادق تقيٍّ واثقٍ بالله متوكِّلٍ عليه، سواءً أكان من حملة الرسالة أم من عامّة الناس.

لكن حامل الرسالة مُكَلَّفٌ بشدّة أن يكون ثابتاً على عقائد الإسلام ومبادئه وأخلاقه وشرائعه، وأن يكون في بيان كلّ ذلك شجاعاً غير خوَّارٍ ولا وجِلٍ ولا جبانٍ، في الالتزام بما يؤمن به، وفي مناصرة ما يدعو إليه، مع اتِّخَاذِ الحكمة في ثباته ودعوته ونُصْحِه وإرشاده، وتصرفاته الشجاعة، وبُعْدِه عمّا يشوّه أداء الرسالة من سبَابٍ وشتائمٍ وتشهير بالأشخاص.

هذه السِمَةُ هي التي رفعت كثيراً من أعلام المسلمين في التاريخ إلى مراتب المجد العظيم، وكان لثباتهم على الحقّ، وشجاعتهم الأدبية الحكيمة في مناصرتِه أثرٌ عظيم في اتِّخَاذِ جماهير المسلمين لهم أئمةً يتأسون بهم، وينصرونهم، ويتبعونهم في تمسكهم بالحقّ، وفي نصرتهم له، ودفاعهم عنه.

إنّ هذا الثبات النضاليّ المُعْجَب، المقرون بالشُّجَاعَةَ الحكيمة الرّشيدة التي تَحَلَّوْا بِهَا، قد كان من الوسائل النافعة جداً في دفع كثير من الناس للدُّخُولِ في الإسلام، أو للالتزام به ومُنَاصَرَتِه، وفي اتِّخَاذِ حامل الرسالة الثابتِ الشجاع الحكيم الرّشيد إماماً لهم، يتأسون به.

ولابن تيمية مواقف شجاعة حكيمة لئنت قلوب جبايرة أهل الكفر،  
ودفعت كثيراً من شرورهم، يطالعه القارىء في سيرته رحمه الله، وسيأتي  
إنشاء الله في النماذج بيان بعضها.

فعلى حامل الرسالة أن يقتدي بالأئمة الأعلام الدعاة الهداة الحكماء  
العلماء الفقهاء في الدين، الذين يضعون الأمور في مواضعها بثبات وشجاعة  
ورفق ولين، ويتخذون لمقاصدهم في الدعوة والنصح والإرشاد، والأمر  
بالمعروف والنهي عن المنكر، أسبابها الحكيمة ذات الجدوى والنفع في  
تحقيق المنشود.

وعلى حامل الرسالة أن يذكر دوماً ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله  
عنه عن النبي ﷺ قال:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### القاعدة الثانية والثلاثون:

«حامل رسالة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر ليس عليه إلا البلاغ المبين، أسوة بالرسول ﷺ وسائر  
الرسل والأنبياء من قبله، وليس مسؤولاً عن تحويل الناس وتغييرهم من  
الكفر إلى الإيمان، ومن العصيان إلى الطاعة، ولا يسأل عن عدد من  
استجاب له واتبعه، ما لم تكن لديه سلطة التغيير بيده داخل المسلمين».

(١) عن رياض الصالحين (الباب الثالث والعشرون في الأمر بالمعروف والنهي عن  
المنكر) رقم الحديث ١٩٤.

## الشرح:

إنَّ خطة الامتحان الربّاني في الحياة الدنيا قائمةٌ على إعطاء الناس حريّاتهم في أن يؤمنوا أو يكفروا، وفي أن يطيعوا أو يعصوا، وفي أن يسلكوا صراط الله المستقيم، ويلتزموه عن طريق إراداتهم الحرّة، لا بالقسر والقهر والجبر، ولكنّ عليهم بعد ذلك أن يتحمّلوا نتائج اختياراتهم عقاباً بالعدل إذا خالفوا أوامر الله ونواهيه الإلزامية، وهم سيظفرون بثوابه الجزيل إذا أطاعوها وعملوا بمقتضاها.

والمسوّق بالقسر والقهر لا أجر له في صالح العمل، ولا عقاب عليه في سبب العمل.

فحامل الرسالة ليس من شأنه أن يُكره الناس أو يُلزِمهم بالقهر، ولكن يتخذ ما يستطيع من وسائل للإقناع بما يدعو إليه وينصح به، ولتوليد الدافع الذاتي لدى من يتلقّون عنه أو يوجه لهم دعوته ونُصحه.

ففي شأن الكافرين قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٦٨﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٦٩﴾ .

وفي شأن المنافقين قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥١﴾ .

إلى نصوص كثيرة حول هذه القضية جاء بيانها في موضع آخر من هذا الكتاب<sup>(١)</sup>.

(١) انظر العبة الثامنة من العقبات الصادة (الفصل الثاني من الباب الرابع).

وروى الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال:  
قال رسول الله ﷺ:

«يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ... الحديث؟!»

أما تغيير المنكر داخل المسلمين بالقوة فقد جاء تفصيله في موضع آخر من هذا الكتاب، فليُرجع إليه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### القاعدة الثالثة والثلاثون:

«على حامل الرسالة أن يقدم مضامين دعوته إلى الله ونصحه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بأساليب بيانية أدبية جميلة مشرقة، مُزَيَّنَةٌ بما يُمتنعُ الفكر والنفس من جمال في أدب الكلام، وبذلك يجمع بين المضمون الحقّ والحلّل البيانيّة الجميلة المزخرقة».

### الشرح:

● علّمنا القرآن بأسلوبه البياني الرفيع المعجز أن نستخدم الجمال الأدبي في دَعْوَتِنَا إلى الله ونُصَحِنَا وإرشادنا وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، فعلى حامل الرسالة أن يتبع المنهج القرآني بشكل عام لدى أدائه وظائف رسالته، مراعيًا المستوى الفكري للذين يُؤدّي بينهم رسالته، ويُوَجِّه لهُم بيانه.

● ونلاحظ أيضاً أنّ الإعلام الإسلاميّ مضمونُهُ الحقّ والهُدَى، والخيرُ والفضيلةُ والكمال، والدعوةُ إلى كلِّ خيرٍ وصَلاحٍ وإصلاح، وإلى مُقاومةِ الباطل والشرّ والفساد والإفساد في الأرض وفي الأنفس.

(١) انظر الفصل السابع «المجتمع الإسلامي والمنكرات حماية وتغييراً» من الباب الرابع.

أما الإعلام المضادُ فمضمونه على النقيض من مضمون الإعلام الإسلامي غالباً، إلا أنه شديدُ العناية والاهتمام بالأساليب المؤثرة في الأفكار والنفوس، فهو يستخدم زُخْرَفَ القول لنصرة الباطل، والترويج للخرافات والأكاذيب والشرور، والفساد والإفساد في الأرض وفي الأنفس، ويسترضي الشهوات، ويستهوِي الأهواء، ويستعطف رغبات النفوس ولذاتها.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ شياطينَ الإنس والجنّ يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخْرَفَ القول غروراً، لإغراء وإغواء أفراد الناس وجماعاتهم وجماهيرهم الغوغائية، وهم يستخدمون زينات الحياة الدنيا لتذليل النفوس وتطويعها، بغية أن تتنكبَّ صراطَ الله المستقيم، فيُضْغِي إلى زخرف أقوالهم الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبعد الإصغاء تميل قلوبهم، فيَرْضَوْنَ المضامين الفكرية التي يُرَيِّنُونَهَا لَهُمْ.

ثم تكون الممارسات التطبيقية التي يكتَرِفُ فيها الضالّون المعاصي والآثام، وينشرون الشرور وأنواع الفساد في الأرض وفي الأنفس.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٧٦﴾ وَلِتَضَعِيَ إِلَيْهِ آفِئدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١٧٧﴾ .

زُخْرَفَ القول: أي: القول المزخرف، وهو المزين المحسن.

ولِتَضَعِيَ إِلَيْهِ: أي: ولتَمِيلَ إِلَيْهِ، يقال لغة: صَعَا إِلَيْهِ يَضْغُو إِذَا مَالَ

إِلَيْهِ.

والمراد من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا ﴾ الجعلُ القدريَّ بالنظام العام الذي يَلْزَمُ منه وجودُ مؤمنين وكافرين، وأئمةٍ دعاةٍ إلى الحق، وأئمةٍ آخرين

دعاة إلى الباطل والشر، لأنَّ حكمة الامتحان في الحياة الدنيا تقتضي ذلك .

فإذا كان لأئمة الضلال أسلحة بيانية تعتمد في إضلالها على زخرف القول، فلا بُدَّ لأئمة الهدى من أن يقابلوا الأسلحة بمثلاً، فعلى حامل الرسالة أن يكون شديد الاهتمام والعناية بأن يُقدِّم مضامين رسالته بأساليب بيانية مُزخرفة مؤثرة في الأفكار والنفوس والقلوب، حتى يجمع إلى كمال وجمال المضمون وسلامته، جمال الأسلوب البياني المؤثر، وبذلك يكون له الظفر على الشياطين وجنودهم، لأنهم مهما زينوا وزخرفوا أقوالهم بزينات جميلات، فإنهم لن يستطيعوا أن يجعلوا الباطل حقاً، والشر الذي يدعون إليه خيراً، والفساد الذي يريدون نشره صلاحاً.

إنَّ تأثير المضمون الحق ذي الأثر النافع الخيّر تأثير باقي ودائم على المدى الطويل، ولو كان في بداياته بطيء البناء.

أما تأثير زخرف القول لتصديق المضمون الباطل ذي الأثر الضارّ، فهو تأثير ذو انتفاخ وزيد وقتي، لكنّه لا يلبث أن ينكشف زيفه، فيسقط عندئذ المضمون، وتسقط معه الوسيلة المُزخرفة.

ولذلك يحاول المضللون والمبطلون أن يُغيِّروا وسائلهم ووجوههم دواماً حيناً بعد حين .

ونلاحظ من ذلك أنَّ التاجر النَّاصح الصّدوق الذي يقدّم دواماً النافع الجميل، هو الذي يكون شيخ السوق ورئيسه.

أما صاحب الدعايات الزخرفية فإنه يكون رائجاً لوقتٍ محدود، ثمَّ يضمحلُّ زبده، ويظهر غثاؤه، فيذهب جُفاءً، وتكسد بضاعته .

هذه سنّة ربّانية أبانها الله عزّ وجلّ بقوله في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ .

\* \* \*

القاعدة الرابعة والثلاثون :

«على المسلمين جميعاً ولا سيما حملة الرسالة معاملة غير المسلمين بكلِّ فضائل الإسلام وتعاليمه، في الأخلاق والمعاملات والعهود والمواثيق، وتقديماً للتطبيقات العملية دوماً لتعاليم الشريعة الإسلامية، لكيون ذلك صورةً عملية داعية للإسلام، ومُرغبةً فيه» .

الشرح :

هذه القاعدة دلّت عليها نصوص قرآنية كثيرة، ودلّت عليها سيرة الرسول ﷺ في تعامله مع غير المسلمين .

ومن الأدلة القرآنية الآيات من (٩١ - ٩٦) من سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) فقال الله عز وجل فيها :

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ .

يضربُ الله عز وجل في هذا النصّ مثلاً للذين يُنقُضون عهودهم ومواثيقهم وأيمانهم بالمرأة الحمقاء التي من شأنها أن تغزل غزلها، حتّى إذا أحكمتها وأبرمتها إبراماً مناسباً، عادت فنقضته وجعلته أنكاثاً، أي: أعادته إلى مثل ما كان عليه سابقاً صوفاً أو شعراً أو قطناً .

قوله تعالى: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أي: أتخلفون الأيمان



لتخدعوا بها الناس، وتغشوهم بها، حتى يُصدّقوكم في أيمانكم ووعودكم، ثم تنقضونها بغير حق، إن هذا لأمر شنيع جداً.

الدَّخْلَ: الغِشُّ والخيانة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

أزبى: أي: أكثر، والمعنى اتَّخَذُوا أيمانكم الكاذبة وسيلة خديعة لتكون أمتكم أكثر وأقوى من أمة عدوكم؟!!

هذا أمرٌ شنيعٌ منافٍ لأحكام الإسلام، وغاياته النبيلة، فمما لا يرضاه الله لكم أن تخدعوا الناس بالعهود والأيمان الموثقة لها، ثم تنقضوها بغير حق، وتندرعوا بأنكم اتخذتم هذه الوسيلة المحرمة عليكم لتحققوا تكثير أمة الإسلام وتقويتها ضد أمة الكفر والعصيان.

إن الله عز وجل يحرم هذه الوسيلة وأمثالها، ولو كان الغرض منها تقوية أمة الإسلام ضد أمة الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْتَلُواكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: إنكم أيها المؤمنون المسلمون في موضع الامتحان، والامتحان يتطلّب منكم التزام حدود الله، ولو مع أعداء الله، ويكلفكم أن تكونوا دعاة هداة صابرين، ملتزمين بأوامر الله ونواهيه، ممثلين في أعمالكم شريعة الله لعباده.

إنكم أيها المؤمنون المسلمون أمة تبليغ وإقامة لحكم الله في الأرض، ولشريعته في الناس ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً، ضمن حدود أوامر الله ونواهيه، فإذا اتخذتم أيمانكم بالله وسيلة لمخادعة أعدائكم خالفتم أسس رسالتكم للناس، وأعطيتهم مثلاً سيئاً عنها بتصرفاتكم، وكان ذلك منكم مزلّة قدام، وصدّ عملكم هذا الناس عن الدخول في الإسلام، فتأتي النتيجة على عكس ما تريدون، إذ تُسمي أمة الكفر أزبى من أمة الإيمان.

إنكم أيها المؤمنون المسلمون لم تُكَلَّفُوا أن تحوُّلوا الناس إلى الإيمان، حتَّى تتَّخذُوا لذلك آيةً وسيلةً، كالإكراه، والمخادعة بالعهود والوعود والأيمان التي لا تُفونَ بها، إن الله لو شاء تحوَّلهم إلى الإيمان بالإكراه لتولاه بنفسه، فجعل الناس كلهم أمةً مؤمنةً واحدةً، فسلبَ الناس إراداتهم الحرَّة وجعلهم مجبورين غيرَ مُخَيَّرين، وإذا جعلهم مجبورين لم يجبرهم إلَّا على الإيمان بالحقِّ، والإسلام الكامل له جلٌّ جلاله، ولكن يبطل بذلك الابتلاء، وما يترتَّب عليه من جزاء.

ولذلك قال الله تعالى عقب الآيتين السابقتين :

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ  
وَلَتَسْتَأْذِنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا  
السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَسْتُرُوا أَيْمَانَكُمْ بِاللَّهِ ثُمَّ أَنْفَيْتُمْ  
إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ  
وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

فنقض العهود مزلَّةٌ قدِّم عن صراط الله، والعقوبة المعجَّلة أن يذوق ناقضو عهودهم السوء في الدنيا، بسبب عملهم الذي أعطى صورة سيئة صدَّت عن سبيل الله، ثم تكون العقوبة في الآخرة عذاباً عظيماً.

إنَّ نقض العهود أمرٌ خطيرٌ وإثمٌ عظيمٌ في الإسلام، ولذلك كان حماقة تشبه حماقة التي نقضت عزَّ لها من بعد قوَّة أنكاثاً، وهذه حماقة مما ينفر منه العقلاء.

فعلى حامل الرسالة أن يعامل من يؤدِّي بينهم رسالته بكلِّ فضائل الإسلام وأخلاقه، ليكون بحاله أشدَّ تأثيراً منه في مقاله.

\* \* \*

## القاعدة الخامسة والثلاثون :

«على حامل الرسالة أن يفرس في المسلمين مشاعر الانتماء والولاء لله ورسوله ولصحابته وللتابعين لهم بإحسان، ولسائر الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يستغل كلاً من الانتماء والولاء في تطبيقات أحكام الدين، وفي نُصرة الإسلام وقضايا المسلمين والتحمُّس لها».

### الشرح :

الناس في طبيعتهم التي فطرهم الله عليها يحبون أن تكون لهم جهةٌ يَتَّمُونَ إليها، وَيَنْصُرُونَهَا، وَيُعْطُونَهَا ولاءهم، فهم يفرحون بانتصارها، ويحزنون لهزيمتها.

وَيُحِبُّونَ أيضاً أن تكون لهم جهةٌ يُعَادُونَهَا أو ينافسونها ويخذلونها، فهم يفرحون بهزيمتها، ويكرهون انتصارها على من يوالون، أو على من هم أقرب إلى ولائهم.

وهذا يُفسَّرُ تعلق الجماهير التي لا تمارس الرياضة البدنية بأنفسها بمولاتٍ أحد الأندية التي تستأثر بإعجابهم، والفرح بانتصاره كأنهم همُ المنتصرون، والحزن لهزيمته كأنهم هم المنتهزمون.

وهو الذي يفسر تعلق الجماهير أحياناً بحزبٍ سياسيٍ استأثر بإعجابهم تأثراً ببعض أعماله أو بعض أفراده، أو بدعايته الإعلامية، أو تعلق الجماهير بقائد فاتح، أو زعيمٍ مكافح، أو أديب أو كاتب منافع، أو عالم مُرشدٍ ناصح، أو نحو هؤلاء.

فعلى حامل الرسالة أن لا يُهمل غرسَ الولاء الصحيح الصادق في المسلمين لله ورسوله، ولكل ما يَتَّمِي إليهما ومن ينتمي إليهما.

\* \* \*

## القاعدة السادسة والثلاثون :

«على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يبتعد عن مسائل الخلاف التي اختلف فيها علماء المسلمين لدى دعوتِهِ غير المسلمين، وأن يهتمَّ بالقضايا الأصول المجمع عليها، وليُحذَرَ من التعصُّب لمذهب أو رأيٍ يراه هو الصواب ما لم يكن هو الأقرب لإقناع المدعوِّ والأبعد عن إثارة الشبهات في نفسه، فله حينئذٍ أن يذكرَّ أنه هو الصواب فيما يرى؛ دون تعصُّب ولا غضب».

### الشرح :

إن اشتغال الداعي إلى دين الله بالانتصار لرأي إمام من أئمة المسلمين، في قضية من قضايا الخلاف التي اختلفت فيها آراء واجتهادات علماء المسلمين، من شأنه أن يُنقِر المدعوِّين إلى الإسلام، إذ يندوهم بما يغرُس في نفوسهم الشكَّ في الدين الذي يعرضه عليهم، لأنَّ أوَّل ما يخطرُ ببالهم أنَّ أئمة المسلمين غيَّر متفقين على الدين الذي يدعوهم الداعي إلى الدُّخول فيه، وهم لا يُفرِّقون في أوَّل الأمر بين الأصول المتفق عليها التي لا شكَّ فيها، وبين مفهوماتٍ أخرى هي من وراء الأصول، وهي التي اختلفت الآراء الاجتهادية فيها.

حتَّى إذا تمكَّنتِ الأصول الصحيحة المتفقُ عليها بين جميع المسلمين، وقبلها المدعوُّ إلى الإسلام واستجاب إليها، وأعلنَ دخوله في الإسلام، حسنَ عندئذٍ الأخذُ بيدهِ إلى التطبيقات الإسلامية المتفقِ عليها بين عموم المسلمين، وهي أركان الإسلام الخمس، ثمَّ يوجَّهُ له التحذير الشديد من ارتكاب الكبائر كالقتل والسرقة والزنا والإضرارِ بالناس وإيذائهم، ثمَّ يوجَّهُ له لزوم الامتناع عن شرب الخمر ولعب الميسر، وهكذا بالتدرج.

فإذا تمكَّن في الإسلام تمكُّناً صحيحاً صادقاً، وأشرقت أنوارُهُ في قلبه،

ومازَسَ التطبيقات الإسلامية وذاقَ حلاوتها، جاز عندئذٍ تعريفه ببعض مسائل الخلاف مقرونةً بالرأي الصواب أو الراجح مع الدليل الصحيح الواضح.

وهذا من الحكمة التي أمر الله بها في الدعوة إلى سبيله.

\* \* \*

#### القاعدة السابعة والثلاثون:

«على حامل الرسالة الداعي إلى دين الله الحق أن يُعْلِنَ لدى حوارهِ لمن يدعوه تجرُّدَهُ عن التعصُّب لسوابق الأفكار التي يؤمن بها، وأن يُعْلِنَ أنه يَضَعُ موضوع البحث الذي يريد أن يُحَاوِرَ بشأنه من يدعوه، على مائدة بحثٍ مشتركة سواء تَبَدَّأَ بإعلان كلِّ فريق من المتحاورين تجرُّدَهُ عن مؤثرات انتمائه السابق، ليكون بحث الموضوع حُرًّا نزيهاً غير مُشْدُوذٍ بسوابق قيود إلاّ الأسس العقلية العلمية الصحيحة.

وبهذا تكون استجابة المدعوِّ إلى الحقِّ الرِّبَّانِيّ أَرَجَى».

#### الشرح:

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) معلماً رسوله ﷺ، فكلُّ داعٍ إلى دين الله من أمته أن يقول لمن يحاور من الكافرين:

﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

في هذا التعليم الرِّبَّانِيّ إلزامٌ للداعي إلى الله بأن يُعْلِنَ عند حوارهِ لغير المؤمنين تجرُّدَهُ عن سوابق أفكاره حَوْلَ ما يُؤمن به، وأنَّهُ يُقدِّم قضايا مَوْضُوعِهِ الذي يدعو إليه للبحث المتجرد على مائدة سواء بين الفريقين، فعلى كلِّ منهما أن يَنْظُرَ بتجرُّدٍ نظراً فكرياً عقلياً علمياً، ثُمَّ ما يُوصِلُ إليه البحث العلمي المتجرد، فعلى كلِّ من الفريقين المتحاورين أن يَقْبَلَهُ، ويُذعن له، ويؤمن به، ويلتزم بمطلوباته.

إن الدعوة إلى الإيمان بالله الرَّب الخالق الواحد الأحد الَّذِي لا شريك له، وإلى الإسلام له، دَعْوَةٌ إلى قَضِيَّةٍ حَقِّ عَقْلِيَّةٍ، تَشْهَدُ لها قِوَامُعُ الْبِرَاهِينِ، وسِوَامُعُ الْأَدَلَّةِ، فَهِيَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهَا دَعْوَةٌ إِلَى الْهُدَى بِلَا رَيْبٍ، أَمَّا نَقَائِضُهَا فَأُمُورٌ بَاطِلَةٌ دُونَ شَكِّ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى هَذِهِ النِّقَائِضِ دَعْوَةٌ إِلَى ضَلَالٍ مَبِينٍ بِلَا رَيْبٍ.

وعلى الرغم من هذا فقد علّم الله عزّ وجلّ الداعيَ المسلم أن يقول للمدعو الكافر المشرك:

أنا وإيتاك في أفكارنا ومعتقداتنا على طرفي نقيض، فلا بُدَّ أن يكون أحدهما حقًا وهدىً بلا ريب، وأن يكون الآخر منهما باطلاً وضلالاً مبيناً بلا ريب.

وعلى هذا فإما أن نكون نحنُ أو أنتم على هدىً أو في ضلالٍ مبين.

فإن كُنَّا نحنُ على هدىً لالتزامنا جانب الحق، كنتم أنتم في ضلالٍ مبين، لهجركم جانب الحق.

وإن كنتم أنتم على هدىً لالتزامكم جانب الحق، كُنَّا نحنُ في ضلالٍ مبين لهجرنا جانب الحق.

وهكذا يَضَعُ الداعي المسلم مَنْ يُحَاوِرُهُ على مائدةِ بحثٍ مشتركةٍ سواء، لا تَرْجِيحَ فِيهَا ابْتِدَاءً لِأَحَدِ الْمُتَحَاوِرَيْنِ.

ثم إن نَتِيجَةَ الْبَحْثِ الْعَقْلِيِّ الْعِلْمِيِّ الْمَتَجَرِّدِ الْخَالِيِّ مِنْ تَعْصَبِ كُلِّ فَرِيقٍ مِنَ الْمُتَحَاوِرِينَ لِسَوَابِقِ أَفْكَارِهِمَا، وَمَعْتَقَدَاتِهِمَا، هِيَ الَّتِي تَحَدِّدُ الْفَرِيقَ الَّذِي هُوَ عَلَى هُدًى، وَالْفَرِيقَ الَّذِي كَانَ عَلَى ضَلَالٍ مَبِينٍ.

\* \* \*

## القاعدة الثامنة والثلاثون :

«على حامل الرسالة الداعي إلى الله أن يكون شديد الحذر من أن يُسْتَثَارَ أو يُسْتَدْرَجَ إلى سَبِّ وشتيمة ما يُؤْمَنُ به الكافرون من طواغيت .

وعليه أن يُنَزِّهَ لِسَانَهُ عَنِ كُلِّ ما فيه إيذاء لمن يريد هدايتهم ، وعن كُلِّ ما فيه استثارة لمشاعرِ الغضب في نفوسهم .

وعليه أن يَتَّبِعَ جِدًّا عن تَسْفِيهِ آراءٍ ومعتقداتٍ ومفهوماتٍ من يَدْعُوهُ وَيُحَاوِرُهُ قبل أن يَصِلَ إلى الاقتناع الكاملِ بالحقِّ ، فهو عندئذٍ سَيَسْفَهُ ما كان عليه سابقاً من ذلك .

فإذا أَفْحَمَهُ أو تَغَلَّبَ عليه بالحجج البرهانية ثم وَجَدَهُ قد أَصَرَ على بَاطِلِهِ عناداً فله أن يُشِيعِرَهُ من طَرْفٍ خَفِيٍّ بأنَّ التزامه بما هو فيه وإصراره عليه سفاهَةٌ وإصرارٌ على الباطل .»

## الشرح :

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً للذين آمنوا :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ ۝ ﴾

قوله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ : أي : ولا تَسُبُّوا مَعْبُودَاتِ الْمُشْرِكِينَ التي يدعونها وَيَعْبُدونها من دون الله .

قوله تَعَالَى : ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : أي : فيردُّ المشركون على مَنْ سَبَّ آلِهَتِهِم من المؤمنين بأن يسبوا الله عزَّ وجلَّ ظلماً وَعُدْوَاناً وَهُمْ في حالة غضبٍ أَفْقَدَتْهُم مُدْرَكَاتِهِم العَلْمِيَّةَ ، فجعلتهم يَسُبُّون من يعتقدون أنه هو الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

عَدْوًا : أي : ظُلْمًا وَعُدْوَانًا .

وبذلك يتحوّل الخلاف بين المؤمنين والكافرين من خلافٍ فكريٍّ علميٍّ له أدلته العقلية العلمية البرهانية، إلى معركةٍ سبابٍ وشتائم، ولا بُدَّ في هذه الحالة أن يكون أكثرُ الفريقين انتصاراً أكثرهم سباً وشتائم وسفاهةً ووقاحةً، وهذه أمور يتنزّه عنها المؤمنون المسلمون فهم عقلاء راشدون، غيرُ سبّابين ولا طعّانين ولا شتّامين ولا سفهاء ولا أصحاب جهالة.

وحين ينتصر المشركون لأوثانهم التي سبّها لهم المؤمنون فيسبّوا اللهَ عدواً بغير علم، فإنهم يفعلون ذلك، لأن من طبيعة النفوس أن تُدافع عما تؤمن به وتتصبر له، فترى أن سبَّ ومقاتلة ما يؤمن به الخصم أمرٌ حسنٌ، إذ يصنع الوهم لمن لم تُقيدُه أحكام الدين الحق ما يُزيّن له عمله الذي يُدافع به عما يؤمن به، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ وهذا التزيين هو من عناصر نظام التكوين العام، الذي فطر الله عليه النفوس جميعاً.

فعلى المؤمنين أن يُراعوا حالة فطر النفوس وطبائعها التكوينية، فلا يتخذوا من الوسائل ما يستثيرها إلى ما لا يجوزُ استثارتها إليه، وسبُّ الأوثان يستثير المشرك إلى أن يسب اللهَ عدواً بغير علم، فلا يجوز للمؤمن أن يستثيره إلى ذلك، لأنه يكون مشاركاً للمشرك في عمله الشنيع هذا.

\* \* \*

#### القاعدة التاسعة والثلاثون:

«من الحكمة التربوية للاستفادة من التدريبات العملية على السلوك الإسلامي، وغرسها في أعماق النفس، وجعلها جزءاً من شخصية ممارسها، جعلها مقترنة بما تحبه النفوس من مشاعر وجدانية سعيدة، تذوق بها لذات فعل الخيرات والفضائل والصالحات، ومشاعر أخرى تذوق بها لذات مباحات مما ترغب فيه من متاع الحياة الدنيا».



## الشرح:

حامل الرسالة الإسلامية يَحْمِلُ مُهِمَّةَ تَرْبِيَةِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ عَلَى مَمارساتِ السُّلُوكِ الإسلاميِّ .

إنَّ كَثِيرًا مِنْ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ الإسلاميِّ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى النُّفُوسِ، وَسِيَّاسَةٌ الْإِكْرَاهِ وَالْقَسْرِ سِيَّاسَةٌ مُنْفَرَّةٌ، لَا تَغْرَسُ فِي الْإِنْسَانِ عَادَةَ سُلُوكٍ مُحَبَّبٍ لِلنَّفْسِ، بَلْ تَجْعَلُ مِنْهُ إِنْسَانًا يَقُومُ بِعَمَلِهِ وَهُوَ كَارَةٌ لَهُ، نَافِرٌ مِنْهُ .

بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَ التَّوْجِيهُ لِلسُّلُوكِ الإسلاميِّ مَقْرُونًا بِمَشَاعِرِ تُحِبُّهَا النَّفْسُ، وَتَرْتَاحُ لَهَا، وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ مَغْمُوسَةٌ أَوْ مَشُوبَةٌ بِمَشَاعِرِ الْإِيمَانِ، وَمَشَاعِرِ الْأَمَلِ الْعَظِيمِ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ، مَعَ مَشَاعِرِ لَذَّةٍ تَأْتِي بِهَا بَعْضُ الْمَتَعِ الْجَسَدِيَّةِ الْمُبَاحَةِ .

## أمثلة:

١ - إِذَا أُعْطِيَ الْمَرْبِي تَلْمِيذَهُ مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ، وَقَالَ لَهُ: خُذْ هَذَا الْمَالِ وَابْذُلْهُ إِحْسَانًا لِيَتَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُلْ لَهُمْ: إِنَّهَا مِنْ شَيْخِي بَعْنِي بِهَا إِلَيْكُمْ .

أَوْ اشْتَرِ لَهُمْ طَعَامًا طَيِّبًا لَذِيذًا، وَادْهَبْ بِهِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتِ فَقْرَاءٍ جِيَاعٌ يَشْتَهُونَ الطَّعَامَ الطَّيِّبَ اللَّذِيذَ الْغَنِيِّ بِاللَّحْمِ وَالذُّهْنِ، وَيُحْسِنُ أَنْ تُطْعِمَ صِغَارَهُمْ بِيَدِكَ .

فَإِذَا ذَهَبَ التَّلْمِيذُ، حَامِلًا لِأَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ الطَّعَامَ الشَّهِيَّ اللَّذِيذَ، وَقَدَّمَهُ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ، وَأَطْعَمَ صِغَارَهُمْ بِيَدِهِ، وَشَاهَدَ مَبْلَغَ فَرَحِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ بِتَنَاوُلِ مَا قَدَّمَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ، وَكَيْفَ فَرَحُوا وَابْتَهَجُوا، وَكَيْفَ تَعَلَّقُوا بِهِ تَعَلَّقَ الْأَوْلَادُ بِأَبِيهِمْ شَاكِرِينَ وَمُقَدِّرِينَ وَمُحِبِّينَ، فَإِنَّ هَذَا التَّلْمِيذَ سَيَسْعُرُ وَهُوَ يَمَارِسُ هَذَا الْعَمَلَ بِمَشَاعِرِ إِنْسَانِيَّةٍ سَعِيدَةٍ يَضَعُ بِضَعْفِهَا .

وَحِينَ تَتَكَرَّرُ لَدَيْهِ هَذِهِ الْمَشَاعِرُ السَّعِيدَةُ، تَتَوَلَّدُ عِنْدَهُ عَادَةُ الْعَطَاءِ

الجمالية، فكلّما وجدَ نفسه يَمْلِكُ شيئاً من المال اندفَعَتْ نَفْسُهُ لإِطعام الجائعين، لأنَّ نفسه اعتادت أن تُشعرَ بمشاعر السَّعادة بالِإطعام وإطعام الجياع، مع ابتغاءِ رضوانِ الله، والأجر العظيم عنده.

٢ - التدريب على مساعدة الضعفاء والعجزة من الناس بالخدمات الجسديَّة يُفجِّر في النَّفسِ مشاعرَ سعادةٍ عظيمة، ثمَّ تتكوَّن في الإنسان الرَّغْبَةُ الدَّاخِلِيَّةُ في تَكَرُّرِ السلوك، للإحساس بمشاعر السَّعادة التي سبق أن ذاقها، ثمَّ تتكوَّن العَادَةُ التي هي بمثابة الخُلُقِ في السُّلوك، وتعدو الممارسةُ جزءاً من كِيانِ الذات.

٣ - أن يأخذَ حاملُ الرسالة المُربِّي تلميذه إلى المسجد ليدربَه على المحافظة على صلاة الجماعة، فيختارَ مسجداً له إمام حسنُ القراءة، جميلُ الصوت، خفيفُ الصلاة، ويُرْتَب بعد الصلاة جلسةً لطيفة خارج المسجد، أو في غرفةٍ ملحقة به، ويجمعه مع عددٍ من أترابه الذين يأنسُ بهم، ويستطيع أن يندمج معهم، ويُعدَّ لهم شيئاً من الطعام والشراب اللذيذ ليتناولوه في هذه الجلسة، ويُلقِي عليهم فيها شيئاً خفيفاً من تعليمات الدين، ويُرَوِّح عَنْهُمْ ببعض الطرائف التي تُناسب أعمارهم.

إذا تَكَرَّر هذا ولم يكن مصحوباً بما يُسِّم ويُضجِرُ أو يُنقِر، فإنَّ التلميذ ورفاقه سيَجِدون في أعماقهم ما يَدْفَعهم دوماً إلى تأديَةِ الصلاة مع الجماعة في أوَّل وقتها، نظراً إلى أنَّ العادة قد استقرت في نفوسهم مقرونةً ببعض ما تحبُّه، وتميلُ إليه، وتأنسُ به، وصارت لديهم خُلُقاً مكتسباً.

٤ - أن يجمع حاملُ الرسالة المعلمُ المربِّي عدداً من تلاميذه ليحفظوا كتاب الله، ويجعل لكل من يحفظ مقداراً منه جائزةً تشجيعيةً مالية، وجائزة تشجيعيةً تقديرية، حتَّى يَشعرَ الحافظ بأنَّه نالَ ثناءً حسناً، ونالَ ثواباً مادياً

يُحِبُّهُ عَلَى مَا حَفِظَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَهَكَذَا كُلَّمَا حَفِظَ مَقْدَاراً آخَرَ مِنْهُ .

فهذه المكافآت التَّشْجِيعِيَّةُ تَجْعَلُ التَّلَامِيذَ حَرِيصِينَ عَلَى مِتَابَعَةِ حَفِظِ الْقُرْآنِ، مَعَ دَافِعِ التَّنَافُسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، حَتَّى تَتَكَوَّنَ لَدَيْهِمْ عَادَةُ الْحَفِظِ، ثُمَّ تَكُونُ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ جِزْءاً مِنْ سُلُوكِهِمُ الدَّائِمِ .

٥ - وَكَذَلِكَ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ، وَمَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَرِخَالَاتِ الْحَجِّ وَالْعِمْرَةِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ الْإِسْلَامِيِّ، فَبِاسْتِطَاعَةِ الْمُرَبِّيِّ الْحَكِيمِ الَّذِي يُوَدِّي الرِّسَالَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَنْ يُدَرِّبَ تَلَامِيذَهُ عَلَيْهَا تَدْرِيباً مَقْرُوناً بِمَا يُحِبُّونَ وَيَشْعُرُونَ مَعَهُ بِلَذَّاتِ وَجْدَانِيَّةِ، وَلذَاتِ مَادِّيَّةِ مِبَاحَةِ .

\* \* \*

القاعدة الأربعون:

«حامل الرسالة الإسلامية الداعي إلى الله هو بمثابة الطبيب الرحيم الناصح، لا ينظر إلى المخالف على أنه عدو ينبغي أن يتخلص منه، إنما ينظر إليه على أنه مريض يريد أن يُنقذَه من مرضه، فالمؤمن المسلم يدعو الناس إلى دين الله بدافع الرحمة بهم، لنجاتهم من عذاب الله، وظفرهم بالسعادة الخالدة» .

الشرح:

إن الدعوة إلى دين الله يَجِبُ أَنْ تَقْتَرْنَ بِابْتِغَاءِ إِنْقَازِ الْمَخَالِفِينَ مِمَّا هُمْ فِيهِ، لِحِمَايَتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، وَحِرْصاً عَلَى سَعَادَتِهِمْ فِي جَنَاتِ النِّعِيمِ، وَحَالُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ كحَالِ الطَّبِيبِ الرَّحِيمِ النَّاصِحِ الْحَرِيصِ عَلَى إِنْقَازِ مَرْضَاهُ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرَاضٍ .

وكما كانت الرسالة الإسلامية رحمةً من الله لعباده، وكان الرسول محمد ﷺ رحمةً للعالمين، كان من واجب حامل الرسالة الإسلامية أن يملأ قلبه بمشاعر الرحمة بالمخالفين، لإنقاذهم، وكذلك كان الرسول ﷺ شديد

الرحمة والحرص على إنقاذ الكافرين من الكفر، والعاصين من العصيان، حتى كانت رحمته العظيمة بهم تؤثر عليه، فتُضنيه كلماً وجدّ منهم عناداً وإعراضاً. وكان القرآن ينزل على الرسول ﷺ ليخفف من حُزنه على كُفّار قومه، فقد أنزل الله عليه قوله في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ .

وأنزل عليه قوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ يَشَاءِ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءِ فَلَا نَذِيبُ نَفْسًا عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ .

وأنزل عليه قوله في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ .

لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ: أي: قَاتِلٌ نَفْسَكَ حُزْنًا عَلَيْهِمْ وَحَدَرَ أَنْ لَا يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ .

\* \* \*

القاعدة الحادية والأربعون:

«على حامل الرسالة أن لا يَحْمِلَ مَنْ يَقْتَدُونَ به على الأخذ بأشدّ الأعمال وأشقها على نفوسهم، أو بأشدّ الاجتهادات الفقهية ما دام في الدِّينِ سَعَةً وَفُسْحَةً، بل يكون رفيقاً بهم، مُبَشِّراً غير مُنْفِرٍ، مُبَسِّراً غير مُعَسِّرٍ، وإذا كان في الحكم الفقهي خلافٌ بين أئمة الاجتهاد من عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فمن الحكمة أن يُبَيِّنَ لَهُمْ اختلاف الآراء الاجتهادية، وَيُنصَحُهُمْ بِأَنْ يَأْخُذُوا بِمَا هُوَ الْأَحْوَطُ لَدِينِهِمْ، ويترك لهم أن يختاروا لأنفسهم منها ما هو الْأَيْسَرُ لَهُمْ، ولا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَشُقَّ عَلَيْهِمْ بِالنَّوَافِلِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ إِذَا كَانَ إِمَاماً لَهُمْ لِثَلَاثٍ يُنْفَرُهُمْ وَيَقْتَنِبُهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» .

## الشرح:

دلّت نصوص الكتاب والسنة على أن هذا الدين يُسرّ وليس بعسر، وأن الله ما جعل على الناس في هذا الدين من حرج، فقد ادّخر الله لهذا الدين الخاتم أحكام التيسير، ورفع فيه الإصرَ الذي كان في رسالاته السابقة، فليس من حقّ أحدٍ أن يغلو في هذا الدين غلوّاً يخرجُ به عن حدود أحكامه وشرائعه.

ومن النصوص الكثيرة المبيّنة لهذه الخصيصة من خصائص الدين ما يلي:

- ١ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:  
«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا،  
وَأَبْسِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ».
- الغُدْوَةُ: سَيْرٌ أَوَّلِ النَّهَارِ.
- الرَّوْحَةُ: سَيْرٌ آخِرِ النَّهَارِ.
- الدَّلْجَةُ: آخِرُ اللَّيْلِ عِنْدَ السَّحْرِ.

والمعنى استعينوا على طاعة الله عز وجلّ بالأعمال في أوقات نشاطكم، وفراغ قلوبكم، حتّى تجدوا للعبادة لذاتٍ في نفوسكم، ولا تسأموا.

- ٢ - وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:  
«يَسِّرُوا وَلَا تَعَسَّرُوا، وَبَسِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا».

- ٣ - وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي  
الْمَسْجِدِ فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقْعُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«دَعُوهُ وَأَرِيْقُوا عَلَيَّ بَوْلَهُ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسَّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ».

السَّجَلُ: الدَّلْوُ الْمُمْتَلِئَةُ مَاءً.

٤ - وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ تَعَالَى».

٥ - وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَمَعَهُ نَاضِحَانِ لَهُ (١)، وَقَدْ جَنَحَتِ الشَّمْسُ (٢)، وَمُعَاذٌ يُصَلِّي الْمَغْرِبَ، فَدَخَلَ مَعَهُ الصَّلَاةَ، فَاسْتَفْتَحَ مُعَاذُ الْبَقْرَةَ أَوْ النَّسَاءَ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذَلِكَ صَلَّى ثُمَّ خَرَجَ (٣) فَبَلَّغَهُ أَنْ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ.

فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:

«أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، فَلَوْلَا قَرَأْتَ: سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، فَصَلَّى وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَذُو الْحَاجَةِ وَالضَّعِيفُ».

فمن هذه الأحاديث نفهم أن قائد الجماعة وإمامهم وداعيهم إلى دين الله ينبغي له أن لا يحمل عامتهم وأفرادهم حملاً على ما يشق عليهم، ما دام في أحكام الدين متسع لما فيه يسر وسهولة.

\* \* \*

(١) الناضح: الدابة يُسْتَقَى عليها.

(٢) جنحت الشمس: أي: مالت غاربةً.

(٣) أي: صلى منفرداً ناوياً مفارقة الإمام كما يظهر والله أعلم.

## القاعدة الثانية والأربعون:

«حامل الرسالة الذي يُرَبِّي تَلَامِيذَهُ والمستجيبين له إِذَا وَجَّهَ اهْتِمَامَهُ  
الْبَالِغَ لِلصَّغَاثِرِ من أحكام الدين، وحمَلَهُمْ حملاً شديداً على الالتزام بها،  
جَعَلَهُمْ من حيث لا يَشْعُرُ يَسْقُطُونَ في ارتكاب كبائر الإثم.

فَعَلَيْهِ أَنْ يُوجِّهَ اهْتِمَامَهُ الْأَقْصَى للالتزام بالفرائض العظمى كالصلاة  
وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ، واجتناب الكبائر كالقتل والسَّرْقَةَ وَالزَّانَا وشرب  
الخمير والغيبة والنميمة والإضرار بالناس وأكل الرِّبَا وأكل أموال الناس  
بالباطل، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ بِهِمْ شيئاً فشيئاً في دَرَجَاتِ الْكَمَالِ».

## الشرح:

روى الإمام أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم عن أنس رضي الله عنه،  
أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَابُونَ».

وروى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله  
عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ،  
فَزَنَا الْعَيْنِ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالتَّنْفُسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجُ  
يُصَدَّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذَبُهُ».

تَمَنَّى: أَي: تَتَمَنَّى.

فمن الحكمة أن يضع حامل الرسالة المرَبِّي في حسابه أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ  
عُرْضَةٌ لِلخَطَا وارتكاب المعاصي، وَأَنَّهُ إِذَا وَجَّهَ عِنَايَتَهُ الْعُظْمَى لِلإِثْمِ بفعل  
صغائر الواجبات، والإلزام بترك صغائر المحرمات، مع أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مَفْطُورٌ  
على السقوط في الخَطَايَا، فلا بُدَّ أَنْ تَرَلَّ قَدَمُهُ فَيَقَعَ في الكبائر مُسْتَرّاً بها،

وَمُكْتَفِيًّا بِمَا يَرَى النَّاسُ مِنْهُ مِنَ التَّزَامِ بِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ الصَّغْرَى، وَاجْتِنَابِ  
الْمَحْرَمَاتِ الصَّغْرَى.

لَكِنَّ الْأَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ وَالْأَحَبَّ إِلَيْهِ جَلٌّ وَعِلَاءٌ، أَنْ يَلْتَزِمَ الْعَبْدُ بِأَدَاءِ  
الْفَرَائِضِ الْعَظْمَى، وَتَرْكِ الْكِبَائِرِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ، فَإِذَا نَزَعَتْ فِي دَاخِلِهِ نَوَازِعَ  
الْخَطِيئَةِ وَكَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَكُنْ ذَلِكَ بِتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ الصَّغْرَى، وَارْتِكَابِ  
الْمَحْرَمَاتِ الصَّغْرَى الَّتِي تَكْفُرُهَا الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنَ النَّوَافِلِ، كِاسْبَاغِ  
الْوَضوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةِ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَقِيَامِ اللَّيْلِ، وَتِلَاوَةِ  
الْقُرْآنِ، وَصِيَامِ الْأَيَّامِ الَّتِي يُسْتَحَبُّ الصِّيَامُ فِيهَا.

إِنَّ لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نِسْبًا، فَمِنْهَا الْفَرَائِضُ الْعَظْمَى وَكِبَائِرُ  
الْمَحْرَمَاتِ، وَمِنْهَا دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهَا الصَّغْرَى، كَرَدِّ السَّلَامِ فِي الْوَاجِبَاتِ،  
وَالنَّظَرِ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ فِي الْمَحْرَمَاتِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النِّسَاءِ/ ٤/ مِصْحَفِ/ ٩٢ نَزُولِ) خُطَابًا  
لِلَّذِينَ آمَنُوا:

﴿ إِنْ جَحْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا نُتَهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدْخَلْكُمْ  
مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾.

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ  
قَالَ:

«مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ، يَعْتَادُهُ الْفَيْئَةَ بَعْدَ الْفَيْئَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ  
مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا، تَوَابًا، نَسِيًا،  
إِذَا ذُكِرَ ذَكَرَ».

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ  
قَالَ:



«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».

وروى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن أبي بكر، أنَّ النبي ﷺ قال:

«مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

إلى غير هذه النصوص من نصوص كثيرة.

\* \* \*

### القاعدة الثالثة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يُخاطب الناس على مقادير أفهامهم، وبما يُذركون من مستوياتٍ فكرية، وبما يُعجبهم من أساليب بيانية، وبالوسائل الجذابة المشوقة».

فلكل فئة من الناس خطابٌ يتلاءم مع نوع ثقافتهم ومستواها، وأسلوب بيانٍ يكون أكثر تأثيراً في نفوسهم».

### الشرح:

إنَّ الغرض من مخاطبة حامل الرسالة للناس توصيلُ المعاني المراد توصيلها إلى أفكارهم فقلوبهم، والتأثيرُ في نفوسهم بأسلوب الخطاب الملائم لهم، ليتقبَّلوا ما يُوجَّه لهم من رسالة، في الدعوة إلى الله، أو في التصحُّح والإرشاد، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فعلى حامل الرسالة أن يتعرَّف على أحوال من يخاطبهم فكرياً وثقافياً ونفسياً، وعلى ما يناسب أحوالهم من مستوى فكري، وأساليب خطابٍ بيانية، ليختار في مخاطبته لهم ما يناسب أحوالهم، وبذلك يكون بليغاً في

بيانه، إذ البلاغة هي الكلام الفصيح المطابق لمقتضى حال المخاطب به .

ومعلوم أنّ كبراء القوم وأصحاب الجاه والسلطان لهم خطاب يلائمهم، والأذكىاء لهم خطاب يلائمهم، وذوي المستويات العلميّة العالية لهم خطاب يلائمهم، وغير المتعلّمين من عامة الناس لهم معاني وأساليب خطاب تلائم أحوالهم، والنساء لهنّ خطاب يلائم أحوالهنّ، وهكذا إلى سائر أصناف البشر .

والحكمة تقتضي من الحكيم أن يصطفي لكلّ فئة من الناس ذات صفاتٍ خاصّة، ما يلائم هذه الصفات فيهم من الكلام، حرصاً على أن يكون كلامه لهم أكثر تأثيراً وفعلاً، وأكثر تحقيقاً للأغراض المقصودة من تأديته رسالته بينهم .

\* \* \*

#### القاعدة الرابعة والأربعون :

«على حامل الرسالة أن يتخذ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته للنساء، ولو بأنّ يعقد مجالس يخصّهنّ بها، على أن تكون محفوفة بما يجعل اللقاء بهنّ مضموناً لا تكون فيه خلّوات» .

#### الشرح :

النساء شقائق الرجال، وهنّ مطالبات بالإيمان والعمل الصالح كالرجال، وعليهنّ أن يعرفنّ أمور دينهنّ حتى يلتزمن بها، فلهنّ حقّ على حملة الرسالة الإسلاميّة في أن يوصلوا إليهنّ مفهومات الدين وتعليمات أصوله وفروعه كالرجال، ويزدّن بأنّ لهنّ حقّ التعرف على أحكام الدين الخاصّة بهنّ، كأمر الحيض والنفاس والحمل والرضاع والستر والزينة، وحقوق الأزواج عليهنّ .

وقد كان النساء يستمعن إلى ما يُقال في مجالس العلم والتذكير في عهد

الرسول ﷺ وعهود الخلفاء الراشدين والتابعين لهم بإحسان.

وصح أن الرسول ﷺ خصص للنساء مجالس خاصة بهن ليتعرفن بها على أحكام الأمور الخاصة بهن.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه نعلمنا مما علمك الله، قال: «اجتمعن يوماً كذا وكذا» فاجتمعن، فأتاهن النبي ﷺ، فعلمهن مما علمه الله ثم قال: «ما منكن من امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجاً من النار».

فقالت امرأة: واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين».

فعلى حامل الرسالة أن يتأسى برسول الله ﷺ في هذا، فيتخذ وسائل لتوصيل دعوته وبياناته ونصحه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر للنساء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

\* \* \*

#### القاعدة الخامسة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يكون حسن الإصغاء والاستماع والإنصات لمن يوجه له رسالته، إذا أراد أن يتكلم، ليعرف ما لديه من شبهات، أو مشكلات، أو عروض مزالق، أو غيرها، فيعالجها بما يلائمها علاجاً حكيماً».

الشرح:

إذا لم يكن حامل الرسالة حسن الإصغاء والاستماع والإنصات لمن يوجه له رسالته، فإنه لا يستطيع أن يكتشف ما في نفسه من شبهات، أو مشكلات، أو عروض مزالق، أو غيرها، ليعالج كل حالة بما يلائمها، وربما يتجه بحديثه معه اتجاهها يكون الطريق منه إلى نفسه مسدوداً، وتكون الأبواب إليها موصودة.

بخلاف ما لو تَرَكَ له فُرْصَةً لِيَشْرَحَ ما فِي نَفْسِهِ، وَيُعَبِّرَ عَمَّا فِي دَاخِلِهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ بِمِثَابَةِ مَنْ يَسْتَخْرِجُ صَاحِبَ الْحِصْنِ مِنْ حِصْنِهِ بِمَا يُغْرِيه بِالْخُرُوجِ، وَهُوَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا إِذَا فَتَحَ بَاباً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ أَبْوَابِ حِصْنِهِ بِاخْتِيَارِهِ، فَإِذَا خَرَجَ تَلَقَّاهُ قَاصِدُهُ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَا يُهِمُّهُ أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ.

إِنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ الدَّاخِلِيَّةَ تَكُونُ فِي الْعَادَةِ دَاخِلَ حِصْنِهَا الْخَاصِّ بِهَا، وَلَا يَسْتَطِيعُ قَاصِدٌ مُحَادَثَتَهَا مِنْ أَعْمَاقِهَا الدُّخُولَ إِلَيْهَا، إِلَّا إِذَا فَتَحَتْ لَهُ بَاباً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ أَبْوَابِ حِصْنِهَا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَكَلَّمُ مَعَ غَيْرِهِ مِمَّنْ هُمْ خَارِجٌ حِصْنِهِ مَا لَمْ تَخْرُجْ نَفْسُهُ أَوْ بَعْضُهَا مِنْ بَابٍ أَوْ نَافِذَةٍ مِنَ الْحِصْنِ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُ بِالْإِمْكَانِ مُلَامَسَةَ النَّفْسِ، وَمَعْرِفَةَ بَعْضِ مَا لَدَيْهَا، وَمُحَاوَرَتَهَا مِنَ الْمُنْفَذِ الَّذِي فَتَحْتَهُ، لِمَنْ هُوَ خَارِجٌ حِصْنِهَا.

وَعَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَتَأَسَّى بِالنَّبِيِّ ﷺ، إِذْ كَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَسَنَ الْاسْتِمَاعِ وَالْإِصْغَاءِ وَالْإِنْصَاتِ لِمَنْ يُحَدِّثُهُ، حَتَّى يَكْتَشِفَ مَا فِي نَفْسِهِ، وَيُعَالَجَهُ بِمَا يُلَاقِيهِ.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ النَّبَوِيَّةِ اسْتِمَاعَ الرَّسُولِ ﷺ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، حِينَ أَرْسَلَتْهُ قُرَيْشٌ لِمُفَاوَضَتِهِ، رَغْبَةً مِنْهَا فِي أَنْ يَكْفَى عَنْ دَعْوَتِهِ.

جَاءَ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ، قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَخَدُهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَأُكَلِّمُهُ، وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا، لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا، فَتُعْطِيَهُ أَيُّهَا شَاءَ، وَيَكْفَى عَنَّا؟

فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمُهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

«يا ابن أخي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الشَّرَفِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَزَفَّتْ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهَتْ بِهِ أَخْلَامَهُمْ، وَعَبَتْ بِهِ آلِهِتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرَتْ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ بَعْضَهَا.

فقال له رسول الله ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ».

قال عُبَيْةُ: يا ابن أخي، إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا، حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَيْثًا<sup>(١)</sup> تَرَاهُ، لَا تَسْتَطِيعُ رَدُّهُ عَن نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالِنَا حَتَّى نُبْرِتَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رَبُّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ، حَتَّى يُدَاوِيَ مِنْهُ.

حَتَّى إِذَا فَرَعَ وَرَسُولُ اللَّهِ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ مُضْغِيًا مَنْصِتًا، قَالَ لَهُ: «أَفَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟».

قال عُبَيْةُ: نعم.

قال رسول الله ﷺ: «فاسْمَعْ مِنِّي».

قال عتبة: أفعَل.

فتلى الرسول ﷺ من سورة فَصَّلَتْ:

﴿حَمْرٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَذَّبَتْ فَضِلَّتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرَةِ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقُرْءَانٌ مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ جِحَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

(١) الرَّثِي: الجِنِّيُّ يَعْزِضُ لِلإِنْسَانِ، وَيُطْلَعُهُ عَلَى مَا يَزْعُمُ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ.

مَنْ لَكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾  
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ .

ومضى رسول الله ﷺ يتلو الشّورة على عتبة بن ربيعة، وهو يستمع ويُنصتُ، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السّجدة منها، عند قول الله عز وجل:

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

فسجد الرسول ﷺ، ثم قال لعُتْبة: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عُتْبة بن ربيعة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورأيي أنني قد سمعت قولاً واللّه ما سمعت مثله قط، واللّه ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرَكَ واللّه يا أبا الوليد بلسانه.

فقال لهم: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

\* \* \*

القاعدة السادسة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن لا يتجسس على المسلمين متبّعاً عوراتهم في بيوتهم ومنزلهم، وأن لا يواجه بمقالة التلويح إلا من كان مجاهرًا بمعاصيه، أما المتستر بمعاصيه فبحسبه أن يقول في شأنه قولاً عامًّا: ما بال أقوام

يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا، دُونَ أَنْ يُعَيِّنَ الْمَقْصُودَ لَا بِالِاسْمِ، وَلَا بِالْوَصْفِ الْمُمَيِّزِ،  
أَوْ أَنْ يَنْصَحَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِرًّا، وَإِلَّا كَانَ فَاضِحًا لَهُ لَا نَاصِحًا، وَقَاصِدًا لِلتَّشْهِيرِ  
بِهِ لَا إِصْلَاحِهِ».

### الشرح:

من الوصايا النبوية العظمى تحذيرُ الرسول ﷺ المسلمين المشدّد من  
تَبَّعَ عَوْرَاتِ النَّاسِ الَّتِي يَسْتَتِرُونَ بِهَا وَلَا يَجَاهِرُونَ بِارْتِكَابِهَا.

وقد خاطبَ الرسول ﷺ مُتَّبِعِي عَوْرَاتِ النَّاسِ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِالسِّيْتِهِمْ وَلَمْ  
يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قُلُوبَهُمْ.

وحملةُ رسالةِ النَّضْحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ  
أَوْلَى الْمُسْلِمِينَ بِاجْتِنَابِ هَذَا الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

قال:

«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ،  
وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ  
تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ».

وعند الترمذي نظيره عن ابن عمر<sup>(١)</sup>.

ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا الرُّعَاةُ فِي حَالَةِ كَوْنِ الْمَعَاصِي الْمَسْتَوْرَةِ  
مِنْ بَعْضِ رَعِيَّتِهِمْ تُسَبِّبُ خَطْرًا عَلَى الْمَجْتَمَعِ، أَوْ ضَررًا لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،  
كَالْخَوْنَةِ مَعَ الْأَعْدَاءِ.

\* \* \*

(١) انظر صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم ٧٩٨٤ والحديث ٧٩٨٥.

## القاعدة السابعة والأربعون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يُنزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، تَأْلِيفاً لِقُلُوبِهِمْ، وَمَنَّةُ إِعْطَاءِ ذِي الْمَكَانَةِ وَالْوَجَاهَةِ فِي قَوْمِهِ مَا تَحْتَاجُهُ نَفْسُهُ مِنْ تَمْجِيدٍ وَتَقْدِيرٍ».

ذوو المَكَانَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ يَتَأَصَّلُ فِي نَفُوسِهِمْ حُبُّ التَّمْجِيدِ وَالتَّعْظِيمِ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَنُمُو فِي دَاخِلِهِمْ حُبُّ التَّقْدِيرِ الْمَوْجُودِ لَدَى مَعْظَمِ النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِنِسْبِ مِتْفَاضِلَةٍ.

وينبغي لتأليف قلوب هذا الصنف من الناس للدخول في الإسلام، أو للتمكُّن فيه إعطاؤُهُمْ شيئاً من هذا الذي يُحِبُّونَهُ مِنْ تَقْدِيرِ اجْتِمَاعِيٍّ، رَجَاءً إِزَالَةَ الْعُقْبَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَمْنَعُهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَتُحَبِّبُهُمْ بِالِاسْتِجَابَةِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، أَوْ لِلتَّمَكُّنِ فِيهِ، بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَنُفُوسُهُمْ نَزَاعَةً لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ، أَوْ كَبَحُوا جَمَاحَ نَفُوسِهِمْ وَاسْتَجَابُوا لِلدَّعْوَةِ الْحَقِّ، رَغْبَةً فِيهِ، وَطَلَباً لِثَوَابِ اللَّهِ وَالْآخِرَةِ.

وقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في المواضع الملائمة لاستخدامه.

● ففي فتح مكة، حين كان الرسول ﷺ وجيش المسلمين معه في «مرَّ الظهران»<sup>(١)</sup> وَقَدِمَ الْعَبَّاسُ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ بِأَبِي سَفِيَانَ إِلَيْهِ، وَبَعْدَ مُحَادَثَةٍ بَيْنَهُمَا، وَحَثَّ الْعَبَّاسُ لَهُ عَلَى أَنْ يُسَلِّمَ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، عِنْدَئِذٍ قَالَ الْعَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سَفِيَانَ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئاً.

قال الرسول ﷺ: نعم، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

فَأَعْجَبَ أَبَا سَفِيَانَ أَنْ يُعْلَنَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ أَنَّ مَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ.

● وروى البخاريُّ عَنْ عَمْرٍو بْنِ تَغْلِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ

(١) يعرف الآن بوادي فاطمة.



رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنِّي بِمَالٍ أَوْ سَبِي فَقَسَّمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالًا وَتَرَكَ رِجَالًا، فَبَلَغَهُ  
أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللَّهُ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

«أَمَّا بَعْدُ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ  
مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ  
وَالهَلَعِ، وَأَكْلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ  
عَمْرُو بْنُ تَغْلِبٍ».

قال عَمْرُو بْنُ تَغْلِبٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ  
النَّعَمِ.

لقد كان ثناء الرسول ﷺ أحب إليه مما لو كان أثره بالعتاء دون غيره،  
وقد عالج الرسول نفسه بما يلائمها تماماً.

● وجاء عند ابن كثير في «البداية والنهاية»<sup>(١)</sup> أن «وَأَيْلُ بْنُ حُجْرٍ أَحَدَ  
أَقْبَالِ «حَضْرَمَوْتِ» قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْلِمًا وَكَانَ قَدْ بَشَّرَ بِهِ أَصْحَابَهُ  
قَبْلَ قُدُومِهِ، وَقَالَ: يَا أَيُّكُمْ بَقِيَّةُ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رَحَّبَ بِهِ، وَأَذْنَاهُ  
مِنْ نَفْسِهِ، وَقَرَّبَ مَجْلِسَهُ، وَبَسَطَ لَهُ رِدَاءَهُ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي وَايِلِ  
وَوَلَدِهِ وَوَلَدِ وَايِلِهِ» واستعمله على الأقبال من حضرموت»<sup>(٢)</sup>.

وروى مسلم في مقدمة صحيحه تعليقا بإسناد حسن عن عائشة  
رضي الله عنها قالت: «أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ».

\* \* \*

القاعدة الثامنة والأربعون:

«ينبغي لحامل الرسالة أن يكون خبيراً بمجتمعِهِ الَّذِي يعيش فيه، متتبعاً

(١) انظر الجزء الرابع ص ٧١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الاطلاع على أحداثه، حتى يُحسِن توجيّههُ، ويُحسِن مُعَالَجَةَ كُلِّ حَدَثٍ بما يلائمهُ».

الشرح:

كُلُّ من يطالع أحداثَ السيرة النبوية بوغي وتدبّر يُدرك أن رسولَ الله ﷺ قد كان عَظِيمَ الخبرة بمجمَعِهِ الخاص، وبمجمَعاتِ قبائل العربِ على اختلافها في الصفاتِ والخصائصِ والعاداتِ.

وكانَ صلواتُ الله عليه شديدَ اليقظة والاطلاع على كلِّ ما يجري من أحداثٍ، في بيئته، وفيما حولها.

وكان يُعالج المشكلاتِ بأيسرِ الحُلُولِ، وأرضاها لله عزّ وجلّ، وأكثرها بُعداً عن النزاعِ والخلافِ، ويُعالجُ كلَّ حَدَثٍ بما يلائمهُ من رُشدٍ، مع غايةِ الحكمة في المعالجةِ.

وكانَ صلواتُ الله عليه يتخذُ كُلَّ وسيلةٍ تُتاحُ له لتأليفِ القلوبِ، وتوحيدِ الصّفِّ، وشدِّ الروابطِ المتينةِ بين أفرادِ المسلمين، وإطفاءِ نارِ الفتنة، ووأدّها في مكانها، ولو كان ذلك مخالفاً لما تهوَّى نفسه.

وكان صلواتُ الله عليه يتجاهل كرامة نفسه من أجلِ تأليفِ القلوبِ على الإسلامِ، ورأبِ الصّدعِ، ومنعِ وخذة الجماعةِ المُسلمة من أن يحدث بين صفوفها انشقاقٌ أو انقسامٌ أو تُغراتٌ ينفذ منها أعداء الإسلام والمسلمين، أو تناقضٌ أو تناحرٌ بين أفرادهم أو فئاتهم.

فعلى حامل الرسالة أن يتأسى بالرسول ﷺ في كل ذلك.

\* \* \*

القاعدة التاسعة والأربعون:

«على حامل الرسالة أن يكونَ شديدَ الحَدَرِ من الانحيازِ إلى فئةٍ دونَ

اخرى، لأنه يجب أن يكون للجميع معلماً وناصحاً ومُرشداً، وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وناصرأً للحق حيث كان، وحاكماً على الباطل بأنه باطل حيث كان».

### الشرح:

لقد كان رسول الله ﷺ للمسلمين جميعاً، ولم يكن لفتية دون أخرى، ولم يكن ينحاز إلى فريقٍ منهم دون فريق، بل كان يضع كل إنسان في الموقع الملائم لخصائصه وصفاته وما امتاز به من أفضلية.

فالسابق مثلاً في الإسلام والجهاد والهجرة له تفضيلٌ بسبب ماله من ميزة السبق في ذلك.

والمتمفوق في العلم والحكمة يمنحه العمل الملائم لتفوقه هذا. والمؤهل للقيادة الإدارية أو الحربية يضعه في الموضع الذي يلائم أهليته.

وذو الرأي الحصيف والتجربات ذوات الخبرات النافعات يستشيرهم فيما هم مؤهلون لإبداء الرأي فيه.

وذوو الفضل بالتقوى والبر والإحسان بمنحهم تكريماً لتقواهم وبرهم وإحسانهم.

والجميع أمام أحكام الدين وحُدوده سواء، فلو أن فاطمة بنت محمد سرقت وثبتت عليها السرقة، لقطع محمد رسول الله ﷺ يدها.

ولم يكن يزيد في عطائه من الأموال العامة ذا قربي لقرابته أو ذا رحم لرحمه.

ولم يكن ينحاز لنصرة أحدٍ بغير حق، مهما كان ذا مكانة اجتماعية عالية في قومه، أو ذا قرابة، أو رجم، أو مودة خاصة.

فعلى حامل الرسالة أن يتأسى في علاقاته الاجتماعية بما كان عليه

رسولُ الله ﷺ، وعلى حامل الرسالة أن يكون مع الجميع ناظراً إلى خصائصهم وصفاتهم ومؤهلاتهم، لا إلى انتماءاتهم أو قراباتهم أو عواطفه الخاصة نحو كلٍّ منهم حباً أو كراهية.

\* \* \*

القاعدة الخمسون:

«يَحْسُنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَكُونَ جَوَاداً سَخِيّاً، فَالْجُودُ وَالسَّخَاءُ مِنْ أَعْظَمِ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَلَّفُ الْقُلُوبَ، وَتَمْتَلِكُ الْمَشَاعِرَ النَّبِيلَةَ وَتَعْقِدُ الْمَوَدَّاتِ».

الشرح:

كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وأكثرهم سخاءً وعطاءً من نفسه أو ماله، وكان يتألف بجموده قلوب الناس على الإسلام.

● روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ جَبْرِيلُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ، يَعْزُضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جَبْرِيلُ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.

● وروى مسلم عن أنس، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَمَّا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَاتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لِيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ.

● وروى البخاري عن جبير بن مطعم: بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَتِ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ، حَتَّى اضْطَرَّوهُ إِلَى سَمْرَةَ فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ:

«أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عِدْدُ هَذِهِ الْعِضَاءِ نَعَمَ لَقَسَمْتُه بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا».

سَمْرَةَ: أَي: شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الطَّلْحِ.

العِضَاءُ: الشَّجَرُ الَّذِي لَهُ شَوْكٌ.

فِيحُسِّنُ بِحَامِلِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَتَأَسَّى بِالرَّسُولِ ﷺ فِي جُودِهِ وَسَخَائِهِ تَأْلِيْفًا  
لِلْقُلُوبِ عَلَى الْإِتِّمَاعِ بِالْإِسْلَامِ، أَوْ قَبُولِ الدِّخُولِ فِيهِ .

القاعدة الحادية والخمسون: «عَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ  
يُقَدِّمَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ الْبِشَارَةَ عَلَى الْإِنذَارِ، وَأَنْ يَضْرِبَ عَلَى أُوْتَارِ الطَّمَعِ بِثَوَابِ  
اللَّهِ الْجَزِيلِ، قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلَى أُوْتَارِ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي نَفُوسِهِمْ،  
حَتَّى إِذَا يَتَسَّرَ مِنْ اسْتِجَابَةِ الْمَدْعُوعِينَ وَظَهَرَ لَهُ عِنَادُهُمْ وَكُفْرُهُمْ، رَكَزَ عَلَى  
تَوْجِيهِ الْإِنذَارَاتِ وَالتَّحذِيرَاتِ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ،  
عَلَى مَقْدَارِ مَا يَرَى مِنْ عِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ .

ومهما وجدَ لديهم ولو قليلاً من لِينِ الْجَانِبِ نَحْوِ قَبُولِ الْحَقِّ، فَتَحَّ لَهُمْ  
أَبْوَابُ الطَّمَعِ بِغُفْرَانِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ، وَقَدَّمَ لَهُمُ الْبُشْرِيَّاتِ الْمُرْتَبِطَةَ بِإِيمَانِهِمْ  
وَاتَّبَاعِهِمُ الْحَقَّ» .

### الشرح:

من استقراء وسبب معاني النصوص القرآنية التي جاء فيها استعمال مادتي  
التبشير والإنذار تبين لي ما يلي:

الأول: جاء في القرآن المجيد «ثلاثة عشر نصاً» قُدِّمَ فِيهَا التَّبَشِيرُ عَلَى  
الْإِنذَارِ، مِثْلُ: «بَشِيرًا وَنَذِيرًا - مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا - مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» .

الثاني: جاء في نصين فقط تقديم الإنذار على البشارة، إِذْ رُوِيَ فِيهِمَا  
حَالِ أَكْثَرِ الْقَوْمِ الْمُخَاطَبِينَ الَّذِينَ يَغْلِبُ فِيهِمُ الْكُفْرَةُ .

الثالث: جاء في (٣١ نصاً) ذَكَرُ الْإِنذَارِ دُونَ الْبِشَارَةِ لِأَنَّ الْمُتَحَدِّثَ  
عَنْهُمْ كَفَرَهُ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ، أَوْ عَانَدُوا وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ، وَصَارَ إِيْمَانُهُمْ  
مَيْتُوسًا مِنْهُ، فَلَا يَلِئُهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ إِلَّا الْإِنذَارُ .

من هذا الاستقراء مع سبب المعاني يتبين لنا أن من الحكمة في الدعوة  
إلى الله والتضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العمل بهذه  
القاعدة .

\* \* \*

## الفصل الثاني

### آفات حملة الرسالة

وفيه مقدمة وبيان إحدى وعشرين آفة خطيرة:

الآفة الأولى: استخدام حمل الرسالة لمطالب الحياة الدنيا.

الآفة الثانية: الاهتمام بمراءات الناس للدعاية للشخص أو الحزب والجماعة.

الآفة الثالثة: إلهاء الجماهير بالظواهر والشكليات ذات البهرج.

الآفة الرابعة: الارتقاء على سُلّم تحطيم الآخرين من العاملين في حقول العمل الإسلامي.

الآفة الخامسة: الاهتمام بالتجميع الغوغائي للجماهير، دون العناية بالتربية الصحيحة.

الآفة السادسة: التدرب على ألوان المكر السياسي العالمي المخالف للإسلام.

الآفة السابعة: تأسيس ما يحمل ألقاباً فخمة تجمع المتهافتين من غير المؤهلين.

الآفة الثامنة: تولية الجهلة المتكسبين الوظائف الدينية.

الآفة التاسعة: المداهنة ومتابعة حامل الرسالة لأهواء ذوي السلطان أو غيرهم.

الآفة العاشرة: ابتداع بدع في الدين ما أنزل الله بها من سلطان.

- الآفة الحادية عشرة: العناية والاهتمام بالتزام صغائر الظواهر .
- الآفة الثانية عشرة: الاندفاع إلى الوقوع في تورّطاتٍ غير رشيدة لا يأذن بها الإسلام .
- الآفة الثالثة عشرة: الغلوّ في الدين بتحريم ما لا تقوى الأدلّة على تحريمه .
- الآفة الرابعة عشرة: التهاون في الدين بتتبع الأقوال الضعيفة دون اجتهاد صحيح .
- الآفة الخامسة عشرة: اعتبار الارتحال لأداء الرسالة بمثابة رحلاتٍ سياحيةٍ ونزهاتٍ رفاهية .
- الآفة السادسة عشرة: عدم اتخاذ الخطوات المتدرّجة في الدعوة والإصلاح .
- الآفة السابعة عشرة: الولاء للأشخاص أو الجماعات والطاعة العمياء ولو بمخالفة أحكام الدين .
- الآفة الثامنة عشرة: استهواء المكان العالي لمشاعر حُبّ العلوّ في الأرض .
- الآفة التاسعة عشرة: استخدام أسلوب الفظاظة والغلاظة والسباب والشتائم .
- الآفة العشرون: ضعفُ الإرادة، وقلةُ الصَّبْر على المكاره وأنواع الأذى .
- الآفة الحادية والعشرون: اتّباع الهوى الذي يجرُّ إلى السكوت عن الآثام والجرائم .

## مقدمة

لكلّ أمة من الناس يجمعهم جامع فكريّ أو نفسيّ أو عمليّ آفاتٌ وأمراض قد يصابون بها، أو يصابُ بها أفرادٌ منهم، فيشوهون الصورةَ العامّةَ لهذه الأمة.

وحَمَلَةٌ رسالة الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أُمَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ من الناس، يَجْمَعُهُمْ جامع الهدف الذي ينشدونه، وجامعُ القيامِ بأداء وظائفِ الرسالة الإسلامية التي حملوا أعباءها، مع الوحدة الدنيّة التي نظمت أفرادهم بنظام واحد، وهم أيضاً أُمَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ بمقتضى قول الله عزّ وجلّ للذين آمنوا في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَسْنَا مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

وقد عرفنا في الباب الثاني من هذا الكتاب الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها حامل الرسالة الإسلامية، وعرفنا في الفصل الأول من هذا الباب الثالث القواعد العامّة التي يطالبُ حامل الرسالة بأن يلتزم بمضامينها.

ولما كانت الآفات المرصية تأتي مضادّةً لعناصر الصحة والسّلامة، فإنّ باستطاعتنا أن نستخرج من كلّ وصف يجب أن يتحلّى به حامل الرسالة، ومن



كل قاعدة يجب عليه أو ينبغي له أن يلتزم بمضمونها مضافاً يعتبر من الآفات المرضية، التي قد يُصابُ بها حامل الرسالة، وعليه أن يتخلَّص منها، أو من العيوب والنواقص التي ينبغي أن يكون بريئاً منها حتى يكون مؤهلاً للانخراط في سلك حملة الرسالة، واكتساب شرف الانتماء لهذه الأمة المتميزة من عموم جماعة المسلمين.

والآفات المرضية التي قد يُصاب بها حامل الرسالة الإسلامية المجيدة تجعله عنصراً ضاراً أو مُفسداً في مجتمعه وقُدوة سيئة، بدل أن يكون عنصراً نافعاً، وإماماً مُصلحاً، وداعياً هادياً رشيداً، وقُدوة حسنة.

فعلى الدارس أن يعكس مرآة كل وصف سبق بيانه، وكل قاعدة سبق شرحها، ليرى الآفة المرضية أو النقيصة التي هي عكس صورة الوصف، أو عكس مضمون القاعدة، ونختصر بهذا بيان وشرح الآفات والأمراض والنقائص.

لكن تُوجد طائفة من الآفات والأمراض المنتشرة البارزة في هذه الأمة من الناس، فيجب التنبيه عليها، والتحذير منها على وجه الخصوص، ليعمل المخلصون الصادقون الغيورون على الإسلام والأمة الإسلامية كلها، على معالجتها بمختلف وسائل العلاج، رجاء البراءة منها، أو التخفيف منها إلى أدنى السبب، ورجاء انطلاق العمل الإسلامي سليماً معافى من الآفات والأمراض، حتى يكتب الله له الامتداد في القارات، والتوفيق والتأييد والنصر المبين.

وفيما يلي بيان طائفة مهمة من آفات حملة الرسالة:

## شرح الآفات الخطيرات الآفة الأولى

استِخْدَامُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّصَحُّحُ وَالإِرْشَادُ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، وَحَرَكَاتِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِلْحُصُولِ عَلَى الأَمْوَالِ وَالمَنَاصِبِ وَالجَاهِ العَرِيضِ، أَوْ الشَّهَوَاتِ وَاللذَّاتِ، أَوْ نَحْوِهَا مِنْ مَطَالِبِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَالشُّهُرَةِ وَالتَّنَاءِ.

وهذا داءٌ خطيرٌ قد يَقَعُ فِيهِ الكَثِيرُونَ مِنَ الأَفْرَادِ، وَمِنَ المُنْظَمَاتِ الأِسْلَامِيَّةِ، وَبِسَبَبِهِ تَفْسُدُ أَعْمَالُهُمُ الكَثِيرَةُ، ذَاتُ الدَّعَاوَى الجِهَادِيَّةِ، ثُمَّ تَكُونُ أَعْمَالُهُمْ ضَائِعَةً فِي الهَوَاءِ، وَتَكُونُ ثَمَرَاتُهَا كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، إِذْ لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً لَوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ كَانَتْ بِمِثَابَةِ أَقْنَعَةٍ وَحُجْبٍ تَسْتُرُ الأَهْدَافَ الحَقِيقِيَّةَ الكَامِنَةَ فِي التُّفُوسِ.

وهذا الداءُ الدَّوِيُّ الَّذِي قَدْ يُسَبِّهُ فِي الجَمَاعَةِ مُنْدَسُونُ مَخْفِيُونَ ذَوُو قِيَادَةٍ سِرِّيَّةٍ وَأَهْدَافٍ سَوْدَاءَ، فَيَقُودُونَ الجَمَاعَةَ الَّتِي تَضُمُّ تَحْتَ لَوَائِهَا جَمْعًا عَظِيمًا صَادِقًا مُخْلِصًا، وَيَسْتَهْوُونَهَا بِالمَنَافِعِ وَالمَصَالِحِ، وَيَسْتَدْرِجُونَهَا بِالشَّعَارَاتِ وَالعَوَاطِفِ وَالأَنْفِعَالَاتِ، لِيُبَدِّدُوا جِهَادَ أَفْرَادِهَا العَظِيمِ، وَيَجْعَلُوهُ هَبَاءً مَنثورًا، مَعَ الدَّفْعِ بِهِمْ إِلَى مَذَابِحِهِمْ، بِأَيْدِي أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ، وَيَنْطَلِقُ الضَّحَايَا بِقُوَّةٍ، وَهَمَّ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُجَاهِدُونَ حَقًّا، وَيُحْسِنُونَ صِنْعًا، وَسَيَنْتَصِرُ الإِسْلَامُ بِجِهَادِهِمْ.

ويتهافت بعض أصحاب الضمائر المريضة، على حمل مشعل الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، لأنهم يرون في حملهم لهذا المشعل ما يطمعون به من منافع دنيوية، مع جاه عريض، وتقدير وتمجيد من عامة المسلمين لهم.

ولدى الامتحان الحقيقي تنكشف سرائرهم، ويفتضح أمرهم، وذلك حينما تكون لهم مصالح خاصة لأنفسهم، أو لذويهم من الأقربين، أو لأصحابهم وأنصارهم، أو للحزب الذي ينتمون إليه، أو للجماعة التي هم أعضاء فيها، فهم عندئذ ينصرون الباطل على الحق، والظلم على العدل، والشر على الخير.

وقد تراهم يرفعون عقيرتهم بصياح مدوّ انتصاراً للحق، إذا رأوا في هذه المناصرة منفعة لهم من مغانم دنيوية، أو مجدٍ وذكرٍ حسن، وفي موقف آخر مماثل لا ينطقون بكلمة لنصرة الحق، بل ربما داهنوا أصحاب الباطل وناصروهم، وكانوا شياطين خرساً، أو ناطقين، خوفاً على منافع نفوسهم، أو طمعاً في منافع يصيبونها، أو لا يجدون في مناصرة الحق مغنماً، أو يكون لهم في نصرة الباطل هوى.

فهؤلاء ليسوا بحملة رسالة صادقين، وإنما هم محتالون مخادعون، يضطادون منافعهم الدنيوية تحت قناع حملهم لرسالة الدين.

\* \* \*

## الآفة الثانية

الاهتمام العظيم بمراءات الناس، وتعظيم الإعلانات الإعلامية الدعائية، بغية الحصول على أثمان العمل من الذين تَخَدَعُهُمْ هذه الإعلانات الإعلامية، فيبذلون للمرائين بها الأموال والمناصب، ويكيلون لهم المدح والثناء، ويمنحونهم التعظيمات والتبجيلات الوافرات، ويروجون لهم في وسائل الإعلام، وقد يُعْطُونَهُم الجوائز التَّقْدِيرِيَّةَ والماليَّةَ.

فبينما يكون العمل الإسلامي لا يُساوي في مساحته الحقيقية مقدار أُمَّلَةٍ، يكون الإعلان عنه يملأ عَرْضَ الأفق، بُغْيَةَ استثمار المصالح الدنيوية على مقدار مساحته الإعلان الدعائي المالىء للأفق، لا على مقدار مساحته العمل الحقيقي.

ومن وسائل الخداع الدعائي تجميع أنصار الشخص أو الحزب على مُحَاضَرَةٍ يُلقِيها الشخص، أو بعض قادة الحزب في حي من أحياء البلد.

ثم تُكْرَرُ هذه المحاضرة نفسها في حي آخر، ويَجْتَمَعُ عليه فيه الأنصارُ أَنفُسُهُمْ، ثم في حي ثالث ورابع وخامس وهكذا.

وبهذا يتوهم الناس أن المنتفعين بالمحاضرة أُلُوفٌ مؤلفة في أحياء البلد، بينما أنصار الشخص أو الحزب هم الذين يكررون أَنفُسَهُمْ في مُخْتَلَفِ الأحياء، وقد يُشَارِكُهُمْ من الحي الجديد عددٌ قليل.

\* \* \*

## الآفة الثالثة

إنهاء الجماهير بالظواهر والشكليات ذات البهرج البراق، والزخرف المثير للدهشة، مع غرض النظر عن البناء الجوهرى الحقيقي للأفكار والنفوس والقلوب، بالترية الصحيحة التي تحتاج دأباً وصبراً وعملاً هادئاً صامتاً في الخفاء.

وَمِنْ إِلَهَاءِ الْجَمَاهِيرِ عَقْدُ الْمُؤْتِمَرَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ، وَتَأْسِيسُ الدَّوَائِرِ الدَّعَايِيَّةِ، وَالْجَعَجَعَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي لَا تَنْتُجُ عَنْهَا نَتَائِجٌ نَافِعَةٌ بَاقِيَةٌ، وَلَا تَكُونُ لَهَا جَذْوَى حَقِيقِيَّةٌ، بَلْ تَكُونُ لَهَا أَصْوَاتٌ عَظِيمَةٌ تَنْطَلِقُ ضَائِعَةً فِي الْهَوَاءِ، وَتُبْرِدُ حَرَارَةَ أَصْحَابِ الْغَيْرَةِ الصَّادِقَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ يَنْتُجُ عَنِ الْمُؤْتِمَرَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ، وَالِدَّوَائِرِ الدَّعَايِيَّةِ، تَوْصِيَاثٌ تُسَجَّلُ عَلَى الْأَوْرَاقِ، وَتُوضَعُ فِي الْمَصَنَّفَاتِ، وَتُوجَّهُ لِمَنْ لَا يُرِيدُ الْعَمَلَ بِشَيْءٍ مِنْهَا، فَيَزِمُهَا فِي سَلَّةِ الْمَهْمَلَاتِ، وَرُبَّمَا تَكُونُ هَذِهِ الْمُؤْتِمَرَاتُ مِنْ تَوْجِيهِهِ وَصُنْعِهِ لِإِلَهَاءِ الْجَمَاهِيرِ بِهَا.

وَرُبَّمَا تَكُونُ الْمُؤْتِمَرَاتُ بِمَثَابَةِ حَقْلِ اخْتِبَارٍ لِكَشْفِ أَصْحَابِ الْعَمَلِ النَّافِعِ، وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ، وَالتَّخْطِيطِ الرَّشِيدِ، بُغْيَةً عَزْلِهِمْ عَنِ كُلِّ عَمَلٍ قِيَادِيٍّ، أَوْ إِقَامَةِ الْعُقُبَاتِ فِي طَرِيقِهِمْ، لِثَلَا يَصِلُوا إِلَى مَرْكَزِ قِيَادِيٍّ تَنْتُجُ عَنْهُمْ فِيهِ أَعْمَالٌ إِسْلَامِيَّةٌ صَاحِبَةٌ صَادِقَةٌ، ذَاتُ ثَمَرَاتٍ نَافِعَاتٍ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَيَنْطَبِقُ عَلَى هَذِهِ الْمُؤْتِمَرَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ، وَالِدَّوَائِرِ الْإِعْلَامِيَّةِ، الْمَثَلُ الْعَرَبِيُّ الْقَائِلُ: تَسْمَعُ جَعَجَعَةً وَلَا تَرَى طِحْنًا.

\* \* \*

#### الآفة الرابعة

الارتقاء على سُلْمِ تَحْطِيمِ الْآخَرِينَ مِنَ الْعَامِلِينَ فِي حَقُولِ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالذَّغْوَةَ إِلَى اللَّهِ وَالتُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَيَكُونُ تَحْطِيمُ الْآخَرِينَ مِنَ الْعَامِلِينَ بِنَشْرِ مَعَايِبِهِمْ وَمَثَالِبِهِمْ، أَوْ بَتَعْظِيمِ صَغَائِرِهِمْ، أَوْ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَبِتَحْقِيرِ أَعْمَالِهِمْ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّالِحَةِ وَالِاسْتِهْانَةَ بِهَا، وَبِبُخْسِهِمْ أَشْيَاءَهُمْ، وَيَكُونُ بِالْإِيْقَاعِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

أَتْبَاعِهِمْ وَسَائِرِ النَّاسِ، لِتَخْذِيلِ الْأَتْبَاعِ عَنْهُمْ، وَتَقْطِيعِ حَبَالِ وَلَائِهِمْ لَهُمْ، وَالْغَرَضُ سَرَقَتَهُمْ وَضَمَّتَهُمْ إِلَى مُنْظَمَتِهِمْ، بَعْدَ إِفْسَادِهِمْ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَشَحْنِهِمْ بِالْكَرَاهِيَةِ وَالْبَغْضِ ضِدَّهُمْ، ثُمَّ مَعَادَاتِهِمْ وَمَحَارِبَتِهِمْ.

وهذا الداء الخبيث عماده الكذب والافتراء والبُهتان، والغيبة والنميمة، وإشاعة مقالة السوء ضد ذوي المكانات الاجتماعية الدينية الذين يستمع الناس لنصائحهم وإرشاداتهم، وبياناتهم الدعوية، وإصااق التهم بمن لهم في أعين الناس فضل واحترام.

فإذا تدرّبت جماعة عمل إسلامي على هذا الأسلوب القذر، بُعِيَتْ احتلال المناصب والمراتب، وسرقة الأنصار من أوليائهم، والظفر بثقة الناس بهم، ليمنحوهم التعظيم والإجلال والإكبار، والمنافع والأموال، فإنهم بذلك يركبون مراكب كبائر الإثم، تحت ستار التزام ظواهر شعائر الإسلام.

ويمضي عقد من الزمان أو أكثر فينقلب صغار الجماعة على قادتهم رغبة في احتلال مراكز القيادة، فيستعملون الوسائل السابقة نفسها ضد قادتهم، وعندئذ تقع الفرقة، ويضرب الله قلوب بعضهم ببعض، لأنهم سلكوا ابتداءً مسالك معصية الله عز وجل، تحت أفتنة العمل لنشر الإسلام وإقامة الحكم الإسلامي، ابتغاء الحصول على مطالب دنياهم، ويُداس المخلصون من أفرادهم ضحايا وهم لا يشعرون.

\* \* \*

## الآفة الخامسة

الاهتمام بالتجميع الغوغائي للجماهير، باستشارة عواطفهم وانفعالاتهم، دون ترسيخ العقائد، وتأصيل المعارف الإسلامية، ودون تزكية النفوس تزكية حقيقية، ودون تقويم الأعمال والأخلاق وفضائل السلوك الفردي والجماعي.

إنَّ تجميعَ جماهيرِ الناسِ تجميعاً غوغائياً، باستشارةِ العواطفِ والانفعالاتِ، دُونَ الاهتمامِ بالبناءِ الحقيقيِّ لكلِّ فردٍ بناءً إسلامياً صحيحاً مُتكاملاً، يُشبهه تجميعَ ذرّاتِ بُرّادَةِ الحديدِ علىِ اللاقطِ المغناطيسيِّ الكهربائيِّ، ففي اللَّحظةِ التي يتوقفُ فيها المددُ المغناطيسيُّ تتساقطُ بُرّادَةُ الحديدِ عنِ اللاقطِ، ويكُونُ باستطاعةِ أيِّ لاقطٍ آخرٍ ملائمٍ لها أَنْ يَلْتَقِطَها، وَيَنْقُلَها إلى حَقْلِهِ المعادي للإسلامِ والمسلمينِ .

أما التربيةُ الإسلاميّةُ الصحيحةُ فهي تَهْتَمُّ ببناءِ الفردِ بناءً إسلامياً فِكْرياً ونَفْسيّاً وقَلْبِيّاً وسُلُوكِيّاً، وَضَمَّهُ في نظامِ جماعةِ المسلمينِ، وَعِنْدِيذٍ يَرْتَبِطُ بهم مِنْ كُلِّ أركانِهِ الداخليّةِ والخارجيّةِ، ثُمَّ لا تَمْلِكُ قُوَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةً مَهْمَا كَانَتْ حِيلُها أَنْ تَنْزِعَهُ مِنْ ذاتِيتهِ، ولا مِنْ الجماعةِ المسلمةِ الَّتِي أَصْبَحَ مُتَشَابِكاً بها تشابكاً متداخلاً، غَيْرَ قابلٍ للشَّقِّ طُولاً ولا عَرْضاً .

إنَّ التجميعَ الغوغائيِّ العاطفيِّ والانفعاليِّ لا يَمْلِكُ وشائجِ ارتباطٍ متينِ، فهو غَيْرُ مُؤَهَّلٍ لِلْبَقَاءِ والدوامِ، بَلْ قَدْ يُسْرِعُ إليه الانشقاقُ والتَّمزُّقُ بعدَ زمنٍ قد لا يكون طويلاً .

\* \* \*

### الآفة السادسة

التدْرُبُ على أُلُوَانِ المَكْرِ السِّيَاسِيِّ الدكتاتوريِّ أو الديمقراطيِّ ومُجَافاةِ تعليماتِ الإسلامِ، فكلُّ مَنْ هَذَيْنِ المَكْرَيْنِ يقومُ على الكَذِبِ والغشِّ والنفاقِ والخيْداعِ وَقَلْبِ حقائقِ الأمورِ، ونقضِ العهودِ والمواثيقِ، والتزويرِ والسَّطْوِ بغيرِ حقٍّ، والقَتْلِ ظُلْماً وعدواناً، واغتيالِ الآمِنينِ غَيْرِ المحارِبينِ، للإرهابِ، واتِّخَاذِ الأنصارِ مِنَ المتنفعينِ والطَّامِعِينَ والمنافِقِينَ وَطُلَّابِ الدُّنْيَا، والتَّعاوِنِ مَعَ الكُفْرَةِ والشَّيْطَانِ، وَلَوْ ضِدَّ المُنَافِسِينَ مِنَ المسلمينِ، واتِّباعِ مذهبِ

«مكيافلي» الداعي إلى أن الوصولَ إلى الغاية السياسية ظفراً بالحكم أو تشبثاً له، يُبْرِزُ كُلَّ وسيلةٍ مهما كانت حقيرة وسَيِّئة، ومنافيةً لفضائل الأخلاق، وساقطةً في رذائلها.

فمذهب «مكيافلي» في السياسة لا يعترف بالفضائل ولا بالأخلاق ولا بالأديان، ولا بالقوانين، وهو المذهب السائد المعمول به في عالم السياسة.

ومن تدرَّب عليه ومارسَهُ صارَتِ الرَّذَائِلُ جُزْءاً من كيانه الخَلْقِيّ والسُّلُوكِيّ النفسِيّ والظاهِر، واستهَوَّتُهُ الشياطين إلى كلِّ شرٍّ وضرٍّ وفساد، ثم يَخْلَعُ عنه بعد حين رداءه الإسلاميّ، لأنَّ الرذائل الخَلْقِيَّةَ والسلوكِيَّةَ قَدْ تَأَصَّلَتْ فيه، وازتَبَطَّتْ بها مصالِحُهُ ومنافعُهُ ولذاتُهُ وشهوته وأهواؤه الدنيوية، فلا بُدَّ أن يَجِدَ مَبْدَأَ آخرٍ مُلائِماً لها غير إسلاميٍّ، حتَّى يكون مُنْسَجِماً مع نفسه فِكْراً واعتقاداً وسلوكاً.

\* \* \*

## الآفة السابعة

تأسيسُ منظَّماتٍ ودوائرٍ ذواتِ ألقابٍ فخمة، تجمع المتهافتين من غير المؤهلين، وغير المؤمنين بالأهداف الإسلامية العظيمة المعلنَّة.

فَهِيَ لَا تَلْبَثُ حَتَّى تَتَحَوَّلَ إلى أشباه تكايا تجمع في مكاتبها قابضي رواتب في آخر كلِّ شهر، دُونَ أن تكون لهم أعمالٌ تتصلُّ بالأهداف الإسلامية العظيمة المُعلنَّة، والتي تتردَّدُ شِعَارَاتُهَا كُلَّ حين في وسائل الإعلام.

وفي المناسبات العامة والتجمُّعات والمؤتمرات يتهافتُ عليها مَالِثُو كَرَّاسِي موائدِ طَعَامٍ رَفِيهِ، وشَرَابٍ لذيذٍ ثمين.

وَتَمْتَلِئُ كَرَّاسِي اجتماعاتِ تبادلِ الرأي قبل موائد الطعام أو بَعْدَهَا،



بالغَوَاعِيَيْنَ الَّذِينَ لَا شُغْلَ لَهُمْ إِلَّا الدَّعَايَةُ لِبَعْضِ الْأَفْرَادِ، وَالتَّوْقِيعُ عَلَى مَحَاضِرِ الْجُلُوسَاتِ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرُ، وَرَفْعُ الْأَيْدِي عِنْدَ التَّصْوِيتِ الْإِنْتِخَابِيِّ، وَهُمْ يُعْطُونَ أَصْوَاتَهُمْ دَائِماً لِلْحِزْبِ الَّتِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا، أَوْ لِمَنْ يَرْجُونَ عِنْدَهُ لَأَنْفُسِهِمْ أَوْ لَذَوِيهِمْ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ أَكْثَرَ، وَمَصَالِحَ مَادِيَّةٍ أَوْفَرَ.

فَكَمْ مِنْ مُنْظَمَاتٍ كَبِيرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِهَا آمَالٌ عَظِيمَةٌ لِمَجْدِ الْإِسْلَامِ وَنُصْرَةِ قَضَايَاهَا، وَنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَحْوَلَتْ إِلَى تَكَايَا يَتَّقَوْتُ فِيهَا الْعَجْزَةَ، وَيَنْهَبُ ثُرَوَاتِهَا الشَّيَاطِينُ اللَّصُوصُ وَأَعْوَانُهُمْ.

\* \* \*

### الآفة الثامنة

تولية الجهلة المتكسبين وظائف الفتوى، والخطبة، والتدريس والإمامة، لتمرير ما يريد فساق الحكام دون اعتراض، أو ليكونوا الأصوات الناطقة بالتمجيد لهم وتثبيت سلطانهم.

وحين يتصدّر الجهلة الصغار والكبار، ويحتلون مراكز العمل الإسلامي في المجتمع، دون محاسبة ولا مراقبة لهم من أحد، يستنصرون بأتباع جاهلين أمثالهم، ويكوّنون داخل المجتمع حزبا له قوة وصوت يدوي، ويغترّ بهم عامة المسلمين، فيتخذونهم عن اقتناع رؤساء وأئمة في الدين، ويصاب هؤلاء الرؤساء الجهلة - استعلاء بوظائفهم السلطانية، أو مراكزهم الاجتماعية - بعقدة الغرور والاستكبار عن الأخذ من العلماء المتمكنين الذين ليس لهم وظائف دينية ذوات مرتبات من الدولة، ومع عقدة الغرور التي يصابون بها، والحرص على المنافع التي يصيبونها من الدولة، أو من المجتمع الذي وثق بهم غرورا، فرفعهم إلى مراتب الأئمة الذين يقتدى بهم، يتورطون، فيفتنون الناس بغير علم لجهلهم، فيصلون ويصلون، وهنأ تقع

طائفة كبرى يَنْجُم عنها تَحْرِيفُ في الدِّينِ بِأَذْهَانِ الْعَامَّةِ ومفهوماتهم .

إنَّ الواحد من هؤلاء الأئمة الجهلة المصنوعين زوراً، قد يَعْتَمِدُ على حديثٍ قرأه في بعض كتب الحديث، لم يَقْهَمْ معناه فهماً صحيحاً، ولم يَجْمَعْ بينه وبين ما في القرآن والسنة من نصوص حول الموضوع نَفْسِه ليفهمها فهماً تكاملياً، فيُصَدِّرُ برأيه الناقصِ حُكماً يَنْسُبُهُ إلى الدِّينِ، على خلاف ما عليه أئمةُ فقهاء المسلمين المجتهدين وعلماؤهم الكبار، مُدَّعِيًا أَنَّهُ يَعْمَلُ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، ثُمَّ يَتَطَاوَلُ على فقهاء المذاهب الإسلامية، فيشتمُّهم، ويتهمهم بالضللال عن الحق، وقد يكفرهم، ويُلْحِقُ بهم في الكُفْر كُلِّ من يُقَلِّدُهُمْ ويقولُ برأيهم، ويُضَلِّلُ كُلَّ من يَعْمَلُ باجتهاداتهم .

ولو أَنَّهُ تَبَصَّرَ الأمرُ بِفَهْمِ سَلِيمٍ، وَعِلْمِ بِأَصُولِ فهم النصوص، وَرَجَعَ إلى مناقشة علماء المسلمين المجتهدين المؤهلين للاجتهاد، حول موضوعه نفسه الَّذِي أَفْتَى فيه برأيه الاجتهادي الناقص، لرأى أَنَّهُ قَدْ ارْتَكَبَ خطأ فاحشاً في الفهم، ولرأى أَنَّهُ قَدْ أَفْتَى بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلَّ وَأَضَلَّ، وَلَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ تَصَدَّرَ لأمرٍ ليس هو له بأهلٍ .

وَلْيَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَعْذَرُهُ فيما اجتهد فيه اجتهاداً خاطئاً، لَأَنَّهُ لم يكن يَمْلِكُ أهليَّةَ الاجتهاد ابتداءً، فليس من حَقِّه أن يجتهد أصلاً، حتَّى تُكُونَ لَدَيْهِ أهليَّةُ الاجتهاد بحيازةٍ وسائله .

إنَّ شَأْنَ مَنْ يَتَصَدَّرُ للاجتهاد في الدِّينِ والإفتاء فيه دون أن يكون أهلاً لذلك، كَشَأْنِ الْمُتَطَبِّبِ الَّذِي لَا عِلْمَ له بالطبِّ، فيصِفُ الأدوية للناس على جهلٍ، ويُدَاوِي المرضى بغيرِ عِلْمٍ ولا بصيرة .

إنَّهُ إذا استعمل دواءً تَسَبَّبَ في قَتْلِ من يُعَالِجُهُ من المرضى، كان بحكم الشرع مُجرماً قاتلاً، غيرَ مَعذُورٍ عند الله ولا عند الناس بقتله للمريض .

على أَنَّ الْخَطَرَ في الفتاوى الدينية بغيرِ عِلْمٍ قد يكون أشدَّ من الفتاوى

الطبيّة، فبعضُ الفتاوىِ الدّينيّة الضالّة قد تُسبّبُ الوقوعَ في الكُفْر والخلودَ في النار والعياذُ بالله، وهذا من الفتنة التي هي أشدُّ من القتل الذي تسببه بعض الفتاوىِ الطّبيّة.

\* \* \*

### الآفة التاسعة

المداهنة ومتابعة حامل الرسالة لأهواء ذوي السلطان والمال والأقارب والأصحاب والأنصار وللولاءات الحزبيّة، والرغبة في إرضائهم بالسكوت أو بإصدار الفتاوىِ المخالفة لحكم الله عزّ وجلّ.

ويستخدم حامل الرسالة المتبع للهوى لي أعناقِ النصوص، وتفسيرها تفسيرات باطلات لتزيين وتدعيم الفتاوىِ المخالفة لحكم الله عزّ وجلّ، حين يُصدِرُها.

فمن حملة الرّسالة الذين يتبعون الهوى في فتاواهم، من يُبيح بعض الأعمال الربويّة المحرّمة بلا شكّ، ويوجد لها تخريجات باطلات، إرضاءً للحكّام الكفرة، أو الفاسقين، حتّى يظفر منهم بمنصب، أو يظفر بتثبيت فيه، أو بتيسير مصالح مادية له أو لذويه.

ومنهم من يتحايل على نصوص حجاب المرأة للتهوين من أمره.

ومنهم من يجعل الاشتراكية من الإسلام، ومنهم من يجعل الديمقراطية من الإسلام، متحايلًا باستخدام النصوص الإسلاميّة التي تأمر بالشورى.

ومنهم من ينفّض بعض أصول الدين أو بعض فروعه، ويُطلق عبارات تُخرج من الإسلام إرضاءً للحكّام الكفرة، واستجابة لاستهواءاتهم له، ولما يبدؤونه له من مالٍ أو منصبٍ أو جاهٍ أو كلامٍ معسولٍ، أو تمجيدٍ وتبجيلٍ وتعظيمٍ.

إلى غير ذلك من تهوُّك<sup>(١)</sup> في الضلالة، وعبث في أحكام الإسلام  
وشرائعه.

جاء في كتاب «الدعوة إلى الإصلاح» للإمام الشيخ «محمد الخضر  
حسين» شيخ الجامع الأزهر بشأن المداهنة قوله:

«فَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَرَىٰ ذَا جَاهٍ أَوْ رِيَاةٍ يَهْتِكُ سِتْرَ الْأَدَبِ، أَوْ يَعْتُو  
فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، فَيَتَغَابَىٰ عَنِ سَفَهِهِ أَوْ بَغْيِهِ، وَيَطْوِي دُونَهُ التَّذَكُّرَةَ  
وَالْمَوْعِظَةَ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، أَوْ حِرْصًا عَلَىٰ مَكَانَةٍ أَوْ غَنِيمَةٍ يَنَالُهَا لَدَيْهِ.

وَمِنْ الْبَلِيَّةِ أَنْ الْمَتْرَفِينَ وَمَنْ يَنْحُو نَحْوَهُمْ فِي الزَّيْغِ وَالغُرُورِ، لَا  
يَكْتَفُونَ مِمَّنْ يَسُوقُهُمُ الزَّمَنُ إِلَىٰ نَوَادِيهِمْ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ جَهْلِهِمْ، وَيَتْرُكُهُمْ  
وَشَأْنَهُمْ، وَإِنَّمَا يُرْضِيهِمْ مِنْهُ أَنْ يُزَيِّنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ، أَوْ يَزْمُقَهُمْ بِعَيْنِ  
مَكْحُولَةٍ بَتَبَسُّمِ الْاسْتِحْسَانِ، وَهُوَ أَقْلُ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ بِهِ فِي نَظَرِهِمْ لَقَبَ:  
«كَيْسٍ ظَرِيفٍ».

والمداهنة خُلُقٌ قَدِرٌ، لَا يَنْحَطُّ فِيهِ إِلَّا مَنْ خَفَّ فِي الْعِلْمِ وَزُنُّهُ، أَوْ مَنْ  
نَشَأَ نَشَأَةً صَغَارٍ وَمَهَانَةٍ.

وهذا تاريخ العلماء الراسخين ناطق بما كان لهم من الإقدام على وَعَظِ  
الأمراء، والإنكار عليهم إذا أساءوا التصرف أو أهملوا.

قال عز الدين بن عبد السلام للملك نجم الدين أيوب، في مجلس  
حافل برجال الدولة:

(يا أيوب، مَا حُجَّتْكَ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا قَالَ: أَلَمْ أَبْوِءْ لَكَ مُلْكَ مِصْرَ ثُمَّ  
تُبِيحُ الْخُمُورِ؟!).

فقال: هَلْ جَرَىٰ هَذَا؟

(١) التهوك: السقوط في الحفر.

فقال: (نعم، الحانئة الفلانية يُباع فيها الخمر، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلَّب في نعمة هذه المملكة).

فقال: هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال: (أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟!).

فرسم الملك بإبطال تلك الحانئة.

\* \* \*

### الآفة العاشرة

ابتدأ بدع في الدين ما أنزل الله بها من سلطان، افتراءً على الله وكذباً، أو تحريفاً وتحويراً في العبادات أو في الأحكام أو في العقائد.

فمن البدع طقوس وأشكال من عبادات لم ترد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، كبعض أشكال الرقص الذي تتمايل فيه الأجساد، وتتقدم وتتأخر وتقفز، وتنثني إلى اليمين والشمال والأمام والوراء، وكالدوران ضمن ثوب يُشكّل مع الدوران صورة قمع مقلوب. فهذه لم تؤثّر عن الرسول ولا أصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

ومن البدع بعظيم أضرحة الموتى، وإقامة البنيان عليها، واتخاذها مزارات يُتبرك بزيارتها، وتقديم الصدقات والذبائح لها والطواف حولها، والعودة إلى ما يُشبه الوثنيات الجاهلية مع اعتقاد أن أرواح الموتى تنفعهم بهذه الأعمال، وهذا من الشرك أو مدخل إليه.

ومن البدع تعظيم الشيوخ بالركوع والسجود لهم، ومراقبتهم في حال غيبتهم كمراقبة الله عز وجل، وينجم عن هذه البدع الدخلية ما يشبه العبادة أحياناً، أو يشبه ما كان الأعاجم قبل الإسلام يعاملون به ملوكهم من ركوع

وسجود، وقد جاء الإسلام بمنع ذلك، تَحْرِيراً للعباد من عبادة العباد وربطهم بعبادة الله وَحْدَهُ لا شريك له .

\* \* \*

### الآفة الحادية عشرة

العناية والاهتمام بالتزام صفائر الظواهر، فعلاً لما ينبغي فعله وتركاً لما ينبغي تركه، مع ارتكاب كبائر الإثم من وراء الظواهر، كأكل أموال الناس بالباطل، وأكل أموال اليتامى، وأخذ الرشاوى، والتعامل سراً بالربا، والوقوع في الفواحش، والغيبة والنميمة، والإضرار بالناس، والإفساد بين المتأخين في الله، وعدم القيام بواجبات العمل الوظيفي، والجور في الحكم، ومنع الزكاة، ونصرة الأخ في الحزب ولو كان ظالماً ضدَّ صاحب الحق، واختيار غير الكفء للعمل الوظيفي من أعمال الدولة، لقراءة أو حزبية، وإبعاد الكفء ذي الدين المناسب للعمل، بالتلاعب بأوراق امتحان المسابقة، أو بترجيحه في المسابقة الشفهية بغير حق، أو نحو ذلك .

وهذه الكبائر التي تُرتكبُ تقترن من أصحابها غالباً بالمبالغة في التشديد على صفائر الذنوب، والتشجيع على مرتكبيها، مع اختلاف الفقهاء في تحريمها وعدمه، كإطالة الثوب إلى ما دون الكعبين دون كبر، وحلق اللحية أو تقصيرها، وعدم تغطية المرأة دائرة وجهها أمام الرجال الأجانب، وغايتها أنها من صفائر الذنوب .

وقد يتباهى بعض المعتنين بالظواهر بطول لحيته، ويمنُّ بها على دين الله متفاخراً بالتزامه بالسنة وبورعه، فإذا عاملته بالمال هصم حَقَّك وسرقك، وتعلل بفتاوى ضعيفة ساقطة، أو تدرع بقانون الدولة، ورُبما يكون مع ذلك من مرتكبي كبائر الإثم سراً .

\* \* \*

## الآفة الثانية عشرة

اندفاع أصحابِ العواطفِ الإسلامية المتحمسين لحمل الرسالة الإسلامية، دُونَ قِيَادَاتِ إِسْلَامِيَّةِ ذَاتِ عِلْمٍ وَعَقْلِ وَحِكْمَةٍ وَرَوِيَّةٍ، مُنْطَلِقِينَ فِي تَوَرُّطَاتِ بِأَعْمَالٍ قَوْلِيَّةٍ وَعَمَلِيَّةٍ غَيْرِ رَشِيدَةٍ تُوسِّمُ بِأَنَّهَا أَعْمَالُ إِسْلَامِيَّةٍ جِهَادِيَّةٍ، وَتُطَلِّقُ مَعَهَا شَعَارَاتُ دَعْوِيَّةٍ أَوْ إِعْلَامِيَّةٍ تُوسِّمُ بِأَنَّهَا إِسْلَامِيَّةٍ جِهَادِيَّةٍ، وَتُثَوِّرُ ثَوْرَتُهُمْ غَيْرُ الْوَاعِيَةِ مَخْفُوفَةً بِحِمَاقَاتِ كَثِيرَاتٍ مُعَانِدَاتٍ لِسُنَنِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، وَتَعْلِيمَاتِهِ فِي كِتَابِهِ.

وَيَجْرُونَ مَعَهُمْ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ، إِلَى رَعُونَاتٍ قِتَالِيَّةٍ تَنْتَهِي بِحَصْدِهِمْ، أَوْ زَجَّهْمُ فِي السَّجُونِ، دُونَ تَحْقِيقِ ثَمَرَةٍ مَا فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ فَكْرًا أَوْ عَمَلًا، وَدُونَ مَدِّ لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلِ الَّذِي يَحْصُلُ هُوَ تَسْوِيَةٌ وَإِجْهَاضُ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَرْجَاعُ الْإِنْتِشَارِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى الْوَرَاءِ عَشْرَاتِ السَّنِينَ.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الرَعُونَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ شَعَارَاتِ إِسْلَامِيَّةٍ مَذْفُوعًا مِنْ قَبْلِ أَيْدٍ خَفِيَّةٍ مِنْ أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمَحَلِّيِّينَ أَوْ الدَّوْلِيِّينَ، وَتَغْرِيرِ الْمُنْدَفِعِينَ الْمَخْلَصِينَ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِنْعًا.

وَكُلٌّ مِنْ تَتَبَعَ الْأَحْدَاثَ الْعَظْمَى، وَبَحَثَ عَنْ أَسْبَابِهَا الْخَفِيَّةِ، عَلِمَ أَنَّ وَرَاءَهَا مَكْرًا دَوْلِيًّا كُبْرًا، يُخَطِّطُ لَهُ ذُهَابُ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَتَتَوَلَّاهُ أَيْدِي أَجْرَائِهِمُ الْمُنْدَسِينَ.

\* \* \*

## الآفة الثالثة عشرة

الغلوّ في الدّين بتحرّيم ما لا تقوى الأدلّة الشرعيّة على تحرّيمه، مع التّشدّد الزائد في التّحرّيم، كأنّه من الأمور المُجمَع على تحرّيمها، على الرّغم من وجود خلاف كبير بين الأئمة المجتهدين، ومنهم من لا يزيد على أن يعتبره مكروهاً أو خلافاً للأولى.

كالتّشدّد في تحرّيم ما كان من حُلَيّ الدّهَب كالحلقة المفرغة على النساء، وكالتّشدّد في تحرّيم النَّفَر من مزدلفة قبل أن يُصَلّي الفجر فيها، وكالتّشدّد في تحرّيم كشف وجه المرأة أمام الرجال الأجنبيّ على الرّغم من أمنِ الفِتْنَةِ، وكالتّشدّد في تحرّيم استماع أيّ غناء، ولو كان خالياً من المعازف ولُحُون أهلِ المعاصي.

إنّ هذا الغلوّ المتشدّد في بعض أحكام الدّين يُنْفَرُ جماهير كثيرة عن الدّين، إذ يُوقِعُهُمْ في حَرَج ارتكاب المحرّمات، وهم بحسب العادات السائدات في المجتمع لا يستطيعون اجتناب هذه الأمور، مع حرصهم الشديد على المحافظة على أركان الإسلام وفرائضه المجمع على فرضيّتها، وحرصهم الشديد على اجتناب الكبائر والمحرّمات المجمع على تحرّيمها، ومع تحلّيهم بفضائل الأخلاق الإسلاميّة، واجتناب رذائلها، ومشاركتهم في كثير من النشاطات الإسلاميّة النافعة، كالجمعيات الخيرية التعليميّة والتوجيهيّة والقائمة على مساعَدة ومعونة الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وطُولِ أيديهم في فعل الخيرات والمبّرات، وكثرة اجتهادهم في الأعمال الصالحة.

\* \* \*



## الآفة الرابعة عشرة

التهاونُ في الدين، بتتبع الرُّخصِ في المذاهب، دون النظر في الأدلة باجتهادٍ صحيح سليم، ممَّنْ هُوَ مؤهل للاجتهاد، وباعتماد أضعفِ الأقوال الفقهية الاجتهادية، لاستباحة ما يفتي معظم فقهاء المذاهب بتحريمِ فعلِهِ أو تركه.

وينشأ من هذا التهاون تتبُّع أضعفِ الأقوال المبيحة وأكثرها سقوطاً، من أيِّ مذهب من المذاهب الاجتهادية، والدَّرِعةُ لهذا التهاون الرغبةُ في التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم، ولكن ليس من حقِّ أحدٍ أَنْ يُغَيَّرَ في أحكام التحليل والتحریم الشرعية بالهَوَى، أو بذريعة التيسير ورفع الحرج، فيحلل ما حرّمه الإسلام بغير دليل يقوى على التحليل، كما أنه ليس من حقِّ أحدٍ أَنْ يَغْلُوَ في الدين فيُحرِّم ما لا يقوى الدليل على تحريمه.

إن أحكام الإسلام الثابتة في القرآن مقرونةً باليسر ولا حرج فيها، فهي لا تحتاج إلى تدخُّلٍ من أحدٍ.

إن الغرض من التهاون في الدين التهربُ من التكاليف الإسلامية، مع اتِّخَاذِ المعاذير والتعلّلات، بالاستناد إلى أيِّ قولٍ ضعيف يجده في أيِّ مذهب، متى كان له هوى في فعل العمل المحرّم، أو ترك العمل الواجب.

وتبدؤ خُطُورَةَ هذه الآفة حينما يُفتي حاملُ الرِّسَالَةِ النَّاسَ بأضعفِ الأقوال، باعتباره من حَمَلَةَ رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيأخذُ المستفتون أقواله بالتسليم الكامل، والعَمَلُ بها على أنها من الدين حقاً.

\* \* \*

## الآفة الخامسة عشرة

اعتبار العمل الإسلامي لتبليغ الدعوة إلى الله، أو لتعليم أحكام الإسلام في البلدان النائية عن عواصم العالم الإسلامي الكبرى، بمثابة رحلاتٍ سياحية، ونُزهاتٍ رَفَاهِيَّةٍ وَتَسْلِيَّةٍ، فلا بُدَّ أن تَتَحَقَّقَ فيها وسائل الرفاهية التامة، كالنُزولِ في فنادق الدرجة الأولى، والفسح في الجبال والحدائق والمنتزهات، والاطلاع على معالم المدنِ وأثارها، وحُضورِ الموائد السخية التي تُقدَّم فيها الأطعمَةُ الشهيَّةة، والأشربةُ اللذيذة الفارحة، والتنقُّلُ بسيارات تشبه سيارات الوزراء والأمراء وأغنياء الشعوب.

ثمَّ يكون للعمل الإسلامي من كلِّ الرُّحَلَةِ عددٌ من الخطب أو الدروس في بعض المساجد، التي لا يَجْتَمِعُ عليهم فيها إلاَّ أفرادٌ قَلِيلُونَ، أو أَحَادِيثُ في مجالس مع بعض وُعَاظِ أهل البلاد وطلَّاب العلم فيها.

وقد تُنْفَقَ في بعض هذه الرُّحلات أجورٌ وتعويضات وبدلات تكفي لأن تكون رواتبَ شهريَّة لمئاتٍ من حملة الرسالة المجاهدين من أبناء البلاد الذين يَنشُرُونَ الإسلام، ويُعلِّمون شرائعه وأحكامه بِصِدْقٍ وإخلاص، لمدة عامٍ كامل.

لكن الرِّغْبَةُ في المنافع الشخصية من العمل الإسلامي، مع تحقيق الأهداف الإعلامية الدَّعائية، مرضٌ يبَدِّد الأموال، ويُميِّت الجهود، ويُفسد النفوس، ثمَّ لا يكون للعمل الإسلامي إلاَّ النزُّ اليسير من النتائج المرجوة.

\* \* \*

## الآفة السادسة عشرة

عَدَمُ اتِّخَاذِ الْخَطَوَاتِ الْمَتَدَرِّجَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ، أَوْ إِصْلَاحِ الْبَعِيدِينَ عَنْهُ، الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مِنْهُ إِلَّا كَلِمَةً لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَقَلِيلًا جَدًّا مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ انْتَشَرَتْ بَيْنَهُمُ الْبِدْعُ وَالْخِرَافَاتُ الَّتِي يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الدِّينِ.

وَيَنْجُمُ عَنْ عَدَمِ اتِّخَاذِ الْخَطَوَاتِ الْمَتَدَرِّجَةِ الْحَكِيمَةِ مُوَاجَهَةَ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ بِالشَّدَّةِ وَالْعَنْفِ، وَصَبَّ كُلِّ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ صَبَّةً وَاحِدَةً عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَنْفِيرِهِمْ.

وَيَنْجُمُ أَيْضًا مَحَارِبُهُ تَقَالِيدَ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَعَادَاتِهِمْ وَبِدْعِهِمْ وَخِرَافَاتِهِمْ، بِشَدَّةٍ وَعَنْفٍ وَقَسْوَةٍ فِي الْخَطَابِ، فَيَنْفِرُونَ، وَلَا يَسْتَجِيبُونَ، وَقَدْ يُقَاوِمُونَ وَيُحَارِبُونَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الدُّعَاةِ الْهَادِيَةِ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِمْ نَظَرَاتٍ كَرَاهِيَةٍ وَعَدَاءٍ، وَاتِّهَامٍ بِالانْحِرَافِ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَتَقَعُ الْخُصُومَاتُ، وَإِذَا كَانَ لِلوَافِدِينَ إِلَيْهِمْ بَعْضُ أَنْصَارٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ انشَقَّتِ الصَّفُوفُ، وَتَقَاتَلَتِ الْقَوْمُ، وَنَجَمَ عَنْ سُوءِ التَّصَرُّفِ بِعَدَمِ اتِّخَاذِ الْخَطَوَاتِ الْمَتَدَرِّجَةِ عَوَاقِبُ وَخِيمَةٌ جَدًّا.

لَكِنْ لَوْ اتَّخَذَتِ الْخَطَوَاتُ الْمَتَدَرِّجَةُ الْحَكِيمَةُ الرَّشِيدَةُ، لِتَحَقِّقِ بِالصَّبْرِ الطَّوِيلِ، وَالْحِلْمِ، وَالْإِقْنَاعِ الْهَادِيَّ الَّذِي يَبْدَأُ مِنَ الْجَذُورِ فَالْشُّوْقِ فَالْفُرُوعِ، مَعَ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ بِمَا تُحِبُّ الْأَنْفُسُ مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ، إِصْلَاحٌ كَثِيرٌ، وَلَوْ طَالَ الزَّمَنُ، فَالطَّرِيقُ الطَّوِيلُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْهَدَفِ هُوَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَرُ فِي الْحَقِيقَةِ، أَمَّا الطَّرِيقُ الْقَصِيرُ الْمُنْقَطِعُ الَّذِي لَا يُوصِلُ إِلَى الْهَدَفِ فَهُوَ أَطْوَلُ الطَّرِيقِ وَأَبْعَدُهَا فِي الْحَقِيقَةِ عَنِ تَحْقِيقِ الْمَقْصُودِ.

\* \* \*

## الآفة السابعة عشرة

بذُرُ بُرُورِ الْوَلَاءِ لِشَخْصٍ قِيَادِيٍّ، أَوْ لَجْمَاعَةٍ مَنْظَمَةٍ، مَعَ الْإِزْمَامِ بِالطَّاعَةِ الْعَمِيَاءِ لِمَقَرَّرَاتِ الْقِيَادَةِ وَأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، دُونَ اعْتِرَاضٍ، وَلَوْ خَالَفَتْ مَفْهُومَاتِ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحَةَ الثَّابِتَةَ، وَأَوَامِرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا الْوَلَاءِ الْأَعْمَى، الَّذِي تُتَّخَذُ لَهُ ذِرَائِعُ تَزْيِينُهُ وَتَحْسِنُهُ، أَنْ يَكُونَ الْوَلَاءُ لِلشَّخْصِ الْقِيَادِيٍّ، أَوْ لِلْجَمَاعَةِ الْمَنْظَمَةِ، مُقَدِّمًا فِي مَشَاعِرِ الْأَتْبَاعِ وَأَعْمَالِهِمْ عَلَى الْوَلَاءِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْإِسْلَامِ الْحَقِّ، وَالْوَلَاءِ الْعَامِ لِلْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَيَنْجُمُ عَنْ هَذَا الْوَلَاءِ الْجَانِحُ عَنِ الْحَقِّ وَالْجَائِرُ عَنِ صِرَاطِ الْهُدَى انْطِمَاسُ الْبَصِيرَةِ، وَبِانْطِمَاسِهَا تَنْعَدِمُ الرُّؤْيِيَّةُ، فَلَا يُفَرِّقُ ذُو الْوَلَاءِ لِشَخْصٍ قِيَادِيٍّ، أَوْ لَجْمَاعَةٍ مَنْظَمَةٍ ذَاتِ قِيَادَةٍ مُتَّخِبَةً انْتِخَابًا دِيمُقْرَاطِيًّا عَلَى خِلَافِ مَنَهْجِ الْإِسْلَامِ، بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالصَّوَابِ وَالْخَطَأِ.

وَيَنْجُمُ عَنْهُ أَيْضًا تَعْطِيلُ مُحَاسَبَةِ الْقِيَادَةِ الْمَخْطِئَةِ، عَلَى أَسَاسٍ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بِالرُّجُوعِ إِلَى فُقَهَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَعِلْمَائِهَا.

وَيَنْجُمُ عَنْهُ أَيْضًا التَّسْلِيمُ الْأَعْمَى لِكُلِّ مَا تَأْمُرُ بِهِ الْقِيَادَةُ، أَوْ تَنْهَى عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ قَتْلُ الْأَبْرِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمُخَالَفَةُ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ إِفْسَادٌ فِي الْأَرْضِ وَأَتْهَامٌ لِلْبِرَاءِ الصَّالِحِينَ، وَتَجْرِيحٌ لِلْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ.

وَيَنْجُمُ عَنْهُ أَيْضًا الدَّفَاعُ الْكَامِلُ عَنِ كُلِّ تَصَرُّفٍ يَصُدِّرُ عَنِ الْقِيَادَةِ، وَلَوْ كَانَ مُنَافِيًا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وبهذا الولاء الجائر عن صراط الحق والهدى يتدرب الأتباع على أن لا تكون لهم مشاركة في رأي، أو اعتراض على تصرف، وأن يكون كل واحد منهم كالإمعة، مقوداً لتأييد قادة الجماعة التي منحها ولاءه الكامل من مقود ولأته، ولإلقاء الغشاوات على الأبصار تقدم للسائرين وراء قادتهم بعض المطاعم والمشارب والمنافع التي يتناولونها من أيديهم.

ويُندَفَعُ الأَتْبَاعُ بِقُوَّةٍ، تُحَرِّكُهُمُ الآمَالُ الَّتِي يَتَرَقَّبُونَ حَصُولَهَا، مَتَى ظَفَرَتِ القِيَادَةُ بِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا، بِنَاءً عَلَى مَا تَلَقَّوْهُ مِنْ وَعُودٍ، وَمَا زَادُوا عَلَيْهَا مِنْ مَطَامِعٍ تَطْمَحُ نَفُوسُهُمْ لِلْحَصُولِ عَلَيْهَا.

يُضَافُ إِلَى كُلِّ مَا سَبَقَ مَا تُصَابُ بِهِ نَفُوسُ جَمَاعَاتِ التَّكْتُلِ النِّفْعِيِّ عَادَةً مِنْ دَاءِ التَّعَصُّبِ الذَّمِيمِ، الَّذِي أَصِيبَتْ بِمِثْلِهِ الشُّعُوبُ البِدَائِيَّةِ القَوْمِيَّةِ، وَالقَبْلِيَّةِ وَالْأُسْرِيَّةِ، وَالتَّعَصُّبِ الَّذِي تُصَابُ بِهِ الأَحْزَابُ السِّيَاسِيَّةِ، القَائِمَةُ عَلَى التَّرَابِطِ المَصْلَحِيِّ الدُّنْيَوِيِّ، وَالَّتِي تُخَادِعُ بِشَعَارَاتِ المَصْلَحَةِ العَامَّةِ للشُّعْبِ، وَالَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعَادِي وَتُحَارِبَ التَّكْتُلَاتِ الأُخْرَى، ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَتَفْتَرِي عَلَى أَفْرَادِهَا لِتَحْطِمْهُمْ، وَتُسَوِّهُ أَهْدَافَهَا، لِثَلَا تَصِلَ إِلَى مَرَاكِزِ الإِدَارَةِ وَالحُكْمِ.

إِنَّ التَّنَافُسَ غَيْرَ الشَّرِيفِ هُوَ المَحْرُكُ الأَعْظَمُ لِلأَحْزَابِ النِّفْعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهِيَ بِأَبْنِيَّتِهَا الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ أَوْ الدِّيْكْتَاتُورِيَّةِ، وَأَعْمَالُهَا غَيْرُ الأَخْلَاقِيَّةِ، مُخَالَفَةٌ لِلإِسْلَامِ وَمُبَايَنَةٌ لِأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ وَأَهْدَافِهِ، فَالْجَمَاعَاتُ الَّتِي تَبْنِي نَفْسَهَا عَلَى مَنَاجِزِ الأَحْزَابِ الَّتِي عَرَفَتْهَا الشُّعُوبُ غَيْرُ المُسْلِمَةِ جَمَاعَاتٌ لَا يُرْجَى مِنْهَا أَنْ تُحَقِّقَ أَهْدَافًا إِسْلَامِيَّةً صَحِيحَةً، لِأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى أُسُسٍ غَيْرِ إِسْلَامِيَّةٍ.

\* \* \*

### الآفة الثامنة عشرة

فساد نفس حامل الرسالة بسبب استهواء المكان العالي لمشاعر حُبِّ العلوِّ في الأرضِ لِدَيْهَا، إِذْ يَرَى أَنَّهُ صَارَ ذَا مَكَانَةٍ مَرْمُوقَةٍ بَيْنَ النَّاسِ، يَحْتَرِمُونَهُ، وَيَعْظُمُونَهُ، وَيَقْبَلُونَ يَدِيهِ وَرَأْسَهُ، وَيَقْدَمُونَهُ فِي المَجَالِسِ وَالمَوَائِدِ، وَيَمْنَحُونَهُ الهَدَايَا وَالأَمْوَالَ، فَتَتَعَاطَمُ نَفْسُهُ، وَيَنْتَفِخَ صَدْرُهُ، وَيَتَحَوَّلَ عَنْ ابْتِغَاءِ الآخِرَةِ إِلَى طَلْبِ الدُّنْيَا، نَاسِيًا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ

(القصص / ٢٨ / مصحف / ٤٩ / نزول):

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُتَّقِينَ ﴾

وبسبب سُقُوطِ حَامِلِ الرِّسَالَةِ فِي هَذَا الْفَسَادِ النَّفْسِيِّ يَجِدُ نَفْسَهُ مُسْتَدْرِجًا إِلَى مَزَالِقِ خَطِيرَةٍ جِدًّا، يَنْغَمَسُ فِيهَا بِأَوْحَالِ ذَوِي السُّلْطَانِ، أَوْ ذَوِي الْمَالِ وَالْعِجَاهِ، وَيَسْتَمْرِيءُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ، وَمَا يُصِيبُهُ مِنْ لَذَّةِ الْمَكَانِ الرَّفِيعِ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنْ شَهْوَاتٍ وَلذَاتِ جَسَدِيَّةٍ، فَيَسْكُتُ عَنِ الْحَقِّ، لثَلَا يُنَاصِبُهُ أَوْلَا الْقُوَّةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْعِدَاءِ، فَيَعْمَلُوا عَلَى إِنْزَالِهِ عَنِ الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي جَذَّبُوهُ إِلَيْهَا، وَحَرَمَانِهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الشَّهْوَاتِ وَاللَّذَاتِ الَّتِي يُصِيبُهَا وَهُوَ فِيهَا.

ثُمَّ لَا يَزَالُ الْأَخْبَاطُ مِنَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ يَسْتَدْرِجُونَهُ، حَتَّى يَتَغَاضَى عَنِ كِبَائِرِ الْمَعَاصِي الَّتِي يَرْتَكِبُهَا كِبْرَاءُ النَّاسِ، ثُمَّ يَزِيدُونَ فِي اسْتِدْرَاجِهِ حَتَّى يَخَالِطَهُمْ وَيُشَارِكُهُمْ مَعَاصِيَهُمْ فِي مَجَالِ السُّهُمِ الْخَاصَةِ.

ثُمَّ يَسْتَدْرِجُونَهُ إِلَى إِصْدَارِ فِتَاوَى بَاطِلَةٍ، يَفْتَرِيهَا عَلَى الدِّينِ، إِرْضَاءً لَهُمْ، وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ يَصِلُ إِلَيْهِ بَعْضُ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ، فَبَعْضُ الْمُسْتَدْرِجِينَ السَّاقِطِينَ فِي هَذِهِ الْأَوْحَالِ، إِذَا لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَجْرَدَ شَيْطَانٍ أُخْرَسَ، يَرَى الْبَاطِلَ وَلَا يَشْجُبُهُ، وَيَرَى كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَلَا يُنْكِرُهَا، وَيَرَى حُرْمَاتِ اللَّهِ تَنْتَهَكُ فَيَتَغَاضَى عَنْهَا، فَإِنَّهُ قَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ جُنُودِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ يَرْتَدِي رَدَاءَ حَامِلِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالنَّصِيحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

\* \* \*

## الآفة التاسعة عشرة

استخدام أسلوب الفظاظ والغلاظة والسباب والشتائم، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتُّصح والإرشاد.

إن هذا الأسلوب من الأساليب المنفرة المثيرة للغضب والكرهية والحقد والإصرار على الباطل والشرّ، ومن شأنه أن يبتدر بزور الشقاق والعداء لحامل الرسالة وأتباعه المناصرين له، وهو يستثير المقصودين وأنصارهم، ليقتدوا بالشتائم والاتهامات الأشنع، وهم الأقدَرُ على إطلاق أفتيحها وأزدلها من حَمَلَةِ الرسالة، ولا يُكَلِّفُهُمْ ذَلِكَ مشقَّةَ عِلْمِيَّةٍ، ولا تأمُّلاتٍ فِكْرِيَّةٍ، وربَّما دفعَهُمْ لَاتِّخَاذِ وسائل القمع بالقوى المسلَّحة، ويَجِدُونَ مُعْظَمَ الجماهير تَعذُّرُهُمْ في ذلك.

إن أسلوب السباب والشتائم لا يَسْلُكُهُ إِلَّا الْأَحْمَقُ الْعَاجِزُ عن تقديم البَيَانِ السَّديدِ المقنع، والحجج الدامغة، وهو من وسائل مُقَاوِمِي دُعَاةِ الْحَقِّ، المرسلين والأنبياء وتابعيهم بإحسان، وليس من وسائل دُعَاةِ الْحَقِّ والناصحين المرشدين، والأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وأقربُ الأشياءِ شَبَهًا بِالشَّتَائِمِ والسَّبَابِ، عُوَاءُ الكلاب، فالعَاقِلُ من الناس لا يَتَّخِذُ الشَّتَائِمِ والسَّبَابَ من وسائله، ولا سيما لدى حَمَلِهِ رسالةَ الدَّعْوَةِ والتُّصْحِ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما الرُّفُقُ في الخطابِ مكتوباً أو مقولاً، فهو الأَرْجَى تأثيراً وقبولاً، ولا يَسْتِثْنِيهِ الغضب، بل قَدْ يَصِلُ إِلَى القارئِين أو السامعين، آمناً من صَوْلَةِ الباطل والمبطلين، وحمَاقَةِ الحمقى وغضبِ الغَاضِبِينَ.

\* \* \*

## الآفة العشرون

ضعف الإرادة، وقلة الصبر على المكاره، وتحاشي المواقف التي يُخشى منها حصول الأذى، في النفس، أو في المال، أو في الكرامة، أو في الأهل والأقربين، أو في الأنصار والأتباع.

فبعض حَمَلَةِ الرسالة يتقاعسون عن تَأْدِيَةِ وظائف رسالتهم الواجبة عليهم، مخافةً مُقَابَلَتِهِمْ بالاستهزاء والسخرية، أو بالإعراض عنهم، أو بالشَّعْبِ عليهم، أو مَخَافَةَ إِيذَانِهِمْ في بعض أموالهم، ورواتبهم التي يتقاضونها من الدَّوْلَةِ، أو مخافةً حِرْمانِهِمْ أو حرمان ذويهم من تسهيل المصالح التي لهم في دوائر الدولة أو وظائفها.

وَيَعْقُلُ هؤلاء عن أَنْ رسالتهم عُنُصْرٌ من عناصر الجهاد في سبيل الله، والجهاد لا بُدَّ أَنْ يتعرَّضَ فيه المجاهد إلى أنواع من الأذى، فعليه أَنْ يُوَاجِهَهُ ذَلِكَ بالصَّبْرِ، وسَعَةِ الصَّدْرِ، وَتَحَمُّلِ الأذى، وَاحْتِسَابِ ذلك عند الله، وعليه أَنْ يَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ القُدْوَةَ الحسنة المثلَى، وَهُمُ رَسُلُ الله عليهم السلام، وفي خاتمتهم إِمَامُهُمْ رَسُولُ الله مُحَمَّدٌ ﷺ، فَكَمْ وَاجَةٌ من قومه من أذى في جَسَدِهِ وَنَفْسِهِ، فَتَلَقَى ذَلِكَ بالصَّبْرِ الجميل، وكان لا تزيده جهالتُهُمْ عليه إِلَّا حِلْمًا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بالصَّبْرِ.

إِنَّ الدَّاخِلَ في مَعْرَكَةٍ من معارك الجهاد في سبيل الله، لا يَصِحُّ له أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّهُ دَاخِلٌ في حديقَةٍ يَقْضِي فيها نُزْهَةً مُمْتَعَةً، وَأَنَّ سُبُلَهُ فيها مفروشةٌ بالورودِ والرَّيَاحِينِ، وَأَنَّهُ سَيَسْتَمْتِعُ فيها بتغريد الطيور، وَتَنَاوُلِ الثمار الطيبة اليانعة، والمطاعم اللذيذة، وَالجُلُوسِ على الأرائك الفارهة.

فعلى حامل الرسالة أَنْ يُوطِّنَ نفسه ابتداءً على تَحَمُّلِ أنواعِ الأذى بالحلم والصَّبْرِ، وسعة الصدر، والعفو والصفح والتَّسَامُحِ.

\* \* \*



## الآفة الحادية والعشرون

اتباع حامل الرسالة الهوى، بسكوتِه عن الآثام التي هو ساقطٌ فيها، ومرتكبٌ لها في سرِّه أو جَهْرِهِ، وبالتغاضي عن جرائمِ وآثامِ الأقاربِ والأرحامِ والأصحابِ والأحبابِ وجماعةِ الحزبِ.

ومن اتباع الهوى الشفقةُ على أولاده، وأهلِهِ، وعلى من يُحبُّ، ومن اتباع الهوى الخوفُ على المنافعِ والمصالحِ التي قد تَفُوتُهُ إذا قال الحقُّ، أو نَصَحَ به.

إنَّ بعضَ حملةِ الرسالةِ تَجْعَلُهُ شَفَقَتَهُ على أبنائه وبناته يتغاضى عن ارتكابهم لكبائرِ الإثمِ، فيُخْرِسُهُ تَغَاظِيهِ هَذَا عَن إنكارِ المنكراتِ المماثلاتِ التي يرتكبها الناسُ.

ويُحِبُّ بَعْضُ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ زَوْجَتَهُ فيتغاضى عن سفورها وتبرُّجها أمامَ الرِّجالِ الأجنبيِّ، لأنَّهُ إذا مَنَعَهَا من ذلك، أو أمرها بالحجابِ الإسلاميِّ أَمَرَ لِزَامِ أَعْظَبَهَا، فتجافَّت عن فراشه، وهو لا يتحمَّلُ أن يجدها غاضبةً.

ويُحِبُّ بَعْضُ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ صَدِيقاً له، فيتغاضى عن كبائره وقبائحه لئلا تَفْسُدَ علاقته به فيخسرَ صداقته.

ويكونُ لِبَعْضِ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ شريكٌ في تجارةٍ أو صناعةٍ أو زراعةٍ، فيتغاضى عن كبائره وقبائحه، لأنَّ شراكتَه تحقق له أرباحاً ومنافعَ دنيويةً.

ويكونُ لِبَعْضِ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ رَئِيسٌ في عَمَلٍ عامٍّ أو خاصٍّ، فيتغاضى عن كبائره وآثامه، لئلا يَعْظَبَ منه إذا نصحه أو أمره بالمعروفِ ونهاه عن المنكرِ، فيؤذِيهِ في عَمَلِهِ، أو يصرفه عنه، وينسى أن الله هو الرزاقُ ذو القوةِ المتينِ.

فعلى حاملِ الرسالةِ أن يحذر من هذه الآفةِ الشنيعةِ.

\* \* \*

## الباب الرابع

### مناهج توصيل الرسالة

وسبلها وسائلها وأدواتها

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: التوجيه المباشر، والتوجيه غير المباشر.

الفصل الثاني: العقبات الصادات للتوجيه وأساليب معالجتها.

الفصل الثالث: المنهاج البياني ومسالكه (الحكمة - والموعظة الحسنة - والجدال بالتي هي أحسن).

الفصل الرابع: وسائل الأداء البياني (الخطبة - الدرس - المحاضرة - الحديث والمحادثة - مجالس السؤال والجواب - الكتاب - المقالة - الشعر - القصة - التمثيل).

الفصل الخامس: أدوات التوصيل الإعلامي، ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها.

الفصل السادس: المنهج الرباني للسياسة الحكيمة الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته.

الفصل السابع: المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً.



## الفصل الأول

### التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر

وفيه مقدّماتٌ عامّاتٌ وثمانية مقولاتٍ حول وسائل التوجيه غير المباشر:

المقدّمات العامة: حول التعريف بالتوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر وبيان واجب حَمَلَةِ الرسالة بالنسبة إليهما.

المقولة الأولى: البيان الكلاميُّ غير المباشر.

المقولة الثانية: القدوة الحسنة.

المقولة الثالثة: البيئة والرفقة الصالحة.

المقولة الرابعة: القصّة النافعة والمشاهد التمثيلية المفيدة.

المقولة الخامسة: القراءة الحرّة وأثرها.

المقولة السادسة: الترنيمة والنشيد بطريقة إسلاميّة شكلاً ومضموناً.

المقولة السابعة: إدخال البيان الإسلاميّ ضمن العلوم المختلفة عند

المناسبات الملائمات.

المقولة الثامنة: البثّ العرضيّ المفيد عند المناسبات الملائمات.



## المقدمات العامّات

حول التعريف بالتوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر  
وبيان واجبِ حَمَلَةِ الرسالة بالنسبة إليهما

التعريف:

يوجد طريقتان رئيسان لتأدية الرسالتين:

- رسالة الهداية بالدعوة إلى الإيمان بالله والإسلام له، والدعوة إلى سلوك سبيله، مع المتابعة بالتذكير والنصح والإرشاد.
- ورسالة الإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر والنهي، مع المتابعة بالتذكير.

والطريقتان الرئيسان هما:

١ - طريق التوجيه المباشر.

٢ - وطريق التوجيه غير المباشر.

أولاً - أما طريق التوجيه المباشر:

فيكون بمواجهة من يُرادُ دَعْوَتُهُم وتذكيرُهُم، أو إصلاحُهُم وحمايتُهُم، بالمقصود الرئيسيِّ مُباشرةً، دون أيِّ تَوْرِيَةٍ، أو استخفاء، أو تَسْتَرٍ بأفكارٍ وحيَلٍ كلاميَّةٍ تَدُلُّ بما فيها من تشبيه، أو مجاز، أو لوازمٍ فكريَّة، أو

إشاراتٍ، أو معارِضَ، أو أمثالٍ يُقاسُ عليها، أو غير ذلك، على المقصود الرئيسيّ.

فمن أمثلة التوجيه المباشر ما يلي:

١ - أن يقول الداعي إلى الإيمان بالله لمن يدعو من غير المؤمنين: أدعوك يا أخي في الإنسانيّة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، إذ هو الخالق الواحد، والرّبّ الواحد في الوجود كلّه، وهو الذي بيده الخلقُ والأمر وهو على كلّ شيءٍ قدير.

وأدعوك إلى عبادته وحده، إذ لا نافع في الوجود غيره، ولا ضارّ في الوجود غيره.

ثمّ يقيم له الأدلّة على ما دعاه إليه.

٢ - أن يقول الداعي إلى سلوك سبيل الله لمن يدعو من غير المسلمين: أدعوك يا أخي في الإنسانيّة إلى الإسلام لله واتباع ما جاء عنه، وسلوك صراطه المستقيم لتظفر بالنجاة من عذابه، وبالسعادة الخالدة في جنّات النعيم يوم الدين.

يا أخي في الإنسانيّة: إن الله عزّ وجلّ قد خلقنا في الحياة الدّنيا ليتمحننا بالإيمان به وبما أنزل على رُسله، وبالإسلام له معلنين السّمع والطّاعة، وبالتزام سلوك صراطه المستقيم، الذي أنزله على رُسله، وفي خاتمهم محمّد بن عبد الله ﷺ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أجمعين.

فمن آمن وأسلم لله، مُعلِناً السّمع والطّاعة، وأثبت اهتمامه بالتزام صراط الله، نجا وسعد، وظفر بجنّات النعيم يوم الدين.

ومن لم يُسلم ولم يُعلن السّمع والطّاعة عرّض نفسه للخلود بالعذاب الأليم، في جهنّم وبئس المصير.

ومن أسلم وأعلن السَّمع والطَّاعَةَ بِصِدْقٍ، إِلَّا أَنَّهُ أُسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ  
بالمعاصي والمخالفات، اسْتَحَقَّ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى مَقَادِيرِ مَعَاصِيهِ وَمَخَالَفَاتِهِ  
ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُ إِلَى الْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النِّعِيمِ.

ثم يقيم له الأدلة على ما دعاه إليه .

٣ - أن يقول حامل رسالة الإصلاح والحماية داخل المجتمع  
الإسلامي، لمن يوجه له نُصْحَهُ وإرشاده، أو أمره ونهيه :

يا أخي المسلم: اتق الله، واحذر عقابه، واهجر ما أنت فيه من  
المعاصي، أقم الصلاة، وآت الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت إن استطعت  
إليه سبيلاً، ولا تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تظلم أحداً، ولا  
تأكل أموال الناس بالباطل، ولا تسرق، ولا تزني، ولا تفعل من الفواحش  
شيئاً.

وعلى هذه الطريقة يُوجَّه نُصْحَهُ وإرشاده وأوامره ونواهيته، ويستدل لما  
ينصح به، ويُرشد إليه، ويأمر به، وينهى عنه، بنصوص من القرآن والسنة،  
ويستشهد ببشواهد ذات عظمة من قصص التاريخ.

هذه الأمثلة ونظائرها هي من قبيل التوجيه المباشر الذي لا توارى فيه،  
ولا تَسْتُرُ.

\* \* \*

مواطن وأحوال التوجيه المباشر :

والتوجيه المباشر في الكلام هو الأصل، وله النسبة الكبرى من كل  
كلام، وهو أحد طريقي التوجيه الكلامي اللذين جاء في القرآن المجيد  
استخدامهما.

وطريقة التوجيه المباشر طريقة نافعة في التعليم، وفي بعض الخطب



الوعظية العامة، وحلقاتِ التدريس والوعظِ العام، وفي نُصْح الأب لابنه، والأستاذِ المرَبِّي لتلميذه المطيع، ونُصْح كبير القوم لمن يَدِينُون له بالطاعة، وَيَسْتَجِيبُون لأوامره ونواهيه، ونحو ذلك.

ومن الأحوال التي يكون فيها الأسلوب المباشر السافر أوقع في النفوس، وأكثر تأثيراً فيها، وأنفع وأجدى، أو أكثر ضَبْطاً، الأحوال التالية:

١ - خطابُ الذين يَضَعُبُ عليهم الفَهْمُ بأسلوبٍ غير مباشر، كالصغار وضعفاء التفكير.

٢ - حينما يكون المخاطبُ في حالة انفعالية أفقدته الهدوء والصفاء الفكري، فالإنسانُ في مثل هذه الحالة لا يَرُوقُ له إلا الكلامُ الذي يَدُلُّ على المقصود بطريقة مباشرة.

٣ - لدى بيان الحقائق الكبرى العقديّة، كالكلام الذي يُحدِّدُ قضايا الإيمان، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر، مثل: لا إله إلا الله، مُحَمَّدٌ رسولُ الله ﷺ، آمَنُوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُلُه، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله عز وجل.

٤ - لدى بيان أركان الإسلام وأحكامه وشرائعه، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر.

٥ - لدى بيان حقائق العلوم المختلفة، فهذه لا يَصِحُّ فيها إلا البيان الصريح.

٦ - لدى بيان المبادئ التي تُعَلِّقُهَا الشعارات، فهذه ينبغي فيها التصريح الذي يَدُلُّ على المعاني دلالة مباشرة سافرة.

٧ - لدى كتابة نصوص التشريع أو التقنين، فهذه يجب فيها التعبير

بالأسلوب المباشر السافر، لئلاً يَكُونَ في الأفكار احتمالاتُ تَسْمَحُ بِصَرْفِ الكلام عن دلالة المقصودة.

٨ - لدى التعبير عن الأحكام القضائية، فهذه يجب فيها أيضاً التعبير بالأسلوب المباشر السافر.

٩ - في معظم مواقف الدُّعاء لله عزَّ وجلَّ، مثل: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَاَرْحَمْنِي، وَاَهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي، وَعَافِنِي، وَاَرْزُقْنِي حَلَالاً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ. ومن هذا قول موسى عليه السلام كما جاء في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

١٠ - في معظم صور التعليم لمسائل العلوم.

١١ - في ذُرُوات التَّعْبِيرَاتِ العاطفيَّة.

ضرر التوجيه المباشر أحياناً:

وقد يكون التوجيه المباشر طريقة ضارَّةً مُنْفَرَّةً، فيجب حينئذٍ تحاشيها، وعدم استخدامها، بل يجب اللُّجوء عندئذٍ إلى استخدام إحدى البدائل من وسائل طريق التَّوجِيهِ غير المباشر.

ومن الأحوال التي يَضُرُّ فيها التوجيه المباشر إلى ما يلي:

١ - أن تقول لمن تدعوه إلى الإيمان بالله وإلى الدخول في الإسلام: أَنْتَ كَافِرٌ مُّجْرِمٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ مَلْعُونٌ مَطْرُودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَسَتَظَلُّ كَذَلِكَ، إِذَا لَمْ تُؤْمِنْ، وَلَمْ تَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ تَهْتَمَّ بِالتَّزَامِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

٢ - أن تقول لمن تَعَلَّمَ عنه أنه من مرتكبي الكبائر في نُصْحِكَ لَهُ:

أنت زانٍ، أنت لَصٌّ، أنت مُجْرِمٌ، أنت ضالٌّ مُضِلٌّ، فاتَّقِ اللَّهَ واهْجُرْ ما أنت فيه، وإلا أنزل اللَّهُ بِكَ عِقَاباً أَلِيماً.

إنَّ مثل هذا التوجيه مخالف لمنهج الرسول ﷺ في نُصْحِهِ وإرشاده، وأمرِهِ ونَهْيِهِ، فلقد كان من أدبِهِ الرَّفِيعِ إذا ساءَهُ من بعض القوم معاصٍ ارتكبوها أن يقول: ما بالُ أقوامٍ يفعلونُ كذا وكذا، ولا يُواجه من أذنب بإعلانِ ذنبه، لئلا يُخرِجَهُ، فيَنفَرَهُ، بل يَسْتُرُهُ، ويتحدَّثُ عن عَصَاةٍ ما بشكل عامٍّ، دون أن يَفْضَحَ المذنب أو المذنبين بأعيانهم.

٣ - أن تقول مثلاً لِمَنْ في جسمه عَيْبٌ خَلْقِيٍّ، وأنت تُريد أن تَنصَحَهُ بأن يَسْتُرَ عَيْبَهُ، بِالكَرَمِ، وَحُسْنِ الخُلُقِ، والاستقامة في سلوكه الخاصِّ، وفي تعامله مع الناس: أنتَ أَعْمَى، أنتَ أَعْوَرُ. أنتَ أَعْتَمِعُ. أنتَ أَعْرَجُ. أنتَ قَبِيح المنظر، فاستُرْ عَيْبَكَ بِكَرَمِكَ، وَحُسْنِ خُلُقِكَ، واستقامتك في سلوكك.

٤ - أن تَتَّخِذَ أُسْلُوبَ الأَمْرِ والنَّهْيِ دواماً، دون أن تُغْلَفَهُ بمقدِّمات عامَّاتٍ، ونصائح غير مباشرة، تُحَضِّرُ النفوسَ بها لتقبُّلِ الأَمْرِ والنَّهْيِ بقبولِ حَسَنٍ.

\* \* \*

ثانياً - وأما طريق التوجيه غير المباشر:

فيكون بهداية من يُرادُ دَعْوَتُهُم وتذكيرهم، أو يُرادُ إِصْلَاحُهُم وحمایتهم بوسائلٍ غيرِ صريحه، إذ لا يبدو في ظاهرها المقصود الرئيسيُّ، وإنما يأتي متوارياً، مستخفياً مستتراً بأفكارٍ وحيَلٍ كلامية، أو حكايات أو أعمالٍ، تدلُّ بما فيها من تشبيه، أو لوازم فكرية، أو إشارات، أو معاريف، أو أمثالٍ يُقاسُ عليها، على المقصود الرئيسيِّ، أو يستفادُ منها الدلالةُ على المقصود بالتوجيه له.

كالكنيات، ومعاريف الأقوال (إِيَّاكَ أَعْنِي واسْمَعِي يا جارة) ورواية

القصص، أو التوجيه لقراءتها، أو عرض مشاهدتها بالتمثيل إن أمكن دون ارتكاب معصية، والقدوة الحسنة المثيرة للإعجاب، والغَمَس في البيئة الصالحة، والصحبة والرفقة، وحديث المتكلم عن نفسه، أو حديثه عن الغائب، والبث العرضي، وإدخال الفكرة المقصودة في ثنايا أفكار أخرى تبدو أنها هي المقصودة بالذات، لا ما جاء مندسًا فيها، أو متقرناً بها.

وطريقُ التوجيه غير المباشر هو طريقُ التعليم، والتُّصْح والإرشاد، والتربية، والتذكير، والموعظة العملية، التي ملأ الله الوجود المادّي بها، ونَبَّهَ عليها في كتابه المنزل على رسوله ﷺ.

● فمن التنبيه عليها تكليفه عباده أن يتفكروا في خَلْقِ السماوات والأرض، وفي أنفسهم، لتدلهم آياته التي لا يستطيعون حصرها، على صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، وأنه واحدٌ في ربوبيته، وفي إلهيته.

● وأرسل الله عزّ وجلّ لقابيل بعد أن قتل أخاه هاويل، واحتار كيف يوارى سواته، غراباً يبحث في الأرض، ليدفن فيها فتعلم من الغراب دفن أخيه القتيل، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلَنِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١١٦﴾ ۞ .

● وأبان الله عزّ وجلّ أنه ترك سفينه نوح باقية من بعده، لتكون آية لمن يذكّر، فقال تعالى بشأنه في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿٢١﴾ ۞ .

● وأبان الله عزّ وجلّ أن الرياح التي يُرْسِلُهَا تَحْمِلُ لِلنَّاسِ ذِكْرًا، فيه إعداؤٌ وفيه إنذار، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بشأن الرياح:

﴿وَأَلْمَسْتَنَّتْ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْمَصَفَتْ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَأَلْتَشْرَبَتْ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقَتْ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَقَيْتِ  
ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَذْرًا ﴿٦﴾﴾ .

وقد جعل الله عزّ وجلّ طريق التوجيه غير المباشر متاحاً لجميع خلقه،  
الصغار منهم والكبار، القراء منهم والمتعلمين وغيرهم، حتّى البهائم التي لم  
تُعطَ الألسنة الناطقة، ولا العقول المفكرة، بل أعطيت ما تهتدي به إلى سبيل  
حياتها ومعاشها، قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠  
نزول):

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّيْلِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن  
كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْكُرِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ  
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: وألهمها بوسائل التوجيه غير المباشر.

\* \* \*

ميزات طريق التوجيه غير المباشر:

ولطريق التوجيه غير المباشر ميزات كثيرة، منها ما يلي:

١ - أنه كما سبق بيانه طريقٌ تستفيد منه الخلائق ذوات الحياة والإدراك  
كُلُّها، على مقادير ما لديها من قدرات إدراك وذكاء، ومنها الحيوانات الدنيا  
في سَلْمِ الإدراك.

٢ - شعور الإنسان بأن ما يتوصّل إليه به إنّما اكتسبه بنفسه استخراجاً  
واستنباطاً، دون أن يُملِيه عليه أحدٌ، أو يُلزمه به أحدٌ، أو يستعلي عليه به  
أحدٌ، إذ هو يفكر وهو يستفيد معلوماته به بحريّة، ويعمل بحريّة، ولا يشعر  
بأنّه مُكرّه، أو مكلفٌ، أو يأخذ ما يستفيدُه من مُستعلٍ عليه بفضلٍ علمٍ أو  
خبرةٍ أو ذكاءٍ وفهمٍ.

٣ - أن من شأن من يستخدم طريق التوجيه غير المباشر أن يتحاشى ويتفادى التصادم مع كثير من العقبات النفسية المختلفة .

والسبب في هذا أن العقبات النفسية قد تكون شديدة الصلابة في نفوس بعض الناس، فلا تَسْمَحُ بمرور توجيه آتٍ من شخص آخر .

لكن هذه العقبات يمكن تحاشيها، والمرور إلى داخل النفس من طرقاتٍ ومساربٍ أُخْرَى لا تقف فيها هذه العقبات الصّادات، ومن أهم هذه الطرقات والمسارب أنفاقٌ تدخلُ من خلالها المضامين الفكرية المقصودة بالتوجيه، دون أن تَعْتَرِضَها العقباتُ القائمة في طريق التوجيه المباشر، أو أن تدخل مغلّفةً بأغلفة لا تجدُ فيها العقباتُ ما يتنافى معها حتّى تعترضها، أو أن تتسلل إلى داخل النفس تسلاً خفيّاً، يشعر الإنسان معه أنه هو الذي فكّر بنفسه، وهو الذي اختار بإرادته الحرّة، ولم يتلقّ الأفكار ولا الأوامر والنواهي من أحد، ولم يلزم بالعمل من أحد .

إنه بهذا يندفع أو يخدع نفسه بتجاهله ليرضي غروره، إذا كان من أهل الغرور، ثم يسير بكل قوته واندفاعه في الطريق التي دفعه إليها من وجهه بأسلوبه غير المباشر، ويظلّ مع شدة اندفاعه يتوهّم في قرارة نفسه أنه يسير في طريقه بمحض اختياره، دون أن يؤثر عليه مؤثّر خارج عن كيان ذاته .

وقد استفاد شياطين الإنس والجن من طريق التوجيه غير المباشر فأضلّوا به خلائق كثيرين .

\* \* \*

واجب حامل الرسالة :

فعلى حامل الرسالة أن يكون خبيراً بالنفوس الإنسانية، وأن يستخدم الطريق المباشر إذا كان هو الطريق الأجدى والأصلح لتحقيق المقصود، وأن يستخدم الطريق غير المباشر على اختلاف سبله، مُختاراً منها ما يراه أكثر

نفعاً، وأوصل إلى تحقيق المقصود، دون أن تصدّه عقبات نفسية، رجاء أن يكون أداؤه لرسالته ذا تأثير كبير ونفع عظيم.

\* \* \*

وفي المقولات التالية من هذا الفصل شرح لطائفة نافعة من سُبُل<sup>(١)</sup> التوجيه غير المباشر، وهي ما يلي:

١ - البيان الكلامي غير المباشر.

٢ - القدوة الحسنة.

٣ - البيئة والرفقة الصالحة.

٤ - القصة النافعة والمشاهد التمثيلية.

٥ - القراءة الحرّة وأثرها.

٦ - الترنيمة والنشيد بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً.

٧ - ادخال البيان الإسلامي ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات.

٨ - البثُّ العرضيُّ المفيد عند المناسبات الملائمات.

\* \* \*

---

(١) اخترت أن أعتبرها سُبُلًا تفریقاً بينها وبين المناهج لأنَّ المنهاج هو الطريق الواضح، أمَّا السبيل فهو الطريق سواءً أكان ضيقاً أم واسعاً، ويطلق على الطريق في الأرض والجو والبحر والماديِّ والمعنويِّ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذني سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلًا﴾.

## المقولة الأولى

من سُبُل التوجيه غير المباشر

### البيان الكلامي غير المباشر

البيان الكلامي المباشر هو البيان الذي تكون الدلالة فيه على المعنى المراد باللفظ الموضوع له لغةً، أو باللفظ الدال عليه في الاستعمال العام الدارج، أو باللفظ الدال عليه اصطلاحاً، عند أهل علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو الدال عليه في الإصطلاح الشرعي.

أمّا البيان الكلامي غير المباشر فهو البيان الذي يُستخدم فيه التشبيه والتمثيل، أو الاستعارة، أو المجاز، أو الكناية، أو الإلماح، أو التعريض، أو فحوى الخطاب، بالمفهوم الموافق، أو المفهوم المخالف، إلى غير ذلك مما يُكتفى فيه بدلالة اللوازم الفكرية، ولا تكون فيه الدلالة على المعنى المراد بمنطوق اللفظ.

فالبيان الكلامي غير المباشر هو الذي يأتي متوارياً، أو مُستخفياً بأقنعة كثيفة، أو بأقنعة متوسطة الكثافة، أو بأقنعة رقيقة، تعطي جمالاً، ولا تحجب الرؤية عن قاصديها ذي النظر العادي.

وبالبحث والمقارنة نلاحظ أنّ مقادير التواري، ومقادير طبقات السُّتور، والكثافات في البيان الكلامي غير المباشر، تختلف، ونلاحظ أيضاً



أنَّ ما يكون شديد الخفاء منه عند بعض الناس، لا يكون كذلك عند آخرين ذوي فطنة وذكاء.

ومن الشُّتور الكلامية غير ذات الكثافة الشديدة، والتي يُدرِكُ متوسطو الذكاء أو من دونهم ما وراءها بسُهولة، سُتورُ التشبيه، والتمثيل، وبعض الاستعارات، والمجازات التي يكثر تداولها بين الناس، والكنائيات التي تَقَلُّ فيها اللوازم الفكرية.

وتزيد طبقات الشُّتور كلما بُعد التشبيه، وبُعَدَت الاستعارة، وبُعَد المجاز، وكثُرَت سِلْسَلَةُ اللوازم الفكرية.

والمعنى المدلول عليه بالبيان الكلامي غير المباشر له أربعة مستويات:

المستوى الأول: أن يكون معنى قَرِيبَ التناول، لا يحتاج إلى متابعة لوازم عقلية متعدّدة، مثل قولنا للدلالة على طول إنسان: لا يدخل الأبواب إلا إذا خفض رأسه، أو تقاصر بجسمه.

ويمكن أن نمثل لهذا المستوى بقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٥)

أي: ويثيبهم على إحسانهم، ويدخلهم جنات النعيم، لأنّ من أحبه الله أكرمه، وأدخله في رحمته، فهذه من لوازم المحبة.

وبقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) في بيان واجبات برّ الوالدين:

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣)

أي: ولا تقلّ لهما ما هو أشدّ من كلمة «آف» ولا تفعل فعلاً هو أشدّ منها، وهذا يفهم بداهة باللزوم الذهني، لأنّ من نهى عن القبيح الأخف فهو

مَنْهِيٌّ عَنِ الْقَبِيحِ الشَّدِيدِ، وَالْقَبِيحِ الْأَشَدِّ، بِمَقْتَضَى اللَّزُومِ الْعَقْلِيِّ.

المستوى الثاني: أن يكون معنًى متوسط البُعد، يُدركه الذهن دون تأمل عميق، وينتقل مع لوازم منطوق اللفظ إليه بغير مشقة فكرية.

مثل الكناية عن كثرة إطعام الضيفان عند البدو أن يقول قائلهم: «فلان كثير الرماد» أي: مضياف جواد، لأن كثرة الرماد عندهم من كثرة إيقاد النار، وكثرة إيقاد النار من كثرة الطبخ عليها، وكثرة الطبخ تدلُّ على كثرة الضيوف بحسب العادة.

المستوى الثالث: أن يكون معنًى بعيداً، بسبب كثرة لوازمه العقلية، أو بسبب أن هذه اللوازم تحتاج إلى تعمق في التفكير حتى يُدركها الذهن، وفي الغالب لا يُدركها إلا الأذكياء والعلماء.

ويمكن أن نُمثِّل لهذا المستوى بقول إبراهيم عليه السلام حين رفض عبادة الأصنام وكلِّ ما في الأرض، وبدأ يبحث عن ربه في السماء، كما أخبرنا الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ  
الْأَفْلَاقَ﴾.

أي: إن غياب الكوكب ظاهرة حدوث، وصفة الحدوث لا تكون من صفات الرب الخالق جلَّ وعلا، فالكوكب لا يصلح لأن يكون رباً، فأنا لا أحبُّ عبادة الأفلين، الذين ليس أحدٌ منهم يصلح لأن يكون رباً خالقاً، إنما أحبُّ عبادة ربِّي الحق، الذي لا تعرِّض له عوارض الحدوث.

فجملته ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلَاقَ﴾ في معرض الحديث عن الرب الخالق تستدعي لدى أهل الفكر والنظر، وأذكياء التأمل كلَّ هذه اللوازم الذهنية العقلية المنطقية.

المستوى الرابع: أن يكون معنى يُلمَحُ لَمَحًا، أو يُشَمُّ شَمًّا، وَيَتَطَلَّبُ إِذْرَاكَهُ حِسًّا مُرْهَفًا، وَمُمَارَسَةً لِإِذْرَاكِ مَشَاعِرِ النُّفُوسِ مِنْ وَرَاءِ تَعْبِيرَاتِ اللِّسَانِ.

وقد لا تظهر لوازم فكرية تدلُّ عليه، بل قد تكون الإشارة إليه من قرائن الأحوال، أو من التصريح بشيءٍ وعدم التصريح بقرينه أو مقابله، مع وجود الدواعي لهذا التصريح.

ويغملُ الذكاءُ وقُوَّةُ الحدسِ في هذا المجال لاكتشاف ما يختلج في النفوس من معانٍ لم يُفصِحَ عنها اللسان، لسببٍ من الأسباب، كالاستحياء، أو الكبر، أو العفة، أو الخوف، أو غير ذلك.

ونستطيع أن نمثل لهذا المستوى الرابع بالأمثلة التالية:

١ - قول موسى عليه السلام بعد أن سقى لابنتي الشيخ الصالح عند ماء مَدْيَنَ، ثم تولى إلى الظلِّ، فيما حكاها الله عزَّ وجلَّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

يبدو لي أن موسى عليه السلام يشير في دعائه باستحياء إلى حاجته إلى الزوجة إشارة خفية لا تُعرف إلا من قرينة الحال.

واستعمل الفعل الماضي «أنزلت» ثقةً باستجابة ربه لدعائه، وأن حاجته مقضية.

٢ - قول أيوب عليه السلام بعد أن طال به المرض ثمانية عشر عاماً: يا ربِّ إِنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، قال الله عزَّ وجلَّ مبيناً دعاءه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أَيُّ مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ .

بُنْصِبٍ وَعَدَابٍ: أي: بتعبٍ وبلاءٍ ومؤلماتٍ جسديةٍ ونفسيةٍ، فهو في دعائه هذا يشير باستحياءٍ إشارةٍ خفيةٍ إلى طلب الشفاء، معللاً ذلك بأثر وساوس الشيطان في نفسه من جرّاء طولِ المرض، فهذه الوسواس قد زادت متاعب جسده وآلامه، وعذبت نفسه.

٣ - قول امرأة عمران حين وضعت جنينها الذي كانت قد نذرته مُحَرَّرًا لبيت المقدس، وكانت تنتظر أن يكون ذكراً، فجاء أنثى، وأسمتها مريم: «رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ» - «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ».

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ إِمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَدُرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾

فهي تشير بقولها مع مساعدة قرينة الحال إلى مشاعر التّحسّر التي تشغل قلبها ساعته، وتساءل في نفسها هل يقبلُ الله عزّ وجلّ هذه الأنثى في وفاءٍ نذرها بدلَ الذكر الذي كان في تصوورها دون أن تجعله قيداً في عبارة نذرها، فاستجاب الله دعاءها:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . . . ﴾ (٢٦)

٤ - قول ذي النون عليه السلام وهو ملتمّ في بطن فم الحوت في دعائه لربه: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرَضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمُعْزَمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

لقد كان دعاء ذي النون توحيداً، وتسييحاً، واعترافاً بالذنب، إلا أنه يشير باستحياءٍ شديدٍ من طرفٍ خفيٍّ إلى طلب النجاة.

\* \* \*

أمثلة عامة:

١ - إن دلالة تشبيه الرجل بالأسد على أنه رجل شجاع دلالة غير مباشرة، لكنّ هذا التعبير يدلُّ على شجاعته إذا انتقلنا من التشبيه إلى الغرض منه، وفهمنا هذا الغرض فهماً ذهنياً.

٢ - وإذا قلنا: إن فلاناً من الناس مكتبةٌ كبيرة، كان هذا القول دليلاً على أنه كثير العلم واسع الاطلاع، ولكن بدلالة غير مباشرة، إذ لا بدّ فيه من الانتقال من تشبيهه تشبيهاً بليغاً بمكتبة، إلى الغرض من هذا التشبيه البليغ، وبهذا الانتقال نفهم فهماً ذهنياً أنه كثير العلم واسع الاطلاع.

وحين يكون التعبير بأسلوب الاستعارة تكون كثافة السُّتُور أكثر، وخطوات الانتقال أكثر.

٣ - وإذا قلنا: فلان ذو قصر عظيم، كان هذا القول دالاً دلالة غير مباشرة، على غناه، أو أنه ذو مكانة رفيعة في قومه.

وهذه الدلالة قد توصلنا إليها بعد أن خطونا خطواتٍ ذهنية وراء اللفظ، وأدركنا باللوازم الذهنية أنه لو لم يكن غنياً أو ذا مكانة رفيعة في قومه، لم يستطع أن يتخذ لنفسه قصرًا عظيمًا.

فجاء التعبير كنايةً دالةً على هذا المعنى، دون أن يكون اللفظ دالاً عليه دلالة مباشرة، وهكذا كلُّ الكنايات.

٤ - وقول الله عزّ وجلّ بأسلوب الاستعارة المكنية خطاباً للابن في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢١)

فيه دلالة على وجوب أن يتذلل الابن لوالديه، إلا أن هذه الدلالة لا تُدرك بصورة مباشرة، وإنما تُدرك بعد التأمل التحليلي في هذه الاستعارة المكنية، فالتعبير هو من قبيل البيان الكلامي غير المباشر، المُسوق بأسلوبٍ جماليٍّ بديعٍ.

٥ - وقول الله عز وجلّ بأسلوب المجاز المرسل، يصف صنفاً من أصناف المنافقين، في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ... يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١٧)

فيه دلالة على شدة الضغط على منافذ الآذان برؤوس الأنامل، لحجب صوت الصواعق عنها حذر الموت بالصوت العظيم، بالتعبير بوضع الأصابع بدلاً وضع رؤوس الأنامل في الآذان، المشعر برغبة واضعها في إدخال كل أصابعهم في آذانهم لو استطاعوا ذلك، حتى يحجبوا عنها صوت الصواعق حجباً تاماً.

لكن هذه الدلالة لا تُدرك من اللفظ بصورة مباشرة، وإنما تُدرك بعد التأمل التحليلي في هذا المجاز المرسل، والانتقال من ظاهر اللفظ، إلى الغرض من استخدامه بدلاً اللفظ الدال على حقيقة العمل، فهو إذن من قبيل البيان الكلامي غير المباشر.

٦ - وقول الله عز وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا. . . ﴾ (١٧)

فيه إسناد السيلان إلى الوادي، مع أن السيلان إنما هو للماء في الوادي، وبالتأمل تُدرك أن الغرض الدلالة على أن الذي يُشاهد تدفق ماء

السَّيْلِ المَالِيءِ للوادي يَشْعُرُ بَأَنَّ الوادي كَلَّةٌ يَجْرِي مَعَ السَّيْلِ .

لكن هذه الدلالة لا تُدْرِكُ من اللَّفْظِ بصورة مباشرة، وإِنَّمَا تُدْرِكُ بعد التأمل التحليلي في هذا المجاز الذي جرى في الإسناد، وبعد الانتقال من ظاهر اللَّفْظِ، إلى الغرض من استخدامه بدل اللَّفْظِ الذي يَدُلُّ على سيلان ماء السيل في الوادي، فهو إذن من قبيل البيان الكلامي غير المباشر .

وعلى هذا التَّمَطِّ يجري تحليلُ كلِّ بيان كلامي غير مباشر، إذا كان جارياً ضمن الأساليب البيانية المحمودة عند البلغاء .

فالبيان الكلامي غير المباشر، هو البيان الذي يكون بالتعبير عن فكرة لَتُفْهَمَ معها فكرةٌ أخرى، أو لِيُفْهَمَ منها توجيه التعبير لغير من وُجِّه له في الظاهر، عن طريق اللوازم الفكرية القريبة، أو متوسطة القرب، أو البعيدة، أو شديدة البعد .

وهذا المعنى الآخر إنما يريد المتكلم الإشارة إليه من طَرَفٍ غيرِ ظاهر، ولا يريد التعبير عنه بأسلوبٍ مباشر، لَغَرَضٍ بيانيٍّ جمالي، أو لغرضٍ تربويٍّ، أو لغرض إخفاء المراد عن غير من يُوجِّه له، إلى غير ذلك من أغراض يَفْصِدُهَا المتكلمون .

\* \* \*

أغراض استخدام البيان الكلامي غير المباشر :

مع ما في البيان الكلامي غير المباشر من دلالة على ذكاء من يستعمله، وقدرته على التصرفِ بفنون التعبير، ومع ما فيه من مجالٍ واسعٍ لتفنن أدبيٍّ لا حصر له من قِبَلِ نوابغ الأدباء، وعباقره البلغاء والشعراء، فهو مجالٌ لتحقيق أغراضٍ كثيرة، منها الأغراض التالية :

الغرض الأول: أن يكون المقصود بتوجيه الكلام ذا مكانة رفيعة في قومه، فهو يَكْرَهُ أن يوجِّه له الكلام ذو الدلالة المباشرة، في تعليمه، أو

دعوته إلى الحق والخير، أو نصحه وإرشاده، أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

فالأرجح لاستجابته أن يستخدم لهديته أو إصلاحه وحمايته البيان الكلامي غير المباشر.

الغرض الثاني: أن يكون المقصود بتوجيه الكلام من ذوي النفوس المصابة بداء الاستكبار والاستنكاف عن تقبُّل التعليم والدعوة المباشرة، والنصح والإرشاد والأمر والنهي.

فالأرجح لاستجابته أن يُستخدَم معه البَيَانُ الكلامي غير المباشر، لعله يتنفع بما يستنبطه هو بنفسه من لوازمه، ودلالاته البعيدة.

الغرض الثالث: إظهار الاحتفاءً بذكاء من يُوجّه له الكلام، أو بارتفاع منزلته الاجتماعية، والإشعار بأنه من الذين تكفيهم إشارات الكلام، وكنياته، ورموزه البعيدة، وبأنه لا يحتاج إلى كلام ذي دلالة مباشرة.

الغرض الرابع: إرضاء الحسّ الأدبيّ لدى من يُوجّه له الكلام، إذ هو من الذين يستمتعون بالكلام الأدبيّ الرفيع الذي له دلالات رائعات غير مباشرات، ويحلّو في نفوسهم ويستعذبون أن يخاطبوا به، ولا يكثرثون للكلام ذي الدلالات المباشرات التي لا تحمل مقاصد ذوات دلالات غير مباشرات.

الغرض الخامس: عدم مواجهة المخاطب بالتقدي الصريح، أو العتاب، أو التلويح.

الغرض السادس: إخفاء المراد عن جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالمراد عن طريق الرمز، لأغراضٍ سياسية، أو عسكرية، أو تربوية، أو غيرها.



كما وقع في غزوة الخندق إذ بلغ الرسول ﷺ أن بني قريظة نقضوا عهدهم، فأرسلَ وفداً من الأنصار فيه، سيدا الأوس والخزرج إلى كعب بن أسد القرظي، سيد يهود بني قريظة ليستطلعوا الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتؤا في أعضاء القوم<sup>(١)</sup>.

وكذلك فعلوا لما علموا أن بني قريظة قد نقضوا عهدهم حقاً، إنهم لما عادوا إلى رسول الله ﷺ، سلموا عليه، ثم قالوا له: عضلٌ والقارةُ. ففهم الرسول ﷺ المراد، وعلم أن القوم قد غدروا كما غدرت عضلٌ والقارة بأصحاب الرجيع.

الغرض السابع: التوصل عن طريق اللوازم العقلية إلى معانٍ قد لا يكون لها الفاظ تدلُّ عليها دلالةً مباشرة.

الغرض الثامن: تزيين الكلام ليكون أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

الغرض التاسع: قد يكون الأسلوب غيرَ المباشر مُقرباً للفكرة الغامضة، أو مقدماً لها مقترنةً بحجتها المقنعة بها.

الغرض العاشر: إمكان التهرب من إرادة المعنى عند الإحراج، وذلك إذا كانت إرادتهُ تسوءُ المخاطبَ به، أو تسوءُ غيره من أئداده أو حساده أو غيرهم.

وفي كثيرٍ من الأحوال يكونُ خطابُ الناس بالبيان الكلامي غير المباشر هو الأجدى أثراً، والأكثر نفعاً، لأنه أوقع في نفوسهم، وأكثر إرضاءً لغرورهم، أو أوفق لظروف الحال التي يكونون عليها.

ولكن لا يصح أن يكون كلُّ الكلام جارياً وفق أسلوب البيان الكلامي

(١) أي: تكلموا بالرمز ولا تتكلموا بصريح القول.

غير المباشر، إذ الأصلُ في الكلام هو الأسلوبُ المباشر، وهو بمثابة الخبز الذي تُؤكل معه ألوان الأطحمة.

إنَّ السبيلَ غَيْرَ المباشر ينبغي أن لا يزيد في الكلام كثيراً، حتَّى لا يفقد الكلامُ قواعده وأركانَه الأساسيَّة، وينبغي أن يكون في غضون الكلام الجاري على أصله، وبمقدار الأغراض منه، وبمقدار الحليَّات التي تزيِّن بها الحِسانُ عادةً.

\* \* \*

## المقولة الثانية

من سبل التوجيه غير المباشر

### القُدوةُ الحسنة

- ١ -

#### فطرة التقليد

ينشأ الناشئ مفطوراً على اكتساب حركاته وأعماله وتصرفاته في الحياة بالمحاكاة والتقليد.

فالطفل - ذكراً كان أم أنثى - يُقلدُ في بدء حياته أبويه في كل حركاتهما وأعمالهما وتصرفاتهما، فهو يكتسب بتقليدهما ما يلزمه لحياته العادية، وكل ما يُعجبه من علم وسلوك.

والتقليدُ أسرعُ وأيسرُ وسيلةً للتعلُّمِ العملي.

فإذا بدأ الطفل أو الطفلة بالتمييز أخذ الذكر يُقلدُ أباه، في حركاته ولباسه وتصرفاته، وأخذت الأنثى تُقلدُ أمها في حركاتها ولباسها وتصرفاتها.

ثم قد يلاحظ الناشئ الذكر في مجتمع الرجال من هو مثير لإعجابه أو إعجاب غيره في بيئته بحسن تصرفاته أكثر من أبيه، كأستاذه أو مدير المدرسة، أو إمام المسجد، أو غير هؤلاء، فيحاول أن يُقلده رجاء أن يجتذب إعجاب الناس به.

وقد تلاحظ الناشئة الأنثى في مجتمع النساء من هي مثيرة للإعجاب في مظهرها وتصرفاتها أكثر من أمها، كعملمتها، أو مديرة المدرسة أو إحدى سيدات بيتها، فتحاول أن تقلدها رجاء أن تنال إعجاب الناس بها.

وإذا كانت البيئة من البيئات التي يروج فيها تمجيد المغنين والمغنيات، والراقصين والراقصات، والممثلين والممثلات، والمنحرفين عن صراط الله السوي والمنحرفات، وأشبه هذا الصنف من الناس، فإن الأجيال الناشئة فيها تحاول أن تتطلع إلى هذا الصنف، ليختار كل واحد منهم من يراه النموذج الأمثل لتقليده، واتباع تصرفاته واختياراته، مهما كانت فاسدة ضالة مُضِلَّة.

ويستمر الإنسان مُتَطَلِّعاً إلى تقليد المتفوقين النابهين، الذين يجد في نفسه الاستعداد لتقليدهم ومحاكاتهم.

وذو ميلٍ لكتابة الشعر، يُعجبه شعر بعض فحول الشعراء المحمودين على ألسنة الناس، فحياول أن يكتب شعراً على منهجه وأسلوبه.

وذو ميلٍ لكتابة النثر، تُعجبه كتابة بعض كبار الكتاب المحمودين على ألسنة الناس، فيحاول أن يمارس الكتابة على منهجه وطريقته.

وذو ميل لأن يكون خطيباً يعجبه بعض مصاقع الخطباء المحمودين على ألسنة الناس، فيحاول أن يمارس الخطابة على منهجه وطريقته.

وذو قدرات جسدية رياضية يعجبه بعض أبطال الرياضة المناسبة لاستعداده، فيحاول أن يمارس الرياضة على منهجه وطريقته، ويجتهد في التدرّب المضني عسى أن يكون بطلاً أوله سبق ما.

وبعض الناشئين يقلد عابداً يشار إليه بالبنان، وبعضهم يقلد زعيماً في لباسه ومشيته وقصة شعره وطريقته في شكل شاربيه.

إلى تقليدات غريبات عجيبات، ومن هنا نشأ التقليد في الأزياء بين الشعوب.

أما مَيَادِينُ التنافس والسِّبْقِ في الكمالات فالتقليد فيها محمود، لأنه أَيْسَرُ وَأَسْرَعُ وَسِيْلَةٌ للتعلّم العملي.

ويشترِكُ مع دافع التقليد الفطري دافعُ الغَيْرَةِ من المقلّد، والرغبة في منافسته وسبّقه.

وقد يقلّد الإنسان عدداً من الناس في خصائصهم لتكون له مِيزَةٌ جَمْعُهَا إذا استطاع ذلك.

- ٢ -

### أسباب تأثير القدوة

تأثيرُ القُدْوَةِ في الناس يرجع إلى عدّة أسباب يظهر منها الأسباب التالية:

#### السبب الأول:

رغبة الإنسان في تعلّم ما ينفعه في الحياة يُيسِّرُ وسهولة وسُرْعَةَ، فما يتعلّمهُ الإنسان بالمشاهدة والتقليد في يوم واحد، قد لا يستطيع أن يتعلّمه ببيان كلامي طوال شهر كامل أو أكثر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «خذوا عَنِّي مناسِككم» وقال بشأن الصَّلَاةِ: «صَلُّوا كما رأيتموني أصَلِّي».

ونلاحظ أنّ المِهَنَ جميعاً تُكْتَسَبُ بتقليد ذوي الخبرة فيها، وكذلك اللُّغَاتُ تُكْتَسَبُ بالتقليد منذ الطفولة الأولى، وكذلك مختلف الظواهر

السلوكية والعادات للمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

وتتأصل الأعمال والعادات والتقاليد وسائر أنواع السلوك التي يكتسبها الإنسان بالتقليد من بيئته، حتى تكون جزءاً من ذاته، فيغدو من الصعب عليه جداً أن يتخلى عنها، ولو كانت عاداتٍ وتقاليد غير صالحة.

ولهذا لما غلبت الحجة العقلية مشركي القرون الأولى بأن ما هم فيه من شركٍ أمرٌ باطلٌ لا خيرَ فيه، ويُعرضهم لعذاب الله الخالد يوم الدين، تذرَّعوا لإصرارهم على الاستمرار بما هم فيه من شركٍ وأعمال غير صالحة بقولهم: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ».

قال الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) بشأنهم خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

على أُمَّةٍ: أي: على دين، وسُنَّة، وطريقة، وملة، فكلمة «أمة» تستعمل بهذه المعاني.

السبب الثاني:

فطرية حب الإنسان تقليد غيره إذا قام بعملٍ هو لا يُحسِنه، وقد جاء شرح هذا في الفقرة الأولى.

السبب الثالث:

تفرض النماذج البشرية المثيرة للإعجاب تأثيراً قوياً على الجماهير من الناس، وهذا التأثير يُحرِّك فيهم دوافع المحاكاة والتقليد، اقتداءً بالنماذج المتفوقة التي أثارت إعجابهم، ولا سيما إذا انطلقت السنة كثيرةً بالثناء على هذه النماذج، وتمجيد صفاتها، أو سلوكها، أو طرائق حياتها أو مفاهيمها وأفكارها.

ولهذا نجد الجماهير من الناس يتخذون من ذوي المكانات الحقيقية أو المزورة فيهم قدوة لهم، في أعمالهم وأقوالهم ومفاهيمهم وعقائدهم، ويتصوّرون الحق والخير ما هم عليه، ولا يقومون مكانتهم على أساس ما هم عليه من حق وخير.

ومن تقليدهم لذوي المكانة فيهم تسميتهم أبناءهم بأسمائهم، شعوراً بمجد الاسم المكتسب من مجد المسمى، وتيمناً بأن يكون أبنائهم في المستقبل مثلهم في مكانتهم.

ومن هنا كان تأثير الشعوب الغالبة بالشعوب المغلوبة، فالشعوب المغلوبة تنظر إلى الشعوب الغالبة نظرة إعجاب وإكبار، ولو كانت تكرهها وتمقت تسلطها عليها، وبسبب نظرة الإعجاب والإكبار تُحاول أن تقتدي بها، شعوراً منها بأنها إذا قلدتها استطاعت أن تُساويها في القوة، فتكون لها نداءً، ثم تعمل على أن تتفوق عليها، وتسبقها.

السبب الرابع:

التقليد محاكاة فيها معنى المنافسة التي يُحبها الإنسان، إذ تُرضي أنانيته، بخلاف التعلم بالبيان الكلامي، والنصح والإرشاد والأمر والنهي.

- ٣ -

استغلال دعاة الشرّ دوافع التقليد في الناس

حين تكون القدوة أسوة سيئة، فإن تأثير التقليد والمحاكاة يكون تأثيراً ضاراً مُفسداً، وطريقاً قريباً سهلاً لوصول المقلّدين المقتدين إلى دركات النقص التي انحدرت إليها أسوتهم السيئة.

وقد عرف دعاة الشرّ وشياطين الإفساد في الأرض ما للنماذج المحمودة

الممجدّة بين الناس من تأثير على نفوس الجماهير، وهذا التأثير يدفعهم إلى الاقتداء بهم، واتخاذهم أسوة لهم.

من أجل هذا أخذوا يصطنعون أمثلة بشرية ذات مفاهيم وعقائد باطلة، وأعمال ضالّة فاسدة ومفسدة، وأحاطوا هذه الأمثلة البشرية المصطنعة بالأصباغ والألوان الخادعة، وسلطوا عليها الأضواء الإعلامية، ونشروا بين الناس حولها عبارات التمجيد والثناء، لإثارة الإعجاب بها في نفوس الجماهير، حتى تكون أسوتهم التي يقتدون بها.

ومن هذه الأمثلة البشرية المصطنعة أعلام علمية ذات مذاهب هدامة، وآراء باطلة مزخرفة، فقد أحاطها المفسدون في الأرض بهالات التمجيد والإكبار، ليتخذها جماهير الناس أسوة لهم، يقتدون بها في آرائها ومذاهبها.

ومن هذه الأمثلة المصطنعة نجوم الفنّ والجمال والأناقة والغناء، من رجال فاسقين، ونساء فاسقات، ليكونوا أسوة لجماهير الناس، يقتدون بهم في مظاهرهم وأنواع سلوكهم، حتّى في تفاهاتهم الخاصّة.

إلى غير هؤلاء وهؤلاء من أمثلة تزخر بها وسائل الإعلام المختلفة، حتّى أمست هذه الأمثلة هي الأسوة التي تقلدها الأجيال الناشئة، مع كلّ ما فيها من سوء وشرّ وفساد وإفساد.

ولا يخفى أنّ الترويج لهذه الأمثلة وعرضها في أجهزة ووسائل الإعلام المختلفة، مقرونة بالثناء السافر أو المقنع، يضع أمام جماهير الناس مادة خطيرة لفتنتهم وإثارة إعجابهم.

ومع الإعجاب تتولد رغبات المحاكاة والتقليد، فتكون هذه الأمثلة هي الأسوة المحببة التي يقتدون بها، ويترسّمون خطاها، من رجال ونساء، وفتيان وفتيات.



ومما لا شك فيه أنّ الإنسان قد يسهلُ عليه التقليد، ولو كان فيه معنى الاتّباع، في الوقت الذي يصعبُ عليه تقبُّلُ النصح والإرشاد، وتقبُّلُ التكليف بالأمر والنهي، لأنّ التقليد محاكاةٌ فيها معنى المنافسة التي يُحبُّها الإنسان، إذ تُرضي أنانيته .

ولا يخفى أنّ النساء أكثرُ قابليّةً للاستهواء من الرجال، فهنَّ أسرعُ استجابةً لدوافع التقليد ومتابعة مَنْ يوضَعْنَ قُدُواتِ لهنَّ، ومن هنا تنتشر بسُرعةٍ بينهنَّ أحدثُ الأزياء وأنواع السلوك التي تُقدِّمُ لهنَّ في قُدُواتِ مشهوراتِ في الفنِّ والأناقة، أو في أيِّ أمرٍ تتردّدُ الألسنةُ بالإعجاب به .

- ٤ -

#### واجب المسلمين عموماً وحَمَلَةُ الرسالة خصوصاً

وحيث تكون القدوة أسوةً حَسَنَةً فإنَّ تأثير التقليد والمحاكاة يكون تأثيراً نافعاً مفيداً، وطريقاً قريباً سهلاً لوصول المقلّدين المقلّدين إلى مراتب الكمال التي ارتفعت إليها أَسْوَتُهُمُ الحسنة، إذ كان لدى المقلّدين استعدادٌ بفطرتهم، وصدقٌ بإرادتهم لبلوغ هذه المراتب، وإلاّ فيكفيهم أن يجتهدوا ليرتقوا في سلّم الكمال الذي ينشدونه، والله يُعطي كُلاًّ منهم على مقدارِ اجتهاده واستعداده .

وقد بعث الله عزّ وجلّ في كلّ أمةٍ رسولاً، وجعله القدوة الصالحة لها، والأسوة الحسنة المثلى فيها، وجعلَ في الأمم السابقة بعد الرُّسُلِ أنبياءً ليكونوا قدوة صالحة وأسوة حسنة لها وللمن يأتي بعدها، إذ جعلها نماذج بشرية حيّة كاملة، تُطبَّقُ ما تدعوا إليه من إيمان وخلق وعمل ظاهر وباطن، فكانت محمودةً في السماوات والأرض، ومُثيرةً في النفوس الإعجاب والإكبار .

واقْتَدَى بِهِمْ وَاهْتَدَى بِهَدْيِهِمْ أَصْحَابُ لَهُمْ وَحَوَارِيُّونَ، وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ  
بِإِحْسَانٍ، فَكَانُوا لِلنَّاسِ أَسْوَةَ حَسَنَةٍ صَالِحِينَ وَنَمَازِجَ حَيَّةٍ يُقْتَدَى بِهَا.

ثُمَّ اصْطَفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلرَّسَالَةِ الْخَاتِمَةَ أَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ،  
وَأَكْمَلَهُمْ صِفَاتٍ وَسُلُوكًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَكَانَ النَّمُوزِجَ الْأَمْثَلَ لِلْإِنْسَانِ  
الْكَامِلِ، وَكَانَ الْقُدْوَةَ الْحَسَنَةَ الْمَثَلِيَّ لِلْمُقْتَدِينَ الْمُؤْمِنِينَ الصَالِحِينَ الْمُتَّقِينَ  
وَالْأَبْرَارَ وَالْمُحْسِنِينَ، مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ مِنْ بَعْدِهِ.

ولهذا أبان الله عز وجل للذين آمنوا أن رسوله محمداً أسوة حسنة لهم،  
يقتدي به من كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً، فقال تعالى في  
سورة (الأحزاب/ ٣٣/ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ  
كَبِيرًا ﴾

واصطفى الله عز وجل الأمة الإسلامية بعمومها لا بكل فرد من أفرادها،  
فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وقد ظهر هذا في الصفوة الممتازة من أهل  
قرن الرسول ﷺ، فكانت النخبة المختارة من أصحابه أمثلة حية لمبادئ  
الإسلام وأحكامه وأخلاقه وآدابه، وكانت هذه النخبة أسوة حسنة لغيرها  
ولمن وراءها.

ولا تزال طائفة قلت أو كثرت من أمة محمد ﷺ على توالي العصور،  
تتحلى بالصفات الإسلامية التي تجعلها قدوة حسنة للمتقين، وللناس  
أجمعين.

فالأمة الإسلامية بمقتضى الاصطفاء الرباني لها مكلفة أن يكون  
مجتمعها على وجه العموم نموذجاً صالحاً وقُدْوَةً حَسَنَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ،  
بالتزامها العمل بشرائع الإسلام وأحكامه، وبتخلُّقها بأخلاق الإسلام، فإذا

تَحَقَّقَتْ بهذا كان حالها أُبَيِّن من كل بيانٍ قَوْلِيٍّ يدعو إلى الدخول في الإسلام.

أما حَمَلَةُ رسالة الهداية، أو رسالة الإصطلاح والحماية، فهم مُكَلَّفون أن يكونَ كُلُّ واحدٍ منهم نموذجاً صالحاً وأُسُوَّةَ حسنة لجميع المؤمنين المتقين، وأن يكونوا من الَّذِينَ ارتَقَوْا فوق مرتبة التقوى، وصاروا من أهل مرتبة البرِّ، أو أهل مرتبة الإحسان، في إيمانهم، وأخلاقهم، وأعمالهم ومعاملاتهم للناس، وأن يَتَحَلَّوْا بصفاتِ عباد الرحمن بوصفهم أئمةً للمتقين<sup>(١)</sup>.

ولا يَنفَع في هذا التظاهرُ ومראהُ الناس، فنُوْبُ الرِّياءِ يَشْفُ عَمَّا تحته، ولا بدَّ أن يفتضح صاحبه يوماً ما، وتنكشف للناس حقيقته، ويظهر أنه كان يخادع الناس بمظهره، لأغراضٍ دنيوية، فمن أسَرَ سريرةَ البَسَةِ اللهُ منها رداءً، ومن أخفى عن الناس معصيةَ ستره اللهُ أولاً ليتوب، فإذا لم يَتُبْ واستمرَّ على تكرير معصيته فضَّحه اللهُ.

ومن المؤسف أن يكون واقع حال معظم المسلمين منفراً من الإسلام، ومُبعِداً عنه، لعدم التزامهم بشرائعه وأحكامه وأخلاقه وآدابه وهم ينتمون إليه.

ومن المؤسف أيضاً أن يكون معظم حال الدُّعاة والناصحين المرشدين، حملة رسالة الهداية أو رسالة الإصلاح والحماية، غَيْرَ مُلتزمين بما يَدْعُونَ الناس إليه، أو أن يكون كثيرٌ منهم مرايين طلاباً دُنِيًّا يتظاهرون بحُسنِ الحال، وبأزياء الكمال، وهم على خلاف ذلك فيما يُخفون عن أعين جماهير الناس من سلوكهم، فلا يتَحَقَّقون بصفات المتقين، فضلاً عن أن يكونوا أبراراً أو محسنين.

(١) انظر ما يجب أن يتحلوا به في باب الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حملة الرسالة.

### أهمية التربية بالقدوة الحسنة

ونظراً إلى أهمية التربية بالقدوة الحسنة أمر الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ بأن يقتدي بهدي الرسل السابقين له، فقال تعالى له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَانِهِمْ آفْتَدَ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

وقال له في سورة (الأحزاب/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ . . . ﴿٢٥﴾ ﴾ .

وخاطب رسوله والمؤمنين معه، بقوله في سورة (المتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿ فَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ . . . ﴿٤١﴾ ﴾ .

وإذ جعل الله عز وجل نساء النبي ﷺ قدوة حسنة لنساء المسلمين، شدد عليهن ترتيب العقوبة بمضاعفتها إذا أتت إحداهن بفاحشة مبينة ليحذرن فيحترزن من الاقتراب من المواطن المزلقة إلى الفاحشة، فيطهرهن الله بذلك تطهيراً عظيماً، كما جعل لهن إذا فتنن (أي: أظعن وخضعن وعبدن الله) وعملن صالحاً أجراً مضاعفاً، فقال الله عز وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ بَأْتٍ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۖ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٥﴾ ۖ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَلَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٢٦﴾ ۖ يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٢٧﴾ ۚ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
 إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكَرْتَ  
 مَا يُشْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ .

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا : أي :  
 ما يُريدُ الله بتوجيه هذه التكاليف المشددة، والوعيد المشدد، والإطماع  
 بالأجر المضاعف، إلا العناية بكن، لتتقين الله باختياركن، فيذهب عنكن  
 بذلك رجس المعاصي والفواحش يا أهل بيت الرسول، وليطهركم بذلك  
 تطهيرا زائدا عن غيركن، حتى تكنن قذوات لنساء المسلمين، فمن شأن  
 المُقتدي به أن يكون أعلى درجة من المقتدي .

إِنَّ الْقُدُورَةَ الْحَسَنَةَ وَظِيفَةَ إِمَامَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَمَنْ اخْتَلَّ  
 مَرْتَبَةَ إِمَامٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِوَأْجَابِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَإِذَا أُخِلَّ بِهَا عَزِلَ عَنْهَا، وَإِذَا  
 عَصَى مُعَاصِي تَخِلُّ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَقِينَ ضُوعِفَ لَهُ الْعَذَابُ، كَمَا جَاءَ فِي  
 تَحْذِيرِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ هُمْ أُمَّةُ الْمُتَقِينَ، مَنْ أَنْ يَقَعُوا فِي كِبَائِرِ الشَّرْكِ أَوْ  
 الْقَتْلِ أَوْ الزَّانَا .

وَنَفَهُمْ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِنِسَاءِ حَمَلَةِ رِسَالَةِ الْهَدَايَةِ، أَوْ رِسَالَةِ  
 النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَنْ يَتَأَسَّيْنَ بِنِسَاءِ  
 الرَّسُولِ ﷺ، فِي شِدَّةِ التَّزَامِيهِنَّ، لِيَكُنَّ قُدُورَةً صَالِحَةً لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ  
 الْأَفْضَلُ أَنْ يَكُنَّ مِثْلَ أَزْوَاجِهِنَّ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ بَيْنَ النِّسَاءِ وَمَوْهَلَاتِ  
 لَهَا .

خاتمة:

فالقُدوة الحسنة المعجبة، تكون في صورة داعٍ ناصحٍ مرشدٍ إمام، وفي  
 صورة مجتمعٍ يُقدِّم في ذاته النموذج الأمثل للمجتمع الفاضل .

والقدوة الحسنة المعجبة في كلتا الصورتين تجذب النفوس والقلوب  
للتقليد والاتباع، بمحاسن سلوكها الفردي والاجتماعي، وَبِعَيْشِهَا عَيْشاً رَاضِيّاً  
هانئاً مستقرّاً آمناً سعيداً، وَتُهَيِّئُ قُذْرَاتِ الْآخِرِينَ التَّفَكَّرِيَّةَ لِلِاقْتِنَاعِ بِصِحَّةِ  
وسلامَةِ المبادئ الَّتِي تُؤْمِنُ بِهَا هَذِهِ الْقُدُوةُ، وَأَقْوَمِيَّةِ الْمَنْهَجِ الَّذِي تَسْلُكُهُ،  
فتؤثر بحالها تأثيراً غير مُباشر.

\* \* \*

## المقولة الثالثة من سبيل التوجيه غير المباشر

### البيئة والرفقة الصالحة

- ١ -  
مقدمة

تُعتبرُ البيئةُ من أخطرِ وأعظمِ وسائلِ التوجيهِ غيرِ المباشرِ، فمفاهيمُ البيئةِ الاجتماعيةِ، وعاداتُها، وتقاليدها، ومحابُّها ومكارِهها، ومثيراتها، ومثبطاتها، وتطلُّعاتُها تسري إلى كلِّ الناشئين فيها، أو المخالطين لها، مُتغلِّلةً إلى أعماقهم، كما يسري الماءُ في الترابِ إذا تجاورا، وهُم يمتصُّونها ويخترنونها في ذواتهم، بتلقائيةٍ ذاتيةٍ، دون أن يشعروا بأنهم يفعلون ذلك، ولا سيما إذا تلاقى أفرادُ البيئةِ في علاقاتِ رُفقةٍ وصحبةٍ صالحةٍ، متعاونةٍ متآخيةٍ متواذةٍ.

باستثناء بعض أفرادِ نادرين، لهم أحوالٌ خاصَّةٌ نادرة.

- ٢ -

### أسباب تأثير البيئة الاجتماعية

ويرجع تأثير البيئة الاجتماعية فيمن ينشأ فيها أو يُخالطها مخالطةً طويلةً

إلى عِدَّة أسباب، نلاحظ منها الأسباب التالية:

السبب الأول «الدافع الفطري في الإنسان إلى الاجتماع بأفراد نوعه».

إن الإنسان مطبوع منذ أعطاه الله خلقه على أنه مخلوق اجتماعي، فهو يبدأ بمركب مزدوج من أمه وأبيه، وهو سلالة انحدرت من مزدوجات، كما قال الله عز وجل في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

وهو وارث للدافع الاجتماعي الموجود في أجداده، منذ أسكن الله عز وجل آدم وزوجه الجنة، وجعل بين الصنفين الذكر والأنثى مشاعر المودة والرحمة.

السبب الثاني: «الدافع المكتسب من النشأة».

إن كل فرد من الناس ينشأ في بيئة أبوين يمنحانه العطف والحنان والحب والعطاء وما يحتاج لحياته في نشأته، ثم يجد نفسه في أسرة أوسع من أبوين، كإخوة وأخوات وغير ذلك، ويجد فيها أُنسَهُ وكثيراً مما يحب في حياته من لعب ولهو وزينة وكثير من متع الحياة.

ثم يجد نفسه في مجتمع أوسع، فينمو في نفسه حب الاجتماع البشري، والأنس به، ويظل كذلك يأنس بالاجتماع، ويحبّه، ويكره العزلة ويستوحش منها، لأنه يجد في الاجتماع سكن نفسه، ومصالحها، وشعورها بالأمن، ولأنه يُعبّر بالاجتماع عن مشاعر المودة والرحمة اللتين فطر عليهما، وتنزعان فيه إلى التعبير عنهما، ولأنه يجد في الاجتماع تحقيق كثير من رغباته، ومنها المشاركة في الأعمال، والتنافس، وحب التقدير.

وقد بين الله عز وجل فطريّة رغبة كل من الزوجين في أن يسكن إلى



زوجها، وأن يتبادلا المودة والرحمة، فقال الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... ﴿١٨٩﴾ ﴾ .

وبين الله عز وجل حب الإنسان للذرية، التي تكتمل بها جماعة الأسرة التي هي الخلية المكتملة من خلايا المجتمع، فقال تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ ذُرِّيَّةً لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ﴿١٦١﴾ ﴾ .

السبب الثالث: «رغبة الإنسان في اكتساب العلوم والمعارف والمهارات العملية والصناعية، التي يتوصل إليها الآخرون من الناس، وهذه لا تكون إلا بالاجتماع البشري».

إن من الأمور الظاهرة أن من فوائد الاجتماع البشري أن يكتسب الناس بعضهم من بعض ما توصلوا إليه من علوم ومعارف، وما اكتسبوه من خبرات ومهارات عملية حياتية، وخبرات ومهارات صناعية، إلى غير ذلك من أنواع سلوك حضاري.

وبما أن الإنسان مفتور على حب معرفة ما ينفعه في حياته، وحب اكتساب الخبرات والمهارات التي اكتسبها الآخرون من الناس، فلا بد أن

تَدْفَعُهُ هَذِهِ الْفِطْرَةُ إِلَى الرَّغْبَةِ فِي الْاجْتِمَاعِ بِالَّذِينَ يَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَكْتَسِبَاتِ، وَأَنْ يَتَبَادَلَ مَعَهُمْ لِقَاءَاتِ الْأَخُوَّةِ وَالصَّدَاقَةِ وَالْمَوَدَّةِ، وَأَنْ يَتَبَادَلَ مَعَهُمْ عَطَاءَاتِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالخِبْرَاتِ وَالْمَهَارَاتِ.

السبب الرابع: «عَجَزُ الْإِنْسَانِ عَنْ أَنْ يَقُومَ لِنَفْسِهِ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، لِذَلِكَ فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَنْخَرِطَ فِي مَجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ يَتَبَادَلُ أَفْرَادُهُ مُتَّجَاتٍ تَخْصُّصَاتِهِمْ».

إِنَّ الْإِنْسَانَ بِمُفْرَدِهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ زَرَّاعًا، وَطَحَّانًا، وَخَبَازًا، وَطَبَّاحًا، وَنَسَاجًا، وَخِيَّاطًا، وَبِنَّاءً، وَطَبِيبًا، وَمُهَنْدِسًا، إِلَى سَائِرِ تَخْصُّصَاتِ الْحَيَاةِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَأَعْمَالِهَا، أَمَّا عَمَلُهُ هُوَ وَتَخْصُّصُهُ فَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْ أَعْمَالِ وَتَخْصُّصَاتِ كَثِيرَاتٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الْمَجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ، فَيُعْطِي مَنْ تَخْصُّصِهِ ذَوِي الْحَاجَاتِ إِلَيْهِ، وَيَأْخُذُ مِنْ تَخْصُّصَاتِهِمْ مَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ، وَيَتِمُّ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ التَّبَادُلُ بَيْنَ النَّاسِ بِحَسَبِ حَاجَاتِ كُلِّ مِنْهُمْ.

وهذا ما يجعل الفردَ مَدْفُوعًا إِلَى أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِنْ أَفْرَادِ مَجْتَمَعٍ لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ، فَهُوَ يَرْتَبِطُ بِهِ ارْتِبَاطَ مَصَالِحِ مُتَبَادَلَةٍ، تَنْشَأُ عَنْهَا عِلَاقَاتٌ وَرَوَابِطٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَجَدَانِيَّةٌ وَعَاطِفِيَّةٌ وَمُصْلِحِيَّةٌ.

فالانعزاليَّةُ شُدُودٌ طَارِئَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، رَبَّمَا يُصَابُ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ لِأَسْبَابٍ نَفْسِيَّةٍ مَرَضِيَّةٍ، وَلَيْسَتْ الْانْعِزَالِيَّةُ ظَاهِرَةً صِحِّيَّةً.

- ٣ -

### تَكْيِيفُ الْإِنْسَانِ مَعَ بَيْئَتِهِ الْجَمَاعِيَّةِ

للأسباب التي سبق بيانها نلاحظ أنَّ الْإِنْسَانَ - ضمن سلوكه الطبيعي - إذا وُجِدَ فِي بَيْئَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَا، أَخَذَ بِصِفَةِ تَلْقَائِيَّةٍ يُحَاوِلُ تَكْيِيفَ نَفْسِهِ، وَتَغْيِيرَ عَادَاتِهِ وَأَنْوَاعِ سُلُوكِهِ، لِيَسْتَطِيعَ الْعَيْشَ بِانْسِجَامٍ وَتَوَاقُؤٍ، مَعَ الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ

الذي يَعِيشُ فِي وَسْطِهِ، هُرُوباً مِنْ مَشَاعِرِ الْعِزْلَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَكْرَهُهَا بَطْبَعِهِ، لَوْ اسْتَمَرَّ عَلَى حَالَةِ عَدَمِ الْإِنْسِجَامِ وَالتَّوَاؤُمِ مَعَ الْبَيْئَةِ الَّتِي وُجِدَ فِيهَا، وَلْتَلَا يَكُونُ مَثَارَ اسْتِغْرَابٍ وَاسْتِنكَارٍ شُرَكَائِهِ مِنَ الْبَشَرِ فِي هَذِهِ الْبَيْئَةِ.

هَذَا مَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مُقَدِّمًا إِرَادَةً خَاصَّةً، مُؤَيَّدَةً بِأَفْكَارٍ وَعَقَائِدَ رَاسِخَةٍ سَابِقَةٍ، ضِدَّ الْبَيْئَةِ الَّتِي وُجِدَ فِيهَا، وَضِدَّ مَفَاهِيمِهَا وَأَنْمَاطِ سُلُوكِهَا، أَوْ ضِدَّ أَشْخَاصِهَا، وَهَذَا مَا يُعْذِرُ قَادَةَ الْيَهُودِ عَامَتِهِمْ بِهِ، حَتَّى لَا يَنْصَهَرُوا وَلَا يَدُوبُوا فِي الْبَيْئَاتِ الَّتِي يُوجَدُونَ فِيهَا، وَيُسَاعِدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ اتِّخَاذُ مَجْمَعَاتٍ سَكْنِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي أَيِّ بَلَدٍ يَنْتَقِلُونَ إِلَيْهِ، وَفِي آيَةِ بَيْئَةِ يُوجَدُونَ فِيهَا، وَيَضْطَرُّونَ لِلْعَيْشِ ضِمْنَهَا.

وَيُسَاعِدُ النَّاسَ عَلَى سُرْعَةِ التَّغْيِيرِ لِلتَّلَاؤُمِ مَا فَطَرُوا عَلَيْهِ مِنْ دَافِعِ الْمِحَاكَاةِ وَالتَّقْلِيدِ لِلآخَرِينَ، عِنْدَ أَيِّ سَبَبٍ يُحَسِّنُ فِي نَفْسِهِمْ ذَلِكَ، كَالِاسْتِحْسَانِ، وَالْإِعْجَابِ، وَالرَّغْبَةِ أحياناً بِهِمْزِ الْآخَرِينَ وَلَمْزِهِمْ وَتَعْيِيرِهِمْ بِعُيُوبِ خَلْقِيَّةٍ أَوْ خُلُقِيَّةٍ، عَنِ طَرِيقِ مُحَاكَاتِهِمْ، ثُمَّ تَلْزُمُهُمُ الْعَادَةُ بِالتَّكْرَارِ.

وَقَدْ تَكُونُ الْمِحَاكَاةُ انْعِكَاساً تَلْقَائِيّاً دُونَ شُعُورٍ ظَاهِرٍ، كَالصُّوَرِ الْمُنْعَكِسَةِ فِي الْمِرَاةِ، وَنُشَاهِدُ نَظِيرَ هَذَا عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ تَتَحَرَّكُ أَيْدِيهِمْ وَعَضَلَاتُ وُجُوهِهِمْ عَلَى مِثْلِ حَرَكَاتِ الْعَامِلِينَ أَمَامِهِمْ، بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الصَّنَاعِيَّةِ، أَوْ الْفَنِّيَّةِ، كَحَدَادِ، أَوْ نَجَّارِ، أَوْ رَسَّامِ، أَوْ نَحْوِ هَؤُلَاءِ، وَرَبَّمَا كَانَ الشُّعُورُ الْبَاطِنُ يَرْجِعُ إِلَى الْاسْتِحْسَانِ، أَوْ إِلَى الْاسْتِهْجَانِ.

وَبِاسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ التَّقْلِيدَ وَالْمِحَاكَاةَ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ مِنْ رُدُودِ الْأَفْعَالِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي النَّاسِ، تُجَاةَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِمَّا لَيْسَ هُوَ مِنْ مِمَارَسَاتِهِمُ الْعَادِيَّةِ.

وَقَدْ عَرَفْنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ فِطْرَةَ التَّقْلِيدِ وَالْمِحَاكَاةِ مِنَ الْفِطْرِ النَّافِعَةِ فِي الْإِنْسَانِ، إِذَا كَانَتْ تَتَحَرَّكُ ضِمْنَ حُدُودِ دَوَائِرِ الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْأَعْمَالِ

الصالحة، أو كانت موجهة لاقتباس ما هو نافع مفيد، لا ضرر منه ولا إثم ولا شر.

إن هذه الفطرة النافعة، إذا كانت موجهة توجيهاً حسناً، سهلت على الإنسان عمليّة تعلّم الفضائل، والأعمال الصناعيّة والفنيّة بسرّعة، وسهلت عليه الاقتباس السريع للأعمال الراقية، التي لم تصل الأجيال السابقة إلى اكتشافها ومعرفتها إلاّ بعد تطوّر كثير، اعتمدت على اختبارات وتجربات وتحسينات كثيرات، وقد انتهى الناس بعدها إلى اختيار الأفضل والأحسن.

وهذه الفطرة تُيسّر على الإنسان القيام بالأعمال الصالحة الشاقّة على نفسه، والمخالفة لأهوائه وشهواته، إذ يجد أمثاله في بيئته التي يعيش فيها يمارسونها ييسر وسهولة، مع رغبة قلبية ونفسية يوجهها الطمّع بما سيظفرون به من ثواب جزيل، ونتائج وثمرات حميدات.

إن المحاكاة داخل البيئة الاجتماعيّة للعمل المشاهد تُغني المتعلّم خلال دقائق معدودات عن شرح تعليميّ كلاميّ طويل، قد يحتاج إلى ساعات وأيام، أو إلى شهور عديدة أحياناً. وشأن هذه الفطرة، كشأن سائر الفطر التي فطر الله الناس عليها، يمكن الاستفادة منها في الخير، ويمكن أيضاً استغلالها في الشرّ، وذو البصيرة الفكرية، والهداية الدنيّة الربّانيّة، مع الإرادة الواعية العاقلة المسؤولة عن توجيه السلوك، هي الكفيلة بضبط الفطر عن الجنوح والانحراف، وتجاوز حدود الحقّ والخير والفضيلة.

- ٤ -

### وَجُوبُ تَهْيِئَةِ الْبِيئَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّالِحَةِ

لما كانت البيئة الاجتماعيّة البشريّة من أخطر وأعظم وأجدي وسائل التوجيه غير المباشر ذات التأثير القويّ، فيمن يعيش فيها وهو يشعر بأنه فرد

من أفرادها، كان من واجب الأمة الإسلامية ولا سيما حملة الرسالة المتخصصون وغير المتخصصين أن يُوجَّهوا اهتماماً بالغاً لتهيئة البيئة الإسلامية الصالحة، أفراداً وأسرّاً وجماعات من صالحين وصالحات، حتّى تكون هذه البيئة التي يُعَدُّونها ذاتَ ضواغط اجتماعية مُحِيطَةٍ بمن يعيشُ فيها، وهو مُتَمِّمٌ إليها انتماءً حقيقياً.

فكلّما انجذبَ مُهتدٍ جديد إلى الإيمان بأسس العقيدة الإسلامية الحقّ، وانكشف له صراطُ الإسلام المستقيم، واستنارَ بمفاهيم دين الله المشرقة، وهفّت نفسه إلى محاسن السلوك الإسلامي الجميل، أخذَ الدُّعَاةُ الهداءُ، والتَّاصِحُونَ المرشدونَ الحُماةُ بيده فَعَمَّسُوهُ في وَسَطِ مُلَائِمٍ لحالته، ضَمِنَ البيئة التي أعَدُّوها إعداداً إسلامياً واعياً رَشِيداً.

وقد اعتمدتِ التَّربية الإسلامية المحمّدية، في مَنهجها التربويّ على إعداد البيئة الإسلامية الصالحة اعتماداً كبيراً، فاهتمَّت بتكوين المجتمع المسلم الأوّل عن طريق الهداية بالدعوة، فالنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن طريق الأسوة الحسنة، والتربية الحكيمة على الالتزام بأحكام الإسلام وشرائعه وأخلاقه وآدابه.

ثمّ كان هذا المجتمع المثالي هو النواة والبيئة الصالحة لإدارة كلّ داخل فيه ضَمِنَ دَوَامَتِهِ، وصِنَاعَتِهِ صناعةً إسلاميةً، وتغييره عمّا كان عليه قبل الإسلام بسرعة فائقة، ويتدخل في صناعته الجديدة التَّقْلِيدُ والمحاكاة ورغباتُ التَّكْيِيفِ والتلاؤم، ووسائل التعليم والتوجيه والإقناع والترغيب والترهيب وسائر صنوف التربية الأخرى.

هكذا كان حال البيئة الإسلامية المحمّدية الأولى، إذ كان من يهتدي إلى الإيمان، وينشُرُ صَدْرُهُ لتطبيقات الإسلام، يَجِدُ نَفْسَهُ يَدُورَ مختلطاً ضَمِنَ دَوَامَةِ مجتمَعٍ إسلاميٍّ يعمَلُ متشابكاً مُتعاوناً على البرِّ والتقوى في

مراضى الله، وعلى منهاجه عز وجل، وبهذي سنّة رسوله ﷺ، ويجد نفسه مقوداً ومسوقاً، وقائداً وسائقاً، مع حركة دوامة هذا المجتمع المنسجم فكراً وعقيدة وسلوكاً ورغبات وتطلّعات وآمالاً، إلا من دخل فيه مُناقفاً، أو مُسليماً غير مؤمن، فإنه يجد نفسه متعرّضاً لعثرات وعقبات وتصادمات، وتباؤن بينه وبين المجتمع في الرغبات، إذ هو مجاور غير مخالط مُنسجم، وغير متلائم مع سائر العناصر، فهو لا يمتزج فيها، ولا يكون معها اتحاداً حقيقياً.

وعلى مثل المجتمع المثاليّ الأوّل، واقتداءً بمؤسسه المعصوم صلوات الله عليه، سار علماء المسلمين مع تلاميذهم، وكلّ الذين يلتفون حولهم، مُتلقين الدين، أو متخلّقين بأخلاق الإسلام، ومتأدبين بإدابه، فقد كانوا يُهيّون حولهم بيئة إسلامية لها تميّز خاص يُميّزها في حركة حياتها، وأخلاقها، وسمتها، ومعاملاتها المتسمة بالمحاسن والفضائل، والالتزام بالواجبات والابتعاد عن المحرّمات الإسلامية، وبالتعاون فيما بينها، والتوادّ والتحابب والتقارب الاجتماعي، دون أن يُؤثر عليها المجتمع الكبير الذي تعيش فيه، إذ تتحرّك في محيطه كما تتحرّك أصناف الطيور في جماعات متلائمات في الهواء، وأصناف الأسماك في جماعات متلائمات في الماء.

- ٥ -

### الغزو الفكري عن طريق البيئة

ولقد عرف شياطين الإفساد في الأرض ما للبيئة من تأثيرات ذوات قوّة في صناعة الإنسان فكرياً ونفسياً وسلوكياً، فوجهوا عناية فائقة لاستثمار البيئات الصغرى والكبرى في تحقيق أهدافهم الرامية إلى صناعة أجيال

الشعوب الإسلامية التي يغزونها صناعة على ما يُريدون، وتَنَوَّعَ هذا الغزو تنوعاً كثيراً، وابتكرت له صوراً شتى، ودخلَ في كلِّ موقعٍ صغيرٍ وكبيرٍ يُمكنُ أن تتكوَّن فيه بيئة ما، فلا بُدَّ من أعمالٍ مضادَّةٍ على مثلِ أعمالِ الغزاة، في مختلف البيئات.

\* \* \*

المقولة الرابعة  
من سُبُل التوجيه غير المباشر

القصة النافعة والمشاهد التمثيلية المفيدة

- ١ -

القصة النافعة

القصة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ ذي التوجيه غير المباشر، عمادُهُ الحكايةُ القوليّةُ لجملةِ أحداثٍ متتابعةٍ مترابطة ذاتِ بدايةٍ ونهايةٍ زمنيّة، مع مرافقاتها، وهذه الأحداثُ تدورُ حولَ محورٍ واحدٍ (شخصٍ، أو أسرة، أو جماعةٍ من الناس، أو أُمَّة، أو قطعةٍ من أحداثِ الكون، صغيرةٌ كانت أو كبيرةً).

● وبما أنّ التوجيه فيها توجيهٌ غيرٌ مباشرٍ، فهي ذاتُ تأثيرٍ قويٍّ بمضامينها في الفكر وفي النفس، وتدفعُ إلى المحاكاة والتقليد في الأقوال والأعمال والأخلاق وسائر أنواع السلوك، إذا حرّكت هذه المحكيّات في القصة إعجاباً بنفس سامعها أو قارئها، ولا مَسَّت عِظاتها انفعالاً إيجابياً معها.

والقصةُ في الغالب تَدْخُلُ في أعماق النفوس دون استئذان، لأنّها تحكي - ولو تَوَهُّمًا - حدثاً تَحَقَّقَ في الواقع، والنفوسُ مفطورةٌ على حُبِّ مَعْرِفَةِ الأحداث التي وَقَعَتْ، وكيفَ وَقَعَتْ، وما هي النهاياتُ التي انْتَهَتْ



إليها، والنتائج التي كانت السبب في حصولها، لتأخذَ منها العبرَ والعِظات، فتعملَ بمثل ما جرَّ نفعاً، وتجتنبَ فِعْلَ كُلِّ ما جرَّ ضرّاً وشرّاً، من أحداثِ القصة.

● والقصةُ تقدّمُ الأفكارَ والأعمالَ والأخلاقَ وسائرَ أنواعِ السلوكِ النفسِيّ والظاهرِ مُجَسَّدةً في صُورٍ تُشعِرُ بأنّها أشياء واقعةٌ، وليستَ مجردَ نصائحٍ تُقدِّمُها رُؤى ونظراتٌ فكريّةٌ مُجرّدةٌ عن واقعيّاتِ الحياةِ الإنسانيّةِ.

● والقصةُ مُحَبَّبةٌ للنفوسِ، لما فيها من انسجامٍ مع حركة الخيالِ، ومُسايرةٍ له، وهي أيضاً تُمدُّه وتُغذِّيه بما يتلاءمُ مع رؤاهُ وطُمُوحاتِهِ التخيُّليّةِ في الغالب إذا كانت من غرائبِ القصصِ ونوادرها.

● والقصةُ في الغالب لا تُصادفُ عقباتٍ نفسيّةً تصدُّها، إلّا إذا كانت لدى المقصودِ بالتوجيهِ مشاعرٌ نُفُورٍ خاصٍّ من مُقدِّمِ القصةِ أو المستهشدِ بها.

● ومن الملاحظِ أنّ الناسَ جميعاً يُحِبُّونَ استماعَ القصةِ، أو مشاهدةَ أحداثها في الواقعِ أو في التمثيلِ.

ولذلك نرى صغارَ الأطفالِ بفطرتهم يتعلّقونَ تعلُّقاً شديداً بمن يحكي لهم القِصصَ، ولو كانت خياليّةً خرافيّةً، ويتعلّقونَ بمشاهدةِ قِصصِ أفلامِ الكرتونِ تعلُّقاً شديداً، ويتأثرونَ بها، مع أنّ معظمها خياليٌّ خرافيٌّ.

● ونظراً إلى تأثيرِ القصةِ في النفوسِ الإنسانيّةِ، وحُبِّ الناسِ على اختلافِ مستوياتهم وأعمارهم لها، وجَدنا أنّ مختلفَ الشعوبِ، حتى البدائيّةِ منها، تعتمدُ على استخدامِ القصةِ في التعليمِ والتربيةِ، والتأديبِ، والتوجيهِ، ولو لم يكن لهذه الشعوبِ أدبٌ مكتوبٌ.

● وقد توسّعَ النَّاسُ في استخدامِ القصةِ لما صار لهم أدبٌ مكتوبٌ مُتوارثٌ في الأجيالِ.

وزاد هذا في الناس حينما عرفوا قيمة تأثير التوجيه غير المباشر، ونما نمواً عظيماً، حين توصل الأدباء والثقاة إلى معرفة أدب القصة وفنونها وأساليبها المؤثرة.

وربما تصل القصة المحبوكة حبكاً فنياً جيداً في قوة تأثيرها، إلى جعل القارئ والسامع لها، ولا سيما الأطفال والمراهقون وأشباههم، يندمجون اندماجاً عظيماً في حوادثها، وينفعلون مع بعض أشخاصها وأبطالها في مشاركة وجدانية قوية جداً، حتى قد يصل الحزن فيها إلى مستوى تذرف منه الدموع السخية، وقد يصل الغضب فيها إلى مستوى يحرض على المناصرة الوهمية في حركات غير واعيات.

وربما تمثل قارئ القصة أو سامعها في نفسه بعض أشخاص القصة، حتى كأن الأحداث تجري معه نفسه، وقد يغفل عن واقعه تماماً، وينسى أنه يقرأ قصة من القصص الغابرة، أو القصص المصنوعة، وربما كانت قصة خرافية تماماً لا تمثل أي واقع، وكثيراً ما يعلم منذ بدء قراءته للقصة أو سماعها أنها يقرأ أو يسمع قصة وضعها كاتبها من نسج خياله.

● ونظراً إلى ما للقصة من تأثير تعليمي وتوجيهي تربوي، وجدنا أساليب الدعوة إلى سبيل الله، والتضح والإرشاد قد أولت القصة عناية فائقة، واهتماماً كبيراً، مع إبراز ما فيها من مواطن عبر وعظات.

فالقرآن المجيد بإعجازه البياني، والسنة النبوية المطهرة بروائعها، قد استخدمتا القصة في الدعوة إلى سبيل الله، وفي التضح والإرشاد، والتوجيه إلى فعل الخير وترك الشر بنسبة كبيرة، وبطرائق فنية أدبية مؤثرة جداً.

ولا يخفى على أي تال للقرآن ما يحويه هذا الكتاب المجيد من قصص رائعة رائدة، تشتمل على توجيهات غير مباشرة، إيمانية، وفكرية وأخلاقية، وعملية، وعظات نافعات، جليات الخطر، عظيمات الأثر.

وَمُطَالَعُ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ يَجِدُ فِيهَا قِصَصًا بَدِيعَةً ذَوَاتَ تَوْجِيهِ  
لِقَضَايَا الْإِيمَانِ وَالْإِحْلَاصِ وَالْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضِ فِي اللَّهِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ،  
ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَجَنَاتِ النَّعِيمِ.

مَسْئُولِيَّةُ حَامِلِ الرَّسَالَةِ:

فَعَلَى حَامِلِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ،  
أَوْ رِسَالَةِ التُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَنْ يَهْتَمَّ  
بِاسْتِخْدَامِ فَنِّ الْقِصَّةِ مِنْ فُنُونِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ، ذِي التَّوْجِيهِ غَيْرِ الْمُبَاشَرِ، اقْتِدَاءً  
بِمَنْهَجِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَسُنَّةِ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ، وَلَمَّا لِلْقِصَّةِ مِنْ تَأْثِيرِ عَمِيقٍ فِي  
النَّفْسِ، إِقْنَاعِيٍّ، وَتَرْبُوعِيٍّ، وَتَوْجِيهِيٍّ، وَلَمَّا فِيهَا مِنْ عِبَرٍ وَعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ.

وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْقِصَصِ مَا صَحَّحَ مِنْهَا، وَبِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ  
يَسْتَفِيدَ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَقْوَامِهِمْ، الْوَارِدَةَ فِي الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ،  
وَمِنَ الْقِصَصِ الْوَارِدَةَ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمِنَ سِيرِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ  
وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَمِنَ سِيرِ الْعُلَمَاءِ الصَّادِقِينَ الصَّالِحِينَ، وَالْأَبْطَالِ  
الْمُؤْمِنِينَ الْفَاتِحِينَ.

\* \* \*

- ٢ -

### المشاهد التمثيلية المفيدة

التمثيل: فنٌّ غير مباشر التوجيه قولِيٌّ وحرَكِيٌّ من فنون الأداء البياني  
القصصيِّ، عمادُهُ عَرْضُ أَحْدَاثِ الْقِصَّةِ أَوْ مَخْتَارَاتِ مِنْهَا، مِنْ خِلَالِ تَقْدِيمِ  
الْأَمْثَلَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ الْمُرَافَقَاتِ الْمَشَابِهَاتِ لِمَا كَانَ قَدْ جَرَى فِي الْقِصَّةِ فِي  
الْوَاقِعِ، بِقِيَامِ أَشْخَاصٍ يُمَثِّلُونَ شَخْصِيَّاتِ الْقِصَّةِ، وَيَلْبَسُونَ مِثْلَ أَلْبَسَتِهَا،  
وَيَتَصَرَّفُونَ مِثْلَ تَصَرُّفَاتِهَا، فَيُمَثِّلُونَ الْأَعْمَالَ وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَقْوَالَ وَالْمَشَاعِرَ.

وسائر التصرفات التي كانت منهم في القصة، مع تتبع المراحل الزمنية لأحداثها، ضمن ظروف وبيئة وأحداث القصة، والأشياء التي كانت فيها، أو مرافقة لها.

وللتمثيل شروط فنية معروفة لدى المختصين بهذا الفن، وهي تُدرس في معاهد خاصة، منها ما هو مقبول لا نجد في الإسلام ما يدعو إلى تحريمه ومنعه شرعاً، ومنها ما هو مرفوض لا نجد في الإسلام ما يأذن به، ولو على سبيل الأخذ بالرخص.

فإذا تهيأت الشروط الفنية المباحة شرعاً، ووجد الأشخاص القادرون على الأداء التمثيلي الناجح دون فجاجة ولا ركافة، وتوافرت تمثيلات مستكملة شروطها الفنية المؤثرة، كان من المستحسن استخدام التمثيل وسيلة من وسائل أداء رسالة الدعوة إلى سبيل الله، أو رسالة التصح والإرشاد.

لكن لم يظهر حتى الآن تمثيلات إسلامية صالحة لمثل هذا الأداء، وحتى حين وجود الإمكانيات الفنية الصالحة، وإعداد التمثيلات الناجحات الموقفات ذوات التأثير الإيجابي النافع في المشاهدين، يمكن أن نقول حينئذ: يحسن بحملة الرسالة أن يدخلوا التمثيل ضمن سبل أدائهم البياني في التوجيه غير المباشر

\* \* \*

المقالة الخامسة  
من سُبُل التوجيه غير المباشر

القراءة الحرّة وأثرها

- ١ -

سبب تأثير القراءة الحرّة

حين يجلس الإنسان لنفسه، فيأخذُ كتاباً أو صحيفةً أو مجلّةً أو أيّ مطبوع أو مخطوط، فإنه يشعر بأنّه يملكُ كاملَ حرّيته في القراءة أو عدمها، ويملكُ أيضاً كاملَ حرّيته في قبولِ ما يقرأ من ذلك أو رفضه. ولا يشعر مع بدء القراءة بدافعٍ نفسيٍّ للمعارضة والمخالفة بسبب الاستكبار على من يتعلّم منه، أو الرغبة في التفوّقِ عليه، أو الخوف من أن يظهر أمامه أو أمام جلسائه بجهله، لكنّ هذه الأمور تحدثُ كثيراً لدى المواجهة الشخصية.

ثم إنّ الذي يقرأ بنفسه من كتاب أو نحوه قراءة حرّة، إذا لم يقبلَ بعضَ الأفكار التي مرّت به في أوّل القراءة، فإنّ ذلك قد لا يمنعه من متابعة القراءة، ولا سيّما إذا كان ما يقرؤه حسنَ الصياغة، عذبَ الأسلوب، سهّل المتناول، مُتَسَلِّلاً الأفكارَ تَسَلُّلاً منطقيّاً.

والسبب في أنّه قد لا يمتنع عن متابعة القراءة مع معارضته لبعض الأفكار، هو أنّ دوافع المخاصمة إذا ارتفعت درجة حرارتها لم تجدْ أمامها

الخصم الذي تُصارعه وتقارعه، فتبرُدُ بسرعة، ورُبّما يقتصر تعبيرها على ضرباتٍ بقبضة اليد على الكتاب أو على الأرض، أو على تشطياتٍ بالقلم على الكتاب، أو على بعض الشتائم اللسانية.

ثم يتابع القراءة بدافع الفضول، أو تجذبه أفكار حسنة أثارَت إعجابَه، ويريدُ استكمال ما يتعلقُ بها، أو تتولد لديه رغبةٌ في أن يستكمل البحث ليُلمَّ بجوانبه، وكثيراً ما تنحلُّ لديه الإشكالات التي أثارَت اعتراضه أولاً، إذ يجد جوابَ تساؤلاته لدى شرح الكاتب لجوانب الموضوع، وتقديمه الأدلة على ما قدّمه من أفكارٍ ومعارف.

وبسبب ذلك يتمكن القارئ من الانتفاع بالمعارف والنصائح، وأنواع التوجيه الرشيد، إذا كان الكتابُ يشتمل على هذه الأمور أو بعضها، ويعلقُ بنفسه ممّا قرأ أمورٌ وأفكارٌ ومفاهيم لم يكنُ ليقبلها لو جاءت توجيهاً مباشراً من لسانٍ داع يدعو إلى الهداية، أو ناصح مرشد، أو أمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر، إنّه يقبلها ويتنفعُ بها انتفاعاً عظيماً، إذ لم تقم في نفسه ضدها مُنذُ البدء عقبةً نفسيةً صادّةً.

وبهذه الطريقة نفسها تستطيع ضلالاتٌ فكريةٌ واعتقاديةٌ ونفسيةٌ، ومثيراتُ أهواءٍ وشهواتٍ جانحات عن الحق والخير والفضيلة، أن تتسلل إلى النفوس وتؤثر فيها، ولا سيما إذا كانت مُزينةً مزخرفةً بالفنون والآداب، وتلبسُ بالزور والبهتان والدعاوى الكاذباتِ أثوابَ الحقائق المؤيدة ببراهين العلوم النظرية والتجريبية.

هذه هي طبيعة القراءة الحرة، في حين أنّ الأمر قد يختلف كثيراً إذا أتى صاحبُ الكتاب نفسه، فقدّم بلسانه ما كتبه بقلمه، إنّه حين يتصدى للقول يشعرُ بعضُ من يوجّه لهم الخطابُ أنّه يتصدّرُ عليه، ويحلُّ نفسه بين من يخاطبهم مكانةَ الأستاذ المعلم، المتعالي، الذي يشعرُ بالفوقية، أو مكانةَ

صاحبِ السُّلْطَةِ الذي يَأْمُرُ وينهى ويوجِّهُ النصائح والإرشادات .

فمن شعر من المخاطبين بهذا الشعور وكان ذا نفس متكبرة، تحرّكت لديه عوامل الكبر، والأنفة من الظهور بمظهر الجَهْل، فقامت في نفسه عقبة صادة، فحجبت مراكز استقبال المعرفة لديه، وجعلته يستنكف عن قبول ما يُوجِّهه حامل رسالة الهداية الداعي إلى سبيل ربه، أو حامل رسالة النصيح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تتولّد عن هذا الاستنكاف رَغَبَاتٌ مُوَاجِهَةٌ لحامل الرسالة، ومقاطعة له، وتشويش عليه، وتسفيه لآرائه، وانتقادات له، وتصيّد للهفوات، وإحراج بالأسئلة، إلى غير ذلك من شغب، ومحاولات إسكات له .

- ٢ -

### استغلال المفسدين لوسيلة القراءة الحرة

عرّف المفسدون في الأرض ما للقراءة الحرة من تأثير قوي، في توصيل ما يريدون بثه من أفكار وتوجيهات ومذاهب ومفاهيم إلى داخل نفوس القراء، دون أن تعرّضها عقبات صادات في معظم الأحوال .

من أجل هذا وجّهوا عناية فائقة لاستخدام هذه الوسيلة على أوسع نطاق، ولتذليل أدواتها وتحسينها وإيجادها بوفرة، وجعلها في متناول كل قارئ، وشحنوا هذه الوسيلة المؤثرة بالآف الحيل الزُخرفية الفنيّة والأدبية والفكرية التي تجذب النفوس، وترضي الأهواء والشهوات والأذواق الجمالية، وتمتع الحواس، وتدغدغ الغرائز. وتحرك المطامع، وتستغل المخاوف، وتجنّم الأوهام وتجعل منها حقائق في نفوس القراء كذباً وزوراً .

وقام جنودهم الكثيرون المنتشرون في طول الأرض وعرضها، من كتّاب القصص، وكتّاب النثر والشعر، في مختلف فنون الأدب والعلوم

الاجتماعية، ومن الصحفيين على اختلاف تخصصاتهم، وكُتَّابِ الأخبار السياسية والاجتماعية، وواضعي الدعايات المختلفة، وغيرهم، يدفعون بسُيُولِ إنتاجهم الموجَّهَ ضَمْنَ مخططاتهم الرامية إلى غزو أفكارِ الناس ونفوسِهِم وقلوبِهِم وعواطفهم الموجَّهَةِ لإراداتهم.

ويأخذُ هذا الإنتاجُ الوفيرُ سبُلَهُ المختلفة إلى دور النشر في العالم، وتَقْدِفُ المطابع ملايين المطبوعاتِ منها، لتكون في متناولِ أيدي القراء، في مختلف شعوب الأرض.

وتسير هذه المطبوعاتُ مؤثِّرةً في غزو الأفكار والعقول والقلوب والثُّفوس، إذ تتهافَتُ عليها الأجيالُ الراغبةُ في المعرفة، أو الاستمتاع بالفنون والآداب، وكانت سبب فسادٍ عريضٍ في المجتمع البشري.

- ٣ -

### واجب الأمة الإسلامية

وهنا يظهر لكلّ ذي فكر إسلامي سليم، أنّ الأمة الإسلامية مكلفةٌ من أجل تبليغِ رسالةِ الرسول ﷺ للناس أجمعين، والقيام بوظائفها داخل المجتمعات الإسلامية، أن يبذلوا ما يستطيعون من جهدٍ في اتّخاذ سبيل القراءة الحرّةِ ضَمْنَ سائر السُّبُلِ التي يجب عليهم اتّخاذها.

ويكون هذا بأمرٍ كثيرة منها ما يلي:

١ - تَرْبِيَةُ الأجيالِ من أبناء المسلمين على حُبِّ القراءةِ إلى دَرَجَةِ الشَّغَفِ بها، وإنفاقِ عدّة ساعاتٍ من كلِّ يومٍ فيها، دون سأمٍ ولا مَلَلٍ، فَحُبُّ القراءةِ يُكْتَسَبُ بالتربية والتدريب، ومصاحبةِ القُراء، ومُتَابَعَةِ القارئين فيما قرؤوا، وتشجيعِهِم على عَرَضِ ما فهموه ممّا قرؤوه.



٢ - تشجيع ذَوِي العِلْمِ والفِكْرِ والقَلَمِ من المسلمين، ماليًا ونفسيًا واجتماعيًا، على كتابة الرسائل، والبحوث، والمقالات، والنشرات، والمؤلفات، بمختلف وسائل التشجيع، لكي ينبغ في المسلمين المؤهلون الكثيرون الذين يستطيعون توصيل الكلمات النافعات المؤثرات، والمفهومات الإسلامية الصحيحة، إلى مختلف القراء، بحسب ميولاتهم المختلفة.

٣ - تشجيع الكتب والرسائل والصُحف والمجلات والنشرات ذوات المضامين الإسلامية، والنافعات الخاليات من التحريف والتزييف والأغاليط والتعصبات، مع الترويج لها، ونشرها، وتوزيعها في أوسع مجال ممكن، وتيسير وصولها إلى القراء في كلّ موقع من الأرض، ولا سيما البلاد والأماكن التي لا يستطيع سُكَّانها جَلْبَ الكتاب النافع لشدة فقرهم وحاجتهم.

ومن الخير العظيم أن يصلَ قِسمٌ من الرسائل النافعة التي تُشرَحُ أصولَ الدين، وأركان الإسلام، وشرائعه، وأحكامه، وأخلاقه وآدابه، مجاناً إلى مراكز إسلامية مُهمّة في جميع بلاد الدنيا.

ولا يفوتني هنا أن أُبينَ أنَّ بَدَلَ المال في هذا السبيل هو من الجهاد في سبيل الله، لأنّ الجهاد بالكلمة الإسلامية النافعة هو في مقدّمة أعمال الجهاد في سبيل الله.

٤ - تأسيسُ المكتبات العامة، واجتذابُ القُراء إليها بما تميلُ نفوسهم إليه من المباحات، وتيسيرُ سُبُلِ قراءتهم فيها، مع تزويدها بمرشدين يُحسِنُونَ توجيهه زائريها للقراءات النافعات الملائمات لمستوياتهم، واستعداداتهم، مع تيسيرِ إعاره بعض الكتب لمدة مُحدّدة.

٥ - تأسيسُ المكتبات التجارية في كلّ شارع، وكلّ حيٍّ وقرية، وجعلها مراكز إشعاعٍ يتوارَدُ إليها طُلابُ المعرفة والآدب، مع عناية أصحابها

بتوجيه زائرهم بالأساليب الرفيقة المؤثرة، للكتبِ والرسائل والمنشورات ذواتِ المضامين الإسلامية النافعة.

٦ - تزويدُ المؤسساتِ والمرافقِ العامة والخاصة التي ترتادها جماهير مختلفة، ويَطوُلُ المكثُ فيها، كالمعابد، والمدارس وفصولها الدراسية، والنوادي الأدبية والرياضية، والمستشفيات، والفنادق، بمكتباتٍ صُغرى تُناسبُ أحوالَ زُوَّارِها ومُرْتادِياتِها، وهذه المكتبات تشتمل على كتبٍ إسلاميةٍ نافعةٍ سهِّلةِ التناولِ، مُيسِّرةِ القراءة والانتفاع بما فيها.

٧ - طباعةُ كتبٍ ورسائلٍ صُغرىٍ مشتملة على الأفكار المراد بثها والإقناع بها، بكمياتٍ وفيرة، وأسعارٍ زهيدة، وأحجامٍ توضع في الجيب، لتنتشر هذه المطبوعات وما فيها من أفكارٍ على أكبر عدد من الناس.

٨ - إجراء مسابقاتِ ذواتِ جوائزٍ ماليةٍ حَوَّلَ معلومات تُوجَدُ في كتبٍ معينة، وهذه الكتب تشتمل على أفكارٍ ومفاهيم ومعارف إسلاميةٍ مهمَّة، تهدف خطة التوجيه الإسلامي إلى بثها، وإقناع الناس بها.

إلى غير ذلك من أمور نافعة في نشر الفكر الإسلامي، قياماً بواجب الدعوة إلى الله، والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن باستطاعة حَمَلَةِ رسالة الهداية، أو رسالة الإصلاح والحماية، أن يستخدموا وسيلة القراءة الحرة لبث المعارف الربانية الحق، ولعرض تعاليم الإسلام ونُظْمه وأخلاقه ومفاهيمه، بمختلف الوسائل والأساليب العلمية السهلة القريبة المتناول بالنسبة إلى القاعدة الاجتماعية العريضة، والوسائل والأساليب الأدبية الرشيقة الأخاذة المؤثرة في النفوس والأفكار، التي تقبلها الجماهير، وتناسب ألوانها الأدبية، ومستوياتها الفكرية، مع مختلف مستويات الناس.

وفي معركة الصراع الفكري العالمية سوف يتنصر الفكر الإسلامي لا

محالة، لأنه حقٌّ لا ريبَ فيه، ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ وعد المسلمين بإظهار دينه الحقِّ على الدين كُلِّه، ولو كرهَ المشركون وسائر الكافرين، فقال تبارك وتعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزل):

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣)

ولهذا الموضوع تتماتٌ في «الفصل الرابع - وسائل الأداء البياني» من هذا الباب تحت عنوان «الوسيلة السادسة: الكتاب» فيجسن الرجوع إليها، لاستكمال ما يتعلق بهذا الموضوع.

\* \* \*

المقولة السادسة  
من سُبُل التوجيه غير المباشر

الترنيم والنشيد  
بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً

- ١ -

الميول والتأثيرات الفطرية

فطر الله عز وجل النفوس الإنسانية على حب الترنيم والنشيد، والتغني بالصوت الرخيم، والتأثر السعيد بالتعبير المريح للنفس، عن طريق الكلمة المقترنة بالصوت الجميل، واللحن الحسن، والأداء الموسيقي<sup>(١)</sup> المتناسق، الذي لا تنافر فيه، والملائم لحالة النفس ودلالة الكلمة.

وحين لا يملك الإنسان الصوت الحسن الندي، ولا القدرة على اللحن الغنائي الجميل، والأداء الموسيقي المتناسق، فإنه يسعدُه ويسرُّه أن يسمع من غيره ما يؤدُّ أن يكون هو المعبر عنه بنفسه، فإذا سمع صوتاً حسناً في غناء جميل، وموسيقى متناسقة ملائمة لكلمات معبرٍ عن حالة نفسه، تحركت

---

(١) الموسيقى: علم يكشف أنواع الأصوات ونغماتها وطبقاتها ومسافات إيقاعاتها، وهو كعلم العروض للشعر، وليست الموسيقى هي المعازف، بل المعازف آلات لها، ويمكن تعلم علم الموسيقى بدون استخدام آلاتها المصنوعة المحرمة.

عواطفه، وانفعلت بذلك نفسه انفعالاً كبيراً ملائماً لكوامنها.

وقد يتأثر بالصوت فقط، ولو لم يكن مقترناً بكلماتٍ معبرٍاتٍ عن حالة نفسه، والسبب في هذا أنَّ لغمات الأصوات تأثيراتٍ مختلفاتٍ في النفس، فبعضها يلائم حالة الحزن، وبعضها يلائم حالة الفرح، وبعضها يستثير البسالة والشجاعة، إلخ غير ذلك من حالات النفوس، والأصوات المثيرات لها، والمؤثرات فيها.

إنَّ معظم الناس في السلم والحرب، والأفراح والأحزان، والمسرات والآلام، ولدى ذكر المآثر والمفاخر، ولدى تعبيرات التحسر والتوجع، أو بثَّ الأشواق والأشجان، أو غير ذلك من مشاعر نفسية، يرددون ما يناسب الحال التي هم عليها، ممَّا حفظوا من الأغاني والأناشيد التي سبق لهم أن استحسنوا ألحانها، وأنسوا إليها، ممَّا ذاقوا فيه يوماً ما حلاوةً تعبير مناسبة بالصوت واللحن والكلمات، عن أحوال نفوسهم الشخصية أو الدينية أو القومية، أو نحو ذلك من أشواقٍ وأشجان، أو آلامٍ وأحزان، أو أفراحٍ ومسرات، أو أمجادٍ وبطولات، أو شجاعاتٍ وتضحيات، أو فضائلٍ ومكرماتٍ، أو غير ذلك.

والكلام الذي يحمله إلى السمع صوتٌ جميل، أو لحنٌ جميل في أداءٍ موسيقيٍّ متناسق، يمرُّ من الآذان مرّاً سعيداً إلى داخل أكثر النفوس دون محاكمة عقلية، ولا سيّما إذا كانت فيه مفرداتٌ تتصل في دلالاتها بما يشغل نفوسهم من عواطف أو انفعالات، أو رغباتٍ ومطالب، أو مطامعٍ أو مخاوف، أو مفاهيمٍ أو عقائد، أو غير ذلك.

وكم من كلامٍ عاطفيٍّ مبتذلٍ سخيِّفٍ لا وزن له ولا قيمة، حملته إلى نفوس الجماهير أصواتٌ وألحانٌ وموسيقىٌ جميلة، فمرَّ من الآذان إلى داخل نفوسهم دون نقدٍ فكريٍّ، فعلقَ فيها، ثمَّ غداً كلاماً تُردِّده الألسنة دون

اعتراض، وكأنه من بديع الكلام ومستحسنه.

- ٢ -

### استغلال المفسدين للأغاني والموسيقى

عرف المفسدون في الأرض ما للموسيقى والأغاني والأناشيد من تأثيراتٍ على نفوس الجماهير، التي قد تصلُ إلى التلاعب في مداركهم الذهنية، ومفهوماتهم الفكرية.

فأسرعوا إلى السيطرة على المغنّين والمغنّيات، وواضعي الألحان، ومؤلفي كلمات الأغاني والأناشيد العاطفية، والقومية، والوطنية، والنقدية، والمضحكة (الكوميديا) والمثيرة للشهوات والأهواء المطلقة من القيود الدينية والخلقية، والمشجعة على ترك ضوابط الفضيلة، والسقوط في أحوال الرذيلة.

وعملوا على تجنيد من يستطيعون تجنيده بالمغريات المالية وغيرها، لتوجيه ما يُقدّمون من موسيقى وأغانٍ وأناشيد وألحان توجيهاً يخدم أهداف الغزو الفكري والنفسي والسلوكي، الذي يقومون به ضدّ الإسلام، وضدّ الأمة الإسلامية.

فكم من أغنية منتشرة تشجّع على الفسق والفجور، والتحلُّل من مكارم الأخلاق، وضوابط العفة، وتستهين بشرائع الدين، وأحكامه، وآدابه.

وكم من أغنية منتشرة تثير نُعراتٍ إقليميةً وقوميةً ضدّ مبادئ الوحدة الإسلامية ومفهوماتها.

وكم من أغنية ترددها أفواه المراهقين والمراهقات، ثم الراشدين أحياناً، وهي تتضمن تمجيد مبادئ اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، أو

فلسفات تخالف مبادئ الإسلام وأحكامه وشرائعه وعقائده .

وكم انتشرت أغاني وأناشيد تمجّد زعماء مصنّوعين صنّعا، وهم خائنون لأمتهم وأوطانهم، وقد رفعهم إلى مرتبة الزعامة أعداء الإسلام بالأعيهم وحيلهم السياسية والإعلامية، ثواباً لهم على خياناتهم التي باعوا فيها أنفسهم وشعوبهم وبلادهم لهم، وجنّدوا كلّ قواهم في تحقيق أغراض أعدائهم .

وهذه الأغاني والأناشيد تُردّدُها الأجيال ترديداً بيتاغويّاً، وتتصوّر أنّ مضموناتها الفكرية من الأمور المسلّم بها، التي لا تقبل الاعتراض ولا النقد . وقد حقّق المفسدون في الأرض كثيراً من أغراضهم بهذه الوسيلة من وسائل التوجيه غير المباشر .

- ٣ -

### موقف الإسلام من استخدام هذا السبيل

فيما ظهر لي استنباطاً من إقرارات الرسول ﷺ، ومفاهيم الشريعة الإسلامية بشكل عام، أرى أنّه لا مانع إسلامياً من استخدام الأغاني والأناشيد لخدمة الدعوة إلى الإسلام، وتثبيت عقائده ومفوماته، والتّضح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحثّ على الالتزام بشرائع الإسلام ونظمه وأحكامه وأخلاقه وآدابه، والافتخار بها، والاعتزاز بأمجاد المسلمين وتاريخهم المشرق، والدعوة إلى الاقتداء بالسلف الصالح .

وكذلك أناشيد الدعاء والابتهاال إلى الله، والصلاة والسلام على رسوله، وذكر أخلاقه وجهاده وما اختصه الله به من فضائل .

وكذلك أناشيد الحماسة حتّى على الجهاد في سبيل الله، والتضحية

بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله، ونُصرة دينه، وإقامة العدل في الأرض، ومقاومة البغي والظلم والفساد.

كُلُّ ذلك بشرط عدم الإفراط في الأغاني والأناشيد، حتّى لا يكون الغناء مقصوداً لذاته، فيتحوّل عن الهدف منه، وبشرط سلامة هذه الأغاني والأناشيد من التكسر والتخنث ولُحُونِ أهل المعاصي، وبشرط عدم مصاحبته بالآلات المحرّمة، وسلامة ألفاظها من آية مخالفة دينيّة، وخلوها من التعبيرات والشطحات المجازية التي توهم ما لا يليقُ بكَمالِ الله عزّ وجلّ، أو بجناب الرسول ﷺ، أو بشرائع الإسلام وأحكامه.

ومن أمثلة ما هو ساقط لا يجوز استخدامه الكناية عن السعادة القلبية التي تملأ قلب العابد الذاكر لربه، بارتشاف الكؤوس الخمرية المسكرة، وكذلك التغزّل ذو الطابع الشهواني الجسدي، كناية عن الحبّ لله عزّ وجلّ، أو الحبّ للرسول ﷺ.

إلى غير ذلك ممّا تسترّ به قديماً كثيراً من الفسّاق، ثم انخدع به كثيرٌ من الجهلة، ثم صار تقليداً تافهاً سخيفاً مبتدلاً لدى طوائف أدخلت في دين الله ما ليس منه، وابتدعت بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان، وتعضّبت لتقاليدها حتّى كأنّها شرائع ربّانية مأذون بها.

نظرة إلى الأدلة:

ويحسُن أن ننظر نظرة ما إلى الأدلة التي تأذن بالغناء والترنيم، ضمن الشروط التي سبق بيانها.

١ - كان داود عليه السلام يتغنّى بمزاميره البديعة، وهذه المزامير تشتمل على كلمات مناجاة لله عزّ وجلّ، ودعاء له، وتمجيد لجلاله ولعظيم صفاته، وتسبيح بحمده، وثناء على آله، وتذكير بآياته في كونه.

٢ - من المعروف أنّ العربيّ كان يتغنّى بالشّعْرِ في حُدائه، وعند



إنشاده، ويطربُ له، ويَجِدُ في ذلك أثراً محرِّكاً في نفسه.

وكان العرب يُرَدِّدُون الأهازيج والأراجيز عند العمل، تحريكاً للنفس، وتنشيطاً لِلِهَمِّم، وكانوا يفعلون مثل ذلك عندَ الحزبِ إثارةً للحماسة، وتشجيعاً على القتال.

وكانوا يفعلون نظير ذلك في الأفراح، وعند استقبال الوافدين ابتهاجاً بهم.

واستمرَّ كُلُّ هذا بعد بعثة الرسول ﷺ، وبعد ظهور الإسلام، وأقرَّ الرسول ﷺ المسلمين عليه، ولم ينكره.

٣ - وعند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة استُقبِلَ بالنشيد المعروف المشهور:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيَّاتِ الْوَدَاعِ

واستقبلته جوارٍ من بني النجار بقولهنَّ يَغْنَيْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ يَا حَبْدًا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

ولم ينكر الرسول ﷺ شيئاً من ذلك.

٤ - وعند بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، صار المسلمون يرتجزون وهم يَتَنُونَ بقولهم:

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ اللَّهُمَّ ازْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

فيقول الرسول: لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فازحَمِ المهاجرين والأنصار.

٥ - وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ يَوْمَ الأحزاب قال:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

وفي حُتَيْنِ جعل الرسول ﷺ يردُّد قوله:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنْ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وفي غزوة خيبر، نزل الشاعر المسلمُ عامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ يَحْدُو

بالمسلمين، فيقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَاعْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا وَالْقَيْنَ سَكِينَةَ عَلَيْنَا

وَبُتِّ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا إِنَّا إِذَا صَيَّحَ بِنَا أَبَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وقد قُتِلَ عامِرٌ بِضَرْبَةِ جَاءَتْ عَلَى رُكْبَتِهِ مِنْ سَيْفِهِ الَّذِي نَبَأَ فَارْتَدَّ عَلَيْهِ.

٦ - وعند مسلم أيضاً أَنَّ النبي ﷺ لَمَّا قَفَلَ مِنْ خَيْبَرَ، قَالَ سَلَمَةُ بْنُ

الْأَكْوَعِ، أَخُو عامِرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي أَنْ أَرْجُرَ لَكَ، فَأَذِنَ لَهُ

رسول الله ﷺ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَعْلَمُ مَا تَقُولُ. قَالَ سَلَمَةُ فَقُلْتُ:

وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

وَأَنْزَلْنَا سَكِينَةَ عَلَيْنَا وَبُتِّ الْأَقْدَامِ إِنْ لَاقَيْنَا

وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا

٧ - وروى مسلم عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يوم الأحزاب يُنْقَلُ

مَعَنَا التُّرَابُ، وَلَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بِيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةَ عَلَيْنَا إِنْ الْأَلْيُ قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا

قال: وَرُبَّمَا قَالَ:

إِنَّ الْمَلَاقِدَ أَبْوَا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ أَيْبِنَا  
٨ - وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ قَالَ: دَمِيتُ إِضْبَعُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ، فَقَالَ:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبَعُ دَمِيتِ      وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ؟  
إِلَى غَيْرِ مَا سَبَقَ مِنَ الشُّوَاهِدِ.

● أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَحْسِينِ الصَّوْتِ فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَقَدْ ثَبَّتَ فِي  
الصَّحِيحِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ حَثَّ عَلَيْهِ.

٩ - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارِمِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ  
عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:  
«زَيُّوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

١٠ - وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي  
لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:  
«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ».

١١ - وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ  
قال:

«مَا أَدِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَدِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ  
بِهِ».

أَذِنَ: أَي: اسْتَمَعَ وَأَضْغَى.

١٢ - وَكَانَ الصَّحَابِيُّ أَبُو مُوسَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ - صَاحِبَ صَوْتٍ حَسَنِ، وَكَانَ ذَا عِنَايَةٍ بِتَرْتِيلِ الْقُرْآنِ وَتَحْبِيرِهِ وَتَحْسِينِ

الصَّوْتِ بِهِ، حَتَّى كَانَ جَمْعٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ مِنْهُ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ: «شَوْقُنَا إِلَيْ رَبَّنَا يَا أَبَا مُوسَى» فَيَجْلِسُ أَبُو مُوسَى، فَيَتْلُو الْقُرْآنَ، وَيَجْلِسُ عُمَرُ خَاشِعاً إِلَى جَنْبِهِ، وَيَجْلِسُ مَعَهُمَا جَمْعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

● وَقَامَ أَبُو مُوسَى يَوْمًا يَتَهَجَّدُ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَيَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ بِصَوْتِهِ الْجَمِيلِ، فَجَلَسَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى بَابِ حَجْرَتِهِ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ وَأَنْصَتَ، ثُمَّ لَمَّا أَصْبَحَ، قَالَ لِأَبِي مُوسَى:

«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَيْ قِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ!!، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:

«إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

● وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً هُوَ وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِأَبِي مُوسَى وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي بَيْتِهِ لَيْلًا، فَوْقَهَا يَسْتَمِعَانِ لِقِرَاءَتِهِ سَاعَةً، ثُمَّ مَضِيَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي مُوسَى:

«يَا أَبَا مُوسَى، مَرَزْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَمَعِيَ عَائِشَةُ، وَأَنْتَ تَقْرَأُ فِي بَيْتِكَ، فَقُمْنَا فَاسْتَمَعْنَا».

فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَمَا إِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ لَحَبْرَتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا.

لَحَبْرَتُهُ: أَي: لِحَسَنَتُهُ، فَتَحْبِيرُ الْقِرَاءَةِ تَحْسِينُ الصَّوْتِ بِهَا، وَتَحْبِيرُ الشَّعْرِ وَالْكَلَامِ تَحْسِينُهُ.

● وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَعْجَبُكَ مِنْ أَبِي مُوسَى؟!، فَقَدْ جَلَسَ فِي بَيْتِ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ، فَأَنْشَأَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.

فقال رسول الله ﷺ:

«أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُقْعِدَنِي حَيْثُ لَا يَرَانِي أَحَدٌ مِنْهُمْ؟» .

قال: نعم، فخرج رسول الله ﷺ فَأَقْعَدَهُ الرَّجُلُ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ،  
فَسَمِعَ قِرَاءَةَ أَبِي مُوسَى قَفَالَ:

«إِنَّهُ يَقْرَأُ عَلَيَّ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» .

خاتمة:

ولمَّا كان للصَّوتِ الحَسَنِ تأثيرُهُ الفَعَّالُ في النفوسِ، كان لا بُدَّ من  
الاهتمام به، واتِّخَاذِهِ سِيلَةً من وسائلِ التأثيرِ الخَيْرِ النافعِ، ما دام الدينُ قد  
أباح الاستماعَ إليه، وأباح استِخدامَهُ في كلِّ وجِهٍ لا مَعْصِيَةَ لِلَّهِ فيه، بشرطِ أن  
لا يصيرَ غايَةً في ذاته، ويخرجَ عن كونه سِيبلاً لأمرٍ مبرورٍ، أو فيه طاعةُ الله  
عزَّ وجلَّ، بل قد يكونُ استخدامُ الصوتِ الحَسَنِ الذي يُباحُ الاستماعُ إليه  
عملاً مبروراً يُوجِرُ عليه مُسْتخدمُهُ .

\* \* \*

المقالة السابعة  
من سبيل التوجيه غير المباشر

إدخال البيان الإسلامي  
ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات

- ١ -

المطلوب في الفرص المتاحة

حامل الرسالة ينبغي أن يكون همّه الأعظم في حياته تأدية وظائف رسالته ما استطاع إليها سبيلاً.

فهو مطالب بأن ينتهز كل سانحة، وكل فرصة تمرّ به في حياته، يرى أن باستطاعته أن يؤدي فيها شيئاً من رسالته أداءً مرجوًّا منه النَّفْعُ، بطريقة حكيمة مصحوبة بالرفق، وبأسلوبٍ تسليبي تلقائي غير منفرٍ ولا نابٍ ولا جافٍ.

وأفضل الطرق ما كان منها بأسلوبٍ غيرٍ مباشرٍ، وغيرٍ مخصّصٍ بعنوانٍ من عنوانات الدعوة إلى الله، أو النصّح والإرشاد، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- ٢ -

انتهاز المناسبات التي تتاح في مختلف العلوم

والمناسبات التي تتاح لحامل الرسالة خلال بُحوث العلوم ذوات

التخصّصات المختلفة، حتّى ما كان منها علمياً بحتاً، كثيرةٌ جدّاً، لأنّه ما من علمٍ من العلوم إلّا له صلةٌ ما بالخالقِ جلّ جلاله، إذ لا بُدَّ أن يشتمل على مظهرٍ أو أثرٍ من آثار صفاته، أو أنظمته، أو علمه وقدرته وحكمته، أو مفهومٍ أو قضيةٍ ممّا يتصل بمفاهيم الدّين الذي اصطفاه الله لعباده.

وباستطاعة حامل الرسالة أن يستفيد من المناسبات المتاحة في مختلف العلوم، وأن يُقدّم شيئاً من مضمونات رسالته، وهو يشرح مسائل العلم الذي يبحّثه، لكنّ هذا يحتاج في بعض العلوم ذات التخصّص البحت مهارةً فائقة، وذكاءً متوقّداً، وبديهةً حاضرة.

أمثلة:

١ - ففي علم الرياضيات الصّرف مثلاً، يمكن الاستفادة من الأعداد، لبيان أنّ الموجود الأزليّ واحدٌ في ذاته، وفي صفاته، وعنه صدرت المتعدّات في الكون كلّها، وأنّ كلّ جنسٍ ونوعٍ وصنفٍ من الكائنات مؤلّف من زوجين اثنين، وقد جعله الخالق كذلك لينفرد بالوحدانية من دون سائر ما خلق في كونه.

ويمكن الاستفادة من المطابقة بين الأسس الرّياضية، وظواهر خلق الله في الكون، القائمة على هذه الأسس التي هي جزءٌ من علمه المحيط بكلّ شيء.

ويمكن الاستفادة من بعض المناسبات في الأعداد لبيان أنّ الدّوات المتعدّات يستحيل عقلاً أن تكون ذاتاً واحدة، فالربّ الخالق يجب عقلاً أن يكون واحداً لا شريك له، والإله المعبود يجب أن يكون إلهاً واحداً لا شريك له.

إلى غير ذلك ممّا يحتاج مهارةً فائقةً، وذكاءً لمّا حأ.

٢ - وفي علمي الكيمياء والفيزياء مناسباتٌ كثيراتٌ تُتاح لحامل الرسالة، ويستطيع أن يهتبلها لبيان اتقان الخالق لأنظمته في كونه، ولبيان

التشابه بين أنظمة الكون المادي الخاضع للتكوّن الجبري، وأنظمة الدّين المنظمة لأعمال الناس الاختيارية، إذ وُضِعُوا في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء.

وباستطاعة حامل الرسالة أن يستخرج وجوه تشابه كثيرة، كالشبه بين السجود الجبري في الكائنات غير المختارة، والسجود الاختياري في العباد الممتحنين المختارين في حياتهم، وكالشّبه بين صراع الماء النازل من السماء، وزبد الأرض الذي يطفو على السيل ثم يكون جُفَاءً في نهاية الصراع، وبين صراع الحقّ والباطل والمحقّقين والمبطلين، إذ يزهق الباطل في نهاية الصراع.

٣ - وفي علوم الأحياء والتشريح والطب البشري مناسبات كثيرة تتأخّر لحامل الرسالة، ويستطيع أن يهتبلها لخدمة الفكر الإسلامي، في أصوله وفروعه.

٤ - أما العلوم الإنسانية فصلتها بمسائل الفروع الإسلامية صلة صميمة جدّاً، لاتحاد كثير من موضوعاتها، ولأن أحكام الفقه الإسلامي تتناول كثيراً مما تتناوله أحكام هذه العلوم، متعارضة معها، أو متفقة أحياناً، وباحثها مطالب بأن يتعرّض خلال بحثه لها لأحكام الشريعة الإسلامية ومفهوماتها المتعلقة بقضاياها.

٥ - وأما الآداب النثرية والشعرية، وموضوعات الفنون الجمالية المختلفة، فذوات ميادين فسيحة جدّاً لعرض الفكر الإسلامي فيها.

فالموضوعات والأفكار الإسلامية يمكن تقديمها بحلّ أدبيّة، والأمثلة والشواهد على الموضوعات الأدبية والبلاغية والجمالية، يمكن اقتباسها من النصوص ذوات التوجيه الإسلامي، والدعوة إلى الله والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إلى غير ذلك.



## استغلال المفسدين للعلوم والآداب والفنون

كثيراً ما يَدُسُّ المفسدون في الأرض، والمضللون، أفكارهم وآراءهم الاعتقادية، وتفسيراتهم الفلسفية، ومفاهيمهم التي تخدم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم الخاصة، ومذاهبهم الوضعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتضليلاتهم المتصلة بأنواع السلوك الإنساني، في مختلف العلوم والفنون، حتّى ما كان مِنْهَا بَحْتًا.

وغرضهم من دسّها في ثنايا العلوم والفنون المختلفة أن تسلّل إلى الأذهان والنفوس والقلوب بطريقة غير مباشرة، فهي بهذا التسلّل تستطيع أن تهزّب من المراقبة الفكرية الناقدة، التي تهتمّ بكشف الرّيف، والتحرّي عن الحقائق.

والسبب في ذلك أنّ الأفكار والنفوس تكون حينئذٍ واقعة تحت تأثير مؤثراتٍ صارفات:

(أ) فهي إمّا أن تكون مشغولة بمتعة الأدب والفرن عن كشف زيف المضامين الفكرية، بحيلة أنّ الأدب أو الفنّ إنّما يُهمُّهما العناية بالجمال الأدبي أو الفنيّ، لا بصحة المضامين الفكرية.

(ب) وإمّا أن تكون واثقة من أنّ البحث علميٌّ متجردٌ، يعتمد على البراهين العقلية، أو التجارب والمشاهدات، وتسجيل النتائج بأمانة وصفية صادقة، تحكي ما هو واقعٌ فعلاً في الطبيعة، استناداً إلى ما قدّمته المشاهدة والتجربة.

وبسبب الانشغال بالمتعة، أو الثقة بالبحث العلمي المتجرد، تدخل المندسات دخولاً مُزيّفاً، بطريقة غير مباشرة، فلا تُواجه النقد الفكريّ

المطلوب، فتعلّق في الأنفس، دون أن تجدَ عَقَبَاتِ صَادَاتٍ تَفَحَّصُهَا وتكشف زيفها، وقد تُمسي بال تكرار مألوفة، ومع الإلْفِ يَخِفُّ الاعتراضُ عليها، ومع طول الزمن وتوالي الأيام تَغْدُو مفهوماتٍ تقليدية غير مرفوضة، كسائر التقاليد التي يتناسى الناسُ الاعتراضَ عَلَيْهَا، مهما كانت باطلةً أو فاسدة، ومَهْمَا كَانَتْ من قَبْلِ إيلافِهَا أُمُوراً مُسْتَنَكِرَةً وَمُسْتَهْجَنَةً.

بهذه الحيلة التسليية دخلت في الآداب والفنون، والعلوم العقلية، والعلوم الوصفية، معتقداتٌ فاسدات، وتفسيراتٌ فلسفياتٌ باطلات، ومذاهب سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة، بحسب أهواء كُتَّابِهَا وموجهيها السياسيين أو غيرهم، من دعاة الضلال في الأرض، وشياطين الفتنة والفساد والإفساد.

أمثلة:

١ - ففي العلوم العقلية، والعلوم الطبيعية دخلَ التفسيرُ المادي المَلْحَدُ مُنْذَسًا، ودخلتِ الفلسفاتُ الوجودية الملحدة، مع أنّ هذه التفسيرات غريبةٌ عن طبيعة هذه العلوم، ولا تخضع لوسائلها.

٢ - وفي علم النفس دخلت التفسيرات الإلحاديات، والتعليقات المضللات الداعيات إلى الإباحية، والتحليل من ضوابط العفة، ومن مكارم الأخلاق، مع أنّ هذه الأمور لا علاقة لها بالعلوم الوصفية التي تصفُ الواقع الطبيعي.

٣ - وكذلك حصل في علم الأحياء، وعلم الاجتماع، وفي سائر العلوم الإنسانية، وفي الآداب والفنون، إذ دخلت الأفكار والآراء المُخْتَلِفَةُ الداعية إلى الإلحاد والكفر بالله، وإلى كُلِّ شَرٍّ وفسادٍ في الأرضِ، وإباحيةٍ وتحليلٍ من فضائل الأخلاق ومكارم السلوك.

ومن أمثلة هذا قِصَص «جان بول سارتر» ومسرحياته، وشِعْرُ بعض

نصارى لبنان وغيرهم، و«قصص إحصان عبد القدوس» وقصص ومسرحيات القوميين، والاشتراكيين، والشيوعيين، والعلمانيين، وشعر ونثر ملاحدة الحدائين، إلى زيف كثير أندس في الموسوعات العلمية الغربية، والشرقية المعادية للإسلام.

\* \* \*

## المقالة الثامنة

من سُبُل التوجيه غير المباشر

### البُتُّ العرضيُّ المفيدُ عند المناسبات الملائمات

- ١ -

#### التعريف

البُتُّ العرضيُّ: هو البيان الكلامي الذي يأتي عَفْو الخاطر، دُونَ إعدادِ سابقٍ، ولا قَصْدٍ مُدَبَّرٍ، ولا يَشْعُرُ المخاطَبُ به بأن سَوَّقَ الكلامَ مَقْصُودٌ لذاته في أَصْلِ الموضوع الَّذِي يجري الحديثُ حوله.

وهو في الكلامِ يُشبه الإلماحَ في الأجسام، فالإلماحُ هو ما تفعله الحسنة من إظهار بعض محاسنها وسرّها بسرّعة، ليَلْمَحها الناظر فيُعْجَب بها، وتَفْعَلُ هذا بطريقةٍ قد يَشْعُرُ الناظر إليها بأنّها حركةٌ غير مقصودة.

ويَنْتَهزُ أهلُ الفطنة والذكاء اللّماحَ المتوقّد حاضرو البديهة أضعف المناسباتِ في الأحاديث المتداولة في المجالس ليَبْشُرُوا بعض ما يريدون بثّه من أفكارٍ بَثًّا عَرَضِيًّا، دُونَ أَنْ يُشْعِرُوا من يتحدّثون معهم أنّ هذه الأفكار قد سَبَقَتْ ضِمْنَ خَطّةٍ مرسومة مُعدّة سابقاً، بل جاءت عَفْو خواطرهم فطرحوها،

دون اهتمام ولا عناية بها، ولا إصرارٍ على توجيهها بغية توصيلها إلى الآخرين، أو إقناع بها.

وقد يكون البثُّ العرضي استطراداً مع سانحة عارضة، أو تعليقاً على فكرة عابرة، أو اشتقاقاً من كلمةٍ أو جُملةٍ، أو تفرعاً على قضيةٍ كليةٍ، أو نحو ذلك.

ولهذه الوسيلة تأثيرٌ كبيرٌ على أفكار بعض الناس، ولا سيما الذين تلائم الفكرةُ التي جاءت في البثِّ العرضي ما في نفوسهم من أهواء ورغبات، إذ يَشْعُرُونَ بأنَّ قائلها أطلقها عَفْواً وَعَلَى البديهة دون قَصْدٍ منه، فهي بمثابة صَيْدٍ ثمينٍ جاء بتلقائيةٍ غير مقصودة، فَمِنَ المفيدِ الإسراعُ باصطيادها، والاحتفاظ بها، فمن اصطادها واحتفظ بها صارَ بَعْدَ ذلك من دُعاتها والتأثيرين لها.

- ٢ -

المطلوب من حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ بالنسبة إلى هذا السبيل

كما سبقَ البيان حول الوسيلة السابقة فإنَّ حامل الرسالة مُطَالِبٌ بأنَّ ينتهزَ كُلَّ سَانِحَةٍ، وكلَّ فُرْصَةٍ تَمُرُّ في حياته، يَرَى أنَّ باستطاعته أن يُوَدِّيَ فيها شيئاً من رسالته أداءً مرجوَّ النَّفْعِ، بطريقةٍ حكيمةٍ مصحوبةٍ بالرَّفْقِ، وبأسلوبٍ تلقائيٍّ غير منقَرٍ ولا نابٍ ولا جافٍ ولا ممجوجٍ.

وما أكثر المناسبات التي تُتَّاحُ في الأحاديثِ التي تدور في مجالس الناس، للبثِّ العرضي الذي قد يؤثر أكثر من تأثير أساليب البيان الأخرى، إذ يتسلَّلُ إلى داخل نفوس بعض الناس دون أن يصادفَ أيَّ عَقَبَةٍ صَادَةٍ.

والأفكار الإسلامية هي أثرى الأفكار التي يُمكنُ أن تُنتهزَ المناسباتُ في الأحاديثِ، لبثِّها بثاً عَرَضِيًّا.

### استغلال المفسدين سبيل البث العرضي

وقد عرف المفسدون في الأرض، ودعاة الشر والضلال، ما للبث العرضي من تأثير في نفوس كثير من الناس، فجعلوه أحد سبلهم الإفسادية المضللة الكبرى، ويستغل أذكياءهم أضعف المناسبات للبث العرضي دون أن يُشعروا المخاطبين بأن لهم أهدافاً حاضرة في تصوراتهم، وهم يترصدون لها المناسبات الملائمة لانتهازها.

أمثلة:

● كأن يكون المجلس مندمجاً في توجيه اللوم الشديد لبعض من يُطلق عليهم اسم «رجال دين» في سلوكه الشخصي، أو طريقته المنقرّة، أو مظهره الذي تنقصه الأناقة المحبّبة، أو في استغلال أرباب السياسة أو أصحاب الأموال له.

فيستغلّ بعضُ الجلساء الأخبث هذه الحالة، فيُطلق مثل عبارة: «هكذا رجال الدين» أو عبارة: «طبيعة المفاهيم الدينية تكوين أشخاص من هذا القبيل» أو نحوهما، ثم يقفز بسرعة عن مناقشة هذه العارضة، مع حرصه على أن يستمرّ الجلساء في متابعة الكلام حول موضوعهم السابق.

وكم يكون لأمثال هذه الكلمات من تأثير في بعض النفوس.

● وكأن يستغلّ المدرّس العلماني أو الملحد البث العرضي، إذ ينتهز له أثناء الدرس مناسبة تمرّ عارضة، وربما اصطنع هو المناسبة اصطناعاً ليُنْتَهِزَها، فيلقي عبارة فيها تمجيد دارون وآرائه وتأييد فكرة التطور الذاتي، أو عبارة فيها تأييد آراء فرويد في الكبت الجنسي وضرورة نشر فكرته الإباحية، أو عبارة فيها آراء دوركايم في علم الاجتماع.

● وكان يتحدث الأستاذ الصليبي بين تلاميذه المسلمين، عن صفات قساوسة الكنيسة، وراهبان الأديرة وراهباتها، ويشنع عليهم بفحشهم وسلبهم للأموال، ثم يقول: هكذا كلُّ رجالِ الأديان يتاجرون بالدين لتحقيق مآربهم الخاصة.

ويأخذُ أبناء المسلمين هذه العبارة ونحوها بسذاجة فيعمّومونها على علماء المسلمين، ويكرهُون الدِّينَ وكلَّ الدعاة له، والناصحين المرشدين، والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

مع أن هذا الأستاذ الصليبي متعصّبٌ لِصَلِيبِيَّتِهِ، ويحترم ويعظّم القساوسة، والرهبان، وكلّ رجال الكنيسة النصرانية، ولكنه يُغري بعلماء المسلمين بسبيلُ البَثِّ العَرَضِيِّ من سُبُل التوجيه غير المباشر.

\* \* \*

## الفصل الثاني

### العقبات الصّادات للتوجيه وأساليب معالجتها

وفيه مقدمة وخمس عشرة مقولة منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

#### القسم الأول

عقباتٌ تكون أسبابها من حملة الرسالة وفيه ستُّ عقبات

المقولة الأولى: ١ - عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل  
الرسالة.

المقولة الثانية: ٢ - عقبة كبر حامل الرسالة وعُجبه بنفسه.

المقولة الثالثة: ٣ - عقبة القبائح المنفرة للحواس.

المقولة الرابعة: ٤ - عقبة سوء خلق حامل الرسالة.

المقولة الخامسة: ٥ - عقبة كون حامل الرسالة غير موثوقٍ به ولا  
محترمٍ من قِبَلِ مَنْ يُؤَدِّي بينهم رسالته.

المقولة السادسة: ٦ - عقبة كون حامل الرسالة مكروهاً لشخصه أو لمن  
يتمى إليهم.



## القسم الثاني

- عقباتٌ تكونُ أسبابها ممّن تُوجَّهُ لهم الرسالة، وفيه ست عقبات  
المقولة السابعة: ١ - عقبة كِبْرٍ من تُوجَّهُ له الرسالة، وعُجْبِهِ بنفسه .
- المقولة الثامنة: ٢ - عقبة شعور من تُوجَّهُ له الرسالة بالحرمان من حرّية  
التفكير أو حرّية العمل .
- المقولة التاسعة: ٣ - عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات  
والعادات .
- المقولة العاشرة: ٤ - عقبة التقليد الأعمى .
- المقولة الحادية عشرة: ٥ - عقبة الحسد .
- المقولة الثانية عشرة: ٦ - عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة  
الدنيا .

## القسم الثالث

- عقباتٌ تكونُ أسبابها في الوسط بين مُوجَّه الرسالة  
وبين من تُوجَّه له، وفيه ثلاث عقبات
- المقولة الثالثة عشرة: ١ - عقبة الوسواس والتسويات الشيطانية .
- المقولة الرابعة عشرة: ٢ - عقبة أعمال المضلّين وجنود الغزو الفكري  
المفسدين .
- المقولة الخامسة عشرة: ٣ - عقبة عدم توافر وسائل الاتّصال الإعلامي  
المؤثر .

## نظرة عامة

تَقُومُ دُونَ تَقَبُّلِ مَا يُوجَّهُهُ حَمَلَةُ رِسَالَةِ الْهِدَايَةِ، أَوْ رِسَالَةِ الْحِمَايَةِ وَالْإِصْلَاحِ، عَقَبَاتٌ صَادَاتٌ، تَفُفُّ دُونَ مَرَاكِزِ الْاِسْتِجَابَةِ لِدَى الْمَقْصُودِينَ بِالتَّوْجِيهِ، فَتَكُونُ بِمِثَابَةِ حَوَاجِزَ تَجْعَلُهُمْ يَرْفُضُونَ أَوْ لَا يَسْتَقْبِلُونَ الْمَبَادِيءَ الَّتِي يُطَلَّبُ مِنْهُمْ فَهَمُّهَا وَاعْتِقَادُهَا، وَالْفَضَائِلَ السَّلْوَكِيَّةَ النَّفْسِيَّةَ وَالْجَسَدِيَّةَ الَّتِي يُطَلَّبُ مِنْهُمْ الْقِيَامَ بِهَا فِي حَيَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةَ.

وَبِالتَّأْمُلِ التَّحْلِيلِيَّ يَمَكُنُ اِكْتِشَافَ أَنَّ الْعَقَبَاتِ الصَّادَاتِ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ

أَقْسَامٍ:

القسم الأول: عَقَبَاتٌ تَكُونُ أَسْبَابُهَا مِنْ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ، وَيُظْهِرُ لَنَا مِنْهَا

بِوَضُوحٍ سِتَّ عَقَبَاتٍ:

العقبة الأولى: المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة.

العقبة الثانية: كِبْرُ حَامِلِ الرِّسَالَةِ وَعُجْبُهُ بِنَفْسِهِ.

العقبة الثالثة: مَا فِي حَامِلِ الرِّسَالَةِ مِنْ قِبَاحٍ مَنْقَرَةٍ لِلْحَوَاسِّ.

العقبة الرابعة: سُوءُ خَلْقِ حَامِلِ الرِّسَالَةِ، كَالشَّحِّ، وَسُرْعَةُ الْغَضَبِ،

وَالْفِظَازَةِ، وَغِلْظُ الْقَلْبِ، وَالْأَنَانِيَّةُ الْمَفْرَطَةُ، وَالْقَسْوَةُ، وَالْعِنْفُ، وَحُبُّ

التسلُّطِ.

العقبة الخامسة: كون حامل الرسالة غير موثوقٍ به، ولا محترمٍ من قِبَلِ من يُؤدِّي رسالته بينهم.

العقبة السادسة: كون حامل الرسالة مكروهاً من قِبَلِ من يُؤدِّي رسالته بينهم، لشخصه، أو أسرته، أو قبيلته، أو انتمائه الحزبي، أو غير ذلك.

\* \* \*

القسم الثاني: عقباتُ تكون أسبابها مَمَّنْ تُوجَّه لهم الرسالة، ويظهر لنا منها بوضوحٍ ست عقبات:

العقبة الأولى: عقبة كَبِيرٍ من توجَّه له الرسالة وعجبه بنفسه.

العقبة الثانية: عقبة شعورٍ من توجَّه له الرسالة بالحرمان من حرّية التفكير، أو حرّية العمل.

العقبة الثالثة: عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات.

العقبة الرابعة: عقبة التقليد الأعمى.

العقبة الخامسة: عقبة الحسد.

العقبة السادسة: عقبة الأهواء والشهوات من مَتَاعِ الحياة الدنيا.

\* \* \*

القسم الثالث: عقباتُ تكون أسبابها في الوسط بَيْنَ موجَّه الرسالة ومَنْ تُوجَّه له، ويظهر لنا منها بوضوحٍ ثلاث عقبات:

العقبة الأولى: الوسواس والتسويات الشيطانية.

العقبة الثانية: أعمال المصلين وجنود الغزو الفكري المفسدين.

العقبة الثالثة: عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر.

وفي المقولات التالية بعض شرح لعقبات هذه الأقسام الثلاثة:

شرح عقبات القسم الأول  
العقبات التي تكون أسبابها من حملة الرسالة  
وهي ست عقبات

المقولة الأولى  
من العقبات الصادات

- ١ -

عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة

من العقبات الصادة للتوجيه الذي يقوم به حامل الرسالة، أن يكون ذا مصلحة شخصية دنيوية يُريدُ تحقيقها لدى من يؤدي رسالته بينهم، أو يكونون هم وسيلةً لتحقيقها عند غيرهم من الناس .

فاتهام النَّاسِ حاملَ الرسالةِ بالمصلحةِ الشخصيةِ الدنيويةِ، من أدائه رسالته، إذا كان لهذا الاتهام أماراتٌ ودلائلٌ تؤكد صحته، يولد في نفوسهم غالباً عقبةً من رُدود أفعالها، رفضُ الاستجابة لدعوته، والإعراضُ عن قبول نصائحه وإرشاداته، دون أن يَزنوا ما يدعوهم إليه أو ينصحهم به، ويرشدهم إليه، بالميزان العقلي المنطقي والعلمي، ودون أن يفكروا في صحّة وسلامة الأعمال التي يدعوهم إلى القيام بها، أو فسادها، ودون أن يبحثوا عمّا تجلبه من خير أو شرّ، ونفع أو ضرر .

وهذه العقبة تزول حينما يثقون بأن حامل الرسالة مُخْلِصٌ في دعوته، ونصحه وإرشاده، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وأنه ليس ذا غرض شخصيٍّ دنيويٍّ من أجله يحاول إقناعهم بصحة ما يدعوهم إليه، أو ينصحهم به، ويرشدهم إليه، إلا ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ورجاء ثوابه، والحرص عليهم بدافع الأخوة والرحمة، أو بدافع الغيرة على المصلحة العامة، وسعادة الأمة التي هو منها.

ولا تُوجَد هذه العقبة أصلاً حينما تتسَلَّل أفكار رسالته تسَلُّلاً يتوهَّم معه مُتَلَقِّياً أنه هو مبتكرها، وأنه هو الذي اتجهت إرادته للقيام بالعمل الذي ينصح به حامل الرسالة، ولم يُمَلِّه عليه أحدٌ.

ولا تُوجَد هذه العقبة أيضاً حينما ترتبط الأفكار أو الأعمال بشهوة من شهوات النفس، أو هوىٍّ من أهوائها، أو مصلحةٍ عاجلةٍ قريبةٍ واضحةٍ من مصالحها، والسببُ في هذا أن حلاوة الاستمتاع بالشهوة، أو حلاوة إرضاء الهوى، أو الطمع بالحصول على المصلحة أو المنفعة العاجلة، من شأنها أن تُحَدِّر في النفس مراكز الحَدَرِ التي توجَّه شُعيرات الاتِّهام بإحساس مرهف، منذ تتوجَّه نحوها واردات خارجية، ويكون ذلك قبل أن تتحرَّك أو تتوجَّه أجهزةُ البحث العلميِّ داخل الإنسان، بغية التَحَرِّي عن الحقيقة، وقياس الأمر الوارد بمقاييس المنطق السليم، ومخترنات المعرفة السابقة.

ولِدُعَاة الضلال والشرِّ والفساد والإفساد في الأرض حِيَلٌ كثيرةٌ جدًّا، يُخْفُونَ بها مصالحهم الشخصية، حتَّى لا يصطدموا بهذه العقبة، ومن أهم هذه الحيل:

استهواء النَّاس عن طريق غرائزهم، وأهوائهم، وشهواتهم، ورغباتهم، وما يروُّن فيه مصالحهم العاجلة من زينة الحياة الدنيا.

موقف التربية الإسلامية:

هذه العقبة قد ذللتها ووطأتها جميع الرسالات الربانية للناس، بتجريد الرُّسُل من المصالح الشخصية التي ترتبط بالذين يدعونهم إلى الله .

وهذا يدُلُّ على أنَّ حملة رسالاتهم من بعدهم مكلفون أن يتجرّدوا كذلك من المصالح الشخصية الدنيوية التي ترتبط بالذين يؤدّون رسالاتهم بينهم .

فدعوة الرُّسُل دعوة إلى الله لا إلى أنفسهم، وهم لا يسألون الناس أجراً على ما يقومون به من أعمال لخير الناس، وما يبذلونه من تضحياتٍ لأممهم، وللَّذِينَ يتبعونهم مؤمنين بهم، وما يقدمونه لهم من هداية ونُصْحٍ، وأرشادٍ، وتربيةٍ، وحرّصٍ على نجاتهم، وغيره عليهم .

إنما الباعث لهم ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ، وأرادة الخير للناس، بعاطفة الرحمة بهم، والشفقة عليهم، وهم يطلبون ثوابهم من الله الذي أرسلهم .

\* \* \*

المقولة الثانية  
من العقبات الصادات

- ٢ -

عقبة كِبْرٍ حاملِ الرسالةِ وعُجْبِهِ بنفسه

- ١ -

الكبر والمعجب بالنفس من أقبح الصفات المنفرة

من أقبح الصفات المنفرة التي تجعلُ الناس يُعرضون عن تقبُّلِ دَعْوَةِ الداعي إلى سبيلِ ربِّه، أو تقبُّلِ نُصْحِ الناصح، وإرشادِ المرشد، وتعليمِ المعلم، أو أمرِهِ ونهيهِ، استكباره، وعُجْبِهِ بنفسه، وتعالیه على من يُؤدِّي بينهم رسالته.

إن استكباره وعُجْبِهِ بنفسه وتعالیه على الناس يكشفُ عُيُوبَهُ لأعينهم الفاحصة المتتبعَة، فيستسخفونهُ ويستخفونهُ ويوجهون له نظراتِ ازدراءٍ واحتقارٍ، عقوبةً له على تعالیه واستكباره وعُجْبِهِ بنفسه، ويرؤنه مغروراً يتعالى بنفسه وهو وضيع، ويتعاطم وهو حقير.

فيقع في رزطةِ التناقضِ بينَ ما يُريده لنفسه من استعلاء على الناس، وما يَحْمِلُونَهُ له من احتقارِ وازدراء، فلا يَأْلِفُهُمْ ولا يَأْلَفُونَهُ.

إنَّ الناس بحسب ما فُطِرُوا عليه من صفات نفسيّة، يكرهون المستكبرين المعجبين بأنفسهم، الذين يتعالون عليهم، ويحبون ويقدرّون ويُعظّمون المتواضعين، المُوطّئي الأكناف، الذين يألّفون ويؤلّفون.

أما المتواضعُ فَيَسْتُرُ له تواضعه عيوبه، وقلّما يرى الناس منه إلّا مَحاسنه، لذلك فَهَمُّ يُجَلِّونه ويحبّونه ويألّفونه، وهو يألّفهم إذ يَجِدُ لديهم تودُّداً له، وتقديراً لِحُلُقِهِ، وثناءً عليه، ورغبةً في مجالسته ومؤانسته والتعامل معه.

- ٢ -

### واجب حَمَلَةِ الرّسالة

فَعَلَى حَمَلَةِ رِسالة الدَّعوة إلى الله، أو رسالة النُّصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يتحلَّوْا بِخُلُقِ التواضع، ولين الجانب، وخفّض الجناح لأتباعهم الذين يستمعون لتوجيهاتهم، ونصائحهم وإرشاداتهم، وأن يكونوا بتواضعهم قدوة حسنة للناس.

فإذا فعلوا ذلك كانوا أكثر قدرةً على امتلاك نفوس الناس وقلوبهم، وأكثرَ جاذبيّةً لحضور مجالسهم والأنس بها، والاستماع إلى دَعْوَتِهِمْ، ونصائحهم وإرشاداتهم، والاستجابة لأوامرهم لهم بالمعروف ونواهيهم لهم عن المنكر.

وليحدّروا أشدَّ الحدّر من أن تنزِعَ فيهم نفوسهم إلى الاستكبار والتعالي على الناس، بفضّلِ علم، أو عقل وفطنة، أو فضلِ تقوى أو برٍّ أو إْحْسَانٍ وأعمال صالحاتٍ، أو التعالي بما يتفاخِرُ به الناسُ عادةً من مالٍ أو جاهٍ أو أُسْرَةٍ أو سُلْطانٍ أو غير ذلك.

فهذا الاستكبار والتعالي هو من نَزَعِ الشيطان الَّذي يُفْسِدُ نَفوسَهُمْ وقلوبَهُمْ، ويُفْسِدُوا أَعْمالَهُمْ وأنشطتهم، إذ يقيمُ بينهم وبين الناس عقبه صاَدَةً



كريمة، ويجعل ما يحملون للناس من رسالة هداية وإصلاح وتقويم عديم الأثر.

وعلى الدعاة أن يجعلوا رسول الله ﷺ أسوتهم الحسنة في تواضعه ولين جانبه ورفقه وخفض جناحه للمؤمنين، فقد كان صلوات الله عليه عظيم التواضع، لَيِّنَ الجانب، خافض الجناح لمن اتبعه من المؤمنين، لا يتعالى على مسكين ولا ضعيف مستضعف بين الناس، ولا يتعاطم في نفسه على عباد الله، مع ما له ﷺ من شخصيَّة مهيبة، فَمَنْ رَأَهُ بِدِيهَةً هَابَةً، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً وَعَاشِرَهُ أَحَبَّهُ، ولهذا كَانَ ذَا قُوَّةٍ تَأْثِيرِيَّةٍ فِي النَّاسِ مُذْهِبَةٍ، إِذْ جَمَعَ فِي ذَاتِهِ صِفَاتِ الْعَظِيمِ حَقًّا، عَلَى تَوَاضُعِ جَمٍّ، وَخَفْضِ جَنَاحٍ وَلِينِ وَرِفْقٍ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ، فَأَحَبَّهُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَأَحَبَّ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنْهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

فمما ورد في شمائل الرسول ﷺ ما يلي:

١ - روى الطبراني عن ابن عباس بإسناد صحيح قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ عَلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ».

كَانَ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ: أَي: كَانَ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ دُونَ حَائِلٍ مِنْ فَرَاشٍ أَوْ بَسَاطٍ أَوْ نَحْوِهِمَا.

وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ: أَي: مِنْ غَيْرِ مَائِدَةٍ وَلَا خِوَانٍ. وَهَذَا مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ.

وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ: أَي: يَجْعَلُ رَجْلَيْهِ بَيْنَ قَوَائِمِهَا لِيَحْلِبَهَا، وَهَذَا مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ، وَمِشَارِكَتِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا عَامَّةُ النَّاسِ.

وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ عَلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ: أَي: فَلَا يَتَعَالَى وَلَا يَسْتَكْبِرُ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ.

٢ - وروى الإمام أحمد عن عائشة بإسناد حسن قال:

«كان رسول الله ﷺ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيُخَصِّفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرَّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ».

وهذا من تواضعه ﷺ.

٣ - وروى الإمام أحمد عن أنس بإسناد صحيح قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْبَحُ أُضْحِيَّتَهُ بِيَدِهِ».

٤ - وروى الحاكم عن أنس بإسناد صحيح:

«كان رسول الله ﷺ يُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَضَعُ طَعَامَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ».

٥ - وروى النسائي عن أنس بإسناد حسن قال:

«كان رسول الله ﷺ يَزُورُ الْأَنْصَارَ، وَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ، وَيَمْسَحُ رُؤُوسَهُمْ».

٦ - وروى النسائي والحاكم عن ابن أبي أوفى، وروى الحاكم عن

أبي سعيد بإسناد صحيح:

«أن رسول الله ﷺ كان يُكثِرُ الذِّكْرَ، وَيُقَلِّ اللِّغْوَ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيَقْصُرُ الْخُطْبَةَ، وَكَانَ لَا يَأْتِفُ وَلَا يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَبْدِ حَتَّى يَقْضِيَ لَهُ حَاجَتَهُ».

فهذه شواهد من تواضعه صلوات الله عليه.

- ٣ -

الترغيب في التواضع والتحذير من الكبر

لدى الباحثين في التعليمات الإسلامية أدلة وشواهد كثيرة توجب على حملة الرسالة وسائر المسلمين أن يتحلوا بفضيلة التواضع، والتخلي عن

الكِبْرِ والعُجْبِ في النفس، وكلُّ مظاهِرهما في السُّلُوكِ، ومشاعرهما في النفس، ومنها ما يلي:

١ - روى مسلم والإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة:  
«... وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

أي: وما تواضع أحد لأجل ابتغاء مرضاة الله إلا رفعه الله.  
وعند مسلم وأحمد عن أبي هريرة أيضاً:  
«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ».

٢ - وروى الإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، عن عبد الله بن عمر، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«مَنْ تَعَطَّمَ فِي نَفْسِهِ، وَاخْتَالَ فِي مَشِيئَتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ».

٣ - وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:  
«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ».

فقال رجل: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنًا.

فقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ».

بطر الحق: تجاوز حدود الحق، والخروج عن منهج الاعتدال، ولهُ مظاهر كثيرة في الفكر، والقول، والعمل، ومنه التبخُّرُ والخيلاء، وشدة الفرح والإفراط فيه، والاستكبار عن قبول الحق، والاستهانة بالنعمة والطفيان فيها.

وغمط الناس: أي: احتقارهم، وازدراؤهم، واستصغارهم، وعدم مقابلة الإحسان بالشكر.

٤ - وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عمَر رضي الله عنه قال - وهو على المنبر -: يا أيُّها الناس تواضعوا، فإنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ صَغِيرٌ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ، فَهُوَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ، وَفِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، حَتَّى لَّهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَلْبٍ أَوْ خِنْزِيرٍ».

٥ - وروى الترمذي بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا: الشَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ».

الْمُتَشَدِّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِمِلءِ أَفْوَاهِهِمْ، وَيَتَصَعَّوْنَ الْقَوْلَ تَصَعُّعًا، مَعَ التَّعَاضُطِ بِهِ وَالتَّعَالِي عَلَى النَّاسِ، فَيَرْجِعُ إِلَى أَنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْكِبَرِ فِي النَّفْسِ.

٥ - وروى مُسْلِمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ».

٦ - وروى مُسْلِمٌ عن عياضٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْيَغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

٧ - وروى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ» .

الْعُتْلُ: هو الجافي شديد الخصومة بالباطل .

الْجَوَاطِ: الْجَمُوعُ الْمُنَوَّعُ، أَوْ هُوَ الْمُخْتَالُ الْمْتَكَبِرُ، أَوْ هُوَ الْفَاجِرُ .

٨ - وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ» .

أي: لا يزال يذهب بنفسه مستكبراً مُتْتَفِخاً متعالياً على خلق الله، متعظماً في نفسه، حَتَّى يَصِلَ بِهِ اسْتِكْبَارُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَبَّارِينَ فِي الْأَرْضِ، فَيَقْصِمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

٩ - وروى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، عن النبي ﷺ قال:

«يُخْشِرُ الْمُتَكَبِّرُونَ أَمْثَالَ الذَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى (بَوْلَس) تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَارِ، يُسَقُونَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ» .

الْأَنْبِيَارُ: جمع النار، ونازُ الْأَنْبِيَارِ: أشدُّ لهبها .

الْخَبَالُ: الْجُنُونُ وَفَسَادُ الْعَقْلِ .

\* \* \*

المقولة الثالثة  
من العقبات الصادات

- ٣ -

عقبة ما في حامل الرسالة من  
قبائح منفرة للحواس

من طبيعة الناس أن يشمئزوا ويئفروا من القبائح التي تستنكرها  
حواسهم.

● فالمنظر القبيح في الأشياء والأجسام والياب، والأوساخ  
والقذارات، والأدناس والأرجاس، يكره الناس بطبيعتهم النظر إليها، فهم إذا  
مرؤوا بها أعرضوا عنها، وإذا علموا بوجودها في مكان ما ابتعدوا عنه  
مُدبرين، وإذا دعتهم الحاجة لمشاهدتها نظروا إليها بقرَفٍ واشمئزازٍ وتَقزُّزٍ،  
وقصَّوا حاجتهم وأسرعوا مبتعدين نافرين كارهين.

● والرائحة الكريهة إذا انتشرت في مكان ما ابتعدوا عنه مُسرِّعين،  
يسُدُّون أنوفهم، أو يسترونها بما يخفف من نفاذها من أقمشة ومناديل، حتى  
يصلوا إلى مكانٍ لا تصل إليه الرائحة الكريهة المنتشرة.

● والصوت القبيح المنكر إذا انطلق في مكان ما أزعج من هُم فيه  
يسمعون، فسدوا آذانهم، وتدمروا وأعلنوا انزعاجهم، وطالبوا بإسكاته،

وربما ابتعدوا عن المكان كله وهم كارهون منزعجون تتقرَّرُ أسمعهم، حتَّى يئأوا عن المجال الذي يصل إلى آذانهم من الصوت المنكر الكريه شيءٌ.

● وذو الطعم الكريه والمذاق المرّ تنفِرُ أذواق الناس منه، ولا يرغبون في وضع شيء منه في أفواههم.

● وذو الملمس المؤذي للامسه، يبتعد الناس عن ملامسته، ويكرهون الاقتراب منه، خشية أن يلمسوه بشيء من أجسامهم.

المطلوب من حامل الرسالة:

ولمّا كان المطلوب من حامل الرسالة إن يتخذ من الوسائل المباحة ما يجذب به حواسّ الناس، حتّى يأنسوا بمجالسته، ويستمعوا إلى دعوته، أو نصائحه، ووصاياه وأوامره ونواهيه، وحتّى لا يشمئزوا منه، ولا ينفروا من مجالسته ومخاطبته لهم، فإنّ عليه أن يعتني بجمال مظهره وحسن سمته دون إسرافٍ ولا خيلاء، وأن يعتني بنظافة ثيابه، وطيب رائحته، ورقة صوته، ولطف حديثه، وأن لا يحسّ مجالسته بشيء فيه تتقرَّرُ منه نفسه، وتكرهه حواسه، من منظور، أو مسموع، أو مشموم، أو ملموس.

وعليه أن يختار من الأمكنة والمجالس ما ترتاح فيه الأجسام، وتأنس إليه النفوس، وتحبّ طول الإقامة فيه.

والمطلوب في مكان المجلس أن يكون متجدد الهواء النقي، ملائماً في درجة حرارته لما تستريح له طبائع الأجسام، وأن لا تكون فيه رائحة مستنكرة، والأفضل أن يكون عطرًا بعطر يلائم مختلف الطبائع، كنسمات أزهار الربيع، فبعض العطور تصدع بقوتها بعض الناس فينفرون منها.

وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في حسن سمته، ودوام نظافته، وكان كثير العناية بالطيب، كثير الوضوء والاعتسال، لطيف المعاشرة، حلّو الحديث، مؤانساً لمن يجلس إليه، وكان ذا جاذبيّة عجيبة للقلوب والنفوس

والحواس، وكان ذا رَاحَتَيْنِ أَلْيَنَ من الحرير، وكان صَوْتُهُ المَحَبَّبُ يَنْفُذُ سَرِيعاً إلى أعماق القلوب، وكان من أَضْحَكِ النَّاسِ وَأَطْيَبِهِمْ نَفْساً، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَا يَضْحَكُ إِلَّا تَبَسُّمًا، وَكَانَ لَا يَرُدُّ الطَّيِّبَ إِذَا أُهْدِيَ إِلَيْهِ.

بدعة التَّبَدُّلِ<sup>(١)</sup> والرِّثَاةِ:

وَمَنْ جَهَلَ بَعْضَ حَمَلَةِ رِسَالَةِ التُّضْحِ وَالْإِرْشَادِ أَنْ يَسْتَهِينُوا بِوَأَجِبِ الْعِنَايَةِ بِلِبَاسِهِمْ وَنِظَافَتِهِمْ وَحُسْنِ سَمْتِهِمْ، مَعَ اسْتَطَاعَتِهِمُ الْمَالِيَةَ وَغَيْرَهَا، بَيِّدَ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ مَظْهَرُهُمْ حَسَنًا غَيْرَ مُسْتَنَكِرٍ وَلَا مَمْجُوجٍ وَلَا مُنْفَرٍ لِلنَّاسِ، إِنَّمَا يَحْسَبُونَ ذَلِكَ مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الْبَدَاةَ أَمْرٌ مَحْمُودٌ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهَا مِنَ الْمُنْفَرَاتِ الَّتِي تُبْعِدُ النَّاسَ عَنْهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ يَشْمَتُونَ مِنْهُمْ.

إِنَّ التَّقَشُّفَ يَكُونُ فِي التَّخْفِيفِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِلَذَّاتِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْ رَغَبَاتِ جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَكُنْزِهَا، وَيَكُونُ بِالْبَذْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، لَا بِالْبَدَاةِ<sup>(٢)</sup> وَرِثَاةِ الثِّيَابِ وَالتَّبَدُّلِ، وَبِعَدَمِ الْعِنَايَةِ بِالنِّظَافَةِ وَالْأَنَاقَةِ وَوَسَائِلِ تَأْلِيفِ قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ الْجَمَالِيَّاتِ.

\* \* \*

(١) التَّبَدُّلُ: تَرْكُ التَّزْيِينِ وَالتَّجَمُّلِ، وَلُبْسُ الْخَلْقِ مِنَ الثِّيَابِ.  
(٢) الْبَدَاةُ: سُوءُ الْحَالِ، وَلُبْسُ الثِّيَابِ الْبَالِيَةِ الْقَيْحَةِ الْمُنْظَرِ.



المقولة الرابعة  
من العقبات الصادات

٤ - عقبة سوء خلق حامل الرسالة

إنَّ سوءَ خُلُقِ الإنسانِ أيِّ إنسانٍ يجعلُهُ مكروهاً، معزولاً عن الناسِ، لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ.

فسوءُ الخُلُقِ من الصِّفاتِ الَّتِي تتنافى تنافياً كلياً مع المطلوب من حَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى سبيل الله، أو حملة رسالة النصح والإرشاد والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فمن لا قدرة له على مخالفةِ الناسِ بخُلُقٍ حسنٍ فلا ينبغي له أن يؤدي بينهم رسالته، وهو مخالطٌ لهم، ومُضْطَرٌّ لمعاشرتهم، لأنَّ سوءَ خُلُقِهِ يُفْسِدُ أثرَ دعوته، أو نُصْحِهِ وإرشاده، ويجعله يُعْطِي أثراً مُضاداً لما يدعو إليه أو ينصَحُ به أو يرشِدُ إليه. وإذا كان لديه قُدْرَةٌ بيانيَّةٌ صالحةٌ مؤثرة، يستطيع أن يؤدي بها بعضَ وظائفِ رسالته أداءً حسناً، فليكن ذلك دون أن يعاشر الناسَ ويخالطَهُمْ، كأن يخاطب الناسَ من وراء المذياع في الجهاز الناقل للصوت، أو في الجهاز الناقل للصوت والصورة، أو في جلسةٍ مُحدَّدةٍ يُؤْتَى به إليها، ثُمَّ يُصَرَّفُ عَنْهَا إلى عَزَلَتِهِ عن الناسِ، ولا يُتْرَكُ بينَ الناسِ مُدَّةً طويلةً، حتَّى لا ينكشفَ لهم سوءُ خُلُقِهِ، ولا تبدو لهم تصرفاته المنقرات الَّتِي تُعْطِي آثاراً معاكسةً لبياناته القولية.

ولا مجال هنا للتعريف بجملة مساوية الأخلاق التي يجب على حامل الرسالة التَّخَلِّي عنها والتَّبَرُّؤ من قبائحها، لأنَّ موضوع الأخلاق قد أفردت له مصنفاتٌ كبيرة، فينبغي الرجوعُ إليها<sup>(١)</sup>.

وقد سبق في الباب الثاني «الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حملةُ رسالة الهداية أو رسالة الإصلاح» من هذا الكتاب بيانٌ مُفصَّلٌ للفضائل الخلقية التي يجب على حامل الرسالة أن يتحلَّى بها، ومنها تُفهمُ الأخلاق السيئة المنافية لها، والتي يجب على حامل الرسالة أن يتخلَّى عنها ويتبرَّأ منها.

\* \* \*

---

(١) يخسُنُ الرجوعُ إلى كتاب: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف وهو يقع في مجلدين كبيرين.

المقالة الخامسة  
من العقبات الصادات

٥ - عَقَبَةُ كَوْنِ حَامِلِ الرِّسَالَةِ غَيْرِ مَوْثُوقٍ بِهِ  
وغيرَ مُحْتَرَمٍ مِنْ قِبَلِ مَنْ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسالته

- ١ -

شرح العقبة

ومن العقبات الصادات اللواتي تجعلن نفوس الناس ترفض ما يريد حامل الرسالة توجيهه لهم، أن يكون غير مَوْثُوقٍ بِهِ لديهم، أو غير مُحْتَرَمٍ عندهم. وتشتد هذه العقبة، وتعظم كلما ازداد احتقاره وازدراؤه في نفوسهم، وكلما انهارت ثقتهم به، في علمه، أو فكره، أو سلوكه، أو إخلاصه وصدقته في أداء رسالته.

فعلی القادة المخططين والمشرفين على إدارة أعمال الدعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، أو أعمال النصح والإرشاد والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يختاروا المؤهلين لحمل الرسالة، الذين يمكن أن يثق بهم من يكلفون أداء رسالتهم بينهم، وأن يحترموهم.

وعلى من يريد أن يتصدّر لحمل الرسالة، أن يعد نفسه إعداداً حسناً، حتى يكتسب احترام وثقة الذين سيؤدّي رسالته بينهم.

الصفات التي تكتسب بها ثقة الناس واحترامهم

ومن أهمّ الصفات التي تُكْتَسَبُ بها ثقةُ الناس واحترامهم لحامل الرسالة ما يلي:

الصفة الأولى: التمكنُ العِلْمِيّ من القضايا التي يدعو إليها، أو ينصح بها، أو يرشد إليها، أو يأمر بها أو ينهى عنها.

والخبرةُ الكافية القائمة على تجارب طويلة في استخدام الوسائل النافعة المؤثرة في الآخرين، دعوةً ونُصْحاً وإرشاداً وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وتعليماً.

الصفة الثانية: التَّحَلِّي بِخُلُقِ الصِّدْقِ والأمانة والإخلاص في كلِّ تعليم يُعَلِّمه أو نُصِّح ينصح به، أو إرشادٍ يُرشد به، أو عَمَلٍ يُوجِّه له، فإذا سُئِلَ عَمَّا ليس لديه علمٌ به أو عَمَّا نسيه، قال: لا أعلم، أو نَسِيتُ حُكْمَ الْمَسْأَلَةِ.

الصفة الثالثة: القدرات الفكرية المناسبة التي تَدُلُّ على أهليته للقيام برسالته قياماً حسناً.

الصفة الرابعة: الصَّبْرُ في معالجة من يؤدّي رسالته بينهم، حتّى يَكْتَسِبَ ثِقَتَهُمْ واحترامهم.

إنَّ الثقة والاحترام لا يُكْتَسَبَانِ إِلَّا بَعْدَ امتحانٍ طويل، وتجاربٍ متكرّرة في ظروفٍ مختلفات.

الصفة الخامسة: التزمّ حَامِلِ الرسالة بما يدعو إليه، أو ينصح به، أو يُرشدُ إليه.

حكمةُ الله في اصطفاء رُسله:

ومن حكمة الله عزّ وجلّ لتحاشي هذه العقبة، أنّه اصطَفَى رُسلَهُ من

ذوي الثقة والاحترام في أقوامهم، خُلُقاً، وفِطَانَةً، ونَسَباً.

فقد كان الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام أكرم أقوامهم نَسَباً، وأحْسَنَهُمْ خُلُقاً، وأكثرهم فِطَانَةً وَعَقْلاً، مع ما يَتَحَلَّوْنَ به من فصاحة وحُسنِ منطِقٍ، وقُدْرَاتٍ مَحَاجَّةٍ وِيبَانٍ، وَمَعَ ما هم فيه من جاذبيَّةٍ شَخْصِيَّةٍ مؤثِّرة (جمال وجه - حُسنِ قوام - حُلُوْ ابتسامة - نَظْرَاتٌ مؤثِّرة نافذة إلى القلوب - كَرَمٌ وسماحة وصفح - رَحْمَةٌ ومعونة - عِلْمٌ وحكمة - سدادُ رأيٍ - حِكْمَةٌ إداريَّةٌ مُحِبِّةٌ للجماهير - إلى غير ذلك مكارم أخلاق ومحاسن شيم).

ومما لا شكَّ فيه أن من شأن هذه الصفات أن تَفْرِضَ على الناس الاحترام والإكبارَ والثِّقَّةَ، وأن تَفْرِضَ على الأتباع الذين استجابوا الحبَّ الشديد العميق، والاستسلام الكامل.

- ٤ -

المطلوب من حامل الرسالة الذي لم يكتسب بَعْدُ الثِّقَّةَ والاحترام

فعلى حامل الرسالة الذي لم يَكْتَسِبْ بَعْدُ الثِّقَّةَ والاحترام لدى الذين يؤدِّي بينهم رسالته، أن يتخذ قبل قيامه بأداء رسالته بينهم ما يستطيع من الوسائل الناجحة المختلفة التي يكتسبُ بها احترامهم له وثقتهم به.

ولكنَّ هذا الأمر قد يتطلَّبُ منه صبراً طويلاً، وأعمالاً شاقَّةً، وحَمَلِ نَفْسِهِ على التخلُّق بفضائل الأخلاق ومحاسن الشِّيم، حتَّى ينكشف للناس بالاختبار الطويل، وبالتجارب المتكرِّرة، أنَّه أهلٌ للاحترام، وأهلٌ للثِّقَّةَ به.

فمتى ثبتَ لهم ذلك وثِقُوا به، ثمَّ يَرْتَفِعُ في نفوسهم شيئاً فشيئاً إلى منزلةٍ مَنْ يَحْتَرِمُونَهُمْ، ويَقْدَرُونَهُمْ وَيَرَوْنَ لهم مكانةً رفيعةً، في علم، أو رأي، أو نصيحة، أو غيرها من الفضائل.

وعندئذ لا يجدون أيَّ غَضَاضَةٍ في نفوسهم، إذا أمرهم أو نهاهم، أو  
كلفهم عملاً من الأعمال ولو كان شاقاً، أن يستجيبوا له، ويؤدّوا ما كلفهم  
إياه، مع تقديرٍ وحبٍّ وحرصٍ على الطَّاعَةِ والاتباع والامتثال في تَأْدِيَةِ  
المطلوب على أَحْسَنِ وجه.

\* \* \*

المقولة السادسة  
من العقبات الصادات

٦ - عقبة كراهية شخص حامل الرسالة

- ١ -

شرح هذه العقبة

ومن العقبات الصادات لما يُوجَّهه حامل الرسالة، أن يكون بالنسبة إلى من يُريدُ توجية عناصر رسالته لهم مكروهاً، أو مُبغضاً، لسبب من الأسباب الشخصية أو القومية أو القبليّة، أو غير ذلك مما يُولدُ العداة بين الناس.

فالشخصُ المكروهُ المُبغضُ لا يقبلُ منه كثير ممّن يكرهونه ويُبغضونه أيّ توجية يُوجَّهه لهم، ولو كان فيه هدايتهم ونفعهم وخيرهم، لأن الكراهية تقوم في نفوسهم بمثابة العقبة الصادة التي لا تسمَحُ بمرور أيّ واردٍ من قبله.

لذلك توجب قواعد التّربية الإسلامية استخدام الوسائل الحكيمة، لتحاكي هذه العقبة أو تخطيها بما يمكن من وسائل مآذون بها شرعاً، حرصاً على إيصال مضمون الرسالة الإسلامية إلى جميع الناس، المحييين والكارهين، ورغبةً في نجاتهم من عذاب الله، وظفرهم بالسعادة الخالدة يوم الدين.

## وسائل معالجة عقبة كراهية شخص حامل الرسالة

إذا أمكن اختيار مَنْ يحمل رسالة الدعوة، أو رسالة التعليم والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الأشخاص المحبوبين أو غير المكروهين مِنْ قِبَلِ الفردِ أو الجماعة الَّذِينَ يُؤَدِّي بينهم مهمّات رسالته، فهو الأمر الحكيم الذي تقتضيه السياسة المؤهلة للنجاح.

ولكن حين تدعو الحاجة الماسّة إلى أن يكون حامل الرسالة مكروهاً من قِبَلِ الَّذِينَ يُؤَدِّي بينهم مهمّات رسالته، فعليه قبل أن يُباشِر العمل في أداء رسالته أن يمهد له بما يُزِيلُ من قلوبهم كراهيتَهُ وَبُغْضَهُ، وبما يهدمُ به عداواتهم، ويكتسبُ به صداقاتهم، ومودّاتهم، شيئاً فشيئاً، بدءاً بِبَعْضِ الأفراد، ثُمَّ توسّعاً في العلاقات الاجتماعية التّودُّدِيَّة، حتّى يكون له جمهورٌ فيهم من أهلِ وَدّه الَّذِينَ يُؤَدِّونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ، وعندئذٍ يُؤَدِّي مهمّاتِ رسالته بصفةٍ عامّة.

ومن وسائل التودّد لهدم عقبة الكراهية ما يلي:

- ١ - أنواع الإكرام والخدمات التي يقدّمها حامل الرسالة.
- ٢ - العلاقات الاجتماعية الحسنة التي من شأنها أن تملك القلوب.
- ٣ - التّلطُّفُ في المعاشرة، ولين القول، وحسن المعاملة.
- ٤ - تجاهل كراهيتهم له، والتغاضي عمّا يُوجِّهُ له من إساءات، وإشعارهم بأنّه لا يتذكّر أو لا يَعْرِفُ شيئاً عن العداوات السابقات التي كانت السببَ في كراهيتهم له.
- ٥ - الاعتذار عمّا يُوجِّهُ ضده من تُهمّ أو انتقادات كانت سبباً في عداوتهم أو كراهيتهم له، أو بيان أنّه لم يتسبّب في شيءٍ منها، وأنّه لا يحملُ



جَرِيرَةٌ غَيْرُهُ، أَوْ الْاعْتِرَافُ بِمَا هُوَ ثَابِتٌ مِنْهَا مَعَ تَوْبَتِهِ وَنَدَمِهِ، وَاسْتِعْدَادُهُ لَتَرْضِيَةِ خِصْمِهِ.

وَمِنَ الْخَيْرِ فِي كُلِّ هَذَا أَنْ يَكُونَ عَرَضًا، وَدُونَ تَنْبِيهِ وَاضِحٍ، وَمَهْمَا أَمَكْنَ التَّجَاهُلُ وَتَوَجُّهُ الْعِذَارَاتِ الضَّمْنِيَّةِ فَهُوَ أَوْلَى.

حَتَّى إِذَا شَعَرَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ بِأَنَّ الْعِدَاوَةَ قَدْ زَالَتْ أَوْ بَدَأَتْ تَتَلَاشَى، وَبِأَنَّهُ بَدَأَ يَكْتَسِبُ الثِّقَةَ بِهِ، وَأَخَذَتْ مَحَبَّتُهُ تَعَلَّقُ فِي بَعْضِ قُلُوبٍ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَ بَيْنَهُمْ رِسَالَتَهُ، عِنْدئذٍ يَقُومُ بِأَدَاءِ مَهَمَّاتِ رِسَالَتِهِ بَيْنَهُمْ، بِطَرِيقَةٍ تَدْرِيجِيَّةٍ رَفِيقَةٍ لَا عُنْفَ فِيهَا وَلَا تَسَلُّطَ، ثُمَّ يَرْتَقِي شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّمَا أَحْسَسَ بِتَمَكُّنِهِ، مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَيُوسِّعُ دَائِرَةَ نَشَاطِهِ تَوْسِيعًا تَدْرِيجِيًّا.

\* \* \*

شرح عقبات القسم الثاني  
العقبات التي تكون أسبابها ممن  
تُوَجَّهُ لَهُمُ الرِّسَالَةُ  
وهي ستُّ عقبات

المقولة السابعة  
من العقبات الصادات

- ١ -

عقبة كِبْرٍ مَنْ تُوَجَّهَ لَهُ الرِّسَالَةُ  
وَعُجْبِهِ بِنَفْسِهِ

- ١ -

مقدمة

إنَّ عقبة الكِبْرِ والعُجْبِ بالنَّفْسِ من العقبات الخبيثات الصادات، التي تجعل من قامت في نَفْسِهِ يَرْفُضُ التعلُّمَ على أيدي المعلمين، ويرفُضُ التوجيه من الموجهين، والتُّضْحِ من الناصحين، فضلاً عن رَفْضِهِ للأوامر والنواهي التي تُوَجَّهَ لَهُ مِنْ ذَوِي الأَمْرِ والنَّهْيِ، مُرَبِّين كانوا أم أصحابَ سلطان.

إنَّ موقف حامل الرسالة (المعلم - الموجه - الناصح - المرابي - الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر) قد يُوحى بالنسبة إلى من يتلقى منه بأنه موقفٌ

المتفوق الذي له فضل علم، أو خبرة، أو عقل، أو مكانة، أو تقوى، أو بر، أو إحسان، أو نحو هذه الأمور، وهذا أمرٌ يكرهه المستكبر المُعجَبُ بنفسه، ولا يهضمه.

وبسبب ذلك تتكوّن في نفسه عقبةٌ صاّدةٌ كأداء، ترفضُ كلَّ ما يُوجّهُ له من هذه الأمور، دون تفكيرٍ ولا فحصٍ ولا تبيّنٍ، ولو كان فيه نفعٌ له وخيرٌ ومصلحةٌ عاجلةٌ أو آجلةٌ.

إنَّ عقبةَ كِبْرِهِ وعُجْبِهِ بنفسه تحجُبُ عنه من الرؤية بمقدار عِظَمِهَا وضَخَامَتِهَا، وقد تنطمسُ بها بصيرتُه انطاماساً كلياً، لذلك فهو يرفضُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ، ورُبّما لو فكَّرَ لَمَّا رَفَضَ، بل تقبّل وشكر.

- ٢ -

وسائل تفادي عقبة الكبر والعجب  
بالنفس لدى من تُوجّه له الرسالة

ويمكن تفادي عقبة الكبر والعجب بالنفس لدى من تُوجّه له الرسالة، والتحايلُ عليها بالأساليب الحكيمة التالية:

- ١ - مداراة صاحبها بالتكريم.
- ٢ - التوجيه المتواري المقنّع.
- ٣ - النصيحة سراً.
- ٤ - توجيه النصّح أو التعليم أو التربية بشكلٍ عامٍّ لا يظهرُ فيه أنّ صاحب العقبة هو المقصودُ بالذات.
- ٥ - التعليم والتوجيه عن طريق البتّ العرضي الذي ليس فيه استعلاءً مباشر.

٦ - تواضعُ موجّه التّصحّح أو التّعليم أو التّكليف .

٧ - إعطاء صاحب العقبة فُرصة اكتشاف المطلوب منه بنفسه، معرفةً كان أو عملاً .

٨ - فتح باب النقاش والمجادلة مع غيره، وبحضوره، حول الموضوع المراد توجيهه له، ليشارك في الاستماع والتفكير، دون أن يشعرُ بأنّه هو المقصودُ بذلك .

٩ - تذليلُ عقبةٍ كبره وعُجبهٍ بنفسه بإرضاءٍ دافعٍ آخرٍ لديه من دوافع نفسه القويّة، كحبّه للمال، أو للطعام، أو للفخر والثناء .

١٠ - وضعه في بيئةٍ يتأثّرُ بها عن طريق المحاكاة والتقليد والغيرة، ويندمج فيها، ويشعرُ معها بالمشاركة العامة .

ولا يخفى ما للمشاركة العامة من تأثيرٍ قويٍّ في تهديم نوازع الكبرِ الفرديّ، وتخفيف نظراتِ العُجبِ بالنفس .

إنّ أعتى المُستكبرين قد يسهّلُ عليه أن يشارك الجماعة في تقديم خضوعه وولائه وطاعته لذي قوّةٍ أو سلطان، لكنّه لو كان وحده لرفض واستكبر .

١١ - ومن الوسائل تسخير مَنْ يُحطّمُ له كبره وإعجابه بنفسه، دون أن يشعرَ بمن دبر له هذا الأمر، فإذا تكسّرت عقبةُ كبره وإعجابه بنفسه هناك، هان عليه هنا أن يتلقّى التّعليم، والتوجيه، والتّصحّح والإرشاد، والأوامر والنواهي .

١٢ - وضع كتابٍ بين يديه ليقراه، دون أن يشعرَ بأن العمل مقصود، أو طرح الفكرة أو التّصحّح في خطبةٍ أو محاضرةٍ، أو درس عامّ، أو وسيلة أُخرى توصل ما يراود توجيهه له، دون أن يشعرَ بأنّه هو المقصودُ بالذات فتتفر

نَفْسُهُ، وَتَصْرِفُهُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ اسْتِكْبَاراً وَعُجْباً.

- ٣ -

### التربية على فضائل الأخلاق

مع اتخاذ الوسائل المختلفة لتفادي عقبة الكبر والعجب بالنفس، يَحْسُنُ استخدام وسائل التربية الأخلاقية القائمة على القاعدة الإيمانية، والإقناع، والترغيب والترهيب، وربط الإنسان المؤمن بحُبِّ الله ورُسُوله، وابتغاء مرضاة الله، وتهوين شأن الدنيا وما فيها، وتحطيم أوهام الكبر والعجب بالنفس، وبيان مضارهما، وتعظيم قيمة التواضع ومجدِّ مكارم الأخلاق، وبيان منافعها العاجلة والآجلة، وكشف جوانب عَجْزِ الإنسان وَجَهْلِهِ، وَأَنَّ كِبْرَهُ وَعُجْبَهُ بِنَفْسِهِ لَا يَسْتَتِدَانِ إِلَى مَا يُحَسِّنُهُمَا فِي حَقِيقَةِ صِفَاتِهِ، وَفِي ذَاتِ نَفْسِهِ.

فكم من إنسان هو يحتقره وَيَسْتَصْغِرُهُ مع أَنَّهُ أَصْحَحُ مِنْهُ رَأياً، وأكثر منه عِلْماً، وله من الصِّفَاتِ وَالْخِصَائِصِ مَا يُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَكُونَ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ.

\* \* \*

المقولة الشامنة  
من العقبات الصادات

- ٢ -

عقبة شعور مَنْ تُوَجَّهْ له الرسالة بالحرمان  
من حرية التفكير وحرية العمل

- ١ -

حرية الإرادة إحدى عناصر الفطرة الإنسانية

الإنسان مَفْطُورٌ بِطَبْعِهِ على أَنه يَمْلِكُ إرادةَ حُرَّةً، يُريدُ بها ما يختار  
لنفسه مِنْ عقيدةٍ يعتقدها، أو عَمَلٍ يَعْمَلُهُ، في سُلُوكه التَّفْسِي، أو في سُلُوكه  
الجَسَدِيّ.

فهو بمقتضى فطرته هذه يَنْفِرُ من الإكراه القَسْرِيّ، والإلزام الجَبْرِيّ،  
على أَن يَعْتَقِدَ فكرةً ما، وهو لا يُريدُ أن يعتقدها، وعلى أَن يَعْمَلَ عملاً ما،  
وهو لا يُريدُ أن يعمله.

وهو بمقتضى فطرته هذه يُحِبُّ أن يُفَكِّرَ بِحُرِّيَّةٍ، وأن يَعْمَلَ بِحُرِّيَّةٍ، دون  
إلزام ولا قَسْرٍ وهو كاره، فإذا اقْتَنَعَ بِفِكْرَةٍ ما، ورأى أَنَّ إيمانه بها يَنْفَعُهُ  
ويُحَقِّقُ لَهُ ما يَرْغَبُ فيه أو يهواه، من عاجلٍ أمره أو آجله، آمَنَ بها، ولو لم  
تَزَقْ هذه الفكرة إلى أن تكون حقيقةً عِلْمِيَّةً، وإذا اقْتَنَعَ بِأَنَّ عملاً ما يُحَقِّقُ له

ما يَرْغَبُ فيه من عاجل أمرِهِ أو آجله، ولم تَقُمْ في نَفْسِهِ دَوَافِعُ أُخْرَى مُعَارِضَةٌ تَمْنَعُهُ مِنَ القيام بالعمل تَوَجَّهَتْ إِرَادَتُهُ إِلَى القيام بِهِ، رغبةً في تحقيق ما يُحِبُّ أو يَشْتَهِي أو يَهْوَى، فَعَمِلَهُ، أو مارس من العمل على مقدار ما لديه من قُدْرَاتٍ تَنْفِيذٍ، وَقُوَّةٍ دَافِعٍ لِتَحْقِيقِ المَرْجُوِّ مِنَ العملِ.

لَكِنْ حِينَ يَشْعُرُ الإنسانُ بِأَنَّ الأَفْكَارَ أو مَطَالِبَ الأَعْمَالِ تُمَلِّئُ عَلَيْهِ إِمْلَاءً قَسْرِيًّا دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ اخْتِيَارٌ فِي القَبُولِ أو الرَفْضِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَشْعُرُ بِأَنَّ عَقَبَةَ صَادَةً قَامَتْ فِي نَفْسِهِ، وَهَذِهِ العَقَبَةُ قَدْ تَجَعَّلَهُ يُحْجِمُ عَنْ تَقَبُّلِ الفِكْرَةِ، أو الاستجابة للأمر بِعَمَلٍ ما، والنهي عن عَمَلٍ ما، قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي صِحَّةِ وسلامةِ وَنَفْعِ ما أُلْزِمَ بِهِ، أو فسادِهِ وَضَرَرِهِ.

وَحِينَ يَشْعُرُ بِأَنَّ التُّضْحِخَ الَّذِي يُوجِّهُ لَهُ مَشُوبٌ بِالإِجْزَامِ والإِكْرَاهِ والإِجْبارِ القَسْرِيِّ، فَإِنَّهُ قَدْ تَتَوَلَّدَ فِي نَفْسِهِ مِثْلُ هَذِهِ العَقَبَةِ الصَّادَةِ.

لَكِنَّ مِثْلَ هَذِهِ العَقَبَةِ لَا تُوجَدُ أَصْلًا حِينَما تَسَلَّلُ الفِكْرَةُ تَسَلُّلاً يَتَوَهَّمُ مَعَهُ الإنسانُ أَنَّهُ هُوَ صَاحِبُ الفِكْرَةِ. وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي اتَّجَهَتْ إِرَادَتُهُ لِمَبَاشَرَةِ العملِ، وَلَمْ يُلْزِمُهُ بِهِ وَيُكْرَهُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أو حِينَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ حُرٌّ فِي قَبُولِ الفِكْرَةِ أو رَفْضِهَا، وَالاستجابة للقيام بالعملِ، أو عَدَمِ الاستجابة لَهُ.

إِنَّ الدَوَافِعَ حِينَما تَكُونُ ذَاتِيَّةً نَابِعَةً مِنْ دَاخِلِ الإنسانِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ تُجَاهَهَا أَيَّةَ عَقَبَةٍ نَفْسِيَّةٍ، غَيْرَ عَقَبَةِ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ، إِذَا كَانَتْ لَدَيْهِ هَذِهِ العَقَبَةُ.

وَيُمْكِنُ أَنْ تَزُولَ عَقَبَةُ الشُّعُورِ بِالْحَرَمَانِ مِنْ حَرِيَّةِ التَّفَكِيرِ أو حَرِيَّةِ العملِ، بِالثَّقَّةِ التَّامَّةِ بِمُوجِّهِ الفِكْرَةِ أو الأَمْرِ أو النَهْيِ، أو بِحُبِّهِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ حُبٌّ ما يُرْضِيهِ، أو بِإِكْبَارِهِ وإِعْظَامِهِ، أو بِالإِيمَانِ العَمِيقِ بِأَنَّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى وَيُمْلِي إِرَادَتَهُ، أو بِشُعُورِ الإنسانِ بِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ تَقْتَضِي الاستجابة والطاعةَ، مَعَ أَنَّهُ حُرٌّ فِي القَبُولِ أو الرَفْضِ، وَذَلِكَ حِينَ تَرْتَبِطُ مَطَالِبُ نَفْسِهِ وَحَاجَاتُهَا وَرغائِبُهَا العَاجِلَةِ أو الآجِلَةِ بِاعْتِنَاقِ الفِكْرَةِ، أو تَنْفِيذِ التَّكْلِيفِ أَمْرًا أو نَهْيًا.

### المنهج الربّاني لتحاشي هذه العقبة

إنَّ عقبة الشعور بالحرمان من حُرِّيَّة الاختيار في الاعتقاد والعمل، قد تحاشتها الرسالاتُ الربّانيَّة، والتربيةُ الإسلاميَّة، بإعلان أنَّ المبدأ العامَّ في دين الله للناس هو أنَّه لا إكراهَ في الدين، وأنَّ الإنسانَ ذو إرادة حُرَّة، يختار بها في حياته التي وضعه الله فيها موضع الابتلاء ما يشاء من عقيدة أو عبادة، فهو حرٌّ في تفكيره، وحرٌّ في أن يَعتقِد ما يشاء، ويؤمن بما يشاء، وحرٌّ في أن يعبُد ما يشاء، ولكنَّ عليه بعد ذلك أن يتحمَّل نتائج سُوء اختياره المشقية له، إذا اعتقد غير الحقِّ، أو عبَدَ غيرَ من يَسْتَحِقُّ العبادة، كما أنَّ باستطاعته أن يظفر بالنتائج المُسَعِدَة له التي هي نتائج حُسن اختياره، إذا اعتقَد الحقَّ وآمن به، واعتقَدَ بطلانَ الباطل وتجافى عنه، أو عبَدَ من هو المستحقُّ للعبادة وخذَهُ لم يُشْرِكْ بعبادته أحداً.

وأعانت التربية الإسلاميَّة فِكرَ الإنسانِ لِيَصِلَ إِلَى معرفة أركانِ الحقِّ، التي يَجِبُ عليه أن يؤمن بها في دين الله للناس، بوسائل الإقناع بالطُرُق العقلية المنطقية، والأدلة العلمية، لتوليد الدافع الذاتي، الذي يُبَصِّرُ إرادته بما يَخْتَارُ من مبادئ يؤمِّنُ بها.

ويدخُلُ في هذه الوسائل الإقناعية استخدامُ الطُرُق غير المباشرة، والطُرُق المباشرة.

ووضعت التربية الإسلاميَّة فِكرَ الإنسانِ ونَفْسَه أمامَ بيانات الوَعْدِ والوَعِيدِ الربّانيَّة، فَمَن اختارَ الإيمانَ بالحقِّ الذي جاء به دين الله للناس، وعبَدَ الله وخذَهُ، نَالَ ثوابَهُ خُلُوداً في جَنّاتِ النعيمِ يوم الدين، ومن اختار الإيمانَ بالباطل المضادَّ لما جاء به دين الله للناس، أو عبَدَ من دون الله شيئاً، كان من أصحاب النار خالداً فيها يوم الدين، ومن اختار الإيمانَ بالحقِّ



الرباني، ولكن عصى الله في أوامره أو نواهيه، استحقَّ من العقاب بالعدل على مقدار ما اكتسب في حياته من آثام.

فحرية الإرادة هي حرية تمكين من الاختيار، وليست حرية إباحة، إذ هي حرية مُستتَبَعَةٌ بالمسؤولية والحساب والجزاء، بالثواب أو بالعقاب.

وهذه الحرية في مسائل الدين مشابهة لحرية الإنسان في مخالفة قوانين الطبيعة، فالإنسان حرٌّ مُمَكَّنٌ من أن يُدخل يده في النار، ولكنَّ عليه أن يتحمَّلَ نتيجة اختياره، في أن تحترق يده، بفارق أن عقوبة مخالفة قوانين الدين يوجدُ بينها وبين العمل المخالف فاصل زمني، يُمكنُ الإنسان فيه من التدارك بالتوبة والندم والاستغفار، وبذلك يتفادى العقوبة، أما عقوبة مخالفة قوانين الطبيعة الكونية فهي في الغالب عقوبةٌ مباشرةٌ للفعل المخالف.

- ٣ -

### النصوص القرآنية حَوْلَ الحرية المقترنة بالتكليف والمستتبعَة بالمسؤولية والحساب والجزاء

الحقيقة الدينية التي سبقَ شرحُها في الفقرتين السابقتين، قد جاء بيانها في سبعة عشر نصًّا من نصوص القرآن الكريم، ضمنَ منهجِ حركيِّ تَرْبَوِيٍّ حكيم، جاء أولُها في ثالث سورة نزلت في المرحلة المكية من الرسالة المحمدية، وجاء آخرها في سورة (الإنسان) وهي سورةٌ من أواسط التنزيل المدني، وترتيبها بحسب النزول (٩٨)، وأسْتُعْرَضَها وفق ترتب نزولها بشيء من التَّدْبِيرِ.

النص الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

تَذَكِّرَةٌ: أي تذكيرٌ باقٍ، بما اشتملت عليه نصوصها من بيانٍ ودعوةٍ إلى الإسلام وموعظةٍ وإرشادٍ.

وأصلُ التذكِرَةِ في اللِّغَةِ: الوَسِيلَةُ المَذَكِّرَةُ، ولَمَّا كَانَتِ الرِّسَالَةُ الإِسْلَامِيَّةَ مُشْتَمِلَةً عَلَى نِصُوصٍ قَضَى اللهُ بِبَقَائِهَا مَحْفُوظَةً، فَإِنَّهَا تَحْمِلُ صِفَةَ البَيَانِ وَالهِدَايَةِ وَالمَوْعِظَةِ وَالإِرْشَادِ وَالتَّذْكِيرِ دَوَامًا، وَلَمَّا كَانَ التَّذْكِيرُ هُوَ الحَلْقَةُ الأَخِيرَةُ فِي هَذِهِ السُّلْسِلَةِ، كَانَتْ تَسْمِيَةُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ بِالتَّذَكِّرَةِ مُتَضَمِّنَةً بِالنِّزْوَمِ الذَّهْنِيِّ الحَلَقَاتِ السَّابِقَاتِ لِلتَّذْكِيرِ.

ففي هذه الآية بيان أن هذه الرسالة رسالة بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرشادٍ وتذكيرٍ دواماً، أي: فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزامٍ، فَمَنْ شَاءَ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ إِرَادَةٍ حُرَّةٍ مُمَكَّنَةٍ بِخَلْقِ اللهِ مِنْ أَنْ تَشَاءَ بِحُرِّيَّةٍ نَجَاةً نَفْسِهِ وَسَعَادَةً اتَّخَذَ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِ سَبِيلًا، وَمَنْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ العِقَابَ وَالعَذَابَ، فَهُوَ الَّذِي يَتَحَمَّلُ نَتَائِجَ رَفْضِهِ لِلْحَقِّ، وَرَفْضِهِ سُلُوكِ سَبِيلِ الهِدَايَةِ.

\* \* \*

### النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) بشأن المعرضين المبتعدين عن الاستماع لدعوة الرسول وبيانات القرآن التي هي تذكيرة فكرية بيانية، وليست إكراهاً ولا قسراً بإجبار:

﴿ فَأَمَّا لِمِمْ عَنِ التَّذَكِّرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكِّرُونَ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ ﴿٥٥﴾ ۞ .

كَلَّا: كلمة زجرٍ فيها معنى التنديد والتلويم.

إِنَّهُ تَذَكِّرَةٌ: أي: إنَّ القرآنَ تَذَكِّرَةٌ باقيةٌ بما اشتملَ عليه من بيانٍ وهدايةٍ

وموعظة وإرشاد وترغيب وترهيب، ولما كان القرآن مذكراً بهذه الأمور دواماً أطلق الله عليه اسم «التذكيرة» وهي في اللغة ما يُستذكرُ به الأمر، كما سبق به البيان.

فما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ: استفهام إنكاريٌّ تعجيبِيٌّ من حالهم.

حُمْرٌ: جمع «حمار» والمرادُ بها الحُمْرُ الْوَحْشِيَّة.

مُسْتَنْفِرَةٌ: أي: نافرةٌ بِشِدَّةٍ إذا أصابها الدُّعْرُ.

قَسْوَرَةٌ: على صِيغَةِ «فَعْوَلَةٌ» مِنَ الْقَسْرِ، وهو الأخذ بإكراه.

الْقَسُورُ وَالْقَسْوَرَةُ: من أسماء الأسد، والقَسْوَرَةُ أيضاً جَمْعُ «الْقَسُورِ»

وقَدْ سُمِّيَ الْأَسَدُ قَسُوراً لِأَنَّهُ يَفْتَرَسُ صِيْدَهُ قَسْراً.

ويطلقُ لفظ «الْقَسُورِ» على الصَّيَادِ الرَّامِي، وَجَمْعُهُ «قَسُورَةٌ» فالرُّمَامَةُ

الصَّيَادُونَ الَّذِينَ يَصِيدُونَ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةَ بِسَهَامِهِمْ، فَيَقْسِرُونَهَا بِوَسَائِلِهِمْ، وَيَكْرِهُونَهَا حَتَّى يَأْسِرُوهَا يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ لَفْظُ «قَسُورَةٌ».

في هذا النص تعجيبٌ من حال المُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ الْبَاطِلِينَ مِنَ

سَطَوْتِهِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِيهِمْ، بِمَا فِيهِ مِنْ بَلَاغَةٍ رَفِيعَةٍ، وَدَلَالَاتٍ مَنِيَعَةٍ،

وَحَقَائِقَ لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وَأَنْوَارٍ سَاطِعَةٍ، وَهَدَايَةٍ

قَاسِرَةٍ لِمَنْ اسْتَسَلَّمَ إِلَيْهَا، وَقَدْ جَاءَ تَمَثُّلُهُمْ فِي هَذَا النَّصِّ بِالْحُمْرِ الْوَحْشِيَّةِ

الَّتِي هَجَمَ عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ أُسُودٌ لِقَتْرِ سَهَائِهَا، فَأَصَابَهَا الدُّعْرُ الشَّدِيدُ فَفَرَّتْ وَفَرَّتْ

لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ.

وظاهرٌ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا التَّمَثُّلِ التَّنْفِيرُ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ هِدَايَةِ

الْقُرْآنِ، مَعَ تَقْبِيحِ صُورَةِ الْمُعْرِضِينَ وَذَمِّهِمْ، إِذْ جَاءَ تَمَثُّلُهُمْ بِالْحُمْرِ

الْوَحْشِيَّةِ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ تَمَثُّلُهُمْ بِالْبَقَرِ أَوْ بِالظَّبَاءِ، لَكِنَّ الْحُمْرَ هِيَ

الْمَعْرُوفَةُ عِنْدَ النَّاسِ بِالْبَلَادَةِ وَالْغَبَاءِ، فَالتَّمَثُّلُ بِهَا أَكْثَرُ تَقْبِيحاً وَذَمًّا لِحَالَةِ

النفور من تذكرة فكرية ليس لها سَطْوَةٌ مَادِيَّةٌ تَقْسِرُ بِاِكْرَاهِ .

إنَّ الفكرة التي سَبَقَ لَهَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا النِّصِّ ، هي أَنَّ بَيَانَ الدَّعْوَةِ إِلَى الإسلامِ ، وما جاء في القرآنِ ، دَعْوَةٌ تَذَكِّرَةٌ بِحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ ، هي فِطْرِيَّةٌ فِي فِكْرِ الإنسانِ وَوَجْدَانِهِ ، وبحقائق علمية مُنَزَّلَةٌ مِنْ لَدُنْ عَليمِ حَكِيمٍ ، يُطَلَّبُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْلَمُوهَا أَوَّلًا ، ثُمَّ يَتَذَكَّرُوهَا دَوَامًا عِنْدَ المُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِتَذَكَّرِهَا ، لِتَكُونَ مُوجَّهَةً لِإِرَادَاتِهِمْ ، وَأَنْوَاعِ سُلُوكِهِمْ .

وَكُلُّ إِنْسَانٍ هُوَ حُرٌّ بَعْدَ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ هَذِهِ التَّذَكِّرَةُ فِي أَنْ يَسْتَجِيبَ لِمَضْمُونِهَا فَيُؤْمِنَ ، أَوْ يَرْفُضُهَا فَيَكْفُرُ ، فَهِيَ إِذَنْ لَيْسَتْ مُطَارَدَةً مُكْرَهَةً مُجْبِرَةً قَاسِرَةً ، يُلَاحِظُ طَرِيدَتَهُ لِيَقْتَرِسَهَا أَوْ يَصِيدَهَا ، كَمَا يَفْعَلُ الأَسُودُ ، أَوْ كَمَا يَفْعَلُ الرُّمَاءُ الصَّيَّادُونَ .

إنَّ الإنسانَ ذَا الفِكرِ الحَصِيفِ لَا يَقْرَأُ مِنَ عَرَضِ التَّذَكِّرَاتِ الفِكرِيَّةِ عَلَيْهِ ، بَلْ يَقْبَلُ عَرَضُهَا ، وَيَقْبَلُ مُنَاقَشَتَهَا ، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ إمَّا أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَرْفُضَهَا .

فَدَلَّ هَذَا النِّصُّ بوضوح تامٍّ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الإسلامِ عَرَضٌ تَخْيِيرِيٌّ لِمَنْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ المَسْلَمِينَ ، وَلَيْسَ إِكْرَاهًا وَلَا إِجْبَارًا بِالقَّسْرِ ، فَمَنْ شَاءَ اسْتَجَابَ فَاسْلَمْ ، وَوَضَعَ فِي ذَاكِرَتِهِ أَرْكَانَ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ وَبَيَانَاتِ القرآنِ ، لِاتِّبَاعِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ .

وَأَبَانَ النِّصُّ عِلَّةَ المَعْرُضِينَ النِّفْسِيَّةِ وَهِيَ أَمْرَانِ :

الأولُ : الكِبْرُ عَنِ اتِّبَاعِ الرِّسُولِ ، لِأَنَّ كُلَّ أَمْرِيٍّ مِنْ هَؤُلَاءِ يُرِيدُ أَنْ يُنَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ صُحُفٌ مُنْشَرَةٌ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرِيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنْشَرَةً ﴾ .

الثاني : جَحُودُهُمْ لِلْبَعْثِ وَالحِسَابِ وَالجِزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ ، فَهَمَّ لَا يَخَافُونَ

عقاب الله في الآخرة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۝١٥٢﴾ .

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (التكوير/ ٨١ / مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝١٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝١٨﴾ .

فأبان هذا النص أن القرآن ليس إلا ذكراً موجهاً لكل العالمين، الموضوعين موضع الابتلاء والتكليف، أما من يستجيب لدعوته ويتدبره، ويتخذ ذكراً، ويتنفع بما فيه من هداية ودلالة على صراط الله المستقيم، فهو من شاء من المخاطبين به بإرادته الحرة أن يستقيم على صراط الله، ولا يريد أن يعوج ويكون جائراً متكباً عنه، وسالكا سبل الضلال التي تستدرجه إليها الشياطين والأهواء والشهوات الجانحات عن الحق والخير والفضيلة وما أذن الله به لعباده.

\* \* \*

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (عبس/ ٨٠ / مصحف/ ٢٤ نزول) في معرض تربية الله لرسوله ﷺ بشأن إعراضه عن الأعمى ابن أم مكتوم الذي جاء يسأله عن بعض مسائل الدين، إذ أعرض عن إجابته لأنه كان ﷺ مشغولاً بدعوة كبراء قومه إلى الإسلام:

﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكُّرُهُ ۝١١ مَنِ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝١٢﴾ .

أي: إن رسالتك يا مُحَمَّدُ رسالة بيان وهداية وتذكير، وليست رسالة تكليف لك أن تحوّل الناس من الكفر إلى الإيمان، حتى توجه اهتمامك الكبير لدعوة الكافرين، وتعرض عن طالب المعرفة الدينية راجياً أن يتذكر أو يخشى، فوظيفتك وظيفة مُذَكِّرٍ، وليست وظيفة مُكْرِهٍ ولا مُغَيِّرٍ، فالاستجابة

للدعوة ينبغي أن تكون بإرادة المدعو الحرّة، واختياره الإيمان بالحق، وسلوك صراط الهداية، لا بالإكراه والإجبار.

\* \* \*

النص الخامس:

قول الله عز وجل بشأن شعيب عليه السلام وشأن قومه معه، في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴾

فجاء في هذا النص بيان مثل من أمثلة إكراه أهل الكفر لأهل الإيمان، على أن يتركوا دينهم الرّباني، ويعودوا إلى ما كانوا عليه قبل الإيمان، ويكونوا من الدّاخلين في ملّة المُكْرهين، وهذا ديدن قادة أهل الكفر دوماً، في كلّ عصور التاريخ، إنهم يُكْرهُون النَّاسَ على الدُّخُولِ فِي مِلَّتِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ومذاهبهم وطرائقهم في الحياة، وإلا أنزلوا بهم أنواع الاضطهاد والتعذيب.

على خلاف الرّسالات الرّبّانية للناس، فإنّها عَرْضٌ وإِقْنَاعٌ وهدايةٌ بتخيير، مقرونٌ بإنذارٍ بالعواقب الوخيمة من الله العزيز القدير، لمن أبى ولم يستجب، وببشارة بسعادة أبدية عند الله الرحيم الغفور، لمن سمع وأطاع واستجاب بإرادته الحرّة، دون إكراه ولا قسر وإجبار.

إنّ قضايا العقائد، واعتناق المذاهب الدينيّة، لا يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ مع الكراهية والإجبار، وإنما تكون بالرّغبة الدّائية والاختيار الحرّ.

\* \* \*

النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول) خطاباً لرسوله

محمد ﷺ:

﴿ طه ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ .

لَمَّا اشْتَدَّ حِرْصُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى إِيمَانِ قَوْمِهِ، حَتَّى أَهَمَّهُ كُفْرُهُمْ، وَشَقَّ عَلَيْهِ إِعْرَاضُ مَنْ أَعْرَضَ مِنْهُمْ، وَإِذْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ، وَتَوَلَّى مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ، وَجَعَلَتْ رَحْمَتُهُ بِهِمْ تَقْضُ مَضْجَعَهُ، وَتَوْجَعُ قَلْبُهُ وَتُشْقِيهِ بِإِيقَاعِهِ فِي الشَّدَّةِ وَالْعُسْرِ وَالْأَلَمِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذَا النَّصَّ، مَبِيناً لَهُ فِيهِ وَظِيفَةَ رِسَالَتِهِ، بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَحَمَلَهُ مَسْئُولِيَّةَ تَبْلِيغِهِ، لِيُشْقِيَ نَفْسَهُ بِالْأَلَامِ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ .

وَأَبَانَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِأَسْلُوبِ الْحَضَرِ، أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى، أَي: فَمَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَيَخَافُ عِقَابَهُ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْقُرْآنَ تَذَكُّرَةً لَهُ، ثُمَّ إِنَّ مَنْ جَعَلَ الْقُرْآنَ تَذَكُّرَةً لَهُ فَلَا بُدَّ أَنْ تَجَّهَ نَفْسُهُ لِلطَّمَعِ بِثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا يُصِيبُ مِنْ خَيْرَاتِ وَطْمَآنِينَةِ قَلْبٍ فِي الدُّنْيَا .

فَالْمَعْنَى: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى بِالْحَزَنِ وَالْأَلَمِ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى .

أَي: فَلَا تَحْمِلْ يَا مُحَمَّدُ هَمَّ الَّذِينَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْكُفْرَ بَعْدَ تَذَكُّرَتِهِمْ، وَبَيَانَ الْحَقِّ لَهُمْ، وَلَا تُشْقِ نَفْسَكَ مِنْ أَجْلِهِمْ .

وَنُلاَحِظُ فِي هَذَا النَّصِّ تَوْجِيهاً مُبَاشِراً لِلرَّسُولِ، لِتَأْدِيبِهِ بِرَفْقٍ، حَوْلَ مُهِمَّتِهِ فِي رِسَالَتِهِ، وَتَوْجِيهاً لِكُلِّ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ .

وَنُلاَحِظُ فِيهِ تَعْرِيفاً غَيْرَ مُبَاشِرٍ لِلْكَافِرِينَ الْمَعْرِضِينَ، وَالْمُدْبِرِينَ الْمُتَوَلِّينَ عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ .

\* \* \*

النص السابع:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يونس/ ١٠ / مصحف/ ٥١ / نزول):

﴿ وَرِشَاءَ رَبِّكَ لَأَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ بِلَوْازِمِ بَيَانِهَا عَلَى أَنَّ رَحْمَةَ الرَّسُولِ ﷺ بِقَوْمِهِ كَانَتْ شَدِيدَةً جَدًّا، وَأَنَّ حِرْصَهُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ لِلنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَالظَّفَرِ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ، قَدْ كَانَ حِرْصًا بِالْغَا، وَأَنَّ تَوَجُّعَ قَلْبِهِ مِنْ أَجْلِهِمْ قَدْ كَانَ عَظِيمًا فَلَمْ يَسْتَطِعِ الضُّغْطَ عَلَى عَاطِفَتِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذَا النَّصَّ، مُتَضَمَّنًا أُسْلُوبًا تَرْبُويًا فِيهِ الْإِقْنَاعُ الْمَشُوبُ بِالْعِتَابِ.

وَالْمَعْنَى: لَوْ شَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ إِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى الْإِيْمَانِ، لَسَلَبْتَهُمْ حُرِّيَّاتِهِمْ، فَجَعَلْتَهُمْ مَجْبُورِينَ، فَأَكْرَهْتَهُمْ، فَأَمَّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، أَوْ لَأَتَّخَذَ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يَجْعَلُهُمْ مُلْجَتِينَ إِلَى الْإِيْمَانِ إِجْبَاءً.

لَكِنَّ هَذَا يَتَنَافَى مَعَ حِكْمَةِ الْامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَحِكْمَةِ تَرْكِ النَّاسِ لِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَ.

فَإِذَا كَانَ رَبُّكَ الْقَادِرَ عَلَى جَعْلِهِمْ مَجْبُورِينَ عَلَى الْإِيْمَانِ جَمِيعًا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُخَيَّرِينَ، لِيَبْلُوهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، أَفَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ وَيَاكُلُّ مَنْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، مَعَ أَنَّهُ أَمْرٌ لَمْ يَخْتَرَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ ذُو الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ عَلَيْهِ.

\* \* \*

#### النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزل) مُبَيَّنًا مَثَلًا مِنْ أَمْثَلِ دَعْوَةِ الرَّسُلِ السَّابِقِينَ لِأَقْوَامِهِمْ، الَّذِي يَنْبَغِي التَّأْسِي بِهِ، وَهُوَ مُقْتَطَعٌ مِنْ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:



﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْكُمْ مِنْ رَبِّي وَهَآءِنِّي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعَبَّيْتُمْ عَلَيَّكُمْ أَنْزَلْتُكُمْ هَا وَآتَاكُمْ هَا كَذِبُونَ ﴾ ﴿١٦٨﴾ .

في هذه الآية بيان جانب من حوار نوح لقومه، حول حُرِّيَّةِ النَّاسِ في اختيار الإيمان والكفر، وأن الرسولَ لَا يَمْلِكُ إلزام الناس بالإيمان، بعد أن مَنَحَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ حُرِّيَّةَ الاختيار لِيَلُوهُم، وحَمَلَهُمُ مسؤوليَّةَ اختيارهم، فعليهم أن يتحمَّلُوا عقوبات اختيارهم عند ربهم إذا اختاروا الكفر على الإيمان، والضلالة على الهدى، والظلمات على النور.

\* \* \*

النص التاسع:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ، وَيُلْحَقُ به كلِّ داعٍ إلى سبيل ربه من أمته:

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ .

في هذا النص تعليم من الله لبعض أساليب الحوار الإقناعي للكافرين المشركين، الذين يَعْبُدُونَ آلِهَةً من دون الله عزَّ وجلَّ، وهو حوارٌ حول موضوع هو من أهمِّ موضوعات الدين، وهو موضوعُ العبادة.

فجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين:

- إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ فلا أشركَ بعبادته أحداً.
  - وَأُمِرْتُ بِالتكاليفِ الدنيَّةِ التي أَعْبُدُ بها رَبِّي قبلَ غيري من الناس، من أجل أن أكون أول المسلمين المطيعين لأوامر الله ونواهيهِ.
- وجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين أيضاً:

● إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي فَلِمَ أَعْبُدُهُ، أَوْ أَشْرَكْتُ بِعِبَادَتِهِ مَعْبُوداً  
من دونه عذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، هُوَ عَذَابُ يَوْمِ الدِّينِ.

وَأَنْ يَقُولَ لَهُمْ مُعَلِّناً مَنَهَجَهُ فِي عِبَادَتِهِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ، وَمِيتَاناً لَهُمْ  
أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ فِي أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَشَاؤُونَ مِنْ مَعْبُودَاتٍ يَعْبُدُونَهَا:

● اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي، فَلَا أَشْرِكْ بِعِبَادَتِهِ أَحَداً.

● فَاعْبُدُوا مَا سِئِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ، فَلَكُمْ أَنْ تَخْتَارُوا فِي حَيَاتِكُمْ مَا  
تَشَاءُونَ مِنْ إِيْمَانٍ أَوْ كُفْرٍ، وَتَوْحِيدٍ أَوْ شُرْكَ، إِذْ أَنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي  
رِحْلَةٍ ابْتِلَاءٍ، مُمَكِّنُونَ مِمَّا تَشَاءُونَ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَحْتَمِلُوا نَتَائِجَ اخْتِيَارَاتِكُمْ.

وَأَنْ يَقُولَ لَهُمْ آخِيراً مُحَذِّراً وَمُنْذِراً:

إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ  
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أي: فَمَنْ كَفَرَ فَعَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ أَوْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَتِهِ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ، خَسِرَ  
نَفْسَهُ وَأَهْلِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ يَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ خَالِداً فِيهَا أَبَداً، أَلَا ذَلِكَ  
هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أَلَا: أَدَاةٌ تَنْبِيهِ بِشِدَّةٍ، فَتَعْرِضُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ لِهَذَا الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ  
يَحْتَاجُ هَذَا التَّنْبِيهِ، لِيَصْحَوْا مِنْ غَفْلَتِهِ، أَوْ غَفْوَتِهِ.

\* \* \*

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١/ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا سِئِمْتُمْ إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرُونَ ﴿٤١﴾ .

يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا: أَلْحَدَ: أي: مال عن الحقِّ وَجَارَ وَظَلَمَ، والمعنى: يَحِيدُونَ وَيَمِيلُونَ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ ظُلْمًا وَجَوْرًا، شَاكِينَ فِي آيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الْمُنزَّلَةِ، وَآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ، وَآيَاتِنَا الْإِعْجَازِيَّةِ.

ففي هذه الآية يتحدّث الله عزَّ وجلَّ عن الْمُلْحِدِينَ الجائرين المائلين عن دينه الحقِّ، الشَّاكِينَ وَالمشكِّكِينَ فِي آيَاتِهِ، بِأَنَّهُمْ غَيْرُ خَافِينَ عَلَيْهِ جَلَّ جلاله، وَيُنذِرُهُم بِالْإِلْقَاءِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى إِلْحَادِهِمْ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَمْنِ.

وبعد هذا البيان يخاطبُ الملحدين خطاباً مُباشراً، فيقول لهم:

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠١﴾﴾

فَيُعْطِيهِمْ فِي هَذَا أَنَّ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا مَا يَشَاءُونَ مِنْ عَمَلٍ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ تَخْيِيرٌ إِبَاحَةٌ، إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيرٌ امْتِحَانٍ، وَهُوَ مَمْزُوجٌ بِوَعِيدٍ بِالْعِقَابِ إِذَا اخْتَارُوا غَيْرَ الْمَطْلُوبِ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

فقد حمَّلهم مسؤولية مشيئتهم، وأبان لهم أن عاقبة إلحادهم وشركهم عذابٌ أليم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

\* \* \*

النص الحادي عشر:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿١٠٢﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٠٣﴾﴾

نزل هذا النص بعد رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ فِي دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِقَوْمِهِ، أَبَانَ لَهُمْ خِلَالَهَا أَصُولَ الدِّينِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَأَصُولَهُ التَّعْبُدِيَّةَ مَبِينًا لَهُمْ فِيهَا أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَقَامَ لَهُمُ الْحُجَجَ وَالبَراهِينَ الْكثِيرَةَ،

ولم يَتَّقِ عَلَيْهِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى مَنْ تَبَلَّغَهَا مِنَ الْكَافِرِينَ غَيْرُ التَّذْكِيرِ بِهَا، وَإِذْ وَصَلَ مَعَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ، فَإِنَّ وَظِيفَتَهُ الْآتِيَةَ بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِمْ إِنَّمَا هِيَ التَّذْكِيرُ فَقَطُّ، أَمَا أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّهُ صَارَ مُكَلَّفًا أَنْ يُلْزِمَهُمُ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ إِلْزَامَ مُكْرِهِ مُسَيِّطِرٍ، فَهُوَ تَصَوُّرٌ غَيْرٌ صَحِيحٌ، لِأَنَّهُ يَتَنَافَى مَعَ وَضْعِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، فَامْتِحَانُ الْإِرَادَةِ يَسْتَلْزِمُ تَمَكِّيْنَهَا مِنْ أَنْ تَخْتَارَ مَا تَشَاءُ خِلَالَ مُدَّةِ امْتِحَانِهَا.

فقال الله لرسوله: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي: فوظيفتك بالنسبة إلى هؤلاء هي وظيفه التذكير بما سبق أن بلغتهم إياه.

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ: أي: ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين سبق أن عالجتهم خلال تنزيل (٦٧) سورة منذ بدء الدعوة حتى نزول سورة (الغاشية) إِلَّا مُذَكِّرٌ لَهُمْ، فَقَدْ قَدِّمْتَ لَهُمُ الْبَيَانَ الْكَافِي، وَالشَّافِي لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَقِّ وَيَسْتَقِيمَ عَلَى صِرَاطِ رَبِّهِ.

لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ: أي: فَلَسْتُ مُطَالِبًا وَلَا مَأْذُونًا بِأَنْ تَكُونَ مُسَيِّرًا عَلَيْهِمْ سَيِّطْرَةً مُكْرِهِ مُجْبِرٍ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، إِذْ هُمْ مُطَالِبُونَ بِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةَ، بَعْدَ بَيَانِ الْحَقِّ لَهُمْ، بِالآيَاتِ الْجَلِيَّاتِ.

ومن رفض أن يستجيب لدعوة الحق فعليه أن يتحمل عند ربه نتيجة مشيئته التي شاء بها سبل الغي، مُلْحِدًا عَنِ صِرَاطِ الرُّشْدِ، صِرَاطِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

\* \* \*

النص الثاني عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى سبيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّيكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ

بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢١﴾ .

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ: أي: وَقُلْ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى دِينِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمَ، بِهَدْوٍ كَامِلٍ، لَا انْفِعَالَ فِيهِ وَلَا غَضَبَ وَلَا مُؤَكَّدَاتٍ: لِمَنْ تُوَجَّهَ لَهُمْ دَعْوَتُكَ: الْحَقُّ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ، هُوَ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي، فَمَا أَنَا إِلَّا مُبَلِّغٌ.

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ: أي: فَمَنْ شَاءَ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ بَعْدَ أَنْ يَتَّبِعَ الْحَقَّ الرَّبَّانِيَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ بِهِ، لِيُنَالَ أَجْرَهُ الْعَظِيمَ عِنْدَ رَبِّهِ، وَمَنْ شَاءَ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ فَلْيَكْفُرْ بِهِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّحَمَّلَ الْمَصِيرَ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلظَّالِمِينَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا بِهِنَّ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

سُرَادِقُهَا: السَّرَادِقُ: الْخِيْمَةُ، السُّورُ، الدُّخَانُ، وَهَذَا هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا.  
الْمُهْلُ: الْقَطْرَانِ السَّائِلِ، وَالْمَعْدِنُ الدَّائِبِ، وَالْقَيْحُ، وَصَدِيدُ الْمَوْتَى.  
شُبَّهَ الْمَاءُ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ أَهْلُ جَهَنَّمَ بِالْمُهْلِ، إِذْ هُوَ حَارٌّ فِيهِ كَثَافَةٌ مَا، يَخْرُجُ مِنْهُ بَخَارٌ يَشْوِي وَجُوهَ الشَّارِبِينَ.

وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا: أي: وَسَاءَتْ النَّارُ مَكَانًا لِلظَّالِمِينَ، مَجْلِسًا يَجْلِسُونَ فِيهِ، وَمُتَكِّأً يَتَكَيَّفُونَ عَلَيْهِ بِمُرَافِقِهِمْ.

\* \* \*

النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ / مصحف/ ٧٠ / نزول):

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ .

فَدَلَّتْ هَذِهِ آيَةُ مُضِيْفَةٌ فِي الْمَوْضُوعِ عَلَى أَنَّ الْإِكْرَاهَ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ وَسِيْلَةً صَحِيْحَةً وَلَا مَقْبُوْلَةً لِلدُّخُوْلِ فِي الدِّيْنِ، فَهُوَ لَا يُخْرِجُ مِنَ الدِّيْنِ مَنْ أَعْلَنَ بِسَبِيْهِ الْكُفْرَ، وَقَلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ .

\* \* \*

النص الرابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٣٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَذَكَرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٨﴾ .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ: أَي: لَا فَائِدَةَ مِنْ أَنْ أُقْسِمَ لَكُمْ بِآيَاتِي فِي كَوْنِي الَّتِي تَبْصِرُونَهَا وَالَّتِي لَا تَبْصِرُونَهَا، مَعَ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ أَنْ أُقْسِمَ بِهَا، لِأَنَّكُمْ بَلَّغْتُمْ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعَانِدَةِ مَبْلَغًا شَنِيعًا، وَالْمَقْصُودُ بِالْخُطَابِ فِتْنَةُ الْمَعَانِدِينَ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ .

فَمَا سَبَقَ أَنْ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ كَافٍ لِأَنَّ يَمْحُو كُلَّ أَثَرٍ لِلشَّكِّ فِيهِ، وَلِأَنَّ تَذَرَكُوا بِأَنَّهُ لَيْسَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، وَلَيْسَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ، لَكِنَّكُمْ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يَخَالِفُ أَهْوَاءَكُمْ وَتَقَالِيدَكُمْ الْعَمِيَاءَ، وَقَلِيلًا مَّا تَتَّعْظُونَ بِالْمَذْكُرَاتِ الَّتِي تُذَكِّرُكُمْ بِسُنَنِ اللَّهِ فِي عَقُوبَاتِ الْجَاهِدِينَ الْمَكَابِرِينَ الَّذِينَ يُصْرُّونَ عَلَى الْبَاطِلِ .

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ: أَي: هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مُحَمَّدٌ، هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا، الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوْلِيْنَ، فَاعْلَمُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ .

﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنده حَنُوزِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

أي: واعلموا حقيقةً أُخْرِي تَدُلُّ على أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ من رَبِّ الْعَالَمِينَ، وهي أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَكْذِبُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ، مع تَأْيِيدِنَا له بِالْمَعْجَزَاتِ، لَمَا تَرَكْنَاهُ على قَيْدِ الْحَيَاةِ، بَلْ لَأَخَذْنَا بِيَمِينِهِ جَزْأً، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ .

الوتين: عِزْقٌ مُتَعَلِّقٌ بِالْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَا تَصَاحَبَهُ .

إِنَّا لَا نَدْعُ نَبِيًّا مُؤَيَّدًا مَتًّا بِالآيَاتِ يَكْذِبُ عَلَيْنَا، بَلْ نُؤَيِّدُهُ فَوْرًا، فَالرَّبُّ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَقْبَلُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيْهِ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ .

وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ: أي: وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَتَذِكْرَةٌ يَنْتَفِعُ بِهَا دَوَامًا الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فَأَمَّنُوا بِهِ، وَأَسْلَمُوا لَهُ .

فَأَبَانَ اللَّهُ أَنَّ الْقُرْآنَ تَذِكْرَةٌ، وَالتَّذِكْرَةُ تُعْطِي مَنْ يَتَّبِعُهَا حُرِّيَّةَ الْاِخْتِيَارِ .

\* \* \*

النصّ الخامس عشر:

قول الله عز وجل عز وجل في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) في مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنْ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ:

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا ﴿٢٦﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

فَأَكَّدَ اللَّهُ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّ لِلنَّاسِ مَشِيئَاتٍ ذَوَاتِ حُرِّيَّةٍ فِي اخْتِيَارِ مَا بِ حَسَنِ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، يَكُونُونَ فِيهِ سُعْدَاءَ سَالِمِينَ، فَهُمْ يَسْلُكُونَ لِلْوَصُولِ إِلَيْهِ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ .

أي: فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ وَسِيلَةً إِلَى الظَّفَرِ بِمَرْضَاةِ رَبِّهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَنَالَ بِذَلِكَ مَا بَا حَسَنًا عِنْدَهُ .

أي: ومن شاء لم يتخذ ذلك، فاستحق العذاب يوم الدين، وهو عذاب قريب، إذ ينعدم حس الزمن بين الموت والبعث، ويومئذ يتمنى الكافر أن يكون تراباً لم يُبعث، أو يُقال له كما يُقال للبهائم بعد بعثها وإقامة العدل فيما بينها: كوني تراباً.

\* \* \*

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أول سورة مدنية:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾ ۝ ﴾

فأبان الله عز وجل في هذه الآية حقيقة كلية عامة شاملة لا تخصيص فيها ولا نسخ ولا تغيير ولا تبديل بالنسبة إلى الذين يوضعون في حياتهم موضع الامتحان، هي أن الدين اختياراً من الممتحن، ولا يمكن أن يكون فيه إكراه مادي، فالقلوب التي هي مراكز الإيمان لا يمكن إكراهها إلا بالجبر الرباني الذي يسلبها معه حرية إرادتها، وهذا مناقض لوضعها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهية المادية التي يملكها الناس تصنع منافقين، لا مؤمنين، والمنافقون أسوأ حالاً من الكافرين الصرحاء.

\* \* \*

النص السابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿ إِنَّ هُدْيَهُ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٧٦﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧٧﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧٨﴾ ۝ ﴾



في هذا النَّصِّ يُقْفَلُ اللهُ مَوْضُوعَ حُرِّيَّةِ مَشِيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالسَّيِّئِ، بِمِثْلِ النَّصِّ الَّذِينَ بَدَأَ بِهِ هَذَا الْمَوْضُوعُ فِي سُورَةِ (الْمَزْمَلِ) ثَالِثِ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ .

وَأُنزِلَتْ فِيمَا بَيْنَهُمَا نُصُوصٌ بَلَغَتْ (١٥) نَصًّا، مَلَأَ كُلُّ مِنْهَا فِرَاقَ حَبَّةٍ فِي عِقْدِ الْمَوْضُوعِ، عَلَى صُورَةٍ تَكَامُلِيَّةٍ فِي الْمَعَانِي، مَعَ مِرَاعَاةِ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِإِيرَادِ كُلِّ مِنْهَا فِي السُّورَةِ الَّتِي هُوَ مِنْهَا.

وَأُطْبِقَ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا الْقُفْلِ قَوْلَهُ:

﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢١﴾﴾ .

أَي: وَلَا يَكُونُ لَكُمْ مَشِيئَةٌ إِلَّا إِذَا مَنَحَكُمُ اللهُ جِهَازَ الْإِرَادَةِ الْحَرَّةَ، الَّتِي بِهَا تَشَاءُونَ طَرِيقَ نَجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ، أَوْ طَرِيقَ هَلَاكِكُمْ وَشَقَائِكُمْ، وَإِلَّا إِذَا مَكَّنْكُمْ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ كُلِّ مَشِيئَةٍ جَزَائِيَّةً.

لَكِنَّ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ مَا وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَنَحَكُمْ هَذَا الْجِهَازَ، وَسَائِرَ شُرُوطِ التَّكْلِيفِ، فَأَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ مَسْؤُولِيَّةً تَامَّةً عَنِ مَشِيئَاتِكُمْ وَعَنْ أَعْمَالِكُمْ، لِذَلِكَ يُدْخِلُ اللهُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ، وَهِيَ جَنَّتُهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَتَهُ تَعَالَى لَا تَفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَأَمَّا الظَّالِمُونَ فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ بَعْدْلَهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي دَارِ الْعَذَابِ عِنْدَهُ.

وَبِهَذَا تَكَامَلَ عِقْدُ الْمَوْضُوعِ وَأَدَّتِ النُّصُوصُ أَذْوَارَهَا التَّرْبُويَّةَ بِحَسَبِ مَرَاحِلِهَا الزَّمَنِيَّةِ، وَبِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَى حَرَكِيَّةِ الدَّعْوَةِ، وَمُقْتَضِيَّاتِهَا التَّرْبُويَّةِ.

\* \* \*

المقولة التاسعة  
من العقبات الصادات

- ٣ -

عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات

- ١ -

البيان التحليلي

ومن العقبات النفسية الصادة عن تقبل دعوة الداعي وتعليمه وتربيته، وعن تقبل نصح الناصح، وإرشاد المرشد، عقبة الانتصار لسوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات، لدى من توجه له رسالة الدعوة، أو رسالة النصح والإرشاد، والهداية إلى التي هي أصح أو أقوم.

السبب النفسي لهذه العقبة:

إن سوابق أفكار الإنسان ومفاهيمه ومعتقداته وعاداته الثابتات تُعتبر في مشاعره الباطنة، حتى عمق وجدانه أحياناً، بمثابة أجزاء من ذاته، وكيانه الذي يفتخر به، ويحرص عليه، ويدافع عنه وينصره من أي مخالف خارج عنه، ومضاد له، فهو تلقائياً يرفض التنازل عن شيء من سوابق أفكاره ومفاهيمه ومعتقداته وعاداته الثابتات المتأصلت في كيانه، كما لا يتنازل عن جزء من أساسيات جسده إلا عند الضرورة، كالخوف على باقي أجزاء جسده من الهلاك.

وهذا الشعورُ الباطنيُّ في الإنسان لا يَسْتَنِدُ بوجه عامٍّ إلى برهانٍ عقليٍّ،  
أو دليلٍ علميٍّ، إنما يستند إلى تعميمٍ خاطيءٍ، وتَعْصِبٍ بدون بصيرةٍ.

فكم من سوابق أفكار ومفاهيم ومعتقدات في فكر الإنسان أو في  
وجدانه هي قضايا باطلة.

وكم من سوابق عادات ثابتات متأصلاتٍ في سلوكه هي عاداتٌ سيئات  
يجب إلغاؤها، أو إصلاحها، أو التعديل فيها.

لكن هذا هو حال كثيرٍ جداً من الناس، حتَّى العلماء والمثقفين منهم،  
ومنايعة في النفس الأنانية من وراء الشعور، مع استكبار الإنسان عن أن يتقبَّل  
الآتهامَ بأنَّه كان ذا مفهوماتٍ خاطئاتٍ، وكان مقتنعاً بها، وعاملاً بمقتضاها  
حِقْبَةً من عُمره، وإبائه عن أن يَشْعُرَ بأنَّه كان فاسدَ الاعتقادِ، أو فاسد  
السُّلوكِ، إذ يَرَى هذا إهانةً لكرامته، وشتيمةً لجزءٍ من ذاته، وهو الجزء الذي  
كان عليه طَوال حِقْبَةٍ من عُمره.

وهذا أحدُ الأسباب التي يَتَوَلَّد عنها مرض التعصُّبِ للذات، في حدود  
الأنانية الفردية، أو الأنانية الجماعية.

ومن الأنانية الجماعية يظهر ما يلي:

١- التعصُّب المذهبي.

٢- التعصُّب الحزبي.

٣- التعصُّب القومي والعرفي.

وأشباهاها.

ولذا كان من العسير جداً اقتلاع سوابق الأفكار والمفاهيم  
والمعتقدات والعادات الثابتات لدى كثير من الناس، ولو كانت باطلات أو

فاسدات، أو قبيحات، لتحرير أرضية نفوسهم منها، وغرس بدائل من الحق، أو الخير، أو الفضيلة، أو الجمال.

فعلى حامل رسالة الدعوة، أو رسالة التُّصْح والإرشاد، أن يوطِّن نفسه لمواجهة هذه العقبة، فيمن يُوجِّه له رسالته، وأن يَصْبِر صبراً طويلاً لاجتيازها، وتحرير أرضية نفسه من السوابق الباطلة أو الفاسدة أو القبيحة، وتهيتها لتقبُّل غرس البدائل الصحيحة أو الصالحة النافعة، أو الجميلة الحسنة.

ولا بُدَّ لاجتياز هذه العقبة من اتِّخاذ الأساليب الحكيمة الناجحة، والتحلِّي بالصَّبْر الطويل، والتدرِّج الكثير البطيء.

- ٢ -

طائفة من أساليب اجتياز هذه العقبة

وأوجِّه النَّظَرَ إلى طائفةٍ من أهمِّ الأساليب الحكيمة الناجحة لاجتياز عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات، فعلى حامل الرسالة أن يختار منها ما يلائم حالة من يُوجِّه له رسالته :

١ - الصَّبْر الطويل في اتِّخاذ الوسائل التي يكتسبُ بها ثقةً من يوجِّه له رسالته، بأخلاقه، وعِلمه، وقوة عقله، وإدراكه لبواطن الأمور، وقوة محاكمته، وقُوَّة حُجَّتِهِ.

٢ - اتِّخاذ الطُّرُق غير المباشرة أو المباشرة اللطيفة، لهدم ما لديه من سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات، بصورة تدريجية، ومن الخير البَدْءُ بالجذور الفكرية، ثم التدرِّج إلى نواميها الأصلية، فإلى فروعها، ثم إلى لوازمها في العادات وأنواع السلوك.

٣- اتّخاذ أسلُوب الإقناع العلميّ والمنطقيّ، لكشف بطلان ما يريد اقتلاعه أو التغييرَ والتعديلَ فيه .

ويَحْسُنُ التماس بعض الأعداء ممّا يمكن أن يكون السَّبَبَ في الوقوع في الأخطاء والانحرافات، مع بيان أنّه يجب على العاقل الحَصِيف المُنْصِف تصحيحُها والرجوع إلى الحقّ، فالحقّ أَحَقُّ بأن يُتَّبَعَ .

وَتَسْتَمِرُّ خِطَّةُ اقْتِلاعِ السوابقِ الباطلة أو الفاسدة أو القبيحة، حتّى تتحرَّرَ مِنْهَا أَرْضِيَّةُ النفسِ تَحَرُّراً كَلِّياً أو جزئياً .

٤- التَّطَطُّفُ في غرس البدائل التي يُرادُ غرسها، بدءاً بالجدور الأساسية، ثم الأقربِ إِلَيْهَا فالأقرب .

٥- الاهتمامُ بالترْكِيزِ على مُنْطِقِ الحقّ، والحجّة والبرهان، والتجربات العلمية، وقياس نتائج الأعمال، ووضع الأفكار كُلِّها موضعَ النَّقْدِ، وَفَقَّ الطريقة القرآنيّة، المبيّنة في قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿... وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَمَلِي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ .

٦- الإقناعُ بِضَرُورَةِ التَّحَرُّرِ من المؤثراتِ العاطفيّةِ التي لا صلة لها بإثبات المعارف أو نفيها، ولا صلة لها بتحديد الحقّ والباطل والتمييز بينهما، ككَوْنِ الفِكرَةِ هي ما عليه المذهب، أو ما التزمَ به الحزب، أو نصرته الجماعة المعيّنة، وككَوْنِ الفِكرَةِ ممّا كان يقول به الآباءُ والأجداد .

ومن أقيح الولاءات للأشخاص غير المعصومين بعصمة من الله عزّ وجلّ، مقالة جاهليّة تدعو إلى أن الانتصار العرقي أو القبليّ أو القوميّ أو الحزبيّ أو المذهبيّ يُلْزَمُ بالأخذ بالفِكرَةِ الفلانيّة ولو كانت أمراً باطلاً، لأنّ الولاء للجماعة لا يكون صحيحاً ما لم يلتزم المتتمي إليها بكل أفكارها

ومفاهيمها وعقائدها وأوامر ونواهي قاداتها وزعمائها، إنها القبيحة الجاهلية التي جعلت الشاعر الجاهلي يقول:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشُدُ غَزِيَّةٌ أَرشُدِ

٧ - الابتعاد عن إثارة الثُّعْرَاتِ الأَنَانِيَةِ (الشخصية - الأُسْرِيَّة - العِرْقِيَّة - القَبَلِيَّة - القوميَّة - العنصريَّة - ونحو ذلك).

٨ - قد يَحْسُنُ عند العناد الشديد، والإصرار على الباطل، الهُجُومُ الصَّاعِقُ، لكشف بطلان الأفكار والمفاهيم والعقائد والعادات التي يَلْتَزِمُ بها مَنْ تُوَجَّهَ له الرسالة، وليبين سفاهاة من يستمسك بها، ليُصَابَ بالهزيمة الفكرية في ميدان الجدل المنطقي بالحجة والبرهان، والأدلة العلمية.

ولكن ينبغي في الأحوال العادية التزام المعالجة برفق وحكمة، والابتعاد عما يولد الإصرار والعناد، أو يُثير الانفعالات الغضبية، ولا يَحْسُنُ اتخاذ الخطة الأخيرة إلا في أحوال قليلة، وحينما يصير من الحكمة مواجهة المعاند بالتسفيه، ودمغه بالتحجُّر واتباع الهوى، والعمى على الحق، واستحباب الظلمات على النور، والضلال على الهدى.

\* \* \*

## المقولة العاشرة من العقبات الصادات

### ٤ - عقبة التقليد الأعمى

- ١ -

مرض التعصب الذميص يتولد منه مرض التقليد الأعمى

١ - نشأت الجماعات البشرية القديمة، بعائلاتها، وقبائلها، وأقوامها، وشُعبها، ترى أنّ مصالحها لا تتحقّق إلاّ بالتعاون المشترك، وكان من مصالحها غزو بعضها لبعض بالظلم والعدوان، وقاتل بعضها لبعض للظفر بالحكم والسلطان.

لذلك كانت ترى أن حمايتها من عدوان خصومها، ومنافسيها، والطامعين بها، لا تتحقّق ما لم يتناصر أفرادها فيما بينهم ضدّ أعدائهم أو خصومهم، أو ضدّ من يطمعونهم بظلمهم والعدوان عليهم، لسلبهم أموالهم، أو لفرض سلطانهم عليهم.

٢ - ونشأت الصراعات الآثامات الظالمات بين القبائل والشعوب، ومختلف التكتلات والجماعات القديمة، وكانت أكثر الدوافع لقيامها الظلم والبغى والغزو العدواني.

٣ - ومن هذا ظهرت الولاءات والانتماءات القبلية، والقومية

والعرقية، التي لا تعتمد على مبادئ الحق والخير والفضيلة، وإنما تعتمد على مجرد التكتل الجماعي، والتناصر ولو بالظلم والعدوان، وظهرت العصبية التي تبدأ بالعصبية للأباء والأجداد، وتتسع حتى تكون عصبية قومية، ثم عصبية عرقية، فلعوية وإقليمية.

٤ - وبالعصبية ينصر الأفراد زعيم الجماعة، أو قائدها ورئيسها، وينصرون أفكاره ومبادئه ومفاهيمه، ولو كانت باطلة أو ظالمة آثمة، ولو كانت تجلب شراً وضراً للمجتمع البشري.

٥ - وبالعصبية تتقاتل الجماعات ذوات الولاءات المختلفة بالظلم والعدوان، وتُسفكُ الدماء، وتُهلكُ الحرث والنَّسْلُ وتُفسدُ في الأرض.

٦ - ثم ظهرت في المجتمعات البشرية ولاءات حزبية، وولاءات مذهبية، وظهرت فيها عصبية لمبادئ الأحزاب، وأفكار المذاهب، ولو كانت باطلة، نظير العصبية القديمة القبلية، والعرقية، والقومية.

٧ - وتوجد في الناس أيضاً ولاءات فكرية لأشخاص وثق الناس بعلمهم، أو بقدراتهم الفكرية، أو بحكمتهم في التصرف، أو نحو ذلك، فهم يقلدونهم تقليداً أعمى، ولو كان ما عليه قادتهم من فكر أو عمل، باطلاً أو فاسداً أو شراً، وجالباً ضراً.

إن تعظيم الأشخاص قد يوقع عند كثير من الناس في وهم عصمتهم عن الخطأ وهذا باطل.

العصبية كلها أمراض خبيثة:

وبالتحليل يظهر لأهل الفكر والإنصاف أن العصبية كلها أمراض خبيثة من الأمراض الاجتماعية، إذ لا يعتمد الولاء فيها على قواعد الحق والخير والفضيلة، بل يعتمد على مبدأ المناصرة ولو بالباطل والظلم والعدوان.



ومرضُ العصبية قد يستشري في نفوس الناس ويستحكم، حتى نجد بعضَ فضلاء أهل العلم يتعصبون للباطل المذهبي، ونجد بعضَ فضلاء المُتقنين الداعين إلى الحق يتعصبون للباطل الحزبي، تعصباً مقيتاً، يجعلهم يرفضون الإصغاء لأي بيانٍ يعرضُ الحقَّ المخالفَ لما تعصبوا له، مهما اقترنَ بما يُثبتُه من حجج وبراهين قاطعة، وسبب رفضهم كونه مخالفاً لما عليه المذهب، أو لما عليه قيادة الحزب.

وكلُّ الذرائع التي يقدمها الحزبيون والمذهبيون المتعصبون لجعل التعصبِ الحزبيِّ أو المذهبيِّ مقبولاً، أو أمراً غير مُنكر، ذرائعُ مرفوضةٌ في الموازين الإسلامية الصحيحة، والله عزَّ وجلَّ لا يقبلُ منها شيئاً، ولا يعذرُ من يلتزمُ الباطلَ تذرُّعاً بها، فكلُّ المِللِ والمذاهبِ الباطلة التي جعل الله الآخذين بها من أصحاب النار الخالدين فيها، ذرائعُهُم للأخذِ بها واتباعها هي من ثمرات شجرة التعصب الخبيثة.

### التقليد الأعمى ثمرة التعصب :

إنَّ مرض التقليد الأعمى يتولد تلقائياً من مرضِ التعصب، أو نقول: إنَّ التقليد الأعمى ينبتُ في أرض العصبية والولاءات الفردية والجماعية الناتجة عن المصالح المتبادلة بين الناس، أو الناتجة عن الثقة التامة ببعض القادة أو الزعماء أو العلماء أو المفكرين، فهذه الثقة يتولد منها التسليم المطلق بدون تأمل ولا بحثٍ ولا تفكير.

فمن مظاهر التعصب القبيح التقليدُ الأعمى، بالتزام الأفكار والمفاهيم والعقائد والعادات وأنواع السلوك التي تلتزم بها الجماعة التي ينتمي إليها المتعصب لها، أو التي يلتزم بها من يثق به من الناس.

والمتعصّب يُناصر الأشياء التي يقلّد فيها تقليداً أعمى بكلّ ما أوتي من قوّة، ويُدافع عنها، ويَحْتالُ لتأييدها بحجج واهية، وأقاويل زخرفيّة، ولو كانت باطلّة تشهد الأدلة القاطعة والحجج البرهانيّة بطلانها، وبأنّ الحقّ فيما يخالفها أو يضادّها.

وهذه الصفة من أقبح الصفات التي يتصف بها كثيرٌ من الناس، وتزداد قبحاً حينما تكون من صفات أهل العلم المفروض فيهم أن يكونوا مُتَجَرِّدين باحثين عن الحقّ، يتقبّلونه أينَ وجدّوه، ويَنصُرُونه حيث ظفروا به، ولو كان على نقيض ما عليه جماعة الحزب أو المذهب أو القوم الذين يتمنون إليهم.

وأخطر أنواع التقليد الأعمى بدافع التعصّب الذميمة التقليدُ في أشياء مناقضة للحقّ الذي أمر الله به في الدّين الحقّ عقيدةً أو عملاً.

ولذا جاء في القرآن المجيد التقييح والتلويم الشديدان، للذين يقلّدون تقليداً أعمى آباءهم وأجدادهم فيما كانوا عليه، من عقائد وعبادات وأنواع سلوك مخالف للحقّ والخير والفضيلة، التي أمر بها الله ونهى عن أضدادها.

وحكّم الله عزّ وجلّ على المقلّدين في الكُفر أو الفِسقِ والفجور بأنهم كافرون أو فاسقون فاجرون، كقادتهم الذين اتّبَعُوهم مقلّدين لهم في عقائدهم ومفهوماتهم وعاداتهم وأعمالهم.

وإبان الله عزّ وجلّ أنّ المقلّدين تقليداً أعمى لا عُذرَ لهم في أن يُقلّدوا على غير بصيرة، وأنّ عليهم أن يتحمّلوا نتائج التعصّب بغير حقّ، والتقليد في الباطل والغيّ والإثم والعدوان، عذاباً أليماً مع قادتهم يَوْمَ الدّين في نار جهنّم.

## بيانات قرآنية حول التقليد الأعمى

### النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

إنهم يتذرعون لما يرتكبون من فواحش بذريعتين:

الأولى: أنهم وجدوا عليها آباءهم، فهم يقلدونها فيها تقليداً أعمى، واثقين من أن آباءهم لا يفعلون القبائح والشرور والمنكرات.

الثانية: أن الله أمرهم بها، وهذه الذريعة ذريعة افترائية كاذبة على الله، فالله لا يأمر بالفحشاء، وإذا كان الوضاعون المفترون الذين افتروا على الله أحكاماً دينهم، قد زعموا لهم أن الله هو الذي أمر بالفحشاء، فعليهم أن يدركوا بعقولهم أن الله لا يأمر بالفحشاء، لأن الأمر بالفحشاء ينافي الحكمة، والله عز وجل حكيم لا يأمر بشيء ينافي حكمته.

وهذا الادعاء منهم قول على الله بغير علم، وهم محاسبون عليه عند ربهم، كما هم محاسبون على ما يفعلون من فحشاء.

\* \* \*

### النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن عاد قوم الرسول هود عليه السلام، وتمسكهم بالشرك الذي كان عليه آباؤهم، وما خاطبوا به رسولهم من إصرار على شركهم، وتحذيرهم لرسولهم بأن يأتيهم بما يعدهم به من إهلاك عام:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدَيْهِمْ وَنَذَرْنَا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يَوْمَآ تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٧٦﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ مِّمَّا تُجَدِّدُونَ لِي فِيْ اَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا اَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَاَنْظِرُوْا لِيْٓ اِنْ مَّعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

ولم تنفعهم ذريعتهمُ باتباعهم لما كان عليه آباؤهم من عبادة الأوثان، فقد أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتيةً فأهلكتهم، وأنجى الله هوداً عليه السلام والذين آمنوا معه برحمةٍ منه، وحقَّت كلمةُ العذاب على الذين لا يؤمنون بالحقِّ الذي تشهد له الأدلة البيّنة، والحجج البرهانية.

\* \* \*

#### النصّ الثالث :

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن قوم إبراهيم عليه السلام، ومناظرته لهم حول أصنامهم التي يعبدونها من دون الله :

﴿ وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اِبْرٰهِيْمَ ﴿١١﴾ اِذْ قَالَ لِاٰتِيهِ وَقَوْمِهٖ مَا تَعْبُدُوْنَ ﴿١٢﴾ قَالُوْا نَعْبُدُ اَصْنَامًا مَّا فَنظَلُّ لَهَا مِنْ اَعْيُنِنَا ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُوْنَكُمْ اِذْ تَدْعُوْنَ ﴿١٤﴾ اَوْ يَفْعَلُوْنَكُمْ اَوْ يَضُرُّوْنَ ﴿١٥﴾ قَالُوْا بَلَّ وَاَبَدْنَا اٰبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴿١٦﴾ قَالَ اَفَرءَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُوْنَ ﴿١٧﴾ اَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ اَلَا اَقْلَمُوْنَ ﴿١٨﴾ فَاَتَتْهُمْ عَذٰبَاتُ الرَّبِّ الْعَلِيْمِيْنَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

فحاجَّهُمْ سَيِّدُنَا اِبْرٰهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَجَجِ الْبَرْهَانِيَّةِ، فَاصْرَوْا عَلَيْهِ اَتْبَاعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَبَاؤُهُم بِالْتَقْلِيْدِ الْاَعْمٰى، فَلَا تَنْفَعُهُمْ مَعَاذِرُهُمْ التَّعَصُّبِيَّةِ التَّقْلِيْدِيَّةَ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

\* \* \*

#### النص الرابع :

قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥١/ نزول) بشأن فرعون وملته، ورفضهم ما جاءهم به موسى وهارون عليه السلام من الحق :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عِصْيَا جَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

فأعلنوا رفضهم عن أن يتحوّلوا عمّا كان عليه آباؤهم من شرك، وأصرّوا على باطلهم بتعصّبٍ وتقليدٍ أعمى، فأهلكهم الله بالإغراق في اليم، ولهم يوم الدين عذاب الحريق في جهنم وبئس المصير .

\* \* \*

#### النص الخامس :

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول) بشأن ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتوبوا إِلَيَّ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدَ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

فرفضوا دعوة رسولهم، وأصرّوا على ما كان عليه آباؤهم من الشرك، بتعصّبٍ وتقليدٍ أعمى، فأهلكهم الله بالصيحة، ولم يقبل ذرائعهم الباطلة القائمة على التعصّب والتقليد الأعمى .

\* \* \*

#### النص السادس :

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول) بشأن مدين

قوم الرسول شعيب عليه السلام، وما ردّوا به على دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم فيه من شرك وظلم وعدوان على الناس:

﴿ قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٤٧).

وكان حالهم ومصيرهم مثل حال الذين أُهْلِكُوا من قَبْلِهِمْ ومثل مصيرهم، فلم تَنْفَعُهُمْ عند الله ذرائعهم الباطلة، القائمة على التعصّب والتقليد الأعمى.

\* \* \*

النص السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) في وصف عذاب الظالمين في الجحيم، دار العذاب يوم الدين، مبيناً أنّ التقليد الأعمى قد كان هو السبب في ضلالهم، الذي أوصلهم إلى الخلود في العذاب الأليم:

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاءَ هُرْصَالَيْنِ ﴿١١﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَيْنِ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .  
أَلْفَوْا: وجدوا. يُهْرَعُونَ: يُسْرِعُونَ.

وفي هذا البيان تهديد للمشركين وسائر الكافرين بعد بعثة مُحَمَّدٍ ﷺ، بأنّ ضلالهم بسبب التقليد الأعمى سيجعلهم يعدل الله من المعذبين في الجحيم أبداً.

\* \* \*

النص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

هذا أول نصّ يتعرض - بدون مواجهة صريحة - للمشركين الذين دعاهم الرسول محمد ﷺ إلى التوحيد، فرفضوا وقالوا: لا نتبعك بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا، وكان ما سبقه من النصوص توطئة وتمهيداً.

وجاء الإقناع بأسلوب الاستفهام التعجيبى الاستنكاري، المتضمن التعجيب من أن يلتزموا اتباع ما وجدوا عليه آبائهم من شرك تعصباً وتقليداً أعمى، ولو كان الشيطان يدعوهم بهذه الذريعة الباطلة إلى عذاب السعير في جهنم.

\* \* \*

النصّ التاسع:

قول الله عز وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بشأن المشركين الذين دعاهم الرسول ﷺ:

﴿ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِيحُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أِفْكٌ مُّفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَلْهَامٌ مِّنْ رَبِّكَ يُنذِرُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ يَوْمَهُمُ الَّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

فتعرّض هذا النصّ لمقولات قادة المشركين التي كانوا يقولونها للذين يتأثرون بهم من أتباعهم، فاستثاروا تعصبهم وتقليدهم الأعمى بمقولتهم لهم: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ ﴾ .

وعلم الله رسوله وكلّ داعٍ إلى سبيل ربه من أمته، بعد ذلك في الآية (٤٦) من الشورة أسلوباً من أساليب معالجتهم بالإقناع الهادىء.

## النص العاشر:

قول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٣٦ نزول) بشأن

مُشْرِكِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي وُجِّهَتْ لَهَا دَعْوَةُ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ:

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جَحِشْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

عَلَىٰ أُمَّةٍ: أي: على طريقة، وهي الملة والديانة بالنسبة إليهم.

فعرض هذا النص مقالة الكفرة المشركين الذين قَبَلُوا دَعْوَةَ الرِّسَالَةِ الْخَاتَمَةِ، بِالْإِبَاءِ وَالرَّفْضِ، مُتَذَرِّعِينَ بِذَرِيعَةِ التَّعَصُّبِ لِلآبَاءِ وَاتِّبَاعِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ شِرْكٍ، وَمُدَّعِينَ أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا أَهْلَ عَقْلِ وَرُشْدٍ وَهُدًى، فَهَمَّ بِالتَّزَامِ اتِّبَاعِ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ، غَيْرُ ضَالِّينَ، وَاقْتِدَاؤُهُمْ بِهِمْ وَتَقْلِيدُهُمْ لَهُمْ هِدَايَةً وَرُشْدًا.

وَأَتَّبَعَ مَقَالَةَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْكُفْرَةَ بِعَرَضِ مَقَالَةِ مُشْرِكِي الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ قَبَلُوا دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهِمْ، بِمِثْلِ مَا قَابَلَ بِهِ الْمَشْرُكُونَ الْمَعَاصِرُونَ دَعْوَةَ الرِّسُولِ الْخَاتَمِ، مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ قَادَتُهُمُ الْمُتْرَفُونَ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ وَاتَّبَعَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ اتِّبَاعُهُمُ الْمُقْلِدُونَ لَهُمْ، وَالْمُتَعَصِّبُونَ فِي وَلَائِهِمْ لِقَوْمِهِمْ، مِنَ الْعَامَّةِ .

عِبَارَةٌ: ﴿ مُهْتَدُونَ ﴾ فِي الْآيَةِ (٢٢) تَدُلُّ بِاللُّزُومِ الذَّهْنِي عَلَىٰ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ السَّعَاصِرِينَ قَالُوا: وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ مُهْتَدُونَ، فَالاهْتِدَاءُ يَسْتَلْزِمُ الْاِقْتِدَاءَ .

وعِبَارَةٌ: ﴿ مُّقْتَدُونَ ﴾ فِي الْآيَةِ (٢٣) تَدُلُّ بِمَقْتَضَى التَّقَابِلِ مَعَ الْآيَةِ (٢٢) عَلَىٰ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ السَّابِقِينَ قَالُوا أَيْضًا: وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ مُهْتَدُونَ.



وأبان النصّ أنّ كلّ رسول قوم كان يرُدُّ على مقالة المشركين منهم بقوله:

﴿ قُلْ أُولُو جُنُوحِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ تُصِرُّونَ عَلَيَّ تَعْصِبَكُمْ وتقليدكم لهم؟! .

فيرُدُّ المشركون بتعصُّبٍ وتقليدٍ أعمى وإصرارٍ على الباطلِ واتِّباعٍ للهوى: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

وجاء في خاتمة النصّ بيان أنّ الله انتقم من المشركين الأولين، ولم يقبل منهم ذرائعهم، وفي هذا تهديدٌ للمعاصرين بمثل ما حصل للأولين.

\* \* \*

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) يعرض لقطة من قصة إبراهيم عليه السلام وقومه حول آلهتهم التي يعبدونها من دون الله:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

ويستمرّ عرض القصة حتى الآية (٧٠) من السورة.

وجاء هذا العرض بمثابة مناظرة جدلية للمشركين المعاصرين لتنزيل القرآن ثم من يأتي بعدهم، وفيه تعليمٌ للرّسول وللدعاة إلى سبيل ربّهم من أمته كيف يُحاجّون المشركين بشأن آلهتهم من الأوثان، وكيف ينصرون الحقّ ويبتنون عليه.

وفيه بيان أنّ الهزيمة الفكرية لاحقةٌ بالمتعصّبين المقلّدين بالباطل؛

وبأن النصر في آخر الأمر سيكون للحق وللمستمسكين به .

\* \* \*

النص الثاني عشر :

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أول سورة نزلت في المدينة بعد الهجرة، بشأن الذين يتخذون من دون الله أنداداً شركاء لله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧)

فعرض هذا النص ردّ المشركين المنعصين المقلدين لآبائهم تقليداً أعمى، على دعوة الحق، إذ يدعوهم الداعي فيقول لهم: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، فيقولون، لا نتبع ما تدعوننا إليه، لأننا لا نؤمن به، بل نتبع ما ألفتنا (أي: وجدنا) عليه آباءنا من عبادة الأوثان، والإيمان بها، وما وجدنا عليه آباءنا من عادات وتقاليد.

وفي هذا النص يرتقي البيان في التلويح والتشريب والتوبيخ، فيقول الله بشأنهم معرضاً عن مخاطبتهم:

﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي: أيبصرون على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من المعرفة الصحيحة، ولا يعقلون بإراداتهم أنفسهم عن اتباع أهوائهم الجانحة، وشهواتهم الجامحة، وعن سلوك سبل الضلال والغي. ولا يهتدون إلى صراط نجاة وفلاح في حياتهم.

والمعنى: إن من يبصر مثل هذا الإصرار بتعصّب وتقليد أعمى، لا عقل له يعقل به، ولا بصيرة له يبصر بها الحق، ويهتدي بها إلى نجاته وسعادته، فهو بذلك يعرض نفسه ليكون من أصحاب النار خالداً فيها أبداً.

النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) وهي من  
أواخر التنزيل المدني:

﴿... وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

فكان هذا النص آخر ما نزل في المراحل البيانية حول هذا الموضوع،  
وهو شبيه بالنص الذي نزل في أوائل المرحلة المدنية .

إلا أن هذا النص من سورة (المائدة) قد جاء فيه:

● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ .

فجاء فيه إضافة فكرة الدعوة إلى اتباع الرسول، مع اتباع ما أنزل الله .

وجاء فيه عبارة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بدّل ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ فتكامل النصان في أداء  
المعاني المراد بيانها .

واكتفى هذا النص الأخير بتكرير عبارة التلويح والتشريب والتوبيخ، على  
الإصرار على التقليد الأعمى بتعصّب ذميم، لا عقل فيه ولا رُشد .

- ٣ -

### وسائل علاج التقليد الأعمى

على حامل الرسالة أن يعالج التقليد الأعمى فيمن يوجه لهم رسالته،  
بمختلف الوسائل الممكنة، بدءاً بأخفها وأهونها وأبعدها عن المواجهة  
المباشرة، ثم يرتقي شيئاً فشيئاً من الأخف إلى الخفيف، فالشديد فالأشد من  
أساليب التوجيه غير المباشر .

فإذا لم تُجَدِ الوسائل غيرُ المباشرة انتقل إلى الوسائل المباشرة، متدرجاً فيها من الأخف فما فوقه، ويترقَّى صاعداً شيئاً فشيئاً، ومتى استجاب من يوجّه له رسالته للحقّ توقّف عند الدرجة التي استجاب عندها، ولا يزيد عليها.

ومن الواجب دواماً أن يلتزم التلطفَ والرفقَ إلا عند الضرورة القصوى، وأن يلتزم التدرج الارتقائي، وأن يتحلّى بالحلم والصبر وسعة الصدر والتغاضي عمّا يوجّه له من إساءات مع العفو والصفح والتكريم.

هذا ما دلّت عليه منهجية النصوص القرآنية التي سبق استعراضها في الفقرة السابقة، وقد لاحظنا فيها التدرج الارتقائي الذي دلّت عليه مراحل نجوم التنزيل، ابتداءً من أوائل التنزيل المكيّ، وحتى أواخر التنزيل المدنيّ، من تاريخ دعوة الرسول ﷺ في قومه.

ومن الوسائل النافعة لعلاج داء التقليد الأعمى ما يلي:

#### الوسيلة الأولى:

الإقناع بأن الإسلام قائم على الحقّ، وهو يدعو إلى الحق حيث كان، فلا ينحاز إلى أيّ عرقٍ أو لونٍ أو قومٍ أو شعبٍ أو جماعةٍ خاصة، دون سائر الناس، إذ هو في أسسه ومبادئه وتعليماته لا يفرّق بين الشعوب والقبائل والأقوام الأعراق.

والإقناع بأنّ التعصّب بغير حقّ داءٌ اجتماعيٌّ يتنافى مع فضائل الأخلاق، التي يدعو الإسلام إلى التحلّي بها، والالتزام بها.

والإقناع بأنّ الإسلام يُقرّر أن كلّ إنسانٍ ذي فكرٍ مسؤول عند الله عن أن يُحقّق الحقّ، ويُبطل الباطل، ويُنصر المظلوم، ويأخذ على يد الظالم، ويقيم العدل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

### الوسيلة الثانية:

اتخاذ الوسائل لتكوين رأي عام يتفق على ذم داء التَّعَصُّبِ بغير حق، وضرورة تخلص المجتمعات الإنسانية منه، وذم ما كانت عليه الأمم البدائية الهمجية، التي كانت مُصَابَةً بداءِ التعصُّبِ بغير حق، لقبائلها وشعوبها وأقوامها، فأبْعَدَهَا هذا الداء عن الحق وعن سلوك سبيل الهدى والرشاد.

### الوسيلة الثالثة:

الإقناع بأن التقليد الأعمى أحدُ المفزاتِ التَّتَبُّعِ لداء التَّعَصُّبِ الذميمة، القائم على التناصر ولو بالباطل والظلم والعدوان، والإثم والبغي والطغيان.

### الوسيلة الرابعة:

عرض قضايا الحق التي جاء بها الإسلام مقترنةً بأدلتها وحججها البرهانية.

### الوسيلة الخامسة:

التطَلُّفُ بالمقلِّدين تقليداً أعمى، ببيان أن موارث الشعوب تتأصل في النفوس بطريقة غير شعورية، إذ لا تَمُرُّ على محاكمة عقلية، فلا بُدَّ من مجاهدتها جهاداً طويلاً للتخلص منها، ومن يجاهد نفسه حتى يتخلص مما تأصل فيها من موارث باطلة ينال عند ربه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، مع المجد الذي يظفر به بين الناس إذا استطاع أن يهجر الباطل، ويرتقي إلى مراتب الحق الرفيعة بإرادة قوية حازمة.

### الوسيلة السادسة:

التزام السياسة الحكيمة التي علّمنا الله عزّ وجلّ أن نقول فيها للمخالفين الذين هم في ضلالٍ مبين، كما جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

وبهذا الإعلان يضع حامل الرسالة الإسلامية مفهومات الإسلام، ومفهومات المخالفين المناقضة لها على مائدة البحث، وضعاً متساوياً، مشروطاً بأن يتجرد كل فريق من سوابق أفكاره، وبأن ينظر في موضوع البحث نظراً مُتَجَرِّداً من أية عوامل خارجة عن ابتغاء الوصول إلى الحق، فما دلت الأدلة الصحيحة أو البراهين القاطعة على أنه هو الحق، كان على كلا الفريقين أن يعترف به ويلتزمه، دون ملاحظة أنه قد انتصر أو انهزم في مجال البحث، بل الطرفان قد تعاونوا في البحث للوصول إلى الحق، بغية الاستمسك به، فالمستمسك بالحق هو المنتصر على الباطل والترغبات النفسية، والترغبات الشيطانية الداعية إليه.

وبالتزام الفريقين بالحق الذي يوصل إليه البحث المُتَجَرِّدُ التزيه، يكونان معاً متصيرين على ثالث هو الشيطان الذي يعملُ دوماً على الإغراء بالباطل، والإغواء والإضلال عن الحق والخير والرشد والهدى.

#### الوسيلة السابعة:

حين لا تجدي الوسائل الرفيعة السابقة، قد يكون من المفيد استخدام الوسائل الإعلامية، للتشجيع على المتعصبين بالباطل، المقلدين تقليداً أعمى، والتشهير بسفاهتهم ونقصان عقولهم واتباعهم لأهواء النفوس، وبيان فساد مبادئهم، ومفهوماتهم، وآرائهم، ومعتقداتهم، وتصرفاتهم، وفساد أدلتهم، ودمغها بالحجج البرهانية، والأدلة العلمية.

\* \* \*

المقولة الحادية عشرة  
من العقبات الصادات

- ٥ -

عقبة حسدٍ من توجَّه له الرسالة

- ١ -

تأثير داء الحسد في النفس والسلوك

● كان داء الحسد هو الداء الذي صرف اليهود عن اتباع الرسول محمد ﷺ، مع علمهم بأنه هو الرسول الخاتم المبشَّر به في كتبهم، فقد عرفوه بصفاته المتميزة المذكورة عندهم كما يعرفون أبناءهم.

قال الله عز وجل بشأنهم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهو من التنزيل المدني المضموم إلى سورة مكية:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وقال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً في معرض الكلام على بني إسرائيل:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾  
بِسْمَا أَشْتَرُوا بِوَيْهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَضْبٍ عَلَى عَضْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩١﴾﴾.

بغياً: أي: حسداً تجاوزوا به الحد، إلى الكفر الذي يجعلهم خالدين في عذاب الله.

● وكان داء الحسد مع داء الكبر هما الداءين اللذين جعلاً إبليس لعنة الله يعصي بإصرار أمر ربه له بالسجود لآدم عليه السلام، فقد عاند وكابر على الرُغم من وضعه موضع المحاسبة والمقاضاة ثلاث مرات، دلت عليها فوارق النصوص القرآنية الثلاثة التي عرضت قصة مساءلة الله له عن سبب رفضه طاعة أمر ربه، وجحد حق إلهية الله، ولم يعترف بذنبه، بل اتهم ربه بأنه لا حق له في أن يأمره بالسجود لآدم، زاعماً أنه خير من آدم، إذ خلقه الله من نارٍ وخلق آدم من طين.

● فالحسد داءٌ خطيرٌ يصرف المصاب به عن قبول الحق والاستجابة لدعوة حامل رسالته، ويجعله يُصرُّ على الباطل ويُعانِدُ وَيُكَابِرُ، وَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ للعذاب الأبدي في نار جهنم.

والحسد من عقبات النفوس الكأداء التي تُوجَد عند بعض الناس، إنها عقبةٌ خبيثةٌ صادةٌ، تجعل الحاسد يرفض كل ما يوجّه له المحسود أو بعضه، ولو كان حقاً وخيراً، وفيه نفعٌ عظيمٌ وخيرٌ جسيمٌ للحاسد، وقد أحسن بعض الأدباء الشعراء، إذ وصف داء الحسد في نفس المصاب به بالنار التي تعذبه وتأكله من داخله.



إن عقبة الحسد تشبه عقبة الكبر والعجب بالنفس، إِنَّهَا تُغَشِّي مِنْ بصيرة المصاب بِدَائِهَا بِمَقْدَارِ كِبَرِهَا وَضَخَامَتِهَا وَعَظَمَتِهَا، فَهُوَ بِسَبَبِهَا لَا يُحَاوِلُ التَّفَكِيرَ فِيمَا يُوَجِّهُ لَهُ المَحْسُودُ مِنْ دَعْوَةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى الحَقِّ وَالخَيْرِ، أَوْ بَيَانِ وَتَعْلِيمِ، أَوْ نُضْحِ وَإِرْشَادِ وَتَرْبِيَةِ، أَوْ أَمْرِ بِالمَعْرُوفِ أَوْ نَهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ نَحْوِ هَذِهِ الأُمُورِ. إِنَّهُ يَرْفُضُهُ تَلْقَائِيًّا دُونَ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يَدْخُلَ إِلَى سَاحَةِ تَفْكِيرِهِ.

- ٢ -

### وسائل تخطي أو تحاشي عقبة داء الحسد

يستطيع حامل الرسالة الإسلامية الحكيم أن يتخطى أو يتحاشى عقبة الحسد التي يلاحظها لدى من يوجه له رسالته، بأساليب ووسائل حكيمة متعددة، منها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: ترضية نفس الحاسد بمحابتها وما ترغب فيه مما أذن الله به، فمن شأن هذه الترضية أن تحث عقبة الحسد في نفسه شيئاً فشيئاً حتى تهدمها.

الوسيلة الثانية: استخدام أساليب التوجيه غير المباشر.

الوسيلة الثالثة: تكوين رأي عام حول ما يراود توجيهه للحاسد، فمع الرأي العام السائر في اتجاه ما تنهدم عقبات الحسد الموجه ضد شخص حامل الرسالة، أو ضد أسرته أو قبيلته أو جماعته الخاصة التي ينتمي إليها.

الوسيلة الرابعة: مداراة الحاسد بالتكريم والتودد وتجاهل حسده، والإغضاء عن إساءاته.

الوسيلة الخامسة: إعطاء الحاسد فرصة اكتشاف المطلوب منه بنفسه، معرفة كان أو عملاً.

الوسيلة السادسة: فَتَحُ باب النقاش والمجادلة مع غيره بحضوره، حول الموضوع المراد إقناعه به أو توجيهه له، ليشارك في الاستماع والتفكير، دون أن يَشْعُرَ بأنه هو المقصود بتوصيل الرسالة إليه .

الوسيلة السابعة: وَضَعَهُ في بيئةٍ يتأثرُ بها عن طريق المحاكاة والتقليد والغيرة، ويندمج فيها، وَيَشْعُرُ معها بالمشاركة العامة، دون أن تشتعل في داخله نار الحسد .

الوسيلة الثامنة: تكليف شخصٍ غيرٍ محسودٍ أن يبلغه الرسالة التي يُرادُ إيصالها إليه .

إلى غير هذه الوسائل ممّا يمكن أن تُتَخَطَّى بها أو تُتَحَاشَى عقبةُ الحسد .

وَلَا يَعْدَمُ حاملُ الرِّسَالَةِ الحكيمُ أن يجد وسيلةً مفيدة ذات جدوى، يُوصِلُ بها رسالتهُ إلى من يراه حاسداً له، دون أن يصطدم بعقبة الحسد التي تُصُدُّ بياناته وبلاغاته ونصائحه عن أن تَصِلَ إلى فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ .

ومن لم تُجِدِ فيه وسيلةً من الوسائل الحكيمة الرفيقة ثم العنيفة في آخر مراحل معالجته، فينبغي الإعراض عنه، وعدم إضاعة الوقت والجهد فيه .

\* \* \*

المقولة الثانية عشرة  
من العقبات الصادات

- ٦ -

عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا  
لدى من تُوجَّه له الرسالة

- ١ -

شرح هذه العقبة

ومن العقبات الصادات لما يُوجَّهه حاملُ الرسالة، أنَّ ما يُوجَّه له مُخالفٌ لأهواءٍ وشهواتٍ مَنْ يُريد توجيةَ عناصر رسالته لهم.

ومن المعلوم في طبائع النفوس أنَّها تقع تحت تأثير أهوائها وشهواتها من متاع الحياة الدنيا، وأنَّ كثيراً من أهواء النفوس وشهواتها تدخلُ في قائمة المحرِّماتِ في الدين، لما تجلبُه من شرور ومضارٍ فردية واجتماعية، ولما في الاستجابة لمطالبها من معصية لله عزَّ وجلَّ، وجلبٍ لسخطه وغضبه واستحقاق عقوبته.

ومن المعلوم أنَّ التحرُّرَ من سلطان أهواء النفوس وشهواتها شديدُ الصُّعوبة على الواقعين تحت تأثيرها.

ولهذا ينبغي لحامل الرسالة أن يتخذ من الوسائل المأذون بها شرعاً، ما

يرأه مفيداً لتخطي هذه العقبة، أو تحاشيها، أو تصغيرها وجعلها قاصرة على غير ما حرّم الله من مشتبهات النفوس ومطالب أهوائها، في الذين يؤدي بينهم رسالته.

وفي الفقرة التالية عرض لطائفة من هذه الوسائل.

- ٢ -

### وسائل معالجة عقبة الأهواء والشهوات

ومن وسائل معالجة هذه العقبة ما يلي:

١ - اتّخاذ الوسائل الإقناعية، التي تجعل من توجّه له الرسالة يؤمن بأن ما يُقدّم له من دعوة أو تعليم أو نُصح وإرشاد أصلح له، وأكثرُ سعادةً، وأمتعَ لِنَفْسِهِ عاجلاً أو آجلاً، ممّا هو مُتعلّقُ به ممّا يُرضي أهواءه وشهواته، وممّا ثبت واستقرّ في سلوكه من عاداتٍ محبّبةٍ إلى نفسه.

٢ - اتّخاذ الوسائل غير المباشرة، كتقديم نماذج القدوة الحسنة، والغمس في بيئة ملتزمة في طريقة حياتها بالسلوك الإسلامي، والعرض العام غير الموجه توجيهاً خاصاً، إلى غير هذه الأمور من وسائل التوجيه غير المباشر.

٣ - استرضاء نفس من توجّه له الرسالة بما يحبّ ويهوى ممّا أباح الله من متاع الحياة الدُّنيا، لتكون بدائل لما هو منغمس فيه من شرور.

٤ - تعليق مطامع نَفْسِهِ بالنعيم الخالد الذي أعدّه الله للمتقين، في جنّات النعيم.

٥ - نَقْلُهُ مِنْ بَيْتِهِ الَّتِي تجذبه إلى ما كان فيه من انغماس في مطالب

أهوائه وشهواته، إلى مَوْطِنٍ آخِرٍ صالح، وبيئة تساعد على نفسه.

٦ - تدريبه على طاعة الله حتى يذوق حلاوتها فيتعلق بها.

إلى غيرها من وسائل يكتشف حامل الرسالة أنها ذاتُ جدوى في معالجة هذه العقبة.

\* \* \*

شرح عقبات القسم الثالث  
عقبات تكون أسبابها في الوسط بين  
حامل الرسالة ومن توجّه له  
وهي ثلاث عقبات

المقولة الثالثة عشرة  
من العقبات الصادات

- ١ -

عقبة الوسوس والتسويلات الشيطانية

- ١ -

شرح هذه العقبة

وسوسة الشيطان: حديثه الخفي الذي يُبَاشِرُ مَرَكَزَ الإدراك في النفس،  
ولا يشترط أن يأتي عن طريق أداة السَّمْع، لأنَّ الشيطان يجري من ابنِ آدم  
مجرى الدَّم.

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أنس وصفية أن الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ».

وأصلُّ الوسوسة الصوت الخفي.

والشيطانُ يُوسوسُ في صدرِ الإنسانِ ليُغريه ويخدعه فيُغويه، ويستخدم في إغرائه وخدعه إثارة الشبهات، وتهيج الأهواء والشهوات.

تسويل الشيطان: إطماعه بالباطل، وتزيينه وتحسينه بالسوسة ما يدعو الإنسان إليه، وتحبيبه إليه، وإغراؤه به، وتسهيله له.

● إن إبليس بعد أن طرده الله وحكم عليه بالغواية حكماً مُبرماً، حقد على آدم وزوجه وذريتهما، فسأل ربه أن يُنظره في الحياة إلى يوم الدين، فأعطاه الله الوعد بأن يُنظره إلى وقت إهلاك الأحياء، لا إلى وقت البعث، فلما أخذ الوعد بهذا أعلن قراره في أن يعمل في إغواء ذريتهما، وأن يحمل أعباء هذا الإغواء.

فمن استجاب له منهم، واتبع خطواته فاده أساقه إلى المعصية والإثم على قدر نسبة الاستجابة التي قد توصل إلى الخلود في عذاب السعير.

ومن لم يستجب له حماه الله من تحقيق مراداته فيه، الرامية إلى غمسه في أحوال الشرور، وحمأة الموبقات، والعذاب الأليم.

● واتخذ إبليس لنفسه خطة عمل للإضلال والإغواء، بالسوسة والتسويل والإغراء، فقال لربه مبيناً خطته كما أخبرنا الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْدَنَ لِمَنْ صَرَفَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُورًا لَمَنْ يَبْغَى مِنْهُمْ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

مذموماً: أي مذموماً، معيباً، مخزياً، مطروداً.

مذخوراً: الذخر: الطرد والإبعاد المقترن بدفع عنيف فيه إهانة وإذلال.

فَبِمَا أَعُوذْتَنِي: أي: فيما حكمت عليّ بالغواية، وفصلت القضاء بشأني منذ الآن، وجعلتني من أهل النار.

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ: أي: لأقعدنّ لهم راصداً صراطك المستقيم، وهو كلّ ما اشتمل عليه الدّين من بيانات تتعلّق بحقائق علميّة يجب الإيمان بها، وأعمال قلبية ونفسية وتروك، وأعمال جسدية ظاهرة وتروك تجب طاعة الله فيها.

﴿ ثُمَّ لَأَنبِئَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١٧)

أَبَانَ إبليس بهذا خُطّة حركته للإغواء، بأنّه سيعمل على صرف بني آدم عن البدء بالسّير على صراط الله من بين أيديهم صدّاً عنه ودفعاً، ومن خلفهم شدّاً وجذباً حتّى لا يدخلوه، فإذا سار منهم على صراط الله سائرون فإنه سيعمل على إخراجهم عنه، من ذات اليمين، انحرافاً إلى السُّبُل المتفرّقة فالمتاهات، ومن ذات الشّمالي، انحرافاً أيضاً إلى السُّبُل المتفرّقة فالمتاهات.

والشيطان في منع الناس عن سلوك صراط الله المستقيم، أو إخراجهم منه، لا يحتاج إلى أن يعمل من فوقهم، ولا إلى أن يعمل من تحتهم، إنّما يحتاج إلى أن يدفعهم عن سلوكه من بين أيديهم، وإلى أن يجذبهم من خلفهم حتّى لا يسلكوه، فإذا سلّكوه فخطّته تنحصر بمنعهم عن متابعه السّير، والوسيلة إلى ذلك إخراجهم عنه من ذات اليمين ومن ذات الشمال.

ولا توجد سُبُل انحرافية إلى الأعلى، ولا إلى الأسفل، فالعلو على سمت الصراط هو من الصراط، وإن وجد للصراط مسالك من تحته مسامته له فهي أيضاً من الصراط.



وبهذا نستغني عن آراء اجتهادية ذكرها بعض أهل التأويل بالنسبة إلى  
جهة الفوق، إذ لم يقل إبليس: ومن فوقهم.

وباستطاعة المتفكر أن يستفيد هذا التحليل الذي سبق بيانه من حديث  
صحيح جاء فيه وصف لصراط الله المستقيم.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ،  
فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ  
يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِّرَاطِ، وَلَا تَعْوِجُوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كُلَّمَا  
هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ. قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ  
تَفْتَحْهُ تَلْجَهُ».

ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ.

«أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَأَنَّ السُّورَ  
الْمُرْخَاةَ حُدُودَ اللَّهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ  
مِنْ فَوْقِهِ وَاِعْظُ اللَّهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»<sup>(١)</sup>.

رواه الإمام أحمد ورزين بسند صحيح.

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ: أي: ولا تجد بعد تنفيذ برنامج عملي في  
الإغواء أكثر بني آدم شاكرين شكراً هو من أدنى درجات الشكر بالإيمان  
وإعلان الطاعة، بل ستجد أكثرهم كافرين.

واستثنى إبليس عباد الله المخلصين بكسر اللام، والمخلصين بفتح

---

(١) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف الحديث  
الحادي والعشرون.

اللام، كما جاء في سورة (ص/ ٣٨/ مصحف/ ٣٨/ نزول) فقد جاء فيها حكاية لقول إبليس:

﴿ قَالَ فِعْرِيكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

المُخْلِصِينَ: بكسر اللام قرأه ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب، وابن عامر، والمراد من أخلصوا لله في إيمانهم وإسلامهم.

المُخْلِصِينَ: بفتح اللام قراءة باقي القراء العشرة، والمراد الذين يصطفاهم الله من عباده فيعصمهم من الشياطين كالأنبياء عليهم السلام.

● ووضع إبليس في خطته التي رسمها للوسوسة والتسويل والإغراء، بغيّة الإضلال والإغواء، أن يتخذ الخطوات المتنازلات في الدركات خطوة خطوة، لا أسلوب القذف من الضد إلى الضد المقابل، كالقذف من أعلى الجبل إلى قاع الوادي، وهذا الأسلوب يُمكن التعبير عنه أيضاً بالتذلية<sup>(١)</sup> شيئاً فشيئاً، فهو يُدلي من ينخدع بوساوسه ودسائسه وتسويلاته في آبار المعاصي والآثام، حتى أعماق الفجور، فقاع أشد الكفر والتفاق.

والتعبير بالتذلية جاء بياناً لما فعل إبليس بأبونا آدم وحواء، فقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِفُرُوقٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن رِّيقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولئلا يقع الناس فريسة للشيطان، بسياسة الخطوات المتنازلات الماكرات، حذرهم الله عز وجل من اتباع خطواته، في عدة نصوص قرآنية تناولت موضوعاتٍ مختلفات.

(١) دلي الذل في البئر، إذا أنزله شيئاً فشيئاً.

١ - ففي مَرَحَلَةِ التَّنزِيلِ المَكِّي، وفي مَعْرِضِ بَيَانِ افْتِرَاءِ المَشْرِكِينَ عَلَى اللَّهِ بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يَحْرَمَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَنْعَامِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ/٦ (مصحف/٥٥ نزول):

﴿... كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ .

أي: لا تتبعوا خطوات الشيطان بالافتراء على الله في أحكام تشريعية هي من خصائص ربوبيته وإلهيته .

٢ - وفي أوائل مرحلة التنزيل المدني خاطب الله الناس جميعاً بقوله عز وجل في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ .

فأبان هذا النص أن من اتبع خطوات الشيطان ما يلي:

(أ) طاعته فيما يأمر به من فعل السوء، والسوء يبدأ من صفات الذنوب والمعاصي والمخالفات والآثام، وينحدر إلى أشدها وكبائرها .

(ب) طاعته فيما يأمر به من الفحشاء، والفحشاء كباير الذنوب، التي تمتد بقعة انتشارها وتغظم قباحتها، وآثارها الفاسدة، والمفسدة .

(ج) طاعته فيما يأمر به من تقوّل على الله في دينه، وتحريف في أحكام شريعته لعباده، سواء أكان ذلك في الحقائق العلمية الاعتقادية، أو في الأحكام السلوكية الداخلية أو الخارجية .

فالشيطان بخطواته المتنازلات يبدأ بأهون الذنوب وأصغرها، ويتنقل بمن يغويهم ويخدعهم شيئاً فشيئاً إلى المعاصي الأشد فالأشد حتى يوصلهم إلى الشرك، فما هو أقبح وأخس من الشرك. كالإلحاد بإنكار وجود الخالق وكالنفاق .

٣ - وخاطب الله عز وجل المؤمنين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً بقوله تعالى في معرض بيان ما قد يقع بين المؤمنين من مقتضيات للقتال، يكون لفريق منهم اجتهادات تستحُّه على أن يُقاتل مُضحياً بنفسه ابتغاء مرضاة الله لإصلاح الفساد الذي انتشر في المجتمع الإسلامي، بسبب متسلطين ظلمة طغاة مفسدين:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ .

فدلَّ هذا النصُّ على وجوب لجوء جميع الفرقاء من المسلمين المؤمنين إلى السلم فيما بينهم، والعمل على إصلاح الفساد بالطرق السليمة، والدواعي القائمة ربَّما تجعل القتال لإصلاح الفساد مأذوناً به في أول الأمر، إلا أن الشيطان يستغله، ويستهوِي بخطواته الماكرات إلى أن يتحوَّل القتال بين المسلمين إلى ما هو أشدُّ شراً وضرراً وفساداً من الفساد الذي قام المصلحون لمحاربة ناشريه الطغاة المفسدين.

وقد يقع الذين كانوا في أول الأمر يبتغون الإصلاح، في الزلل انتصاراً للنفس والهوى، وهؤلاء يهدُّهم الله بعزته الغالبة، التي ينصر فيها بحكمته من يشاء، وهذا ما يدلُّ عليه قوله تعالى في النص:

﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ .

٤ - وفي معرض بيان حادثة الإفك وما يتصل بها من عظات وتوصيات وأحكام، خاطب الله عز وجل الذين آمنوا في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿١١﴾ .

إن إشاعة الاتهام بالزنا مجالاً واسعاً يستهوي فيه الشيطان بخطواته الماكرات إلى فسادٍ عريضٍ في المجتمع الإسلامي، فاقتضت الحكمة أن يحذّر الله عزّ وجلّ الذين آمنوا من اتباع خطواته في أثناء الآيات التي نزلت بمناسبة حديث الإفك على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والتي نزل القرآن ببراءتها، وبيان طهارتها وعفتها.

● وعرف إبليس عليه لعنة الله مواطن الضعف لدى بني آدم، ورأى أن باب الشبهات قد يفتح إلى مسالك كثيرة تستهوي إلى أودية الشرك بالله، فما هو أشدّ من الشرك من أنواع الكفر، ورأى أن باب الأهواء والشهوات يفتح إلى مسالك كثيرة جداً، تستهوي إلى أودية المعاصي والآثام فالجرائم الكبائر، فالظلم والعدوان، والبغي والطغيان، فالشرك فما هو أشد منه من أنواع الكفر.

ونظر بجانب ذلك إلى خطته التي رسمها للإضلال والإغواء، فوثق من نجاح خطته، واطمأن إلى أنه سيمتطي ظهور أكثر بني آدم، وسيضع اللُجَمَ في أفواههم، ويسدّهم بها من أحناكهم كالذواب، ويسوقهم بعصاه إلى دركات العذاب الأليم في جهنم، فقال إبليس لربه كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزل):

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٣﴾ وَأَسْتَفْرَزَ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بَصُورَتَكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلِكَ وَرَجَّلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ  
وَكُفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ .

لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ: أي: لأستميلنهم ولأستولين عليهم، ولأسوقنهم من  
أحناكهم كما تُساقُ الدواب، أو لأقودنهم من أحناكهم.

يقالُ لغة: احتنكُ الدابة، إذا وضع في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به.

واستفزرُ: أي: واستخفّ بالمفزعات والمخيفات، واستخرج، يقال  
لغة: استفزه، إذا استخفّه بالمخيفات والمفزعات واستخرجه، وإذا ختلّه حتّى  
ألقاه في مهلكة.

وأجلب عليهم: أي: وتوعدهم بالشرّ جامعاً جموعك عليهم، يقال  
لُغة: أجب الرجل الرجل إذا توعده بشر، وجمع الجمع عليه، وأجلت عليه،  
إذا جمع الجمع ضده.

بخيالك: أي: بجندك الفرسان ركاب الخيل.

ورجلك: أي: وبجندك من المشاة، رجل: اسم جمع للمشاة، أو هو  
جمع لراجل، وهو الماشي خلف الراكب على ظهر.

فأعطى الله عز وجل التمكين لإبليس بأن يعمل ما استطاع في إغواء  
الناس، بأن يستخف منهم من يستجيب له بما يلي:

(أ) بالصوت، أي: بالكلام والوساوس، واستخدام الوسائل الصوتية  
الإعلامية.

(ب) وبالتخويف، باستخدام التوعّد بالشرّ وبالمظاهر المثيرة للخوف.

(ج) وبالمشاركة في الأموال والأولاد إذا لم يتحصنوا باسم الله  
والاستعاذة به، فالشيطان يُشارك الإنسان في طعامه إذا لم يُسم الله عليه،  
ويتلاعب بالأولاد من الناس لتشتتهم تنشئة فاسدة متفلتة، إذا لم يُحصنهم

أولياؤهم بالاستعاذة بالله من الشياطين، ولم يُحْسِنُوا الإِشْرَافَ عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةً إِسْلَامِيَّةً سَلِيمَةً.

(د) بِالْوَعْدِ بِمَا يَحِبُّ النَّاسُ، لَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَاذِبٌ فِي كُلِّ مَوَاعِيدِهِ، لِلنَّاسِ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١١).

وبعد أن أعطى الله إبليس التمكين من الإغواء ضمن هذه الحدود التي أبانها له، أعلمه بأن عبادة المؤمنين ليس له عليهم سلطان، لأنهم يستعيذون بربه، ويتوكلون عليه، فيقيهم الله ويحميهم من أن تؤثر فيهم إغراءاته، ووساوسه، وتسويلاته، وإيعاداته، ومواعيده، فقال له:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (١٥).

أي: إن عبادي الذين يؤمنون بي ويستعيذون بي ويتوكلون عليّ، لا يكون لك عليهم سلطان، لأنني أكنفيهم بحفظي وعزتي، وكفى بي وكيلاً يحفظ ويحمي.

● وَوَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحذِيرَهُ لِلنَّاسِ جَمِيعاً، مِنْذَ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمُتَابَعَةً فِي كُلِّ رِسَالَتِهِ، حَتَّى خَاتَمَتَهَا رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ، مِنْ إِبْلِيسِ وَذَرِيَّتِهِ وَكُلِّ جُنُودِهِ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ لَهُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

فمن هذه التحذيرات ما يلي:

١ - قول الله عز وجل الذي أبان فيه وصيته لبي آدم الأولين، كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿يٰٓبَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧).

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥١﴾ ﴾ .

- ٢ -

## وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء

تتبع القرآن والسنة لاستخراج وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء، تظهر للباحث المتتبع الوسائل التالية:

١ - استخدام وسيلة الإقناع بأسس الإيمان بالله وباليوم الآخر، وبأن رحلة الحياة الدنيا رحلة امتحان، وبأن الدار الآخرة هي دار الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء الأمثل، وبأن الجزاء يكون بالعدل في نار جهنم لمن أساء، وبالفضل في جنات النعيم لمن أحسن.

٢ - استخدام وسيلة الإقناع بعداوة الشيطان وذريته لبني آدم، وبأن شيطان كل إنسان يجري منه مجرى الدم، فهو يوسوس له في داخل نفسه، على صورة خواطر وأفكار، ونزغات أهواء وشهوات ورجبات محرّمات.

مع تكرير التذكير بقصة إخراج أبويّننا آدم وحواء من الجنة، باستهوائهما حتّى عصيا أمر الله لهما، إذ وسوس لهما وسوّل وأطمعهُما بالباطل، والقي في قلوبهما فاعلية الأسباب بذاتها من خلال ادعائه أنّ الشجرة المحرّمة فيها المادّة التي تُكسب الحيّ الخلود، وهذا فرع من فروع الشرك، فقبلا مقالته التضليلية، فأكلا من الشجرة عاصيّن لربّهما، فأخرجهُما ممّا كانا فيه إلى الدنيا، إذ عاقبهما الله عزّ وجلّ بهذا الإخراج.

٣ - التوجيه للاستعاذة بالله السميع العليم، من وساوس الشيطان وتسويلاته، كلّما نزع في داخل النفس نزغاً، أو غمراً أو استغز شهوة أو هوى.



٤ - التحذير المتتابع من اتباع خطواته المتسفلات، التي تُدَلِّي بغرور، في آبار المخالفة والإثم والعصيان، إلى قاع الفجور، والكفر.

٥ - متابعة عرض البيانات التحذيرية في نصوص القرآن والسنة بشأن الشيطان وفتنته.

٦ - الاهتمام ببيان مسالك الشيطان وحياته، ومدخله إلى النفوس، ومكايده التي يكيدها كُلُّ طبقات الناس، وكلِّ مستوياتهم، وكلِّ شرائحهم الاجتماعية، وكلِّ تخصصاتهم، حتَّى العُلَمَاءَ بالدين، والفقهاء، والصُلَحَاءَ، والعُبَّاد والرُّهَاد.

فللشيطان إلى نفس كلِّ إنسانٍ غير معصوم بعصمة الله عزَّ وجلَّ مدخلٌ أو مداخلٌ متعدِّدةٌ إلى نفسه، يكيده الشيطان منها. وبعض النَّاسِ لهم نفوسٌ مفتوحة الحدود، لا تُحيطُ بها أسوارٌ ولا سُدُود، فالشياطينُ تتلاعبُ داخل نفوسهم كما تشاء، فتغريهم وتستهوهم وتجتالهم من كلِّ مكان.

ويحسُنُ بحامل الرسالة أن يَسْتَفِيدَ لدى استخدام هذه الوسيلة من كتاب «إغاثة اللُّهْفَانِ من مصائد الشيطان» لابن قيم الجوزية، ومن أمثاله من الكتب.

٧ - الإقناع بأن كَيْدَ الشيطان كَيْدٌ ضعيفٌ ما لم يقترن بمساعدٍ قويٍّ من طُغْيَانِ أهواء النفس، وشهواتها، ورغباتها من الدُّنيا، وعوامل انحرافها عن صراط الله المستقيم، كالكبر والحسد والعواطف العمياء.

والإقناع بأن سلطان الشيطان قاصرٌ على الذين يتولَّونه، وعلى الذين همُّ به مُشْرِكُونَ، مُسْتَدِلًّا بالنصوص القرآنية الدالة على هذا الأمر.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لكلِّ مؤمنٍ بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿ فَأَذَا قَرَأَتِ الْقُرْآنَ فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١٨) إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ .

فدلاً هذا النصّ على انحصار سلطان الشيطان بفريقين من الناس :

الفريق الأول: الذين يتولّونه، أي: يستنصرون به، ويتآخون معه، ويلتمسون لديه العون، كالسحرة، والكهنة.

الفريق الثاني: الذين هم بالشيطان مشركون، كالذين يعبدون الشياطين، وفريقٌ منهم يزعمونهم ملائكة.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزل) حكاية لحوار بينه وبين إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

المُخْلِصِينَ: بِكسْرِ اللَّامِ قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، ويعقوب.

المُخْلِصِينَ: بفتح اللَّامِ قراءة باقي القراء العشرة.

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، كما سبق بيانه في نصّ من سورة (ص).

فأضاف إبليس في هذا الحوار إلى تفصيلات خطته وسيلة التزيين في الأرض، وهو تزيينُ المعاصي والانحرافات والضلالات الفكرية والسُّلوكية.

بِمَا أَغْوَيْتَنِي: أي: بما حكمت عليّ بالغواية نتيجة محاسبتي والقضاء بشأني.

هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لإبليسَ هَذَا صِرَاطٌ ديني الذي اصطفَيْتَهُ لعبادي، عليَّ بيانهُ لهم، وتبليغُهُم إيَّاهُ بوساطةِ رُسُلِي، وهو صِرَاطٌ مستقيم، لا عِوَجَ فيه.

إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ: مَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ مِنَ الْغَاوِينَ هُمَ الْفَرِيقَانِ اللَّذَانِ جَاءَ بَيَانُهُمَا فِي النَّصِّ السَّابِقِ الَّذِي هُوَ مِنْ سُورَةِ (النحل): «الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ».

٨ - بيانُ أنَّ الشَّيْطَانَ يَتَّبِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ فِي الدُّنْيَا، مَبِينًا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا أَنْ دَعَاهُمْ إِلَى سُلُوكِ سُبُلِ الضَّلَالَةِ وَالغَيِّ فَاسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ، وَاتَّبَعُوهُ.

قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوْأً أَنْفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَشْرَ بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ: أي: ما أنا بمغيثكم لتخليصكم من عذاب الله، وما أنتم بمغيثي لتخليصي من عذاب الله. يقال لغة: أصرخه، إذا أغاثه مُسْتَجِيباً لصرَاحه.

٩ - عَرَضُ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أَغْرَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَأَغْوَاهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ عِقَابَهُ الْمَعْجَلُ فِي الدُّنْيَا، لِلتَّعَاظِ بِهَا، مِثْلُ:

قول اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

وقول الله عز وجل في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) بشأن مشركي مكة في غزوة بدر الكبرى:

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَغَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٨٨).

نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ: أي: رَجَعَ القهقري على قفاه هارباً.

روى الطبراني بسنده عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر، في جُنْدٍ من الشياطين معه، رايتُهُ في صورة رجلٍ من بني مُذَلِجٍ، في صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ.

فقال الشيطان للمشركين: لا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ.

فَلَمَّا اضْطَفَّتِ النَّاسُ، أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ، فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْمُشْرِكِينَ، فَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ.

وَأَقْبَلَ جَبْرِيلُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَأَهُ، وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَزَعَ إِبْلِيسُ يَدَهُ، فَوَلَّى مُذْبِرًا هُوَ وَشِيعَتُهُ.

فقال الرَّجُلُ: يَا سُرَاقَةَ، تَزْعُمُ أَنَّكَ لَنَا جَارٌ؟

قال: ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وذلك حين رأى الملائكة.

وأنزل الله قوله: ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ... ﴾ الآية.

المقولة الرابعة عشرة  
من العقبات الصّادات

- ٢ -

عقبةُ أعمالِ المضلّين وجنود  
الغزو الفكري المفسدين

- ١ -

شرح هذه العقبة

تداعتِ الأمم الكافرة كلّها على شعوب الأمة الإسلاميّة لإضلالها وإغوائها وإخراجها عن دينها، وهدم كلّ أبنيتها الفكرية، وتفريق جمعها، وتشتيت شملها، وتوزيق أوصالها، وإقامة الصراعات الماديّة والمعنوية فيما بينها، وتفتيتها إلى أجزاءٍ صُغرىٍ تفتيتاً ذرياً، بغية تبديدها تبديداً لا يبقى لها تجمّعاً متماسكاً قوياً، ومخوها من الأمم، أو السيطرة عليها سيطرةً كاملةً باستعبادٍ وإذلالٍ وتسخيرٍ.

وهذا ما أطلقنا عليه في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الهجري عنوان «الغزو الفكري».

وجنّد أعداء الإسلام والمسلمين لتحقيق هذه الغاية جنوداً كثيرين، انتشروا في طول الأرض وعرضها، في كلّ بلدان القارّات الخمس، ولا سيما

ضمن بلدان المسلمين، وأقاموا لهم مؤسسات ذات تنظيم دقيق، وقوى عظيمة، وأموال طائلة، واستخدموا الأجراء الكثيرين، والمنافقين الكثيرين، المندسين في داخل شعوب الأمة الإسلامية، وتغلغلوا في مراكز قوى المسلمين الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها مسيطرين وموجهين.

وأقاموا من أنفسهم، ومن أبنيتهم الفكرية التي شادوها في مجالات التعليم والإعلام المُخْتَلِفة، ومن أنظمتهم التي استطاعوا أن ينشروها ويفرضوها فرضاً على معظم بلدان العالم الإسلامي، عقبات عظمى، تصدُّ توجيه حملة رسالة الدعوة إلى الله، ورسالة الحماية والإصلاح والتربية، بالتعليم والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وانتشر داخل شعوب الأمة الإسلامية الدعاة الجهتميون، الفاسدون المفسدون، الواقفون على أبواب جهنم، يعرضون على الناس سلع الأهواء والشهوات، مقرونةً بوسائل الإغراء والخداع الفكري، وزُيُوف المذاهب الفكرية الوافدة من الأمم الكافرة، ويدعون الصغار والكبار من ذُرَيَات الأمة الإسلامية العظيمة إليهم، فمن أجابهم إليها استهواءً بما تشتهي النفوس أوصلوه إلى مواطن ضلاله وشقائه، فكانوا السبب في قذفه في جهنم.

وقد تحقَّق كثيرٌ ممَّا أخبر به الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه حذيفة بن اليمان، من أخبار مستقبلية بشأن هذه الأمة الإسلامية.

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشرِّ مخافة أن يُذكرني).

فقلت: يا رسول الله، إنا كُنَّا في جاهليَّةٍ وشرِّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرِّ؟

قال: «نَعَمْ» .

قُلْتُ: وهل بعد ذلك الشرّ من خَيْر؟

قال: «نَعَمْ، وفيه دَخْنٌ»<sup>(١)</sup> .

قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟

قال: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» .

قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرِّ؟

قال: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» .

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا» .

قال: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا<sup>(٢)</sup>، وَيَتَكَلَّمُونَ بِاللِّسَانِ» .

قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُونِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟

قال: تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» .

قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟

قال: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنَّ تَعَصَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يَدْرِكَكَ

الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ» .

أقول: لم يصل المسلمون إلى ما تُشيرُ إليه الفقرة الأخيرة من هذا

الحديث، فما زال للمسلمين جماعاتٌ فيها خيرٌ مدخولٌ بدخَنِ من حُبِّ الدنيا، والعمل للحصول عليها .

هذه لمحة عامةٌ عن عقبة أعمال المضلِّين وجنود الغزو الفكري

(١) الدَّخْنُ: فسادٌ في داخل النفوس والقلوب مخالف للظاهر .

(٢) جِلْدَةُ الشَّيْءِ ظاهره، أي: هم في الظاهر مسلمون، وفي الباطن مخالفون .

المفسدين، الظاهرين، والمُفَنِّعِينَ، أما شرح هذه العقبة بتفصيل يتناول مخططات الغزاة، وأنشطتهم، ومَجالاتهم، وحيَلهم، وأقنعتهم، وأعمالهم، وما غزوا به الأمة الإسلامية، في المجالات الفكرية والنفسية والسلوكية، هدماً للعقائد والأخلاق والعبادات والنظم وكل صور المعرفة والسلوك الإسلامي، فهو أمرٌ لا يتسعُ له هذا الكتاب.

ولكن باستطاعة حامل الرسالة أن يجد شرحها مفصلاً تفصيلاً واسعاً دون استقصاء، في سلسلة كتب «أعداء الإسلام» التي فتح الله بها عليّ، وهي حتّى هذا التاريخ سبعة مؤلفات:

- ١ - مكايد يهودية عبر التاريخ.
- ٢ - صراع مع الملاحدة حتّى العظم.
- ٣ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها. «دراسة للتبشير والاستشراق والاستعمار».
- ٤ - غزو في الصميم. «دراسة للغزو الفكري في مجال التعليم المنهجي والتثقيف العام».
- ٥ - الكيد الأحمر. «دراسة للشيوعية ودولتها العظمى وشروورها».
- ٦ - كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة.
- ٧ - ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ.

- ٢ -

### وسائل معالجة هذه العقبة

هذه العقبة الخطيرة ذات الانتشار الواسع، ليس في أيدي حَمَلَة رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة الحماية والإصلاح بالتعليم والنُّصْح والإرشاد



والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الوسائل لمعالجتها، إلا الوسائل التي أتبعها الرسول ﷺ في المرحلة المكية بإرشاد من الله وتوجيه حكيم، من تاريخ رسالته، مع الحاجة إلى التطوير في الأساليب والأدوات، متابعة لما تَطَوَّرَتْ إليه البشرية في أساليبها وأدواتها، ومع الحاجة إلى الكشف المستمر لمكاييد أعداء الإسلام، وفضح مخططاتهم، وتعرية أهدافهم، وإزاحة الأفتنة عن وجوههم الحقيقية، وكشف زيوف أفكارهم، ومفهوماتهم، ومذاهبهم، ودعواتهم، ومع استخدام كل أساليب البيان، وكل وسائل الإعلام المتاحة، التي يستطيع حملة الرسالة الانتفاع بها.

وَحَمَلَةُ الرِّسَالَةِ مُطَالِبُونَ دَوَامًا بِالتَّحْرِي الفُطْنِ عَمَّا وراء الظواهر، وَحُسْنِ التَّفَرُّسِ فِي الْأُمُورِ، وَالحِكْمَةِ وَالصَّبْرِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وَتَحْمُلِ الْأَذَى، وَالمَجَاهِدَةِ بِالقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَالمَجَاهِدَةِ أَيْضًا بِالحِجَجِ البرهانية، وَالأدلة العلمية الثابتة.

وَمُطَالِبُونَ أَيْضًا بِطُولِ الأَمَلِ، وَحُسْنِ الرِّجَاءِ، وَأَنْ لَا يَدِبَّ اليأس إِلَى قُلُوبِهِمْ، مَهْمَا كَانَتْ ثَمَرَاتُ أَعْمَالِهِمْ ضئيلة.

وَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَيْسُوا مَسْئُولِينَ عَنِ التَّحْوِيلِ وَالتَّغْيِيرِ فِي الوَاقِعِ، بَلْ هُمْ مَسْئُولُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَنِ القِيَامِ بِوَأجِبَاتِ التَّبْلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّصْحِحِ وَالإِرشَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَوْ لَمْ يَجِدُوا لِمَجَاهِدَاتِهِمْ آثَارًا ظَاهِرَةً فِي المَجْتَمَعِ الَّذِي يَجَاهِدُونَ فِيهِ.

وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَأَسَّوْا فِي مَجَاهِدَاتِهِمْ بِرُسُلِ اللَّهِ فِي أُمَّمِهِمْ، فَمَنْ الرُّسُلِ مِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا أَفْرَادٌ مَعْدُودُونَ.

\* \* \*

المقولة الخامسة عشرة

من العقبات الصادات

- ٣ -

عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر

غدت وسائل الاتصال الإعلامي المقروءة والمسموعة والمرئية في العالم مؤهلة لتوصيل كل كلمة، وكل صوت، وكل صورة، إلى كل راغب في القراءة أو الاستماع، أو المشاهدة.

إلا أن النسبة العظمى من وسائل الاتصال الإعلامي في العالم تقع تحت سيطرة أهل الدنيا ومروجي مصالحهم منها، وتحت سيطرة المضلّين في الأرض، والمهتمين بالغزو الفكري ضدّ الإسلام وضدّ الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

أما حملة الرسالة الإسلامية من الدّعاة والمصلحين فلا يملكون من وسائل الاتّصال العالميّة إلاّ نسبة قليلة جدّاً، بجانب ما يملكه منها المضلّون المفسدون في الأرض.

ومع وجود هذه العقبة أمام حملة الرسالة الإسلاميّة فإنّ عليهم أن يعملوا دوماً بقاعدة: لا يَسْقُطُ الميسور بالمعسور.

● فيجب على كل واحدٍ منهم أن يستخدم ما يستطيع استخدامه من

وسائل الاتصال الإعلامي المختلفة، باذلاً قصارى جهاده، مخلصاً في عمله،  
والله يُبارك له جهاده، ويضاعف ثمرات أعماله المباشرة، وآثارها البعيدة.

● ويجب على القادرين من الأمة الإسلامية أن يعملوا متعاونين  
متآزرين، حتى يُهَيِّتُوا لحملة الرسالة ما يستطيعون تهيئته لهم من وسائل  
الاتصال الإعلامي المقروءة والمسموعة والمرئية، من أجل تبليغ كلمة الله،  
وتوصيل شرائع الإسلام وأحكامه وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وسائر محاسنه،  
للناس أجمعين، والله يشيهم على ذلك ثواباً جزيلاً، ويجعلهم بنياتهم  
الصالحات وأعمالهم المبرورة من جيش المجاهدين في سبيل الله لتوصيل  
دينه للناس.

وباستطاعة حامل الرسالة الحكيم العاقل المخلص الصادق في حَمَلِهِ  
الرسالة والذي يتبغي رضوان الله والجنة، لا مصالح الدنيا ورغبات العُلُوِّ في  
الأرض، أن يكون رفيقاً هَيِّئاً لَيْتاً حَسَنَ التوجيه، حَسَنَ التُّصْحِ والإرشاد،  
حَسَنَ الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يواجه بالعُنْفِ ولا يَصْطَدُمُ مع  
من يَرَاهُم غير ملتزمين بأحكام الإسلام وشرائعه، لأنه عاقلٌ رشيدٌ حكيم،  
شديد الشفقة على الناس، شديد الحرص على هدايتهم.

وباستطاعته أن يُهاجر في سبيل الله داعياً ناصحاً مرشداً، عملاً بقول الله  
عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا  
إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١)

وباستطاعته أن يتخذَ منهجاً تعليمياً لا يتخوف منه أحدٌ، على سلامة  
الأمن أو مصالح الناس في أيِّ موقعٍ من الأرض، لأنَّ رسالته رسالة الأنبياء  
والمرسلين الذين كانوا حكماء عقلاء في حَمَلِ رسالاتهم وتبليغها للناس.

(١) مُرَاعِمًا: أي: مُهَاجِرًا يُهَاجِرُ إليه، ويستطيع فيه أن يكون آمناً طليقاً.

والله عزّ وجلّ يبارك للمخلصين، ويضاعف ثمرات أعمالهم المباشرة،  
وأثارها البعيدة.

ويقدر الاستطاعة مع الحكمة يؤدّي واجب رسالته الرّبانيّة.

وقد سَبَقَ في تاريخ حملة الرسالة الإسلاميّة أن تعرّض فريق منهم  
للسجن من قبل طغاة السّلاطين، فلم يتوقّفوا عن متابعة تأدية رسالاتهم.

● فيوسف عليه السلام أدّى دعوته الرّبانية وهو في السّجن.

● وجاء في ترجمة شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي،  
المتوفّي سنة (٤٨٣هـ) من أهل سرخس في خراسان، وهو من كبار فقهاء  
الأحناف، أنّه، أملى على طلابه كتابه «المبسوط» الذي يقع في ثلاثين جزءاً،  
وهو سجين بالجبّ، في أوزجند (بفرغانة) وكان سبب سجنه كلمة نصّح بها  
الخاقان.

● وجاء في ترجمة الشيخ سعيد النورسي، مؤسس جماعة النور في  
تُرْكِيَا، أنّه قد سُجِنَ أكثر من مرّة في عهد «مصطفى كمال أتاتورك» لمقاومته  
الكفر والعلمانية، فكان يكتُبُ إلى تلاميذه رسائله من تأملاته وذاكرته،  
فينشرونها مخطوطةً بطُرُقٍ سرّيّة، ويتعلّمون منها ما يُريد بيانه لهم من أمور  
الإسلام.

\* \* \*



## الفصل الثالث

المنهاج البياني ومسالكه  
«الحكمة - والموعظة الحسنة -  
والجدال بالتي هي أحسن»

وفيه خمس فقرات:

- الفقرة الأولى: نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانية.
- الفقرة الثانية: شرح مسلك الحكمة في الدعوة وبيان لعناصرها.
- الفقرة الثالثة: شرح مسلك الموعظة الحسنة وبيان لعناصرها.
- الفقرة الرابعة: شرح مسلك الجدال بالتي هي أحسن وقواعده العامة.
- الفقرة الخامسة: نماذج من تعليمات جدلية قرآنية.



## الفقرة الأولى

### نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانية

- ١ -

#### تعريف عام بالمسالك

رسم الله عزّ وجلّ للدّعاة - ويُلحَقُ بهم الناصحون المرشدون والأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر - منهاجاً للدّعوة البيانية إلى سبيله له ثلاثة مسالك كبرى، ذوات وسائل متعدّدة:

المسلك الأوّل: الدعوة البيانية بالحكمة.

المسلك الثاني: الدعوة البيانية بالموعظة الحسنة.

المسلك الثالث: الدعوة البيانية بالجدال والتي هي أحسن.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾ (١٢٥)

فعلينا أن نكتشف حُدودَ وعناصِرَ هذه المسالك الثلاثة، وكيفية السّير فيها.

أما سبيل الله عزّ وجلّ فهو دينه الذي ارتضاهُ لعباده عقيدةً وخلُقاً



وسلوكاً نفسياً باطنياً، وسلوكاً جسدياً ظاهراً، وسبيل الله لعباده حكيم، لا عوج فيه ولا معاثر، بل هو سبيلٌ مستقيم سويّ واضحٌ مُنير، يوصل إلى غايات حميدة فيها سعادة الناس .

والباء في ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ تشير إلى المسالك الدعوية والوسائل التي تُستخدَمُ فيها.

وللتفريق بين المسالك الثلاثة، وبيان حدود كل منها نبدأ بتمييز ما هو جليّ وواضح منها وهو الجدل، إذ هو وسيلة ظاهرة التميّز عن وسيلتي الدعوة بالحكمة والدعوة بالموعظة الحسنة، فالجدال حوار بين فريقين، يشتمل على ادعاء من فريق، واعتراض من فريقٍ آخر، واستدلالٍ للإقناع، وطعن في الدليل، ودفع للطعن، إلى غير ذلك من أصول المناظرات الجدلية، وقد تُستخدَم في مراحل الجدل بالتي هي أحسن وسيلتا الحكمة والموعظة الحسنة، وهذا شيء لا يؤثر على مفهوم الجدل المتميّز بحدوده .

بقي علينا بيانُ حدود كلٍّ من مسلكي الحكمة والموعظة الحسنة، وهنا يظهر لنا أنّ اجتلاء حدود الموعظة الحسنة أيسرُ لأنها تدور حول الترغيب والترهيب، فمتى عرفنا عناصر الموعظة الحسنة استطعنا أن نفهم أنّ المساحة الباقية هي المساحة التي تُطلَبُ فيها الحكمة .

وبالرجوع إلى شرح أهل اللغة والمفسرين للموعظة نجد في بيانهم أنّ الموعظة هي النصّح بالفعل أو بالترك المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة في النفس، للانتفاع بالنصح، واتباع ما هدَى إليه فعلاً أو تركاً. قال ابن سيده من أئمة اللغة:

«الوعظ: تذكيرك للإنسان بما يُليِّن قلبه من ثوابٍ أو عقاب» .  
ولكن قيّد الله عزّ وجلّ هذه الموعظة بأن تكون حسنةً، أي: حسنةً في أسلوب عرضها، والحسن في أسلوب العرض يتنافى مع الغلظة والغلظة والمخاشنة في القول والسباب والشتائم، إلى غير ذلك مما تنفر منه الطباع

ولا تتحمّل استماعه ولا تتقبّلهُ .

فإذا فرزنا الموعظة الحسنة، وعرفنا أنّها الترغيبُ بالعاقبة الحسنة والسعادة الخالدة لمن اتّبع سبيل ربّه، والترهيب من العاقبة السيّئة الوخيمة، والشقاوة والتعاسة لمن أبى أن يتّبع سبيل ربّه، بشرط عرضها بأسلوب حسنٍ جميلٍ مقبول لا تنفر منه الطباع، أمكننا أن ننظر إلى المساحة الدعوية الباقية بتأملٍ وأناة، وأن نكتشف أنّ الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله هي المعالجة الدعوية الرشيدة المؤثرة بغير أسلوب الترغيب والترهيب، وبغير أسلوب المجادلة .

وهنا لا بدّ أن ننظر إلى المنهج الربّاني للسياسة الحكيمة التي أوصى الله بها رسوله محمداً ﷺ وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أمته، وأوصى بها بعض رُسله السابقين، والسياسة الدعوية الحكيمة التي اتّبعها الرسولُ محمدٌ ﷺ في دعوته، واتّبعها الرُسل السابقون فيما نهضوا به من دعوة إلى دين الله واتّباع صراطه المستقيم في أقوامهم .

ولدى النظر الفاحص في التعريف العامّ للحكمة عند أهل اللّغة، وفي جُملةِ أقوالِ الشّارحين للحكمة، نصِلُ إلى التعريف التالي :

الحكمة: وضعُ كلِّ شيءٍ في موضعه الذي يُوجِبُه العقل، أو تكشّفه التجربة، وتحقّق به الغاية المقصودة من الأمر، بأقلّ كلفةٍ وأقصر زمنٍ مُمكنين .

فإذا تأمّلنا في المنهج الربّاني للسياسة الدعوية الحكيمة، وفي التعريف العامّ للحكمة، أمكننا أن نستبعد عن الحكمة ونُخرج من حدِّ دائرتها كلّ ما يُنافيها ولا يأتلف مع صفاتها ومنها ما يلي :

## منافيات الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله

- ١ - السباب والشتائم فهي بالبديهة العقلية من منافيات الحكمة، لأنها منفرات تهدم جسور التواصل بين حامل الرسالة والموجهة له.
- ٢ - الفظاظ والغلاظة في الأقوال والحركات والأعمال فإنها منفرات.
- ٣ - توجيه الأوامر والنواهي الصارمة التي هي بمثابة قرارات عسكرية تُوجّه للتنفيذ دون اعتراض، وإلا حلت العقوبة السلطوية.
- ٤ - كل قول خشن وكلام قبيح مُنفر.
- ٥ - مدح حامل الرسالة ذاته، وإطراؤه أفعاله وأقواله وصفاته، لأنه يُشعر بنزعة الكبر في نفسه، واستخدامه رسالته التي يؤدّيها للحصول على زعامة بين الناس.
- ٦ - اهتمام حامل الرسالة بالانتصار لنفسه، وبإظهار قدرته على التأثير والإقناع، والتغلب على المخالفين، لأنه يُشعر بأنه مغرور بنفسه، وصاحب مصلحة شخصية دنيوية.
- ٧ - الإكثار من حشر المعلومات في مجلس دعوي واحد، لأن من تُوجّه له الرسالة متى كثرت المعلومات المتواردة عليه انصرف ذهنه عن متابعتها، وعجز عن الإمساك بها لاستذكارها.
- ٨ - التشهير بأسماء العصاة، وذكر قبائحهم ومفردات معاصيهم، فهو مخالف لسياسة الرسول ﷺ، ولا يخدم الرسالة التي يحملها.
- ٩ - التضح العلني لأشخاص بأعيانهم، إذ هو من قبيل الفضيحة لا النصيحة.

١٠ - الاستعلاء على من تُوجّه له الرسالة بِالْعِلْمِ أو بالذكاء أو بالمكانة الاجتماعية، وإشعاره بجَهْلِهِ أو بِقِلَّةِ ذِكَايِهِ أو بانحطاط مكانته الاجتماعية، لما في كل ذلك من إهانةٍ منفرة.

١١ - استخدام أسلوب الاستهزاء والسخرية بمن تُوجّه له الرسالة، فمن شأن هذا الأسلوب أن يستعديّه ويُبْعِدُهُ، لا أن يُلَيِّنَهُ وَيَسْتَدْرِجَهُ للاستجابة.

١٢ - الاستدلال بالأقوال الكاذبة، والروايات الموضوعية المصنوعة، والقضايا الباطلة، فنُصْرَةُ الحق لا يصح أن تكون إلا بالحق، ومن تُوجّه له الرسالة متى اكتشف بطلان الدليل أعرض عن أصل القضية، ولم يكلف نفسه البحث عن صحتها بدليل صحيح.

١٣ - الاستدلال بأشياء خارجة عن موضوع البحث لا تصلح للاستدلال بها فيه، وإن كانت صحيحة في ذاتها، لأنها تدلّ على عدم سلامة فكر مُقَدِّمِهَا.

١٤ - مخاطبة من تُوجّه له الرسالة بما هو فوق إدراكه من أسلوبٍ كلاميٍّ أو مضمونٍ فكريٍّ، لأنه لا يفهمه فهو لا ينتفع به ولا يستجيب له.

١٥ - مخاطبة من تُوجّه له الرسالة بما هو دون مُستَوَاهِ الفكري، أو بأسلوب هو دون منزلته الاجتماعية، لأنّ مثل هذه المخاطبة قد يشم منها رائحة الاحتقار والازدراء له والاستخفاف به، فيغضب ويثّر ويعرض عن الاستجابة لما يُدعى له وإن كان حقًا.

١٦ - التناقض في أقوال حامل الرسالة في مجلس واحد أو في مجالس متعدّدة، لأنه يشكك في صدقه، أو في علمه.

١٧ - مقابلة السيئة بأسوأ منها أو بمثلها، فهي مخالفة لسياسة الرسل

عليهم السلام مع أقوامهم، ومخالفة للوصايا الربّانية.

١٨ - الحكايات والقصص الخرافية، والأساطير التي لم تثبت صحتها، لأنها تُشعر بأن القضية التي يُنصح بها ليس لها شاهد صحيح يُؤيدها، ولو كانت حقاً لما احتاجت تأييداً بالخرافات والأساطير.

١٩ - كلُّ كلامٍ ركيكٍ مُعقّدٍ غير مفهوم، إذ هو منافٍ للحكمة بداهة.

٢٠ - التركيز على عرض موضوعات غير ذات قيمة وغير ذات أهمية في أسس الإسلام، أو في أحكام الشريعة، ولا سيما حينما يؤدي رسالته بين الجماهير بوجه عام.

٢١ - خلوُّ البيانِ ممّا يجذبُ النفوسَ إلى استماعه والإصغاء إليه، كالكلام الجافّ الذي ليس فيه تطريبات أدبية، ولا زيناتٌ جمالية، ولا مَحَرَّكاتٌ فكرية أو عاطفية.

٢٢ - توجيه الاهتمام كلّه لفريقٍ أو أكثر من الذين توجّه لهم الدعوة، وإهمال الآخرين الحاضرين.

- ٣ -

### البيان القرآني بالنسبة إلى هذه المسالك الثلاثة

هذه المسالك الثلاثة: (الدعوة البيانية بالحكمة - الدعوة البيانية بالموعظة الحسنة - الدعوة البيانية بالجدال بالتي هي أحسن) هي المسالك التي سار عليها البيان القرآني الدّعوي، يُدركُ هذا كلّ من يتابع آيات القرآن وسُوْرَه بتدبّر سليم، ويدلُّ عليه أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرًا ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ .

- فَمَسَلِكُ الْحِكْمَةِ دَلٌّ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا النَّصِّ : ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ .
  - وَمَسَلِكُ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (= التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ) دَلٌّ عَلَيْهِ سَائِرُ النَّصِّ .
  - أَمَّا مَسَلِكُ الْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَنَجِدُهُ فِي التَّعْلِيمَاتِ الْجِدَالِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ .
- وقد أمر الله به في قوله تعالى في سورة (النحل/ ١٦) مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ .. وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿١٦٩﴾ .

- ٤ -

### الأركان الداخلية للنفس الإنسانية والمؤثرات فيها

لدى تحليل النفس الإنسانية وملاحظة المؤثرات فيها، نُدركُ أنَّها تتأثر بمؤثرات تنفذ إلى ثلاثة أركانٍ فيها، إذا تأثرتُ واحدٌ منها التَّأثُّرُ المرادُ منه، حَصَلَ لَدَيْهَا الاقْتِنَاعُ بِالْقَضِيَّةِ الْمَقْصُودِ اقْتِنَاعُ الْإِنْسَانِ بِهَا .

الأول - الركنُ العقلي :

لقد وهب الله عزَّ وجلَّ الإنسانَ قدراتٍ فكريَّةً عقليَّةً يُدركُ بها حقائق الأشياء، إذا أدركها ولم يكن في نفسه مُعَارِضٌ مِنْ أَهْوَاءِهِ وَشَهَوَاتِهِ لِمَا أُدْرِكُ اقْتِنَعُ بِهَا، فَعَمَلُ بِمَقْتَضَاهَا .

ومن إدراك حقائق الأشياء التفرُّيقُ بين الحقِّ والباطل، والخيرِ والشرِّ والصالحِ والفاوِسِدِ، والفاضلِ والمفضول، والأحْسَنِ مِنَ الْإِحْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَةِ الْمُهَيَّأَةِ لِلْإِحْتِيَارِ مِنْهَا، وَمَا دُونَهُ تَنَازُلًا فِي دَرَجَةِ الْحُسْنِ حَتَّى أَدْنَى الدَّرَجَاتِ .

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير فيها عن طريق هذا الركن من

أركانها، يكون بالوسائل العقلية والعلمية المختلفة، وهي تَرْجِعُ إلى ثلاثة أصول:

الأصل الأول: الاستدلالُ العقليُّ الملائمُ لما فُطِرَتْ عليه مدارك الأفكار والعقول، من حقائق وموازن، ويُساعد على معرفتها علمُ المنطق<sup>(١)</sup>.

ومن الاستدلال العقلي إدراك الأسبابِ ذهنًا، عند مشاهدة المسببات، أو إدراكها عقلاً، وإدراك اللوازم الفكرية العقلية من خلال إدراك ملزوماتها.

الأصل الثاني: الإدراك الحسي المباشر، والتجربة المؤدية إليه، سواء أكان الإدراك بالحواس الظاهرة، أم بالحواس الباطنة، كمشاعر الحب والكراهية، واللذة والألم، والرضا والسخط.

الأصل الثالث: الخبر الصادق، وهو الخبر الذي تُدركُ العقولُ وجوب التسليم بأنه خبرٌ صادق.

ومن الخبر الصادق خبرُ الوحي الذي يُبلِّغه رسولٌ مؤيَّدٌ بالمعجزة الخارقة المقرونة بالتحدي<sup>(٢)</sup>.

الثاني - الركن العاطفي:

وقد وهب الله الإنسان في داخل نفسه مركزاً عاطفياً قد يتغلغل إلى عمق قلبه، وهذا المركزُ إذا تأثرَ بما يجذبُه اندفعَ الإنسان إليه، وانعطفَ نحوه بمشاعر سعيدة قوية، قد لا يستطيع تحليلها فكرياً، وإذا تأثرَ بما يُنفرُه، ابتعد الإنسان عنه، وكرهه مع مشاعر اشتمزازٍ قوية، قد لا يستطيع تحليلها فكرياً.

(١) انظر كتاب «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للمؤلف.

(٢) ارجع في هذا إلى مقدمات كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها» للمؤلف، وإلى ما جاء في بحث «المعجزات» منه.

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير في هذا الركن من أركانها، يكون بالوسائل المثيرة للعواطف، كالعاطفة نحو الأهل والقربات، والعاطفة نحو القوم، والعواطف نحو الأرض والوطن، والعواطف نحو التقاليد والعادات المستحبات المتأصلات في النفوس، ومنها العواطف الدينية الإيمانية، ولو كانت لدين تقليدي باطل.

الثالث - الركن الذي فيه محور الطمع بمحَابِّ النفوس والخوف من مكارهها:

وفي تكوين نفس الإنسان داخليًا جهازٌ يشتمل على محورين:

● محور الطمع بما يُحِبُّ الإنسان لِدَاتِ نفسه، أو لِمَنْ أَوْ لِمَا يُحِبُّ، في العاجل أو الآجل.

وتدور حول هذا المحور دوائر الأهواء والشهوات واللذات.

● ومحور الخوف ممَّا يَكْرَهُ الإنسان لِدَاتِ نفسه، أو لِمَنْ أَوْ لِمَا يُحِبُّ، في العاجل أو الآجل.

وتدور حول هذا المحور دوائر الآلام والمكاره ومخالفات الأهواء والشهوات واللذات.

والدخول إلى داخل نفس الإنسان للتأثير في هذا الركن من أركانها، يكون بترغيب الإنسان فيما تُحِبُّ نَفْسُهُ وتَشْتَهِي من لِدَاتِ وَزِينَاتٍ وَمَجْدٍ، من مُعْجَلٍ في الحياة الدنيا، أو مُؤَجَّلٍ إلى يَوْمِ الدين. ويكون بترهيب الإنسان وتخويفه ممَّا تَكْرَهُ نفسه وتنفر منه من آلام، وأنواع عذاب، وحرمانٍ من مَحَابَّتِهَا، من مُعْجَلٍ في الحياة الدُّنْيَا، أو مُؤَجَّلٍ إِلَى يَوْمِ الدين.

قمة التأثير:

وتكون قمة التأثير في الإنسان بمحاصرته عن طريق أركان نفسه الثلاثة،



وهذه المحاصرة قد اشتملت عليها آيات القرآن المجيد، فوصف الله عز وجل القرآن بأنه يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وبوسائل هذه الهداية تكون محاصرة الركن الأول من أركان نَفْسِ الْإِنْسَانِ.

ووصف الله عز وجل القرآن بأنه مُبَشِّرٌ وَمُنذِرٌ، وبالمبشرات والمنذرات تكون محاصرة الركن الثالث من أركان نَفْسِهِ، لأنها تعتمد على التأثير في مَحْوَرِي الطَّمَعِ وَالْخَوْفِ.

قال الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ ۞ .

وجاء في القرآن استثارة العاطفة القومية عند العرب تجاه لغتهم، فقال الله عز وجل لرسوله بشأن القرآن في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ فَاسْتَسْمِعْ بِآلِدَىٰ أُوحَىٰ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ . . . ﴿١٤﴾ ۞ .

أي: وإن القرآن الذي أنزل عليك باللغة العربية لشرف عظيم لك باعتبارك إنساناً عربياً، ولشرف عظيم لقومك العرب، إذ أنزل بلغتهم التي لهم عاطفة قوية نحوها، فهم يفخرون به كتاباً عظيماً معجزاً.

وعلم الله رسوله أن يستعطف نحوه عواطف القرابة التي بينه وبين الذين ناصبوه العداة الشديد في مكة، إذ لم يكن بيت من بيوت مكة العريقة إلا وله فيه قرابة قريبة أو بعيدة، فأنزل عليه قوله في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ . . . قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ . . . ﴿٢٣﴾ ۞ .

أي: لا أسألكم على هذا الذي جئتكم به أي أجرٍ حتى تنفروا مني وتعادوني، وتحاربوني، لكن أسألكم أن تُعاملوني بمقتضى عاطفة القرابة التي بيني وبينكم، فتكفؤوا عني أذاكم وحربكم، وتحوّلي عني عداكم، وهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو مدخل إلى استشارة الركن الثاني من أركان نفوسهم، واستعطافه لكفّ أذاهم وحربهم له.

فحرف الاستثناء في هذا النصّ هو حرف استدراكٍ بمعنى «لكن».

والسورة مكية التنزيل، إلّا أنّ هذا النصّ منها مدنيّ، والغرض من استعطاف مشركي مكة تحويلهم عن معاداة الرسول وتدبير المكائد له، ومحاربتة.

وهذا المعنى في تفسير قول الله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ هو المعنى الذي صحّ عن ابن عباس فيما رواه البخاري وغيره<sup>(١)</sup>، وهو المعنى الملائم لما جاء قبله وبعده في السورة.

فقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال «سعيد بن جبير»: قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ.

فقال ابن عباس: عَجَلْتُ، إنّ النبيّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قُرَيْشٍ إلّا كان له فيهم قرابة، فقال: إلّا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

- ٥ -

### حكمة حامل الرسالة في هذا المجال

من الأكمل والأرجى للتأثير في عمق الإنسان محاصرته من أركان نفسه الداخلية كلّها، العقلية، والعاطفية، ومخوري مطامعه ومخاوفه.

(١) انظر تفسير ابن كثير.

والأفضل دوماً إعطاؤه من جرعات التأثير فيه بمقدار ما لديه من استعدادات في أركان نفسه الداخلية للتأثر.

والركنُ الذي يكونُ هو الأعظم في داخل نفسه يكون هو الأخرى بتوجيه أعظم العناية له، وعلى مقدار قابليته للاستجابة.

● فمن الناس عقلانيون فكريون، وهؤلاء يناسبهم تكثيف الجهود للتأثير على أفكارهم وعقولهم بالأدلة التي يؤمنون بها، دون إهمال سائر أركان نفوسهم، بحسب ما تحتاج إليه من مثيرات ومؤثرات تدعيمية.

● ومن الناس عاطفيون، وهؤلاء يناسبهم تكثيف الجهود للتأثير على عواطفهم بما يؤثر فيها، دون إهمال سائر أركان نفوسهم بحسب ما تحتاج إليه من مثيرات ومؤثرات أساسية أو تدعيمية.

● ومن الناس أسراء مطامعهم ومخاوفهم، وهؤلاء يناسبهم تكثيف الجهود للتأثير على مخوري الطمع والخوف داخل نفوسهم، دون إهمال سائر أركان نفوسهم، بحسب ما تحتاج إليه من مثيرات ومؤثرات أساسية أو تدعيمية.

على أنه يجب دوماً العناية بتراكمات المفاهيم الفكرية العقلية، لأنها هي الأساسُ الراسخُ الثابتُ لتأسيس العقائد التي لا تتزلزل، ولهذا أولاهما القرآنُ المجيدُ العناية العظمى لتأسيس الإيمان، فالهداية للتي هي أقوم هي أولى وظائف القرآن، وإقامة الأدلة الفكرية على حقائق الإيمان هي في مقدمة ما اهتم القرآن ببيانه والتوجيه له.

وفي الفقرات التالية مزيد من الشرح والتفصيل.

\* \* \*

## الفقرة الثانية

### شرح مسلك الحكمة في الدعوة وبيان لبعض عناصرها

مما سبق نُدرِك أن الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تُوجب حُسن التصرف في سياسة مَنْ تُوجّه له الرسالة لإقناعه بأجمل وسيلة وأيسرها، ولجعله يقبل ما يُدعى إليه، أو يُنصح به، ويستجيب له طائعا مُختاراً، لا مُكرهاً نافرأ من قلبه كارهاً.

عندئذٍ يستطيع حامل الرسالة أن يقبض على مقود نفسه، ويوجهه يسيراً وسهولة ليأخذ ما دعاه إليه أو نصحه به ويلتزمه إيماناً به، ثم يتبع تعليماته وتكليفه العملية في حركة حياته، سواءً منها ما يتعلق بالأعمال النفسية الباطنة، أم الأعمال الجسدية الظاهرة، مما يُطلبُ فعله، أو يُطلبُ تركه.

وحسن التصرف في سياسة مَنْ تُوجّه له الرسالة لا بُدَّ للوصول إليه من ملاحظة صفاته الفكرية والنفسية والخلقية والاجتماعية، وملاحظة حالته التي هو عليها عند توجيه الرسالة له، ثم اختيار أحكم الوسائل وأرجاها لبلوغ المقصود من التأثير المفيد النافع على فكره ونفسه.

وبفرز مسلك الدعوة أو النصح بالحكمة عن مسلك الموعظة الحسنة التي تدور في فلك الترغيب والترهيب، وعن مسلك الجدل والتي هي أحسن، نلاحظ أن الحكمة تصرف بياني دعوي ونصحي يدور في فلك هدفه إقناع مَنْ تُوجّه له الرسالة إقناعاً فكرياً بصحة مضمون الرسالة التي تُوجّه له.

والإقناع الفكري في الدعوة إلى سبيل الله يكون بعرض حقائق مبادئ الإسلام عرضاً جليلاً واضحاً ميسراً للتصوّر والفهم، بدءاً بجذورها، وارتقاء شيئاً فشيئاً إلى فروعها، مقروناً بالأدلة البرهانية السديدة، التي تشهد لها بأنها حقٌّ لا ريب فيه، ومزينةً بالأساليب البيانية الجمالية، التي تَسْرُ نفسَ من يُوجّه له الإقناع، فتنتفح للنظر التفكري، والتأمل في المضامين الفكرية، وهي منشحةٌ مستمتعةٌ بجمال الأسلوب الدافع للنظر في صحّة المضمون الفكري.

إنّه متى انشרכת النفس، وانفتحت أبواب النظر التفكري للاستقبال والفهم، ولم يكن في داخل النفس هوى معارضٌ للقضية المعروضة للتفكير والاستبصار السليم والفهم الصحيح، تمكّن مُوجّه الرسالة من الدخول برسالته إلى عمق النفس، حتّى مركز القلب فالقواد.

\* \* \*

طائفة من عناصر الحكمة في البيان الدعوي:

### ١ - القول اللين:

من أوليات شروط البيان الذي تُوجّه به الرسالة، أن يكون بالقول اللين الرفيق المهذب، الذي تستمتع به الأسماع، وتنجذب إليه النفوس والقلوب.

فالقول اللين على سَمْع ونفس وفكر من تُوجّه له الرسالة، هو ما أمر الله عزّ وجلّ به موسى وأخاه هارون عليهما السلام، إذ كلفهما أن يذهبا إلى فرعون الذي طغى، فيذعوانه إلى سبيل ربه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية خطابه لهما:

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٥﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ لَكَ بِنَا أَعْلَمُ بِتَذْكَرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

### ٢ - مراعاة المنزلة الاجتماعية لمن تُوجّه له الرسالة:

ومن شروط هذا البيان الحكيم مراعاة المنزلة الاجتماعية التي يحتلّها

من توجّه له الرسالة، فإذا كان ذا رياسة في قومه، ومن المعتاد في مخاطبته إطالة مقدمات العرض التكريمية، قَبْلَ ذِكْرِ المقصود بالذاتِ، فَمِنْ الحِكْمَةِ مُرَاعَاةُ هَذَا الأسلوب قَبْلَ دَعْوَتِهِ أو نُصْحِهِ، وهذا ما أوصى الله عزّ وجلّ به موسى عليه السلام، فيما علّمه أن يقوله لفرعون الذي طغى، قال الله تعالى في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) في حكاية ما خاطب به موسى إذ ناداه بالوادي المقدس طوى:

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٧٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى ﴿٧٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَانْحَسِبْ ﴿٧٩﴾ .

نلاحظ في عبارة التعليم أنها اشتملت على عِدَّةِ كلمات هي من التلطفِ التكريمي قبل عرض المقصود بالذات:

● ﴿ هَلْ ﴾ كلمة استفهامية فيها معنى العرض التخييري، لا التكليف الإلزامي.

● ﴿ لَكَ ﴾ كلمتان: الأولى حرف جرّ، والثانية كاف خطاب، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنّ التلطفَ بتطويل مقدمات العرض التكريمي استدعاهما.

● ﴿ إِلَّا أَنْ ﴾ كلمتان: الأولى حَرْفُ جَرٍّ، والثانية حرف ناصب للفعل المضارع، ويؤوّل مع الفعل المضارع بمصدر، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنّ التلطفَ بتطويل مُقَدِّمَاتِ العرض التكريمي استدعاهما.

● ﴿ تَزَكَّى ﴾ هنا بدأ عرض المقصود بالذات، ومع ذلك قد حصل فيه اختصارٌ وتقليلٌ في اللفظ، إذ أصلُ الفعل «تَزَكَّى» فحذفت إحدى التاءين اختصاراً.

في حين أن مقدمات العرض قد حصلت الإطالة فيها لتكريم المخاطب

مراعاةً لمتزلته في قومه، وما يَعْتَادُهُ لَدَى مُخَاطَبَتِهِ، وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ تَوْجِيهُ الْأَمْرِ الْمُبَاشِرِ لَهُ، فَيَقُولُ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تَزَكَّ» أَوْ «هَلْ تَزَكَّى» لِكُنْ فِي مِثْلِ هَذَا الْخُطَابِ إِغْضَابٌ لَهُ وَتَنْفِيرٌ، إِذْ هُوَ عَلَى غَيْرِ مَا يَعْتَادُ مِنَ مَخَاطَبَاتِهِ لَهُ، فَهُوَ مُنَافٍ لِلْحِكْمَةِ.

وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَقُولَ لَهُ: «هَلْ لَكَ أَنْ تَزَكَّى» لَكِنَّ الْأَحْكَمَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِهِ تَطْوِيلُ مُقَدِّمَاتِ الْعَرَضِ، حَتَّى تَكُونَ مُنَاطِرَةً لِمَا يَعْتَادُهُ مِنَ مُقَدِّمَاتِ فِي مَخَاطَبَاتِ النَّاسِ لَهُ، وَأَطْوَلُ مُقَدِّمَاتٍ حَكِيمَةٍ تَلَاثِمُ دَعْوَتَهُ إِلَى أَنْ يَتَزَكَّى، هُوَ مَا جَاءَ فِي التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ لِمُوسَى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى﴾.

### ٣ - الْبَيَانُ الْمَقْرُونُ بِالْبِرْهَانِ أَوْ بِالْحُجَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمَقْبُولَةِ:

إِذَا كَانَتِ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ الدَّعْوِيِّ مِنْ قَضَايَا الْحَقِّ، الَّتِي يُرَادُ الْإِقْتِنَاعُ بِهَا، فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيَانُ مَقْرُونًا بِالْبِرْهَانِ أَوْ بِالْحُجَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمَقْبُولَةِ الَّتِي تُقْنَعُ مِنْ تَوَجُّهِ لَهُ الرِّسَالَةُ بِصِحَّةٍ وَسَلَامَةٍ الْقَضِيَّةِ الْمَعْرُوضَةِ فِيهِ.

وَنَجِدُ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ الْإِلْتِمَامَ بِهَذَا الْعَنْصَرِ مِنْ عُنَاوِرِ الدَّعْوَةِ بِالْحِكْمَةِ، إِذْ يَعْرِضُ قَضِيَّةً أَوْ عِدَّةَ قَضَايَا مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ يُتَّبِعُهَا فِي ثَنَائِهَا السُّورَةَ بِالْحُجَجِ وَالْبِرَاهِينِ الدَّالَّةَاتِ عَلَى ثُبُوتِهَا، وَأَنَّهَا مِنْ قَضَايَا الْحَقِّ، وَهَذَا مَلَاظَمٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ (انظر: سورة الفرقان، وسورة الرعد، وغيرها).

وَإِذَا كَانَتِ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ مِنْ قَضَايَا الْبَاطِلِ، الَّتِي يُرَادُ الْإِقْتِنَاعُ بِبَطْلَانِهَا وَفَسَادِهَا، فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيَانُ مَقْرُونًا بِالْبِرْهَانِ أَوْ بِالْحُجَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمَقْبُولَةِ، الَّتِي تُقْنَعُ مِنْ تَوَجُّهِ لَهُ الرِّسَالَةُ بِبَطْلَانِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي هِيَ آخِذٌ بِهَا وَمَفْتُونٌ بِصِحَّتِهَا، وَبِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِذِي عَقْلِ أَنْ يَعْتَقِدَهَا وَيَسْتَمْسِكَ بِهَا.

ونجد في القرآن الحكيم الالتزام بهذا العنصر من عناصر الدعوة بالحكمة، إذ يعرّض عقائد المشركين وسائر الكافرين، ويبين بالبراهين والحجج العقلية وغيرها بطلانها وفسادها، وأنه لا يليق بذئ عقل سليم أن يعتقدوا ويستمسك بها.

٤ - البيان المقرون بالدليل على أفضلية ما جاء في الدين على غيره من الاحتمالات الممكنة:

إذا قُدِّمَتِ اقتراحات مخالفة لما اصطفاه الله واختاره لعباده من أحكام الدين، أو طريقة تبليغه للناس، أو غير ذلك من تصاريفه جلّ وعلا، فمن الحكمة في البيان الدّعويّ شَرْحُ وتَفْسِيرُ وجهِ الحكمة من الاختيار الربّاني، للإقناع بأن الاختيار الربّاني هو الأحكم من كلّ الاحتمالات الممكنة التي تتصوّرُها العقول.

وقد علّمنا القرآن هذا العنصر من عناصر الدعوة إلى سبيل الله، ومن أمثلة هذا أنّ المشركين لمّا اعتراضوا على نزول القرآن منجّماً، وقالوا كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ (٢٢)

أي: هلاً نُزِّلَ على محمد القرآن جُمْلَةً واحدة ولم يُنَزَّلْ مُفْرَقاً.

فأتبع الله عزّ وجلّ اعتراضهم على هذا الاختيار الربّاني ببيان وجوه الحكمة منه، وأنها تتلخّص بثلاثة وجوه:

الأول: تثبيت فؤاد الرسول.

الثاني: تعليمه المسلمين تعليماً مُرْتَبِلاً على مراحل لحفظه وحُسن تدبّره.

الثالث: الردّ على الأسئلة والاعتراضات التي تُوجّه بشأن الاختيار

الربّاني.



فقال الله عز وجل :

﴿... كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ .

٥ - البدء بجذور القضايا والانتقال منها إلى الفروع شيئاً فشيئاً :

من الحكمة للإقناع بقضية دعوية البدء بأصولها وجذورها الفكرية، وعدم الاشتغال بالإقناع بالفروع قبل الإقناع بالأصول، أو علم مؤجّه الرسالة بأن من يُعالج إقناعه مُقتنع فعلاً ومُسلّم بالأصول والجذور .

وبعد الاطمئنان إلى تسليم المدعُو بالأصل يَنْتَقِلُ به إلى ما هو متفرّع عنه مباشرة، ثم إلى ما بعده من فروع، وهكذا حتّى الفروع البعيدة بأسلوب ارتقائي على سُلّم القضية المقدّمة للإقناع بها .

فلكلّ قضية فكرية من فروع المعرفة الصحيحة جذرٌ ترجعُ إليه، وترتبطُ به ارتباط ساقِ الشجرة وفروعها بجذورها، إذ هي مشتقةٌ منه ومُتفرّعةٌ عنه .

ومن السهل الإقناع بالجذور الفكرية، لأنها في الغالب أولياتٌ مُسلّمٌ بها لبدايتها، أو قريبةٌ جداً من الأوليات البديهية المُسلّمٌ بها، فالاستدلال عليها بأدلة هي من البدهيات المُسلّمٌ بها لا يستدعي أكثر من خطوة فكرية، أو خطوتين، أو عدّة خطوات .

أما الفروع البعيدة فيكثرُ الجدَلُ حولها، وقد يَشْتَبِه الحقُّ فيها بالباطل، ويكونُ فيها مجالٌ واسعٌ للتهرّب من الإلزام بالحقّ .

وحين تكون الجذورُ وبعضُ الأصول سليمةً لدى من تُوجّه له الرسالة، ويظهرُ الانحرافُ عن الحقّ في فرعٍ من الفروع، فالحكمة في الإقناع تقتضي الرجوعَ إلى مواطن العِلَلِ التي نجم عنها هذا الانحراف، ولا تُجدي معالجة مكانِ الانحراف عن الحقّ والصواب، دون الرجوع إلى مكانِ العلة التي نجم عنها هذا الانحراف، تنازلاً بالتَّبَعِ الفاحص إلى جهة الأصول والجذور، فالعِلَلُ يجب أن تُعالجَ من المواطن التي بدأت منها .

وهنا نلاحظ أن الله عز وجل عالَج المنافقين الشاكين في صدق الرسول محمد ﷺ، إذ قام في ذَهِبِهِم أن القرآن الذي يقول لهم بشأنه: إنه تنزل من عند الله العزيز الحكيم، هو من وضع محمد، بإحالتهم على القرآن نفسه ليتدبروه، فإذا تدبروه يامعان تدبراً باستبصارٍ ووعيٍ وتدقيقٍ فلا بد أن يتوصلوا إلى أنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله، فقال الله عز وجل في سياق الحديث عن طائفة من المنافقين في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

فَحَصَّهِمْ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ عَلَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَتَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ حَقًّا وَصِدْقًا، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، أَي: اخْتِلَافًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْحَقِّ، وَاخْتِلَافًا بَيْنَ بَعْضِ نُصُوصِهِ وَبَعْضِهَا الْآخَرَ.

وفي هذا الحَضِّ عَوْدٌ بِهِمْ إِلَى مَكَانِ الْعَلَّةِ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكْتَمَلْ فِي قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، حَتَّى يُؤْمِنُوا بِأَنَّ مَبْلَغَهُ عَنِ اللَّهِ هُوَ رَسُولٌ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ حَقًّا وَصِدْقًا.

فَقَدَّمَ لَهُمْ دَلِيلًا بُرْهَانِيًّا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا وَضَحَتْ لَدَيْهِمْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ سَهْلٌ لَدَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

لَكِنَّ إِذْرَاكَهُمْ لِهَذَا الدَّلِيلِ الْبُرْهَانِيِّ يَتَطَلَّبُ مِنْهُمْ أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَتَفْهَمِ دَلَالَتِهِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَذْرَكُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مُطَابِقٌ لِلْحَقِّ وَالْوَاقِعِ فِي كُلِّ قَضَايَاهُ، وَأَذْرَكُوا أَنَّ نَزْوَلَهُ مِنْجَمًا مُفْرَقًا لَمْ يُؤَثِّرْ عَلَى وَحْدَتِهِ وَتَكَامُلِ الْحَقَائِقِ فِيهِ، وَأَذْرَكُوا أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَوْضَاعِ الْبَشَرِ، وَمِنْ تَأْلِيفِ النَّاسِ وَصِنَاعَتِهِمْ، لَوَجَدُوا فِيهِ تَنَاقُضَاتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْوَاقِعِ، وَلَوَجَدُوا فِيهِ تَنَاقُضَاتٍ بَيْنَ بَعْضِ نُصُوصِهِ الْمَتَقَدِّمَةِ نَزْوَلًا، وَبَعْضِ نُصُوصِهِ الْمَتَأَخَّرَةِ

نزولاً، ولا سيما التي بينها أزمانٌ تُقدَّرُ بسنين .

إنهم لو تدبَّروه بإنصافٍ وتجرُّدٍ عن سوابق الرِّفص لوصلوا إلى الاقتناع بأنه كتابٌ من عند الله، وحينَ يَصِلُونَ إلى هذه الحقيقة، ينتقلون تلقائياً إلى الاقتناع بأنَّ محمداً رسولُ الله حقاً وصدقاً .

ثمَّ إذا كانت لديهم إرادة الاعتراف بالحق آمنوا، وصدقوا في إسلامهم، وتخلَّصوا من رجسِ التَّفاق، أو من رجسِ الرِّيبِ والشكِّ .

بهذا الأسلوب الإقناعي الرِّباني يُعلِّمنا الله عزَّ وجلَّ أنَّ العلاج ينبغي أن يكون بالرجوع إلى مواطن العلة في الأصول أو الجذور أو غيرها، وأنَّه لا يُجدي العلاج من الفروع مع فساد ما قبلها تنازلاً إلى الأصول والجذور .

ومن أمثلة الرجوع إلى مواطن العلة إزجاجُ من يشرك بالله في عبادته، إلى إقناعه بأنَّ الله لا شريك له في ربوبيته، ومن لا شريك له في ربوبيته لا يصحُّ عقلاً أن يكون له شريك في إلهيته، لأنَّ العِبادة في الوجودِ حقُّ الرِّبِّ وخذهُ، فلا يُعبَدُ غيرُهُ إلاَّ بأمرٍ منه، أو بإذنٍ منه، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يَأْذَنْ بعبادةٍ غيرِهِ لأحدٍ، فَمَنْ عَبَدَ مع الله أحداً فقد جعلَ الله شريكاً في إلهيته الواحدة، وهذا من الكفر بالله .

والإقناع بأنَّ وضع القوانين والأحكام التشريعية المخالفة لأحكام الله، دون شعورٍ بمعصية الله في ذلك، هو من مشاركة الله عزَّ وجلَّ في خصائص إلهيته، أي: في كونه إلهاً معبوداً لا شريك له، لا بُدَّ فيه من الرجوع إلى معنى الربوبية وتوحيدها، ثمَّ إلى معنى الإلهية وتوحيدها، وأنَّ من خصائصها طاعة الله فيما أنزلَ لعباده من أحكامٍ تشريعية، وأنَّ وضع القوانين والأحكام التشريعية المخالفة لأحكام الله وشرائعه، إمَّا أن يكون مشاركةً لله عزَّ وجلَّ في خصائص إلهيته وكفراً به سبحانه، ولا سيما إذ اقترن ذلك باعتقاد أنَّ الأحكام الوضعية أفضل وأعدل من أحكام الله، وإمَّا

أن يكون من أكبر كبائر المعاصي، إذا اقترن وضْعُها أو قبولُها بالشعور بالإثم والعصيان، اتِّباعاً للهوى، أو استجابة لشهوات النفس ورغباتها الخاصّة، مع الاعتراف بالذَّنْبِ وارتكاب معصية هي من أكبر المعاصي بعد الشرك بالله عزّ وجلّ.

٦ - مراعاة المستوى الفكري لدى من تُوجّه له الرسالة:

من المعلوم أنّ الناس ليسوا على مستوى فكريّ واحد، بل هم على مستويات متفاوتة، ودرجاتٍ من قدرات الفهم متفاوتات، فمنهم الذكيّ نادرُ الذكاء، ومنهم دون ذلك تنازلاً حتّى درجة الأغبياء ضعفاء العقل والتفكير.

ومن المعلوم أنّ ما يصلُح من أفكارٍ وأساليبٍ بيانيّةٍ للأذكاء ويكون مؤثراً فيهم، ومرجواً معه استجابتهم، قد لا يصلُح لمتوسطي الذكاء، وهو لا يصلُح حتماً للأغبياء وضعفاء العقول.

وما يصلُح للكبار الناضجين المجربين الذين ضرّستهم الحياة، لا يصلُح للفتيان الناشئين الذين ما زالوا يخبُون في تجارب الحياة.

فعلى حامل الرسالة أن يكون لِمَاحاً يُدرك مستوى ذكاء من يخاطبه، فيقدّم من قضايا رسالته ما يلائمه، وبحسب مستواه من الذكاء وقدرات الفهم ومقدار التجربة.

وأما الجماهير التي تجمَعُ مستوياتٍ مختلفاتٍ متفاوتات، فينبغي أن يكون خطابه أو حديثه لهم متنوعاً، في مستوياتٍ مختلفاتٍ متفاوتات، حتّى يأخذ كلّ قسمٍ منهم من كلامه ما يفيدُه ويتأثر به ويقتنعه.

٧ - مراعاة المستوى العلمي لدى من تُوجّه له الرسالة:

القضايا الفكرية والأساليب البيانيّة التي يُخاطبُ بها العلماء، تختلف عن القضايا الفكرية والأساليب البيانيّة التي يُخاطبُ بها العامة، فلكل صنف

ما يُلائمه ويؤثر فيه ويُقنعه من قضايا فكرية وأساليب بيانية .

فعلى حامل رسالة الدعوة إلى الله أو رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُحسن مخاطبة كل ذي مستوى علمي بما يُلائمه، وبما يُلائم اختصاصه إن أمكنه، حتى يكون لكلامه تأثيرٌ نافع مفيدٌ في فكره ونفسه .

٨ - مراعاة الجوانب العاطفية التي تقتضيها الصّلات والعلاقات الاجتماعية :

علاقات حامل الرسالة بمن يُوجّه لهم رسالته تختلف اختلافاً كبيراً، وينبغي له أن يستفيد من المؤثرات العاطفية بينه وبين من يُوجّه له رسالته .

● ففي دعوته لأبيه يستفيد من أسلوب دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، إذ كان يخاطبه بتدليل الابن لأبيه : يا أبت . .

ومثل الأب الجدُّ، والأخ الكبير، والعَمُّ والخالُّ ونحوهم .

● وفي دعوته لابنه يستفيد من نُصح لقمان لابنه، إذ كان يخاطبه بشفقة الأب ورحمته وحنانه : يا بُني .

ومثل الابن الأخ الأصغر، وابن الأخ، وابن الأخت، ونحوهم .

● وفي دعوته لصاحبه ورفيقه يستفيد من دعوة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن، في قوله لهما : ﴿ يَصْنَعِي السِّجْنَ ۚ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ يوسف .

ويستفيد من قصة الرّجلين الصّاحبين الذين ضرب الله بهما مثلاً في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) :

أما أحدهما فقد افتخر على صاحبه بأنه أكثر منه مالا وأعزُّ نفراً وأعلَن كُفْرهُ بالساعة، وكان له جتّانٌ وهو كثير الإعجاب والفتنة بهما والشعور بدوامهما الطويل .

﴿ قَالَ لِمَ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ

رَجُلًا ﴿٣٦﴾ لَنُكَفَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٧﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٨﴾ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٩﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لِمُ طَلَبًا ﴿٤٠﴾ .

● وفي دعوة الأهل والعشيرة يستفيد من سياسة الرسول ﷺ مع أهله وعشيرته الأقربين .

● وفي دعوته قومه يستفيد من دعوات الرسل لأقوامهم، إذ كانوا يقولون لَهُمْ: يا قومنا .

٩ - مراعاة الحالة النفسية لدى من تُوجَّه له الرسالة :

كُلُّ إنسان له أحوالٌ يختلفُ بعضها عن بعضٍ، ولكلِّ حالةٍ نفسيةٍ من أحوال الإنسان بيانٌ حكيمٌ يلائمها .

- فحالة الإنسان النفسية في المرض غيرُ حالته وهو صحيح سليم .
- وحالته النفسية وهو غني غير حالته النفسية وهو فقير تلح عليه الحاجة .
- وحالته النفسية وهو في المأتم، غير حالته النفسية وهو في فرح .
- وحالته النفسية وهو ذو رياسة وعز، غير حالته وهو في ضعف وذلة ومهانة .

● وحالته وهو غضبان، غير حالته وهو راضٍ منشرح الصدر .

● وحالته وهو جاد، غير حالته وهو هازلٌ يضحك ويلعب .

إلى غير ذلك من أحوالٍ نفسية، ولكلِّ حالةٍ نفسيةٍ لدى الإنسان، مع صفاته الأخرى، أسلوبٌ فكريٌّ وبيانيٌّ يلائمها، وحاملُ الرسالة الحكيمُ يختارُ من الأساليب الفكرية والبيانية ما يُلائم حالَ من يُوجَّه له رسالته، وبذلك تكون بلاغته وحكمته .

١٠ - التدرُّج في الدعوة من الأصول إلى الفروع:

فالبَدْءُ بفروع القضايا، وبفروع الأحكام الشرعية المتعلقة بالسلوك، في دعوة غير المسلمين قبل تأسيس الأصولِ منافٍ لحكمة التدرُّج التي كانت من سُنَّةِ الله في تنزيل نجوم القرآن المجيد، ومنافيةً لما أوصى الرسول ﷺ به معاذ بن جبل حين بعثه داعياً إلى اليمن.

١١ - اختيار الموضوعات التي تلائم الأوضاع الاجتماعية والأحداث المحلية والعالمية، لأنَّ النَّفوسَ تكون مستعدةً لمتابعتها، والمشاركة الفكرية فيها، ثم الاستفادة منها في التوجيه للمقصود المُهم الذي يُريد الإقناع به من قضايا الإيمان، أو أسس الإسلام، أو فروع الكبري، أو غير ذلك.

\* \* \*

## الفقرة الثالثة

### شرح مسلكِ الموعظة الحسنة وبيان لعناصرها

سبق أن عرفنا أن الموعظة بوجه عام هي التُّصَحُّ بالفعل أو بالترك لِعَمَلٍ نفسيٍّ أو عملٍ جسديٍّ، إذا كان مقروناً بما يُبَيِّرُ الرغبة أو الرهبة في النفس، للانتفاع بالتُّصَحُّ واتباع ما هَدَىٰ إِلَيْهِ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

فالموعظةُ تَدُورُ فِي فَلَكِ التَّرْغِيبِ حَوْلَ مَحْوَرِ الطَّمَعِ فِي النَفْسِ، وَتَدُورُ فِي فَلَكِ التَّرْهِيْبِ حَوْلَ مَحْوَرِ الخَوْفِ فِي النَفْسِ.

أما الموعظة الحسنةُ فَحُسْنُهَا يَكُونُ فِي مضمونها القائم على الحقِّ والخير والتُّصَحُّ المفيد، وبيانِ العواقبِ بِصِدْقٍ، وفي أسلوبِ عَرَضِهَا الَّذِي لَا تنفر منه النفوس، وَالْحُسْنُ فِي أُسْلُوبِ العَرَضِ يتنافى مع الفظاظَةِ وَالْعِلاظَةِ وَالْمُخَاشَنَةَ فِي القَوْلِ، ويتنافى مع السَّبَابِ والشَتَائِمِ والأقوالِ الجارحةِ الْمُهْيِنَةِ، إلى كثيرٍ ممَّا سبقَ بَيَانُهُ فِي مُنَافِيَاتِ الحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى سبيلِ اللَّهِ، فَكُلُّ مَا تَنَفَّرُ مِنْهُ الطَّبَاعُ، وَلَا تَتَحَمَّلُ اسْتِمَاعَهُ، وَلَا تَتَقَبَّلُهُ مِنَ المَوَاعِظِ خَارِجٌ عَن دَائِرَةِ الموعظةِ الحسنةِ.

ومن الحُسْنِ فِي أُسْلُوبِ العَرَضِ الإهتمامُ بِالجَمَالِيَّاتِ الأدبيَّةِ، الَّتِي نَبَّهَتْ عَلَيْهَا علومُ البلاغةِ، وَأَشَادَتْ بِهَا كُتُبُ الأَدَبِ.

أما التَّرْغِيبُ من ركني الموعظةِ الحسنةِ فيكون بيانِ العاقبةِ الحميدةِ الَّتِي تَرْغَبُ فِيهَا النفوسُ، لمن استجابَ لِمَا دَعَتْ إِلَيْهِ الموعظةُ الحسنةِ.



والعاقبة الحميدة لاتباع سبيل الله هي الظفر بسعادة النفس في الحياة الدنيا، ونجاتها من كثير من الشرور والآلام المشقية المعذبة لها، والظفر بسعادة الآخرة في الخلود بجنات النعيم، على ما وصف الله عز وجل في كتابه، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما الترهيب من ركني الموعظة الحسنة فيكون ببيان العاقبة الوخيمة التي تكرهها النفوس وتنفر منها، لمن لم يستجب لما دعت إليه الموعظة الحسنة.

والعاقبة الوخيمة لعدم اتباع سبيل الله، أو للانحراف عنه، هي تلقى العقوبات الربانية المعجلة أو المؤجلة الأليمة بحسب البيانات التي جاء بها الوعيد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأشدّها الخلود في نار جهنم بعذاب اليم على الكفر بالشرك فما هو أشد منه كُفراً، وعلى الجرائم التي يرتكبها الطغاة البُغاة المجرمون.

بيان تحليلي لمحاور النفس:

من المناسب أن أقدم بياناً تحليلياً دلّت عليه وسائل التربية القرآنية للنفس الإنسانية.

الإنسان بمقتضى الفطرة التي فطره الله عليها له موجّهات داخلية ذاتية ثلاثة، هي العاملة المؤثرة في توجيه إرادته لاختيار سلوك معين مع حركة اختياراته في مسيرته في حياته، وهي ما يلي:

الموجّه الأول: فكر الإنسان الواعي، القادر على إدراك حقائق الأمور التي تُهمّه في الحياة، وعلى استبصارها بالتأمل والنظر والتفكير.

وهذا الفكر هو الأداة القادرة على التعلّم واكتساب المعرفة، وهو الأداة

العظيمة التي امتاز بها نوع الإنسان على الأنواع الحيوانية الأخرى.

والمسلك الدعويّ الأوّل، وهو مسلك الحكمة، هو المسؤول عن توصيل الحقيقة التي يُرادُ الإقناعُ بها إلى هذا الموجه، وهو الفكر الواعي.

فالدعوة بالحكمة من شأنها أن تدور في فلكٍ حول محور الفكر الواعي، لاختيار الوسيلة التي تُؤثر فيه تأثيراً إيجابياً نافعاً، وتُقنّعه، ليقومَ بعد ذلك بوظيفته الداخلية في توجيه الإرادة لاختيار السلوك الذي يحقق ما اقتنعَ بحُسنه وخيره، وفائدته العاجلة والآجلة للإنسان.

الموجه الثاني: الطمَعُ بما ترغّب فيه النَّفسُ، من مُسَعِداتٍ وسارَاتٍ ومُفْرِحَاتٍ ولذاتٍ من منافع ومكاسب وأرباح عاجلاتٍ أو آجلات.

وسياسة التّرعيب الذي هو أحدُ رُكني الموعظة الحسنة، تدور في محورِ حَوْلَ هذا الموجه الداخليّ الذاتي، وهو (الطمع). وهي المسؤولة عن اختيار الوسيلة التي تُؤثر فيه تأثيراً إيجابياً نافعاً، لإثارته وتهييجهِ حتّى يقومَ بتوجيه الإرادة لاختيار السلوك المناسب الذي يوصل إلى الجهة التي يكون فيها تحقيقُ ما تعلّقت به النفس، رغبةً في نيلهِ أو الظفر به.

الموجه الثالث: الخوفُ ممّا تكرهه النَّفسُ، من مشقياتٍ ومُكدِّراتٍ ومخزّناتٍ وآلامٍ وأضرارٍ وخساراتٍ عاجلاتٍ أو آجلات.

وسياسة التّرهيب الذي هو أحدُ رُكني الموعظة الحسنة، تدور في محورِ حول هذا الموجه الداخليّ الذاتي، وهو (الخوف). وهي المسؤولة عن اختيار الوسيلة التي تُؤثر فيه تأثيراً إيجابياً نافعاً، لإثارته وتهييجهِ حتّى يقومَ بتوجيه الإرادة لاختيار السلوك الذي يَضبطُ النفسَ، ويكفُّها ويُبعدُها عن التوجّه أو الاقتراب من الموقع الذي يُخشى أن يكون فيه تحقيقُ ما نفرت منه

النفس مما تكرهه، راغبة في السَّلامَةِ من سُروره وآلامه.

وسائل الترغيب والترهيب البيانية:

كلُّ من الترغيب والترهيب في الدعوة إلى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون بالوسائل البيانية التي جاءت في القرآن المجيد، ثم في السُّنَّة الثَّابتة الصحيحة، على أن تُقدِّم هذه النصوص البيانية المشتملة على الترغيب والترهيب مقرونةً بشرحٍ يُناسِبُ حالَ من تُوجَّه لهم الرسالة، وهي تتلخَّص بالوسائل البيانية التالية:

الوسيلة الأولى: الوعدُ بمُعْجَلِ الثواب الجزيل ومُؤَجِّلِه إلى يوم الدين، والوعيدُ المؤكَّد بمُعْجَلِ العقاب الأليم ومُؤَجِّلِه إلى يوم الدين، ونصوصُ الوعدِ والوعيد في القرآن والسنة كثيرةٌ جدًّا، وعلى حامل الرسالة أن يتلَّوها. ويُحسِنَ تدبُّرها وشرحها شرحاً مؤثراً.

الوسيلة الثانية: عرض الأمثلة والشواهد التاريخية التي جرت فيها سنة الله في الثواب والعقاب، من قصص الأمم السابقة وما جرى لهم أو عليهم، كَقِصَصِ الرُّسُلِ السابقين وأقوامهم، وما جرى للذين آمنوا بهم من نُصْرَةِ الله لهم، وما جرى على الذين كفروا وكذبوا رُسلَ ربِّهم وأجرموا وأفسدوا في الأرض. من عَذَابِ مُهْلِكِ لهم، ومن تدميرِ مساكنهم وبلدانهم وممتلكاتهم.

وكتابُ الله عزَّ وجلَّ وسنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ، فيهما الجَمُّ الوفيرُ من قصص الأمم السالفة، وعلى حاملِ الرسالة أن يَسْتَفِيدَ منها. ويُحسِنَ عَرْضَها وتَدبُّرَ النصوصِ المشتملة عليها، وأن يَسْتَخْرِجَ ما فيها من دقائق وعظايمٍ وعِبَرٍ.

الوسيلة الثالثة: عرضُ مشاهدِ القيامةِ، وما في يوم الدين من نعيم للمؤمنين الذين علموا الصالحات في جنات النعيم، وما فيه من عذاب للكافرين في جهنم، لمرتكبي الجرائم والظلم والبغي والعدوان والفسق والفجور.

وكتابُ الله عزّ وجلّ وسُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ، فيهما الجَمُّ الوفير من هذه المشاهد، وعلى حامل الرسالة أَنْ يستفيد منها، وأن يُحسّن عَرَضَهَا، وتَدبَّرَ النُّصُوصِ المشتملة عليها، وأن يَسْتَخْرِجَ ما فيها من دقائق ومَفْهُوماتٍ تَأْسِرُ النُّفُوسَ وتَمْتَلِكُ مَشَاعِرَهَا.

### فطرةُ النفسِ الإنسانيّةِ تُجاهِ المطامعِ والمخاوفِ:

من الملاحظ أن الله عزّ وجلّ فطر النفوس الإنسانيّة على الحرص الشديد على السَّعيِّ لما تُصِيبُ منه لَذَّةٌ أو منفعة أو رِنْحاً أو شيئاً ممّا تُحِبُّهُ وتَهْوَاهُ كالجاهِ والمُلْكِ العظيمِ والنَّعيمِ الباذخِ، إلى غير ذلك مما يُرضي دوافع النفس وأهواءها وشهواتها، وعلى الحرص الشديد على الابتعاد عمّا ينالها منه ألمٌ أو مضرةٌ أو خسارةٌ أو شيءٌ ممّا تَكْرَهُهُ وتَنْفِرُ منه، كالعذابِ والدُّلِّ والمهانةِ والخزيِّ إلى غير ذلك ممّا يُناقِضُ أهواءها وشهواتها. والمطلوبُ إيصالُ المدعوِّ إلى الوُثُوقِ بِصِدْقٍ ما يُقَدِّمُ له من وَعْدٍ مُوجَلِّ بثوابٍ عظيمٍ جداً على سَعيِّ يتَحَمَّلُ به مَشَقَّةً حَالِيَةً أو مخالفةً شَهْوَةً أو هوىً، من رغائبها العاجلة ذات القيمة القليلة بالنسبة إلى الموعود به، والوُثُوقِ بِصِدْقٍ ما يُنذِرُ به من وعيدٍ على المعصيةِ ومخالفةِ الأوامرِ والنواهي.

فإذا وثق بِصِدْقِ الوَعْدِ والوَعِيدِ، ولم يكن فاقدَ الاعتدالِ النفسيِّ بسببِ ثَوْرَةٍ انفعاليّةٍ غَشَّتْ على بصيرته وأخلَّتْ بتوازِنه، فإنَّ من طبيعة دوافعه الفطرية أن يتحرَّكَ فيه مَحَوْرُ الطَّمَعِ، مُوجَّهاً إرادتَهُ مَعَ دَفْعِ قوِيِّ للسَّعيِّ الحثيثِ في السَّبِيلِ الَّذِي يُحَقِّقُ له المَطْمَوعَ به، من الخيرِ العظيمِ الذي تَضَمَّنَتْهُ الوَعْدُ، وأن يتحرَّكَ فيه مَحَوْرُ الخوفِ، مُوجَّهاً إرادتَهُ بِدَفْعِ قوِيِّ للابتعادِ بِشِدَّةٍ عن السَّبِيلِ الَّتِي تجلُّبُ له ما يَكْرَهُهُ من عذابٍ أليمٍ أو خسارةٍ أو مَضْرَةٍ مَخُوفٍ منها، مِنْ كُلِّ شَرٍّ تَضَمَّنَتْهُ الوَعِيدُ على المخالفةِ والعصيانِ وسلوكِ سَبِيلِ الضلالةِ.

## الفقرة الرابعة

شرح مسلك الجدل بالتالي هي أحسنُ

- ١ -

بيان عام:

قد تدعو الحاجة إلى الإقناع بالحق الذي يُبلِّغه الداعي إلى سبيل ربّه، أن يتخذ وسيلة المجادلة.

وللمجادلة المأذون بها أو المأمور بها في القرآن شروط وقواعد وأصولٌ ينبغي اتباعها، صيانةً لها من أن تتحوّل إلى مُماراةٍ بَعِيدَةٍ عن نُشْدَانِ الحقيقة، أو إلى مشاحناتٍ أُنانيّة، ومُشاتماتٍ ومُغالطاتٍ، ونحو ذلك ممّا يُفسدُ القلوبَ ويُهيجُ النفوسَ، ويورثُ التّعصّبَ، ولا يوصلُ إلى الحقّ.

الجدال: هو حوارٌ كلاميٌّ يتفهمُ فيه كلُّ طرفٍ من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرضُ فيه كلُّ طرفٍ منهما أدلته التي رجّحت لَدَيْهِ استِمْسَاكُهُ بِوَجْهَةِ نظره، ثمَّ يأخذُ بتبصُّرِ الحقيقة من خلال الانتقادات والاعتراضات التي يوجِّهها الطرف الآخرُ على أدلته، أو من خلال الأدلّة التي يُنيرُ لهُ بها بعضُ النِّقاط التي كانت غامضة عليه.

وهدف الجدل هو في الأصلُ تعاوُنُ الفريقين المتحاورين على معرفة الحقيقة والتوصلُ إليها، بتبصيرِ كُلِّ منهما صاحبِهِ بالأماكن المظلمة عليه، والتي خفيت عنه حينما أخذ ينظرُ باحثاً عن الحقيقة، وذلك حينما لا يكون أحدهما واقفاً على الحقيقة البيّنة وقوفاً قطعياً غيرَ قابلٍ للتَّقْضِ، أمّا في هذه الحالة فإن هدفَ الجدل إنمّا هو تبصير الواقف على الحقيقة الطَّرَفَ الآخر

المجادل له بها، والأخذُ بيده في طُرُق الاستدلال الصحيح، لإبلاغه برفقٍ حتى يرى وجه الحقّ المشرق، وذلك باستخدام الحوار البريء من التعصّب، الخالي من العُنفِ والانفعال، والتمسُّي على مقتضىِ الاصولِ العامة للحوار، الذي يهدف فيه كلٌّ من الفريقين المتحاورين أن يصل إلى الحقيقة، كأنه جاهل بها، خالي الذهنِ والنفسِ من أيّ استمساكٍ سابقٍ بوجهة نظرٍ معيَّنة، من وجهاتِ النظرِ المختلفة، وذلك للابتعاد عن كلِّ أجواءِ التعصّبِ والأنانية، التي تُضرفُ النفوسَ والأفكارَ عن تفهّمِ الحقِّ، والتسليمِ به، ولو انكشَفَ لها واضحاً جليّاً.

- ٢ -

الجدال بالتي هي أحسن هو من وسائل الدعوة إلى سبيل الله

● ولما كان الجدال في الواقع الإنساني من الوسائل التي تُستخدَمُ لنشر الأفكار والإقناع بها، وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً، وكان الجدال سلاحه للدفاع عن أفكاره، فقد أمر الله عزّ وجلّ به، للدفاع عن دينه، ولنشره في الناس، والإقناع به، ولكن جعله مُقيّداً بأن يكون بالتي هي أحسن، كما أمر بالقتال لصدِّ عدوانِ الكافرين، وتأمينِ إبلاغِ حقائقِ أصولِ دينه للناس أجمعين، فقال الله عزّ وجلّ لنبيه فلكلّ داعٍ إلى سبيلِ ربّه من أمته في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿... وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (١٦٥)

● وخاطب الله عزّ وجلّ المؤمنين في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بقوله:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾ (٤١)

أي: فإن سَلَكَ مجادلوكُم مسالك غير مهذّبة القول، فتقيّدوا أنتم بكلّ قولٍ مهذّبٍ، واسلكوا كلّ طريقةٍ هي أحسنُ وأفضل.

عبارة ﴿يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تَشْمَلُ بعمومها الأساليب الفكرية والقولية، وبهذا يتبيّن لنا أنّ المطلوبَ من الداعي المسلم أن يكونَ في مجادلته على حالةٍ أرقى وأحسنَ باستمرار من الحالة التي يكونُ عليها من يجادله، أدباً وتهذيباً، وقولاً وفكراً.

● لكن استثنى الله حالة الذين ظلموا من أهل الكتاب في مجادلتهم، كأن شتموا بصراحة الذين يُجادلونهم من المؤمنين ظُلماً وعدواناً، فأجاز للمؤمنين بأن يُقابلوهم بالعدل، ويُفهّم هذا من النصوص التي تأذن بمقابلة السيئة بمثلها، إلا أن الله عز وجل يُرغّب في العفو عن السوء لأنه أجدى لتحقيق غاية الداعي وخدمة مبادئ الإسلام، ومنها قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾<sup>(١٤٨)</sup> إن بُدُوا خَيْرًا أَوْ يُخَفَّوهُ أَوْ تُعَفَّوْهُ أَعَنَ سُوًّا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾<sup>(١٤٩)</sup>.

● وقد أتى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام قوة حجة، وقُدرة على الجدل بالتي هي أحسنُ للإلزام بالحق، وهذا ما تكشفه لنا جدليّاته التي قصَّ الله علينا في كتابه طرفاً منها، وأثنى على قوة حجّته بقوله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(١٥٠)</sup>.

● وآتى الله عز وجل نوحاً عليه السلام نفساً طويلاً في جدال الكافرين، لإقناعهم بالحق الذي جاء به من عند الله، حتّى ضاقوا ذرعاً بقوة

حجته وطول نفسه في الجدل، فقالوا له: يا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، وهذا ما قصه الله علينا بقوله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

● فالجدال للوقوف على الحق أو للإقناع به عمل محمود، وقد يكون واجباً لنصرة دين الله وإزهاق الباطل كالقتال في سبيل الله عز وجل.

● أما الجدل انتصاراً للنفس، ورغبة في الاستعلاء والغلبة، فهو عمل مذموم، وقد يكون حراماً إذا كان فيه طمس للحق، أو تضليل للطرف الآخر المجادل.

- ٣ -

### قواعد عامة للجدال بالتي هي أحسن

يَحْسُنُ بِنَا بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا مَعْنَى الْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَعَرَفْنَا هَدَفَهُ فِي الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ، أَنْ نَنْظُرَ فِي قَوَاعِدِهِ الْعَامَةِ الَّتِي هَدَى إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ فِي تَوْجِيهَاتِهِ.

وقد أمكن بالتأمل في النصوص الإسلامية، والتطبيقات الجدلية القرآنية، والأصول المنطقية البديهية، استنباط القواعد التالية:

#### القاعدة الأولى:

على كل من فريق المحاور الجدلية حول موضوع معين أن يتخلى عن التعصب لوجهة نظره السابقة، وأن يعلن استعداده العام للبحث عن الحق، والأخذ به عند ظهوره، سواء أكان وجهة نظره السابقة، أم وجهة نظر من يحاوره في الجدل، أم وجهة نظر أخرى غيرهما.



وقد أرشدنا الله عز وجل في كتابه إلى الأخذ بهذه القاعدة، إذ علم الرسول ﷺ، وكلّ داع إلى سبيل ربه من أمته، في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) أن يقولوا لمجادليهم من المشركين وسائر المخالفين:

﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

وفي هذا غاية التخلي عن التعصّب لأمر سابق، وكَمَالُ إعلان الرغبة في نُشْدَانِ الحقّ أنّي كان.

ولمّا كان موضوعُ التعليم الجدليّ الذي وَرَدَتْ هذه العبارة في صَدَدِهِ، تَوْحِيدَ الله في ربوبيّته وإلهيّته، أو الإشراك به، وهما أمران على طرفي نقيض، لا لقاء بينهما بحالٍ من الأحوال، وهما يُدَوِّرَانِ حَوْلَ أصلٍ عظيم من أصول العقيدة الإسلامية، كان من الأمور البدهيّة أنّ الهدى في أحدهما إذ هو الحقّ، وأنّ الضلال المبين في الآخر إذ هو الباطل، ومن أجل هذا كانت عبارة إعلان التخلي عن التعصّب لأمر سابق تتضمّن الاعتراف بهذه الحقيقة.

القاعدة الثانية:

على كلّ من فريق المحاورّة الجدليّة أن يتقيّد بالقول المهذب، البعيد عن كلّ طعنٍ أو تجريح، أو هُزءٍ أو سُخْرِيَةٍ، أو احتقارٍ لوجهة النظر التي يدّعيها أو يدافع عنها من يجادلُه.

وقد أرشدنا الله عز وجلّ إلى التقيّد بهذه القاعدة في عدّة نصوص من القرآن المجيد، منها ما يلي:

١ - قول الله عز وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿... وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴿١٦﴾﴾

٢ - وقول الله عز وجلّ خطاباً للمؤمنين في سورة (العنكبوت/ ٢٩

مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ... ﴾ (١١)

وظاهرٌ أنّ التوجيه إلى الطريقة التي هي أحسن يشملُ كلَّ ما يتعلّق بالجدال ويترتّبُ به ويُرافقه ويصاحبه، من قول وفكر وعمل.

فالمؤمنُ المسلم مُطالبٌ بأن يلتزمَ في مجادلته، لإثبات الحقّ الذي يؤمن به، وإقناع الناس به، الطريقة التي هي أحسنُ من كلِّ طريقة يتخذها الناسُ في مجاداتهم.

لذلك كان من أخلاق المسلم وأدابه معَ خصوم دينه ومخالفِي عقيدته، فضلاً عن إخوانه المؤمنين، أنّه لا يسئلك مسالك السبِّ والشتم، والطعن واللعن، والهمز واللمز، والهزء والسخرية، والفحش والبذاءة.

٣ - وقول الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ... ﴾ (١٢)

أي: ولا تسبوا آلهة المشركين فيسبوا الله عدواً بغير علمٍ مقابلةً لكم على ما فعلتم، والنهي هنا نهْيٌ تحريم، وتؤخذُ من هذا النهي في هذه القضية قاعدةٌ سدّ الدرائع، فما هو سببٌ لارتكابٍ محرّمٍ هو حرامٌ أيضاً، وإن كان في ذاته مباحاً، فسبُّ أصنام المشركين بين المؤمنين دون أن يعلمَ بذلك المشركون غيرُ حرام، لكنّه حرامٌ إذا كان أحدُ المشركين حاضراً، لأنّه قد يدفعُ المشرك إلى أن يسبَّ الله عزّ وجلّ.

٤ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الهمزة / ١٠٤ مصحف / ٣٢ نزول):

﴿ وَيَلِكُلْ هُزْزَةً لَمْرَقَةٍ ﴾ (١٣)

الهُمَزَةُ اللَّمَزَةُ: الطَّعَانُ الَّذِي يَعِيبُ النَّاسَ وَيَشْتُمُهُمْ بِأَقْوَالٍ أَوْ أَعْمَالٍ  
إِيمَانِيَّةٍ إِشَارِيَّةٍ فِيهَا تَوَارٍ وَاسْتِخْفَاءٌ، وَهِيَ تُذَرِّكُ بِالذِّكَاةِ اللَّمَّاحِ.

والويل: هو العذاب الشديد، ووادٍ في جهنم.

٥ - وروى الترمذي والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَبِاللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَدِيِّ».

القاعدة الثالثة:

الالتزام في الحوار الجدلي بالطرق المنطقية السليمة، وعدم المراوغة  
والأخذ بالمغالطات واعتماد الأكاذيب والروايات الساقطات، والخرافات  
والأساطير التي لم تثبت صحتها.

هذه القاعدة المهمة جدًا يدُّ عليها عموم الأمر الرباني بأن يكون  
الجدال جدالاً بالتي هي أحسن.

ومن التزام الطرق المنطقية السليمة ما يلي:

أولاً: تقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للقضايا المدعاة.

ثانياً: إثبات صحة النقل للأمور المنقولة المرؤية.

ومن هذا أخذ علماء فن «آداب البحث والمناظرة» قاعدتهم المشهورة  
التي يقولون فيها: «إِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصَّحَّةُ، أَوْ مُدَّعِيًا فَالدَّلِيلُ».

وقد علمتنا الجدليات القرآنية اعتماد الطرق والأصول المنطقية لدى  
مجادلتنا في الدعوة إلى سبيل الله، ونصرة الحق الذي جاءنا عن الله  
عز وجل، وفي النصوص التاليات دلالات جليات على هذا التعليم:

١ - قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

فبدأ الطريق المنطقي في هذا التعليم الجدلي، بطرح السؤال على المشركين حول أهم القضايا التي تتعلق بتوحيد الربوبية لله عز وجل، وهي بدء الخلق وإعادته، ورزق الناس من السماء والأرض.

وهذا السؤال من شأنه أن يستخرج اعتراف المسؤولين ولو بعد مراحل من الحوار الجدلي بأن الله عز وجل هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده، وهو الذي يرزق الناس من السماء والأرض.

فإذا ثبتت هذه الحقيقة واعترف المسؤولون بتوحيد الربوبية لله عز وجل، كان من لازمها الفكري حتماً وجوب توحيد الإلهية لله وحده، فلا يجوز أن يُعبَد مع الله أحد من دونه، لأن العبادة حق الرب الخالق الرازق وحده.

فبيني المجادل على اعتراف المسؤولين بتوحيد الربوبية لله عز وجل، نقلهم بالدليل العقلي إلى القضية الثانية، وهي توحيد الإلهية لله تعالى، ويقنعهم بأن العبادة لا يصح عقلاً أن تكون إلا لمن هو رب خالق رازق يحيي ويميت، وهنا يقول لهم: ﴿أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ بأسلوب الاستفهام التعجبي من ترك هذه الحقيقة الجليلة الواضحة البرهان.

فإذا قالوا: نعبُد آلهتنا بأمر من الله أو بإذن منه، فعبادتنا لها تُقربنا إلى الله زلفى لأنها عنصر من عناصر ما يُقربنا إليه من عمل صالح.

كان على المجادل المؤمن الموحّد أن يطالبهم بالبرهان على ما ادّعوا، وفق الأصول المنطقية في الجدل والتي هي أحسن، وهنا يأتي موقع فقرة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ التي جاءت في التعليم المختزل.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ: أي: صادقين في ادّعاء أن الله أمركم أو أذن لكم بعبادة آلِهَتِكُمْ من دونه.

وَيَشْمَلُ الْبُرْهَانَ فِي مِثْلِ هَذَا الْادِّعَاءِ الْبُرْهَانَ الْعَقْلِيَّ، والبرهان النَّقْلِيَّ الثَّابِتَ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ.

لكنهم لا يملكون أي دليل يُبيح لهم أن يتخذوا من دون الله إلهاً يعبدونه، فتلزّمهم الحجّة وعليهم وفق أصول الجدال أن يعترفوا بالحق.

٢ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْذَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

فجاء في هذا النصّ التعليمي مطالبة المشركين بالبرهان على اتّخاذهم آلهة من دون الله، وهو يشمل البرهان العقليّ والنقليّ، لكن البرهان العقليّ قد سبق بيانه في آية النمل، ولم يستطيعوا أن يأتوا ببرهان نقليّ خلال مدّة طويلة منذ نزول سورة (النمل) حتّى نزول سورة (الأنبياء).

ولمّا لم يستطيعوا أن يأتوا بالبرهانِ النقليّ كان من المتناسب أن يقول الرسول لهم: إنّ البرهانِ النَّقْلِيّ الذي جآني من عند الله في القرآن يُثبِتُ أَنَّ كُلَّ رُسُلِ اللَّهِ السَّابِقِينَ قَدْ قَالُوا لِأَقْوَامِهِمْ: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ.

٣ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

في هذه الآية يأمر الله رسوله فكلّ داع إلى سبيل ربه من أمته بأن يطالبوا الذين يدعون أنه لن يدخل الجنة إلا من كان من اليهود أو من النصارى بتقديم برهانهم النقليّ على ما يدعون.

٤ - وقول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وذلك أن اليهود أخذوا يعترضون على رسول الله ﷺ في أكله لحوم الإبل وشربه البانها، مع إعلانه أنه على دين إبراهيم عليه السلام، مدعين بأنها كانت محرمة في ملة إبراهيم.

فقال لهم الرسول ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله، فقال اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، فنزل قول الله يأمرُ رسوله بأن يُطالبهم بتقديم الدليل على ما يدعون من نقل صحيح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ : فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

القاعدة الرابعة:

الآ يكون المجادل ملتزماً في أمرٍ من أموره الفكرية بضدِّ الدعوى التي يُحاول أن يُثبتها، فإذا كان ملتزماً بشيءٍ من ذلك، كان بمثابة من يحكم على نفسه بأن دعواه مرفوضة من وجهة نظره.

ومن الأمثلة على سقوط دعوى المجادل بسبب التزامه بضدِّ دعواه، وقبوله له: استدلال بعض من أنكر رسالة محمد صلوات الله عليه بسبب أنه بشرٌ، وزعمهم أن الاصطفاء بالرسالة لا يكون للبشر، وإنما يكون للملائكة، أو مشروط بأن يكون مع الرسول من البشر ملكٌ يرى، وفي اعتراضهم على بشريته قالوا كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ .. مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ .

مع أنهم يعتقدون برسالة كثيرٍ من الرسل السابقين كإبراهيم وموسى

وعيسى عليهم السلام، وهؤلاء في نظرهم بشرٌ وليسوا بملائكة، ولذلك أسقط الله عز وجل دعواهم بقوله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ﴿٢٥﴾ .

القاعدة الخامسة:

الآ يكون في الدَّعْوَى أَوْ فِي الدَّلِيلِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْمَجَادِلُ تَعَارُضٌ، أَيْ: أَلَّا يَكُونُ بَعْضُ كَلَامِهِ يَنْقُضُ بَعْضَهُ الْآخَرَ، إِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامُهُ سَاقِطًا بِدَاهَةٍ.

ومن أمثلة ذلك قولُ الكافرين حينما كانوا يَرَوْنَ الآياتِ البَاهراتِ تنزل على رسول الله ﷺ: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» إِذَا كَانَ الْمَرَادُ الْاسْتِمْرَارَ الزَّمَنِيَّ، لِأَنَّ قَوِيَّ شَدِيدٍ.

ففي ادِّعَاءِ أَنَّهُ سِحْرٌ وَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ اسْتِمْرَارًا زَمَنِيًّا تَعَارُضٌ وَتَهَافُتٌ ظَاهِرٌ لَا يَسْتَحِقُّ رَدًّا، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ السِّحْرِ كَمَا يَعْلَمُونَ أَنْ لَا يَكُونُ دَائِمًا، وَمِنْ شَأْنِ الْأُمُورِ الدَّائِمَةِ أَنْ لَا تَكُونَ سِحْرًا، أَمَّا أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ سِحْرًا وَمُسْتَمِرًّا مَعًا فَهُوَ جَمْعٌ عَجِيبٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَضَادِّينِ لَا يَجْتَمِعَانِ.

ونظير ذلك قول فرعون عن موسى عليه السلام حينما جاءه بسُلطان مُبِينٍ مِنَ الْحَجَجِ الدَّامِغَةِ وَالآياتِ البَاهراتِ: «سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

قال الله عز وجل في سورة (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٦٧﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوعًا وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٦٨﴾﴾ .

إِنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَكَادَانِ يَكُونَانِ مُتَضَادِّينِ، فَمَنْ غَيْرَ الْمَعْقُولِ مَنْطِقِيًّا

أن يكون الشخص الواحد ذو الصفات الواحدة، متردداً بين كونه ساحراً وكونه مجنوناً، وذلك لأن من شأن الساحر أن يكون كثيرَ الفطنة والذكاء والدهاء، وهذا أمرٌ يتناقضُ مع الجنون تناقضاً كلياً، فكيف صحَّ في فكر فرعون هذا التردد بين كَوْنِ مُوسَى ساحراً وكَوْنِهِ مجنوناً؟.

إن في كلامه هذا لتهافتاً ظاهراً يُسقطه من الاعتبار لدى المحاورَة الجدليّة، فهو لا يستحقّ عليه جواباً، وهو يُشعر بأن فرعون يتهرَّب من منطق الحقّ، ويُطلِّقُ عبارةً يُعشِّي بها على الملاء من حوله، حتّى لا يفتضح أمامهم بانتصار موسى عليه في الحجّة، أو هو ينتقل إلى موضوع جرأة موسى في القصر الفرعوني، فيعلّلها بأنها صادرة عن ساحرٍ يعتمد على قوّته في السحر، أو صادرة عن مجنون لا يُقدِّرُ عواقب الأمور، وهذا أيضاً تهرُّبٌ من منطق الحجج التي قدّمها موسى عليه السلام إلى موضوعٍ آخر هو موضوعُ جرأته.

القاعدة السادسة:

الآ يكونَ الدليلُ الذي يُقدِّمه المجادلُ ترديداً لِأصلِ الدعوى، فإذا كان كذلك لم يكن دليلاً، وإنّما هو إعادةٌ للدّعوى بصيغة ثانية، وسقوط هذا في الجدل أمرٌ بدهيٌّ.

ولكن قد يخفى على الفريق الآخر هذا الأمر إذا استخدم المجادل براعته في تغيير الألفاظ وزخرفتها، وتقديم مقدمات لها، وبناء فروع عليها يدّعيها، بيد أن الأمر لا يعدو أن يكون حيلةً باطلةً لا يلجأ إليها طُلابُ الحقّ.

القاعدة السابعة:

عدمُ الطعن بأدلةِ المجادلِ إلّا ضمنَ الأصول المنطقيّة، أو القواعد المُسلّم بها لدى الفريقين المتحاورين.

القاعدة الثامنة:

إعلانُ التسليم بالقضايا والأُمور التي هي من المسلّماتِ الأولى، أو من



الأمر المَتَّقِ بين الفريقين المتحاورين على التسليم بها.

أما الإصرار على إنكار المُسَلِّماتِ فهو مكابرةٌ قبيحة، وممارسةٌ منحرفة عن أصولِ المحاورَةِ والمجادلةِ السليمة، وليست من شأن طالبِ الحقِّ.

القاعدة التاسعة:

قبولُ النتائجِ التي تُوصِلُ إليها الأدلَّةُ القاطعةُ أو الأدلَّةُ الراجحةُ، إذا كان الموضوعُ مما يكفي فيه الدليل الراجح.

وإلا كانت المجادلة من العبث الذي لا يليق بالعقلاء أن يمارسوه.

\* \* \*

## الفقرة الخامسة

### نماذج من تعليمات جدلية قرآنية

#### النموذج الأول:

قال الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَعْرِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ۞

في هذه الآية تعلیم جدلي حول قضية من قضايا عقائد اليهود والنصارى الباطلة، وترتيب خطوات هذا الحوار الجدلي كما يلي:

المدعي: (من اليهود أو النصارى) يقول: نحن أبناء الله وأحببناؤه، أي: فلا يدخلنا يوم القيامة في جهنم مهما ارتكبنا من ذنوب وخطايا وجرائم في الحياة الدنيا.

المخالف: (من المؤمنين المسلمين) يطرح سؤالاً يتضمن إبطال ادعاء المدعي، فيقول: فلِمَ يُعَذِّبُكُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِكُمْ في الحياة الدنيا كما هو مُشَاهِدٌ من تعرّضكم لبعض العقوبات الدنيوية، فلو كنتم أبناء الله وأحببناه لما تعرّضتم لهذه العقوبات في الحياة الدنيا.

المدعي: لا يجد جواباً صحيحاً يدفع به هذا الاعتراض الذي يُثبت نقيض مدّعاؤه، وإذا جاء بشيء أمكن نقضه.

المخالف: بل أنتم بشرٌ ممَّن خَلَقَ اللهُ مِنْ خَلْقٍ، والله عزَّ وجلَّ يغفر لمن يشاء إذا اقتضت حكمته أن يغفر له وهو لا يغفر لمن مات على كفره، ويُعَذَّبُ مَنْ يَشَاءُ إِذَا اقْتَضَتْ حُكْمَتَهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ.

وليس مخلوقٌ في الوجود كُلهُ ابنِ اللهِ، بل كلُّ ما سوى الله مَلِكٌ له ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أما الحياة الدنيا للناس جميعاً فهي رحلة امتحان، وبعد الامتحان فيها يكون الحساب والجزاء يوم الدين الذي يُبْعَثُ فيه الناس وَيَصِيرُونَ فِيهِ إِلَى رَبِّهِمْ لِيَجْزِيَئَهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

\* \* \*

النموذج الثاني:

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة) أيضاً:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآية تعلِيمٌ جَدَلِيٌّ حول قضيَّةٍ من قضايا عقائد النصارى في عيسى عليه السلام، وترتيبه كما يلي:

المدَّعي: يقول: إن الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما هو عيسى بن مريم، تجسَّدَ في شخص عيسى، ثم تجرَّدَ عن الشخص.

المخالف: (المؤمن المسلم) يطرح سؤالاً يتضمَّن إبطال الادِّعاء فيقول: ألم يكن عيسى عليه السلام يأكلُ ويشربُ وتجري عليه الأحوال التي تجري على سائر البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو بغيره.

المدّعي: بلى، فقد كان يأكل وَيَشْرَبُ وَتَجْرِي عليه الأحوال التي تجري على البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو غيره.

المخالف: يطرح سؤالاً يتضمّن تأكيد إبطال الادّعاء فيقول: هل يُوجدُ أحدٌ يَمْلِكُ دفعَ مُرادِ الله إن أرادَ اللهُ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ بالموتِ المعتاد أو غيره، وأنَّ يُهْلِكَ أمّه وجميعَ الناس؟ أي: فكيف يكون هو الله وهو عرضةٌ للهلاك كسائر من في الأرض؟.

فإذا قال المدّعي: لا أحد يَمْلِكُ ذلك، فقد لزمه أن يُثبت أن الله ليس هو المسيح عيسى بن مريم، وتنتهي المجادلة.

وإن رَوَّعَ ولم يعترف فباستطاعة المخالف أن يُلزمه وَيَحصرَهُ حتّى يَنْقطع، فالتصارى يَدْعُونَ أَنَّ عيسى صُلبَ ومات، ثمّ قام من بين الأموات ثم عاد.

\* \* \*

### النموذج الثالث:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَيُحْيِي. وَأَمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ .

في هذه الآية حكاية حوارٍ جدليّ جرى بين رسولِ الله إبراهيم عليه السلام، والنمرود ملك العراق القديم في عصره، وفي حكاية هذا الحوار تعليمٌ جدليّ للمسلمين ولا سيّما الدعاة إلى الله منهم.

وقد جرى هذا الحوارُ الجدليّ وفقَ الترتيب التالي:

المدّعي: (إبراهيم عليه السلام) دعا النمرود إلى الإيمان بالله وعبادته

وحده، وذكر له أنه رسولُ الله ربّه ربّ كلّ شيء.

المخالف: (الثُمُرد): أَلَسْتُ وأنا مَلِكُ البلادِ ربُّكَ؟

إبراهيم عليه السلام: أَنْتَ لَسْتَ رَبِّي، إِنَّمَا أَنْتَ مَلِكُ البلادِ وحاكمها.

الثُمُرد: فَمَنْ رَبُّكَ إِذَنْ؟

إبراهيم: رَبِّي هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ.

الثُمُرد: أنا أُحْيِي وَأُمِيتُ، واستدلَّ على ادّعائه هذا بأنَّ أَحْضَرَ رَجُلَيْنِ من السَّجْنِ فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا وَعَفَا عَنِ الْآخَرِ، وأوهم بهذا أنه يَمْلِكُ هَذِهِ الرَّبُوبِيَّةَ ما دَامَ يَتَّصِفُ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ.

إبراهيم: لَمْ يَشَأْ أَنْ يَدْخُلَ فِي جِدَالٍ يَكْشِفُ فِيهِ الْمِغَالِطَةَ الَّتِي صَنَعَهَا النَّمْرُودُ، إِذْ جَعَلَ الْقَتْلَ إِمَاتَةً، وَالْعَفْوَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ إِحْيَاءً، وهما غَيْرُ مُرَادَيْنِ فِي أَصْلِ دَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ هُوَ يُرِيدُ خَلْقَ الْحَيَاةِ فِي الْمَادَّةِ غَيْرِ الْحَيَّةِ، وَسَلَبَ هَذِهِ الْحَيَاةَ سَلْبًا حَقِيقِيًّا، لَا سَلْبًا عَنْ طَرِيقِ اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ أَسْبَابًا لِحُدُوثِ الْمَوْتِ الَّذِي يَتِمُّ بِخَلْقِ اللَّهِ وَبِقُدْرَتِهِ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَّحٍ لِلنَّمْرُودِ وَلِغَيْرِهِ.

لكن إبراهيم عليه السلام اختار أن ينتقل إلى عمَلٍ آخَرَ مِنْ أَعْمَالِ الرَّبُوبِيَّةِ لَا يَسْتَطِيعُ الثَّمُردُ أَنْ يُعَالِطَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ: فَإِنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَأَتَتْ بِهَا إِنْ كُنْتَ رَبًّا خَالِقًا مِنَ الْمَغْرِبِ.

أي: إِنْ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْخَالِقِ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ أَنَّهُ جَعَلَ مِنْ نِظَامِ الْكُونِ أَنْ يَكُونَ إِتْيَانُ الشَّمْسِ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، لَا مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ، وَمِنْ لَهُ صِفَةُ الرَّبُوبِيَّةِ فِي الْكُونِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَجْعَلَهَا تَأْتِي مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِنْ كُنْتَ رَبًّا كَمَا تَدَّعِي فَأَتِ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ.

النمرود: بُهِتَ، إذ عَجَزَ عن تقديم شاهدٍ عمليٍّ يُثبِتُ قُدْرَتَهُ على أن يأتي بالشمس من المغرب.

بُهِتَ: أي: دُهِّشَ وَسَكَتَ متحيراً.

وبهذا انتهت المجادلة القائمة على الحوار بالفكر، والاستدلال بالأدلة المنطقية السليمة.

لكن النمرود لجأ بعد ذلك إلى أعمال العنف المادية لإيقاف إبراهيم عليه السلام عن دَعْوَتِهِ، فأمر بتحريقه بالنار أمام جماهير قومه، فأخزاه الله وأنجى نبيّه ورسوله إبراهيم عليه السلام.

\* \* \*

النموذج الرابع:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزل):

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قَرَأٰطيسَ تُبَدُّوْنَهَا وَنُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَعَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٦﴾ .

في هذه الآية يُعَلِّمُ اللَّهُ عزّ وجلّ رَسُوْلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ فكُلٌّ داع إلى الله من أمته، كَيْفَ يجادل طائفة من اليهود ادّعوا أن الله لم ينزل على بشرٍ من شيءٍ، ليتوصّلوا بهذا الادعاء إلى أن القرآن ليس مُنَزَّلًا من عند الله، وترتيب هذا الحوار الجدلي يجري كما يلي:

المدّعي: (اليهودي) قال لرفض رسالة محمد ﷺ ولرفض الإيمان بالقرآن الذي أنزل عليه من الله عزّ وجلّ:

﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِّنْ شَيْءٍ .

ادعاءً يلزم من صحته إثبات أن القرآن ليس منزلاً من عند الله، وأن محمداً ليس رسولاً.

المخالف: (المؤمن المسلم الداعي إلى سبيل ربه) يطرح سؤالاً تتضمن الإجابة عليه إبطال الادعاء، فيقول:

مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَهُوَ مَوْجُودٌ لَدَيْكُمْ إِذْ تَكْتُبُونَهُ فِي قِرَاطِيسٍ مُّتَنَوِّعَةٍ وَمُقَسَّمَةٍ إِلَىٰ أَقْسَامٍ، فَتُبَدُونَ بَعْضُهَا، وَتُخْفُونَ مِنْهَا كَثِيرًا لِغَايَاتٍ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَعَلِمْتُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ قَبْلَ أَنْزَالِهِ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ.

المدعي: إِمَّا أَنْ يَعْتَرِفَ بِأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَبِهَذَا تَسْقُطُ دَعْوَاهُ، وَإِمَّا أَنْ يُرَاوِغَ بِالْبَاطِلِ وَعِنْدَئِذٍ يَسْتَطِيعُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يَحْصِرَهُ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ وَيَخْرَجَ مِنْهَزَمًا مِنْ حَلْبَةِ الْمَجَادِلَةِ مَكَابِرًا سَاقِطًا فِي نَظَرِ الْمَشَاهِدِينَ.

وهنا يُعْلِنُ الْمُؤْمِنُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ قَائِلًا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ فِي التَّعْلِيمِ: اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ، وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثُمَّ يَتْرُكُ كُفْرَةَ الْيَهُودِ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.

\* \* \*

النموذج الخامس:

قال الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) مُعَلِّمًا رسوله فكلِّ داعٍ إلى سبيل ربه من أمته:

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقَرُونَ ﴿٨٤﴾ قُلْ مَنْ يُدْعِيكُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنزَلْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾  
 مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى  
 بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا  
 يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ .

في هذا النصّ تعليم جدليّ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ رَسُولَهُ فَكَلَّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ  
 أُمَّتِهِ، وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى عِدَّةِ جَوَلَاتٍ مِنْ جَوَلَاتِ الْمَجَادَلَةِ لِلْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ  
 اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَعْبُدُونَهُمْ رَجَاءً أَنْ تَجْلِبَ لَهُمُ الْمَنَافِعُ وَتُدْفَعَ عَنْهُمْ  
 الْمَضَارُّ فِي شُؤْنِ دُنْيَاهُمْ .

وكلُّ جولةٍ من هذه الجولاتِ تعتمد على طرح الأسئلة واستقبال  
 الأجوبة عليها، ثُمَّ تَكُونُ الْمَتَابَعَةُ بِحَسَبِ الْجَوَابِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْمَسْئُولُونَ  
 الْمَشْرِكُونَ .

### الجولة الأولى

المدَّعون: (المشركون) الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ اللَّهَ شَرَكَاءُ فِي إِلَهِيَّتِهِ .

المخالف: (الداعي إلى سبيل الله) يَطْرَحُ سِئَالًا يَتَعَلَّقُ بِإِلَازِمِ كَوْنِ اللَّهِ عَزَّ  
 وَجَلَّ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ فِيهَا فَيَقُولُ:

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

إِنَّ إِلازِمَ رَبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِلْأَرْضِ وَلِمَنْ فِيهَا أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ وَمِنْ فِيهَا مَلِكًا  
 لَهُ جَلٌّ جَلَالَهُ .

أي: لِمَنْ يَرْجِعُ مَلِكُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا، فَهُوَ يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وَيُجْرِي  
 تَصَاريفَهُ فِيهِ عَلَى وَفْقِ حِكْمَتِهِ، وَمِنْهَا الْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ، وَالضَّرُّ وَالنَّفْعُ، وَالْحَيَاةُ  
 وَالْمَوْتُ؟



المدَّعون: (المشركون): هي للآلهة التي نُقَدِّمُ لها القرابينَ وندعوها ونَعُوذُ ونَلُوذُ بها.

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربّه): كيف تكونُ الأرضُ ومَنْ فيها للآلهة التي اتخذتموها من دون الله، مع أنكم تُؤْمِنُونَ بأنَّ الله هو الذي خَلَقَهَا، وهو الذي خلقكم، وقد جاء هذا في اعترافاتكم السابقات التي سمعناها منكم في مجالس كثيرة؟!

المدَّعون المشركون: إنَّ الله الخالقَ فَوْضَ هذه الآلهة في أمورِ الأرضِ ومن فيها، فهي لها بالتفويض.

المخالف: هل عندكم بُرْهانٌ عقليٌّ، أو برهانٌ نَقْلِيٌّ خَبَرِيٌّ عن الله، أو بُرْهانٌ تَجْرِيبيٌّ يُبَيِّنُ مَا تَدَّعُونَ؟

إنَّ كان لديكم شيءٌ من ذلكم فهاتوا بُرْهانكم.

هنا يتوقَّفُ المدَّعون المشركون، لأنَّهم لا يملكون برهاناً عقلياً، ولا برهاناً نقلياً خبرياً عن الله عزَّ وجلَّ، ولا بُرْهاناً تَجْرِيبيّاً يُمَكِّنُ أَنْ يُثَبِّتَهُ بيقين.

لكن قَدْ يتدَّرَّعون بأقاويل عن تجاربَ جرَّتْ لبعضهم، هي من قبيل الحكايات التي ليس لها أقدامٌ تقف عليها في مواجهة النقد العلمي.

ولا يعجز المخالف الداعي إلى سبيل ربّه عن إسقاط ذرائعهم بالنقْدِ والنقض، وتقديم ما يُظْهِرُ عَدَمَ صلاحيتها لأنَّ تكونَ حُجْجاً يعتمدُ عليها أهل الفكر.

ثُمَّ يَسْتَطِيعُ الداعي إلى سبيل ربّه في نهاية الجولة التي تطوَّلُ أو تقصُرُ إلزام المشركين، أو انتزاع اعترافهم بأنَّ الأَرْضَ ومن فيها لله وحده، لا شريك له، وهو وحده الذي يُدَبِّرُ مُلْكَهُ، ويتصرَّفُ فيه بمقتضى حكيمته المشمولة بعلمه ورحمته التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ.

وفي حالة اعترافهم بالحق يقولون: الله .

لكنّ هذا الاعتراف لا يكون تلقائياً عقب السؤال، وإنما يأتي بعد حصارٍ فكريّ في مُجادلةٍ عقليةٍ علميةٍ تعتمد على أدلةٍ برهانيةٍ، لهذا قال الله عزّ وجلّ:

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾

أي: سيقولون مستقبلاً بعد المجادلة بالتي هي أحسن والحصارِ الفكريّ والإقناع: لله الأرضُ ومنّ فيها، وليس لأحدٍ سواه ملكٌ في شيءٍ من ذلك، ولا تصرفٌ فيه .

ومتى وصلوا إلى هذا الاعتراف وأعلنوه، وجّه الداعي إلى سبيل ربّه لهم موعظته، فحضّهم على أن يذكروا.

أي: أن يضعوا في ذكراتهم دواماً أن الأرض ومن فيها ملكاً وتصرفاً وتدبيراً شاملاً، وهيمنة تامّة لله وحده، فإذا وضعوا هذا في ذكراتهم دواماً وجدّوا أنفسهم يعبدون الله وحده، مُسقطين من أنفسهم آلهتهم التي لا تملك من الأمر شيئاً، فجاء في التعليم قول الله تعالى:

﴿ قُلْ: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ ﴾ وفي قراءة جمهور القراء ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ ﴾

والاستفهام هنا هو بمعنى الحضّ والحثّ على تذكّر هذه الحقيقة التي وصلوا إلى إدراكها، واعترفوا بها، وهذا التذكير من حينٍ إلى آخر من شأنه أن يدفع إلى نبذ الشركِ دواماً، وعبادة الله وحده لا شريك له .

### الجولة الثانية

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربّه) يطرح سؤالاً عن ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم، فيقول للمشركين كما جاء في التعليم الجدليّ القرآنيّ:

﴿مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟﴾ .

أي: مَنْ الَّذِي لَهُ أَمْرٌ مُتَابَعَةٌ عَمَلِيَّاتِ التَّدْبِيرِ وَالتَّصْرِيفِ لِلْمَتَغَيَّرَاتِ الْمُسْتَمِرَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَفِي الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟

هذا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ «رَبِّ» لِأَنَّ الرَّبَّ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ كَالْتَرْبِيَةِ، وَالتَّرْبِيَةُ هِيَ إِنْشَاءُ الشَّيْءِ حَالًا فَحَالًا حَتَّىٰ إِبْلَاغِهِ حَدَّ التَّمَامِ، ثُمَّ اسْتَعِيرَتْ كَلِمَةُ «رَبِّ» مِنَ الْمَصْدَرِيَّةِ إِلَى اسْمِ الْفَاعِلِ، أَي: «الْمَرْبِيِّ» وَلَمَّا كَانَتِ التَّرْبِيَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الْأَشْيَاءَ وَيُنْشِئُهَا طَوْرًا فَطَوْرًا كَانَ الْأَحَقُّ بِأَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ (الرَّبُّ لِكُلِّ شَيْءٍ) أَي: الْخَالِقُ الْمُنْشِئُ الَّذِي يُمِدُّ مِنَ يُرَبِّيهِ وَمَا يُرَبِّيهِ بِعَطَاءَاتِ التَّرْبِيَّةِ دَوَامًا، وَهُوَ الْمَشْرِفُ عَلَيْهَا كُلِّهَا دَوَامًا، وَالْمُحِيطُ بِهَا عِلْمًا وَسُلْطَانًا وَهَيْمَنَةً.

فَالرَّبُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ خَالِقٍ مَخْلُوقَاتِهِ، ثُمَّ تَرَكَ تَدْبِيرَ أُمُورِهَا بَعْدَ الْخَلْقِ لِآلِهَةٍ غَيْرِهِ، إِنَّمَا الرَّبُّ هُوَ الْمُمِدُّ بِالتَّرْبِيَّةِ عَلَى الدَّوَامِ، وَهُوَ الْمَهِيْمُنُ عَلَى شُؤُونِ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى الدَّوَامِ، وَلَهُ كُلُّ أُمُورِهَا دُونَ اسْتِثْنَاءٍ.

أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِحَسَبِ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، لَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّبُّ الْمُدَبِّرُ الْمَهِيْمُنُ الْمُصَرِّفُ لِأُمُورِ مَا خَلَقَ دَوَامًا، وَبِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ.

الْمَدْعُونَ: (الْمُشْرِكُونَ): يَتَوَقَّفُونَ فَلَا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، عَلَى وَفْقِ الْمَعْنَى الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا.

فَقَدْ يَقُولُونَ: إِنَّ قِضِيَّةَ تَدْبِيرِ أُمُورِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَأُمُورِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ هِيَ لِآلِهَةٍ مُتَعَدِّدِينَ فِي السَّمَاءِ، فَوَضَعَهُمُ اللَّهُ بِتَدْبِيرِ أُمُورِهَا، أَوْ هُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ فِي التَّدْبِيرِ وَالسُّلْطَانِ، فَهَمُ الَّذِينَ يَتَصَرَّفُونَ بِشُؤُونِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَحْيَاءِ فِيهَا، وَبِأَمْرِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ تَجْرِي الْأَحْدَاثُ.

وعلى مثل ما جاء في الجولة الأولى يُتَابِع الداعي إلى الله مجادلته حتى ينتزع من المشركين اعترافهم، بأنّ تدبير أُمُورِ السماوات السَّبْعِ وأمور العرش العظيم، إنما يكون بأعمال مُرَبِّ مُتَابِعٍ لكلِّ صغير وكبير، هو الله وحده لا شريك له في ربوبيّته .

وهذا لا يَصِلُ إليه إِلَّا بَعْدَ حِصَارٍ فِكْرِيٍّ، وَمُجَاهَدَةٍ طَوِيلَةٍ، فِي مَجَادَلَةٍ عَقْلِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ، لَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّعْلِيمِ :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ .

فَأَبَانَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا لَا يَكُونُ تِلْقَائِيًّا عَنْ عَقِيدَةٍ جَاهِزَةٍ لَدَيْهِمْ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَهُ بَعْدَ زَمَنِ عَبَّرَتْ عَنْهُ السَّيْنُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ .  
وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ السُّؤَالِ وَالْاعْتِرَافِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ مَجَادَلَةٌ عَقْلِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ يَشِيرُهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، وَيُقَدِّمُ فِيهَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْإِقْنَاعِ الْمَرْجُوعِ، وَيَنْتَزِعَ اعْتِرَافَ الْمَشْرُكِينَ بِأَنَّ كُلَّ عُنَاصِرِ الرُّبُوبِيَّةِ هِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَحِينَ يَنْتَزِعُ مِنْهُمْ هَذَا الْاعْتِرَافَ يَحْسُنُ أَنْ يُوجِّهَ لَهُمْ بِأَسْلُوبِ الْاسْتِفْهَامِ التَّحْضِيضِي الْمَشُوبِ بِالتَّائِبِ قَوْلَهُ لَهُمْ : ﴿ أَفَلَا نُنْفِقُونَ؟ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي التَّعْلِيمِ .  
أَي : أَفَلَا يَكُونُ لَدَيْكُمْ عَقْلٌ تَنْبِذُونَ بِهِ شُرَكَاءَكُمْ، وَتُوحِّدُونَ اللَّهَ حَقًّا، بِكُلِّ عُنَاصِرِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكُلِّ عُنَاصِرِ إِلَهِيَّتِهِ، فَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، حَتَّى تَتَّقُوا عَذَابَهُ .

وَالْاسْتِفْهَامُ فِي عِبَارَةِ ﴿ أَفَلَا نُنْفِقُونَ؟ ﴾ فِيهِ مَعْنَى التَّلْوِيمِ وَمَعْنَى الْحَضِّ عَلَى التَّعَقُّلِ بِفَهْمِ سَلِيمٍ، وَالتَّعَقُّلُ بِضَبْطِ النَّفْسِ عَنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَالتَّقَالِيدِ الْعَمِيَاءِ، بِإِرَادَةِ وَاعِيَةٍ حَازِمَةٍ، حَتَّى يَقُومُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ الرَّبُّ لِلْمَشْرُكِينَ .

## الجولة الثالثة

المخالف: (الداعي إلى سبيل ربه) يطرح سؤالاً حول مَنْ يَبْدَهُ التصرف الكامل بكل شيء في الوجود وله الأمر والنهي، فيقول للمشركين كما جاء في التعليم الجدلي القرآني:

﴿مَنْ يَبْدِيهِ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟﴾.

أي: لِمَنْ تَنْسُبُونَ التَّصَرُّفَ بِمُلْكٍ شَامِلٍ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ، فَهِيَ الْعِزَّةُ وَالسُّلْطَانُ، وَالْعِزَّةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ دُونَ مُنَازَعٍ وَلَا نَدٍّ وَلَا مُنَافَسٍ وَلَا مُشَارِكٍ؟ ﴿مَلَكَوْتُ﴾ صيغة مبالغة من المُلْك الذي هو السلطان والعزة والقدرة على التصرف الكامل الشامل، ولصاحبه الأمر والنهي، نظير: رَهْبُوت من الرَّهْبَة، وَرَحْمُوت من الرحمة (وهذه صِيغٌ خَاصَّةٌ فِيهَا مَعْنَى الْمِبَالِغَةِ لِإِفَادَةِ كَمَالٍ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي).

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: من استجار به فأجاره كَفَاهُ، وَدَفَعَ عَنْهُ وَحَمَاهُ، أَمَّا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ سُوءًا فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ بَعْدَ اللَّهِ أَحَدًا يُجِيرُهُ فَيَكْفِيهِ أَوْ يَحْمِيهِ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ.

المشركون: يَتَوَقَّفُونَ، فَلَا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي أَحْدَاثِ الْكَوْنِ وَتَدْبِيرَاتِهِ، أَوْ تَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي بَعْضِهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا ذَاتُ حُكْمٍ وَسُلْطَانٍ وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَعْْبُدُونَهَا، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا بِالْقَرَابِينِ.

وهنا يجد المخالف الداعي إلى الله في أقوال المشركين ما يُمَسِّكُ بِهِ، لِيُطَالِبَهُمْ بِالذَّلِيلِ عَلَى مَا يَدْعُونَ.

ولا يَجِدُ الْمُشْرِكُونَ أَيْ دَلِيلٍ صَحِيحٍ تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ لِإثْبَاتِ مَا يَدْعُونَ .  
وباستطاعة «الداعي إلى الله» أن يُسْقِطَ بِسُهُولَةٍ كُلِّ ذَرَائِعِهِمْ، وَأَنْ  
يُحَاصِرَهُمْ بِالْأدَلَّةِ الْبِرْهَانِيَّةِ .

فمن استطاع من المشركين أن يتخلص من خرافاته، فإنه بعدَ مُحَاصِرَتِهِ  
العقلية العلمية، وبعد الوصول به إلى الاقتناع الكافي بالتوحيد الحق، فإنه  
يقول كما جاء في التعليم: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لِلَّهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ الَّذِي يُجِيرُ  
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .

وقد جاء في النصّ التعبير عن هذا الاعتراف في نهاية المطاف بعبارة:  
﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ .

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ اعترافهم هذا لا يكون تلقائياً عن عقيدة جاهزة  
لديهم، وإنما يقولونه بعدَ زَمَنِ عَبَرَتْ عَنْهُ «السَّيْنُ» الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ  
الْقَرِيبِ .

وبين السؤال الذي طرحه «الداعي إلى الله» والاعتراف الذي يأتي  
مستقبلاً مجادلةً بالتي هي أَحْسَنُ قَائِمَةٌ عَلَى أُسُسٍ عَقْلِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ يُبَيِّرُهَا «الداعي  
إلى الله» العامل على إبطال عقيدة المشركين .

وحين يَصِلُ الْمُشْرِكُونَ إِلَى هَذَا الْاعْتِرَافِ يَحْسُنُ بِالْدَاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ  
أَنْ يُوَجِّهَ لَهُمْ بِأَسْلُوبِ الْاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ فَيَقُولَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي التَّعْلِيمِ:  
﴿فَأَنْ تَسْحَرُونَ﴾ .

أي: فكيف تَخْضَعُونَ لِتَأثِيرِ سِحْرِ الشَّيَاطِينِ لَكُمْ بِالْأَوْهَامِ وَالْوَسَاوِسِ  
وَحِيلِ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ، فَتَتَّبِعُونَهُمْ، فَتَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتُؤْمِنُونَ بِأَنَّهَا  
شُرَكَاءُ لِلَّهِ فِي بَعْضِ خِصَائِصِ رَبُوبِيَّتِهِ، وَحُكْمِهِ وَسُلْطَانِهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ  
وَحْدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ؟! .

وبعد أن استكملت هذه المحاورَة الجدليّة عناصرها في جولاتها الثلاث، وكان قد سبقها في مراحل التنزيل القرآني عدّة محاورات جدلية، اشتملت عليها نجومُ تنزيل القرآن المجيد التي نزلت قبل هذا النصّ من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) قال الله عزّ وجلّ في أواخر التعليم:

﴿ بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

أي: إنّ الأمر ليس كما يدّعي المشركون، بل آتيناهم فيما بعثنا به الرسول محمّداً بالحقّ، وإنّهم في شركياتهم وفي ادّعاءاتهم ضدّ الرسول وضدّ القرآن لكاذبون.

لكنّ الحقّ هو:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا نَبَّضْنَاهُمْ عَلَىٰ بَعْضِٰ سُبْحٰنِ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

أي:

١ - ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ كما يزعم الذين كفروا.

٢ - ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ معبودٍ بحقٍّ ولا يكون أبداً كما يزعمون، ولو كان معه إلهٌ ما، له حقّ الإلهيّة (أي: أن يُعبَدَ من دون الله) لكان له مشاركةٌ لله في ربوبيّته، وسلطانه، وعزّته في الكون، بمقتضى التلازم العقلي بين الإلهيّة والرّبوبيّة.

فلو كان لآلهتهم التي يعبدونها من دون الله إلهيّة حقيقيّة، لكانت مشاركةٌ لله في ربوبيّته، ولو كانت مشاركة لله في ربوبيّته: ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا نَبَّضْنَاهُمْ عَلَىٰ بَعْضِٰ ﴾

لأنّ هذا هو الذي سيحدث حتماً لو تعدّدت الآلهة الأرباب، بما لهم

من هَيْمَنَةٍ وَسُلْطَانٍ وَعِزَّةٍ فِي الْكُؤْنِ، وَقُدْرَةٍ عَلَى تَنْفِيذِ مَا يُرِيدُونَ.  
لَكِنَّ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَخْذُتْ، بَلِ الْكُؤْنُ كُلُّهُ خَاضِعٌ لِنِظَامِ وَاحِدٍ  
وَسُلْطَانٍ وَاحِدٍ.

إِذَنْ: فَلَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا سُلْطَانَ إِلَّا لِلَّهِ.

إِذَنْ: فَلَا إِلَهَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ.

وَإِنَّ اتِّخَاذَ آلِهَةٍ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُلْزِمُ مِنْهُ اعْتِقَادَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ  
شُرَكَاءُ لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَقَدْ تَنَزَّهَ اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا فَقَالَ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ فِي آخِرِ النَّصِّ:

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا  
يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أَي: تَنْزِيهَا لِلَّهِ كَتَنْزِيهِهِ لِنَفْسِهِ عَمَّا يَصِفُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ شُرَكَاءِ اللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَتَعَالَى وَتَرَفَّعَ وَتَسَامَى عَمَّا يُشْرِكُ بِهِ  
الْمُشْرِكُونَ جَمِيعًا.

\* \* \*

خاتمة:

تفيد التعليمات الجدلية القرآنية أنَّ على الداعي إلى سبيل ربه، أن يبتدأ  
بمعرفة المواقع الفكرية التي يكون عليها المدعوون، وأن يثبت ما يجده حقا،  
ثم ينتقل إلى غيره بالتدرج.

وكلما ظفرَ بنقل المدعو إلى موقع جديد ثبته فيه، واعتبره موقعاً جديداً  
لينتقل منه إلى غيره.



وهكذا حتَّى يَصِلَ إلى الإقناع بكلِّ عناصر الإيمان، فالإسلام.

وكذلك ينبغي أن يكون حال الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، إذ عليه أن يبدأ بالأهمّ فالمهمّ فما دونهُ خُطوةً خُطوةً بالتدرّج، وهذا ما توجّبهُ السياسة الحكيمة في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

\* \* \*

## الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب .....	٥

### الباب الأول مقدمات عامّات

- الفصل الأول: الأمة الإسلاميّة حملة رسالة هداية وإصلاح... ١٣
- بالدعوة إلى الإيمان بالله..... ١٣
- وبالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ١٣
- وفيه ثماني مقولات:
- المقولة الأولى: تعريفات عامّات «للدعوة - والتبليغ - والتذكير - والنصح - والإرشاد - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»... ١٥
- المقولة الثانية: الدعوة والتبليغ..... ٢٢
- المقولة الثالثة: الشهادة يوم الدين على الذين تلقوا البلاغ... ٣٣
- المقولة الرابعة: حكم تبليغ دين الله للناس..... ٤٧
- المقولة الخامسة: التذكير والنصح والإرشاد..... ٥٠
- المقولة السادسة: وظيفتا:

الصفحة	الموضوع
٦٣	● الهداية بالدعوة والتذكير والنصح والإرشاد .....
	● والإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف
٦٣	والنهي عن المنكر .....
	المقولة السابعة: منزلة الدعوة إلى دين الله في سلّم الأولويات
٧٧	الجهادية .....
	المقولة الثامنة: أقسام الدعاة إلى الله والآميرين بالمعروف
٧٩	الناهين عن المنكر .....
	■ الفصل الثاني: أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي
٨٣	عن المنكر في إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايته وصيانه .....
	وفيه مقولتان:
٨٥	المقولة الأولى: نظرات تحليلية .....
٨٥	١ - ظاهرة تعاونية .....
	٢ - الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من
٨٨	الحماية والإصلاح .....
٨٩	٣ - من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض .....
٩١	٤ - حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق .....
٩٤	٥ - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها .....
٩٨	وما يجب على من توجه له الرسالة .....
١٠٠	المقولة الثانية: استعراض طائفة من النصوص .....
	■ الفصل الثالث: نظرة عامة إلى أصناف الناس الذين توجه لهم
١٠٥	وظائف الرسالة .....
	١ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة منفتح النفس لها،
١٠٧	غير رافض عرضها عليه .....

الموضوع	الصفحة
٢ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مُغلق النفس	
دونها لانصرافه للدنيا .....	١٠٩
٣ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مغلق النفس	
دون الإسلام لأن لها عقائد سابقة مخالفة له .....	١١٢
٤ - صنف عالم بالعقائد الإسلامية مستيقن متابع إلا أنه ناقص	
المعرفة وتغلبه أهواؤه وشهواته .....	١١٥
٥ - صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده إلا أن علمه لم يقترن	
باعتماد وإيمان جازم، فهو منتسب ولما يدخل الإيمان إلى قلبه ...	١١٦
٦ - صنف عالم مستيقن إلا أنه غافلٌ عن مقتضيات إيمانه	
مستغرق بديناه .....	١١٧
٧ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد في نفسه غير داعٍ إلى	
الضلال .....	١١٨
٨ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد وشيطان مضلٌّ فتان	
فاسد مفسد .....	١١٩

## الباب الثاني

### الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حَمَلَةُ الرسالة

وفيه ستة فصول .....	١٢١
■ الفصل الأول: وجوب تحلِّي حامل الرسالة بصفة الصبر وعدم	
التضجر واليأس مهما اشتدَّ عليه الأذى وضعفت آثار أعماله الرشيدة .	
وفيه أربع مقولات .....	١٢٣
المقولة الأولى: قيمة خلق الصبر ووجوب تحلِّي حامل الرسالة به .	١٢٥
المقولة الثانية: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر	
لحاملِي الرسالة من أمة محمد ﷺ .....	١٢٨

- المقولة الثالثة: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر  
 للرسول ويلحق به حاملو رسالته من أمته ﷺ ..... ١٤٢
- المقولة الرابعة: نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر ..... ١٦١
- الفصل الثاني: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة التجرد من  
 المصالح الشخصية لدى من يوجه لهم رسالته ..... ١٦٣  
 وفيه ثلاث مقولات:
- المقولة الأولى: نظرة تحليلية ..... ١٦٥
- المقولة الثانية: البيانات القرآنية حول تجريد الرسل من  
 المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم ويلحق بالرسول سائر حملة  
 رسالاتهم ..... ١٦٩
- المقولة الثالثة: معاش حملة الرسالة المتفرغين لها ..... ١٨٢
- الفصل الثالث: وجوب تحلي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق  
 ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه ..... ١٨٧  
 وفيه مقولتان:
- المقولة الأولى: تحليل وتفصيل ..... ١٨٩
- ١ - بيان تحلي عام ..... ١٨٩
- ٢ - بيان تفصيلي ..... ١٩٢
- أولاً: أهمية البراءة من التطلع إلى ما وهب الله الناس ..... ١٩٢
- ثانياً: أهمية البراءة من الفظاظة وغلظ القلب ..... ١٩٦
- المقولة الثانية: أمثلة من أخلاق الرسول وسيرته العظيمة ﷺ ..... ٢٠٤

- الفصل الرابع: وجوب تحلي حامل الرسالة بالصفات التي ذكر  
الله عزّ وجلّ أنّها صفات عباد الرحمن ليكون أسوة حسنة . . . . . ٢٠٩  
وفيه مقولتان:
- المقولة الأولى: مقدمة تحليلية عامة مع بيان الشروط التي هي  
بمنزلة الأسس الأولى لكل داع وناصح . . . . . ٢١١
- ١ - مقدمة تحليلية . . . . . ٢١١
- ٢ - الشروط الأساسية الأولى لكلّ داع لأمر، أو ناصح به  
مرشد إليه . . . . . ٢١٢
- المقولة الثانية:
- ١ - نظرة إجمالية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين ٢١٩
- ٢ - نظرة تفصيلية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين ٢٢١
- الفصل الخامس: وجوب تحليّ حامل الرسالة بالأهلية البيانية .  
وفيه ثلاث فقرات:
- ١ - وظيفة البيان في حياة الإنسان . . . . . ٢٣٣
- ٢ - الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى . . . . . ٢٣٦
- ٣ - البيان المطلوب من حامل الرسالة والصفات التي ينبغي  
أن يتحلّى بها . . . . . ٢٤٠
- الفصل السادس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية العلميّة .  
وفيه مقدمة وفقرتان:
- مقدمة . . . . . ٢٤٩
- ١ - بيان وجوب تحقّق الأهلية العلميّة . . . . . ٢٤٩
- ٢ - عناصر الأهلية العلميّة المطلوبة للمستوى التخصّصي . . ٢٥١

## الباب الثالث

## قواعد ووصايا كلية عامة

## وبيان لطائفة من آفات حملة الرسالة

٢٧٥	..... وفيه مقدمة وفصلان
٢٧٧	..... مقدمة
٢٨١	..... ■ الفصل الأول: قواعد كلية بوصايا لحامل الرسالة وفيه إحدى وخمسون قاعدة:
٢٨١	..... بيان القواعد دون شرح
٢٩١	..... شرح القواعد
٢٩١	..... ١ - شرح القاعدة الأولى
٢٩٢	..... ٢ - شرح القاعدة الثانية
٢٩٣	..... ٣ - شرح القاعدة الثالثة
٢٩٤	..... ٤ - شرح القاعدة الرابعة
٢٩٦	..... ٥ - شرح القاعدة الخامسة
٢٩٧	..... ٦ - شرح القاعدة السادسة
٣٠٢	..... ٧ - شرح القاعدة السابعة
٣٠٥	..... ٨ - شرح القاعدة الثامنة
٣١٠	..... ٩ - شرح القاعدة التاسعة
٣١١	..... ١٠ - شرح القاعدة العاشرة
٣١٣	..... ١١ - شرح القاعدة الحادية عشرة
٣١٥	..... ١٢ - شرح القاعدة الثانية عشرة
٣١٧	..... ١٣ - شرح القاعدة الثالثة عشرة
٣٢٠	..... ١٤ - شرح القاعدة الرابعة عشرة

الصفحة	الموضوع
٣٢٣	١٥ - شرح القاعدة الخامسة عشرة
٣٢٥	١٦ - شرح القاعدة السادسة عشرة
٣٢٦	١٧ - شرح القاعدة السابعة عشرة
٣٢٧	١٨ - شرح القاعدة الثامنة عشرة
٣٢٨	١٩ - شرح القاعدة التاسعة عشرة
٣٤١	٢٠ - شرح القاعدة العشرين
٣٤٢	٢١ - شرح القاعدة الحادية والعشرين
٣٤٤	٢٢ - شرح القاعدة الثانية والعشرين
٣٤٥	٢٣ - شرح القاعدة الثالثة والعشرين
٣٤٧	٢٤ - شرح القاعدة الرابعة والعشرين
٣٤٨	٢٥ - شرح القاعدة الخامسة والعشرين
٣٥٢	٢٦ - شرح القاعدة السادسة والعشرين
٣٥٤	٢٧ - شرح القاعدة السابعة والعشرين
٣٥٥	٢٨ - شرح القاعدة الثامنة والعشرين
٣٥٨	٢٩ - شرح القاعدة التاسعة والعشرين
٣٥٩	٣٠ - شرح القاعدة الثلاثين
٣٦٠	٣١ - شرح القاعدة الحادية والثلاثين
٣٦٢	٣٢ - شرح القاعدة الثانية والثلاثين
٣٦٤	٣٣ - شرح القاعدة الثالثة والثلاثين
٣٦٧	٣٤ - شرح القاعدة الرابعة والثلاثين
٣٧٠	٣٥ - شرح القاعدة الخامسة والثلاثين
٣٧١	٣٦ - شرح القاعدة السادسة والثلاثين
٣٧٢	٣٧ - شرح القاعدة السابعة والثلاثين



الموضوع	الصفحة
٣٨ - شرح القاعدة الثامنة والثلاثين	٣٧٤
٣٩ - شرح القاعدة التاسعة والثلاثين	٣٧٥
٤٠ - شرح القاعدة الأربعين	٣٧٨
٤١ - شرح القاعدة الحادية والأربعين	٣٧٩
٤٢ - شرح القاعدة الثانية والأربعين	٣٨٢
٤٣ - شرح القاعدة الثالثة والأربعين	٣٨٤
٤٤ - شرح القاعدة الرابعة والأربعين	٣٨٥
٤٥ - شرح القاعدة الخامسة والأربعين	٣٨٦
٤٦ - شرح القاعدة السادسة والأربعين	٣٨٩
٤٧ - شرح القاعدة السابعة والأربعين	٣٩١
٤٨ - شرح القاعدة الثامنة والأربعين	٣٩٢
٤٩ - شرح القاعدة التاسعة والأربعين	٣٩٣
٥٠ - شرح القاعدة الخمسين	٣٩٥
٥١ - شرح القاعدة الحادية والخمسين	٣٩٦
■ الفصل الثاني : آفات حملة الرسالة	٣٩٧
وفيه مقدمة وبيان إحدى وعشرين آفة خطيرة :	
مقدمة	٣٩٩
شرح الآفات الخطيرات	٤٠١
١ - شرح الآفة الأولى	٤٠١
٢ - شرح الآفة الثانية	٤٠٣
٣ - شرح الآفة الثالثة	٤٠٣
٤ - شرح الآفة الرابعة	٤٠٤
٥ - شرح الآفة الخامسة	٤٠٥
٦ - شرح الآفة السادسة	٤٠٦

الموضوع	الصفحة
٧ - شرح الآفة السابعة	٤٠٧
٨ - شرح الآفة الثامنة	٤٠٨
٩ - شرح الآفة التاسعة	٤١٠
١٠ - شرح الآفة العاشرة	٤١٢
١١ - شرح الآفة الحادية عشرة	٤١٣
١٢ - شرح الآفة الثانية عشرة	٤١٤
١٣ - شرح الآفة الثالثة عشرة	٤١٥
١٤ - شرح الآفة الرابعة عشرة	٤١٦
١٥ - شرح الآفة الخامسة عشرة	٤١٧
١٦ - شرح الآفة السادسة عشرة	٤١٨
١٧ - شرح الآفة السابعة عشرة	٤١٩
١٨ - شرح الآفة الثامنة عشرة	٤٢٠
١٩ - شرح الآفة التاسعة عشرة	٤٢٢
٢٠ - شرح الآفة العشرين	٤٢٣
٢١ - شرح الآفة الحادية والعشرين	٤٢٤

### الباب الرابع

#### مناهج توصيل الرسالة وسبلها ووسائلها وأدواتها

وفيه سبعة فصول	٤٢٥
■ الفصل الأول: التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر	٤٢٧
وفيه مقدمات عامات وثمانى مقولات حول وسائل التوجيه غير المباشر:	
المقدمات العامات	٤٢٩

الموضوع	الصفحة
● التعريف بالتوجيه المباشر وغير المباشر .....	٤٢٩
● طريق التوجيه المباشر .....	٤٢٩
● مواطن وأحوال التوجيه المباشر .....	٤٣١
● ضرر التوجيه المباشر أحياناً .....	٤٣٣
● طريق التوجيه غير المباشر .....	٤٣٤
● ميزات طريق التوجيه غير المباشر .....	٤٣٦
● واجب حامل الرسالة .....	٤٣٧
المقولة الأولى من سبل التوجيه غير المباشر:	
البيان الكلامي غير المباشر .....	٤٣٩
أغراض البيان الكلامي غير المباشر .....	٤٤٦
المقولة الثانية من سبل التوجيه غير المباشر: القدوة الحسنة ..	٤٥٠
١ - فطرة التقليد .....	٤٥٠
٢ - أسباب تأثير القدوة .....	٤٥٢
٣ - استغلال دعاة الشر دوافع التقليد في الناس .....	٤٥٤
٤ - واجب المسلمين عموماً وحملة الرسالة خصوصاً .....	٤٥٦
٥ - أهمية التربية بالقدوة الحسنة .....	٤٥٩
المقولة الثالثة من سبل التوجيه غير المباشر: البيئة والرفقة	
الصالحة .....	٤٦٢
١ - مقدمة .....	٤٦٢
٢ - أسباب تأثير البيئة الاجتماعية .....	٤٦٢
٣ - تكيف الإنسان مع بيئته الاجتماعية .....	٤٦٥
٤ - واجب تهيئة البيئة الإسلامية الصالحة .....	٤٦٧
٥ - الغزو الفكري عن طريق البيئة .....	٤٦٩

الموضوع	الصفحة
المقولة الرابعة من سبُل التوجيه غير المباشر: القصة النافعة	
والمشاهد التمثيلية المفيدة .....	٤٧١
١ - القصة النافعة .....	٤٧١
● مسؤولية حملة الرسالة بشأن القصة النافعة .....	٤٧٤
٢ - المشاهد التمثيلية المفيدة .....	٤٧٤
المقولة الخامسة من سبُل التوجيه غير المباشر: القراءة الحرّة	
وأثرها .....	٤٧٦
١ - سبب تأثير القراءة الحرّة .....	٤٧٦
٢ - استغلال المفسدين لوسيلة القراءة الحرّة .....	٤٧٨
٣ - واجب الأمة الإسلامية تجاه القراءة .....	٤٧٩
المقولة السادسة من سبُل التوجيه غير المباشر: الترنيم والنشيد	
بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً .....	٤٨٣
١ - الميول والتأثيرات الفطرية .....	٤٨٣
٢ - استغلال المفسدين للأغاني والموسيقى .....	٤٨٥
٣ - موقف الإسلام من استخدام هذا السبيل .....	٤٨٦
المقولة السابعة من سبُل التوجيه غير المباشر: إدخال البيان	
الإسلامي ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات .....	٤٩٣
١ - المطلوب في الفرص المتاحة .....	٤٩٣
٢ - انتهاز المناسبات التي تُتاح في مختلف العلوم .....	٤٩٣
٣ - استغلال المفسدين للعلوم والآداب والفنون .....	٤٩٦
المقولة الثامنة من سبُل التوجيه غير المباشر: البثُّ العرضيُّ	
المفيدُ عند المناسبات الملائمات .....	٤٩٩
١ - التعريف .....	٤٩٩

الصفحة	الموضوع
٥٠٠	٢ - المطلوب من حملة الرسالة تجاه هذا السبيل .....
٥٠١	٣ - استغلال المفسدين سبيل البث العرضي .....
٥٠٣	■ الفصل الثاني: العقبات الصّادّات للتوجيه وأساليب معالجتها ..
٥٠٣	وفيه مقدمة وخمس عشرة مقولة منقسمة إلى ثلاثة أقسام: .....
٥٠٣	القسم الأول: عقبات تكون أسبابها من حملة الرسالة، وفيه ستُّ عقبات .....
٥٠٤	القسم الثاني: عقبات تكون أسبابها ممّن توجّه لهم الرسالة، وفيه ست عقبات .....
٥٠٤	القسم الثالث: عقبات تكون أسبابها في الوسط بين موجّه الرسالة وبين من توجّه له، وفيه ثلاث عقبات .....
٥٠٥	مقدمة: نظرة عامة .....
	شرح عقبات القسم الأول: وهي العقبات التي تكون أسبابها من حملة الرسالة وهي ست عقبات.
٥٠٧	المقولة الأولى من العقبات الصّادّات: .....
٥٠٧	(١) عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة ...
٥٠٩	موقف التربية الإسلامية .....
	المقولة الثانية من العقبات الصّادّات:
٥١٠	(٢) عقبة كِبْر حامل الرسالة وعُجْبِه بنفسه .....
٥١٠	١ - الكبر والعجب بالنفس من أقبح الصفات المنفرة .....
٥١١	٢ - واجب حملة الرسالة .....
٥١٣	٣ - الترغيب في التواضع والتحذير من الكبر .....
	المقولة الثالثة من العقبات الصّادّات:
٥١٧	٣ - عقبة ما في حامل الرسالة من قبائح منفرّة للحواس .....
٥١٨	● المطلوب من حامل الرسالة .....

الصفحة	الموضوع
٥١٩	● بدعة التبذّل والرّثاءة .....
	المقولة الرابعة من العقبات الصّادّات :
٥٢٠	(٤) عقبة سوء خلق حامل الرسالة .....
	المقولة الخامسة من العقبات الصّادّات :
	(٥) عقبة كَوْن حامل الرسالة غَيْرَ موثوقٍ به وغير محترم
٥٢٢	من قَبْلِ من يُؤدّي بينهم رسالته .....
٥٢٢	١ - شرح العقبة .....
٥٢٣	٢ - الصفات الّتي تكتسب بها ثقة الناس واحترامهم .....
٥٢٣	٣ - حكمة الله في اصطفاء رُسُلِهِ .....
	٤ - المطلوب من حامل الرسالة الذي لم يكتسب بَعْدُ الثقة
٥٢٤	والاحترام .....
	المقولة السادسة من العقبات الصّادّات :
٥٢٦	(٦) عقبة كراهية شخص حامل الرسالة .....
٥٢٦	١ - شرح هذه العقبة .....
٥٢٧	٢ - وسائل معالجة عقبة كراهية شخص حامل الرسالة ...
	شرح عقبات القسم الثاني: وهي العقبات التي تكون أسبابها من
	حملة الرسالة وهي ست عقبات :
	المقولة السابعة من العقبات الصّادّات :
٥٢٩	(١) عقبة كبر من توجّه له الرسالة وعجبه بنفسه .....
٥٢٩	١ - مقدمة .....
	٢ - وسائل تفادي عقبة الكبر والعجب بالنفس لدى من
٥٣٠	توجّه له الرسالة .....
٥٣٢	٣ - التربية على فضائل الأخلاق .....

## المقولة الثامنة من العقبات الصادات:

- (٢) عقبة شعور من توجّه له الرسالة بالحرمان من حرّية التفكير أو حرّية العمل ..... ٥٣٣
- ١ - حرّية الإرادة إحدى عناصر الفطرة الإنسانية ..... ٥٣٣
- ٢ - المنهج الرباني لتحاشي هذه العقبة ..... ٥٣٥
- ٣ - النصوص القرآنية حول الحرّية المقترنة بالتكليف والمستتعبة بالمسؤولية والحساب والجزاء ..... ٥٣٦

## المقولة التاسعة من العقبات الصادات:

- (٣) عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات ..... ٥٥٣
- ١ - البيان التحليلي ..... ٥٥٣
- السبب النفسي لهذه العقبة ..... ٥٥٣
- ٢ - طائفة من أساليب اجتياز هذه العقبة ..... ٥٥٥

## المقولة العاشرة من العقبات الصادات:

- (٤) عقبة التقليد الأعمى ..... ٥٥٨
- ١ - مرض التعصّب الذميم يتولّد منه مرض التقليد الأعمى ..... ٥٥٨
- ٢ - بيانات قرآنية حول التقليد الأعمى ..... ٥٦٢
- ٣ - وسائل علاج التقليد الأعمى ..... ٥٧٠

## المقولة الحادية عشرة من العقبات الصادات:

- (٥) عقبة الحسد ..... ٥٧٤
- ١ - تأثير داء الحسد في النفس والسلوك ..... ٥٧٤
- ٢ - وسائل تخطّي أو تحاشي عقبة داء الحسد ..... ٥٧٦

## المقولة الثانية عشرة من العقبات الصادات:

- (٦) عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا ..... ٥٧٨

الصفحة	الموضوع
٥٧٨	١ - شرح هذه العقبة .....
٥٧٩	٢ - وسائل معالجة عقبة الأهواء والشهوات .....
٥٨١	شرح عقبات القسم الثالث: وهي العقبات التي تكون أسبابها في الوسط بين حامل الرسالة ومن توجه له وهي ثلاث عقبات .....
	المقولة الثالثة عشرة من العقبات الصادات:
٥٨١	(١) عقبة الوسوس والتسويلات الشيطانية .....
٥٨١	١ - شرح هذه العقبة .....
٥٨١	٢ - وسائل معالجة مكاييد الشيطان للإضلال والإغواء .....
	المقولة الرابعة عشرة من العقبات الصادات:
٥٩٦	(٢) عقبة أعمال المضلين وجنود الغزو الفكري المفسدين ..
٥٩٦	١ - شرح هذه العقبة .....
٥٩٩	٢ - وسائل معالجة هذه العقبة .....
	المقولة الخامسة عشرة من العقبات الصادات:
٦٠١	(٣) عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر .....
	■ الفصل الثالث: المنهاج البياني ومسالكه «الحكمة - والموعظة الحسنه - والجدال بالتي هي أحسن» .....
٦٠٥	وفيه خمس فقرات:
٦٠٧	الفقرة الأولى: نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانية .
٦٠٧	١ - تعريف عامّ بالمسالك .....
٦١٠	٢ - منافع الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله .....
٦١٢	٣ - البيان القرآني بالنسبة إلى المسالك الثلاثة .....
٦١٣	٤ - الأركان الداخلية للنفس الإنسانية والمؤثرات فيها .....
٦١٧	٥ - حكمة حامل الرسالة في هذا المجال .....



الصفحة	الموضوع
٦١٩	الفقرة الثانية: شرح مسلك الحكمة وبيان لبعض عناصرها ...
٦٢٠	● طائفة من عناصر الحكمة في البيان الدعوي .....
٦٢٠	١ - القول اللين .....
٦٢٠	٢ - مراعاة المنزلة الاجتماعية لمن تُوجّه له الرسالة .....
٦٢٢	٣ - البيان المقرون بالبرهان أو بالحجّة الصحيحة المقبولة .
	٤ - البيان المقرون بالدليل على أفضليّة ما جاء في الدين
٦٢٣	على غيره من الاحتمالات الممكنة .....
٦٢٤	٥ - البدء بجذور القضايا والانتقال منها إلى الفروع شيئاً فشيئاً .
٦٢٧	٦ - مراعاة المستوى الفكري لدى من تُوجّه له الرسالة ...
٦٢٧	٧ - مراعاة المستوى العلمي لدى من تُوجّه له الرسالة ...
	٨ - مراعاة الجوانب العاطفية التي تقتضيها الصّلات
٦٢٨	والعلاقات الاجتماعية .....
٦٢٩	٩ - مراعاة الحالة النفسية لدى من تُوجّه له الرسالة .....
٦٣١	الفقرة الثالثة: شرح مسلك الموعظة الحسنة وبيان لعنصره ..
٦٣٢	● بيان تحليلي لمحاوّر النفس .....
٦٣٤	● وسائل الترغيب والترهيب البيانية .....
٦٣٥	● فطرة النفس تجاه المطامع والمخاوف .....
٦٣٦	الفقرة الرابعة: شرح مسلك الجدل بالتي هي أحسن .....
٦٣٦	١ - بيان عام .....
٦٣٧	٢ - الجدل بالتي هي أحسن هو من وسائل الدعوة إلى سبيل الله
٦٣٩	٣ - قواعد عامة للجدل بالتي هي أحسن .....
٦٤٩	الفقرة الخامسة: نماذج من تعليمات جدلية قرآنية .....
٦٦٣	خاتمة حول ما تفيدته التعليمات الجدلية القرآنية .....

فَقِيهًا

الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ

و

فَقِيهًا

النُّصُوحَ وَالْإِرْشَادَ

وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ

دَرَاةَ اسْتِنْبَاطِيَّةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى :

بَيَانُ دُجُوبِهَا ، وَأَسْرَارِهَا ، وَمَنَاهِجِهَا ، وَسُبُلِهَا ، وَوَسَائِلِهَا  
وَأَدَابِهَا ، وَمَنَاجِزِهَا مِنْ تَطْبِيقَاتِهَا .

الجزء الثاني

عبد الرحمن بن حنبله الميداني

دار الفقه

دمشق



فَقِيرًا  
الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ  
و

فَقِيرًا  
التَّصَبُّحَ وَالْإِرْشَادَ  
وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ

الطبعة الأولى  
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة للؤلف

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : صرب : ٤٥٢٢ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

صرب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عمه طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - صرب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

## الفصل الرابع

### وسائل الأداء البيانيّ

- الوسيلة الأولى : الخطبة .
- الوسيلة الثانية : الدرس .
- الوسيلة الثالثة : المحاضرة .
- الوسيلة الرابعة : الحديث والمحادثة .
- الوسيلة الخامسة : مجالس السؤال والجواب .
- الوسيلة السادسة : الكتاب .
- الوسيلة السابعة : المقالة .
- الوسيلة الثامنة : الشعر .
- الوسيلة التاسعة : القصة .
- الوسيلة العاشرة : التمثيل .



## الوسيلة الأولى

### الخطبة

- ١ -

#### أهمية الخطبة

الخطبة إحدى وسائل الأداء البياني في الإسلام، للدعوة إلى الله، وتبليغ دينه، والتذكير بأصوله وفروعه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوضيح والإرشاد إلى الخيرات والفضائل الفكرية والسلوكية الباطنة والظاهرة.

وهي في الإسلام عنصرٌ من عناصر بعض العبادات الدورية:

● فخطبة الجمعة جزءٌ من عبادة صلاة الجمعة التي هي مع خطبتها بدلٌ عن صلاة الظهر في يوم الجمعة، واهتماماً بها قال الله عز وجل في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

● وخطبة عيدَي الفطر والأضحى جزءٌ تعبديٌّ ملحقٌ بصلاتي عيدَي الفطر والأضحى.

● وخطبة عرفة عنصرٌ من عناصر عبادات يوم عرفة في الحج.

● وخطبة الاستسقاء عبادة مرتبطةٌ بصلاة الاستسقاء. وتشرعُ خطبُ



أخرى تستدعيها المُلمَّات، وبعض المناسبات، التي يَحْسُن فيها الإِشهارُ العام، والتبليغُ الجماعي، أو استثارة حماسة الجمهور، أو تهيجُ عواطفهم وانفعالاتهم.

كالخطبةِ بمناسبةِ إجراءِ عَقْدِ زواج، وكالخطبة قبل المعركة الحربيّة، وكالخطبة للحثِّ على البَذل والتضحية، وكالخطبة للتنبية على أمرٍ مُهم، أو الإعلام بحدَثٍ ذي خَطَر، أو تبليغِ قرارِ سُلطاني في أمرٍ عظيم، أو نحو ذلك. والخطبةُ هي بمثابة مُحرِّكٍ ذي حرارةٍ وقُوَّة، يُوجِّه العقول، ويهزُّ النفوس والمشاعر الداخليّة، لِيَسْتَبِيرَ ما فيها من طاقات كامناتٍ ساكنات، حتّى تَعْمَلَ على توجيه الإرادات لتطبيق ما تهدي إليه، وتَنصَحُ به، أو لما تَأْمُرُ به وتنهى عنه.

- ٢ -

### تعريف الخطبة

الخطبة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ في مخاطبة الجماهير ذات المستويات المختلفة، بطريقةٍ يُسْتَحْسَنُ فيها الاعتماد على مخزون الذاكرة، ومُبْتَكَراتِ الفكر، أو مَعَ مُسَاعَدَةِ مَذَكِّراتٍ مكتوبة، تُدَكِّرُ بعناصرٍ مُهمّة، وربما تَقُومُ مقامها الخطبة المكتوبة.

ويُستخدَمُ فيها مسلكان:

١ - مسلكُ الحكمة للإقناع الفكريّ دون إسراف، أو للتذكير باقناع فكريّ سابق.

٢ - ومسلكُ الموعظة الحسنة بوفرة، لاستمالة النفس وإثارها ترغيباً أو ترهيباً إثارة تخدم الأغراض المقصودة من الخطبة.

## وظائف الخطبة

للخطبة أربع وظائف كبرى مهمة:

الوظيفة الأولى: الإقناع الفكري المنطقي بعناصر الموضوع الذي أراد الخطيب أن يجعله محورَ خطبته، إذا لم يكن لدى الجماهير حوله اقتناع سابق، أو التذكيرُ الفكري بها، إذا كانت عناصره من المسلّمات لديهم.

وينبغي أن لا يكون في أداء هذه الوظيفة إسرافٌ زائد عن الحاجة التي يتلقّفها المستمعون، حتّى لا يُجهدَ الإقناعُ المنطقيّ الأذهان، ويَصْرِفَها عن الإصغاء، فالجماهيرُ ذاتُ المستويات المتفاوتات من طبيعتها أنّها لا تتحمّل الأجهادَ الفكريّ الزائد.

الوظيفة الثانية: التأثير على النفوس من محورين:

الأول: محور الطمع بمحابتها، فينتقي الخطيب لموضوعه الذي يُريد توجيه الجماهير له مختاراتٍ تُرغّب في الاستجابة لما يدعوهم إلى الأخذ به، ممّا تحبّه النفوس، لتتوجّه بقوةٍ مستجيبةً لدعوته، منقادةً له، مندفعةً للأخذ بما يحثّها عليه.

الثاني: محورُ الخوفِ من مكارهها، فينتقي الخطيب لموضوعه الذي يُريدُ إبعاد الجماهير عنه، مختاراتٍ تُنفّرُ مما يدعوها لاجتنابه، ممّا تكرهه النفوس، لتبتعد عنه بقوةٍ نفورٍ شديدة، مستجيبةً لدعوته، مُنقادةً له، مندفعةً لاجتناب ما يحثّها على اجتنابه.

الوظيفة الثالثة: تخزينُ خلاصةٍ مكثّفةٍ في أفكارهم ونفوسهم لما بسّطه في أثناء خطبته، ويكونُ هذا التخزين في أواخر خطبته، وأبرّعه ما يأتي سهلاً مُنسباً انسياباً يسهُل استيعابه وحفظه واستدكاره، وانشغال النفس بتدبره،

والاعتَاطِ والاعتبارِ بما فيه من مواعظٍ وعبرٍ، وتسهّلُ روايته والحديثُ عنه بتفصيلٍ بعد الخطبة .

الوظيفة الرابعة: اصطياًدُ من يُستطاعُ صَيّدُهُ من الجماهير، لربطهم بعد الخطبة ربطاً يجعلُهُم يتحقّقونَ مستقبلاً بما دعاهم إليه أو نصّحَهُم به .

وهذا الاصطياًدُ هو من ذيولِ وظائفِ الخطبةِ، لكنّه الأهم من وظائفها، باعتباره الوظيفة التي تُربّيُ فيها الثمرة، ثمّ تُجتنىُ اجتناءً حسناً .

ولهذه الوظيفةِ دوامٌ مع الساعاتِ والأيامِ، ومن عناصرها الرَبْطُ بالتعلّمِ، والمتابعةُ بالعمل .

فالربطُ بالتعلّمِ يكونُ بإحاطةٍ من تمّ اصطياًدُهُ بتعليمه في دروسٍ يوميةٍ علّومِ الدينِ وأدواتها .

والمُتَابَعَةُ بالعمل تكونُ بتلبيّنه تدريجياً لممارسة تطبيقاتِ عملية، على أنواعِ السلوكِ الإسلامي، بالوسائلِ التربويةِ النافعة، وعلى سُلّمِ الأوّلوياتِ ضمنَ قاعدة التدرُّج .

فالخطبةُ إذا لم تُلحَقْ بهذه الوظيفة كانت كَمَن يثير البركة لِيُهَيِّجَ الأسماك من مكائنها، ثم يتركها حتّى تَهْدَأَ وتعودَ إلى مكانها ومواطنِ سكونها أو حركتها الهادئة، دون أن يصطاد منها شيئاً .

فإذا اعتاد السَمَكُ هذه الإثارة مرّاتٍ متعدّدة دون أن يُصطادَ شيءٌ منها، لم تجذُ في الإثاراتِ الجديدة ما يدفعها إلى التحركِ والخروج من مكائنها ومواطنِ سكونها .

وكذلك يكون حالُ الخطباءِ الذين يُكرّزونَ الإثاراتِ، دون أن يصطادوا للعلم والعمل أحداً من جماهيرهم، ودون أن يتابعوه بالتعليم، وبالتطبيق العمليّ على السلوكِ الإسلاميّ .

## مراحل الخطبة

من الأفضل دوماً في الخطب الدعوية، وخطب التّضح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا سيما خطبة الجمعة، أن تكون لها ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: المقدمة العامة.

المرحلة الثانية: الوسطّ الشارح.

المرحلة الثالثة: الخاتمة التلخيصية.

الشرح:

● أما المقدمة العامة: فيحسُن فيها أن تجمَع أُسُسَ العناصر التي ستدورُ تفصيلاتُ الخطبة في وسطها حولها، بطريقة لا تُشعر بأن الخطيب يُعدّد عناوين العناصر التي سيشرحها، فيكفي فيها ذكرُ كلياتٍ عامّةٍ تشمل على هذه العناصر، أو عرضُ نُصوصٍ من القرآن الكريم أو السنّة المطهرة تُلمحُ إليها، أو عرضُ مقولاتٍ مشهورات، تحقق هذه الغاية، ويكون هذا بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على رسوله محمّد، والسلام على عباده الذين اصطفى.

● وأما الوسطّ الشارح: فينبغي أن يشتمل على شرح وتفصيلٍ مقروين بالإقناع واستمالة العواطف وإثارتها، لعناصر الموضوع المُعدّ للخطبة، مع بيان فروعه وأدلته وشواهدة، واستخدام ما يؤلّد في الأنفس الاستجابة للتطبيق العملي، من الترغيب والترهيب وضرب الأمثال التاريخية ذات العبر، إلى كلّ ما من شأنه امتلاك الألباب والتأثير فيها، والقبض على نواصي النفوس وتوجيهها وقيادتها.

● **وأما الخاتمة التلخيصية:** فينبغي أن تشتمل على زُبْدَةٍ مكثفة لما جاء مبسوطاً في الوَسَطِ الشارح، ويُسْتَرْتَبُ فيها أن تكون واضحة، سهلة الحفظ، والاستذكار، والرّواية والتّحديث بها بعد الخطبة.

ومن المفروض في هذه الخاتمة التلخيصية أن تكون صالحةً للامتصاص التخزيني في أفكار المستمعين ونفوسهم، مع تحميلهم مسؤولية التطبيق والتبليغ، وقد يحسن في غير خطبة الجمعة أخذ العهد منهم على ذلك.

**الاستطراد في أثناء الخطبة:**

قد يعرض للخطيب أثناء خُطْبَتِهِ أفكاراً استطراديةً مُهمّةً، جلبتها مناسبةً ما، وقد يراها دون سابق إعدادٍ وتخطيطٍ أهمّ من أصلِ موضوعِ خطبته التي حضّرها ليؤدّي عناصرها.

فإذا رأى أن الجماهير أحوَجُ في موقفه إلى ما جرّه إليه الاستطراد فلا مانع من التركيز عليه، ويُمكنه حينئذٍ أن يتحوّل تحوّلاً غير مستنكر إلى هذا الموضوع الجديد الذي استطرّد إليه، ولكن مثل هذا لا يُحسِنُه إلا نواذرُ الخطباءِ الموهوبين، ذوي الذكاء اللَّماح، والفتنة الممتازة، مع واسع علم وثقافة عامّة، وقدرة على التصرف الحكيم البليغ، والتأثير في جمهور المستمعين، بيد أنه يحسن أن يُشير إلى أنه باستطاده هذا قد خرج عن أصلِ الموضوع لأنه قد رآه أنفع وأجدى في هذا الموقف من مُتابعة أصلِ موضوع خطبته.

وربّما يكون هذا التحوُّلُ بمثابة المفاجأة المثيرة للانتباه والإعجاب، وربّما يكون تأثيرُ عناصرِ الموضوع الجديد أكثرَ من تأثيرِ عناصرِ الموضوع الذي كان قد أعدّه لخطبته.

لكن لا ينبغي أن يُقوّمَ بمثل هذا من لا يُحسِنُه، فإذا تولاه من لا يُحسِنُه

تأه في الشتاتِ الفكري، ووقع في فخ الخروج المذموم عن أصل الموضوع، وهذا من العيوب التي تُحَسَّبُ على الخطيب بدون شك.

- ٥ -

### ما يجب التزمه في الخطبة

مع ما سبق بيأنه في (الفصل الأول - المنهاج البياني ومسالكه) تدعو الحاجة هنا إلى التنبية على وجوب التزام ما يلي في الخطبة:

١ - أن يكون لسان الخطيب بالعربية منضبطاً لا لحن فيه، ولا خطأ في تلاوة نصوص القرآن، وألفاظ الأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال الناس المروية كشعر نفيس، وحكمة مشهورة، ومثل سائر.

٢ - التزام الصحة في المرويّات من النصوص والأخبار، واجتناب رواية الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة التي لا يصح الاستشهاد بها، والقصص المصنوعة، والخرافات والأساطير التي لم تثبت صحتها، واجتناب الإتيان بمعلومات غير صحيحة في مختلف العلوم الدينية وأدواتها، والعلوم الكونية الطبيعية والحوادث التاريخية.

٣ - الابتعاد عن الإصرار على حكم ديني اختلفت فيه اجتهادات المذاهب الفقهية المعتمدة لدى جمهور المسلمين.

وحسب الخطيب إذا احتاج أن يذكر الحكم الذي ينص فيه مذهباً معيناً، أن يشير إلى أن هذا هو الأرجح فيما يرى بالنظر إلى ما فهم من الدليل، ويذكر أن بعض فقهاء المذاهب قالوا بخلافه.

فالإصرار على وجهة نظر معينة في المسائل الخلافية أمام جمهور من المسلمين لهم انتماءات مذهبية مختلفة، يؤلّد شقاقاً بين المسلمين لا يرضاه الله ورسوله.

٤ - أن تكون الخطبة دائرةً حول أفكار فلسفية صعبة، أو مفاهيم عويصة، لا تستوعبها أفكار جمهور المستمعين.

وعلى الخطيب أن يتذكر دوماً وصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتريدن أن يكذب الله ورسوله؟!».

٥ - أن يقرن بكليات عناصر موضوعه الذي يخطب حوله الأدلة عليها من القرآن والسنة، وأن يفعل ذلك أيضاً في الفروع ما تيسر له الأمر.

٦ - أن لا يواجه المخالفين في مذاهبهم وآرائهم، لبعض مبادئ الإسلام وشرائعه وأحكامه من حاضري خطبته، باتهامهم بالسفاهة والجهالة وقلّة العقل، أو بالتحقير والاستهزاء والسخرية، أو بسوء الطوية وفساد الفطرة، ويجب عليه أن يقتصر على عرض الحق مقترناً بأدلته، فقد يكون فيهم من هو مخدوعٌ معرّزٌ به، فإذا سمع شتيمة والسخرية منه نفر وأصرّ على باطله، وقابل بالمثل أو بأشدّ منه.

والواجب تليينه وتأنيسه واستمالته وترقيق قلبه، وإيجاد العذر له فيما مضى بأنه لم يجد من يقنعه بالحق، فهذا الأسلوب من شأنه أن يخرج من ظلمات الباطل، ويدخله في أنوار الحق.

٧ - الابتعاد عن غرائب الألفاظ المعجمية التي لا يفهم جمهور المستمعين معناها، وعن كل لفظ فيه تقعر وتقيهُق.

٨ - إذا لم تدع الحاجة الاجتماعية الملحة لتطويل الخطبة فمن الخير تقصيرها ما بين (٢٠ - ٣٠) دقيقة والاستعاضة عن طولها بدروس قبل الخطبة أو بعد الخطبة إن أمكن، فمن السنة عدم إطالة الخطبة.

## إعداد الخطبة

الخطيبُ الذي يدعو إلى دين الله، أو يتولّى مهمة الوعظ والإرشاد والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في مناسباتٍ دوريّةٍ ينبغي له أن يكون على تفكّرٍ باهتمام ما بين الخطبتين، مع مراقبة مستمرة لتطوّرات الأحداث اليوميّة في مجتمعه وفي العالم، ليُحسّن اختيارَ الموضوعِ الَّذِي يكوّن عمادَ خطبته الآتية، التي يُعالج فيها أوّلوياتِ الأمور.

فإذا استقرّ على اختيار الموضوع تفكّر في عناصره، وأدلّته وشواهده، والأمثال التي يَضْرِبُها فيه إذا كان يناسبه ذلك.

وينبغي له أن يستصحب معه ما يُدوّن فيه عنوان الموضوع، وموجزَ خواطره حوله، وما يتصيّد له من أدلّة وشواهد وأمثال.

وينبغي له أن يكون كثير القراءة والاطلاع على الكتب المعاصرة النافعة، والمقالات والمحاضرات المكتوبة بأقلام كبار رجال الدّعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين يحسنون مُتَابَعَةَ الأوضاع المعاصرة، ومعالجتها بحكمة، مع تزوّده المستمرّ من كُتُبِ التراث الموسّعة لعلماء المسلمين الذين لهم نَفْسٌ بيانيّ دعوويّ وإرشاديّ طويلٌ في تفسير كتاب الله، أو شرح أحاديث رسول الله، وبسط الوصايا والنصائح التوجيهيّة لفضائل الأخلاق ومَحَاسِنِ السلوك الإسلاميّ، والترغيب في التزام أحكام الدّين، والترهيب من مخالفتها.

وينبغي له لدى اختياره موضوعه أن يهتمّ بالتركيز على ما هو أولى بالتأسيس أو التثبيت أو الحثّ على التطبيق من أصول الدّين وفروعه، وأن تكون خطبته من واقع الحياة وما يدور فيها، وما يحيط بالناس من ملابسات ومستجدات، وأن يهتمّ بالبحث عن العلاج النافع من مفاهيم القرآن والسنة.



وَلِيَحْذَرَ أَنْ يَجْعَلَ مَوْضِعَهُ كُلَّهُ دَائِرًا حَوْلَ صَغِيرَةٍ مِنَ الصَّغَائِرِ، مَعَ أَنْ  
مَعْظَمَ جُمْهُورِ مُسْتَمْعِيهِ يَحْتَاجُونَ إِلَى حَتْمِهِمْ عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ الْعَظْمَى،  
وَاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، فَمِرَاعَةُ التَّدْرِجِ فِي سُلْمِ الْأَوْلِيَّاتِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِلدَّاعِيَةِ،  
وَلِلْوَاعِظِ الْمَذْكَرِ الْمُرْشِدِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ خُطْبَةٍ مِنْ خُطْبِهِ مَوْضِعًا مَنَاسِبًا تَدُورُ حَوْلَهُ.

فَمِنْ أَمْثَلَةِ مَوْضُوعَاتِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: (آيَاتُ اللَّهِ فِي الْكُونِ - آيَاتُ اللَّهِ  
فِي الْأَنْفُسِ - دَعْوَةُ جَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ إِلَى التَّوْحِيدِ - قِصَّةُ مَنْ قَصَصَ الْأَوَّلِينَ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ - إِعْجَازُ الْقُرْآنِ وَلَا سِيْمَا مَا فِيهِ مِنْ إِعْجَازٍ عِلْمِيٍّ - أُسُسُ  
الْإِسْلَامِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ - أُسُسُ الْإِسْلَامِ الْأَخْلَاقِيَّةِ - أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعُهُ  
الْقَائِمَةُ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَإِنصَافِ الْمَظْلُومِينَ - تَحْرِيرُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ  
إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ - اِهْتِمَامُ الْإِسْلَامِ بِإِصْلَاحِ الْمَجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَسَعَادَتِهَا -  
رَحْمَتُهُ بِالنَّاسِ أَجْمَعِينَ - كَوْنُ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ - كَوْنُ رِسَالَتِهِ  
عَامَّةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ - أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُكْرَهُ أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي الدِّينِ، لَكِنْ  
يُنذِرُ مَنْ أَبِيءَ بِعَذَابِ خَالِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي دَارِ الْعَذَابِ  
الْأَلِيمِ، وَيُبَشِّرُ مَنْ آمَنَ وَاتَّبَعَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْفَوْزِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ... ) إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الدَّعْوِيَّةِ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ مَوْضُوعَاتِ النَّصِيحِ وَالْإِرْشَادِ وَالتَّذْكَيرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ  
وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ (الْإِيمَانُ وَأَرْكَانُهُ - الْإِسْلَامُ وَأَرْكَانُهُ - التَّقْوَى مَفْهُومُهَا  
وَعِنَاصِرُهَا - الْكُفْرُ وَالْمُكْفَرَاتُ وَعِقَابُ الْكَافِرِينَ الْمَعْجَلُ وَالْمَوْجَلُ - النِّفَاقُ  
وَصِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ وَعَاقِبَتُهُمْ - الصَّلَاةُ وَقِيمَتُهَا وَحُكْمَتُهَا وَكَوْنُهَا عِمَادَ الدِّينِ -  
الزَّكَاةُ وَأَهْمِيَّتُهَا وَحُكْمَتُهَا وَعِنَاصِرُهَا وَعَقُوبَاتُ تَارِكِيهَا - الصِّيَامُ وَفَضَائِلُهُ  
وَمَنْزِلَتُهُ فِي الدِّينِ وَأَثَارُهُ فِي النَّفْسِ وَالْمَجْتَمَعِ - الْحَجُّ وَفَضَائِلُهُ وَمَنْزِلَتُهُ  
وَحُكْمَتُهُ - أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَعَقُوبَتُهُ الْمَعْجَلَةُ وَالْمَوْجَلَةُ - الرِّبَا

وعقوبة مرتكبيه - الزنا ومخاطره وعقوباته - عمل قوم لوط ومخاطره وعقوبته - الصدق - الأمانة - العفة - الجرأة الأدبية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال - الصدقات وفضائلها - حُسنُ تربية البنين والبنات ومسؤوليات الآباء والأمهات نحوهم - المشاركة في أعمال الخير - الذكر والدعاء وقيمتُهُما وفضائلهُما - حُسنُ المعاشرة بين الزوجين وحقوق كلِّ منهما وواجباتُهُ تجاه الآخر وتجاه ذريتهما وضرورة بناء الأسرة المسلمة... ) إلى غير ذلك من فيض موضوعات إسلامية في أصول الدين وفروعه الأخلاقية والتعبديّة والتعاملية مع المسلمين ومع غيرهم من خلق الله.

وينبغي لمن يَحْمِلُ مُهَمَّةَ الخطابة ولكلِّ داعٍ إلى الله أو ناصحٍ مذكّرٍ مرشدٍ أمرٍ بالمعروفِ ناهٍ عن المنكرٍ من فئة المتخصّصين، أن يتخذ لنفسه معجماً مفهرساً، يُدَوّن فيه بالتتابع مع مرور الزمن كُلَّ عنوانٍ لموضوع من الموضوعات التي تخدمه في أداء رسالته، فكلّما قرأ في كتابٍ من الكتب المناسبة لرسالته بحثاً، أو مقالة، أو حديثاً، أو قصة، أو مثلاً أو عبرة أو كلاماً منمّقاً نفسياً، أو شعراً جيداً، سجّل في معجمه الخاصّ عنوان هذا الموضوع الذي أعجبه مما يناسب رسالته، في الحرف الذي هو تابع له، ويُدَوّن في صحيفة هذا العنوان ما يلي:

١ - يُرْجَع للاستفادة إلى كتاب كذا في صفحة كذا فيذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة، أو إلى مجلة كذا أو صحيفة كذا، ويذكر رقم العدد ورقم الصفحة، ويحتفظ عنده بنسخة من ذلك.

ثمّ كلّما قرأ بحثاً آخر حول الموضوع نفسه أضافه إلى صفحة الموضوع برقم جديد كما يلي:

٢ - ويُرجع إلى كتاب أو مجلة أو صحيفة... في صفحة... وكذلك يفعل في الآيات والأحاديث النبوية والشواهد التاريخية، مشيراً

إلى السورة ورقم الآية، وإلى الحديث ومكان وجوده في كتب الحديث وشروحها<sup>(١)</sup>.

وَيُنْعِي لمن يُعِدُّ نَفْسَهُ لأن يكون خطيباً مؤثراً في جماهيره، وقادراً على الارتجال وإلقاء خطبته إلقاءً، دون أن يقرأها من ورقة، أن يبدأ رحلته بأن يكتب خُطْبَتَهُ كاملةً، فإن وجد في نفسه الاستطاعة والجرأة على أن يُمْلِئَهَا ارتجالاً فليُفَعَلْ على سبيل تدريب نفسه في جمهور يتقبل منه العثرات، ولا يُحَاسِبُهُ أَحَدٌ منهم عليها. وإذا لم يتجرأ على ذلك فليُقْرَأْهَا من الورقة، بعد أن يضع عناصرها في ذاكرته، وليكرّر قراءتها في جماهير مختلفة، ثم يَدْرَبُ نفسه على إلقائها ارتجالاً.

ثم يكتبُ خطبةً أخرى ويكرّر العملية الأولى، ثم خطبةً ثالثة، ورابعة، وخامسة، وهكذا حتّى تتجمّع لديه عشرات الخطب أو مئاتها، وفي كلّ خطبة يدرّب نفسه على قراءة الخطبة من الورقة، وإلقائها ارتجالاً من الذاكرة مستعيناً بمذكّرة يسجل فيها عناصر الموضوع، والنصوص التي يستشهد بها، أو مقدمات النصوص إذا كانت محفوظة لديه.

إنّه بعدَ مُدَّةٍ تطوّل أو تقصر سيجد نفسه قادراً على أن يَرْتَجِلْ خطبةً كاملةً، مستعيداً فيها ما سبق أن سجّله في أوراقه المكتوبة، فإذا كان من الموهوبين بفطرته أن يكون خطيباً، فإنّه سيكتسب بعون الله ملكة الإلقاء الارتجالي بالتدرج، ولو فوجيء بالدعوة إلى أن يخطب بين الجماهير خطبة لم يُعِدَّ لها سابقاً.

حتى إذا اكتسب ملكة الارتجال الموفّق فإنّ عليه أن يكون دائم المراجعة والقراءة والاطلاع، والإضافة إلى مخزونات ذاكرته، وإلى معجمه

(١) لو اهتمت إلى هذه الطريقة منذ بداية رحلتي العلميّة لوفّرتُ على نفسي جهداً عظيماً، ولكان من الممكن صرفه في الإنتاج.

المفهرس، وأن يُواظب على كتابة حُطْبِهِ، ولو لم يقرأها من أوراقه، فإنَّها ستُكون له عوناً وزاداً دائماً يعطيه ثراءً جديداً من المعرفة، ثم تكون مرجعاً مفيداً له ولغيره من الذين يُعِدُّون أنفسهم ليُكونوا خطباءً.

\* \* \*

- ٧ -

هل الخطابة استعداد فطري أم ملكة تكتسب؟

اتَّفَقَ الباحثون على أن القُدرة على الخطابة الارتجالية، هي في الأصل استعدادٌ فطري، وهذا الاستعداد ينمو بالعلم والممارسة، ولكلّ ذي استعدادٍ نصيبٌ من الارتقاء في سلّم الخطباء الموهوبين بالممارسة والمِران، حتّى يصل إلى الدرجة التي يمكن أن يرتقي إليها استعدادُه الفطري، وهنا لا بُدَّ أن يتفاوت الخطباء في مراتبهم، كسائر الاستعدادات الفطرية في الناس.

وبعض الناس ضعيفُ الاستعداد الفطريّ لأن يكون خطيباً مفوّهاً، ولكن بإمكانه أن يُدَرِّب نفسه، حتّى يصل إلى درجةٍ تصلح لجمهور يُناسب ما وصل إليه، فيستفاد منه في حدود هذا الجمهور وأشباهه.

أمّا إذا كان كثير العثرات على الرُّغم من طول الممارسة، فمن الخير له دواماً، أن يعتمد على قراءة خطبته المكتوبة، من إنشائه، أو ممّا نقل من كلام أساطين الخطباء والكتّاب المعاصرين أو غيرهم.

\* \* \*

- ٨ -

الصفات المفضلة للخطيب عند الخطبة

ينبغي للخطيب أن يتحلّى بالصفات التالية عند خطبته:

١ - أن يكون وقوراً حَسَنَ الهيئة في زيِّ يُشعرُ بالمهابة.

٢ - أن يخطب وهو واقف .

٣ - أن يختار مكاناً مُشرفاً مناسباً يراه فيه جميع جمهور المستمعين أو أكثرهم، ولا يشترط أن يكون المكان مُشرفاً بالنسبة إلى خطيب المحافل التي لا يوجد فيها مكان مشرف، ويكتفي بالوقوف في مكان مشهود .

٤ - أن لا يكون جامداً جمود الوثن الذي لا تتحرك منه إلا شفتاه، وأن لا تكون حركاته دالةً على خفته وطيشه، بل يكون رزيناً رصيناً، مُتدفق الحيوية تدلُّ حركاته الرزينة على كمال عقله وحسن مخاطبته لجمهوره،

٥ - من براعته أن تكون إشاراته في حركات يديه وقسمات وجهه مشاركةً لكلماته في التعبير عن مراداته، وأن تكون بمثابة وسائل إيضاح تعليمية لا إسراف فيها، وأن لا يوجد فيها ما لا يليق بوقار الخطيب ومهمته رسالته .

ومن الإشارات الوقورة البارعة ما جاء في قول الرسول ﷺ، فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» .

وأشار الرسول بأصبعيه السبابة والوسطى، وفيما رواه البخاري أيضاً عن سهل: «أَنَا وَكَافُلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما . ومنها ما رواه الطبري بسنده عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ فَلَمَّا جَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال: «هكذا بأصبعيه» ووضع النبي ﷺ أصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر: «فَسَاخَ الْجَبَلُ» .

فدلَّت هذه الإشارة على مقدار التجلي من الربِّ جلَّ وعلا الذي ساخ به الجبل .

٦ - أن يُعْطِيَ من نظراته وتوجُّهه وعنايته كلَّ جُمهورٍ مستمعيه، ويَحْسُن أن يَخْصَّ الشيوخ الكبارَ والفتيان الصغارَ بتوجُّهٍ مقصود، ففي توجُّهه لكبار السنِّ تكريمٌ له أثارٌ حميدة، وفي توجُّهه للفتيان والصغار إيناسٌ يربطهم بالدين ويرغبهم فيه .

## زخرفيات الخطبة بصفة عامة

الخطبة المؤثرة التي تَسْتَحُوذُ على مشاعر المستمعين هي التي تجمع طائفة ذات تأثيرٍ على الأفكار والنفوس من الزخرفياتِ البيانيةِ اللَّفْظِيَّةِ والفكريةِ المتنوعةِ، ومنها ما يلي:

- ١ - سهولةُ تناولِ أفكارِ الموضوعِ وسهولةُ الاقتناعِ بها.
  - ٢ - جمالُ الأسلوبِ البيانيِ وحلاوتهُ في الخطبةِ، مع اشتغالها على جمالياتِ بلاغيةٍ غيرِ متكلفَةٍ، ممَّا كشفت عنه فنونِ البلاغةِ العربيةِ لِشِعْرِ المستمعِ بلذَّةِ الأصغاءِ والمتابعةِ.
  - ٣ - التلاؤمُ بينِ الكلماتِ المختارةِ والأفكارِ الدالَّةِ عليها.
  - ٤ - التلاؤمُ بينِ الصَّوْتِ ونبراتهِ ونغمتهِ وقوَّتهِ وضعفه، ولينِه وقسوتهِ، وبينِ المعنى الذي يؤدِّيه القولُ ويُدلُّ عليه.
- فلكلِّ صنفٍ من المعاني ما يلائمه من صوتٍ ونبرةٍ، ونغمةٍ، وقوَّةٍ وضعفٍ، ولينٍ وقسوةٍ، إلى غيرِ ذلك.
- ومن أصنافِ المعاني ما يلي: (التشويق لمحبوب - التحزين على عزيز - الترغيب في خيرٍ ذي فائدةٍ ونفع - التخويف من مكروهٍ أو مصيبةٍ أو شرٍّ فيه خسارةٌ وضُرٌّ - التشجيع على بذلٍ وتضحيةٍ - التحبُّب والتودد والتأنيس - الدُّعاءُ والاستجداءُ بتدليلٍ وخضوعٍ...) إلى غيرِ ذلك من صنوفِ المعاني.
- ومعلومٌ أنَّ إدراكَ الفروقِ ووضعَ كلِّ صنفٍ من الأصواتِ وصفاتها مع ما يلائمه من المعاني يتطلَّبُ ذوقاً سمعيّاً جيداً، وممارسةً طويلةً يراقب فيها الخطيبُ بذكاءٍ لِمَاحِ رُذُودِ أفعالِ المستمعين، ومدى تأثيرهم واستجاباتهم، أو بُرودِهِمْ وانصرافِهِمْ عنه بأجسادِهِمْ أو بأفكارِهِمْ ونفوسِهِمْ.

٥ - استجماع الخطبة لمُنْتَقِيَاتٍ من طرائف ودُرَرٍ جميلةٍ نَفِيسَةٍ من النوادر والأفكار والأقوال التي تَمْتَلِكُ إعجاب المستمعين، من نثر أو شعر.

٦ - الاستشهاد بنماذج مناسبة لموضوع الخطبة من القصص والأخبار الثابتة التي تستميل الأفكار والنفوس للإصغاء والتأثر.

زائد خرفيات الخطبة في موضوع من الموضوعات الدينية:

أما الخطبة في موضوع من الموضوعات الدينية، فلها مع الزخرفيات السابقة زخرفياتٌ زائدةٌ خاصةٌ بها، ومنها ما يلي:

٧ - تدعيم أفكار الخطبة بنصوص ملائمة من القرآن الكريم، تقع في صلب الموضوع، أو تلتقي معه بمناسبةٍ قويةٍ.

فإذا شُرِحَتْ هذه النصوص شرحاً بارعاً يكشفُ صِلَتَهَا بالموضوع، كان هذا أعظم تأثيراً وامتلاكاً للقلوب والنفوس.

٨ - تدعيم الخطبة بمختارات من الحديث النبوي الشريف، وبصُورٍ من السيرة النبوية، وقصص الأنبياء.

٩ - التزيين بمختاراتٍ من أقوال كبار الصحابة والتابعين ومواعظهم.

١٠ - التزيين بمختاراتٍ مُلآثِمَاتٍ من الحِكَمِ المأثورة، والأمثال المشهورة.

١١ - التزيين بمَقَلَّدَاتٍ من عُيُونِ شِعْرِ كِبَارِ الشُّعْرَاءِ، ممَّا يشتمل على حكمة أو موعظة.

١٢ - عرض نماذج من سِيرِ الصحابة، وفضلاء التابعين والعلماء والصُلَحَاءِ، وأبطال المسلمين، وقادة الفتح الإسلامي.

فلمثل هذا العرض تأثيرٌ قويٌّ في النفوس، لما فيه من تقديم صُورٍ من

حياة مَنْ هُمُ القدوةُ الحسنَةُ لجماهير المسلمين.

١٣ - البراعة في إفهام مَسَائِلِ الدِّينِ، ومعاني النصوص، بأسلوبٍ سَهْلٍ مُيسِّرٍ مُستَسَاعٍ، لا تعقيد فيه ولا غُمُوضٍ، وليس فيه التزام، بمصطلحاتٍ علميةٍ.

١٤ - بَيَانُ الحِكمِ التشريعية التي تشتمل عليها تطبيقات أحكام الدين وتعليماته، وما فيها من تحقيقٍ لمصالح العباد وسعادتهم، في الدنيا دار الابتلاء، ثمَّ في الآخرة دار الجزاء.

\* \* \*

- ١٠ -

### عيوب الخطبة

تنقسم عيوب الخطبة إلى عيوبٍ في شكل الأداء، وإلى عيوبٍ في المضمون الفكري:

أولاً - بيان العيوب التي تكون في شكل الأداء:

١ - كثرة اللحن في الكلام العربي الفصيح، والخطأ في تلاوة أو قراءة النصوص من القرآن والسنة وغيرهما.

٢ - الركاكةُ وسوءُ التعبير عن الأفكار، والتلعثمُ الكثير في الكلام.

٣ - التدفُّقُ السَّريعُ كسَلَالٍ يَنحدرُ من الأعلى بقوة، فيراه النظارةُ مشهداً مُثيراً للدهشة، ذا حركات متكررات أو متشابهات، إلاَّ أنهم لا يستطيعون الاقترابَ منه للشرب المريء، الذي يُروي الظماء، ويملاً البطونَ بعدبِ الماء، فلا يروقهُمُ منه إلاَّ المنظر الجميلُ المريح.

٤ - البرودُ الذي يُورثُ نَوْمَ المستمعين، إذ يكون حالُهُمُ معَهُ كحال من



يجلسُ في غرفة باردة رَطْبِيَّةٍ مظلمة تجلُبُ الكَسَلَ فالنوم .

٥ - الصياحُ الشديدُ الذي يُؤذِي الأسماع، إذ يتجاوز الحدَّ المقبول، ولا سيما إذا كان من صوت ذي نكارةٍ بخشونته، أو قَلَقَلْتِهِ وارتجاجه، أو حَدَّتِهِ الجارحة كالشفرة، أو الواخِزَةِ كالإبرة .

٦ - الوتيرة الواحدة في الأداء على نمط رَتِيْبٍ متماثل، يتَجَمَّعُ حَشْدًا، وَيَتَعَاقَبُ سَرْدًا .

٧ - اهتمام الخطيب بالتوجّه لبعض الحاضرين، دون إعطاء الباقين حقهم من الاهتمام .

ثانياً - بيان العيوب التي تكون في المضمون الفكري :

١ - الإيجاز المُخِلُّ، والتطويلُ المُمِلُّ .

٢ - التَنَوُّعُ غير المترابط في الأفكار، الذي لا يسير على وفق نظام الترابط الشجري، بل تأتي الأفكار فيه أكواماً غير متناسقة ولا متلائمة، كمن يقبضُ من كلِّ محلٍّ تجاريٍّ في السوق قبضةً أو قطعةً، ثُمَّ يَنْثُرُها على جمهوره نثراً عشوائياً .

٣ - أن تُورِثَ الخطبةُ المللَ والسَّامَ، بِسَبَبِ الجَهْدِ في فَهْمِ أفكارها، أو الغموضِ في معانيها لكثرة ما فيها من تَوْرِيَّاتٍ وإيماءات رمزية بعيدة عن الأفهام، أو لغرابة ألفاظها، والتعقيد في تراكيبها، أو لغير ذلك .

٤ - اشتغال الخطبة على مثيراتِ مشاعرِ الاشتمزازِ والتقرُّزِ والغضب . سَوَاءٌ أكان ذلك من ألفاظها القبيحة المعاني، أم من معانيها القاسية المُرَّة، التي لم تُعَلَّفَ بما يُطْرِبُها، أو يَجْعَلُها - ولو في الظاهر - حلوة المذاقِ مستساغة في البَلْعِ .

٥ - اختيار موضوعٍ غيرِ ملائم، كاختيار موضوع من الموضوعات التي

ليس لها في الحياة المعاصرة صلة بالناس، كبحث أحكام الرقيق وعق الأرقاء، وشغل الخطبة به، في عصر اصطلحت فيه دَوْلُ العالم على إلغاء الرقيق، وكتفصيل أحكام زكاة الإبل المقتناة، في جمهور لا يعرف اقتناء الإبل.

٦ - تَضَمَّنَ الخطبة ما يَدُلُّ على أَنَّ للخطيب مَصَالِحَ خَاصَّةَ من خطبته، لشخصه، أو لجماعته، أو للشريحة الاجتماعية التي هو منها.

٧ - الإغراق في بحثٍ علميٍّ تخصصيٍّ.

٨ - تشعُّبُ موضوع الخطبة تشعُّباً يَضَعُ على المستمع ربط عناصره بخطوط موضوعه الأساسي الذي يُعالجُ ربط عناصره بخطوط موضوعه الأساسي الذي يُعالجُ فيها.

٩ - توجيهُ الاهتمام لصغائر الأمور، وجعلها محور الموضوع، فصغائر الأمور لا يَحْسُنُ أن تأتي إلَّا عرضاً، وضمن المناسبات التي تدعو إلى ذكرها، وبصورة خفيفة لا يَشْتَدُّ التركيزُ عليها.

١٠ - التكرار الممل، والدوران في الأفكار، كالخط الذي يدور عائداً إلى بعض الدوائر السابقة فيخترقها ويرجعُ كلما تقدَّم خطوةً إلى الأمام.

فبعضُ الخطباءِ والكتابِ تراه يتقدَّم في الأفكار إلى الأمام، ثم يرجع فيستأنف من بعض المراحل الفكرية التي قطعها من قَبْل، ويكرِّرها، فإذا وصلَ إلى ما انتهى إليه زاد بعض الأفكار، ثُمَّ عاد فاستأنف من بعض المراحل السابقة، وهكذا دواليك.

\* \* \*

### الخطيب وجمهوره

ينبغي أن لا يكون الخطيبُ مكروهاً لدى جمهور مُسْتَمِعيه، أو غير محترم لديهم، أو غير موثوق به علماً أو خلقاً أو سلوكاً.

فإذا كان كذلك فعليه أن يُمهّد بمختلف الوسائل الممكنة حتّى يكون مقبولاً لديهم ومحترماً وموثوقاً به، وقد يحتاج هذا إلى مدّة من الزمن، وقد يُضطر أن يوجّه نشاطه إلى جهة أخرى يُقبَل لدى أهلها، حتّى إذا ذاع صيته أمكنه أن يكون له انتشار عام.

\* \* \*

### أمثلة من خطب الأُسوة الحسنة

#### المثال الأول:

خطبة نبوية قصيرة دعت إليها مناسبة

(المناسبة)

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال:

كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ<sup>(١)</sup>، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ<sup>(٢)</sup>، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ<sup>(٣)</sup>، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:

(١) مجتَابِي النَّمَارِ: أَي مُقَطَّعِي الثِّيَابِ. النَّمَارُ: ثِيَابٌ مِنْ صُوفٍ يَلْبَسُهَا الْأَعْرَابُ.

(٢) مُضَرَ: قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَنْسَبُ إِلَى مُضَرَ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعَدٍ.

(٣) تَمَعَّرَ: أَي: تَغَيَّرَ لَوْنُهُ. الْفَاقَةُ: الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ.

(مقدمة الخطبة)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

(النساء / ٤)

والآية التي في الحشر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(الحشر / ٥٩)

(الخطبة الموجزة)

«تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» .

(أثر الخطبة)

قال: فجاء رجلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ كَادَتْ كُفَّهُ تَعَجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ .  
قال: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ<sup>(١)</sup> .

(مرحلة المتابعة بعد الخطبة)

فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَنَّ فِي الْأِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» .  
(رواه مسلم)

(١) يتهلَّل: يستنير ويتلألأ. كأنه مُذْهَبَةٌ: أي: كأنه فضة مموَّهة بالذهب.

فاشتملت هذه الخطبة على المقدمة، وفي أغلب الظن أن الرسول قد حمد الله وأثنى عليه كما هو عادته، وإن لم يأت هذا في رواية الحديث، والمقدمة هي تلاوة آيتين لهما علاقة بموضوع الخطبة، وهو الحث على البذل لهؤلاء الفقراء من الأعراب.

وبعدها جاءت الخطبة موجزة جداً فلم تحتج إلى خاتمة تلخيصية. وكان من أثر الخطبة التطبيق العملي بالبذل.

ثم استفاد الرسول من سبق السابقين إلى البذل فعلق عليه ببيان أصل من أصول الجزاء، لمن سن سنة حسنة، ولمن سن سنة سيئة.

المثال الثاني:

### خطبة نبوية قصيرة دعت إليها مناسبة (المناسبة)

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن قریشاً أهتمهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ؟ فكلم رسول الله ﷺ، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟!

### (الخطبة الموجزة)

ثم قام فخطب فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيْمُ اللَّهِ<sup>(١)</sup>، لَوْ أَنَّ

(١) وإيْمُ الله: قسم، أصلها: أيْمُن الله، همزته في الأصل للقطع، ثم أصبحت بكثرة الاستعمال همزة وصل.

فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا» .

وجاء في رواية: ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يَدُهَا .

المثال الثالث:

خطبة الرسول ﷺ يَوْمَ النحر

روى البخاري ومسلم عن أبي بكر رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ:

«إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ، ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ، وَرَجَبٌ مُضَرَّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ» .

وَقَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» .

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟»

قُلْنَا: بَلَى .

قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» .

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَةُ؟» .

قُلْنَا: بَلَى .

قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» .

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» .

قلنا: بلى.

قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا.

وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضَلَالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟».

قالوا: نعم.

قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ».

هذه خطبة عجيبة بما فيها من طرَح أسئلة حول الشهر والبلد واليوم، لإعداد النفوس إعداداً تَسْتَشْعِرُ به عظمة حُرْمَتِهَا، حَتَّى إِذَا تَمَّ إِعْدَادُهَا، أَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ حُرْمَةَ الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ وَسْؤَالِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَبَعْدُ أَخَذَ اعْتِرَافَهُمْ بِأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالتَّبْلِيغِ.

المشال الرابع:

مقطع من خطبة طويلة للرسول ﷺ

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: صَلَّى بِنَا النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ، ثُمَّ قَامَ خَطِيْبًا، فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَيَّ قِيَامَ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفَظَهُ مَنْ حَفَظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ:

«إِنَّ الدُّنْيَا خَصْرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَتَنَاظَرُوا كَيْفَ تَعْمَلُونَ».

أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ  
بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ.

أَلَا إِنَّهُ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غُدْرَتِهِ، وَلَا غُدْرَةَ أَعْظَمَ  
مِنْ غُدْرَةِ إِمَامٍ عَامَّةٍ.

أَلَا إِنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ حُمْرَةَ عَيْنَيْهِ، وَانْتِفَاحَ  
أُودَاجِهِ، فَمَنْ أَحْسَسَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصِقْ بِالْأَرْضِ».

فواتح خطب الرسول ﷺ:

قال ابن قتيبة<sup>(١)</sup>: (تَبَعْتُ خُطْبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فوجدت أوائل أكثرها:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ: نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنُؤْمِنُ بِهِ، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ  
إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ،  
وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

ووجدت في بعضها:

«أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْتِكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ».

ووجدت كلَّ خُطْبَةٍ مَفْتَا حُهَا: الْحَمْدُ، إِلَّا خُطْبَةَ الْعِيدِ، فَإِنَّ مَفْتَا حُهَا  
التكبير، وتكبير الإمام قبل أن ينزل أربع عشرة تكبيرة) اهـ.

المثال الخامس:

خطبة لسيد الأنصار سعد بن معاذ قبيل

المعركة في غزوة بدر الكبرى

لَمَّا عَلِمَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَمَا خَرَجَ بِالْمُسْلِمِينَ لِمَصَادِرَةِ قَافِلَةِ قَرِيْشٍ، أَنَّ  
أَبَا سَفِيَانَ تَحَوَّلَ بِالْقَافِلَةِ عَنِ خَطِّ سَبِيلِهَا وَنَجَا بِهَا، وَعَلِمَ أَنَّ جَيْشَ قَرِيْشٍ قَدْ

(١) في كتابه «عيون الأخبار» (٢ / ٢٣١) عن كتاب الخطابة . اد . محمود عمارة  
ص ٢٠١.



خرج مقاتلاً بِعَدَدٍ وَعُدَّةٍ، اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ وَأَحْسَنَ الْقَوْلِ، وَأَعْلَنَ الاسْتِعْدَادَ لِمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ وَمُقَاتَلَتَهُ، إِذَا رَأَى الرَّسُولَ ﷺ ذَلِكَ.

ثم قام عمر فقال وأحسن القول. ثم قام المقدادُ بنُ عمرو، فأحسنَ المقال بشجاعة وصدق.

وهؤلاء كلهم مهاجرون، والرسول ﷺ يريد أن يسمع من الأنصار، فقال: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ».

فقال له سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ»  
فَقَامَ سَعْدٌ فَأَلْفَى خُطْبَةً مُوجِزَةً رَائِعَةً:

(قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَيَّ ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَائِقَنَا، عَلَيَّ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ، فَاْمُضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخَضْتَهُ لَخَضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا.

إِنَّا لَصَبِيرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللَّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَيَّ بَرَكََةِ اللَّهِ).

ولسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه روائع خُطَبٍ يَحْسُنُ الْإِطْلَاقُ عَلَيْهَا، وَالِاسْتِفَادَةُ مِنْهَا.

\* \* \*

المثال السادس:

خطبة موجزة للحسن البصري

كان الحسن البصري إماماً حكيماً قوياً التأثير في مستمعيه، ومن خطبه الوجيزة في الموعدة الحسنة قوله:

(يَا ابْنَ آدَمَ، طَا الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ، فَإِنَّهَا عَمَّا قَلِيلٍ قَبْرُكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ

تَزَلَّ فِي هَذَمِ عُمْرِكَ مُذْ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمَّكَ، فَرَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ فَتَفَكَّرَ،  
وَتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ<sup>(١)</sup>.

- ١٣ -

### انتكاسة في تاريخ الخطب المنبرية

مرَّ عصرٌ في تاريخ الخطب المنبرية قلَّ فيه العلم، وجمدَ فيه خطباء المنابر على نماذج تقليدية، وصار الخطباء المؤهلون لأداء خطبة مؤثرة نافعة نادرين جدًّا، حتَّى كاد المسلمون لا يجدون لمئة منبر من منابرهم خطيباً صالحاً لأداء خطبة مؤثرة نافعة، تُحرِّك مشاعرهم، وتوجههم توجيهاً فاعلاً لأداء الواجبات، وترك المحرمات، وفعل الخيرات والمبرات.

وصار أشباه الأُميين هم خطباء الجمعة والعيد، وانصرف علماء العلوم الإسلامية عن اكتساب ملكة الخطابة، إلى حفظ مسائل العلوم من خلال متون مختصرة جدًّا تُبعدُ حفاظها عن التعبير عنها بعبارات مبسّطة يُنشئونها من عند أنفسهم.

واضطر هؤلاء وهؤلاء إلى الاعتماد على خطب مكتوبة أخذت طريقها إلى المطابع فيما بعد، وهي بعدد خطب الجمع والعيد في السنة، وقد راعى منشؤها في ترتيبها مناسباتها، وأنشؤها على نظام السجع في جملة متكلفة، لا تشبع حاجة فكرية ولا حاجة نفسية، ولا تثير عاطفة.

حتَّى حفظ بعض المواظين على حضور خطب الجمع موضوع

(١) عن (الخطابة) للدكتور محمود عمارة ص ١٧٧.

خطبة الأسبوع وبعض عباراتها، وبذلك فقدت الخطب المنبرية أهدافها، وصار بعضُ خطباء الجمعة والعيدين محلَّ سُخْرِيَةِ الساخرين، وهزء المستهزئين من الأدباء وذوي الفكر.

والسبب في هذا عمومُ الجهل، وعدمُ إعداد من يصلحُ لأداء هذه الوظيفة الجليلة من وظائف الأمة الإسلامية.

أما الآن فقد صلح بحمد الله حال كثير من خطباء المنابر على وجه العموم، مع أنه لا يزال بحاجة إلى تحسين وتجويد كثيرين.

\* \* \*

## الوسيلة الثانية

### الدّرس

- ١ -

#### بيان عام

الدرس: فنّ من فنون الأداء البياني، للعطاء العلمي المتقاطر، في عملية بناء مَعْرِفِيٍّ متدرّج، وللتوجيه الإرشاديّ الحكيم والنُّصْحِ الهاديّ المتدرج، الذي يسري إلى عمق النفس برفقٍ، كما يسري النسيم العليل بعناصره إلى كلّ خلايا الجسم عن طريق التنفُّس.

والدرس أهمُّ وأخطر وسائل التعليم والتربية، ولا تشترط فيه جلسة خاصة في مَسْجِدٍ أو غيره، بل يُصَاحِبُ الحياةَ، في الإقامة والسفر، والبدو والحضر، وفي المجالس الخاصة، وفي اللقاءات العابرات، وفي مركبة، وعلى ظهر دابة، وفي السّجن، وعند البيع والشراء، وعند إجراء أيّ عَقْدٍ بين طرفين، وداخل الأسرة، وفي رحلات التزهة، ورحلات الاطلاع على الآثار وفي كلّ لقاء بين قادر على عطاء تعليميٍّ أو نُصْحِيٍّ أو إرشاديّ، ومستعدٌّ لتقبُّلِ بيانٍ ما حَوْلَ شيءٍ من ذلك.

ولقد كانت حياة الرسول محمّد ﷺ وحياة النبيين من قبله في معظمها دروساً تعليميةً وتوجيهيةً إرشاديةً تربويةً، باستثناء مواقفِ خُطَبِ الإثارة لأمرٍ مُهمٍّ.

فمعظمُ أحاديث الرسول ﷺ القولية مقتبسةٌ من دروسه، وقد أخذ أئمة علماء المسلمين ومرشديهم ووعاظهم منهج الرسول ﷺ في دروسه التعليمية والتوجيهية الإرشادية والتربوية.

فلقد كانت الدروس النبوية دروس تعليم وتوجيه وإرشادٍ وموعظة حسنة، وأمرٌ بالمعروف ونهي عن المنكر، وكانت على الدوام مصحوبة بتربية فكرية، ونفسية، وخلقية، وسلوكية، مع حركة حياة الرسول ﷺ، وحياة أصحابه من حوله.

وعلى هذه السُنَّةِ درج علماء المسلمين ومرشدوهم ووعاظهم ومربوهم، وكان لكلِّ منهمُ حظٌّ ما من التزام هذا المنهج النبوي، فتخرج على أيديهم أئمةٌ أعلامٌ كانوا القُدوةَ الحسنة لجماهير المسلمين في معظم بلدان العالم الإسلامي.

وتَسَلَّسَلَتْ هذه الطريقةُ ذاتُ الأثر العظيم التَّعليمي والتربوي، حتَّى غزتنا المدرسة الغربية بطرائقها التعليمية المقتنَّة، التي كان لها بالنسبة إلى التعليم الديني المصحوب بالتربية الدينية المثلى أثرٌ عكسيٌّ ضارٌّ.

فانفصل التعليم الديني عن التَّربية الدينية السَّوية أولاً، وانفصل عن الحياة وموافقها، وعن حركة تطبيق أحكامه وشرائعه في السلوك، ثم اقتصر التعليم الديني على نُتفٍ متناثرة غير مترابطة من مُجَزَّاتٍ فُتِنَ واضِعُوها بما جعلوا له عنوان «التخصُّص الدقيق» قبل أن يستكمل الطالب ما هو ضروريُّ له من قاعدة علمية عريضة، واجبة التحصيل لكل طالبٍ علم من طُلاب العلوم الدينية.

ثم اقتصر التعليم الديني على سَنَوَاتٍ دراسية لا يُدْرَسُ من مناهجها الموضوعية لها إلاً مقاديرٌ يسيرة، ومتى نجح الطالب من فَضْلِ من فصولها الدراسية، ولو بطريقة كاذبة مزورة، انتقل إلى ما فوقه، دون النظر إلى ثبات

معلوماته وتمكّنها لَدَيْهِ، وهي في الغالب من الأحوال تَنْسَفِحُ مُرَاقَةً مِنْ وَعَاءِ الطالب، أو تَبَخَّرُ بعد تفرّغها في أوراق الامتحان الكتابي، إذ صار العلمُ تدريباً للذاكرة على الحفظ المؤقتِ الَّذِي يُنْسَى عَقِبَ صَبِّهِ في ورقة الامتحان.

فضاع العلم الديني، وصار كثير من المتخرجين حَمَلَةَ شَهَادَاتٍ ليس لها في مَخْزُونِ ذَاكَرَاتِهِمْ إِلَّا بَقَايَا، كبقايا طعامٍ في إناءٍ، قَدْ صُبَّ مَا فِيهِ عَلَى كَفِّ عاصفة هوجاء.

وضاعت التربية الدينية الإسلامية الشاملة، إذ لم يَبْقَ لها بمقتضى أسلوب التعليم وفق أنظمة المدرسة الغربية وجودٌ في واقع التدريس العمليّ. وَغَدَتِ الرابطةُ بين مُدْرَسِ العلوم الدينية وبين طلبته، مثل الرابطة بين مدرّس اللغة الأجنبية غير المسلم، وبين تلاميذه المسلمين، باستثناء أفرادٍ قليلين لهم حرصٌ خاصٌّ بدافع إيماني إسلاميٍّ، مصحوبٍ بهمةٍ عليّةٍ، ورجبةٍ قويّةٍ، في القيام بواجبه الديني الذي يفرضُ عليه تعليمَ وتربيةَ من يستطيعُ تربيته من طُلابه على الكمالات الإسلامية المختلفة، الفكرية والنفسية والخلقية والسلوكية.

- ٢ -

### مسؤولية حامل الرسالة

وحامل رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة التّضح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسؤولٌ عن القيام بدروس عطاءٍ علميٍّ، ودروسٍ نُصَحَ وإرشادٍ وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، مقتدياً فيها بالدروس النبوية، التي هي الأسوة الحسنة لكلّ المعلمين، والناصحين، والمرشدين، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وأن تكون هذه الدروس مُسَايِرَةً لحياته وحياة من حوله، من الذين ينتظمون في حلقاته، أو

يستجيبون لدعوته، وعطاءاته، ونصائحه، وإرشاداته، وأوامره ونواهيه الدينية.

وعليه أن يحرص على ما في المساجد من بركة عظيمة يُمدُّ بها حلقات العلم والنصح والإرشاد والذكر فيها، دون أن يقصر بواجباته خارج المساجد.

وعليه أن يجعل قُدوته دوماً الدروس النبوية التي هي الأسوة الحسنة، وعليه أن يتصيّد من يُضغِي إليه عقب الصلوات، أو بين المغرب والعشاء، أو عقب صلاة الفجر حتّى طلوع الشمس وامتدادها قليلاً، غير الأوقات التي يخصصها لمن ينتظم في درسٍ دوريٍّ من طلاب العلم.

- ٣ -

### الدروس التعليمية ومنهجيتها المفضّلة

أما الدروس التعليمية فيجب أن يُبنى فيها علمُ المتعلّم بناءً تدريجياً تكاملياً ارتقائياً، بدءاً من الأساس لكلّ علمٍ مطلوبٍ في هذا التعليم، وارتقاءً إلى ما فوقه شيئاً فشيئاً، كما تُبنى القصورُ في الحسيّات، ولا يصحُّ مُطلقاً البَدْءُ من الأعالي والشرفات قبل وضع الأسس، واستكمال بناء القواعد والجدران التي يقوم عليها ما فوقها، وفق التسلسل الطبيعي للأشياء.

ويجب أن يكون هذا التعليم مصحوباً دوماً بالتربية الفكرية والنفسية والخلقية والسلوكية، على منهج المدرسة النبوية.

وينبغي أن تُستخدَم فيه الطرُق والوسائل التعليمية المناسبة، مما تُرشِدُ إليه أحدثُ وأحسنُ طرق التدريس ووسائله، وأن تُستخدَم فيه وسائل تخزين المعارف المكتسبة، وفق أحدث وأحسن وسائل التخزين، مع المراجعة الاستذكارية أنا ثم أنا.

وأن تستخدم فيه أيضاً طرقاً تدريب فكر المتعلم على أن يكون باحثاً مُنقِباً، ومُستنبطاً مُتتجاً، ومستخرجاً أشياء جديدة، وأن يقرن أحكامه في المسائل بأدلتها، وأن يتدرّب على الرجوع في كل مسألة إلى مظانها في الأمهات من الكتب المراجع حتى يكتسب ملكة البحث والتنقيب.

ولهذا ينبغي أن تكون لدى المتعلم مكتبة صُغرى تساعده، وأن تكون في دائرة عمل الأستاذ المعلم مكتبة عامّة كبرى، أو مكتبة متوسطة، ملحقة بمؤسسة تعليمية، أو بمسجد، مع إمكان الرجوع إليها ومراجعة مسائل العلم في كتبها.

ولا يصحّ أن يكون العلم مجرد حفظ أحكام تُلقَى على المتعلم، لا يعرف الطالب منها أكثر من نعم أو لا، وأن الحكم كذا، دون أن يكون قادراً على الشرح والبيان والتعليل والاثيان بالدليل، باستثناء بعض مسائل العلم التي لا تقبل الزيادة ولا الاجتهاد، ولا يوجد حولها وجهات نظر مختلفة.

أما كتاب الله فينبغي تلقيه مُجوداً بالسَّماع، والمتابعة بالأداء، لكن فينبغي فهمه بأسلوب التدبّر السليم، المقرون بالدليل وبالتعليل، مع إعمال الفكر بأناة وروية لاستنباط المفهومات والمعاني الدقيقة.

وكذلك أحاديث الرسول ﷺ فينبغي تلقيها بالضبط، وحفظ قدرٍ مناسب منها، ثم فهمها فهماً تدبّرياً مقروناً بنظرات شاملة لكل ما يتعلّق بالمدرّس منها أو له به صلة من قرآن كريم وسنة مطهّرة، واجتهادات لأئمة علماء المسلمين، مع معرفة ما يتعلّق بها من مقررات العلوم الكونية والطبيعية.

إن الأحكام التقريرية المجردة عن أدلتها وحكمها من شأنها أن تُدرّب الذاكرة على الحفظ، وأن تُعطل في الفكر قدرات الفهم والاستنباط، والنظر إلى القضايا من جوانبها المختلفة، وأن تُعطل في الفكر القدرة على إدراك الأدلة، وربطها بالأحكام التي دلت عليها، وأن تُؤلّد الجمود التعصبي لبعض



الآراء الاجتهادية الضيقة التي هي نتاج مذهبٍ مُعَيَّن، أو نظراتٍ مجتهدٍ خاصٍ من الأقدمين أو من المعاصرين، على الرُّغم من وجوب احترام الآراء الاجتهادية للأئمة المشهود لهم بالإمامة من جمهور علماء المسلمين، ولكن هذا الاحترام لا يَصِحُّ أن يَصِلَ إلى حدِّ التنزيه عن الخطأ، واعتقاد العصمة في الفهم والاستنباط، لأيِّ إمامٍ مرموقٍ مُتَّبِعٍ، فالعصمة البشرية في أحكام الدين لَيْسَتْ إِلَّا لرسول الله ﷺ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد عصمه بالوحي وبمتابعة اجتهاداته المأذون بها بالتصويب.

- ٤ -

وصايا للمدرس ينبغي له أن يتعهد مراعاتها ما أمكنه

الدروس التعليمية والإرشادية والنُصحية والوعظية وغيرها ينبغي للمدرس أن يتعهد ما استطاع وهو يقوم بمهامه فيها ما يلي:

١ - اتّخاذ ما يلزم لجذب انتباه المتلقّي خلال الدرس لما يُوجّه له.

٢ - على المدرّس أن يُوجِدَ الدّافع للتعلّم ومتابعته بالوسائل التي تُحَبِّبُ إِلَيْهِ دراسةَ علومِ الدّين، والعلومِ المساعدة على دراستها، وعلى حُسن فهم النصوص الدينية، والاستنباط منها.

٣ - الإيضاح الكافي للإفهام بقدر حاجة المتلقّي دون زائدٍ عليها، فالإيضاح الزائد عن حاجة المتلقّي مُملٌّ له، وربما أضجره.

٤ - التّأني في العطاء لتمكين المتلقّي من ابتلاع ما يتلقّاه مَصًّا، لا عبًا ولا تَجْرُعًا، وتمكينه من اختزانه، حتّى يتمثّله، كما يتمثل الجسمُ السليمُ الغذاء الذي يَدْخُلُ إلى المعدة مَمْضُوعًا هنيئًا مريئًا.

٥ - التكرير بمقدار الحاجة إلى تثبيت المعرفة في خزانة الذاكرة، ثم

تمثلها في النفس والسلوك الظاهر والباطن .

٦ - العطاء المقترن بحلاواتٍ وجمالياتٍ ومشهياتٍ فكريةٍ ولفظيةٍ، تُحَبِّبُ إلى النفس الواردَ الفكريَّ إليها، والاحتفاظ به، ثم الانتفاع بما يهدي إليه .

٧ - ضرورة التلاؤم بين مستوى العلم ومستوى قدرات المتعلم على التعلم واستيعاب مسأله .

٨ - العطاء المقترن بما يُرضي العواطف الشريفة الهادئة، ويغذيها بالغذاء الذي يُقوِّي قُدْرَاتِهَا الموجهة للعمل المفيد .

ولا يُطْلَبُ في الدرس إثارة الانفعالات العاطفية التي تندفع بقوةٍ على غير إدراكٍ واعٍ للأمر، ما لم يُقْصَدَ ذلك في بعض الأحوال التي يُريدُ المدرسُ أن يجعلَ الدرسَ فيها بديلاً للخطبة، بل يُطْلَبُ في الدرس تقوية العواطف التي إذا تحركتْ بوعيٍ وبصيرةٍ وحكمةٍ وتقديرٍ لعواقب الأمور .

فالعواطف الراسخة العميقة الرصينة، الفاعلةُ بهدوءٍ ورويةٍ، هي التي تعملُ بدأبٍ متلاحقٍ، لبناء الكُبرىاتِ التاريخيةِ الإنسانيةِ، من علمٍ، وظاهراتٍ حضاريةٍ، وجهادٍ كبيرٍ، وبناءِ أمةٍ .

٩ - العطاء المقترن دوماً بالتوجيه لضرورة تطبيق العلم الديني بالعمل، مع الربط بالواقع في حياة الناس .

ومن المفيد تعليقُ بعضِ المسؤوليات الإصلاحية في المجتمع، بأحادٍ أو جماعات من المتلقين .

١٠ - على مُقدِّمِ العطاء أن يتعرَّفَ دوماً على مقدارِ فهمِ المُتلقينِ، ومقدارِ استجابتهم الفكرية والنفسية، ومقدارِ استيعابهم للمسائل، ومقدارِ ما

اختزنوه منها، أَنَا فَنَآ، أَوْ أَنَا ثُمَّ أَنَا، مع استرجاع ما سَبَقَ اختزانه منذ زمن .

١١ - التدرُّج في البناء المعرفيِّ، وفي التربية الفكرية والنفسية والجسدية، كالتدرُّج في بناء المباني الحسّية، وكالتدرج في تربية فسائل الأشجار مع نموّها الطبيعيّ المتدرج، وتعهُّدها حتى تكون ثمرة ذات عطاءٍ وفير، وأكُل كثير.

١٢ - تدريبُ المتلقّي على أن يُعطي ما تلقّاه، في دروس لمن هم دونَه علماء وتربيّة، مع ضرورة محافظته على دوام تلقّيه في دروس شيخه ومربيّه .

١٣ - أن يكون المدرّس المربّي بمثابة الطبيب الذي يبحث عن العلل وأسبابها، ليكون حَسَنَ المعالجة، فَعِلُّ النُفوس لا بُدَّ أن تكون لها عوامل وأسبابٌ إذا أدركها المدرّسُ كان أقدر على معرفة العلاج التربوي الملائم .

١٤ - أن يتّسع صدر المدرّس للسؤال والجواب والمناقشة والاعتراض، وأن يعالج كلّ ذلك بعقل ورُشد وحكمة .

١٥ - عقدُ التآخي بين المنتظمين في الحلقات، وتكوين جمعيات منهم ذوات أنشطة اجتماعية، تتعاون على البرّ والتقوى وعمل الخير، والاشتراك معهم في رحلات جماعية، تنعقد بينهم فيها روابط أُخوة، ومُشاركاتٍ تَعَاوُنِيَّة، كما كان الرسول ﷺ مع أصحابه في أسفاره ورحلاته الجهادية وغيرها كالحج والعمرة، وقد اتبعها أئمة المسلمين من بعده علماء ومربين .

١٦ - تشجيعُهُم على حفظ القرآن وحفظ مقدارٍ وافرٍ من أحاديث الرسول ﷺ، وتكوين جمعياتٍ منهم لتحقيق هذه الغاية . وإعداد مسابقات بينهم لتمييز المتفوقين ومنحهم جوائز تشجيعية وامتيازات تقديرية .

١٧ - أن يكون المدرّس أُسوةً حسنةً في حياته لكلِّ مَنْ يتلقّى عنه، وأن يَعْمَلَ بوصية عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه التي قال فيها كما ذكروا :

(مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ. وَمُعَلِّمٌ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ بِلِسَانِهِ فَحَسْبُ).

وَأَنْ يَعْمَلَ بِوَصِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ الَّتِي قَالَ فِيهَا:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ      هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ  
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى      كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ  
وَتَرَاكَ تُصَلِّحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا      أَبْدَأْ وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمٌ  
إِنْدًا بِنَفْسِكَ فَانْهَاهَا عَنْ غَيْهَا      فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ  
فَهَنَّاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ وَيُهْتَدَى      بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ  
لَاتْنَهُ عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلُهُ      عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

١٨ - مراعاة طُرُقِ التَّدْرِيسِ النَّافِعَةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا عُلَمَاءُ التَّرْبِيَةِ، بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، وَعَلَى وَفْقِ مَقْتَضِيَّاتِ الأَحْوَالِ الَّتِي يُلْقَى فِيهَا الدَّرْسُ.

فَمِنْهَا الدَّرْسُ الَّذِي يَكُونُ فِي مَجْلِسِ دَوْرِي يَعْقَدُ فِي أَوْقَاتِ دَوْرِيَّةٍ مُنْتَظِمَةٍ، وَالدَّرْسُ الَّذِي تَسْتَدْعِيهِ مَوَاقِفٌ عَابِرَةٌ، أَوْ أَحْوَالٌ طَارِئَةٌ فِي مَسْرَآتِ أَوْ أَحْزَانِ، أَوْ مَنَاسِبَةٌ مِنَ المَنَاسِبَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الدَّرُوسِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ ضَمَّنَ نِظَامِ دَوْرِيٍّ مَا يَلِي:

المشال الأول:

رَوَى التَّرْمِذِيُّ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ:

كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ لِي:

«يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى»

لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَيَّ أَنْ يَضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي:

«إِحْفَظِ اللَّهَ تَجِدَهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُحِطِّتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»<sup>(١)</sup>.

المثال الثاني:

روى البخاري في صحيحه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ غَيْرُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فَقَالَ: «مُعَاذُ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

ثم سار ساعة فقال:

«يَا مُعَاذُ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

قال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيَّ عِبَادِهِ؟».

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قال: «حَقُّ اللَّهِ عَلَيَّ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ

سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ:

«يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ».

(١) انظر: الأربعين للنووي.

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ .

قال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟» .

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قال: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ» .

\* \* \*

## الوسيلة الثالثة

### المحاضرة

- ١ -

#### التعريف

المحاضرة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ المشتملِ على بحثِ علميٍّ هاديءٍ، مُعدٌّ بأنّاءٍ وتفكيرٍ ورجوعٍ إلى مصادر الموضوع المبحوث فيه، الفكرية، أو التجريبية، أو الاستنباطية، أو أقوال وآراء العلماء السابقين، ومُستندٌ إلى أدلّةٍ تدعّمُ المقولاتِ المعروضةَ فيه، والنتائج التي توصلَ إليها الباحث.

- ٢ -

#### هدف المحاضرة

وهدف المحاضرة إقناع أهل الفكر والعلم بالمقولات المشتملة عليها، رجاءً تبنّيها والعمل على توسيع دائرة انتشارها، فهي تُعدُّ القيادات الفكرية المتعلّمة الواعية، مع ما فيها من نفعٍ عامٍّ لكلِّ مستعدٍّ لأن يستفيد من مقولاتها وما اشتملت عليه من معارفٍ وبحوثٍ.

- ٣ -

### مستويات المحاضرات

وللمحاضرة مستويات متفاوتة دقة وعمقا، وجمعا واستيعابا. وحسن تنظيم معرفي شجري، وأسلوبا بيانيا.

فمنها ما يناسب طلاب الجامعات، ومنها ما يناسب كبار المثقفين، ومنها ما يناسب أساتذة الجامعات، ومنها ما يناسب المتخصصين الكبار في علم من العلوم.

والمحاضرات العلمية العالية من شأنها أن تشتمل على بحوث متقنة رائدة، أو بحوث مبتكرة في أفكارها، أو في جمعها واستيعابها، أو في تقديمها مفاتيح بحوث جديدة أبار.

- ٤ -

### كبرى المهمات

ومن كبرى مهمات المحاضرات العاليات أن يعتني أصحابها بتأسيس المعرفة الرصينة الصحيحة، لدى دوائر المثقفين والأساتذة، وكبار طلاب الجامعات الذين يصدرون المعرفة الصحيحة للأجيال من دونهم، ويعلمونها للجماهير ذوات الدوائر الواسعة في المجتمع.

- ٥ -

### إعداد المحاضرة وأداؤها

والمفروض في المحاضرة أن تعد إعدادا تاما، وأن تكتب كتابة محررة بدقة.



والأصلُ فيها أن يؤدِّيها المحاضرُ جالساً وبأناة مع حيويَّة لإصغاء المتلقين ووعْيهم .

وقد يؤدِّيها واقفاً إذا وجدَ الحاجة داعيةً للوقوف، ولا سيما حين استخدام وسائل الإيضاح .

- ٦ -

### الأسئلة والمناقشات والاعتراضات

والمفروض في المحاضر أن يتسع صدره للأسئلة والإجابة عليها، وللمناقشة البتأة المنصفة، وللاعتراض الذي يحمل وجهة نظر ذات اعتبار ما، وأن يُعالج كل ذلك بعلم وهدوء وعقل ورُشد وحكمة، وأن يحترم السائلَ والمناقشَ والمعارض، وأن لا يُقابلَ واحداً منهم باحتقارٍ أو هُزءٍ وازدراءٍ وسُخريَّة، إلا إذا تيقن أنه مُشاغب يريد أن يُفسدَ جوَّ المحاضرة لعداوةٍ شخصيَّة، أو خلافِ حزبيِّ، أو مذهبيِّ، فيُحسنُ حينئذٍ إحالته على جلسةٍ خاصَّة تُعقدُ لمناقشة ما طرحه وأنه مُستعدُّ لذلك بحضور نُخبَةٍ من أهل الاختصاص .

- ٧ -

### عنوان المحاضرة

والمفروض في عنوان المحاضرة أن يكون موجزاً جذاباً في صيغته، مع شموله لكليَّات الموضوع الكبرى .

- ٨ -

### خطبة في محاضرة

بعض المحاضرين قد يكون له في محاضرتَه هدفٌ خطابيٌّ، فيدمج

محاضرته المعدة إعداداً متقناً بأنفاس ومشاعر ودقائقٍ خطابية، ويعرضها أو يعرض بعض مقاطعها عرضاً خطابياً، وهو بهذا يريد أن يؤدي في محاضراته أهداف محاضرة وأهداف خطبة معاً، وهذا قد يكون مقبولاً أحياناً.

- ٩ -

### نفع المحاضرة الدينية

ويظهر نفع المحاضرة الدينية بأنها وسيلة لإعداد القادة والأئمة المبلغين والموجهين للعامة، الذين يحملون رسالة الدعوة العامة، والتّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للجماهير على اختلاف مستوياتهم الثقافية والفكرية.

\* \* \*

## الوسيلة الرابعة

### الحديث والمحادثة

- ١ -

#### التعريف

الحديث: هو الخطابُ الموجهُ من متكلّم لشخص أو أكثر في مجلس أو موقف مساوٍ لمجلس أو موقف المتحدّث معه، دون إشعارٍ بأي استعلاءٍ بعلم، أو تجرّبة، أو مكانة اجتماعية، أو سُلْطَة ما، ولو كان المتكلّم في الواقع متفوّقاً أو ذا سلطة أمرٍ ونهيٍ وجزاءٍ بثوابٍ أو عقابٍ.

والحديث بالمواجهة قد يَجُزُّ إلى المحادثة، وعلى المحدث أن يتّسع صدْرُهُ للمحادثة الجادّة المفيدة، فما تُفيدُهُ المشاركة في الحديث قد لا يَحْصُلُ إذا استأثر المحدثُ بالكلام، ولم يتركْ لجلسه فُرْصَةً لِيُعَبِّرَ عن أفكاره وخواطره وما لديه من معلومات.

- ٢ -

#### القرآن حديث بين الله وبين عباده

ونظراً إلى قيمة تأثير الحديث في النفوس، وإلى أهميّة تأديّة رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة التّضحّح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، بأسلوب الحديث الذي قد يفتح مجالاً للمحادثة، وصف الله عز وجل القرآن بأنه حديث بينه وبين عباده، على سبيل الحديث مع كل فرد أحياناً، أو على سبيل الحديث مع الجماعة أحياناً أخرى، فقال الله عز وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَشِعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فََمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٦٣﴾ .

أي: ومن يحكم الله عليه بالضلالة فليس له بعد الله من يستطيع أن يحكم له بالهداية.

فالقرآن أحسن الحديث، ومع اختلاف أساليبه وصيغته البيانية فهو متشابه متماثل في الحسن.

والقرآن مثاني، أي: فيه محاذيف مطوية بين جملة تدل عليها لوازم فكرية، وإشارات لفظية تُفصح عنها، مثل: ﴿ فقلنا أضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا... ﴾ (البقرة/ ٢).

أي: فضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت.

وقال الله عز وجل في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ .

فوصف الله آيات كتابه بأنها من نوع الحديث، تطفأ منه بعباده، وتودداً لهم وتكريماً، وحتى لا يكون في نفوسهم داع للنفور، فربهم الذي يمد لهم دواماً بعباءاته يُحدّثهم بآيات كتابه.

وأمر الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ بأن يُحدّث بنعمة ربه، وهي نعمة

القرآن، وَنِعْمَةٌ مَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَى لَهُ فِي سُورَةِ  
(الضّحىٰ/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

فكان الرسول ﷺ يُوجِّه معظم أقواله في دعوته وتعليمه ونصحه  
وإرشاده بأسلوب الحديث لفردٍ أو لأكثر.

- ٣ -

### أهمية الحديث

إن توجيه الكلام بأسلوب الحديث الهادى يُعطي مَنْ يُوجِّه له مجالاً  
لأن يتفكر بنفسه منفرداً، أو مع قرين له يودّه، والتفكير الفرديّ أو مع قرين  
ذي فكرٍ ورأي، يَسْتَخْرِجُ من طاقات النفس كُلَّ قُدْرَاتِ التَّفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ لدى  
المتفكر، ولا سيما إذا كان ذلك خلال أوقاتِ الراحةِ التامة، والصفاء  
الذهني، التي تستتير فيها البصيرة، وتُضِحُ فيها الرؤيَّةُ بجلاء، دُونَ أَنْ تُغَشِّيَ  
عليها مؤثِّراتٌ جماعيةٌ، تتدخلُ فيها عواملٌ مختلفة تمنع عن فكر الفرد الرؤيَّةَ  
السليمة، الخالية من شوائب الأهواء، والتقليد الأعمى والضغط الجماعي،  
والاعتماد على رؤية الآخرين الذين قد يراهم أعلم منه، أو أكثر فطنةً وذكاءً،  
أو يرى أن من المستبعد اتفاق العدد الكثير من الناس على خطأ أو باطل.

ولهذا قال الله عز وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) خطاباً  
لرسوله ﷺ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَجْدِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشئًى وَفَرْدِي ثُمَّ نَنْفِكُوا مَا  
بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

من حِجَّةٍ: أي: من جنون كما اتَّهَمَهُ بعضُكم ظلماً وعدواناً.

إنَّ معظمَ الناسِ في إطارِ التفكيرِ الجماعيِّ، يفقدونَ من قُوَى تفكيرهم مقاديرَ بحسبِ ما لديهم من رغبة في إلقاءِ تَبَعَاتِ التفكيرِ على غَيْرِهِمْ، إمَّا لأنَّهم لا يُريدونَ إجهادَ أفكارهم، وإمَّا لثقتهم بِحُسْنِ الرَّأْيِ الذي يقدِّمه من لهم في العادة تَمَيِّزٌ فِكْرِيٌّ بين الجماعةِ فهم يَتَّبِعُونَهُمْ تقليداً.

وقد يستخدم الواحد من العَشْرَةِ من طاقاته التفكيرية بنسبة واحدٍ من عشرة فقط، إن لم يُعْطَلْهَا كُلِّياً، وقد يستخدم أكثر من ذلك، لِكِنْ يَنْدُرُ أَنْ يستخدمَ كُلَّ طاقاته التفكيرية.

حتَّى غدا مُتَدَاوِلاً لدى كثيرٍ من الباحثين المُدَقِّقين في دراسة نفسيَّة الجماعة، ولدى كثيرٍ من مراقبي الجماعاتِ ومجالسِها، أَنَّ عَقْلَ الجماعةِ ضمن التفكير الجماعي يُشْبِه عَقْلَ قَطِيعٍ، فَهُوَ تَبَعِيٌّ لِمَنْ يَقُودُهُ، وَيَتَقَبَّلُ الدَّعَايَا الإعلامية التي لا تعتمد على حقائق، وَيَنْقَادُ بِغَيْرِ وعْيٍ وَلَا رُؤْيَةٍ واضحة، لذوي دَهَاءٍ وَمَكْرٍ وَمَصْلَحَةٍ يُوجِّهونَ الحركة الفكرية في الجماعة لتحقيق مصالحهم.

ومن جَرَّبَ المجالسَ الجماعية على اختلاف مستوياتها يُدْرِكُ أن مَوْجَهَ الفكر فيها شخصٌ أو اثنان أو أكثر قليلاً اتَّفَقَتْ مصالحهم، أمَّا الآخرون ففي أكثر الأحوال لا يُشاركون في الإجهاد الفكري، والمناقشاتِ الجوهرية الجادة ولا يُهْمُهُمْ أَنْ يُجْهِدُوا أَنْفُسَهُمْ، بل تكون مُهْمَتُهُمْ في المجلس الموافقة والتوقيع على المقررات التي تُطْرَحُ فيه، بعد استرضائهم بمنافع ومصالح تُيسِّرُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ أولي الأمر التنفيذ.

وتَبَدُّوْا أَمِيَّةَ الحَدِيثِ أَنْ من طبيعته فتح مجال المشاركة والمحادثة التي تُشْبِعُ رَغْبَةَ المجلس في أن يُحَادِثَ وَيُقَدِّمَ رَأْيَهُ، فهو عندئذٍ يَسْتَدْعِي كُلَّ طاقاته الفكرية لكي يشارك بحديثٍ ما، وهذا الاستدعاء يجعله أكثر استعداداً

لفهم الحديث الذي يتلقاه من جلسيه المحدث له .

وإذ لا يشعر بأن مُحَدِّثَهُ يستعلي عليه بفضلِ علمٍ أو ذكاءٍ أو مكانةٍ اجتماعيةٍ أو سلطةٍ، فإنه يفتح كلَّ أبواب نفسه وفكره لاستقبال حديث جلسيه، ليجد فيه ما يمكنه المشاركة فيه بالمحادثة، وهذا من شأنه أن يجعله أكثر فهماً لأقوال محدثه، وأصحَّ نظراً للقضية المطروحة فيها، وأجلى بصيرة، فَشَهْوَةُ المشاركة بالكلام والرأي موجودة لدى كثير من الناس .

إنَّ معظم قناعات الناس، ومعظم المفاهيم التي تنتشر بينهم إنما تَتِمُّ عَنْ طريق الحديث والمحادثة في مجالس صغرى مؤلَّفة من اثنين فأكثر .

وبالحديث والمحادثة كان للدعوة الإسلامية انتشار عظيم في شعوب الأرض .

- ٤ -

### الأحوال التي يظهر فيها الأثر الأكبر للحديث

ويظهر الأثر الأكبر للحديث في نفس المتحدث إليه في الأحوال التالية :

١ - أن يكون عرضُ الحديث عرضاً وُدِّيّاً، مشعراً بأن الدافع إليه مشاعر الإخاء والمحبة والصِّفاء، وتبادلِ التناصح والتواصي بالحق، والتواصي بما هو خَيْرٌ جالبٌ للسعادة، ودافع للشقاء، وإن خالف الهوى وشهوات النفوس، إلاَّ أنَّ الالتزام به قد يحتاج صبراً، لكنَّ هذا الصَّبْرَ يجلبُ سعادةً عظيمة وخيراً كثيراً .

٢ - أن يكون الحديث على مقدارٍ ما لدى فكر المتحدث إليه من قُدراتِ فهم، ومقدارٍ ما في نفسه من استعداد للاستجابة، فقد يكون لدى

الإنسان استعداداً للاستجابة لموضوع الحديث بمقدار عشرة في المئة، فليقتصر المحدث على التركيز على هذا القدر، فإذا حصلت الاستجابة له، جرّ وراءه إمكانيةً استجابة لمقدارٍ آخر، وهكذا حتّى تتمّ الاستجابة لكلّ عناصر الموضوع، بأسلوب التدرّج شيئاً فشيئاً.

٣ - أن تستدعي الحديث مناسبةً ملائمةً في المجلس تُشعرُ بأنه جاء تلقائياً، ولم يكن مُعدّاً للمجلس إعداداً سابقاً لانعقاده.

وإذا كان الحديث مُعدّاً إعداداً سابقاً، فينبغي أن لا يكون بتوجيه إلزاميّ، بل يُعرضُ على سبيل المشاركة في الرأي، أو على سبيل تقديم معلوماتٍ يؤمن بها المحدث دون أن يُلزمَ غيره بها، بل يُعرضُها عليه ليتفكّرَ فيها، وهو حرٌّ في أن يقبلها أو يرفضها.

٤ - أن يشتمل الحديث على عرض الدواعي التي جعلت المحدث يؤمن بأفكاره التي يُقدّمها في حديثه.

٥ - أن يلتزم المحدث الصدقَ وتحريّ الحقّ فيما يُعرضُ من أفكار ومفاهيم وأخبار وأقوال وقصص وحوادث، وأن ينسب المرويّات إلى رواتها إذا كان يعلمُ مَنْ رواها، وإلاّ اكتفى بأن يقول: سمعتُ من بعض الناس كذا، إذا كان في الحديث به فائدة، وإلاّ أعرض عنه ولم يُحدّث به.

٦ - أن لا يكون المحدث كثير اللغَطِ مهذاراً يُحدّث بكل ما سمع، فحسب المرء كذباً أن يُحدّث بكلّ ما سمع، كما جاء في كلام الرسول ﷺ، وقالوا في الحِكم: مَنْ كَثُرَ لَعَطُهُ كَثُرَ غَلَطُهُ.

فينبغي للمحدث دوماً أن يتتقى الصحيح من الأخبار والمرويّات التي يعلمُ صدق رواتها، أو أن تكون من مشاهداته أو خبراته.

٧ - أن يكون المحدث كثير الإحساس بأحوال من يتحدّث إليه، فإذا



وَجَدَهُ مُضْغِيًّا لَهُ مُسْتَمْتِعًا بِمَا يُحَدِّثُهُ بِهِ تَابِعَ حَدِيثَهُ مِنَ الْمَسَالِكِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي يَرَاهُ مَعْجَبًا بِهَا، حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ قَدْ بَدَأَ يَتَمَلَّمُ أَوْ يُعْرِضُ فَلْيَكُفَّ بِرَفْقٍ عَنِ الْمَتَابَعَةِ، وَيُخَسِّنُ أَنْ يَسْتَدِرَّ مِنْهُ الْمَشَارَكَةَ بِالْحَدِيثِ، لِيَهْتَبِلَ مِنْ خِلَالِ حَدِيثِهِ الْمُنَاسِبَةَ الْمَلَائِمَةَ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَعْضِضَهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَمَفَاهِيمٍ، فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ التُّضْحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

٨ - أَنْ يَكُونَ الْمَحَدَّثُ حَكِيمًا فِي اخْتِيَارِهِ نَوْعَ الْحَدِيثِ الَّذِي يَحَدِّثُ بِهِ، فَيَخْتَارُ لِمَنْ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ مَا يُوَثِّرُ فِيهِ اقْتِنَاعًا، وَأَنْ يَتَدَرَّجَ مَعَهُ بَدَأً مِنَ الْأَسْسِ وَالْأَصُولِ الَّتِي يَجْعَلُهُ يُشَارِكُ فِي التَّحَدَّثِ بِهَا، فَإِذَا وَجَدَهُ اسْتَأْنَسَ وَأَنْشَرَ صَدْرَهُ لِسُلْسَلَةِ الْحَدِيثِ انْتَقَلَ بِهِ إِلَى الْفُرُوعِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَا يُرِيدُ نُصْحَهُ بِهِ، أَوْ إِرْشَادَهُ إِلَيْهِ، فَيُحَدِّثُهُ بِهِ اسْتِكْمَالًا لِسُلْسَلَةِ حَدِيثِهِ السَّابِقِ، دُونَ أَنْ يُشْعِرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ سَاقَهُ تِلْكَ الْمَقْدَمَاتِ لِيَصِلَ إِلَى نُصْحِهِ حَوْلَ مَا يَعْلَمُ مِنْ عُيُوبِهِ، وَسَقَطَاتِهِ، وَزَلَّاتِهِ، أَوْ مَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَاتِهِ.

٩ - أَنْ لَا تَتَحَوَّلَ الْمَحَادَثَةُ الْوَدِّيَّةُ الْأَخْوِيَّةُ إِلَى مَجَادَلَةٍ تَجَرُّ إِلَى مَنَازَعَةٍ وَمَشَاتَمَةٍ.

فَإِذَا بَدَأَتْ تَتَحَوَّلُ إِلَى مَجَادَلَةٍ فَعَلَى الْمَحَدَّثِ النَّاصِحِ عِنْدئذٍ أَنْ يُعْلِنَ أَنَّ الْحَدِيثَ قَدْ خَرَجَ عَنْ دَائِرَتِهِ التَّبَادُلِيَّةِ التَّلَقَائِيَّةِ، إِلَى مَجْلِسٍ جَدَلِيٍّ، وَالْمَجْلِسُ الْجَدَلِيُّ لَا تُسْمَعُ فِيهِ الْمَشَاتَمَةُ وَالْمَنَازَعَةُ الْأَنَانِيَّةُ.

فَإِذَا كَانَ الْمَحَدَّثُ أَهْلًا لِعَقْدِ مَجْلِسٍ جَدَلِيٍّ، فَلْيَقْتَرِحْهُ، وَلْيَشْتَرِطْ عَلَى جَلِيسِهِ الَّذِي يَبَادُلُ مَعَهُ الْحَدِيثَ أَنْ يَخْضَعَ الطَّرْفَانِ لِأَصُولِ الْمَنَازَعَةِ وَقَوَاعِدِهَا وَأَدَابِهَا.

١٠ - أَنْ لَا يَصُوبَ الْمَحَدَّثُ كُلَّ مَعْلُومَاتِهِ حَوْلَ مَوْضُوعِ الْحَدِيثِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، لِيَتْرَكَ لِنَفْسِهِ مَجَالًا لِإِضَافَاتٍ جَدِيدَةٍ كُلَّمَا أَعَادَ

التحدّث حول هذا الموضوع في مَجْلِسٍ آخَرَ، فهذا من أساليب القرآن المجيد  
البيانية التربوية .

١١ - من المستحسن أحياناً أن يَطْرَحَ المحدثُ بداياتِ حديثه على  
شكلِ قضيةٍ أو مُشكلةٍ تحتاجُ إلى بيانٍ أو حلٍّ، لِيَسْتَيْزِرَ ابتداءً اهتمامات من  
يحدثهم، فَيَسْتَحِثُّ أفكارَهُم للمشاركة بما عندهم من بيانٍ للقضية، أو حلٍّ  
للمُشكلة التي طرحها عليهم .

حتّى إذا انتهوا إلى عَرَضِ ما لديهم من بيانٍ أو حلٍّ، ثَبَّتَ ما رآه صواباً  
وَقَرَّرَهُم عليه، وأثنى عليهم بما قدّموا، ثُمَّ أضاف من عنده التَّصَوُّيَّاتِ  
والإضافات المناسبة التي يراها على سبيل المشاركة، لا بأسلوب التَّعْلِيمِ  
المُشْعِرِ بالتَّفَوُّقِ .

ومن الخير دواماً تقديم الأفكارِ والمفاهيم مُقترنةً بأدلتها .

\* \* \*

## الوسيلة الخامسة

### مجالس السؤال والجواب

- ١ -

#### البيان العام

من وسائل الأداء البياني مجالسُ السؤال والجواب، ولهذه الوسيلة قيمةٌ تأثيريةٌ عظيمةٌ، لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقَّونَ الإجابات على أسئلتهم ممَّن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، وذلك لسببٍ أو أكثر من الأسباب التالية:

السبب الأول: أن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادةً على من يحترمونه، ويُقدِّرونه، ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهماً دقيقاً، فإذا كان لديه علمٌ بالأجوبة عليها أجاب، وإلا طلب تأجيل الإجابة، حتى يستوثق من الجواب الصحيح، أو أحال على متخصص كُفءٍ في نوع العلم الذي يتعلَّق السؤال بمسألةٍ من مسائله.

فهم إذا تلقَّوا منه الجواب تلقَّوه تلقَّفاً، لأنَّ كلَّ أبواب أفكارهم ونُفوسِهِم متفتحةٌ لتلقِّي الإجابة منه.

السبب الثاني: أن طارحي الأسئلة، إذا كان دافعهم إلى طرح أسئلتهم ما يُعانونه من مشاكل فكرية أو نفسية أو اجتماعية في حياتهم، فلا بدُّ أن يكونوا مُتلهِّفين لمعرفة الحلِّ الأمثل لها، فيفتحون كلَّ أبواب قدراتهم الفكرية

ومشاعرهم النفسية، لتَلَقَّفِ الإجابات عليها، والنظر فيها بإمعان.

وحين تكون الإجابات عليها مقتبسةً من أحكام الدين باجتهادات سليمان مشرقات واضحات الأدلة، فإنَّها تقَعُ من نفوسهم في مواقع الرضا والتسليم والافتناع، وقد يتفكرون في حكمة الله من أحكام دينه، وهم يستمسكون بالمعرفة التي ظفروا بها، وحين تُقدِّمُ لهم الأجوبة مُغلَّفةً بالحكمة والموعظة الحسنة، فإنَّها تكون أرجى لأن يُقبَلُوا ما فيها من نُصح وإرشادٍ، وأنَّ يأخذوا ما اشتملت عليه من أحكام بقبولٍ وتسليم تامين كاملين، مع الاستعداد النفسي الصادق للتنفيذ، ابتغاء رضوان الله عزَّ وجلَّ، ولو خالف أهواء نفوسهم وشهواتها ومطالبها.

السبب الثالث: أنَّ طارحي الأسئلة إذا كانوا لا يُعانون من مشكلة، ولكن يريدون اكتساب معرفة، حول ما طرحوا من أسئلة، فهم أيضاً في حالة استعدادٍ فكريٍّ ونفسيٍّ لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها.

وهذا الاستعدادُ أمرٌ مهمٌّ جداً لتَلَقَّفِ المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك.

فيجب على حامل الرسالة أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حدٍّ ممكن.

السبب الرابع: أنَّ حاضري مجالس السؤال والجواب لا بُدَّ أن تثير الأسئلة المطروحة فيها انتباههم لمعرفة الأسئلة المطروحة. إذ يشعرون بأن الدافع إليها في الغالب أمرٌ مهمٌّ في نفوس السائلين، وأن تثير فيهم الرغبة في معرفة الجواب، وقد تنزع نفوسهم إلى المشاركة في الإجابة عليها كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تفتِّح أذهانهم لمعرفة الجواب، من المتصدِّر للإجابة، العالم بأجوبة المسائل المطروحة.

وعندئذٍ يتلقَّون المعرفة باستقبالٍ حسنٍ، إذا لم يكن لديهم اعتراض ما

عليها، ويختزنونها برغبة منبعثة من نفوسهم، ولا يجدون في نفوسهم أيَّ عقبة تصرفها عن ذلك .

ثم تدفعهم الرغبة إلى الحديث عما ثبت في أذهانهم من الأسئلة والأجوبة عليها في مجالس مختلفة، فيزؤونها كما جرت في مجلس السؤال والجواب .

- ٢ -

### مسؤولية حامل الرسالة

فعلى حامل الرسالة الدينية، الدعوية، أو التَّصْحِيحِيَّة والإرشادية، أن يعقد مجالس للسؤال والجواب، أو أن يجعل في آخر دَرَسِهِ حصَّةً من الزَّمن للسؤال والجواب، وأن يستثمر هذه الوسيلة المؤثرة النافعة من وسائل الأداء البياني، للقيام ببعض واجبات وظيفته التي يضطلع بأعبائها .

وعليه أن يكون حكيميا، كثيرَ العلم بما يتصدَّر للإجابة عليه، حاضر الذهن يَقْظاً، حَسَنَ التصرُّف، واسعَ الصَّدْر حليماً، مُحْتَرِماً لأسئلة السائلين ولو كانت ضحلةً وساذجةً، وفي هذه الحالة يَتَلَطَّفُ بالسائل ولا يُشْعِرُهُ بما يجرح مشاعره، وعليه أن يكون قادراً على البيان المفهم بأسلوب حسن .

وإذا لم تَخْضُرُهُ الإجابة الصحيحة على السؤال، فلا يجوز له أن يُجِيب بغير علم، وليَحْذَرْ أشدَّ الحذر من ذلك، فإنَّ أجاب بغير علم عرَّض نفسه للسقوط من الاعتبار والاحترام والتقدير بين الناس، وعرَّض نفسه لسخط الله وغضبه، لدخوله حينئذٍ في فئة من يَضِلُّ ويُضِلُّ، ويكون ممَّن اتَّخذهم الناس رؤساءً جُهالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا، كما جاء في أقوال الرسول ﷺ التي سبق الاستشهاد بها .

وإذا كان في مجلسه بعض أهل العلم فيَحْسُنُ أن يُحيل عليهم السؤال،

فلعلّ عند بعضهم علماً بالجواب عليه، فيتولّى منهم من استعدّ للمشاركة وقبّل الإحالة تقديم ما لديه من علم. وإلاّ وعدّ بمراجعة المسألة والإجابة عليها في جلسة لاحقة إن شاء الله.

ولا مانع من أن يعترف بواقع حاله بالنسبة إلى هذه المسألة التي لم يحضّرهُ الجوابُ عليها، فيقول: نسيْتُ حكم هذه المسألة، أو لا أعلم، أو أنا في شكّ من الجواب، وسأبحثُ الأمر بعون الله ومشيتته.

وليتذكّر في نفسه دواماً أن الإمام مالكاَ إمام دار الهجرة، قد سُئِلَ عن مسائل كثيرة فأجاب على بعضها بما يعلم، وقال في بعضها الآخر: لا أعلم، ولم يستحي من جهله بها.

وليدكّر في نفسه دواماً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿... وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾

وقد كان كثير من الفقهاء لا يُجيبون على ما يُطرحُ عليهم من المسائل إلاّ إجابات مكتوبة، وبعد مراجعة في المصادر، ولو كانوا يعلمون الإجابة عليها ممّا هو في ذكراتهم.

وهكذا كان يفعل المفتون في دوائر الفتوى الرسميّة، في معظم بلدان العالم الإسلامي، ومنها جمعتُ كتُبُ الفتاوى.

ومن المستحسن إذا كانت الأسئلة مكتوبة أن يُنحَى المتصدّر للإجابة الأسئلة التي ليس لديه إجابات عليها بعلمٍ مؤكّد، وأن يجيب على الأسئلة التي يملك الإجابة الصحيحة الواضحة عليها، ثمّ يُعطي الوعد بالإجابة على الأسئلة الباقية في لقاء آخر إن شاء الله.

ثمّ يُعدُّ بأناة الإجابات الملائمات بالرجوع إلى المراجع، ثمّ يجيب

عليها في مجلس لاحق، إذا وجد لذلك سبيلاً.

- ٣ -

### خاتمة

إنّ مجالس السؤال والجواب مجالسٌ مفيدةٌ ونافعةٌ جدّاً، في نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحةً وجليّةً مُفَصَّلَاتٍ لا غموض فيها ولا التباس، وبشرط أن يكون المجيب على علم مؤكّد بالجواب الصحيح، وإذا كانت المسألة من المسائل الخلافية عند الفقهاء المعتمدين لدى جمهور المسلمين، فليس للمجيب أن يقطع جازماً بوجهة نظره، ولكن يقول: في المسألة خلاف بين العلماء، والرّاجح فيما أرى هو ما ذهب إليه فلان من الأئمة، وإذا كان يحضّره الدليلُ فليذكره.

وإذا كان له اجتهادٌ خاصٌّ فعليه أن يُبيّنه مع ذكر أدلّته عليه.

\* \* \*

الكتاب

- ١ -

الأمة الإسلامية أمة (اقرأ)

دلّتنا المفاهيم القرآنيّة على أنّ الأمة الإسلاميّة هي أُمَّةٌ (اقرأ) وذلك بمقتضى أمرِ الله عزّ وجلّ لنبيّه محمّد ﷺ قائدها وأوّل مؤمنّيها ومُسلمّيها النبيّ الأمّيّ مُنْذُ بدء الوحي إليه بأن يقرأ، فقال له في أوّل بيان أنزل عليه: ﴿اقرأ﴾ وعرض جبريلُ عليه نَمَطًا من ديباج وقال له: اقرأ<sup>(١)</sup>.

وبما أنّ الرّسولَ لم يُؤمّرَ بعدَ ذلك بأن يتعلّم القراءة والكتابة، لثلا تروّج بين العرب فريّة أنّه يؤلّف القرآن اقتباساً من كُتُب الأوّلين ومسطوراتهم، فلا بُدّ أن نفهم أنّ الأمرَ بالقراءة التي تستلزم الكتابة بالقلم، أمرٌ موجّهٌ لعموم الأمة الإسلاميّة، المكلفة أن تتبّع الرّسولَ النبيّ الأمّيّ، فالأمر الذي يوجّه لقائد الأمة وإمامها هو أمرٌ موجّهٌ لها.

فالأمة الإسلاميّة مُطالبَةٌ بأن تتعلّم بالقلم، وتقرأ ما خُطّ بالقلم،

(١) ذكر ابن حجر في كتابه «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» وقع عند ابن إسحاق في مرسل عبيد بن عمير أنّ النبيّ ﷺ قال: «أتاني جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب قال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء» انظر (ص ٧١٨ من الجزء الثامن) عند شرح الحديث (٤٩٥٣).

النمط: نوع منسوج كالبساط. الديباج: ثوب سداه ولحمته من حرير.



ومطالبةً بأن تُدَوَّنَ وتُسَجَّلَ معارفها المنزلة عليها من ربها بالقلم، وتدوَّن وتسجَّل بالقلم المعارف التي تصل إليها بأي طريق من طرق المعرفة، وأي وسيلة من وسائلها، وأي أداة من أدواتها، لتكون المسطورات مُثَبِّتَاتٍ لعلومها ومعارفها، ومراجع لاستذكارها، ووسائل لنشرها بين القراء الذين يقرؤون المسطورات وكل مخطوطٍ بالقلم ويلحق بالقلم كل وسيلة تُثَبِّتُ بها رموز الكلمات، أو صور نطقها.

وقد أخذ المسلمون بهذا التوجيه الرباني، فكتبوا القرآن المجيد أولاً بأمرٍ من الرسول ﷺ، ثم كتبوا ما حفظوه من أحاديث الرسول ﷺ، ثم دوَّنوها في مدوناتٍ كبرى، ثم أخذوا يُفسِّرون آيات القرآن المجيد، ويشرحون أحاديث الرسول الكريم، ويكتبون ما يستنبطونه من مفاهيم، وما يجمعونه من آثار، وما يكتسبونه من معارف هي من نتاج وسائل المعرفة الإنسانية، واهتمُّوا بخدمة اللغة العربية خدمات جليلات، مُستنبِطين قواعدها، وجامعين معاني مفرداتها، لأن فهم اللغة هو المساعد الأول على فهم نصوص القرآن والسنة، واهتمُّوا أيضاً بتدوين أحداث سيرة الرسول ﷺ، وسير أصحابه الكرام، والتابعين لهم بإحسان، وتوسَّعوا في تدوين التاريخ توسعاً كبيراً.

ثم انطلقوا إلى اقتباس العلوم التي توصلت إليها الأمم من قبلهم، فألَّفوا فيها المؤلفات، وتوسَّعوا في البحث العلمي والتأمل والتجربة والابتكار، حتَّى كانت لهم مخطوطات من الكتب لا تدانيها مخطوطات الأمم السابقة لهم مُتَّفِقةً ولا مجتمعة.

وكان للمسلمين بذلك حضارة شاملة رائدة لشعوب الأرض جميعاً.

ثم أغارت على مخطوطات كتبهم الكثيرة جدًّا جحافلُ همجٍ جهلة، من شعوب الشرق (المغول والتتار) فأتلفتها، وألقت عشرات الألوف منها في دجلة.

وكذلك فعلت جحافل همج النصارى، إذ أغارت على مخطوطات كتبهم الكثيرة في الأندلس، فأحرقتها علناً، ولم تستجب لنداءات عقلاء النصارى، ومنهم بابا الفاتكان يومئذ.

- ٢ -

### الكتاب قديماً

وكان الكتاب قديماً كتاباً مخطوطاً بأيدي المؤلفين، ثم بأيدي النساخ، وكان مرجع الدارسين المتخصصين، باستثناء كتاب الله عزّ وجلّ، فقد كان جليساً كلّ قارئ وقارئة من المسلمين، الذين يحرصون على اغتنام الحسنات، بقراءته من المصحف، أو بتلاوته من الحفظ، وباستثناء بعض كتب الحديث، أو كتب السيرة والتاريخ.

أما كتب العلوم المختلفة عند المسلمين فكان لا يُزاول القراءة فيها إلا طلاب العلوم، الذين يتابعون ما يدرسون منها في الكتب المؤلفة فيها، بيد أن هؤلاء كانوا كثيرين جدّاً، إذا قورنوا بمتعلمي الشعوب الأخرى، إذ كانت الأمة الإسلامية هي رائدة العلم والحضارة، قبل الحروب الصليبية، وأثناءها، وبعدها قليلاً.

ثمّ تراجعت شعوب الأمة الإسلامية تراجعاً خطيراً إلى الأمية بعوامل مختلفة، واستمرت في التراجع عدّة قرون.

ثم بدأت تستعيد في العصر الحاضر خطواتها الارتقائية، بعوامل داخلية وخارجية مختلفة، فمنها ما كان بتأثير الاقتباس من الحضارة الغربية المادية، ومنها ما كان من أثر الصراع الفكريّ مع الشعوب غير المسلمة الطامعة ببلدان العالم الإسلامي، والطامعة بالاستيلاء على خيراتها واستعباد شعوبها، ومنها ما كان من أثر الرغبة الشديدة في إحياء تراثها العلميّ وتنميته.

### الكتاب بعد انتشار المطابع

لكن صار للكتاب أهمية عظيمة جداً بعد وجود المطابع الآلية وانتشارها بوفرة، وطباعتها لعشرات ومئات الألوف من كل كتاب تخصصي أو غير تخصصي، وبعد أن أخذت الشعوب الغربية ثم الشرقية غير المسلمة سبيلها إلى الارتقاء الحضاري المادي، لكسب المال، وتحقيق الرفاهية، وصار الكتاب أحد أعمدة المعرفة لديهم إذ قلت فيهم الأمة جداً إلى أدنى الحدود.

ثم صار للكتاب أهمية عظيمة لدى شعوب الأمة الإسلامية بعد أن بدأت تتخلص من الأمية العارضة الخارجة عن هويتها شيئاً فشيئاً، وصار للكتاب عندهم نسبة ما من القراء، إذ بدؤوا يرتقون في أوائل درجات سلم الأخذ بوسائل المعرفة بالتدرج، إلا أن هذه النسبة فيهم ما تزال قليلة، ودون المطلوب منها بمقتضى كونها أمة (اقرأ) لعدة أسباب، منها ما يرجع إلى طبيعة تطور خلاص الشعوب الإسلامية من أعراضها المرضية الطارئة على كياناتها، وإلى طبيعة تطور ارتقائها في اتجاه ذروات المعرفة العليا، ومنها ما يرجع إلى مكر الدول العظمى غير المسلمة، لإبقاء شعوب الأمة الإسلامية متخلفة عن مسيرة ركب الحضارة المادية، ومحجوبة عن الارتقاء الحضاري المعنوي الفكري والخلقي والنفسي والاجتماعي الذي تملك كل أسسه وأسبابه دون أمم الأرض جميعاً.

ودوافع هذه الدول ترجع إلى رغبات استثمار ما لدى شعوب الأمة الإسلامية من خيرات كثيرات، بنزعات استعمارية، وإلى تخوفها من عودة الإسلام إلى الظهور القوي، بحلّة حضارية جديدة، تؤهله لامتلاك عقول ونفوس الشعوب غير المسلمة، وللثغوص بالشعوب الإسلامية مسابقة في

مسيرة ركب الحضارة المادية كل الشعوب الأخرى .

- ٤ -

### الدعوة إلى القراءة

فعلى حملة رسالة الرسول محمد ﷺ الدَّعْوِيَّةَ وغيرها، أن يبذلوا جهداً عظيماً في توجيه شعوب الأمة الإسلامية للتحقق بما وجهها الله له، إذ أرشدها أن تكون أُمَّةً (أقرأ) وأن تتخلص من أُمِّيَّاتِهَا التي كانت فيها قبل أن تدخل في الإسلام .

وعليهم أن يعملوا بجهدٍ مُكثَّفٍ على تدريب الأجيال الناشئة على قراءة الكتب النافعة المفيدة، بأمل أن يكون الكتاب النافع المفيد جليس كل رجل وامرأة من الأمة الإسلامية، وكل ناشئ وناشئة من ذراريهم، بحسب مستوياتهم وإمكاناتهم العلمية والثقافية، وبحسب أعمارهم من الطفولة إلى التمييز إلى الرُّشد، ثم إلى المستويات الثقافية الرفيعة .

على أن يكون كتابُ الله ومستوياتُ ملائمات من تفسيره، أو تفسير بعض سُوره، وكتبُ أحاديثِ الرسول ﷺ وبعض ما يتعلق بها من شروح، بمثابة القوتِ اليوميِّ لكل فردٍ منهم، وأن تكون لهم وجبات يومية من الكتب الشارحة للإسلام، ولسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولسير أصحابه الكرام، وسير الذين اتبعوهم بإحسان، ومن الكتب التي تُحذِّرهم من مكائد شياطين الإنس والجن، وتُبصِّرهم بوسائلهم وحيلهم وأساليبهم، التي ينشرون بها في الأرض الفساد، والكتب التي تُدربُهُم على أن يصارعوا بالحق الجليِّ الجميل، أفكار أعداء الإسلام الباطلة المزخرفة بالأقوال الكاذبة، والمزينة بالأصباغ والألوان الخليَّة الخادعة . ثم من كتب العلوم النافعة المختلفة، التي يعتمد عليها الارتقاء الحضاريُّ الشامل لهذه الأمة الإسلامية المصطفاة،

الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ إِذَا حَافِظَتْ عَلَى هُوَيْتِهَا الَّتِي  
أَوْصَاهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِأَنْ تَحَافِظَ عَلَيْهَا.

- ٥ -

حُسْنُ اخْتِيَارِ الْكِتَابِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُوجَّهَ لِقِرَاءَتِهِ

وعلى حامل الرسالة أن يتوسع في قراءة الكُتُب، ولا سيما ما يؤلّفه  
كبار الكُتُب الإسلاميين الموثوقين بدينهم، وبأمانتهم العلمية، وبحُسن تأليف  
الكُتُب وإتقانها، وحُسن عَرْضِ القضايا فيها بأساليب جذابة مُشرقة، مُمنّعة  
للقرّاء، ومقنعة للأفكار، ومستثيرة للعواطف النبيلة الصادقة.

ثمّ عليه أن يختار لكلّ مستوى من الراشدين والناشئين والأطفال،  
الكُتُب المناسبة له، ليوجّهه لاقتنائها، ويُنصّحه بقراءتها، مع متابعتها لمعرفة  
ما اقتنى وما قرأ منها.

فإذا عَلمَ بأنّ أحداً منهم قد قرأ كتاباً، أو قسماً من كتاب، ناقشه فيما  
قرأ، وصحّح له المفاهيم التي أخطأ فيها، وأقرّه على الصواب منها، حتّى إذا  
وجده قد استوعب الأفكار، واستقامت في ذهنه، طلب منه تلخيص ما قرأ  
أمام أترابه، وشرّح أهمّ الأفكار، وإيراد أهمّ الشواهد.

ثمّ إذا وجدَهُ قد تمكّن من معلوماته التي قرأها ووجدها معلومات  
نافعاتٍ لجمهور من الناس، واستشعر أنّه صار قادراً على أن يُقدّمها عطاءً  
توجيهياً، لجمهورٍ من الناس، دعاهُ إلى إلقاء هذه المعلومات أمام جمهورٍ من  
روادِ المسجد على شكل خطبةٍ أو درسٍ، بعد أن يُقدّمه إليهم مُثنيّاً عليه بأنّه  
قد قرأ الكتاب الفلاني واستوعبه، ووعى ما فيه من أفكارٍ ومعلوماتٍ، فمن  
الخير أن يُوفّر علينا الجهدَ، ويُقدّم لنا المعلومات التي استفادها من الكتاب  
بإيجاز.

وبهذا يستطيع حاملُ الرسالة أن يُنشِئ حركةً علميةً ثقافيةً إسلاميةً، فرديةً وجماعيةً، في مجال نشاطه، وأن يُعدَّ بالتدرّج ذوي استعداد لأن يكونوا مستقبلًا خطباء، ومُدْرِّسين، ومعلّمين، وواعظين، وناشرين للإسلام، وداعين إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، متحلّين بعلم ومهارة وقدرة على مخاطبة الجماهير، ببيان مشرق، وأساليب مُحبّبة للنفوس.

وحين تدور حركة هذا البرنامج الإصلاحيّ والإعدادي، ويكثرُ القُرّاء الذين تُمنَحُ لهم فُرْصُ التدرُّبِ على العطاء التعليميّ والتوجيهي، فلا بدّ أن يَجْرِي التنافس بينهم في التدرُّب على حمل الرسالة والقيام بوظائفها بصورة آليّة، ولا سيما إذا وَجَدَ المتفوقون مُشجّعاتٍ وحوافزٍ لِهَمَمِهِمْ.

وعندئذٍ تتسعُ حلقةُ القُرّاء، وتكثرُ أعداد ذوي الرغبة في العطاء، الذين لديهم استعدادٌ له، ويتجهُ الناشئون في مجال نشاط حامل الرسالة إلى التّهم في القراءة، والاستزادة من المعرفة، والرغبة في التعليم والتربية والعطاء التوجيهي.

وبهذا يكونُ حاملُ الرسالة قد أدّى وظيفته أداءً حسنًا، يُكسِبُه رِضْوَانُ رَبِّه، ويرْفَعُ منزلته عنده وفي جناتِ النعيم.

- ٦ -

### صفات الكتاب الجدير بالاعتبار والتقدير

توجد للكتاب الجيد الجدير بالاعتبار والتقدير، صفاتٌ تتعلّق بالشكل، وصفات تتعلّق بالمضمون:

● أمّا الصفات التي تتعلّق بالشكل: فتتلخّص بحُسن الطباعة وأناقتها،

وجودة الورق، ووضوح الحروف، وإيجاد الفواصل بين الفقرات التي تفصلها فروع أو أغصان، وتمييز الجمل بفاصل مطبوعة، واتباع مصطلحات النقط، والشرطات، والواو المقلوبة، وإشارات الاستفهام والتعجب، وتزويد الكتاب بما يحتاج إليه من وسائل إيضاح، كالخرائط، والصور، والمشجرات، والجداول، ونحو ذلك.

● وأما الصفات التي تتعلق بالمضمون ف فيما يلي بيانها:

الكتب التي تصلح لأن تُوصف بأنها كتبٌ جيدةٌ أو أكثر من جيدة ذوات أنواع وأغراضٍ مختلفات، وذوات مستويات متفاوتات في إتقانها، وذوات تلاؤمات مع الشرائح الاجتماعية المختلفة.

١ - فمنها كتبٌ للفكر تبني معرفةً صحيحةً رصينةً، قائمةً على أصول ثابتة، وقواعد علمية منطقية.

٢ - ومنها كتبٌ مقالاتٍ متناثراتٍ تطوفُ حول محورٍ واحدٍ.

٣ - ومنها كتبٌ للاستمتاع النفسى بأدائها وطرائفها، مع ما فيها من فوائد علمية وإرشادية.

٤ - ومنها كتبٌ وعظٍ نافع، وإرشادٍ عام، وترغيبٍ وترهيب.

٥ - ومنها كتبٌ تاريخٍ وقصصٍ إنسانية.

٦ - ومنها كتبٌ وصفٍ للطبيعة وقوانينها وأنظمتها.

٧ - ومنها كتبٌ إرشادية لمعالجة أسباب العيش من المآكل والمشارب، والمناخ، والمساكن، والبيع والشراء، والإقامة والسفر، ونحو ذلك.

٨ - ومنها كتبٌ للترف الفكري العالى، كبعض الرياضيات العليا،

ومسائل الفلسفة المعقدة التي ليس لها جدوى عملية في حياة الناس .

٩ - إلى غير ذلك .

الكتاب الذي يبني معرفة صحيحة مهمّة :

أما الكتاب الذي يبني معرفة مُهمّةً صحيحةً مؤصّلةً فالصفات التي تجعله جيّداً فما فوق الجيد، بحسب مقدار إتقانه، هي ما يلي :

الصفة الأولى: أن تكون المعارف فيه مننّمةً في أصولها وفروعها على وفق النظام الشجريّ في الطبيعة، ضمن روابط منطقيّة :

إنّ لكلّ صنف شجرة من أشجار الطبيعة بزرّة تنفلق في اتّجاهين :

● اتّجاه إلى العُمق، إذ تتغلغل فيه الجذور بحثاً عن القوت من التراب والماء، وتمتد الجذور متشعبة من ساق فأكثر إلى فروع، فأغصان، فعروق، فشعيرات تمتمّص الماء مع العناصر المنحلّة فيه من التراب .

● واتّجاه إلى الأعلى يَشقُّ الأرض ويذهب نامياً صاعداً في السّماء، بحثاً عن القوت من الرياح والضياء، وهذا يمتدّ متشعباً إلى ساقٍ فأكثر، فالإلى فروع، فأغصان كبرى وصغرى، فأوراق، وثمار إذا كان من الأشجار المثمرة .

وهكذا كلُّ موضوعٍ علميٍّ من الموضوعات الأصول أو الفروع هو بمثابة شجرة، لها بزرّة هي المنطق، ولها شطران رئيسان: شطرٌ يمتدُّ جذوراً متفرعة في أرضيّة الفكر. وشطرٌ يمتدُّ ساقاً أو أكثر، ففروعاً فأغصاناً في سماء الفكر، وهذا هو الذي يُورق، ويُعطي الثمار غالباً .

فمن بنى أفكار كتابه بناءً منطقيّاً، ضمن نظامٍ شجريّ، متدرّج، مترابط، متكامل، فقد أجاد البناء، وأحسن الإنشاء .

ومن لم يتبع البناء المنطقيّ ضمن النظام الشجريّ الطبيعيّ للموضوع



الذي أَلَفَ فيه كتابه، أو بحثه، فقد أخلّ، وأنزل كتابه عن مستوى الجودة بمقدار عدم التزامه بهذا النظام.

الصفة الثانية: أن تكون جذوره، وسوقه، وفروعهما، وأغصانهما، وكلُّ الأقسام فيه، واضحاتِ المعالم، ذواتِ عناوين وفواصل مُمَيَّزة، ومُتمَيِّزة، كما جعل الله عزّ وجلّ لكلّ قسمٍ من أقسام الشجرة وأقسام أيّ كائنٍ حيٍّ صفاتٍ خاصّةً به تميّزه عن غيره.

إنّ للجذر صفاتٍ خاصّةً به. وإنّ للساقِ صفاتٍ تختصّ به، وإنّ للفروع صفاتٍ تختصّ بها، وإنّ للأغصان صفاتٍ تميّزها، وكذلك الأوراقُ والبراعمُ والثمار، ولكلّ شيءٍ فيها.

أما الكتاب الذي تدورُ شجرةُ أصوله وفروعه وفروع فروع، مختلطةٌ ببعضها، فهو شبيهٌ بجهازِ معدّةٍ لهضمِ الطّعام، ولا ينسجم مع جهازِ الفكر الذي خلقه الله متلائماً مع النظام الشجريّ، فإذا وردت إليه هذه المختلطات اضطرّ إلى أن يبذلَ جهداً عظيماً حتّى يفصلَ بعضها عن بعض، ويَجعلُ كلاًّ منها في موضعه ضمن النظام الشجريّ، أو اضطرّ إلى أن يُفسدَ فطرته التي فطره الله عليها، ويحفظ المختلطات حفظاً كما وردت إليه، فإذا أراد أن يُصدّرَها صدّرَها مختلطةً أيضاً.

وهكذا نجد كثيراً من العلماء، وكثيراً من المؤلفين يدفعون ما في ذكراتهم من علومٍ دفعاً مختلطاً.

إنّ الناس بحسبِ فطرهم التي فطرهم الله عليها، لا ينسجمون مع مختلطات الأفكار، لأنّها إذا زادت في اختلاطها عن المعتاد في أساليب الناس صارت في تصوّره هدياناً، أو دالّةً على لوثةٍ ما في فكرٍ من صدرت عنه، أو عدم انتظامٍ فكريّ لديه، أو هو مضللّ.

وإذا لم ينسجم الناس مع الكتاب المختلطٍ هجره، ولم يحتفلوا به،

ولا باقتنائه، مهما أُحيط بترويج دعائي قويّ إبّان ظهوره، فمعظم الناس غير مستعدّين لإفساد فطرهم التي فطرهم الله عليها، إكراماً للمروّجين الإعلاميين.

ومن أمثلة هذه المختلطات ذات الهدف التضليلي أكداًس كُتِبَ الشيوعيين، التي روجها يوماً ما الإعلام الشيوعي، الذي كان مسخراً للاتحاد السوفييتي واليهودية العالمية، في أواسط القرن العشرين الميلادي، قبل سقوط الشيوعية ودولتها العظمى.

الصفة الثالثة: أن تكون عبارات الكتاب واضحاً الدلالات، خفيفات الظلّ، مشرقات الأسلوب، تتخلّلها بتلقائية ودون تكلفٍ صورٌ بيانيةٌ بديعة، تساعد على فهم الأفكار، ولا تتسبّب في خلخلة المعاني، أو إخراج الكتاب عن جدّيته العلميّة، وطرائقه وأساليبه الإقناعيّة.

الصفة الرابعة: أن يُمنسك الكتاب فكر قارئه إمساكاً يجعله شغوفاً بمتابعة سلسلة أفكاره المترابطة حتى آخر صفحةٍ منه.

وهذا لا يتحقّق إلا إذا كانت أفكار الكتاب سائرة سيراً طبيعياً منطقيّاً ضمن النظام الشجريّ الذي فطر الله العقول عليه، وكانت أقسامه واضحة المعالم مع تسلسلها الشجري، وكانت عباراته مشرقة جذابةً ترضي أذواق النفوس الجمالية.

الصفة الخامسة: أن يكون الكتاب مناسباً لمستوى قارئه فكريّاً وعلميّاً وثقافياً، ومناسباً لعمره ومقدار خبراته في الحياة.

أما إذا كان أعلى من مستواه فإنّه لا يصبر على قراءته.

وأما إذا كان أدنى كثيراً من مستواه، فإنّه يراه غير مفيدٍ له، فهو لا يحتفلُ به، ولا يكثرُ له.

الصفة السادسة: أن لا يكون الكتاب منحازاً بدافع من هوى نفسي،  
موجهاً لنصرة جماعة معينة، أو مذهب معين من مذاهب أهل السنة  
والجماعة، أو لنصرة سياسة زمنية معينة، فيها حق وباطل، وصواب وخطأ،  
واستقامة واعوجاج.

بينما يجب في الكتاب الإسلامي أن يكون دائراً مع الحق حيث دار،  
وسائراً معه حيث سار، غير متحيز ولا متعصب لجماعة ذات رأي خاص، أو  
مذهب ذي اجتهاد خاص به.

إن الكتاب الإسلامي الدعوي العام، والذي يحمل رسالة النصح  
والإرشاد لعموم جماعات المسلمين يجب أن يكون جامعاً غير مفرق، يصل  
القارئ بكل الأمة الإسلامية، على اختلاف جماعاتها ومذاهبها الاجتهادية  
لدى جمهور علماء أهل السنة والجماعة.

أما نصرة اجتهاد معين فينبغي أن يقتصر ناصره على قوله: هذا ما ترجح  
لدي بالنظر إلى الأدلة، إذا كان فعلاً هو الذي ترجح لديه بالأدلة الصحيحة.

\* \* \*

#### الكتاب الموضوع للوعظ والإرشاد:

وأما الكتاب الموضوع للوعظ والإرشاد والتوجيه لالتزام الإسلام بوجه  
عام، فلا يشترط فيه اتباع النظام الشجري، وإن كان اتباع هذا النظام فيه - ولو  
بوجه من الوجوه - يجعله أكثر إتقاناً وترابطاً وتأثيراً.

ولكن يشترط فيه إشراق العبارة، وخفة الظل، وأن يكون أسلوبه ذا  
تأثير على مشاعر النفوس، وقُدرة على استثارة عواطفها النبيلة، وتوجيهها  
لفعل الخير وترك الشر، والتزام الفضيلة واجتناب الرذيلة.

ولا مانع من أن يكون على شكل مقالات أدبية متناثرات، تطوف حَوْلَ

مُخَوِّرٍ دَعْوِيٍّ أَوْ إِرْشَادِيٍّ نَصْحِيٍّ وَاحِدٍ، أَوْ تَتَنَاوَلُ مَوْضُوعَاتٍ إِسْلَامِيَّةً  
مُتَفَرِّقَةً، فِي الْعَقِيدَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَدَابِ وَنَظْمِ الْإِسْلَامِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ،  
فَمَحْوَرُهَا الْإِسْلَامُ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَلَكِنْ تَنْزِلُ بِهَذَا قِيَمَةَ الْكِتَابِ، وَيَعْدُو بِمِثَابَةِ  
مَجَلَّةٍ أَوْ صَحِيفَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ.

وَلَا مَانِعٍ أَيْضاً مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرْحاً لِنُصُوصٍ مُنْتَقَاةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ،  
أَوْ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ فِي مُخْتَلَفِ الْمَوْضُوعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَيُحْسَنُ فِي هَذَا النُّوعِ مِنَ الْكُتُبِ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى وَافِرٍ مِنَ الشُّوَاهِدِ  
الْعِلْمِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ كَلِّ التَّخْصُّصَاتِ، وَالْأَمْثَلَةِ التَّارِيخِيَّةِ، وَأَقْوَالِ كِبَارِ  
الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، وَنَفَائِسِ الشُّعْرِ وَالْأَدَبِ.

\* \* \*

الكتاب الموضوع للاستمتاع بالآداب والطرائف:

وَأَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الْإِمْتَاعُ بِالْآدَابِ وَالطَّرَائِفِ، فَلَا يَشْتَرَطُ فِيهِ  
اتِّبَاعُ النِّظَامِ الشَّجَرِيِّ، وَإِنْ كَانَ اتِّبَاعُ هَذَا النِّظَامِ فِيهِ يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ إِتْقَاناً  
وَجَمَالاً.

وَلَكِنْ يَشْتَرَطُ فِيهِ إِسْرَاقُ الْعِبَارَةِ، وَخَفَّةُ الظَّلِّ، وَحُسْنُ انْتِقَاءِ الْمُخْتَارَاتِ  
مِنَ الْآدَابِ وَالطَّرَائِفِ وَالنُّوَادِرِ، وَحُسْنُ تَقْسِيمِهَا إِلَى أَشْبَاهِ وَنِظَائِرٍ، وَوَضْعُهَا  
فِي أَصْنَافٍ بِحَسَبِ مَا فِيهَا مِنْ أَشْبَاهٍ، أَوْ بِحَسَبِ الْمَجَالَاتِ وَالْمَوْضُوعَاتِ  
الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا فِكْرِيّاً.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَفَادَ مِنْ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْكُتُبِ فِي اخْتِيَارِ آدَابِ وَطَّرَائِفِ  
وَنُوَادِرٍ تَصْلُحُ لِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ، أَوْ لِرِسَالَةِ النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ  
وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

\* \* \*

## كتب السِّيَر والتواريخ:

وأما كُتُبُ السِّيَر والتواريخ، فيجب أن تكون معتمدة على الأخبار الصحيحة الموثَّقة. وأن يستفاد من الأحداث المعروضة فيها للتنبيه على العظات التي تشتمل عليها، وعلى سُنَّةِ الله في عبادته، كلما وُجِدَتْ مناسبة لذلك.

ويشترط فيها أيضاً إشراقُ العبارة، وسلاستُها، وانسيابيتها، وخِفَّةُ الظَّلِّ، وحُسْنُ التقسيم والتفريع، والتلاؤم بين العبارة والموقف العاطفي للحدث التاريخي، ومراعاة تسلسل الأحداث في الواقع، وأن لا يكون في الأخبار تعارض ولا تناقض، وأن لا تكون الأخبار ممَّا تحكُّم العقول السليمة بسقوطها ومنافاتها للأحداث الإنسانية الطبيعية، باستثناء المعجزات وخوارق العادات الربَّانية.

\* \* \*

## كتاب القصة:

وأما كتاب القصة فقد أوفت الدراسات والبحوث الأدبية ما تحتاجه القصة من شروط فنية، حتَّى تكون جذابة لقارئها، ومؤثرة فيه.

فينبغي لحامل الرسالة الدعوية أو الإرشادية، أن يستفيد مما كُتِبَ في هذا المجال، إذا أراد أن يكتب قصة ذات نفع في موضوع من موضوعات رسالته التي يضطلع بمهامها، أو إذا أراد أن ينتقي كتاباً صالحاً في هذا المجال ليوجِّه لقراءته.

وأما الكتب الأخرى فهي تدخل في اهتمامات المختصين بموضوعاتها، ولكن يجب تنقيتها وتصفيتها ممَّا يتعارض مع الإسلام، وتزويدها بما يخدم أصوله وفروعه، كلما وُجِدَتْ مناسبةً صالحة لذلك.

\* \* \*

المقالة

المقالة: هي بمثابة بحثٍ ملخص، أو فصلٍ منتقى، من كتابٍ علميٍّ، أو دَعَوِيٍّ، أو إرشاديٍّ نصحيٍّ، أو أدبيٍّ، أو تاريخيٍّ، أو قصصيٍّ، مع مقدمة أو خاتمة تعطيانه استقلالاً، وتجعلانه صالحاً لأن يُنشر مستقلاً، في مجلةٍ علميةٍ أو عامةٍ، أو صحيفةٍ دوريةٍ.

والمقالة قد تنوب مناب خطبة، أو درس، أو كُتَيْبٍ صغير.

وتبدو أهميتها في أن وسيلة توصيلها إلى القراء أكثر انتشاراً، وأيسرُ كلفةً، فهي محمولةٌ على شواغر قافلة سائرة بها وبدونها، وتصلُ إلى مواقع كثيرة لا يصلُ إليها الكتاب، وينتفع بها متصيدها المترقب، أو عابر سبيل.

غير أن القليل من الناس من يفصلها ويصنّفها، بغية أن يرجع إليها للاستذكار، أو الاستشهاد ببعض ما جاء فيها، أو عندما يحتاج إلى أفكارها وما اشتملت عليه من معارف أو توجيهات أو آداب، أو غير ذلك.

وليس لها في نفوس القراء أو النقاد والباحثين عادةً ما للكتاب من ثقلٍ علميٍّ موثوق به، بسبب مجاورتها غالباً للأخبار ومقالاتٍ ودعايات ذات طابع إعلاميٍّ ترويجيٍّ، لا يعتمد الصدق فيما يُروّجه، بل الغاية منها تحقيق أغراض وأهدافٍ نفعيةٍ خاصةٍ فرديةٍ أو جماعيةٍ.

باستثناء المجالات العلمية التي تهتمّ بالتوثيق العلميٍّ، لا بالترويج الإعلاميِّ القائم على الدعاية المصحوبة بالمؤثرات النفسية.

\* \* \*

## الوسيلة الثامنة

### الشعر

الشعر: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ الجميل، المؤثر في النفوس المحبّة للفنون الجماليّة، عمادُه الإيقاع الموسيقيّ الموزون، والمقاطع المتناظرة القوافي، والاستفادة من المهارة التصويريّة، والحيل الخياليّة، واصطيادُ نواذر الأفكار الطائرة السوانح والبوارح والمحلّقة في الأجواء العاليّة.

وباستطاعة حامل الرسالة ذي المواهب الشعريّة أن يستخدم الشعر في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتّصحّح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وباستطاعة من لم تكن لديه مَوَاهِبُ شعريّةٌ أن يحفظ نفيس الشعر مما يخدم رسالته، ويستشهد بما يراه مناسباً منه للموضوع الذي يتحدّث فيه، لدى أدائه بعض وظائف رسالته، ممّا كتبه الشعراء الموهوبون.

إنّ الشّعْرَ فنٌّ من فنون الأدب، ومعلومٌ أنّ حملة رسالة الرسول ﷺ مدعوّون إلى استخدام الأدب لتأدية رسالتهم بصورة جميلة محبّبة للنفوس، وبوجوه مختلفة ذات تأثير في الذين تُوجّه لهم الرسالة، إذ الأدب أحدُ وسائل التأثير الجمالي في النفس الإنسانيّة، وأحد وسائل الإعلام الرفيع، وسلاحٌ بيانيّ فعّالٌ في كثيرٍ من الأحيان.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ القرآن المجيد معجزاً في بيانه، مع وجوه إعجازه

الأخرى، وكان رسول الله ﷺ أفصح العرب الذين كانوا أفصح الناس، وكان ﷺ أعلاهم بياناً، وأقدرهم على التأثير بكلامه البليغ، وكذلك كان معظم الأنبياء والمرسلين في أقوامهم، إذ كانوا أبلغ أقوامهم كلاماً، وأعلاهم بياناً وحُجَّةً وتأثيراً.

ولمَّا كان الشعر فنّاً من فنون البيان الجميل الرفيع، جاء فيما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنّ الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ مِنَ الْبَيِّنِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمًا»<sup>(١)</sup>.

وقد كان للرسول ﷺ شعراء ينافحون بالشعر عن دين الله، ويكافحون أعداء الرسول والمسلمين، ويذبُّون عن الحقّ، منهم: «حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ» رضي الله عنهم، وقد أورد ابن هشام في سيرته لهم شعراً كثيراً.

وجاء في صحيح مسلم أنّ حسان بن ثابتٍ قال لأبي هريرة: أنشدك بالله، هل سمعت النبي ﷺ يقول:

«يَا حَسَّانُ أَجِبْ عَن رَسولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أَيَّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ؟» فقال أبو هريرة: نعم.

وعند مسلم أيضاً عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «اهْجُهِمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ».

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَن اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

(١) انظر الحديث (٢٢١٥) من صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.



وقد كان الشعر عند أكثر الشعراء ومكافئهم وسيلة إعلامية دعائية،  
إلا أنه يمكن - كما صار يستخدم فيما بعد ذلك - أن يكون وسيلة نافعة  
خطيرة، صالحة لأن تستخدم في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة  
الحسنة، وفي النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،  
والتوجيه للخير، والتحذير من الشر، وإجراء الحكمة سائرة على السنة  
الناس.

\* \* \*

## الوسيلتان التاسعة والعاشره

### القصة والتمثيل

سبق بيان ما يتعلق بهاتين الوسيلتين في الفصل الأول «التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر» باعتبارهما من وسائل التوجيه غير المباشر.

ولهما أيضاً موقعٌ هنا باعتبارهما من وسائل الأداء البياني، ولكن لا داعي إلى إعادة شرحهما، تخلصاً من عيوب التكرار دون غرض يُقصدُ علمياً أو تربوياً أو بلاغياً.

فيحسن الرجوع إلى ما سبق أن ذكرتهُ عنهما.

\* \* \*



## الفصل الخامس

### أدوات التوصيل الإعلامي ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها

وفيه أربع فقرات:

- ١ - استعراض تاريخي .
- ٢ - أدوات التوصيل الحديثة .
- ٣ - مسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إلى أدوات التوصيل الإعلامي المختلفة .
- ٤ - الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة .



## استعراض تاريخي

١ - كانت أداة التوصيل للإعلام البياني في بدايات التاريخ الإنساني، الإشارة بالحركات الجسدية، وأن يُسمع الإنسان كلامه الدالّ في المتعارف بين الناس على المعاني التي يُريدها، بصوته مباشرة، وكان هذا قاصراً على مدى ما يصل إليه الصوت عند إعطائه غاية ارتفاعه.

٢ - ثم وجد الإنسان أنه إذا علا فوق مرتفع من الأرض استطاع أن يوصل صوته إلى مدى أبعد، وأن يُسمع به من يبلغهم صوته، وكذلك الإشارة الدالة على معنى متعارف عليه تكون في المرتفع أوسع رائيين، وأبعد مدى.

٣ - ثم صار أصحاب البيان الذين يضعب عليهم إبلاغ كثيرين من الذين يُريدون إبلاغهم إياه، يستخدمون أشخاصاً آخرين يبلغون عنهم ما يُريدون توصيله إليهم بأصواتهم، لأن أصواتهم لا تصل إليهم، مهماً أعطوها غاية مداها.

وفي المجامع العامة التي يجتمع فيها جمهور كبير، لاستماع كلام كبير من كبراء القوم، أو معلّم أو خطيب، كان صاحب البيان يضع مبلغين لكلامه في مجلسه، على مسافات متناظرات، فيلقي هو بصوته الجملة التي يمكن أن يلتقطها المبلغ الأول، فيلتقطها هذا المبلغ ويلقيها بأعلى صوته، ويلتقطها منه المبلغ الثاني، ويلقيها لیسَمَعَهَا مَنْ هُمْ أبعد منه مسافة، وهكذا حتى يسمَعَهَا آخر المحتشدين.

ثم يلقي صاحبُ البيان جملةً ثانية، وينتظر حتى يتمَّ تَبْلِيغُهَا، وهكذا حتى يُنْهِيَ كُلَّ كَلَامِهِ.

وكان المحدثونَ والوُعَاظُ في المساجد والجوامع الكبيرة، التي يجتمع عليهم فيها خَلْقٌ كثير، يتخذون لأنفسهم مُبْلَغِينَ، يُبْلَغُونَ ما يتحدثون به، وكان يُسَمَّى هذا المبلِّغُ مُسْتَمْلِيًا، ويُخْتَارُ عادةً من نأبهي الطلاب، ذوي الصوت العالي، وقد يصلُ المستملون في المجلس الواحد إلى عشرة.

واكتشف المهندسون في أماكن العبادة الكبرى طرائق في بنائها صالحة لتجميع صَدَى الصَوْتِ، وتوصيلِ صَوْتِ الخطيب المرتفع فيها إلى جميع الذين هم داخل جُدران البناء.

٤ - ومُنْذُ ابتكرَ الناسُ الكتابةَ على الجلودِ والصفائحِ الحَجَرِيَّةِ، وعِظَامِ أكتافِ الحيواناتِ الذبيحة بعد تنظيفها من آثار اللَّحْمِ والدَّهْنِ، اتَّخَذُوا إحدى أدواتِ تَوْصِيلِ البيانِ الكلامي الذي يُرادُ الإِغْلَامُ بِهِ.

واستخدم الناسُ البَرِيدَ، والحَمَامَ الزاجلَ لتوصيلِ رسائلهم إلى من يُريدون إعلامةً ببياناتِ تَهْمُهُمْ، إذ يكون هؤلاء وهؤلاء متباعدين في بلدانٍ نائية عن بعضها.

وتوسَّعَ الناسُ في استخدامِ وسيلةِ الكتابةِ وأدواتها، حين اكتشفوا صِنَاعَةَ الورق، وكان الصينيون هم أولُ المبتكرين لهذه الصناعة.

وبدأتِ الصُّحُفُ والمؤلَّفاتُ تُدَوَّنُ على قِطَعٍ من الجلودِ، وكانت الجُلُودُ المختارةً للكتابة من جُلُودِ الغزلان، لرقتها وميلها إلى البياض، وتُدَوَّنُ أيضاً على صحائفٍ من المصنوعاتِ الورقية، ثم تُجْمَعُ على شَكْلِ رسائل أو كتب كبيرةٍ ومُجَلَّدَاتٍ.

وكان الخطاطون هم الذين يكتبون نُسخَ الكُتُبِ المؤلَّفةِ ويوسِّعونَ بكتابتهم لها انتشارها.

واستمرَّ حال الناسِ عصوراً مديدةً مقتصرين على أدوات التوصيل السابقت.

٥ - ثمَّ ابْتِكِرَتِ المطابعُ الحجريَّةُ، فكانت أداةً مُهمَّةً وعظيمةً لتوسيع انتشار المؤلفات.

ثم تطوَّرتِ المطابعُ تطوُّراً عظيماً، وصارت المطابعُ الآليَّةُ تُصدِّرُ الألوفَ والملايين من الكُتُبِ والرسائل والجرائد والمجلات.

وسايرت بُلدانُ العالم الإسلاميِّ مسيرة الحضارة في استخدام المطابع الآليَّةِ، مُتَابِعَةً ما تتطوَّرُ إليه، وكان لاستخدام هذه الآداة المُعاصِرةِ نَفْعٌ عظيمٌ في نشر الكُتُبِ الإسلاميَّةِ، وتوسيع توصيلها إلى كلِّ طالب علم، سواءً أراد طالب العلم اقتناء الكتاب لنفسه، أمَّ أراد أن يُطالِعَهُ أو يُراجِعَ بعض مسائل فيه في مكتبة عامَّة، فقد انتشرت أيضاً المكتباتُ العامَّةُ الكبرى منها، والوسطى، والصغرى، وزُوِّدَتْ بَعْضُ المساجد بطائفة من الكتب النافعة التي يَرْجِعُ إليها الراغبون في القراءة المفيدة، وإنَّ كانت هذه المكتبات العامَّة بحاجة إلى انتشارٍ أكثر، وإتقانٍ أكثر، كما يجب استخدامُ كلِّ أدوات التوصيل المطبوعة غير الكتاب، مثل المجلات، والجرائد، والنشرات، والإعلانات، لتوصيل رسالة الهداية ورسالة الإصلاح.



## أدوات التوصيل الحديثة

وبالإضافة إلى أدوات التوصيل التقليدية وما تطوّرت إليه ظهر في العصر الحديث أدوات توصيل حديثة مذهشة .

١ - فاكشِفَتْ أدوات حفظ الصوت في أسطوانات، واسترجاعه منها في آلة خاصة تكبِّرُ الصوت .

٢ - ثم اكتشِفَتْ الوسائلُ لصناعة أدوات تكبير الصوت وتوصيله في المجامع إلى كلِّ الحاضرين، مهما كانت أعدادهم وابتعدت أماكنهم، واستغنى الناس بها عن المبلِّغين .

٣ - ثم ظهَرَتْ في المبتكرات الإذاعةُ اللاسلكيةُ، فاستغنى الناس بها عن الارتحال في البلدان إلى المواطن البعيدة لتبليغ أصواتهم، وما يُريدون توصيله للناس بها .

وكانت الإذاعة أداة خطيرةً جدًّا ومُهَمَّةً جدًّا، لتعميم توصيل الأداء البياني، وتهيأت بها إمكاناتُ إبلاغ البيان إلى كلِّ من يُريدُ سَمَاعَ صَوْتِ صَاحِبِ البَيَانِ كأنه حاضرٌ في مجلسه .

٤ - ثم ظهرت في المبتكرات أدوات نقلِ صَوْتِ المتحدث مع صورته، السلكية واللاسلكية، فيما يُسمَّى «التليفزيون» فارتقى تأثير توصيل الأداء البياني ارتقاءً مذهشاً، لأنَّ التُّفُوسَ تميل إلى رؤية صورة شخصٍ مُحدِّثهم وهو يحدث .

وظهرت في المبتكرات أدوات تسجيل الصوت على أشرطة، مع إمكان استعادة سَمَاعِ الصوت ما لا حَصَرَ له من المَرَّات، ومع قابليتها لأن يُنسخَ عنها ما لا حصر له من الأشرطة.

٥ - ثم ظهرت أدوات تسجيلِ الصَوْتِ والصورةِ معاً، مع إمكان استعادةِ صُورَةِ الحدثِ كالأصل تماماً، بواسطة الجهازِ المسمَّى «الفيديو» مع «التلفزيون»، ومع إمكان نسخ ما لا حصر له من الأشرطة أخذاً من الشريطِ الأوّل، بواسطة جهاز «الفيديو».

وكانت هذه قَفْزَةٌ مُدهِشَةٌ في أدواتِ نَقْلِ صُورِ الأحداثِ وأصواتها، إلى كلِّ موقعٍ يُوجَدُ فيه إنسانٌ يَسْمَعُ ويشاهد، وإلى استعادتها وتكريرها ما لا حصر له من المَرَّات.

٦ - وقد تهيأت بهذه الأدوات إمكانات عظيمةٌ جدًّا، لتوصيل الأداةِ البياني الذي يحمل للناس خيراً أو يحمل للناسِ شَرًّا.

فالدعاة إلى الإيمان بالله أو أتباع صراطه المستقيم، والهُدَاةُ النَّاصِحُونَ المرشدون، والآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، يجدون في هذه الأدوات ما يُعِينُهُمْ على تَوْصِيلِ دَعْوَتِهِمْ وهدايتهم ونُصْحِهِمْ وإرشادهم إلى كلِّ ذي سمع وبصر، رَاغِبٍ في معرفة الحق وطريق الهدى والخير.

وَدُعَاةُ الشَّرِّ المَضَلُّونَ المفسدون في الأرض الذين يسترضون أهواء الناس وشهواتهم، يجدون في هذه الأدوات ما يُسَهِّلُ لهم أن ينشروا ضلالاتهم وإفسادهم، في كلِّ من هم مستعدون للاستجابة لإغراءاتهم وتزييناتهم، وأتباعهم إذا أمروهم بالمنكر، ونهوهُم عن المعروف.

\* \* \*

## مسؤولية حملة رسالة الهداية والإصلاح

فعلى حَمَلَةِ رسالةِ الْهَدَايَةِ بالدَّعْوَةِ إلى الإيمان بالله، أو سلوك سبيله، أو رسالة الإصلاح بالتَّصْحِيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يستفيدوا من كلِّ أداة توصيلٍ إعلاميٍّ يتوصَّلُ الناسُ إلى ابتكارها، باكتشاف خصائص الأشياء التي خَلَقَهَا اللهُ في كونه، مما يُسَهِّلُ لهم صناعتها، بشرط أن لا يكون في الشيء المبتكر شرٌّ لذاته، أو مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ والرَّسُولِ.

وعلى جميع المؤمنين المسلمين القادرين، من ذوي المال والأعمال والسلطان، أن يُعِينُوهم في ذلك، لِيُؤَدُّوا وظائفهم أداءً حسناً، وليُبلِّغُوا رسالة رسول الله ﷺ إلى الناس أجمعين، وأن لا يَأْلُوا جَهْدًا في إعدادها وبَدَلِ الأموال لها، إذ هو جزء من الجهاد في سبيل الله.

وعَلَيْهِمْ أن لا يقتصروا على استخدام أدواتِ التوصيلِ التقليديَّة، التي سبق أن استخدمها المسلمون في العصور الخالية، لأنَّهم مُكَلَّفُونَ أن يُبَلِّغُوا دينَ اللهِ للناس أجمعين دانيهم وقاصيهم، وأنَّ يَكُونُوا هُدَاةً ناصحين مرشدين آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

إنَّ كُلَّ وسيلةٍ أو أداةٍ غَيْرِ محرَّمةٍ لذاتها، يتحقَّقُ بها تبليغُ دينِ الله، ونَشْرُهُ في الناس، فإعدادُها واستخدامُها وبَدَلُ الأموال في ذلك هو من الجهاد في سبيل الله، ومعلومٌ أنَّ الجهادَ بالمال سابق للجهاد بالأنفُس،

قال الله عز وجل في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

فمن الخير المأجور عند الله استخدام مكبرات الصوت في المجمع الكبيرة، بشرط أن لا يكون في استخدامها إزعاج أو تنفير من الدين، وكرهية للدعاة إليه، والهداة الناصحين المرشدين، ومن المزعجات المنفردات إيصال أصواتها إلى الناس في منازلهم في أوقات راحتهم، أو إذا كانت الأصوات تُشوش عليهم وهم مُنهمكون في أعمالهم الخاصة، كقراءة، أو كتابة، أو عبادة، أو غير ذلك من شؤون الحياة.

ومن الخير المأجور عند الله أن يستفيدوا من الإذاعة لتوصيل أصواتهم الحاملة لأدائهم البياني، وكل من يعينهم على ذلك مأجور عند الله بشرط الإخلاص لله في العمل من الجميع.

وأن يستفيدوا من «التلفزيون» ومن «الفيديو» لتوصيل صورهم وأصواتهم الحاملة لأدائهم البياني، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وأن يستفيدوا من أشرطة تسجيل الصوت، وأشرطة تسجيل الصورة والصوت معاً، وأن يُوسَّعوا دائرة انتشارها.

وأن يستفيدوا من الأقمار الصناعية، التي يكون بها انتشار أوسع في الأرض، إذا استطاعوا أن يستخدموها أدوات لتوسيع نشر أدائهم البياني، بكل لغة من لغات شعوب الأرض.

## الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة

والرأي الذي انتهى إليه أكثر أهل العلم المعاصرون العارفون بطبيعة عمل آلات التصوير المستحدثة، أنه لا حرج في نقل الصور بهذه الآلات التصويرية المستحدثة المختلفة، ومنها التصوير التليفزيوني، لأن هذا التقل ليس مضاهاة لخلق الله، بل هو اكتشاف لعناصر هي من خلق الله. وهو يشبه المرايا التي تعكس الصور، بزيادة صفة الثبات لهذه الصور، على أوراق، أو صفائح، أو أشرطة، حساسة للأشعة، أو نحو ذلك مما خلق الله في كونه.

إنما الحرج في نوع الشيء الذي يُعرض للتصوير بهذه الأدوات، كتصوير العورات والفواحش، وما يدعوا إلى كفر أو معصية لله عز وجل.

فإذا كان المعروض للتصوير بهذه الأدوات من نوع المحرمات كان التقل بها محرماً، وإذا لم يكن من المحرمات لم يكن التقل بها محرماً، بل ربما كان من المندوبات أو الواجبات أحياناً.

إن معظم الوسائل المبتكرة في هذه العصور وسائل حيادية بذاتها، وهي قابلة لأن تُستخدَم في الخير، ولأن تُستخدَم في الشر، حتى القنابل الذرية لا تخرج عن كونها أداة قتل وتدمير مُشابهة بصورة معظمة جداً،

لأدوات القتل والتدمير التي كان يعرفها الناس قديماً، من جهة وظيفتها، فإذا استعملت في الخير كانت خيراً، وإذا استعملت في الشر كانت شراً.

أما الوسائل المحرمة لذاتها فلا يجوز استخدامها للتوصل بها إلى فعل خير، كالمسكرات، والمخدرات، والفواحش، والأوثان ونحوها مما فيه مضاهاة لخلق الله، وكذلك أشباه هذه المحرمات.

\* \* \*



## الفصل السادس

### المنهج الرباني للسياسة الحكيمة الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته

- وفيه مقدمة عامة وواحدٌ وعشرون تعليماً جاءت في إحدى وعشرين سورة:
- التعليم الأول: جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).
  - التعليم الثاني: جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).
  - التعليم الثالث: جاء في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).
  - التعليم الرابع: جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).
  - التعليم الخامس: جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).
  - التعليم السادس: جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).
  - التعليم السابع: جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).
  - التعليم الثامن: جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).
  - التعليم التاسع: جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).
  - التعليم العاشر: جاء في سورة (الصفّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).
  - التعليم الحادي عشر: جاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول).
  - التعليم الثاني عشر: جاء في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول).



- التعليم الثالث عشر: جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣/ مصحف/ ٦٣ نزول).
- التعليم الرابع عشر: جاء في سورة (الذاريات/ ٥١/ مصحف/ ٦٧ نزول).
- التعليم الخامس عشر: جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣/ مصحف/ ٧٤ نزول).
- التعليم السادس عشر: جاء في سورة (السجدة/ ٣٢/ مصحف/ ٧٥ نزول).
- التعليم السابع عشر: جاء في سورة (الطور/ ٥٢/ مصحف/ ٧٦ نزول).
- التعليم الثامن عشر: جاء في سورة (المعارج/ ٧٠/ مصحف/ ٧٩ نزول).
- التعليم التاسع عشر: جاء في سورة (الروم/ ٣٠/ مصحف/ ٨٤ نزول).
- التعليم العشرون: جاء في سورة (الأحزاب/ ٣٣/ مصحف/ ٩٠ نزول).
- التعليم الحادي والعشرون: جاء في سورة (الرعد/ ١٣/ مصحف/ ٩٦ نزول).
- التعليم الثاني والعشرون: جاء في سورة (الإنسان/ ٧٦/ مصحف/ ٩٨ نزول).

\* \* \*

## المقدمة العامة

لا بُدَّ من أن يُواجه حاملُ رسالة الدعوة إلى الله والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عقباتٍ وصُعوباتٍ تتطلب منه مجاهدات ومعالجات حكيمة، ومنها ما يؤديه أو يُثير غضبه ويؤلمه من هُزءٍ وسُخرية، وهمزٍ ولمزٍ وغَمْزٍ وضَحِكٍ ساخرٍ، وتجريحاتٍ وأتِّهَامَاتٍ باطلات، قد تَصِلُ أحياناً إلى اتِّهَامه بالضلالة، أو السفاهة أو الجنون، أو اتِّهَامه بابتغاء مصالح شخصية دنيوية، لدى الذين يُوَدِّي مُهَمَّاتِ رسالته بينهم، أو اتِّهَامه بأكثر من ذلك.

وقد يتعرض لمطالبٍ تعنُّيَّةٍ تعجيزيةٍ أو استدراجاتٍ إلى التنازل عن بعض ما يُؤْمِنُ به، أو بعض ما يدعو إليه، إلى غير ذلك من أمور.

وقد رسم الله عزَّ وجلَّ لرسوله فيما أنزَلَ عليه بوصفه إمام الدعوة إلى الله تعليماتٍ ووصايا، تبين له السياسة الحكيمة التي ينبغي أن يلتزم بها هو وكلّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من أمته.

وفيما يلي استعراض للتعليمات والوصايا التي استطعت استخراجها من القرآن الكريم، وأنا أكتب هذا الكتاب لإرشاد الدُّعاة إلى الله، وحملة رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً - أخذاً من سورة (ق/ ٥٠ / مصحف/ ٣٤ نزول):

الوصية الأولى: ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلَّى بالصَّبْرِ على ما يقول فيه من يوجِّه لهم رسالته مما يسوؤه.

الوصية الثانية: على حامل الرسالة أن يُداوي قلبه ونفسه بدواء التسبيح  
بحمدِ ربِّه في أربعة أوقات:

● قبل طلوع الشمس.

● وقبل الغروب.

● وأثناء الليل.

● وعقب الصَّلوات.

الوصية الثالثة: على حامل الرسالة أن يَعْلَمَ أنه مُبَلِّغٌ ومُبَيِّن رسالة ربِّه،  
وأنه غَيْرُ مُجْبِرٍ وَلَا مُكْرِهٍ، وأن يوطِّن نفسه لِتَلَقِّي رَفْضِ استجابة من يُؤدِّي  
بينهم رسالته، مهما كان الحقّ فيما يدعوهم إليه واضحاً جليّاً.

فالذين يؤدِّي بينهم رسالته لا يُقْبَلُ منهم أن يَسْتَجِيبُوا بالسَّوْقِ الجبري،  
بل لا بُدَّ أن يَسْتَجِيبُوا باختيارهم الحُرِّ، فإذا لَمْ يَسْتَجِيبُوا فإنَّ عَلَيْهِمْ أن  
يَتَحَمَّلُوا عند ربِّهم نتائج رَفْضِهِمْ.

الوصية الرابعة: ينبغي لحامل الرسالة أن يُدَكِّرَ بالقرآن بَعْدَ التبليغ  
والبيان الكافي مَنْ يتَحَسَّسُ أَنَّهُ يخافُ خوفاً ما من وَعِيدِ الله، فمن لَدَيْهِ مقدارٌ  
ما من الخوف من عذاب الله فاستجابته مطموئعٌ بها على وجه الإجمال،  
فِيَحْسُنُ تذكيره حيناً فحيناً طمعاً في استجابته.

ثانياً - أخذاً من سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

الوصية الخامسة: ينبغي لحامل الرسالة أن يأخذَ العفو، لا أن يريد  
العقاب والانتقام.

الوصية السادسة: ينبغي لحامل الرسالة أن يأمرَ أصحاب السَّعةِ والقُدرةِ  
بالعُزْفِ، وهو البذلُّ والعطاء ومساعدةُ ذوي الضرورات والحاجات.

الوصية السابعة: ينبغي لحامل الرسالة أن يستعِذ بالله السميع العليم  
كُلَّمَا نَزَعَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ نَزْعًا مَّا .

ثالثاً - أخذاً من سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

الوصية الثامنة: أن يُعْلِنَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ أَنَّهُ مُكَلِّفٌ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُؤَدِّيَ  
وظائف رسالته، فهو يَعْبُدُهُ وَحْدَهُ فِي أَدَائِهِ رِسَالَتَهُ، وَلَا يَتَلَقَّى الْأُمُورَ مِنْ غَيْرِهِ  
جَلًّا وَعَلَا، فَلَيْسَ لَدَيْ سُلْطَانٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِرِسَالَةِ يَعْبُدُ بِهَا  
الله وحده رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا، لِذَلِكَ فَهُوَ سَيِّئَابِعُ  
عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ فِي تَبْلِيغِ دِينِهِ، وَنَشْرِهِ بَيْنَ النَّاسِ، مَهْمَا وَاجَهَ مِنْ عِقَابَاتٍ، وَتَلَقَّى  
مِنْ ضَغُوطٍ وَأَذْيَاتٍ .

الوصية التاسعة: أن يُعْلِنَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِلَّذِينَ يُؤَدِّي  
رسالته بَيْنَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ بِهِ إِذَا رَفَضُوا الِاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ، وَلَا يَمْلِكُ مَا  
يُجْبِرُهُمْ بِهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ إِذَا خْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ سُبُلَ الضَّلَالِ، وَمُجَابَنَةَ  
صراطِ الهدى والرشاد .

الوصية العاشرة: أن يُعْلِنَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ لِلَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ،  
أَنَّهُ إِذَا تَوَقَّفَ عَنْ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ وَقَعَ تَحْتَ طَائِلَةِ عِقَابِ اللهِ لَهُ،  
الَّذِي لَا يُجِيرُهُ وَلَا يَحْمِيهِ مِنْهُ أَحَدٌ، فَلَا نَجَاةَ لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلَّا بِأَنْ يَقُومَ  
بِأَدَاءِ رِسَالَتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ .

الوصية الحادية عشرة: أن يُنذِرَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ الَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَتَهُ  
بعذاب الله في نار جهنم، فيقول لهم كما جاء في سورة (الجن):

﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

والمراد من المعصية في هذه الآية عَدَمُ الاستجابة لدعوة الرَّسُولِ إِلَى  
الإيمان والإسلام .

رابعاً - أخذاً من سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

الوصية الثانية عشرة: أن لا يَخْرَنَ حاملُ الرسالة إذا قال فيه الذين يؤدّي بينهم رسالته مقالاتٍ تَسُوؤُهُ، فالله عزّ وجلّ عليمٌ بما يقولون في سرّهم وفي علانيتهم، وهو يتولّى حامل الرسالة الذي يَبْتَغِي رضوانه، ومن تولّاه الله كفاه، وأعطاه من الخير مُناه.

خامساً - أخذاً من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

الوصية الثالثة عشرة: أن يَتَّخِذَ حاملُ رسالة الدعوة إلى الله أُسْلُوبَ الإعراض الذي هو وَسْطٌ بين المواجهة والإدبار في توجيه بيانات الدعوة والتذكير بها عمّن تولّى وكفّر، بعدّ أو وصل إلى حال المكابرة والعناد، ومعاداة الرسول والمؤمنين، والعمل على قَمْعِ الدعوة بالقوة.

ولكن لم يصل عناده وإصراره إلى حالة ميئوس منها.

الوصية الرابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتمّ بإقناع الذين يؤدّي بينهم رسالته، بوسائل الإقناع المختلفة ومنها الوسائل التالية:

١ - بيان الحقّ وإتباعه بالأدلة التي تُثبِتُ أنّه حقّ، كأدلة إثبات التوحيد.

وبيان الباطل وإتباعه بالأدلة التي تكشف أنّه باطل، كأدلة إبطال الشرك.

٢ - الإحالة على دليل الملاحظة والتجربة، كتوجيه الأنظار للتأمّل في الظواهر الكونيّة، بُعِيّة ملاحظة الآيات التي فيها الدالات على صفات الرّبّ الخالق جلّ جلاله، أو لتجربة ما يُجَرَّبُ منها، وللتنقيب عن خفاياها بُعِيّة التوصل إلى دقائق المعارف، واستنباط الكوامن، وإدراك ما وراء الظواهر.

٣ - الإحالة على سنّة الله في تاريخ البشريّة.

٤ - سؤال المجربين أهل الخبرة للتوصل عن طريق خبراتهم وتجاربهم إلى الحق.

٥ - تفسير تراتيب القضاء والقدر بما يكشف وجه الحكمة الربانية.

الوصية الخامسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتم باستخدام وسيلة الترغيب والترهيب، بأساليب مختلفة، تأسياً بالقرآن. وأن يوجه أفكار الذين يؤدي بينهم رسالته للاعتبار والاعتاظ بما جرى في سالف التاريخ البشري من جزاءات ربانية، مع بيان أنها من ظواهر سنن الله في خلقه التي لا تبديل فيها ولا تحويل.

الوصية السادسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتم بعرض نماذج الأسوة الحسنة، مع تمجيدهم والثناء عليهم، رجاء الاقتداء بهم.

الوصية السابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يضرب على أنواع الأذى التي يتلقاها من الذين يؤدي بينهم رسالته، وأن يضع في تصوّره دواماً أنه مُمتحنٌ بهم.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية الأولى.

الوصية الثامنة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يُطيع الكافرين، فلا يتأثر بمقترحاتهم ومزالقهم وما يطرحوه من تشكيكات.

الوصية التاسعة عشرة: على حامل الرسالة أن يجاهد بالقرآن جهاداً كبيراً، بشرح وبيان ما في القرآن من حقائق وأدلة تثبتها، وعرض وشرح وسائل تربيته للناس.

الوصية العشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يضع في تصوّره دواماً أن رسالته رسالة تبليغ وبيان وإقناع وترغيب وترهيب وتربية، وتبشير وإنذار،

وأنة ليس مكلفاً أن يحوّل الناس من الكفر إلى الإيمان، إذ عليهم أن يؤمنوا باختيارهم الحرّ.

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لمضمون الوصية «الثالثة».

الوصية الحادية والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِن للجميع أنه ما يسأل الناس أجراً على ما يُقدّم لهم من هداية وخير، وما يبذلُ لهم من نُصحٍ ومجاهدة.

الوصية الثانية والعشرون: على حامل الرسالة أن يتوكّل على الحيّ الذي لا يموت في مسيرته ذات الأعباء الشاقّة.

الوصية الثالثة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُسَبِّح بحمد الله آناء الليل وآناء النهار وكلّما حزبه أمر.

الوصية الرابعة والعشرون: على حامل الرسالة أن لا يَحْمَلَ همّ ما يشاهدُ من ذُنُوب عباد الله الكثيرة، وأن يوقن بأن الله خير بهم، عليم بأحوالهم وكفى بالله خبيراً بذنوب عباده.

الوصية الخامسة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُبَيِّن للكافرين أنّ الله عزّ وجلّ لا يَغْبَأُ مِنْ أَجْلِ نفسه بإيمانهم والتزامهم صراطه المستقيم، ولا يتأثر من أَجْلِ نَفْسِهِ بكفرهم ومعاصيهم، إذ هو سبحانه غنيّ عن العالمين.

إنّما يعبأ بهم من أجلهم أنفُسِهِمْ، لهذا فهو يُوجِّه لهم في كتابه وعن طريق حملة رسالته دُعاءه، رغبةً في نجاتهم وسعادتهم.

سادساً - أخذاً من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

الوصية السادسة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يحزن على الكافرين المصّرّين على كفرهم بعنادٍ، مُعَرِّضين أنفسهم بكفرهم العنادي لعذاب الله الأبدي.

الوصية السابعة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يكونَ في ضيقٍ

مما يَمْكُرُ الكافرون ضده، وضدَّ الذين آمنوا به، وضدَّ الإسلام.

فطبيعة حياة الابتلاء أن يكون فيها هذا المكر، وأن يَقُومَ فيها صراعٌ بين الحقِّ والباطل.

على أن الله سَيُحِيطُ ما يَمْكُرُ الكافرون، أو يجعل مكرهم يُحِيطُ بهم، إذا صَدَقَ المؤمنون المسلمون، وقاموا بما يجب عليهم أن يقوموا به.

الوصية الثامنة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أنه مأمور بأن يُعْبُدَ الله وحده في عباداته الخاصة، وفي قيامه بأداء واجب الدعوة إلى الله، وواجب النَّصْحِ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً لما جاء في الوصية «الثامنة».

الوصية التاسعة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أنه مأمورٌ بأن يكون واحداً من المسلمين، فهو مُلْزَمٌ بِكُلِّ أحكام الإسلام وشرائعه، وليس له إغْفَاءٌ خاصٌّ يعفيه من الالتزام بها.

الوصية الثلاثون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أنه مأمورٌ بأن يَتْلُوَ القرآن على الناس، وليس مُكَلَّفاً أن يلزمهم بالجبر. والإكراه أن يُؤْمِنُوا به، وأن يتَّبِعُوا ما جاء فيه.

لكن عليه أن يبشِّرهم بأن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، وأن ينذرهم بأن من اختار لنفسه الضلال فعليه أن يُعِدَّ نفسه لتحمل عذاب ربه.

الوصية الحادية والثلاثون: على حامل الرسالة أن يبيِّن للناس بعد الشاء على الله بأن الحمد كُلُّه له، ثلاث قضايا:

الأولى: أن الله عزَّ وجلَّ سيريهم آياته فيعرفون أنها آيات الله في كونه.

الثانية: أن الله عليم بكلِّ ما يفعلون في رحلة امتحانهم في الحياة

الدنيا.



الثالثة: أن الله سيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم الإرادية، وعلى ما اختاروه لأنفسهم في الحياة الدنيا من خير أو شر.

سابعاً - أخذاً مما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):  
الوصية الثانية والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يُخزِنَه قَوْلُ أَعْدَاءِ رسالته فيه مما يسُوؤُه، فالله عزّ وجلّ سيَنْصُرُه بقوَّته الغالبة، إذا صدَّق وأخلص لله في دعوته.

وعليه أن يكون على ثقةٍ بالله إذا توكلَّ عليه، فإنَّ العزَّةَ لله جميعاً، وليسأل الله تأييدهُ ونصره، فهو السميع العليم الذي ينصُرُ رُسُلَه والذين آمنوا. وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية «الثانية عشرة».

الوصية الثالثة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يرُدَّ على مَنْ يتَّهمه بالافتراء على الله، فيقول له: إنَّ الَّذِينَ يفترون على اللَّهِ الكذِبَ لا يُفْلِحُونَ.  
الوصية الرابعة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يتَّبَعَ بيانات الوحي، فلا يَحِيدَ عنها، ولا يَكْتُمَ شيئاً منها، ولا يزيد من عنده شيئاً عليها.  
أما المفاهيم الاستنباطية والقياسية فليست من الزيادة عليها، بل هي من توابعها.

الوصية الخامسة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يصبرَ على أذى الذين يُؤدِّي بينهم رسالته، حتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فيجعل له فرجاً ومخرجاً، واللهُ خير الحاكمين.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية السابعة عشرة، وللوصية الأولى.

ثامناً - أخذاً ممَّا جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):  
الوصية السادسة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَصْفَحَ صفحاً جميلاً عمَّا يناله من أذى، من قِبَل الذين يؤدِّي بينهم رسالته.

والصَّفْحُ هو الإعراض عن مقابلتهم بمثل أعمالهم السيئة، وعدمُ الاشتغال بدفع إيذائهم.

والجمالُ في الصَّفْحِ يكونُ بإبقاء الوَجْهِ طَلْقاً سَمْحاً لا تظهر عليه علامات الغضب، أو الغيظ والكرامية. ويكون بإبقاء الكلام عاديّاً لا تظهر فيه أماراتُ الاضطراب أو الإلماحات المستخفية. ويكون أيضاً بعدم شغل القلب برغبات الانتقام.

الوصية السابعة والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إلى ما مَنَعَ اللهُ به من الدُّنيا أصنافاً من الناس ولو كانوا كُفَّاراً، فَلِلَّهِ حِكْمٌ فِي كُلِّ تَصَاريفِهِ بعباده.

الوصية الثامنة والثلاثون: على حاملِ الرسالة أن لا يَحْزَنَ على الكافرين بسبب تعريضهم أَنفُسَهُمْ لعذاب جهنم خالدين فيها.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية السادسة والعشرين.

الوصية التاسعة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يخفض جناحه للمؤمنين، تواضعاً لهم، وحناناً عليهم، ورحمةً بهم، ورعاية وحفظاً لهم.

الوصية الأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُوجِّه الإنذار الواضح المبين لأئمة المشركين، بأنَّ اللّهَ سَيُنزِلُ بهم عقابه الشديد، إذا أصرُّوا على ما هم فيه.

الوصية الحادية والأربعون: على حاملِ الرسالة أن يَصْدَعَ بما أمَرَ اللهُ بتبليغه للناس.

أي: أن يَجْهَرَ بتبليغه مَقْرُوناً بالوسائل التي تؤثر في النفوس القاسية، فَصَدْعُهَا، كما تَصْدَعُ الحجارة فتحدثُ بها شقوق دون أن تنكسر.

الوصية الثانية والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُعْرِضَ عن

المشركين الذين بلغوا من دعوته مبلغ العناد والمكابرة، لكنهم لم يبلغوا مبلغ إعلان العداء، وإعداد وسائل المقاومة بالعنف المسلح.

الوصية الثالثة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يداوي ما يحدث له من ضيق صدر يُسببه أذى خصوم رسالته بدوآئِن:

١ - أن يُسبِّح بحمد ربه .

٢ - أن يكون من الساجدين لله المؤدِّين غَايَةَ الخضوع والذلِّ له .

الوصية الرابعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يُتابع عبادته لربه، ومنها قيامه بوظائف رسالته ومهمَّاتها، حتَّى آخر لحظة من عُمره التي يأتيه فيها يقين الموت .

تاسعاً - أخذاً من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

الوصية الخامسة والأربعون: على حامل الرسالة أن لا يستجيب لطلب كبراء قومه طمعاً في إيمانهم إذا طلبوا منه أن يطرد من حوله من فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

عاشراً - أخذاً من سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

الوصية السادسة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُدير ظَهْرَهُ لِمَنْ وصل إلى حالة ميئوس مَعَهَا من استجابته لدعوة الحق، وأن يوجِّه اهتمامه ومجاهدته لآخرين مطمَّوعٍ باستجابتهم، ولم يَصِلُوا بَعْدُ إلى حالة ميئوسٍ منها .

الوصية السابعة والأربعون: على حامل الرسالة - مع إدارته ظَهْرَهُ لِمَنْ وصل إلى حالة ميئوسٍ منها - أن يكون شديد المراقبة له بِبَصَرِهِ، لئلاَّ يُدَبِّرَ ضده وضدَّ الإسلام والمسلمين مكايِدَ، وهو عَنهُ غافلٌ لا يشعر بما يُدَبِّر .

أحد عشر - أخذاً من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

الوصية الثامنة والأربعون: على حامل الرسالة أن يتحلَّى بالصَّبْر دواماً .

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية «الأولى» والوصية «السابعة عشرة»  
والوصية «الخامسة والثلاثين».

الوصية التاسعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يستغفر الله لذنبه،  
أي: أي يسأل الله دواماً أن يَغْفِرَ له ذنبه.  
غَفْرُ الذنب هو سَتْرُهُ.

الوصية الخمسون: أن يُسَبِّحَ بحمد ربه بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.  
العشيّ: نصف النهار الثاني إلى الغروب.

الإبكار: من وقت دخول الفجر إلى طلوع الشمس.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً لبعض ما جاء في الوصية «الثانية» وتأكيداً  
للأمر بالتسبيح الذي جاء في الوصية «الثالثة والأربعين».

اثنا عشر - أخذاً من سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

الوصية الحادية والخمسون: على حامل الرسالة أن يكون قُدْوَةً حَسَنَةً  
للناس في عَمَلِهِ الصَّالِحِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

الوصية الثانية والخمسون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أَنَّهُ فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِ  
المسلمين، مسؤولٌ تُجَاهَ رَبِّهِ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَطَالِبٌ بِأَنْ يَعْمَلَ الْأَعْمَالَ  
التي أمر الله المسلمين أن يعملوها، وبأن يجتنب كلَّ ما أمر الله المسلمين أن  
يجتنبوه، وبأن ينتهي عن كلِّ ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه.

وَأَنْ يُعْلِنَ أَنَّهُ تُطَبَّقُ عَلَيْهِ جَمِيعُ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَالْأَحْكَامِ الَّتِي شَرَعَ اللَّهُ  
أَنْ تُطَبَّقَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَا اسْتِثْنَاءَ لَهُ بِشَيْءٍ، وَلَا إِعْفَاءَ لَهُ عَنْ شَيْءٍ.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً لما جاء في الوصية «التاسعة والعشرين».

الوصية الثالثة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدفع كلَّ ما يسوؤه

في مجال أدائه رسالته بالتّي هي أحسن، متحلّياً بالصّبر، وبمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

الوصية الرابعة والخمسون: على حامل الرسالة أن يفرّج إلى الاستعاذة بالله كلّما نزغهُ من الشيطان نَزْغٌ، مستحضراً في تصوّره أنّ الله هو السّميع العليم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية السابعة وهي التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

ثلاث عشرة - أخذاً من سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

الوصية الخامسة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدّر المعاندين المكابرين في خوضهم ولعبهم، حتّى يلاقوا عقابهم الذي أنذروا به، في اليوم الذي قضى الله أن يُنهي فيه إمامهم، ويُنزل فيه نعمته عليهم.

الوصية السادسة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يصفح عن إيذات الذين يؤذي بينهم رسالته، مُعرضاً عن معاقبتهم عليها، ومقابلتهم بمثلها، وأن يقول لهم: سلام.

أي: أعطيك منّي السلام، ولا أقيم بيني وبينكم الآن صراعاً مادّيّاً، لأنّ الله لم يأذن لي بذلك.

وهذا الصّفح سياسةً مرحليّة يلتزم بها حامل الرسالة، ما دام التحرك الإسلامي يسير في طريق جهاد الدّعوة فقط.

والتوصية بالصفح جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية «السادسة والثلاثين».

أربع عشرة - أخذاً من سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

الوصية السابعة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتولّى عن تذكير

المعاندين من أئمة الكفر الذين وصلوا إلى دركة ميثوس منها، فَيُدِيرَ إِلَيْهِمْ ظهره، لِيُوجِّهَ اهتمامه ونشاطاته لآخرين لم يَبْأَسْ بَعْدُ من استجاباتهم.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية الخامسة والأربعين، وهي مقرونة بما جاء في الوصية السادسة والأربعين، من لُزُوم شدة مراقبة من يتولَّى عن تذكيرهم، حَذَرَ مكايدهم.

الوصية الثامنة والخمسون: على حامل الرسالة أن يتابع تذكير الذين ما زال الطمع باستجابتهم لدعوة الحق موجوداً، لم ترشَّحْ منه قطراته الأخيرات.

خمس عشرة - أخذاً من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

الوصية التاسعة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدفع السيئة التي يُوجَّهُ بها في مجال دعوته بالتّي هي أحسن.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الثالثة والخمسين» التي جاءت في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع إضافة قيد «السيئة» بالنسبة إلى المدفوع.

الوصية الستون: على حامل الرسالة أن يستعيد برّته من هَمَزَاتِ الشياطين، وأن يستعيد به من أن يحضروا عنده، فيقول: «رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ».

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الرابعة والخمسين» والوصية «السابعة» مع النصّ على العبارة المختارة للاستعاذة.

ست عشرة - أخذاً من سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

الوصية الحادية والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُعْرِضَ في دعوته عن مواجهة من بلغ إلى أقصى درجات الإعراض عن بيانات الدعوة التي سبق أن وُجِّهَتْ له، لكنّه لم يَتَوَلَّ وَلَمْ يَصِلْ إلى حالة ميثوس منها.

ومع الإعراض عن مواجهته ينبغي إسماعه دون مواجهته ومقابلته .  
وهذه الوصية جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية «الثانية والأربعين»  
والوصية «الثالثة عشرة» .

الوصية الثانية والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون في حالة  
إعراضه عن مواجهة من بَلَغَ أَقْصَى درجات الإعراض منتظراً مترقباً، فإذا شَعَرَ  
بحسِّه المرهفِ أنه قد بدأ يلين ويخفَّفُ من شدة إعراضه، انعطف نحوه بشيء  
من التَّوَجُّه، ليساعده على نفسه، رجاء أن يَلِينَ ويستجيب لدعوة الحقِّ .

وهذه سياسة حكيمة في مجال أداء رسالة الدعوة إلى الله، والتَّصْح  
والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

سبع عشرة - أخذاً من سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

الوصية الثالثة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتابع تذكير من لم  
يَصِلُوا إلى حالة ميثوس معها من استجابتهم لدعوة الحقِّ، مهما واجه من  
بعض قومه من اتهام له بالكهانة أو بالجنون أو بأنه شاعر .

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية «الثامنة والخمسين» .

الوصية الرابعة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَرُدَّ على القائِلين  
بشأنه: ننتظره حتى يُدْرِكه الموت فتتخلَّص منه ومن دعوته، بأن يقول لهم  
وهو مطمئنُّ القلب هادئ النفس:

«تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ» .

التربُّصُ: الانتظار .

الوصية الخامسة والستون: على حامل الرسالة أن يترك من يلاحظ أنَّهم  
يُرِيدُونَ كَيْدَهُ، فلا يكشف لهم أنه قد أدرك ما يُريدون من كَيْدِ ضِدِّه، واثقاً من  
أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ناصِرُهُ، ومنزلاً بهم عقابه، إذا التزم هو بتعليمات الله في

أخذ حذرَه، وفي الاستعداد الكافي لإحباط كيدهم.

الوصية السادسة والستون: على حامل الرسالة أن يَصْبِرَ لحكم ربّه، مُخْضِراً في تصوّره دوماً أنّ الله عزّ وجلّ لا يختار له إلّا ما فيه الخير له، إذا صدّق وأخلص لله في أداء رسالته، والتزام تعليماته وبياناته.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصية «الأولى» والوصية «السابعة عشرة» والوصية «الخامسة والثلاثين» والوصية «السابعة والأربعين».

الوصية السابعة والستون: على حامل الرسالة أن يُسَبِّحَ بحمْدِ ربّه في ثلاثة أوقاتٍ من كلّ يومٍ من أيام حياته.

الوقت الأول: حين يقوم من نومه، أو من مجلسه.

الوقت الثاني: أثناء الليل.

الوقت الثالث: عند غروب النجوم من آخر الليل.

والوصية بالتسبيح بحمد الله قد سبقت في الوصية «الثانية» والوصية «الثالثة والأربعين» والوصية «الخمسين».

لكن في «الثانية» قد جاء التوجيه للتسبيح في أربعة أوقات: «قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأثناء الليل وأدبار السجود».

وفي «الثالثة والأربعين» قد جاء التوجيه للتسبيح بصفة عامة.

وفي «الخمسين» قد جاء التوجيه للتسبيح في وقتين:

العشي «وهو نصف النهار الثاني إلى الغروب»، والإبكار «وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس».

ثمانية عشرة - أخذاً من سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

الوصية الثامنة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلّى بالصَّبْرِ الجميل على تكذيب المكذّبين بيوم الدين.



والصَّبْرُ الجميل هو الذي تُصَاحِبُهُ بشاشة في الوجه، وتلقائِيَّة في الأقوال والأعمال، دون قلق ولا اضطراب، ولا امتعاضٍ ولا تذمُّر، ولا ضيقٍ في الصَّدْر، ولا شكوى.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصايا: «الأولى، والسابعة عشرة، والخامسة والثلاثين، والثامنة والأربعين والسادسة والستين» للأهميَّة القصوى، فلا نجاح في أداء رسالة من دون صَبْر.

الوصية التاسعة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَدْرَ الكافرين المصْرِينَ على عنادهم يخوضون في جرائمهم وفسقهم وفجورهم وشركياتهم، وَيَلْعَبُونَ كما يَهْوُونَ في الحياة الدنيا، حتَّى يلاقوا مَصِيرَهُمْ الوخيم، في يومهم الذي يُوعدون، وهو يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء والجزاء. «وهذه سياسة مرحلية».

وأن يُجَاهِد في الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، موجهاً رسالته لمن يَطْمَع في استجابتهم.

تسع عشرة - أخذاً من سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

الوصية السبعون: على حامل الرسالة أن يَصْبِر فلا يستعجل تحقيقَ وعدِ الله بالنَّصْر.

وينبغي أن يعمل المسلمون جميعاً بهذه الوصية.

الوصية الحادية والسبعون: على حامل الرسالة أن لا يستخفه الكافرون للقيام بأعمال توقعه أو توقع جماعة المسلمين في ورطات لا تُحْمَدُ عواقبها.

عشرون - أخذاً من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

الوصية الثانية والسبعون: على حامل الرسالة أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، في استدراجاتهم ومقترحاتهم ومزالفهم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الثامنة عشرة» مع إضافة المنافقين هنا إلى الكافرين الصرحاء هناك .

الوصية الثالثة والسبعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدع أذى خصوم رسالته وأعدائها فلا يشتغل بدفعه .

الوصية الرابعة والسبعون: على حامل الرسالة أن يتوكل على الله مع قيامه بالأسباب التي أمر الله بالقيام بها .

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية «الثانية والعشرين» .

إحدى وعشرون - أخذاً من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

الوصية الخامسة والسبعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يستخدم أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، حول أسس العقيدة الإيمانية، مع الاستفادة من صورة تعليمية لطريقة من طرائق مجادلة المشركين، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، كافرين بصفة الله الرحمن .

الوصية السادسة والسبعون: على حامل الرسالة أن يكف عن التطعُّ لطلب المعجزات المادية والخوارق، في تعجيل عقاب أئمة الكفر المعاندين المعلنين عداؤهم ومقاومتهم للرسول والذين آمنوا .

فله حكمٌ جليلٌ في إمهاله، وفي آجاله التي يُحدِّدها لتصاريفه . وما على الداعي إلى الله إلا البلاغ المبين، والله عز وجل هو الذي عليه الحساب، فلا ينبغي للعباد أن يتدخلوا فيما هو من خصائص الله عز وجل .

ومضمون هذه الوصية ينبغي أن يلتزم به كل المسلمين إلى أن تقوم الساعة .

الوصية السابعة والسبعون: على حامل الرسالة أن يكون شديد الحذر

من أتباع أهواء أهل الكتاب، في مطالبهم واستدراجاتهم إلى ترك شيء من دين الله وأحكام شريعته لعباده.

وقد جاءت هذه الوصية مُبَيَّنَةً خُصُوصَ أهل الكتاب، بينما جاءت الوصية «الثامنة عشرة» تنهى عن طاعة كُلِّ الكافرين، وجاءت الوصية «الثانية والسبعون» تنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين.

ومضمون هذه الوصايا ينبغي أن يلتزم به كل المسلمين إلى أن تقوم الساعة.

اثنا عشر وعشرون - أخذاً من سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):  
الوصية الثامنة والسبعون: على حامل الرسالة أن يتحلَّى بالصَّبْرِ، مع الاستسلام التام لحكم الله، وانتظار ما يقضي به.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصايا: «الأولى»، والسابعة عشرة، والخامسة والثلاثين، والثامنة والأربعين، والسادسة والستين، والثامنة والستين» لشدة أهمية الصبر لحامل الرسالة.

الوصية التاسعة والسبعون: النهي عن طاعة أيِّ آثمٍ أو كُفُورٍ، في مشورة، أو مقترح، أو غير ذلك، لما في هذه الطاعة من تورُّطٍ في أمور لا تُحمد عقباها.

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية (١٨) والوصية (٧٢) مع التركيز هنا على الآثم والكفور.

الوصية الثمانون: على حامل الرسالة أن يشتغل بذكر اسم ربّه بكرة وأصيلاً.

البُكْرَة: أوّل النهار إلى طلوع الشمس.

الأصيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

وينبغي أن تجمع هذه الوصية مع الوصايا بالتسبيح بحمد الله «الثانية»،  
والثالثة والأربعين، والتاسعة والأربعين» للاستفادة من زوائد الأوقات  
الموجودة في بعضها دون بعضها الآخر.

الوصية الحادية والثمانون: ينبغي لحامل الرسالة أن يعبد الله بالسجود  
له في الصلاة أثناء الليل.

فلقيام الليل تأثيرٌ في علاج ذوي الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.  
الوصية الثانية والثمانون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُسَبِّحَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ  
مُدَّةً طويلة من الليل في صلاة قيام الليل، أو خارج الصلاة.

فلهذا التسبيح أثره العظيم الفعال في النفوس القلقة المضطربة،  
والمهمومة والمغمومة.

وهذه الوصية تُضَمُّ إلى الوصايا «الثانية»، والثالثة والأربعين،  
والخمسین، والثمانين» فموضوعها واحد، ويُنظَرُ إليها نظرةً تكامليةً.

\* \* \*

تفصيل التعليمات من السور:

## التعليم الأول

جاء هذا التعليم في سورة (ق/ ٥٠ / مصحف/ ٣٤ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم أربع وصايا موجهة للداعي إلى الله، وهي:

- ١ - لزوم التحلي بالصبر على ما يقول المدعوون في الداعي مما يسوؤه.
- ٢ - على الداعي أن يُداوي قلبه ونفسه بدواء التسبيح بحمد ربه في أربعة أوقات:

- قبل طلوع الشمس.
- وقبل الغروب.
- وأثناء الليل.
- وعقب الصلوات.

٣ - أن يعلم أنه مُبلِّغ رسالة ربه غير مُجبرٍ ولا مُكره، وأن على المدعوين أن يستجيبوا باختيارهم الحرّ لا بالسوق الجبري.

٤ - أن يُذكر بالقرآن بعد التبليغ والبيان الكافي من يتحسّس أنه يخاف ولو بمقدار يسير من وعيد الله، فمن لديه مقدار ما من الخوف من عذاب الله، فاستجابته لدعوة الإسلام مطموع بها على وجه الإجمال، فيحسّن تذكيره حيناً فحيناً طمعاً باستجابته.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

كان موقف المشركين إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (ق/ ٥٠ / مصحف/ ٣٤ نزول) موقف إنكارٍ ورفضٍ لما جاءهم به الرسول ﷺ، وكان رفضهم مستنداً إلى تَعَجُّبٍ من أن يُرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَشَرًا مِنْهُمْ يُنذِرُهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ .

وقد جرَّهُمْ هَذَا الْمَوْقِفَ إِلَى التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَا سِيَّمَا قَضِيَّةَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَالْجَزَاءِ .

إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي شَأْنِ الرَّسُولِ وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ، بَلْ كَانُوا فِي أَمْرِ مَرِيحٍ، أَي: فِي أَمْرِ مُخْتَلِطٍ، فَقَدْ كَانَ لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ قَوْلٌ فِي الرَّسُولِ ﷺ، وَفِي دَعْوَتِهِ، وَفِي الْقُرْآنِ .

دلّ على هذا الموقف قول الله عز وجل بشأنه في صدر السورة.

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ عَجِيبٌ ﴿٢١﴾ ﴾

وقوله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

واقتضت الحكمة الربّانية أن يُوجّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي أَوَاخِرِ السُّورَةِ، وَصَايَا تَرْبِيَةٍ تُنَاسِبُ الْمَوْقِفَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَشْرُكُونَ فِي هَذَا الطُّورِ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٢٣١﴾  
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤١﴾ .

وقال تعالى أيضاً فيها:

﴿ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

فاشتمل هذا التوجيه على الوصايا الأربعة الآتية الذكر .

● أما لزوم التحلي بالصبر على ما يقول المدعون في الداعي مما يسوؤه . فظاهر من قول الله عز وجل : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

أي : لا تُقَابِلْ أذاهم لك في أقوالهم بأقوالٍ مماثلة ، ولا بأقوالٍ دونها ، بل تحمّلها بصبرٍ وسعةٍ صدرٍ .

● وأما مداواة القلب والنفس بدواء التسييح في الأوقات الأربعة التي سبق ذكرها ، فقد دلّ عليها قول الله عز وجل :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ۖ ﴾ .

إن التسييح لله ذكرٌ يتضمّن معنى تنزيه الله عز وجلّ في مشاعر القلب عمّا لا يليق بجلاله ، مع الحركة اللسانية والفكرية التلقائية ، التي تُشبه حركة السباح في الهواء أو في الماء .

ولمّا كان التسييح لله قد اختص بجانب التنزيه ، أمر الله بأن يكون تسييحه مقترناً ومُلتبساً بحمده جلّ وعلا ، أي : مقترناً بالثناء عليه بصفاته العظيمة ، وأسمائه الحسنى ، وبكلّ ما يستحقّ أن يُحمد عليه ويُثنى عليه به .

وإن في التسييح بحمد الله الفوائد الجليلة التالية :

الفائدة الأولى : أنه عبادةٌ لله ينال بها العابد عند الله أجراً عظيماً ، إذ يشتغل بالتسييح لسانُ الذاكر وفكرُهُ وقلْبُهُ برَبِّه .

الفائدة الثانية : أنه يُذكرُ المسبِّح بحمْدِ رَبِّه على الوجه المطلوب بعناصر القاعدة الإيمانية ، وهذا التذكيرُ مع حضور القلبِ وتوجُّههِ للتفكيرِ بمعاني تنزيه الله ، ومعاني الثناء عليه بصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى ، يُوجِّهُ العواطف نحو طاعة الله والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، والعملِ بوصاياه ، فيكون

الذاكر المسبح بحمدِ ربِّه أكثر تقيُّداً بمقتضيات مرتبة التقوى، ثمُّ مُقتَضِيَّاتِ  
مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، ثُمَّ مُقتَضِيَّاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

الفائدة الثالثة: أنه بمثابة العلاج الذي يُفَرِّغُ النَّفْسَ مِنَ الْأَحْزَانِ وَالْهَمُومِ  
وَالْمَخَافِ وَالْآلَامِ، وَيُضْرِفُ عَنْهَا وَارِدَاتِهَا، وَبِهَذَا التَّفْرِيفِ تَكْتَسِبُ نَفْسُ  
الْمَسْبُوحِ بِحَمْدِ رَبِّهِ عَافِيَتَهَا، وَتَسْتَجْمَعُ قُوَاهَا لِمُوَاجَهَةِ الصَّعَابِ مَهْمَا كَانَ  
شَأْنُهَا.

الفائدة الرابعة: أنه بمثابة السِّلْكِ الْكُهْرِبَائِيِّ الْمُوَصَّلِ بِمَصْدَرِ الطَّاقَةِ  
الْحَقِيقِيَّةِ الْكُبْرَى فِي الْوُجُودِ، الَّتِي تُمَدُّ الْعِبَادَ بِأَمْدَادٍ، مِنْ الْعَوْنِ وَالتَّوْفِيقِ  
وَالسَّدَادِ وَالرَّشَادِ.

أما حَظُّ الْمَسْبُوحِ بِحَمْدِ رَبِّهِ مِنْ هَذِهِ الْفَوَائِدِ الْأَرْبَعَةِ فَيَكُونُ بِمَقْدَارِ  
حُضُورِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكْرِهِ مَعَ رَبِّهِ فِي أَوْقَاتِ ذِكْرِهِ، إِذْ تَنْقُصُ مِنْ حِظِّهِ مِنْهَا  
الْغَفَلَاتِ، وَتَنْقُصُ مِنْهُ شِوَارِدُ الْأَفْكَارِ، وَتَنْقُصُ مِنْهُ عَوَارِضُ الْأَهْوَاءِ  
وَالشَّهَوَاتِ، وَلَوْ كَانَ اللِّسَانُ مُشْتَغِلاً بِالتَّسْبِيحِ وَالْحَمْدِ، وَيَتَزَايَدُ النِّقْصُ حَتَّى  
يَكُونُ الذِّكْرُ اللِّسَانِي حَرَكَةً آليَةً لَا يَتَجَاوَزُ تَأْثِيرُهَا الْعِضَلَاتِ وَالْأَعْصَابَ الْمَادِيَّةَ  
الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِالْأَفْظَانِ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ وَصُورِهِ الَّتِي  
يُؤَدِّيهَا الذَّاكِرُونَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

● وَأَمَّا عِلْمُ الدَّاعِي بِأَنَّ رِسَالَتَهُ تَقْتَضِرُ عَلَى التَّبْلِيغِ وَالبَيَانِ الْإِقْنَاعِيِّ،  
وَلَا تَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْإِجْبَارِ وَالْإِكْرَاهِ، أَي: أَنَّ يَضَعُ فِي تَصَوُّرِهِ دَوَاماً هَذِهِ  
الْحَقِيقَةَ، فَوْصِيَّةً دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ...﴾

أي: أَنْتَ مُكَلَّفٌ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ وَتُبَيِّنَ وَتَقْدِمَ لَهُمُ الْحُجْجَ وَالْأَدْلَةَ وَوَسَائِلَ  
الْإِقْنَاعِ وَالتَّرغِيبِ وَالتَّرْهيبِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَسْتَ مُكَلَّفاً أَنْ تَكُونَ مُسَلِّطاً عَلَيْهِمْ  
مُجْبِراً مُكْرَهاً.



فالدِّين لا إكراه فيه، والدَّاعِي إلى دين الله غَيْرُ مَأْذُونٍ بِأَنْ يُكْرِهَ النَّاسَ  
حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ .

بل الناس هم المسؤولون عند الله ربهم عن الاستجابة لدعوة الحق  
بالاختيار الحرّ، لا بالسُّوقِ الإكراهيِّ الجبريِّ .

إنَّ الإكراه قد يَصْنَعُ منافقين، لكنّه لا يَصْنَعُ مؤمنين، والنفاقُ أَحْسَنُ  
وأخْبَثُ مِنَ الْكُفْرِ الصَّرِيحِ .

● وَأَمَّا مُتَابَعَةُ التَّذْكِيرِ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ التَّبْلِيغِ وَالْبَيَانِ الْكَافِي لِمَنْ تَبَدُّو عَلَيْهِ  
مَخَافِلُ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْمُؤَجَّلِ وَالْمَعْجَلِ وَلَوْ بِمَقْدَارٍ يَسِيرٍ، فَوْصِيَّةٌ دَلَّ  
عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَاتِمَةِ السُّورَةِ:

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

أي: فذكّر بالقرآن من تشعّرُ بأنّه يَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ أَقْلَ خَوْفٍ، فَهُوَ  
مَطْمُوعٌ بِاسْتِجَابَتِهِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ يَوْمًا مَا، فَيَنْبَغِي تَذْكِيرُهُ بِمَا سَبَقَ أَنْ تَبَلَّغَهُ  
وَتَفَهَّمَهُ مِنْ بَلَاغَاتٍ وَبَيَانَاتِ الْقُرْآنِ .

\* \* \*

## التعليم الثاني

جاء هذا التعليم في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) وقد تضمن الوصايا الأربع التالية:

١ - أخذ العفو.

٢ - الأمر بالعرف، وهو البذل والعطاء ومساعدة ذوي الضرورات والحاجات.

٣ - الإعراض عن الجاهلين.

٤ - الاستعاذة بالله السميع العليم كلما نزع الشيطان في داخل النفس نزعاً ما.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عز وجل لرسوله فلكلٍ داع إلى الله من بعده في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) وهي سورة مكية نزلت في أواسط العهد المكي:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٣١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

جاء هذا النص بعد عشر آيات علم الله فيها رسوله فالدعاة من أمته،

مُنَاطَرَةٌ جَدَلِيَّةٌ يُنَاطِرُونَ بِهَا الْمُشْرِكِينَ، لِإِقْنَاعِهِمْ بِأَنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ ظَاهِرٌ  
الْبَطْلَانِ بِلَا شُبْهَةٍ، وَبِأَنَّ تَوْحِيدَ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ هُوَ الْحَقُّ بِلَا شُبْهَةٍ.

وَالْمُتَدَبِّرُ اللَّمَّاحُ يُدْرِكُ أَنَّ مُنَاطَرَةَ مُشْتَمَلَةً عَلَى حُجَجٍ بَرَهَانِيَّةٍ مَقْنَعَةٍ لِمَنْ  
أَرَادَ الْحَقَّ، وَدَامِعَةٍ لِمَنْ أَصْرَرَ عَلَى الْبَاطِلِ، كَالْمُنَاطَرَةِ الَّتِي أَرْشَدَتْ إِلَيْهَا  
الآيَاتُ السَّابِقَاتُ لِهَذَا النَّصِّ، سَتُلْجِئُ الْمَصْرِيْنَ عَلَى بَاطِلِهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا  
وَسَائِلَ يُغَطُّونَ بِهَا هَزِيمَتَهُمْ فِي مَجَالِ الْمُنَاطَرَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْحُجَجِ  
الْبَرَهَانِيَّةِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ اللَّجُوءُ إِلَى السَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ وَالتَّجْرِيحَاتِ  
وَالِاتِّهَامَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالشَّغْبِ وَالغَوْغَائِيَّةِ، وَالْهَرُوبِ إِلَى الْمَغَالِطَاتِ،  
وَالرَّوْغَانِ عَنِ سَاحَةِ الْمُنَاطَرَةِ، وَالِاسْتِغَالِ بِأَطْرَافٍ بَعِيدَةٍ تَخْتَلِفُ حَوْلَهَا  
وِجْهَاتُ النَّظَرِ، إِذَا نُظِرَ إِلَيْهَا دُونَ أَصُولِهَا وَجُدُورِهَا الْحَقِيقِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ  
وَالْوَاقِعِيَّةِ.

فَمَا هُوَ مَوْقِفُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، الْمُنَاطِرِ بِالْحَقِّ وَالْحُجَجِ الْبَرَهَانِيَّةِ  
تُجَاهَ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الْقَدْرَةِ، الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْمَنْهَزِمُونَ فِي مَجَالِ الْفِكْرِ  
الْحَصِيفِ، وَالْعِلْمِ الْحَقِّ، وَالْأَدْلَةِ الْبَرَهَانِيَّةِ؟

أَيُّتَابِعُ الْمَبْطِلِينَ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ؟

إِنَّهُ إِذَا فَعَلَ هَذَا تَحَوَّلَتْ حَلَبَةُ الْمُنَاطَرَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ إِلَى حَظِيرَةِ تَشَاتُمٍ  
وَسِبَابٍ، تُشْبِهُ حَظَائِرَ الْكِلَابِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ أَغْلَبُ الْخُصْمَيْنِ أَكْثَرُهُمْ سَفَاهَةً  
وَأَعْلَاهُمْ بُبَاحًا.

أَمْ يَعْغُفُو، وَيَقْطَعُ أَلْسِنَةَ الشَّتَائِمِ بِالِإِطْمَاعِ بِالْعَطَاءِ، وَيُعْرِضُ عَنِ  
الْجَاهِلِينَ السُّفَهَاءِ؟

إِنَّ التَّوْحِيحَ الْقَرَأَنِيَّ يَقُولُ لِمَنْ تَعَرَّضَ لِمِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

هذه الآية على إيجازها تحكي بالإيماء اللفظي واللوازم الفكرية قصة مُعَانَاةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ والموعظة الحسنة، المناظرِ بالمنطقِ الْعَقْلِيِّ، والحجج البرهانية العلمية، وما يَلْقَاهُ من الذين يُوجِّهُ لَهُم دَعْوَتَهُ الْحَكِيمَةَ من تَصَلَّبٍ على الباطل، وَعِنَادٍ وَجَهْلٍ وَسَفَاهَةٍ، وَسَبَابٍ وَشَتَائِمٍ مختلفة، وَأَتَهَامَاتٍ بالباطل، وَسُخْرِيَةٍ وَاسْتَهْزَاءٍ، وَعَمَزٍ وَلَمَزٍ وَإِيذَاءٍ، ونحو ذلك من وسائل السفهاء الأعداء، الَّذِينَ لَمْ تُهَذِّبْهُمُ حِكْمَةُ الْحُكَمَاءِ، وَلَمْ تَعْقِلْ أَهْوَاءَهُمْ أَعِنَّةَ الْعُقَلَاءِ.

إِنَّمَا تَقُولُ لِلدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ.

أَيُّهَا الدَّاعِي بِالْحِكْمَةِ والموعظة الحسنة، سَتُوجِبُ أَذَى وَعِدَاءً وَكَيْدًا، من الذين تَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَتُنَازِلُهُمْ ضِمْنَ أَصُولِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ بِالْحَجَجِ الْبَرْهَانِيَّةِ الْمُنطِقِيَّةِ الْمَقْنَعَةِ.

إِنَّكَ أَمَامَ مَوَاقِفِ السَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ وَالإِيذَاءِ، وَأَلْوَانِ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالْهَزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالْعِدَاءِ، وَسَائِرِ الْمَزْعَجَاتِ وَالْجَارِحَاتِ:

● إِمَّا أَنْ تُوَاجِعَهُ مِنْ تَدْعُوهُمْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ، فَتُخْرِجَ عَنْ مَنْهَجِ دَعْوَتِكَ الَّتِي اضْطَلَعَتْ بِأَعْبَائِهَا.

● وَإِمَّا أَنْ تَعْفُو عَنْ يَسِيءٍ إِلَيْكَ، وَتُبْقِيَ جَسورَ الصُّلَّةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَنْ تَسْعَى لِهَدَايَتِهِمْ قَائِمَةً صَالِحَةً لِلْعُبُورِ.

● وَقَدْ جَاءَ التَّوْجِيهُ الْقُرْآنِيُّ لِحُضُورِ الْعَمَلِ بِمَقْتَضَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي وَهُوَ الْعَفْوُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾.

إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ وَجَمَاهِيرَهُمْ يَكُونُونَ فِي مَعْظَمِ الْأَحْوَالِ أَتْبَاعًا لِقَادَتِهِمْ

الَّذِينَ يَتَصَدَّقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَقْفُونَ فِي طَرِيقِ دَعْوَةِ الْحَقِّ عَقَبَاتٍ، تُقَارَعُ  
بِالْخُصُومَاتِ، وَتُثِيرُ الْعَدَاوَاتِ.

فَمَنْ قَابَلَهُمْ بِمِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ أَعْطَاهُمْ فَرْصَةَ التَّمَكُّنِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا عَقَبَاتِ  
رَاسَخَاتٍ صَادَاتٍ، فَتَمْنَعُ الدَّاعِيَ مِنْ مِتَابَعَةِ الْمَسِيرِ.

أَمَّا مَنْ عَفَا عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ وَتَغَاضَى، وَأَبْقَى جَسُورَ الصَّلَاةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ  
يَسْعَى لِهَدَايَتِهِمْ قَائِمَةً صَالِحَةً لِلْعُبُورِ، فَإِنَّهُ بِطَرِيقَتِهِ يَحُلُّ عَزَائِمَ الْقَادَةِ  
الْمُتَصَدِّقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَمْنَحُهُمْ فَرْصَةَ التَّمَكُّنِ وَالرُّسُوحِ فِي مَوَاقِعِهِمْ  
الصَّادَةِ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ يَسْتَطِيعُ مِتَابَعَةَ مَسِيرَتِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، لِيَعْنَمَ  
عَظِيمَ الثَّوَابِ لَدَيْهِ، وَعَسَى أَنْ يَظْفِرَ بِمَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ وَيَهْتَدِي بِدَعْوَتِهِ.

وَالْبَدِيعِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلدَّاعِي: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أَنَّهَا جَاءَتْ بِأَسْلُوبِ  
الْمِطَالَبَةِ بِأَخْذِ الْعَفْوِ، دُونَ عِبَارَةِ: «فَاعْفُ» أَوْ عِبَارَةِ: «فَالزَّمِ الْعَفْوَ» أَوْ عِبَارَةِ:  
«فَالزَّمِ سَبِيلَ الْعَفْوِ» أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

إِنَّ جَمَلَةَ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ تُشْعِرُ بِأَنَّ الْعَفْوَ شَيْءٌ ثَمِينٌ يُؤْخَذُ، وَيُغْتَنَمُ،  
وَيُظْفَرُ بِهِ، وَأَمْرٌ يَخْرُصُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ الْإِيمَانِيَّةِ.

وَلَدَى التَّحْلِيلِ يَلَاحِظُ الْمَتَدَبِّرُ أَنَّ الْعَفْوَ لَهُ حَلَاوَةٌ فِي الْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ،  
فَمَنْ عَفَا ذَاقَ حَلَاوَةَ الْعَفْوِ إِذَا فَعَلَهُ ابْتِغَاءً مَرْضَاةَ رَبِّهِ.

وَالْأَشْيَاءُ ذَاتُ الْحَلَاوَةِ فِي الْمَادِّيَّاتِ تُوْخَذُ، وَتَسْتَعْمَلُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي  
تُعْطِي بِهَا حَلَاوَتَهَا، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِالأَخْذِ نِظْرًا إِلَى هَذَا الْمَعْنَى.

وَلَمَّا كَانَ مُجَرَّدُ أَخْذِ الْعَفْوِ يُسَبِّبُ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ وَقَلْبِهِ مَشَاعِرَ  
الْحَلَاوَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلدَّاعِي: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾.

وَيَلَاحِظُ الْمَتَدَبِّرُ أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ عَلَى الْعَفْوِ ثَوَابًا عَظِيمًا  
جَلِيلًا، وَبِمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ شَدِيدُ الْحَرَصِ عَلَى الظَّفْرِ بِهَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ، كَانَ  
مِنْ فَنِيَّةِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ الْبَدِيعِ، وَالْأَدَبِ الرَّفِيعِ، إِسْنَادُ الأَخْذِ إِلَى السَّبَبِ الَّذِي

به يُؤخذ الأجر العظيم الجليل عند الله جلّ جلاله .

وجملة: ﴿ حُذِّ الْعَفْوُ ﴾ تدلُّ بلازمها الذهني على النهي عن أخذ التَّشْفِي، أي: ولا تأخذِ التَّشْفِي لِنَفْسِكَ بالانتقام، ومقابلة السيئة بمثلها، ومعاقة المُسيء من المدعوِّين، فحلاوة العفوِ ولذته مع ثواب الله العظيم، خيرٌ لك من لذة التَّشْفِي العابرة، التي قد لا تظفر بها، وقد تجلبُ لك شرًّا كبيراً، مع ما تقيمُ من عقباتٍ وجُدُرٍ في سُبُلِ دعوتك إلى ربِّك، ومع ما تُدمِّرُ من جسورِ بينك وبين من تدعوهم .

إنّ العفو عن إساءاتِ المدعوِّين وإيذاءاتهم يُعبِّد للداعي السُّبُلَ الوعرة، التي ينبغي أن يسلكها في دعوته، ابتغاء مرضاة ربِّه، وهذا أمرٌ يُرضي الله عزَّ وجلَّ، لأنّه أكثر تأثيراً في هداية الناس، بما يملك من قلوبهم ونفوسهم وعواطفهم، وبما يُمهِّدُ من طُرُقٍ إلى استجابتهم، فيُثيبُ الله عليه ثواباً عظيماً .

● قول الله عزَّ وجلَّ للداعي: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ .

أي: وليكن من سياستك في الدعوة إلى سبيل ربِّك أن تأمر النَّاسَ بِالْعُرْفِ، والعُرْفُ في هذه المرحلة المكيَّة التي نزلت فيها سورة (الأعراف) هو ما يُسمِّيه العرب عُرْفاً، وهو البذلُّ والعطاء والمساعدة .

هذا التوجيه يدلُّ بعمومه على أن الداعي إلى الله إذا اهتمَّ في دعوته إلى سبيل ربه بقضايا ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين والضعفاء، فدافع عنها، وأمر باصطناع المعروف معهم، وحثَّ على العطف عليهم ومساعدتهم، استعطف إلى دعوته قلوبَ ونفوسَ الكثرةِ الكاثرة من جماهير الناس، إذ الكثرةُ الكاثرةُ منهم في كلِّ عصر وكلِّ أمةٍ هم دُؤو الحاجاتِ والضعفاء .

والدعوة إلى صُنْعِ المعروف معهم تستعطفهم إلى الداعي، وتجعلهم

يَلْتَفُونَ حَوْلَهُ، وبذلك تَتَوَجَّه أَفْكَارُهُمْ بِقُوَّةٍ لِقَاعِدَةِ الْإِيمَانِ الَّتِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا، فَيَسْتَقْبِلُونَهَا وَيَتَقَبَّلُونَهَا لِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ وَخَيْرٍ، ثُمَّ يَسْتَجِيبُونَ لَهَا.

ويُذَكِّرُ هَذَا التَّوْجِيهَ أَيْضاً بِقَرِينَةِ وُرُودِهِ عَقِبَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِلدَّاعِي: ﴿حُذِرَ الْعَفْوُ﴾ عَلَى التَّوْجِيهِ الْإِلْمَاحِيِّ لِقَطْعِ لِسَانٍ مِنْ يُسِيءُ إِلَى الدَّاعِي، بِأَنْ يَأْمُرَ الدَّاعِي إِخْوَانَهُ وَأَتْبَاعَهُ وَأَصْحَابَهُ وَأَنْصَارَهُ بِأَنْ يَصْنَعُوا الْعُرْفَ مَعَهُ، وَمَعَ ذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْ جَمَاعَتِهِ وَعُضْبَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ.

فَإِذَا رَأَى هَذَا الْمُسِيءَ أَنْ دَاعِيَ اللَّهِ الَّذِي أَسَاءَ هُوَ إِلَيْهِ قَدْ أَمَرَ إِخْوَانَهُ وَأَصْحَابَهُ وَأَنْصَارَهُ وَأَتْبَاعَهُ بِأَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ وَلِعَشِيرَتِهِ الْعُرْفَ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ ثَارَتْ فِيهِمُ الْحَمِيَّةُ، وَهَمُّوا بِأَنْ يَنْصُرُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَيُقَابِلُوا الْمُسِيءَ بِمِثْلِ إِسَاءَتِهِ أَوْ بَشْرٍ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَصَاغَرَ فِي نَفْسِهِ، وَيَتَرَجَعَ عَنِ مَوْفِقِهِ، وَيَحَاوِلُ التَّكْفِيرَ عَنِ إِسَاءَتِهِ.

وَتَحْكِي لَنَا قِصَصُ شَمَائِلِ الرَّسُولِ ﷺ شَيْئاً كَثِيراً مِمَّا يَتَضَمَّنُ تَطْبِيقَ هَذَا التَّوْجِيهِ الرَّبَّانِيِّ.

إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ عَلَى اقْتِضَائِهَا وَإِجْزَائِهَا الشَّدِيدِ تَحْكِي قِصَّةَ الْأُسْلُوبِ الْأَنْجَعِ لِلدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ فِي دَعْوَتِهِ.

إِنَّهُ الْأُسْلُوبُ الَّذِي يَجْذِبُ بِهِ الْجُمْهُورَ الْأَوْسَعَ لِلإِيمَانِ بِرِسَالَتِهِ، يُذَرِّكُ هَذَا أَهْلَ التَّدَبُّرِ مِنَ الْعَارِفِينَ بِطَبَائِعِ النَّاسِ، وَوَاقِعِ الشُّعُوبِ، وَالْعَارِفِينَ بِأَسَالِيبِ اسْتِعْطَافِ الْجُمْهُورِ الْأَعْظَمِ مِنْهُمْ.

● قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلدَّاعِي: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

أَيُّ: إِنَّ الَّذِينَ يَتِمَادُونَ فِي الْجَهَالَةِ عَلَيْكَ بَعْدَ الْعَفْوِ عَنِ إِسَاءَاتِهِمْ وَأَذَاهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ تَأْمُرَ بِصُنْعِ الْعُرْفِ لَهُمْ، يَنْبَغِي أَنْ تَقَابِلَهُمْ بِمُجَرَّدِ الْإِعْرَاضِ

عنهم، وهو إعطاء عارضك لهم، والعارض هو جانب الوجه والجسم.  
ونفهم من هذا أنه لا ينبغي إدارة الظهر لهم، والتولي عنهم، بل ينبغي  
الاكتفاء بمجرد الأعراس إذا تطاولوا في السفاهة.  
الإعراض: هو منزلة بين المواجهة والإذبار.

الجاهلون: المراد منهم هنا الذين يتسافهون على الفضلاء،  
فيخاطبونهم بالأقوال النابية القبيحة، أو بالشتائم وأنواع السباب، وهذا  
المعنى هو ما عناه الشاعر العربي «عمرو بن كلثوم التغلبي» بقوله:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية الموجزة بفقراتها الثلاث تُلخّص ما يمكن أن يشرح في فصول  
ثلاثة، تبين بعض عناصر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحدد  
سياسة الداعي إلى سبيل ربه مع الذين يدعوهم.

١ - خذ العفو.

٢ - وأمر بالعرف.

٣ - وأعرض عن الجاهلين.

هذه الجمل المقتضبة الحاملة لوصايا ثلاث، جمل مُلتقطة من ثلاثة  
فصول، وهي تدلّ بلوازمها الفكرية على أمهات عناصر فصولها، وهذا لَوْن  
من ألوان الأدب الرفيع الذي يُدرّكه كبار البلغاء، ويعتمدون عليه في  
بياناتهم.

معالجة نفس الداعي:

بعد الوصايا الربانية السابقة للداعي إلى سبيل ربه، جاء في النص ما  
يتضمّن معالجة نفس الداعي، إذ تتحرّك فيها الدوافع للتشفي ممّن أساء إليه.



فأبان الله له أنها من نَزْعِ الشيطان، أي: من تحريكه وتحريضه وإثارته إلى الغضب وفعل الشرِّ انتقاماً للنفس، وعلمه أن يستعمل الدواء الذي يَصْرِفُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ هَذَا النَّزْعَ.

هذا الدواء هو أن يستعيدَ بالله السَّمِيعَ العليم من الشيطان الرجيم، فإذا فعل ذلك بعزيمة صادقة، وهمّة نفسية واعية، سمع الله عزّ وجلّ استعاذته الصادقة الصادرة عن عمق فؤاده، وهو يعلم ما حدث في نفسه من انفعال يكاد يستحقّه للانتقام، فاستجاب له، وصرف عنه نزغ الشيطان، وبذلك يعودُ إلى حالة الهدوء والسكينة والطمأنينة، وكلّما كرّر الشيطان نَزْعَهُ فعلى الداعي إلى سبيل ربّه أن يكرّر استعاذته بِرَبِّهِ السَّمِيعِ العليم.

فقال الله عزّ وجلّ في النَّصِّ:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

هذه الجملة معطوفة على جُمَلِ الوصايا في الآية السابقة: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

لفظ ﴿ وَإِمَّا ﴾ مركّب من «إِنْ» الشرطية، و«مَا» التي قد تُضَافُ لتأكيد معنى الشرط وتعظيمه، مع ما فيها من تزيين للكلام إذا كان ما بَعْدَ «إِنْ» الشرطية يَلِينُ النَّطْقُ بِهِ لَدَى إِضَافَةِ حَرْفِ «مَا».

النَزْعُ: في الحسيّات هو النَّخْسُ والغَرَزُ بإبرةٍ أو نحوها، بغية الإثارة والدفع لأمرٍ ما.

ويستعملُ في المعنويّات النَّفْسِيَّةِ للدلالة على ما يُشْبِهُ ذلك من وساوس مُثِيرَةٍ للغضب، ومُهِيجَةٍ للانتقام.

وجاء تأكيدُ فعل: ﴿ يَنْزَغَنَّكَ ﴾ بِنُونِ التوكيد الثقيلة للدلالة على أن النَزْعَ قد بَلَغَ مَبْلَغَ بدايات حدوثِ الغَضَبِ وتحركِ ثورته.

والاستعاذة بالله هي اللجوء إليه بالدعاء في طلب الحماية والحفظ من وساوس الشيطان ونزغاته، وصرف تأثيراته الكيدية.

العوذ في اللغة: اللجوء والاعتصام، يقال لغة: عاذ به يعوذ عوذاً وعياداً، إذا التجأ إليه واعتصم به، ليحفظه ويحميه، والاستعاذة هي طلب العوذ.

ولما كان الله عز وجل هو الذي بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير، كان من قام بواجباته كما أمره الله واستعاذ به داخلًا في ملجأ الله، وفي دائرة عصمته وحمايته.

وختم الله عز وجل الآية بقوله في وصف ذاته مؤكداً: ﴿إِنَّكُمْ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه تبارك وتعالى ذو سمع عظيم يسمع به كل صوت، وذو علم عظيم يعلم به كل شيء حتى ما تكئه النفوس، وتضمرة القلوب.

وفي ذكر هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى إشارة إلى أن الاستعاذة بكلام مصحوب بصوت مهما كان خافتاً ينبغي أن تكون مقرونة بنية صادقة من عمق الفؤاد، حتى يستجيب الله دعاء من استعاذ به، فيصرف عنه نزغات الشيطان، فما تنويه القلوب مشمول بصفة العلم، مع علمه تبارك وتعالى بكل شيء.

وفي ذكر هذين الوصفين مع سوابق العلم بأن الله عز وجل يجيب دعاء من دعاه إذا علم أن في دعائه الذي دعاه خيراً له في دنياه وأخراه، كالأستعاذة به من الشيطان الرجيم دلالة على أن الله عز وجل يعيده من نزغات الشياطين، ويصرف عنه ما يجد في نفسه من أثرها.

لقد جاء وصف الله عز وجل هنا في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بأنه سميع عليم، دون إفادة معنى حصر هذين الوصفين بالله عز وجل.

لَكِنَّ فِي التَّعْلِيمِ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١/ مَصْحَف/ ٦١ نَزُول) الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ (الأعراف) بِوَاحِدٍ وَعَشْرِينَ سُورَةَ، جَاءَ حَضْرُهُ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، تَأْكِيداً لِلدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِأَنَّهُ لَا سَمِيعَ فِي الوجودِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا عَلِيمَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَالَ تَعَالَى فِيهَا:

﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢١)

فَدَلَّ عَلَى الْحَضْرِ تَعْرِيفِ طَرَفِي الإِسْنَادِ وَالتَّأْكِيدِ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ «هُوَ» وَأَدَاةَ التَّعْرِيفِ «أَل» فِي «السَّمِيعِ» وَ «العَلِيمِ» هِيَ لِلْكَمَالِ الدَّالَّةُ عَلَى اسْتِغْرَاقِ كُلِّ أَفْرَادِ جِنْسِ السَّمْعِ وَجِنْسِ الْعِلْمِ، وَكُلَّ مَسْتَوِيَاتِهِمَا.

وَبَعْدَ هَذَا انْتَقَلَ النَّصُّ مِنْ تَوْجِيهِ الدَّاعِي إِلَى تَوْجِيهِ كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ حَوْلَ قَضَايَا نَزْغِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الوَصْفَ الَّذِي يَتَحَلَّى بِهِ الْمُتَّقُونَ بِأَسْلُوبِ الْخَبَرِ، لَا بِأَسْلُوبِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ أَدَبِ التَّوْجِيهِ التَّكْلِيفِيِّ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّكَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٢١)

● قَرَأَ جَمْهُورُ القُرَّاءِ العِشْرَةَ: ﴿ طَئِيفٌ ﴾ .

● وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَالكَسَائِيُّ: ﴿ طَيْفٌ ﴾ .

وَبَيْنَ القُرَّاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِكْرِيٌّ، فَالطَّائِفُ: هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الوَسَاوِسَ وَالدَّسَائِسَ وَالتَّسْوِيلَاتِ، فَيَطُوفُ وَيَقْدِفُ بِهَا عَلَى فَرِيستِهِ .

وَالتَّطِيفُ: التَّخْيِيلَاتُ وَالرُّؤْيَى النَّفْسِيَّةُ .

فَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ الْمُتَّقِينَ لِلَّهِ الحَرِيصِينَ عَلَى حِفْظِ أَنْفُسِهِمْ وَحِمَايَتِهَا مِنْ نَزْغَاتِ الشَّيَاطِينِ، إِذَا مَسَّهُمْ بِالْوَسَاوِسِ طَائِفٌ أَوْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا، أَيُّ: تَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ وَسُلْطَانَهُ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، فَاسْتَعَاذُوا

به، فأعادَهُمْ، فصرف عَنْهُمْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، الَّتِي رُبَّمَا أَلْقَتْ غِشَاوَةً عَلَى بَصَائِرِهِمْ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، قَدْ مُسِحَتْ عَنْهُمْ الْغِشَاوَةُ الَّتِي جَلَّلَتْ بَصَائِرَهُمْ مِنْ بَخَارِ الْغَضَبِ أَوْ الشَّهْوَةِ أَوْ الْهَوَى، أَوْ دُخَانِهَا.

وَأَمَّا إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ الْمَصَاحِبُونَ لَهُمْ فِي الْمَسَالِكِ، وَالْمَتَابِعُونَ خَطَوَاتِهِمْ إِلَى الْمَهَالِكِ، الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، وَلَا فِي أَعْمَالِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ، فَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَقْعُوا فَرِيسَةً لِنَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ، فَيَسْتَدْرِجُونَهُمْ، وَيَسْحَبُونَهُمْ إِلَى أَوْدِيَةِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، حَتَّى يَقْذِفُوا بِهِمْ إِلَى شَقَائِهِمْ، وَيَطْرَحُوهُمْ يُعَانُونَ أَنْوَاعاً مِنَ الْمَصَائِبِ وَالنَّكَبَاتِ، وَتَتَوَالَى عَلَيْهِمُ الْآلَامُ النَّفْسِيَّةُ وَالْآلَامُ الْجَسَدِيَّةُ حَتَّى يَكُونُوا مِنَ الْهَالِكِينَ.

وفي شأن هؤلاء قال الله عز وجل في النَّصِّ:

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾.

وإخوانهم: أي: وإخوان الشياطين، وهي أخوة مصاحبة ومتابعة في مسالك الضلال والغي.

وجاء الضمير العائد على الشيطان بصيغة ضمير الجمع تنبيهاً على أن لفظ «الشيطان» اسم جنس يعُمُّ كلَّ شياطين الإنس والجن.

فإخوان الشياطين هم الذين يتبعونهم ويصاحبونهم في مسالكهم، ويستجيبون لوساوسهم وتسويلاتهم التي يطمعونهم فيها بالباطل.

يَمُدُّونَهُمْ: من فعل: «مَدَّه» - يَمُدُّهُ» إذا أعطاه مدداً، وزاده فيما هو فيه، وأعاناه في شأنه، والمدُّ يكون في الماديات وفي المعنويات.

وهذه قراءة جمهور القراء العشرة، وقرأ المدنيان: نافع وأبو جعفر: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ من فعل: «أَمَدَّه» - يُمِدُّهُ» وهو بمعنى: مده لغة.

في الْغَيِّ: الْغَيُّ: مصدر «غَوَى» يقال لغة: غَوَى يَغْوِي غَيًّا وَغَوَايَةً،

وهو ضد الرشد، فيشمل كل ضلال وانحراف وخروج وبُعْدٍ عن الحق وصراط الله المستقيم.

ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ: أي: ثُمَّ لَا يَكْفُ الشياطين وَلَا يُمَسِّكُونَ عَنْ مُتَابَعَةِ إغوائهم وإضلالهم، حَتَّىٰ إبلاغهم إِلَى قَعْرِ شقائهم إِنْ اسْتَطَاعُوا، وَقَعْرُ شقائهم هُوَ الدَّرَكُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

يُقَالُ لُغَةً: أَقْصَرَ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ الْأَمْرِ أَوْ الْعَمَلِ إِذَا كَفَّ عَنْهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ.

فالشياطين لا يكفون عن الإغراء والإغواء والإطماع بالباطل والاستدراج إلى أسفل سافلين.

والمعنى أَنَّ الشياطين مهما غوى تابعهم وأوغل في ضلاله، فَإِنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَهُ وَشأنه يَتَخَبَّطُ بِنَفْسِهِ فِي الضلال ولو طال الزمن، بل هم لَا يُمَسِّكُونَ وَلَا يَكْفُونَ عَنْ إمداده فِي الغيِّ، لِأَنَّ دَرَكَاتِ الغيِّ ذَاتُ سَحيقٍ بَعِيدٍ، وَهم يَحْرُصُونَ عَلَى أَنْ يوصلوه إِلَى أسفل سافلين، وَلَا يَكْتَفُونَ بِمَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ دَرَكَاتٍ، وَلِهَذَا جَاءَ التَّعْبِيرُ بِحَرْفِ العطفِ «ثُمَّ» فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

وَحِظُّ الدُّعَاةِ مِنْ هَذَا التَّوْجِيهِ التَّحْذِيرِ الشَّدِيدِ مِنَ الاسْتِجَابَةِ لِنَزَعَاتِ الشياطين، حَتَّىٰ لَا يَتَحَوَّلُوا مِنْ كَوْنِهِمْ دُعَاةً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، إِلَى كَوْنِهِمْ إِخْوَانَ الشياطين، وَقَدْ تَكُونُ الْبَدَايَةُ ثَوْرَةً غَضَبٍ مِمَّا تَلَقَّوهُ مِنْ أَدَى مِنْ قَبْلِ الْمَدْعُوبِينَ دَفَعْتَهُمْ إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَمُقَابَلَةِ الشَّتَائِمِ وَالْإِتِهَامَاتِ وَالتَّجْرِيحَاتِ بِأَمْثَالِهَا.

\* \* \*

## التعليم الثالث

جاء هذا التعليم في سورة (الجن/ ٧٢/ مصحف/ ٤٠/ نزول) وقد تضمن هذا التعليم أربع وصايا.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

كان موقف المشركين إبان نزول سورة (الجن/ ٧٢/ مصحف/ ٤٠/ نزول) قد تطوّر إلى أن كادوا يكونون مجتمعين على عداوته ومقاومة دعوته، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه، اجتماعاً متكاتفاً متلبّداً، كتلبّد الصوف أو الشعر، حين يترأكب بعضه على بعض دلّ على هذا الطور قول الله عز وجل في هذه السورة: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَأْ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

وهذا الطور يستدعي من الرسول ﷺ معالجات تلائمه، وقد جاء في السورة تعليم من الله لرسوله يشتمل على أربع وصايا:

الوصية الأولى: (أن يقول لهم إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) أي: ما أَعْبُدُ إِلَّا رَبِّي فِي سُلُوكِي الشَّخْصِي، وفي دَعْوَتِي إِلَى سَبِيلِهِ، وفي الْبَلَاغَاتِ الَّتِي أَمَرَنِي أَنْ أَبْلُغَهَا لِعِبَادِهِ، وَأَنَا لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا، فَأَنَا بِهَذَا أَقَوْمٌ بِمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ عِبَادَةِ تُجَاهَ رَبِّي الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

ولهذا فأنا لَا أَتَلَقَّى الْأَوَامِرَ مِنْكُمْ وَلَا مِنْ آلِهَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ، الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى أَتَوَقَّفَ عَنْ عِبَادَتِي لِرَبِّي فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى سَبِيلِهِ، وَفِيمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ تَبْلِيغِ كِتَابِهِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَيَّ تَبَاعًا نَجْمًا فَنَجْمًا.

إنكم تطالبونني بأن أكفَّ عن تبليغ رسالة ربِّي، وأنا لا أستجيب لمطلبكم هذا، فأنا أعبدُ ربِّي الذي لا شريك له، وهو الذي كلَّفني أن أقوم بهذا التبليغ، وأن أدعوَ إلى سبيله.

وسأتابع عبادتي لربِّي في تبليغ دينه، ونشره بين عباده، مهَّما جمعتم جموعكم لحزبي ومقاومة دعوِّي، ومهَّما تلبَّدتم عليَّ متواطئين ضدِّي، وضاعطينَ على صدري، لإسكاتِ لساني، وقَطعِ أنفاسي.

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

\* \* \*

الوصية الثانية: (أن يقول لهم: إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً).

كان الرسول ﷺ والذين آمنوا معه في المرحلة التي نزلت فيها سورة (الجن) لا يملكون قوَى دفاع تحصنهم من قوَى مشركي مكَّة لو اجتمعوا عليهم، وأعدوا العدة لقمعهم، لكن أمرهم كان يتفاهم بتكاثر الذين يؤمنون، وهذا يجعل المشركين يتخوفون من احتمالات المستقبل، وأن عليهم أن يسارعوا بتدارك الأمر قبل أن يستفحل، ويفلت زمامه من أيديهم.

فاقتضت السياسة الحكيمة الربانية إعطاءهم جزعات تهدئة تحذرهم، وتبرِّد لهيب توجسهم من احتمالات تفاهم قوَى الرسول والذين آمنوا معه.

فإذا قال لهم: (إني لا أملك لكم ضراً) ألقى في مشاعرهم أنه بعيدٌ بعداً كبيراً عن الاستعداد لمقارعتهم بقوة دفاعية، فتبرِّد حماسهم، ويتوقَّف - ولو إلى حين - تجمُّعهم للقمع، وإعداد القوى القتالية لإيقاف مدَّ القوَى الإسلامية.

وفي هذا الإعلان سياسة بارعة مهَّدئة لقلق المشركين، وثوَّرتهم ضده.

وفي بيان أنه لا يملك لهم رَشداً، إشعاراً لهم بأنه لا يملك وسيلةً يُلزمُهُم بها إلزاماً قَهْرِيًّا أن يكونوا راشدين، مسلمين، مُتَّبِعِينَ صراطِ الْهُدَى، وهذا البيان يتضمَّن أمرين:

الأول: أنه لَنْ يُلْزِمَهُمْ يوماً ما على الإيمان به واتباعه.

الثاني: أنه يُحْمَلُهُمْ مسؤولية اختيارهم الحرّ تُجَاهِ رَبِّهِمْ، الَّذِي سَيَحَاسِبُهُمْ وَسَيُجَازِيهِمْ يومَ الدين.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنِّي لَأَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرْواً وَلَا رَشداً﴾.

\* \* \*

الوصية الثالثة: (أن يُبَيِّنَ الرسولُ لَهُمْ أنه إذا تَوَقَّفَ عن أدائه ووظائف رسالته وَقَعَ تَحْتَ طَائِلَةِ عِقَابِ الله له الَّذِي لا يجيرُهُ منه أحداً).

رُوي أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إِنَّكَ جِئْتَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَقَدِ عَادَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَارْجِعْ عَن هَذَا فَنَحْنُ نُجِيرُكَ.

فاقتضى هذا أن يُبَيِّنَ لهم أنه مسؤولٌ تُجَاهِ رَبِّهِ عن تبليغ ما يَأْمُرُهُ بتبليغه للناس، وإن لم يَقُمْ بهذا الواجب العظيم فإنَّ الله عزّ وجلّ سَيُعَاقِبُهُ عِقَاباً شديداً، وَلَنْ يُجِيرَهُ فيحِميهِ من عذابِ الله أحد.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ إِلَّا بَلَّغَا مِنَ اللَّهِ وَرَسَلْتَهُ... ﴿١٣﴾.

لَنْ يُجِيرَنِي: أي: لَنْ يَمْتَنِعَنِي ويحميني من عذابِ الله أحد إن لم أقم بوظائف رسالتي التي أرسلني للقيام بها.

مُلْتَحِداً: أي: مُلْجأً أُلْجَأُ إليه رجاءً أن يحميني من عذابِ ربي. أي:



ولن أجد من دون الله ملجأً يحميني ويعصمني من عقاب الله، إلا ملجأً واحداً هو أن أقوم بوظائف رسالتي.

\* \* \*

الوصية الرابعة: (أن يُخَوِّفَهُمْ من عذاب نار جهنم إذا عَصَوْوا الله ورسوله).

دل على هذه الوصية قول الله عز وجل في السورة: ﴿... وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾.

والمراد من المعصية هنا عدم الاستجابة لدعوة الرسول إلى الإيمان والإسلام.

\* \* \*

## التعليم الرابع

جاء هذا التعليم في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

وقد تضمّن هذا التعليم وصية واحدة موجهة للداعي إلى الله، وهي:

● أن لا يحزن الداعي إلى الله إذا قال المدعوون فيه مقالات تسوؤه، فالله عزّ وجلّ عليم بما يقولون في سرّهم وفي علانيتهم، وهو يتولّى الداعي إلى سبيله ابتغاء مرضاته، ومن تولّاه الله كفاه، وأعطاه من الخير مناه.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

كان موقف بعض أئمة المشركين إيماناً بنزول سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) اتّهام الرسول ﷺ بأنه شاعر، وبأنّ القرآن المجيد الذي يأتي به لؤنّ من ألوان الشعر، فهو يؤثر به على الذين يؤمنون به، دلّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: وما أعطيناه موهبة صناعة الشعر، وما علّمناه ضبط أوزانه، ولا سوق كلامه وفق أساليبه وطرائقه، وما ينبغي له أن يكون شاعراً تستهويه أغراض الشعراء فيما يقولون من شعر.

أمّا القرآن فليس من الشعر الذي تُصطادُ معانيه من الرؤى الخيالية الهائمة على غير هدى في كلّ وادٍ مُنحدرٍ من أودية أهواء النفوس، وتكثر فيه الادّعاءات الكاذبات.

إنما القرآن كلام مبين يتضمّن حقائق ووصايا هاديات وداعيات إلى  
لخير، ومُبَشِّرَاتٍ لِمَن آمَنَ وَاتَّبَعَ هُدْيَهُ بِالْعَاقِبَةِ الْحَسَنِي، وَمُحَذَّرَاتٍ وَمُنذِرَاتٍ  
مَن كَفَرَ وَلَمْ يَسْتَجِبْ بِالْعَاقِبَةِ الْوَحِيمَةِ، فيجب أن يكون ذِكْرًا حَاضِرًا فِي  
لذكريات، للانتفاع به دواماً في حركة حياة الإنسان.

فمن كان حيّ الفؤاد انتفع بهدايته، وبما فيه من إنذارات.

واتهامُ الرُّسُولِ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ، وبأنَّ القرآنَ الَّذِي يُبَلِّغُهُ عَنِ رَبِّهِ لَوْثٌ مِنْ  
الوانِ الشَّعْرِ، اتِّهَامٌ قَدْ كَانَ يُدْخِلُ عَلَى نَفْسِهِ سَحَابَاتٍ مِنَ الْحُزَنِ، فأوصاه الله  
فِي السُّورَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧).

إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ: جُمْلَةٌ تَحَدَّثَتْ عَنْ شُؤْلِ عِلْمِ اللَّهِ بِمَا  
يُسِرُّ الْكَافِرُونَ مِنْ أَقْوَالِ ضِدِّ الرُّسُولِ ﷺ، وَمَا يُعْلِنُونَ مِنْهَا.

وهذه الحقيقة لا تخفى على الرُّسُولِ ولا على الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ،  
إِلَّا أَنْ إِبْرَادَهَا يُشْعِرُ بِأَنَّ عِلَّةَ التَّوَصِيَةِ بِأَنْ لَا يُحْزِنَهُ قَوْلُهُمْ، هُوَ أَنَّ الرَّبَّ  
الْجَلِيلَ بِعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَقَدْرَتِهِ عَلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَاءِهِ وَخَذْلِ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَاءِ الدُّعَاةِ  
إِلَى سَبِيلِهِ، عَلِيمٌ بِمَا يُسِرُّونَ وَبِمَا يُعْلِنُونَ مِنْ أَقْوَالِ وَأَعْمَالِ، وَالْعَلِيمُ الْحَكِيمُ  
الْقَدِيرُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَلَّى أَوْلِيَاءَهُ، وَيُنْتَقِمَ مِنَ الْمَجْرِمِينَ، مَتَى اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ  
الانتقام منهم.

\* \* \*

## التعليم الخامس

وصل موقف المشركين إبان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) إلى طور اتّهام الرسول ﷺ بأنه افترى القرآن من عنده ونسبه إلى ربه، وأعانه عليه قومٌ آخرون، وقال فريق منهم: هو أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملأ عليه بكرةً وأصيلاً.

وَشَكَكُوا فِي رسالة الرسول، لأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسب رزقه. زاعمين أنّ الرسول ينبغي أن يكون مَلَكًا، واقترحوا أن يكون معه مَلَكٌ، أو يُلقَى إليه كثرٌ من السماء، أو تكون له جَنَّةٌ يأكلُ منها.

وقالوا للمسلمين: إن تبعون إلّا رجلاً مَسْحُورًا، وطلبَ بَعْضُهُمْ أَنْ يُنَزَّلَ اللهُ عليهم ملائكة لتبليغهم رسالات ربهم، أو أن يَرَوْا ربهم، واعترضوا على تنزيل القرآن مُنْجَمًا، وطلبوا أن ينزل جُمْلَةً واحدة.

وبدؤوا يتكلمون لمقاومة دعوة الرسول ﷺ، وهم يملكون قُوَى قتالية لا يَمْلِكُ المسلمونَ من القوي المادّية ما يحميهم منها في ذلك الوقت.

وقد جاء في السورة بيان كلّ هذا مع الرّد عليه بالحجّة الكافية للاقناع، وجاء فيها عَرْضُ طائفة من أدلّة توحيد الربوبية لله عزّ وجلّ، الذي يلزم عنه عقلاً توحيد الإلهية له جلّ وعلا.

وَسَتَفِيدُ لمنهاج الدعوة ووسائل التربية من سورة (الفرقان) ما يلي:

## التوجيه الأول:

اتخاذ أسلوب الإعراض الذي هو وسط بين المواجهة والإدبار في توجيه بيانات الدعوة وبلاغاتها عمّن تولّى وكفر، بعد أن وصل إلى حال المكابرة والعناد، ومعاداة الرسول والمؤمنين، والعمل على قمع الدعوة بالقوة، وهو الموقف الذي وصل إليه كفّار مكّة في مرحلة نزول سورة (الفرقان).

ونفهم هذا الإعراض من أسلوب الحديث عن الغائب في الكلام على أقوال المشركين في السورة، أو تكليف الرسول مخاطبتهم، دون مواجهتهم بالخطاب إلّا في الإنذار.

\* \* \*

## التوجيه الثاني:

التربية عن طريق الإقناع بوسائله المختلفة، ومنها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: بيان الحقّ، وإتباعه بالأدلة التي تثبت أنه حقّ، كأدلة إثبات التوحيد في السورة (انظر الآيات من ٤٥ - ٤٩ و ٥٣ - ٥٤ و ٦١ - ٦٢).

وبيان الباطل، وإتباعه بالأدلة التي تكشف أنه باطل، كأدلة إبطال الشرك في السورة (انظر الآيتين ٣ و ٥٥).

الوسيلة الثانية: الإحالة على دليل الملاحظة والتجربة، كتوجيه الأنظار للتأمل في الظواهر الكونية بغية ملاحظة الأدلة التي فيها، أو تجرّبة ما يُجرّب منها، وللتنقيب عن خفاياها بغية التوصل إلى دقائق المعارف، واستنباط الكوامن، وإدراك ما وراء الظواهر، «وهلذا كثير في السورة».

الوسيلة الثالثة: الإحالة على سنة الله في تاريخ البشرية (انظر الآية ٢٠).

الوسيلة الرابعة: سؤال المجربين أهل الخبرة، للتوصل عن طريق خبراتهم وتجاربهم إلى الحق (مثل ما جاء في الآية ٥٩ فأسأل به خبيراً).

الوسيلة الخامسة: تفسير تراتيب القضاء والقدر بما يكشف وجه الحكمة، كالتفسيرات التي كشفت في السورة وجوه الحكمة الربانية في اختيار رسول من البشر، وعدم إعطائه الخوارق التي طلبها الذين كفروا، لأنها مطالب تعنتية، لا مطالب باحث عن دليل لإثبات الحق والصدق، وكشفت وجوه الحكمة من اختيار تنزيل القرآن مفرقاً.

\* \* \*

#### التوجيه الثالث:

التربية عن طريق الترغيب والترهيب بأساليب مختلفة، ومنها الوعد بالثواب المؤجل إلى يوم الدين، والمعجل في الدنيا، والوعيد بالعقاب المؤجل والمعجل، وتوجيه الأفكار للاعتبار بما جرى في سالف التاريخ البشري من جزاءات ربانية، مع الإشارة إلى أنها من ظواهر سنن الله في خلقه التي لا تبديل فيها ولا تحويل. وهذا كثير في السورة.

\* \* \*

#### التوجيه الثالث:

تربية الرسول ﷺ والدعاة من أمته بالأسوة الحسنة، وفي هذه التربية إقناع، وتسلية، وتطبيب نفس (انظر الآية ٢٠ والآية ٣١).

\* \* \*

#### التوجيه الرابع:

توصية الرسول ﷺ وكل حامل لرسالته من أمته بالصبر على أنواع الأذى التي يتلقاها من الذين يؤذي بينهم رسالته، وأن عليه أن يضع في تصوّره دوماً أنه مُمتحن بهم.

دلّ على هذه التوصية في سورة (الفرقان) قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا  
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ بِرُؤُوسِكُمْ وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرِكُمْ﴾ .

\* \* \*

التوجيه الخامس:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن لا يطيع الكافرين،  
فلا يتأثر بمقترحاتهم ومزالقهم وما يطرحونه من تشكيكات.

دلّ على هذه التوصية قول الله عز وجل في السورة: ﴿فَلَا تُطِيعِ  
الْكَافِرِينَ...﴾ .

\* \* \*

التوجيه السادس:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يجاهد الكافرين  
بالقرآن جهاداً كبيراً، ويكون هذا الجهاد، بشرح وبيان ما في القرآن من  
حقائق، وأدلة تُثبتها، وعرضٍ وشرحٍ وسائل تربيته للناس الاقناعية والترغيبية  
والترهيبية.

دلّ على هذه التوصية قول الله عز وجل في السورة: ﴿... وَجَاهِدْهُمْ  
بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ .

\* \* \*

التوجيه السابع:

توصية الله رسوله وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يضع في تصوّره دوماً  
أن رسالته رسالة تبليغ وبيان وإقناع وترغيب وترهيب وتربية، ثم إنذار  
بعذاب الله لمن كفر وعصى، وليس مكلفاً أن يحوّل الناس من الكفر إلى  
الإيمان، إذ عليهم أن يؤمنوا باختيارهم الحرّ.

فما عليه إلا أن يكون مبشراً لمن أطاع واتبع، ومُنذِراً لمن أبى وأذبر  
أو أعرض.

\* \* \*

التوجيه الثامن:

توصية الرسول ﷺ ويلحق به كلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يُعلنَ  
للجميع أنه ما يسأل الناس أجراً على ما يقدم لهم من هدايةٍ وخير، وما يبذلهُ  
لهم من نُضحٍ ومجاهدة.

\* \* \*

التوجيه التاسع:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يتوكّل في مسيرته  
ذاتِ الأعباء الشاقة على الحيّ الذي لا يموت.

\* \* \*

التوجيه العاشر:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يُسبِّح بحمد الله آناء  
الليل وآناء النهار، وكلّما حَزَبَهُ أمر.

\* \* \*

التوجيه الحادي عشر:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته، بأن لا يَحْمِلَ هَمَّ مَا  
يُشَاهِدُ مِنْ ذُنُوبِ عِبَادِ اللَّهِ الْكَثِيرَةِ، وَأَنْ يُوقِنَ أَنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِهِمْ، عَلِيمٌ  
بأحوالهم، وكفى بالله خبيراً بذنوبِ عباده.

\* \* \*

التوجيه الثاني عشر:

توصية الرسول وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته، أن يبيّن للذين كفروا،



أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يَعْأُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ بِإِيمَانِهِمْ، وَالتَّزَامِهِمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَلَا يَتَأَثَّرُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ بِكُفْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، إِذْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، فَلَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئاً، لَوْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَلَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئاً لَوْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ.

إِنَّمَا يَعْأُ بِهِمْ مِنْ أَجْلِهِمْ أَنْفُسِهِمْ، لِهَذَا فَهُوَ يُوجِّهُ لَهُمْ دُعَاءَهُ رَغْبَةً فِي أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، كَيْ يَظْفَرُوا بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي دَارِ النَّعِيمِ، وَكَيْ يُنْجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْجَحِيمِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ التَّوْصِيَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي آخِرِ سُورَةِ (الْفِرْقَانِ):

﴿ قُلْ مَا يَعْأُو بِكُفْرِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَمَانًا ﴾.

أَي: قُلْ مَا يَعْأُو بِكُمْ رَبِّي مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ، لَكِنْ يَعْأُو بِكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ أَنْتُمْ، فَيُوجِّهُ لَكُمْ بَيَانَاتِهِ وَتَذْكَيرَاتِهِ وَنَصَائِحَهُ وَإِزْشَادَاتِهِ وَتَرْغِيْبَاتِهِ وَتَرْهِيْبَاتِهِ وَمَعَالِجَاتِهِ التَّرْبَوِيَّةَ الْمَخْتَلِفَةَ.

لَكِنَّاكُمْ بِإِصْرَارِكُمْ عَلَى الْكُفْرِ تَكُونُونَ أَنْتُمْ غَيْرَ عَابِثِينَ بِنَجَاتِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَظَفَرِكُمْ بِالنَّعِيمِ الْأَبَدِيِّ الْمَقِيمِ، وَمَعْرِضِينَ أَنْفُسَكُمْ لِلْخُلُودِ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ الْعَذَابُ مَلَاظِمًا لَكُمْ لِأَنَّ تَكْذِيبَكُمْ مَلَاظِمٌ لَكُمْ.

\* \* \*

## التعليم السادس

جاء هذا التعليم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم ستَّ وصايا:

١ - أن لا يَحْزَنَ الدَّاعِي إلى الله على الكافرين المصرين على كفرهم بعناد، مُعَرِّضِينَ أَنفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمُ الْعِنَادِي لِعَذَابِ اللَّهِ الْأَبَدِيِّ.

٢ - أن لا يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُ الْكَافِرُونَ ضِدَّهُ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَضِدَّ الْقُرْآنِ وَمَبَادِيءِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ، فَطَبِيعَةُ حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا هَذَا الْمَكْرُ، وَأَنْ يَقُومَ فِيهَا صِرَاعٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ سَيُحِيطُ مَا يَمْكُرُ الْكَافِرُونَ، أَوْ يَجْعَلُ مَكْرَهُمْ يُحِيطُ بِهِمْ، إِذَا صَدَّقَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَامُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِهِ.

٣ - أن يُعْلِنَ الدَّاعِي أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ فِي عِبَادَاتِهِ الْخَاصَّةِ وَفِي قِيَامِهِ بِأَدَاءِ وَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَوَاجِبِ التُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

٤ - أن يُعْلِنَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ مُلْزَمٌ بِكُلِّ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَلَيْسَ لَهُ إِعْفَاءٌ خَاصٌّ يَعْفِيهِ مِنَ الْإِلْتِزَامِ بِهَا.

٥ - أن يَبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ مَكْلَفًا أَنْ

يُذَرِّمُهُمُ بِالْجِبْرِ وَالْإِكْرَاهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِيهِ .

لكن عليه أن يُبَشِّرَهُمْ بِأَنْ مِنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَأَنْ يَنْذِرَهُمْ بِأَنْ مِنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الضَّلَالِ فَعَلِيهِ أَنْ يُعِدَّ نَفْسَهُ لِتَحْمَلِ عَذَابَ رَبِّهِ .

٦ - أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ بَعْدَ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ بِأَنْ الْحَمْدَ كُلَّهُ لَهُ ثَلَاثَ قَضَايَا :

الأولى : أَنْ اللَّهُ سِرِّيهِمْ آيَاتِهِ فَيَعْرِفُونَ أَنَّهَا آيَاتُ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ .

الثانية : أَنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مَا يَفْعَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

الثالثة : أَنْ اللَّهُ سَيَحَاسِبُهُمْ وَيَجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْإِرَادِيَّةِ، وَعَلَى مَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

التحليل أخذاً مما جاء في السّورة :

كانت الحكمة العلاجية إبان نزول سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) تَقْتَضِي مَجَادَلَةَ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، حَوْلَ قَضِيَّةِ التَّوْحِيدِ، رَغْبَةً فِي إِقْنَاعِهِمْ بِبُطْلَانِ الشُّرْكِ فِي رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ، وَالشُّرْكِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَإِقْنَاعَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِأَنَّهُ لَا إِلَهَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ .

فَعَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي السُّورَةِ مِنْهَجاً جَدَلِيّاً يَجَادِلُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ، لِيَقِيمَ لَهُمُ الْبُرْهَانَ الْقَاطِعَ عَلَى التَّوْحِيدِ .

والمجادلة لإثبات قضية التوحيد تجرُّ إلى إثبات قضية الدينونة عند الله، والجزاء يوم الدين، على الأعمال في الحياة الدنيا .

وهنا يجد المشركون منكرو البعث مهزباً ينزلقون منه لرفض الاعتراف بأن الآخرة حقٌّ، إذ يجدون مجالاً لأن يتساءلوا عن زمن قيام الساعة، وجوابهم يكون ببيان أنّ وقتها من علم الغيب الذي أخفاه الله عزَّ وجلَّ عن جميع خلقه فلا يعلمه إلا هو .

وقد كان مَوْقِفُهُمْ في هذه المرحلة مَوْقِفَ الإصرار على ما هم فيه من شرك وإنكارِ ليوم الدين، واعتبارِ الخبر عن البعث للحساب وفضل القضاء والجزاء من أساطير الأولين، مع أنهم لَيْسُوا في حقيقة قُلُوبِهِمْ جازمين بأنه لا بعثَ يومَ القيامة ولا حسابَ وَلَا جَزَاءَ، بل هم في الحقيقة فريقان: فريق قارب أن يُدركَ الآخرةَ، وفريق أذركها.

فالفريق الذين قاربوا إدراكها قد وصلت أفكارهم في موضوع الآخرة إلى قُرْبِ إدراك أنها حق، دلّ على هذا قول الله عز وجل في السورة:

﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ...﴾

أي: بل تقارب متتابعاً في طريق المراحل الاستدلالية إدراكهم العلمي في شأن الآخرة إلى الوصول إلى العلم بها، وإدراك أنها حق.

إدراك: أي: تدارك متتابعاً متلاحقاً في طريق الإدراك الواضح. وهذه قراءة جمهور القراء العشرة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ﴾ وهذه القراءة تفيد أن فريقاً آخر منهم قد بلغ بحُتْمِ الفكري إلى إدراك أن الآخرة حق، وصارَ هذا الإدراك لديهم علماً.

فهم فريقان إذن:

- فريق أدراك في موضوع الآخرة علمهم، أي: تقارب من الجزم.
- وفريق أذرك في موضوع الآخرة علمهم بأنها حق، أي وصل إلى العلم بأن الآخرة حق، فهو عالم بها في قلبه، إلا أنه يجحدها بلسانه.

والذين أدراك علمهم في الآخرة، لم يبتق لديهم في طريق العلم إلا شك ضعيف لا يصح عقلاً أن يصرفهم عن الإيمان بها، دلّ على هذا قول الله عز وجل:

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا... ﴾ (١١)

والسبب في انصرافهم عن إعلان الإيمان بها، وإعلان الإسلام، واتباع الرسول والعمل بما جاء في القرآن، أنهم قد غشّت على بصائرهم أهواؤهم وشهواتهم ورجباتهم من الحياة الدنيا، التي يحرصون على الاستمتاع بها غاية الاستمتاع، ولا يريدون ضبط أنفسهم عن الانطلاق الفاجر في أوديتها بالإيمان والاتباع وطاعة الله ورسوله، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ (١١)

أي: بل هم بعد قُرب الإذراك، أو حُصول الإذراك، عمُونَ عن رؤية ما هو الخير لهم في آجل أمرهم حُبّاً بالعاجلة، ونفوراً من الضوابط التي تُلجمهم عن الانطلاق الفاجر إذا آمنوا بالله واليوم الآخر.

وإذ سَنَطَر عليهم عمى الأهواء والشهوات، لجؤوا إلى المراوغة والمكر في حيل الألفاظ والجدليات الباطلات الزائفات.

وإزاء موقفهم هذا الذي يتزلق بهم إلى جهنم وبئس المصير، أخذت تمرُّ بقلب الرسول الرؤوف الرحيم ساحابات من الحزن عليهم، إشفاقاً عليهم من المصير الذي هم إليه صائرون بكفرهم العنادي.

فاقتضت الحكمة الربانية أن يُوجه الله عزّ وجلّ في السورة لرسوله وصيتين حول واقع المشركين هذا:

الوصية الأولى: أن لا يخزن عليهم، نظراً إلى أن كفرهم لم يكن عن جهلٍ بالحق، بل عن عناد وإصرارٍ على الباطل، واتباعٍ لأهواء نفوسهم وشهواتها، ورجبة في العاجلة وإيثار لها على الآجلة.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ... ﴾ (٧)

الوصية الثانية: أن لا يكون في ضيقٍ مما يَمْكُرُونَ بحيل أقوالهم، وتراتبٍ أعمالهم، لمقاومة دعوة الرسول والذين آمنوا معه، وإيقاف امتدادها، والروغان عن بياناتها وحججها القواطع.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

ضَيْقٍ: قراءة جَمْهُورِ القراء العشرة بفتح الضاد وإسكان الياء.

ضَيْقٍ: بكسر الضاد وياء مدية قراءة ابن كثير.

الضَيْقُ والضَيْقُ: الكَرْبُ في النفس الضاغط عليها، من أمرٍ غير سارٍ، أو مِنْ تَخَوُّفِ حدوثِ مكروه.

وتتضمن هذه التوصية الطمأننة من الله، بأنه سيُحْبِطُ مَكْرَ الكافرين، ويجعلُ مَكْرَهُمُ السَّيِّئِ يَحِيقُ بِهِمْ، وَيَكُونُ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ.

\* \* \*

واقتضت الحكمة التربوية الربانية أيضاً أن يُوجّه الله لرسوله أربع وصايا أخرى جاءت في آخر السورة:

الوصية الأولى: أن يُعلنَ لقومه أنه مأمور بأن يَعْبُدَ الله، ومعلومٌ أن من أنواع عباداته لربه أن يؤدي واجبات رسالته.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ يُعَلِّمُ رسوله أن يقول:

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْهَا شَيْءٌ ﴾.

الوصية الثانية: أن يُعلنَ لقومه أنه مأمورٌ أن يكون واحداً من المسلمين، تنطبق عليه كلُّ شرائع الإسلام وأحكامه.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ :

﴿ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١١)

الوصية الثالثة: أن يبين لقومه أنه مأمور بأن يتلوا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن، دون أن تكون له صلاحية الإجبار القسري على الاستجابة والاتباع.

لكن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، لأنه سيئال عند ربه أجراً عظيماً، ونعيماً مقيماً خالداً، في جنات النعيم، وما أنا إلا مبشر لمن استجاب لدعوة الله وأطاع، وواحد من الرسل المبشرين.

ومن ضلّ باختياره الحرّ فإنه يجني على نفسه، لأنه سيذوق عند ربه في جهنم عذاباً أليماً خالداً فيها، وما أنا إلا مُنذِرٌ لِمَنْ ضَلَّ ولم يستجب لدعوة الله ولم يطع، وواحد من الرسل المنذرين.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ :

﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (١٢)

الوصية الرابعة: أن يقول لقومه كما جاء في الآية الأخيرة من السورة:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيْدِيهِ فَنَعْرِفُوهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣)

\* \* \*

## التعليم السابع

جاء هذا التعليم في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥١ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم أربع وصايا موجهة للرسول ﷺ، ولكل داعٍ إلى الله من أمته، وهي:

١ - أن لا يُخزِنَ الداعي قَوْلَ الكافرين فيه ممَّا سُوءُه، فالله سينصُرُه بقوَّتِه الغالبة، إذا صدق وأخلص لله في دعوته، وليكن على ثقة بالله إذا توكل عليه، فإنَّ العزَّةَ لله جميعاً، وليسأل ربه تأييده ونصره، فهو السميع العليم الَّذي ينصرُ رسله والذين آمنوا.

٢ - أن يرُدَّ على من يتَّهمُه بالافتراء على الله، فيقول له: إنَّ الَّذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون.

٣ - أن يتَّبَعَ بيِّناتِ الوحي، فلا يحيدَ عنها، ولا يكتم شيئاً منها، ولا يزيدَ من عنده شيئاً عليها.

أما المفاهيم الاستنباطية والقياسية فليست من الزيادة عليها، بل هي من توابعها.

٤ - أن يصبرَ على أذى المدعوين، حتَّى يحكمَ الله فيجعل له فرجاً ومخرجاً، والله خيرُ الحاكمين.



التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

ظلّ موقف أئمة المشركين موقف المتعجب من أن يُرسل الله إليهم رسولاً بشراً منهم، على الرغم من كلّ ما سبق من إقناعات تكشف أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول إلى البشر بشراً منهم.

وإذ كذبوا الرسول مُتعلّلين ببشريته مع ما يرؤن من تأثيره على كثير من عقلائهم ودهمائهم، لم يكن أمامهم إلا أن يُوجِّهوا للرسول الاتهام بأنّه سَاحِرٌ، والاتِّهَامُ بأنّه افترى القرآن من عنده، وزعم بأنّ الله أوحى به إليه، وطالبوه بأن يأتي بقرآن غير القرآن الذي يتلوه عليهم، أو بأن يبذله، فإذا استدرجوه لذلك أدانوه بأنّه هو الذي يصنّع القرآن ويفتره على ربّه، وطالبوه أيضاً بأن يأتيهم بآية مادية، وأطلقوا مقالات تدلّ على أنّهم يسخرون بما أنذرهم به من عقابٍ مُعجِّلٍ يُنزِّله الله بهم.

دلّ على هذا الموقف المتعدّد الظواهر عدّة آياتٍ جاءت في السورة:

الآية الأولى: قول الله عزّ وجلّ في أوائل السورة:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ ۝ ﴾

﴿ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ۚ ﴾ أي: أنذِرِ الذين لم يستجيبوا لدَعْوَتِكَ، وهم أكثر

الناس.

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ﴾ أي: أنّ لهم قدماً ثابتةً مَحْمُودَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ، ومن له قدمٌ محمودةٌ عِنْدَ رَبِّهِ يكون ذا حظٍّ عظيم من الرِّضْوَانِ والأجر العظيم<sup>(١)</sup>.

(١) يَصِفُ العربُ بكلمة «صِدْقٍ» ما يُرِيدُونَ مَدْحَهُ، فيقولون: رَجُلٌ صِدْقٌ، وامرأةٌ صِدْقٌ، أي: رَجُلٌ نِعَمٌ هو رجلاً، وامرأةٌ نِعَمَتْ هي امرأةٌ، ونَحْوُ هذا «مَقْعَدُ صِدْقٍ» =

﴿ قَالَ الْكٰفِرُونَ اِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَيُبَلِّغُ عَنْهُ قِرْآنًا يَتْلُوهُ لِسَاحِرٌ وَاضِحٌ فِي كَوْنِهِ سَاحِرًا.

الآية الثانية: قول الله عز وجل في أثناء السورة:

﴿ وَإِذَا تَمَنَّاهُمْ بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّهُ يَفْتَرُ عَلَىٰ غَيْرِ هٰذَا أَوْ يَدَّعِي قَوْلَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أُنْتَبِغَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

الآية الثالثة: قول الله عز وجل في أثناء السورة أيضاً:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا سِوْرَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴾ .

فدلت هذه الآية على أنهم اتهموا الرسول بأنه يفتري القرآن على ربه، أي: يخلقه ويصنعه هو، ثُمَّ يَدَّعِي أَنَّهُ كَلَامٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوحَىٰ بِهِ لِلَّهِ إِلَيْهِ . وقد تحداهم القرآن تحدياً مُعْجِزاً بأن يأتوا بمثل سورة منه، فلم يستطيعوا فسقط بعجزهم الاتهام بالافتراء على الله .

الآية الرابعة: قول الله عز وجل في أثناء السورة أيضاً:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴾ .

يخاطبون بهذا الرسول والذين آمنوا معه، أي: في أَيِّ وَقْتٍ يَتَحَقَّقُ إِنْذَارُ الرَّسُولِ لَنَا بِالْعِقَابِ، وفي هذا الاستفهام معنى السُّخْرِيَّةِ بما أنذرهم به، وهذه السُّخْرِيَّةُ نَاشِئَةٌ عَنْ عَدَمِ تَصْدِيقِهِمْ بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ .

فاقتضت جُمْلَةُ ظَوَاهِرِ مَوْقِفِهِمْ فِي الطُّورِ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ إِبَّانَ نَزُولِ

= أي: مقعدٌ نعم هو مقعداً، و «قَدَمُ صِدْقٍ» أي: قَدَمٌ نِعْمَتْ هِيَ قَدَمًا ثَابِتَةً عِنْدَ رَبِّهَا، وذو القدم الثابتة عند ربه يكون محموداً مرضياً عنه .

سورة (يونس) أَنْ يُوجِّهَ اللهُ لِرَسُولِهِ وَيُلْحَقَ بِهِ كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللهِ مِنْ أُمَّةِ الْوَصَايَا الْأَرْبَعِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا فِي أَوَائِلِ بَيَانِ هَذَا التَّعْلِيمِ .

● **فَالْوَصِيَّةُ الْأُولَى:** دَلَّ عَلَيْهَا مِنَ السُّورَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فِيهَا:

﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٥) .

أي: ولا يحزنك ما يقوله الكافرون فيك مما يسوؤك، فنحن ناصرون بقوتنا الغالبة .

لِإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا: أي: إِنَّ الْقُوَّةَ الْغَالِبَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، وَفِي هَذَا الْبَيَانِ إِشْعَارٌ ضَمَنِي بِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ عَلَيْهِمْ .

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ: أي: هُوَ جَلَّ وَعَلَا السَّمِيعُ لِمَا يَقُولُونَ فِيكَ، وَالسَّمِيعُ بِدُعَائِكَ، وَالْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِكَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَفِي هَذَا الْبَيَانِ إِشْعَارٌ ضَمَنِي بِأَنَّ اللَّهَ حَافِظُهُمْ مِنْ تَدْبِيرَاتِهِمْ وَمَكَايِدِهِمْ .

● **وَالْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ:** دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ لِرَسُولِهِ - وَيُلْحَقَ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى اللهِ مِنْ أُمَّةٍ - فِي السُّورَةِ:

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١٦) .

أي: فَلَؤَلَمْ كُنْتُمْ مِنَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ أُفْلِحَ أَبَدًا، وَأَنَا لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنْتِي حَرِيصٌ عَلَى الْفَلَاحِ، وَالْمُسْتَقْبَلُ كَشَافٌ .

● **وَالْوَصِيَّةُ الثَّلَاثَةُ:** دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ لِرَسُولِهِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ السُّورَةِ:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ . . . ﴾ (١٧) .

أي: وَلَا تَفَكَّرْ فِي الِاسْتِجَابَةِ لِمَقْتَرِحَاتِهِمْ وَمَطَالِبِهِمْ، فَهِيَ مَزَالِقُ فِتْنَةٍ يَرِيدُونَ اسْتِدْرَاجَكَ إِلَيْهَا، وَالتَّرَمُّ بِاتِّبَاعِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .

● والوصية الرابعة: دلّ عليها قول الله لرسوله في الآية الأخيرة من  
السورة أيضاً:

﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

أي: واصبر على ما يؤذيك من أقوال الكافرين وأعمالهم، حتى يحكم  
الله بينكم، وهو خير الحاكمين، فإن أصرّوا على كفرهم وعنادهم فسيُنزلُ بهم  
عقابه وينصرك وينصر الذين آمنوا معك.

\* \* \*

## التعليم الثامن

- ١ -

### موقف أئمة المشركين إبان نزول سورة (الحجر)

كان موقف أئمة المشركين إبان نزول سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) في أواسط المرحلة المكية من تاريخ دعوة الرسول مواجهة هؤلاء الأئمة للرسول بعنف وصراحة بأذيتين:

الأذية الأولى: شتمته بأنه لمجنون، وغرضهم صدّ جماهيرهم الذين يثقون بكمال عقولهم، وصحة آرائهم، عن الاستماع إلى الرسول وعن اتباعه، مع تصوّرهم أنّ هذه الشتيمة قد تجعل الرسول يخفّف من نشاطه في دعوته، بما ينزل به من حُزْنٍ أو غضب.

دلّ على هذه الأذية قول الله عزّ وجلّ في أوائل السورة.

﴿ وَقَالُوا يَبْأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

إنّهم قد وصلوا في الوقاحة إلى مُواجهته بالشتيمة مؤكّدين فيها أنّه لمجنون.

الأذية الثانية: الاستهزاء به علناً في المحامل والمجامع العامّة، بغية صدّه عن دعوته إلى دين الله الحق، وعن دعوة جماهيرهم الذين يتأثّرون

بهم، أو بُغْيَة استشارة غضبه إزعاجاً وإيلاًماً، ورُبَمَا قَابِلَ شَتَائِمِهِمْ بِمِثْلِهَا، فتكون هذه المقابلة بمثابة الشاهد على صحّة اتّهامهم له بالجنون، ورُبَمَا كان التّشاتم مفتاحاً لصراع جَسَدِيّ هم حينئذٍ أكثر قدرةً عليه، وأكثر أنصاراً.

مع ما في الاستهزاء من صدّ جماهيرهم عن الاستماع إليه وعن اتّباعه، لِمَا فِي الاستهزاء العامّ من إِيحَاءٍ خَبِيثٍ فِي نفوس الجماهير يُشْعِرُهُمْ بِأَن مِنْ يُوَجِّهُ ضِدَّهُ الاستهزاء جَدِيدٌ بِأَن يُسْتَهْزَأَ بِهِ.

دلّ على أيذائهم له بأنواع الاستهزاء المنكر قولُ الله عزّ وجلّ في أوائل السورة خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾﴾

- ٢ -

### الوصايا الرّبّانية

وقد وجّه الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر سورة (الحجر) تسع وصايا يُعالج بها موقف أئمة المشركين منه ومن دعوته في هذه المرحلة، ويعالجُ بها نفسه التي تَوَلَّمَهَا شَتِيمَتُهُمْ لَهُ، واستهزائهم به، وهذه الوصايا موجهةٌ لكلّ داعٍ إلى الله من أمته يتعرّضُ لمثل ما تعرّضَ له الرسولُ من قِبَلِ الَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَتَهُ.

الوصية الأولى: (الصّفْحُ الْجَمِيلُ).

وهو الإعراضُ عن مقابلتهم بمثل أعمالهم، وعَدَمُ الاشتغال بدفع إيذاءاتهم.

وأصلُّ الصّفْحِ فِي اللغةِ الْجَنْبُ، وَصَفْحُ كُلِّ شَيْءٍ جَانِبُهُ، وَيُقَالُ: صَفَحَ

فلاًن عن المذنب، إذا أعرض عن ذنبه، فلم يؤأخذة عليه، ولم يُقابلة بمثله، وهذا المعنى مأخوذاً من أنه أعطاه جانبه مُعرضاً عنه، غير مواجهٍ له بالعقاب .

والجمالُ في هذا الصَّفح يكونُ بإبقاء الوَجْهِ طلقاً سَمحاً لا تظهر عليه علاماتُ الغضب أو الغيظ والكراهية، وبإبقاء الكلام عاديّاً لا تظهر فيه أمارات الاضطراب أو الإلماحات المستخفية، ويكون أيضاً بعدم شغلِ القلبِ برغبات الانتقام .

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر السورة :

﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

\* \* \*

الوصيةُ الثانيةُ : (أَنْ لَا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إِلَى مَا مَتَعَ اللَّهُ بِهِ أَصْنافاً مِنَ النَّاسِ وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ) .

فقد كان الرسول ﷺ هو وأصحابه في مكة إبان نزول سورة (الحجر) في موقفٍ ضعيفٍ وحاجةٍ، وكان أئمة المشركين في موقفٍ قوّةٍ وسلطانٍ وثناءٍ، وهذا الأمرُ من شأنه أن يُحرِّك في النَّفسِ الرغبة في أن يكون له وللذين آمنوا معه ما لهؤلاء الأئمة، أو مثله لئلا يكون للكافرين امتياز دنيويٍّ على المؤمنين .

فاقتضت الحكمة التربويّة الربّانيّة أن يُوجّه الله لرسوله والغرض التوجيه لكلِّ مؤمنٍ من أمته هذه الوصية، لأنّ حكمة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا تقتضي الإمداد والإمهال للمعرضين عن الدعوة، حتى يأتي وقت عقابهم، وتمحيص المؤمنين بالشدائد حتى يأتي وقت نصْرهم، وإمدادهم بما يحبّون من الحياة الدنيا .

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ . . . ﴾ ﴿٨٨﴾ .

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ: أي: لا تنظرُ نظرَ تشةٍ إلى ما أمددنا به أصنافاً من المشركين وسائر الكافرين من متاع الحياة الدنيا، لامتحانهم واختبارهم بها.

أزواجاً منهم: أي: أصنافاً من الناس ولو كانوا كافرين، يُطلقُ لفظ الزوج على الصنف من كل شيء.

وجاء التعبير بمدِّ العين بدلَ النَّظَرِ، لبيان أنَّ نظرَ التَّشَهِّيِّ والطلبِ يختلفُ عن النظرِ العاديِّ العابرِ.

فنظر التَّشَهِّيِّ يقترن بدوافع تمتدُّ آثارها من داخل النفس، وسائرةً على خطوط أشعةِ النظرِ لتتناول المُشْتَهِيَّ وتمتلكه حتَّى كأنَّ العَيْنَيْنِ يَدَانِ ممتدَّتَانِ تبتغيانِ أخذَ ما اشتَهتهُ النفسُ، لتستوليَ عليه وتمتلكه.

وفي هذا معنى الاعتراضِ على حكمة الله في عطائه ومنعه، وفي التوسعة على بعض عباده، والتضييق على آخرين منهم، ليلبؤوا كلاً منهم بما يُلائمُ فطرةَ نفسِهِ الَّتِي فَطَرَهُ عَلَيْهَا.

\* \* \*

الوصية الثالثة: (أَنْ لَا يَحْزَنَ عَلَى الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ تَعْرِيزِهِمْ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا).

فقد كان الرسول ﷺ شديد الشفقة على قومه، شديد الرحمة بهم، حريصاً على أن يؤمنوا لينجوا من عذاب الله، وليظفروا بالسعادة الخالدة في جنات التعيم.

فإصرارهم على ما هم فيه من شركٍ وكُفْرٍ برسالته، وبما جاء به عن ربِّه، في مقابل شفقتهم عليهم، ورحمته بهم، أمرٌ من شأنه أن يُحْزِنَ، لأنَّ من يُحْزِمُ ممَّا هو شديد الحرص عليه، يَحْزَنُ لِفَوَاتِهِ، بمقتضى طبيعته البشرية، وهذا الحزن يؤثر على نفسه، وقد يُبْطِئُ من نشاطه في مجال تأدية رسالته،



المأمور بأن يتذلل فيها قصارى ما يملك من جهدٍ ومجاهدةٍ لتوصيلها للناس .  
فالحُزْنُ يَشغُلُ الحَرِيْنَ عن القيام بالأعمال الجهادية التي تَتَطَلَّبُ الرِّجَاءَ  
والتفاؤُل .

ومعلومٌ أن إرادة الله الحكيمة قد قضت بأن يَضَعَ الناس في الحياة الدُّنيا  
مَوْضِعَ الامتحان، وأنَّ على كُلِّ مُمْتَحَنٍ مُكَلِّفٍ أَنْ يختار بنفسه مصيرَهُ، بعد  
البيان الكافي له .

فمن اختار لنفسه طريق جهنم وهو كامل الأهلية الفكرية والإرادية، فلا  
يُنْبَغِي أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ مِنْ أَجْلِهِ، إِنَّهُ إِذَا لم يَشْفَقْ هو على نفسه، وهي أَحَبُّ  
شَيْءٍ إِلَيْهِ، أَفَيْسَتْحَقُّ أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ مِنْ أَجْلِهِ .

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله في أواخر السورة:

﴿... وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ...﴾

\* \* \*

الوصية الرابعة: (أَنْ يَخْفِضَ جَنَاحَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ).

أي: أن يتواضع للمؤمنين، وأن يحيطهم بالحنان والرحمة والرِّعاية  
والحفظ. وقد جاء في العبارة استعارة خفض الجناح للدلالة على هذه  
الأُمور، أخذاً من حركة الطائر حينما يخفض جناحه تواضعاً لطائر آخر،  
وحينما يخفض جناحه ليُحِيطَ به فِراخُهُ الصَّغَارَ ويضمِّمها إلى دَفءِ صَدْرِهِ،  
ويجلِّلها بريشه، رحمةً بها، وحناناً عليها، ورعايةً وحمايةً وحِفظاً.

ومثل هذا التعبير يُسَمَّى عند البلاغيين استِعَارَةً مَكْنِيَّةً، إِذْ حُذِفَ  
المستعار الَّذِي هو في الأَصْلِ مشبَّهٌ به، واستُخْدِمَ في اللَّفْظِ بعضُ لوازمه:

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ في أواخر السورة:

﴿... وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

الوصية الخامسة: (أَنْ يُوجَّهَ الْإِنذَارَ الْوَاضِحَ الْمُبِينَ لِأُمَّةِ  
المشركين).

فَأئِمةُ المشركين من قومه الَّذِينَ بَلَغُوا مَبْلَغَ المَكَابِرَةِ والعناد والمواجهة  
الصريحة لله بأنه لمجنون، بَعْدَ كُلِّ البَيَانَاتِ والمعالجات التي سبقت منذ بدء  
دعوته حتَّى نَزُولِ سِوْرَةِ (الحجر) في أَوَاسِطِ المَرِحَلَةِ المَكِّيَّةِ من تَارِيخِ  
دعوته، يَحْسُ تَوجِيهَ الْإِنذَارِ المَبِينِ الْوَاضِحِ لَهُم.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَاخِرِ السُّورَةِ:

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (٨١).

أي: واجههم بهذا الإعلان المؤكد بشدة، الذي اجتمعت فيه المؤكدات  
المتعددة المتظاهرة.

المؤكد الأول: «إِنَّ».

المؤكد الثاني: الجملة الاسمية.

المؤكد الثالث: ضمير «أنا» فهو إما ضمير فصل، أو مبتدأ جملة هي  
خبر «إِنَّ».

المؤكد الرابع: تعريف طرفي الإسناد في الجملة الاسمية.

\* \* \*

الوصية السادسة: (أَنْ يَصْدَعَ بِمَا يُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ).

أي: أَنْ يُجَاهِرَ بِمَا يُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِهِ وَيُعْلِنَهُ إِعْلَانًا عَامًّا، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى  
الدَّعْوَةِ الْإِفْرَادِيَّةِ فِي آذَانِ الْمَدْعُوعِينَ.

وَفِي الصَّدْعِ مَعْنَى تَوْجِيهِ الدَّعْوَةِ الصَّرِيحَةِ الْعَلْنِيَّةِ بِقُوَّةِ تَجْعَلِ النُّفُوسَ  
الْمُتَحَجِّرَةَ الْمُتَصَلِّبَةَ تَنْصَدِعُ، كَمَا تَنْصَدِعُ الْأَوَانِي الزَّجَاجِيَّةُ، أَوْ كَمَا تَنْصَدِعُ

الحجارة، فَتَشَقُّ مَآثِرُهُ بِقُوَّةٍ مَا يَضْطَدُّ بِهَا، لَكِنَّهَا تَبْقَى مُتَمَاسِكَةً الْإِتِّصَالِ  
فَلَا تَنْكَسِرُ.

وَالصَّدْعُ بِهَذَا الْمَعْنَى كِنَايَةٌ عَنْ قُوَّةِ الْجَهْرِ بِالْبَيَانِ الْمَقْرُونِ بِالْحِجَّةِ  
الْمَآثِرَةِ فِي النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ... ﴾ (١١)

الصَّدْعُ: فِي اللُّغَةِ أَصْلُهُ الشَّقُّ فِي الشَّيْءِ، كَالصَّخْرَةِ وَالزَّجَاجِ  
وَالْأَرْضِ، وَيَأْتِي الصَّدْعُ بِمَعْنَى الْجَهْرِ وَالْإِعْلَانِ.

\* \* \*

الوصية السابعة: (أَنْ يُعْرِضَ عَنِ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ).

فَالْأُمَّةُ الَّذِينَ بَلَّغُوا مِنْ دَعْوَتِهِ مَبْلَغَ الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ، وَالْمُوَاجَهَةُ لَهُ بِأَنَّهُ  
مَجْنُونٌ، وَسَلَطُوا عَلَيْهِ أَسْلِحَةَ الْهَزْءِ وَالسَّخِرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ لَا يُقَابِلَهُمْ عَلَى  
شَتَائِمِهِمْ وَاسْتِهْزَاءَاتِهِمْ بِأَمْثَالِهَا، وَأَنْ يُعْرِضَ عَنْ تَوْجِيهِ الدَّعْوَةِ لَهُمْ، لِيُوجِّهَ  
اهْتِمَامَهُمْ لِغَيْرِهِمْ، مَكْتَفِيًا بِأَنْ يُسْمِعَهُمْ دُونَ مُوَاجَهَتِهِ، وَذَلِكَ بِإِعْطَائِهِمْ عَارِضَهُ  
وَهُوَ جَانِبُهُ، فَالْإِعْرَاضُ وَسَطٌ بَيْنَ الْمُوَاجَهَةِ وَالْإِدْبَارِ.

وَاقْتَرَنْتَ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ بِطَمَآنَةِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ كَفَّاهُ عِصَابَةَ الْمُسْتَهْزِئِينَ  
الْكِبَارِ، فَأَهْلَكَهُمْ.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿... وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ  
إِلَهَاءَ آخَرٍ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

جاء عند محمد بن إسحاق كما ذكر ابن كثير أنّ عظماء المستهزئين  
كانوا خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنانٍ وشرفٍ في قومهم، وهم:

١ - «الأسودُ بنُ أبي زَمْعَةَ» وهو من بني أسدِ بن عبد العزى بن قُصَيِّ .  
رُويَ أن الرسول ﷺ دَعَا عليه لِمَا كان يبلغُهُ من أذاهُ واستهزائه، فقال:  
«اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ، وَأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ» .

٢ - «الأسودُ بنُ عَبْدِ يَغُوثٍ» من بني زُهْرَةَ .

٣ - «الوليدُ بنُ الْمُغِيرَةَ» من بني مخزوم، وكان رأس المستهزئين،  
وهو الذي جمعهم .

٤ - العاصُ بنُ وائلٍ» من بني سَهْمٍ .

٥ - «الحارثُ بنُ الطَّلَاطِلَةَ» من خزاعة . ورُوي أنه: «الحارثُ بنُ  
قيسٍ» وأنه عيطة، أو عيطل .

روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء، أن جبريل  
عليه السلام، أتى رسول الله ﷺ وهو يطوفُ بالبيت، فقَامَ وقَامَ رسولُ الله ﷺ  
إلى جنبه:

● فمرَّ به «الأسودُ بنُ عَبْدِ يَغُوثٍ» فأشارَ إلى بطنِهِ فاستسقى<sup>(١)</sup> بطنَهُ،  
فمات منه .

● ومرَّ به «الوليدُ بنُ المغيرة» فأشارَ إلى أثرِ جراحِ بأسفلِ كعبِ رِجلِهِ،  
وكان أصابه قبل ذلك بستنين، وهو يجرُّ إزاره، وذلك أَنَّهُ مرَّ بِرِجْلِ من خِزَاعَةَ  
يريشُ نَبَلًا له<sup>(٢)</sup>، فتعلَّقَ سَهْمٌ من نَبَلِهِ بإزاره، فحَدَسَ رِجلَهُ ذَلِكَ الحَدَسَ،  
وليس بشيءٍ، فانتَقَضَ به فقتلَهُ .

● ومرَّ به «العاصُ بنُ وائلٍ» فأشارَ إلى أخمَصِ قَدَمِهِ، فخرجَ على

(١) يقال لغة: سَقَى بطنَهُ واستسقى، وأسقاه الله، إذا اجتمع فيه ماءٌ أصفر، وهو مرضٌ  
معروف عند الأطباء، بداء الاستسقاء .

(٢) يريش نبالاً له: أي: يضع له الريش .

حمارٍ له يُريد الطائف، فَرَبَّصَ (أي: الحمار) عَلَى شِبْرِقَةٍ، فدخلت في  
أخْمَصِ قَدَمِهِ (أي: العاص) فقتلته<sup>(١)</sup>.

● ومَرَّ به «الحارثُ بنُ الطلائة» فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً،  
فقتله.

\* \* \*

الوصية الثامنة: أن يداوي ما يَحْدُثُ له من ضيق صدر تَسْبِيهِ مقالاتِ  
المشركين فيه من شتائم، واستهزاؤهم به، بدواءٍ ديني يشتمل على أمرين:

الأمر الأول: أَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ، أي: أن يُرَدِّدَ في ذكره لِرَبِّهِ، عبارة:  
سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وهي اختصار لعبارة: أُسَبِّحُ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَأَحْمَدُ  
بِحَمْدِهِ، والتسبيحُ، تَنْزِيهِ اللَّهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَالْحَمْدُ ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ  
بِصِفَاتِ كَمَالِهِ، على وفق المحامد التي يَحْمَدُ اللَّهُ بِهَا ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ عَلَى مَا  
يَعْلَمُ مِنْ كَمَالَاتِهِ.

الأمر الثاني: أن يكون من الساجدين لله، المؤدِّين غاية الخضوع والدُّلَّ  
له.

وباستعمال هذا الدواء التعبدي لله يَشْرَحُ اللَّهُ له صدره، وَيَصْرِفُ عنه  
ما يجدُ في نفسه، بسبب إيذاءات المشركين له.

دلَّ على هذه الوصية قولُ الله عزَّ وجلَّ له في أواخر السورة:

﴿وَلَقَدْ تَعَلَّمْ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ  
السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

\* \* \*

(١) الربوض للدواب كالبروك للإبل، والشْبْرِقُ: نبت حجازيٌّ يُؤْكَلُ وله شوك، وإذا بَيْسَ  
سُمِّي الضَّرْبِيعَ.

الوصية التاسعة: (أَنْ يُتَابَعَ عِبَادَتُهُ لِرَبِّهِ وَمِنْهَا قِيَامُهُ بِوِظَائِفِ رِسَالَتِهِ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ عُمْرِهِ).

أي: والواجب عليه أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ بِمُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُ، وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي أَدَائِهِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ تَبْلِيغاً وَتَعْلِيماً وَتَرْبِيَةً وَنُصْحاً وَإِزْشَاداً، وَأَمراً بِالْمَعْرُوفِ وَنَهياً عَنِ الْمُنْكَرِ.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ له في آخر آية من آيات السورة:

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

أي: حَتَّى يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ يَقِينٌ لَا يَشُكُّ بِهِ شَاكٌّ مِنْ عُقْلَاءِ الْأَحْيَاءِ.

\* \* \*

## التعليم التاسع

جاء هذا التعليم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم نهي الرسول ﷺ عن أن يطرد عن مجالسه فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، استجابة لطلب كبراء قومه، طمعاً في إيمانهم.

قال الله عز وجل فيها خطاباً لرسوله:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وأُنزل الله على رسوله بشأن فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه قوله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) وهي مكية التنزيل، إلا أن هذا النص منها مدني التنزيل:

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٥٦﴾ ﴾

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا: أي: وجدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا.

وكان أمره فرطاً: أي: وكان أمره في حياته ظلماً واعتداءً وتركاً للحق والخير والواجب.

البيان:

طلب كبراء مشركي مكة من الرسول ﷺ أن يطردوا عن مجالسه فقراء المؤمنين حتى يتبعوه، ازدراءً منهم لهؤلاء المؤمنين الفقراء والضعفاء، واستكباراً عن أن يتساووا معهم في المجلس، فأنزل الله على رسوله الآيتين (٥٢ - ٥٣) من سورة (الأنعام).

ثم أنزل بشأنهم في العهد المدني الآية (٢٨) من سورة (الكهف) المكية.

فنهى الله عز وجل رسوله بشدة عن أن يستجيب لطلب كبراء قومه في أن يطرد عن مجالسه فقراء المؤمنين، حتى يؤمنوا به ويتبعوه، والغرض نهى حملة رسالته من بعده عن أن يفتنهم كبراء القوم فيطردوا عن مجالسهم فقراء المؤمنين وضعفاءهم، بدليل نزول النص الثاني في العهد المدني وإضافته إلى سورة مكية وهي سورة (الكهف) وذلك لأن العهد المدني لم تظهر فيه مشكلة طلب كبراء المشركين طرد فقراء المؤمنين وضعفائهم، فدل هذا الصنيع على أن توجيه الخطاب للرسول قد كان باعتباره إمام الدعاة من أمته، إلا أن المقصود منه الدعاة من أمته، فقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمون التوجيه في النصين كليهما.

قول الله عز وجل في نص (الأنعام):

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

أي: ما عليك أيها الداعي إلى الله من حساب الناس من شيء إذا كفروا



ولم يؤمنوا، بل كل واحد منهم يحاسب عن نفسه، فلا تطرد الفقراء والضعفاء طمعاً بإيمان الكبراء والأغنياء لتتخلص من مسؤولية مُحَاسَبَتِكَ على عدم إيمانهم، إذ لا تحمِلُ أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنك تقوم بواجب التبليغ فإنَّ عليهم أن يتبلَّغوا ويشاركوا في مجالس التبليغ سائر طالبي الهداية .

وأنت مسؤول عن تبليغ دين الله للجميع على سواء، فقراء الناس وأغنيائهم، ضعفاء الناس وساداتهم، فإذا طَرَدْتَ الفقراء والضعفاء وأبعدتهم عن مجالسك استجابةً لطلب الأغنياء والكبراء، فإنَّك تعرِّض نفسك للمحاسبة والمؤاخذه على إبعادهم عن مجالس العلم الديني، الذي أمرك ربُّك بتبليغه للناس دون تمييز ولا تخصيص، وإنَّ أغنياء المشركين وكبراءهم الذين تُريد إرضاءهم والاستجابة لطلبهم لِيُسَلِّمُوا لآ يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً، بل سَتُدَانُ وخذك بطرد الفقراء والضعفاء وعَدَمِ تبليغهم دين ربِّهم .

وعلى هاتين القاعدتين من قواعد المسؤولية والمحاسبة جاء التفريع بقول الله عزَّ وجلَّ لرسوله: ﴿ فَطَرَدُوهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أي: فطرد الفقراء بعد بيان هاتين القاعدتين ظلمً، فلا تستجب لطلب الأغنياء والكبراء فطرد الفقراء والضعفاء فتكون بطردهم من الظالمين .

وبعد هذا أبانَ اللهُ أنَّ من سنته في الاجتماع البشري امتحانَ الناس بعضهم ببعض، ومنه امتحان الأغنياء والكبراء بالفقراء والضعفاء، وبالعكس، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي: وكذلك الامتحان الذي جرى لأغنياء المشركين وكبرائهم تجاه فقراء المؤمنين وضعفائهم فتناً بعض الناس ببعض، ليقول الأغنياء والكبراء أهؤلاء الفقراء والضعفاء من الله عليهم من بيننا؟! وجاء الجواب الرباني: أليس الله بأعلم بالشاكرين!! .

\* \* \*

## التعليم العاشر

جاء هذا التعليم في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) وقد تضمن هذا التعليم وصيتين:

١ - أن يُدِيرُ الداعي ظهره لمن وصل إلى حالة ميثوس من استجابته لدعوة الحقّ معها، ويؤجّه اهتمامه ومجاهدته لآخرين مطموع باستجابتهم، ولم يصلوا بعدُ إلى حالة ميثوس منها.

٢ - أن يكون الداعي إلى الله - مع إدارته ظهره لمن وصل إلى حالة ميثوس منها - شديداً المراقبة له ببصره، لئلا يُدَبِّرَ ضده وضدّ الإسلام والمسلمين مكاييد، وهو عنه غافلٌ لا يشعرُ بما يُدَبِّرُ.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

كان معاندو أئمة المشركين إبان نزول سورة (الصافات) في موقفٍ المواجهة بالسخرية من الرسول وممّا جاء به، وموقف المواجهة بادّعاء أنّ القرآن لوّنٌ من ألوان السحر بالقول، إذ يؤثّر به الرسول ﷺ على فريق منهم، فيفرّق به بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والصديق وصديقه، ويفرّق به بين الأقرباء والأرحام، وقد سبق أن استقرّ في أذهانهم أنّ السحرة يفرّقون بين المرء وزوجه.

فلمّا وجدوا أنّ دعوة الرسول بالقرآن تأخذ منهم فريقاً إلى الإسلام، مُنشقين عن تقاليد قومهم وعاداتهم الشركية، وجدوا هذا ذريعة لادّعاء أنّ القرآن وسيلة من وسائل السحرة.

دل على هذا الموقف قول الله عز وجل في أوائل السورة خطاباً  
لرسوله:

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا  
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي: بل عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ من تكذيبهم إِيَّاكَ  
ومن تكذيبهم بالحق الذي جنتهم به، والكافرون يسخرون منك ومن  
دعوتك، ومن ثباتك على دَعْوَتِهِمْ وتذكيرهم تبعاً بما سبق أن دعوتَهُمْ إليه .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي: وإذا ذُكِّرُوا بما سبق أن بَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ، وبيَّنتَهُ  
وشرحتَهُ لهم، وحاوَلْتَ أن تقنعهم به، لا يَنْتَفِعُونَ بتذكيرك، ولا يستجيبون  
لدعوتك، ولا يُلقُونَ أَسْمَاعَهُمْ لِمَا تُذَكِّرُهُمْ به، فهم لا يذُكِّرُونَ، أي: لا  
يضعون ما تُذَكِّرُهُمْ به في ذكرااتهم للاستفادة منه .

والمعنيون بهذا القول هم مُعَانِدُو أئمة مشركي مكة .

﴿ وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي: وإذا رَأَوْا آيَةً مَادِيَةً تَتَأَثَّرُ بها جماهيرهم  
يُيَالِغُونَ في توجيه السُّخْرِيَةِ منها، ليوحوا إلى جماهيرهم بِأَنَّهَا مُزَيَّفَةٌ، وليست  
آيَةً حَقِيقِيَّةً، فهي لا تَصْلُحُ لأن تكون علامةً على صِدْقِ نُبُوتِهِ ورسالته .

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: وقالوا لجماهيرهم: ما هَذَا الذي  
تُشَاهِدُونَهُ مما تَحْسِبُونَهُ آيَةً من آيَاتِ نُبُوتِهِ ورسالته، إِلَّا عَمَلٌ من أَعْمَالِ  
السُّحْرِ الَّتِي يُحَيِّلُ بها لِلأَنْظَارِ فترى ما لَيْسَ له حَقِيقَةٌ ثابتَةٌ في الواقع .

واقترضت الحكمة الربانية أن يُوجَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ لرسوله في آخر سورة  
(الصفات) توجيهاً تَرْبُويّاً يناسب الطور الذي وصل إليه معاندو أئمة  
المشركين، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ له فيه:

﴿ وَلَقَدْ سَبَّتْ كَلِمَاتُنا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٨﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ

الْعَالِيُونَ ﴿١٧٦﴾ فَنُؤَلِّعُ عَنْهُمْ جَحِيمَ ﴿١٧٧﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾ أَفَعَدَّيْنَا لِلْمَصْرِفِينَ ﴿١٧٩﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٠﴾ وَنُؤَلِّعُ عَنْهُمْ جَحِيمَ ﴿١٨١﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٢﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٣﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٤﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ .

اشتمل هذا النص على وعْدٍ للرسول والذين آمنوا معه، ووعيد للمعاندين من أئمة المشركين، وعلى وصيَّتين للرسول وللدعاة من أمته .

فالوعدُّ: قد اشتمل على خبرٍ بأن الله سينصُرُ الرسول والجنْدَ المؤمنين الذين اتَّبَعُوهُ، وفي هذا إلماح إلى أنَّ النصر سيكون في معارك تقوم بين الفريقين .

والوعد: قد اشتمل على تهديدٍ بما سيحدث حتماً للمشركين من عذاب وخزي وقتلٍ وهزائم منكرة، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ .

والوصيةُ الأولى: هي وصيةُ الله لرسوله مرتين بأن يتولَّى عن هؤلاء المعاندين من أئمة المشركين، والتولَّى: هو إدارةُ الظَّهْرِ لهم، وعدمُ الاشتغال بتذكيرهم، لأنهم بلغوا إلى دركةٍ ميثوس منها، دلَّ عليهما قوله تعالى: ﴿ فَنُؤَلِّعُ عَنْهُمْ جَحِيمَ ﴿١٧٦﴾ وَنُؤَلِّعُ عَنْهُمْ جَحِيمَ ﴿١٧٧﴾ . ﴾

والوصيةُ الثانية: هي لزوم مراقبتهم بعناية عن طريق المشاهدة البصريَّة، متابعة لما يدبّرون من مكاييد، دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿ وَأَبْصِرْ ﴾ - ﴿ وَأَبْصِرْ ﴾ .

\* \* \*

## التعليم الحادي عشر

جاء هذا التعليم في سورة (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ / نزول).

وقد تَضَمَّنَ هذا التعليمُ ثلاثَ وصايا مُوجَّهةٍ للداعي إلى الله، وهي:

١ - أن يتحلَّى الداعي إلى الله بالصَّبْرِ دوماً.

٢ - أن يستَغْفِرَ اللهَ طالِباً أن يغفرَ له ذنبه، وغَفَرَ الذنبَ سَتْرُهُ.

٣ - أن يُسَبِّحَ بحمدِ ربِّه بالعِشِيِّ والإبْكَارِ.

العِشِيِّ: هو نصف النهار الثاني إلى الغروب.

الإبْكَارِ: وقتُ البُكْرَةِ، وهي الغُدُوَّةُ، ووقتها من دخول وقت الفجر إلى

طلوع الشمس. والأصلُ في الإبْكَارِ الدخولُ في وقتِ البُكْرَةِ.

التحليل أخذاً ممَّا جاء في السورة:

يبدو أن بَعْضَ المسلمين استبطؤوا نصرَ الله لهم، واستطالوا إمْهَالَ الله

لمعاندي أئمةٍ مشركي مَكَّةَ، واستطالوا تَرَكَ الله عزَّ وجلَّ لهم يتَقَلَّبُونَ في

البلادِ أعرَاءَ أقوياءٍ يجادلون في آياتِ الله.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ في أوائلِ السورةِ قوله:

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾

هذا الخطابُ موجَّهٌ للرسول ﷺ باعتبارِه إمام أُمَّتِه وقائدهم، وهو موجَّهٌ

لكلِّ مؤمنٍ على سبيلِ الخطابِ الإفراديِّ من بعد الرسول القائد.

وَأَتَّبِعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْقَوْلَ بَيَانِ إِهْلَاكِهِ الْأُمَّمِ السَّابِقَةَ الَّتِي أَهْلَكَهَا  
بَعْدَ طَوْلِ إِمْهَالِهِ .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوْاسِطِ السُّورَةِ قَوْلَهُ :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ  
وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

فَأَشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى ثَلَاثِ وَصَايَا :

الوصية الأولى : أن يتحلَّى بالصَّبْرِ ، ولا يستعجل وِعْدَ اللَّهِ بالنصر ، فالله  
حكيم ، وعلى العباد أن يَثِقُوا بحكمة الله في إِمهاله وفي كلِّ تصاريفه .

الوصية الثانية : أن يشتغل بالاستغفار لذنبه ، أي : أن يسأل الله كثيراً في  
أوقات متكررات أن يغفر له ذنبه .

الوصية الثالثة : أن يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ، أي : أن يُنْزِعَهُ اللَّهُ  
عما لا يليق بجلاله ، وأن يجعل هذا التسبيح مقترناً بِحَمْدِ اللَّهِ بما هو له أهل  
من كلِّ كمال .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا أَيْضاً قَوْلَهُ :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَأَلَيْنَا  
يُرْجِعُونَ ﴾ .

فَأَكَّدَ اللَّهُ الْوَصِيَّةَ بِالصَّبْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَإِنْ تَوَفَّى اللَّهُ الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ  
رَبِّهِ قَبْلَ أَنْ يُشَاهِدَ عِقَابَ اللَّهِ لِلْمُعَانِدِينَ الْمُجْرِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ ، فَسَيُفَرِّقُ اللَّهُ  
عَيْنَهُ بِمَعَاقِبَتِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ .

\* \* \*

## التعليم الثاني عشر

جاء هذا التعليم في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) وقد تضمنَ هذا التعليم أربع وصايا:

١ - أنّ على حامل الرسالة أن يكون قدوة حسنة للناس في عمله الصالح الظاهر والباطن.

٢ - أنّ على حامل الرسالة أن يُعلِنَ أنّه فرْدٌ من أفراد المسلمين، مسؤولٌ تجاه ربّه كسائر المسلمين، ومطالبٌ بأن يعمل الأعمال التي أمر الله المسلمين أن يعملوها، وبأن يجتنب كلّ ما أمر الله المسلمين أن يجتنبوه، وبأن ينتهي عن كلّ ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه.

وأن يُعلِنَ أنّه تُطَبَّقُ عليه جميع الشرائع والأحكام التي شرع الله أن تُطَبَّقَ على المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولا إعفاء له عن شيء.

٣ - ينبغي لحامل الرسالة أن يدْفَعَ كُلَّ ما يسوؤه من الناس بالتي هي أحسن، متحلياً بالصَّبْر، وبمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

٤ - أنّ على حامل الرسالة أن يَفْرَعَ إلى الاستعاذة بالله كلّما نرغه من الشيطان نرغ، مستحضراً في تصوّره أنّ الله هو وحده السميع العليم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عز وجل في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦١﴾  
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ  
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظِيحٌ عَظِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَإِنَّمَا  
يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٤﴾ .

هذا التعليم الرباني للدعاة صُدِّرَ باستفهامٍ ترغيبيٍّ يتضمن الحث على القيام بوظيفة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمقترنة بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون الداعي إلى الله قُدوةً حسنة للناس بعمله الصالح، دل عليه قوله تعالى في التعليم: ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ .

الشرط الثاني: أن يُعلن الداعي إلى الله أنه فردٌ من أفراد المسلمين مسؤولٌ تجاه ربه كسائر المسلمين، ومطالبٌ بأن يعمل بكل ما أمر الله المسلمين أن يعملوا به، وبأن يجتنب كل ما أمر الله المسلمين بأن يجتنبوه، وبأن يَتَّهِيَ عن كل ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه، وبأنه تُطَبَّقُ عليه جميع الشرائع والأحكام التي شرع الله أن تُطَبَّقَ على سائر المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولا إعفاء له عن شيء، دل على هذا الشرط قول الله تعالى في التعليم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

١ - قول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾!؟؟ .

جاء في هذه العبارة استفهامٍ ترغيبيٍّ لانتزاع الجواب من أهل الفكر والبصيرة الإيمانية، وهو: لا يُوجدُ قائل من الناس يقول قولاً في غير الدعوة إلى الله هو أحسن من قول من دعا إلى الله، وهذا لا يمنع من تفاضل أقوال



الدعاة إلى الله في الحُسنِ، فبعضُ أقوالهم أحسنُ من بعض .

فدلَّت هذه العبارة على أن الدعوة إلى الله التي تكون بوسيلة البيان الكلامي هي أحسنُ القول .

إنه لما كان الإيمان بالله وبما جاء من عند الله، والعملُ بما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، أحسنَ غايةً يسعَى إليها المخلوقُ الممتحنُ في هذه الحياة الدنيا، لأنها تُحقِّق له السعادة في الدنيا، والنجاة من النار والفوز بجَنّات النعيم أبد الأبدين يوم الدين، كان القول الداعي إلى هذا الظفر العظيم أحسنَ كُلِّ قولٍ لا محالة .

إن الكلام بوصفه أداة تعبيرٍ ودلالةٍ وسيلةً محايدةً، يمكن أن تستعمل بحسب مضمونها ودلالاتها في الخير وفي الشرّ .

والوسائل المحايدة القابلة للاستعمال في الخير والشرّ تعتبر قيمتها بحسب قيمة ما تُستعمل فيه وتوظَّف له، وبحسب قيمة الغايات منها، خيراً كانت أو شراً، حسنةً كانت أو قبيحة .

فما كان منها وسيلةً لخيرٍ عظيم، كانت قيمته مساويةً لذلك الخير العظيم . وما كان منها وسيلةً لشرٍّ أو ضرٍّ كانت قيمته مساويةً لذلك الشرّ أو الضرّ .

والكلامُ من حيث ذاته وسيلةٌ صالحةٌ لأن تستعملَ في الخير على مراتبه ودرجاته، بحسب مضمونه الفكري وما يهدي إليه، وسيلةٌ صالحةٌ لأن تُستعملَ في الشرّ على مهابطه ودركاته، بحسب مضمونه الفكري وما يقوِّد أو يسوق إليه .

فإذا كان القولُ حقاً وصدقاً، واستعملَ في الخير، كانت قيمته مكتسبةً من قيمة الخير الذي استعملَ لتحقيقه، بحسب مرتبة ذلك الخير ودرجته في مرتبته .

وإذا استعمل القولُ مهما كانت صفته في الشرِّ، كانت قيمته مكتسبةً من قيمة الشرِّ الذي استُعملَ لتحقيقه، بحسب مرتبة ذلك الشرِّ، ودرجته في مرتبته .

وَرُبَّ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ تُنْجِي قَائِلَهَا مِنَ النَّارِ وَتَدْخُلُهُ فِي الْجَنَّةِ، مع ما تسعده في الحياة الدنيا، وتفتح له أبواب التوفيق والسداد .

وَرُبَّ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ تُوَصِّلُ قَائِلَهَا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، مع ما تشقيه في الحياة الدنيا، وتقفله دونه أبواب التوفيق والسداد .

٢ - قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ عطفًا على قوله: ﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ .

أي: جمع بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح الذي يعمله تطبيقاً في ذاته لما يدعو الناس إليه، ومُعَبَّرًا بعمله الصالح عن صدق إيمانه ويقينه بما يدعو إليه .

إنَّ الدعوة إلى الله هي دعوة إلى الإيمان بالله وبكلِّ ما جاء عن الله على لسان رسول الله، ودعوةٌ إلى العمل الصالح الذي يشتمل عليه صراط الله المستقيم، الذي أبانه لعباده فيما أنزل على رسوله .

فدَلَّ الجمع بين الوصفين: ﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ على أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يَعْمَلَ صَالِحًا لِيَكُونَ قُدْوَةً حَسَنَةً بِعَمَلِهِ لِمَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، إذْ هُوَ بِعَمَلِهِ يُعْطِيهِمْ صُورَةً تَطْبِيقِيَّةً وَاقِعِيَّةً مَشْهُودَةً لِمَا يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ .

أما من كانت أعمالُهُ مخالفةً لأقواله الحسنة الجميلة، فإنَّ دعوته تكون غيرَ ذات تأثير فيمن يدعوهم، لأنَّهم بتلقائيةٍ غيرِ واعيةٍ يقولون في أنفسهم: لو كان ما يدعوننا إليه حقًا وصدقًا وذا أثرٍ نافعٍ، وثمراتٍ طيباتٍ، لكان هو

أول العاملين بما يقول، والملتزمين بما ينصح به غيره.

٣ - قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ عطفاً على الجملتين السابقتين: ﴿ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾.

أي: جمع بين الدعوة إلى الله، والعمل الصالح، وإعلان أنه واحد من المسلمين.

وسبب الإلزام بهذا الإعلان، أن قادة المبادئ غير الربانية الذين يصدرون مبادئ إنسانية طيبة، إنما يفعلون ذلك لمخادعة الناس، حتى ينضموا إليهم، وينصروهم، وحتى يستغلّوهم لتحقيق غاياتهم الشخصية.

فالاشتراكيون ينادون بالاشتراكية لاستعطاف الفقراء حولهم، ولإثارتهم على الأغنياء وأصحاب الثروات، فإذا وضع القادة أيديهم على أموال ذوي الثروات، عن طريق الثورة الاشتراكية، التي يذهب جمهور الكادحين والعمال والفقراء ضحاياها، ووقوداً للهبتها، استأثروا بالأموال التي وضعوا أيديهم عليها، وأخذوا في إذلال وإبادة ما تبقى من جنودهم الذين أوصلوهم إلى مراكز التسلّط على ثروات البلاد والعباد، وأخذوا يستثنون أنفسهم من أي تطبيق أو قرار اشتراكي، وتُسمى القرارات الاشتراكية قرارات سلب ونهب، لملء صناديق القادة الاشتراكيين، وأخذوا يتسوّون بالمعاذير الباطلات، وينخفون عن أعين الجماهير إقطاعياتهم التي يُقَطِّعونها أنفسهم وأهلهم وذويهم وبعض أنصارهم.

وهكذا يفعل الشيوعيون، والرأسماليون المخادعون، وكل الذين ينادون بمبادئ إنسانية ترضاها الجماهير العريضة، وتُحسِّنُ الظنَّ بدُعَاياتها، فتندفع مع شعاراتهم الكواذب رجاء أن يحققوا لهم غايات إنسانية نبيلة.

وهنا نلاحظ أن التعليم الرباني تضمّن في فقراته، ما يحمي به الدعوة الإسلامية، من أن ينحرف فيها الدعاة عن منهج الله، فيضعوا لأنفسهم

استثناءات تُغفِيهم من أن يُطَبَّقُوا على أنفسهم وذويهم شرائع الإسلام وأحكامه، كما تُطَبَّقُ على سائر المسلمين.

فكان على الداعي إلى سبيل الله بمقتضى هذه الحماية، أن يُعْلِنَ منذ قيامه بوظيفة الدعوة إلى الله أَنَّهُ واحد من المسلمين، ويلازمه هذا الإعلان طوال حياته، فليس له استثناءات خاصة به أو بِذَوِيهِ، وما يُطَبَّقُ على غيره من المسلمين في التكاليف وفي العقوبات، يُطَبَّقُ عليه وعلى أهله وذوي قرابته، وأصحابه وأنصاره، بل ربما تكون التكاليف التي تجب عليه أشدَّ، نظراً إلى أنه مأمور بأن يكون قُدْوَةً حسنة في أعماله الصالحة، بخلاف آحاد الناس الآخرين الذين ربما خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وربما كانوا مسرفين على أنفسهم بكثرة معاصيهم ومخالفاتهم وارتكابهم كبائر الإثم.

تربية الداعي إلى الله تجاه ما يواجهه من أذى وضرر:

● إنَّ الداعي إلى سبيل ربِّه قد يوجِّه له المدعوُّون أو بعضهم ما يسوؤُهُ من أذى وضررٍ وشتائم، وأنواع سباب، واتهامات بالباطل، أو بالمصالح الخاصة، كما سبق بيانه في شرح النص الذي من أواخر سورة (الأعراف).

فما هو الموقف الإسلامي المطلوب منه في هذه الحالة؟.

لقد جاء هنا في التعليم إرشاد الداعي إلى سبيل ربِّه أن يدفع بالتي هي أحسن، أي: أن يدفع بالخصلة والمعاملة والمقابلة والطريقة والمقالة التي هي أحسن مما واجهه به المدعوون مؤذنين ومُتَّهِمين.

فإذا واجهوه بالشتائم والمؤذيات والاتهام بالباطل، أعرض عن مقابلتهم بالمثل، فهذا الإعراض أحسنُ خصلةً ومعاملةً ومقابلةً وطريقةً ممَّا واجهوه به.

وإذا واجهوه بالمجادلة بالباطل، أخذ بأيديهم إلى منطق الحجَّة والبرهان فجادلهم بالحق والرفق.

وإذا واجهوه بعُنفِ القولِ والغِلظةِ والفِظاظَةِ، تَلطّفِ بهم، فدفع بالرفق واللين وجميل القول وحُسن التكريم.

وإذا رَاوَعُوا وانطلقُوا إلى الفروع كلّمَا عجزوا عن دحض الأصول الفكرية الصحيحة التي يدعوهم إليها، بغية الشغب والتشويش، وتحويل وجهة النظر إلى أمورٍ فرعية قد يَشْتَبِه فيها وجه الحق بسبب ابتعادها عن أصولها، كان على الداعي أن يرجع بهم إلى مُناقشة الأصول، والاستدلال عليها بالأدلة البرهانية، والحجج الصحيحة المقنعة، متذرعاً بالرفق والحكمة الرفيعة.

وإذا شتموه بالضلالة اقتصر على أن يقول لهم: ليس بي ضلالة، ولكني أدعوكم إلى سبيل ربكم، حرصاً على نجاتكم من عذابه، وظفركم بجنته، أسوة بما ردّ به نوحٌ عليه السلام على قومه الذين اتّهموه بالضلالة، كما جاء في الآية (٦١) من سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

وإذا اتّهموه بالسفاهة، أي: بنقصان العقل، اقتصر على أن يقول لهم: ليس بي سفاهة، ولكني أدعوكم إلى سبيل ربكم، حرصاً على نجاتكم من عذابه، وظفركم بجنته، أسوة بما ردّ به هودٌ عليه السلام على قومه الذين اتّهموه فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ يَلْقَوْنَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ .

وإذا اتّهموه بالكذب اقتصر على أن يقول لهم: إنني لا أكذب، ولكني أبلغكم دين ربكم الذي أنزله على رسوله.

دلّ على سياسة الدفع بالتّي هي أحسنُ قول الله عز وجل في التعليم: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .  
١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ .

أي: ولا تستوي مفردات جنسِ الحسنة، لأن هذه المفردات ذواتُ

نِسْبٍ فِي الْحُسْنِ وَدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، فَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَجَةٍ دُنْيَا فِي الْحُسْنِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَجَةٍ عُلْيَا فِي الْحُسْنِ، وَبَيْنَهُمَا دَرَجَاتٌ فِي الْحُسْنِ لَا تَكَادُ تُحْصَى، وَكُلُّ ذِي حُسْنٍ يَحْتَلُّ دَرَجَةً مِنْ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ، كَنِسْبِ الْأَنْوَارِ شَدَّةً وَضَعْفًا.

وَلَا تَسْتَوِي أَيْضًا مَفْرَدَاتُ جِنْسِ السَّيِّئَةِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتُ ذَوَاتُ نِسْبٍ فِي الْقَبِيحِ، وَدَرَكَاتُ مُتَفَاوِتَاتٍ مُتَنَازِلَاتٍ، فَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَكَةٍ أَوْلَى فِي الْقَبِيحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَكَةٍ سَحِيقَةٍ سُنْفَلَى فِي الْقَبِيحِ، وَبَيْنَهُمَا دَرَكَاتٌ فِي الْقَبِيحِ لَا تَكَادُ تُحْصَى، وَكُلُّ ذِي قُبْحٍ يَحْتَلُّ دَرَكَةً مِنْهَا، كَنِسْبِ الظُّلْمَاتِ شَدَّةً وَضَعْفًا.

وَيُلَاحِظُ أَنَّ الْاِقْتِرَانَ فِي الْبَيَانِ بَيْنَ الْآيَةِ الْأُولَى وَالْآيَةِ الثَّانِيَةِ فِي هَذَا النَّصِّ التَّعْلِيمِيِّ يُشْعِرُ بِأَنَّ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ سَيَقَابِلُونَ الدَّاعِي بِالرَّفْضِ، ثُمَّ بِمَا يَكْرَهُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، وَتَخْتَلِفُ مُوَاجِهَاتُ الْمَدْعُومِينَ الرَّافِضِينَ لِلْاِسْتِجَابَةِ، فَيُوجَدُ مِنْهَا مَا يَسُوءُ الدَّاعِي وَيُؤْذِيهِ، وَهَذِهِ تَتَفَاوَتُ فِي دَرَكَاتِ قَبِيحِهَا.

وَالْمَطْلُوبُ مِنَ الدَّاعِي فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ مَهْمَا كَانَ مَا قُوبِلَ قَبِيحًا أَوْ مُؤْذِيًا، أَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ الَّذِي كَرِهَهُ مِنَ الْمَدْعُومِ، بِالْمُقَابَلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

٢ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

أَيُّ: فَإِذَا جَادَلَ الْمَدْعُومَ الرَّافِضَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، دَفَعَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِالْمُجَادَلَةِ بِالْحَقِّ وَالرَّفْقِ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

وَإِذَا قَابَلَ الْمَدْعُومُ بِالسَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ وَالْاِتِّهَامَاتِ الْبَاطِلَاتِ، دَفَعَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَقَدْ تَعَلَّمْنَا أَنْفَاءً مِنْ رَدِّ نُوْحٍ وَهُودٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ الدَّفْعَ لَا يَزِيدُ عَلَى مَجْرَدِ النَّفْيِ لِلشَّتِيمَةِ أَوْ الْاِتِّهَامِ بِالْبَاطِلِ، مِثْلُ: لَيْسَ بِي مَا تَقُولُونَ، فَيَكُونُ هَذَا الرَّدُّ دَاخِلًا فِي عَمُومِ الدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

● بعد هذا التعليم الذي تضمن السياسة الحكيمة في الدعوة أبان الله عز وجل حكمة هذه السياسة الرشيدة بقوله تعالى للداعي:

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢١)

أي: إن دفع المواجهات السيئة من ذي العداوة بالتي هي أحسن تجعله يتراجع عن مواقفه السيئة شيئاً فشيئاً، إذ تبرّد حرارة هجومه، ولا يزال يتراجع باتخاذ مواقف ليّنة رفيقة حسنة، حتى يغطي موقفه السابق، الذي جعله مداناً بقبح التصرف، وبالعدوانية التي لا مبرر لها، ولا داعي لاتخاذها.

ولا يزال يتراجع حتى يتظاهر بالتودّد، فيبذو كأنه وليّ حميم، أي: كأنه مناصر ذو ولاء، وصديق ذو وُدّ حقيقي.

وذلك التشبيه بعبارة ﴿ كَأَنَّهُ ﴾ على أنه قد يتصنّع هذه الظواهر الودّية مدهانة ورياء ليغطي ما سبق منه من مواجهة سيئة.

غير أنه ربما تحوّل بعد ذلك إلى ذي ولاء وودّ صادقين، كما حصل لكثير من الذين كانوا أعداء للرسول ﷺ ولدعوته، إذ تحوّلوا إلى الملاينة والمداهنة أولاً، ثم تحوّلوا بعد ذلك إلى أتباع ذوي ولاء صادق، وحبّ شديد له ولدعوته، ثم قدّموا حياتهم وأموالهم فداءً له وللذين الذي جاءهم به، والسيرة النبوية فيها أمثلة متعدّدة من هذا.

● ولما كانت مقابلة السيئة بالتي هي أحسن من الأمور الصعبة على النفوس، التي تتطلّب من الداعي إلى سبيل ربه صبراً عظيماً، وحظاً وافراً من فضائل الأخلاق، قال الله عز وجل:

﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٢٢)

أي: وما يلقى هذه الخصلة الحميدة، وهي الدفع بالتي هي أحسن إلا الذين صبروا، أي: إلا الذين صبروا على الأذى، ولا يصبر على الأذى إلا

مَنْ تَدَرَّبَ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَتْ لَدَيْهِ قَدْرَةٌ عَلَى الصَّبْرِ، وَصَارَ الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ خُلُقًا مَكْتَسِبًا لَهُ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْلِ فِطْرَتِهِ وَجِبِلَّتِهِ.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا يَتَحَمَّلُونَ صَدْمَةَ الْأَذَى، وَيَمْتَصُّونَهَا مِنَ الَّذِينَ يَحْرُصُونَ بِدَعْوَتِهِمْ لَهُمْ عَلَى نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَيَحْرُصُونَ عَلَى أَنْ يَفُوزُوا مَعَهُمْ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ فَوْزًا عَظِيمًا، وَيَزِيدُونَ عَلَى فَضِيلَةِ الصَّبْرِ فَيُدْفَعُونَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السِّيئَةِ الَّتِي تَلَقَّوْهَا.

وَمَا يُلَقَّى هَذِهِ الْخِصْلَةَ الْحَمِيدَةَ الْجَلِيلَةَ إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ مِنْ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَمِحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَالبصيرة الربانية الوضيئة، وَذُو حِظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْأَجْرِ عِنْدَ رَبِّهِ.

يَقَالُ لُغَةً: لَقِيَ فُلَانٌ فُلَانًا الشَّيْءَ، إِذَا جَعَلَهُ يَلْقَاهُ وَيَأْخُذُهُ مِنْهُ، فَالْآخِذُ لِلشَّيْءِ يُلْقَاهُ مِمَّنْ لَقَاهُ إِيَّاهُ.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْخِصْلَةُ الْعَظِيمَةُ إِنَّمَا يَمْنَحُهَا اللَّهُ لِمَنْ آمَنَ وَصَبَرَ وَدَرَّبَ نَفْسَهُ عَلَى فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، كَانَتْ فَضِيلَةً يُلْقَاهَا مِنْ عَطَاءَاتِ اللَّهِ لَهُ، فَهُوَ يَتَلَقَّاهَا، وَيَتَخَلَّقُ بِهَا، وَيَتَصَرَّفُ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِمَقْتَضَاهَا.

وَهَذَا سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ بِالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أَيْ: وَمَا يُعْطَاهَا عَطَاءً رَبَّانِيًّا فَهُوَ يَتَلَقَّاهَا مِنْ عَطَاءَاتِ رَبِّهِ إِلَّا الَّذِي صَبَرَ، وَمَا يُعْطَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْفَضَائِلِ الْخَلْقِيَّةِ، وَمِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ عِنْدَ رَبِّهِ.

● وَأَخِيرًا أَعْطَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الدَّاعِيَ الدَّوَاءَ الَّذِي يُعَالِجُ بِهِ نَزْغَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَدْفَعُهُ إِلَى مَقَابِلَةِ السِّيئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بِأَشَدِّ مِنْهَا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢١).

هَذَا الدَّوَاءُ هُوَ الدَّوَاءُ نَفْسَهُ الَّذِي جَاءَ فِي النَّصِّ الَّذِي سَبَقَ تَحْلِيلَهُ وَتَدْبِيرَهُ مِنْ سُورَةِ (الْأَعْرَافِ) إِلَّا أَنَّ النَّصَّ هُنَا الَّذِي هُوَ مِنْ سُورَةِ (فُصِّلَتْ) قَدْ



زاد التأكيد وإفادَةَ الحصر بتعريف طرفي الإسناد وبضمير الفصل على أَنَّ الله عزَّ وجلَّ هو وَخُدَّهُ السَّمِيعُ لكلِّ صوت والعليم بكلِّ شيء، وقد سبق بيان الفرق بين صيغتي: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ و﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في تدبر نصِّ (الأعراف).

\* \* \*

## التعليم الثالث عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الزخرف/ ٤٣/ مصحف/ ٦٣ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم وصيتين:

١ - أن يَدْرَ الداعي إلى الله المعاندين المكابرين في خوضهم ولعبهم، حتّى يلاقوا عقابهم الذي أنذروا به، في اليوم الذي قضى الله أن يُنهي فيه إمهالهم، ويُنزل فيه نعمته عليهم.

٢ - أن يَصْفَح الداعي إلى الله عن إيذاءاتهم له، مُعْرِضاً عن معاقبتهم عليها، ومقابلتهم بمثلها، وأن يقول لهم: سلام. أي: أعطيكم مني السلام، ولا أقيم بيني وبينكم الآن صراعاً مادياً، لأن الله لم يأذن لي بذلك.

وهذا الصَّفْحُ سياسةٌ مَرْحَلِيَّةٌ يلتزم بها الداعي إلى الله، ما دام التحرُّك الإسلامي يسير في طريق جهاد الدعوة فقط.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

لم يزل الأئمة المعاندون من مشركي مكة إبان نزول سورة (الزخرف) يزعمون في دعاياتهم الإعلامية أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ من ربه سحرٌ، ويُعلِنون أنهم يكفُرُونَ بأنه حقٌّ من عند ربّهم.

ورأوا أنّ محمداً ليس من رجالهم العظماء حتّى يكون مؤهلاً لأن يُنزلَ عليه من عند الله كتابٌ يبلّغه للناس، وليس مؤهلاً ليكون نبيّاً رسولاً، بحسب مفهوماتهم الطبقية.

وقالوا: لو كان ما يتلوه مُحَمَّدٌ كِتَابًا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُنَزَّلَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ مِنْ عِظْمَاءِ مَكَّةَ أَوْ مِنْ عِظْمَاءِ الطَّائِفِ .

والعظيم في تصوراتهم الطبقيّة هو ذو المال الوفير، والجاه العريض، والمكانة الرفيعة بين قومه .

دلّ على هذا الطّور من أطوار مواقفهم من الرسول ﷺ ودعوته قول الله عزّ وجلّ في السّورة:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ .

ولعلّ بعض المؤمنين من أتباع الرسول ﷺ قد حدّثتهم أنفسهم بأنّ من الخير أن يُوسّع الله على رسوله، فيغدق عليه المال الوفير، حتّى يكون عظيمًا في قومه، وبذلك تسكّت السنة المعترضين على الرسول بأنّه غير عظيم في مفهوماتهم الجاهليّة للعظماء .

فاقتضى هذا الحال أن يُبين الله عزّ وجلّ حكمته في قسمة الأرزاق، فجاء في السّورة قوله تعالى:

﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

ولعلّ بعض المؤمنين استبطأ تحقيق وعد الله لرسوله بالتصر، فكان من الحكمة الإجابة على هذا بقول الله عزّ وجلّ لرسوله في السّورة:

﴿ فَإِنَّمَا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿١١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ

مُقْتَدِرُونَ ﴿١١١﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٢﴾ .

ووصل حال المعاندين من أئمة المشركين إلى أن يُعلنوا سُخْرِيَتَهُمْ  
وضحكهم من عجز الرسول والذين آمنوا معه عن الدِّفاع عن أنفسهم، تجاه ما  
يَلْقَوْنَ من اضطهاد المشركين لهم .

نفهم هذا من عرضِ قِصَّةِ فرعون وملئه، وكيف كانوا يضحكون  
ساخرين من الآيات التي كان موسى عليه السلام يأتيهم بها، متفاخرين بما  
يملكون من سلطانٍ في مصر، وثناء سلطانيٍّ وأُسُورة من ذهب، وجُنْدٍ قادرين  
على اضطهاد خصومهم .

فاقتضى هذا الحال أن يوجه الله عزَّ وجلَّ لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من  
أمة وصيتين :

الوصية الأولى : أن يَدَّرَ معاندي أئمة المشركين يخوضون في شرورهم  
ومعاصيهم ووثنياتهم، ويَلْعَبُونَ كما يَهْوُونَ فيما يشتهون من متاع الحياة  
الدنيا، حَتَّى يَنْتَهِيَ وَقْتُ إِمهالهم، ويلاقوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يوعَدون أن يحلَّ بهم  
فيه عقاب الله جلَّ وعلا .

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله فكلَّ داعٍ إلى الله  
من أمة في أواخر السورة :

﴿ فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يوعَدُونَ ﴾ ﴿١١٢﴾ .

يَخُوضُوا: أَضَلُّ الخَوْضِ المشي في الماء وتحريكه، وبهذا يختلط  
بالماء ما هو في قاعه من تراب وطين وغير ذلك من رُسوبات تعكَّرُ الماء  
وتُفسدُهُ .

ثمَّ استعمل في التلبُّس بالأمر والتصرف فيه على غير هُدًى، وبما فيه  
إفساد وتعكيرُ صفاء .

والخَوْضُ: الكلام المشتمل على الكذب والباطل.

أي: دَعُهُمْ فيما هم فيه من أعمال فاسدات، وشَرِكِيَّات قبيحات، واستمساك بمعتقدات باطلات، ولا تَحْمِلْ هَمَّ ما هُمْ فيه من خوضٍ بالباطل وجدلياتٍ زخرفياتٍ مُضَلَّلَاتٍ، ولا تَحْمِلْ هَمَّ ما هم فيه من لَعِبٍ يُحَقِّقُونَ به مطالب أهوائهم وشهواتهم، ممَّا يَحْبُونَ أَنْ يَقْضُوا حياتهم فيه مستمتعين بمتاع سريع الزوال.

فإمهالُهُمْ فيما هم فيه له أمدٌ معلومٌ عند ربك، ومتى انتهى أمدُ إمهالهم فإنهم سَيَلِقُونَ حتماً يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَهُ في البيانات المتتابعات من القرآن. الوصية الثانية: أن يَضْفَحَ عَمَّا يُلَاقِي من أذىٍ يأتيه من قبلهم، وأن يقول لهم: سلامٌ.

ودلَّ هذا التوجيه المرحليُّ الذي لم تُحَدِّدْ له في النصِّ غاية، مع ما نزل في المرحلة المدنية من إذن بمقاتلة المشركين، ثم تحريض على مقاتلتهم، على أن هذا التوجيه له صفة التعليمات المرحلية.

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ في آخر السورة:

﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: فأعرض عنهم مؤقتاً، وقل لهم: بيني وبينكم اليوم سلام فأنا لا أقاوم ولا أقاتل.

لكنَّ الله أنذرهم بأسلوب تطمين رسوله في قوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

\* \* \*

## التعليم الرابع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم وصيتين موجهتين للداعي إلى الله، وهما:

١ - أن يتولى الداعي إلى الله عن تذكير مُعاندي أئمة المشركين الذين وصلوا إلى دركة ميثوس منها، فيدير إليهم ظهره، ليوجه اهتمامه ونشاطاته لآخرين لم ييأس بعد من استجابتهم.

٢ - أن يتابع تذكير الذين ما زال الطمع باستجابتهم لدعوة الحق وإيمانهم وإسلامهم موجوداً، لم ترشح منه فطرته الأخيرات.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

استمر موقف معاندي أئمة المشركين إبان نزول سورة (الذاريات) في الثلث الأخير من العهد المكي على توجيه الاتهام للرسول ﷺ بأنه ساحرٌ أو مجنون.

دل على هذا الموقف العنادي لفريق من أئمة المشركين، الذي كشف بجلاء أنهم وصلوا إلى حالة ميثوس منها تماماً، قول الله عز وجل في أواخر السورة:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥١﴾ أَنْوَاصُوا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَتَوَاصُوا بِهٖ﴾ أي: أتواصوا بهذا القول الذي قاله كفار القُرُون الأولى الذين أَهْلَكُوا، وقاله المعاندون المصرون على كُفْرِهِمْ وعنادهم من أئمة مُشْرِكِي مَكَّة، الذين كَفَرُوا بالرسول محمد ﷺ، وبالقرآن الذي أُنزلَ عليه.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: بل هم جميعاً الأقدمون والمعاصرون لنزول القرآن طاغون، وبسبب ما في نفوسهم من طغيان كَانَ لا بُدَّ أن يتفقوا على مقالة متماثلة، فهي إحدى المظاهر التلقائية الطبيعية للطغيان.

وذلك لأنَّ الطغيان في النفوس، مع عدم وجود دليلٍ تقبله العقول، لرفض دعوة الحق الذي يدعو إليه الرَّسُول، يدفع صاحبه إلى اللّجوء إلى ذريعة آتھام الرسول بأنه ساحرٌ أو مجنون، لِصَدِّ من يتأثّر بدَعْوَتِهِ عن الإيمان به واتّباعه.

الطغيان: تجاوز الحد الطبيعي المقبول، إلى مواقع الضرر والإفساد، والظلم والجور والبغي والعدوان.

واقتضت الحكمة التربوية الربانية تجاه هذا الموقف العنادي الذي أصرَّ عليه فريق من أئمة مشركي مَكَّة أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله وصيتين:

الوصية الأولى: أَنْ يَتَوَلَّى عن هؤلاء الأئمة المعاندين، فَيُدِيرَ إليهم ظَهْرَهُ، في مجال الدعوة، ليوجّه اهتمامه لآخرين لم يَبْلُغُوا إلى الحضيض الميئوس منه، وآخرين ما زالوا في أوّل مراحل تلقّي دعوة الرسول أو أوسطها.

فإذا تولّى عن دعوة هؤلاء الأئمة المعاندين مع مراقبة أعمالهم الكيدية فإنّه غير ملوم عند ربّه.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله فلكلّ داعٍ إلى الله من أمته عقب البيان السابق:

﴿ قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ .

فعل «تولّى»: يأتي بمعنى أذبر، ويأتي بمعنى نأى.

والمعنى: فانصرفت عن دعوتهم، ودعهم لكفرهم، فإذا توليت عنهم فما أنت بمَلُوم، لأنك قد استنفذت كل قطرات الرجاء والطمع باستجابتهم، وقدمت لهم كل وجوه الدعوة الرشيدة التي يتأثر بها من لَدَيْهِ ذَرَّةٌ من خَيْر.

الوصية الثانية: أن يُتَابَعَ الداعي إلى الله تذكير آخرين لم تَصِلْ حالتهم إلى حضيض اليأس من استجابتهم.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ عقب الوصية السابقة:

﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي: وذكر آخرين لم تُؤكّد التجربة الطويلة أنهم قد بلغوا إلى حالة ميثوسٍ منها.

﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذِّكْرَى: اسمٌ للتذكير، أي: فإن التذكير يَنْفَعُ مَنْ لديهم الاستعداد للإيمان مستقبلاً.

لفظ «المؤمنين» جمعٌ للمؤمن، وهو اسمٌ فاعل يقع هنا على الاستقبال، أي: من سيكون من المؤمنين بسبب ما لديه من استعدادٍ لأن يؤمن بالحق، ويقع على الحال، أي: من هو من الذين لديهم إيمانٌ ما بالله ويخشى عقابه.

\* \* \*



## التعليم الخامس عشر

جاء هذا التعليم في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):  
وقد تضمّن هذا التعليم وصيتين موجّهتين للرسول ﷺ فلكل حملة رسالته من أمته:

١ - أن يدفع السيئة التي يُواجهُ بها في مجال دعوته بالتي هي أحسن .  
وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية التي جاءت في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع إضافة قيد «السيئة» بالنسبة إلى المدفوع.

٢ - أن يستعيد برّبه من همزات الشياطين، وأن يستعيد به من أن يحضروا عنده، فيقول:

﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ .

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً أيضاً للوصية التي جاءت في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) وللوصية التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

مع فروق في دلالات النصوص الثلاثة، وإضافة عبارة مختارة للاستعاذة في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

## التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) تعليم من الله عز وجل لرسوله فلكل داعٍ إلى سبيل ربه من أمته مناظرة جدلية، يتوسل بها إلى إقناع المشركين الذين ينكرون البعث للحساب والجزاء يوم الدين.

وبعد هذا التعليم أشعر الله رسوله باقتراب تحقيق الوعد الذي وعده المشركين، المتضمن نصره لرسوله والذين آمنوا معه وهزيمة عدوهم، وهو الذي سبق أن أنزله الله تبارك وتعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

وهذا الإشعار باقتراب تحقيق الوعد الرباني قد جاء بأسلوب تعليم الله رسوله دعاء يدعو به ربه، فقال الله عز وجل في سورة (المؤمنون):

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: رب إن تُكرمني فتجعلني أرى ما أكذت لي أن تُريني إياه من إنزال نعمتك بمن عاداني واضطهد الذين آمنوا بي، وهم مشركو مكة، فأخرجني قبل ذلك من بين مجتمهم، فلا تُنزل عقابك عليهم وأنا موجودٌ فيهم.

ونلاحظ في هذا الدعاء الذي علم الله رسوله أن يقوله إلماحاً إلى أن الله عز وجل سيأذن له بالهجرة من مكة، حتى يكون منفصلاً عنهم، غير موجودٍ فيهم.

وبعد هذا بشره الله إلماحاً بأنَّ وعده لهم سيراه صلوات الله عليه، فقال تعالى له: ﴿وَإِنَّا عَلِمْنَا أَنَّ تُرِيدُكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: اطمئن، فسترى هزيمتهم وخزيهم، بنصرك ونصر الذين آمنوا معك عليهم.

وبعد هذا قال تعالى له :

﴿ أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (١٧) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٧﴾ .

إن المناظرة الجدلية المفجمة ذات الحجج البرهانية التي تضمنها التعليم في هذه السورة، من شأنها أن تجعل المعاندين المصيرين على باطلهم في الشرك وإنكار البعث بعد الموت للحساب والجزاء، يلجؤون إلى وسائل لا تمتُّ إلى منطِق العقل والحجج التي تُقْبَلُ في مقياسه بِصِلَة، وهذه لا تكون إلا من حَضِيض قاذورات السباب والشائم المماثلة لَعُواء الكلاب ونباحها، والدالة على السفاهة التي لها ظواهر تكشف نقصان العقل وانعدام الرأي السديد، والفكر الصحيح. أو من حَضِيض الهزء والغمز واللَّمز والضحك الساخر، مع استكبارٍ وتعالٍ متصنَّع لتغطية الهزيمة في مجال العلم والفكر السليم، ومع تَسْلِيطٍ للغوغائيين من أتباعهم. أو تَسَلُّطٍ بالقوة المادّية المتفوقة، والاضطهاد بها.

فجاء في التعليم الزباني للرسول ﷺ، التوجيهُ لدفع السيئة بالتي هي أحسن، وهو تعليمٌ عامٌّ وتوجيهٌ لكلِّ داعٍ إلى سبيل ربّه، في كلّ الأحداث المماثلة، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ .

فأضاف في هذا النصّ على العبارة التي جاءت في التعليم السابق الذي أنزله الله في سورة (فُصِّلَتْ) كلمة: ﴿ السَّيِّئَةُ ﴾ .

إن العبارة التي جاءت في سورة (فُصِّلَتْ) هي: ﴿ أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

أما العبارة التي أنزلت بعدها بمدة في سورة (المؤمنون) فهي: ﴿ أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ .

فاشتملت هذه على التصريح بالمراد المطلوب دفعه بالتي هي أحسن، لِيُعَلِّمَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مَا يُعَلَّمُ بِاللُّزْمِ الذَّهْنِيِّ يَصِحُّ أَنْ يُسْتَعْنَى عَنِ التَّصْرِيحِ بِهِ

في العبارة، ولا سيما في الكلام الرفيع الوجيه، فالدفع الذي دلّت عليه جملة: ﴿أَدْفَعْ﴾ إِنَّمَا يَكُونُ دَفْعًا لِلسَّيئةِ بِاللُّزومِ الفكري، والسَّبَبُ في هذا أن الحسنه لا تُدْفَعُ، بَلْ تُسْتَقْبَلُ بِمَسْرَرةٍ وَتُؤَخَذُ، فَالدَّفْعُ تَنْحِيَةٌ وَإِزَالَةٌ بِقُوَّةٍ.

● قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

أي: نحن أعلم بما يصفونك به في شتائمهم وأتهاماتهم الباطلات، وفي هذا يُطَمِّئِنُ اللهُ عز وجل رسوله وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من بعده، إلى أنّه تعالى أعلم منهم بما يصفهم به المدعوّون المعاندون المصرون على باطلهم، من آتهاماتٍ يتهمونهم بها، وشتائم يشتمونهم بها، ويلزم ذهنًا من علمه تعالى بذلك أن يُدبّر بحكمته ما يُلزِمُ لنصرة أوليائه على أعدائه، وإن أمهل الكافرين المعاندين وأملى لهم، فإن كيدَهُ سبحانه متين، كما دلّت على هذا نصوصٌ أخرى، فالبيانات الربّانية في كتابه متكاملة الدلالات.

● قول الله عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾﴾.

في هذا تعليم ربّانيّ للصيغة المناسبة التي ينبغي أن يدعو بها المستعيد برّبّه.

إنّ ما جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) قد وجّه للاستعاذة بالله، فقال تعالى:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

ثمّ جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (فصلت/ ٦١ نزول) تأكيد لهذا التوجيه، مع بيان أنّ الله عز وجل هو وحده السميع العليم، فقال تعالى:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

ثمّ جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (المؤمنون/ ٧٤ نزول) عدم

التصريح بنزع الشيطان لسابق العلم به، والاختصار على بيان الصيغة المناسبة التي ينبغي أن يدعو بها المستعيز بربه، فقال عز وجل: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ ۞ .

سبق بيان معنى الاستعاذة في التعليم الأول.

همزات الشياطين: الهمز في اللغة مثل الغمز والضغط والعصر والتخس باليد أو بأداة ما. ويقال: همز الشيطان الإنسان همزاً. إذا همس في قلبه وسواساً. وهمزات الشيطان خطراته التي يُخَطِرُها بقلب الإنسان.

فالهمز في هذا النص كالنزغ الذي جاء ذكره في النصين الآخرين. فعلى الداعي متى شعر في باطنه بأي ضغط من نزغ أو غمز أو همز يدعو إلى مخالفة التعليم الرباني الذي وجه للدفع بالتي هي أحسن، فعليه أن يستعيز بالله قائلاً: رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ، وأعوذ بك رب أن يحضروني، وأن يكون هذا الدعاء بحضور قلب وهمة نفسية صادقة.

أن يحضروني: أي: أن يحضروني، وأن يكونوا معي. لأن وجودهم يصاحبه الهمز والنزغ والوسواس، والله عز وجل يُعِيدُهُ، فيصرف عنه همزاتهم، ويصرفهم عنه كلياً بابعادهم عن نفسه ومشاعره الداخلية.

\* \* \*

## التعليم السادس عشر

جاء هذا التعليم في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) وقد تضمن هذا التعليم وصيتين:

١ - أن يعرض حامل الرسالة في دعوته عن مواجهة من بلغ إلى أقصى درجات الإعراض عن بيانات الدعوة التي وُجِّهَتْ له، لكنه لم يتولَّ، ولم يَصِلْ إلى حالة ميثوس منها.

الإعراض: هو إعطاء العارض، وهو وسط بين المواجهة والإدبار، وللإعراض درجات دنيا وقصوى وما بينهما.

ولا يُفْهَم من الإعراض عدمُ إِسْمَاعِ المدعُوِّ ما يراؤُ تذكيره به، إذ يُمَكِّن إِسْمَاعُهُ دون مواجهته ومقابلته.

٢ - أن يكون الداعي إلى الله في حالة إعراضه عن المدعو منتظراً مُتَرَقِّباً، فإذا شعر بحسِّه المرهف أنه قد بدأ يَلِينُ وَيُخَفِّفُ من شدة إعراضه، انعطف نحوه بشيء من التوجُّه، ليساعده على نفسه رجاء أن يلين ويستجيب بدعوة الحق.

وهذه سياسة حكيمة في مجال الدعوة إلى الله.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

مع وجود أئمة كفر معاندين يَحْسُ بالداعي إلى الله أن يتولَّى عنهم،

مُولِيًّا ظَهَرَهُ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ غَيْرُ مَلُومٍ عَلَى تَوَلِيهِ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَّاتِ) يُوَجِّدُ فَرِيقَ آخَرَ مَقَمٍ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ إِلَى دَعْوَةِ الْحَقِّ عَلَى الرُّغْمِ مِمَّا وُجِّهَ لَهُمْ خِلَالَ عِدَّةِ سِنِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَوَلَّوْا تَوَلِيًّا كَامِلًا، وَلَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَى حَالَةِ مَيْتُوسٍ مِنْهَا.

دَلَّ عَلَى وُجُودِ هَذَا الْفَرِيقِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا... ﴾ (٢٣١)

أَي: بُلِّغَ آيَاتِ رَبِّهِ أَوَّلًا، وَبَيَّنَّتْ لَهُ، وَذُكِّرَ بِهَا مَرَّاتٍ مُتَكَرِّرَاتٍ، فِي أَزْمَانٍ مُتَفَاعِلَاتٍ، وَأَمْهَلَ رَجَاءً أَنْ يَتَأَمَّلَ وَيُذَكِّرَ الْحَقَّ وَيَسْتَجِيبَ لَهُ، لَكِنَّهُ بَعْدَ الْفَاعِلِ الزَّمَنِيِّ الطَّوِيلِ ظَلَّ مَعْرُضًا وَمَبَالِغًا فِي إِعْرَاضِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى التَّرَاخِي الزَّمَنِيِّ مَعَ لَزُومِهِ حَالَةَ الْإِعْرَاضِ اسْتِعْمَالَ حَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» فَاسْتِعْمَالَ هَذَا الْحَرْفِ يُشْعِرُ بِأَنَّ الرَّسُولَ قَدْ ذَكَرَهُ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ فِي أَزْمَانٍ مُتَرَاخِيَاتٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَازِمَ حَالَةَ الْإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ رَبِّهِ.

وَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذَا الْفَرِيقِ التَّوْصِيَةَ بِالِاكْتِفَاءِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ، مَعَ إِسْمَاعِهِ مَا يُرَادُ تَذَكِيرُهُ بِهِ دُونَ مُوَاجَهَةِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ مِنَ السُّورَةِ: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ... ﴾ (٢٣١)

أَي: فَأَعْرَضَ عَنْ مُوَاجَهَتِهِمْ مَعَ إِسْمَاعِهِمْ تَذَكِيرًا بِمَا سَبَقَ أَنْ بَلَّغْتَهُ لَهُمْ، وَأَعْلَمْتَهُمْ بِهِ شَرْحًا وَتَفْصِيلًا وَمُجَادَلَةً بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ التَّوْصِيَةَ بِانْتِظَارِ الْفُرْصَةِ الْمَلَائِمَةِ لِتَذَكِيرِهِمْ بِإِقْبَالِ مُوَاجَهَةِ، وَهَذَا الْإِنْتِظَارُ يَسْتَدْعِي مُرَاقَبَةً مُتَابِعَةً لِأَحْوَالِهِمْ، عَسَى أَنْ تَدُلَّ الْأَمَارَاتُ عَلَى أَنْ إِعْرَاضَهُمْ قَدْ بَدَأَ يَخْفُفُ، وَأَنَّ نَفْسَهُمْ قَدْ بَدَأَتْ تَلِينُ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ التَّوْصِيَةِ تَمَّةَ الْآيَةِ الْآخِرَةِ مِنَ السُّورَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى

فيها: ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾.

أي: وانتظر انتظار مُتَرَقِّبٍ تَبَدَّلَ أحوالهم إلى تخفُّفٍ مِمَّا هم فيه من إعراض، ولينٍ لمؤثراتِ الدَّعْوَةِ.

﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي: إنهم في موقف المعرض المنتظر الذي يراقبُ مُقَدِّمَاتِ الفتح (أي: النصر) الذي وعدك الله به، فإذا شعروا بوقوع هذه المقدمات، أو بقرب وقوعها فإنهم قد يتأثرون، فيعدُّلون موقفهم، وقد يؤمن منهم مؤمنون، وهذه فرصةٌ يَبْغِي للداعي إلى الله أن يَهْتَبِلَهَا.

وقد دلَّ على أنَّهم يَنْتَظِرُونَ مُقَدِّمَاتِ الفتح أو أماراته، ما جاء في الآيتين اللتين قبل الأخيرة من السورة، وهُمَا قَوْلُ الله عزَّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٥١﴾.

أي: يَوْمَ تحقُّقِ النَّصْرِ في المعركة وسقوط الكافر قتيلاً لا ينفعه إيمانه عند ربِّه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أما إذ وقع في الأسر فإنه لا ينفعه إيمانه عندئذ في إعفائه من الفدية أو الاسترقاق، إذا قرَّرت قيادة المسلمين ذلك ولم تَمَنَّ على الأسرى.

\* \* \*



## التعليم السابع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

وقد تَضَمَّنَ هذا التعليم خمس وصايا للرسول ﷺ اشتملت عليها السورة، وهذه الوصايا يستفيد منها الدعاة إلى الله من أمته:

١ - لزوم متابعة تذكير من لم يصلوا إلى حالة ميثوسٍ معها من استجابتهم لدعوة الحق، مهما واجه من بعض قومه من اتهام له بالكهانة أو بالجنون أو بأنه شاعر.

٢ - أن يواجه الرسول القائلين بشأنه ينتظره حتى يُدركه الموت، وعندئذٍ تلتخص منه، فيقول لهم وهو مطمئن القلب هادئ النفس تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتْرَبِصِينَ.

التَرَبُّصُ: الانتظار.

٣ - أن يترك من يلاحظ أنَّهم يُريدون كَيْدَهُ، فلا يكشفَ لهم أنه قد أدرك ما يريدون تَدْبِيرَهُ من كيد ضده، واثقاً من أن الله ناصرُهُ ومُنزِلٌ بهم عقابه، إذا التزم بتعليمات الله له في أخذ حِذْرِهِ، وفي الاستعداد الكافي لإحباط كَيْدِهِم.

٤ - أن يَصْبِرَ لِحُكْمِ رَبِّهِ، مُخْضِراً في تصوُّره دواماً أنه مَحْفُوظٌ بحفظ الله، محاطٌ بأعْيُنِهِ جلَّ جلاله، فلنَّ يَبْلُغُوا منه مرادهم بمكائدهم التي يكيدونها.

٥ - أن يُسَبِّحَ بحمد ربه في ثلاثة أوقاتٍ من كلِّ يومٍ من أيام حياته :

● حين يقوم من نومه، أو من مجلسه .

● أثناء الليل .

● عند غروب النجوم من آخر الليل .

التحليل أخذاً مما جاء في السورة :

استمرَّ حالُ معاندي أئمة المشركين، الذين هم في خوضٍ من الجرائم وكبائر الإثم وإطلاقِ الاتهامات الإعلامية ضدَّ الرسول وضدَّ القرآن يَلْعَبُونَ، غير مبالين عقوبةً من الله تنزل عليهم، وأخذوا يَبْثُونَ بثًا إعلاميًا بين الناس ضدَّ الرسول الأقوال التالية :

١ - كَاهِنٌ يَتَلَقَّى عَنْ قُرْنَائِهِ مِنَ الْجِنَّ كَمَا يَتَلَقَّى الْكُهَّانَ .

٢ - مجنون يخالف ما عليه قومه وأباؤهم غير حاذرٍ من انتقام قومه

منه .

٣ - شاعر يقول كلاماً شبيهاً بأقوال الشعراء، فنحن نتربِّصُ أن ينزل به الموت فتخلص منه، ومما جاءنا به مخالفاً ملّة قومه .

فاقتصت الحكمة الربانية التربويّة أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله وصيتين :

الوصية الأولى : تتضمَّنُ تشبته على تذكير الذين لم يصلوا بعدُ إلى حالة ميثوسٍ منها .

الوصية الثانية : أن يُواجهَ القائلين بشأنه : شاعرٌ تنتظر موته، فيقول لهم : «تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ» أي : وأنا أنتظر أن ينزل الله بكم عقابه عذاباً من لدنّه، أو هزيمة وخذلاناً .

دلّ على هذا الموقف الذي كان عليه معاندو أئمة المشركين، وعلى الوصيتين السابقتين الموجهتين للرسول ﷺ، وينتفع بهما كلُّ داعٍ إلى الله من أمته، قول الله عزّ وجلّ في السورة لرسوله:

﴿ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢١﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبْرِئُصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴿٢٢﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ تَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴾ أي: ننتظر أن تنزل به حوادث الدهر المميّنة. يُطْلَقُ «الرِّبُّ» في اللُّغَةِ على صروف الدهر وحوادثه. ويُطْلَقُ لفظ «الْمُنُون» على الدَّهر، وعلى الموت. فريب المنون حوادث الدهر التي تأتي بالموت.

\* \* \*

وكان لمعاندي أئمة المشركين في هذا الطور من أطوار تحركاتهم العدائية إرادةٌ كَيْدٌ يُدَبِّرُونَهُ ضِدَّ الرِّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نفهم هذا من قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

أي: إن الله يرُدُّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ فيجعلهم هُمُ المكيدين.

وفي مقابل إرادة الكيد هذه التي كانت من معاندي أئمة المشركين، اقتضت الحكمة التربوية الربانية أن يوجه الله عزّ وجلّ لرسوله ثلاث وصايا:

الوصية الأولى: أن يَدْرَهُمْ فلا يكشف لهم معرفته بأنهم يريدون تدبير كيد ضده وضدّ الإسلام والمسلمين، وأن ينتظر حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذي فيه يُضَعَّفُونَ.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُضَعَّفُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ

يُصْرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يُصْعَقُونَ: يَمُوتُونَ، يقال لغةً: صَعِقَ يَصْعَقُ صَعَقًا وَصَعَقًا إِذَا مَاتَ، فَهُوَ صَعِقٌ.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ الْآخِرَةِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَقَدْ نَزَلَ بِالظَّالِمِينَ عَذَابُ الْقَتْلِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَغَيْرِهَا، وَنَزَلَ بِبَعْضِهِمْ عَذَابٌ بِالْأَوْجَاعِ وَالْأَمْرَاضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَبْلَ مَوْتِهِمْ.

الوصية الثانية: أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا لَا يَسْرُهُ مِنْ أَحْدَاثِ اسْتِسْلَامٍ لِحُكْمِ رَبِّهِ، مُحْضِرًا فِي تَصَوُّرِهِ دَوَامًا أَنَّهُ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللَّهِ، مُحَاطٌ بِأَعْيُنِهِ جَلَّ جَلَّالَهُ، فَلَنْ يَبْلُغَ مَدْبَرُو الْكَيْدِ ضِدَّهُ مُرَادَهُمْ بِمَكَايِدِهِمُ الَّتِي يَكِيدُونَهَا.

دل على هذه الوصية قول الله عز وجل في أواخر السورة:

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾

الوصية الثالثة: أَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ فِي ثَلَاثَةِ أَوْقَاتٍ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ

حياته:

- ١ - حين يقوم من نومه، أو من مجلسٍ من مجالسه.
- ٢ - أثناء الليل (ومن الخير أن يكون التسبيح بحمد الله في صلاة).
- ٣ - عند إزبار النجوم آخر الليل (ومن الخير أن يكون التسبيح بحمد الله في صلاة).

دل على هذه الوصية قول الله عز وجل في آخر السورة:

﴿... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

إِدْبَارُ النُّجُومِ: مَغْيِبُهَا، يُقَالُ: أَذْبَرَ إِذَا أَدَارَ وَجْهَهُ وَأَعْطَى دُبْرَهُ،

وانصَرَفَ مبتعداً، وهذا بالنسبة إلى النجوم يكون بغيابها، وهو يكون عند آخر الليل، أو بَعْدَ طلوع الفجر.

وجعل سيدنا عليٌّ رضي الله عنه ركعتي سُنَّةِ الفجر من التسبيح المطلوب عند إذبار النجوم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) ذكره أبو بكر السجستاني في تفسيره لغريب القرآن تعليقاً على الآية (٤٠) من سورة (ق).

## التعليم الثامن عشر

جاء هذا التعليم في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم وصيتين موجّهتين من الله لرسوله ولكل داع إلى الله من أمته، وهاتان الوصيتان تؤكدان بعض الوصايا التي سبق أن أوصى الله بها، مع إضافات بيانية:

١ - أن يتحلّى الداعي إلى الله بالصَّبْرِ الجميل على تكذيب المكذبين بيوم الدين.

والصَّبْرُ الجميل هو الذي تُصَاحِبُهُ بشاشةٌ في الوَجْهِ، وتلقائيةٌ في الأقوال والأعمال، دون قلقٍ ولا اضطرابٍ ولا امتعاضٍ ولا تدمرٍ، ولا ضيقٍ في الصدر.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أوائل السورة ضمن الحديث عن عذاب الكافرين يوم الدين:

﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾.

٢ - أن يَدْرَ الكافرين المصّرّين على عنادهم يخوضوا في جرائمهم وفسقهم وفجورهم وشركياتهم، ويلعبوا كما يَهْوُونَ في الحياة الدنيا، حتّى يُلاقُوا مصيرهم الوخيم، في يومهم الذي يُوعَدُونَ، وهو يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء والعزاء «وهذه سياسة مرحلية».

مع قيامه بواجب جهاد الدعوة والنصح والإرشاد بين من يطمع في استجابتهم أخذاً من نصوص أخرى .

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر السورة :

﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ أي : يخرجون من القبور سراعاً إلى المحشر . الجذثُ : القبرُ ، وجمعه أجداث .

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أي : كأنهم يُسرِّعون إلى نُصُبٍ . .

النُّصُبُ ، والنُّصْبُ : شيءٌ يُرفع علامةً ، والنُّصْبُ ما نُصِبَ وعُبدَ من دون الله .

أي : يُشبه حالهم يوم الحشر حالهم في الدنيا إذ كانوا يُسرِّعون إلى تعظيم أوثانهم وعبادتها من دون الله .

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ ﴾ أي : منكسرةً أبصارهم يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ ، وهذا من مشاعر ذلتهم .

﴿ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ﴾ أي : تَغشَاهُمْ وتُجَلِّلُهُمْ ذَلَّةٌ ، لعلمهم بمصيرهم الذي هم إليه صائرون .

\* \* \*

## التعليم التاسع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم وصيتين موجّهتين للرسول ويستفيد منهما كلُّ داعٍ إلى الله من أُمَّته:

١ - أن يَصْبِرَ فلا يستعجل تحقيق وعد الله له بالنصر.

٢ - أن لا يستخفُّ الكافرون للقيام بأعمال تُوقِعُهُ أو توقع جماعة المسلمين في ورطاتٍ لا تُحْمَدُ عَوَاقِبُهَا.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

وعد الله عزَّ وجلَّ رسوله والذين آمنوا معه بأن يَنْصُرَهُم وَيَنْتَقِمَ لَهُم مِنَ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ اضْطَهَدُوهُم.

دلَّ على هذا الوعد ما تضمنته قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾﴾.

وقد قضت حكمة الله بأن يُمهِّلَ معاندي كُفَّار مكة، حتَّى آخِرِ درجات الإمهال، لقطع كلِّ عذْرٍ يُمكن أن يعتدروا به.

غير أن هذا الإمهال الرّباني قد يستغله بعض المجرمين لإطلاق أقوال،



والقيام بأعمال يَسْتَحْفُونَ بها المؤمنین للقيام بما لا يعطي نتيجة حسنة، بل قَدْ يَجْلِبُ لهم ما يكرهون، كالتورط بأعمال اندفاعية غير رشيده، تكون سبباً في أن يُصابوا بمصائب، أو هزائم وخسائر جمة .

فاقتضى هذا الأمر أن يوجه الله عز وجل لرسوله التوصية بالصبر، وبأن لا يستخفنه الكافرون المجرمون الذين لا يؤقنون بوعد الله، وهذه التوصية موجّهة لعموم المؤمنین، وخوِطَبَ بها الرسول باعتباره قائدهم الممثل لهم، فقال الله عز وجل له في آخر السورة:

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي: ولا يَحْمِلَنَّكَ الكافرون على القيام بأعمال طائشة تتورط بها فيما لا تُحْمَدُ عقباه .

يقال لغة: استخفّه، إذا حمّله على أمرٍ لا يحسن أن يقوم به . واستخفه: إذا استخفّه فاستفزه فحمّله على اتباعه في غيه . واستخفه: إذا وجدّه خفيفاً يستجيب بسُرعة لما يُطلبُ منه، أو يُوجّه للقيام به، أو يُستثار حتى يتورط فيما لا تُحْمَدُ عقباه .

ومن الاستخفاف الإثارات الخادعات التي تجعل الإنسان الذي ليس لديه رزانة ولا رصانة يندفع متورطاً للقيام بعمل يتصوّر أنّه من الجهاد المحمود، بينما ينتظره في طريق اندفاعه فتح يكون به هلاكه .

وقد اتقن أعداء الإسلام حيلة الإثارة والكمين، فبالإثارة يستخفون الأغرار والجهلة وأهل الطيش الذين ليس لديهم رزانة ولا رصانة ولا خبرة بحيل أهل المكر، وبالكمين يوقعون من استخفوه في المصائد المهلكة، والورطات الشنيعات .

\* \* \*

## التعليم العشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وهذا التعليم من التنزيل المدني.

وقد تضمن هذا التعليم ثلاث وصايا موجهة للرسول ﷺ، ويستفيد منها كل حامل رسالته من أمته، وهي:

- ١ - على حامل الرسالة أن لا يطيع الكافرين والمنافقين.
- ٢ - ينبغي لحامل الرسالة أن يدع أذى خصوم رسالته وأعدائها فلا يشتغل بدفعه.
- ٣ - على حامل الرسالة أن يتوكل على الله مع قيامه بالأسباب التي أمر الله بالقيام بها.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عز وجل لرسوله فلكل داعٍ إلى الله من أمته في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَدَعْ اٰذَنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلٰى اللّٰهِ وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا ﴾.

ولا تطع الكافرين والمنافقين: أي: ولا تطع أي فريقي أو فرد من الكافرين والمنافقين، في أي مقترح أو أمر من الأمور التي تتنافى مع

رسالتك، أو واجباتك تجاه دعوتك، أو تجاه ربك، أو تجاه أي حكم من أحكام الدين، أو شريعة من شرائع الإسلام، أو تجاه أية قضية تُضِرُّ بمصلحة من مصالح المسلمين.

وَدَعَّ أَذَاهُمْ: أي: ولا تَشْتَغَلْ بمدافعة أذاهم، أو الانتقام مِنْهُمْ إذا أذوك بآتهامات أو مطاعن، أو شتائم، أو طرح تشكيكات في غايتك من دعوتك، وشبهات حول تصرفاتك التي أذن الله لك بها.

وذلك لأن الاشتغال بدفع الأذى أو بالانتقام يصرف جَهْدَ حامل الرسالة عن تأديته رسالته، وهذا يُحَقِّق للكافرين والمنافقين بعض ما يريدونه، من إيقاف الدعوة عن مسيرتها، وشغل حامل الرسالة بصراعات شخصية، وعندئذٍ تتحوّل الرسالة عن أهدافها وواجباتها، إلى نزاعات حول الأشخاص، ويضيع الجَهْدُ المبذولُ سُدًى، وتظهرُ العصبِيَّاتُ والأنانيَّاتُ.

لِكنَّ رُسُولَ الدَّعْوَةِ، وأُمَّةَ الدَّعْوَةِ، وحملة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس هُمُهمُ أشخاصهم، إنّما هُمُهمُ الأكبر مبادئهم، وتبليغ رسالة ربهم، والرغبة في هداية عباد الله إلى دين الله، ودعوة الناس إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوجيه المنحرفين إلى التزام صراط الله المستقيم، فجاء في البيان التعليمي قول الله تعالى: ﴿وَدَعَّ أَذْنَهُمْ﴾ أي: ودع التفكير في أذاهم الموجه لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه، ودع تدبير الأمور الرامية إلى الانتقام منهم على أذاهم، وتَجَمَّلْ بالصَّبْرِ والصَّفْحِ.

ومن الملاحظ أنّ التعبير بعبارة ﴿وَدَعَّ أَذْنَهُمْ﴾ عن هذه المعاني التي فهمناها منه، فيها من الإيجاز والتعميم لكل الصور ما لا يُوجَدُ بأسلوب بيانيٍّ آخر.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: أي: وتوكل على الله في التزامك هذه

التَّعْلِيمَاتِ ، وَلَا تَخْشَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ إِعْرَاضِكَ عَنْ مَقَابِلَةِ أَذَاهُمْ بِأَذَى مِثْلِهِ أَنْ يُصْعَدُوا مِنَ الْعَدْوَانِ عَلَيْكَ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ ، تَصَوُّراً مِنْهُمْ أَنَّكَ إِنَّمَا أَعْرَضْتَ عَنْ مَقَابِلَةِ أَذَاهُمْ بِأَذَى مِثْلِهِ لِأَنَّكَ ضَعِيفٌ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَتَوَلَّى رَدَّ كَيْدِهِمْ وَالِدَفَاعَ عَنْكَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَيَحَقُّ لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَكَ النَّتَاجُ الَّتِي تَحْبُبُونَهَا ، وَهُوَ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَتَصَوَّرُونَ أَنْ تَحَقِّقُوهُ لَوْ اشْتَغَلْتُمْ بِمُدَافَعَةِ الْأَذَى ، أَوْ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الَّذِينَ يُوجِّهُونَهُ ضِدَّكُمْ ، وَانصَرَفْتُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِوِظَائِفِ رِسَالَتِكُمْ .

وهذا التعليم موجه لكل حملة رسالة الرسول في الدعوة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

\* \* \*

## التعليم الحادي والعشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول).

وهذا التعليم من التنزيل المدني .

وقد تضمن هذا التعليم ثلاث وصايا موجهة للرسول ﷺ، ويستفيد منها كلِّ داعٍ إلى الله من أُمَّته، وجميع المؤمنين :

١ - استخدام أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، حول أسس العقيدة الإيمانية، مع الاستفادة من صورة تعليمية لطريقة من طرائق مجادلة المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، كافرين بصفة الله الرحمن .

٢ - الكفّ عن التطلّع لطلب المعجزات المادية، والخوارق في تعجيل عقاب أئمة الكفر المعاندين المعلنين عداؤهم ومقاومتهم للرسول والذين آمنوا، فلله حِكْمٌ جليلة في إمهاله وفي آجاله التي يُحدِّدها لتصاريفه، وما على الداعي إلى الله إلاّ البلاغ، والله هو الذي عليه الحساب، فلا ينبغي للعباد أن يتدخّلوا فيما هو من خصائص الله عزّ وجلّ .

ومضمون هذه الوصية ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة .

٣ - التحذير من اتّباع أهواء أهل الكتاب في مطالبهم واستدراجاتهم

إلى ترك شيء من دين الله وأحكام شريعته لعباده .

ومضمون هذه الوصية ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة .

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة :

جاء في سورة (الرعد) النازلة في أواسط المرحلة المدنية من تاريخ

دعوة الرسول ﷺ مُعَالِجَتَانِ :

المعالجة الأولى : تتعلّق بالمشركين الذين ما زالوا يجادلون في قضايا

شركياتهم .

المعالجة الثانية : تتعلّق بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، إلاّ أنّ اليهود

كان لهم النصيب الأكبر من المعالجة ، لأنهم مثيرو الشبهات والجدليات في

المدينة إبان نزول السورة .

● أما المشركون فمن أجل إقناعهم بقضية التوحيد وضع الله عزّ وجلّ

لرسوله ﷺ ولكلّ داعٍ إلى الله من أمته صورة ذات خطوات لمناظرة جدليّة يبدأ

بها الداعي إلى الله ، ويجادلُ على وفقها المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً

آخر .

وأُتبع الله عزّ وجلّ هذه الصورة التعليميّة بمثليّ يدلُّ على أنّ الصراع بين

الحقّ والباطل لا بُدَّ أن ينتهي بانتصار الحقّ ، واضمحلال الباطل انظر الآيتين

(١٥ - ١٦) من السورة .

وجاء في السورة ما يُشعرُ بأن معاندي المشركين في مكة ما زالوا

يطالبون بآيات مادّية من الخوارق ، في دوائر دعاياتهم في مكة ، مع

استخدامهم أسلوب الاستهزاء بالرسول ﷺ ، ليصدّوا جماهيرهم عن الإيمان

به وأتباعه ، والهجرة إليه في المدينة ، حيثُ استقرّت عاصمةً للدولة الإسلاميّة

بقيادته صلوات الله عليه وسلاماته .

وربما فعل نظير ذلك يهود المدينة، فطالبوا الرسول بآية كَفَلَقَ البحر لموسى عليه السلام، وجعلوا يستهزئون بالرسول إذ لم يستجب لطلبهم.

ويظهر أن بعض المسلمين كانوا يرغبون في أن يُجْرِيَ الله عزّ وجلّ لرسوله من المعجزات المادّية الكبرى ما يكون سبباً في إقناع الذين يطالبون بها، أو أن يُعَجِّلَ الله إنزال عقابه عليهم ليكونوا عبرةً لسائر العرب، وسائر الناس.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ حكمته تقضي بأن لا يستجيب لطلب المشركين المعجزات المادّية الموافقة لتشهياتهم، وبأن لا يُعَجِّلَ إنزال عقابه بهم قبل استفاد أجل الإمهال الذي قضت به حكمته.

تأمل في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿... وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾﴾

وفي قول الله عزّ وجلّ له أيضاً:

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

● وأما أهل الكتاب وفي مقدّماتهم يهود المدينة فقد ساءَ بَعْضُهُمْ أن يُوجَدَ في القرآن ما يخالف معتقداتهم المحرّفة، وأهواءهم، وأرادوا استدراج الرسول إلى ترك التعرّض لهم بأنهم كافرون ومحرّفون في الدين، ومخالفون لشريعة الله التي أنزلها على موسى وأنبياء بني إسرائيل من بعده.

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة يعلمه ماذا يرُدُّ به عليهم:

﴿... قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَهِهٖ مَتَابٌ ﴿٢٧﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ما أمرت من قبل ربي وربكم إلا بأن أعبد الله وحده، ومن عبادتي له أن أقوم بالدعوة إلى دينه كما أمرني، وأن أبلغ عنه كل ما أمرني بأن أبلغه، دون أن أكتنم منه شيئاً، أو أحرّف فيه أو أبدل.

فالدعوة إلى الله وفق مطلوب الله الذي أمر به من أجل العبادات، وأنا لا أعبد غير الله حتى أتلقى توجيهاتي من غيره، ولن تستطيعوا باستدراجاتكم أن تخرجوني عن صراط ربي.

فإن رضيتم واستجبتم لدعوتي سرّتم معي على صراط الله المستقيم.  
وإن أبيتم وأصررتم على أن تتبعوا أهواءكم فلن أسخط ربي رغبة في استرضائكم، ولئن اتبعت أهواءكم عاقبني الله ولم يحميني من عقابه استرضاءكم، وإن حلّ بي عقاب ربي فلن يكون لي وليّ ينصرني ويمنع عني عقاب الله، ولن يكون لي واقٍ يقيني من عذابه.

\* \* \*



## التعليم الثاني والعشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) وهي من أواسط التنزيل المدني، فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٦﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٧﴾  
وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٩﴾ .

وقد تضمّن هذا التعليم خمس وصايا موجهة للرسول ﷺ، وينتفع بها كلُّ داعٍ إلى الله من أمته، وهي:

الوصية الأولى: التحلّي بالصبر مع الاستسلام التام لحكم الله، وانتظار ما يقضي به.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ... ﴾ ﴿٢٦﴾ .

أي: فاصبر مستسلماً لحكم ربك، ومنتظراً ما يقضي به.

الوصية الثانية: النهي عن طاعة أيّ آثمٍ وأيّ كفورٍ في مشورة، أو مقترحٍ أو غير ذلك، لما في طاعتهما من تورطٍ فيما لا تُحمدُ عقباه.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ﴿٢٧﴾ .

الآثم: مرتكب الإثم، وهو الذنب.

الكفور: صيغة مبالغة لكافر، فهو الكافر شديد الكفر.

الوصية الثالثة: الاشتغال بذكر اسم الله بكرةً وأصيلاً.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا ﴿١٩﴾.

البُكْرَة: أوّلُ النهار إلى طلوع الشمس، وهو وقت صلاة الصبح.

الأصِيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

الوصية الرابعة: عبادة الله بالسجود له في الصلاة أثناء اللّيل. فلقيام

اللّيل تأثير في علاج ذوي الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.

الوصية الخامسة: تسبيح الله مدّةً طويلةً من اللّيل، في صلاة قيام اللّيل،

أو خارجها، فلهذا التسبيح تأثيره العظيم الفعّال في النفوس المضطربة القلقة

المهمومة أو المغمومة.

دلّ على هاتين الوصيتين «الرابعة والخامسة» قول الله عزّ وجلّ في

السورة:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

\* \* \*



## الفصل السابع

### المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً

وفيه ثماني فقرات:

- ١ - مسؤولية الأمة الإسلامية تجاه المنكرات فيها.
- ٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٣ - تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر.
- ٤ - الراعي داخل الأسرة ومسؤولياته.
- ٥ - المنكرات من الأحاديث الكفرية في مجالس الكافرين.
- ٦ - المنكرات ذات الخطر العام.
- ٧ - المنكرات الفردية التي لا تشكل خطراً عاماً على المسلمين.
- ٨ - إنكار المنكر بالقلب واللسان وضوابط تغييره باليد.



## مسؤولية الأمة الإسلامية تجاه المنكرات فيها

الأمة الإسلامية في أيّ موقع من الأرض صغير أو كبير، مكلفة أن تتخذ الوسائل المختلفة حمايةً ورَدْعاً، وتقويماً وإصلاحاً، حتّى تكون سَلِيمةً صحيحةً بوجهٍ عامٍّ من الوقوع في المنكرات شرعاً.

وهذا يشمل أفرادها، وأسرها، وجماعاتها، ومؤسساتها، في بيوتها، وأحيائها، وقراها، ومُدُنِها.

والمنكرات في الشريعة الإسلامية قسمان:

القسم الأول: تَرَكَ الفرائض والواجبات الإسلامية التي لها ممارسات عملية ظاهرة، كتَرَكَ الصلاة، وعدم أداء الزكاة، وإهمال فريضة الحجّ مع الاستطاعة، وترك فريضة الصيام في شهر رمضان، وترك الحكم بما أنزل الله، وتعطيل الحدود الشرعية.

القسم الثاني: فعل المحرّمات التي لها ممارسات عملية ظاهرة، كشرَب الخمر علناً، وتعاطي المخدّرات السامة المهلّكة، واستيرادها وبيعها في محلّات تجارية، وإقامة بيوتٍ خاصّةٍ للزنى، ومحلّات رقصٍ وفحشٍ وخلاعة ترقص فيه الفاجرات، وكخروج النساء المسلمات عارياتٍ سافراتٍ مبدياتٍ من أجسادهنّ ما أمر الله بستره، مما هو مُجمَعٌ على ستره عند فقهاء المسلمين وعلمائهم، على اختلاف مذاهبهم، وكممارسة المعاملات الربوية

وأنواع القمار والميسر، وكانتشار الرشوة، وكاتخاذ الأوثان والأصنام بصورة علنية ظاهرة في الطرقات، والسُّبُل، والأسواق، والمواطن العامة التي يرتادها الجميع.

فإذا وقع شيءٌ من ذلك داخل المجتمع الإسلامي من المسلمين كان على جماعة المسلمين بدءاً برئيسهم الأعلى فمن دونه أن يتخذوا مختلف الوسائل تدرجاً من الأخف إلى الخفيف فالشديد فالأشد لإزالة المنكر وتغييره، وإعادة المجتمع الإسلامي إلى سلامته وصحته الدينية فيما يظهر من سلوك المسلمين بوجه عام.

وعلى المسلمين دوماً اتّخاذ الوسائل التعليمية والتربوية والتذكيرية، لحماية المجتمع الإسلامي من الوقوع في المنكرات.

ولحماية المجتمع الإسلامي من الوقوع في المنكرات، ولتغيير الواقع وإصلاح الفساد بعد وقوعها أو وقوع شيء منها، وسائل كثيرة، منها الوسائل التالية:

١ - دوام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سبيل التذكير المستمر، ولو لم يُوجد مُنكراً ظاهر الوقوع.

٢ - إقامة أجهزة المراقبة المستمرة، والحراسة الدائمة، التي تملك القدرة على المنع والرّدع والقمع، وهو ما يُسمّى بنظام «الحسبة» والموظف في جهاز الحسبة يُسمّى «المُحتسب».

٣ - الضّغط الاجتماعي الذي يكون فيه المسلمون بعضهم على بعض رقباء، إذ يكون كلُّ مُسلم في موقعه خفياً مراقباً ناقداً داعياً إلى الخير، أمراً بالمعروف إذا وجده متروكاً، ناهياً عن المنكر إذا وجده مفعولاً.

٤ - إصدار ذوي السلطة الإدارية القوانين والمراسيم والقرارات الكفيلة

بحماية المجتمع المسلم من المنكرات .

٥ - إقامة الحدود والعقوبات والتعزيرات الشرعية بالحق والعدل،  
ضمن أحكام قضائية إسلامية عادلة .

٦ - تأديب العُصاة بالعزل الاجتماعي إذا لم تكن لمعاصيهم حدود أو  
عقوبات تعزيرية مُقرّة .

٧ - المبادرة إلى إزالة المنكر مع أوائل ظهوره قبل أن يستقرّ أو يتفشى  
ويستفحل خطره .

ويكون هذا عن طريق أولياء الأسر في البيوت، وعن طريق أهل الحلّ  
والعقد المأذونين في المواطن الصغرى، وعن طريق أجهزة الدولة المسلمة  
وقواتها المسلّحة، إذا كان الأمر أكبر من قدرات أهل الحلّ والعقد المحليين .

٨ - العمل على إزالة المنكر المستفحل بسلطان الدولة المسلمة،  
وقواتها المسلّحة، مع مناصرة جماهير المسلمين، ولا سيما أهل الحلّ  
والعقد منهم .

وفي الفقرات التالية نظرات تفصيلية لبعض هذه الوسائل، ممّا له  
ارتباط بمهمات رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،  
وتغيير المنكر الذي يُطلّب من أفراد المسلمين .

\* \* \*



## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من سمات الأمة الإسلامية دواماً وبصورة عامة أفراداً وجماعات، الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، لحماية المجتمع الإسلامي من الانهيار والفساد العام، ولمتابعته بالتقويم والإصلاح.

فإذا تهاونت الأمة الإسلامية بهذا الواجب، ضَعُفَتْ، وأنهاَرَ بناؤها، وتفرقت كلمتها، وطَمَعَ بها أعداؤها، وذهبت دولتها، وتشتت جماعاتها، وصارت أكثرياتها أقلياتٍ في مواطنها وبلدانها.

وقد أولى الله عزَّ وجلَّ هذا الوصف من أوصاف الأمة الإسلامية عنايةً عظيمة في كتابه المجيد، باعتباره عماداً عظيماً من أعمدة بُنيان الأمة الإسلامية، وبقاء دولتهم عظيمةً مَجيدةً قويَّةً مُتماسكةً متينةً.

● إنه مُنذُ أن صار للمسلمين في المدينة مجتمعٌ متماسكٌ ذو قُوَّةٍ ودَوْلَةٍ، وقامتَ بَيْنَهُمْ وبين عَدُوِّهِمُ الأَوَّلِ وهم كُفَّار قريش في مَكَّة حروبٌ وصراعاتٌ أهدمها غزوة بدر الكبرى وغزوة أُحد. فأكدت هذه الحروب قيام دولتهم المتماسكة، أنزل اللهُ عزَّ وجل في سورة (أل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) - ثالث سورة مدنية - الأمر الموجه لهم، بأن يكونوا أُمَّةً يدعون إلى الخير، ويأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال تعالى فيها:

﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ: أي: يدعون غير المسلمين إلى عموم الخير الذي تُدْرِكُهُ العقول والنفوس، والبعيدين عن فعل الخير من المسلمين إلحاقاً بغير المسلمين.

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ: هذه الوظيفة يقومون بها بين المسلمين، لأنهم الذين تعلموا من الإسلام ما هو المعروف وما هو المنكر شرعاً، فكلُّ أمرٍ بفعل واجب شرعاً أمرٌ بمعروف، وكلُّ نهي عن فعلٍ مُحَرَّمٍ شرعاً، نهي عن منكر.

وأولئك هم المفلحون: وأولئك ذوو المنزلة الرفيعة عند الله الذين يقومون بوظيفتي الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هم المفلحون، أي: الظافرون بما يريدون، والفائزون عند الله بالنعيم المقيم والسعادة الخالدة.

● وأتبع الله عزَّ وجلَّ هذا الأمرَ التكليفيَّ بالثناء على أصحاب محمد ﷺ، بأنَّهم خيرُ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ تحمُّلُ رسالةِ الدعوةِ إلى دينِ الله الإسلام، والجهادِ في سبيله، وبأنَّهم يأْمُرُونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر، وينسحبُ هذا الثناء على كلِّ من يحمل هذه الرسالة بصدقٍ مبتغياً رضوان الله والدار الآخرة، من أمةٍ مُحمَّدٍ إلى أنْ تقوم الساعةُ، فقال الله بعد خمس آياتٍ من سورة (آل عمران) نفسها:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . . . ﴿١١٠﴾

أي: تَواظَبون على تادية وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي، وتُجدِّدون إيمانكم بالله مع كلِّ عبادة من عباداتكم، ومع كلِّ حركةٍ من حركات حياتكم، ومع كلِّ تغييرٍ من تصاريهِ

مقادير الله فيكم مما تُحبُّونَ أو تكرهونَ .

● ثم وصف الله عزَّ وجلَّ الأمةَ الإسلاميَّةَ التي يُؤيِّدها بنصره على أعدائها في معارك قتالية، لِيُمْكِنَ لها دَوْلَتها في الأرض، بأنَّها أُمَّةٌ تقيم الصلاة، وتؤتي الزَّكاةَ، وتؤدِّي باستمرار وظيفة الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣) وهي السورة (١٧) من التنزيل المدني:

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ إِذْ مَكَرْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٨﴾ ﴾ .

فدلَّ هذا النصُّ على أنَّ شرط بقاء التمكين لدولتهم في الأرض، أن يُحافظوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والقيام بوظيفة الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا أُخلوا بهذه الشروط تركهم الله لأنفسهم ووسائلهم، ولم يؤيِّدهم بمعونات غيبية تكفُلُ لهم إعادة دولتهم إذا ذهبت، أو التمكين لها إذا كانت قائمة .

● وأخيراً أنزل الله عزَّ وجلَّ في أواخر العهد المدني آيةً وصَفَ بها المؤمنين والمؤمنات بأنَّ بعضهم أولياء بعض، أي: يَنْصُرُ بعضهم بعضاً على أنفسهم، فهم بمقتضى هذه المناصرة يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف، وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر مع مواظبتهم على إقامة الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله في أمور حياتهم، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) آخر سورة نزلت قبل سورة النَّصر التي كانت ختام تنزيل السُّور:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ  
الْفَوْزُ الْمَظِيئُ ﴿٧٢﴾

دلّ هذا النصُّ على الرقابة والمتابعة من المؤمنين بعضهم لبعض، وهي  
تولد ضغطاً اجتماعياً على كلِّ فردٍ في المجتمع الإسلامي يحميه من أن ينزل  
إلى ارتكاب المنكرات.

والمؤمنون المحافظون على هذه الأوصاف المذكورة في هذا النصِّ هم  
الذين يظفرون يوم الدين بمساكن طيبةٍ في جناتِ عَدْنٍ، ويظفرون برضوان  
من الله أكبرَ من كلِّ ما في جناتِ عَدْنٍ، بسبب السعادة التي يُفْرِغُهَا اللهُ عليهم  
إذ يقول لهم: اليوم أُفْرِغُ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

إنَّ هذه النصوص دلّت على أنّ وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن  
المنكر، وظيفةٌ دائمة العمل والعطاء، تذكيراً بالمعروف وأنَّ الله قد أمرَ به،  
وتذكيراً بالمنكر وأنَّ الله قد نهى عنه، ولا يرتبط عملها بترك المعروف حتّى  
يُوجَّه الأمرُ لفعله، أو بفعل المنكر حتّى يوجَّه النهي لتركه.

\* \* \*

## تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر

من الوسائل لتغيير المنكر تأديب العصاة بهجرهم ومقاطعتهم اجتماعياً، وعزْلهم عن المؤاكلة والمشاركة والمجالسة والمؤانسة بالأحاديث، حينما تكون الكثرة هي الكثرة الصالحة، التي يُؤثّر هجرها وعزْلها للعاصي على نفسه، فتجعلهُ يتوبُّ، ويرجع إلى الرشد والاستقامة حرصاً على رضا الكثرة الاجتماعية له، وهرباً من أن يجد نفسه مهجوراً معزولاً منبوذاً.

أما إذا كانت الكثرة في المجتمع هي الكثرة الفاسدة المرتكبة للمعاصي، فإنّ المسلم المستقيم فيهم هو الذي يعيش بالعزلة عنهم، إذا هَجَرَهُمْ وقاطَعَهُمْ، ومن الخير له أن يُخالطهم ويضبرَ على نُصحهم وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، دون أن يترك هذه الوظيفة، فإذا لم يستطع الصبر على هذا، ولم يستجب له العصاة أو فريق منهم، فمن الخير له أن يهجرهم ويعتزلهم، لئلا يتأثر بهم هو أو أهلُه السائرون على نهجه المستقيم.

دلّ على هذه الوسيلة ما رواه الترمذي وأبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ

وَهُوَ عَلَىٰ حَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَلَهُ وَشَرِيئَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ (١):

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَكُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَمَا أَتَاهُمْ إِلَّا مَا أَنزَلْنَا بِهِمْ وَمَا تَتَّخِذُهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُوكَ ﴿٨١﴾﴾. (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول).

ثم قال: «كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْضُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» (٢).

لتأطرنه: أي: لتعطفنه كما يُثنى الشيء حتى يصير إطاراً مَدُوراً.

ولتقصرنه على الحق: أي: ولتلزمنه طريقة الحق والعمل به.

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ من السياسة الحكيمة للمجتمع الإسلامي، أن يضغط على العصاة فيه بالهجر والمقاطعة والعزل الاجتماعي.

ودلَّ قول الرسول ﷺ فيه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ...» على أن هذه الوسيلة تنفع حينما يكون المجتمع بأكثريته أكثريةً صالحةً مستقيمةً، والمهجور المعزول فيه يجد نفسه مَبْنُوداً من مجتمعه. فَيَحَاوِلُ إِصْلَاحَ نَفْسِهِ، وَتَرَكَ مَعْصِيَتَهُ.

(١) دلَّ استشهاد الرسول ﷺ بهذه الآيات من سورة (المائدة) على أنه قاله في أواخر العهد المدني، لأن هذه السورة من أواخر التنزيل القرآني.

(٢) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف: الحديث التاسع.

وهذا لا ينطبق على مجتمع تكون الاكثريّة فيه هي الاكثريّة العاصية الفاسدة .

ودلّ على هذه الوسيلة أمرُ الرسول ﷺ بمقاطعة الثلاثة الذين خَلَفُوا عن الخروج مع المسلمين لغزوة تبوك، دون أن يكون لهم عُذْرٌ، واعتَرَفُوا بأنَّهُمْ لم يَكُنْ لهم عُذْرٌ في التخلّف إلاّ التباطؤ والكسلُ، وأيثار الراحة والظّلّ والماء والتمر .

واستمرّت مقاطعتُهُمْ حتّى أنزل الله عزّ وجلّ تَوْبَتُهُمْ في آياتٍ من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

وَلَهُمْ قِصَّةٌ مِثْلَةٌ هِيَ مِنْ رَوَائِعِ الْقِصَصِ (١) .

وهذا الهجر والمقاطعة والعزل الاجتماعي قد يكون من أولياء الأسرة لبعض أفرادها المذنبين، بشرط أن لا يدفع بالمذنب إلى اتخاذ رفاقٍ من الأشرار . وقد يكون داخل جماعة لهم إمامٌ عالمٌ مُلتَقُونَ حَوْلَهُ، ولا سيما إذا كان التقاؤهم دَاخِلَ مدرسةٍ داخليةٍ، وكان المذنب حريصاً على رضی إخوانه وشيخه . وقد يكون في منظمة يُهْمُ كُلُّ فَرْدٍ فيها أن تكونَ علاقتهُ حسنةً مَعَ رئيسها وسائر أعضائها .

وقد يكون دَاخِلَ قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ يُشارُ إلى كُلِّ فَرْدٍ فيها بالبَنانِ، ويضَعُبُ على الفرد العاصي فيها أن يكون مهجوراً مَنبُوداً .

أما في المَدُنِ الكُبْرَى فَمِنَ العسيرِ اتّخاذِ هذه الوسيلة، وربّما يَدْفَعُ اتّخاذها المذنب للانضمام إلى فئات العصاة والمجرمين، ويكون السَّجُنُ الإصلاحيُّ أفضلَ منها .

\* \* \*

(١) انظر تفصيلها وشرح نصوصها في كتاب «ظاهرة النفاق وخباثت المنافقين في التاريخ» ج ٢ من ص ٤٤٦ - ٤٥٥ للمؤلف .

### الراعي داخل الأسرة ومسؤولياته

لكل راعٍ داخل أسرته الخاصّة ولأية تجعله مسؤولاً فيها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دواماً، ومسؤولاً عن إنكار المنكر الذي يفعله أحد الداخلين في رعيته، ومسؤولاً عن تغيير المنكر ولو بيده، إذا لم يترتب على تغييره منكر أشدّ وأعظم.

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وخاطب الله عز وجلّ المؤمنين المسلمين بأن يقولوا أنفسهم وأهلهم عذاب النار، ولا تكون وقايتهم لأهلهم ذات أثر، ما لم يكن لهم عليهم ولاية تسمع لهم بتغيير المنكر، فوق الوظيفة العامّة التي عليهم أن يؤدّوها



بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعليماً وتنبهاً وتذكيراً، فقال الله عز وجل  
في سورة (التحریم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ  
غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٦﴾ .

\* \* \*

## المنكرات من الأحاديث الكفرية في مجالس الكافرين

أمر الله عز وجل كلُّ مؤمنٍ أمراً إفرادياً بأن يُعرض عن الذين يخوضون في آيات الله بأحاديثٍ كُفِّرَ أو تشكيكٍ أو طعنٍ أو تشويهٍ أو نحو ذلك، إذا لم يستطع أن يُعارض ويُقاومَ ويُسكِّتَ الخائضين، ويمنعَ منكراتِ أقوالهم، والمراد من الإعراض مفارقة المجلس وعدم القعود مع الخائضين.

وألزمه بأن يظلَّ مستمراً في الإعراض الاستنكاري عنهم، المشعر بموقفه الراضٍ لما يقولون، ولما يتحدَّثون به، حتَّى يخوضوا في حديثٍ غيره لا يتعلَّق بمسائل الذين وآيات الله التي يكفرون بها تكذيباً للرسول ويستهزئون بما جاء فيها للصدِّ عن الإسلام.

فإذا أنساه الشيطان أن يتخذ هذا الأسلوب الإعراضى الاستنكاري وهو عاجزٌ عن المعارضة والمقاومة، فاستمع دُونَ إنكارٍ ولا إعراضٍ بمفارقة مجلس الخائضين، فعليه متى صحَّ وتذكَّر ما يجب عليه أن لا يجلس مرَّةً أخرى في مجلسٍ يجري فيه خوضٌ كُفْرِيٌّ أو استهزائيٌّ بآيات الله ابتداءً.

قال الله عز وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهي من التنزيل المكيّ حينما كان المؤمنون المسلمون مستضعفين في مكة وكان المشركون يخوضون في آيات الله كُفْراً واستهزاءً بها في مجالسهم؛ خطاباً لكل مؤمن مسلم على سبيل الخطاب الإفراديّ:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِجَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَالَّذِينَ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

أي: لإثبات الموقف الإيماني الصُّلب، لعل الخائضين في آيات الله يتذكروا منهم مُتذَكِّرون فيتقون الله فيؤمنون، متأثرين بموقف المؤمن الثابت على إيمانه المناصر لقضيته التي يؤمن بها .

ولما وُجدَ في العهدِ المدنيِّ مُتَسَبِّبُونَ إِلَى الإسلامِ مُنَافِقُونَ، يجالسون الكافرين، وَيَسْتَمِعُونَ مِنْهُمْ كُفْرِيَّاتٍ واستهزاءً بِآياتِ الله، وشتائم يوجهونها للرَّسول وللكتاب المنزَّل عليه، أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ قوله في سورة (النساء/ ٤/ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبِنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٦٨﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

فجاءتِ الإحالةُ في هذا النَّصِّ من سورة (النساء) المدنيَّة على النَّصِّ السابق من سورة (الأنعام) المكيَّة .

وأبانَ ما جاء في النَّصِّ المدنيِّ، أنَّ المرادَ بالإعراضِ من النَّصِّ المكيِّ مفارقةَ المجلس، وعدمُ القعودِ مع الذين يخوضون في آياتِ الله كُفْرًا واستهزاءً بها .

\* \* \*

## المنكرات ذاتُ الخطر العام

حينما تكون المنكرات مما له حَظَرٌ على المجتمع الإسلامي كُله في بلدٍ من البلدان، أو مجتمع من المجتمعات العامة، كخطر حرقِ السفينة من قِبَلِ بَعْضِ رُكَّابِهَا على سائرِ رُكَّابِهَا، إذ يُعَرِّضُهُمْ لِلْفِرَاقِ وَالهِلَاكِ، فَإِنَّ عَلَى أَهْلِ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ أَنْ يَتَكْتَلُوا جَمِيعاً، وَيُنْكِرُوا عَلَى مَرْتَكِبِي الْمُنْكَرِ إِنْكَاراً جَمَاعِيّاً بِاللِّسَانِ أَوَّلًا، فَإِذَا أَصْرُوا أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ بِمَا هُوَ أَشَدُّ، فَإِنَّ تَهَاوُنَ أَوْلِيَ الْأَمْرِ الْإِدَارِيِّ وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِي فَاعِلِي الْمُنْكَرِ بِالْقُوَّةِ، إِذَا كَانَتْ لَدَيْهِمُ الْقُوَّةُ الْقَادِرَةُ عَلَى ذَلِكَ.

وإِلَّا جَافَوْهُمْ، وَقَاطَعُوهُمْ، وَهَجَرُوهُمْ، وَاعْتَزَلُوهُمْ مَعْلِنِينَ سَخَطَهُمْ، وَتَبَرَّؤُوا مِنْ مَنكَرَاتِهِمْ تُجَاهَ رَبِّهِمْ، وَتُجَاهِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ.

هذا ما نفهمه من الحديث الذي رواه البخاري عن النعمان بن بشير

رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا

وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَيَّ  
أَيْدِيهِمْ، نَجَّوْا وَنَجَّوْا جَمِيعاً» .

القائم على حدود الله : الواقف عندها لا يتعداها بمخالفة ومعصية .

والواقع فيها : العاصي المتجاوز حدود الله .

استهّموا : اقرعوا على الأمكنة في السفينة .

\* \* \*

## المنكرات الفردية التي لا تُشكّل خطراً عاماً على المسلمين

حينما تكون المنكرات مما ليس له خَطَرٌ عامٌّ على جماعة المسلمين، بسبب كونها من الحالات الفردية الخاصة، والفلتات التي لا تُشكّل ظاهرة ذات انتشارٍ وعَدْوِيٍّ، فمعالجتها تكون بما يلي:

١ - يُتَّخَذُ في معالجتها أولاً لإزالتها، وإصلاح حال مرتكبها، الإنكار اللساني، بالتُّصْحِ والإرشاد في السِّرِّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الرِّفْقِ والتَّلَطُّفِ.

٢ - مُتَابَعَةُ تَكَرُّرِ التُّصْحِ والإرشادِ وَالْإِنْكَارِ مع رَفْعِ دَرَجَةِ التَّوْجِيهِ بِشِدَّةٍ، والتخويفِ من عذابِ الله، ومن السُّقُوطِ من أَعْيُنِ النَّاسِ في المجتمع الإسلامي.

٣ - ثم يُعَالَجُ بالمقاطعة والهَجْر، كما سبق بيانه في فقرة «تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر».

٤ - ومن كان له سلطةُ التغيير باليَدِ، كوليِّ أُسْرَةٍ، ومدير مدرسة، وشيخِ حَلْقَةٍ له سُلْطَتُهُ واحترامه بين طلابه، وذو وَجَاهَةٍ لَهُ احْتِرَامُهُ في قَرْيَةٍ صغيرة، أو حَيٍّ، أو قبيلة، أو مَعْمَلٍ، وذو رِياسة في مؤسسة؛ فإنَّ له بعد اتِّخَاذِ الخطوات السابقة أن يمارس التغيير بيده، وتُقَدَّرُ ظروفُ كُلِّ حالة

بقدرها، وبحسب حاجتها إلى العَجَلَة، أو احتمالها التريث والأناة وسعة الصّدر.

٥ - وما لا يتحمل الأناة ولا التريث كجريمة القتل أو الاغتصاب للزنى، فيجب فيه التدارك السريع واستخدام التغيير باليد قبل وقوع الجريمة، بقدر الاستطاعة ممّن يستطيع ذلك.

\* \* \*

## إنكار المنكر بالقلب واللسان وضوابط التغيير باليد

١ - أهمُّ ما ورد من النصوص :

● روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

أي : فإن لم يستطع فليُنكِرْ بلسانه، فإن لم يستطع فليُنكِرْ بقلبه .  
هذا الحديث يدلُّ على الحالة القصوى التي قد يصلُ إليها المترقي في إنكار المنكر .

فمن الطبيعي أن يبدأ الإنكار بالقلب في نفس المنكر له .  
ويعدُّ الإنكار القلبي يتوجَّهُ المنكرُ للإنكار باللسان نُصْحاً وإرشاداً وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وهذا ما كان يفعله الرسول ﷺ في حياته .  
فقد مدَّ يدهُ إلى صُبْرة طَعَامٍ في الشُّوقِ، فأصابت يدهُ بِلَآءٍ، فقال : «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» .

قال : أصابتهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .



فقال له: «أفلا جعلتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟! مَنْ غَشَّانَا فَلَيْسَ مِنَّا» رواه مُسْلِمٌ عن أبي هريرة.

فلم يبدأ ﷺ بتغيير المنكر بيده.

وكذلك فعَلَ حينما نزل تحريم الخمر، أمرَ بلسانه أَنْ تُرَاقَ الخُمور، ثُمَّ بَعَثَ مَنْ يُرِيقُ بِالْيَدِ الخمر التي لم يُبَادِرْ أصحابُها إِرَاقَتَهَا استجابةً لأمر الرسول ﷺ.

فبعد الإنكار باللسان يمكن أن يرتقي المنكرُ إلى تغيير المنكر باليد، إذا لم تُجَدِ وسيلةُ اللسان.

إنه لا يَصِحُّ بالبديهة العقلية الارتقاء إلى التغيير باليد، إذا أمكن التغيير للمنكر بوسيلة اللسان، وهذه هي سنَّةُ الله في تربية عباده، وكذلك كانت سنَّةُ الرسول ﷺ في ممارساته التطبيقية لإنكار المنكر.

أما إذا لم يَحْصُلِ التغييرُ بوسيلة اللسان، وأمكنَ تغيير المنكر باليد، دون أن ينجم عن ذلك مُنْكَرٌ أشدُّ منه، فالتغيير باليد حينئذٍ وسيلةٌ مشروعة.

● وروى مُسْلِمٌ عن أم سلمةَ أم المؤمنين رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال:

«إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أَمْرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَءٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ».

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَقَاتِلُهُمْ؟

قال: «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ».

أي: من كرهه بقلبه ولم يستطع إنكاراً بيده ولا بلسانه، فقد برىء من الإثم، وأدّى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سَلِمَ، ودلَّ هذا الحديث

على أن السلامة أعلى درجة من مجرد البراءة، فالْبُرْءُ خلاصٌ من مرض،  
والسَّلَامَةُ حمايةٌ من الوقوع في المرضِ أضلاً.

ولِئِنْ مَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ فَهُوَ الْعَاصِي الْمَشَارِكُ لَهُمْ فِي آثَامِهِمْ  
ومنكراتهم.

\* \* \*

٢ - شروط العمل على تغيير المنكر:

من المفهومات الإسلامية العامة الأصول، نستطيع أن نستخلص أربعة  
شروط لتغيير المنكر باليد:

الشرط الأول: أن يكون المنكر محلَّ اتفاقٍ بين الأئمة المشهود لهم  
بأهلية الاجتهاد، على أنه من المنكرات المحرمة في الشرع، فعلاً أو تركاً.

ويُلْحَقُ بالمنكر ما كان سبباً حتمياً لوقوع المنكر، أو إشاعته في  
المسلمين.

الشرط الثاني: أن يكون فاعل المنكر عالماً بحرمته، مجاهرًا به، أما  
الجاهل، فينبغي تعريفه أولاً حُكْمَ الشرع به، ثم يُطَالَبُ بأن يُغَيِّرَهُ بنفسه مع  
الرَّفْقِ به، فإن لم يستجب وهو من المسلمين، جاز الانتقال معه إلى الأشد  
إذا كانت حالته تتحمل ذلك.

وينبغي الرَّفْقُ الكثيرُ بالذين يكون إسلامُهُم حديثاً، وعاداتُهُم في  
ممارسة المنكرات قبل الإسلام متأصلةً في سلوكهم، ومن الصَّعْبِ عليهم  
مفارقتها وتركها حتى تَمُرَّ عليهم مدَّةٌ يستطيعون خلالها التخلُّصَ من عاداتِهِمُ  
السابقات.

وفي كلِّ الأحوال يَجِبُ البَدْءُ بمطالبة فاعل المنكر بأن يُقْلِعَ عنه،  
ويُغَيِّرَهُ بِنَفْسِهِ، قبل محاولة تغييره بيد المُنْكَرِ المصلِح.

الشرط الثالث: أن يكون المنكرُ أمراً واقعاً مشهوداً فعلاً، لا أمراً  
مظنوناً، أو أمراً لم يصلِ بَعْدُ إلى أن يكون حَدَثًا واقعاً بالفعل، أو أمراً  
مستوراً بعيداً عن أنظار المراقبين، يَفْعَلُهُ أصحابه داخل منازلهم وبيوتهم، ولا  
يُجَاهرون به، ولا يُعْلَمُونَ أحداً به.

فقد نهى رسول الله ﷺ عن تتبع عورات المسلمين التي يستترون بها،  
ونهى عن التحسس وعن التجسس.

فلا يجوز التجسسُ على الناس وهم داخل بيوتهم، باستثناء الأمور  
العظمى التي تُضِرُّ بمصالح المسلمين العامة، كتأميرٍ بخيانةٍ مع أعداء الإسلام  
والمسلمين، وانكشاف أمرها بخبرٍ صادق، وكتدبير جريمة قتلٍ لا يُتداركُ  
وقوعها إلا بمداهمة المجرمين وهم داخل بيوتهم، وانكشاف أمرها بخبر  
صادقٍ أو أمارات وعلامات ظاهرات الدلالة.

فيجوز لأولياء الأمور والحالة هذه أن يدهموا البيوت للقَبْضِ على  
المجرمين والخائنين، وتدارك الجرائم قبل وقوعها، إذا كان العلم بالتخطيط  
لها قد بَلَغَ مَبْلَغَ اليقين أو القريب من اليقين.

الشرط الرابع: أن لا يترتب على السَّغْيِ لتغيير المنكر وقوعُ مُنْكَرٍ مماثلٍ  
أو أشدَّ من المنكر المطلوب إزالته وتغييره.

\* \* \*

٣ - من المسؤول عن تغيير المنكر باليد:

إن تغيير المنكر باليد من وظائف ذوي الولايات من المسلمين.

● أما الإمام العام فله أن يغيّر بيده، أو بأيدي جنوده كلُّ مُنْكَرٍ ظاهر  
في المجتمع الإسلامي، متى تحققت الشروط العامة لممارسة التغيير باليد.

ومثل الإمام نوابه ووكلاؤه، فلكل واحدٍ منهم أن يغيّر المنكر بنفسه،

أو بأيدي جنوده، ضمن حدود دائرة ولايته.

● وكلُّ من له بإذن الإمام سلطة ولاية، ضمن حدود دائرة خاصة، كمدير دائرة، أو مدير مدرسة، أو مدير مؤسسة عامة أو خاصة، فله حق تغيير المنكر بيده، أو بأيدي أعوانه وأنصاره وجنوده، إذا كان تغيير المنكرات من الصلاحيات الممنوحة له بإذن الإمام.

● وكلُّ ذي رعاية عامة أو خاصة في أسرته له حق تغيير المنكر بيده، إذا فعله بعض مَنْ له عليهم حق الرعاية شرعاً داخل أسرته.

فإذا جَلَبَتِ الزَّوْجَةَ مثلاً وثناً، ووضَعَتْهُ في بيتها، ورآه الزوج، فإنه يأمرها أولاً بإزالته، ويبين لها أنّ هذا حرام لا يجوز في الإسلام، وأن من حقه شرعاً أن يزيله بيده، فإن لم تَفْعَلْ وأصْرَتْ على إبقائه كان عليه أن يزيله بيده، رضيت أم سَخِطَتْ، لأنّ له عليها حق الولاية بحكم القوامة التي منحها الله للزوج.

والأمُّ إذا شهدت بغضَ أبنائها قد جلب إلى بيتها منكراً من المنكرات، أبانت له أولاً أنّ هذا مُنْكَرٌ شرعاً، وأنّ عليه أن يزيله، فإذا لم يُزِلْهُ وَأَصْرَتْ على إبقائه أزالته هي بيدها، بمقتضى كونها راعيةً على بيتِ زوجها وولده.

على أن التغيير باليد في كلِّ الأحوال إنما يكون بعد الإنكار بالقلب وباللسان.

\* \* \*

٤ - إنكار المنكر باللسان:

دلّ حديث أبي سعيد الخدري على أنّ كلَّ مُسْلِمٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكَرَ المنكرَ بلسانه، فواجب عليه أن يوجّه كلاماً ينصّح به، أو يأمر به وينهى، صغيراً كان أو كبيراً، عظيماً في قومه أو ضعيفاً.

فعبارة: «فإن لم يستطع فبلسانه» هي على تقدير فليُنكره بلسانه، وليست على تقدير: فليغيره بلسانه، إذ ليس من وظيفة اللسان التغيير، وإنما وظيفته الإنكار، وربما أثار الإنكارُ فحصل التغييرُ من قبلِ فاعلِ المنكرِ نفسه. ومثل هذا التقدير معروفٌ في أسلوب البيان العربيّ، ومنه قول الشاعر:

وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

أي: وزججْنَ الحواجِبَ وكَحَلْنَ العيونَ، لأنَّ العيونَ لا تُزَجَّجُ، إِنَّمَا تُكَحَّلُ.

تَرْجِيحُ الْحَوَاجِبِ: هُوَ جَعَلَهَا بِأَعْمَالِ التَّرْزِيحِ دَقِيقَةً طَوِيلَةً مُقَوَّسَةً.

وضمن واجب إنكار المنكر يستطيع أحاد الناس أن يوجه كلاماً فيه رفقٌ وتكريمٌ واحترامٌ بموعظةٍ، أو نُصْحٍ، أو أمرٍ بمعروفٍ، أو نهْيٍ عن منكرٍ، لإمام المسلمين، ورئيسهم الأعلى، وليس هو مسؤولاً عن التغيير الفعليّ، وقد يكون كلامه سبباً في تغيير المنكر.

ولا يُعَدَّرُ في هذا إلاّ عاجزٌ عن البيان، أو مستغْنٍ ببيان غيره مع تأييده هو له، أو خائفٌ من سلطانٍ جائرٍ أن يسطو عليه، ويُنزَلَ به بلاءٌ وشرّاً إذا نصَّحَهُ، أو أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، مهما تَلَطَّفَ في مقاله الذي يوجهه له.

والإنكار باللسان ينبغي أن يكون مسبوفاً بالإنكار بالقلب، وإلاّ كان من قبيل التظاهر ومراءات الناس، ليقال: شجاعٌ جرىء في الحقّ.

\* \* \*

٥ - إنكار المنكر بالقلب:

أما إنكار المنكر بالقلب، مع مفارقة المكان الذي فيه المنكر إذا كانت

المفارقة مُسْتَطَاعَةٌ، فهو واجبٌ كلُّ مؤمنٍ مُسْلِمٍ، مهما كان إيمانهُ ضعيف الأثرٍ في السلوك.

وإذا عجز المنكرُ بقلبه عن مفارقة مجلس المنكر لسبب من الأسباب، فإنَّ عليه أن يشغَلَ قلبه بالاشمئزاز والكراهية، وسؤالِ اللَّهِ أن يُعِينَهُ على مفارقة المجلس، وعلى الإنكار بلسانه.

فحركة الإنكار القَلْبِي المصحوب بالكراهية والامتعاض والاشمئزاز وترقُّبِ الفرصَةِ الملائمة لمفارقة المجلس، يَمْلِكُهَا كُلُّ إنسان. ولهذا كان الإنكار بالقلب أضعف الإيمان.

وعبارة: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ...» في الحديث، هي على تقدير: فَلْيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ بما يَمْلِكُ في قلبه من كراهيةٍ وشمئزازٍ، وقولٍ في نفسه: اللَّهُمَّ هَذَا مُنْكَرٌ لَا أَرْضَى بِهِ، مع ترقُّبِ الفرصَةِ لمفارقة المجلس، إذا لم يستطع أن يُعَبِّرَ بمفارقته الفعلية عن إنكاره.



البَابُ الحَامِسُ  
نَمَازِجُ تَطْبِيقِيَّةٍ  
مِنْ هَدْيِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ  
وَمِنْ سَارِ عَلَي دَرَبِهِمْ

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: صُورٌ مِنْ سِيَاسَةِ الرُّسُلِ فِي أَدَائِهِمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ.

الفصل الثاني: نَمَازِجُ دُعَاةٍ مِنْ غَيْرِ الرُّسُلِ عَرَضَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ دَعْوَتِهِمْ  
وَنَصْرَتِهِمْ لِدِينِهِ.

الفصل الثالث: نَمَازِجٌ مِنْ وَصَايَا الْأَبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ.

الفصل الرابع: صُورٌ وَنَمَازِجٌ عَامَّةٌ.





## الفصل الأول

صُورٌ من سياسة الرُّسل عليهم السلام  
في أدائهم رسالات ربّهم

- الصورة الأولى: لقطات من سياسة نوح عليه السلام.
- الصورة الثانية: لقطات من سياسة هود عليه السلام.
- الصورة الثالثة: لقطات من سياسة صالح عليه السلام.
- الصورة الرابعة: لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام.
- الصورة الخامسة: لقطات من سياسة شعيب عليه السلام.
- الصورة السادسة: لقطات من سياسة موسى عليه السلام.



الصورة الأولى  
لقطات من سياسة نوح عليه السلام  
في أدائه رسالات ربّه

من تتبّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة نوح عليه السلام في أدائه رسالات ربّه، ظهرت لي ست فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع الاعتراضات التي وُجّهت له.

الفقرة الثالثة: سياسته في دفع الشتائم التي وُجّهت له.

الفقرة الرابعة: سياسته في مجادلته قومه.

الفقرة الخامسة: خطته في الدعوة والتذكير على توالي الأيام ليلاً ونهاراً.

الفقرة السادسة: سياسته في مُقابل إيذاء وتهديد قومه له بالإخراج أو بالقتل.

وفيما يلي تفصيلُ هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد

حول نوح عليه السلام وقومه:

\* \* \*

## الفقرة الأولى

### سياسة نوح عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجيّ الحكيم على أنّ سياسة نوح عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وتتلخّص بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، مع التخويف من عذابه الأليم، والإشفاق منه على الذين يُوجّه لهم دعوته.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥١﴾﴾.

العنصر الثاني: ثمّ ارتقى نوح عليه السلام إلى أسلوب الإنذار المجزوم به، مع إعلان الإشفاق على قومه منه، رحمةً بهم، وحرصاً عليهم.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

العنصر الثالث: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى أسلوب التلويح برفق، مستخدماً التعبير بالاستفهام الذي يحمل معنى التلويح، ﴿أَفَلَا تَنْتَقُونَ﴾! أي: أفلاً تنتقون عذاب الله الذي حذرتكم منه وأنذرتكم به.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْتَقُونَ﴾.

العنصر الرابع: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى تأكيد توجيه التلويح بصيغة الاستفهام الإنكاري، مضافاً إليه تأكيد أنه رسول أمين، ومضافاً إليه أيضاً أمرهم بأن يتقوا عذاب الله، وبأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه، مع تكرير هذين الأمرين إلحاحاً في الدعوة، مبيّناً لهم أثناء ذلك أنه عليه السلام ما يسألهم من أجرٍ على ما يدعوهم إليه، أي: ليس له عندهم مصالح دنيوية يرجوها من دعوته لهم، ومبيّناً لهم أنّ أجره على رب العالمين الذي أرسله وكلفه.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَنْتَقُونَ ﴿١٦٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٤﴾﴾.

العنصر الخامس: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى أسلوب جمع فيه الإنذار المؤكّد المشدّد، والأمر بعبادة الله، وبأن يتقوه، والأمر بأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه، وأضاف إليها الوعد بأنهم إذا أطاعوه فإن الله يغفر لهم

بعض ذنوبهم، ويؤخر إهلاكهم إلى آجالهم المقررة لكل واحد منهم، لكنهم إذا لم يطيعوه فإن الله سيهلككم إهلاكاً عاماً في أجلٍ يُحدّده، فإذا جاء أجلُ إهلاكهم فإنّه واقع بهم حينئذٍ حتماً، ولا يُمكن تأخيرهُ.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْفِقُوا وَأَطِيعُونَ ﴿٣﴾ يَقِفْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

إن التهديد بعذاب أليم وإهلاك شاملٍ للقوم في الحياة الدنيا يأتي في آخر المراحل الدّعوية، فإذا أصرّ القوم على عنادهم وكفّرهم وتحدّوا رسول ربّهم بأن يأتيهم بالعذاب المعجّل، ووجّهوا له التّهديد بالإخراج أو بالقتل، لم يكن أمام الرسول إلا أن ينتظر قضاء الله في القوم، وما يكلفه الله من جهادٍ قتالي إن أمكنه ذلك، أو هجرة إلى بلدٍ آخر، وقوم آخرين.

\* \* \*

## الفقرة الثانية

### سياسة نوح عليه السلام في دفع الاعتراضات التي وجهت له

نجد في القرآن المجيد أنّ نوحاً عليه السلام قد وجّه له قومه خمسة اعتراضات، فدفع كلّ اعتراضٍ منها بما تقتضيه الحكمة .

الاعتراض الأول: اعتراضُهم على أنّه بشرٌ مثلهم، زاعمين أنّ رسولَ الله ينبغي أن يكون ملكاً، ولا يصحّ أن يكون بشراً يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويعمل الأعمال البشرية، ويحتاج الحاجات البشرية، كسائر الناس .

وكانت سياسة نوح عليه السلام في دفع هذا الاعتراض ببيان أنّ البشريّة لا تمنع من تلقّي الوحي عن الله، فالله بقدرته وبحكمته ويعلمه بعباده يختصّ من يشاء من عباده، فيوحي إليه، ويكلفه حملَ رسالةٍ يُبلّغها للناس، وليس هذا على الله بمستحيل ولا بمستنكر .

أمّا الاختيار الحكيم من وسائل تبليغ النَّاسِ دينَ الله لهم، مع تقديم القدوة الحسنة التي يتأسَّونَ بها، فهو يقضي بأن يُرسلَ الله إلى البشر رسولاً منهم، يتأسَّونَ به، ويتبعونه، ويَهْتَدُونَ بهديه .

دلّ على هذا الاعتراض ما يلي :

١ - قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن قصة نوح مع قومه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):



﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا... ﴾ (٢٧)

٢ - وقول الله عز وجل أيضاً في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في حكاية خطاب ملا قوم لجماهيرهم:

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ  
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴾ (٢٨)

ودل على دفع هذا الاعتراض.

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لما دفع به نوح عليه السلام اعتراضهم:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتِكُمْ مِّن رَّبِّي وَعَلَيْكُمْ رَحْمَةٌ مِّن عِندِي... ﴾ (٢٩)

أي: أتحجرون على الله ربي الذي هو ربكم ورب العالمين أن يختصني بأن يؤتيني رحمة من عنده، وهي التفضيل بالوحي إلي، وتكليفني أن أحمل رسالة منه إليكم؟

والمعنى: ما هو المانع العقلي من هذا؟ وما هو الأمر المنافي للحكمة في هذا؟

أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتِكُمْ مِّن رَّبِّي: أي: أفكرتُمْ في احتمال أن أكون على بئتي من ربي تشهد لي بأني صادق فيما أبلغ عنه؟ أفصدقوني؟ وفي هذا دفع لاتهامه بالتوهم أو الكذب، فالمعجزة حجة قاطعة، وآية دامغة، وينطوي في هذا البيان إثبات قدرة الله وحكمته في اصطفاء بشر بالوحي إليه.

وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّن عِنْدِهِ: أي: وأتاني رحمة لكم من عنده، هي الدين وما فيه من تعليمات ووصايا تتضمن بيان سبيل سعادتكم ونجاتكم، وفي ذلك رحمة عظمى لكم.

والمعنى: أَفَكَرْتُمْ فِي مضمون هذه الرسالة التي جئتكمُ بها، والتي هي  
رحمةٌ عظيمةٌ لكم؟

ويظهر أن دَفَعَ نوح عليه السلام قد كان على مقدار الإشكالات  
والشبهات الذهنية التي كانت لدى قومه، وهذا من السياسة الحكيمة في  
الدعوة.

ونستفيد من هذا أنه لا يَحْسُنُ في السياسة الدَعَوِيَّةِ دَفْعُ شبهاتٍ  
وأشكالاتٍ أُخْرَى لَمْ يَطْرَحْهَا المدْعُوْنَ في اعتراضاتهم أو جدليّاتهم، لأنَّ  
الغرض الوصولُ إلى الإقناع، لا إلى استقصاء الشبهات ودفعها.

\* \* \*

الاعتراض الثاني: اعتراضهم على كون أتباعه قد كانوا أراذلَ قومه، مع  
مطالبة ملاٍ قومه له بأن يطرُدَهُمْ عنه.

وكانت سياسة نوح عليه السلام في دفع هذا الاعتراض، تتلخَّصُ ببيان  
أن هؤلاء الذين تصفونهم بأنهم قد كانوا أراذل، هم مكلَّفون من قبل ربِّهم أن  
يؤمنوا ويعملوا صالحاً، وسيحاسبون عند ربِّهم على ما كسبوا في رحلة الحياة  
الدنيا، وسيجازون إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ، وإني مُطالِبٌ من قِبَلِ رَبِّي  
بدعوتهم وتبليغهم كسائر الناس، فما أنا بطاردهم وهم بشرٌ من البشر. وبيّانٍ  
إنَّ الإيمانَ يَجِبُ ما قبله، فإن كانوا في سابقِ عهدهم قبل أن يؤمنوا بي  
ويتبعوني أراذل في سلوكهم وقبائح أعمالهم، فقد تحوَّلوا عن ذلك بالإيمان  
والعمل الصالح، وغفر الله لهم ما كان منهم سابقاً، فصاروا الآن طاهرين،  
ومن ذوي الاستقامة والعمل الصالح، فما تأثير علمي بما كانوا يعملون بعد  
أن تاب الله عليهم؟ فلا أقول بشأنهم: لن يؤتِيهم اللهُ خيراً، الله أعلم بما في  
أنفسهم، إني إذاً لمن الظالمين.

دلَّ على هذا الاعتراض ودفعه آيات قرآنيةٌ وردت أثناء عرض لقطاتٍ

من قصة نوح عليه السلام مع قومه في سورتين:

١ - قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول):

﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَأَتَّبِعْكَ الْآزِدُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ: أي: وما تأثير علمي بما كانوا يعملون، في دعوة أمرني الله بأن أبلغها لقومي جميعاً.

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي: أي: ما حسابهم إلا على ربي، فلست أنا الذي أتولى حسابهم.

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول)

يحكي مقالة قوم نوح له:

﴿ ... وَمَا نَزَّلَكَ آتِيبَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِنَاكِ بَادِي الرَّأْيِ ... ﴾

بَادِي الرَّأْيِ: أي: عند بادي الرأي، وبادي الرأي هو ظاهر الرأي، أي: دون تعمقٍ وتبصُّرٍ ببواطن الأمور، من بدا يبدو إذا ظهر.

وقوله تعالى فيها:

﴿ ... وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنَّ قَوْمًا تَجَاهَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَنْقُورُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقوله تعالى فيها أيضاً:

﴿ ... وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَِّّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

أي: ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرهم أعينكم لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا إذا آمنوا وعملوا الصالحات.

ويا قوم من ينصُرني فيحميني ويقيني من عذاب الله إن طردتهم مخالفاً  
ما أوجب الله علي من دعوتهم وإيوائهم والعطف عليهم.

\* \* \*

الاعتراض الثالث: توهم قوم نوح أن طريقة دعوته المقرونة بالإنذار  
والوعيد فيها معنى الإلزام والإكراه، وهذا التوهم يحرك في نفوسهم  
اعتراضاً.

ويبدو أن هذا الاعتراض لم يُصرّحوا به لأن دعوة كلِّ رسولٍ دعوةٌ  
تخيّر لا دعوة إكراه وإجبار بالقوة، ونوح عليه السلام لم يُعدّ لإكراه قومه أيّ  
قوة.

لكن نوحاً عليه السلام أدرك أنهم قد يتوهّمون من إنذاره ووعيده لهم  
معنى الإلزام والإكراه، فقال لهم: **أَنْزَلْكُمْ فِيهَا وَاتَّقُوا كَارِهُونَ؟!**

أي: فأنا والذين آمنوا بي لن نجبركم على الإيمان والإسلام إن كنتم  
كارهين ذلك، إنّما ندعوكم ونبين لكم الحق، ونذكركم، وننذركم عذاب  
ربكم.

دلّ على هذا الاعتراض الذي يبدو أنهم لم يُصرّحوا به، وعلى دفعه  
بنفي الإلزام الجبري، قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢  
نزول) يحكي مقالة قالها نوح عليه السلام لقومه:

﴿ قَالَ يَقُولُونَ أَيُّكُمْ وَآتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِنَا بِرَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِنَا فَعِمَّتْ عَلَيْكُمْ  
أَنْزَلْنَاكُمْ فِيهَا وَاتَّقُوا كَارِهُونَ ﴾.

فَعِمَّتْ عَلَيْكُمْ: أي: فَحَفِيَّتْ عَلَيْكُمْ والتبس أمرها عليكم.

أَنْزَلْنَاكُمْ فِيهَا: أي: أَنْكَرْهُكُمْ على الالتزام بها واتباع ما جاء فيها،

الضمير عائد على الرحمة، والمراد بها الرسالة التي يبلغها عن ربه .

\* \* \*

الاعتراض الرابع: اعتراض قوم نوح عليه وعلى الذين آمنوا به وأتبعوه بأنهم ليسوا ذوي فضلٍ بمظاهر الحياة الدنيا على سائر قومهم، حتى يرشحهم هذا الفضل لأن يستجيبوا لدعوتهم، ويتبعوهم . وليسوا ذوي فضل بخوارق .

والفضل الذي يراه أهل الكفر فضلاً ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - أموالٌ وكنوزٌ ومُلْكٌ مؤيَّدٌ بقوى غيبية .

٢ - قُدْرَةٌ على معرفة الأمور الغيبية الماضية والحاضرة والآتية في المستقبل .

٣ - كون مُدْعِي الرسالة مَلَكًا لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يتزوَّج النساء، ولا يَحْتَاجُ إلى ما يحتاج إليه البشر .

وقد دفع نوح عليه السلام هذا الاعتراض بالإشارة إلى أنه اعتراض ساقط، لا يصحُّ إيراده أضلاً، إذ لا يشترطُ فيمن يوحى إليه برسالة من ربه أن يتميَّز عن سائر البشر بهذا الفضل الذي توهموه، فليلَّه أن يصطفي من عباده بحكمته من يشاء، فيوحى إليه، ويكلفه حمل رسالة لقومه من ربهم، وليس بين حمل رسالة عن الله وبين الأمور التي توهموها ارتباط عقلي حتى تكون شرطاً للنبوة والرسالة .

دلَّ على هذا الاعتراض مع الإشارة الضمنية إلى دفعه، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لمقالة قائلها نوحٌ عليه السلام لقومه:

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ . . . ﴿٢٦﴾

أي: إنني لا أدعي شيئاً من ذلك، بل أقول لكم إنَّ رَبِّي أَوْحَى إِلَيَّ  
وحيًا، وحمَّلني رسالةً إلكيم، هي أن تعبدوا الله وحده، ولا تشرکوا به شيئاً،  
وأن تُسَلِّموا له، فإذا لم تستجيبوا فإنه هو الذي سَيَحَاسِبُكُمْ، وسيعاقبكم لا  
أنا.

\* \* \*

## الفقرة الثالثة

### سياسة نوح عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجِّهَتْ له

تتلخّص سياسة نوح عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجِّهَتْ له بثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنه دفع عن نفسه ما اتَّهمه به قومه من ضلالة بمجرد النفي، مع بيان أنه رسولٌ من ربِّ العالمين، يبلغ عن ربِّه رسالاته، وينصح لقومه، ويبين لهم ما جاءه من العِلْم الذي لا يعلمونه.

ولم يستخدم عليه السلام أسلوب ردِّ الشتيمة بمثلها، فلم يَقُلْ للذين اتَّهموه بالضلالة: بل أنتم الضَّالون، أو نحوها من العبارات.

دل على هذا الأمر قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزل) في مَعْرِض بيان لقطات من قصته مع قومه:

﴿ قَالَ أَلْمَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَنْقَوِرَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الأمر الثاني: أنه عليه السلام أعرَض عن دفع اتِّهام قومه له بالجنون، لأنَّ الاتِّهام بالجنون يتعلَّق بشخصه، ولا يتعلَّق بمضمون دعوته، فاكْتَفَى بالإعراض، على أنَّ اتِّهامه بالجنون أمر تسقطه بياناته ومجادلاته لهم، التي

تدلُّ على كمال عقله وعظيم فطنته، ولا يعدو أن يكون مجرد شتيمة ليسوا مُصدِّقين لها، ولا يقبلُها منهم أحدٌ فلا يحسُنُ منه أن يدفعها عن نفسه ولو بمجرد النفي.

إن الشتائم التي لا تشتمل على اتِّهام يُمكن أن يكون مقبولاً في نفوس السامعين، مثلها كمثَلِ عَوَاءِ الكلاب، وهَلْ يَلِيْقُ بالإنسان العاقل الرزين الذرَّكِ لحقائق الأمور أن يرُدَّ على العواءِ بمثله؟!

وقد دلَّ على هذا الأمر قولُ الله عزَّ وجلَّ بشأنه وشأن مقالة ملاً قومه عنه في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَتَّبِعُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾

فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بهذه السياسة الحكيمة في دفع الشتائم التي تُوجَّه لهم من الذين يُؤدُّون رسالة ربِّهم بينهم، وكذلك حَمَلَةَ رسالة النَّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك مُعَلِّمُو دين الله للناس.

الأمر الثالث: أنه عليه السلام دفع اتِّهام قومه بأنه يسعى بدعوته لتحقيق مصالح شخصية دُنْيوية في قومه، كَمَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ مُلْكٍ أَوْ اسْتِمْتَاعِ بِشَهَوَاتٍ، بأنه لم يسألهم أجراً، ولا يسألهم أجراً، وَلَنْ يسألهم أجراً، والأجرُ يشمل الأجر المادي والأجر المعنوي، ولم يُبرِّئ نفسه من رغبته في الأجر، إنما حَصَرَ ما يرغب فيه من أجرٍ باللَّهِ رَبِّ العالمين، يتفضَّل الله به عليه يوم الدين، مع ما يَمُنَّحُه من ثوابٍ دُنْيويٍّ معجَّل.

دل على هذا الأمر عدة نصوصٍ قرآنية:

١ - قول الله عزَّ وجلَّ في مَعْرِضِ بيان لقطاتٍ من قصة نوح عليه



السلام مع قومه في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول):

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول):

﴿ وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ... ﴿٢٦﴾ ﴾ .

فذكر خصوص المال بعد أن ذكر عموم الأجر الشامل للأجر المالي والأجر المعنوي .

٣ - وقول الله عز وجل أيضاً في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥١/

نزول) في عرض لقطات من قصته مع قومه، وقوله لهم في مرحلة متأخرة من تاريخ دعوته :

﴿ فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ... ﴿٧٦﴾ ﴾ .

\* \* \*

## الفقرة الرابعة

### سياسة نوح عليه السلام في مجادلته لقومه

اعتمدت سياسة نوح عليه السلام في مجادلته لقومه على أمرين:  
الأمر الأول: دفع اعتراضاتهم بالحجج العقلية والأدلة الصحيحة التي ليس لديهم ما يُبطلها، كما سبق بيانه في الفقرة الثانية.  
الأمر الثاني: إقامة الأدلة العقلية والحجج البرهانية المفحمة، على صحة ما يدعوهم إليه من توحيد، وفساد ما هم فيه من شرك.

وقد دلّ على هذا الأمر ما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) حكاية لما قام به من جهاد قومه في دعوته لهم، وهو يدعو ربه شاكياً إصرار قومه على رفض دعوته وفرارهم من الاستجابة له، فقال أثناء عرضه شكواه:

﴿ فقلتُ استغفروا ربكم إنهم كانوا غفّاراً ﴿١٦﴾ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴿١٧﴾ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴿١٨﴾ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴿١٩﴾ وقد خلقكم أطواراً ﴿٢٠﴾ أترؤا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴿٢١﴾ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً ﴿٢٢﴾ والله أنبت لكم من الأرض نباتاً ﴿٢٣﴾ ثم يميدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴿٢٤﴾ والله جعل لكم من الأرض مساطأ ﴿٢٥﴾ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴿٢٦﴾ ﴾

فدلّ هذا النصُّ على أنّ منهج نوح عليه السلام في إقامة الأدلة على توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لله عز وجلّ، يعتمد على الاستدلال بالظواهر الكونية الدالة باللوازم العقلية البرهانية على أنّ الربّ الخالق واحد لا شريك

له، وهذا يدلُّ باللزوم العقليّ على أنّ الإله المعبود يجب أن يكون هو الرّب الخالق وحده لا شريك له، فلا إله إلاّ الله.

وهذا هو منهج جميع المرسلين، وهو المنهج المبسوط في سُورِ القرآن المجيد.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا: استفهام إنكاريّ تعجبيّ، والمعنى ما الصّارفُ أو الباعثُ أو المفسدُ لكم، حالة كونكم لا تَخْشَوْنَ ولا تخافون الله الجليل عظمة، فإذا شاء أهلككم أو عذبكم على كفركم عذاباً شديداً.

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا: أي: والحال أنّه قد خلقكم على أطوار، من تراب، إلى غذاء، إلى نطفة، إلى علقة، إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، إلى جنين، إلى طفل، وهكذا.

وردّ قومُ نوح على مجادلته لهم بقولهم له كما جاء في سورة (هود/ ١١) مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَبْنَوحُ قَدْ جندَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جدَلْنَا فَأَيْنَا يَمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾

وأصرُّوا على باطلهم، واتبعَت جماهيرهم قادتهم ذوي المال والأولاد، ومكروا بنوح عليه السلام وبالذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ مكرًا كُبَّارًا، وتنادوا لملازمة آلهتهم من الأوثان، كما جاء في سورة (نوح) في الآيات من (٢١) - (٢٤) في عرض شكوى نوح لربّه.

\* \* \*

## الفقرة الخامسة

### خطة نوح عليه السلام في الدعوة والتذكير على توالي الأيام

تتلخص خُطة نوح عليه السلام التي اتّبعها في الدعوة والتذكير على توالي الأيام التي أقامها في قومه بالعناصر التالية:

**العنصر الأول:** أنّه عليه السلام لم يترك فرصة سانحة له من ليلٍ أو نهار يتمكن فيها من توصيلِ دعوته إلى قومه إلّا انتهزها، وقام فيها بدعوة قومه إلى الدّين الذي جاءهم به بلاغاً عن ربّه.

**العنصر الثاني:** أنّه عليه السلام استخدم مختلف الأساليب الدعوية المتاحة له في زمانه:

- فاستخدم أسلوب الخطابة الجماهيرية العامة.
- واستخدم أسلوب الإعلان في الحديث مع الذين يناسبهم الإعلان ولا ينفّرهم، وهو ما يُسمّى في مصطلحاتنا المعاصرة: «درس - محاضرة - حديث...».
- واستخدم أسلوب الإسرار في الحديث، مع الذين يلائم حالهم الإسرار في الحديث ولا يلائم حالهم المواجهة العلنية.
- واستخدم أسلوب الإنذار والترهيب من عذاب الله المعجل والمؤجل.

● واستخدم أسلوب الترغيب في ثواب الله المعجل والمؤجل إلى يوم الدين.

● واستخدم أسلوب الإقناع بالحوار وإقامة الحجج الإقناعية الصحيحة.

● واستخدم أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن.

العنصر الثالث: أنه عليه السلام استمسك بخطة الصبر الطويل المديد، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، واستمر يدعو قومه إلى دين الله معظم هذه المدة، ولما أياسه الله عز وجل منهم، إذ قال له: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمْنٌ﴾<sup>(١)</sup> دعا على كفار قومه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ

مِنَ الْكٰفِرِيْنَ دِيَارًا﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا﴾<sup>(٣)</sup>.

دل على خطته هذه ما جاء في القرآن المجيد من قصته مع قومه مما سبق بيانه، ومنه ما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلِي لَكَثِرٌ نَّذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا إِذِ ابْتِغَاءَ وَاسْتَفْسَأُوا بِأَبْنِهِمْ وَاصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾﴾

ثمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا: الجِهَارُ هو رفعُ الصَّوْتِ، وهذا يكون عادة في الخطابة الجماهيرية.

(١) كما جاء في الآية (٣٦) من سورة (هود/ ١١).

(٢) كما جاء في الآيتين (٢٦ - ٢٧) من سورة (نوح/ ٧١).

ثم إنِّي أعلّنتُ لهم: أي: خاطبتهم بحديث عليّ، ويُحمَلُ هذا على ما يناسبه الحديث العلنيّ.

وأسرّزت لهم إسراراً: ويُحمَلُ هذا على من يناسبه الحديثُ في السرّ ومنه ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿ قَالُوا يَنْتُوْحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

\* \* \*

## الفقرة السادسة

سياسة نوح عليه السلام في مقابل إيذاء قومه  
وتهديدهم له بالإخراج أو بالقتل

وصل كفار قوم نوح عليه السلام إلى حالة الضجر من تكرار تذكيره لهم  
بما جاءهم به عن ربّه، فواجهوه بأنواعٍ من الأذى.  
فقابل موقفهم هذا بإعلان توكله على الله، واستعداده لأن يتحمّل الأذى  
بصبر.

دلّ على موقفه هذا قول الله عزّ وجلّ بشأن عموم الرُّسُل في سورة  
(إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ  
عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا  
ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ونوح عليه السلام من الرُّسُل الذين أودوا من أقوامهم فأعلنوا توكلهم  
على الله، وصبرهم على الأذى.

ثم وصل كفار قوم نوح إلى حالة التذمر الشديد من تكرار تذكيره  
ومتابعة دعوته لأجيالهم فهتدّوه بالإخراج من بلادهم.

دَلَّ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ أَيْضاً بِشَأْنِ جَمِيعِ الرُّسُلِ فِي سُورَةِ (إِبْرَاهِيمَ/ ١٤)  
مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا  
فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ  
بَعْدِهِمْ... ﴿١٤﴾ ﴾

ونوح عليه السلام من الرُّسُلِ الذين هُدِّدوا بالإخراج، بمقتضى عُموم  
هذا النص، لكنّه لم يستجب لقومه، ولم يعبأ بتهديدهم.  
فاشتد غضب قومه منه فهذدوه بأن يقتلوه رجماً بالحجارة هو والذين  
آمنوا معه.

دَلَّ عَلَى هَذَا التَّهْدِيدِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ/ ٢٦)  
مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِنُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

أي: لَنَرَجُمَنَّكَ وَلَنَرَجُمَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ فَتَكُونَ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

فقابل نوح عليه السلام هذا التهديد بعدم الاكتراث، وبالتحدي، وقال  
لهم: أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِشُرَكَائِكُمْ، وَلَا تترددوا وَلَا تتحيروا وَلَا  
تستترُوا فِي أَمْرِكُمْ، ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ مَا دَبَّرْتُمْ مِنْ أَمْرِ لِقَتْلِي، وَلَا تُمَهِّلُونِي، فَإِنِّي  
تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يُونُسَ/ ١٠)  
مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِي إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي  
بِعَابَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ  
أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٦١﴾ ﴾



إِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ: أي: إن كان كبرَ عليكم حتى نَقَلَ وَشَقَّ عَلَى نَفُوسِكُمْ وَجُودِي وَمُكْنِي، قائماً فيكم نبياً رسولاً داعياً إلى الله، ومُذَكِّراً أَفْرَادَكُمْ وَجَمَاعَاتِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي أَكْرَرَهَا عَلَيْكُمْ، وأذكركم بها، حتى أغضبكم.

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ: أي: فَأَحْكِمُوا كُلَّ أَمْرِكُمْ الَّذِي تَسْتَطِيعُونَ تَدْبِيرَهُ وَإِحْكَامَهُ، وادْعُوا كُلَّ شُرَكَائِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَلَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً: أي: وَلَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ أَمْرًا مَبْهُمًا، أَوْ كَرْبًا ضَاغِطًا عَلَى صُدُورِكُمْ.

ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ: أي: ثُمَّ أَنْجِزُوا مَا دَبَّرْتُمْ مِنْ أَمْرِ لِقَتْلِي.

وَلَا تُنظَرُونَ: أي: وَلَا تُنْهَلُونِي لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ.

والتجأ نوح عليه السلام إلى ربه داعياً، فقال كما حكى الله عز وجل عنه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ففضى الله عز وجل بإغراق قومه، ونجاته ونجاة الذين آمنوا معه في الفلك.

قال تعالى في سورة (الشعراء) أيضاً:

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

\* \* \*

## الصورة الثانية

لقطات من سياسة هود عليه السلام

في أدائه رسالات ربّه

من تتبّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة هود عليه السلام في أدائه رسالات ربّه، ظهر لي أنّ سياسته مشابهة لسياسة نوح عليه السلام، وهي تتلخص في خمس فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع الاعتراضات التي وُجّهت له.

الفقرة الثالثة: سياسته في دفع الشتائم التي وُجّهت له.

الفقرة الرابعة: سياسته في مجادلته قومه ونُصّحه لهم.

الفقرة الخامسة: سياسته في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له بالإخراج أو

بالقتل.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد

حول هود عليه السلام وقومه.

## الفقرة الأولى

### سياسة هود عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجيّ الحكيم على أنّ سياسة هود عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

**العنصر الأول:** بدء الدّعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتبذ ما اتخذه قومه من آلهة غيره، مع تخويفهم من عذاب الله الأليم، الذي جعله الله جزاءً لمن أشرك به، والإشفاق عليهم منه.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿وَأَذَكَّرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٦﴾ .

**العنصر الثاني:** استخدام الإنذار بأسلوب العرض المشبّوب بالتلويح، مع بيان أنّه لقومه رسولّ أمين، وإتباع هذا بالدعوة إلى أن يُطِيعُوهُ وَيَتَّقُوا اللَّهَ .

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٍ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَانْفِقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴾ .

أَلَا تَتَّقُونَ؟: عَرَضُ بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ، وَهَذَا الْعَرَضُ مَشُوبٌ بِالتَّلْوِيمِ .  
العنصر الثالث: تَكَرُّرِ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، مَعَ تَوْجِيهِ التَّلْوِيمِ الْمَشْدَّدِ، بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ .

دَلٌّ عَلَى هَذَا الْعَنْصَرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ/ ٧ مِصْحَفٍ/ ٣٩ نَزُولٍ):

﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿١٧٦﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ .  
نَفْهَمُ تَشْدِيدَ التَّلْوِيمِ مِنْ إِضَافَةِ «الْفَاءِ» الْعَاطِفَةِ عَلَى عِبَارَةِ ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟! أَي: أَعْرَضْتُمْ عَنْ دَعْوَتِي السَّابِقَةِ لَكُمْ بِأَنَّ تَتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ فَلَا تَتَّقُونَ!!

العنصر الرابع: تَكَرُّرِ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، مَعَ الْهَجُومِ عَلَى عَقِيدَتِهِمُ الشَّرِكِيَّةِ، بِأَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ فِيهَا عَلَى اللَّهِ، بِاتِّخَاذِ شُرَكَاءَ لَهُ، يَخْتَرَعُونَهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَجْعَلُونَ لَهَا أَسْمَاءً . دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ أُدْلَةٌ عَقْلِيَّةٌ أَوْ تَجْرِيْبِيَّةٌ عَلَيْهَا، بَلِ الْأُدْلَةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْحَسِيَّةُ تَشْهَدُ بِأَنَّهَا لَا تَجْلُبُ نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ ضَرًّا، فَلَيْسَ لَهَا مِشَارَكَةٌ لِلَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، فَلَيْسَ لَهَا مِشَارَكَةٌ لِلَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ أُدْلَةُ خَبْرِيَّةٌ عَنِ اللَّهِ تَأْمُرُ بِعِبَادَتِهَا، أَوْ تَأْذُنُ بِهِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ فِيهَا مُفْتَرُونَ .

دَلٌّ عَلَى هَذَا الْعَنْصَرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هُودِ/ ١١ مِصْحَفٍ/ ٥٢ نَزُولٍ):

﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿١٧٦﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٧٧﴾ .

أَي: مَا أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ، الْإِفْتِرَاءُ: اخْتِلَاقُ الْكُذْبِ وَاصْطِنَاعُهُ .

العنصر الخامس: استخدام سياسة الترغيب بثواب الله المعجل في الدنيا، والمؤجل إلى يوم الدين، والترهيب من عقاب الله المعجل والمؤجل. وهذا العنصر هو أحد عناصر سياسة جميع أنبياء الله ورسله، وسياسة سائر الدعاة إلى الله.

وقد دلَّ على ترغيب هودٍ عليه السلام في ثواب الله المعجل قوله لقومه كما حكى الله عنه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ودلَّ على الإنذار بالعقاب المعجل قول قومه له كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿... فَأَيْنَا يَمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

وقول الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) بشأنهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدَيْنَاهُم قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وأما الترغيب والترهيب بما عند الله يوم الدين فهما من القواعد الأولى التي تقوم عليها الرسائل الربانية كلها.

وكلُّ أمرٍ بتقوى الله يشتمل على التحذير من عقابه يوم الدين، ويتضمن لزوماً فكرياً الترغيب في ثوابه بجنات النعيم.

\* \* \*

## الفقرة الثانية

### سياسة هود عليه السلام في دفع الاعتراضات التي وجهت له

الاعتراض الأول: اعتراضهم على بشريته، وأدعأؤهم أن الله لو شاء أن يُرسل رُسلاً لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً.

دَلَّ عَلَى اعْتِرَاضِهِمْ هَذَا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١/ مَصْحَف/ ٦١  
نَزُول) بِشَأْنِ عَادٍ وَثَمُودَ خَطَاباً لِلرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَعْرُضِ الْحَدِيثِ عَنِ  
مَشْرُكِي مَكَّةَ:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ  
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ  
كَافِرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

وقد دفع هودٌ عليه السلام هذا الاعتراض بقياس نفسه على نوحٍ عليه  
السلام، الذي كانوا على علم به وبرسالته وبإهلاك قومه الذين كانوا مشركين،  
فقد كان نوحٌ بشراً، ولم يكن ملكاً، واستنكر عليهم أن يتعجبوا من كَوْنِ  
الرُّسُولِ بشراً، فيجحدوا رسالته لهذه العلة، مع أنهم سلالة الذين آمنوا بنوحٍ  
ونَجَوْا معه في السفينة، وهم من ذرِّيته.

دَلَّ عَلَى هَذَا الدَّفْعِ الَّذِي دَفَعَ بِهِ اعْتِرَاضَهُمْ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ  
(الْأَعْرَافِ/ ٧/ مَصْحَف/ ٣٩/ نَزُول) حِكَايَةَ لِمَقَالَتِهِ لَهُمْ:

﴿ أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

الاعتراض الثاني: اعتراضهم عليه بأنه يريد مصالح دنيوية لديهم، ويتخذ الدعوة الدينية ستارة لتحقيق أغراضه ومصالحه في قومه، كمالٍ أو سلطان.

وقد ردّ على هذا الاعتراض بمثل ما ردّ به سائر المرسلين، وهو أنه لا يسألهم أجراً، ولا يريد منهم أجراً مادياً ولا معنوياً، كجَاهِ وسلطانٍ ومُلكٍ.

ودلّ على هذا الردّ قوله لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

وكما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

الاعتراض الثالث: اعتراضهم عليه بأنه لم يأتهم ببينة خارقة (آية معجزة) مما اقترحوا عليه.

دلّ على اعتراضهم هذا قولهم له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرَةٍ . . . ﴿٥٤﴾ ﴾ .

أما ادعائهم أنه لم يأتهم بيّنة مطلقاً فهو ادعاءٌ كاذبٌ منهم وجحود.

فقد قال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول)

حكاية لقول موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل:

﴿الَّذِي يَأْتِيَكُمْ بُنْيَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) في

معرض الحديث عن المنافقين والكافرين:

﴿الَّذِي يَأْتِيهِمْ بَأْسٌ مِنَ الَّذِينَ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧﴾﴾.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ:

«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيّاً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(الحديث ٤٩٨١ و ٧٢٧٤).

المؤتفكات: قري قوم لوط، أي: قوم القرى المؤتفكات، أي:

المنقلبات.

وأما ادعائهم أنه لم يأتهم بما اقترحوا هُم عليه من خوارق، فهذا ادعاءٌ مقبولٌ، وقد يكون هو المراد، ومن المعلوم من سنة الله في الأمم أنه لا يستجيب للمقترحات الخاصة التي تقترحها الأقوام بشأن المعجزات التي يؤيد



بها رُسُلَه، وإذا استجاب إليها بناءً على طلبهم كما فعل بشأن ناقة الرسول صالح عليه السلام، فإنهم إذا أصرُّوا على كُفْرهم بَعْدَها معاندين، فإنَّ الله لا يُمهِّلهم، بل يُعَجِّلُ لهم الإهلاك العامَّ الشامل، أو يُعَجِّلُ بإهلاك مَنْ طَلَبَهَا من القوم إذا كانوا أفراداً معدودين، ولم يكن توجيهُ الطلب من كُُلِّ القوم، أو معظمهم بصورةٍ عامَّةٍ.

\* \* \*

## الفقرة الثالثة

سياسة هود عليه السلام في  
دفع الشتائم التي وُجّهت له

تتلخّص سياسة هود عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجّهت له بما يلي:

الأمر الأول: الدفع بالنفي المجرد لشتيمتهم له بأنّه منغمس في سفاهة، أي: في نقص عقل ينتج عنه سوء تصرّف، ومنه ادّعاؤه النبوة والرّسالة، ودعوته لقومه بأن يَدْرُوا آلَهِتَهُم التي يعبدونها من دون الله، ويعبدوا الله وحده لا يُشركون بعبادته أحداً، وشتيمتهم له بأنهم يظنّونه كاذباً من الكاذبين.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾  
قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾  
أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ۝

الأمر الثاني: الأعراض عن شتيمتهم له بأنّه مصابّ في عقله أو نفسه، من قبل بعض آلِهِتَهُم التي تمرد على عبادتها، مخالفاً ما عليه قومه وآباؤهم وأجدادهم.

وإذا اكتفى بالإعراض عن دفع هذه الشتيمة رأى أن يُعلن لهم أنه يُشهدُ الله ويُشهدهم على أنه بريء مما يُشركون، ليثبت لهم بأسلوبٍ غير مباشر كمالَ عقله، وثباتَ خصائصه النفسية وتوازنها، وأن آلهتهم لم تمسه بسوء، ولا تستطيع أن تمسه بسوء على الرغم من إعلانه تبرأه منها.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢

نزول):

﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ مِنْ دُونِهِ... ﴾ .

\* \* \*

## الفقرة الرابعة

سياسة هود عليه السلام في  
مجادلته قومه ونُصحه لهم

تتفق سياسته في مجادلته قومه مع سياسة نوح عليه السلام في مجادلته قومه، وهي تتلخص بأمرين:

الأمر الأول: دفع اعتراضات القوم بالحجج العقلية والأدلة الصحيحة التي ليس لديهم ما يُبطلها، كما سبق بيانه في الفقرة الثانية.

الأمر الثاني: إقامة الأدلة العقلية والحجج البرهانية المفحمة على صحة ما يدعوهم إليه من توحيد، وفساد ما هم فيه من شرك.

فاستدلّ على التوحيد بأن الله هو وحده فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وهذا أمرٌ ظاهر الأدلة في الظواهر الكونية، فليس فيه شكٌ لدى العقلاء، ومن كان هو الخالق فلا بُدَّ أن يكون هو وحده الإله المعبود.

دلّ على هذا ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في حكاية ما قاله موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل بشأن ما قاله رُسل قوم نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لأقوامهم:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نَصُدَّوَنَاعَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٠﴾ ﴾

واستدلّ على نفي استحقاق آلهتهم لأن تكون معبودة من دون الله بأنها لا تعدّوا أن تكون أسماء هم سمّوها، فليس لها من حقيقة الرّبوبيّة أو الإلهيّة شيء، ولم يأت من عند الله أمرٌ ولا إذنٌ بعبادتها.

فحين قالوا له متعجبين من دعوته كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا... ﴾ (٧) ﴿١١٩﴾

أجابهم كما جاء فيها أيضاً:

﴿... أَتُجَدِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ... ﴾ (٧) ﴿١١٩﴾

الأمر الثالث: توجيه النصّح لهم في عدّة قضايا:

الأولى: أن يتركوا أعمال العبث التي يُنفقون فيها أوقاتهم وأموالاً وطاقاتٍ، لمجرد التفاخر والمباهات بقدراتهم البنائيّة والفنيّة، المشعرة بعظمتهم وتفوق بلادهم على غيرها، دون أن تكون لها فائدة في الحياة، وأن يوجهوا جهودهم لما فيه فائدة وِنفع، فجماهيرهم أحوج إلى ذلك منهم إلى مظاهر التكبر والتعظيم، فقد كانوا يفعلون نظير ما فعل الفراعنة من بعدهم إذ بنّوا الأهرامات، ونحتوا أعمدة المسلات ونصبوها علامات، وكانت وسيلتهم إلى ذلك سوق الناس بالجبر والإكراه والإذلال، كالجمال والحمير والبغال.

دلّ على نصيحته لهم في هذه القضية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود لقومه:

﴿ أَنْتَبِئُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَأَيَّةٌ تَأْتِيهِمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٧٨) ﴿١١٩﴾.

استفهامٌ فيه معنى النصّح والتلويم على العبث.

الرّيع: يُطلق لغةً على السبيل سلك أو لم يُسلك، وعلى الطريق

المنفرج بين الجبل، وعلى الطريق عامة.

آية: أي: علامة، والمرادُ هنا أنها علامة على عظمة قوم عادٍ في قُدْرَاتِهِمُ البنايية، ودلَّ على أنها لمجرّد التباهي والتفاخر والتكبر على الناس قول هود عليه السلام لهم: تعبثون أي: دون أن تكون لهذه الآيات التي تبنيها منفعة تقصد، كأن تكون علاماتٍ يهتدي السالكون بها، أمّا العلامات التفاخرية فهي كالأصنام التي تُصنَع للحكامِ وذوي السُلْطَانِ الجبارين، التي ليس فيها للناس نفع.

وقد نصّحهم هودٌ عليه السلام بترك هذه العادة التفاخرية التي تُبدلُ فيها أموالٌ وطاقات بغير نفع، فهي من مظاهر الإسراف والتبذير وتضييع الثروات بالعبث.

الثانية: أن يَضَعُوا نُصَبَ أعينهم وفي ذكراتهم دواماً الدار الآخرة، ويتفكروا بالموت وبما بعد الموت، وبالحساب والجزاء يوم الدين، وأن يُوجِّهُوا كُلَّ اهتمامهم للدنيا راجين الخلود فيها، فإنّ هذا يَصْرِفُهُمْ عن العمل للآخرة، والسَّعي لسعادتهم الخالدة فيها، ومن توجيه كلِّ اهتمامهم للدنيا دون أن يعطوا من سَعِيهِمْ شيئاً للآخرة، تكثيفُ كلِّ جهودهم لاتخاذ الأبنية والقصور والحصون وتزويدها بخزانات المياه، كأنّ الدنيا دارُ خلود للناس على تتابع الأجيال، وليس بعد هذه الدار والحياة فيها دار أُخرى وحياة أُخرى هي دار الحساب وفصل القضاء والجزاء والخلود الأبديّ.

دلَّ على نصيحته لقومه في هذه القضية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود لقومه:

﴿ وَتَتَخَذُونَ مِصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾

مِصَانِعُ: جمع «مِصْنَعَة» و«مِصْنَع». المصانع تُطلَقُ في اللغة على ما يُصنَعُ من أبنية وقصور وحصون وأحواض مياه.

قال الأصمعيّ: العرب تُسمّي القرى مصانع، واحداً منها مصنعة.

إنّ هوداً عليه السلام لم ينكر عليهم اتّخاذ المصانع من أبنية وقصورٍ وحصونٍ وأحواضٍ مياهٍ وقرى، إنّما أنكر عليهم انصرافهم الكامل لشؤون الدنيا يرجون خلود قومٍ عادٍ في العزّة والمجد والقوة والسلطان ورفاهية العيش، والمساكن والقصور والحصون الحصينة، وذلك لأن من قطع نظره عن الآخرة وتعلّق بالدنيا قامَ في تصوّره أن الدنيا خالدة، وإذا لم يكن هو خالداً بشخصه لأنّه على يقين بأنّ الموت آتية لا محالة، فهو يرجو لذريته وسلالات قومه الخلود، وعلى هذا المعنى يُحمَلُ قولُهُ لهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

الثالثة: أنّ لا يستكبروا في الأرض على عباد الله، ويتخذوا الوسائل التي يذلّون بها الأقوام الأخرى، بما آتاهم الله من قوّة، ومن مظاهر استكبارهم على غيرهم من الأقوام أنّهم كانوا إذا بطّشوا في حروبهم بطّشوا جبّارين ظالمين مُعتدّين، لمجرّد إظهار تفوّقهم وجبروتهم وإذلال غيرهم بغير حق، وكذلك إذا بطّشوا في غير الحرب فيمن يريدون السطو عليه بطّشوا جبّارين.

دلّ على نصيحة هود عليه السلام لقومه في هذه القضية، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالته لقومه:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

البطش: يُطلَقُ في اللغة على التناول بشدّة وعُنف عند الصولة، وعلى الأخذ الشديد بقوّة في كلّ شيء، وعلى السّطو في سرعة.

أي: وإذا أردتم الاستعلاء والاستكبارَ سَطَوْتُمْ بقوّة وعنف على فريستكم من البشر، جبّارين ظلّماً وعدواناً دونَ شفقةٍ ولا رحمةٍ ولا مراعاةٍ لحقوقِ خَلَقِ الله في الحياة، والكرامة، والممتلكات، فتقتلون بشدّة وعنف بغير حقّ.

الجبارُ من الناس: العاتي الظالم القتالُ بغير حق الذي يَهْرُ بقوته وسلطانه.

ويُطلقُ الجبارُ على المُكْرِهِ المَجْبِرِ بسلطانه، ولو كان جَبْرُهُ بحق، وهذا المعنى يصلح لشرح اسم الله «الجبار».

ودلّ على استكبارهم في الأرض بغير الحق، وتفاخرهم بتفوقهم في القوة على أقوام زمانهم، قولُ الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (فصلت/ ٤١) مصحف/ ٦١ (نزل):

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . ﴿١٩﴾ ﴾ .

وجاء التعليق الربّانيّ على هذا التفاخر والاستكبار بقوله تعالى عقب حكاية قولهم:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٩﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسُوبَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

الرابعة: نصيحته بأن يتقوا الله الذي أمدهم بنعمه الكثيرة، واتقاؤهم عذاب الله عزّ وجلّ يكون بأن يطيعوا رسول ربهم فيما يدعوهم إليه من إيمان وإسلام وعمل صالح.

دلّ على هذه القضية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦) مصحف/ ٤٧ (نزل) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا الَّذِي أَمَّا تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَمَّا بِأَنْعَمِ رَبِّينَ ﴿٢٧﴾ وَخَشَّاتٍ وَعِيبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ فِي آخَافِكُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

فأبان لهم أنّه يُشْفِقُ عليهم من عذاب الله يوم الدين.



وكان ردّ قومه على نصائحه لهم في هذه القضايا الأربع، بإعلان عدم استجابتهم لها، وبأن لا يتعب نفسه في توجيه نصائحه لهم، فنُصِّحَهُ لَهُمْ وَعَدِمَ نُصْحَهُ مُسْتَوِيَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، دلّ على هذا الردّ قول الله عزّ وجلّ عقب النصّ السابق:

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ: أي: ما هذا الذي تستنكره علينا وتعظنا بتركه إلا سلوكُ كان يفعله آبائنا وأجدادنا الأولون، وهو أثرٌ من آثار أخلاقهم، ونحن على آثارهم مقتدون.

وقرئ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ﴾ بفتح الخاء وإسكان اللام، والمعنى: ما هذا الذي تُنذِرنا به يوم الدين إلا افتراء واختلاق مدعي البعث بعد الموت من الأولين، فتكاملت القراءتان.

\* \* \*

## الفقرة الخامسة

سياسة هود عليه السلام في مقابل إيذاء  
قومه وتهديدهم له بالإخراج وبالقتل

وصل كفّار قوم هود عليه السلام إلى شبه ما وصل إليه كفار قوم نوح عليه السلام، وتعرّض لأذى قومهم، وقَابَلَ أذاهم بالصبر كما جاء في الآيتين (١١ - ١٢) من سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) وفيهما الحديث عن عموم الرُّسُل، وقد سبق الاستشهاد بهما في الفقرة السادسة من سياسة نوح عليه السلام.

وأخيراً أَعْلَنُوا إصرارهم على تكذيبه، وأعلنوا تحدّثهم له بأن يأتيهم بالعذاب المعجل الذي ما زال يَعِدُّهم به، فأجابهم بأن أمر إهلاكهم هو بيد الله لا بيده، وأن العِلْمَ بوقت إهلاكهم هو عند الله.  
وهذِّدُوهُ بأن يقتلوه، فتحدّاهم بأن يفعلوا ما يشاؤون، وأَعْلَنَ تَوَكُّلَهُ على الله.

ولمّا وصلوا بحكمة الله إلى حالة ميثوسٍ منها أهلكتهم الله عزّ وجلّ.

دلّ على هذه الأمور قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في معرض الحديث عن هود عليه السلام وقومه:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَذْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ  
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ

أَتَجِدُ لَوْ تَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا  
إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَجْبَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ  
كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ .

وقول الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦/ مصحف/ ٦٦ نزول) أيضاً:

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِتَأْفِكِنَا عَنِ إِلٰهِنَا فَأِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّمَا  
الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَكِنِّي أَرٰذِكُمْ قَوْمًا جٰهَلُونَ ﴿٦٧﴾ .  
لِتَأْفِكُنَا: أي: لتصرفنا.

وقول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧ نزول) في  
معرض الحديث عنه وعن قومه:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنٰهُمْ إِن فِي ذٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِن رَّبِّكَ هُوَ الْعَزِيزُ  
الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ .

وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية  
لجواب هود عليه السلام إذ أحسّ بتهديدهم له بالقتل:

﴿ فَيَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ  
ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ  
وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ .

وجاء التعقيب الرباني على هذا في السورة بقول الله عز وجل:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾  
وَتِلْكَ ءَاثَارُ جَدِّدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هٰذِهِ  
الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ ؕ أَلَا إِنَّ ءَاثَارَ كُفْرِهِمْ ءَلَا بُعْدَ لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ .

\* \* \*

الصورة الثالثة  
لقطات من سياسة صالح عليه السلام  
في أدائه رسالة ربّه

من تتبّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة صالح عليه السلام في أدائه رسالة ربّه، ظهر لي أنّ سياسته مشابهة لسياسة نوح وهود عليهما السلام، وهي تلخص في ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسة صالح عليه السلام في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع اعتراضات قومه وشتائمهم وتطيّرهم وجدلياتهم.

الفقرة الثالثة: سياسته في تحدّي قومه له باستعجال العقاب.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول صالح عليه السلام وقومه.

## الفقرة الأولى

### سياسة صالح عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجي الحكيم على أنّ سياسة صالح عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى نبذ ما اتخذته قومه من آلهة غيره.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِن تَحُودَ آخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِهِ... ﴾ (٧٦)

العنصر الثاني: إنذارهم بعقاب الله المعجل في الدنيا والمؤجل إلى يوم الدين، فكذبوا بهذه التذر، وزعموا أنّ صالحاً يكذب عليهم بها.

دلّ على هذا العنصر قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالتُّذُرِ ﴾ (١٢)

التُّذُر: مفردة التذير، وهو يطلق على المنذر، وهو أيضاً اسم للإنذار.

العنصر الثالث: استخدام أسلوب العرض المشوب بالتلويح، لأنهم لم يتقوا ما خوفهم منه، وكرّر صالح عليه السلام دعوة قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك، ونصحهم بأن يتقوا الله.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا. ﴿١٤٥﴾ ﴾

العنصر الرابع: تذكيرهم بما أنزل الله عزّ وجلّ على عادٍ إذ أهلكتهم بسبب كفرهم وطغيانهم، وتذكيرهم بأن الله قد جعلهم خلفاء لهم، ومكّن لهم في الأرض، فجعلهم يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون الجبال بيوتاً، ووعظهم بأن يذكروا نعم الله عليهم ويشكروها، وبأن لا يعثوا في الأرض مفسدين.

دلّ على هذا العنصر قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قاله صالح عليه السلام لقومه ثمود:

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

العنصر الخامس: تنبيههم وتحذيرهم من أنّ الله لن يتركهم في ديارهم آمنين وهم يشركون به ويكفرون برسوله وبما جاءهم به عن ربّه، بل لا بُدّ من أنّ ينزل بهم عقوبته إذا أصروا على ما هم فيه من شرك وإفساد في الأرض، وحذر جماهيرهم من طاعة قادتهم المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦  
 مصحف/ ٤٧ نزل) حكاية لبعض ما قاله صالح عليه السلام لقومه ثمود:

﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَمِيُونَ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا  
 هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ  
 الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

طَلْعُهَا هَضِيمٌ: أي: ثمرها ناعم لطيف مريء لتين، سهل الهضم.

العنصر السادس: استجابته بإذنٍ من الله للمعجزة الخارقة التي  
 طلبوها، وهي أن يُخْرِجَ لهم من صخرة عَيْنِهَا، نَاقَةٌ حَدَّوْا أوصافها، فدعا  
 رَبَّهُ فَأَخْرَجَ لهم آيَةَ النَّاقَةِ التي طلبوها، وحَدَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لها بِسُوءٍ،  
 فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ عَذَابًا أَلِيمًا، وَأَهْلَكَهُمْ .

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧  
 مصحف/ ٣٩ نزل) حكاية لبعض ما قاله صالح لقومه:

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ آتَتْكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا  
 تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

بَيِّنَةٌ: أي: آية خارقة معجزة تُبَيِّنُ لكم صدق رسولكم فيما يخبركم به  
 عن ربكم .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزل) حكاية  
 لبعض ما قالت ثمود لرسولهم صالح عليه السلام:

﴿ ... فَأَتِ بِثَابِتَةٍ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیۡنَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

فأجابهم كما جاء فيها عقب هذه الآية وأبان لهم المطلوب منهم في  
 امتحانهم في آية الناقة .

﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْوَأُوا يَسْوَىٰ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ .

الشَّرْبُ: الحظُّ من الماء في وقت خاص .

لكن أكثرهم لم يؤمنوا على الرُّغم من أن الله استجاب لهم في آية الناقة، ثم ضاقوا ذرعاً بوجودها بينهم على وفق الشروط التي وضعها الله عز وجل وبلغهم إيها رسولهم صالح عليه السلام، وكانت هذه لامتحانهم بها، فإذا أحلوا بها أنزل الله بهم العذاب المهلك المذل .

فاتفق كفارهم على التخلص من الناقة، ورضوا بأن يتولَّى أمر عقرها أشقاهم، فعقرها فأهلكهم الله .

دلَّ على هذا قول الله عز وجل في سورة (الشمس/ ٩١/ مصحف/ ٢٦

نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانِهَا ﴿١١﴾ إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ .

فدمدم عليهم ربهم: أي: أطبق عليهم وسائل التعذيب، وأهلكهم، فدفنهم، وسوى الأرض فوقهم .

وقول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤/ مصحف/ ٣٧ نزول) بياناً لما

خاطب به صالحاً عليه السلام بشأن الناقة:

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنِنَّةَ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَا صَاحِبَهُم فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحَطَّرِ ﴿٣١﴾ .

فتنة لهم: أي امتحاناً واختباراً لهم . الهشيم: ما يبس من النبات وتكسر



وتحطم . المحتظر : صاحب الحظيرة .

وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن  
ثمود وعقرهم الناقة :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاَصْلِحْ أَئِنَّا يَمَاتُ إِذَا كُنَّا  
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ  
يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ اللَّهُ مُبْتَلِيًا لِمَنْ يُشَاءُ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ  
وَتَّقُوا اللَّهَ فَسَوَّيْتُ لِلْغَافِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وفي استجابة الله عز وجل لثمود مقترحهم بشأن الآية الخارقة تقديم  
برهان تجريبي للناس على أن الاستجابة لمطالبهم التعنتية في الآيات  
الخارقات لا ينفذ في تخفيف عنادهم وإصرارهم على الباطل ، ولا يضيف  
إلى استيقان قلوبهم إضافة تجعلهم يؤمنون بالحق ، ولهذا قال تعالى في سورة  
(الإسراء/ ٧/ مصحف/ ٥٠ نزول) :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَمُودِ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً  
فَنَظَّمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿١٠١﴾ ﴾ .

مُبصرة: أي : واضحة ، أو تبصرهم وتبين لهم .

\* \* \*

## الفقرة الثانية

سياسة صالح عليه السلام في دفع اعتراضات  
قومه وشنائمهم وتطييرهم وجدلياتهم

لم يكن من ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام إلا الاعتراضُ على كونه بشراً واحداً منهم، وبأن الله لو شاء لأنزل ملائكة، واتهامه بأن له مصلحة شخصية دنيوية لدى قومه من دعوته، والتطيير به وبمن معه من الذين آمنوا به لما أنزل الله بهم ما يسوؤهم من المصائب، التي امتحنهم الله بها، وجعلها تنبيهاً وتذكيراً بعقوباته الكبرى.

وشتموه بأنه كذابٌ أشِرُّ، أي: مستكبر، وبأنه من المُسَحَّرِينَ.

● وقد اكتفى عليه السلام في دفع اعتراضهم على كونه بشراً واحداً منهم بتذكيرهم بأن الله جعلهم خلفاء من بعد عاد، وهم يعلمون قِصَّتَهُمْ ويعلمون أن رسولهم كان هوداً عليه السلام، وأنه كان بشراً واحداً من قومه، وبما أجاب اتِّهامهم له بأن له مصلحة شخصية دنيوية لديهم، بقوله لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول):

﴿ وَمَا أَسْتَلِكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وهذا الدفع هو ما دفع به نوح وهود عليهما السلام من قبل صالح عليه السلام.

● ودَفَعَ تَطْيِيرَهُمْ به وبمن معه من المؤمنين ببيان أن الله هو الذي أنزل

بهم ما ساءهم من المكاره، ليمتحنهم وليذيقهم بعض العذاب ليذكروهم.

دلّ على هذا ما جاء بشأنهم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَكَيرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

تُفْتَنُونَ: أي: تُمْتَحَنُونَ وَتُخْتَبَرُونَ وَتُعَذَّبُونَ ببعض العذاب لعلكم تتذكرون وتتّعظون.

● وأعرض عن شتيمتهم له بأنه كذابٌ أشر، وبأنه من المسخرين، لكن الله عزّ وجلّ أبان له بأنهم سيعلمون مستقبلاً من الكذاب الأشر.

وقد دلّ على أقوالهم فيه ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿١٥٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿١٥٧﴾ ﴾ .

وما جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجِدًا نَبِيْعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢١﴾ أَلْهَىٰ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وسُعْرٌ: أي: وجنون.

أَشِرٌّ: أي: مُسْتَكْبِرٌ، طالبُ سلطانٍ ومُلكٍ.

الجدليات:

ولم تواجه ثمودُ رسولَهُمُ صالحاً بجدليات خاصة، وإنما واجه كبرائِهِمُ ضعفاء من آمن به بأسئلة استدرجية، بغية فتنِهِمُ، فلمّا أجابوهم بأنهم قد آمنوا بما أُرسِلَ به، قابلَهُمُ كبراء قومهم بإعلان أَنَّهُمُ كافرون بما آمن به هؤلاء الضعفاء.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْفُلَمُونَ أَنْ صَالِحًا مَثَرَسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

فقد كانت المعركة الجدلية بين الذين آمنوا به والذين كفروا به، وكان معظم الذين آمنوا به من المستضعفين من قومهم.

وقد دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

لكنهم قالوا له: إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ.

فقال لهم كما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤/ مصحف/ ٧٢ نزول) بشأن عموم الرُّسل السابقين:

﴿ أَوَى اللَّهُ لُكُلٍ شَكٍّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى... ﴿١٦﴾ ﴾

انظر الآيات من (٩ - ١٢) من سورة إبراهيم.

\* \* \*

## الفقرة الثالثة

سياسة صالح عليه السلام في تحدي  
قومه له باستعجال العقاب

لم يَلْجَأ قوم صالح عليه السلام إلى الأساليب الجدلية، ولا إلى وسائل الضغوط الاضطهادية، فقد كان له في قومه أولياء ذور قُوَّةٍ فيهم يحمونه بالعصبية.

وإنما لجؤوا إلى إعلان كفرهم بما جاءهم به، وإلى تحديهِ بأن يأتيهم بعذاب الله المعجل في الدنيا، وهو ما كان يُنذِرهم به إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم وإفسادهم في الأرض، واستحبوا العمى على الهدى.

وقد دلَّ على تحديهم هذا ما جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

أي: لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بإنزال ما حذرتكم منه من عقاب الله لكم على كفركم، وعنادكم وإفسادكم في الأرض، قبل استيفاء ما قَسَمَ الله لكم من حَسَنَةٍ في الحياة الدنيا، وهي المعاش الطيب الذي هم فيه.

ووعظهم بقوله: هلا تستغفرون الله ليرحمكم فيغفر لكم من ذنوبكم، والاستغفار إنما يكون بعد الإيمان والتوبة وإعلان الطاعة.

ويظهر أنّ صالحاً عليه السلام لم يدعُ ربّه بأن يعجل عقابه لهم، بل أمهلهم رجاء أن يؤمن منهم فريق آخر غير الذين سبق أن آمنوا به واتبعوه.

ثمّ لجأت ثمودُ إلى عقرِ النَّاقَةِ التي حذّرهم رسولهم من أن يمسّوها بسوء، فعقروها ليَتَخَلَّصُوا من المتاعب التي سببتّها لهم، إذ كان لها يومٌ خاصٌّ في مائهم تشرب منه ولا يشربون، وكان وضعها مخيفاً ومُنْتَفِراً لأنعامهم، وكانت ترعى رعيّاً كثيراً، وتدرّ لهم لبناً غزيراً.

دلّ على عقربهم لها ما جاء في الآية (١٤) من سورة (الشمس).

ودلّ على عقربهم لها وتحديهم بأن يأتيهم بما كان قد توعدّهم به قول الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ آقِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧)

وكان في مدينتهم تسعة رهط يُفسِدُونَ في الأرض ولا يُصَلِّحُونَ فتقاسموا فيما بيّنتهم أن يغتالوه وأهله معه في ليلةٍ من الليالي يُبيّتونهم بها، دون أن يكتشف أحدٌ ما بيّتوا، فإذا سُئِلوا عن الحادثة قالوا: ما شهدنا مهلك أهله.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأنهم:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّحُونَ ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرُؤًا وَمَكْرُؤًا مَكْرُؤًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

ودلّ على أنّ الله عزّ وجلّ عاقب ثموداً على عقربهم ناقة الله، وعلى تحديهم لرسولهم صالح عليه السلام بأن يأتيهم بما يعدّهم به، وعلى تدبير مُفسديهم أن يقتلوا رسولهم وأهله النَّصُّ السَّابِقُ من سورة (النمل).

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضَبُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَفْوَنَهَا ﴿١١﴾ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَىٰ ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ .

وقول الله تعالى في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ .

إلى غيرها من نُصوصٍ عامّة .

\* \* \*

الصورة الرابعة  
لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام  
في أدائه رسالة ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة إبراهيم عليه السلام في  
أدائه رسالات ربّه، ظهرت لي ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته .

الفقرة الثانية: سياسته في حُجَجِهِ ومجادلته لقومه .

الفقرة الثالثة: صفات إبراهيم عليه السلام في ذاته وفي سياسته

الدعوية .

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد

حول إبراهيم عليه السلام وقومه .



## الفقرة الأولى

### سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجيّ الحكيم على أنّ سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى نَبَذ ما اتَّخَذَهُ قَوْمُهُ مِنْ آلهة غيره.

دلّ عَلَى هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وإبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُوتُوا ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ونلاحظ في هذا أن إبراهيم قدّم لقومه دعوته مقرونة بالحجّة البرهانية على أنّ أوثانهم التي يعبدونها من دون الله آلهةٌ يخترعونها من عند أنفسهم افتراءً على الحقيقة، وهي في أدنى المطلوب منها وهو الرزق عاجزة عن تَهْيِئَتِهِ لعباديتها، وأنّ عليهم أن يبتغوا عند الله الرّب الخالق الرزق، وأنّ يعبُدوه وحده، وأنّ يَشْكُرُوا له، وأنّ يَعْملُوا صَالِحًا لِيَنَالُوا عند الله جزاءهم

لأنهم إليه سِيرُجَعُونَ بعد الموت، إذ يَبْعَثُهُمُ اللهُ إلى الحياة الأخرى للحساب،  
وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

العنصر الثاني: البدء بدعوة أقرب الناس إليه، قبل دَعْوَةِ غيرهم،  
واهتماماً بالتركيز على هذا العنصر أَلَحَّ على أبيه في الدَّعْوَةِ، ونَوَّعَ له أساليب  
الإقناع، وقَدَّمَ له الحجج والبراهين، واستعطفهُ واستلانه، وتخضَّعَ له، وترَفَّقَ  
به، وعاشره بالمعروف، ولم يقابله بما يكره، وحين طلب منه أبوه أن يَهْجُرَهُ  
إلى حين استجاب لطلبه ووعده بأن يستغفر له رَبَّهُ، قَبَّلَ أن يَعْلَمَ أنه مُصِرٌّ على  
أن يكون عدوًّا لله، فلَمَّا عَلِمَ أنه عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

دلَّ على هذا قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥  
نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي إِذْ أَخَذْتَنِي أَصْنَامًا ۗ اللَّهُمَّ إِنِّي آتَيْتُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

وقول الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٦١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ  
وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٦٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ  
صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٦٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٦٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ  
أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٦٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ  
لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَيِّمًا ﴿٦٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ  
بِي حَفِيًّا ﴿٦٧﴾﴾

لقد أضجر إبراهيم عليه السلام أباه في دَعْوَتِهِ له وإقامة الحجج البرهانية  
المقنعة، رجاء أن يستجيب له فيكون من المؤمنين الناجين من عذاب الله في  
نار جهنم، ووصل الضجر بالأب أن يهدد ابنته الناصح له المُلَحَّ عليه بالنصيحة  
وإقامة البراهين المقنعة بالرَّجْم فقال له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ﴾. ويظهر أن

هذا التَّهْدِيدَ صَدَرَ مِنْهُ وهو في حالة ضَيْقِ صَدْرٍ، إذ لم يستطع أن يُجِيبَ على حُجَجِ ابْنِهِ البرهانية، وضيَّقُ الصَّدْرِ يُؤَلِّدُ غَضَباً، ومع الغَضَبِ تَصَدُّرُ عِبَارَاتٍ التَّهْدِيدِ الَّتِي قَدْ تَصَلُّ إِلَى التَّهْدِيدِ بِالْقَتْلِ.

ويُظْهِرُ أَنَّهُ لَمَّا سَكَتَ غَضَبُهُ تَرَاجَعَ عَنِ التَّهْدِيدِ بِالرَّجْمِ، وَطَلَبَ مِنْ ابْنِهِ أَنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿وَأَهْجُرِي مَلِيّاً﴾.

المَلِيٌّ: المُدَّةُ الطَوِيلَةُ مِنَ الزَّمَنِ.

ويُظْهِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَشْعَرَ مِنْ عِبَارَةِ ﴿وَأَهْجُرِي مَلِيّاً﴾ وَعُدَاؤاً ضَمْنِيّاً بِأَنْ يَرَاغِعَ نَفْسَهُ، وَيَتَّخِذَ تَدَابِيرَ يَتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ ضَغْطِ بَيْتِهِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، فَوَعَدَهُ بِأَنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ رَبَّهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَتْ فِي حَفِيّاً﴾ أَي: إِنَّ رَبِّي كَانَ بِي لَطِيفاً مُكْرِماً يَسْتَجِيبُ لِي إِذَا دَعَوْتَهُ.

العنصر الثالث: أَنَّهُ كَانَ حِينَ يَدْعُو قَوْمَهُ، وَيُقِيمُ لَهُمُ الْحَجَجَ وَالْبِرَاهِينَ، كَانَ يُوجِّهُ خُطَابَهُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَعاً، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهُ سَبَقَ أَنْ دَعَا أَبَاهُ وَحَاجَّهُ بِصُورَةٍ مُتَّفَرِّدَةٍ.

دَلَّ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ بِشَأْنِ مَجَادَلَتِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَعاً فِي سُورَةِ (الشعراء/٢٦)، (انظر الآية ٧٠) وَمَا جَاءَ أَيْضاً فِي سُورَةِ (الأنبياء/٢١)، (انظر الآية ٥٢) وَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الصافات/٣٧)، (انظر الآية ٨٥) ففِيهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾.

\* \* \*

## الفقرة الثانية

سياسة إبراهيم عليه السلام في حُججه ومجادلته لقومه

لقد أثنى الله عزّ وجلّ على إبراهيم عليه السلام بأنه آتاه الحجّة الربّانية الدامغة المستندة إلى بُرْهَانِ الحق، فقال تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ .

وقد جاء في القرآن المجيد موجزٌ مُختزل من مُجَادلاته لقومه في سورة (الأنعام/ ٦) وسورة (الشعراء/ ٢٦) وسورة (البقرة/ ٢) وسورة (الصافات/ ٣٧) وسورة (الأنبياء/ ٢١) وسورة (العنكبوت/ ٢٩).

واستعرض هذه النصوص بشيء من التدبّر لاكتشاف مواقفه الفكرية البرهانية، وسياسته الجدلية المفحمة الدامغة المقرونة بالحكمة والموعظة الحسنة.

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلْأَيْلَٰهَ كَوَّكِبًا قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٔلِهِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّٰلِّينَ ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّٰلِّينَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّٰلِّينَ ﴿٦٠﴾ .

الشَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَنْقُورِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾  
 إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾  
 وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي  
 شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا  
 تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ، عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ  
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ  
 مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ  
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ .

مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: مَلَكُوت: صيغة مشتقة من المُلْكِ للدلالة  
 على المُلْكِ الفخم العظيم، والمُلْكُ هو السلطان والعزة والقدرة على التصرفِ  
 الشامل.

ورؤية إبراهيم ملكوت السماوات والأرض هي رؤيته ظواهر مُلْكِ اللَّهِ  
 الفخم العظيم في الكون، الدالة على صفاته العظيمة الجليلة، وأسمائه  
 الحُسنى، نظراً إلى أن هذه الظواهر هي من آثارها.

ورؤيته لها هي رؤية فكرية عقلية، مستندة إلى إدراكات حسية.

وبهذه الرؤية الفكرية يُدرك صفات الربِّ الخالق، وبها يكون من  
 الموقنين به، وبإثباته ليس شيئاً من هذه الظواهر الداخلة في ملكوت السماوات  
 والأرض، الخاضعة لسلطان ربِّ خالق لا يُمكن أن يكون جزءاً منها، فقال  
 تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي: من الموقنين بأن لملكوت السماوات  
 والأرض ربّاً خالقاً يتصرف فيه على ما يشاء بإحكام وإبداع وإتقان.

ومن ثمرات رؤية إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض،  
 رؤية دقيقة عميقة، تنتقل من الظواهر الكونية المشهودة إلى ما وراءها من  
 عالم الغيب، أنه استطاع أن يختار من ظواهر الكون في تقديم حججه

الإيمانية، مَا لِقَوْمِهِ عَقِيدَةٌ فِيهِ، بِأَنَّهَا أَرْبَابٌ أَوْلَاهَا تَأْثِيرَاتٌ رُبُوبِيَّةٌ، وَهِيَ أَجْرَامُ السَّمَاءِ الْمَضِيَّةِ.

ذكر المؤرخون أَنَّ قوم إبراهيم عليه السلام وهم الكلدانيون كانوا يَعْبُدُونَ الكواكب السبعة بأقوالٍ وَأفعالٍ توارثوها، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ لها تَأْثِيرَاتٍ رُبُوبِيَّةً، وَيَتَخَذُونَ لها هَيَاكِلَ وَتَمَاثِيلَ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الهياكل وَالتَمَاثِيلَ الَّتِي يصنعونها بأيديهم، رُموزاً لِأَرْبَابِهِمُ الَّتِي هي آلهتهم، وَيَقْدَمُونَ لها القربان، وَيَقِيمُونَ لها أعياداً.

فَتَدْرَجَ مع قومه بأسلوب باحثٍ عَنِ رَبِّهِ، فِي الأجرام المضيفة فِي السَّمَاءِ، وَهِيَ السَّاحَةُ الَّتِي يُؤْمِنُ قَوْمُهُ بِأَنَّ أَرْبَابَهُمُ الَّتِي لديها نَفْعُهُمْ وَضَرُّهُمْ بعضٌ مِنْهَا.

فَتَحِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنَاسِبَةً مِنَ المناسبات الصالحة لتقديم حُجَجِهِ لِقَوْمِهِ، مسائراً لهم فِي مفاهيمهم الاعتقادية، فترقَّبَ حَتَّى جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ.  
جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ: أَي: سَتَرَهُ بِظُلْمَتِهِ، أَوْ جعل عليه من الظلمة غطاءً ساتراً.

فجعل يَنْحُتُ عَنِ رَبِّهِ على طريقة قومه فِي نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذْ ظَهَرَتْ له فِي اللَّيْلِ المظلم واضحةً، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ اختار ليلاً من أواخر الشهر ليس فِيهِ قَمَرٌ بازغ.

وبعد البحث انتقى من الكواكب أكبرها وَأَوْضَحَهَا فِي نَظَرِ الْعَيْنِ، فقال لقومه الَّذِينَ اختارهم لإجراء تجربته معهم فِي البحث للوصول إِلَى الحقيقة، على سبيل الطَّرْحِ الاحتماليِّ الافتراضيِّ بغية الدراسة التأملية: «هَذَا رَبِّي» أَي: هذا أكبر هذه الكواكب الظاهرة فِي السَّمَاءِ، فَلأَفْتَرِضُ أَنَّهُ هُوَ الْأَحَقُّ مِنْهَا جميعاً بِأَنَّ يكونَ رَبِّي الَّذِي يُمِدُّني دوماً بعباءاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الدائمة فِي الحياة، ومنها الرزق والصحة والمعونة والعزة والنصر والأمن.

وانتظر يراقبُ هذا الكوكب المحتمل افتراضاً أن يكون هو الربِّ، لكنّه وجده في آخر الليل ومع ظهور الفجر قد بدأت أنوار الصباح تغلبُه حتّى أخفته فأقلَّ «أي: غاب».

فلمّا أقلَّ، قال للذين يتدرّج معهم في البحث مسائراً طريقتهم بشأن تعظيم الأجرام السماويّة إلى مستوى الربوبيّة: لو كان هذا الكوكب هو الربِّ الذي نبحت عنه، لما استطاع ضوءُ النهار أن يغلبُه حتّى يجعله أفلاً، فربُّ الكون لا يمكن أن يغلبَ من ذي قوّة أعظمَ من قوّته ولو بوجهٍ من الوجوه.

إذن: فأعظم هذه الكواكب لا يستحقُّ أن يكون هو الربِّ الذي يُعبَد، ويُرَجى نفعه، ويخشى ضرّه، وأنا لا أحبُّ أن أتخذَ لنفسي ربّاً لا يحملُ في ذاته صفاتِ الربوبيّة المنزّهة عن النقص.

وإذا كان أعظم هذه الكواكب هكذا فالكواكب الأخرى التي هي دونه أولى منه بأن لا يكون شيءٌ منها ربّاً بالضرورة العقلي.

ثمّ ترقّب حتّى بلغَ القمرُ ذروته في منتصف الشهر، فجمع الذين سبق أن حاول معهم التدرّج في البحث عن الكائن العظيم الصالح لأن يكون هو ربِّ هذا الكون، فلمّا رأى القمرَ بازغاً «أي: طالعاً منيراً» يعمُّ نورُهُ الأرض، قال لهم على سبيل الطرح الاحتمالي الافتراضي: لنفترض أن هذا القمر البازغ الذي يملأُ نُورُهُ الأرض هو الربِّ. وسَمّر مع الذين اختارهم للبحث من قومه في ضوء القمر، يتحدّث معهم عن صفات الربِّ وخصائصه، بغية الوصول إلى الحقيقة، فإذا كان القمر صالحاً لأن يكون ربّاً اتّخذَهُ ربّه دوماً، ووجّه وجهه له في العبادة والدعاء.

لكن حصل في آخر الليل للقمر مثل الذي حصل سابقاً للكوكب الكبير الذي كان قد اختاره من دون سائر الكواكب، فغاب القمر أفلاً، فقال للذين اختارهم من قومه لمشاركته في التأمل والبحث: لو كان هذا القمر هو الربِّ

لما استطاع ضوء النهار أن يغلبه، ولما استطاع شيء من الكون أن يحجبه بعد ظهوره.

إذن: فالقمر لا يستحق أن يكون هو الرب، وأن لا أحب أن اتخذ لنفسي رباً لا يحمل في ذاته صفات الربوبية المنزهة عن النقص.

وأعلن إبراهيم عليه السلام رفضه لأن يكون القمر هو رب الكون وقال: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ وهو بهذا يدعو ربه ضمناً أن يهديه إلى الحق.

بعد ذلك ترك الليل وما يظهر فيه من أجرام سماوية، وقال لمرافقي تأملاته: ليس شيء مما يظهر في السماء ليلاً صالحاً لأن يكون هو الرب المتصرف في الكون، فلنتحوّل إلى النهار، بحثاً في السماء أيضاً، ومعلوم أن السماء لا يظهر فيها نهراً إلا الشمس، فلما رأى الشمس بازغة قال لهم على سبيل الطرح الاحتمالي الافتراضي: لنفترض أن هذه الشمس المشرقة هي الرب: فهي أكبر من أكبر كوكب سماوي ظهر لأعيننا، وهي أكبر من القمر، وظلّ يُراقب الشمس ويتحدّث عن حركتها وعن آثارها وصفاتها، فلما غربت أفلة آخر النهار أبان لهم أنها لا تغرب إلا بسبب شيء قد حجّبها عن أعيننا، والحاجب القادر على أن يسترّ ضياء المحجوب المؤهل بذاته للظهور للأعين، لا بد أن تكون فيه قدرة تغلب ضوءه، وربّ الكون لا يمكن أن تغلبه قدرة هي من خلقه، وأنا لا أحب أن اتخذ لنفسي رباً لا يحمل في ذاته صفات الربوبية المبرأة من النقص، أما عدم رؤيتنا له فيرجع إلى عجزنا نحن عن رؤيته.

وبهذه الرحلة البحثية القائمة على طرح الاحتمالات الافتراضية أسقط إبراهيم عليه السلام كل أوام قومه التي ساقتهم إلى جعل طائفة من الكواكب السماوية أرباباً وآلهة لهم من دون الله، وبأسلوبه الإقناعي ذي النفس الطويل



أبان لهم أنه لا يصلح شيء من الظواهر الكونية المشهودة لأن يكون هو الرب الخالق المدبر للكون، والمتصرف بكل ما فيه .

ثم أعلن لقومه براءته من كل ما يُشركون، وأنه وجهٌ وجهه للخالق الربّ غير المدرك بالحواس، والذي فطر السماوات بكل ما فيها، وفطر الأرض بكل ما فيها، وأعلن لهم أنه قد وجه وجهه لهذا الفاطر الغيبي مؤمناً به، يعبدوه ويدعوه ويرجوه ويتوكّل عليه .

دلّ على موقفه النهائي هذا بعد رحلة البحث التأملي قول الله عزّ وجلّ في النصّ .

﴿... قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ .

وبعد أن وصل في رحلته التأملية إلى هذا القرار الجازم، مسائراً قومه في طريقة تفكيرهم في أجرام السماء، بحثاً عن الربّ الخالق الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، بدؤوا بمحاجته ومُجادلته بالباطل، دون أن يقدموا حجّةً تُصحّح مقولاتهم في أربابهم .

ويظهر أنهم قالوا له: كيف توجه وجهك في عبادتك لربّ لا تراه؟! .

والجواب على هذا سهلٌ يسير، إذ يكفي أن يقول لهم: إنني علمتُ من ظاهرات خلقه، وظاهرات ربوبيته أنه كامل في ذاته، وكامل في صفاته، وأنه الموجود الأعظم الأكبر المنزه عن كلّ نقصٍ في ذاته وفي صفاته، وهو الواحد الذي لا شريك له .

فإذا قالوا له: لكنك لا تراه .

فجوابه: أليس هو يراني، ويعلم أنني أعبدُه، وأوجه له وجهي في عبادتي له، وقد هداني إلى معرفة وجوده، ومعرفة صفاته، معرفة عقلية

فكرية، من ظاهرات خلقه وتصاريفه، في كونه، وآثار ربوبيوته الدائمة لكل شيء.

واكتفى النص القرآني بالإشارة إلى هذه الفقرة من فقرات الإجابة فقال تعالى في هذا:

﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا أَمْحَجَّ جُؤَيْ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا... ﴾ (٨١)

وهنا تحوّل قومه إلى تخويفه بأزبابهم، فقالوا له: ألا تخاف أن تصيبك آلهتنا بسوء، وقد عبدها أبائنا وأجدادنا من قبل؟!!

فأجابهم: بأنه لا يخاف أربابهم التي جعلوها شركاء لله، لأنها لا تستطيع أن تنزل به سوءاً إلا أن يشاء ربه فاطر السماوات والأرض شيئاً من ذلك، وأبان لهم بأن ربه الخالق لكل شيء، والذي هو رب كل شيء، قد وسع كل شيء علماً، لذلك فهو يخافه وحده، ويتوكل عليه وحده.

دلّ على هذا قول الله عز وجل في النص حكاية لما أجابهم به:

﴿... وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ

عِلْمًا... ﴾ (٨١)

ويعدّ هذا ذكّرهم بدليله البرهاني الذي سبق أن أبان لهم فيه أن آلهتهم لا تستحق أن تكون أرباباً من دون الله حتى تكون آلهة تُعبد، وأبان لهم فيه أن الرب الخالق للكون والمتصرّف فهي، هو ربّ لا تُدرّكه الأبصار، وهو غيب عن كلّ الحواس، لكن تُدرّك العقول والأفكار وجودة وصفاته الجليلة، وإذ ذكّرهم بدليله البرهاني وجه لهم اللوم على عدم تذكّرهم، فقال لهم: أَتَصِرُونَ على باطلِكُمْ فلا تتذكّرون، دلّ على هذا قوله لهم كما جاء في النص:

﴿... أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ...﴾ (٨١)؟!!

وبعد هذا أبان لهم أنهم هم الأحقّ بأن يخافوا عذاب الخالق الرب، إذ

أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مِنْ حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُمْ بِهَذَا السُّلْطَانِ عُذْرٌ يَعْتَذِرُونَ بِهِ عِنْدَهُ.

أَمَّا تَرْكُهُ هُوَ عِبَادَةَ آلِهَتِهِمْ، فَهُوَ تَرْكٌ مُقْتَرَنٌ بِدَلِيلٍ بُرْهَانِيٍّ، يَوْجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ عِبَادَتَهَا، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ شَرِيكَةً لِّلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَهِيَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تَضُرَّهُ بِشَيْءٍ حَتَّىٰ يَخَافُهَا، وَالْحِجَّةُ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُ بِعِبَادَتِهَا، وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ بِعِبَادَتِهَا، وَإِذَا عَبَدَهَا مِنْ دُونِهِ عَرَضَ نَفْسَهُ لِعَذَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ، فَهُوَ إِذَا بِإِيمَانِهِ بِرَبِّهِ وَبِعِبَادَتِهِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَكُونُ آمِنًا مُطْمَئِنًّا، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ.

وَبَعْدَ هَذِهِ الْأَدَلَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، الَّتِي كَشَفَتْ أَنَّ طَرِيقَتَهُ هِيَ الْحَقُّ، وَأَنَّ سُلُوكَهُ هُوَ السُّلُوكُ الْوَاجِبُ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ طَرِيقَةٌ بَاطِلَةٌ، وَأَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِآلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ ظَلَمٌ وَعُدْوَانٌ عَلَىٰ حَقِّ الرَّبِّ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجَهَ لَهُمْ سُؤَالَ عَنِ الْأَحَقِّ بِالْأَمْنِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي النَّصِّ:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وبعد أن عرض النصّ عنوانات طريقة إبراهيم عليه السلام الاستدلالية الحكيمة، الملائمة لأسلوب تفكير قومه، وعرض حججه في مجادلته لهم، أثنى الله عليه بقوله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: فبحكمته وعلمه يُمُنُّ على من يشاء من عباده بفضّل العلم والحكمة.

## النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا مَا فَنظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٣﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّلَاحِ كَيْتٌ ﴿٨٠﴾ ۞

أبان هذا النصُّ مُناظرةً جداليةً إقناعيةً جادلَ بها إبراهيم عليه السلام مشركي قومه بادئاً بآبيه أقرب الناس إليه منهم.

وقد بدأت مُناظرته لهم بأسلوب طرح الأسئلة عليهم حول الشيء الذي يعبدونه بالدعاء، وبالعكوف عليه وملازمة التوجُّه له، فقال لهم مجتمعين:

﴿... مَا تَعْبُدُونَ؟﴾ ﴿٦٧﴾ .!

أي شيء تعبدون؟

كلمة «ما» هنا استفهامية، وما الاستفهامية يُستفهم بها عن غير العاقل لبيان جنسه أو نوعه أو شخصه، ويستفهم بها عن حقيقة الشيء، أو عن صفاته وخواصه التي تميزه، أو عن المراد باللفظ إذا كان غير معلوم المراد، وهي هنا مستعملة للاستفهام عن جنس ما يعبدون في معبدهم أو عن نوعه، أو عن شخصه، فدلَّ هذا على أنه لم يكن من الذين يدخلون معبدهم ليُعلم ما يعبدون وما يفعلون في عبادتهم لها، وربما كان يعلم ولكنّه تجاهل ليُجادلهم في شأن معبوداتهم، وليكشف لهم ما هم عليه من باطل.

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ ﴿٦٨﴾ ۞

فَنَظَّلُ لَهَا: أي: فَنُداوِمُ طَوَالَ النَّهَارِ لأجل عبادتها، يقال لغة: ظَلَّ نهاره يفعلُ كذا، لا يقال مثل هذا إلا لِعَمَلِ النهار.

عَاكِفِينَ: أي: مُلازمين عبادتها، يقال لغة: عَكَفَ على الشيء يَعْكُفُ وَيَعْكِفُ عَكَفًا وَعُكُوفًا، إذا أقبل عليه ملازمًا له، لا يَصْرِفُ توجُّه نفسه عنه، كأنه حابسٌ نَفْسَهُ عليه، وهذا لَوْنٌ من ألوان عبادة العاكِفِ للمعكُوفِ عليه.

فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ: أي: فنداوم طوال النهار لأجل عبادتها عاكفين عليها، ملازمين لها ملازمة المقيم الذي أعطى توجُّه نفسه وحواسه لما هو عاكفٌ عليه.

فَأَعْضَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَوَّغَانِهِمْ وَتَهَرَّبُهُمْ فِي الإِجَابَةِ، وَانْتَقَلَ إِلَى مُحَاصِرَتِهِمْ بِسُؤَالِ صَرِيحٍ وَاضِحٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ المَرَاوِعَةَ فِي الإِجَابَةِ عَلَيْهِ:

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

كلمة «هل» يستفهم بها عن وجود الشيء أو عن وجود وصف له.

فوجه إبراهيم عليه السلام سؤالاً لهم بكلمة «هل» مستفهماً عن وجود صفة السَّمْعِ في هذه الأصنام، إذ يدعونها في عبادتهم لها، وعن وجود نفع يمكن أن يأتي من قبلها حتَّى يَدْعُوهَا فتستجيبَ لهم فتنتفعهم، أو وجود ضَرٍّ يمكن أن يأتي من قبلها حتَّى يَدْفَعُوهُ عن أنفسهم بدُعائها وعبادتها.

لكنهم لم يستطيعوا في الإجابة على استفهامه أن يدعوا بأنهم يحققون لأنفسهم بعبادتها جلب نفع أو دفع ضرر.

إنما أجابوا بالنفي أو بعدم العلم، وأبانوا أنَّهم بعبادتهم لها يُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ، فهم يفعلون بالتقليد ما كان آباؤهم من قبلهم يفعلون من دعائها والعبادة عليها، وهذا يتضمن ادعاء أن آباءهم لو لم يجدوا نفعاً لهم من عبادتها ما عبَدُوهَا.

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٦).

أي: نحن لا نرى أن عبادتها تجلب لنا نفعاً أو تدفع عنا ضرراً، بل وجدنا آباءنا يعبدونها فتحزنون نقلدهم في دعائها والعكوف عليها، ونحن نتق بأن آباءنا لم يكونوا يفعلون إلا ما فيه جلب نفع لهم، أو دفع ضرر عنهم.

حرف «بل» في عبارة ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعطف على محذوف منفي، وهو نحو ما سبق تقديره.

هنا وجد إبراهيم عليه السلام أنه ملك ضدهم الحجة الدامغة، إذا اعترفوا بأنهم لا يرون أن عبادتها تجلب نفعاً أو تدفع ضرراً، إنما يقلدون في عبادتها آباءهم، فأبان لهم أن التقليد الأعمى لا يغني من الحق شيئاً:

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾.

والمعنى: أتبعتم آباءكم بالتقليد الأعمى على غير علم ولا بصيرة، أو تعبدون أصناماً لا ترون أنها تجلب لكم نفعاً أو تدفع عنكم ضرراً، لمجرد أنكم وجدتم آباءكم يعبدونها، أفرايتهم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين.

«الفاء» في عبارة ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ فاء فصيحة، تعطف على محذوف ظهر لي بالتأمل أنه يَضْمَنُ تلويماً لهم على تقليدهم الأعمى لآبائهم، كما ذكرت آنفاً في البيان التدبري.

وبما أنهم مشركون يعبدون أصنامهم، وربما كانوا كلهم أو بعضهم يعبدون أيضاً الله رب العالمين في بعض أحوالهم، استثنى إبراهيم عليه السلام

من معبوداتهم رَبَّ العالمين، مبيّناً من صفاته الجليلة ما يدُلُّ على أنه هُوَ الإله الواحد، الذي تجب عبادته وحده، إذ لا يستحقُّ غيره أن يُعبدَ معه، ولا أن يُعبدَ من دونه.

إنَّ رَبَّ العالمين هو الذي بيده النفع والضرر، والحياة، والموت، والبعث، والحساب، وفصل القضاء، والجزاء يوم الدين.

فذكر عليه السَّلام من صفات ربِّ العالمين ذات الآثار في عبادته، أنه هو الذي خلقه، فهو يهديه إلى سُبل معاشه ومعاده، وأنه هو الذي يُطعمه ويسقيه، بما هيأ في كونه من أسباب طعام وشراب، وأنه هو الذي يشفيه إذا عرَّضَ له المرض، وتادَّبَ عليه السَّلامُ مع رَبِّه، فلم ينسُبْ إليه الأمراض، فلم يقل: **وَإِذَا أَمْرَضَنِي فَهُوَ يَشْفِينِ**، بل قال: **﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾**.

وذكر من صفاته أنه هو الذي يميتُه إذا جاء أجلُه، ثم يُحييه ليوم الحساب والجزاء، وأنه هو الذي يطمع أن يغفر له كلَّ خطيئاته يوم الدين، فألقى عليه السَّلام في آذانهم عقيدة الدينونة والجزاء في اليوم الآخر، وفتح لهم باب الرجاء بالعفو والغفران إذا آمنوا وتابوا إلى بارئهم، من خلال تعبيره عن نفسه وعن عقيدته الإيمانية.

النص الثالث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

**﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ حَاجًّا يُرْهِقَهُمْ فِي رَبِّهِمْ أَنْ ياتَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ يُرْهِقُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ يُرْهِقُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**

الَّذِينَ تَرَى إِلَى: أي: أَلَمْ تَرَ رؤيةً تفكيريةً ناظراً بها نظر متعجب إلى الذي...

حاج إبراهيم: أي: جادله فأدلى كلُّ منهما بحججه.

فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ: أي: استولت عليه حجة إبراهيم وغلبته، فانقطع وسكت متحيراً مندهشاً، يقال لغة: بهت يبهت، وبهت يبهت، إذا أخذ بالحجة فشحب لونه، وانقطع وسكت متحيراً مندهشاً.

تحليل النص:

الاستفهام في عبارة: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا يتضمن دعوة للتفكير الواضح المشابه للرؤية البصرية، في نظر فكري يستثير العجب من أمر الملك الجبار الذي جادل إبراهيم عليه السلام في ربه، مجادلةً بالباطل جعلته يبهت أمام حجة إبراهيم منقطعاً متحيراً مندهشاً.

قالوا: كان الملك الذي حاج إبراهيم عليه السلام «نمرود» ملك بابل الجبار الذي كان في عهد إبراهيم عليه السلام.

وقد دلَّ النَّصُّ على أنه جادل إبراهيم في ربه، أي: في وجود ربه، أو في صفاته، ويظهر أنه كان يدعي لنفسه أو لآلهة قومه التي يعبدونها صفات الربوبية، وقد اتخذوا لآلهتهم التي هي أربابهم أوثاناً يدعونها ويتقربون لها بالقرايين، ويظنون لها عاكفين.

وَالنَّصُّ هُنَا يَعْزِضُ لِقِطْعَةً مِنْ أَوْاسِطِ الْمُجَادَلَةِ حَتَّى آخِرِهَا، الَّتِي انْتَهَتْ بِانْقِطَاعِ «نَمْرُودٍ» وَتَحْيِيرِهِ وَدَهْشَتِهِ.

ويظهر أن سيدنا إبراهيم قد بدأ حديثه مع «نمرود» بدعوته ودعوة من حوله إلى نبد ما يعبدون من دون الله، وترك عبادتها، وإلى عبادة الرب الخالق الذي بيده الرزق والمعونة والعافية والحياة والموت، ويده البعث إلى الحياة بعد الموت للحساب والجزاء على ما يعمل الناس في الحياة الدنيا حياة الابتلاء.



فتجاهل «نمرود» بِكِبْرِهِ الرَّبَّ الَّذِي دَعَاهُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَقَدْ اسْتَكْبَرَ بِسَبَبِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ نِعْمَةَ الْمُلْكِ، فَجَعَلَ يُجَادِلُ فِي وَجُودِ رَبِّهِ أَوْ فِي صِفَاتِهِ السَّنِيَّةِ، الَّتِي تَظْهَرُ آثَارَهَا فِي تَصَارِيفِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي الْكُونِ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَكْتَشِفَ الْمَحْذُوفَ مِنَ الْحَوَارِ الْجَدَلِيِّ بِالتَّأَمُّلِ، ثُمَّ نَصِلُهُ بِالْمَذْكُورِ فِي النَّصِّ:

قال «نمرود» لإبراهيم: من هذا الربُّ الذي تدعو إلى عبادته وحده،  
ونبذ سائر الأرباب والآلهة، هل هو مما تراه العيون؟

قال «إبراهيم»: ليس شيءٌ ممَّا تراه العيون يصلح لأن يكون ربًّا أو إلهًا، وقد سبق أن أثبت لقومه أنَّ الكواكب الَّتِي اتَّخَذَهَا قَوْمُهُ أَرْبَابًا لَا يَصْحُحُ عَقْلًا أَنْ تَكُونَ أَرْبَابًا أَوْ تَكُونَ لَهَا بَعْضُ صِفَاتِ الرَّبُّوبِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ تَأَمُّلَاتِهِ فِي النُّجُومِ كَمَا جَاءَ فِي النَّصِّ الْأَوَّلِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

ويظهر أنَّ إبراهيم عليه السلام قد أبانَ لنمرود أنَّ رَبَّهُ لَيْسَ شَيْئًا مِمَّا  
يُمْكِنُ أَنْ يُدْرَكَ بِالْأَبْصَارِ.

بعد هذا نرى أن طبيعة المحاجة لا بُدَّ أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى السُّؤَالِ عَنْ صِفَاتِ  
الرَّبِّ، ذَاتِ الْآثَارِ فِي الظُّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ.

ويظهر أنَّ «نمرود» سأل إبراهيم عليه السلام قائلًا: ما هي إذن  
صفاتُ ربِّكَ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ، وَتَدْعُونَا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَإِلَى عِبَادَتِهِ  
وحده؟

قال إبراهيم: ﴿رَبِّي الَّذِي يُعْجِبُ وَيُؤْمِنُ﴾.

فلفت إبراهيم عليه السلام نظر «نمرود» ومن حوله إلى ظاهرتي الإحياء  
والإماتة في الكون، بوصفهما ظاهرتين تكشفان عَجْزَ الأحياء الكونية عن أن  
يكون شيء منها أزليًا، أو خالدًا أبدئيًا، فلا شيء منها يصلح لأن يكون ربًّا،

وأما الكائنات غير الحيّة فهي دون الأحياء في الرتبة فلا يصلح شيءٌ منها لأن يكون ربّاً .

إنّ ظاهرتي الحياة والموت ظاهرتان شاملتان لكلّ الأحياء المشهودة في الكون، وإنّ المتأمل في ظاهرة الحياة يرى أنّها من أعجب الظواهر التي تدلُّ على الرّب الخالق، إذ ما من أحدٍ غير الرّب الخالق الذي لا تُدرّكه الحواس يستطيع أن يوجد حياةً في مادّةٍ غير حيّة، وما من حيٍّ يستطيع أن يحافظ على حياته بوسيلة ما من الوسائل، فيمنع عنها الموت الذي قضاه الرّب على كلّ الكائنات الحيّة دون استثناء فيما نشاهد من أحياء .

وكان لإبراهيم عليه السلام في عرض هاتين الظاهرتين تأمّلاته الفلسفيّة، القائمة على التفكير العميق في سرّ ظهور الحياة في مادّة لم تكن حيّة، وسرّ انتهاء الحياة بالموت حتماً، إذ الموت غاية كلّ حيٍّ لم يكن حياً ثمّ كان في نظام هذا الكون .

ورأى إبراهيم عليه السلام أنّ أفكار المفكرين عاجزة عن إدراك سرّ الحياة، وعاجزة عن التوصل إلى إيجادها في المادّة الجامدة، وأنّ الحياة لا تظهر إلاّ اشتقاقاً من الأحياء بالتناسل، ضمن نظام الخالق الرّب جلّ جلاله، وبالوسائل التي حدّدها لنظام التناسل .

ورأى أنّ الموت لا يمكن دفعه متى جاء الأجل المقدّر المجهول للأحياء مهما اتّخذوا من وسائل لإبقاء الحياة .

وهنا وجد «نمرود» الملك الجبّار أنّ بإمكانه تجاهل النظرة الفلسفيّة العميقة التي نبّه عليها إبراهيم عليه السلام، ورأى أنّ بإمكانه أن يُغالط ويتلاعب في موضوع الحياة والموت، وأنّ يُقدّم صورةً قد يسمّيها الناس في مجازات العبارات إحياء، وصورةً قد يُسمّيها الناس في مجازات العبارات إماتة، كأن يعفو عن محكومٍ عليه بالموت فيسقط حكم الموت عنه، فيكون

بذلك قد أحياءه، وكان يأتي بيريء لا ذنب له فيأمر بقطع رأسه فيميتته، أو أن يتخذ أسباباً تتناسل بها مواليد، وأسباباً تموت بها أحياء.

وغرض «نمرود» أن يثبت لإبراهيم بحجة خَلْبِيَّة وهمية أن الإحياء والإماتة ظاهرتان ليستا من خصائص الرب، بل يشاركه فيهما غيره.

وفطن إبراهيم عليه السلام أن «نمرود» قد يستطيع بهذه الحيلة المُعَاظِية القائمة على التلاعب بالألفاظ والمرادفة أن يطيل الأخذ والرد في محاجته الجدلية، وقد يؤثر بها على عقول من حوله من ملأ قومه وعامتهم، ويخدعهم بالتلاعب في مفاهيم الألفاظ، فأسعفته حكمته وفطنته أن يعرض عن المحاجة في ظاهرتي الحياة والموت، ويتحول إلى عرض ظاهرة أخرى لا يستطيع «نمرود» أن يغالط فيها، فذكر ظاهرة شروق الشمس وغروبها.

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ . . ﴾

أي: إن من ظواهر ربوبية الله الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، أنه يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت ترى لغير الله ربوبية في الكون فاعمل بشخصك وبعنودك، أو ادع أربابك من دون الله، حتى أتوا بالشمس من المغرب على عكس نظامها اليومي، فالرب الذي يجعل الشمس تأتي من المشرق صباحاً لا بُد أن يكون قادراً على أن يأتي بها صباحاً من المغرب.

وبما أن «نمرود» قد اتخذ في الإجابة الأولى حيلة المغالطة القائمة على التلاعب في مفاهيم الألفاظ لإسقاط حجة إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يستطع أن يقدم بالنسبة إلى ظاهرة الشمس مغالطة مماثلة، وهو يعلم أن نظام الشمس ثابت، وأن أرباب قومه التي يعبدونها من دون الله لا تستجيب له في جعلها تُشرق من المغرب، ولم يكن أمامه إلا أن يحتار وينقطع ويبهت مدهوشاً.

قال الله عز وجل مُبَيَّنًا حالته هذه :

﴿ فَبُهِتَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَآ يَهْدِي أَلْفَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ .

قد يُقالُ : كان باستطاعة «نمرود» أن يقول لإبراهيم عليه السلام : فليأت رُبُّكَ بالشمس من المغرب ، ويردَّ عليه سؤال التحدي .

وأقول : يظهر أن «نمرود» فطن إلى أنه لو عكس على إبراهيم سؤال التحدي ، لاستطاع إبراهيم أن يسأل ربه فيأتي بالشمس من المغرب ، فإذا فعل ذلك أفسد عليه شعبه ، وجعلهم يؤمنون بما يدعوهم إليه إبراهيم ، وبهذا يفقد ملكه في قومه ، فآثر أن ينقطع في المحاجة ، ويتخذ وسائل أخرى تتناسب مع سلطانه وجبروته في بلاده ، والله أعلم .

\* \* \*

#### النصوص الرابع والخامس والسادس

١ - قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول)  
عطفًا على الكلام على نوح عليه السلام :

﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّكُمْ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ فَقَالَ أَلَا تَأْتُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَّا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونِ مَا نَنجُوهُنَّ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

وإن من شيعته لإبراهيم : أي : كان إبراهيم على ملة نوح عابه السلام

التي بقيت أصولاً اعتقادية منها معروفة عند بعض قومه، فأخذ بها واتبعها، ثم نبأه الله وبعثه رسولاً.

أَفْكَأَ آلِهَةً: الإفك الكذب، أي: آلهة تصنعونها أنتم وتكذبون بجعلها آلهة.

فراغ إلى: أي: فمال سراً إلى. فراغ عليهم: أي: فمال سراً بحركة روغان خفيفة سريعة وأقبل عليهم ضرباً. يَرْفُونَ: أي: يُسرِعون المشي.

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) عطفاً على الكلام على موسى وهارون عليهما السلام:

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ زَيْكُمُ رَبِّياً لَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٩﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَازاً إِلا كَيْدَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ قَلْبٍ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى آعِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا بَرَهَيْمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَوَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

جَذَازاً: الجذاز ما تكسر من الشيء الصلْب.

ثم نكسوا على رؤوسهم: أي: انقلبوا إلى الباطل بعد أن أدركوا أنهم الظالمون.

وأرادوا به كيداً: الكيد تدبير أمر فيه مكروه لمن دبر ضده.

٣ - وقول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) عطفاً على عرض لقطعة من قصة نوح عليه السلام وقومه:

﴿وإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا ذِكْرَكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

وبعد فاصلٍ تضمّن كلاماً يتعلّق بالمشرّكين إبان نزول سورة (العنكبوت) عاد النصّ فتابع كلاماً يتعلّق بإبراهيم عليه السلام وقومه، فقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ ﴿فَأَمَّن لَّمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

وتخلّقون إفكاً: أي: وتفترون بأصنامكم كذباً على الحقيقة إذ تجعلونها آلهة تُعبد، مع أنه لا إله يُعبدُ بحقٍ وصدقٍ إلا الله لأنه هو الربُّ وحده.

مودةً بينكم: أي: إنّما جعلتم الإيمان بالأوثان وعبادتها وتعظيمها رابطة مودة اجتماعية واصلهً بين أفرادكم. البين: من الأضداد فيكون بمعنى الفصل والانقطاع، ويكون بمعنى الوصل والاجتماع، والمعنى في النص هنا على الوصل والاجتماع فيما يظهر بالتأمل.

فالوحدة الاعتقادية ولو كانت على عقيدة باطلة تمثل رابطة من روابط  
المودة الاجتماعية.

نظرة عامة إجمالية:

هذه النصوص الثلاثة من (الصفات، والأنبياء، والعنكبوت) مع النص  
الذي سبق شرحه من سورة (الشعراء) نُصُوصٌ متكاملة فيما بينها، وهي تعبر  
عن دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه، ومجادلته لهم، واتخاذ وسيلة عملية  
لإقناعهم بأن أوثانهم التي يعبدونها ملاحظين ما تزُمُّ إليه من أشياء، لا  
تستطيع أن تنصُرَ نفسها ممن يكسرها ويحطمها ويجعلها جُذاذاً، فقد فعل بها  
إبراهيم عليه السلام ذلك عند خروج الناس إلى عيد لهم، إذ أُسْرِعَ بِحَقِّةٍ  
وخَفِيَّةٍ إلى معبدهم فجعل يكسرها ويحطمها بأداة أمسكها بيمينه حتى جعلها  
جُذاذاً قطعاً مُكسَّرةً، إلا صنماً كبيراً بينها، فقد تركه قائماً سالماً، ورُبَّما علق  
عليه الأداة الحديدية التي كسر الأصنام بها، ليُلقي عليه في أسلوب إقناعه  
الجدلي تُهَمَّةٌ أنه هو الذي حطَّم الأصنام انتصاراً لكبريائه، ثم قدّم لقومه عند  
محاكمته صورة جدالٍ تَهَكُّمِيٍّ بعقولهم وبمفهوماتهم الباطلات.

وتُبَيِّنُ هذه النصوص أن القوم قد غضبوا من عمل إبراهيم عليه السلام  
بأوثانهم، وأرادوا أن ينصروا أوثانهم المحطمة بقتله أو حرّقه.

ثم استقرّ رأيهم على تحريقه داخل بناء بينونه لهذه الغاية، يجعلونه  
بمثابة فُزْنٍ كبير يملؤونه حطباً، ويوقدونه حتى يكون جمرأً ولهبأً، وقد فعلوا،  
وساقوا إبراهيم عليه السلام مقيداً، ووضعوه على آلة أو حَمَلُوهُ بأيديهم  
وقَدَّفُوهُ من مكانٍ مُرتفع في البناء الذي صنعوه وأوقدوه.

وقال الله عزّ وجلّ للنار كوني بزداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت كما  
أمرها الله العزيز الجبار الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كُنْ فيكون.

وخرج إبراهيم عليه السلام من النار طليقاً لم تمسسه النار بأذى، وأما

الذين أرادوا تحريقه فكانوا هم الأخرسين والأسفلين .

وتابع إبراهيم عليه السلام دعوته في قومه، ومجادلته لهم زمناً يسيراً، لعلَّ آيةَ إنقاذه من الناس قد أقنعتهم بأنَّهم مُبطلون وأنَّه رَسولٌ من عند الله يدعوهم إلى الحقِّ، ويُنبتُّهم بما هو حقٌّ، ولَمَّا رأى أنَّهم قومٌ مَيْتوسٌّ من استجابتهم لدعوة الحقِّ وأذِنَ اللهُ له بالهجرة من أرضهم، أعلنَ أنَّه سيُهاجرُ، وأنَّ الله سيَهديه إلى مَهَجِرٍ مُباركٍ، وقد آمنَ به من أهله ابنُ أخيه لوطٌ عليه السلام، فخرج مهاجراً معه، ضمَّنَ من اتَّبَعه من أهله بالهجرة، وانتهت به رِحْلَةُ الهجرة إلى الأرض المقدَّسة في بلاد الشام آخر الأمر .

نظرة تفصيلية من خلال فقرات النصوص :

دلَّت النصوص على أنَّ إبراهيم عليه السَّلام تدرَّج مع قومه في أسئلته لهم عن معبوداتهم، فقد كانوا يعبدون آلهة كثيرة، وينحتون لها تماثيل .

وعند المؤرِّخين أنَّ نشأته مع أبيه وإخوته كانت فيما بين النهرين، في «أورالكلدانيين» والنهران هما دجلة والفرات، وجاء عند المؤرِّخين من أسماء آلهتهم: «بيل - نبو - مردوخ» وأنَّهم صنعوا لها أصناماً عديدة، وأنَّهم شادوا لها هياكل (أي: بيوتاً كبيرة) كالمعابد الكبيرة المعروفة عند كلِّ الأمم .

فسأل إبراهيم عليه السلام قومه بادئاً بأبيه فقال لهم كما جاء في سورة (الشعراء/٢٦): ﴿... مَا تَعْبُدُونَ﴾؟ .

أي: أي شيء تعبدون؟ وقد سبق بيان هذا لدى شرح النص .

وقال لهم كما جاء في سورة (الصافات/٣٧): ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ .

فأعاد الاستفهام بصيغة مؤكدة، دلَّ عليها إضافة «ذا» إلى «ما» الاستفهامية، لتأكيد الاستفهام قاصداً معرفة الأشياء التي ترمزُ إليها الأصنام التي يعبدونها .



ثم لما شاهد بضخبتهم الأصنام التي يعبدونها في الهيكل الذي بنوه لعبادتها، قال لهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١): ﴿... مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٦﴾ ؟ .

فاسم الإشارة «هذه» دل على أنه صحبتهم إلى معبدهم، فرأى أصنامهم وعكوفهم عليها، والاستفهام هنا موجه للسؤال عن حقيقتها، أو عن صفاتها التي تؤهلها لأن تكون معبودة .

وسألهم عن أصنامهم الأسئلة التي جاء بيانها في سورة (الشعراء/ ٢٦):  
﴿... هَلْ يَسْمَعُونَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ؟ .

فكان جوابهم التلقائي أخذاً مما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦):  
﴿قَالُوا: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٢﴾ .

أي: لا يسمعون دعاءنا ولا ينفعوننا ولا يضرُّوننا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

وعاب عليهم إبراهيم عليه السلام دعاءهم لها، وعكوفهم عليها، وأبان لهم أن هذا العمل هو عبادة لها من دون الله، وأن العبادة لا تكون إلا لله عز وجل، فأجابوه بقولهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٦﴾ .

فاعترفوا بأن أفعالهم التي يفعلونها بأوثانهم هي عبادة لها، وأشاروا ضمناً إلى أن ولاءهم لآبائهم يلزمهم بأن يعبدوا ما كان آباؤهم يعبدون .

فقال لهم إبراهيم عليه السلام كما جاء في سورة (الصفات/ ٣٧):

﴿أَيْفَاكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ .

أي: أتريدون آلهة تَدْعَى لها الإلهية بالكذب، دون الله الحق الذي لا إله إلا هو.

فما ظنُّكم بِرَبِّ العالمين، الخالق للكون، والممدد له بعطاءات ربوبيته دواماً؟. أي: هل يمكن أن يكون شيئاً من هذا الكون الخاضع لسلطان ربوبيته، فابحثوا بأفكاركم، فهل تصلون إلى ظنِّ بأن رب العالمين يمكن أن يكون شيئاً من الكون، أو أن يُمثَّل بشيء من الكون؟! وقال لهم كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِنَّ إِلَهَهُ لَئِيمٌ حَمِيمٌ ﴾

ونفهم من المطويات في النص أنهم قالوا له: كيف تعيب علينا عبادتنا لأوثاننا ونحن نُقلد بعبادتنا لها آباءنا؟! أفكان آباؤنا من قبيلنا على ضلالٍ وكلُّ عاداتنا مأخوذة عنهم؟!

فأجابهم بما جاء بيانه في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

وبما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦) مشيراً إلى آباؤهم الأقدمين:

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾

ويظهر أن قومه قد كبر عليهم أن يتهمهم ويتهم آباءهم القريبين

والأقدمين بأنهم في ضلالٍ مبين، وأن يُعلنَ عداوته لآلهتهم، فقالوا له كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

فأبان لهم أنه قد جاءهم بالحق، وأنه ليس من اللّاعبين، وأبان لهم أنه ليس شيء من آلهتهم ربًّا يستحقُّ أن يُعبَد، بل ربُّهم هو ربُّ السماوات والأرض، وهو الذي فَطَرَهُنَّ، دل على هذا ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذِكْرِ مِنْ الشَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

«بل» حرف عطف قد يعطف به على منفي محذوف وهو هنا ما سبق بيانه، أي: بل ربكم الذي يجب أن تدعوه وتعبده وخذّه هو الذي يُهْتَمَن على السماوات والأرض بربوبيته دواماً، وهو الذي خلقهنَّ ابتداءً، فلا يكون بحالٍ من الأحوال شيئاً من السماوات والأرض، بل يجب أن يكون كائناً عظيماً غيرهما حتماً، وهذا ما تدلُّ عليه براهين العقل، وأنا على ذلك كلّ من الشاهدين شهوداً فكرياً علمياً، كيف لا يكون من الشاهدين وقد نور الله بصيرته فأراه بها ملكوت السماوات والأرض، فعلم أن كلّ شيء في السماوات والأرض هو مخلوق لله عزّ وجلّ وخاشع لسلطان ربوبيته دواماً.

وهدّدَه قومه بانتقام آلهتهم منه، كما أشعر النصّ الذي في سورة (الأنعام/ ٦) وقال لهم كما جاء فيه:

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا . . . ﴿٦﴾ ﴾ .

وقال في نفسه كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِيْنَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

إنه أقسم هذا القسم بينه وبين نفسه دون أن يسمّعهم ما عزم عليه،

بدليل أنه لم يشهد عليه بهذا القول أحدٌ عند سؤالهم له عمَّن حطَّم أصنامهم .

ثم إن إبراهيم عليه السلام ترقَّب يومَ عيد لقومه يخرجون فيه إلى خارج المدينة، فدعوه إلى الخروج معهم يوم عيدهم كعادة سائر القوم، وكان قومه نجَّامين، ينظرون في النجوم، ويستخرجون من النظر إلى ظهور بعضها، واختفاء بعضها، واقتران بعضها ببعض، وافتراق بعضها عن بعض، تنبؤات غيبية مستقبلية ستحدث في الأرض أو في بعض سكانها، فأوهمهم أنه على طريقتهم في التنجيم، ليعتذر عن الخروج معهم إلى عيدهم، فنظر أمام جمع منهم ليلاً في النجوم، فأخبرهم عقب هذه النظرة الإيهامية أنه سيكون في يوم عيدهم سقيماً، لذلك هو لا يستطيع أن يخرج معهم إلى عيدهم، دلَّ على هذا ما جاء في سورة (الصفات/ ٣٧):

﴿ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٣٧﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٣٨﴾ .

فخرج القوم إلى عيدهم، وفرغت المدينة من أهلها، كما قال تعالى في سورة (الصفات/ ٣٧):

﴿ فَنَوَلُّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٣٩﴾ .

وفي يوم العيد انطلق إبراهيم عليه السلام بخفية وخفة حركة، إلى معبدهم حيث وضعوا خيرة أصنامهم التي يعبدونها، الصغار منها والكبار. وكان قومه قد وضعوا بين يدي صنামهم في الهيكل طعاماً، زاعمين أن الأصنام تنتفع بشيء ما منها كالرائحة، قال تعالى في سورة (الصفات/ ٣٧) يصف ما فعل إبراهيم عليه السلام:

﴿ فَرَأَى إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٤٠﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٤١﴾ .

فلما رآها لا تأكل ولا تنطق، أخذ بيمنه أداة تحطيم وتكسير تنكسر بها الأصنام، فأقبل عليها بخفية وخفة ونشاط وسرعة حركة، وجعل يضربها

بِيَمِينِهِ حَتَّى جَعَلَهَا جَمِيعاً مَكْسَرَةً مُحْطَمَةً إِلَّا صَنماً كَبِيراً مِنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الصافات/ ٣٧):

﴿فَرَأَعِ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾

وكما قال في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذُوداً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾

فلما رجعوا من عيدهم، ودخل بعضهم إلى المعبد رأوا أصنامهم مَكْسَرَةً مُحْطَمَةً، إِلَّا صَنماً كَبِيراً فِيهَا، فَتَسَاءَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِذْ كُنَّا الْغَافِلِينَ﴾

فجاء الجواب الظني من الذين كانوا قد سمعوا من إبراهيم عليه السلام في الأصنام أَنَّهَا إِفْكٌ، وَأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَأَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾

أي: يذكر أصنامهم التي يعبدونها بسوء، ويدعو إلى نبذ عبادتها، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فطلب ملؤهم إحضارَهُ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى آَعِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾

فانطلقَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ لِإِحْضَارِهِ مُشْرِعِينَ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الصافات/ ٣٧):

﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ بِرِفْقٍ﴾

فقبضوا عليه، وأحضره أمام جَمْعٍ حاشِدٍ في معبد أصنامهم، لمساءلته ومحاكمته، وقالوا له كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا لَهْتَآيَةَ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴾

فَجَحَدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ جُحُودًا ظَاهِرًا، لِيَلْزِمَهُمُ بِالْحُجَّةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَيُظْهِرَ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَصِرَ لِنَفْسِهَا، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَنْصِرَهُمْ، وَتَنْفَعَهُمْ بِنَافِعَةٍ إِذَا دَعَوْهَا أَوْ عَبَدُوهَا، وَأَجَابَهُمْ بِمَا جَاءَ بَيَانَهُ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ۖ ﴾

أي: لم أفعله أنا بل فعله كبيرهم هذا، وهذا جوابٌ صورته صورة الكذب، وحقيقته تهكُّمٌ بهم، واعترافٌ ضمَّنيُّ بأنه هو الذي حطَّم أصنامهم. فلما أجابهم بهذا الجواب أيقظ فيهم فكرًا ووجدانًا كانا نائمين تحت تأثير التقاليد العمياء، وكان منهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ .. ﴾ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

أي: إنكم أنتم الظالمون بعبادة هذه الأوثان، القابلة للتكسير والتحطيم دون أن تستطيع الدفاع عن أنفسها.

لكنهم لم يلبثوا بعد هذه الصَّحوة أن ضربت على رؤوسهم ونفوسهم الحمية الجاهلية القائمة على الولاء للآباء والأجداد، وحرَّكتهم الشياطين بِرَغْبَةِ الْإِنْتِقَامِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١):

﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ وَقَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾

أي: كيف تطلب منا أن نسألهم عمّن حطّمهم؟!

وهنا استغلّ إبراهيم عليه السلام الموقف، واستفاد من اعتراف قومه بأنّ آلهتهم لا ينطقون، فجادلهم بما جاء في سورة (الصفّات/ ٣٧):

﴿ قَالَ اتَّعِبُونَ مَا نَحْنُونَ ﴿٣٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

أي: وخلق أصنامكم التي تعملونها.

وبما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾ أَفَبِلَكُمْ ﴿١٧﴾ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وقام في جماهيرهم يؤكد دعوته لهم إلى الدين الحقّ بخطبة جاء بيان ملخصها في سورة (العنكبوت/ ٢٩) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقِطِعُوا لَكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

وانقطع قومه في معركة المناظرة الفكرية، ولم يجدوا أجوبةً يحاجونه بها، فتشاوروا فيما بينهم فرأوا أن يتخلصوا منه بالقتل، فإما أن يقتلوه بوسيلة غير التحريق في النار، أو بوسيلة التحريق فيها، وقال بعضهم لبعض وهو حاضرٌ محاكمتهم له: اقتلوه أو حرّقوه، كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ... ﴿٢٤﴾ ﴾ .

واستقر رأي ذوي السلطان فيهم على أن يُحرِّقوه، كما جاء في سورة  
(الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وتداولوا الرأي فيما بينهم، لبيان الطريقة التي يُحرِّقونه بها تحريقاً  
رادعاً، تَظَهَّرَ فيها هيئةُ السلطة الحاكمة، أمام الجماهير التي تجتمع لمشاهدة  
العقاب، فقدم بعضهم اقتراحاً ببناء بِنْيَانٍ في منخفض من الوادي، يوقدون فيه  
ناراً عظيمة ذات جَمْرٍ ولهب، ثم يَقْدِفُونَه فيها، كما جاء في سورة  
(الصافات/ ٣٧):

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

الْجَحِيمِ: كُلُّ نَارٍ فِي مَهْوَاةٍ شَدِيدَةِ التَّأْجِجِ .

وانتفقوا على هذا الرأْيِ، وأتموا إعداد أسباب مكيدتهم، وألقوه في  
النار التي أجبوها في البناء الذي بنوه لهذا الغرض .

عندئذٍ تَدَخَّلَتِ القُدْرَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لِحمايته كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١)  
قال الله عز وجل فيها:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

فكانت النار برداً وسلاماً عليه، فلم تؤذِه، ورُبَّمَا أحرقت قيوده فقط  
لِتحرُّرِه منها، دون أن تمسه بأذى .

لقد أرادوا به كيداً يقطع دابر دعوته، فازتدَّ كيدُهُم عليهم، فكان بنصرة  
الله له ناجياً، كما قال عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ ... فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وكان الذين أرادوا به كيداً همُ الأَخْسَرِينَ، وهم الأسفلين، كما قال الله  
عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١):



﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

وكما قال تعالى في سورة (الصفات/ ٣٧).

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٨﴾﴾

وتابع إبراهيم عليه السلام بعد أن أنجاه الله من جحيم قومه وأخرجه سالمًا يدعو قومه، بأسلوب فيه شدة على قومه وإنذار لهم بعذاب الله في النار يوم الدين، كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا يئس إبراهيم عليه السلام من استجابة قومه له، وأذن له ربه بالهجرة، أعلم قومه بأنه سيعتزلهم وما يدعون من دون الله كما جاء في الآية (٤٨) من سورة (مريم/ ١٩) وبأنه سيهاجر من أرضهم، وسيهديه الله إلى أرض مباركة يصل إليها، وقد آمن بما دعاهم إليه ابن أخيه لوط، وأتبعه مسلمًا له القيادة، وأخذ معه في الهجرة بعض أهله وانطلق مهاجرًا.

قال الله عز وجل بشأنه في سورة (الصفات/ ٣٧):

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١٩﴾﴾

وقال تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿فَمَنْ لَّمْ يَلُوطْ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦﴾﴾

ونجاه الله ولوطًا من كيد قومهم وأبلغهم بالهجرة إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وهي أرض الشام، كما قال تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿وَتَجَنَّبَهُ وُلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

## الفقرة الثالثة

صفات إبراهيم عليه السلام في ذاته وفي سياسته الدعوية

١ - وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بأنه كَانَ صِدِّيقًا أَي: كان كاملاً في صِفَةِ الصِّدْقِ وفي التَّصْدِيقِ بالحق، وفي مطابقة قوله لعمله، قال الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾.

ومن مظاهر كونه صِدِّيقًا تصديقه الرؤيا التي أمره الله فيها بذبح ولده إسماعيل.

٢ - ووصفه الله عز وجل بأنَّ قلبه مشغولٌ دوماً بتذكُّرِ الدارِ الآخرة والعمل لها، قال الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ: أي: إِنَّا صَفَّيْنَاهُمْ وَتَقَيَّنَاهُمْ مِنَ الشَّوَابِ.

بِخَالِصَةٍ: أي: بسبب صِفَةِ خَالِصَةٍ فِيهِمْ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَخْرُجُ عَنْ مِرَاضِي اللَّهِ وَالْعَمَلِ لِلدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ.

ذِكْرَى الدَّارِ: أي: هَذِهِ الصِّفَةُ الْخَالِصَةُ فِيهِمْ هِيَ ذِكْرَى الدَّارِ الْآخِرَةِ

دواماً، وذكرى الدار الآخرة دواماً تجعل الإنسان يسعى لها سعيها، ويكتفي من الدنيا بالنصيب المباح الذي لا يشغله عن العمل للآخرة ودرجاتها الرفيعة.

٣ - ووصفه الله عز وجل بأنه حليمٌ أوَّاهٌ مُنيبٌ، قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾

لحليمٌ: أي: لَصَبُورٌ كثير الأناة، ومن مظاهر حِلْمِهِ أَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُؤَخِّرَ عَذَابَ قَوْمٍ لَوْطٍ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ، وَصَبَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يُنَزِّلَ بِهِمْ عِقَاباً بَلْ اكْتَفَى بِاعْتِرَالِهِمْ وَالْهَجْرَةِ عَنْهُمْ.

أَوَّاهٌ: أي: كثير الحُزْنِ، وقيل: كثير الدُّعَاءِ، وقيل: الرحيم الرقيق، وقيل: المسبِّح، وقيل: المتأوِّه شفقاً أو فرقاً، وقيل: المتضرع الموقن بالإجابة الملازم للطاعة.

مُنِيبٌ: الإنبابة إلى الله هي الرجوع إليه بالتوبة والطاعة الكاملة، واسم الفاعل من أناب هو «مُنِيبٌ».

٤ - وكان عليه السلام جواداً كثير الإكرام لضيوفه، وكان يخدمهم ويُقدِّم لهم الطعام بنفسه، وقد يُعِدُّهُ هَوْلَهُمْ، قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ قَمَالِيثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلِ حَنِيزٍ﴾

حنيز: أي: مَشْوِيٌّ.

والآيات (٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧) من سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

٥ - ومن صفاته أنه كان شجاعاً في الحق لا يخشى في الله أحداً، ولا يخشى في الله لومة لائم قال الله عز وجل في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

٦ - أن الله عز وجل ابتلاه بكلمات تكليفية فآتمها على وفق ما طلب منه، ووفى بما عاهد الله عليه في إسلامه له .

قال الله عز وجل في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول):

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٦٧﴾ ﴾ .

وقال تعالى في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

٧ - أنه كان قوي الحجة، يجادل بالحق، وبالأسلوب الحكيم، وبالموعظة الحسنة، كما ظهر لنا في جدلياته التي سبق بيانها، وفي قول الله بشأنه في سورة (الأنعام/٦):

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

\* \* \*



الصورة الخامسة  
لقطات من سياسة شعيب عليه السلام  
في أدائه رسالات ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة شعيب عليه السلام في  
أدائه رسالات ربّه ظهرت لي ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع اعتراضات قومه عليه وجدلياتهم له  
واتهاماتهم وشتائمهم.

الفقرة الثالثة: سياسته في معالجة اضطهاد قومه له وللذين آمنوا به  
منهم.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد  
حول شعيب عليه السلام وقومه.

## الفقرة الأولى

### سياسة شعيب عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجيّ الحكيم على أنّ سياسة شعيب عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

**العنصر الأول:** بدء الدّعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدّعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونَبَذَ ما اتّخذَه قومه من آلهةٍ غيره.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ... ﴾

**العنصر الثاني:** تأكيد الدّعوة إلى عبادة الله وحده مقرونةً بالتحذير مما في اليوم الآخر من عذاب للمشركين، والإطماع بما فيه من نعيم خالدٍ للمؤمنين.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩) مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ... ﴾

وَأَرْجُو النَّيِّمَ الْآخِرَ: أي: وارقبوا ما في اليوم الآخر من ثواب تطمعون فيه، وعقاب تخافون منه.

العنصر الثالث: تأكيد الدعوة إلى عبادة الله وحده مقرونة ببيان أنه قد جاءتهم بينة من ربهم تثبت لهم صحة أنه رسول من الله إليهم.

دل على هذا العنصر قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَالِىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفِقُونَ أَبْغُذُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ (١٧٦)

العنصر الرابع: استخدام الإنذار بأسلوب العرض المشوب بالتلويح، مع بيان أنه لقومه رسول أمين، وإتباع هذا بدعوتهم إلى أن يتقوا الله، وإلى أن يطيعوه فيما دعاهم إليه.

دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

أَلَا تَتَّقُونَ؟: عرض بأسلوب الاستفهام، وهذا العرض مشوب بالتلويح.

العنصر الخامس: اهتمام شعيب عليه السلام بعد دعوة قومه إلى عبادة الله وحده، بما هم عليه من قبائح اجتماعية وإفساد في الأرض، فأمرهم بأن يوفوا الكيل والميزان، وبأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وبأن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ووعظهم ونصحهم، وأمرهم بأن يتقوا عذاب الله يوم الدين، وحذرهم من أن ينزل الله بهم عقابه المعجل في الحياة الدنيا.



دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١)  
 مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ﴿٤٤﴾ وَيَقَوْمِ أَزِفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٤٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٤٦﴾ ۝﴾

فرغهم في هذا النصّ بأنّ ما يبقيه الله لهم من بركة الأرزاق خير لهم من الظلم الذي هم فيه .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكايةً لبعض مقالات شعيب لقومه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٢١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٢٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٢٣﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْوَالِينَ ﴿١٢٤﴾ ۝﴾

وَلَا تَعْتُوا: العتوُّ أشدُّ الفساد.

الْحِجْلَةُ: الأُمَّة من الخلق والجماعة من الناس .

فحذّرهم في هذا النصّ من عقاب الله لهم على ظلمهم للناس بالتطيف في مكايلهم وموازنهم، وبالبخس، وهو تنقيص قيم الأشياء، وعلى إفسادهم في الأرض .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ  
 مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ  
 بِهِ، وَتَجْفُونَهَا عَوْجًا... ﴿٨٦﴾ .

فزاد شعيب عليه السلام لقومه في هذه المقولة، نَهَيْهِمْ عن شرِّ  
 يمارِسُونَهُ ضدَّ مجتازي بلادهم، إذ كانوا يقطعون الطريق، ويفرضون على  
 النَّاسِ المظالم، ونهَيْهِمْ عن صدِّ الذين يؤمنون عن سبيل الله.

العنصر السادس:

استخدام أسلوب تذكير قومه بنعمة الله عليهم، إذ كانوا قليلين  
 فكثرتهم، واسلوب توجيه أنظارهم إلى عقاب الله للمفسدين قبلهم وتحذيرهم  
 من أن ينزل الله بهم مثل ما أنزل بالسابقين، مشيراً إلى ما فعل الله عز وجل  
 بقوم لوط عليه السلام.

دلَّ على هذا العنصر قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧  
 مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض مقالاته لقومه:

﴿... وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْنَاكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
 الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ .

\* \* \*

## الفقرة الثانية

سياسة شعيب عليه السلام في دفع اعتراضات قومه عليه  
وجدلياتهم له واتهاماتهم وشتائمهم

١ - اعترض قومه على كونه بشراً مثلهم، ولم يكن ملكاً، دل على هذا  
الاعتراض قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

فكانت سياسته أن يُعرض عن إجابتهم لأنهم قريبو عهد بإبراهيم ولوط  
عليهما السلام، وهم يعلمون أنهما رسولان، وأنهما كانا بشرين من البشر،  
وأعرض عن شتمتهم له بأنهم يظنونهم من الكاذبين، مع أنهم لم يعهدوا عليه  
في تاريخه مع قومه إلا الصدق.

٢ - اتهمه قومه بأنه مسحورٌ سحراً قوياً، وبسبب ذلك خالف  
طريقتهم، ووجه انتقاداته ونصائحه لهم، دل على هذا الاتهام ما جاء في  
سورة (الشعراء/ ٢٦) أيضاً بياناً لبعض أقوالهم له:

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾

وكانت سياسته أن يُغضي عن اتهامهم له بهذا، فعال مُحاجته لهم،  
وسلوكة في حياته يكذبهم في هذا الاتهام.

٣ - وجداله قومه بأسلوب الاستفهام التعجبي التهكمي قائلين له كما

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلَابُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧)

وكانت سياسة شعيب عليه السلام بالنسبة إلى هذا الأمر المتعلق بمضمون دعوته له، أن يجادلهم بالحجج الدامغة.

دلّ على مجادلته لهم بالحجج الدامغة، ما تضمنه من إشارات ولوازم فكرية قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي . . . ﴾ (٨٨) !؟

وهنا لا بُدّ من أن يكونوا قد سألوه عن البيّنة التي جاءته من ربّه، ولا بُدّ أن يكون قد أجابهم عنها، وهذه العبارة تشير إلى معركة جدليّة قامت بينهم وبينه، وفي هذه المعركة لا بُدّ أن ينتصر الحقّ الذي دعاهم إليه.

أما بالنسبة إلى نصيحته لهم بأن يوفوا الكيل والميزان ولا ينقصوهما، وبأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، فيظهر أنهم قالوا له: كيف اكتسبت الأموال التي جمعتها؟ ألمّ تجمعها علىٰ طريقتنا التي تعيها علينا؟ فأجابهم بأن الله رزقه رزقاً حسناً لم يظلم فيه أحداً من الناس، وأنه ليس من شأنه أن ينهاهم عن عمل قبيح، ثم ينصرف عنهم ليعمل بما نهاهم عنه.

ويظهر أنهم سألوه: أتريد أن تكون سلطاناً علينا تفرض علينا بالقوة ما تأمرنا به وتنهانا عنه؟ فأجابهم بأنه لا يريد إلاّ الإصلاح على قدر استطاعته، واستطاعته قاصرة على الدعوة والنصح والإرشاد، وأبان لهم أنه لا توفيق له في أداء رسالته إلا بمعونة الله، لذلك فهو عليه وحده يتوكّل، وإليه وحده يرجع في أمره كلّ.

دلّ على فروع هذه المحاجات والجدليّات لقطاتٌ عنوانيّة جاءت في

سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿ قَالَ يَفْقَهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ  
أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَقْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ  
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

أن أخالفكم إلى ما: يقال لغة: خالفك إلى الأمر، إذا قصده وأنت  
منصرف عنه .

فوقف قومه منه موقف المشاققة والعداء ومحاولة القمع، فحذّرهم من  
أن ينزل بهم من عقاب الله مثل الذي نزل بقوم نوح أو قوم هود، أو قوم  
صالح، أو قوم لوط، وهم يعرفون قصص هؤلاء الأقوام .

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) أيضاً حكاية لبعض  
مقالات شعيب لقومه :

﴿ وَتَقَوُّرٌ لَا يَجْرَمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ  
صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ .

ودعاهم بعد ذلك إلى أن يستغفروا ربهم، ثمّ يتوبوا إليه، وأطعمهم بأنّه  
رحيمٌ ودود، كما جاء بعد القول السابق :

﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

فكان ردّهم عليه بأنهم لا يفقهون كثيراً ممّا يقوله لهم، في حججه  
وبراهينه، ونصائحه ومواعظه، كما جاء عقب الآية السابقة :

﴿ قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نُنْقِهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ... ﴾ .

أي: هم قد أففلوا المنافذ التي تنفذ منها أقواله إلى قلوبهم، لأنهم لا  
يريدون الاستجابة لدعوته، ولا قبول نصائحه، وإرشاداته، ومواعظه،  
وتحذيراته، وإنذاراته .

\* \* \*

## الفقرة الثالثة

سياسة شعيب عليه السلام في معالجة اضطهاد قومه له  
وللذين آمنوا به منهم

١ - آمن بشعيب عليه السلام طائفةً من قومه، فغضب الملائكة الذين استكبروا منهم، فاتخذوا ضدّ الذين آمنوا به أعمالاً اضطهادية، فكانت سياسته ضدّ هذا الاضطهاد مناظرتهم بالحجّة المنطقية، ومحاولة معالجتهم بالحكمة، وبالتحاكم إلى العقل، ودعوتهم إلى الصبر حتّى يحكم الله بحكمته بينهم وبين الذين آمنوا به.

دلّ على هذه السياسة قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قاله شعيب عليه السلام لقومه:

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١٧٧)

فطلب منهم برفق أن يصبروا إذ لا داعي للغضب والانتقام، فالذين آمنوا به هم طائفةٌ منهم، فلماذا يضطهدونهم لمجرد مخالفتهم لهم في الدين.

٢ - فلم يكن من الملائكة الذين استكبروا من قومه إلّا أن يوجهوا تهديدهم لشعيب والذين آمنوا معه، بأنهم سيطرّدونهم من بلداتهم إذا لم يتركوا دينهم الجديد الذي آمنوا به، ويعودوا إلى ملة قومهم الشركية.

فكانت سياسة شعيب عليه السلام تعتمد على طرح سؤالٍ على الملائكة

الذين استبكروا من قومه، وهو: هل قضية الانتماء إلى الدين إلزامٌ وإجبار، أم انتماءٌ إراديٌّ واختياريٌّ؟.

دلّ على التهديد والإجابة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِكُمْ أَوْ لَنَمُودَنَّ فِي مِلَّتِكُمْ سَاءَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَمَحَّ بِمِلَّتِنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاحِشِينَ ﴾ (١١٩)

أُولُو كُنُفٍ كَارِهِينَ: أي: أتجبروننا على أن نعود عن ملتنا التي آمنتنا بها، ونَدْخُلُ فِي مِلَّتِكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ لهذا؟! إنَّ الانتماء إلى الدين انتماءٌ اعتقاديٌّ قلبيٌّ لا يُمكن أن يكون بالإكراه والإجبار، ونحن حينما دعوناكم إلى دين الله الحق دعوناكم لأن تدخلوا فيه باختياركم الحرّ، ولم نجبركم، فَكَيْفَ تُجْبِرُونَنَا أنتم على أن نعود في ملتكم؟!!

على أننا إذا عُدنا مُرتدّين عن ديننا ودخلنا في ملتكم بعد إذ نجنا الله منها بالإيمان بالحقّ، فإننا نكونُ قد افترينا على الله كذباً إذ نجعلُ الله شركاء في ربوبيته، أو في إلهيته، وإذ نستبيح ما حرّم من التطفيف، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، وقطع طريق الناس ظلماً وعدواناً، وصدّ الناس عن سبيل الله.

وأعلن شعيبٌ لقومه أنه لن يترك دينه ويعود عنه ويدخل في ملتهم إلا أن يشاء الله ذلك، وهو يعلم أن الله لن يشاء ذلك.

وأعلن لهم أيضاً أنّهم إذا أصرّوا على تهديدهم له وللذين آمنوا معه فإنهم سيضربون على الأذنى، ويتوكّلون على الله.

وأخيراً توجه لربه داعياً فقال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ».

٣ - وَأَنْذَرَ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُفَّارَ قَوْمِهِ بِأَنَّهُمْ إِذَا أَصْرُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَاضْطِهَادٍ لَهُ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمْ عِقَابُهُ كَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (١٨٩) مِنْ سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) فَتَحَدَّوْهُ أَنْ يُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وَهَمَّ بِهَذَا التَّحَدِّيِّ يُؤَكِّدُونَ أَنَّهُ كَاذِبٌ وَليْسَ رَسُوْلًا مَبْعُوْثًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالُوا لَهُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٩﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ: أَي: قِطْعًا مُهْلِكَةً لَنَا مِنَ السَّمَاءِ.

فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَعَاقِبُهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَعَاقِبُهُمْ إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ مَعَاقِبَتَهُمْ، اسْتِنَادًا إِلَى مَا يَعْلَمُ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْمُقْتَضِيَةَ لِعَاقِبَتِهِمْ، إِذَا وَصَلُوا فِيهَا إِلَى حَالَةِ مَيْتُوسٍ مِنْهَا.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ قَوْلُهُ لَهُمْ كَمَا جَاءَ بَعْدَ النَّصِّ السَّابِقِ:

﴿ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

هَذِهِ الْجُمْلَةُ هِيَ آخِرُ الْمَقُولَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي قَالَهَا لَهُمْ، وَالتِّي سَبَقَ بَيَانُ مَعْنَاهَا.

٤ - وَزَادُوا فِي تَهْدِيدِهِمْ لَهُ، وَقَالُوا لَهُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):



﴿... وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا

بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾﴾ .

أي: نحنُ لا نَرُجُمُكَ إكراماً لرهطك الذين هم على ملتنا، أمّا أنتَ فليس لك كرامةٌ عندنا.

فواجههم بنضالٍ بيانيٍّ قويٍّ، وبشجاعةٍ عظيمةٍ، كما جاء في سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُوا أَبْطَرًا أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١١﴾ وَيَتَقَوَّرُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: اعملوا على المكان الاعتقادي الذي اخترتموه لأنفسكم، إني عامل على المكان الاعتقادي الذي اخترته .

٥ - ويظهر أن قومه خافوا أن يمسّوه بأذى من أجل رهطه، مع احتمال أن يكون رسولاً حقاً، فيُنزل الله بهم مثل ما أنزل بالأمم الذين أهلِكوا من قبلهم، فتوجَّهوا يهدِّدون الذين آمنوا معه بأن يُنزلوا بهم ما يكرهون من عذابٍ .

دل على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

٦ - وأخيراً استحقوا بحكمة الله إنزال العقاب المهلك لهم، فأرسل الله عليهم الرجفة، فزلزل بهم ديارهم، وأرسل عليهم سحابةً في يوم شديد الحرّ، فأظلمت، وأرسلت عليهم ناراً، وأرسل عليهم الصيحة، فأهلكهم، ونجّى شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه .

دلّ على هذه الخاتمة التعيسة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٠﴾ .  
الظُّلَّةُ: سَحَابَةٌ نَارِيَّةٌ حَارَّةٌ ظَلَلَتْ دِيَارَهُمْ يَوْمَ إِهْلَاكِهِمْ .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْعَلُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١١١﴾ فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١١٢﴾ .

كَانَ لَمْ يَفْعَلُوا فِيهَا: أَي: كَانَ لَمْ يُقِيمُوا فِي دِيَارِهِمْ، يُقَالُ لَغَةً، غَنِي بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ فَهُوَ غَانٍ .

فَكَيْفَ آسَأْتُمْ: أَي: فَكَيْفَ أَخْزَنْ .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا ﴿١١١﴾ كَانُوا لَمْ يَفْعَلُوا فِيهَا أَلَا بَعْدَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ سُمُودُ ﴿١١٢﴾ .

ويظهر أنه قد جاءتهم الظُّلَّةُ الحارَّةُ أولاً طَوَالَ يَوْمٍ أَصَابَهُمْ فِيهِ عَذَابٌ حَارٌّ مِنْهَا، وَكَانَ يَوْمًا عَظِيمًا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَدَمَّرَتْ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَتَبَعَتْهَا الصَّيْحَةُ فَأَهْلَكَتَهُمْ جَمِيعًا فَلَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدًا .

\* \* \*



## الصورة السادسة

لقطات من سياسة موسى عليه السلام

في أدائه رسالات ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة موسى عليه السلام في أدائه رسالات ربّه ظهرت لي أربع فقرات:

الفقرة الأولى: كيف تلقّى موسى عليه السلام نبوته ورسالته.

الفقرة الثانية: كيف تلقّى تكليفه أن يبلغ رسالات ربّه إلى فرعون وقومه.

الفقرة الثالثة: تعليم الله عزّ وجلّ موسى وهارون كيف يدعوان فرعون.

الفقرة الرابعة: سياسة موسى عليه السلام في أدائه رسالته وفي مواقفه الجدلية، وفي معالجته الاضطهاد.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول موسى عليه السلام وقومه في مصر.

## الفقرة الأولى

كيف تلقى موسى عليه السلام نبوته ورسالته

١ - أعدّ الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام إعداداً خاصاً للمهمة العظيمة التي قضاها وقدّر لها له، وهي دعوة فرعون وملئه والمصريين من ورائهما إلى دين الله، وقيادة بني إسرائيل العسيرين غلاظ الرقبة، الناشئين تحت سلطان الجبروت الفرعوني لحمل دين الله وتطبيقه ودعوة الناس إليه مجاهدين في سبيل الله.

فجعل نشأته في قصر فرعون، وألقى عليه محبةً منه، وصنعه على عينه جلّ جلاله، كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (طه/ ٢٠).

٢ - ولما اكتمل عقلاً ورجولةً وظهر منه العطفُ على الإسرائيليين المضطهدين في مصر، ودفعَ أحد المصريين دفعاً قوياً عن إسرائيليّ استنصر به فسقط قتيلاً دون أن يقصد قتله، ثم جاء من نصحه بأن يخرج مهاجراً لأنّ أمره افتضح، ووصل نبأ قتله للمصريّ إلى القصر، وأن ملأ القصر الفرعونيّ يأتَمرون به ليقتلوه، فخرج من مصر خائفاً يترقب.

٣ - وساقه الله إلى مدين، وزوجه إحدى ابنتي الرجل الصالح فيها، ولبت في مدين عشر سنين، وصنعه الله فيها لتلقّي النبوة وحمل الرسالة، ويظهر أنّ قضية قتله للمصريّ قد سقطت بمرور المدة حسب القانون الفرعوني، وصار باستطاعة موسى أن يعود إلى مصر، دون أن يخشى مُتابعةً قضائيّةً على ما كان منه.

٤ - فسار بأهله متجهاً إلى مصر، ولما وصل إلى قريب من جبل الطور أنس من جانب الطور ناراً، وكان أهله معه بحاجة إلى قبس من نار، قال الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٨﴾ .

جَذْوَةٌ: أي: جَمْرَةٌ ملتهبة. تَصْطَلُونَ: أي تستدفنون.

وكانت هذه النار وسيلة ربانية لجلبه إليها، حتى يكلمه الله، ويصطفيه بالنبوة، ويحمّله أعباء رسالة عظمى.

وقال الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ .

وقال الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمْوَسِيٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرَتَكَ فَاَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ .

وأبان الله له أصول الدين الأولى فقال له كما جاء عقب النص السابق:

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ .

فتردى: أي: فَتَسْقُطُ في مهاوي الضلال والشرّ والعذاب.

وقال تعالى كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ  
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴾ .

٥ - وَقَبْلَ أَنْ يُكَلِّفَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَمَلَ الرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ  
وَقَوْمَهُ، أُجْرِي لَهُ آيَاتُ نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، بِتَجْرِبَةٍ عَمَلِيَّةٍ، لِيَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ  
لِإِجْرَائِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا إِذَا وَاجَهَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ.

قال الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في بيان  
تدريبه على إجراء آيتي العصا واليد:

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَّى ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى  
غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَّى ﴿٩﴾ فَالْقَنَاطِقَ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٠﴾ .

فلما ألقاها ورآها قد انقلبت حيةً تسعى خاف منها، وولّى مذبراً ولم  
يرجع فناداه الله وقال له: لا تخف.

قال الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) حكاية لما  
خاطب به موسى:

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ  
لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١١﴾ .

وقال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى أَقْبَلْ  
وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿١٢﴾ .

كأَنَّهَا جَانٌّ: لفظ «جَانٌّ» يُطْلَقُ عَلَى حَيَّةٍ بِيضَاءٍ وَزُرْقَاءٍ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ  
الْحَيَّاتِ سَرِيعِ الْحَرَكَةِ وَالْإِهْتِرَازِ.

وقال الله عز وجل لموسى كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥

نزول):

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ﴿٢١﴾ .

سِيرَتَهَا الْأُولَى : السَّيْرَةُ : «الهيئة - السُّنَّة - الطريقة» أي : سنعيدها إلى هيئتها الأولى التي كانت عليها حين كانت عصاً . «سيرتها» لفظ منصوب بنزع الخافض .

وبعد آية العصا دَرَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى آيَةِ الْيَدِ ، وهي أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ، وهو الشَّقُّ الَّذِي فِي ثَوْبِهِ مِنْ مَكَانِ صَدْرِهِ ، فَإِذَا أَخْرَجَهَا بَعْدَ أَنْ يُدْخِلَهَا فِيهِ خَرَجَتْ يَدُهُ بِيَضَاءٍ مُتَلَأَلَةٌ مُضِيئَةٌ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ، أَي : مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ مَرَضِيَّةٍ كَالْبَرَصِ ، وَكَانَتْ تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ .

قال الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) :

﴿ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّانَا فَخَرَجْ بِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ ﴿٢٣﴾ .

واضمم يدك : أي : يدك اليمنى .

إلى جناحك : أي : إلى إبطك الأيسر ، بإدخال يدك في جيبك ووضع كفك تحت إبطك .

وقال تعالى في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) :

﴿ وَأَدْخَلْنَا يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ﴿١١﴾ .

وقال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) :

﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمْنَا إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .



اسئلك: أي: أدخل. واضمم إليك جَنَاحَكَ من الرهب: أي: وإذا شعرت أن مشاهدك رهبوا أعدّ ضمّ يدك إليك لترجع إلى طبيعتها.

هذه النصوص الواردة حول قضية واحدة في - ثلاث سُور متكاملة الدلالات فيما بينها، وإبراز التكامل فيما بينها يحتاج إلى شرح لا يتسع له هذا الكتاب.

وهكذا تلقى موسى عليه السلام النبوة والرّسالة وآيات ربّه الدالات على صدق نبوته ورسالته، يجريها الله له عند الحاجة إلى إجراءاتها.

\* \* \*

## الفقرة الثانية

كيف تَلَقَّى مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
تكليفه أن يبلغ رسالات ربه إلى فرعون وقومه

١ - بدأ توجيه الله عز وجل موسى لمهمته بقوله له بعد أن أجرى له آيتي العصا واليد، كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):  
﴿... فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٢٢)

فعرف موسى عليه السلام أنَّ مهمته مهمةٌ جليلةٌ عظيمةٌ مخفوفةٌ بالمخاطر، فقد سبق أن قتل من المصريين رجلاً، فلهم عليه ذنبٌ فكيف يواجههم بدعوة تنسف كل عقائدهم وعباداتهم نسفاً.

فوجه الله له الأمر الجازم بأن يذهب إلى فرعون، وأبان له أنه طغى، وجعل هذا الأمر مسبقاً ببناء مع أنه يخاطبه من قرب، دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩/ مصحف/ ٨١/ نزول):

﴿هَلْ أُنثِيَكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾

فعرض موسى مشكلته صراحة بعد أن كانت تختلج في نفسه، دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):  
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣)

فَاعَادَ لَهُ الْأَمْرَ الْجَازِمَ دُونَ نِدَاءٍ، أَخَذًا مِمَّا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠):

﴿ أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ أَنِّي ﴾

فَأَعْلَنَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ انصِبَاعَهُ لِلتَّكْلِيفِ، وَدَعَا اللَّهَ اذْعِيَةً رَأَىٰ أَنَّهَا تَسَاعِدُهُ عَلَىٰ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ:

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٢﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٣﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٤﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٥﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٦﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٧﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٢٨﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٩﴾ كَيْ تَسْبِحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٠﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣١﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٢﴾ .

وَأَضَافَ مُوسَىٰ تَأْكِيدًا حَوْلَ تَرْشِيحِهِ أَخَاهُ هَارُونَ لِيُشَارِكَهُ فِي أَمْرِهِ، مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٨﴾ .

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَهُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٢١﴾ .

وَذَكَرَهُ بِمَا ائْتَمَنَ بِهِ عَلَيْهِ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَكَيْفَ أَنْجَاهُ مِنَ الْقَتْلِ وَجَعَلَ أَهْلَ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِي يَرْبُونَهُ .

وَطَمَّأَنَّهُ بِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْفٰلِغُونَ ﴿٢٩﴾ .

وَبَعْدَ هَذِهِ الطَّمَّانَةِ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَىٰ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿٤١﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٢﴾ .  
وَلَا تَنِيًّا: أي: وَلَا تَضَعُفًا وَلَا تَكِلًا.

وأوحى الله إلى هارون وجعله مع أخيه موسى نبياً ورسولاً.

ودخل موسى عليه السلام وأهله معه إلى مصر، واجتمع بأخيه هارون، وتشاورا في الوسيلة التي يدخلان بها على فرعون وعنده حاشية القصر ووُزَرَآؤُهُ وَمَلْؤُهُ، وهما يعلمان ما لفرعون ورجال دولته من جبروت وسلطان في مصر مخيف، ولا سيما بالنسبة إلى بني إسرائيل المضطهدين، فعرضاً هذه المشكلة على رَبَّهِمَا، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ ﴿٤٣﴾ .

أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا: أي: أَنْ يَسْبِقَنَا بِالْقَوْلِ فيقطع علينا طريق المخاطبة، ولا يسمح لنا بها مهما تَلَطَّفْنَا بِالْخَطَابِ وَوَاجَهْنَاهُ بِلِينِ الْقَوْلِ. يقال لغة: فَرَطَ فلانٌ على فلانٍ في القول، إذا أَسْرَفَ وَتَقَدَّمَ، ولم يَدْعُ لَهُ مَجَالاً ليقول ما يريد.

أَوْ أَنْ يَطْغَى: أي: أَوْ أَنْ يَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فَيَطْرُدَنَا أَوْ يُنْزِلَ بِنَا الْعِقَابَ، إذا تَجَرَّأْنَا عَلَى مَخَاطَبَتِهِ بما يكره من دعوة إلى الحق الذي يخالف ما عليه هو وقومه.

فأجابهما الله عز وجل بما جاء في سورة (طه/ ٢٠) أيضاً:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ﴿٤٤﴾ .

فحملا الرسالة بِقُوَّةٍ وَثَبَاتٍ وَجُرْأَةٍ.

\* \* \*

## الفقرة الثالثة

### تعليم الله عز وجل موسى وهارون كيف يدعوان فرعون

بعد أن عرف موسى وهارون أنهما نبيان ورسولان، وأنهما مأموران بأن يتوجَّها إلى فرعون ملك مصر المستبد المستكبر، وبأن يدعوا إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما هو وقومه عليه من شرك، والإذن لهما بأن يخرجوا بني إسرائيل من مصر، أبان الله لهما الأسلوب الحكيم الذي ينبغي أن يخاطبا به فرعون، فقال عز وجل لهما كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ أَذْهَبًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٦﴾ فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وأبان الله لموسى أنه هو المسؤول الأول عن توجيه الخطاب لفرعون، باعتبار أنه الرسول الرئيس، وهارون الرسول الوزير، فعلمه العبارة التي تتضمَّن القول اللين، فقال له كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴿١٩﴾ فَنَخْشَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾.

عبارة فيها غاية الرفقة واللين، فمع بيان الله عز وجل عن فرعون بأنه طغى، لم يأذن في دعوته إلى دين الله بأن يخاطب بجفاء وغلظة وعنف، لما في هذا من التنفير، مع أن المطلوب في الدعوة الإيناس والترفق واتخاذ الوسائل المحببة الجذابة للقلوب.

ولدى تحليل عبارة: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾ (١٨) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (١٩) ﴿نُلاحِظُ أَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ طَوِيلَةٍ فِيهَا عَرَضٌ غَايَةٌ فِي الرَّفْقِ، بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ، لَا بِأَسْلُوبِ الْأَمْرِ.

كان من الممكن أن يقول له: تَرَكَ، بصيغة أمرٍ دون مُقَدِّمَةٍ. أو هَلْ تَتَرَكَ، على طريقة العرض بالاستفهام. أو هَلْ لَكَ أَنْ تَتَرَكَ، بإضافة عبارة «لك».

لكن العبارة جاءت مشتملة على مقدّمة هي أطول ما يمكن من مقدمات في أسلوب عِبَارَةٍ عربية، قبل الوصول إلى المطلوب في العرض، فلفظ «هل» كلمة. ولفظ «لك» كلمتان. ولفظ «إلى» كلمة. ولفظ «أن» كلمة، والمطلوب جاء بصيغة الفعل المضارع، لا بصيغة فعل الأمر، لأنّ الكلام مبني على العَرَضِ التَّخْيِيرِيِّ بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ.

هذا النموذج التعليمي يُشْعِرُنَا بما يجب أن يُخَاطَبَ به الداعي إلى سبيل رَبِّهِ، ذَوِي السُّلْطَانِ أو المَكَانَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي أَقْوَامِهِمْ.

وَيُخْطِئُ كَثِيرٌ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ حِينَ يُوَاجِهُونَ المَدْعُوِّينَ بما يجعلهم ينفرون من الأمر والنهي، ومن الأساليب الجافية والخشنة، التي لا لِينَ فِيهَا وَلَا رِفْقَ.

ويجب أن يتَّخِذَ الناصحون والوعاظ والمرشدون أسلوب الرفق واللين، ولو كانوا يُخَاطَبُونَ عَصَاةَ المُسْلِمِينَ، لأنّ هذا الأسلوب هو الأسلوب الأصح لبلوغ المقصود، من العنف والغلظة والمخاشنة في الخطاب.

وأبان الله عزّ وجلّ تفصيلاً عناصر مطلوبهما من فرعون، قال تعالى في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَأَنبِأَهُمْ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْمُدَّثَّةَ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

فجاء في هذا البيان الدّعوة إلى الإيمان بالرّبّ وتوحيده، والإيمان بالدينونة والجزاء يوم الدين على سلوك الإنسان في رحلة الحياة الدنيا، رحلة الابتلاء، والإيمان بالنّبوة والرسالة، بمقتضى ما معهما من آية ربّانية خارقة، فما جاء به قد تلقّياه وحيّاً من عند الله ربّ العالمين .

\* \* \*

## الفقرة الرابعة

سياسة موسى عليه السلام في أدائه رسالته  
وفي مواقفه الجدلية وفي معالجته الاضطهاد

ذهب موسى وهارون وتلطفًا في الدخول على فرعون وَأَدْيَا رسالتهما  
برفق ولين كما أمرهما الله عز وجل وَعَلَّمَهُمَا .

لقد يَسَّرَ الله لهما الدخول إلى مجلس فرعون، وبدأ موسى عليه السلام  
مخاطبة فرعون بقولٍ لَين كما علمه الله، وقال له: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .

ويظهر أنه لم يعترف بأن له رَبًّا فاستنكر ذلك، فقال له موسى عليه  
السلام كما جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣/ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿... فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

وقال له كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩/ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ .

وطلب منه مع ذلك أن يُزِيلَ معهما بني إسرائيل ويعودا بهم إلى  
فلسطين .

أجابه فرعون بما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧  
نزول):

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ  
وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ .



أي: من الجاحدين للنعمة التي أنعمنا بها عليك .

فأجابه موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ فَعَلَيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: من الجاهلين الذين لا علم عندهم ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّيْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي ﴾ أي: رب العالمين ﴿ حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ .

أي: إن الذي ألجا أمي إلى أن تضعني وأنا مولود جديد في صندوق وتزيمي بي في النهر، هو أنك جعلت بني إسرائيل الأحرار عبيداً لك، فجعلت تقتل الأبناء من المواليد، وتستحيي البنات فلا تقتلن لتسخرهن في الخدمة متى صرن نساء قادرات على الخدمة، ولولا رغبة أهلك في أن أنفعهم أو أن يتخذوني ولدأ لهم لذبحتموني مع سائر من ذبحتم من مواليد بني إسرائيل، أفهذه تضلح لأن تكون نعمة تمُنُّها علي؟! .

وأعاد موسى عليه تأكيد أنه رسول من رب العالمين، فقال له كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . . . ﴿٢٢﴾ .

حَقِيقٌ: أي: إني رسول من رب العالمين حَقِيقٌ، بمعنى مُصَدِّقٍ ومُؤَيِّدٍ ومُتَّبِعٍ مِنْ قِبَلِهِ، فإنا رسول حق وصِدق على أن لا أقول على الله إلا الحق .

وهنا لا بد أن يسأل فرعون موسى عن ربهما فسألهما كما جاء في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ ﴿٢١﴾ .

أجابه عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٥﴾ ﴾ .

أي: رَبُّنَا الذي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في هذا الكون، ومن بَدِيعِ خَلْقِهِ أَنَّهُ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صِفَاتِ خَلْقِهِ في ذرَّاتِهِ الأُولَى، وغرَّسَهَا في فِطْرَتِهِ، ثُمَّ هَدَاهُ لِلسَّيْرِ في حَرَكَاتِ وَجُودِهِ عَلى مَقْتَضَاهَا بِدَقَّةٍ مُتَّنَاهِيَةٍ، مَعَ إِمدَادِهِ دَوَاماً بِمَا يَتَطَلَّبُهُ بَقَاءُ وَجُودِهِ .

ثُمَّ سَأَلَهُ عَمَّا حَذَّرَهُ مِنْهُ، وَهِيَ الدِّينُونَةُ وَالْجِزَاءُ بَعْدَ المَوْتِ وَالبَعْثُ إِلى يَوْمِ الحِسَابِ وَالجِزَاءِ، فَسَأَلَهُ عَن أَحوَالِ أَهْلِ القُرُونِ الأُولَى، الَّذِينَ مَاتُوا وَتَعَرَّضُوا لِلْفَنَاءِ، وَاخْتَلَطَتْ أَجْسَادُهُمْ في تَرَابِ الأَرْضِ:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴿٥٦﴾ ﴾ .

فَأَجَابَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِهَا عِلْماً تَامّاً شَامِلاً، وَأَنَّ عِلْمَهُ سَبْحَانَهُ مَدُونٌ في كِتَابٍ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ اللّهَ لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَى، وَأَبَانَ لَهُ مِنْ ظَوَاهِرِ عِلْمِ اللّهِ وَقُدْرَتِهِ في خَلْقِهِ مَا يَثْبُتُ أَنَّ إِحْيَاءَ الأَجْسَادِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَمَا فَنِيَتْ أَمْرٌ هَيِّنٌ عَلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي في كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٦﴾ ﴾ .

وَأَبَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ أَيضاً مَضْمُونِ قَوْلِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّالِي مِنْ سُورَةِ (طه):

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَشْجَارًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٧﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمُ إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٨﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٩﴾ ﴾ .

بَعْدَئِذٍ سَأَلَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَن رَبِّ العَالَمِينَ، الَّذِي يُحَدِّثُهُ عَنْهُ، فَطَرَحَ عَلَيْهِ مَا جَاءَ في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦) مَصْحَفٍ/ ٤٧ (نزول):

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

أي: وما معنى رَبِّ العالمين؟ أو: وما حقيقة رَبِّ العالمين؟ هذان احتمالان يمكن أن تُفسَّر بهما أو بأحدهما النص.

● فعلى الاحتمال الأول وهو: ما معنى «رب العالمين»؟ يكون فرعون قد سأل موسى عليه السلام عن شرح هذا اللفظ المركب من كلمتين.

إن فرعون لا يجهل معنى كلمة «رب» ولا معنى كلمة «العالمين» لكنه سأل عن اللفظ المركب منهما.

فشرح له موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

فأتتهم فرعون بالجنون، لأنه ذكر أن السماوات والأرض وما بينهما خاضعة لسلطان رب واحد، وهو يتصور أن الكائنات يتحكم بها أرباب متعددون، وهو رب إقليم مصر.

فتنزل موسى عليه السلام إلى مستوى إدراك فرعون، فقال له ولملكه: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: هو المتصرف بعمليّات الخلق والتدبير في هذه الأرض من مشرقها إلى مغربها، ومن ذلك حدود سلطانتك في مصر يا فرعون.

عندئذ استكبر فرعون حين فهم مراد موسى عليه السلام، فقال له:

﴿لَيْنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ﴾.

أي: لئن اتخذت معبوداً غيري.

● وعلى الاحتمال الثاني وهو: ما حقيقة رَبِّ العالمين؟ نلاحظ أن موسى عليه السلام قد أجاب فرعون ببيان أظهر فيه ربوبيته في خلقه، ولم يُجِبْه عن حقيقة ذاته.

﴿ قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

أي: هو خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومُؤمِّدُهَا بَعْطَاءَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ دَوَامًا، وَالْمُتَصَرِّفِ فِيهَا.

فَالْتَفَتَ فِرْعَوْنَ مُخَاطِبًا مَنْ حَوْلَهُ:

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

اسْتَفْهَامِ تَعَجُّبِيٍّ، أَي: أَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ حَقِيقَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي يَدْعِيهِ، فَيَجِيبُنِي بِتَفْصِيلَاتٍ لِعِبَارَةِ: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» لَا بَيَانَ حَقِيقَةَ ذَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَتَابَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

لَقَدْ أَعْرَضَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ بَيَانِ حَقِيقَةِ ذَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِأَنَّ ذَاتَهُ لَا تُدْرِكُ، وَلِأَنَّ حَقِيقَةَ ذَاتِهِ تَعْجِزُ الْعُقُولَ عَنِ مَعْرِفَتِهَا وَتَصَوُّرِهَا، فَيَجِبُ التَّوَقُّفُ عِنْدَ إِدْرَاكِ آثَارِهَا، وَهَذَا أَمْرٌ يَكْفِي الْعُقْلَاءَ.

فَاسْتَعْلَلَ فِرْعَوْنَ عَدَمَ إِجَابَةِ مُوسَى عَنِ حَقِيقَةِ ذَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُؤَثِّرًا الْاِكْتِفَاءَ بِبَيَانِ آثَارِهِ فِي خَلْقِهِ، فَاتَّهَمَ مُوسَى بِالْجُنُونِ:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٧﴾ ﴾

تَعْبِيرٌ سَخِرَ بِهِ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمِنْ رِسَالَتِهِ، وَأَشْعَرَ فِرْعَوْنَ بِهَا مَنْ حَوْلَهُ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعِي أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِنْسَانٌ مَجْنُونٌ.

فَتَابَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ تَفْصِيلَاتٍ أُخْرَى مُشِيرًا إِلَى أَنَّ الْعُقْلَاءَ يَكْتَفُونَ لِإثْبَاتِ الذَّاتِ بِآثَارِهَا الْمَشْهُودَةِ، وَلَوْ كَانَتِ الذَّاتُ غَيْرَ مَشْهُودَةٍ، وَلَا مَعْرُوفَةٍ الْحَقِيقَةِ:

﴿ قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٨).

هنا وجّه فرعون أمره السلطاني الجازم:

﴿ قَالَ لِيِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴾ (٢٩).

عندئذ جاء الوقت المناسب ليعرف موسى عليه السلام فرعون وملاه بما لديه من آيات بُرْهَانِيَّةٍ تُبَيِّنُ أَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ مَبْعُوثٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ:

﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مِّمِّينَ ﴾ (٣٠).

فلم يكن من فرعون إلا أن يطلب من موسى أن يأتي ببرهان صدق كونه رسول رب العالمين:

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣١).

وكما جاء في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول) أيضاً:

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ حِجَّتَ بِتَأْيِيدِ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٢).

عندئذ جاء دُورُ إظهارِ الآيَاتِينِ الخارقَتَيْنِ اللّتين آتاها الله له:

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فأصيب فرعون وملؤه بالدهشة، وأسرع فرعون ليتدارك الموقف، وتحدث بما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧/ نزول):

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

بِسِحْرِهِ... ﴿٣٥﴾ ﴾.

وردد الملاء في مجلس فرعون مقالته كما ألقاها، قال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ

مِنْ أَرْضِكُمْ... ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال فرعون كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً

لملئه:

﴿... فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (١١١).

وكذلك في الآية (٣٥) من سورة (الشعراء/ ٢٦).

أي: اقترحوا عليّ ماذا تفعل.

وبعد أن تداول أهل مجلس فرعون الرأي بينهم قالوا لسيدهم فرعون

كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٢٦) يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَحَابٍ

عَلِيمٍ﴾ (٣٧).

وكما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١١١) يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (١١١).

وقرئ «سَحَار» كما في الشعراء.

وبين القراءتين والنَّصِين تكامل، أي: ينبغي حشر كل سحارٍ وساحر.

أَرْجِهْ: أي: أرجئه بمعنى أخره وأنظره، حَتَّى تُعَدَّ لَهُ السَّحَرَةَ الْمُنَافِسِينَ

له في سحره.

حَاشِرِينَ: أي: جنوداً جامعين، يجمعون السحرة من مدائن مصر.

فلما استقرّ الرأي على إجراء مباراةٍ بينه وبين سحره مصر، توجه فرعون

لموسى، فقال له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى﴾ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (٥٨).

مكاناً سُوءٍ: أي: مكاناً متوسطاً يَسْتَوِي فيه موقفك وموقف سَحَرَتْنَا.

فأجابه موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ مُجَشَّرَ النَّاسِ ضُرِحِي ﴾ (٥٩).

يوم الزيتة: قد كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون.

وجمع جنود فرعون له السحرة من كلِّ مدائن مصر، ولما حَضَرُوا إلى العاصمة الفرعونية، وعرفوا المهمة التي حُشِرُوا مِنْ أَجْلِهَا كان من أمرهم ما جاء بيانه في سُورَةِ (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَمُنَّ ۖ قَالُوا نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ ﴾ (١١٨).

وعلم موسى عليه السلام بحضور السحرة استعداداً ليوم المباراة، ورأى من واجبه أن يَدْعُوهُمْ إلى دين الله ويحذّرهم من عذاب الله قبل أن يَتَصَدَّوْا لمباراة آيَةِ الرِّبَانِيَّةِ بسحرهم الذي لم يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ وَسَائِلِ تَخْيِيلٍ لِلأَبْصَارِ مشاهد لا حقيقة لها في الواقع، فقَدِمَ إليهم ودعاهم وَنَصَحَهُمْ، وقال لهم ضمن ما حدّثهم به ما جاء بيانه في سُورَةِ (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول):

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ (١٦).

فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ: أي: فيستأصلكم بعذابٍ متلاحقٍ.

فاختلف السحرة فيما بينهم بعد أن وَجَّهَ موسى عليه السلام لهم عبارات التُّصْحِ والتَّحْذِيرِ من عذاب الله، وبعد التنازع في مجلس سُرِّي جَرِي بينهم انتصر الرأي القائل: إن موسى وهارون ساحران يريدان أن يُخْرِجَا المِصْرِيِّينَ من أرضهم، ليكون بنو إسرائيل هم أصحاب الحكم والسلطان فيها، واتفقوا

على أن يكون عملهم مجتمعاً غير مفكك، قال تعالى في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿١٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿١٤﴾ ﴾ .

وجرت المباراة بين سحرة فرعون وبين موسى عليه السلام، في الموعد المحدد، كما وصف الله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءَهُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغلبوا هنالك وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ ۞ .

وكما وصف الله في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالُوا: يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَٰئَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿١١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِآءَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَىٰ ﴿١١٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿١١٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١١٨﴾ وَالْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ ﴿١١٩﴾ ۞ .

هذان النضان متكاملان فيما بينهما وفق منهج القرآن في عرض أحداث القصة الواحدة، بتنزلات متعددة وأزمان متباعدات، الأمر الذي يعجز البشر عن ضبطه ومنع الاختلاف عنه، مع ما في كل تنزّل من فنيّة إبداعية تعتمد على الحذف ومراعاة المناسبة.

وبعض المحذوفات قد يستطيع المتدبر إدراكها باللوازم الفكرية.

ولما ابتلعت آية موسى ابتلاءاً حقيقياً كلّ أدوات سحرهم، رجّع



السِّحْرَةَ إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ، وَتَذَكَّرُوا كَلِمَاتِ مُوسَىٰ الدَّعَوِيَّةَ، الَّتِي دَعَاهُمْ بِهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَحَذَّرَهُمْ بِهَا مِنْ أَنْ يُسْحِتَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ، جَزَاءِ افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ، وَمَنَاصِرَتِهِمْ بِاطِّلَ فِرْعَوْنَ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ جَمِيعاً بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَلْقَى السِّحْرَةَ سَجْدِينَ ﴿٣٩﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ونظيره ما جاء في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

هذا التحوُّل المفاجيءُ في موقف السِّحْرَةِ مِنْ عَدُوِّ مُنَافِسٍ، إِلَى مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ مُتَابِعٍ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ، أَغْضَبَ فِرْعَوْنَ غَضَباً شَدِيداً، فَقَدْ انْقَلَبَ سِلَاحُهُ عَلَيْهِ، فَبَدَّلَ أَنْ يَكُونَ فِي يَدِهِ ضِدَّ مُوسَىٰ، صَارَ فِي يَدِ مُوسَىٰ ضِدَّهُ، وَأَسْعَفَتْهُ حِيلَتُهُ أَنْ يَتَدَارَكَ الْمَوْقِفَ أَمَامَ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ بِأَنْ يَتَّهَمَ السِّحْرَةَ بِأَتَّهَمَ تَلَامِيذُ مُوسَىٰ فِي السِّحْرِ، وَأَنَّهُ هُوَ كَبِيرُهُمْ، وَقَدْ تَوَاطَؤُوا مَعَهُ عَلَى أَنْ يَفْتَعَلُوا هَذِهِ الْهَزِيمَةَ لِيَكُونُوا شُرَكَاءَ مَعَهُ فِي حُكْمِ مِصْرَ، بَعْدَ طَرْدِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودِهِ مِنْهَا، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُضِلَّنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

وما أبانه الله في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول) مع التكامل في المعنى بين النصين:

﴿قَالَ ءَأَمَّنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَايِبُ لَكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُضِلَّنَّكُمْ فِي جُدُوعٍ لَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾﴾.

أَمْتُمْ لَهُ: أي: أَمْتُمْ بِهِ وَأَسْلَمْتُمْ لَهُ.

وَأَصْلَبْتُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ: أي: وَأَصْلَبْتُمْ مُبْتَأَ أَجْسَادِكُمْ بِمَسَامِيرٍ تَدْخُلُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ.

لكن إيمان السحرة قد كان إيماناً قوياً مُتَعَلِّغاً في عمق أفئدتهم، وقد شعشت في أعماقهم أنواره، بعد أن رأوا أن آية موسى آية حقيقية ربانية، وليست خداعاً بصرياً، فلم يكثرثوا لما سيُنزل فرعون بهم من عذاب، طمعاً في أن يحميهم الله من عذاب جهنم يوم الدين، ويجعلهم في جنات النعيم خالدين، فكان ردُّهم جميعاً على فرعون ما أبانه الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَيْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٦﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقِي ﴿٧٧﴾ ﴾

وما أبانه الله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مع التكامل في المعنى بين النصين:

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٧٦﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا آتَاءَ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبِّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

ونفذ فرعون في السحرة ما توعدَّهم به، ليُبقي لنفسه المهابة في مصر، ويظهر أنه خاف في قرارة نفسه أن يمسَّ موسى بسوء، فيبطش به ربُّه فيهلكه.

قال تعالى في سورة (الأعراف):

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْنَاهُ وَمُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَهُ وَءَايَاتُكَ قَالَ سَنَقْدِلُ أَتَاءَهُمْ وَنَسْتَعِجِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وصبر موسى عليه السلام سنين يدعو إلى دين الله في مصر، فما آمن به

إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَجْرَى اللَّهُ لَهُ آيَاتِ الطُّوفَانِ وَالْجِرَادِ وَالْقَمَلِ وَالضَّفَادِعِ وَالذَّمِّ آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرِمِينَ .

قال الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴾ ﴿٢٨﴾ .

وقال الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥٩/ نزول) بشأن موسى عليه السلام:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُؤْتَمِرٌ ﴾ ﴿٧٦﴾ .

فأجابهم موسى عليه السلام كما جاء فيها:

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ .

أي: أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر، وأشار إلى ما جاءهم به من آيات خوارق عظمى فقال لهم: أسحر هذا. وبعد ذلك حاول إقناعهم بحقيقة مُجَرَّبِيَّة، وهي أن الساحرين لا يفلحون، فقال لهم: وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ .

فاتهموه بأن هدفه من دعوته أن يكون له ولاخيه العظمة والسلطان في مصر، كما جاء فيها أيضاً:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ .

فأعرض عن اتهامه هذا لأنه يطالب بالإذن لبني إسرائيل بأن يخرجوا معه من مصر، ويتركوا لهم أرضهم .

وواجهه فرعون في إحدى المرات بقوله له كما جاء في سورة (الإسراء/ ١٧/ مصحف/ ٥٠/ نزول):

﴿... إني لأظنك يَمْوَسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١٢١).

فَرَدَّ عَلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَجَرَاةٍ وَثِقَةٍ بِاللَّهِ، مَبِينًا لَهُ أَنَّهُ عَالِمٌ فِي قَرَارَةِ قَلْبِهِ أَنَّ مَا جَاءَهُ بِهِ إِنَّمَا هُوَ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ اتِّهَامَهُ لَهُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ بِتَهْدِيدِهِ لَهُ بِأَسْلُوبِ الظَّنِّ بِأَنَّهُ مَثْبُورٌ، أَي: هَالِكٌ.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعُونَ مَثْبُورًا﴾ (١٢٢).

وتولَّى فرعون بركنه في قصره وقال عن موسى: ساحر أو مجنون، أي: ساحرٌ في آياته الخارقات، ومجنون في تجرّته على سلطان فرعون، كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (الذاريات/ ٥١).

ومع طول الزمن وإمهال الله عزّ وجلّ لفرعون وجنوده، نما شعورُ العظمة والكبرياء في نفس فرعون فنادى في ملكه أَنَّهُ هُوَ إِلَهُ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ فِي الْأَرْضِ، وَسَيَتَّخِذُ الْوَسَائِلَ لِيُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ فِي السَّمَاءِ، عَلَى أَنَّهُ يَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْرِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطِيعُ إِلَهَ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٨)  
وَأَسْتَكَبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلٰهِنَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٩).

ونظيره جاء في الآيتين (٣٦ - ٣٧) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) وفي هذا تحايلٌ من فرعون على شعبه ليظهر نفسه بصورة الباحث عن الحقيقة.

وزاد إمهالُ الله له وزاد تنكيههُ ببني إسرائيل وإذلالهُ لهم، لكنته كان يَحْشَى أَنْ يَمَسَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ بِسُوءٍ، لِثَلَا يَبْطِشَ بِهِ إِلَهُهُمَا الَّذِي فِي

السَّماء، وازدادَّ شعورُ العظمة والكبرياء في نفسه، فحشَرَ جماهير المصريين في يوم جامع، ونادى فيهم: أنا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى.

لم يكتف بمقولته الأولى التي زعم فيها أَنَّهُ الإله المعبود في مصر، بل ضرب في رأسه جُنُونُ العظمة فزعم أَنَّهُ رَبُّهُمْ الْأَعْلَى، وقال لملئه: ذروني أقتل موسى وليدعُ رَبَّهُ، كما جاء في الآية (٢٦) من سورة (غافر).

فأهلكه الله هو وجنوده غرقاً في البَحْر الذي عَبَّرَهُ مُوسَى وقومه بمعجزة خارقة فَرَّقَ اللهُ له فيها البحر، وجعل له في داخله طريقاً يَبْسَأُ.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بشأن فرعون:

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ﴾.

الآخرة: هي قوله: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى».

والأولى: هي قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» كما جاء في الآية (٣٨ من سورة القصص/ ٢٨).

نكال الآخرة والأولى: النكال، العقاب الشديد الرادع، إمَّا للمنكَلِ به، وإمَّا لغيره من الذين يَعْتَبِرُونَ به.

خاتمة:

أما الاضطهاد الذي تعرَّض له من آمن به من قومه، من بني إسرائيل، من قبل فرعون وجنوده فقد عالجه موسى عليه السلام بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: توصيتُهُم بالصَّبْر وتحمّل الأذى، واحتساب الأجر عند الله، مع الاستعانة بالله.

الوسيلة الثانية: وعدهم بأنَّ الله عزَّ وجلَّ سَيَسْتَخْلِفُهُمْ فِي الْأَرْضِ،

فيكونون فيها ذوي قوة وحكم وسلطان .

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩

نزول):

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ  
عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ  
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ  
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

\* \* \*



## الفصل الثاني

### نماذج دعاة من غير الرُّسل عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتهم لدينه

وفيه مقدمة وسبعة نماذج:

النموذج الأول: دعوة مؤمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى عليه السلام ولدعوته.

النموذج الثاني: دعوة مؤمن أصحاب القرية التي جاءها مرسلون ثلاثة، وانتصاره لهم ولدعوتهم.

النموذج الثالث: دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الجنّ).

النموذج الرابع: دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الأحقاف).

النموذج الخامس: صورة من دعوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر.

النموذج السادس: قصّة قارون والدعاة من بني إسرائيل، وفيها صورتان:



- ١ - صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغى على قومه .  
٢ - صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنهم  
مظاهر الحياة الدنيا التي آتاها الله لقارون .

النموذج السابع: قصة الرجلين المتحاورين صاحب الجنتين المستكبر  
بهما وبولده المنكر ليوم الدين، والآخر المؤمن الذي لم يؤت سعة من المال  
والولد .

\* \* \*

## مقدمة

جاء في القرآن المجيد عرضُ نماذجٍ من دُعوَةِ دُعاةِ مؤمنين، دَعَوْا إلى دين الله، وَنَاصَرُوا رُسُلَهُ، وهؤلاء الدُّعاة ليسوا بمرسلين ولا أنبياء.

وقد جاء في بيان قِصَصِ هَؤُلاءِ ذِكْرُ دَعْوَتِهِمْ وحوارهم للمدعويين من قِبَلِهِمْ، وبالتأمل الَّذِي يَقُومُ على الاستعانة بالله وَفَتْحِهِ، يُدْرِكُ المتدبِّرُ أَنَّ الحكمة من ذكر قِصَصِ دَعْوَتِهِمْ في القرآن المجيد المحفوظ بحفظ الله، وَالَّذِي لا يَأْتِيهِ الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تحقيقُ عِدَّةِ أهدافٍ:

الهدف الأول: تسجيلُ الثناء عليهم في آيات تُتْلَى في القرآن المجيد، وَيُتَعَبَّدُ بتلاوتها.

الهدف الثاني: توجيه أنظار المؤمنين للاقتداء بهم في جهاد الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الهدف الثالث: إقرار طرائقهم في الدعوة والحوار، إذ جاء عَرَضُهَا في مَعْرِضِ الثناء، دون إشارة إلى ما هو أَحْسَنُ أو أَفْضَلُ منها.

وفيما يلي ذكرٌ لِلنُّصُوصِ الَّتِي اشتملت على هذه النماذج، مع نظراتٍ تَدْبِيرِيَّةٍ تحليلية، واستنباطاتٍ لما يَحْسُنُ اتِّبَاعُهُ في مناهج وطرائق وأساليب الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

\* \* \*



## النموذج الأول

دَعْوَةَ مَوْمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى عليه السلام ولدعوته:  
قال الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ / نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقَرُونَ فَقَالُوا سَجْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمٰنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظٰلِمِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنْصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقْوَمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مٰلَكُمْ مِن اللَّهِ مِن عَاصِرٍ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلِ الْآيٰتِنَا فَآزَلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي ءَايٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطٰنٍ أَنْتَهُم كِبْرٌ مَّقَاتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَهْتَمُّنَ ابْنِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى  
وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ  
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُمِرُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ  
الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ يَقْتُمِرُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ  
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ  
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٠﴾ وَيَقْتُمِرُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى  
النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٣١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا  
أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ الْعَفِيرِ ﴿٣٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لِي دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي  
الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٣٣﴾ فَسَدَّ كُرُوتَ مَا أَقُولُ  
لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا  
مَكْرُوا وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٣٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ  
تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٣٦﴾

- ١ -

### نظرة إجمالية عامة

جاء في هذا النصّ عرضٌ لدعوةٍ إلى الله قام بها مؤمن من آل فرعون،  
آمنَ بموسى وهارون عليهما السلام، وكنتم إيمانه مدةً من الزمن، إذ كان  
مُعاصِرًا لهما، مع ما كان لديه من علمٍ مَوْزُوثٍ عن رسول الله يوسف عليه  
السلام.

ويظهر أنّه قد كان واحداً من أعضاء المجلس الاستشاري في القصر  
الفرعوني يومئذٍ، فقد وصفه الله بأنّه من آل فرعون، والآل من الأسرة هم  
أشرافها وأعيانها وكبرائها.

وظلّ هذا الرجل المؤمن يكتُم إيمانه حتّى تازم الأُمُرُ ضدّ موسى

عليه السلام إلى الحدّ الأقصى، إذ قال فرعون زَمَانِهِ لَمَلَكْتِهِ، وهم وزراؤه وأعضاء مجلسه الاستشاري مِنْ عِلْيَةِ أُسْرَتِهِ: ﴿... ذُرُوفٍ أَقْتَلُ مُوسَى وَلِيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

أي: أن يُحَرِّكَ الإسرائيليين في مصر بثورة ضدّ الأسرة الحاكمة، ومعهم من يستجيب لدعوة موسى من القبط المصريين.

عندئذٍ قدّم هذا الرّجلُ المؤمن الذي كان يكتُم إيمانه مشورته ناصحاً، ضمن مجلس المستشارين بأنّه ليس من الحكمة ولا من العدل ولا من حُسنِ السِّيَاسَةِ قَتْلُ رَجُلٍ يَقُولُ: رَبِّي اللهُ، وقد جاء بالبيّنات من ربّكم، وهي بيّناتُ فكريّةٌ لا اعتراض عليها قدّمها بمقاله في دعوته، مقرونة بآيات إعجازيّة شهدتموها.

وكان نُصْحُ هذا الرّجلِ المؤمن في مشورته يعتمد على الاستدلال الفكريّ الراجح، والمنطق العقليّ الشديد، فقال لهم: لا يخلو أن يكون موسى كاذباً أو صادقاً، فهذان احتمالان لا ثالث لهما.

● أما على الاحتمال الأوّل: وهو أن يكون موسى كاذباً، فإنّ إبقاءه حيّاً وعدمَ التعرّض لقتله لا يضرُّكم بشيء، إذ أنتم أصحاب القوة والسّلطان في مصر، وهو وقومه عاجزون عن التصدي لكم، ثم إنّه لا يستطيع أن ينشُرَ دينه في مصر، لأنّ الله لا يهدي من هو مسرفٌ في ادّعاءه أنه رسول الله، كاذبٌ فيما يخبر به عن ربّه، فإن كان كاذباً في ادّعاءاته فلا بُدَّ أن يخيّب في مسعاه، ولا ينجح في مقاصده.

● وأما على الاحتمال الثاني: وهو أن يكون صادقاً، وأن يكون رسولاً مبعوثاً من ربكم حقّاً، فأقلُّ ما يتوقّع مستقبلاً أن يُصيّبكم بعضُ الذي يتوعّدكم به، إذا تعرّضتم لقتله.

وهنا أراد فرعون أن يخيّم الأمر ولا يدع مجالاً للرجل من آله أن يزيد

من بياناته في مجلسه، فقال لأعضاء المجلس: ما أريكم من الرأي إلا ما أراه  
لنفسى صالحاً، وما أهديكم في عرضي عليكم أن أقتل موسى إلا سبيل  
الرشاد، لحمايتكم وحماية مُلكِكُمْ مما يحدثه هذا الرجل من فتنة.

لكنَّ الرجل المؤمن من آل فرعون قد شعر بأن الفرصة متاحة له بعد  
تقديم مشورته التي نصح بها فرعون ومجلس وزرائه ومستشاريه، إذ أصغوا  
لاستماعها، وتوقف أعضاء المجلس عن إصدار القرار بقتل موسى، وشعر  
بأنهم أحسوا بإيمانه، فتحوّل داعياً إلى الله، مُنذراً من عقوبة الله، ومحدراً  
قومه من أن ينزل بهم عقاب من الله مثل العقاب الذي نزل بقوم نوح وعاد  
وثمود والذين من بعدهم بسبب كفرهم برسُل ربهم، وكانت قصص هؤلاء  
مُتداولة بين المصريين.

بعد هذا انتقل إلى تحذيرهم من عذاب الله يوم الدين، ويظهر من هذا  
أن عقيدة البعث بعد الموت للحساب والجزاء كانت من العقائد الموروثة  
لديهم، وأن الله هو الذي له الحكم بين العباد يومئذ، فمن يحكم الله عليه  
بالضلالة فلن يجد من يحكم له بالهداية.

وهنا ذكرهم برسالة يوسف عليه السلام - الذي توفي منذ أقل من قرن  
على ما يذكر المؤرخون - وأن الأسرة الفرعونية في عهده - وهم قوم هذا  
الرجل الداعية - ما زالوا يشكون في أنه رسول من ربه، حتى إذا مات تحقّقوا  
من أنه رسول من الله، ولكن قالوا: لَنْ يَبْعَثَ اللهُ من بعده رسولاً يمنعهم مما  
يشتهون ويهوون من أنواع آثام وتسلط وطغيان في الأرض، إذ كان يوسف  
عليه السلام هو الوزير الأول بعد فرعون في عهده.

ولما كشف عن هويته الإيمانية بدأ فرعون وملؤه يجادلونه بالباطل، إذ  
منعهم عن الاستجابة له ما في نفوسهم من كبر، وما لهم من سلطان قوي في  
مصر، وهذا ما جعلهم طغاة جبارين.

وخشيَ فرعون أن يتأثرَ بعضُ مَلَكِهِ بمجادلته، فعَلَّقَ بدهائه الأمر على اتِّخاذه وسيلة من وسائل البحث، للتأكد من صحة كون موسى رسولاً من ربه، وأعرض عن فكرة قتله، وتنازل عن القطع بأنه كاذب، مكتفياً ببيان أنه يظنه كاذباً.

وقد طَرَحَ وسيلةً يطول أمدُ تحقيقها، فقال لوزيره الأول: يا هامان ابن لي صرحاً (أي: قصرأً عالياً) لعلِّي أبلغُ إلى أسبابِ عُلُوِّية، أصلُ بوساطتها إلى السماوات، فأطلِّعُ هُنَاكَ إلى إلهِ موسى، فأعرِفُ منه هل موسى رسوله حقاً أم لا؟! وقذف القضية بهذه الحيلة الشيطانية، وعلَّقها على أمر خرافي متعذِّر التحقيق، وهو يشعُرُ بأنَّ قومه: إِمَّا سُدِّجُ يَرُونَ أَنَّ لفرعون قُدْرَاتٍ تَمَكَّنُهُ إِذَا بَنَى الصَّرحَ العَالِي من اتِّخاذه أسباب توصله إلى السماء، وهنالك يطلِّعُ إلى إلهِ موسى. وإمَّا شياطينٌ مِثْلُهُ يُوَاطِئُونَهُ على ضلاله، ويعرفون حَيْلَهُ وأكاذيبه، فهم شركاؤه في الملك والسلطان والمنافع.

وبهذا قطع بحث قضية موسى داخل البلاط الفرعوني، بانتظار بناء الصرح واتِّخاذه الأسباب إلى السماء.

عندئذٍ رأى الرجل المؤمن من آل فرعون وقد انكشف أمرُهُ، أن ينطلق داعياً إلى سبيل ربه، ودينه الذي جاء به موسى وهارون، بين الشعب المصري، بعد أن وجدَ أَنَّ دَعْوَتَهُ داخل القصر قد أبعدها فرعون إلى أَجَلٍ لَنْ يَأْتِي.

فنادى في قومه قائلاً كلاماً خلاصته:

- يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ.
- يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ.
- مِنْ عَمَلٍ سَيِّئَةٍ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بغير حساب.



فجاده قومه بالباطل، وجعلوا يدعونه إلى ترك الدين الذي فارق به دين آباؤه وقومه، وإلى العودة إلى دين الشرك الذي هم عليه، فقال لهم:

● يا قوم، مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟!  
● يا قوم، إنكم تدعونني لأكفر بالله الحق، وأشرك به ما ليس لي به علم، فليس له حقيقة في الوجود، وأنا أدعوكم إلى العزيز ذي القوة الغالبة القادرة على كل شيء، العَفَّار الذي يغفر ذنوبكم إذا آمتتم به واستغفرتموه، فلا يُعَذِّبُكم عليها.

● يا قوم، مما لا ريب فيه أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة حقيقة ذات أثر في الدنيا ولا في الآخرة، إنما هي أسماء لأشياء وهمية لا حقيقة لها، ولا قُدرة لها على شيء.

● يا قوم، إنَّ مَرَدَّنَا جميعاً إلى الله، إذ يَبْعَثُنَا من الموت إلى حياة الحساب وفصل القضاء وتطبيق الجزاء.

● يَا قَوْمِ إِنَّ الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ وَالْعَصِيَانَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، الدَّارِ الَّتِي يُجَاوِزُونَ فِيهَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ.

● يا قوم، ستذكرون يَوْمَ تُزُولُ الْعَذَابُ بِكُمْ ما أقولُه اليوم لكم، وستتَحَسَّرُونَ وتندمُونَ على أنكم لم تستجيبوا لي، ولم تقبلوا دعوتي.

ولمَّا وَجَدَ قَوْمَهُ متحجِّرين معاندين، ورأى أَنَّ القصر الفرعوني يُدَبَّرُ للتخلُّص منه ومن دعوته قال لقومه:

● لَقَدْ قَدَّمْتُ لَكُمْ غَايَةَ ما عندي من نصح، فأبَيْتُمْ، وأنتم تدبِّرون التدابير للتخلُّص مني، فلا مسؤولية عليَّ عند رَبِّي تُجَاهَكُمْ فقد قُمتُ بواجبي نحوكم، وأفوضُ أمري بشأن ما تُدبِّرون ضِدِّي إلى الله، إنَّ الله بصيرٌ بالعباد، فهو الذي يقيني ويحميني.

لقد كان هذا الرَّجُلُ مجاهداً حقاً، جهادَ دعوةٍ ببيان قوِيٍّ، وحُجَجٍ دامغةٍ، وصَبْرٍ ومُصابرةٍ ومُتَابعةٍ، دون خوفٍ من قتلٍ أو تعذيبٍ، وكان مع كلِّ ذلك متوكِّلاً على الله، ومُفَوَّضاً أمره إليه بصدق نِيَّةٍ وهِمَّةٍ وعزيمةٍ وعَمَلٍ، فاستَحَقَّ أَنْ يُنَزَلَ اللهُ فِي خاتمةِ كُتُبِهِ عَزْضاً لِقِصته يَنْصَحُ بتمجيده والثناء عليه .

وقد مكر به اللهُ، وعزموا على أن يُوقِعُوا بِهِ سَيِّئاتٍ متعدّاتٍ من سِجْنٍ، أو تعذيبٍ، أو مصادرةٍ ممتلكاتٍ، أو طردٍ من الأسرة، أو قتلٍ، أو كلِّ ذلك، إذ أعلن خروجه عن مِلَّتِهِمْ، ومتابعته لدين الله الحقِّ، والتزامه بالحقِّ الَّذِي آمَنَ بِهِ، ونُصِرْتُهُ، والدَّعوةَ له بين شَعْبٍ قومه نصحاً وجدالاً بالَّتِي هي أَحْسَنُ، إِلَّا أَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَاهُ سَيِّئاتٍ ما مَكروا، وأنزَلَ بفرعون وآله سُوءَ العذاب، فأغْرَقَهُمْ فِي اليَمِّ، وهذا يَدُلُّ على أن الحادثةَ قد كانت قُرْبَ مِلاحقةِ فرعونَ لموسى وبنِي إِسرائيلَ لَمَّا خَرَجُوا من مصر في اتِّجاهِ سِيناء، إذ انتهت هذه الملاحقة بغرق فرعون وآله وجنوده، وأنجى اللهُ مؤمِنَ آل فرعون من مَكْرِهِمْ .

وهذه سُنَّةُ اللهِ فِي مُعْظَمِ الدَّعَاةِ الصّادِقِينَ الحِكماءِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سورة (غافر) نَفْسُها بَعْدَ عَرْضِ قِصَّةِ مُؤمِنِ آل فرعون ولو اِجْتَمَعَتْ:

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾

- ٢ -

منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله

مما سبق بيانه في النظرة الإجمالية العامة، يتبين لنا أنَّ منهج مؤمن آل فرعون في دعوته لكفَّار قومه إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، كما عرضها القرآن مُقَرَّراً لها، ومشعراً بالثناء عليها وعلى القائم بها، يتلخَّصُ بما يلي:

أولاً:

البدء بوضوح قومه نُضحاً عامّاً، على اعتبار أنّه واحدٌ منهم يضرُّه ما يضرُّهم، وينفعُهُ ما ينفعُهُم، وذلك بتقديم مشوِّرةٍ منطقيّةٍ فكريّةٍ، قائمةٌ على التّخليلِ والحضِرِ العقلي، بطرح الاحتمالات الممكنة، وبيان آثار كلِّ منها، وتحديد ما هو الأصحُّ في الإدارة والسِّياسة، مستغلاً حدثاً مُناسِباً، ومشعراً بميله إلى الحقِّ.

ثانياً:

الانتقال التدريجي إلى تَبَيُّ قضية الإيمان بالله وبالرُّسُلِ، عن طريق تحذير قومه من أن يَنْزِلَ بهم مثُلُ عقوبات الأولين (قوم نوح، وعاد، وشمود، والَّذين من بعدهم) التي يعرفون أخبارها، ولا يجهلونّها، ولذلك عرضها عليهم باعتبار أنّها مُسَلِّماتٌ لديهم.

ثالثاً:

الانتقال من التحذير من الجزاء المعجّل في الدنيا، إلى التحذير من الجزاء المؤجّل إلى يوم الدنيا، إذ هما مترابطان وفَرَعان لقضيّة إيمانيّة واحدة، هي قضية الدِّينونة والجزاء، فحذّرهم من عذاب الله يوم الدين، وهذه أيضاً من القضايا التي لديهم حولها اعتقادٌ مؤرُوثٌ عمّا تلقَّوه من يوسفَ عليه السلام، الذي كان ذا سلطان في القصر الفرعونيّ منذ أقلّ من قرْنٍ، على ما يذكر المؤرخون.

رابعاً:

الانتقال إلى تذكيرهم برسالة يوسف عليه السلام، التي كان المصريون في شكٍّ منها وهو بينهم، فلمّا ماتَ عرفوا أنّه رسولٌ من عند الله ربِّهم، والهدفُ من هذا التأكيدُ على قضية النبوة والرّسالة التي هي إحدى قضايا الإيمان الكبرى.

وحين قوبل بالمجادلة بالباطل جادلهم بالتي هي أحسن، فواجههم بالحجج الدامغة، وهنا احتال فرعون بدهائه، فقطع المناظرة مدعياً أنه يريد أن يتحقق من صحة ادعاء موسى أنه رسول من الله، فأمر باتخاذ وسيلة خرافية يواطئه عليها الشياطين المشاركون له في الحكم والسلطان والطغيان والجبروت، وينخدع بها السذج من عامة قومه الذين يرون فيه قدرات فائقات قد يستطيع بها معرفة الحقائق السماوية، وهي من الوسائل التي لا تتحقق مقدماتها إلا بأمد طويل، تغرق في بحره القضية التي قامت من أجلها المناظرة.

#### خامساً:

عندئذ انتقل المؤمن الداعية إلى داع عام بين علية القوم وبين جمهور الشعب المصري، فنادى بين الشعب المصري يبشر بأسس الإيمان، ويؤكد على قضية الدينونة والجزاء، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء.

#### سادساً:

جادل كبراء قومه بالباطل، ليشنوه عن نشاطه في دعوته، وليعيدوه إلى ملتهم. فجادلهم بالحق وسلطان مبين، وأبان لهم أنه يدعوهم إلى الخير والنجاة، وأنهم يدعونهم إلى الشر وعذاب النار.

وأبان لهم أن الشرك الذي يدعونهم إليه شرك لا تثبته أدلة علمية، فالشركاء التي يدعونهم إلى الإيمان بها ليس لها علم قائم على أدلة صحيحة، تثبت أنها شريكة للرب الخالق في ربوبيته ولا في إلهيته، فكيف يؤمن بها، وكيف يعبدونها من دون الله؟! وكيف يترك الحقيقة العلمية ذات الأدلة البرهانية التي تفرض عليه أن يؤمن بالله الواحد الأحد الذي لا شريك

له، وهو عزيزٌ، أي: قويٌّ غالبٌ لا يُغلبُ، وهو غفَّارٌ، أي: يَغفر لمن تابَ  
وآمن به واتَّبَع هُداه .

هذه خلاصة منهجه الدَّعَوِي، ولدى التأمل في هذا المنهج نلاحظ أنه  
منهج رُسلِ الله في دعوتهم إلى دين الله الحق، حين كانوا يدعون أهل الكفر  
والشرك بالله .

وهو منهجٌ يعتمد على البدء الرفيق بالإقناع الهادىء، لاكتساب الثقة،  
ثم الاعتماد على المسلّمات المشتركة، التي هي من الأسس الفكرية العامة،  
والاهتمام الأعظم بقضايا الإيمان الأولى، والانتقال شيئاً فشيئاً إلى مواطن  
الخلاف، وتقديم الحجج الصحيحة التي تفيد إقناع ذوي الفكر .

- ٣ -

### التدبّر التحليلي للنص

١ - قول الله عزّ وجلّ مبيناً تأزّم الموقف ضدّ موسى والذين آمنوا به  
واتبعوه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٢١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهٰمٰنَ  
وَقٰنُونَ فَكٰلُوا سٰجِرٌ كٰذٰبٌ ﴿١٢٢﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِآلْحَقِّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا اٰنْسَآءَ  
الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا مَعَهُمْ وَاَسْتَحِبُّوْا نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِيْنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٢٣﴾ ۞

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا: أي: بِآيَاتِنَا البَيِّنَةِ التي فيها تَعْلِيْمَاتُ الدِّينِ  
وأحكام الشريعة، وآيَاتِنَا الإعجازية، وهي الآياتُ التَّسْعُ التي أجزاها الله على  
يد موسى، لإثبات أنه مُرْسَلٌ من ربه، أوَّلُهَا آيةُ العصا التي كانت تنقلب له  
بإذن الله ثعباناً مبيناً، وآيةُ اليَدِ، إذ كان يُدْخِلُ يَدَهُ في جيبه فتخرج بيضاء  
متلألئة من غير سوء .

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: يُطَلَقُ السُّلْطَانُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ، وَعَلَى الْحُجَّةِ الْغَالِبَةِ وَالْبِرْهَانَ الدَّامِغَ، وَعَلَى الْمَلِكِ وَالْوِلَايَةِ عَلَى النَّاسِ.

والمعنى الملائم هنا الحجة الغالبة والبرهان الدامغ، فقد كان موسى عليه السلام ذا حجة برهانية دامغة، على أن الآيات الإعجازية التي جاء بها هي من البراهين الدامغة، فهي علامات برهانية.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ: أَي: وَإِلَى أَقْوَامِهِمْ، ففِرْعَوْنُ وَوَزِيرُهُ الْأَوَّلُ هَامَانُ هُمَا الرَّأْسَانِ الْكَبِيرَانِ لِلْقَبْطِ فِي مِصْرَ، وَالْإِزْسَالُ إِلَيْهِمَا يَفِيدُ بِاللَّوْازِمِ الْفِكْرِيَّةِ الْإِزْسَالِ إِلَى كُلِّ الْقَبْطِ قَوْمَهُمَا، إِذْ خَطَابُ الْقَوْمِ يَبْدَأُ بِخَطَابِ مَلُوكِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ، فَيُكْتَبَى عَنِ الْقَوْمِ بِهِمْ.

أَمَّا قَارُونَ فَكَانَ رَئِيسًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ ابْنُ عَمِّ مُوسَى، وَكَانَ ذَا وِلَايَةٍ كَامِلَةٍ لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَثْرَى بِذَلِكَ ثَرَاءً فَاحِشًا، وَلَمَّا جَمَعَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ وَقَادَهُمْ قِيَادَةً دِينِيَّةً، كَانَ قَارُونَ مِنْ حِزْبِ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ قَائِلًا مَعَهُمَا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَاحِرٌ كَذَّابٌ، وَأَخَذَ يَتَعَالَى وَيَسْتَكْبِرُ بِتَأْيِيدٍ مِنَ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَيَتَفَاخِرُ عَلَى قَوْمِهِ بِأَمْوَالِهِ وَعَبِيدِهِ، وَمِظَاهِرِ الزَّيْنَةِ وَالْعِظْمَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لِنَفْسِهِ، حِينَمَا يَسِيرُ فِي مَوَاكِبِهِ فِي أَحْيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَشَارَكَ آلَ فِرْعَوْنَ فِي الْبَغْيِ عَلَى قَوْمِهِ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَاِبْتَلَعَتْهُ، وَكَانَ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا: أَي: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْآيَاتِ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، إِذْ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ التَّذْكِيرِ وَالْإِنذَارِ فِي أَزْمَانٍ مَتْرَاحِيَّاتٍ، وَهِيَ آيَاتُ الطُّوفَانِ وَالْجِرَادِ وَالْقَمَلِ وَالضَّفَادِعِ وَالذَّمِّ.

قَالُوا: اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ: أَي: قَالَ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ الرَّأْسَانِ الْأَمْرَانِ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَقَالَ مَعَهُمَا أَيْضًا قَارُونُ بَاغِيًّا عَلَى قَوْمِهِ وَمُنَاصِرًا لِفِرْعَوْنَ، لَجُنُودِ التَّنْفِيزِ: اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.

موسى، واستبقوا الموالي من البنات اللواتي سيكنن نساء صالحات للخدمة والتسخير أحياء.

وما كيد الكافرين إلا في ضلال: الكيد: هو التدبير لأمر مكروهة للمكيدين، والكافرون لا يكيدون كيداً إلا مغموساً في أحوال ضلال عن الحق والرشد والهدى.

ودلّ هذا على أن قارون قد كان كافراً مثل كُفّر فرعون وهامان، لأن الظاهر من الضمير في: ﴿قَالُوا﴾ يعود على الثلاثة فرعون وهامان وقارون، وهذا ينفي أن يكون قارون قد آمن بموسى ثم ارتدّ عليه، أو كان متابعاً لموسى نفاقاً، فالنص يشعر بأنه أخذ المشاركين في صنع قرار قتل الموالي الذكور الذين يولدون لمن آمن مع موسى عليه السلام، ولعل قارون كان مستشاراً في القصر الفرعوني للشؤون المتعلقة ببني إسرائيل في مصر، وصدر القرار عامّاً يشمل كلّ أبناء الذين آمنوا مع موسى ولو لم يكونوا من بني إسرائيل لإرهاب القبط أيضاً حتى لا يؤمنوا به ويتبعوه.

\* \* \*

٢ - قول الله عزّ وجلّ مبيّناً اقتراح فرعون على أعضاء مجلس مستشاريه بأن يقتل موسى وكان هذا في جلسة ابتدائية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

وفي قراءة المدنيين والبصري: ﴿وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

مثل هذا العرض الذي جاء في هذه الآية يكون غالباً خلال إحدى المجالس التي تُعقد لتبادل الرأي في إدارة شؤون الدولة، بين الملك أو رئيس الدولة ووزارة ومجلس المستشارين.

وقد عرض فرعون على مجلسه فكرة إصدار قرار بقتل موسى بعد أن

تفاقم أمرُ موسىَ وأمرُ بني إسرائيل في مصر، وخشي فرعونُ أن يهتَزَّ عرشه، وتذهبَ ذرائعُ هيمنته على البلاد، واستعباده للشعب، باعتباره وارث الملك والسلطة الدينية عن آبائه وأجداده، وفق عقائدهم الوثنية.

وأبانَ لأعضاء مجلسه أنه إذا قَتَلَ قَطَعَ بِقَتْلِهِ قُدْرَتَهُ على أن يدْعُو رَبَّهُ، كما كان يفعلُ في أحداثِ آياتِ الطوفانِ والجرادِ والقملِ والضفادعِ والدمِّ، ويظْهَرُ أنه أراد قَتْلَهُ بصورةٍ سرِّيَّةٍ دونَ إعلانٍ بمنشورٍ عامٍّ، حتَّى لا يَعْلَمَ موسىَ فيدْعُو رَبَّهُ.

فقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: بعدَ التخلُّصِ منه بِقَتْلِهِ وفَضْلٍ ما بينه وبينه من صلَّةٍ، سببها ما له من قوَّةٍ نفسيَّةٍ وروحيَّةٍ ما دام على قيدِ الحياة، فإذا مات انقطعت هذه الصلَّة، وهذه فكرةٌ تراوَدُ كُلَّ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ لبعض الناسِ طاقاتٍ وقدراتٍ غيبيَّةً، وهذه تنتهي بموتهم.

وعلَّلَ فرعونُ ما اقترح على مجلسِ مُستشاريه من قتل موسى بإحدى عِلَّتَيْنِ أو كليهما، أخذاً من القراءتين:

﴿أَوْ أَنَّ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ و ﴿وَأَنَّ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

العلة الأولى: الخوفُ من أن يبدَّلَ بدعوته دينَ القوم الذي تَعَمِدُ عليه الأسرة الفرعونية المالكة في مصر، والمهيمنة على الشعب به.

العلة الثانية: الخوفُ من أن يُثِيرَ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ ضِدَّ السُّلْطَةِ الحاكمة، فيُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ.

ويظهر أن فرعونَ تركهم يفكِّرون في الأمر، ولم يَطْلُبْ في هذه الجلسة أن يُعْطُوا رأيهم الجازم، وانفضَّ المجلس، ولم يكن فرعونُ يَعْلَمُ أَنَّ أحداً من حاضري مجلسه يمكن أن يُوصِلَ هذا العزم منه لموسى عليه السلام، فكلُّهم من آله، ولا يُظَنُّ بواحدٍ منهم أن يكونَ قد آمنَ بموسى واتَّبَعَهُ سرّاً.



لكن قد كان فيهم رجلٌ مؤمنٌ يكتُمُ إيمانه، ويظهر أنه أوصلَ الخبر سرّاً لموسى عليه السلام.

\* \* \*

٣- قول الله عز وجل مبيّناً علّم موسى عليه السلام بما اقترحه فرعون واستعاذته بربه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٧٧)

علّم موسى عليه السلام نبأ استشارة فرعون مجلس وزراءه ومستشاريه في أن يقتله، ويظهر أنه جمع رؤساء قومه من بني إسرائيل وأبلغهم النبأ، فقالوا له: ماذا أنت صانع؟

قال: إني عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ: أي: التَّجَأْتُ إِلَيْهِ وَاعْتَصَمْتُ بِهِ، فَهُوَ سَيَحْمِينِي مِنْ مَكْرِ فِرْعَوْنَ، وَمَكْرَ كُلِّ كَافِرٍ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

هذا دعاء مقرون بالتوكل التام على الله، إذ ليس لديه وسيلة متاحة غير الدعاء والتوكل، وقد أعاده الله وعصمه بالطفاه الخفية.

\* \* \*

٤- قول الله عز وجل مبيّناً قصّة مؤمن آل فرعون وما كان منه في جلسة ملكية لاحقة:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟ ۝﴾

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٢﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْوِ  
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢٣﴾ وَيَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ  
الْتِنَادِ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ  
جَاءَكُمْ يُونُسُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَا زَلَّمْتُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقًّا إِذَا هَلَكَ فُلْتُمْ  
لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ  
بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ  
قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْدِكُنِ ابْنِ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ ﴿٢٨﴾ الْأَسْبَابَ ﴿٢٩﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ  
فَأَطِيعِ إِلَهَ إِلَهٍ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا  
فِي تَبَابٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

نُلاحظُ من هذا العرض القرآني أن فرعون عقد جلسة لاحقة للجلسة  
الابتدائية، جمع فيها وزراءه ومستشاريه من آله ليأخذ قراراً مستنداً إلى  
مشورتهم بالتفويض له بأن يقتل موسى .

وقد دلَّ على هذه الجلسة اللاحقة وجودُ الفاصل الذي أبان الله فيه أن  
موسى عليه السلام قد بلغه نبأ اقتراح فرعون بقتله، وأن موسى دعا ربه أن  
يُعِيذَهُ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .

وفي هذه الجلسة اللاحقة يظهر أن فرعون قال لأعضاء مَجْلِسِ وزرائه  
ومستشاريه: ما رأيكم فيما عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ قَتْلِ مُوسَى؟ وترك الأمر  
لمشورتهم، مع إشعارهم برغبته في أن يتخذوا قراراً بذلك .

وكشأنِ كُلِّ المجالسِ الشوريةِ التي تُعْرَضُ فيها استشاراتٌ حقيقيَّةٌ خطيرة، كقتلِ رئيسِ قَوْمٍ يُؤْمِنونَ بهِ نبيًّا رسولاً من ربِّهم، لا بُدَّ أنْ تظهرَ فيها وجهاتُ نظرٍ مختلفةٌ مؤيِّدة، ومعارضه، ومترية، كأن يقول بعضهم: الرأي رأيتُك أيتها الملك، وأن يقول بعضهم: يَحْسُنُ أن نترتِّبَ حتَّى نتدبِّرَ الأمر، فقد ظهر من الرجلِ عجائبٌ عظيمة في أرضِ مصرِ كلِّها، وقد يفاجئنا بما لا قبَلَ لنا به.

عندئذٍ وجدَ الرجلُ المؤمن من آلِ فرعون - وهو أحدُ أعضاء المجلس الاستشاري - فرصةً مناسبةً لأنْ يُقدِّمَ مشورته ناصحاً، ويُنصِّرَ موسى ودينه وما يؤمنُ به، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقدَّم خطبةً رائعةً اشتملت على رصانة وحكمة ورشدٍ وحُججٍ دامغات، وقد جاء في النصِّ بيان هذه الخطبة الحكيمة معطوفاً على المقالات المطويات اللآئي قالها بعضُ أعضاء المجلس خلال تبادل الآراء، فهي هنا «واو» فصيحة<sup>(١)</sup> نظير الفاء الفصيحة التي ذكرها النحاة والمفسرون، في نحو قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ فَعَلْنَا أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا... ﴾

أي: فضرب فانفجرت.

ولولا إرادة عطف قول الرجل المؤمن على مطويٍّ محذوف لكان المناسب حذف الواو على وفق أسلوب الحوار من ترك العطف.

(١) من خلال تدبيري للقرآن رأيت أن العطف على مطويٍّ في النص يمكن إدراكه ذهنياً، لا يقتصر على الفاء التي سماها النحويون فاءً فصيحة، بل يمكن أن يكون في حروف عطف أخرى، منها: الواو، وبل، وثم، وتحليل النصوص وإبراز المطويات فيها هو الذي يكشف ذلك.

لقد قال هذا الرجل المؤمن من آل فرعون، الذي ما زال يكتنم إيمانه منذ مئة، عدّة مقالاتٍ في خطبته، بدأها بالتلطف في النصيحة ثم ترقى فكان داعيةً إلى دين الله .

المقالة الأولى: ﴿ أَنْقَلْتُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ !!؟ .

أي: أنقلونه لأجلِ مقالته التي يقولها بتكرار وهي: رَبِّيَ اللهُ، في حال أنه قد جاءكم بما يُثبتُ صحّةَ مقالتهِ من حُججٍ وبراهينٍ بيّنةٍ واضِحةٍ، وبما يُثبتُ صحّةَ بلاغِهِ عن ربه، وأَنَّهُ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا، من آياتٍ ومُعجزاتٍ بيّنةٍ شهَدَتْموها طَوالَ سِنينَ أَقامَ فيها يُسَرِّرُ بِيدينِ رَبِّهِ .

المقالة الثانية: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ .

أي: لا يخلو أمرُ موسى من أَحَدِ اِخْتِمَالينِ: إمَّا أَنْ يَكُونَ كاذِبًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقًا .

● فَإِنْ كَانَ كاذِبًا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَضُرَّكُمْ بشيءٍ، فَالْكَاذِبُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيْهِ كَذِبُهُ، فيوقَعُهُ في الخيبةِ وسوءِ المصيرِ، لأنّه يكذبُ على ربه في ادّعاء أنه رسولُ الله، والله لا يدعُ إنسانًا يكذبُ عليه دون أن يُنزِلَ به عقابه، ويُخبِثَ مساعيه .

وهذا يدلُّ على أن القومَ مُشركون، فهم يؤمنون بالله الرّبّ الخالق، ولكنهم يجعلون له شركاءَ آلهةً من البشر، تستمدُّ من الرّبّ الأعلى خصائصَ ربوبيةٍ وإلهيةٍ، وآلهتهم من الأوثان ثلاثة، وهذا الرجل المؤمن يخاطبُهُم من قاعدةٍ مشتركةٍ هي الإيمان بالله الرّبّ الخالق .

● وَإِنْ كَانَ صَادِقًا أَنَّهُ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّكُمْ، فَلَا بُدَّ عَلَى

أقلّ التقديرات أن يُصيبكم بغضُ الذي يُنذركم به، من عقاب الله العاجل في الدنيا، والآجل يوم الدين، ومن المعروف أن من عقائدهم عقيدة البعث إلى الحياة للدينونة والجزاء، لكنها كانت مشوّهة، ولذلك كان الفراعنة يبنون مدافنهم العظيمة السريّة، ويجعلون مع مُحَنّطات أجسادهم فيها كُتُوزهم، ويخفون هذه المدافن حتّى لا تصل إليها أيدي اللصوص، زعماً منهم أنهم إذا بُعُثُوا إلى الحياة الأخرى وجدوا الكنوز التي دفنوها معهم، فاستفادوا منها بعد البعث.

### المقالة الثالثة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

بدأ الرّجلُ المؤمن من آل فرعون بهذه المقالة التي قدّمها في معرض الحديث عن موسى يُشعِرُ أعضاء المجلس الفرعوني يرفقِ أن موسى صادق في أنّه رسولُ الله، لأنّ الله أيّدهُ بالآيات الخوارق التي شهدتموها، وهذا التأييد حكم من الله له بأنّه على هُدى، وليس على ضلالة، أي: ليس مُسْرِفاً في ادّعائه أنّه رسولُ الله، وليس كذّاباً فيما يُبلّغ عنه، ولو كان مُسْرِفاً في ادّعائه وكذّاباً في بلاغاته لما هداه الله فأَيّده، لأنّ الله لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ.

لقد كان مشيراً ناصحاً، وبدأ يتحوّل ليكون مدافعاً عن موسى ومناصراً له، ومبيّناً أنّه صادق في ادّعائه، وفي بلاغاته عن ربّه، بالحجّة البرهانية.

### المقالة الرابعة: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾.

هنا كَشَفَ عَنْ هُوِيَّةِ إيمانه بموسى، وبدأ يدعُو فرعونَ وأعضاءَ مجلسِ وُزرائِهِ ومُسْتَشَارِيهِ إلى دين الله.

فاستعطفهم أولاً بقوله: ﴿يَقَوْمِ﴾ أي: أنتم قومي، فأنا أحرصُ على بقاء مُلككم ونجاتكم من بَأْسِ الله، فموسى بالدليل البرهاني رسولٌ صادقٌ بعثهُ الله لهدايتكم، فأمنوا به، ولا تعرّضوا له بسوء، وازعوا نعمة الله عليكم،

فقد آتاكم الملك في مصر، وجعلكم ظاهرين في الأرض بما آتاكم من سلطان وأموال وجنود، فإذا أصررنا على معاداة رسول الله ومقاومة دعوته، ورفض ما دعانا إليه من إيمان، فلا بُدَّ أخيراً من أن ينصُرَه اللهُ، فيُنزِلَ بنا بأسه، فإن تمادينا فيما نحن فيه فأنزل بنا بأسه، فَمَنْ يَنْصُرُنَا فَيُنَجِّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟!!! أَنْتَ لِكُ دَفَعَ بَأْسِ اللَّهِ عَنَّا؟!!!

ورأى فرعون أن هذا الرجل من آله قد أثر بمقالاته على بعض أعضاء مجلسه، فأراد أن ينهي الجلسة ويقطع الحوار بكلمة حازمة، يقولها بوصفه ملكاً آمراً، لا بوصفه مستشيراً محاوراً، فوجه لهم ما أبانه الله بقوله:

● ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١٩﴾ ﴾

أي: إني رأيت أن السياسة الحكيمة تقتضي أن أقتل موسى، لأنني أخاف من أن يُبدل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد، وهذا الذي رأيتُه مقتنعاً به، هو الذي أردت أن تروه، وأن توافقوني عليه، حتى يكون قرارُ قتله مُعتمداً على مشورتكم، فأنتم آلي، وأركان دولتي.

ويظهر أن بعض أعضاء المجلس نصّر رأي فرعون، لكن توقف وتردد آخرون، ومُرَادُ فرعون أن يأخذ منهم قراراً إجماعياً أو أغليبيّاً، بيد أن هذا لم يبدُ على وجوه الأعضاء ولم يظهر في أقوالهم.

وهنا تابع الرجل المؤمن مقالاته ونصائحه بجرأة، ولعلّه وجد في الأعضاء من تأثر ببياناته، فألحق بها المقالات التاليات، وقد عرضها القرآن بصيغة تُشعرُ بهذا الإلحاق، إذ قال الله عزّ وجلّ بأسلوب عطف أقوال على أقوال:

● ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَفْقَهُمْ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢١﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢٢﴾ وَيَفْقَهُمْ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِينٍ مِمَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذَلْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطَّعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ﴿٢٢﴾ .

فالمقالة الخامسة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿٢١﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢٢﴾ .

بَعْدَ أَنْ حَذَّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ فِي الْمَقَالَةِ الرَّابِعَةِ، عَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْخَامِسَةِ امْتِلَاءَ تَارِيخِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ لَدَيْهِمْ، وَهِيَ قِصَصُ إِهْلَاكِ اللَّهِ لِقَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَلِقَبِيلَةِ عَادٍ، وَلِقَبِيلَةِ ثَمُودَ، وَلِلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ كَقَوْمِ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَأَهْلِ مَدِينِ قَوْمِ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ .

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ هُوَ كُفْرُهُمْ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَمِحَاوَلَاتِهِمْ التَّخَلُّصَ مِنْهُمْ بِالْقَتْلِ وَنَشْرُهُمُ الظُّلْمَ وَالطَّغْيَانَ وَالْفِسَادَ فِي الْأَرْضِ . وَقَالَ لَهُمْ: لَا تَتَصَوَّرُوا أَنَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْأَقْوَامِ قَدْ كَانَ لِأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يُهْلِكَهُمْ وَيَأْتِي بغيرِهِمْ مَشِيئَةً غَيْرَ قَائِمَةٍ عَلَى الْعَدْلِ، بَلْ أَهْلَكَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ الَّتِي اقْتَضَتْ إِهْلَاكَهُمْ، فَمَا يُعَاقِبُ اللَّهُ إِلَّا بِالْعَدْلِ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ .

وَأَطْلَقَ عَلَى هَؤُلَاءِ كَلِمَةَ (الْأَحْزَابِ) لِأَنَّهُمْ تَحَزَّبُوا مَجْتَمِعِينَ مُشَاقِّينَ رُسُلِ رَبِّهِمْ، مُعْتَرِّزِينَ بِقَوَاهِمِ الْمَادِيَّةِ، يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ .

أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ: فَعَلَّ «خَافَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِحَرْفِ «مِنْ» يُقَالُ: خَافَهُ، وَخَافَ مِنْهُ، عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ عَلَى غَيْرِهِ .

وَيَوْمَ الْأَحْزَابِ: أَي: أَيَّامِ الْأَحْزَابِ، إِذِ الْمَفْرَدُ الْمُضَافُ إِلَى الْجَمْعِ الَّذِي يَتَطَلَّبُهُ كُلُّ فَرْدٍ مِنَ أَفْرَادِ الْجَمْعِ هُوَ بِمِثَابَةِ الْجَمْعِ، مِثْلُ: «كُلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعْمُوا» .

وأَيَّامُ الْأَحْزَابِ هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي أَهْلَكُوا فِيهَا .

مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ . . . : أي : مِثْلَ عَادَةِ اللَّهِ وَسُنَّتِهِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ فِي هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ ، وَهِيَ سُنَّةُ إِهْلَاكِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ الَّذِينَ يُدَبِّرُونَ التَّدَابِيرَ لِلتَّخْلِصِ مِنْهُمْ .

المقالة السادسة : ﴿ وَنَقَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ .

في المقالة الخامسة حذرهم من عقاب الله المعجل بالإهلاك الشامل ، وفي هذه المقالة السادسة حذرهم من عقاب الله المؤجل إلى يوم الدين ، يَوْمَ التَّنَادِ ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ عِبْرَةً «يَوْمَ التَّنَادِ» إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمئِذٍ إِلَّا أَنْ يُنَادِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ ، وَالشُّكُوبِ وَالتَّحَسُّرِ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عِظَامِ الْأُمُورِ .

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَوْمئِذٍ يَحَاوِلُونَ الْفِرَارَ مُؤَلِّينَ الْأَذْبَارَ ، مِنْ أَسْبَابِ التَّعْذِيبِ الْهَاجِمَةِ عَلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ مَلْجَأً يَعْصِمُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، لَكِنَّمَا لَا يَجِدُونَ ، وَقَالَ لَهُمْ مُؤَكِّدًا : مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، أَي : مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَافِظٍ وَلَا وَاقٍ وَلَا مَانِعٍ يَوْمئِذٍ ، فَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ وَفِصْلِ الْقَضَاءِ وَالْجِزَاءِ .

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ يَوْمئِذٍ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، فَمَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ عَلَيْهِ يَوْمئِذٍ بِالضَّلَالَةِ بِنَاءً عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهُدَايَةِ ، ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

المقالة السابعة : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ .



لَمَّا كَانَ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ أُسْرَتِهِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ عَاصَرُوا  
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْذُ أَقَلِّ مِنْ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَكَانُوا عَالِمِينَ بِالْبَيِّنَاتِ  
الَّذِينَئِذِي جَاءَ بِهَا، وَدَعَا قَوْمَهُ لِلْإِيمَانِ وَلِلْعَمَلِ بِهَا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ  
بَقُوا مُحَافِظِينَ عَلَى شِرْكِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، رَأَى أَنْ يُخَاطِبَهُمْ  
مَعْتَبِرًا إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ أَمْتَدَادٌ لِأَسْلَافِهِمْ، فَخَطَبُ أَسْلَافِهِمْ وَخَطَابُهُمْ وَاحِدٌ.

فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ جَاءَ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ الدِّينِيَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ بِالْحُجُجِ  
الْبِرْهَانِيَّةِ، وَبِالْآيَاتِ الدَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِمَا  
جَاءَكُمْ بِهِ، وَمَا زَلْتُمْ مِنْهَا فِي شَكٍّ.

كَانَ ضَمْنًا يُلُومُهُمْ أَوْ يُؤْتِبُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ يَرْفُضُونَ الْبَيِّنَاتِ مِنَ الْمَبَادِيءِ  
وَالْمَفَاهِيمِ لِمَجْرَدِ إِيْرَادِ شُكُوكِ حَوْلَهَا، فَالشُّكُّ قَدْ يَحْدُثُ حَوْلَ آيَةٍ حَقِيقَةٍ،  
بَطْرَحِ احْتِمَالِ ضَعِيفِ حَوْلَهَا، وَلَوْ كَانَ احْتِمَالًا وَهْمِيًّا، فِي حِينِ أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ  
بِالْبَاطِلِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي لَهُمْ بِهِ هَوًى، وَلَوْ كَانَ وَاضِحَ الْبَطْلَانِ، لِمَجْرَدِ وُجُودِ  
احْتِمَالِ وَهْمِيٍّ خُرَافِيٍّ قَدْ يُوَلَّدُ شُكًّا ضَعِيفًا بِأَنَّهُ صَحِيحٌ.

وَهَذَا دَأْبُ الْمَبْطِلِينَ الضَّالِّينَ فِي كُلِّ عَصْرِ، يَرْفُضُونَ الْحَقَّ الْبَيِّنَ  
الْمَكْرُوهَ لِلنَّفُوسِ اسْتِنَادًا إِلَى طَرَحِ احْتِمَالِ ضَعِيفِ حَوْلَهُ قَدْ يُوَلَّدُ فِي النَّفْسِ  
شُكًّا لَا قِيَمَةَ لَهُ فِي مَوَازِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا، وَيَسْتَمْسِكُونَ  
بِالْبَاطِلِ الْبَيِّنِ الْبَطْلَانِ، إِذَا كَانَ بَاطِلًا تَقْلِيدِيًّا، أَوْ مُوَافِقًا لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ  
وَالرَّغْبَاتِ، اسْتِنَادًا إِلَى طَرَحِ احْتِمَالِ ضَعِيفِ حَوْلَهُ قَدْ يُوَلَّدُ فِي النَّفْسِ شُكًّا لَا  
قِيَمَةَ لَهُ فِي مَوَازِينِ الْمَعْرِفَةِ، بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَقًّا.

وَالْمَعْنَى: فَمَا زَلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ، مَانِعٍ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ  
وَتَرْكِ طَرِيقَتِكُمُ الْبَاطِلَةَ.

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا: أَي: مَا زَلْتُمْ غَيْرَ  
مُؤْمِنِينَ بِهِ اسْتِنَادًا إِلَى الشُّكِّ، وَهُوَ يُلْحِقُ عَلَيْكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا، وَبِأَنْ تَتَّبِعُوا مِنْهَا جَ

الله، وتعليمات الدين الذي اصطفاه لعباده، وتُدارونه مداراةً ظاهرة لما له من سلطانٍ قويٍّ في مصر، حتَّى جاء زمنُ موته، عندئذٍ تخلَّصْتُمْ من إلحاحه عليكم بدعوته، واسترختُمْ من مداراته لسلطانه، وقُلْتُمْ ذَهَبَ يوسُفُ الَّذِي كان يُتَعَبِّنا بدعوته وعدله وإنصافه واتباعه الحقَّ في سلطانه، وعدم تمكينه لنا من أن نرتع في الدولة على أهوائنا، وَلَنْ يبعثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسولاً يَكُفُّنا عَمَّا نُريدُ.

وهذا دَيْدُنُ كُلِّ مُسْرِفٍ في تحقيقِ أهوائه وشهواته ورغباته في الحياة، لا يُحِبُّ الالتزامَ بالحقِّ، ويوردُ عليه التشكيكات الضعيفات للإيهام بأنَّه باطلٌ، ولثلاً يَشْعُرُ بأنَّه مُلزَمٌ بعقل نفسه عمَّا يهوى ويشتهي عملاً بما يؤمِّنُ به، لذلك فهو يقع في الضلال، ويلتزم به، ويُتَابِعُ سُبُلَهُ ومataهاته في حياته.

هذه الظاهرة إحدى ظواهر فطرة الله التي فطرَ عليها النفوس الإنسانية، فمن اختار لنفسه الإسراف في اتباع الأهواء والشهوات والتمتع بزينة الحياة الدنيا دون ضابط، واختار لنفسه الاعتماد على الشُّكوكِ الضعيفة التي ليس لها قِيَمٌ في موازين المعرفة، أمَدَّهُ اللهُ بالوسائل التي يُتَابِعُ بها ضلاله في المسالك والمataهات، ضمن قوانين التسخير العام الذي سخر اللهُ بِهِ الأشياء في الكون لما يشاء الناسُ من أعمالٍ خَيْرٍ أو شرٍّ، ضمن ظروف امتحانهم في هذه الحياة الدنيا، نفهم هذا من قول الله تعالى في الآية:

﴿... كَذَلِكَ يَضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ﴿٢١﴾

أي: كذلك الَّذِي حصل لآل فرعون في عدم استجابتهم لدعوة يوسف فمكَّنَهُمُ اللهُ مِنْ أَنْ يَضِلُّوا، يُمَكِّنُ بقانون التسخير القدري العام كُلِّ مُسْرِفٍ في اتباع أهوائه وشهواته ومُختَلِفِ زينات الحياة الدنيا، من أن يَضِلَّ في مسالك الحياة ومataهاتها.

ويظهر لي أنَّ هذه العبارة تعليقُ رَبَّاني بياني على المقالة السابعة التي

قالها مؤمن آل فرعون ضمن خطبته في الجلسة الاستشارية التي عقدها فرعون، للحصول على قرار شوري بقتل موسى عليه السلام، ويتبع هذا التعليق قول الله عز وجل في الآية التالية من النص:

● ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ ﴾ .

فيه بيان للمسرفين المرتابين، الذين يعتمدون على الشكوك والريب فيما ينفون ويرفضون، وفيما يُثبتون ويقبلون.

إن اسم الموصول «مَنْ» في عبارة: ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ من صيغ العموم، فالعبارة بقوة: يُضل الله كُلَّ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ، فجاء وصف هؤلاء المسرفين المرتابين بأنهم ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ ﴾ .

السلطان: الحجّة والبرهان.

آيَاتُ اللَّهِ: تَشْمَلُ الآيَاتِ البَيَانِيَّةَ، والآيَاتِ الكَوْنِيَّةَ، والآيَاتِ الإعجازية، والآيَاتِ الجزائية.

وجدلُ المسرفين المرتابين يتناولُ كُلَّ صِنْفٍ من هذه الآيات بتشكيكات خاصة، لا تعتمد على حجج صحيحة مقبولة في موازين المعارف العلمية، التي فطر الله العقول عليها فيما آتاها من موازين.

- فالآيات البيانية المنزلة على الرسول، يطرحون حولها شكًا في صحة كونها من عند الله، وشكًا في صحة كون ما فيها من بيانات وتعليمات موافقًا للحق، أو موافقًا للحكمة ومصالح الناس. إلى غير ذلك من تشكيكات كثيرات.

- والآيات الكونية يطرحون حولها شكًا باحتمال كونها أزلية، وكون

تغييراتها تَتِمُّ بالتَّطَوُّرِ الذاتي، إلى غير ذلك من احتمالات باطلاتٍ تعتمد على الشكوك والتخيلات التوهيمية التي لا تؤيدها أدلةٌ فكريةٌ صحيحة.

- والآياتُ الإعجازيةُ يطرحون حولها شكًا باحتمال كونها من قبيل السَّحر والحركات التخيلية التي لا حقيقة لها، ونحو ذلك.

- والآياتُ الجزائيةُ يطرحون حولها شكًا باحتمال كونها ظواهر طبيعية لا بُدَّ أن تَقَعَ، وقد صادف أنها وَقَعَتْ على أقوامٍ جاءهم من ادَّعوا أنهم رُسُلُ الله، فاستغلَّها الرُّسُلُ لدعوتهم.

بينما يعبدون أصنامهم توهماً منهم أنها قد تنفعهم، أو تشفع لهم عند الله، ويصدِّقون كهنتهم وهم كاذبون دجالون مُخَرَّفُونَ فاسقون، إلى غير ذلك من توهُّمات باطلات في موازين العقول.

قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

المَقْتُ: أشدُّ البُغْضِ.

أي: جِدَالُ المسرفين المرتابين في آياتِ الله بالشكوك التوهيمية دون الاستناد إلى حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ فَطَرَ اللَّهُ العقولَ على قبولها، جِدَالٌ يَمَقُّتُهُ اللَّهُ والذين آمَنُوا مَقْتًا كبيراً، إذ الغرضُ منه جَعْلُ الحقِّ باطلاً في تصوُّرِ النَّاسِ له، وجعل الباطل حقاً في تصوُّرِ الناسِ له، والإيهام بأنَّ المُحِقِّينَ مبطلون، وأنَّ المبطلين مُحِقُّون.

قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ

جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، قد أَقْفَلَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عن قبول الحقِّ، وطَبَعَ على أفعالها بالأخْتَامِ، وهذا كناية عن انحجابها انحجاباً كاملاً عن أنوار الهداية، وهذا الطَّبْعُ قد كان نتيجةً لما

اختاروه لأنفسهم من كفر وفُجور وعصيان، واستعلاء في الأرض وطغيان، بسبب ما شحنوا في صدورهم من كِبَرٍ، وشَحَنُوا في نفوسهم من رغبات تجبُر على خَلْقِ الله.

فالتَّطَبُّعُ على القَلْبِ ظاهرةٌ من ظواهر القوانين القدرية العامة، التي تَحْدُثُ بأسبابٍ ما يَخْتَارُ النَّاسُ لأنفُسِهِم بإراداتهم الحرة، فَهُمُ الْمَسْئُولُونَ عَنْهُ، كمن يصنع يدهُ في النار فيُخْرِقُهَا اللهُ له بقانونه القدري العام، ضمن أنظمتها وسننه الدائمة في كونه.

ودلت العبارة على أن الطبع على قلب المتكبر الجبار يكون على كل منافذ قلبه التي يمكن أن تنفذ منها أنوار هداية إلى حق أو خير، إذ جاء فيها بيان أن الطبع يكون على كل قلبه، لا على بعض قلبه، والسبب في ذلك كونه متكبراً جباراً، وهذا لا يرجى منه خير، بخلاف من يُطَبِّعُ على بعض قلبه بسبب الأهواء والشهوات والرغبات التي ليست من حضيض الكبر والتجبر، فإنه قد يُرَجَى منه خير.

وبعد هذا الفاصل التعليلي الذي هو بيان من الله وليس حكاية لمقالٍ قاله مؤمن آل فرعون، والذي هو بمثابة معترضة بيانية، عند مفصل ينبغي الاستفادة منه لهذا البيان، عاد النص القرآني لمتابعة حكاية ما جرى في المجلس الفرعوني الاستشاري فقال الله عز وجل:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمْنُنْ أَبْنِي صَرَحا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٧﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كُذِّبًا... ﴿٢٨﴾ ﴾

هامان: هو وزير فرعون الأول، ويده اليمنى.

صَرَحا: أي: قَصراً عالياً شامخاً.

فَأَطَّلِعَ إِلَى: أي: فأضعد إلى أغلاه وأنظر إلى إله موسى الذي يُمِدُّه بالقوى العجيبة والخوارق، أي: لأسأله هل موسى رسوله حقاً.

يُفهم من هذا أن فرعون رأى تأثيرَ بيان الرجل من آله في نفوس مجلسٍ  
مستشاريه، فأَسْرَعَ إلى تعليق الأمرِ على بحثٍ سيقوم به هو شخصيًا بطريقة  
ينفرد بها، وبوسيلة يطولُ أمدُ تحقيقها جدًّا، وحينما تَحَقَّقَ يستطيع أن يدعيَ  
ما يشاء من دعاوى يُحيلها على مشاهداته الشخصية، ومحادثاته الخاصة مع  
إله موسى.

فأمَرَ وزيره الأول هَامَانَ، والعالمَ بخبايا مكايده أن يبيِّن له صرحاً عالياً  
شامخاً، حتَّى يصعد إلى أعلاه، وينظر إلى إله موسى ويُحَادِثه، ويعلمَ منه  
الحقيقة، أليس هو من سلالة الآلهة، وفيه مواريثُ من قواها القادرة على  
الاتصالِ بالربِّ الأعلى، والاتصالِ بالهة السماء؟!!

لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسبابَ أسبابَ السَّمَاوَاتِ: أي: أرجو أن أبلغَ الأسبابَ  
العلويةَ، أسبابَ السَّمَاوَاتِ التي اتَّخَذَهَا بما لديَّ من قوى خاصة، فأصلُ بها  
إلى السَّمَاوَاتِ العاليات، وهناك اتصل بإله موسى وأحادثه وأعرف منه  
الحقيقة.

وكانَ هذا التعليقُ مكرراً منه أوحى إليه به دهاؤه، إذ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ  
يخاطبهم على أقسام:

● قسم مشارك له في السلطان، عَلِيمٌ بخبائثه وأكاذيبه ومكايده، فهو  
يؤيده ويؤايدُه على دعاواه، ويحاول الإقناع بصحتها.

● وقسم مخدوع ساذج، يُوضَعُ عادةً في المجالس الاستشارية العُلَيَا،  
لاستغلاله في ترجيح الرأى الذي يريده كبيرهم، إذ يُعْلِنُ أفرادُه موافقتهم على  
اقتراحه الذي قَدَّمه.

● وقسم ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء، ولكن أعداد أفراده لا يكفون  
لترجيح الرأى المخالف.

وهكذا استبعد فرعون إعادة بحث الموضوع، وكفَّ عن الإلزام بإصدار قرار شورى بقتل موسى، وتنازل عن العزم بأنه ساحرٌ كذاب، واكتفى بقوله: وإني لأظنه كاذباً، مؤكداً ظنه لا جازماً بكذبه، فقد رأى من آله من هو مؤمنٌ به.

وجاء التعليق القرآني على هذا الموقف الأخير لفرعون، بقول الله عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ. وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وَصَدَّ: بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله، أي: وصُرِفَ ومُنِعَ.

عن السَّبِيلِ: أي عن السبيل الحق، وهو سبيل الله المستقيم.

وباستطاعتنا أن نُذركَ أنَّ الذي صدَّه عن اتباع السبيل ما في نفسه من تكبرٍ وتَجَبُّرٍ في الأرض، أخذاً ممَّا جاء في قول الله تعالى الذي سبق تدبره آنفاً: ﴿... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾﴾ مع مساعدة وساوس شياطين الإنس والجنّ وتسويلاتهم.

كَيْدُ فِرْعَوْنَ: أي: تدبيره أمورَه لقمع الحق ودُعائه.

فِي تَبَابٍ: أي: في خسران وخيبة وهلاك.

والمعنى: وكذلك التزيين الذي زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ من قِبَلِ عوامل نفسه المستكبرة الطاغية الفاجرة، ووساوس شياطينه من الإنس والجن، إذ أحال قضية التثبت من صحة رسالة موسى وصحة ما جاء به، على بناء صرح شامخ أمرَ وزيره هامان به، كي يَضَعَدَ إلى أعلاه برجاء أن يبلغ أسباب السماء، فيتخذها وسيلة موصلة إلى السماوات، وهناك يتصل بآله موسى ويعلم منه الحقيقة، زَيْنَ لَهُ أيضاً سُوءَ عمله في أمور أخرى كثيرة، وتابع قيامه بسوء عمله الذي زَيْنَ له.

لقد كاد الرجل المؤمن من آلِه ليتخلص منه ومن دعوته، وليسكت لسانه، لكن ما كان كيدُه الذي كاده ضده وضد موسى وبني إسرائيل إلا في خسران وخيبة مسعى، ثم انتهى به إلى هلاكه وهلاك آلِه الذين اتبعوه، وهلاك جنده.

فظهر أن كيدَه الذي كاده قد كان غارقاً في تبابٍ، أي: في سعيٍ غايته خسرانٌ وهلاكٌ.

\* \* \*

٥ - قول الله عز وجل مبيناً دعوة مؤمن آل فرعون في جماهير قومه من القبط:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَنْقُورِ اٰتِعُونَ اٰهْدِكُمْ سَبِيْلَ الرَّسٰدِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورِ اِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتَّعْ وَاِنَّ الْاٰخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ اِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صٰلِحًا مِّنْ ذَكَرٍ اَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَاُولٰٓئِكَ يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُوْنَ فِيْهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ وَيَنْقُورِ مَا لِيْ اَدْعُوْكُمْ اِلَى النَّجْوٰةِ وَتَدْعُوْنِيْ اِلَى النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُوْنِيْ لِاَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَاَشْرِكْ بِهٖ مَا لَيْسَ لِيْ بِهٖ عِلْمٌ وَاَنَا اَدْعُوْكُمْ اِلَى الْعَرِيْزِ الْغَفِيْرِ ﴿٤٣﴾ لَا جَرَمَ اِنَّمَا تَدْعُوْنِيْ اِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْاٰخِرَةِ وَاَنْ مَّرَدُّنَا اِلَى اللّٰهِ وَاَنْتَ الْمُسْرِفِيْنَ هُمْ اَصْحٰبُ النَّارِ ﴿٤٤﴾ فَسَتَذْكُرُوْنَ مَا اَقُوْلُ لَكُمْ وَاَفُوْضُ اَمْرِيْ اِلَى اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ بِالصّٰبِرِيْنَ بِالْعَبَادِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

يبدو أن مؤمن آل فرعون لما انكشف أمره في مجلس شورى القصر الفرعوني، وأنه من الذين آمنوا بموسى واتبعوا دينه الذي جاء به، رأى فرعون ووزراؤه وفريق من أعضاء المجلس الاستشاري إصدار قرار بطرده من مجلس المستشارين لخروجه عن دينهم الوثني، ودعوته إلى دين موسى الذي آمن به معظم بني إسرائيل، وإبعاده عن القصر الفرعوني، فأصدر فرعون قراراً بذلك، ولا يتعد أنه أصدر أيضاً قراراً بطرده من عليّة آل فرعون، لأنه صار بينهم داعية إلى دينه المخالف لدينهم.



عندئذ انطلق الرَّجُلُ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ،  
بين جماهير القبط من قومه، وتعرض في دعوته لجدلياتٍ من قومه، فناظرهم  
وجادلَهُمْ بِأَلْسِنَةٍ هِيَ أَحْسَنُ.

وقد لَخَّصَ النَّصُّ الَّذِي نَتَدَبَّرُهُ مِنْ سُورَةِ (غَافِرٍ) أَهَمَّ مَقَالَاتِهِ فِي دَعْوَتِهِ  
الرَّشِيدَةِ، وَجَدَلِيَّاتِهِ الْحَكِيمَةِ، وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إِلَى ثَمَانِي مَقَالَاتٍ:

المقالة الأولى: ﴿يَقَوْمِ أَتَيْتُكُمْ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿٢٧﴾ نداؤه لهم  
بعبارة: ﴿يَقَوْمِ﴾ فيه استعطافٌ لهم، وإشعارٌ بحرصه على خيرهم وسعادتهم  
واهتمامهم إلى سبيل الرَّشَادِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ فَوْزُهُمُ الْعَظِيمُ، وَخَيْرُهُمُ الْجَسِيمُ،  
فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ مِنْ  
أَعْضَاءِ مَجْلِسِ مُسْتَشَارِيهِ فِي الْقَصْرِ.  
أَهْدِيكُمْ: أَي أَبَيِّنُ لَكُمْ.

سبيل الرَّشَادِ: هُوَ سَبِيلُ اللَّهِ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، وَالرَّشَادُ هُوَ الشُّلُوكُ  
الْمُوَافِقُ لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ، أَوْ لِمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَكْثَرُ نَفْعًا، وَالْأَبْعَدُ  
عَنِ الضَّرْرِ، فَكِرْيًا وَاعْتِقَادِيًّا وَنَفْسِيًّا وَخَلْقِيًّا وَعَمَلِيًّا.

وطبيعي أن يكون مثل هذا النداء المتضمن الدعوة إلى الاتباع بعد  
الاستماع إلى مضمون الدعوة، الخطوة الأولى في دعوة الداعي إلى سبيل  
ربه، بعد أن عرفوا أنه يدعو إلى دين الله الحق الذي آمن هو به واتبعه.

المقالة الثانية: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ  
الْقَرَارِ﴾ ﴿٢٨﴾.

مَتَاعٌ: أَي: شَيْءٌ يُنْتَفَعُ بِهِ انْتِفَاعًا مُؤَقَّتًا قَصِيرَ الْأَجْلِ، وَالْفَنَاءُ يَأْتِي  
عَلَيْهِ.

دار القرار: أَي: دَارُ الْاِسْتِقْرَارِ الْأَبَدِيِّ الَّذِي لَا نَهَايَةَ لَهُ.

إن أعظم خطوات الداعي إلى سبيل ربه بعد تأسيس الإيمان بالله، بناء قاعدة الإيمان بالحياة الآخرة والدار الآخرة التي هي دار البقاء الخالد، والتي يكون فيها الحساب على ما قدّم الممتحنون في الحياة الدنيا لآخرتهم من خير أو شرّ، ويكون فيها فضلُ القضاء، ثمّ الجزاء بالثواب على ما قدّموا من خير، أو بالعقاب على ما قدّموا من شرّ.

وإذ كان القوم من المؤمنين بالله الرّبّ العليّ الأعلى، كان من الحكمة أن يدعوهم إلى الإيمان بأنّ الحياة الدنيا متاعٌ زائل، وأنّ الآخرة هي دار البقاء الدائم، وأن يبيّن لهم هذا الركن من أركان الإيمان.

ثم إن إثبات أنّ هذه الحياة هي حياةٌ دُنيا، وأنّ حياة أخرى خالدة لا بُدّ أن تأتي بعدها، يستدعي سؤالاً عن الغاية من إيجاد حياتين يفصلُ بينهما موتٌ وفناء؟.

والجوابُ البدهيُّ هو أنّ الحياة الأولى هي حياة امتحان واختبار بالإيمان والعمل الصالح، أو ضدّهما، وأنّ الحياة الأخرى هي حياة الجزاء، وأنّ الجزاء إنّما يكون بعد الحساب وفصل القضاء.

فجاءت المقالة الثالثة كاشفة لهذه الحقيقة بشيء من التفصيل.

المقالة الثالثة: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾﴾

أي: إنّ الحياة الأخرى قدّ أعدت في خطة الوجود الربّانيّة للجزاء، وقاعدة الجزاء الربّانيّ قائمة على العدل والفضل:

● فمن عمِلَ سيئةً فجزاؤه بالعدلِ سيئةٌ مثلها، ولا يظلمُ الله أحداً مثقال ذرّة، سواءً أكان ذكراً أو أنثى.

● وَمَنْ عَمِلَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا صَالِحاً وَهُوَ مُؤْمِنٌ صَحِيحُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ  
وبما جاء من عند الله ممّا بَلَغَهُ رسول الله، فجزاؤه بالفضل الرّبّاني، وهو أن  
يدخل الجنة دار النعيم الخالد، وهو في الجنة يرزقُ أبداً بغير حسابٍ ولا  
تقدير، بل يجد رزق الله فيها فيضاً.

وهنا تعرّضَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ من آل فرعون لجدالِ المجادلين، وقد  
يكون بعضهم مدفوعاً من حاشية القصر الفرعوني.

والجدال في هذه المرحلة من مراحل دعوته لا بُدَّ أن يكون حول  
شركائهم من دون الله، وما لهؤلاء الشركاء من سلطان في مُلْكِ الله، وحول  
عقائدهم التقليدية الموروثة، والأعمال والعبادات المستندة إلى هذه العقائد،  
ولا بُدَّ أن يواجه دُعاةً مدفوعين من السلطة الحاكمة لإعادة الرّجل إلى دين  
آبائه وأجداده القائم على الشرك والوثنية.

فجاءت المقالة الرابعة دالةً على ما تعرّض له من جدال بالباطل، ودعوة  
إلى أن يزجج إلى دين الشرك والوثنية.

والواجب يقضي بأن يجادلهم بالتي هي أحسن، إذا جادلوه بالباطل، أو  
بما يؤذي وبما يسوء ويقبح.

المقالة الرابعة: ﴿ وَيَنْقُورِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى  
النَّارِ ﴾.

أي: وَيَا قَوْمَ، عجبٌ عظيمٌ لي يملأ نفسي، من هذا التناقض بيني  
وبينكم، فأنا أدعوكم إلى النجاة من عذاب اللّهِ في الآخرة، بالنار دار عذاب  
المجرمين الكفار، وأنتم تدعونني لأكون من المعذبين في النار.

وهنا يظهر أنهم قالوا له: كيف ندعوك إلى النار، ونحن بدعوتك إلى  
العودة إلى دين آباتك وأجدادك نفتح لك أبواب المجد، حتّى تعودَ إلى

مكانتك الرفيعة في القصر الفرعوني؟! .

فأجابهم بما جاء في المقالة الخامسة:

المقالة الخامسة: ﴿ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴾ .

أي: إنكم تدعونني لأكفر بما جاء عن الله على لسان رسوله الذي أيده بالمعجزات الباهرات، وتدعونني لأشرك به ما تعبدون من شركائكم التي صنعتم لها أوثاناً ثلاثة، وهؤلاء الشركاء التي تزعمونها شركاء لله لا أملك بشأنها علماً قائماً على حجة يقبلها العقل، ثبت أن لها شيئاً من ربوبية أو إلهية، حتى أومن بها وأنقرب إليها بعبادة، وكل من الكفر بما جاء عن الله من حق، والأخذ بمذهب الشرك الذي تدعونني إليه، عاقبته العذاب في النار.

إذن فأنتم تدعونني إلى النار.

أما أنا فإنني أدعوكم إلى الإيمان بربكم، وإلى الإيمان بما جاء به رسول ربكم، أدعوكم إلى ربكم العزيز الذي له القوة الغالبة في الوجود كله، في الدنيا، وفي الآخرة، فهو القدير على معاقبة المذنبين الكفار في النار، فلا يحميكم من عذابه شركاؤكم ولا غيرهم. وأدعوكم إلى ربكم الغفار الذي إذا تُبُّمَ إليه وهجرتم كفركم وشرككم، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

وهنا يظهر أنهم قالوا له: كيف تُنكر أن يكون لشركائنا تأثير ونحن وأباؤنا ندعوها ونتقرب إليها فتتحقق لنا بدعائها المصالح والمنافع التي نرجوها؟! وكيف تزعم أن الآخرة تكون للجزاء!؟ .

فأجابهم بما جاء في المقالة السادسة:

المقالة السادسة: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ .

لا جَرَمَ: صيغة يستعملها العرب لتأكيد الكلام وتوثيقه، وقد تحمل معنى القسم فتأتي بعدها اللام التي تقع في جواب القسم. فهي بمنزلة: «حَقًّا» أو - لا بُدَّ - لا محالة - لا شك - ونحو هذه العبارات. وأصلُ معنى «الجَرَم» القَطْعُ، ويأتي بمعنى اكتساب الذنب، أقول: فكأنَّ أصل المعنى عند بدء التداوُل: لا جَرَمَ جارمٌ ما أقول، برأي مخالف له مُذنب به، ثم حصل الاكتفاء بعبارة «لا جَرَم» على عادة العرب في الاختصار والاكتفاء ببعض الكلام.

ليس له دَعْوَةٌ في الدنيا ولا في الآخرة: أي: لا توجدُ له في الواقع والحقيقة دعوةٌ ما، لا هادية ولا مضلّة، فأمرها ساقطٌ دون بحث ولا جدال.

وذلك لأنَّ الدُّعَاةَ قِسْمَان: قِسْمٌ يَدْعُو إلى سلوك السبيل الموصل إلى الجنة، فدَعْوَتُهُ دعوةٌ هداية. وقِسْمٌ يدعو إلى سلوك السبيلِ الموصلة إلى النار، فدعوته دعوة ضلالة.

لكن أوثان المشركين ليست لها دعوةٌ ما، لا هاديةٌ ولا مُضِلَّة، وعبادها المؤمنون بها يتبعون أسماءهم سمّوها، وأوامها صنعتها لهم تخيلاً تُهم التي لا تطابق واقعاً ذا حقيقة.

فمؤمن آل فرعون قال لهم: ممّا لا شكَّ فيه لدى كلِّ ذي فكرٍ سليم وعِلْمٍ مستندٍ إلى أدلّةٍ صحيحة، أنّ ما تدعونني إليه وهي أوثانكم ليس لها دَعْوَةٌ، لا هاديةٌ ولا مُضِلَّة، لأنها أحجّازٌ جوامد، فإن كان لديكم ما يثبت أنّ لها دعوةٌ ما، فهاتوا برهانكم، أو حُجَجكم الضعيفة لفحصها، والمحاورة حولها.

وبعد هذا أكد لهم أنّ الرجعة إلى الحياة بعد الموت ليست رجعةً إلى الحياة الدنيا كما هم يعتقدون، إنّما المرادُ إلى الله، للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، بمقتضى نظام حياةٍ أخرى مؤهلة للخلود غير معرّضة للموت والفناء.

وَأَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ بسبب كفرهم وإصرارهم على الباطل، أو إشراكهم بالله ما ليس لهم به عِلْمٌ، هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، الملازمون لها دوماً في خلود أبدِيّ.

وَأَنَّ مَرَدَّنَا: أي: وَأَنَّ مَرَجِعَنَا، بمعنى رُجوعنا، فالمرَدُّ مصدرٌ ميمي لفعل «رَدَّه» بمعنى أَرْجعه.

ويظهر أَنَّ حِجَّةَ قومه قد انقطعت، ولم يَبْقَ لديهم ما يراوغون به، إِلَّا أَنَّهُمْ وَاجْهَوْهُ بالمعاندة والإصرار على عقائدهم التقليدية، وعاداتهم الموروثة، كدَّأَبِ كُلِّ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ تقليداً أَعْمَى يقولون: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، أي: فلا تُتَعَبُ نفسك بإقناعنا لتحويلنا عما نحن ملتزمون به، ومعتادون له.

عندئذٍ وَجَدَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُمُ الْمَقَالَةَ السَّابِعَةَ:

المقالة السابعة: ﴿ فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾.

أي: قَالُوا لَهُ مَقَالَاتِ الرَّفُضِ الْقَاطِعِ لدعوته، فقال لهم: سَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، أي: ما أقوله لكم بتكرار بغية إقناعكم وأنتم تَرَفُضُونَ ولا تستجيبون.

إنهم سيذكرون حَتْمًا أقواله التي دعاهم فيها إلى سبيل ربه، حينما يَتَعَرَّضُونَ للمهلكات، كحالة التَخْبِطِ في اليمِّ المتلاطم يَوْمَ أَغْرَقَهُمُ اللهُ، وحينما ينزل بهم عقابُ الله في نار جهنم يوم الدين، وقبل ذلك يوم الحساب.

ولمَّا يَسَرَ فِرْعَوْنُ وَآلُهُ مِنْ عَوْدَةِ رَجْلِهِمْ إِلَى دِينِهِمُ الشَّرِكِيِّ الوثنِيّ، دَبَّرُوا لَهُ مَكِيدَةً يَتَخَلَّصُونَ بِهَا مِنْهُ، كِي يُسَكِّنُوا لِسَانَهُ عَمَّا يَقُومُ بِهِ مِنْ دَعْوَةِ إِلَى دِينِ مُوسَى بَيْنَ جَمَاهِيرِ الْقَبْطِ.

وَبَلَغَ الرَّجُلُ أَنَّهُمْ ذَبَرُوا لَهُ مَكِيدَةَ قَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ، فَقَالَ مَقَالَتُهُ الثَّامِنَةَ:

المقالة الثامنة: ﴿ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١١).

أي: إني أعوذ بالله من مكرهم، وأتوكل عليه، وأفوض أمري إليه، فهو البصير بي وبهم.

وبهذا انتهت قصة دعوة مؤمن آل فرعون.

\* \* \*

٦ - قول الله عز وجل مبيّناً عاقبة مؤمن آل فرعون، وعاقبة آل فرعون بعد مكرهم به:

﴿ فَوَقَدْنَا لِلَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾ ﴾.

فَوَقَدْنَا لِلَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا: أي: فجعل الله بينه وبين السيئات التي مكرها ضده وقاية حمته وحفظته فلم يصبه منها شيء.

ويظهر أن هذا الحديث قد كان قُرب خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، في اتجاه سيناء، وملاحقة فرعون وآله وجنوده لهم، وانتهى الأمر بغرق فرعون وآله وجنوده، وقد دلّ على هذا قول الله عز وجل:

﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾ ﴾.

حَاقَ: أي: أحاط ونزل.

سُوءُ الْعَذَابِ: أي: العذابُ السوء، فسوء العذاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، أو هي إضافة على تقدير «من» أي: سُوءٌ من العذاب.

وسُوءُ العذاب الذي أحاط بهم وأصابهم قد كان في الدنيا عذاب

الإغراق، أما زمن البرزخ فدلّ على عذابهم فيه، قوله تعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وأما الآخرة فدلّ على سوء عذابهم فيها قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (١١).

أي: يقول الله لملائكة التعذيب يوم الدين: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

أما فرعون فيكون في مقدمتهم إماماً إلى جهنم. كما كان يقدّمهم إلى الشرِّ والفساد والعصيان، والكفر والبغي والطغيان، في الدنيا دار الامتحان، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٢﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٣﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٤﴾﴾.

\* \* \*



## النموذج الثاني

دعوة مؤمن أصحاب القرية  
التي جاءها المرسلون وانتصاره لهم ولدعوتهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦/ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَاءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٤٠﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوِرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٣﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبْ لَنَا ذُرِّيًّا لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِدُونَ ﴿٤٦﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٤٨﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٥٠﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُودٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٥١﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٥٢﴾ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

## نظرة إجمالية عامة

اشتمل هذا النص على تعليم من الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ، أن يوجه علاجاً لقومه، بأن يُقدّم لهم صورة من صور الإقناع الذي يحمل عصا الإنذار بالعقاب المعجل للذين لم يؤمنوا به رسولاً، ولم يؤمنوا بما جاء به عن ربّه، من كُفّارِ مكة إبان نزول سورة (يس) في مراحل الدعوة.

وهذه الصورة هي ضرب مثلٍ لما هم فيه من عنادٍ وإصرارٍ على الكفر، بما كان عليه أصحابُ قرية وثنيةٍ جاءها مُرسَلون من غير أهلها، فدعَوْهُمُ إِلَى الإيمانِ الحقِّ، وإلى تَرْكِ ما هم فيه من وثنيةٍ باطلة، فكذبوهم في كونهم رُسُلَ رَبِّهِمْ، فأكدوا لَهُمْ أَنَّهُمْ صادقون مُرسَلونَ حَقًّا، وأنهم لَيَسُوا مطالبين من رَبِّهِمْ إِلَّا بالبلاغِ المبينِ المُوضَّحِ لقضايا الإيمانِ الحقِّ، ولشرائعِ الله وأحكامه لعباده بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنهم لَيَسُوا مكلِّفِينَ أَنْ يُلزِمُوا القوم بأن يؤمنوا بهم ويتبعوهُمُ إلزاماً جبريًّا، وهم كارهون غير راغبين، فالاستجابة لدعوة الرُّسُلِ ينبغي أن تكون استجابةً اختياريةً إراديةً طوعيةً، لا استجابةً جبريةً، أو إكراهيةً على خلاف رغبةٍ المستجيب واختياره الحرّ.

فأصرَّ أصحابُ القرية على تكذيب رُسُلِ رَبِّهِمْ، وهددوهم بالقتل رجماً بالحجارة، وبنزَالِ عذابٍ أليمٍ فيهم.

ونصرَ المرسلينَ الثلاثةَ رجلٌ من أصحاب القرية جاء من أقصى المدينة يسعَى، وكان هذا في آخر موقف من مواقف دعوة المرسلين الثلاثة لهم.

فدعاهم هذا الرجلُ منهم إلى الإيمان برُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم، وإلى اتباعهم، وحاورهم وناظرهم، وأخيراً رفع عقيرته معلناً إيمانه برَبِّهِمْ الحقِّ، وهذا يتضمَّن إعلانَ كُفْرِهِ بوثنيّتهم، وكُفْرِهِ بِالهِتَمِ التي يعبدونها من دون الله.

عندئذِ التَّهَبَّتْ نيرانُ غِيظِهِمْ منه، وثاروا عَلَيْهِ ثورَةً انتقامٍ بغضبٍ هائجٍ، فقتلوه، فوجدَ عندَ رَبِّهِ مغفرةً وإكراماً عظيماً، فتمنَّى أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ بما نالَ من كرامةٍ عندَ رَبِّهِ، فَيُؤْمِنُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ وَيَتَّبِعُوهُمْ.

ولم يُنظِرِ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ القريةِ بعدَ أن قتلُوا رَجُلَهُمْ الَّذِي نَصَحَهُمْ وتمنَّى لَهُمُ الخَيْرَ حتَّى بعدَ موتِهِ لما نالَ عندَ رَبِّهِ من كرامةٍ، بل عاجَلَهُم اللهُ بالإهلاكِ الشاملِ بصيحةٍ واحدةٍ جعلتهم خامدين، كئيبين، كنارٍ نائرةٍ هائجةٍ انطفأت وخمدت فجأةً بلحظةٍ واحدةٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فدَلَّ التعبيرُ بالخمودِ على اقترانِ إهلاكهم بلهيبِ ثورتهم على رَجُلِهِم الَّذِي قَتَلُوهُ، وهذا إنَّما يكون عقب قتلهم له، ويظهر أن الرُّسُلَ الثلاثة انسحبوا لما وجدوا الرَّجُلَ ينصح قومه ويُنَاطِرُهُم.

وجاء التعقيب على قصة أصحاب هذه القرية بعبارة تتضمنُ التحسُّرَ على العباد الذين يهلكون أنفسهم في العاجلة، ويُعَرِّضُونَهَا للخلود في عذاب النار يوم الدين، بكفرهم وعنادهم، وتكذيبهم رُسُلَ رَبِّهِمْ، واستهزائهم بهم. والتحسُّر هو أثرٌ من آثار الرحمة التي تكون بعد حلول المصيبة ووقع المحذور منه، ولا تعارض بين إنزال العقاب والتحسُّر على المعاقب الذي جنى على نفسه، فالحاكم العادل يوقع العقاب الشديد بمن يستحقُّه بالعدل، ويتحسُّر عليه إذ جنى على نفسه باختياره الحرِّ.

- ٢ -

منهج مؤمن أصحاب القرية في الدعوة إلى الله

يبدو للمتأمل فيما جاء في قصة دعوة مؤمن أصحاب القرية، إذ نصر

الرُّسُلَ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، كَمَا عَرَضَهَا الْقُرْآنُ، مَقْرَأًا لَهَا، وَمَشْعَرًا بِالثَّنَاءِ عَلَى جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ رَبِّهِ، وَعَلَى مَنَهِجِهِ فِي دَعْوَتِهِ، لِيَتَّخِذَهُ الدُّعَاةَ الرَّاشِدُونَ أُسْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ فِي دَعْوَاتِهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ، أَنْ مَنَهِجَهُ يَتَلَخَّصُ بِمَا يَلِي:

أولاً:

بدأ باستعطاف من يدعوهم إليه، فناداهم بقوله: ﴿يَقَوْمِ﴾ باعتباره واحداً منهم، والمنتهمي إلى قومٍ تكون عاطفته القومية ذات حرصٍ على خَيْرِهِمْ، وشفقةٍ عليهم، ورغبةً صادقةً في نجاتهم وسعادتهم، وجلب كلِّ نفعٍ لهم، ودفع كلِّ ضررٍ عنهم.

ثانياً:

وجه نصيحته لهم بأن يتبعوا المرسلين، الذين لم يأتوا ليأخذوا منهم أجراً، ولا ليحصلوا عندهم منافع دنيوية، بل جاءوا ليلغوهم رسالة ربهم، وليهدوهم إلى صراطه المستقيم، رغبةً في نجاتهم من عذاب الله، وفوزهم بجنات النعيم يوم الدين.

فقرن النصيحة بالدليل على صحتها، من خلال بيان سلامة الرُّسُلِ الدُّعَاةِ مِنَ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِدَى الْمَدْعُوعِينَ.

ثالثاً:

أكد لقومه صدق دعوة رُسل ربهم الثلاثة، مستدلاً على صدقهم بأنهم في أنفسهم رجالٌ مهتدون، في أقوالهم، وفي أعمالهم، فهم مطبقون لما يدعون إليه من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح، إذ لا تُؤخَذُ عليهم مآخذُ تعييبهم، وتُشكك في نواياهم، وتتهمهم بسلوكٍ شائن، حتى يكون ذلك سبباً لرفض دعوتهم الرشيدة، وعدم الاستجابة لها، أو عدم الإصغاء إلى بياناتهم الهاديات التي تدعو إلى الحقِّ والرَّشَادِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

رابعاً:

تعرض لمحاجة قومه له، فسأله: هل أنت مؤمنٌ بصدقِ دعوتهم، وتعبدُ الله وحده كما يقولون، وتنبذُ عبادة آلهتنا التقليدية؟؟ .

فأجابهم إجابةً صريحةً بأنه قد آمنَ فعلاً بما يدعونَ إليه، وأخذ يقيم لهم الحجج البرهانية على الذي آمن به .

فأبان لهم أنه يجب عقلاً عليه أن يؤمن بالله رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته، وإلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته، وأنه لا يصح عقلاً أن يتخذ من دون الله آلهةً أخرى .

والدليل على ذلك أن كل ما يُعبدُ من دون الله الرّب الخالق، معبودات باطلة، لا تدفعُ ضرراً، ولا تجلبُ نفعاً، ولا تُقبلُ لها شفاعَةٌ عند الله، فمن استحقَّ عذابَ الله بسبب كفره وشركه وعصيانه لم تستطع أن تنقذه منه .

وأبان لهم أنه إن اتخذَ آلهةً من دون الله فإنه يكون منغمساً في ضلالٍ مبين، بعد وضوح الأدلة البرهانية على أنه لا إله إلا الله وحده .

خامساً:

لما غضب قومه منه، بسبب خروجه عن ملتهم واتباعه المرسلين، هددوه بالقتل إذا لم يعد إلى ملتهم .

هنا أصرَّ الرجل بشجاعة على موقفه، ورأى أن يبقى معلناً إسلامه مجاهداً في سبيل ربه، ونادى في القوم بأعلى صوته أمام جمهور قومه :

﴿ إِنِّي ءَأْمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ .

عندئذٍ ثارت ثورة غضبهم منه، فقتلوه، فغفر الله له وجعله من المكرمين، فلما شهد ما حباه الله من كرامة، وما تفضل به عليه من غفران، وروحه عند ربه قال :

﴿... يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

وأرسل الله الصيحة على أصحاب القرية فأهلكتهم وأحمدت نيران ثورتهم الغضبية، فإذا هم ميئون.

- ٣ -

التدبر التحليلي للنص المبين قصة الرسل الثلاثة

قول الله عز وجل مبيّنًا قصة الرُّسل الثلاثة مع أصحاب القرية خطاباً

لرسوله:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَاءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِيَكُونَ لِمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينِ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

● قول الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ الخطابُ موجه للرسول محمد ﷺ، وَيُوجَّهُ بَعْدَ الرَّسُولِ لِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ.

والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ يُفْصَدُ بِهِ مُشْرِكُو مَكَّةَ إِتَابَانَ تَنْزِيلِ سُورَةِ (يَسَ) فَقَدْ نَزَلَتْ فِي أَوَاسِطِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ، وَالسُّورَةُ تَتَضَمَّنُ مَعَالِجَتَهُمْ وَبَيَانَ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الْمَرِحَلَةِ مِنْ مَرَاكِلِ دَعْوَتِهِ فِي مَكَّةَ، إِذْ أَكْثَرَ كِبَرِائِهَا قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَضِيضٍ:

﴿وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

كما جاء في أوائل السورة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا﴾ أَصْلُ الضَّرْبِ تَوْجِيهَ شَيْءٍ لَشَيْءٍ آخَرَ بِقُوَّةٍ حَتَّى يَصْطَدِمَ بِهِ وَيؤَثِّرُ فِيهِ أَثْرًا مَا .

ولَمَّا كَانَتْ صِنَاعَةُ الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ تَتِمُّ عَنْ طَرِيقِ ضَرْبِ صَفَائِحِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ بِقَوَالِبِ حَدِيدِيَّةٍ صُلْبَةٍ حُفِرَتْ فِيهَا أَمْثَلَتُهَا، أَوْ ضَمِنَ قَوَالِبُ يَدْخُلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، قَالُوا: ضَرَبَ فُلَانٌ الدَّرَاهِمَ أَوْ الذَّنَانِيرَ، إِذَا طَبَعَ عَلَيَّ مَعْدِنَهُمَا الْمِثَالِ الْمَحْفُورِ فِي الْقَالِبِ .

ثُمَّ حَصَلَ تَوْسُعٌ فِي مَعْنَى الضَّرْبِ فَقَالُوا: ضَرَبَ مِثْلًا، أَي ذَكَرَ أَوْ صَنَعَ مِثْلًا .

وَالْأَصْلُ فِي الْمِثْلِ أَنَّهُ تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ لَوْجُودِ عُنْصُرٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنَ التَّشَابُهِ أَوْ التَّمَاثُلِ بَيْنَهُمَا .

وَأَصْحَابُ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ عَرَضَ النَّصَّ قَصَّتْهُمْ وَعَاقَبَهُ إِهْلَاكُهُمْ، مِثْلُ تَارِيخِيٍّ وَقَعِيٍّ يُشَبِّهُهُ وَقَعُ حَالِ مُشْرِكِي مَكَّةَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى مَا قَبَلَ إِهْلَاكِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْقَرْيَةِ .

وَعَرَضَ الْمِثْلُ يَتَضَمَّنُ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْإِقْتِنَاعِ بِإِحْدَى سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَيَتَضَمَّنُ إِندَارًا بِأَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَمَعَادَاةِ الرَّسُولِ، وَتَطَاوَلُوا إِلَى مَحَاوَلَاتِ الْقَتْلِ، فَمِنْ الْمُرْتَقَبِ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ كَمَا أَهْلَكَ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذَا اقْتَضَتْ حُكْمَتُهُ ذَلِكَ .

وَجَاءَ فِي الْمَرَادِ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ الْأَسَانِيدِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ أَنَّهَا مَدِينَةُ أَنْطَاكِيَّةٍ، وَهَذَا الْاسْمُ يُطْلَقُ عَلَى مَدِينَتَيْنِ أُسَسَهُمَا أَحَدُ قَوَادِ جَيْشِ الْإِسْكَانْدَرِ الْأَكْبَرِ .

وَمِنَ الْخَيْرِ التَّوَقُّفُ عَنْ تَحْدِيدِ الْمَرَادِ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ .

﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي: اضرب لهم مثلاً قصة أصحاب القرية في وقت مجيء المرسلين إليها.

● ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَاكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

فَعَزَّزْنَا: أي: فقوينا.

لقد أرسل الله عز وجل إلى أهل هذه القرية في المرحلة الأولى رسولين، فكذبوهما في رسالتهما وفيما قدما من تبليغ لدين الله الحق، فقواهما الله برسول ثالث، فقالوا لهم مؤكدين: إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ.

فاعترض عليهم أهل القرية باعتراضين، وبنوا عليهما تكذيبهم.

● ﴿ قَالُوا مَا آتَانَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

الاعتراض الأول: ﴿ مَا آتَانَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي: وليس من شأن البشر أن يكونوا صالحين للتلقي عن الله خالق السماوات والأرض، ولأن يكونوا رسلاً له.

وهذا الاعتراض قد اعترضت به كل الأمم التي كذبت رسل ربها، وهو قائم على توهم أن رسل الله إلى عامة البشر لا بُدَّ أن يكونوا من الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ولا يمشون في الأسواق لكسب أرزاقهم كما يفعل الناس.

مع أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسل إلى البشر من البشر أنفسهم ليكونوا حجة عليهم في إيمانهم، وفي استقامتهم على العمل الصالح.

الاعتراض الثاني: ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ ﴾ وهو اعتراض ادعائي افتراه من عند أنفسهم، وجحدوا به بلاغات الرسل من عهد نوح إلى إبراهيم، إلى موسى والرسل من بعدهم عليهم السلام. فليس له قيمة فكرية.



الاستنتاج: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾: لا قيمة لهذا الاستنتاج بعد سقوط الاعتراضين اللذين استندوا إليهما، فهو محض اتهام بالباطل، وشتيمة من شتائم السفهاء.

فأجابهم الرُّسُلُ الثلاثةُ بتأكيد أنهم مُرْسَلُونَ إليهم مُقْسَمِينَ بعلم الله بذلك، وبأنهم لم يُكَلِّفُوا إِلَّا أَنْ يُبَلِّغُوهُمْ بِلَاغاً مُبِيناً، ثم لهم الحرية في أن يستجيبوا وأن يرفضوا.

● ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمَنَا إِنْ كُنَّا لَمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا عَلَّمَنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينَ ﴿١٨﴾﴾.

ردوا على الشتيمة القائمة على محض الاتهام بالباطل بتأكيد أنهم رُسُل ربهم الذي يعلم ذلك، ويؤيدهم بمؤيدات من عنده.

وأبأنوا لهم أنهم قد جاء وهم مبلِّغين، لا مُكْرهين ولا مجبرين، فإن شاؤوا اتبعوا، وإن شاؤوا رفضوا، والتبليغُ البيانيُّ تعريفٌ علميٌّ ليس من شأن العقلاء أن يرفضوه، فهو مجردُ كلام يَطْرُقُ الآذان.

وخلال مدة بقاء الرُّسُلِ الثلاثة بين أصحاب القرية يُبَلِّغُونَ، تعرَّضُوا لبعض النوازل الربانية، كانقطاع نزول المطر، أو آفات نزلت بزروعهم وثمارهم، أو أمراض أصيبوا بها، فأحالوا سبب ذلك على وجود الرُّسُلِ بينهم، تطيراً وتشاؤماً، فواجهوا الرُّسُلَ بتطيرهم منهم، وأمروهم بالكف عن متابعة دعوتهم، وإلا قتلهم رجماً بالحجارة وأنزلوا بهم عذاباً أليماً.

● ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

التطيرُ: التشاؤم بالأشياء، أو بالأشخاص، أو بالأحداث.

وجه أصحاب القرية بمقتضى دلالة هذه الآية مقولتين:

المقولة الأولى: دل عليها ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: إن ما نزل بنا مما

نكره من نقص في الأموال والأنفس والثمرات، قد كان بسبب وجودكم بيننا، وبسبب دعوتكم التي جئتمونا بها.

والمعنى: فكفوا عن دعوتكم، حتى يذهب عنا ما نزل بنا من مكروه.

المقولة الثانية: مقولة تهديد وإنذار، دل عليها: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

فأجابهم الرُّسُلُ جواباً يتضمَّن ثلاث مقولات:

● ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾.

المقولة الأولى: دلَّت عليها عبارة ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

يُطْلَقُ الطَّائِرُ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا يَحْضُرُ بِهِ التَّشَاؤُمُ.

والمعنى: إنكم توهمتم أن دعوتنا هي السبب فيما حلَّ بكم من مصائب ربانية، فتطيرتم بنا تطيرت تشاؤم، مع أن السبب في الحقيقة هو شرككم وكُفركم وتكذيبكم لرُّسُل ربِّكم، وهذا السبب هو الذي جلب بعض المصائب لكم، وأنزل بكم بعض العقوبات الربانية.

وهذا السبب موجودٌ معكم لا معنا، فما هو فكيم ومعكم ممَّا لا تريدون التخلص منه هو طائرُكم، وهو الذي يجب أن تتشاءموا منه، لا أن تتشاءموا من رُّسُل ربِّكم، وهو الذي يجب أن تُبْعِدُوهُ وترجموه رجماً طرْدٍ أبدي، ومَّا كان يصحُّ أن تُهَدِّدُوا بالعذاب الأليم، وبالرَّجْم حتى الموت.

المقولة الثانية: دلَّت عليها عبارة: ﴿أَيْنَ دُكِّرْتُمْ؟!﴾.

والمعنى: إن دُكِّرْتُمْ من قِبَلِ رَبِّكُمْ بالمصائب التي تنزل بكم لعلكم تتذكروا، فتتوبون إلى بارئكم، قبل أن يُنزل بكم هلاكاً شامِلاً، جعلتُم هذا التذكير الرباني لَكُمْ سبباً للتطير بنا وبدعوتنا، فوجهتم تهديدكم لنا بالعذاب الأليم وبالرَّجْم حتَّى الموت.

الاستفهام هنا استفهام إنكاريّ تعجبيّ.

المقولة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

هذه المقولة تشعر بأن أصحاب القرية أو أصحاب الجاه والسُلطان فيهم قالوا: لسنا الوحيدين بين أهل المدن الأخرى في انتشار ما تلومونا عليه من ظلم وعدوانٍ وفِسقٍ وبغيٍ في الأرض.

فقال لهم رُسُلهم الثلاثة: بل أنتم قوم مُسْرِفون في ارتكاب هذه القبائح، فليست النسبة فيكم مماثلةً للنسبة في غيركم من أهل المُدن والقُرَى، لقد زادت فيكم زيادةً فاحشةً إلى مستوى الإسراف الذي يستدعي أن يُنزل الله بكم هلاكاً عاماً شاملاً، كما أنزل بالأقوام الذين أسرفوا من قبلكم.

عندئذٍ جاء رجلٌ مؤمنٌ من أهل المدينة ينصُرُ الرُّسل ببيانه، وكان ساكناً في أقصاها، وضَحَى بنفسه دفاعاً عن الرُّسل الثلاثة، وعن دين الله الحقّ الذي دَعُوا القومَ إلى الإيمان به، ونَبَذَ ما هم فيه من شركٍ ووثنيّة.

- ٤ -

التدبر التحليلي للنص المبيّن قصة مؤمن أهل القرية

قال الله عزّ وجلّ مبيّناً قصة مؤمن أهل القرية في نصرته للرُّسل وفي دعوته إلى سبيل ربّه:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ إِنْ تَآمَسْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٦﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ

جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْضَرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ .

● قول الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ .

أقصى المدينة: أبعدُ المواضع عن وسطها وعن مركز الحكم فيها وسلطة التنفيذ .

لقد دلَّ هذا القول على مبلغ إيمان هذا الرجل، وتضحيته بنفسه فهو من سُكَّانِ أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وقد أقبل يسعى بهمة وعزيمة صادقة من محل إقامة البعيد عن وسط المدينة محل تجمع القوم على الرُّسُل لمحاكمتهم .

فسعيه وإقباله من أقصى المدينة دلاً على أنه رجلٌ مجاهد، أقبل في حالة رَوِيَّةٍ وتصميم، لينصُرَ المرسلين الوافدين إلى قومه من قوم آخرين، وعلى أنه لم يكن حاضراً في مجتمع القوم فتحمَّسَ بانفعالٍ طارىء فنصر الرُّسُل، بل جاء من أقصى المدينة لما بلغه أمر اجتماع قومه على الرُّسُل لمحاكمتهم ومعاقبتهم على ما يقومون به من دعوة إلى دين الله .

ولمَّا وَصَلَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ اخْتَرَقَ الْجُمُوعَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَنَصَّةِ الْحَاكِمِ وَالْمَلَأَ مِنْ حَوْلِهِ، عندئذٍ بدأ قومه بدعوتهم إلى اتباع الرُّسُل :

● ﴿ قَالَ يَفْقَرُوا أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَزُّ أَجْرًا وَهُمْ

مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

تضمَّنتُ حكاية قوله في هذا النص ثلاثة عناوين لثلاثة موضوعات :

الموضوع الأول :

دعوة قومه إلى الإيمان بهؤلاء الرُّسُلِ الثلاثة، مثبتاً لهم أنهم رُسُلٌ صادقون ليسوا بكاذبين، ودعوتهم إلى اتباعهم فيما جاؤوا به من شرائع الدين وأحكامه .

دلّ على هذا الموضوع قوله: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾.

الاتباع في اللغة: سَيَّرَ التابع على أثر المتبوع، وتقليدُ المقتدي إمامه في أقواله وأعماله، وطاعته في أوامره ونواهيه، والاستجابة له في دعوته، والاجتهادُ في تطبيق وصاياه.

ومعلومٌ أنّ إثبات صدق دعوة الرُّسل لا بُدَّ أن يكون قد تَضَمَّنَ التَّنبِيهَ على معجزاتهم، ويتضمَّن أيضاً إثبات أن مضمون رسالتهم التي جاؤوا بها حقٌّ وصدقٌ.

### الموضوع الثاني:

تأكيد الاستدلال على صدق هؤلاء الرُّسل الثلاثة، بأنهم ليسوا أصحاب مصالح شخصية دنيوية لدى قومه من دعوتهم إياهم إلى الإيمان، ونفْيِ الوثنية، ونبذِ الشرك بالله، ونبذِ سائر خرافاته.

فهم لا يسألون القوم أجراً على دعوتهم لهم إلى الإيمان الحقّ، والإسلام الحقّ لله عزّ وجلّ وخدّه لا شريك له، إنهم لا يسألون أجراً مالياً، ولا أجراً من سلطانٍ يطلبونه، ومُلْكٍ يسعون للوصول إليه، أو غير ذلك.

فهم غير متهمين في دعوتهم إلى الحقّ، وقد جاء هذا البيان لدفع أنّهم يتخذون الدعوة إلى الحقّ وسيلةً للوصول إلى مصالح شخصية دنيوية من دعوتهم عند القوم.

بينما يُلاحظ أنّ كثيراً من الناس يدعون إلى الحقّ بحجج بُزْهائِيَّة، لكنهم يتخذون ذلكَ غطاءً لمصالح دنيويَّة يريدون الوصول إليها، حتّى إذا وصلوا إلى مراداتهم من الدنيا تخلّوا عن الحقّ، وعن الدعوة إليه ونصرته، وتكشّفت عيوبهم، وظهر عدم التزامهم بما كانوا يدعون إليه.

دلّ على هذا الموضوع قولُ الرجل المؤمن الداعية المجاهد لقومه:

﴿ أَتَسِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلُكُمُ أَجْرًا ﴾ وهذا هو خلق سائر المرسلين، ومنهجهم في دعواتهم إلى سبيل ربهم.

### الموضوع الثالث:

تأكيد صدق هؤلاء الرُّسُلِ في دعوتهم، بأنهم في ذواتهم مهتدون على صراطٍ مستقيم، في أخلاقهم، ومعاملاتهم، وعباداتهم، والتزامهم بالحق والصدق والعدل والعفة والزهد فيما في أيدي الناس، والأمانة والشجاعة والجد إلى غير ذلك من كل ما يدعو الدين والعقل السليم إلى التحلي به، والتزام فضائله، فلا شيء يَجْرَحُ سلوكهم، حتى يكونوا متهمين في دعوتهم، بل هم أسوة حسنة لكل من أراد أن يتأسى بدوي الفضائل المثلى.

دلّ على هذا الموضوع قوله لقومه: ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾.

فأقام هذا الرجلُ المؤمن الداعية لقومه الحجّة البيّنة على صدق الرُّسُلِ الثلاثة، وأنه يجب عليهم أن يؤمنوا بهم ويتبعوهم.

ويظهر أن القوم قد فوجئوا بمداهمة رجلٍ منهم جمعهم الحافل بغية أن ينصُر الرُّسُلِ الثلاثة الذين لم ينتهوا عن دعوتهم، إلى محاوره الرجلِ الداعية منهم الذي آمن بالرُّسُلِ، وإلى محاكمته، إذ أُقْبِلَ من أقصى المدينة لنصرة الرُّسُلِ ببياناته وحججه، وإقناع قومه بصدق الدّعوة التي جاؤوا بها.

ويظهر للمتدبر من إحياء النص والمطويات فيه، أن ملأ أصحاب القرية قالوا لرجلهم:

إذن: فقد أمنت بهؤلاء الرُّسُلِ، وتركت دين قومك؟

قال: نعم، وأتبع هذا الاعتراف بإقامة الحجّة العقلية البرهانية على صحة ما آمن به، فقال لهم:

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرْدِنِ

الرَّحْمَنُ يَضُرُّ لَّا تَعْنِ عَفَى شَفَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٢﴾ إِنْ إِذْ لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ .

هذا البيان القرآني الذي حكى إجابة الرّجل لقومه قد اشتمل على عدّة قضايا ناظر بها الرّجلُ المؤمن الداعيةُ ملاً قومه أصحابِ القرية . ويظهر للمتدبّر من إحياءات النّص والمطويات فيه أن القوم قالوا له : كيف تعبُدُ الرّحمنَ وخدّه، ولا تعبُدُ آلهة قَوْمِكَ، آلهة آبائك وأجدادك؟! .

● فقال لهم : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ .

ومالي؟ استنْفَهَامٌ فيه معنى التعجّب والإنكار على اعتراض قومه عليه . أي : وما هو الشيء الذي لي يحميني من عذاب ربّي الذي فطرني ، كحجّة مقبولة أحتجُّ بها عنده ، أو نصير ينصُرني حالة كوني لا أعبدُ الذي فطرني وحده ، إذا أنا لم أعبده ، وعبدتُ آلهتكم من دونه ، أو جعلتُهم شركاء له ، دون أن يكون لي في ذلك بُرْهانٌ من الله؟! .

وهنا يظهر للمتدبّر للنصّ من المطويات فيه ، أن القوم قالوا له : لقد عبَدَ آبَاؤُنَا وَأَجْدَادُنَا من قبلنا آلهتنا ، ولم ينزل بهم عذابُ الله كما تزعمُ .

والجواب المناسبُ الذي أجابهم به قد اعتمد على الإيمان باليوم الآخر ، وأنّ مَرَجَعَ الناس جميعاً إلى يوم الدين ، فبعد أن يبعثهم الله إلى الحياة الأخرى يحاسبهم ، ويقضي فيما بينهم ، ويعذب المشركين في النار دار عذاب الكُفّار ، ويُدخل المتقين المؤمنين جنات النعيم .

وهذا يستتبع أنّهم قالوا له : أتخشى أن تزجّع إلى حياة أخرى بعد الموت للحساب وفصل القضاء والجزاء من قبَلِ رَبِّكَ؟

والجواب : نعم ، أنا إليه أرجع ، وأنتم إليه تُرْجَعُونَ .

وقد طويت في العبارة القرآنية هذه القطعة من الحوار ، اكتفاءً بعبارة :

﴿وَالَّذِينَ تَرَجُّحُونَ﴾ التي تَقَعُ في آخرها، إذ هي كافية في ذهن المتدبر المتعمق للدلالة على المطوي في النص.

وهنا يظهر للمتدبر أنهم دافعوا عن عقيدتهم الباطلة في آلهتهم، ودافعهم عنها يتلخص بأن عبادة هذه الآلهة تنفع عند الرحمن، فإذا عبدتها كانت شفيعة لك عنده.

والجواب الذي اختاره الرجل هو ما دلَّ عليه من النص قول الله تعالى يحكي قول الرجل المؤمن:

● ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ (٢٣) إِنْ إِذْ لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾.

دلَّ هذا القول على أن الرجل المؤمن قد وضع قومه أصحاب القرية أمام بُرْهَانٍ مَسْبُوقٍ بتجارب، وهذا البرهان يدعم إيمانه ويسقط مفاهيمهم الشركية.

فهذا القول يوحي بأنه قال لهم:

لقد جرَّبْتُ آلهتكم فيما نزل بي من ضُرٍّ فيما مضى فدعوئهم، وعبدتُهم، واستشفعت بهم، فلم تُغْنِ عبادتي ودُعائي لهم عني شيئاً، لأن ما نزل بي قد كان من الله لا منهم، فإن كان لهم شفاعَةٌ عند الله كما تزعمون، وكانوا يمنحون شفاعتهم لمن يدعوهم ويعبدُهم، فقد جرَّبْتهم في هذا، فلم تنفعني شفاعتُهم بشيء.

إذن: فلماذا استمرُّ على عبادتهم، وحالي معهم بين يدي الرحمن هو: إن يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ مُسْتَقْبَلًا بِضُرٍّ وَدَعْوَتُهُمْ وَعِبَادَتُهُمْ، مستشفعاً بهم، لا تُغْنِي عني شفاعتُهم شيئاً عند الرحمن، ولا هم ينقذونني بوسائلٍ أخرى غير الشفاعة من عذابه، أو من الضَّرِّ الذي يُريدُ أن يُنزلَهُ بي إن شاء ذلك.



ومعلوم أن الدليل التجريبي من أقوى الأدلة لقياس المستقبل عليه .

وقد أثار الرجلُ أن يُعَبَّرَ بكلمة «الرَّحْمَنُ» من أسماءِ اللّهِ الحسنى في هذا المقام لِيُشْعِرَ القومَ بإيمانه بأنَّ ما يُنزِلُهُ اللهُ به من صُزٍّ فَإِنَّهُ مظهرٌ من مظاهر رحمته، لا من مظاهر غضبه ونقمته، وقَوْمُهُ يؤمنون بأن من صفات الرَّبِّ الخالق أَنَّهُ الرَّحْمَنُ بعباده، ويعتقدون أَنَّ آلهتهم التي يعبدونها يشْفَعُونَ لعابديها عنده .

وبعد أن وضع الرجلُ المؤمن قومه أمام هذا البرهان التجريبي الذي جرّبه بنفسه، أعلمهم بأنّه إذا استمرّ على الباطل الذي كان عليه، فإنّه يكون إذاً لفي ضلالٍ مبينٍ واضح، فقال لهم :

﴿ إِذْ لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾ ﴾ .

أي : في ضياعٍ واضح، ومُجَافَاةٍ ظاهرةٍ لطريق الحق والهدى .

وهنا ظهرت حُجَّةُ الرَّجُلِ قوِيَّةً واضحةً برهانيَّةً، وانقَطَعَتْ حُجَجُ القومِ وأفْحِمُوا، فلم يجدوا أمامهم إلا أن ينتصروا لأنفسهم بقتله، فقدّموه للقتل .

وقبل تنفيذ قتله توجّه الرجلُ المؤمن للجماهير فنادى بأعلى صوته متحدياً داعياً لهم إلى سبيل الله :

● ﴿ إِنِّي ءَأْمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿١٥﴾ ﴾ .

فقتلوه ولفظ روحه شهيداً .

هنا أبان الله عزّ وجل أَنَّهُ بَعْدَ استشهاد الرجلِ المؤمن وانطلاق روحه إلى بارئها، قيل له : ﴿ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ ﴾ .

● قال اللّهُ عزّ وجلّ : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾: أي: أمر الله ملائكة الرحمة بأن تقول له: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَنَفَذَتِ الْمَلَائِكَةُ الْأَمْرَ الرَّبَّانِي، وقد أعطاه الله هذه الكرامة عنده لأنه لفظ روحه شهيداً في سبيل الله، مجاهداً بأفضل أنواع الجهاد.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أن أرواحَ الشهداءِ تدخُلُ في أجواف طيور خُضْرٍ، ولَهَا قنَادِيلُ معلقة تحت العرش، تَسْرُحُ من الجنة حيث شاءت، وتأكُلُ من ثمارها.

روى مسلمٌ والترمذيُّ عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قنَادِيلُ معلقةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوَنَ شَيْئاً؟. قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ تَسْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟. فَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبُّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْنَا أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا، حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَنُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا».

وعلى هذا المعنى يُفسَّرُ ما جاء في القرآن من كَوْنِ الدِّينِ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.

وبعد أن قيل لمؤمن أصحاب القرية ادْخُلِ الْجَنَّةَ، وشهد ما شهد من كرامة، ونعيم عظيم عند ربه، نادى وهو في عالم الحياة البرزخية التي لا يَسْمَعُهَا الْبَشَرُ، مُتَمَنِّياً أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ الَّذِينَ قَتَلُوهُ وفرحوا بقتله انتقاماً منه، بأمرِ ثَوَابِيْنِ عَظِيمِينَ ظَفِرَ بِهِمَا عِنْدَ رَبِّهِ:

— غُفْرَانِ ذَنْبِهِ.

— وَجَعَلَهُ مِنَ الْمُكْرَمِينَ:

● ﴿ قَالَ: يَكَلِّتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

رُوي عن ابن عباسٍ أنه قال بشأنه: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَبَعَدَ مَمَاتِهِ.

\* \* \*

ولم يُنْهَلِ اللَّهُ قَوْمَهُ بَعْدَ قَتْلِهِمْ لَهُ، بَلْ أَهْلَكَهُمْ بِصِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٢١) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢١﴾ .

الصيحة: صوتٌ عظيم يقتل بالصَّدمة الصوتية الشديدة.

ودلت عبارة: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (٢١) ﴿ عَلَيَّ أَنْ إِهْلَاكَهُمْ بِالصيحة كان عقب قتلهم رَجُلُهُمُ الْمُؤْمِنُ، دُونَ فَاصِلِ زَمَانِي كَبِيرٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخُمُودَ يُسْتَعْمَلُ لِانْقِطَاعِ النَّارِ وَتَحْوِيلِهَا فَحْمًا أَوْ رَمَادًا، وَدَلَّ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ الْخُمُودِ عَلَى أَنَّ لَهَيْبِ غَضَبِهِمْ لَمْ يَنْطَفِئْ بِقَتْلِهِمْ لَهُ. وَإِنَّمَا خَمَدَ بِأَهْلَاكِهِمْ.

\* \* \*

وختم الله عز وجل قصة إهلاك القوم بقوله:

﴿ يَنْحَسِرُونَ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ مِمَّا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٢٢)

أي: ممَّا يَسْتَشِيرُ الْحَسْرَةَ - أَي: الْحُزْنَ - عَلَى الْعِبَادِ أَنَّهُمْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ، إِلَّا كَذَّبُوهُ، وَجَحَدُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَقَابَلُوهُ بِالْإِسْتِهْزَاءِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ حُجْجًا عَقْلِيَّةً بَرَهَانِيَّةً، وَلَا حُجْجًا مَقْبُولَةً فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ تَجْعَلُهُمْ مَعْذُورِينَ فِي تَكْذِيبِهِمْ.

\* \* \*

## النموذج الثالث

دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم سورة (الجنّ)

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنِيعَهُ وَلَا وِلْدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانِ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنَنُوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن بِيَعْتَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ ثَلْثِ حَرِّ سَائِدَا إِسْحَابِ ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدِ اللَّيْلِ فَسَمِعْنَا لَئِذَا يَنْتَهِي السَّجَّادُ ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشْرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَعْمِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْمِرَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ؕ آمَنَّا بِهِ ؕ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْقَاسِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِمُونَ ؕ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِمُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

- ١ -

### نظرة إجمالية عامة

أَعْلَمَ اللهُ عزّ وجلّ في سورة (الجنّ) رسوله بقصة نَفَرٍ من الجنّ استمعوا القرآن منه، دُونَ أن يكون قد علم بحضورهم واستماعهم لتلاوته آياتٍ من

القرآن المجيد، مما نزل منه قبل سورة (الجن).

وبعد أن استمعوا ما استمعوه من القرآن آمنوا وأسلموا. وبعد إيمانهم وإسلامهم عادوا إلى أقوامهم وقبائلهم من الجنّ داعين إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

فوجّهوا في دعوتهم للإيمان بالقرآن وأتباع ما جاء فيه، ووجّهوا للإسلام إلى الله ورسوله، وبشّروا مَنْ يؤمن ويُسلم بالسعادة الخالدة في جنّات النعيم يوم الدين، وأنذروا من يكفر وحذّروه من عذاب الله الخالد في نار جهنّم.

وأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يُحدّث بقصة هؤلاء النفر من الجنّ، فقال الله له: ﴿قُلْ: أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا...﴾ .  
ونفهم من هذا الأمر قضيتين.

القضية الأولى: إيجاد الحافز لدى بعض المشركين من الناس لكي يؤمنوا ويسلموا، إذ قد آمن وأسلم نفر من الجنّ بمجرد استماع القرآن.

القضية الثانية: تحريض المؤمنين على اتخاذ هؤلاء النفر من الجنّ أسوة حسنة لهم، في الدعوة إلى الله بين الناس، وأن يستفيدوا من منهجهم الحكيم في الدعوة، حينما يقومون هدأة دُعاة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- ٢ -

المنهج الدعوي الذي اتّخذه النفر من الجنّ الذين

أخبر الله عنهم في سورة الجنّ

تدلّ النظرة التدبّريّة إلى ما جاء في سورة (الجنّ) بشأن النفر من الجنّ الذين استمعوا القرآن من الرّسول محمد ﷺ، فأمنوا وأسلموا، وتوجّهوا

لأقوامهم وقبائلهم دعاة إلى سبيل ربهم، عَلَيَّ أَنْ مِنْهُمْ قَد كَانَ قَائِمًا عَلَى حِكَايَةِ قِصَّةِ إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ هُمْ وَأَقْوَامُهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ بَعْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَكَيْفَ هَدَاهُمْ التَّفْكِيرَ السَّلِيمَ إِلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي اسْتَمَعُوا إِلَيْهِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَانْتَقَلُوا إِلَى التَّرْغِيبِ بِالْإِيْمَانِ كَمَا آمَنُوا وَالْإِسْلَامَ كَمَا أُسْلِمُوا، مُبَيِّنِينَ أَنَّ مِنَ أَمْنِ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَعَمَلٍ صَالِحًا أَطْمَأْنَنَ يَوْمَ الْجَزَاءِ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَمِنَ، فَهُوَ لَا يَخَافُ الْحَرَمَانَ الْكَلْبِيَّ أَوْ الْجُزْيِيَّ مِنْ ثَوَابِ إِيْمَانِهِ وَصَالِحِ عَمَلِهِ، وَلَا يَخَافُ عِقَابًا عَلَى كُفْرٍ أَوْ عَصْيَانٍ يَتَحَمَّلُ بِهِ شِقَاءَ وَمَتَاعِبَ وَعَذَابًا أَلِيمًا.

وَمِنْ هَذَا نُذِرُكَ أَنَّ مِنْ مَنَاجِجِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَأَسَالِيهَا النَّاجِحَةِ، أَنَّ يَحْكِي الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ قِصَّةَ إِيْمَانِهِ وَإِسْلَامِهِ وَهُدَايَتِهِ إِلَى الْحَقِّ، بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الضَّلَالِ، مَبِينًا الْبَوَاعِثَ الْفِكْرِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ، وَالْوَجْدَانِيَّةَ، الَّتِي جَعَلَتْهُ يُؤْمِنُ وَيُسَلِّمُ وَيَتَّبِعُ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمَ.

وَيُقَاسُ عَلَى هَذِهِ الْوَسِيلَةِ عَرَضُ الدَّاعِيَ قِصَصَ إِيْمَانِ وَإِسْلَامِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، مَتَضَمِّنَةً بَيَانَ الْبَوَاعِثِ الْفِكْرِيَّةَ، وَالنَّفْسِيَّةَ وَالْوَجْدَانِيَّةَ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يُؤْمِنُونَ وَيُسَلِّمُونَ، وَيَهْجُرُونَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَالسَّبَبُ فِي تَأْثِيرِ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ أَنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ تَنْقَسِمُ إِلَى أَصْنَافٍ ذَوَاتِ نَمَازِجٍ طَبْعِيَّةٍ مُتَشَابِهَةٍ، فَمَا يَكُونُ مِنَ الْأَسْبَابِ مُؤَثِّرًا فِي بَعْضِ النَّمَاذِجِ، يَكُونُ مُؤَثِّرًا عَلَى نِظَائِرِهَا وَأَشْبَاهِهَا بِصِفَةِ تَلْقَائِيَّةٍ.

يُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ النَّاسَ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ أَنْ يَتَأَثَّرُوا تَلْقَائِيًّا بِمَا يَتَأَثَّرُ بِهِ آخَرُونَ مِنْهُمْ، تَأَثَّرًا تَقْلِيدِيًّا، أَوْ تَأَثَّرًا قَائِمًا عَلَى اقْتِنَاعٍ فِكْرِيٍّ، فَقِنَاعَةُ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ بِفِكْرَةٍ مِنَ الْأَفْكَارِ تَجْعَلُ مَنْ يَحْتَرِمُهُمْ وَيَحْتَرِمُ آرَاءَهُمْ يَفْتَحُ مَنَافِذَ فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ لِلْإِقْتِنَاعِ بِالْحَقِّ، فَيَسْهُلُ إِقْنَاعُهُ، وَتَكُونُ اسْتِجَابَتُهُ لِدَعْوَةِ الدَّاعِيَ خَالِيَةً

من كثيرٍ من العقبات التي تمنع عادة من الاستجابة .

وبذلك يختصر الداعي على نفسه جَهْداً كبيراً لَدَى معالجة من يوجّه دعوته لهم ، واستغلالاً هذا أمرٌ مهمٌّ في مناهج الدَّعْوَةِ وأساليبها .

- ٣ -

### التدبّر التحليلي للنصّ

قول الله تعالى : ﴿ قُلْ : أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ . . . ﴾

اسْتَمَعَ : أي : قصد السَّماع مع إصغاء وإنصات .

نَفَرٌ : النفر : الرّجال من ثلاثة إلى عشرة .

الجنّ : خلقٌ من خلقِ الله لا نَرَى أجسامهم بأعيننا لأنّها غير ذات كثافة ، وهم قابلون للتشكّل بالأشكال الجسمانية التي يمكن أن نراها ، ومخلوقون من نار ، ولهم صفات فكريةٌ ونفسيةٌ تؤهلهم لأن يوضعوا موضع الامتحان في الحياة الدنيا كالإنس ، إذّ لهم إرادات حرّة يمكن أن يُطيعوا بها وأن يعصوا ، ولهم أهواء وشهوات تنزع فيهم للمعصية كالإنس ، ولهم إدراكات فكرية يعرفون بها الحقّ والباطل ، والخير والشرّ من الأعمال ، ويفهمون بها التكاليف .

وقد أمر الله رسوله بأن يقول : أوحى إليّ أنّه استمع . . . إلى آخر قصّة هؤلاء النفر من الجنّ ، ليُحرّض المؤمنين على أن ينتشروا دُعاةً إلى دين الله أسوةً بهم ، وليبيّن للمشركين أنّ دَعْوَةَ الإسلام امتدت إلى الجنّ ، فأمنَ منهم نَفَرٌ بمجرّد استماعهم القرآن ، وأسلموا وحَمَلُوا رسالة الدعوة إليه بين أقوامهم وقبائلهم من الجنّ ، وأنّه لا بُدَّ أن يَجِدَ دُعاةً من الإنس ينشرونه بين الناس في طول الأرض وعرضها ، ويُبوءَ المشركون المصرون على كفرهم وعنادهم بالخيبة والخسران والهزائم .

وَعَقِبَ هَذِهِ الْمَقْدَمَةَ بِدَأِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ فِي السُّورَةِ يَعْرُضُ بِإِيجَازٍ مِنْهَا جَ دَعْوَةَ الْجَنِّ إِلَى الْإِسْلَامِ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ وَقِبَائِلِهِمْ، وَسِيَاسَتِهِمْ فِيهَا، لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا الدَّعَاةَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْإِنْسِ فِي دَعْوَتِهِمْ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ وَقِبَائِلِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ، إِذْ كَانَتْ دَعْوَةُ حَكِيمَةٍ وَسِيَاسَةٍ رَشِيدَةٍ.

وهي سياسة قائمة على عرض قصة إسلامهم، وعرض البواعث الفكرية والنفسية والوجدانية التي جعلتهم يؤمنون ويسلمون، ويتشرون دعاءً إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد اشتمل عرض قصتهم بين أقوامهم وقبائلهم من الجنّ على عدّة قضايا، جاء تلخيصها في سورة (الجن) بما يشبه عناوين موضوعات ذوات شُرُوحَاتٍ مستفيضات.

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

أي: إِنَّا سَمِعْنَا كَلَامًا يُقْرَأُ قُرْآنًا مُؤَثَّرًا يُشْعِرُ بَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهُوَ جَدِيدٌ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، وَتَدَبُّرِ دَلَالَاتِهِ، إِذْ هُوَ عَجَبٌ فِي مَبَانِيهِ وَفِي مَعَانِيهِ.

وَدَلَّ وَصْفُ الْقُرْآنِ بَأَنَّهُ عَجَبٌ عَلَى أَنَّهُ مُعْجَزٌ مُتَفَرِّدٌ مُمَيِّزٌ، عَنْ كُلِّ كَلَامٍ آخَرَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ النَّفْرَ مِنَ الْجَنِّ بَعْضُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ عُنَاصِرٍ إِعْجَازٍ فَوْصَفُوهُ بَأَنَّهُ عَجَبٌ، وَهَذَا وَصْفٌ بِالمصدر مُشْعِرٌ بَأَنَّهُ عَيْنُ الْعَجَبِ لكَثْرَةِ مَا فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ وَصَفَاءَ لِمَا سَمِعُوا مِنْ

القرآن، مِنْ تِلَاوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

يَهْدِي: أَي: يَدُلُّ وَيُبَيِّنُ وَيَعْلَمُ، يُقَالُ لُغَةً: هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وَهَدَاهُ لَهُ، وَهَدَاهُ إِلَيْهِ، إِذَا عَرَفَهُ بِهِ وَبَيَّنَّهُ لَهُ.

الرُّشْدُ: يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ سُلُوكٍ فِكْرِيٍّ أَوْ نَفْسِيٍّ أَوْ عَمَلِيٍّ مُوَافِقٍ لِلْحَقِّ



والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن، والأكثر نفعاً، والأبعد عن الضرر.

فوصفُ القرآنِ بأنه يهدي إلى الرُّشدِ وصفٌ يجمع كلَّ ما اشتمل عليه القرآنُ من دعوةٍ إلى الحقِّ والخير، وإلى ما هو الأحسن والأفضل والأنفع والأبعد عن الضرر من الوجوه المحتملة، حالاً ومستقبلاً قريباً، ومستقبلاً بعيداً، حتى يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء، وتنفيذِ الجزاء، في دار النعيم، أو في دار العذاب الأليم.

القضية الثالثة: إعلانُهم أنَّهم آمنوا بالقرآنِ، إذ قالوا: ﴿فَتَأْمَنَّا بِٱللَّهِ وَمِن لِّوَازِمِ إِيمَانِهِم بِالْقُرْآنِ إِيمَانُهُمْ بِسَائِرِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَمِنْهَا إِيمَانُهُمْ بِالرَّسُولِ الَّذِي اسْتَمَعُوا إِلَى الْقُرْآنِ مِنْ تَلَاوَتِهِ لَهُ، وَإِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَنْزِلَ الْقُرْآنِ، وَإِيمَانُهُمْ بِسَائِرِ الْقَضَايَا الدِّيْنِيَّةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ.

والإيمان: هو التصديقُ الإراديُّ القلبيُّ المقترنُ بالاعتراف والتسليم الذي تظهر له آثار في السلوك.

القضية الرابعة: بيانُ عزمِهم الإراديِّ الجازم على أن لا يُشركُوا في مستقبلِ حياتهم بربِّهم أحداً، دلَّ عليها قولهم: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾.

وهذا منهم وعُدُّ بعهدِ جازمٍ قطعوه على أنفسهم، ودلَّ إلزامُ أنفسهم بهذا العهد على أنَّ ما استمعوه من القرآنِ قد تضمَّنَ فيما تضمَّنَ التحذيرَ من الشركِ في رُبوبيَّةِ الله، وفي إلهيَّته، مَهْمَا كان نوعُ الشُّركِ جُزئياً وهيناً، كشركِ الَّذِينَ يَعْْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ لِيُقَرَّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى. ودلَّ أيضاً على أنَّهم قد كانت لهم شركيات تخلَّوا عنها، ولَنْ يَعُودُوا إِلَيْهَا وَلَا إِلَى مِثْلِهَا.

وإذ تخلَّوا عن الشُّركِ، فإنَّهم عن أنواع الكفر التي هي أشدَّ من الشُّركِ أكثرَ تَبَرُّجاً وابتعاداً، وأشدَّ التزاماً بأن لا يقربوا شيئاً منها.

القضية الخامسة: توجيه الإقناع لأقوامهم من الجنِّ بتعالى الله عزَّ وجلَّ في صفاته السَّيِّئَةِ عن أن يتخذ صاحبةً أو ولداً، فاتَّخَذَ الزَّوْجَاتِ مِنْ صِفَاتِ

النقص في المخلوقات الحادثة، وإنجاب الله الأولاد يقتضي أن يكون مَنْ أَنْجَبَهُ اللهُ مُشَارِكاً اللهُ فِي خِصَائِصِ ذَاتِهِ الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالرَّبُّ الْخَالِقُ مُنْتَزِعٌ عَنِ كُلِّ ذَلِكَ، وَاتِّخَاذُهُ الْأَوْلَادَ بِالْتَّبَيُّنِ افْتِرَاءً عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَالْعَبْدُ الْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ ابْنًا لِخَالِقِهِ الرَّبِّ الْأَزَلِيِّ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَاللهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا بِالْتَّبَيُّنِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

تَعَالَى: تَنَاهَى فِي الْعُلُوِّ مَرْتَفَعًا عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَأَزَلِيَّتِهِ وَأَبَدِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَتَنْزُّهُهُ عَنِ الْحَاجَةِ لِدَاتِهِ أَوْ لَصِفَاتِهِ.

جَدُّ رَبِّنَا: الْجَدُّ فِي اللَّغَةِ الْحِطُّ وَالْغِنَى، وَجَدُّ الرَّبِّ حِطُّهُ مِنْ كَمَالِ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا، وَغِنَاهُ سُبْحَانَهُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ، لِذَلِكَ فَهُوَ لَا يَتَّخِذُ صَاحِبَةً وَلَا يُنْجِبُ وَلَدًا، وَلَا يَتَّخِذُهُ بِالْتَّبَيُّنِ.

وَيُظْهِرُ أَنََّّهُمْ قَدْ خَاطَبُوا بِهَذَا مِنْ يَعْتَقِدُونَ مِنَ الْجَنِّ أَنَّ اللهُ صَاحِبَةٌ وَلَدًا.

وعبارة ﴿تَعْلَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ هِيَ بِمِثَابَةِ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فَتَقْدِيمُهَا أُسْلُوبٌ بَارِعٌ لِإِعْلَانِ تَبَرِّيهِ تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، وَهُوَ مِنْ أَسَالِيبِ تَقْدِيمِ الدَّلِيلِ قَبْلَ تَقْرِيرِ الدَّعْوَى.

وتقديم الدليل قبل تقرير الدعوى من أساليب مناهج الدعوة الحكيمة، التي تدخل تحت عموم قول الله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾.

القضية السادسة: بيانهم في أقوامهم أنّ سفيتهم إبليس وكلّ من استجاب له واتبع كفره بربه كان يقول على الله قولاً شططاً، أي: بعيداً عن الحق جائراً.

الْشَطَطُ فِي اللَّغَةِ: الْبُعْدُ وَتَجَاوُزُ الْحَدِّ وَالْجَوْرُ، وَكُلُّ مَا بَعُدَ عَنِ الْحَقِّ وَجَارَ فَهُوَ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ.

وكلُّ قولٍ باطلٍ أو كَذِبٍ يُنسَبُ إلى الله هو كُفْرٌ بذاته، أو بصفاته، أو بِحَقِّ رُبوبيَّتِهِ أَوْ إلهيَّتِهِ .

دَلٌّ على هذه القضية قولُهُم كما حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُونَ سَفِينَنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ .

السفيه في اللغة: ناقصُ العقل الذي لا يُحْكِمُ أمرَهُ بِرُشدٍ، فيجانب الحقَّ والصواب وسبيلَ الهدى .

وإبليس إمامُ سفهاءِ الجنِّ، فقد عرَّضَ نفسه للطرد من رحمة الله، وللعذاب الأبدى والشقاء الدائم، إذ رَفَضَ أن يُطِيعَ أمرَ رَبِّهِ له بِأَنْ يَسْجُدَ لآدمَ، وجَحَدَ حقَّ الله على عباده في طاعته بما يشاء، وهذا من فرط سَفَاهَتِهِ وَقَلَّةِ عقله الإرادى، إذ لَمْ تَقَوَّ إرادته على ضَبْطِ جِماحِ هواه في الكبر والحسد، مع وفرة ذكائه العلمى وواسع حيلته .

ويَتَّبِعُ إبليسَ في السفاهة كُلُّ كَفَرَةٍ الجنِّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سبيلَهُ، وعبارةُ: ﴿سَفِينَنَا﴾ تعثُّهُمُ .

القضية السابعة: بيانهم في أقوامهم أنهم كانوا مَخْدوعين بِأَقْوَالِ كانوا يَسْمَعُونَهَا من الإنسِ والجنِّ، وفيها كِذْبٌ على الله، فيقبلونها، ظانِّينَ ظَنًّا تَوْهُمِيًّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإنسُ والجنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فلَمَّا اسْتَمَعُوا القرآنَ من الرسول محمد ﷺ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ ما كانوا يَسْمَعُونَهُ من أقوالِ على الله، ومنها أقوالُ اليهود والنصارى، وأقوالُ الوثنيين هي أقوالُ كاذبة باطلة، فمن اعتقدها وآمَنَ بها كَفَرَ بِرَبِّهِ .

دَلٌّ على هذه القضية قولُهُم كما حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

فَدَلَّتْ هَذِهِ العبارةُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ اسْتِمَاعِ القرآنِ والإيمانِ به

مَخْدُوعِينَ بِأَقْوَالٍ كُفْرِيَّةٍ كَاذِبَةٍ كَانُوا يَسْمَعُونَهَا مِنَ الْإِنْسِ وَمِنَ الْجِنِّ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ كَفَرُوا بِهَا، وَأَمَّنُوا بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ.

القضية الثامنة: بيأنهم في دعوتهم إلى الإسلام بين أقوامهم، أن رجالاً من الإنس الذين هم أحسنُ تقويماً من الجنِّ، وأكثرُ علماً وتخليلاً واستنباطاً، كانوا يلجؤون إلى رجال من الجنِّ يستعيذون بهم ليعينوهم ويُعيذوهم ممَّا يخافون، وذلك من فساد مفاهيمهم وتصوُّراتهم عن عالم الجنِّ، وكان الرجال من الجنِّ يزيدون المستعيذين بهم من الإنس سَفَهًا وحماقةً وجهلاً وإثماً وَعَنَاءً بتكاليف ثقيلة، ويزيدونهم من ركوب الشرِّ، وغشيان المآثم والمعاصي والشُّرُكِيَّاتِ.

دلَّ على هذه القضية قولُهُم كما حكى النصُّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

يَعُوذُونَ: أي: يلتجئون ويعتصمون ويلتصمون بالالتصاق بهم.

زَادُوهُمْ رَهَقًا: الرَّهَقُ في اللُّغَةِ السَّفَهُ، والحماقة، والجهل، والإثم، وَرُكُوبُ الشَّرِّ والظلم، وغشيان المحارم وكبائر الآثام، وَيَدْخُلُ في هذا ممارسة الشركيات وسائر الكفريات.

ويأتي الرَّهَقُ اسماً من الإرهاق، وهو تحميلُ المأمورِ بالطاعة ما لا يُطيق.

القضية التاسعة: بيأنهم في دعوتهم إلى الإسلام بين أقوامهم من الجنِّ أنَّ الإنسَ الذين يقولون على الله كذباً، قَدْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَّنْتُمْ أَنَّ لِنِ يَبْعَثَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدًا، فلا حسابَ يَوْمَ الدِّينِ، ولا فَضْلَ قَضَاءٍ ولا جزاء.

ومعلومٌ أنَّ من شأن هذا الظنِّ الباطل الذي لا دليل يدعّمه، ولا شُبُهَةً تُرَجِّحُه، أنَّ يجعل صاحبه عاصياً لله مجرماً، منطلقاً في ارتكاب الآثام فاجراً،

وَأَنْ يُزَيَّنَ لَهُ الشَّرِكِيَّاتِ الَّتِي قَدْ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ بَعْضَ خِدْمَاتِ تَقَدُّمِهَا  
لِهَا الشَّيَاطِينِ .

فَالْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ يَوْمَ الدِّينِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ هُوَ الرَّادِعُ الْأَكْبَرُ  
لِلْمَخْلُوقِ الْمَدْرِكِ الْمَوْضُوعِ مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَنُلاحِظُ هُنَا أَنَّ دُعَاةَ الْجَنِّ إِلَى الْإِسْلَامِ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ قَدْ اِهْتَمَوْا بِبَيَانِ  
رُكْنِ الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، لِإِيمَانِهِمْ بِأَنَّ الْجَنِّ  
مَبْعُوثُونَ وَمُحَاسَبُونَ وَمَجَازُونَ كَحَالِ الْإِنْسِ، وَلِإِدْرَاكِهِمْ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهَذَا  
الرُّكْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ هُوَ الرَّادِعُ الْأَكْبَرُ عَنِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعَصْيَانِ،  
وَالْفُجُورِ وَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ .

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ عَنِ الْإِنْسِ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿ وَأَنْتُمْ ظُنُّوْا كَمَا  
ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ .

الظَّنُّ هُنَا مَسْتَعْمَلٌ فِي الظَّنِّ الضَّعِيفِ الَّذِي لَا يَقْوَى عَلَى إِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ،  
وَهُوَ الظَّنُّ التَّوَهُمِيُّ .

القَضِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: بَيَانُهُمْ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ مِنَ الْجَنِّ، أَنَّهُمْ لَمَسُوا السَّمَاءَ  
فَوَجَدُوهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا .

إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ كَانُوا مِنْ صِنْفِ الْجَنِّ الطَّيَّارِينَ الَّذِينَ  
يَسْتَطِيعُونَ الصُّعُودَ فِي اتِّجَاهِ السَّمَاءِ، وَأَنْتَهُمْ كَانُوا يَصْعَدُونَ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ  
مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَنَقَلَ بَعْضُ الْأَخْبَارِ إِلَى قُرْنَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ .

وَبَعْدَ بَعْتَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَلَأَ اللَّهُ السَّمَاءَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا تَلَاحِقَ  
مُسْتَرْقِي السَّمْعِ وَتُحْرِقُهُمْ .

وَقَدْ لَاحِظَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ الْجَدِيدَةَ وَبَحَثُوا عَنْ سَبَبِهَا، حَتَّى  
تَوَصَّلُوا إِلَى أَنَّ سَبَبَهَا بَعْتَةُ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ .

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا  
مُلَيْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾.

لَمَسْنَا السَّمَاءَ: أَي: وَصَلْنَا إِلَى سَطْحِ حَدُودِهَا، فَلَمَّا ابْتَغَيْنَا الدَّخُولَ  
وَالجُلُوسَ فِي مَقَاعِدَ مِنْهَا لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ وَجَدْنَاهَا مُحْرُوسَةً الْمَنَافِذَ كُلَّهَا دُونَ  
اسْتِثْنَاءٍ.

وَشُهَبًا: الشُّهُبُ جَمْعُ شَهَابٍ وَهُوَ شَعْلَةٌ نَارِيَّةٌ تَنْطَلِقُ فِي الْجَوِّ بِسُرْعَةٍ  
عَظِيمَةٍ، وَمِنْ وَظَائِفِ هَذِهِ الشَّهْبِ إِحْرَاقُ الْجِنِّ الَّذِينَ يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ.

الْقَضِيَّةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةٌ: بَيَّانُهُمْ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ مِنَ الْجِنِّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ  
كَانُوا مِنْ قَبْلِ يُضْعَدُونَ طَيَّارِينَ فِي اتِّجَاهِ السَّمَاءِ، فَيَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ  
الْمَلَائِكَةِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْدَاثِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَيَلْتَقِطُونَ  
مِنْهُمْ مَا يَسْتَطِيعُونَ التَّقَاطُفَ، وَيَفْرُؤُونَ بِهِ مِنْ مَوَاطِنَ يَحَاوِلُونَ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ  
تُغْرَاتِهَا حَتَّى لَا تَصِيْبَهُمُ الرُّجْمُ مِنَ الشُّهُبِ.

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ الَّتِي يَسْتَرِقُونَهَا قَدْ يَلْقُونَهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ، مَعَ  
أَكَاذِيبَ كَثِيرَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ يَضِيفُونَهَا إِلَيْهَا، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ مُنِعُوا مِنْ اسْتِرَاقِ  
السَّمْعِ بِالْحَرَسِ وَالشَّهْبِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا  
لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾.

الْآنَ: أَي: بَدَأَ مِنْ زَمَنِ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا يَأْتِي مِنْ أَزْمَانٍ  
لَا حَقَاتٍ.

شُهَابًا رَصَدًا: أَي: شُهَابًا رَاصِدًا مَنْ يَسْتَمِعُ مِنْ جِهَتِهِ، وَصِفَ الشَّهَابُ  
بِالْمَصْدَرِ، وَهُوَ كَلِمَةٌ «رَصَدًا» لِإِرَادَةِ الْمُبَالِغَةِ بِالرَّصْدِ الشَّدِيدِ. يُقَالُ لُغَةً:  
رَصَدَ يَرِصِدُ رِصْدًا وَرِصْدًا، إِذَا أَقَامَ مَتَرَفِّبًا.

القضية الثانية عشرة: بيأنهم أَنَّهُمْ تَحَيَّرُوا فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ الْجَدِيدِ فِي السَّمَاءِ، أَمْوَ لِشَرِّ أَرِيدَ بَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يُبَاغِتُوا بِهِ وَهُمْ غَافِلُونَ، كِإِهْلَاكِ شَامِلٍ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبَّهُمْ أَمْراً رَشِداً يَمْنَعُ عَنْهُمْ بِهِ كِهَانَةَ الْكُهَّانِ، وَمَا تُوحِي إِلَيْهِمْ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ بَعْضِ أَخْبَارِ السَّمَاءِ.

لَقَدْ أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ قَدْ تَحَيَّرُوا هَذَا التَّحْيِيرُ قَبْلَ أَنْ يَطُوفُوا الْأَرْضَ بِأَحْتِثٍ عَنِ السَّبَبِ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَمْعُوا الْقُرْآنَ الْعَجَبُ مِنْ تِلَاوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

لَكِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ عَرَفُوا السَّبَبَ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ التَّحْيِيرُ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرَادَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَمْراً رَشِداً.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبَّهُمْ رَشِداً﴾.

أَي: لَكِنْ دَرِينَا بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعْنَا الْقُرْآنَ فَاْمَتَّأَ بِهِ، وَعَاهَدْنَا عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكُ بِرَبِّنَا أَحَداً.

القضية الثالثة عشرة: بيأنهم عن حال عُموم الجنِّ في واقعهم السابق والحالي عند دعوتهم إلى الإسلام ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الصالحون، وهم على مراتب ودرجات، وفق المفهوم الذي أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ «الصَّالِحِينَ» فِي الْقُرْآنِ.

القسم الثاني: الَّذِينَ هُمْ دُونَ الصَّالِحِينَ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْفَاسِدُونَ بِالْمَعَاصِي وَالْمَخَالَفَاتِ الْكَثِيرَاتِ، مِنْ غَيْرِ التَّوَابِينَ إِلَى رَبِّهِمْ. وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ عَلَى دَرَكَاتِهِمُ الْمُتَنَازِلَاتِ، وَاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدِّدَا﴾.

أَي: كُنَّا عَلَى مَذَاهِبٍ وَعَقَائِدٍ وَأَدْيَانٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَقَطَّعةً، لَا جَامِعَةَ تَجْمَعُ بَيْنَهَا.

طرائق: جمع طريقة، وهي تُطلَقُ في اللّغة على السيرة والمذهب،  
والحال، والفِرقة.

قِدَادًا: أي: قطعاً متفرقة، وفرقاً مُتَبَايِنَةً الأَهْوَاءِ والمذاهب، واحداها  
قِدَّةٌ، القِدَّةُ: القطعة من الشيء، والفِرقة المتميزة بهوى أو مذهب من الناس  
ونحوهم.

القضية الرابعة عشرة: بيانهم عن حالهم قبل استماع القرآن، وقبل  
معرفة سبب امتلاء السماء بالحرس الشديد والشهب، أنهم حين طرحوا  
احتمال أن يكون قد أراد الله بأهل الأرض إهلاكاً شاملاً، لأنسهم وجتّهم،  
قالوا في أنفسهم، هل نستطيع أن نفِرَّ في اتجاه السماء أو أن نغوص في  
الأرض لنحتمي أنفسنا من نوازل الهلاك؟ لكن قُلْنَا في أنفسنا على سبيل الظن  
إذا أراد الله إهلاكنا فلن نُعجزه في الأرض، ولن نعجزه فراراً في اتجاه  
السماء، وكان هذا ظناً منا لأننا لم نكن قد آمنّا بَعْدُ، وهذا ما دفعنا إلى  
البحث في أرجاء الأرض عن سبب منعنا من استراق السمع.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النص: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ  
فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾.

القضية الخامسة عشرة: بيانهم في دعوتهم لأقوامهم وجماعاتهم من  
الجنّ أنهم لمّا سمعوا القرآن العجَب، بَعْدَ كُلِّ مَا سَبَقَ لَهُمْ من دراسة الظاهرة  
الجديدة في السماء، والتأملِ الفكري العميق، والبحث تطوّفاً في الأرض  
لبحث سببها، وأدركوا الحقيقة الربّانية، آمنوا بالهدى الذي اشتمل عليه.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النص: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا  
بِهِ...﴾.

وهنا أدركوا أنه أنّ لهم أن يتلطفوا بالبدء بدعوة أقوامهم وجماعاتهم



إلى الإيمان بالرَّب وخذَه لِأَ شريك له، فعرضوا دَعوتهم كما جاء في القضية التالية:

القضية السادسة عشرة: بيانُهُم في دعوتهم أَن مَنْ يُؤمِنُ برَبِّه إيماناً صحيحاً على ما أنزل في القرآن على رسوله محمدٍ فإنه يكون آمناً، لا يخَافُ نقصاً من ثوابه عنده، ولا ظُلماً، ولا يخَافُ أَن يُحمَلَهُ الله ما لا يُطيق .

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النَصّ: ﴿... فَمَنْ يُؤمِنُ بِرَبِّه فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ .

البخسُ في اللّغة: النقصانُ والظلم، يقال: بَخَسَ فلانٌ فلاناً، إذا ظلمه بنقصانٍ من حقِّ هو له .

فلا يخَافُ بَخْسًا: أي: فإنَّ الله يُوفِّيه أجرَه على إيمانه، دون نقصانٍ، فهو لا يخَافُ نقصاناً، لأنَّ اللّهَ كريمٌ لا يُخلفُ الميعاد .

والرهقُ: يأتي لمعانٍ مختلفة سبق بيانها، وأنسبها هنا، تحميل المكلف ما لا يُطيق، قال الأزهري في هذه الآية: الرَّهقُ اسمٌ من الإرهاق، وهو أن يُحمَلَ عليه ما لا يطيق .

أي: إنَّ الإيمان بالله الرَّبِّ جَلَّ جلاله على ما أنزل في كتابه يستلزم أن يتحمَّل المؤمن تكاليف، لكنَّ هذه التكاليف في الإسلام تقع ضمن حدود الطاقة والاستطاعة، إذ لا يُكَلِّفُ اللّهُ نفساً إلاَّ وُسْعها، فَمَنْ يُؤمِنُ برَبِّه فهو لا يخَافُ رَهَقاً من تكاليف لا يطيقُها، كما أنه لا يخَافُ بَخْسًا: نقصاً ولا ظُلماً .

وكان هذا الدّخول إلى الدّعوة إلى الإسلام بعد المقدمات التي جاء بيانها في خمس عشرة قضية، وصفوا فيها البواعث الفكرية والنفسية والوجدانية التي جعلتهم يؤمنون بالهُدى لَمَّا سمعوه، من أروع المقدمات التمهيدية الحكيمة لدعوة رشيده .

ومنهاج دعوتهم هذا يُقدّم نموذجاً حسناً يُقتدى به في الدعوة إلى الله، وهو يَدْخُلُ تحت عموم قول الله عزّ وجلّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

وانطلق هؤلاء نفر من الجنّ دعاءً بين أقوامهم وجماعاتهم إلى الإسلام وفق المنهج الدّعويّ الذي جاء بيان عناوينه في القضايا السابقة.

فدخل في الإسلام من الجنّ بدعوتهم من استجاب لهم، وبقي آخرون جائرين عن صراط الهدى.

عندئذٍ أضافوا إلى قضاياهم السابقة في بياناتهم الدعوية قضيةً جديدة، وهي القضية التالية:

القضية السابعة عشرة: بيأنهم أنّه قد صار فريقٌ من الجنّ مُسلمين، وبقي آخرون جائرين، أمّا المسلمون فقصدوا الأمر الرّشد وتوجّهوا له، واجتهدوا في طلبه، ليظفروا بالنجاة من عذاب الله، وبالسعادة في جنّات النعيم، وأمّا الجائرون فاتبّعوا الغي، استجابةً لأهوائهم وشهواتهم، ولم يُسلموا فهم سيُعذبون في نار جهنم يوم الدين، ويكونون بمثابة حطبٍ من حطبها.

دلّ على هذه القضية الأخيرة من بياناتهم الدعوية قولهم كما حكى النّص:

﴿وَأَمَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٨﴾﴾.

القاسط في اللّغة: الجائر الذي يعدل عن الحقّ وعن الصراط المستقيم<sup>(١)</sup>.

(١) القاسط في اللّغة ضدّ المقسط، فالمقسط العادل، والقاسط الجائر.

تَحَرُّوا: أي: قَصِدُوا وتَوَخَّوْا، واجْتَهِدُوا في الطلب مع التدقيق  
والعناية.

الرَّشْدُ والرُّشْدُ والرِّشَادُ: الاهتداء إلى الْحَقِّ والصواب والأفضل.

والمعنى: فمن أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، فأولئك أصحابُ  
منازل رفيعة فضلاء، قصدوا مجتهدين مدققين بعناية أن يهتدوا إلى الحق  
والصواب، وإلى أفضل ما يُخْتَارُ من سلوك، فلهم السعادة في جناتِ النعيم.

وأما القاسطون الجائرون عن صراط الله المستقيم، إيماناً وعملاً،  
فأولئك المنحطون في الدركات السافلات، إِذِ اتَّبَعُوا مَسَالِكَ الْغَيِّ استجابةً  
لأهوائهم وشهواتهم، فكانوا بما اختاروه لأنفسهم لجهنم يوم الدين كالخطب  
الذي يُعَدُّ لتوقد به النَّارُ، أو ليزيدَ به وَقودُها، إِذْ هُمْ سَيُطْرَحُونَ وَيُكَبَّنُونَ فِي  
جَهَنَّمَ كَمَا يُطْرَحُ وَيُكَبُّ الْحَطَبُ فِي النَّارِ<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان منهج هؤلاء النفر الدعاة إلى سبيل ربهم من الجن، إنه  
منهجٌ يُخْتَدَى، بوصفه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله.

\* \* \*

(١) في النصِّ هنا حذف من الأوائل لدلالة الأواخر، وحذف من الأواخر لدلالة الأوائل،  
وهذا ما يُسَمَّى عند البلاغيين الاحتباك. إِذْ حُذِفَ مِنْ جُمْلَةٍ: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ..﴾ ثوابهم  
في الجنة، وحُذِفَ مِنْ جُمْلَةٍ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ..﴾ بيان أنهم اختاروا مسالك الغيِّ،  
وفيه محاذيف أخرى أشرت إليها لدى تحليل معنى النصِّ، إِذْ يَدُلُّ عَلَيْهَا التَّقَابِلُ.

## النموذج الرابع

دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الأحقاف)

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً

لرسوله :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنَّا بَعْدَ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٧﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْبَرِّ ﴿٤٨﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٩﴾﴾

- ١ -

### نظرة إجمالية عامة

● النفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم سورة (الجنّ) قد كانت حادثتهم في أواسط المرحلة المكيّة، لأنّ هذه السورة قد نزلت في هذه الأواسط، إذ ترتيب نزولها أربعون.

● أمّا النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الأحقاف) فقد كانت حادثتهم في الثلث الأخير من المرحلة المكيّة، إذ ترتيب نزولها ستة وستون.

● فهما إذن وفدان مختلفان، وبعضٌ مُتَّبَعِي الروايات الواردة بشأن وفادات الجنّ إلى الرسول ﷺ، أوصلها إلى ستّ وفادات، منها هاتان الوفادتان، ومنها الوفد الذين خرج الرسول ﷺ إليهم، بناءً على موعد سابق، ولقاؤه إيّاهم في مكّة عند الحَجُون، وفيه الآن مسجدٌ يسمّى مَسْجِدَ الْجَنِّ، وقد استصحبَ الرسولُ ﷺ معه حين أراد الخروج إليهم عبد الله بن مسعود، وأجلسه في مكانٍ، وخطَّ عليه خطأً في الأرض، وقال له: «لَا تُجَاوِزْهُ» ثُمَّ مَضَى للقاء الجنّ، وابنُ مسعودٍ يَنْظُرُ، ويظهر أنّ هذا اللقاء كان بعد اللقاءين السابقين.

● ووفد الجنّ الذين عرضت سورة (الأحقاف) قصّة وفادتهم، لم يأت في النصّ ما يدلُّ على أنّ الرسول لم يعلم بحضورهم، ولا ما يدلُّ على علمه به، بخلاف الوفد الذين عرضت سورة (الجنّ) قصّة وفادتهم، فقد دلَّ على أنّ الرسول لم يكن يعلم بحضورهم، حتّى أوحى الله إليه بذلك، لكن جاء في بعض الروايات أنّ الرسول ﷺ عَلِمَ بمقدمهم، وجاء في بعضها أنّ الرسول جعلهم رسلًا إلى قومهم، والله أعلم.

● والنصّ الذي جاء في سورة (الأحقاف) يُشْعِرُ بأنّ وفد الجنّ الذين عرضت السورة قصتهم هم من المؤمنين بموسى عليه السلام، والكتاب الذي أنزل عليه، وليس فيه إشارة إلى أنّهم يؤمنون بعبسى عليه السلام.

أما النصّ الذي جاء في سورة (الجنّ) ففيه ما يُشْعِرُ بأنّ مذهبهم كان قبل إيمانهم بالقرآن كان على مذهب مثلثي النصراني، في أنّ الله صاحبةٌ وولداً، هم شركاء لله في ربوبيته وإلهيته.

● ويلاحظ أنّ البيان في سورة (الأحقاف) اقتصر على أن وفد الجنّ استمعوا القرآن من الرسول منصتين، فأمنوا، فلما قضى الرسول ﷺ تلاوته ولّوا إلى قومهم منذرين، وأنّ دعوتهم بين قومهم اقتصر على كبريات

القضايا دون مقدمات كثيرة، ولا تمهيدات طويلة، ويظهر أن مقتضى حال قومهم كان لا يحتاج أكثر من هذا، فذكرها القرآن باعتبارها نموذجاً مقبولاً إذا كان ملائماً لمقتضى حال المدعوين .

- ٢ -

المنهج الدعوي الذي اتخذته النفر من الجنّ الذين أخبر الله عنهم في سورة (الأحقاف)

يتلخص منهج هذا النفر في دعوتهم إلى الإسلام بين قومهم من الجنّ على العناصر التالية:

العنصر الأول: بيان أن الله عزّ وجلّ أنزل كتاباً من بعد كتاب التوراة الذي أنزله على موسى، وأنهم استمعوا إليه مُعجبين به .

العنصر الثاني: أن هذا الكتاب مصدّق لما سبقه من كتب ربّانية أنزلت على الرسل السابقين .

العنصر الثالث: أن هذا الكتاب يهدي إلى أمرين عظيمين:

١ - أنه يهدي إلى الحقّ، والهداية إلى الحقّ تكون في العلميات التي يُطلبُ الإيمانُ بها .

٢ - أنه يهدي إلى صراط مستقيم، والهداية إلى الصراط المستقيم تكون بالنسبة إلى أنواع السلوك في الحياة، ذات المسالك المتشعبة، أمّا الصراط المستقيم فهو واحد منها، فمن تنكّبهُ ضلّ أو جانب الرّشد في حياته .

العنصر الرابع: تلتفتهم مع قومهم ببدء الاستعطاف، إذ دعَوْهُمُ إلى إجابة داعي الله والإيمان به، وداعي الله هو رسوله الخاتم، وكتابه المنزّل عليه .

العنصر الخامس: ترغيبهم قومهم بأنهم إذا استجابوا وآمنوا وسلكوا الصراط المستقيم غفر الله لهم ذنوبهم وأجارهم من عذاب أليم، وإذا غفر الله ذنوبهم جعلهم من السعداء في جنات النعيم.

العنصر السادس: ترهيبهم من لم يجب داعي الله بأن يترقب عذاب الله الذي سينزل به حتماً، إذ لا يستطيع أن يعصم نفسه، ولا أن يفرّ من عذابه، مهما اتخذ من وسائل، ومهما كانت قدراته وحيلته عظيمة، ولن يجد من ينصره فيحميه من عذاب الله، إذ لا يوجد من دون الله أولياء يحمون من عذاب الله من شاء الله أن يعذبه.

العنصر السابع: بيان أن من لا يجيب داعي الله فسَيُظَلُّ منغمساً في ضلالٍ مُبينٍ واضح لكل ذي فكرٍ سليم.

ويلاحظ في هذا المنهج الدعوي أنه يشتمل على بيان الحق بالحكمة، إذ هو قائم على الإقناع بأن القرآن مُصَدِّقٌ لما جاء قبله من كتب ربّانية، فالؤمن بكتاب ربّانيّ سابق لا يجد في القرآن ما يعارضُ أسسَ إيمانه.

وقائم على الإقناع بأن القرآن يهدي إلى الحق، ومعلوم أن الحق لا بُدَّ أن تؤيّده البراهين والحجج الصحيحة.

وقائم على الإقناع بأن القرآن يهدي إلى طريق مستقيم في مختلف أنواع السلوك التي يدعو إليها، من العبادات والمعاملات والأخلاق والفضائل، والطريق المستقيم الواضح فيه أدلة استقامته لمن أراد أن يبحث عنها ويكتشفها.

ويلاحظ أيضاً أن هذا المنهج الدعوي يشتمل على الموعظة الحسنة، إذ هو قائم على الترغيب والترهيب، وهما المحوران اللذان تدور عليهما حركات النفوس الإرادية الموجهة للأعمال الباطنة والظاهرة.

إذن: فمنهج هذا نفر في دعوتهم إلى سبيل ربهم منهج صالح لأن يُخْتَدَى  
به في دعوة بعض أهل الكفر، إذ هو يدخل تحت عموم قول الله عز وجل:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ .

- ٣ -

### التدبير التحليلي للنص

● قول الله عز وجل لرسوله:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... ﴾

وإذ صرفنا: أي: ورُدِّدَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي ذَاكِرَتِكَ عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ  
الدَّاعِيَاتِ، وَادُّكْرُهُ بِلِسَانِكَ فِي بَيَانَاتِكَ الَّتِي تَدْعُو بِهَا إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، لِإِعْلَامِ  
الْإِنْسِ بِحَالِ بَعْضِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْجِنِّ، وَوَلَّوْا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى  
قَوْمِهِمْ دَاعِينَ إِلَى دِينِ اللَّهِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .

ومعنى: ﴿ صَرَفْنَا ﴾ بنون المتكلم العظيم: حَوَّلْنَا هُمْ عَنْ اتِّجَاهَاتِهِمُ الَّتِي  
كَانُوا عَلَيْهَا، وَوَجَّهْنَا هُمْ إِلَيْكَ لِيَسْتَمِعُوا مِنْكَ الْقُرْآنَ .

واستعمال حرف: «إلى» يُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ حَضَرُوا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، إِذْ لَوْ كَانَ  
مَكَانًا قَرِيبًا لَكَانَ الْمُنَاسِبُ اسْتِعْمَالُ اللَّامِ الْجَارَةِ .

نفرًا: النفر هم الرجال من ثلاثة إلى عشرة، وفي كونهم نفرًا دليل على  
أنهم لا يقلون عن ثلاثة، ولا يزيدون على عشرة .

جاء في بعض الروايات أنّ هؤلاء النفر كانوا تسعة، وجاء في روايات  
أخرى أنهم كانوا سبعة، وأنهم كانوا من أشرف جنّ «نصيبين» كما روي عن  
ابن مسعود رضي الله عنه .

وجاء في رواية أنّ رسول الله ﷺ جعلهم رُسلًا إلى قومهم .



● قول الله عز وجل:

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

فَلَمَّا حَضَرُوهُ: أي: فلَمَّا حَضَرُوا الْقُرْآنَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ والحضور هو الشهود بإحدى الحواس .

قَالُوا أَنْصِتُوا: أي: صار بعضهم يقول لبعض: اسكتوا حَتَّى نُحْسِنَ الاستماع .

يقال لغة: أَنْصَتَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْكُتَ، لِيَصْفُوَ الاستماع من اللَّغَطِ والمَشْوَشَاتِ .

فَلَمَّا قُضِيَ: أي: فَلَمَّا أَنْهِيَ الْقُرْآنَ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَالْمَرَادُ مَا قَرَأَ الرَّسُولُ حِينَئِذٍ مِنَ الْقُرْآنِ .

وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ: أي: أَدَارُوا ظُهُورَهُمْ وَأَنْطَلَقُوا إِلَى الْجِهَةِ أَوْ الْجِهَاتِ الَّتِي قَدِمُوا مِنْهَا، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَأَخَذُوا مُبَاشَرَةً يَدْعُونَ بَيْنَ قَوْمِهِمْ مِنَ الْجَنِّ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ مُحَمَّدٌ ﷺ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ .

وجاء في النص الاكتفاء بعبارة ﴿ مُنْذِرِينَ ﴾ لِأَنَّ مَنْ قَبِلَ الْإِسْلَامَ فَقَدْ أَخَذَ بِبَشَارَتِهِ وَأَنْتَهَى، وَبَقِيَ إِذْذَارٌ مِنْ أَبِيهِ وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِلدَّعْوَةِ .

أما دعوة هؤلاء النفرين قومهم من الجن، فقد اشتملت على ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: جاء التعبير عنها بقول الله عز وجل:

﴿ قَالُوا يَا قَوْمِمْ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

الكتاب الذي استمعوا آيات منه هو القرآن، بدليل ما جاء في الآية الأولى من النص .

أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى: هذه العبارة تدلُّ على أنَّهم هم وقومهم من يهود الجن .  
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ: عبارة تدلُّ على أنَّهم عرفوا ممَّا سمعوا من آيات  
القرآن أَنَّهُ يُصَدِّقُ بِكُلِّ الْكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أُنزِلَتْ مِنْ قَبْلِهِ، ومنها ما أُنزِلَ على  
موسى عليه السلام .

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ: أي: يشتمل على بيانات تُعرِّفُ بالحقِّ في العقائد،  
والأخبار الصحيحة الثابتة، والعلوم المطابقة للواقع .

وإلى صراط مُسْتَقِيمٍ: أي: ويشتمل على التعليمات الرِّبَّانِيَّة الَّتِي ترسُم  
الطريق المستقيم الذي يضمن الوصول إلى الغايات السَّعيدة . في السلوك الظاهر،  
وفي السلوك الباطن، دون انحراف ولا اعوجاج ولا متاهاتٍ ولا ضياع .

المقالة الثانية: جاء التعبير عنها بقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْرِكُمْ مِنْ عَذَابِ

الْبَرِّ ﴾ (٣٦)

أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ: أي: اقبَلُوا دَعْوَةَ دَاعِي اللَّهِ، فآمِنُوا بما يدعوكم إلى  
الإيمان به، واتَّبِعُوا تَعَالِيمَهُ .

داعي الله وصفٌ ينطبق على القرآن، وعلى الرسول محمَّد ﷺ، وإجابة  
أحدهما تَسْتَلْزِمُ حتماً إجابة الآخر .

وآمِنُوا به: تأكيدٌ لِمَا دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ وتصريح  
بالمطلوب الأعظم في الإجابة .

يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ: أي: يَغْفِرْ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبِكُمْ، وهي حقوقُ اللَّهِ  
عليكم، وبيقَى عليكم حقوقُ العباد، فهذه إما أَنْ تُؤدَّوها، أو تُؤدِّوا تعويضاً  
عنها، أو يُسَامِحَكُمْ بها أصحابُها .

وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ: أي: وَيَحْمِكُمْ بِالْإِجَابَةِ وَالْإِيمَانَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، أَمَّا الْمَعَاصِي مِنْ دُونَ الْكُفْرِ فَقَدْ سَكَتُوا عَنْهَا، لِأَنَّ أَمْرَهَا إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَهَا، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَ عَلَيْهَا عَلَى مَقَادِيرِهَا.

المقالة الثالثة: جاء التعبير عَنْهَا بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ: أي: وَمَنْ كَذَّبَ الرَّسُولَ وَكَذَّبَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي جَاءَ بِهِ كَافِرًا بِهِمَا، غَيْرَ مُسْتَجِيبٍ لِدَعْوَتِهِمَا. هَذَا شَرْطٌ وَجَوَابُهُ مَا جَاءَ بَعْدَ فَاءِ الْجَوَابِ.

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ: أي: فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ رَبَّهُ فِي الْأَرْضِ مَهْمَا كَانَتْ لَهُ فِيهَا قُوَّةٌ وَجُنُودٌ كِبَالَيْسَ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْزَالَ نَقْمَتَهُ فِيهِ.

وإذا كان غير معجز في الأرض حيث مراكز قوته وجنوده، فلن يكون معجزاً في السماء، وليس له فيها قوة ولا جنود.

وليس له من دونه أولياء: أي: وليس له من دون الله أولياء يستطيعون حمايته من عذاب الله، أو يستطيعون نصره إذا استنصر بهم. الأولياء: هم الثَّصْرَاءُ وَالْأَعْوَانُ الْمُؤَيَّدُونَ الْمُتَابِعُونَ.

أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ: أي: أُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ لَا يَجِيبُونَ دَاعِيَ اللَّهِ مُنْعِمُسُونَ فِي ضَلَالٍ وَاضِحٍ ظَاهِرٍ يُذَرِّكُهُ كُلُّ ذِي فِكْرٍ سَلِيمٍ، وَفَهُمْ مُسْتَقِيمٌ.

هذه خلاصة المقالات الدَّعْوِيَّةِ الَّتِي شَرَحَهَا وَفَصَّلَهَا هُوَلاءُ النَّقْرِ الدُّعَاةِ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ مُؤْمِنِي الْجَنَّةِ، الَّذِينَ تَحَدَّثَتْ عَنْهُمْ سُورَةُ الْأَحْقَافِ.

\* \* \*

## النموذج الخامس

صورة من دعوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر

قال الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهَ وَبَلَاكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

- ١ -

### فكرة هذا النص

يكشف هذا النص صورة من صور الدعوة إلى الله التي يقوم بها والدان عاقلان مؤمنان رحيمان مُشفقان، لولدهما الكافر المعاند العاق المنكر للبعث والجزاء.

ويكشف الأسلوب التلقائي الذي يتخذانه في دعوتهما ولدهما إلى الإيمان والعمل الصالح، بغية نجاته من عذاب الله، وظفره بجنات النعيم.

ونفهم من هذا النموذج أن دعوة الأصول إلى الفروع ينبغي أن تكون مغموسة بفيض من العاطفة الحيّاشة، والرحمة المشفقة، والحنان الجَمِّ، وإن أساء الفرع وكان منه عقوق.

### شرح بعض الألفاظ

أُفٌّ لَكُمْ: كلمة «أف» اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، وهو مبني.

وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي: خَلَّتْ: أي: سلفت ومضت.

الْقُرُونُ: جمع «قَرْنٍ» وهم أهل زمانٍ واحد، ويُطْلَقُ أساساً على مئة سنة.

يستغيثان الله: أي: يطلبان من الله العون والنصرة لإصلاح ولدهما حتى يكون من أهل الإيمان والعمل الصالح، أو لإعانتها على التأثير عليه حتى يؤمن، وهذا تصرفٌ تلقائي يكون عادةً من الوالدين الذين تتدفقُ بهما الرحمة القويّة لنجاة ولدهما.

وَيَلْكَ: أي: عذاباً لك، بمعنى أَن كُفْرَكَ وجحودك وإنكارك للبعث والجزاء ستجلبُ لك عذاب الله الخالد.

أَمِنُ: أي: آمن بما يطلبُ الله منك أن تؤمن به، ومنه البعث للحياة الأخرى، وما فيها من دار عذاب ودار نعيم.

إِنَّ وَعَدَ اللهُ حَقًّا: أي: إن الله قد وَعَدَ أن يبعث الناس إلى الحياة الأخرى، وَوَعَدَ أن يُحاسِبهم ويفصلُ القضاء بينهم، ثم يجازيهم بحسب أعمالهم، فالكافرون هم أصحاب النار الخالدون في عذابها، والمؤمنون الممتقون هم أصحاب الجنة الخالدون في نعيمها، ووعدهم الله حقاً.

أساطير الأولين: أي: مكتوباتُ الأولين الخرافية التي لا صحة لها، وما هي إلا من صنَع أوهاهم.

### التدبر التحليلي

يبين هذا النص نموذجاً يتكرّر في الناس، وهو يشتمل على بيان دعوة والذين مؤمنين عاقلين رحيمين مشفقين لولدهما الكافر الفاجر العاق، المنكر للبعث، الخارج عمّا عليه أبواه من إيمان وعمَلٍ صالح.

فالوالدان يقولان لولدهما: يا بُنَيَّ إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا حَيَاةٌ امْتِحَانٌ، وَهِيَ تَنْتَهِي بِالمَوْتِ كَمَا تَعْلَمُ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَدَّ أَنْ تَتِمَّ حِكْمَتُهُ بَبَيْعِ الأَمْوَاتِ إِلَى الْحَيَاةِ الأُخْرَى كَمَا خَلَقَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الأُولَى، لِيَحَاسِبَهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ، وَقَدْ وَعَدَ بِهَذَا البَعْثِ وَعَدَاً جَازِماً قَاطِعاً فِيمَا أَنْزَلَ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ كُتُبٍ، وَفِي خَاتَمَتِهَا الْقُرْآنَ.

فمن آمن بما أمر الله بالإيمان به وأسلم لله على وفق مطلوبه منه في أعماله الإرادية نجا من عذابه، واستحقّ الخلود في جنّات النعيم.

ومن كفر بما أمر الله بالإيمان به، ولم يُسلم لله على وفق مطلوبه منه في أعماله الإرادية، أدخله الله في نار جهنم يوم الدين خالداً فيها أبداً.

لَكِنَّ الوَلَدَ العَاقَّ الفَاجِرَ الكَافِرَ الخَارِجَ عَنِ دِينِ وَالِدَيْهِ أَظْهَرَ تَضَجُّرَهُ مِنْ دَعْوَتِهِمَا لَهُ إِلَى الإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمِنْ إِحَاحِهِمَا عَلَيْهِ بِذَلِكَ مِنْ فِرْطِ شَفَقَتِهِمَا عَلَيْهِ وَرَحْمَتِهِمَا بِهِ، فَقَالَ لَهُمَا مُتَضَجِّراً مُجَادِلاً: أَفَّ لَكُمَا، أَتُعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ المَوْتِ وَالبَلَى وَالفَنَاءِ، وَالحَالُ قَدْ خَلَّتِ القُرُونُ مِنَ النَّاسِ مِنْ قَبْلِي، وَتَحَوَّلَتْ أَجْسَادُهُمْ إِلَى تُرَابٍ دُونَ أَنْ يَرْجِعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ.

إِنَّ الوَلَدَ العَاقَّ يُطَلِّقُ مَقُولَتَهُ هَذِهِ بِسَفَاهَةٍ وَتَفْكَيرٍ قَاصِرٍ مَحْدُودٍ بِمَحْدُودٍ مَا تَشْهَدُ الحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ فِي مَسَافَةِ مَكَانِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ، وَفِي زَمَنِ قَاصِرٍ

محدود، مُغِيّاً الدَّلَالَاتِ الفكرية العقلية الاستنتاجية، التي تتجاوز حدود المدركات الحسية، ومتشَبِّهاً بالحسيّات التي ليست من الوجود الكبير الواسع إلاّ بمشابهة قطرات معدودات من بحور ماء لا سواحل لها.

ويُغْمِضُ عينيه عن عوالم الغيب التي قد تُدْرِكُ حواسّه منها بعض آثارٍ ظاهرةٍ محدودة، وتخفي عنها أبعاداً شاسعةً تكادُ تكونُ غير متناهية.

وتتفجّر شفقة الوالدين على ولدهما، خشية عليه أن يكون من المعذبين في نار جهنم الخالدين فيها، على الرّغم من عقوقه وإساءته الأدب معهما بالتأفّف من إلحاحهما عليه، معبراً عن تضجّره من دعوتهما الملحة له، فيستغيثان بالله أن يقضي له بالهداية، لكنّ الله عزّ وجلّ لا يجبر أحداً على الهداية ولا يحكم لضالّ بالهداية كما لا يجبر أحداً على الضلالة، ولا يحكمُ على مُهْتَدٍ بالضلالة، بل أعطى كلّ إنسانٍ مكلفٍ إرادةً حرّةً ليلوّه، وكلفه أن يؤرّم وأن يعمل صالحاً باختياره الحرّ، وتركه لنفسه يختار ما يشاء، ليحاسبه يوم الدين على ما اختار لنفسه من اعتقاد وعمل.

وبعد أن يستغيث الوالدان بالله داعيين أن يهدي ولدهما استغاثةً غيرٍ مُجَابِيةٍ، لأنّ الله عزّ وجلّ سبق أن قضى بالتّخيير، فلا ينقض قضاءه بالجبر، إذ قضاء الله المُبرّم لا رجعة فيه ولا استئناف له، بعد ذلك يُوجّه الوالدان الخطاب لولديهما قائليّن له:

﴿ وَيَلِكْ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

أي: إنّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث للحساب وفضل القضاء وتنفيذ الجزاء حقٌّ لا ريب فيه، غير أنّ تحقيق هذا الوعد إنّما يكون بعد إنهاء ظروف هذه الحياة الدنيا كلّها كما أخبر الله جلّ جلاله، فلا يكون البعث إلى الحياة ما دام نظام هذه الحياة الفانية قائماً، والبعث يكون في زمن يعلمه الله وحده، ويكون إلى حياة أخرى ذات نظام باقي خالد.

ولا بُدّ أن يكون الوالدان قد قالاً لولدهما: أيّها الولد لا تخط بين

الحياتين، ولا تُكُنْ في شكٍّ من وعْدِ الله الَّذِي خَلَقَكَ وخلق الخلق أجمعين،  
ووعَدَ الله قد جاء في كتابه على لسانِ رسوله المؤيّد بالمعجزات الباهرات .

وهنا يَرُدُّ الولد الفاجر الكافر الجاحد لربه، والمكذّب لرُسُله: ما هذا  
الذي تنقلونه عمّا تسمّونه كتابَ الله إلّا أساطير الأولين، وهي مكتوباتٌ  
كتبوها من صنْعٍ أوهامهم وخيالاتهم، فهي خرافات لا أساس لها من الصحة .

وبالتأمل نُذرك أن الدافع له الذي دفعه إلى أقواله الجدلية الباطلة  
المنكرة للبعث رَغْبته العارمة في أن ينطلق في حياته فاجراً جباراً آثماً، دُونَ  
أَنْ يَشْعُرَ بِأَنَّهُ سِيحَاسَبُ وَسَيُجَازَى عَلَى كُفْرِهِ وَسَيَتَّاتِ عَمَلِهِ .

وهُنَا يَأْتِي فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ بَيَانُ الْقَضَاءِ الرَّبَّانِيِّ الْجَازِمِ، الصَّادِرِ بِشَأْنِ  
كُلِّ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْفَاجِرِينَ، الْمَجَادِلِينَ بِالْبَاطِلِ فِي قَضِيَّةِ الْبَعثِ  
لِلدَّيْنُونَةِ بِالْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، مَبِيناً أَنَّهُمْ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ  
الْقَوْلُ الْمُبْرَمُ السَّابِقُ بِأَنَّهُمْ سَيُعَذَّبُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، بِسَبَبِ مَا اخْتَارُوهُ أَوْ  
يَخْتَارُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ، مَعَ كَافِرِينَ قَبْلَهُمْ قَدْ خَلَوْا فِي الْقُرُونِ الْأُولَى مِنَ الْجَنَّةِ  
وَالْإِنْسِ، إِذْ مَاتُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، فَكَانُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ خَاسِرِينَ أَنْفُسَهُمْ، بِقَذْفِهَا  
إِلَى الْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ

كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٦﴾ .

\* \* \*



## النموذج السادس

### قصة قارون والدعاة من بني إسرائيل

وفيها صورتان:

- ١ - صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغى على قومه .
- ٢ - صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنتهم مظاهر الحياة الدنيا التي آتاها الله لقارون .

قال الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَانَبْتَهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَلَّتْ بِالْمَضْكَاتِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَانْبَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَرُونُ إِنَّهُمْ لَأُولُو حِطِّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ

اللَّهُ عَلَيْنَا لَحَسَفَ بِنَا وَتِكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ  
عُلُوقًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ  
فَلَا يَجْزِي الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

- ١ -

### بيان حول قارون

قارونُ رجلٌ كان ذا ثراءٍ عظيمٍ من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، حتى كانت كنوزُه التي يملكها ذات مفاتيح كثيرة يُثقلُ حملها على عُصْبَةٍ مِنَ الرِّجَالِ ذَوِي قُوَّةٍ، وقد بَغَى على قومه معيناً أعداءهم عليهم، وكان يخرج بين قومه في موكبٍ ذي زينةٍ كما كان يخرجُ الأمراءُ وذووا السلطانِ الفرعوني مُتَبَاهِيًا مُتَفَاخِرًا على بني إسرائيل، ونصحه قومه فلم يستجب لنصائحهم.

وقد خرج في زينته الكبيرة وموكبه المتباهي به إحدى المرات، ومرَّ بين أحياء قومه بني إسرائيل، فاندَهَشَ عَامَّتُهُمْ بذلك، وتمنَّوا أَنْ يكون اللهُ قَدْ آتَاهُمْ مِنَ الْمَالِ وَمَظَاهِرِ الزَّيْنَةِ وَالْعِظْمَةِ مِثْلَ الَّذِي آتَاهُ اللهُ لِقَارُونَ، فنصحهم أهل العلم من بني إسرائيل، قائلين لهم: وَيَلِكُمْ، أي: هذا التمنيُّ يجلبُ لكم عذاباً فلا تتمنَّوه، إنَّ هذا الذي ترؤنه لقارون من زينة الحياة الدنيا هو الأمرُ الذي أفسد نفسه، وجعلهُ باغياً عليكم، ومعيناً لأعدائكم، وسينزل اللهُ به عقاباً شديداً.

ولم يلبث طويلاً حتَّى خسف اللهُ به وبداره وأمواله الأرض فكان من الهالكين بسبب بغيه وكبره وإجرامه<sup>(١)</sup>.

(١) جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر «العدد» قصة رجل اسمه «قورح» من بني لاوي، وانضم إليه: «دathan وأبيرام، وأون» من رأيين. وأرادوا مقاومة موسى =

## التدبر التحليلي للمقطع الأول من النص

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾.

هذا البيان يدلُّ على أن قارونَ كان من بني إسرائيل، فبنو إسرائيل هم قوم موسى عليه السلام من الجهة العرقية النسبية، ويحتمل أنه كان أيضاً ممن انتمى إلى الدين الذي دعا إليه موسى عليه السلام مع الذين آمنوا به واتبعوه

= هارون، معترضين على تفردهما برئاسة شعب بني إسرائيل، واستطاعوا أن يجمعوا معهم مائتين وخمسين رجلاً من رؤساء أسباطهم، وواجهوا موسى وهارون عليهما السلام بهذه المعارضة، وكان هذا في صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر، وقد سخط الله على هؤلاء الخارجين البغاة، أما قورح وذاتان وأبيرام وأون، فانشقت الأرض التي تحتهم وابتلعتهم هم وخيامهم وأموالهم وانضمت عليهم، وأما المثنان والخمسون الذين نصرهم فأخرج الرب ناراً فأكلتهم. ولا نجد في كتب العهد القديم ذكراً لرجل اسمه «قارون» ورأى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير» تطبيق قصة قارون التي جاءت في القرآن على «قورح» والذين نصره، ورأى أن لفظ قارون تصرف عربي للفظ قورح. لكنني أرى أن قصة قارون في القرآن مختلفة عن قصة قورح؛ فقارون كان ذا دار، وأنه كان صاحب كنوز ذات مفاتيح كثيرة، وأنه خرج على قومه في زينته، وهذه أمور لا تليق إلا بساكني المدن المستقرين فيها، يضاف إلى هذا أنه توجد في الفيوم من مصر بركة ماء كبيرة يسميها المصريون بركة قارون، ويتناقلون أن مكان البركة هو المكان الذي كانت فيه دار قارون، وحصل فيها الخسف الذي ابتلعه وأمواله ومن معه، وذكر لنا بعض المصريين أن بعض كنوزه قد اكتشفت في منطقة الفيوم، فإن صح هذا فحادثة قارون قد كانت قبل خروج بني إسرائيل من مصر، وبهذا يكون قارون شخصاً آخر غير قورح، وإن تشابهت القصتان في بغي الرجل، وخسف الأرض به.

وبناء على هذا فينبغي تدبر النص القرآني منفصلاً تماماً عما جاء في سفر العدد بشأن قورح، وأرى أن قارون كان من أنصار فرعون وآله، وأنه لم يتبع موسى وهارون عليهما السلام، وإن كان من بني إسرائيل، وأن بغيه على قومه قد كان بكفره وانحيازه إلى السلطة الباغية في مصر.

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِلَّا أَنْ قَصَصْتَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي بَاطِنِهِ كَافِرًا، فَهُوَ عَلَى هَذَا مَنَافِقٌ فِي انْتِمَائِهِ، إِنْ كَانَ فِي وَاقِعِ حَالِهِ قَدْ تَظَاهَرَ بِالإِيمَانِ بِمُوسَى وَاتَّبَاعِهِ، وَالأَظْهَرُ عِنْدِي أَنَّهُ كَانَ مُتَابِعًا لآلِ فِرْعَوْنَ فِي مِلَّتِهِمْ.

قول الله تعالى: ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾.

البُغْيُ: تَجَاوَزَ الحَدَّ، وَالكِبْرُ، وَالظُّلْمُ، وَالإِفسَادُ فِي الأَرْضِ. وَالمَعْنَى أَنَّ قَارُونَ قَدِ اسْتَكْبَرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَعُوهُ، وَظَلَمَهُمْ، وَشَارَكَ فِي اضْطِهَادِهِمْ، وَأَفْسَدَ فِي الأَرْضِ لِقَمْعِ تَحَرُّكَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ.

أَمَّا نَوْعُ البُغْيِ الَّذِي كَانَ مِنْ قَارُونَ فَلَمْ يَأْتِ فِي قِصَّتِهِ تَفْصِيلٌ عَنْهُ، لَكِنْ يَسْتَطِيعُ المَتَفَكِّرُ فِي حَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَئِذٍ، وَمَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ اضْطِهَادِ وَظُلْمٍ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودِهِ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ قَارُونَ قَدْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ أُعْطُوا فِرْعَوْنَ وَآلَهُ كُلَّ وَلائِهِمْ، وَجَنَّدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي خِدْمَتِهِمْ لِتَحْصِيلِ المَنَافِعِ وَالثَّرَوَاتِ، وَهَذَا يَكْشِفُ لَنَا أَنَّ قَارُونَ اسْتَعْلَلَ لِأَعْمَالِهِ الكَامِلِ لِلْقَضْرِ الفِرْعَوْنِيِّ، وَمَسَاعَدَتِهِ لِسُلْطَةِ الحَاكِمَةِ الظَّالِمَةِ البَاغِيَّةِ عَلَى اضْطِهَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ، وَمَقَاوِمَةِ دَعْوَةِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِتَحْصِيلِ الثَّرْوَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي جَمَعَهَا، وَاسْتَنْزَاهَا فِي كُنُوزِهِ الكَثِيرَةِ.

قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّنَّهُ مِنْ أَلْكُنُوزِ مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لِنُورٍ بِالْعُصْبَةِ أُولَى

الْقُوَّةِ﴾.

أَي: وَآيِنَاهُ مِنْ الأَمْوَالِ الَّتِي اسْتَنْزَاهَا فِي بِيوتِ مَحْفُوظَةٍ مَحْمِيَّةٍ مُقْفَلَةٍ بِأَبْوَابِ عَظِيمَةٍ ذَاتِ مَفَاتِحٍ، قَدْرًا كَبِيرًا جَعَلَ مَفَاتِحَ أَبْوَابِ هَذِهِ الكُنُوزِ ذَاتَ وَزْنٍ ثَقِيلٍ لِكَثْرَتِهَا، حَتَّى لَوْ أَنَّ عَضْبَةً مِنَ النَّاسِ (أَي: جَمَاعَةً مِنْهُمْ) أُولَى قُوَّةٍ إِذَا أَرَادُوا حَمْلَهَا مَعَ لَثْقَلٍ عَلَيْهِمْ حَمْلَهَا، فَأَمَّا لَهُمْ وَأَحْتَى ظُهُورَهُمْ.

فَإِذَا كَانَ حَالُ مَفَاتِحِ كُنُوزِهِ كَذَلِكَ، فَكَمْ تَكُونُ مَقَادِيرُ الأَمْوَالِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا كُنُوزُهُ؟!.

هذه العبارة من الكنايات الجميلة التي لا يبعد إدراك المراد بها .

يقال لغة: ناء الجمل بحامله، إذا نُقِلَ عليه حتى أماله، أو حتى أفعده فَعَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ .

ويقال لغة: مفاتيح، ومفاتيح .

قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ وَأَتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أي: اذكُرْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ المهتم بأمر دينك والدعوة إليه، قصة دعوة دعوة بني إسرائيل في عهد موسى بمصر، لقارون الذي هو منهم سلالة ونسباً، إذ دَعَوْهُ إِلَى الْهُدَى وَالرَّشَادِ .

ودلّ التعبير بعبارة: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ عَلَى أَنَّ الدُّعَاةَ النَّاصِحِينَ لَهُ قَدْ كَانُوا جَمَاعَةً مِنْ مَجْمُوعِ قَوْمِهِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، ففيهم العلماء الفقهاء في الدين، وفيهم العامة الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ المعلومات الأساسية، التي لا يليق بمؤمن مُسلم أن يكون جاهلاً بها، ومنها ما دَعَوْهُ إِلَيْهِ فِي مَقَالَاتِهِمُ الَّتِي لَخَّصَهَا النَّصُّ فِي فِقْرَاتِهِ .

ومن المناسب أن نعتبرها داخلةً تَحْتَ عُنْوَانِ الدُّعْوَةِ، لا تحت عنوانِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِأَنَّ قَارُونََ فِي وَاقِعِ حَالِهِ كَانَ كَافِرًا أَوْ جَاهِلًا بِهَا، أَوْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْجَاهِلِ لِمَا يُوجَدُ عَلَى بَصِيرَتِهِ مِنْ غِشَاوَةِ كَثِيفَةٍ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا طَمَسَتْ مَعْرِفَتَهُ بِالْحَقِّ وَبِأُمُورِ الْآخِرَةِ .

ودلّ على أَنَّ الدُّعَاةَ النَّاصِحِينَ لَهُ كَانُوا مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْعَامَّةِ عِبَارَةً:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ هُنَا وَالْقَوْمُ بِمَجْمُوعِهِمْ يَكُونُ فِيهِمْ عُلَمَاءُ وَعَامَّةٌ، مَعِ عِبَارَةٌ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ فِي الْمَقْطَعِ الثَّانِي مِنْ قِصَّةِ قَارُونَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا بِمَا أُوتِيَ قَارُونَ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بِحَقِيقَةِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ، فَهَمَّ مِنَ الْعَامَّةِ .

أما المقالات التي وجهها دُعاةُ بني إسرائيل من علمائهم وعامتهم لقارون فهي أربَعُ مقالاتٍ فيها هَدْيٌ وَنُصْحٌ:

المقالة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

الفرح: نقيض الحزن، ويأتي بمعنى البَطْرِ والأشْر، أي: بمعنى الاستكبار والتفاخر والتعالي على الناس، ومن فَرِحَ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ طَغَى فَرَحَهُ عَلَى بَصِيرَتِهِ فَصَارَ يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ الطُّغَاةِ الْبُغَاةِ، وَهَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الْمَقْصُودُ فِي التَّعْبِيرِ هُنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَي: فَلَا تَفْرَحْ فَرَحًا مُبْطِرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ الْبَطْرِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الطُّغَاةَ، الَّذِينَ يَغْمِطُونَ النَّاسَ وَيُظْلِمُونَهُمْ وَيَعْتَدُونَ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ بِسَبَبِ مَا يَصُدُّرُ عَنْهُ مِنْ عَمَلٍ يُعَاقِبُهُ، وَقَدْ يَسْأَلُهُ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ .

المقالة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ .

أي: واطْلُبْ فِي تَصَرُّفِكَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ قَاصِدًا ثَوَابَ الدَّارِ الْآخِرَةِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، فَايْذُلْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرَاضِيهِ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِبِذَلِهِ، لِيَمْنَحَكَ مِنْ فَضْلِهِ يَوْمَ الدِّينِ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ فِي جَنَّاتِ النِّعِيمِ .

وَلَا تَنْسَ مَهْمَلًا تَارِكًا حَظَّكَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَبْتَغِيَ فِي بَعْضِ مَا آتَاكَ حَظُّوْكَ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ، وَمَسَاكِنَ

وزوجاتٍ بغيرِ معصيةٍ ولا طغيانٍ .

فنحن لا نقولُ لك : ابدلِ كلَّ ما أتاك الله في وجوه الخير ، تاركاً حظوظِ نَفْسِكَ ممَّا أباح الله لك من متاع الحياة الدنيا ، ومهملاً لها ، فحظوظك المباحة من الدنيا هي ممَّا يُمكن أن تبتغي به ثواب الآخرة ، إذ لا يقتصر ابتغاءُ ثواب الآخرة على ما تبدلُ لغيرك من خير ، بل يدخلُ فيه ما تبدله لنفسك وحظوظك من دنياك ، إذا التزمتَ بما أباح الله لك ، وقصدتَ به التَّقْوَى على طاعة ربك ، وإغفافَ نفسك عمَّا حرّم الله عليك .

المقالة الثالثة : دلَّ عليها قول الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ .

أي : وزد في بذلكِ مِنْ مَالِكَ وَمِنْ نَفْسِكَ فوقَ حُدود ما أوجب الله عليك ، ارتقاءً في درجاتِ البرِّ ، حتَّى مرتبة الإحسان التي يكون العابدُ فيها لرَبِّهِ كأنَّهُ يراه أمامه رؤياً عين ، وقابلُ إحسانِ الله إِلَيْكَ بإحسانٍ منك ، تقرباً إليه بمرضيه ، وشكراً له على ما أولاك من إحسانٍ زائد على حاجاتك ومطالبك في حياتك .

المقالة الرابعة : دلَّ عليها قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴾ .

يظهر أن بني إسرائيل قوم قارون أحسُّوا أنه ينصُرُ آل فرعون ضِدَّهم ، إذ يفسدون في أرض مصر ، مضطهدين بني إسرائيل ظلماً وعدواناً ، وأحسُّوا أنه يَنْقُلُ إليهم أخبار قومه ، إذ كانوا يقتلون مواليدهم من الذكور ، ويسخرُونهم في الأعمال الشاقة بالإكراه ، ويتابعون تحركاتهم ، وتجمعاتهم ، ونشاطاتهم الدنيئة ، فقالوا له : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۗ ﴾ أي : متابِعاً لسادتكَ فرعونَ وآله الذين تُصِيبُ بخدمتك ونصرتك لهم ضدَّ قومك ما تُصِيبُ من ثراء فاحش ، وقالوا له : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴾ أي : ومن لا يُحِبُّه الله بسبب ما يقترف

من إفسادٍ في الأرض، فلا بُدَّ أن ينزل به نِقْمَتُهُ وعقابه الشَّديد.

وأحسنَ قارونَ أن قومه يتهمونه بالخيانة ضدهم، وأنه يأخذ ثمن خيانتِه أموالاً كثيرة وتيسير مصالح من فرعون وآله، فردَّ عليهم بادعاء أن ما يملكُ من أموالٍ وكنوزٍ كثيرة، وما يملكُ من مكانةٍ اجتماعية، إنما كان بسببِ علمِه بوسائل اكتساب الأموال الوفيرة، وطُرُق الوصولِ إلى المكانة الاجتماعية الرفيعة، مع جحوده في ظاهر الرَّدِّ نعمة الله عليه، وأن الله هو الذي آتاه ما آتاه ليبلِّغوه في ظروف الحياة الدنيا أيشكُّ ربَّه أم يكفُرُهُ؟ فقال لهم كما أبان الله عزَّ وجلَّ بقوله:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾.

أي: ما هذه الاتهامات الباطلات التي تتهمونني بها؟! وما هذه الخرافات الدينية التي تزعمون بها أن الله هو الذي آتاني ما أملاكُ من أموال ومكانة اجتماعية رفيعة، وأن الله هو الذي أحسن إليَّ به، إنما أُوتيتُ ما أُوتيتُ من قِبَلِ فرعونَ وآله، مقابلِ علمِ عِنْدِي، قدَّمْتُ لهم به خدماتٍ جليلات، ومنافع عظيمة، لسلطانهم، ولثرواتهم، ورفض ما وجَّههُ له قومه من دعوةٍ ونُضح، ولم يكتَرِث لمقالاتهم.

وهنا يأتي التعليقُ الرِّبَّاني بيان أن الذي يمنح الأموال، ويمنح المكانة الاجتماعية بقضائه وقدره بَعْضُ عباده ليبلِّغُوهم فيما آتاهم، هو القادر على أن يسلبهم ما آتاهم، وهو القادر على أن يُهْلِكَهُمْ، وقارون واحدٌ منهم، وقد سبق في التاريخ قِبَلِ قارونَ أن الله قد أهلك من أهل القرون الأولى مَنْ هو أكثر منه قُوَّةً وأكثرُ منه جمعاً للأموال، فسلبَهُم بذلك كُلَّ ما آتاهم حتَّى أنفُسَهُمْ، فأخرجَهُم من الحياة الدنيا دارِ الابتلاء، وأماتَهُمْ ليلَقُوا جزاء أعمالهم التي قدَّموها في الحياة الدنيا، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَوْلَمْ يَلْمِ أَلَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ



جَمَعًا وَلَا يَسْتَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ .

أَوْلَمْ يَعْلَمُوا: استفهامٌ إنكارِيٌّ، أي: لقد عَلِمَ قارون بما تَلَقَّى مِنْ أخبار الأولين أَنَّ الله قد أَهْلَكَ من قَبْلِهِ من الأمم السابقة من هو أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمَعًا بسبب ذنوبهم الكثيرة التي كانوا بها مجرمين، والتي جعلتْهم يستكبرون في الأرض بغير الحقِّ، ويبغون الفساد فيها، ويجحدون نعمة الله عليهم، ويتصورون أَنَّ ما أصابوه من دُنْيَا قد كان بسبب ما لديهم من علم وذكاءٍ وحُسْنِ تصرفٍ في استثمار الأموال والأعمال، فلَمَّا انْحَطُّوا إلى دركة الإِجْرَامِ الذي يقتضي عقوبة الإهلاك الماحق أهلكتهم رُبُّهُمْ، وسَلَبَهُمْ كُلَّ شيءٍ، وحين أنزل بهم المهلكات في الحياة الدنيا لَمْ يسألُهُمْ عن ذنوبهم، ولم يُقِمَّ لهم قبل إهلاكهم محكمةً عدلِيَّةً، لأنَّ محكمة العدل الرِّبَانِيَّةَ إِنَّمَا تكونُ يومَ الدين، يوم الجزاء الأكبر، أما الجزاءاتُ والعقوباتُ الدنيويَّةُ المعجَّلة فَسُنَّةُ الله عَزَّ وَجَلَّ فيها أَنْ يُجْرِبَهَا دون محاكمات، لأنَّ ظروف الحياة الدنيا ذاتُ أنظمة في العطاء والمنع والسَّلْبِ والجزاء تعتمد على الحكمة الرِّبَانِيَّةَ التي تقتضيها هذه الظروف، فقال الله تعالى:

﴿ وَلَا يَسْتَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

أي: لا يُسألُونَ عن ذُنُوبِهِمْ عند تنفيذِ إهلاكهم في الحياة الدنيا عقوبةً لهم على ما قَدَّمُوا من جرائم.

أما يوم الدين فلا يكون فيه الجزاء في النار للعباد على ما قَدَّمُوا من جرائم في الحياة الدنيا إلا بعد سؤالٍ وحسابٍ وفَضْلِ قضاء.

هذا التعليق القرآنيُّ على ما كان من قارون قد تَضَمَّنَ موعظةً مُوجَّهَةً لكلِّ من يُؤْتِيهِ الله مالاً أو مكانة اجتماعية في الحياة الدنيا، وتتنزع به نوازع نفسه أن يَجْحَدَ نعمة الله عليه كما جحد قارون، وأن يستكبر على عباد الله كما استكبر قارون، وأن يَبْغِيَ الفساد في الأرض كما بَغَى قارون.

ويلاحظ في دعوة دعاة بني إسرائيل من علمائهم وعامتهم لقارون، اهتِمامُهُم في دعوتهم له بالأساسيات الدينية، من الفكريات التي تولد عن غيابها عن قناعاته انحرافات خطيرة في مفهوماته وأنواع سلوكه الاستكباري الإجرامي الباغي.

فنهوه عن الفرح المُطغي بما أُوتي من أموال ومكانة، إذ ولد لديه استكباراً وطغياناً. وأمره بأن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة مع أخذ حظه منه لحياته في الدنيا. ونصحه بأن يُحسِنَ كما أحسنَ الله إليه. وحذروه من أن يبتغي الفساد في الأرض.

وفي ذكر قصة دعوتهم له في القرآن إشادة بها، وتوجيه لاتخاذهم فيها أسوة حسنة، في المواقف المشابهة لمواقفهم تجاه قارون.

- ٣ -

### التدبر التحليلي للمقطع الثاني من النص

قول الله عز وجل: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾.

يدلُّ على أن قارون لم يستجب لنصائح دعاة قومه له، بل أصرَّ على قناعاته الخاصة وأنواع سلوكه، وأتبع ذلك بأن رَبَّ لِنَفْسِهِ مَوْكِبًا كَبِيرًا ذَا زِينَةٍ وَمَظَاهِرٍ عَظْمَةٍ، وركب مركبه الفارة، وخرج على قومه بني إسرائيل بهذا الموكب الفخم، مظهرًا تعاليه واستكباره بماله من مراكب فارهة وخدم وعبيد وأنصار، وبما لديه من أموال كثيرة وفيرة، ليقول لهم بلسان حال موكبه: إن ما اختاره لنفسه هو الأفضل والأحسن مما دعوته إليه.

ومع مرور هذا الموكب الكبير الذي اصطنعه قارون لنفسه ليتعالى به على قومه انقسم بنوا إسرائيل إلى قسمين:

القسم الأول: من خدعتهم ظواهر الحياة الدنيا وزينتها، وهم لا يملكون علماً صحيحاً راسخاً يحميهم من أن ينخدعوا، فاشترأبت نفوسهم للتعلق بالحياة الدنيا ومفاتها.

القسم الثاني: من لديهم علمٌ راسخٌ بحقائق أمور الحياة الدنيا، فلم تخدعهم الظواهر.

أما القسم الأول فلما رأوا قارونَ خارجاً على قومه في موكبه الفاره وزينته العظيمة، تمنّوا أن يكون لهم مثل ما أُوتي قارون، ورأوا أنه ذو حظٍ عظيم من متاع الحياة الدنيا.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ بشأنهم في النصّ:

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا مَا آتَيْنَاكَ قَدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوّ حَظِّ

عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ .

لم يقتصروا على مُجَرِّد التَّمَنِّي بكلمة: «لَيْتَ» بل أضافوا إليها نداء تَلَهُفٍ وطلبِ بِشْدَةٍ، فقالوا: ﴿ يَلَيْتَ لَنَا ﴾ وأكدوا أنه ذو حظّ عظيم بمؤكدات ثلاث: (إنّ - والجملة الاسمية - واللام المرحلقة).

هنا رأى العلماء من بني إسرائيل أن يُوجّهوا دعوتهم الناصحة لطلّاب الحياة الدنيا منهم، فبيّنوا لهم أنّ الحياة الدنيا قصيرة الأجل فانية، لا تستحقّ أن يتعلّق بها أهل العقل والرشد، وأنّ ثواب الله يوم الدّين خيرٌ وأعظمُ لمن آمنَ وعَمِلَ صالحاً، وأنّ هذه القناعات والعمل بمقتضاها لا يُمنّحها فيتلقّاها إلا الصّابرون.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا

يُلْفَهَا إِلَّا الصّٰبِرُونَ ﴿٨١﴾ .

لقد كانت غيرُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ من بني إسرائيل على العامة الجاهلين بحقائق أمور الدنيا والآخرة غَيْرَةً عظيمة، وكان حِرْصُهُمْ عليهم حرصاً شديداً، كحِرْصِ الْوَالِدِينَ الرُّؤُوفِينَ على وَلَدِهِمَا في دعوتهما له إلى الإيمان.

لذلك خاطب العلماء ذوي الجهالة بقولهم لَهُمْ: ﴿وَيَلِكُمْ﴾ أي: نخافُ عليكم من أن يُنزلَ اللَّهُ بِكُمْ عَذَاباً أَلِيماً، بسبب إرادتكم الحياة الدنيا، وعدم تعلقكم بثواب اللَّهِ الَّذِي أَعَدَّهُ للمؤمنين المتقين، يظفرون به يوم الدين.

وأتبعوا هذا التعبير الدالَّ على حرصهم عليهم، وشدة خوفهم من أن ينزل بهم عذاب الله بقولهم لهم كما جاء في النص: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾.

أي: ثوابُ اللَّهِ في الآخرة خَيْرٌ وأعظم وأجلُّ من كلِّ ما في الحياة الدنيا من أموالٍ وزينةٍ ومتاع، ولكنَّ هذا الثواب لا يكون إلا لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً.

وأبانوا لهم أن عَلَيْهِمْ أن يَصْبِرُوا على كَيْفِ جماع أهوائهم وشهواتهم وتَطَلُّعَاتِهِمْ إلى زينة الحياة الدنيا، فإنَّهُ لا يستطيع الالتزام الصادق بالإيمان والعمل الصالح إلا الصابرون الذين يصبرون على أنواع امتحانات الله لهم بما يخالف رغباتهم وأهواءهم في الحياة الدنيا.

فكانت دعوة علماء بني إسرائيل للمفتونين من عامتهم بما أتى الله قارون مَوْجَّهَةً للعنصر الخاص الَّذِي جَهِلُوهُ من مفهومات حكمة الله في عطائه ومنعِهِ، ومسبوقة بما يدلُّ على حبِّهم لَهُمْ، وخوفهم عليهم من أن ينزل بهم عذابُ الله المعبرِّ عنه بعبارة: ﴿وَيَلِكُمْ﴾.

وفي ذكر قصة هذه الدعوة إشادةً بها، وتوجيهً للعلماء من المسلمين أن

يكونوا حريصين على إرشاد العامة إلى ما فيه خيرهم عند ربهم، وأن يستفيدوا من قصة هذه الدعوة نموذجاً يتأسون به في مناهج دعوتهم للجاهلين، وذلك بأن يجعلوا دعوتهم مغلفةً ومسبوقةً بما يُشعر المدعويين بحُبِّ الدعاة لهم، وحرصهم عليهم، وخوفهم الشديد من أن يصيبهم عذاب من الله.

\* \* \*

فماذا كانت عاقبة قارون بعد استكباره على قومه، وتفاخره بموكبه الفخم وزينته التي خدع بها الذين يريدون الحياة الدنيا، وادعائه أن ما أوتيته من آل فرعون قد كان ثواباً على علم عنده ضمن نظام تبادل المنافع، وجُجوده نِعْمَةَ اللَّهِ عليه؟؟

لقد أبان الله عز وجل عاقبته التي فاجأته بسُرعَةِ عَقَبِ يَوْمِ تَفَاخُرِهِ بِمُوكِبِهِ وزينته، بقوله تعالى في النص:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتْرَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

لَقَدْ رَجَعَ قَارُونُ إِلَى دَارِهِ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي مُوكِبِهِ الاستعراضِي مستكبراً متفاخراً مُتَعَالِياً، وَحَطَّ رِحَالَهُ، وَأَوَّى إِلَى أَهْلِهِ فَرِحاً مُبْتَهِجاً بما استغلى به على قومه، وَتَمَدَّدَ عَلَى سَرِيرِهِ وَاحْتَضَنَ مَا احْتَضَنَ لِيَنَامَ هَانِئاً سَعِيداً، غَيْرَ مُتَرَقِّبٍ مُفَاجَأَتِ عِقَابِ اللَّهِ لَهُ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنْهَلْهُ، إِذْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ عِزَّةً لِمَنْ يَغْتَبِرُ، فَخَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ لَيْلًا، أَوْ عِنْدَ الْفَجْرِ، فَابْتَلَعَتْهُ الْأَرْضُ فَكَانَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْهَالِكِينَ.

وحين نزلت به المهلكات الخاسفات لم يكن له أدنى فتنة من أعوانه وعبده وخدمه وأنصاره، ينصرونه فيحمونه من عذاب الله، أو ينفذونه، ولم يستطيع أن يجد وسيلة يفرض باستخدامها من قبضة المهلكات الربانية، بل تغلغل

في الأرض هالِكاً مُحَاطاً بِأَسْبَابِ الْعَذَابِ .

فماذا كان موقف الجاهلين من عامة بني إسرائيل الذين سَبَقَ أَنْ تَمَنَّوْا  
أَنْ يُؤْتَوْا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ؟؟

لقد أبان الله عز وجل موقفهم بقوله تعالى في النص:

﴿ وَأَصْحَابِ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَارِبُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٦﴾ .

لقد أَصْبَحَ النَّاسُ فِي صَبَاحِ لَيْلَةِ الْخَسْفِ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ الْأَرْضَ تَحْتَ دَارِ  
قَارُونَ قَدْ انْخَسَفَتْ، فَابْتَلَعَتْهُ وَدَارَهُ وَمَا فِيهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ بِالْأَمْسِ الدَّابِرِ  
يَسْتَكْبِرُ عَلَى قُوَّتِهِ بِمُوكِبِهِ وَزِينَتِهِ، وَيَتَفَاخَرُ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ مَالٍ وَمَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ .

ومع إشراق الصباح ذُهِلَ الْجَاهِلُونَ مِنْ عَامَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا فَعَلَ اللَّهُ  
عَزَّوَجَلَّ بِقَارُونَ مِنْ مُعَاجَلَةٍ سَرِيعَةٍ بِالْإِهْلَالِ بوسلية الخسف، فأصبحوا  
يقولون وفداً بعد وفد وهم يشهدون الخسف أو يسمعون خبره: وَيَكَانَ اللَّهُ  
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ. لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا.  
وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

«وَيَكَانَ» تَعْبِيرٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ كَلِمَةِ «وَيَ» الَّتِي تُسْتَعْمَلُ بِتَلْقَائِيَّةٍ سَرِيعَةٍ عِنْدَ  
التَّعَجُّبِ الشَّدِيدِ الْبَالِغِ حَدِّ الدَّهْشَةِ مِنْ أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ مُرْتَقِباً وَلَا مُتَوَقِّعاً فِي نَفْسِ  
الْمُتَعَجِّبِ الْمُنْدَهَشِ، وَكَلِمَةِ «كَانَ» الَّتِي قَدْ تُضْمُّ إِلَى «وَيَ» مُقَدِّمَةً لِلْجُمْلَةِ  
الَّتِي اسْتَخْرَجَتْ مِنَ الْعِبْرَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْحَدِيثُ الْمُنْدَهَشُ الْمِثِيرُ لِلتَّعَجُّبِ .

والجملة المستخرجة من العبرة هي: أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ  
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ، أَي: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ اخْتِبَاراً لَهُمْ، وَيَقْدِرُ لِمَنْ  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الرِّزْقَ اخْتِبَاراً لَهُمْ، فَهُوَ لَا يَبْسُطُ إِكْرَاماً، وَلَا يَقْدِرُ إِهَانَةً .

واستفادوا من عِبْرَةِ الْحَدِيثِ قَضِيَّةَ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَّ

عليهم، إذ لم يوسّع عليهم في أرزاقهم كما وسّع على قارون، ولو أنه بسط لهم الرزق كما بسط لقارون لفتنوا بالأموال كما فتين قارون، ولجحدوا نعمة الله عليهم كما جحد قارون، ولاستحقوا أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون، فقالوا كما أبان الله عز وجل:

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ .

وهكذا انكشف لهم أن من مَنَّ الله عليهم أنه لم يَنْسُطْ لهم الرزق، إذ لو بسطه لهم لأفسدهم كما فسّد قارون ببسط الرزق، إذ كانت نفوسهم مفتونة بالحياة الدنيا.

واستفادوا من عِبْرَةِ الْحَدِيثِ قِصِيَّةَ ثَالِثَةِ كَانَتْ غَائِبَةً عَنِ أَذْهَانِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهَا وَهِيَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ، فقالوا كما أبان الله عز وجل في النَّصِّ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ عَقَلَتِهِمْ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ:

﴿وَيَكَاذِبُونَ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

وي: أي: عجباً لنا كيف غاب عنا أنه لا يفلح الكافرون؟! .

الفلاح: الظفر والنجاح ببلوغ غاية المراد، والمعنى أن الكافرين لا يبلغون غايات مراداتهم، وإن أمدّ الله لهم، وآتاهم بعض ما يشتهون. وفي هذه العبارة إشارة إلى أن قارون كان من الكافرين بالدّار الآخرة، وبنعمة الله عليهم، فأنزل الله به عقاب الخسف به وبقاره.

\* \* \*

وجاء التعليق القرآني على قصة إهلاك قارون بقول الله عز وجل:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَصْمَلُونَ﴾ .

فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ جَلَّ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ الَّتِي هِيَ دَارُ السُّعْدَاءِ يَوْمَ الدِّينِ،  
وهي جَنَاتُ النِّعِيمِ، يَجْعَلُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَيَعْمَلُونَ  
الصَّالِحَاتِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ اسْتِكْبَارًا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ،  
وَلَا يُرِيدُونَ فِسَادًا فِي الْأَرْضِ لِتَحْقِيقِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَاسْتِعْلَانِهِمْ بِغَيْرِ  
حَقٍّ وَمِنَ الْفِسَادِ فِي الْأَرْضِ نَشْرُ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَالظُّلْمِ  
وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ.

أَمَّا قَانُونُ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ فَالثَّوَابُ فِيهِ يَعْتَمِدُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ بِمُضَاعَفَةِ  
الْأَجْرِ، وَالْعِقَابُ فِيهِ يَعْتَمِدُ عَلَى عَدْلِ اللَّهِ، فَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا  
بِمِثْلِهَا.

\* \* \*



## النموذج السابع

### قصة الرجلين المتحاورين

- صاحب الجنتين المستكبر بهما وبأولاده.
- والآخر المؤمن الذي لم يُؤت سعةً من المال والولد والأنصار.

قال الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٢٦﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَظْهِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٧﴾ وَكَانَ لَهُمْ شَرٌّ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٨﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٠﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣١﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٣﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٤﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاوًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا ﴿٣٥﴾ وَأُحِيطَ بِشَعْرِهِ، فَأَصْبَحَ يَلْبُغٌ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٦﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٣٨﴾ ﴾

- قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿ أَكْلُهُمَا ﴾ بضم الكاف.

وقرأ نافع، وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أَكْلَهَا﴾ بإسكان الكاف.

وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بضم الثاء والميم جمع ثَمَار.  
وقرأ عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بفتح الثاء والميم  
اسم جنس جمعي.

وقرأ أبو عمرو: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بضم الثاء وبإسكان الميم تخفيفاً لثَمْر.  
ونظيرها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ إلا أن رُويًا عن يعقوب يقرأ هنا بضم الثاء  
والميم.

● وقرأ نافع وأبو جعفر: ﴿أَنَا أَكْثَرُ﴾ بإثبات ألف «أنا» وصلًا ووقفًا.  
وقرأ جمهور القراء العشرة بحذف هذه الألف وصلًا وإثباتها وقفًا.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ بإفراد هاء  
الضمير.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ بثنية هاء  
الضمير.

فدلت القراءتان على أن الجنتين المفصولتين بَنَهْرٍ، يجمعهما جامع عامٌّ  
واحد، فهما شطرا جَنَّةٍ واحدة.

● وقرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾ بإثبات ألف «أنا» وصلًا.  
وقرأ جمهور القراء بحذف هذه الألف وصلًا وإثباتها وقفًا.

● وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر أبو عمرو بفتح ياء المتكلم من:  
﴿هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ ومن ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي﴾ ومن ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ﴾.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء منها.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ بحذف ياء المتكلم.  
وأثبت هذه الياء في الوصل قالون، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها

في الوصل والوقف معاً ابن كثير ويعقوب .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي﴾ بحذف ياء المتكلم من ﴿يُؤْتِيَنِي﴾ وصلأ ووقفأ، وقرأ بإثباتها وصلأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها ابنُ كثير، ويعقوب وصلأ ووقفأ .

● وقرأ جمهور القراء العشرة ﴿فِيَّةٌ﴾ بالهمز، وقرأ أبو جعفر ﴿فِيَّةٌ﴾ بقلب الهمزة ياء، وكذلك قرأ حمزة عند الوقف فقط .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿الْوَالِيَّةُ﴾ بفتح الواو، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿الْوَالِيَّةُ﴾ بكسر الواو، الفتح والضم لغتان للكلمة .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿عُقْبًا﴾ بضم القاف، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿عُقْبًا﴾ بإسكان القاف .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿الْحَقُّ﴾ بكسر القاف على أن اللفظ وصف للفظ الجلالة في ﴿لِلَّهِ﴾ . وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿الْحَقُّ﴾ بضم القاف على أن اللفظ وصف للولاية .

\* \* \*

- ٢ -

تحليل النصّ وبيان ما اشتمل عليه من حوار

يعرض الله عزّ وجلّ في هذا النصّ قصة حوارٍ دينيّ جرى بين رجلين جمعت بينهما صُخبةٌ حوارٍ حول قضيتين:

القضية الأولى: قضية الإيمان بالله الخالق الرّبّ الذي لا شريك له في ربوبيّته، فلا شريك له في إلهيّته .

ومن الإشراك بالله في ربوبيته اعتقادُ أن الأسباب تفعل بذاتها، لا أنها بمثابة قنوات تُسْتَرَجَرِيَانُ أفعال الله في الخلق بمقتضى قضائه وقدره.

**القضية الثانية:** قضية الإيمان باليوم الآخر الذي يُحَاسِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الناسَ فيه على ما قَدَّمُوا وَأَخَّرُوا في رحلة الحياة الدنيا رحلة الامتحان، وبعد الحساب يُفْصَلُ القضاء بينهم، ثمَّ يجازيهم في جناتِ النعيم، أو في النار بعذاب أليم.

أما أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ فهو كافرٌ بهاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ بتأثير الغرور بزينة الحياة الدنيا وفتنتها، كُفْرًا لم يَصِلْ إلى حالة ميثوس منها، إذ هو ذُو ثَرَاءٍ وَسَعَةٍ من الْعَيْشِ وَزِينَةِ من الحياة الدنيا تَوَصَّلَ إليها بما اسْتَخْدَمَ من أسبابِ هَيَأَهَا اللهُ له، وَذُو قُوَّةٍ بَأَنْصَارِهِ من أولاده وغيرهم. وَمِمَّا يَمْلِكُ جَنَّةً كَبِيرَةً، هي بُسْتَانٌ كَبِيرٌ، يُفْصِلُهُ من وَسَطِهِ نَهْرٌ جَارٍ يَتَدَفَّقُ بلا انقطاع، فصار بمثابة جنتَيْنِ، إحداهما عن يمين النهر، والأخرى عن شماله.

لقد أنساه ما هو فيه من نعمة أن الله عز وجل هو الذي جعل له بتيسير الأسباب كُلِّ ما تَحْتَ يَدِهِ من أموالٍ وَقُوَّةٍ يَعْتَرِضُ بها.

وأما الآخر فهو رجلٌ مؤمنٌ داعيةً إلى دين الله، حريصٌ على هداية الضالين، وإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، عقيدة وعملاً، إلا أنه لم يُؤْتِ سَعَةً من المال، ولا كثرةً من الأولاد والأنصار.

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَاءً نَاتٍ أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَظْمِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

الخطاب للرسول ﷺ فليُكَلِّمِ داعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ، والمعنى: واضرب لمشركي مكةَ المَعْتَرِزِينَ المتفاحرينَ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَقُوَّةِ رِجَالِهِمُ الَّذِينَ

يَنْصُرُونَهُمْ ضِدَّ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، قِصَّةَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ عَرَضَ النَّصْرُ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا، وَمَا جَرَى لِلْمُتَفَاخِرِ مِنْهُمَا مِنْ عِقَابٍ تَأْدِيبِيٍّ رَبَّانِيٍّ بَعْدَ ذَلِكَ .

فَقَدْ نَزَلَ هَذَا النَّصْرَ قَبِيلَ أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، حِينَمَا كَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ فِي أَوْجِ تَفَاخُرِهِمْ، وَاعْتَزَّازَهُمْ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالٍ وَأَنْصَارٍ، وَاضْطَهَادٍ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَلْسَمِينَ .

وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَصُفُّ كَلَامِيٍّ يَشْتَمِلُ عَلَى تَحْدِيدِ لَخْرِيطةِ جَنَّتِي الرَّجُلِ الثَّرِيِّ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ أَشْجَارٍ وَزُرُوعٍ بِاسْتِثْنَاءِ الْمَسَاحَةِ وَالْعَدَدِ .

فَالجَنَّتَانِ مَزْرُوعَتَانِ بِأَشْجَارِ الْعَنْبِ، ذَوَاتِ الْعُرُوقِ وَالْفُرُوعِ الْمَمْتَدَّةِ، وَأَفْضَلُ بَسَاتِينِ الْعَنْبِ مَا كَانَتْ فُرُوعُ أَشْجَارِهِ مَمْدَدَةً عَلَى عُرُوشٍ مِنْ الْأَشْخَابِ الْمَرْتَفَعَةِ عَنِ الْأَرْضِ بِأَعْمَدَةٍ، لَكِنْ لَمْ يَأْتِ فِي هَاتَيْنِ ذِكْرَ الْعُرُوشِ، إِنَّمَا جَاءَ فِي أَوَاخِرِ النَّصْرِ ذِكْرُهَا، بِعِبَارَةٍ ﴿ وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ عِنْدَ بَيَانِ إِهْلَاكِ ثَمَرِ الْجَنَّتَيْنِ .

وَالجَنَّتَانِ مَحْفُوفَتَانِ بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ الشَّاهِقَةِ لِتَحْمِيٍّ أَشْجَارِ الْعَنْبِ مِنَ الرِّيحِ الْبَارِدَةِ، وَمِنْ لَفْحَاتِ الصَّقِيعِ الَّتِي تَأْتِي بِهَا، الْمَتَلَفَةَ لِلثَّمَارِ وَالْأَزْهَارِ .  
وَحَقَّقْنَا هُمَا بِنَخْلٍ: أَي: وَأَحْطَنَاهُمَا بِأَشْجَارِ نَخْلٍ، حَفَّ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ، إِذَا جَعَلَهُ مُحِيطًا بِهِ، وَمُسْتَدِيرًا حَوْلَهُ .

وَفِي الْمَسَاحَاتِ الْفَارِغَاتِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ زُرُوعٍ أَرْضِيَّةٍ نَافِعَةٌ لِأَكْلِ الْإِنْسَانِ وَالْأَنْعَامِ .

وَقَدْ وَصَلَتْ الْأَشْجَارُ إِلَى كِمَالِ نُضْجِهَا، فَآتَتْ فِيهَا سَبَقَ أَكْلِهَا، أَي: ثَمَرَاتِهَا الَّتِي تُؤْكَلُ مِنْهَا، دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِنَقْصَانٍ، فَلَمْ تَظَلِّمْ مِنْ أَكْلِهَا شَيْئًا، أَي: لَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا .

الْأَكْلُ: بِضَمِّ الْكَافِ وَإِسْكَانِهَا مَا يُؤْكَلُ، وَأَكْلُ الشَّجَرَةِ جَنَاهَا الَّذِي يُؤْكَلُ .

وقد فَجَّرَ اللهُ لَهُ خِلالَ الْجَنْتَيْنِ نَهْرًا، أَي: شَقَّ لَهُ عَيْنَ مَاءٍ تَنْبَعُ مِنْهَا الْمِيَاهُ بِقُوَّةٍ وَتَدْفِقُ، وَشَقَّ لَهُ نَهْرًا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ لِسُقْيَا الْجَنْتَيْنِ .

وسواءٌ حصل هذا بأسبابٍ أتخذها الرجل، أو دون أسبابٍ منه، فالأمر قد تمَّ بقضاء الله وقدره، فالأسبابُ الإنسانيَّةُ إنما تَتِمُّ بإقدار الله وإلهامه، وتوفيقه، فهي في الحقيقة آثار فعل الله عز وجل، ويمكن تقسيم قصتهما إلى فصولٍ، ثلاثة وخاتمة:

- ١ -

## الفصل الأول

يظهر أن الرجل المؤمن الداعية إلى دين الله والتزام صراطه المستقيم، وقد بدأ ينصح مَالِكَ الْجَنْتَيْنِ ذا القوة بأمواله وأنصاره، المفتون بما آتاه الله من زينة الحياة الدنيا، فيدعوه إلى الإيمان الكامل الصحيح بالله الخالق الرَّبِّ، الذي بيده مقاليد كل شيء في الوجود، والذي لا شريك له في ربوبيته، حتَّى الأسباب فإنها تُؤثِّرُ بقضائه وقدره وخلقه وقدرته، والذي لا شريك له في إلهيته، أي: في استحقاقه العبادة وحده، دون شيءٍ سواه في الوجود، وأخذ يُقدِّم له الأدلة على التوحيد، ويبيِّنُ له أن الله عز وجل خلقَ الناسَ في هذه الحياة الدنيا ليبلوهم أيُّهم أحسنُ عملاً، وأنَّ هذه الحياة الدنيا كُلُّها ستنتهي بقيام الساعة، ثمَّ يبيِّعُ اللهُ الناسَ إلى يوم الدين، يوم الحساب وفضل القضاء، ثم تنفيذ الجزاء، بالثواب في جنَّة النعيم، أو بالعقاب في دار العذاب الأليم.

فَرَدَّ عَلَيْهِ ذُو الْمَالِ الْوَاسِعِ الْمَعْتَرُ بِكَثْرَةِ أَوْلَادِهِ وَنَفَرِهِ، بَأَنَّ إِيمَانَهُ بِرَبِّهِ وَطَاعَتَهُ لَهُ لَمْ تَجْلُبْ لَهُ مَالًا كَثِيرًا، وَلَا قُوَّةً وَمَنْعَةً بِأَوْلَادِهِ وَأَنْصَارِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَلَوْ كَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ صَاحِبًا، لَكَانَ اللهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِ وَمَنْحَهُ الْقُوَّةَ .

أما هو فقد استخدم وسائله وذكاءه وعلمه، فصار أكثر من المؤمن بالله واليوم الآخر الذي يعمل الصالحات مالا، وأعزَّ نَفْرًا، وهذا دليلٌ على أن الأمر لا يتجاوز ظروفَ هذه الحياة وأسبابها.

ولا بُدُّ أن يكون المؤمن قد حاوره حول دليله هذا فأبانَ له أن ظروف الحياة الدنيا ظروفُ امتحان، والامتحان يكون بالغنى والقوة أحياناً ولبعض الناس، وليس هذا تكريماً من الله لهم، ويكون بالتضييق وعدمِ القوة أحياناً ولبعض الناس، وليس هذا إهانة لهم، بل كُفٌّ من الأمرين للابتلاء والامتحان.

إلا أن ذا الغنى المعتزَّ بأمواله وأولاده ونفريه، والمتفاخرَ بكلِّ ذلك، لم يغبأ بجواب الرجل المؤمن القائم على الدليل النظريِّ الفكريِّ العلميِّ، المستند إلى أدلة الإيمان بالله واليوم الآخر، وحكمته من خلق الناس في هذه الحياة الدنيا، لأنه مفتونٌ بما يملكُ من زينتها، محجوبُ البصيرة عن إدراك الحقيقة، إذ أكسبه افتتانه طغياناً في نفسه.

وفي موسم من مواسم قطفِ الثمار، كانت جنته ذاتَ ثمرٍ بهيج، وكان قد دنا قطفه، فتحرّكت نفسه برغبة الافتخار على صاحبه المؤمن الداعية الذي لم يؤته الله مثل ما آتاه، فأخذ بيده، واستصحبه، ليُطلعَهُ على بُستانه، المفتون بإنشائه وإعمارهِ وإتقانه، ذي الجناحين من ذاتِ اليمين، ومن ذاتِ الشمال، وذي النهر الفاصل بينهما، والذي يتفجّر جارياً مُتدفقاً بينهما، فكانا بمثابة بُستانين مُنفصلين، لكن يجمعهما سورٌ عامٌّ واحد، فهما جنتان متفاصلتان، في جنةٍ عامّةٍ واحدةٍ ذاتِ سورٍ عامٍ واحد، وقصد من استصحابه التفاخر عليه، وإقناعه بأن نظام الحياة نظامُ أسبابٍ ومُسبباتٍ:

قال الله عز وجل:

﴿وَكَاثَ لَمْ نَمُرْ فَقَالَ لِمَ نَحْنُ فِيهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٤١﴾ وَدَخَلَ

جَنَّتُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّا مُنْقَلَبًا ﴿٣٠﴾ .

وأعزُّ: أي: أقوى وأغلب، قالوا: مَنْ عَزَّ بَرٌّ، أي: من غلب سلب.

نَفَرًا: النَّفَرُ الرِّجَالُ من ثلاثة إلى عشرة، وكانوا أولاده وخدمته.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ: جعلها النصَّ جَنَّةً واحدة نظراً إلى السور الواحد الذي

يجمع الجنتين المنفصلتين بنهر يجري بينهما.

وهو ظالمٌ لِنَفْسِهِ: أي: ظالم لنفسه بشركه إذ جعل الأسباب هي الفاعل

الحقيقي، جاحداً أنَّ الله هو الَّذِي يَخْلُقُ من خلالها، وبنكاره ليوم الدين، إذ قال: ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذه إبداءً، وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً كما يذكر المرسلون.

إنه لَمَّا وَصَلَ هو وصاحبُه المؤمنُ الداعية إلى باب بستانه المفتون به،

دخله وهو ظالم لنفسه بكفره، وافتتانه بما يملك من زينة الحياة الدنيا،

واقتناعه بأن الأسباب التي اتَّخَذَهَا هي الَّتِي أوصلتُهُ إلى ما هو فيه من ثراء

وقوة.

وبما أنه استنبعد من تصوُّره أنَّ الحياة هذه حياة ابتلاء، وأن وراءها حياة

أخرى هي دار الحساب وفضل القضاء والجزاء، تصوَّر أنَّ الوجود كُلُّهُ

مُنْحَصَرٌّ في ظروف هذه الحياة، وأن هذا النظام مستمرٌّ فيها من الأزل إلى

الأبد، على مذهب الدهريين، وأن أحداثها التي تجري فيها خاضعة لنظام

الأسباب والمسببات، فما دام الإنسان يتَّخَذُ أسباب الإنشاء والتعمير والتربية

والتنمية، فإن الأسباب مستمرة العطاء، في نظامٍ أبدي لا انقطاع له، وبما أنه

فكَّرَ وَقَدَّرَ، واتَّخَذَ الأسبابَ الصحيحة السليمة الكاملة، لإنشاء بُسْتَانِهِ ذي

الجناتين، إنشاءً كامل الصفات والشروط التنموية والوقائية، فلا بُدَّ أن يُعْطَى

عطاءً دواماً وافرأً غَيْرَ مَنقُوصٍ، وهذا الأمرُ قد امتحنه وأخضعه للتجربة خلال

سنوات حياته السابقة.



لذلك فهو لا يَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ جِثَّتُهُ أَبَدًا، ما دامت أسبابُ إمدادها بالبقاء والتجديد والتحسين والحماية مستمرة، وتَصَوَّرَ أَنَّ هذا هو قانون الوجود الذي لا يتعرَّضُ لما يُلغِيهِ مِنْ قُوَّةِ رَبَّانِيَّةِ خارقة، فقال:

﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ .

أي: ما دامت أسبابُ الإمداد والإصلاح والتعمير مُهَيَّأَةً لها بلا نقصان، ونفِي الظَّنِّ كُلِّهِ قَوِيَّةٌ وَضْعِيْفَةٌ عَنِ النَّقِيضِ يَتَضَمَّنُ إثبات النقيضِ الآخَرَ بِلَا شَكِّ، أي: فهي دائمة بلا انقطاع، ولا يلزم من هذا أَنَّهُ يُؤْمَنُ بخلود نفسه، إلاَّ أَنَّهُ وَهْمٌ جَعَلَهُ يُؤْمَنُ بخلود نظام الكونِ، ونظامِ تعاقبِ صُورِ الحَيَاةِ فِي الأَرْضِ.

وإذ سيطرت على نفسه فِكْرَةُ خُلُودِ هذا النظامِ الكونِيِّ بغير انقطاع، فمن لوازم هذه الفكرة أن لا يَظُنُّ أَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي حَدَّثَ الرُّسُلُ عَنْهَا، وَأَثْبَتَهَا الكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ، سَاعَةٌ قَائِمَةٌ، لا سَاعَةَ الإِفْنَاءِ، ولا سَاعَةَ البُعْثِ، فقال:

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ .

وهذا النفي يَتَضَمَّنُ أيضاً إثبات النَّقِيضِ بِلَا شَكِّ، وهو أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ .

لكنَّهُ لَمْ يَجْزَمْ جِزْمًا قاطعاً بَأَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَى الحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ، فقال:

﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ .

أي: وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي عَلَى سبيل الاحتمال الضعيف في نظامٍ غَيْرِ هذا النظامِ المشهودِ لِلْكَوْنِ، لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْ هَذِهِ الجِثَّةِ مُنْقَلَبًا مُنْقَلَبًا إِلَيْهِ، فَعِلْمِي وَقُدْرَاتِي الَّتِي جَعَلْتَنِي فِي هَذِهِ الحَيَاةِ أَجْمَعُ ما جَمَعْتُ، وَأَسَّسُ ما أَسَّسْتُ، وَأَنْشِئُ ما أَنْشَأْتُ، سَتُمْكِنُنِي مِنْ أَنْ أَكْتَسِبَ أَمْثَالَهَا .

فاشتمَلَ كَلامُهُ عَلَى ثَلاثِ قِضايا:

القضية الأولى: تفاخُرُهُ بوسائله التي اتخذها في الإنشاء والتعمير والإمداد والرعاية والحماية والصيانة، فقال: ما أظنُّ أن تبيد جنتي هذه أبداً، ما دامت وسائل حمايتها ورعايتها وإمدادها وصيانتها موجودة بالتتابع، فنظام الكون نظامٌ ثابتٌ على هذا الوضع من الأزل إلى الأبد.

القضية الثانية: مَبْنِيَّة على القضية الأولى، وهي قوله ما دام نظام الكون نظاماً مستمراً على ما هو عليه، فما أظنُّ السَّاعة قائمة، الشاملة لساعة إنهاء ظروف هذه الحياة، ولساعة البعث إلى حياةٍ أخرى.

القضية الثالثة: وهي قضيةٌ أوردها على سبيل الافتراض الاحتماليِّ الضعيف، وقد قال فيها: وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَيْثُ مَرَّةٌ أُخْرَى، فَلَأَجِدَنَّ عِنْدَهُ خَيْراً مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ مُنْقَلَباً أَنْقَلِبُ إِلَيْهِ، فلقد مكَّنني في هذه الحياة من اتِّخاذ هذه الجنة، ومن المؤكِّد أنَّه سَيُمَكِّنني في الحياة الأخرى من اتِّخاذ خَيْرٍ منها، إن كان لهذه الحياة الأخرى وجودٌ، وكانت أحوالها أحسنَ من أحوال هذه الحياة.

لكنِّي لا أرى كُلَّ ذَلِكَ، فمزاعم الحياة الأخرى مزاعمٌ لا دليل عليها فيما نشاهد من مقابر أهل القرون الأولى.

- ٢ -

## الفصل الثاني

هنا حاول صاحبه المؤمن في محاورته له إعادته إلى المنطلق الأول للفكر الإيماني، وهو الإيمان بالخالق الرَّبِّ المنشيء من التُّراب، وسأله على سبيل الاستفهام الإنكاري عن نظرتَه إلى النظام السببي الذي تجري بمقتضاه أحداث الكون وأطواره، هل هو يؤمن بالأسباب منقطعة عن الرَّبِّ الذي يخلُق كُلَّ ما في أحداث كونه ضمن قنواتها؟

قال الله عز وجل :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ

رَجُلًا ﴿٧﴾ .

أي: إِنَّ وُجُودَكَ بِخَلْقِ اللَّهِ قَدْ كَانَ خَاضِعًا لِنِظَامِ الْأَسْبَابِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَجْرَى أَسْبَابَ خَلْقِكَ بَدَأَ مِنَ التُّرَابِ إِلَى النَّبَاتِ إِلَى الْغِذَاءِ إِلَى الدَّمَاءِ ثُمَّ إِلَى النُّطْفَةِ، وَتَتَابَعَتْ سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ حَتَّى صِرْتَ جَنِينًا، ثُمَّ دَبَّتْ فِيكَ الرُّوحُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، ثُمَّ يَسَّرَ اللَّهُ أَسْبَابَ وَوَلَادَتِكَ، وَتَتَابَعَتْ أَسْبَابَ إِمْدَادِكَ بِالْبَقَاءِ حَتَّى صَيَّرَكَ اللَّهُ طِفْلًا، ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا مُكْتَمَلًا، تَتَعَاطَى الْأَسْبَابُ، وَتَتِمُّ الْمُسَبِّبَاتُ بِخَلْقِ اللَّهِ مِنْ خِلَالِ قَنَوَاتِهَا.

فَاللَّهُ الرَّبُّ الْمَتَابِعُ بِرَبُوبِيَّتِهِ مِنْ بَوَاطِنِ الظُّوَاهِرِ السَّبَبِيَّةِ أَعْمَالَ الْخَلْقِ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الْمُسَبِّبَاتِ، كَمَا هُوَ خَالِقٌ لِلْأَسْبَابِ، وَلَوْلَا خَلْقُهُ لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنْهَا، وَالْأَفْعَالُ لَا تَفْعَلُ بِذَاتِهَا شَيْئًا، لِأَنَّهَا أَشْيَاءٌ لَا مَشِيئَةَ لَهَا وَلَا عِلْمَ وَلَا حِكْمَةَ وَلَا غَايَةَ، بَيْنَمَا نُشَاهِدُ أَنَّ كُلَّ أَحْدَاثِ الْكُونِ وَتَطَوُّرَاتِهِ مَقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ، وَهِيَ لَا تَكُونَانِ إِلَّا بِعِلْمٍ وَمَشِيئَةٍ، وَهَذِهِ صِفَاتُ رَبِّ عَلِيمٍ حَكِيمٍ قَدِيرٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

فَهَلْ أَنْتَ نَظَرْتَ إِلَى أَطْوَارِ وُجُودِكَ عَلَى أَنَّهَا أَسْبَابٌ فَاعِلَةٌ بِذَاتِهَا، غَيْرُ مُسَبِّبَةٍ بِخَلْقِ رَبِّ خَالِقٍ؟

وَيُظْهِرُ أَنَّ الْمَفْتُونِ بِأَسْبَابِهِ أَخَذَ يُرَاوِغُ وَيَطْرَحُ الْإِحْتِمَالَاتِ النَّظَرِيَّةِ، وَمِنْهَا أَنَّ الْأَسْبَابَ مُشْهُودَةٌ لَنَا فَتُؤْمَنُ بِهَا، وَكُونَ اللَّهُ هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ مِنْ بَوَاطِنِ الظُّوَاهِرِ السَّبَبِيَّةِ أَمْرٌ غَيْرُ مُشْهُودٍ، وَجَعَلَ يَتَهَرَّبُ مِنَ الْإِدْعَانِ لِلْحَقِّ.

وَيُظْهِرُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِوُجُودِ خَالِقٍ أَعْلَى، لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي تَتَابِعِ أَحْدَاثِ

الكون، ويجعل له شركاء من دونه، ويظهر أن شركته من نوع شرك فاعليته الأسباب بذاتها، فهو في هذه القضية على مذهب شبيه بمذهب الدهريين.

فلما علم صاحبه المؤمن الداعية ما هو عليه من اعتقاد فاسد، وكفر بربه، وكفر بالديونة والجزاء والحياة الأخرى، قال له كما جاء في النص:

﴿ لِكَيْتَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٦٧﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٦٨﴾ أَوْ يُصِصَ مَاؤَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهَا طَبًّا ﴿٦٩﴾ .

لِكَيْتَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي: أضلها لكن أنا هو الله ربِّي، لكن حرف استدراك، يستدرك به على اعتقاد المفتون بأسبابه وبما لديه من مال وأنصار، فيبين له أنه يخالفه، ويؤمن بالله ربّه.

ضمير ﴿أنا﴾ في محل رفع مبتدأ. و ﴿هو﴾ ضمير الشأن العظيم مبتدأ، وخبره جملة: ﴿الله ربِّي﴾ وجملة: ﴿هو الله ربِّي﴾ خبر: ﴿أنا﴾.

فأبان الرجل اعتقاده بجملة على إيجازها فيها أربع مؤكّدات: ﴿أنا﴾ و ﴿هو﴾ ضمير الشأن، و ﴿الله ربِّي﴾ وهي جملة اسمية معرفة الطرفين تفيد القصر، وكون الجملة كلّها جملة اسمية.

ولولا: أي: وهلاً، فهي هنا حرف تحضيض.

مَا شَاءَ اللَّهُ: أي: هذا الذي أشاهده في جنتي مُعجِباً لي شيء شاءه الله. فلفظ «ما» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا، والعائد على «ما» محذوف تقديره «شاءه».

فالعبرة مختزلة، وهي عبارة تخصّص للأشياء المعجبة مما قد يصيها من سوء، وهي تدل على أن الله هو الذي شاء ويسر الأسباب وأجرى أعمال

خلقه من بواطنها، وهكذا ينبغي للمؤمن أن يُعَبَّرَ عن إيمانه بِرَبِّه عند كلِّ حَدَثٍ يَرْتَبِطُ بِعُنْصُرٍ مِنْ عُنَاصِرِ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ: أي: لا قُوَّةَ لِأَحَدٍ فِي الْوُجُودِ، وَلَا قُوَّةَ لِشَيْءٍ، إِلَّا بِإِمْدَادِهِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ الَّتِي يُسَخِّرُهَا لَهُ وَيُمْكِّنُهُ مِنْ اسْتِخْدَامِهَا.

وبهذه العبارة يَتَبَرَّأُ الْمُؤْمِنُ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ قُوَّةٌ مَا مَادِيَّةٌ أَوْ مَعْنَوِيَّةٌ، وَيُحِيلُ مَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ عَلَى أَنَّهَا مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ وَإِمْدَادِهِ وَخَلْقِهِ.

إِنْ تَرِنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا: «إِنْ» حَزَفُ شَرْطٍ جَازِمٍ «تَرِنِ» أَصْلُهُ تَرَنِي، حُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ إِجْزَاءً، وَحُذِفَتْ كَثِيرٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ، وَأَمْثَالُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، وَالْفِعْلُ مَجْزُومٌ بِحَرْفِ الشَّرْطِ، وَعَلَامَةُ جِزْمِهِ حَذْفُ آخِرِهِ لِأَنَّهُ مَعْتَلٌ الْآخِرِ بِالْأَلْفِ. «أَنَا» تَأْكِيدٌ لِمُضْمِرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمَحْذُوفِ لِفِظًا، وَالْمَلَاحِظُ ذَهْنًا. «أَقَلُّ» مَفْعُولٌ بِهِ ثَانٍ لِلْفِعْلِ الْمَجْزُومِ بِحَرْفِ الشَّرْطِ.

فَعَسَى: «عَسَى» فِعْلٌ نَاقِصٌ يَعْمَلُ عَمَلُ «كَانَ» فَيَرْفَعُ الْاسْمَ وَيُنْصَبُ الْخَبَرَ، وَلَا يَكُونُ خَبِرَ «عَسَى» إِلَّا فِعْلًا مُسْتَقْبَلًا مُقْتَرِنًا بِحَرْفِ «أَنَّ» الَّذِي يُنْصَبُ الْفِعْلُ الْمَضَارِعَ.

وأصل معنى «عَسَى» يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ الْمُحْتَمَلِ الْمُرْتَقِبِ مِثْلَ: لَعَلَّ، وَكَثِيرًا مَا يُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَرْجُوعِ الْوَقُوعِ بِقُرْبٍ، وَاسْتِعْمَالُ «عَسَى» بِمَعْنَى التَّرَجُّحِي هُوَ الْأَكْثَرُ فِي الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّهَا كَلِمَةٌ لِلتَّرَجُّحِي، لَكِنَّهَا قَدْ تَسْتَعْمَلُ لِمَطْلَقِ الْإِحْتِمَالِ الْمَتَوَقَّعِ كَمَا هِيَ هُنَا، إِذْ لَيْسَ مِنْ خَلْقِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَزُجُّ زَوَالِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، فَحِكْمَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ لَا يُعَارِضُهَا مِنَ الْمُؤْمِنِ رَجَاءٌ يُشْعِرُ بِحَسَدٍ أَوْ اعْتِرَاضٍ عَلَى مَقَادِيرِ اللَّهِ.

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ: أي: فَمِنْ الْمُمْكِنِ احْتِمَالًا بِالنَّظَرِ

إلى التقلبات التي يجربها الله في عباده، أن يُبدّل الله فقري، فيُعْزِينِي، فيؤْتِينِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ.

وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيداً زَلْقاً: الحسبان في الأصل مَصْدَرٌ كَالْحِسَابِ، يُقَالُ: حَسَبَ يَحْسُبُ حَسَاباً وَحُسْبَاناً، وبما أن كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ بِمِقْدَارٍ، فَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ سَبْحَانَهُ بِحِسَابٍ، لِأَنَّ مِقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا تُضَبِّطُ بِالْحِسَابِ.

وعقوبات الله وأنواع عذابه ومهلكاته إنما يُنْزِلُهَا بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ، لَا شَطَطَ فِيهِ وَلَا وَكْسَ.

وعلى طريقة الوصف بالمصدر، والاكتفاء بالوصف عن ذكر الموصوف، جاء إطلاق الحُسْبَانِ هنا مُرَاداً بِهِ التَّوَازِلُ المَهْلِكَةُ وَالمُتْلِفَةُ الَّتِي يُزِيلُهَا اللَّهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ أَوْ بَعْضِ مُمْتَلِكَاتِهِمْ وَأَشْيَائِهِمْ بِحِسَابٍ دَقِيقٍ، تَأْدِيباً لَهُمْ، أَوْ عِقُوبَةً مَعْجَلَةً قَبْلَ عِقُوبَاتِهِ المَوْجَلَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

ولهذا قالوا في معنى الحُسْبَانِ هُنَا: هُوَ كُلُّ عَذَابٍ، أَوْ كُلُّ شَرٍّ وَبَلَاءٍ، وَبِمَعْنَى مَصِيبَةٍ.

صَعِيداً زَلْقاً: أَي: أَرْضاً خَالِيَةً مِنْ أَيِّ شَجَرٍ أَوْ زَرْعٍ، وَطِيناً رَغَوِيّاً مُزْلَقاً لَا تَنْبُتُ عَلَيْهِ الْأَقْدَامُ.

الصَّعِيدُ: وَجْهُ الْأَرْضِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ كُلُّ وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا إِذَا زَالَ كُلُّ مَا فِيهَا مِنْ شَجَرٍ وَنَبَاتٍ.

الرَّزْلَقُ: الْمَكَانُ الْمَزْلَقَةُ الَّذِي لَا تَنْبُتُ عَلَيْهِ قَدَمٌ، بِسَبَبِ مَا فِيهِ مِنْ طِينٍ رَغَوِيٍّ.

أَوْ يُصْبِحُ مَاءُهَا غَوْرًا: غَوْرٌ كُلُّ شَيْءٍ عُمُقُهُ، وَيُقَالُ: مَاءٌ غَوْرٌ، أَي:

غائر، على طريقة الوصف بالمصدر، والماء الغائرُ في عُمقِ الأرضِ قد لا يستطيع الناس استخراجَه .

دلّت هذه الآيات على أنّ الرجل المؤمنَ الداعية قد نصح صاحبه المفتونَ بما لديه من أموال وأولاد ينصرونه نصيحتين كبيرتين تشتملان على عدة نصائح:

**النصيحة الأولى:** قَالَ لَهُ فِيهَا: هَلَّا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ذَاتَ الْجَنَاحِينَ عَلَى شَاطِئِي النَّهْرِ الَّذِي يَجْرِي وَسَطَهَا، قُلْتُ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، أَي: هَذَا الَّذِي أَرَاهُ فِي جَنَّتِي هُوَ شَيْءٌ قَدْ شَاءَهُ اللَّهُ، فَهُوَ الَّذِي هَيَأُ لِي الْأَسْبَابَ، وَأَمَدَّنِي بِالْقُوَّةِ لِاتِّخَاذِهَا، فَقَوَّتِي الَّتِي اتَّخَذْتُ بِهَا أَسْبَابِي لَمْ تَكُنْ لِي إِلَّا بِخَلْقِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ .

**النصيحة الثانية:** قَالَ لَهُ فِيهَا: إِنَّ تَفَاخُرَكَ عَلَيَّ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِكَ وَأَوْلَادِكَ، تَفَاخُرٌ بِأَمْرٍ غَيْرِ مَضْمُونِ الثَّبَاتِ وَالذَّوَامِ، فَمِنْ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، لِيَمْتَحِنَ كُلًّا بِمَا آتَاهُ بِالشُّكْرِ أَوْ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا، وَمَنْ أَعْطَاهُ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ رُبَّمَا سَلَبَهُ مَا كَانَ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ فِي حِينٍ آخَرَ، وَمَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ رُبَّمَا وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ آخَرَ، فَلَا يَعْزُوكَ مَا أَنْتَ فِيهِ الْآنَ، إِنَّهُ صُورَةٌ مِنْ صُورِ امْتِحَانِكَ، وَمِنْ الْمُمْكِنِ الَّذِي قَدْ يَخْضُلُ، أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ فَيُعْطِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَيْضًا أَنْ يَسْلُبَكَ جَنَّتَكَ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكُونِيَّةِ، الَّتِي تُشَاهِدُ فِي صُرُوفِ الدَّهْرِ أَمْثَالَهَا .

كَأَنَّ يُرْسِلَ عَلَى جَنَّتِكَ نَوَازِلَ مِنَ السَّمَاءِ مُهْلِكَةً مُتَلَفَةً مُتَبَرَّةً، مُقَدَّرَةً بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ لَا تُصِيبُ غَيْرَ جَنَّتِكَ، كَلَفْحَاتِ صَقِيعٍ، أَوْ لَفْحَاتِ سَمُومٍ مُحْرِقَةٍ، أَوْ صَوَاعِقِ مُحْرِقَةٍ، أَوْ بَرْدٍ مُحْطَمٍ، لَا يُبْقِي مِنَ الْجَنَّةِ شَيْئًا، فَتَعْدُو صَعِيدًا، أَرْضًا خَالِيَةً مِنْ أَيِّ شَجَرٍ أَوْ نَبَاتٍ، قَدْ اخْتَلَطَ تَرَابُهَا وَنَبَاتُهَا بِمَا نَزَلَ عَلَيْهَا مِنْ بَرْدٍ وَتَلْجٍ، فَتَصِيرُ زَلْفًا لَا تَتَبُّتُ عَلَيْهَا الْأَفْدَامُ، كَمَا يَحْدُثُ أحيانًا فِي

بعض البساتين والغابات التي تنزل عليها مُهْلِكَاتٌ من السَّمَاءِ، وهذا أَمْرٌ مُشَاهِدٌ.  
ومن الممكن أيضاً أن يُصْبِحَ الماءُ الجاري الذي تُسْقَى منه جَنَّتُكَ ماءً  
غَوْرًا، أي: غائراً في أعماق الأرضِ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ له طَلْبًا، وإذا غَارَ الماءُ في  
أعماق الأرضِ يَيْسَ كُلُّ ما في بستانك الذي تُفَاخِرُ فيه، وتَزْعُمُ أَنَّهُ لن يَبِيدَ  
أبدًا، فَكَمْ من ماءٍ كان نهراً جاريًا فغَارَ في أعماق الأرضِ، فَيَسَتْ الأشجارُ  
والزُّروعُ التي كان يَسْقِيها.  
أَلَيْسَ هذا احتمالاً قائماً؟!.

موقف المغرور من هاتين النصيحتين:

لكنَّ الرَّجُلَ المَفْتُونِ المُعْتَمِدِ على أسبابه ظلَّ مغروراً بنفسه، وبما  
يَمْلِكُ من أسباب، مخدوعاً بالظواهر، غيرَ مؤمِنٍ بأنَّ ما هُوَ فيه قد كان  
بعطاء اللّهِ له، لِيَمْتَحِنَهُ في ظروف الحياة الدنيا.

- ٣ -

### الفصل الثالث

و شاء الله أن يُعَاقِبَ المَغْرُورَ المَفْتُونِ بأسبابه عقابَ تَأْدِيبٍ لِيَرُدَّهُ إلى  
صَوَابِهِ، ويوقظه من غفواته، ويُقَدِّمَ له ما يُقْنِعُهُ بالجزاء المؤجل إلى يَوْمِ  
الدين، فأرسلَ على جَنَّتِهِ حُسْبَانًا من المتلفاتِ أحاطتْ بِكُلِّ ثَمَرِهِ فَاتْلَفَتْهُ،  
كَلْفَحَةٍ من الرِّيحِ الشديدة البرودة، التي تُحوِّلُ الثمراتِ وأوراقَ الأشجارِ  
والنباتِ إلى جليدٍ مُتَلِفٍ مُهْلِكٍ، فمن المعروف أن الصَّقِيعَ يُتَلِفُ الثَّمَرَ  
وأوراقَ الشَّجَرِ.

وحين أتلَفَ الله له ثمارَ جَنَّتِهِ لَمْ تكن له فئة من دون الله يَنْصُرُونَهُ  
فيحْمُونَ جَنَّتَهُ من إنلافِ ثمارِها، وما كان هو بِقُوَّتِهِ مُنْتَصِراً على مقادير الله  
العَقَابِيَّةِ.



وذهب الرَّجُلُ المَغرورُ المَفتونُ إلى جَنَّتِهِ صباحاً كعادته، فوجد كلَّ ثمارها وأوراقها متفحمةً بالصَّقيعِ، فَصَارَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ حَسْرَةً على ما أَنْفَقَ من أموالٍ في جَنَّتِهِ لاستثمارها، ورآها خاويةً من الثمار، مُتَساقِطَةً الأَغصَانِ والعُرُوقِ على عُرُوشِها، فقد كانت ثمارها من العنب، في موسمِ قِطافه، ومن الجيد في أشجار العنب أن تُمدَّدَ أَعصَانُها على عروش، أي على أخشابٍ متفرقةٍ بينها مساحات فارغات، وهي مرفوعة عن الأرض، حتَّى تتدلَّى عناقيد العنب من الأَغصَانِ، وتأخذ الأَغصَانُ حَظَّها الذي تحتاج إليه، من الشمس والهواء، وتكون مَحْمُولَةً على العروش.

ومن عادة الرَّجُلِ العاقلِ الرزينِ، الذي يتحسَّرُ على ما فقد من أموالٍ أن يضربَ كَفَّ اليدِ اليُمْنَى على كَفِّ اليدِ اليُسْرَى، فكَفَّ اليَدِ اليُسْرَى على كَفِّ اليَدِ اليُمْنَى بعد قَلْبِهما، وهكذا بالتتابع، يُقَلِّبُهُمَا وَيَضْرِبُ العُلْيَا منهما على السُّفْلَى تَحَسُّراً وندماً.

أمَّا غير العاقلِ الرزينِ، فربما بكى وصاح وضرب رأس نفسه بيده، أو بشيء يراه قريباً منه.

وَأَنعَظَ الرَّجُلُ بما جَرَى له من عِقَابٍ تَأديبيّ، فصار يقولُ مُكرِّراً، يا ليتني لم أَشْرِكْ بِرَبِّي أحداً، كما يُكرِّرُ حركة تحسُّره بتقلُّبِ كَفَّيْهِ.

وكانت هذه العقوبةُ الرَبَّانِيَّةُ التَّأديبيَّةُ سَبَبَ تَخَلُّصِهِ مِنَ الشُّرْكِ، واستِمْسَاكِهِ بالإيمانِ الصحيحِ الكاملِ، وَرَجَعَتْهُ إلى رَبِّهِ تائباً مُنيباً.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴿١٧﴾ وَلَمْ تَكُنْ لِمُفْتَةٍ يَضُرُّونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِراً ﴿١٨﴾﴾.

وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ: جَاءَ الفِعْلُ على صيغةِ المَبْنِيِّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ،

إيجازاً، لِلْعَلْمِ مِنَ السَّبَابِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي عَاقَبَهُ عِقَابَ التَّأْدِيبِ، فَأَرْسَلَ عَلَى جَنَّتِهِ مَا يُحِيطُ بِشَمْرِهِ مِنَ الْمُتَلَفَاتِ الْمَهْلَكَاتِ، فَاتَلَفَتْهُ لَهُ.

يُقَلَّبُ كَفَيْهِ: جاء هذا التعبير كِنَايَةً عن الحالة التي سبقَ بيانها، من ضرب كفَّ اليد اليمنى على كفِّ اليد اليسرى، وبالعكس، مع التكرار، عند التحسُّرِ والتندم.

وهي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا: أي: وَحَالَ جَنَّتِهِ أَنَّهَا خَاوِيَةٌ مِنْ ثَمَارِهَا، مُتَسَاقِطَةٌ الْأَغْصَانِ وَالْفُرُوعِ عَلَى عُرُوشِهَا، بِسَبَبِ مَا أَصَابَهَا مِنَ الصَّقِيعِ الَّذِي أَتَلَفَهَا فَأَفْقَدَهَا مَا فِيهَا مِنْ حَيَاةٍ تَنْهَضُ بِهَا مِتْسَامِيَةً فِي السَّمَاءِ.

فعبارة: «على عُرُوشِهَا» معمولٌ لاسمِ فاعلٍ محذوفٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ الْقَرَائِنُ، وَالتقدير، مُتَسَاقِطَةٌ الْأَغْصَانِ عَلَى عُرُوشِهَا.

العُرُوشُ: هي لأشجار العنب، أَخْشَابٌ تُوَضَعُ بِشَكْلِ أَفْقِيٍّ مُتَفَاصِلَةٍ عَنْ بَعْضِهَا، عَلَى جُسُورٍ تُرْفَعُ، وَتُوَضَعُ فَوْقَ أَعْمِدَةٍ تُنْصَبُ عَمُودِيَّةً وَاقِفَةً، فَتَمْتَدُّ عَلَيْهَا أَغْصَانُ شَجَرَاتِ الْعَنْبِ وَفُرُوعِهَا، وَتَتَدَلَّى الْعِنَاقِيدُ مَحْمُولَةً بِالْأَغْصَانِ الْمَحْمُولَةِ بِالْعُرُوشِ.

يَا لَيْتَنِي: الَّذِي تَرَجَّحَ لَدَيْيَ أَنَّ «يَا» فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ هِيَ يَاءُ التُّدْبَةِ، فَهِيَ يَنْدُبُ أُمْنِيَّةً فَاتَهُ تَدَارِكُهَا، وَهِيَ أُمْنِيَّةُ التَّوْبَةِ قَبْلَ نَزُولِ الْعِقَابِ.

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُتَنَصِّراً: أي: حينما نزل به العقاب التأديبي، لم يَنْفَعُهُ أَوْلَادُهُ الَّذِينَ كَانَ يَفْتَخِرُ بِكَثْرَتِهِمْ عَلَى صَاحِبِهِ الْمُؤْمِنِ النَّاصِحِ لَهُ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ تَحْمِيهِ مِنْ نَزُولِ عِقَابِ اللَّهِ فِي ثَمَرَاتِهِ، لِأَنَّ النَّاسَ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَاهُمْ لَا يَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ مِنْ مَقَادِيرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ مُتَنَصِّراً لِنَفْسِهِ بِوَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ، فَمَقَادِيرُ اللَّهِ لَا تُعَانَدُ، وَعُقُوبَاتُهُ لَا تُرَدُّ.

### التعليق الختامي

وتعليقاً على الظواهر السببية التي رَبَّهَا اللهُ في كونه لنظام الحياة الدنيا، ومنها أن يكون للإنسان فيها أعواناً وأنصاراً يَنْصُرُونَهُ، أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هذا النظام السببي القائم في الحياة الدنيا، لَنْ يكون له وُجُودٌ يوم الدين في الحياة الأخرى، بَلْ سَتَكُونُ هُنَالِكَ الْوِلَايَةُ كُلُّهَا ظَاهِراً وَبَاطِناً لِلَّهِ الْحَقِّ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ظَاهِراً وَلَا بَاطِناً، وَهُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً لِمَنْ قَدَّمَ إِيمَاناً صَاحِحاً صَادِقاً، وَعَمَلاً صَالِحاً، وَخَيْرٌ عَاقِبَةً لِمَنْ عَلَّقَ عَاقِبَتَهُ بِهِ مُؤْمِناً بِهِ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ، وَمُتَّبِعاً وَصَايَاهُ، وَسَالِكاً صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ.

فقال الله عز وجل في خاتمة النص:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾

الْوِلَايَةُ: بفتح الواوِ وَكسرها هنا بِمَعْنَى: النُّصْرَةَ وَالْمُلْكُ التَّامُّ الَّذِي لَا تَسْتُرُهُ ظَوَاهِرُ سَبَبِيَّةٍ.

وَخَيْرٌ عُقْباً: أَي: وَخَيْرٌ عَاقِبَةً، الْعُقْبُ وَالْعُقْبُ، بِإِسْكَانِ الْقَافِ وَضَمِّهَا، الْعَاقِبَةُ.

\* \* \*

## الفصل الثالث

### نماذج من وصايا الآباء للأبناء

بما أنّ الوصايا تدخل ضمن أساليب تبليغ دين الله والنصح والإرشاد والموعظة الحسنة، وبما أنّ الآباء أحرص الناس على سعادة الأبناء، كان من الخير في هذا الكتاب أن أدوّن فيه نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الوصية الأولى: وصية كل من إبراهيم ويعقوب لابنه.

الوصية الثانية: وصية لقمان الحكيم لابنه.



## الوصية الأولى

### وصية كل من إبراهيم ويعقوب لبنيه

قال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ .

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ: أي: ومن يُعْرِضُ عن ملة إبراهيم ويتركها. يقال لغة: رَغِبَ في الشيء إذا أَرَادَهُ وأقبل عليه، وإذا كان مِمَّا يُؤْخَذُ أَوْ يُسْتَمْسَكُ به أخذهُ أو استمسك به. ويقال: رَغِبَ عنه إذا أَعْرَضَ عنه وتركه غير مُرِيدٍ له.

إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ: أي: إِلَّا مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى السَّفِيهِ.

السَّفِيهُ: نقصان العقل، والخفَّةُ والطيش.

وقيل: «سَفِهَ نَفْسَهُ» هو بمعنى: خَسِرَ نفسه، أقول: هذا على تضمين

فعل «سَفِهَ» معنى فعل «خَسِرَ» والتقدير: سَفِهَ خَاسِرًا نَفْسَهُ.

اضْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا: أَي: وَجَدْنَا صَفْوَةً، فَخَصَّضْنَاهُ وَمَنَّا عَلَيْهِ بِالنَّبُوَّةِ  
وَالرِّسَالَةِ.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلَمَ: هَذِهِ إِحْدَى كَلِمَاتِ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي  
ابْتَلَاهُ رَبُّهُ بِهَا، فَأَتَمَّهُنَّ كَمَا طَلَبَ مِنْهُ، طَاعَةً وَامْتِثَالًا لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ: أَي: فَقَالَ مُسْتَجِيبًا لِلتَّكْلِيفِ الرَّبَّانِيِّ:  
أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الَّذِي هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

هَذَا التَّكْلِيفُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي وَجَّهَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَالْإِسْتِسْلَامُ الْكَامِلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قَدْ وَصَّى بِهِ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ  
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.

وَكَذَلِكَ وَصَّى بِهِ يَعْقُوبُ بَنِيهِ، وَكَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا، أَحَدُهُمْ يُوسُفُ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَكُلٌّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَالَ لَبَنِيهِ فِي وَصِيَّتِهِ لَهُمْ:

﴿يَبْنَئِي إِنْ أَلَّ اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أَي: إِنْ أَلَّ اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ عَقَائِدَ الدِّينِ وَشَرَائِعَهُ وَأَحْكَامَهُ فَاخْتَارَ لَكُمْ  
أَحْسَنَهَا، وَكَلَّفَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِهَا وَتَعْمَلُوا فِي حَيَاتِكُمْ بِمَقْتَضَاهَا، وَأَمْرُكُمْ أَنْ  
تَكُونُوا مُسْلِمِي قِيَادَتِكُمْ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِكُمْ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ، تَطِيعُونَهُ فِيمَا  
أَمْرَكُمْ بِهِ فَتُؤَدُّونَهُ، وَتَطِيعُونَهُ فِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَتَجْتَنِبُونَهُ.

فَالْتَزِمُوا بِإِسْلَامِكُمْ لَهُ كُلَّ أَوْجَانِ حَيَاتِكُمْ، حَتَّى إِذَا جَاءَكُمْ الْمَوْتُ الَّذِي  
لَا تَعْلَمُونَ وَقْتُ نَزْوِهِ بِكُمْ، عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْتُمْ  
فِيهَا مَمْتَحَنُونَ، جَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ مُسْتَسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ مُطِيعُونَ رَبِّكُمْ،  
فِيمَا أَمْرَكُمْ بِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، لِتَلْقَوْا رَبَّكُمْ صَالِحِينَ، مُؤَدِّينَ مَا طَلَبَهُ مِنْكُمْ

في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، وتكونوا من الناجين والفائزين بالمنازل  
الرفيعة في جنّات النعيم.

أمّا يعقوبُ عليه السلام فمع وصيته لبنيه بأن لا يموتوا إلاّ وهم  
مسلمون، قد كانت له وصيةٌ لهم عندما حضره الموت، وقد أخذ عليهم  
العهد بما وصّاهم به حينئذٍ.

قال لهم: ما تعبُدون من بعدي؟.

قالوا له: نعبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهاً واحداً  
ونحنُ له مسلمون.

فأذخّلوا عمّه إسماعيلَ ضمن آبائه، لأنّ الأعمام لهم مثلُ منزلة الآباء،  
ويدخّلون في عموم الآباء عند إطلاق لفظ الآباء في معتاد الناس.

وذكروا هنا لفظ الإله بمعنى: «المعبود» ومعلوم أنّ إله إبراهيم  
وإسماعيل وإسحاق هو ربُّ العالمين الواحد الأحد، فهو إذاً إلهٌ واحدٌ لا  
شريك له.

\* \* \*



## الوصية الثانية

### وصية لقمان الحكيم لابنه

قال الله عز وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْقَالَ حَبْرٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ أَقْرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ۞

وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ: أي: ضَعْفًا عَلَىٰ ضَعْفٍ.

وَفِصَالُهُ: أي: وَفِطَامَتُهُ.

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ: أي: وَلَا تُثْمَلِهِ كِبْرًا عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كُلِّ

كِبْرٍ.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا: المَرْحُ فِي المَشْيِ الاختِيَالُ وَالتَّبَخُّرُ،

وهذا يفعله بعض الناس حينما يفرحون بما هم فيه من قُوَّةٍ أو شيءٍ من زينة الحياة الدنيا ومتاعها.

واقْصِدْ في مَشِيكِ: القَصْدُ في المشي هو المشي المستوي، مع التوسطِ بين التكاثُلِ والضعف، وبين الإفراط في السرعة، الدالّ على الخفة والطيش.

واغْضُضْ من صَوْتِكَ: أي: وانْقُصْ منه حتّى يكون بقدر حاجة المستمعين لكّ.

اشتمل هذا النّصّ على وصايا وجَّهها لقمان الحكيم لابنه، وأدخَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ضِمْنَ وصايا لقمان لابنه، وصيَّته للإنسانِ بوالديه، في الآيتين (١٤ - ١٥) للإشعار بأنَّ وصايا لقمان لابنه هي من الوصايا التي أنزلها اللهُ في رسالاته قبل لقمان، واستفادها لقمان منها.

فجميع هذه الوصايا سواءً ما جاء منها حكايةً عن لقمان، أم ما جاء بياناً مباشراً عن الله عزَّ وجلَّ، هي من وصايا الله للناس في رسالاته السابقات.

ولعل لقمان عليه السلام قد ذكر لابنه في ضمن وصاياهِ، النّصّ الذي حفظه ممَّا أنزَلَ اللهُ في الكُتُبِ الأولى، وهو قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يُشعرُ بأنَّ هذه الوصية ممَّا أنزله اللهُ على آدمَ الإنسانِ الأوَّلِ لِيُبَلِّغُهُ إلى ذرِّيَّتِهِ، فكلُّ إنسانٍ مُنذُ بدءِ وجودِ الناس في الأرض، قد وُجِّهَتْ له هذه الوصية الرِّبَّائيَّة.

## البيان التحليلي :

اشتملت هذه الوصية اللقمانية على أربع عشرة قضية :

القضية الأولى : النَّهْيُ عَنِ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ ، فَالشَّرْكَ بِاللَّهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْإِشْرَاقَ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ ، وَهَذَا ظُلْمٌ عَظِيمٌ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إِذْ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرَهُ ، وَيَشْمَلُ الْإِشْرَاقَ فِي إِلَهِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهَذَا أَيْضاً ظُلْمٌ عَظِيمٌ ، فَالْإِلَهِيَّةُ وَهِيَ اسْتِحْقَاقُ الْعِبَادَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلرَّبِّ الْمَمْدُوعَاتِ الرَّبُوبِيَّةِ ، وَبِمَا أَنَّهُ لَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ فِي الْوُجُودِ فَلَا مُسْتَحَقَّ لِلْعِبَادَةِ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ ، فَعِبَادَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ إِشْرَاقٌ بِهِ فِيمَا هُوَ مِنْ حَقِّهِ وَحَدُّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَمَعْنَى : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاهُ .

وعلى الرُّغم من أن الإِشْرَاقَ فِي إِلَهِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَخْفُ مِنَ الْإِشْرَاقِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ .

وأخفُ أَنْوَاعِ الْإِشْرَاقِ فِي إِلَهِيَّةِ اللَّهِ عِبَادَةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وَهَذَا أَوَّلُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ .

وَكَوْنُ الشَّرْكِ ظُلْماً عَظِيماً لَا يُفِيدُ أَنَّهُ أَعْظَمُ الظُّلْمِ ، فَجُحُودُ الرَّبِّ الْخَالِقِ جُحُوداً كَثِيراً أَشَدُّ وَأَعْظَمُ ظُلْماً ، وَأَكْثَرُ بَغِياً وَعُدْوَاناً عَلَى حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

دل على هذه القضية :

﴿ يَبْئُتُ لَاشْرِكَ بِاللَّهِ إِتَّكَ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

القضية الثانية : الأَمْرُ بِالشُّكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعِبَادُ ، فِي الشُّكْرِ مَعْنَى مُقَابَلَةِ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ بِفِعْلٍ جَمِيلٍ .

وَيَدْخُلُ فِي الشُّكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَتُهُ بِمَا شَرَعَ لِعِبَادِهِ مِنْ عِبَادَاتٍ ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَرَضِيهِ ، وَحَمْدُهُ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ وَالتَّوَجُّهُ لَهُ بِالْإِدْعَاءِ وَحَدَهُ .

وفي الشكر معنى مقابلة المنة الحسنة بما يُرضي مُولِها.  
 أما الحمدُ فهو أعمُّ من الشكر لأنَّه مطلقُ الثناء على المحمود بصفاته  
 الحسنة، ولو لم يكن له على الحامدِ مِنَّةٌ ما.  
 دلّ على هذه القضية:

﴿أَنْ أَشْكُرِي...﴾.

القضية الثالثة: الأمر بالشكر للوالدين على ما تحمّلا وما قدّمَا في  
 تنشئتهما وتربيتهما من عطاءاتٍ ومِنِّ لولدهما.

وقد تكرر في القرآن المجيد الأمر بالشُّكر لله وللوالدين معاً، ودلّ هذا  
 النَّصُّ كما ذكرتُ آنفاً على أنّ هذه الوصية مما أوصى الله به الإنسان بوجه  
 عام، فهي من الوصايا التي تلقّاها آدم عليه السلام من ربه، وبلغها آدم عن ربه  
 لأولاده، واستمرّ تنزيل هذه الوصية الرّبّانية في الرسالات الرّبّانية كلّها.

ومع الوصية بالشكر لله وللوالدين التنبية على الجزاء يوم الدين، بإشارة  
 قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

أي: وإذا كان إليه وحده المَصِيرُ فهو جلّ وعلا يثيب على الشكر،  
 ويُعاقِبُ على الجحود والكفر.

دلّ على هذه القضية:

﴿أَنْ أَشْكُرِي وَلَوْلَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

القضية الرابعة: النهي عن طاعة الوالدين الكافرين إذا جاهدا الولد على  
 أن يشرك بالله شيئاً، ويُلحق به كلُّ ما فيه معصية لله عزّ وجلّ.  
 ولكن على الولد أن يصاحب والديه الكافرين في الدنيا مصاحبةً حسنةً،  
 وأن يُقدّم لهما معروفاً.

دلّ على هذه القضية:

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا... ﴾ (١٩).

إن أيّ مشرك بالله لا يملك دليلاً علمياً، ولكنّ الله عزّ وجلّ إذ حمّل الإنسان مسؤولية اعتقاد ما يثبتّ لديه بعلم صحيح، ومسؤولية العمل به، فقد ترك له في هذا النصّ حرّية التزام ما يثبتّ لديه بعلم صحيح في موضوع الشرك، مع أنّ قضية الإشراك بالله يستحيل إثباتها بدليل علمي، وفي هذا تمجيد للعلم، والعمل بمقتضاه.

وقوله تعالى: ﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أي: وصاحبهما في الدنيا مصاحبةً حسنةً وقَدِّمَ لهما معروفاً، كمالٍ وتكريمٍ وخدمة، فعل: «صاحب» ضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلٍ «قَدِّمَ» فَنَصَبَ لفظ «معروفاً» على أنه مفعول به، أي: وقَدِّمَ لهما معروفاً في مصاحبتك لهما.

أو نقول: التقدير: وصاحبهما في الدنيا اصطحاباً معروفاً، فيكون لفظ معروفاً صفة لمفعول مطلق محذوف، فهو نائب مفعول مطلق.

القضية الخامسة: أمره بأن يتبع سبيل من أناب إلى الله، أي: سبيل من رجع إلى الله عزّ وجلّ بالإيمان والطاعة وسلوك الصراط المستقيم.

والذين أنابوا إلى الله في حياتهم هم الرُّسُلُ والنبِيُّونَ والصَّديقُونَ ومن اتَّبَعَهُمْ بإحسانٍ من المؤمنين.

دلّ على هذه القضية:

﴿ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾.

وقد تكرر في القرآن وجوب اتباع سبيل جماعة المؤمنين، لأنّ الجماعة العامة للمؤمنين يكون سبيلها العامّ الذي أجمَعُوا عليه سبيلاً صالحاً مُنجياً

عند الله عزّ وجلّ، نظراً إلى أنّ جماعة المؤمنين قد عصمهم الله عزّ وجلّ من أن يتفقوا اتفاقاً عاماً على ضلالة.

القضية السادسة: الوصية بملاحظة اليوم الآخر يوم الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، مع كلّ فعل أو ترك في رحلة الحياة الدنيا.

دلّ عليها من النصّ:

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

القضية السابعة: بيان شمول علم الله لكلّ شيء مهما كان دقيقاً وصغيراً، وشمول قدرة الله على خلق ما يُريد، وإحضار أيّ شيء يُريد من أفصى شيء في الكون، ومن باطن أيّ شيء في الكون، وهو جلّ وعلا لا يضلّ عنه شيء مهما صغُر واختفى، ولا يُعجزه شيء من الممكنات العقلية.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿ يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

القضية الثامنة: الأمر بإقامة الصلاة.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿ يَبْنِيٰ أَقْرَأِ الصَّلٰوةَ ﴾.

إنّ الصلّاة فريضة فرضها الله على عباده في كلّ رسالته للناس.

القضية التاسعة: توصية لقمان لابنه بأن يأمر بالمعروف ويأمنه عن المنكر.

فدلّ هذا على أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من التكاليف التي

اشتملت عليها الرسالات الربّانية السابقة للإسلام.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه :

﴿ . . . وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . . ﴾ .

القضية العاشرة: توصية لقمان لابنه بأن يَصْبِرَ على كلِّ مَكْرُوهٍ أصابه، سواءً أكان من المصائب التي تنزل من عند الله بالأنفس أو الأموال أو الأهل أو الأولاد، أو من المصائب التي يواجهها من الناس حامل رسالة الهداية والتذكير والإصلاح والحماية، في مجال أمره بالمعروف ونَهْيِهِ عن المنكر، ودعوته إلى دين ربّه، أو غير ذلك من مجالات الخير.

وأبَانَ له أَنَّ الصَّبْرَ على المصائب من عَزْمِ الأمور، أي: من الأمور التي تحتاج إرادةً قويّةً من مُسْتَوَى العزم.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه :

﴿ . . . وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

القضية الحادية عشرة: توصية لقمان لابنه بأن لا يُصْعَرَ خَدَهُ للناس، أي: بأن لا يستكبر عليهم بأية حركة تدلُّ على كِبَرِهِ وتعالیه على الناس، أو بأيّ قول.

يقال لغة: صَعَرَ خَدَهُ، إذا أماله كِبَرًا.

فتصعير الخدِّ كنايةٌ عن الكبر على عباد الله، لأن عادة المستكبرين أن يُمِيلُوا رُؤُوسَهُمْ إلى جانب، فيظهر أَحَدُ الخَدَيْنِ مائلًا.

دلّ على هذه الوصية قول لقمان لابنه :

﴿ وَلَا تُصْعِرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ .

القضية الثانية عشرة: توصية لقمان لابنه بأن لا يَمْشِيَ في الأرض مَرْحًا، أي: بأن لا يمشي في الأرض مشي الفرحين المستكبرين باختيال وتبختر.

الْمَرْحُ في المشي: الاختيال والتبخر، وأصلُّ المرح شدةُ الفرح

والنشاط، وتجاوزُ الحدِّ في الحركات عمَّا يتحلَّى به الناس عادة من سَمْتٍ واعتدال، ويكون هذا التجاوز عن فَرَحٍ أخرج النفس عن اعتدالها، وسَوَائِهَا، وبسبب ذلك يتكَبَّرُ ويتبخَّرُ الفَرَحُ المتجاوز الحدَّ.

دلَّ على هذه القضية قولُ لقمان لابنه :

﴿... وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٣٨﴾﴾.

القضية الثالثة عشرة: توصية لقمان لابنه بأن يَقْصِدَ في مَشْيِهِ، أي: بأن يكون مَشْيُهُ قَصْدًا مستويًا متوسِّطًا بين التكاثر والتضاعف، وبين الإفراط في السرعة.

فالتَّبَاطُؤُ والتضاعف كَسَلٌ مذموم، والسرعة الزائدة خِفَّةٌ وطَيْشٌ.

أما الاستواء والاعتدال مع التوسُّط بين التَّبَاطُؤُ والسرعة فهو الذي يدلُّ على الرزانة والعقل وسلامة النفس.

دلَّ على هذه القضية قول لقمان لابنه :

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ...﴾.

القضية الرابعة عشرة: توصية لقمان لابنه بأن يَعْضَ من صَوْتِهِ، أي: بأن يخفضه ويكتفي منه بقدر حاجة المستمعين، وهذا من آداب استخدام الصوت للحاجات.

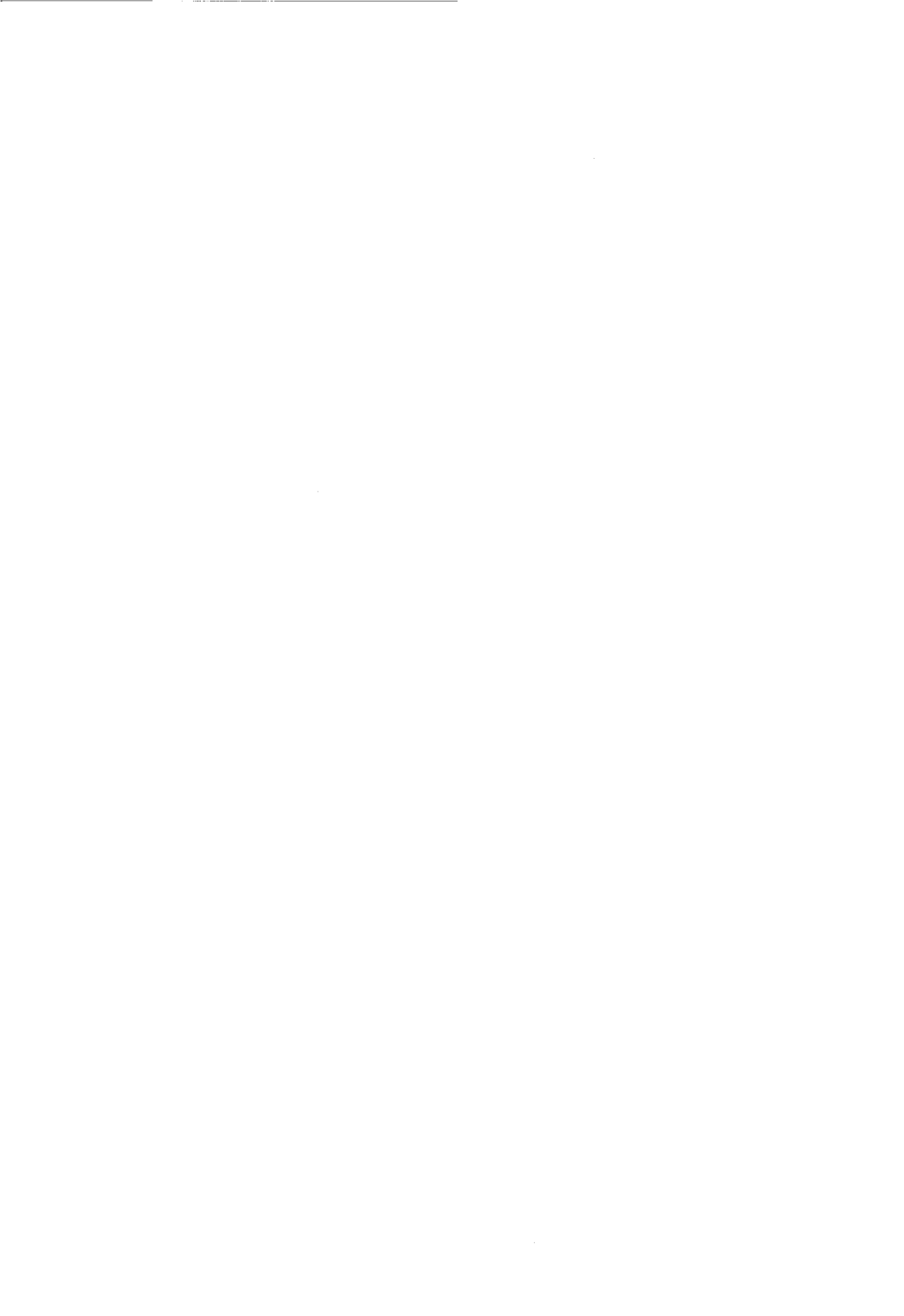
وأبان له أن رفع الصوت من غير حاجة أمرٌ مستنكر مستهجن، ووضَرْبُ له مثلاً صوت الحمير، مبيِّناً له أنه أنكر الأصوات.

دلَّ على هذه القضية قول لقمان لابنه :

﴿... وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٣٩﴾﴾.

أصل الغضّ النقص من الشيء.





## الفصل الرابع

### صور ونماذج عامة

وفيه خمسة عشرة صورة:

- ١ - الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة بالإنذار (دعوة الرسول لليهود).
- ٢ - إقامة الحجّة على المخالف المراوغ من نصوص ما يؤمن به (حوار الرسول لبعض أحبار اليهود).
- ٣ - حُسن الاستقبال والحوار بانتزاع الاعتراف بالمقدمات (قصة إسلام عدّي بن حاتم).
- ٤ - تكريم الأسير وإطلاقه الحكيم من الأسر وأثرهما (قصة إسلام ثمامة بن أثال).
- ٥ - تنزيل الناس منازلهم تأليفاً لقلوبهم (قصة إسلام وائل بن حُجر).
- ٦ - امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق (قصة إسلام الحبر اليهودي زيد بن سعة).

٧ - الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسائل.

(رسالة الرسول إلى كسرى).

(رسالة الرسول إلى هرقل).

(رسالة الرسول إلى المقوقس).

(رسالة الرسول إلى النجاشي).

٨ - رسائل الأقربين إلى الأقربين وأثرها (رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد).

٩ - الجرأة في الحق (جرأة الصحابي عائذ بن عمرو بن هلال عند الأمير عبيدالله بن زياد).

١٠ - من طلب الموعظة فتح أبواب نفسه لتقبلها.

(ابن السمّك وهارون الرشيد).

(الحسن البصري وعُمر بن عبد العزيز).

(والد عبد العزيز بن أبي حازم وعمر بن عبد العزيز).

(الأوزاعي والخليفة العباسي المنصور).

(عائشة أم المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان).

١١ - الشجاعة الأدبية في إنكار المنكر (العزّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب).

١٢ - زهد العلماء بما في أيدي الأمراء يمنحهم الجرأة في الحق (سفيان الثوري وأبو جعفر المنصور).

١٣ - قوة تأثير الموعظة (صالح بن بشير المرّي والخليفة المهدي).

١٤ - شجاعة العالم الرّباني في أخطر المواقف (الإمام ابن تيمية وقازان طاغية التتر).

١٥ - ذكاء ودهاء العالم الداعية (مناظرات الباقلاني ودهاؤه في بلاد الروم).

## الصورة الأولى

الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة بالإنذار  
بعد سبق تبليغ أركان الإيمان وأركان الإسلام بما يكفي للبلاغ والعلم

دعوة الرسول ﷺ لليهود:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ»  
فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ<sup>(١)</sup>، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ  
يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».

فقالوا: بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».

فقالوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

فقال لهم: «ذَلِكَ أُرِيدُ» ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ، فَقَالَ:

«اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِبِكُمْ مِنْ هَذِهِ  
الْأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلَّا فَاغْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ  
وَرَسُولِهِ».

انظر فتح الباري الحديث رقم ٧٣٤٨

(١) المِدراس: الموضع الذي يُدرَسُ فيه كتاب الله، ومنه مدراس اليهود الذي يدرسون فيه التوراة والكتب الدينية المنزلة على أنبياء بني إسرائيل.

هذه الحادثة تدلُّ على أنَّ اليهود كانوا قد تبَّلَّغُوا الدَّعْوَةَ إلى الإسلام، وَعَلِمُوا أَرْكَانَ الإيمان وأركان الإسلام عِلْماً كافياً، وأنَّ الرسول ﷺ أراد أن يُبَلِّغَهُمْ عن طريق تبليغ رجال أكبر مؤسَّسة دينية لهم في المدينة هي بيت المدراس، البلاغ الأخير المؤكَّد المصحوب بالإنذار، بأنَّهم إذا لم يُسَلِّمُوا لَمْ يَسَلِّمُوا عند الله عزَّ وجلَّ في الآخرة، ولم يَسَلِّمُوا أيضاً في الدنيا عند رسوله ومن معه من المؤمنين، وصارحهم بخطِّته المستقبلية، وأبان لهم أنه يريد إجلاءهم من هذه الأرض مشيراً إلى المدينة وما حولها، وربما كان يقصِّدُ جزيرة العرب كلها، ومنحهم الفرصة ليتأهبوا لهذا الإجماع، إذا لم يستجيبوا للدخول في الإسلام، وذلك ببيع ممتلكاتهم التي لا يستطيعون نقلها، لأنَّه إذا جاء وقتُ الإجماع طُرِدُوا دون أن يستطيعوا حمل شيء من ممتلكاتهم التي لا يمكنهم نقلها.

وقد أكَّد الرسول ﷺ لهم عبارة: أَسَلِّمُوا تَسَلِّمُوا. ففي الأولى قالوا له: بَلَّغْتَ يَا أبا القاسم. وفي الثانية والثالثة أضافوا إلى عبارتهم حرف «قَدْ» الدالَّ على التأكيد، فقالوا له: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أبا القاسم، أي: قَدْ قُضِيَ بما يجب عَلَيْكَ مِنْ تَبْلِيغٍ، لَكِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَسْتَجِيبَ لِدَعْوَتِكَ.

\* \* \*

## الصورة الثانية

إقامة الحجّة على المخالف المراوغ من نصوص ما يؤمن به

حوار الرسول ﷺ لبعض أحيار اليهود في حكم الرجم:

روى أبو داود بسننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

(أَتَى نَفَرٌ مِنْ يَهُودَ، فَدَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْقُفْتِ<sup>(١)</sup>، فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ، فَقَالُوا: يَا أبا الْقَاسِمِ، إِنَّ رَجُلًا مِنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ، فَاحْكُمْ، فَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ:

«اِثْنُونِي بِالتَّوْرَةِ».

فَأْتَيْ بِهَا، فَتَرَعَ الْوِسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ، وَوَضَعَ التَّوْرَةَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَنْتُ بِكَ وَبِمَنْ أُنزِلَ» ثُمَّ قَالَ: «اِثْنُونِي بِأَعْلَمِكُمْ» فَأْتَيْ بِشَابٍّ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الزُّنَا؟» فَقَالُوا: نَفَضَحُهُمْ وَيُجْلِدُونَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ<sup>(٢)</sup>: كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا آيَةَ الرَّجْمِ، فَتَشَرُّوا التَّوْرَةَ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمْ يَدُهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: ازْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَهَا، فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا:

(١) القُفْتُ: اسم وادٍ في المدينة.

(٢) من فضلاء من أسلم من اليهود.

صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجِمَا.  
قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ<sup>(١)</sup> عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا  
الْحِجَارَةَ).

فَأَقَامَ الرَّسُولُ ﷺ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ فِي كِتَابِهِمْ.

\* \* \*

---

(١) يَجْنَأُ عَلَى الْمَرْأَةِ: أَي: يُكَبُّ عَلَيْهَا لِيُخْمِيَهَا.

## الصورة الثالثة

حُسْنُ الاستقبال والحوارُ بانتزاع الاعتراف بالمقدمات  
التي تستلزم النتائج التي يُرادُ الإلزام بها  
مع استعطاف النفس بما تحبُّ

قصة إسلام عدي بن حاتم<sup>(١)</sup>:

ذكر ابن كثير في تفسيره قال: روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طُرُقٍ، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها، فرعّبتُه في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فتقدّم عديّ إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم.

فتحدّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عديّ صليب من فضة، وهو (أي: الرسول) يقرأ هذه الآية: ﴿ أَخَذُوا آخْبَارَهُمْ وَرَهْبَتُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾.

قال عديّ: فقُلْتُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ.

فقال: «بلى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ».

(١) انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿ أَخَذُوا آخْبَارَهُمْ وَرَهْبَتُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ آية ٣١ من التوبة.



وقال رسول الله ﷺ: «يَا عَدِيُّ، مَا تَقُولُ؟ أَيُضْرُكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئاً أَكْبَرَ مِنَ اللَّهِ؟ مَا يَضْرُكَ؟ أَيُضْرُكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ إِلَهاً غَيْرَ اللَّهِ؟».

ثم دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ.

قال عديُّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالتَّصَارِي ضَالُّونَ».

وجاء عند ابن إسحاق كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن عدي بن حاتم أنه كان يقول: ما رجلٌ من العرب كان أشدَّ كراهةً لرسول الله ﷺ حين سَمِعَ به مِنِّي، أمَّا أَنَا فَكُنْتُ امراً شَرِيفاً، وَكُنْتُ نَصْرَانِيّاً، وَكُنْتُ أُسَيْرِي فِي قَوْمِي بِالْمِزْبَاعِ<sup>(١)</sup>، وَكُنْتُ فِي نَفْسِي عَلَى دِينِ، وَكُنْتُ مَلِكاً فِي قَوْمِي، لِمَا كَانَ يَصْنَعُ بِي.

فلَمَّا سَمِعْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَرِهْتَهُ، فَقُلْتُ لِغَلَامٍ كَانَ لِي عَرَبِيّاً، وَكَانَ رَاعِيّاً لِإِبِلِي: لَا أَبَا لَكَ، أَعْدِدْ لِي مِنْ إِبِلِي أَجْمالاً دُلَّلاً سَمَاناً، فَاحْتَسِنْهَا قَرِيباً مِنِّي، فَإِذَا سَمِعْتَ بِجَيْشٍ لِمُحَمَّدٍ وَقَدْ وَطِئَ هَذِهِ الْبِلَادَ فَأَذِّنِي، فَفَعَلَ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَانِي ذَاتَ غَدَاةٍ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ، مَا كُنْتَ صَانِعاً إِذَا غَشِيَتْكَ خَيْلُ مُحَمَّدٍ فَاصْنَعُهُ الْآنَ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَايَاتٍ فَسَأَلْتُ عَنْهَا، فَقَالُوا: هَذِهِ جُيُوشُ مُحَمَّدٍ.

قال عديُّ: قُلْتُ: فَفَرَّبْتُ إِلَيَّ أَجْمالِي، فَفَرَّبَهَا، فَاحْتَمَلْتُ بِأَهْلِي وَوَلَدِي، ثُمَّ قُلْتُ الْحَقُّ بِأَهْلِ دِينِي مِنَ النَّصَارَى بِالشَّامِ، فَسَلَكْتُ الْجَوْشِيَّةَ<sup>(٢)</sup>، وَخَلَفْتُ

(١) المِزْبَاعُ: رُبْعُ الْغَنِيمَةِ الَّذِي كَانَ يَأْخُذُهُ الرَّئِيسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

(٢) الْجَوْشِيَّةُ: جَبَلٌ لِلنَّصَارَى. قُرْبُ صَرِيَّةٍ، مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ.

بِنْتًا لِحَاتِمٍ فِي الْحَاضِرِ، فَلَمَّا قَدِمْتُ أَقَمْتُ بِهَا، فَتُخَالَفُنِي خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتُصِيبُ ابْنَةَ حَاتِمٍ فَيَمْنُ أَصَابَتْ، فَقُدِمَ بِهَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَبَايَا مِنْ طَيْءٍ، وَقَدْ بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَرَبِي إِلَى الشَّامِ.

قال عديّ: فَجُعِلَتْ ابْنَةُ حَاتِمٍ فِي حَظِيرَةِ بِيَابِ الْمَسْجِدِ كَانَتِ السَّبَايَا تُحْبَسُ بِهَا، فَمَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَزَلَةً<sup>(١)</sup>، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ الْوَالِدُ، وَغَابَ الْوَالِدُ<sup>(٢)</sup>، فَاْمُنُّنُ عَلَيَّ مِنْ اللَّهِ عَلَيَّكَ،

قال: «وَمَنْ وَافِدُكَ؟»

قالت: عَدِيٌّ بِنِ حَاتِمِ.

قال: «الْفَاؤُ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

قالت: ثُمَّ مَضَى وَتَرَكَنِي، حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَدُوُّ مَرَّ بِي، فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ وَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ بِالْأَمْسِ.

قالت: حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْدَ الْغَدِ مَرَّ بِي، وَقَدْ يَسُنْتُ، فَأَشَارَ إِلَيَّ رَجُلٌ خَلْفَهُ أَنْ قَوْمِي فَكَلَّمَنِي، فَقَمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَ الْوَالِدُ وَغَابَ الْوَالِدُ، فَاْمُنُّنُ عَلَيَّ مِنْ اللَّهِ عَلَيَّكَ.

فقال ﷺ: «قَدْ فَعَلْتُ، فَلَا تَعْجَلِي بِخُرُوجِ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكَ مَنْ يَكُونُ لَكَ ثِقَةً، حَتَّى يُبَلِّغَكَ إِلَى بِلَادِكَ، ثُمَّ أَذِنِي، فَسَأَلْتُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيَّ أَنْ كَلَّمَنِي، فَقِيلَ لِي: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

قالت: فَقَمْتُ حَتَّى قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَلِيٍّ أَوْ قُضَاعَةَ.

قالت: وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ آتِيَ أَخِي بِالشَّامِ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ:

(١) جَزَلَةٌ: أَي: ضَخْمَةُ الْجِسْمِ.

(٢) الْوَالِدُ: أَي: الَّذِي يَفِدُ عَلَيَّ مِنْ حِينٍ لآخر.

يا رسول الله، قَدْ قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِي، لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وَبَلَاغٌ.

قَالَتْ: فَكَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَحَمَلَنِي، وَأَعْطَانِي نَفَقَةً، فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى أَتَيْتُ الشَّامَ.

قال عديُّ: فوالله إني لقاعدٌ في أهلي، إذ نَظَرْتُ إلى ظعينة<sup>(١)</sup>، تُصَوِّبُ إِلَيَّ تَوُّمُنًا، فَقُلْتُ: ابْنَةُ حَاتِمٍ، فَإِذَا هِيَ هِيَ، فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَيَّ انْسَحَلَتْ<sup>(٢)</sup> تقول: القاطع الظالم، اِحْتَمَلَتْ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ، وَتَرَكْتُ بَقِيَّةَ وَالِدِكَ عَوْرَتَكَ!؟

قال عدي: قُلْتُ: أَيُّ أُخِيَّةٍ لَا تَقُولِي إِلَّا خَيْرًا، فوالله ما لي مِنْ عُدْرٍ، لَقَدْ صَنَعْتُ مَا ذَكَرْتَ.

قال: ثُمَّ نَزَلَتْ فَأَقَامَتْ عِنْدِي، فَقُلْتُ لَهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً حَازِمَةً: مَاذَا تَرَيْنَ فِي أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ؟

قالت: أَرَى وَاللَّهِ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ سَرِيعًا، فَإِنْ يَكُنِ الرَّجُلُ نَبِيًّا، فَلِلْسَابِقِ إِلَيْهِ فَضْلُهُ، وَإِنْ يَكُنْ مَلِكًا فَلَنْ تَذِلَّ فِي عِزِّ الْيَمَنِ، وَأَنْتِ أَنْتِ.

قال عدي: قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الرَّأْيُ. فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَسْجِدِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَنْ الرَّجُلُ؟» فَقُلْتُ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَانْطَلَقَ بِي إِلَى بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِعَامِدٌ بِي إِلَيْهِ، إِذْ لَقِيْتُهُ امْرَأَةً ضَعِيفَةً كَبِيرَةً، فَاسْتَوْقَفْتُهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلًا تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا.

قال: قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِمَلِكٍ. قال: ثُمَّ مَضَى بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ، تَنَاوَلَ وَسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوءَةً لِيْفًا،

(١) الظعينة: المرأة في هودجها.

(٢) انْسَحَلَتْ: أي: أخذت في اللوم الشديد.

فَقَدَفَهَا إِلَيَّ، فَقَالَ: «اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ» فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا. فَقَالَ: «بَلْ أَنْتَ» فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَرْضِ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِأَمْرٍ مَلَكَ.

قال عديُّ: ثُمَّ قَالَ: «إِيهِ يَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، أَلَمْ تَكْ رَكُوسِيًّا<sup>(١)</sup>؟». قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «أَوْلَمْ تَكُنْ تَسِيرُ فِي قَوْمِكَ بِالْمَرْبَاعِ؟». قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ». قُلْتُ: أَجَلُ وَاللَّهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ يَعْلَمُ مَا يُجْهَلُ. ثُمَّ قَالَ: «لَعَلَّكَ يَا عَدِيُّ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولِ فِي هَذَا الدِّينِ، مَا تَرَى مِنْ حَاجَتِهِمْ، فَوَاللَّهِ لِيُوشِكَنَّ الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ، حَتَّى لَا يُوْجَدَ مَنْ يَأْخُذُهُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولِ فِيهِ، مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، وَقَلَّةِ عَدَدِهِمْ، فَوَاللَّهِ لِيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى بَعِيرِهَا حَتَّى تَزُورَ هَذَا الْبَيْتَ، لَا تَخَافُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولِ فِيهِ، أَنَّكَ تَرَى أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لِيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبَيْضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ».

وجاء في رواية: «وَلْتُفْتَحَنَّ كَنْوَزُ كِسْرَى بْنِ هَرَمَزٍ، وَلِيُبْدَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ».

قال عديُّ: فَاسْلَمْتُ.

وكان عديُّ يقول: قَدْ مَضَتْ اثْنَتَانِ وَبَقِيَ الثَّلَاثَةُ، وَاللَّهِ لَتَكُونَنَّ، قَدْ رَأَيْتُ الْقُصُورَ الْبَيْضَ مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ قَدْ فُتِحَتْ، وَقَدْ رَأَيْتُ الْمَرْأَةَ تَخْرُجُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى بَعِيرِهَا لَا تَخَافُ، حَتَّى تُحِجَّ هَذَا الْبَيْتَ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَتَكُونَنَّ الثَّلَاثَةُ، لِيَفِيضَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يُوْجَدَ مَنْ يَأْخُذُهُ.

وجاء في رواية، أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لِعَدِيِّ:

(١) الركوسية: قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين.

«يَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ مَا أَفْرَكَ؟ أَفْرَكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟ مَا أَفْرَكَ؟ أَفْرَكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟».

قال عديُّ: فَاسْلَمْتُ، فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ، وَقَالَ: «إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى».

\* \* \*

## الصورة الرابعة

### تكريم الأسير وإطلاقه الحكيم من الأسر وأثرهما

قصة إسلام ثمامة بن أثال:

قصة إسلام «ثمامة بن أثال» من بني حنيفة، أحد ملكي اليمامة، وقد كان عدواً محارِباً للإسلام ولرسول الله ﷺ.

بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فأسروا ثمامة بن أثال وهم لا يعرفون من هو، حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال: «أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إيساره».

فربطوه بسارية من سواري المسجد، ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: «اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه» وأمر ببلقحته (أي: بناقته الحلوب ذات اللبن) أن يُغذى عليه بها ويراح، ليحلب له، ويُسقى من لبنها.

فخرج إليه النبي ﷺ فقال له: «ما عندك يا ثمامة؟».

فقال: «عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم علي شاكراً، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت».

فتركه الرسول ﷺ، حتى كان الغد فمرَّ به، فقال له: «ما عندك يا ثمامة؟».

فقال: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فتركَه الرَّسُولُ ﷺ، حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدِّ، فَمَرَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟».

فقال: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فقال رسول الله ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَأَطْلَقُوهُ.

فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فِيهِ مَاءٌ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوَجْوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينَكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدَكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ حَيْلَكَ أَخَذْتَنِي، وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَمِرَ.

فلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصْبَوْتَ؟ فَقَالَ: لَا وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حَنْطَةٌ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) عن ابن كثير في البداية والنهاية، وعن الإمام مسلم في صحيحه.

## الصورة الخامسة

### تنزيل الناس منازلهم تاليفاً لقلوبهم

قصة إسلام وائل بن حُجر:

كان وائل بن حُجرٍ أحدَ أقبالِ حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم، وكان له صنمٌ من العقيق الأحمر، يعبُدُهُ، ويُحِبُّهُ، حبًّا شديدًا، ويكثر السُّجود له، ويعقر عنده العقائر.

وبينما هو نائمٌ في الظهيرة، إذ أيقظه صوتٌ منكرٌ من المنخدع الذي فيه الصنم، فقام من مضجعه وأتاه، فسجدَ بين يديه، وإذا قائل يقول له: لو كنت عاقلًا لأطعت أمرِي.

قال وائل: فرفعتُ رأسي، واستويت جالسًا، ثم قلتُ: قد سمعتُ أيُّها الناصح، فماذا تأمرني؟

قال: اذهب سريعاً إلى المدينة.

قال وائل: ثم خرّ الصنم إلى وجهه، وانكسرَ أنفه، واندقت عنقه، فقامت إليه فجعلته رفاتًا، ثم سرتُ مُغذًا، حتّى أتيت المدينة، وأتيت المسجد، فلما رأني رسول الله ﷺ أدناني، وبسط لي رداءه، فجلستُ عليه، ثم صعدَ المنبر، وأقامني دونه، ثم قال:

«أيُّها الناس: هذا وائلُ بنُ حُجرٍ» أتاكم من أرضٍ بعيدة، من حضرموت، راغباً في الإسلام».



قال وائل: يا رسول الله، بلغني ظُهُورُكَ، وأنا في مُلْكٍ عظيم، فَمَنَّ  
اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ رَفَضْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَأَثَرْتُ دِينَ اللَّه.

قال: «صَدَقْتَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي وائِلٍ وَوَلَدِهِ، وَوَلَدِ وَلَدِهِ».

فما لقيني أَحَدٌ من أصحابه إِلَّا قَالَ لي: بَشَّرْنَا بِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ  
قُدُومِكَ بثلاث<sup>(١)</sup>.

---

(١) عن كتاب «من الذي يغير المنكر وكيف» للدكتور: محمود محمد عمارة عن كتاب  
خير البشر.

## الصورة السادسة

### امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق

قصة إسلام الجبر اليهودي «زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ»:

روى الطبراني وابن ماجه وابن حبان والحاكم وغيرهم أن زَيْدَ بْنَ سَعْنَةَ

قال:

ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه مُحَمَّدٍ ﷺ حين

نظرتُ إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما هما منه:

● أنه يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلُهُ.

● ولا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ إِلَّا حِلْمًا.

حتى جاء رجلٌ إليه فقال له يا رسول الله، لي نَفَرٌ في قَرْيَةِ بني فُلان،

حدَّثْتُهُمْ إن أسَلَمُوا أتَاهُمْ الرِّزْقُ رَغَدًا، فأسَلَمُوا.

وقد أصابَتْهُمْ سَنَةٌ (أي: سنة قَحْطٍ) وأخْشَى أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ

طَمَعًا كما دَخَلُوهُ طَمَعًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بِشَيْءٍ فَعَلْتُ.

فنظر الرسول ﷺ إلى رجلٍ إلى جانِبِهِ، أَرَاهُ عَلِيًّا، فقال: يا رسول الله،

ما بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ.

قال زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ، فدنَوْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، هل لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي

تمرّاً معلوماً إلى أجلٍ معلومٍ؟ فباعني، فأعطيتُهُ ثمانينَ مثقالاً من ذهبٍ في تمرٍ معلومٍ، إلى أجلٍ كذا وكذا.

فأخذَ هذا الذهبَ، وأعطاهُ للرُّجلِ، وقال له: اعدِلْ عليهم وأغنهم.

قال زيدُ بن سَعْنَةَ: فلَمَّا كان قَبْلَ مَحَلِّ الأَجَلِ بيومينِ أو ثلاثة، خَرَجَ رسولُ الله ﷺ ومعه أبو بكرٍ وعُمَرُ وعثمانُ رضي اللهُ عنهم في نَفَرٍ من أصحابه.

فلَمَّا صَلَّى على الجنازة، ودَنَا إلى الجِدَارِ ليجلِسَ إليه، أتيتُهُ فأخذتهُ بمجامعِ قميصِهِ وِردائه، ونظرتُ إليه بوجهٍ غليظٍ، وقلْتُ له: يَا مُحَمَّدُ، أَلَا تَقْضِينِي حَقِّي؟ فواللَّهِ ما علمتُ بني عبدِ المطلبِ إلَّا مُطْلاً، ولقد كنتُ لي بمخالطتكمِ علم.

قال زيدُ بن سَعْنَةَ: ونظرتُ إلى عُمَرَ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ في وجهه كالفلكِ المستدير، ثم رماني ببصرِهِ، وقال: يا عَدُوَّ اللهِ، أتقولُ لرسولِ اللهِ ﷺ ما أسمع، وتضعُ به ما أرى؟ فوالذي نفسي بيده، لولا ما أحاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ، ورسولُ اللهِ ﷺ ينظرُ إليَّ في سُكُونٍ وتَوَدَّةٍ، فقال:

«يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى غَيْرِ هَذَا، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ الطَّلَبِ، إِذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ فَأَعْطِهِ وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَهُ».

قال زيدُ بنُ سَعْنَةَ: فذهبَ بي عُمَرُ فَأَعْطَانِي حَقِّي، وزادني عِشْرِينَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ.

فقلْتُ: ما هذه الزيادةُ يا عُمَرُ؟

قال: أَمَرَنِي رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَكَ.

فقلْتُ: أوتعرفُني يا عُمَرُ؟

قال: لا.

قلتُ: أنا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ.

قال: الْحَبْرُ؟

قلتُ: الْحَبْرُ، وَقَدْ خَبَرْتُ فِيهِ عِلَامَتَيْنِ وَوَجَدْتُهُمَا، فَأَشْهَدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي رَضِيْتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَأَشْهَدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي صَدَقَةٌ عَلَى بَعْضِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ.

فرجع عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

\* \* \*

## الصورة السابعة

### الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسائل

من وسائل الرسول الدعوية الحكيمة ﷺ توجيهه الكتب والرسائل إلى الملوك وكُبراء أقوامهم، بعد أن عَلِمَت الملوك بشأنه، وأنه صارَ لَهُ سلطانٌ في جزيرة العرب وجيشٌ، فمنها ما يلي:

١ - رسالته ﷺ إلى كسرى مَلِكِ فارس، كما روى البخاري في كتاب المغازي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسٍ، سَلَامٌ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أَسْلِمُ تَسْلَمَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ»،

٢ - رسالته ﷺ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، كما روى البخاري في كتاب الجهاد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمِ تَسْلَمَ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ  
مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ .

وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ،  
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْا  
فَقُولُوا: أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» .

٣ - رسالته ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى الْمِقْوَقْسِ  
عَظِيمِ الْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى .

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمِ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمِ يُؤْتِكَ اللَّهُ  
أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا  
نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا:  
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» .

٤ - رسالته إلى النجاشي ملك الحبشة كما جاءت عند مسلم في كتاب  
الجهاد: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ  
الْحَبَشَةِ، أَسْلِمِ أَنْتَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ  
السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا  
إِلَى مَرْيَمَ ابْنَتِ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى، فَخَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ رُوحِهِ  
وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ .

وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُؤَالَاةِ عَلَي طَاعَتِهِ، وَأَنْ  
تَتَّبِعَنِي، وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ  
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ، فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى».

يلاحظ في كِتَابِ الرَسُولِ ﷺ إِلَى التَّجَاشِي، أَنَّهُ زَادَهُ عَمَّا بَعَثَ إِلَى المَمْلُوكِ الأَخْرِينِ زِيَادَاتٍ تَنَاسَبُ مَعَ مَا يَعْلَمُ الرَسُولُ مِنْ حَالِهِ تُجَاةَ الإِسْلَامِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ الإِسْلَامَ بِهِ مُوَافِقٌ لِمَا يُؤْمَنُ هُوَ بِهِ فِي شَأْنِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ فِي اعْتِقَادِهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، لِذَلِكَ طَلَبَ مِنْهُ الرَسُولُ ﷺ أَنْ يُوَالِيَ طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ، بِاتِّبَاعِهِ دَعْوَةَ الدِّينِ الجَدِيدِ، فَيُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَبِالَّذِي جَاءَ بِهِ.

\* \* \*

## الصورة الثامنة

### رسائل الأقربين للأقربين وأثرها

رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد:  
ذكر ابنُ كثير في البداية والنهاية<sup>(١)</sup> عن الواقدي عن خالد بن الوليد  
يحدِّثُ عن إسلامه .

فمما ذكر خالدُ رضي الله عنه عن نفسه أنه قال :

وكانَ أخي الوليدُ بنُ الوليدِ قد دَخَلَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في عُمْرَةِ القِضَاءِ ،  
فطَلَبَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي ، فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا فَإِذَا فِيهِ : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي لَمْ أَرِ أَعْجَبَ مِن دَهَابِ رَأْيِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَعَقْلُكَ  
عَقْلُكَ ! وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ جِهْلُهُ أَحَدٌ؟ وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْكَ ،  
وَقَالَ : «أَيْنَ خَالِدٌ؟» فَقُلْتُ : يَأْتِي اللَّهَ بِهِ فَقَالَ : «مِثْلُهُ جَهْلَ الْإِسْلَامِ؟  
وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجِدَّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَقَدَّمْنَا عَلَى  
غَيْرِهِ» .

فَاسْتَدْرِكُ يَا أَخِي مَا فَاتَكَ مِنْ مَوَاطِنَ صَالِحَةٍ .

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه : فلمَّا جاءني كتابُهُ نَشِطْتُ للخُرُوجِ ،  
وزادني رغبةً في الإسلامِ ، وسرَّني سُؤالُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِّي .

(١) انظر الجزء الرابع ص ٢٣٩ .



ثم انطلق خالد رضي الله عنه مهاجراً إلى المدينة، واستقبله الرسول ﷺ  
ببشرٍ ووجهٍ طلقٍ، وأدناه إليه، ثم قال له: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ  
أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسَلِّمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ».  
وأسلمَ مَعَهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، كَانَا قَدْ خَرَجَا مَعَهُ  
إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُسَلِّمَا.

\* \* \*

## الصورة التاسعة

### الجرأة في الحقّ

دَخَلَ الصحابي «عائذ بن عمرو بن هلال» على «عبيد الله بن زياد» وكان أميراً على العراق أيام يزيد بن عبد الملك، فقال له:

أَيُّ بُنْيٍ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ الْحُطَمَةَ»  
فَيَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ.

فقال له: اجلس، فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةٍ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فقال: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتْ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وَفِي  
غَيْرِهِمْ<sup>(١)</sup>.

الْحُطَمَةُ: هُوَ الَّذِي يَسُوقُ الإِبِلَ سَوْقًا عَنِيفًا حَتَّى يَخْطِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

\* \* \*

---

(١) انظر أسد الغابة ج/٢ ص ١٤٧/١٤٨.

## الصورة العاشرة

مَنْ طَلَبَ الموعظة فتح أبواب نفسه لتقبُّلها

١ - معاوية وعائشة رضي الله عنهما:

عن معاوية أنه كتب إلى عائشة: أن اكتبي إليّ كتاباً توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت:

سلامٌ عليك، أما بعدُ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ التَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَوْنَةَ النَّاسِ،  
وَمَنْ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ».

والسلام عليك

٢ - عمرُ بنُ عبد العزيز وطلبه الموعظة:

● كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري: عطني وأوجز.  
فكتب إليه الحسن:

«أما بعدُ: فإنَّ رَأْسَ مَا هُوَ مُصْلِحُكَ وَيُصْلِحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ يَدَيْكَ الزُّهُدُ فِي  
الدُّنْيَا.»

وإنما الزُّهُدُ بِالْيَقِينِ، وَالْيَقِينُ بِالتَّفَكُّرِ، وَالتَّفَكُّرُ بِالاعتبارِ، فَإِذَا أَنْتَ  
فَكَرَّرْتَ فِي الدُّنْيَا لَمْ تَجِدْهَا أَهْلًا لِأَنَّ تَبِيعَ بِهَا نَفْسَكَ، وَوَجَدْتَ نَفْسَكَ أَهْلًا  
لِأَنَّ تَكْرَمَهَا بِهَوَانِ الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ، وَمَنْزِلُ غَفْلَةٍ.»

● وَرَوَى عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: عطني، فقلت له:

«اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة، فخذ فيه الآن، وما تكرهه أن يكون فيك تلك الساعة، فدعه الآن».

٣ - الخليفة العباسي (المنصور) وطلبه الموعظة:

دخل الإمام الأوزاعي على الخليفة العباسي «المنصور» فقال له: عطني.

قال الأوزاعي: «يا أمير المؤمنين، إن الله هو الحق المبين، ومن كره الحق فقد كره الله».

يا أمير المؤمنين، إن الملك لا يدوم لأحد، وإنما الملك لله وخدمته، ولو دام لأحد ما وصل إليك، واعلم أن أعز الناس عند الله التقاة، فمن طلب العز بطاعة الله تعالى، رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمعصيته وضعه الله وأذله».

فلما انتهى الأوزاعي من موعظته أمر له المنصور بمال، فاعتذر عن قبوله، وقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا فأخرم ثوابها، وأقلل من نفعها، وما دام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل، فنحن في خير الله ثم في خيرك<sup>(١)</sup>.

٤ - هارون الرشيد وطلبه الموعظة:

أورد ابن كثير في البداية والنهاية<sup>(٢)</sup> في أخبار هارون الرشيد، قال:

(١) عن كتاب «من الذي يغير المنكر وكيف؟» للدكتور محمود محمد عمارة.

(٢) انظر الجزء (١٠) ص ٢٢٤.

ودخل عليه ابن السمّاك<sup>(١)</sup> يوماً، فاستقى الرشيد، فأتي بقلّة فيها ماءٌ مُبرّدٌ، فقال لابن السمّاك عِظني.

فقال: يا أمير المؤمنين، بكم كنتُ مُشترياً هذه الشربة لو مُنعتها؟  
فقال الرشيد: بنصف مُلكي.

فقال: اشرب هنيئاً، فلما شرب قال: أرايت لو مُنعت خروجها من  
بدنك بكم كنتُ تشتري ذلك؟  
قال: بنصف ملكي الآخر.

قال ابن السمّاك: إنَّ مُلكاً قيمة نصفه شربة ماء، ونصفه الآخر قيمة  
بوّلة، لخليق أن لا يتنافس فيه.  
فبكى هارون الرشيد.

\* \* \*

---

(١) أحد الوعاظ العبّاد.

## الصورة الحادية عشرة

### الشجاعة الأدبية في إنكار المنكر

العزُّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب:  
قال الباجي: طلع شيخنا عزُّ الدين مرّةً إلى السلطان نجم الدين أيُّوب،  
في يوم عيد بالقلعة، فشهدَ العسكر مصطفين بينَ يَدَيْهِ، وقدَ خرَجَ على قومه  
في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية.

فالتفت إليه الشيخ وناداه: يا أيُّوبُ، ما حُجَّتْكَ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا قَالَ لَكَ:  
أَلَمْ أَبْوِءْ لَكَ مُلْكَ مِصْرَ، ثُمَّ تَبِيحُ الْخُمُورِ؟!

فقال السلطان: هل جَرَى ذلك؟!

فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية تباح فيها الخمر، وغيرها من  
المنكرات، وأنت تتقلَّب في نعمة هذه المملكة.

يناديه بأعلى صوتِهِ، والعساكِرُ واقفون.

قال السلطان: يا سيِّدي، هذا أنا ما عَمِلْتُهُ، هذا من زَمَانِ أَبِي.

قال الشيخ: أنت من الذين يَقُولون: «وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ»؟!.

فأضدَّر السلطان مرسوماً بإبطال تلك الحانة.

قال الباجي: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا  
الخير، يا سيدي كيف الحال؟. فقال: يا بني رأيتُ في تلك العظمة، فأردتُ  
أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيدي، أما خفتُه؟ فقال:  
والله يا بُني استخضرتُ هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي كالقِط<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) بتصريف عن كتاب «من الذي يغير المنكر»، عن كتاب من أخلاق العلماء ص ١٧٤.

## الصورة الثانية عشرة

زهّد العلماء بما في أيدي الأمراء يمنحهم الجرأة في الحق

سُفْيَانُ الثَّوْرِي، وأبو جعفر المنصور:

لَقِيَّ «أبو جعفر المنصور» أمير المؤمنين «سُفْيَانُ الثَّوْرِي» العالم الزاهد، في الطواف، و «سفيان» لا يعرفه.

فَضْرَبَ «أبو جعفر المنصور» على عاتقه، وقال: له: أتعرفني؟

قال: لا، ولكِنَّكَ قَبَضْتَ عَلَيَّ قَبْضَةَ جَبَّارٍ.

قال أبو جعفر: عِظْنِي أبا عبد الله.

قال سفيان: وَمَا عَلِمْتُ فِيهَا عَلِمْتَ فَأَعِظْكَ فِيهَا جَهَلْتُ؟!

قال أبو جعفر: فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَأْتِيَنَا؟

قال سفيان: إِنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْكُمْ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾<sup>(١)</sup>.

فَمَسَحَ أَبُو جَعْفَرٍ يَدَهُ بِهِ. ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى أَصْحَابِهِ، فقال: أَلْقَيْنَا الْحَبَّ

إِلَى الْعُلَمَاءِ فَلَقَطُوا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سُفْيَانَ، فَإِنَّهُ أَعْيَانًا فِرَارًا.

أقول: هذا من أثرِ عِقَّةِ «سُفْيَانَ الثَّوْرِي» وزهده في الدنيا، وترفعه عن

أَنْ يَشْتَرِيَ الدُّنْيَا بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ، وَمَنْ مَبْلَغِ تَقْوَاهُ وَوَرَعِهِ، وَطَلَبِهِ

لِرِضْوَانِ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ.

(١) الآية ١١٣ من سورة (هود/١١).



## الصورة الثالثة عشرة

### قُوَّةُ تَأْتِيرِ الموعظة التي تنفذ إلى أعماق القلب

صالحُ بنُ بَشِيرِ المُرِّي، والخليفة المهدي:

جاء في البداية والنهاية لابن كثير<sup>(١)</sup>، أن صالح بن بشير المرّي الواعظ العابد الزاهد، جلس يوماً في مجلس الخليفة المهدي، فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه، قال له فيها:

(اعْلَمْ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ خَضِمَ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَمَنْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَضِمَهُ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَضِمَهُ، فَأَعِدَّ لِمُخَاصَمَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ حُجْجاً تَضْمَنُ لَكَ النِّجَاةَ، وَإِلَّا فَاسْتَسْلِمِ لِلْهَلَكَةِ.

واعْلَمْ أَنَّ أَبْطَأَ الصَّرْعَى نَهْضَةً صَرِيحُ هَوَىٰ بَدْعَتِهِ، واعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَأَنَّ أَثْبَتَ النَّاسِ قَدَمًا، آخَذَهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ).

واستمرَّ يعِظُ الخليفة حتى بكى بكاءً شديداً، وأمرَ بتدوين موعظته في

دواوينه.

\* \* \*

---

(١) انظر ج ١٠ ص ١٧٠.

## الصورة الرابعة عشرة

### شجاعة العالم الربّاني في أخطر المواقف

الإمام ابنُ تيمية، وقازان طاغية التتر:

لَمَّا قَدِمَ التتر بقيادة طاغيتهم قازان باتجاه دَمَشَق، بعد أن استباح العراق وفارس وحكهما، ودُعِرَ أهل دَمَشَق من مَقَدَمِهِمْ، اجتمع الإمام أحمدُ بنُ تيمية بأعيانهم للتفكير والتشاور في المصيبة القادمة، فاتفقوا على المسير إلى قازان، في وفدٍ من العلماء والأعيان، بغية أخذ الأمان لأهل دَمَشَق. وانطلقوا للاجتماع به في بلدة «النَّبَك» وهي بلدة تقع بين دَمَشَق وحمص.

وفي يوم الاثنين الثالث من ربيع الآخر من سنة ٦٩٩ هجرية التقى الوفد الدمشقي بقازان طاغية التتر، وكان الإمام ابن تيمية هو السفير المتحدث بلسان القوم.

قال الشيخ كمال الدين بن الأنجا، وكان قد شهد اللقاء مع الوفد:

«كُنْتُ حاضراً مع الشيخ فجعل يُحَدِّثُ السُّلْطَانَ بقول الله ورسوله في العَدْلِ وغيره، ويرفع صوته على السلطان ويُقْرُبُ منه في أثناء حديثه، حتّى قَرَبَ أَنْ تُلَاصِقَ رُكْبَتَهُ رُكْبَةَ السُّلْطَانِ، والسُّلْطَانُ مَعَ ذَلِكَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ مُضْغٍ لِمَا يَقُولُ، شاخِصٌ إِلَيْهِ لَا يُعْرِضُ عَنْهُ.

وإِنَّ السُّلْطَانَ مِنْ شِدَّةِ مَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَيْبَةِ لَهُ،

سأل: مَنْ الشَّيْخُ؟ فَإِنِّي لَمْ أَرِ مِثْلَهُ، وَلَا أَتَيْتَ قَلْبًا مِنْهُ، وَلَا أَوْقَعَ مِنْ حَدِيثِهِ فِي قَلْبِي، وَلَا رَأَيْتُنِي أَعْظَمَ انْقِياداً لِأَحَدٍ مِنْهُ.

فَأُخْبِرَ بِحَالِهِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلتَّرْجَمَانِ: قُلْ لِلْقَازَانِ:

«أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ مُسْلِمٌ، وَمَعَكَ قَاضِيٌّ، وَإِمَامٌ، وَشَيْخٌ، وَمُؤَدِّتُونَ عَلَيَّ مَا بَلَّغْنَا، فَغَرَّوْنَا.

وَأَبُوكَ وَجَدُّكَ كَانَا كَافِرَيْنِ، وَمَا عَمِلَا الَّذِي عَمِلْتَ، عَاهِدًا فَوْقِيَا، وَأَنْتَ عَاهَدْتَ فَغَدَرْتَ، وَقُلْتَ فَمَا وَقَيْتَ، وَجُرْتَ».

وخرج الإمام ابن تيمية من عند الطاغية «قازان» معزراً مكرماً، بما وهبه الله من صدق وشجاعة وتضحية بنفسه من أجل حَقْنِ دماء المسلمين، وقد حَقَّقَ اللهُ له كثيراً مما جاهد لبلوغه، فكان سبباً في فَكِّ إِسَارِ مُعْظَمِ أُسْرَى المسلمين لدى جيش قازان.

وذكر قاضي القضاة «أبو العباس» أنهم لما حضروا مجلس قازان، قُدِّمَ لَهُمْ طَعَامٌ فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَّةَ.

فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَا تَأْكُلُ.

فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ أَكُلُ مِنْ طَعَامِكُمْ، وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَيْتُمْ مِنْ أَغْنَامِ النَّاسِ، وَطَبِخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ.

ثُمَّ إِنَّ قَازَانَ طَلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ، فَأَيَّدَهُ وَأَنْصَرَهُ، وَإِنْ كَانَ لِلْمُلْكِ وَالدُّنْيَا وَالتَّكَاثُرِ فَاسْأَلْكَ أَنْ تَفْعَلَ بِهِ وَتَضَعَهُ، وَكَانَ يَدْعُو عَلَيْهِ، وَقَازَانُ يُؤْمِنُ عَلَى دَعَائِهِ، وَنَحْنُ نَجْمَعُ ثِيَابَنَا خَوْفًا أَنْ يُقْتَلَ فَتَقَعَ دِمَاؤُهُ عَلَيْهَا.

قال قاضي القضاة: ثم لما خَرَجْنَا قُلْتُ له: كِدْتَ تُهْلِكُنَا مَعَكَ، وَنَحْنُ مَا نَضْحَبُكَ مِنْ هُنَا.

فقال: وأنا لا أصاحِبُكُمْ.

فانْطَلَقْنَا عُضْبَةً، وَتَأَخَّرَ هُوَ، فَتَسَامَعَتْ بِهِ الْخَانَاتُ وَالْأَمْرَاءُ، فَأَتَوْهُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَصَارُوا يَتَلَحِّقُونَ بِهِ لِيَتَبَرَّكُوا بِرُؤْيَيْتِهِ، فَمَا وَصَلَ إِلَّا فِي نَحْوِ ثَلَاثِ مِائَةِ فَارِسٍ فِي رِكَابِهِ.

وَأَمَّا نَحْنُ فَخَرَجَ عَلَيْنَا جَمَاعَةٌ مِنْ قُطَاعِ الطُّرُقِ فَسَلَبُونَا<sup>(١)</sup>.

وكان للشيخ مواقفٌ أُخْرَى جِهَادِيَّةَ ضِدَّ أَمْرَاءِ قَازَانَ وَتُؤَابِهِ تَدُلُّ عَلَى بَطُولَتِهِ النَّادِرَةِ ثِقَةً بِاللَّهِ وَاعْتِمَاداً عَلَيْهِ.

وفي بعض الأعمال الجهادية التي كان يقوم بها ضِدَّ الْغُزَاةِ الطُّغَاةِ كان الشيخ ابن تيمية يَدُورُ كُلَّ لَيْلَةٍ عَلَى أَسْوَارِ دِمَشْقٍ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الصَّبْرِ وَالْقِتَالِ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْجِهَادِ، وَيَذَكِّرُهُمْ بِأَحَادِيثِ فَضْلِ الْمِرَابِطَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

واشترك رحمه الله رحمةً واسعةً في عِدَّةِ مَعَارِكٍ قِتَالِيَّةٍ ضِدَّ الْغُزَاةِ الْمَفْسِدِينَ، وَكَانَ يَقُودُ طَائِفَةً مِنْ تَلَامِيذِهِ وَمُرِيدِيهِ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُحَرِّضُ السُّلَاطِينَ وَالْأَمْرَاءَ وَالْقَادَةَ وَالْأَجْنَادَ وَالْعَامَّةَ عَلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ يَجَاهِدُ وَيُقَاتِلُ ضَمْنَ الْمُقَاتِلِينَ حَامِلِي رَايَاتِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

\* \* \*

(١) نقل هذه الحادثة الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي في ترجمته لابن تيمية عن الكواكب الدرزية ص ٢٥ - ٢٦ وقد تصرّفتُ في بعض العبارات.

## الصورة الخامسة عشرة

### ذَكَاءٌ وَدَهَاءُ الْعَالَمِ الدَّاعِيَةِ مناظرات الباقلاني ودهاؤه في بلاد الروم وأساليبه البارعة

التعريف به :

هو أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمّد المشهور بالباقلاني، عاش ما بين سنة (٣٣٨ - ٤٠٣ هجرية).

عراقي وُلد في البصرة، وتلقّى العلم على كبار علمائها في عصره، واتّصل بعُضدِ الدولة البُوَيْهِي الذي كانت السلطة العظمى في يده بعهد الخليفة العباسي «الطائع لله» فعظمت لديه منزلته، فأُسند إليه القضاء.

اختياره رسولاً إلى ملك الروم :

وجّه عُضدُ الدولة القاضي أبا بكر الباقلاني إلى ملك الروم لإجراء معاهدة بين الرّوم وبين المسلمين في المشرق يومئذٍ، وليكون الناطق الدينيّ الكاشف لحقائق الإسلام، والكاشف لما في النصرانية من باطلٍ وخطلٍ.

فاستجاب القاضي أبو بكر الباقلاني للأمر، وخرج قاصداً بلاد الروم، حتى وصل القسطنطينية<sup>(١)</sup>، حيث يقيم ملك الروم، ولما علم ملك الروم بقدم وفد عضد الدولة، أرسل إليهم من يستقبلهم ويدخلهم على الملك،

(١) هي اسطنبول اليوم.

وقال لهم رسولُ الملك لا تدخلوا عليه حتّى تخلعوا عماثمكم ونعالكم<sup>(١)</sup>.

فأبى القاضي الباقلاني، وقال لرسول الملك: لا أدخل إلا على ما أنا عليه من الزّي واللباس، فإن أبيتم فخذوا الكتب فاقروها، وتُرسلون لي جوابها، وأعودُ بها.

فأرسل ملكُ الرّوم رسولا يسأل القاضي عن سبب هذا الامتناع، مع أنّ المراسيم الملكيّة عنده تقضي بذلك مع رُسل كلّ الملوك.

قال القاضي أبو بكر: أنا رجلٌ من علماء المسلمين، وما تحبّونه ممّا دُلّ وصغار، والله تعالى قد رَفَعَنَا بالإسلام، وأَعَزَّنَا بِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، ومن شأن الملوك إذا بعثوا رُسُلَهُمْ إلى مَلِكٍ آخَرَ أَنْ يَرْفَعُوا أَقْدَارَهُمْ، ولا يقصدوا إذلالهم، ولا سيّما إذا كان الرسول من أهل العلم، فإذا وُضِعَ قَدْرُهُ انْهَدَمَ جَاهُهُ عند الله وعند المسلمين، ولو أنّني فعلتُ ما تقضي به مراسيمكم عَيَّرَني المسلمون، وطعنوا في ديني، وسقطتُ من أعينهم.

فإن أردني ملككم دخلتُ عليه كما أدخل على خليفة المسلمين، وإن كره هذا فليقرأ كتابنا، وليرُدَّ إلينا الجواب، ولا حاجة لنا في اللقاء.

فقال ملك الروم: دعوه يدخل هو ومن معه كما يشتهون، وأدرك الملك مكانة هذا الرسول.

حيلةُ القاضي تَغْلِبُ حيلة الملك:

علم ملك الرّوم أنّ رسول المسلمين إليه لا يسجد له على عادة رعيته إذا دخلوا عليه، فوضع سريره وراء باب قصير لا يدخل الداخل منه إلا راعياً، ودُعي القاضي الباقلاني ليُدخل منه، فلمّا رآه باباً قصيراً فطن إلى أنّ

(١) تنظيم رَسْمُوهُ لتعظيم ملوكهم.

في الأمر حيلة يراد بها إدخاله على الملك وهو على هيئة راعٍ له، فأدار ظهره وحناه ودخل يمشي إلى خلفه مستقبلاً الملك يدُبُّره، حتى دنا منه، ثم رفع رأسه، ونصّب ظهره، وأدار وجهه إلى الملك.

فعجب الملك من فطنته وهابه، وقد دخل بنفيس ثيابه، وعمامته وطيلسانه.

براعته في إجابته:

لمّا وقع بصر ملك الروم عليه أدناه منه، ورفع فوق جميع الحاضرين، وسأله عن إصراره على الدخول عليه وهو بكامل كسوته.

قال القاضي الباقلاني: بهذا الرّي ندخلُ على ملكنا الأعظم جلّ جلاله، وندخلُ على سلطاننا الأكرم، الذي أمرنا الله ورسوله بطاعته، فلماذا تنكرون عليّ هذا، وأنا رجلٌ من علماء المسلمين، إنني إن دخلتُ عليك بغير هيئتي أهنتُ العلمَ ونفسي، وذهبَ جاهي عندَ المسلمين.

فقال ملك الروم لترجمانه: قل له: قد قبلنا عُذركَ، ورفعنا قدرك.

وسلم القاضي كتاب عضد الدولة للملك، وكان في الكتاب عبارة:

«وإني أرسلتُ لِسَانَ أَهْلِ المَلَّةِ تعظيماً لك وتكريماً».

فسأل الملك عن المراد بعبارة «لسان أهل الملة».

فأبان له القاضي ما حباه الله من علم يستطيع به أن يرُدَّ على أهل الملل والنحل المخالفة لمبادئ الإسلام وعقائده وشرائعه.

وأنزلهم الملك في منزل ضيافةٍ أعدَّه لهم.

حيلة عجيبة يحفظ بها القاضي رزاقته:

أراد ملك الروم أن يستخفَّ القاضي الباقلاني بالطرب، فأحضره في مجلس موسيقي، وفيه آلة طربٍ ما سمعها سامع إلا طربَ واستخفَّته.

فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه من أن تظهر عليه حركة فيها خفة بحضرة ملك الروم، فاجتهد في معالجة رجله، حتى أحدث بها جرحاً خرج منه دمٌ كثير، فشغله الألم عن الطرب، فلم تظهر عليه حركة ما تشعر بأن السماع قد استخفه.

فعجب ملك الروم من رزاقته، ثم لما اكتشف حيلته تحقق من أن الرَّجُل وافر الهمة عالي العزيمة.

دعوته إلى مائدة الملك:

ولما كان يوم الأحد بعث إليه ملك الروم، وطلب حضوره إلى مائدته، وقال له رسول الملك، من شأن الرسول أن يحضر مائدة الملك، ويجيب إلى طعامه، ولا ينقص شيئاً من الرسوم المتبعة.

فاعتذر القاضي عن اتباع رسوم مائدة الملك، وعن تلبية الطلب، وقال: أخشى أن يكون على مائدة الملك لحوم الخنازير، أو شيء مما حرّمه الله ورسوله على المسلمين.

فعاد رسول الملك يبلغه بأن الملك يقول له: ليس على مائدتي ولا في طعامي شيءٌ تكرهه، وما أنت عندنا كسائر الرُّسل بل أعظم.

وحضر القاضي المائدة، وأوهم أنه يأكل إلا أنه لم يأكل شيئاً، ولما انتهى مجلس المائدة نشر الخدم البخور والعطور.

حوار مع الملك في مجلس أول:

بعد استكمال مراسيم المائدة، واستقرار المدعويين في مجالسهم، قال ملك الروم للقاضي سائلاً:

هذا الذي تدعونه من معجزات نبيكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟.



قال القاضي: هو صحيح عندنا، وقد انشقَّ القمر على عهد محمد رسول الله ﷺ، حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحاضرون ومن اتفق نظره إليه في تلك الحال.

قال الملك: وكيف تثبت انشقاؤه مع أن الناس في غير بلادكم لم يروه؟!.

قال القاضي: لأنهم لم يكونوا على أهبّة ووعْدٍ لانشقاؤه حتى يتوجهوا لمشاهدته.

قال ملك الروم متهكماً: هل بينكم وبين القمر نسبةٌ أو قرابةٌ؟! لأي شيء لم تعرف الروم وسائر الناس انشقاؤه، وإنما رأيتموه أنتم خاصة، مع أنه في السماء وهو غير مختصّ بكم؟!.

قال القاضي: هل بينكم وبين المائدة التي أنزلها الله لعيسى من السماء استجابةً لطلب الحواريين نسبةٌ أو قرابةٌ?!.

فأنتم وحدكم الذين رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، حتى اليونان جيرانكم، فإنهم جميعاً يُنكرونها، فهل أنتم وحدكم رأيتموها دون غيركم؟!.

فلم يجد الملك جواباً بل انقطع متحيراً.

حواره مع أحد القساوسة:

وأمر الملك بإحضار أحد قساوسته ليحاوّر القاضي الباقلاني حول الموضوع نفسه.

قال القاضي: فجاءوا برجل كالذئب، أشقر الشعر مُسبّله، فقعد للمحاورة، وحكيث له قصة الحوار مع الملك.

قال القسيس: الذي قاله القاضي لازم، وهو الحق، ولا أعرف جواباً إلا ما ذكره.

وقال القاضي للقسيس: ألسْتَ تَرَى أَنَّ الْأَرْضَ كَرَوِيَّةٌ؟.

قال القسيس: بلى، هي كروية.

قال له القاضي: أفتنكر أن يُرَى في هذا الإقليم ما لا يُرَى في إقليم آخر، كالسوف يُرَى في موضع دون موضع، وكذلك كواكب السماء تُرَى في موضع دون غيره، أم تقول: إنَّ الكسوف إذا وقع رآه أهل الأرض كلُّهم؟!.

قال القسيس: بل لا يراه إلا من كان في محاذاته.

قال القاضي: فما الداعي لإنكار انشقاق القمر إذا كان في ناحية لا يراه فيها إلا أهل تلك الناحية، ومن تأهَّب للنظر إليه، أما من أعرض، أو كان في أمكنة لا يُرَى القمر منها فإنه لا يراه.

قال القسيس: هو كما قُلْتَ، إنَّما الكلام في الرِّوَاة الَّذِينَ نَقَلُوا الْخَبْرَ.

قال الملك: وَكَيْفَ يُطَعَنُ فِي الرِّوَاةِ.

قال القسيس: مثل هذه الآيات إذا صحَّت وجب أن ينقله الجُمُ الغفير، حتَّى يتَّصل بنا العلمُ به، ولو كان كذلك لوقَّع عندنا العلمَ الضروريُّ به، فلمَّا لم يقَع لنا العلمَ الضروريُّ به دَلَّ على أنَّ الخبرَ مفتعلٌ وباطلٌ.

فالتفت الملك إلى القاضي الباقلاني وقال له: هاتِ الجوابَ.

قال القاضي: يلزمه في نزول المائدة من السماء ما لزمني من انشقاق القمر، فيقال له: لو كان نزول المائدة صحيحاً لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ولا وثنيٌّ إلا وهو يعلمُ هذا بالضرورة، ولمَّا لم يَعْلَمُوا ذلك بالضرورة، دَلَّ على أنَّ الخبرَ كذبٌ.

فبهت القسيس والملك، ومن ضمَّهم المجلس، وانتهى المجلس على هذا.

حوار مع الملك في مجلس آخر:

ودعا ملك الروم القاضي الباقلاني إلى مجلس آخر.

فقال الملك: ما تقولون في المسيح عيسى ابن مريم؟

قال القاضي: هو روح الله، وكلمته، وعبدُه، ونبِيُه، ورسولُه، كمثل آدم خلَقُه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، وتلا قول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩).

قال الملك: تقولون: المسيح عبْدٌ؟

قال القاضي: نعم، كذا نقول، وبه ندين.

قال الملك: ولا تقولون: إنَّه ابنُ الله؟

قال القاضي: معاذ الله، وتلا قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١).

وقال القاضي: إنكم لتقولون قولاً عظيماً، فإذا جعلتم المسيح ابن الله، فمن كان جدُّه وأخوه وعمُّه وخاله وسائر الأقارب؟!

فتحير الملك.

قال الملك: العبدُ يخلُق ويُخَيِّب ويُميتُ، ويُبرئ الأكمه والأبرص؟

قال القاضي: لا يَقْدِرُ العبدُ على ذلك، وإنما ذلك كله من فعل الله تعالى.

قال الملك: كيف يكون المسيح عبداً لله، وخلقاً من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كله؟!!

قال القاضي: معاذ الله، ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص.

فتحير الملك وقلَّ صبره، وقال: أتنكرُ ذا مع اشتهاه في الخلق، وأخذ الناس له بالقبول؟

قال القاضي: ما قال أحدٌ من أهل الفقه والمعرفة: إنَّ الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنما هو شيءٌ يفعله الله تعالى على أيديهم تصديقاً لهم، وهو يَجْرِي مَجْرَى الشهادة لهم بأنَّهم صادقون.

قال الملك: إنَّ آيات عيسى موجودةٌ عندكم في كتابكم.

قال القاضي: أيها الملك، في كتابنا أن ذلك كله كان بإذن الله تعالى، وتلا عليه قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٦﴾ ﴾

وتلا عليه قول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ

الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِيءَ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ  
وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ  
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ .

وقال القاضي للملك: إنما فعل المسيح ذلك كله بإذن الله وخذه لا  
شريك له، لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يُخَيِّي الموتى ويبرئ  
الأكمة والأبرص من ذاته وقوته لجاز أن يقال: إن موسى فلق البحر وأخرج  
يده بيضاء من غير سوء من ذاته.

إن معجزات الأنبياء عليهم السلام ليست من أفعالهم دون إرادة الخالق  
فلما لم يَجْزُ هذا لم يَجْزُ أَنْ تُسَنَدَ المعجزات التي ظهرت على يد المسيح  
إِلَيْهِ.

قال الملك: كلُّ الأنبياء من آدم إلى مَنْ بَعْدَهُ كَانُوا يَتَضَرَّعُونَ للمسيح  
حَتَّى يَفْعَلَ لَهُمْ مَا يَطْلُبُونَ.

قال القاضي: هذه دعوى يستطيع أن يدعي مثلها كلُّ أتباع الرُّسُل، أفي  
لسان اليهود عظم حتى لا يَقْدِرُوا أن يقولوا: إنَّ المسيح كان يَتَضَرَّعُ لموسى،  
وكذلك أتباع كلِّ رسولٍ، يستطيعون أن يقولوا: إنَّ عيسى كان يَتَضَرَّعُ  
لرسولهم.

قال أحدُ أساقفة الملك: ما فَعَلْتَ زَوْجَةَ نَبِيِّكُمْ؟ وما كَانَ مِنْ أَمْرِهَا فيما  
رُمِيَتْ بِهِ؟

قال القاضي الباقلاني: هُمَا امرأتانِ ذُكِرَتَا بِسُوءِ، مريم وعائشة،  
فَبَرَّاهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَتْ عائشة ذاتِ زوجٍ وَلَمْ تَأْتِ بِوَلَدٍ، وَأَتَتْ مَرِيْمُ  
بِوَلَدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا زَوْجٌ.

فَبُهِتَ مَنْ فِي مَجْلِسِ الْمَلِكِ.

حوارٌ مع الملك في مجلس ثالث :

قال القاضي للملك لِمَ اتَّحَدَ اللاهوتُ بالناسوت؟! (أي: لِمَ اتَّحَدَتِ الطبيعةُ الرَّبَّانِيَّةُ بالطبيعةِ البشريَّةِ).

قال الملك: أراد اللهُ أن ينجيَ الناسَ من الهلاكِ.

قال القاضي: وهل دَرَى اللهُ بأنه سَيُقْتَلُ وَيُصَلَّبُ وَيُفْعَلُ به ذلك؟. فإن قُلْتَ: إنه لم يذَرِ ما كان اليهود يريدون به بطلَ أن يكون إلهًا، وإذا بطل أن يكون إلهًا بطل أن يكون ابنًا لله، وإن قُلْتَ: إنه دَرَى، ودخلَ في هذا الأمرِ وهو عالمٌ به، فهو ليس بحكيمٍ، لأنَّ الحكمةَ تَمْنَعُ من التَّعَرُّضِ للبلاءِ.  
فلم يجد الملك ما يجيب به.

إفحامه للملك وكبير بطاركته ومن معه من رؤساء ملتهم في مجلس رابع:

وفي مجلس رابع بمحفل من محافل النصارى دعا ملك الروم القاضي الباقلاني لحضوره، ليريه المظاهر الباهرة التي يتخذونها احتفاءً بدينهم، وبرؤساء ملتهم، عسى أن يتأثر بهذه المظاهر المدهشة التي لا نظير لها عند المسلمين.

وفي اليوم المحدد الموعود حضر الباقلاني هذا المجمع الحافل، الذي بالغوا في زيناته.

فأدناه الملك ولاطفه، وأجلسه على كرسيٍّ دون سريره بقليل، والملكُ في أبهى وأخصته، وعليه التاج والألبسة الدرزية، ورجال مملكته على مراتبهم.

وبينما هم على ذلك، إذ جاء في آخر النَّاسِ بَطْرُكُهُمُ الأعظم، وهو قِيَمُ ديانتهم، وكان قد أوعز إليه الملكُ بالتحفُّظِ من قاضي المسلمين الباقلاني، وأبان له أنه داهية، وعسى أن يتعلَّقَ منه بسقطة، أو يعثرَ منه على زَلَّةٍ.

وأقبلَ كبير البطارقة محفوظاً باتباعه في زِيٍّ حَسَنِ يَتَلَوْنَ الأناجيل،  
وَيُنْشِرُونَ البخور.

فلَمَّا تَوَسَّطَ المجلس قامَ الملك ورجاله تعظيماً له، ففَضَوْا حَقَّهُ من  
الاحترام والتعظيم، وَتَمَسَّحُوا بأطرافه، وأجْلَسَهُ الملك إلى جَنْبِهِ، وأقبلَ  
الملك على القاضي الباقلاني، وَقَالَ له: يا فقيه، هذا البطرک، قِيمُ الدِّيَانَةِ،  
ووليُّ النُحْلَةِ.

فَسَلَّمَ القاضي عليه أحفل سلام، وسأله: كيف الأهل والأولاد؟  
فَعُظِمَ قَوْلُهُ هذا على البطرک، وعلى جميع القوم، وَتَغَيَّرُوا له، وَأَنْكَرُوا  
على أبي بكر الباقلاني قوله.

قال القاضي: وَمَاذَا أَنْكَرْتُمْ من كلامي؟

قال الملك: إِنَّا نُنَزُّهُ هؤُلاءِ عن الزوجة والولد.

قال القاضي: يا هؤُلاءِ، تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الزوجة  
والولد، وَتَرَبُّوْنَ به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم عزَّ وَجْهُهُ، فَتُضَيِّفُونَ  
ذلك إليه.

سَوَاءٌ لهذا الرأي ما أُبَيِّنَ غَلَطَهُ.

فَسَقَطُوا في أيديهم، وَبُهْتُوا، وَأَنْكَسَرُوا، ولم يُجِيرُوا جواباً،  
وتداخلتهم هيبة عظيمة له.

خاتمة أحداث سفارة القاضي الباقلاني:

ثم قال ملك الروم لبطركه: ما ترى في أمر هذا الشيطان؟

قال البطرک: تقضي حاجته، وتُلاطفُ صاحبه، وتبعث بالهدايا إليه،

وَتُخْرِجُ هَذَا الْعِرَاقِيَّ مِنْ بَلَدِكَ مِنْ يَوْمِكَ هَذَا، وَإِلَّا لَمْ آمَنِ الْفِتْنَةُ بِهِ عَلَى  
النَّصْرَانِيَّةِ.

فَفَعَلَ الْمَلِكُ ذَلِكَ، وَأَحْسَنَ جَوَابَ عَضُدِ الدَّوْلَةِ، وَأَحْسَنَ هُدَايَاهُ،  
وَعَجَّلَ بِتَسْرِيحِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِي، وَبَعَثَ مَعَهُ عِدَّةً مِنْ أَسَارِي  
الْمُسْلِمِينَ، وَالْمَصَاحِفَ الَّتِي كَانُوا قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا، وَوَكَّلَ بِالْقَاضِي مِنْ  
جُنْدِهِ مَنْ يَحْفَظُهُ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَأْمَنِهِ.

\* \* \*



## خاتمة الكتاب

هذا ما فتح الله به عليّ في موضوع هذا السفر المتعلق بفقهِ الدعوة إلى الله، وفقهِ النَّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد دَوَّنت معظم بحوثه استخراجاً من كتاب الله المجيد، ومن سيرة الرسول ﷺ الشريفة، وسنته المطهرة، بطريقة مباشرة، ثم من النظر في سير طائفة من دعاة الإسلام الموقنين وعلمائهم وفقهائهم ووعاظهم المؤثرين، ولم أهمل الاطلاع على معظم ما كُتِبَ في هذا الموضوع قديماً وحديثاً، مستفيداً منها عناصر أفكار، ومفاتيح بحوث، وأمثلة وشواهد.

وكان لي في هذا السفر منهجي العلمي الخاص الذي تمرَّستُ بالتزامه في كلِّ ما كُتِبَ من كُتُبِ فتح الله بها عليّ، وقد حاولتُ استقصاء كلِّ النصوص القرآنيَّة التي ظهر لي أنَّها مشتملة على عناصر فكريَّة تتصل بموضوعه، ودرستها دراسة تدبُّر، لأستخرج منها عناصر وأحكام ووصايا وفقهِ الدعوة إلى الله، وفقهِ النَّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأنَّه عليها في أبوابها وفصولها حسب مقتضيات التصنيف العلمي، الملتزم بروابط النظام الشجري ذي الجذور والفروع وفروع الفروع، حتى الأوراق والثمار.

وأرجو أن يسير حملة الرسالة على منهاجها العام، وأن يستفيدوا من التحرك في مسالكها بحسب مقتضيات الأحوال.

وقد استفدت لدى كتابتي هذا السفر من مخزونات المعرفة التي تراكمت لدي، من علوم عقلية وفلسفية واجتماعية، ولا سيما علوم التربية والنفس والاجتماع والإعلام، وكان لهذا المخزون الذي كنت أستعيد مراجعته أحياناً تأثيراً في التصنيف وبناء أفكار البحوث بناءً شجرياً، وفي كثير من الأفكار الصحيحة أو الراجعة القابلة للأخذ بها، أو الانتفاع منها.

وقد فتح الله عليّ باستخراج قواعد عامة ينبغي لحامل الرسالة أن يستذكرها دوماً، حتى تكون هادية له في مسيرته وهو يؤدّي رسالته.

ولا أزمع أنني استوفيتُ بهذا السفر كل ما يتعلّق بموضوعه استخراجاً واستنباطاً واستنتاجاً، لكن الله قد فتح عليّ فيه كثيراً ممّا لم أجده لدى مَنْ كتّب في موضوعه قبلي، وكان هذا الفتح بركة رجوعي رجوعاً مباشراً إلى تدبّر ما في كتاب الله عزّ وجلّ تدبّراً بتعمّق وأناة.

ولا يفوتني أن أثني على الباحثين قبلي في هذا الموضوع، فطبيعة الدراسات الإنسانية أن تعتمد في المجتمع البشري على التراكم والتكامل، واستفادة اللاحق من السابق.

وأرجو أن يأتي بعدي باحثون يضيفون أو يعدّلون، أو يجمعون بين الإضافة والتعديل.

وأنا مدركٌ تماماً أنّ كثيراً من بحوث هذا السفر قابلة للاختصار، إلا أنّ الاستخراج المباشر من النصوص القرآنية، مع التأمّلات التدبّرية، أمورٌ تلجىء الباحث إلى البسط، للإقناع بما أوصله إليه تدبّره.

وأسأل الله الجليل المتأن، أن ينفع بهذا السفر وبما احتوى من قواعد  
ومناهج ومسالك ووسائل ونصائح ووصايا، وأن يجعله خالصاً لوجهه  
الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة

في يوم السبت ٧ ربيع الثاني/ ١٤١٦هـ

الموافق لـ ٢/٩/١٩٩٥م

عبد الرحمن بن جنبة الميداني

# فهرسُ المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥

## الباب الأول مقدمات عامات

■ الفصل الأول: الأمة الإسلامية حملة رسالة هداية وإصلاح . . . .	١٣
● بالدعوة إلى الله . . . . .	١٣
● والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . .	١٣
وفيه ثماني مقولات:	
المقولة الأولى: تعريفات عامات «للدعوة - والتبليغ - والتذكير - والنصح - والإرشاد - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» . . . . .	١٥
المقولة الثانية: الدعوة والتبليغ . . . . .	٢٢
المقولة الثالثة: الشهادة يوم الدين على الذين تلقوا البلاغ . . .	٣٣
المقولة الرابعة: حكم تبليغ دين الله للناس . . . . .	٤٧
المقولة الخامسة: التذكير والنصح والإرشاد . . . . .	٥٠
المقولة السادسة: وظيفتا:	

الصفحة	الموضوع
٦٣	● الهداية بالدعوة والتذكير والنصح والإرشاد .....
	● والإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف
٦٣	والنهي عن المنكر .....
	المقولة السابعة: منزلة الدعوة إلى دين الله في سلم الأولويات
٧٧	الجهادية .....
	المقولة الثامنة: أقسام الدعاة إلى الله والآخرين بالمعروف
٧٩	الناهين عن المنكر .....
	■ الفصل الثاني: أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي
٨٣	عن المنكر في إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايته وصيانتة .....
	وفيه مقولتان:
٨٥	المقولة الأولى: نظرات تحليلية .....
٨٥	١ - ظاهرة تعاونية .....
	٢ - الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من
٨٨	الحماية والإصلاح .....
٨٩	٣ - من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض .....
٩١	٤ - حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق .....
٩٤	٥ - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها .....
٩٨	وما يجب على من توجه له الرسالة .....
١٠٠	المقولة الثانية: استعراض طائفة من النصوص .....
	■ الفصل الثالث: نظرة عامة إلى أصناف الناس الذين توجه لهم
١٠٥	وظائف الرسالة .....
	١ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة منفتح النفس لها،
١٠٧	غير رافض عرضها عليه .....

الموضوع	الصفحة
٢ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مُغلق النفس دونها لانصرافه للدنيا .....	١٠٩
٣ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مغلق النفس دون الإسلام لأن لها عقائد سابقة مخالفة له .....	١١٢
٤ - صنف عالم بالعقائد الإسلامية مستيقن متابع إلا أنه ناقص المعرفة وتغلبه أهواؤه وشهواته .....	١١٥
٥ - صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده إلا أن علمه لم يقترن باعتماد وإيمان جازم، فهو منتسب ولما يدخل الإيمان إلى قلبه ...	١١٦
٦ - صنف عالم مستيقن إلا أنه غافلٌ عن مقتضيات إيمانه مستغرق بديناه .....	١١٧
٧ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد في نفسه غير داعٍ إلى الضلال .....	١١٨
٨ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد وشيطان مضلٌّ فتان فاسد مفسد .....	١١٩

## الباب الثاني

### الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حَمَلَةُ الرسالة

١٢١	وفيه ستة فصول .....
	■ الفصل الأول: وجوب تحلِّي حامل الرسالة بصفة الصبر وعدم التضجر واليأس مهما اشتدَّ عليه الأذى وضعفت آثار أعماله الرشيدة .
١٢٣	وفيه أربع مقولات .....
١٢٥	المقولة الأولى: قيمة خلق الصبر ووجوب تحلي حامل الرسالة به . المقولة الثانية: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر
١٢٨	لحاملي الرسالة من أمة محمد ﷺ .....

- المقولة الثالثة: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر  
 للرسول ويلحق به حاملو رسالته من أمته ﷺ ..... ١٤٢
- المقولة الرابعة: نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر ..... ١٦١
- الفصل الثاني: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة التجرد من  
 المصالح الشخصية لدى من يُوجّه لهم رسالته ..... ١٦٣  
 وفيه ثلاث مقولات:
- المقولة الأولى: نظرة تحليلية ..... ١٦٥
- المقولة الثانية: البيانات القرآنية حول تجريد الرسل من  
 المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم ويلحق بالرسول سائر حملة  
 رسالاتهم ..... ١٦٩
- المقولة الثالثة: معاش حملة الرسالة المتفرغين لها ..... ١٨٢
- الفصل الثالث: وجوب تحلي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق  
 ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه ..... ١٨٧  
 وفيه مقولتان:
- المقولة الأولى: تحليل وتفصيل ..... ١٨٩
- ١ - بيان تحلي عام ..... ١٨٩
- ٢ - بيان تفصيلي ..... ١٩٢
- أولاً: أهمية البراءة من التطلع إلى ما وهب الله الناس ..... ١٩٢
- ثانياً: أهمية البراءة من الفظاظة وغلظ القلب ..... ١٩٦
- المقولة الثانية: أمثلة من أخلاق الرسول وسيرته العظيمة ﷺ ..... ٢٠٤

الصفحة	الموضوع
	■ الفصل الرابع: وجوب تحلي حامل الرسالة بالصفات التي ذكر
٢٠٩	الله عز وجل أنها صفات عباد الرحمن ليكون أسوة حسنة . . . . .
	وفيه مقولتان:
	المقولة الأولى: مقدمة تحليلية عامة مع بيان الشروط التي هي
٢١١	بمنزلة الأسس الأولى لكل داع وناصح . . . . .
٢١١	١ - مقدمة تحليلية . . . . .
	٢ - الشروط الأساسية الأولى لكل داع لأمر، أو ناصح به
٢١٢	مرشد إليه . . . . .
	المقولة الثانية:
٢١٩	١ - نظرة إجمالية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين
٢٢١	٢ - نظرة تفصيلية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين
٢٣١	■ الفصل الخامس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية البيانية .
	وفيه ثلاث فقرات:
٢٣٣	١ - وظيفة البيان في حياة الإنسان . . . . .
٢٣٦	٢ - الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى . . . . .
	٣ - البيان المطلوب من حامل الرسالة والصفات التي ينبغي
٢٤٠	أن يتحلّى بها . . . . .
٢٤٧	■ الفصل السادس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية العلمية .
	وفيه مقدمة وفقرتان:
٢٤٩	مقدمة . . . . .
٢٤٩	١ - بيان وجوب تحقق الأهلية العلمية . . . . .
٢٥١	٢ - عناصر الأهلية العلمية المطلوبة للمستوى التخصصي . .



## الباب الثالث

## قواعد ووصايا كليّة عامة

## وبيان لطائفة من آفات حملة الرسالة

٢٧٥	..... وفيه مقدمة وفصلان
٢٧٣	..... مقدمة
٢٨١	..... ■ الفصل الأول: قواعد كليّة بوصايا لحامل الرسالة
	..... وفيه إحدى وخمسون قاعدة:
٢٨١	..... بيان القواعد دون شرح
٢٩١	..... شرح القواعد
٢٩١	..... ١ - شرح القاعدة الأولى
٢٩٢	..... ٢ - شرح القاعدة الثانية
٢٩٣	..... ٣ - شرح القاعدة الثالثة
٢٩٤	..... ٤ - شرح القاعدة الرابعة
٢٩٦	..... ٥ - شرح القاعدة الخامسة
٢٩٧	..... ٦ - شرح القاعدة السادسة
٣٠٢	..... ٧ - شرح القاعدة السابعة
٣٠٥	..... ٨ - شرح القاعدة الثامنة
٣١٠	..... ٩ - شرح القاعدة التاسعة
٣١١	..... ١٠ - شرح القاعدة العاشرة
٣١٣	..... ١١ - شرح القاعدة الحادية عشرة
٣١٥	..... ١٢ - شرح القاعدة الثانية عشرة
٣١٧	..... ١٣ - شرح القاعدة الثالثة عشرة
٣٢٠	..... ١٤ - شرح القاعدة الرابعة عشرة

الصفحة	الموضوع
٣٢٣	١٥ - شرح القاعدة الخامسة عشرة .....
٣٢٥	١٦ - شرح القاعدة السادسة عشرة .....
٣٢٦	١٧ - شرح القاعدة السابعة عشرة .....
٣٢٧	١٨ - شرح القاعدة الثامنة عشرة .....
٣٢٨	١٩ - شرح القاعدة التاسعة عشرة .....
٣٤١	٢٠ - شرح القاعدة العشرين .....
٣٤٢	٢١ - شرح القاعدة الحادية والعشرين .....
٣٤٤	٢٢ - شرح القاعدة الثانية والعشرين .....
٣٤٥	٢٣ - شرح القاعدة الثالثة والعشرين .....
٣٤٧	٢٤ - شرح القاعدة الرابعة والعشرين .....
٣٤٨	٢٥ - شرح القاعدة الخامسة والعشرين .....
٣٥٢	٢٦ - شرح القاعدة السادسة والعشرين .....
٣٥٤	٢٧ - شرح القاعدة السابعة والعشرين .....
٣٥٥	٢٨ - شرح القاعدة الثامنة والعشرين .....
٣٥٨	٢٩ - شرح القاعدة التاسعة والعشرين .....
٣٥٩	٣٠ - شرح القاعدة الثلاثين .....
٣٦٠	٣١ - شرح القاعدة الحادية والثلاثين .....
٣٦٢	٣٢ - شرح القاعدة الثانية والثلاثين .....
٣٦٤	٣٣ - شرح القاعدة الثالثة والثلاثين .....
٣٦٧	٣٤ - شرح القاعدة الرابعة والثلاثين .....
٣٧٠	٣٥ - شرح القاعدة الخامسة والثلاثين .....
٣٧١	٣٦ - شرح القاعدة السادسة والثلاثين .....
٣٧٢	٣٧ - شرح القاعدة السابعة والثلاثين .....

الموضوع	الصفحة
٣٨ - شرح القاعدة الثامنة والثلاثين	٣٧٤
٣٩ - شرح القاعدة التاسعة والثلاثين	٣٧٥
٤٠ - شرح القاعدة الأربعين	٣٧٨
٤١ - شرح القاعدة الحادية والأربعين	٣٧٩
٤٢ - شرح القاعدة الثانية والأربعين	٣٨٢
٤٣ - شرح القاعدة الثالثة والأربعين	٣٨٤
٤٤ - شرح القاعدة الرابعة والأربعين	٣٨٥
٤٥ - شرح القاعدة الخامسة والأربعين	٣٨٦
٤٦ - شرح القاعدة السادسة والأربعين	٣٨٩
٤٧ - شرح القاعدة السابعة والأربعين	٣٩١
٤٨ - شرح القاعدة الثامنة والأربعين	٣٩٢
٤٩ - شرح القاعدة التاسعة والأربعين	٣٩٣
٥٠ - شرح القاعدة الخمسين	٣٩٥
٥١ - شرح القاعدة الحادية والخمسين	٣٩٦
■ الفصل الثاني: آفات حملة الرسالة	٣٩٧
وفيه مقدمة وبيان إحدى وعشرين آفة خطيرة:	
مقدمة	٣٩٩
شرح الآفات الخطيرات	٤٠١
١ - شرح الآفة الأولى	٤٠١
٢ - شرح الآفة الثانية	٤٠٣
٣ - شرح الآفة الثالثة	٤٠٣
٤ - شرح الآفة الرابعة	٤٠٤
٥ - شرح الآفة الخامسة	٤٠٥
٦ - شرح الآفة السادسة	٤٠٦

الموضوع	الصفحة
٧ - شرح الآفة السابعة	٤٠٧
٨ - شرح الآفة الثامنة	٤٠٨
٩ - شرح الآفة التاسعة	٤١٠
١٠ - شرح الآفة العاشرة	٤١٢
١١ - شرح الآفة الحادية عشرة	٤١٣
١٢ - شرح الآفة الثانية عشرة	٤١٤
١٣ - شرح الآفة الثالثة عشرة	٤١٥
١٤ - شرح الآفة الرابعة عشرة	٤١٦
١٥ - شرح الآفة الخامسة عشرة	٤١٧
١٦ - شرح الآفة السادسة عشرة	٤١٨
١٧ - شرح الآفة السابعة عشرة	٤١٩
١٨ - شرح الآفة الثامنة عشرة	٤٢٠
١٩ - شرح الآفة التاسعة عشرة	٤٢٢
٢٠ - شرح الآفة العشرين	٤٢٣
٢١ - شرح الآفة الحادية والعشرين	٤٢٤

#### الباب الرابع

##### مناهج توصيل الرسالة وسبيلها ووسائلها وأدواتها

٤٢٥	وفيه سبعة فصول
٤٢٧	■ الفصل الأول: التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر
	وفيه مقدمات عامات وثمانية مقولات حول وسائل التوجيه غير المباشر:
٤٢٩	المقدمات العامات

الصفحة	الموضوع
٤٢٩	● التعريف بالتوجيه المباشر وغير المباشر .....
٤٢٩	● طريق التوجيه المباشر .....
٤٣١	● مواطن وأحوال التوجيه المباشر .....
٤٣٣	● ضرر التوجيه المباشر أحياناً .....
٤٣٤	● طريق التوجيه غير المباشر .....
٤٣٦	● ميزات طريق التوجيه غير المباشر .....
٤٣٧	● واجب حامل الرسالة .....
	المقولة الأولى من سبل التوجيه غير المباشر:
٤٣٩	البيان الكلامي غير المباشر .....
٤٤٦	أغراض البيان الكلامي غير المباشر .....
٤٥٠	المقولة الثانية من سبل التوجيه غير المباشر: القدوة الحسنة ..
٤٥٠	١ - فطرة التقليد .....
٤٥٢	٢ - أسباب تأثير القدوة .....
٤٥٤	٣ - استغلال دعاة الشر دوافع التقليد في الناس .....
٤٥٦	٤ - واجب المسلمين عموماً وحملة الرسالة خصوصاً .....
٤٥٩	٥ - أهمية التربية بالقدوة الحسنة .....
	المقولة الثالثة من سبل التوجيه غير المباشر: البيئة والرفقة
٤٦٢	الصالحة .....
٤٦٢	١ - مقدمة .....
٤٦٢	٢ - أسباب تأثير البيئة الاجتماعية .....
٤٦٥	٣ - تكييف الإنسان مع بيئته الاجتماعية .....
٤٦٧	٤ - واجب تهيئة البيئة الإسلامية الصالحة .....
٤٦٩	٥ - الغزو الفكري عن طريق البيئة .....

	المقولة الرابعة من سبُل التوجيه غير المباشر: القصة النافعة
٤٧١	والمشاهد التمثيلية المفيدة .....
٤٧١	١ - القصة النافعة .....
٤٧٤	● مسؤولية حملة الرسالة بشأن القصة النافعة .....
٤٧٤	٢ - المشاهد التمثيلية المفيدة .....
	المقولة الخامسة من سبُل التوجيه غير المباشر: القراءة الحرّة
٤٧٦	وأثرها .....
٤٧٦	١ - سبب تأثير القراءة الحرّة .....
٤٧٨	٢ - استغلال المفسدين لوسيلة القراءة الحرّة .....
٤٧٩	٣ - واجب الأمة الإسلامية تجاه القراءة .....
	المقولة السادسة من سبُل التوجيه غير المباشر: الترنيم والنشيد
٤٨٣	بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً .....
٤٨٣	١ - الميول والتأثيرات الفطرية .....
٤٨٥	٢ - استغلال المفسدين للأغاني والموسيقى .....
٤٨٦	٣ - موقف الإسلام من استخدام هذا السبيل .....
	المقولة السابعة من سبُل التوجيه غير المباشر: إدخال البيان
٤٩٣	الإسلامي ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات .....
٤٩٣	١ - المطلوب في الفرص المتاحة .....
٤٩٣	٢ - انتهاز المناسبات التي تُتاح في مختلف العلوم .....
٤٩٦	٣ - استغلال المفسدين للعلوم والآداب والفنون .....
	المقولة الثامنة من سبُل التوجيه غير المباشر: البثّ العرضيُّ
٤٩٩	المفيدُ عند المناسبات الملائمات .....
٤٩٩	١ - التعريف .....

الصفحة	الموضوع
٥٠٠	٢ - المطلوب من حملة الرسالة تجاه هذا السبيل .....
٥٠١	٣ - استغلال المفسدين سبيل البث العرضي .....
٥٠٣	■ الفصل الثاني: العقبات الصّادّات للتوجيه وأساليب معالجتها ..
٥٠٣	وفيه مقدمة وخمس عشرة مقولة منقسمة إلى ثلاثة أقسام: .....
	القسم الأول: عقبات تكون أسبابها من حملة الرسالة، وفيه
٥٠٣	ستُّ عقبات .....
	القسم الثاني: عقبات تكون أسبابها ممّن توجّه لهم الرسالة،
٥٠٤	وفيه ست عقبات .....
	القسم الثالث: عقبات تكون أسبابها في الوسط بين موجّه
٥٠٤	الرسالة وبين من توجّه له، وفيه ثلاث عقبات .....
٥٠٥	مقدمة: نظرة عامة .....
	شرح عقبات القسم الأول: وهي العقبات التي تكون أسبابها من
	حملة الرسالة وهي ست عقبات .
٥٠٧	المقولة الأولى من العقبات الصّادّات: .....
٥٠٧	(١) عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة ...
٥٠٩	موقف التربية الإسلامية .....
	المقولة الثانية من العقبات الصّادّات:
٥١٠	(٢) عقبة كِبْر حامل الرسالة وعُجْبِه بنفسه .....
٥١٠	١ - الكبر والعجب بالنفس من أقبح الصفات المنفرة ...
٥١١	٢ - واجب حملة الرسالة .....
٥١٣	٣ - الترغيب في التواضع والتحذير من الكبر .....
	المقولة الثالثة من العقبات الصّادّات:
٥١٧	(٣) - عقبة ما في حامل الرسالة من قبائح منفرّة للحواس ..
٥١٨	● المطلوب من حامل الرسالة .....

الصفحة	الموضوع
٥١٩	● بدعة التبذّل والرثاءة ..... المقولة الرابعة من العقبات الصادّات:
٥٢٠	(٤) عقبة سوء خلق حامل الرسالة ..... المقولة الخامسة من العقبات الصادّات:
	(٥) عقبة كُؤن حامل الرسالة غيرَ موثوقٍ به وغير محترم
٥٢٢	من قِبَلٍ من يُؤدّي بينهم رسالته .....
٥٢٢	١ - شرح العقبة .....
٥٢٣	٢ - الصفات التي تكتسب بها ثقة الناس واحترامهم .....
٥٢٣	٣ - حكمة الله في اصطفاء رُسُلِهِ .....
	٤ - المطلوب من حامل الرسالة الذي لم يكتسب بَعْدُ الثقة
٥٢٤	والاحترام .....
	المقولة السادسة من العقبات الصادّات:
٥٢٦	(٦) عقبة كراهية شخص حامل الرسالة .....
٥٢٦	١ - شرح هذه العقبة .....
٥٢٧	٢ - وسائل معالجة عقبة كراهية شخص حامل الرسالة ...
	شرح عقبات القسم الثاني: وهي العقبات التي تكون أسبابها من حملة الرسالة وهي ست عقبات:
	المقولة السابعة من العقبات الصادّات:
٥٢٩	(١) عقبة كبر من توجّه له الرسالة وعجبه بنفسه .....
٥٢٩	١ - مقدمة .....
	٢ - وسائل تفادي عقبة الكبر والعجب بالذات لدى من
٥٣٠	توجّه له الرسالة .....
٥٣٢	٣ - التربية على فضائل الأخلاق .....



## المقولة الثامنة من العقبات الصادات:

(٢) عقبة شعور من توجه له الرسالة بالحرمان من حرية

التفكير أو حرية العمل ..... ٥٣٣

١ - حرية الإرادة إحدى عناصر الفطرة الإنسانية ..... ٥٣٣

٢ - المنهج الرباني لتحاكي هذه العقبة ..... ٥٣٥

٣ - النصوص القرآنية حول الحرية المقترنة بالتكليف

والمستتعبة بالمسؤولية والحساب والجزاء ..... ٥٣٦

## المقولة التاسعة من العقبات الصادات:

(٣) عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات .

١ - البيان التحليلي ..... ٥٥٣

السبب النفسي لهذه العقبة ..... ٥٥٣

٢ - طائفة من أساليب اجتياز هذه العقبة ..... ٥٥٥

## المقولة العاشرة من العقبات الصادات:

(٤) عقبة التقليد الأعمى ..... ٥٥٨

١ - مرض التعصب الذميمة يتولد منه مرض التقليد الأعمى

٢ - بيانات قرآنية حول التقليد الأعمى ..... ٥٦٢

٣ - وسائل علاج التقليد الأعمى ..... ٥٧٠

## المقولة الحادية عشرة من العقبات الصادات:

(٥) عقبة الحسد ..... ٥٧٤

١ - تأثير داء الحسد في النفس والسلوك ..... ٥٧٤

٢ - وسائل تخطي أو تحاشي عقبة داء الحسد ..... ٥٧٦

## المقولة الثانية عشرة من العقبات الصادات:

(٦) عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا ..... ٥٧٨

الموضوع	الصفحة
١ - شرح هذه العقبة .....	٥٧٨
٢ - وسائل معالجة عقبة الأهواء والشهوات .....	٥٧٩
شرح عقباتِ القسم الثالث: وهي العقبات التي تكون أسبابها في الوسط بين حامل الرسالة ومن توجّه له وهي ثلاث عقبات .....	٥٨١
المقولة الثالثة عشرة من العقبات الصادات:	
(١) عقبة الوسوس والتسويلات الشيطانية .....	٥٨١
١ - شرح هذه العقبة .....	٥٨١
٢ - وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء .....	٥٨١
المقولة الرابعة عشرة من العقبات الصادات:	
(٢) عقبة أعمال المضلّين وجنود الغزو الفكري المفسدين ..	٥٩٦
١ - شرح هذه العقبة .....	٥٩٦
٢ - وسائل معالجة هذه العقبة .....	٥٩٩
المقولة الخامسة عشرة من العقبات الصادات:	
(٣) عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر .....	٦٠١
<b>■ الفصل الثالث: المنهاج البياني ومسالكه «الحكمة - والموعظة</b>	
الحسنة - والجدال بالتي هي أحسن» .....	٦٠٥
وفيه خمس فقرات:	
الفقرة الأولى: نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدّعوة البيانية .	٦٠٧
١ - تعريف عامّ بالمسالك .....	٦٠٧
٢ - منافع الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله .....	٦١٠
٣ - البيان القرآني بالنسبة إلى المسالك الثلاثة .....	٦١٢
٤ - الأركان الداخلية للنفس الإنسانية والمؤثرات فيها .....	٦١٣
٥ - حكمة حامل الرسالة في هذا المجال .....	٦١٧

الصفحة	الموضوع
٦١٩	الفقرة الثانية: شرح مسلك الحكمة وبيان لبعض عناصرها ...
٦٢٠	● طائفة من عناصر الحكمة في البيان الدعوي .....
٦٢٠	١ - القول اللين .....
٦٢٠	٢ - مراعاة المنزلة الاجتماعية لمن تُوجّه له الرسالة .....
٦٢٢	٣ - البيان المقرون بالبرهان أو بالحجّة الصحيحة المقبولة .
	٤ - البيان المقرون بالدليل على أفضليّة ما جاء في الدين
٦٢٣	على غيره من الاحتمالات الممكنة .....
٦٢٤	٥ - البدء بجذور القضايا والانتقال منها إلى الفروع شيئاً فشيئاً .
٦٢٧	٦ - مراعاة المستوى الفكري لدى من تُوجّه له الرسالة ...
٦٢٧	٧ - مراعاة المستوى العلمي لدى من تُوجّه له الرسالة ...
	٨ - مراعاة الجوانب العاطفية التي تقتضيها الصّلات
٦٢٨	والعلاقات الاجتماعية .....
٦٢٧	٩ - مراعاة الحالة النفسية لدى من تُوجّه له الرسالة .....
٦٣١	الفقرة الثالثة: شرح مسلك الموعظة الحسنة وبيان لعناصرها ..
٦٣٢	● بيان تحليلي لمحاوّر النفس .....
٦٣٤	● وسائل الترغيب والترهيب البيانية .....
٦٣٥	● فطرة النفس تجاه المطامع والمخاوف .....
٦٣٦	الفقرة الرابعة: شرح مسلك الجدل بالتي هي أحسن .....
٦٣٦	١ - بيان عام .....
٦٣٧	٢ - الجدل بالتي هي أحسن هو من وسائل الدعوة إلى سبيل الله
٦٣٩	٣ - قواعد عامة للجدل بالتي هي أحسن .....
٦٤٩	الفقرة الخامسة: نماذج من تعليمات جدلية قرآنية .....
٦٦٣	خاتمة حول ما تفيدته التعليمات الجدلية القرآنية .....

## فهرسُ المجلد الثاني

الصفحة	الموضوع
٥	■ الفصل الرابع : وسائل الأداء البياني
٧	الوسيلة الأولى : الخطبة
٧	١ - أهمية الخطبة
٨	٢ - تعريف الخطبة
٩	٣ - وظائف الخطبة
١١	٤ - مراحل الخطبة
١٣	٥ - ما يجب التزامه في الخطبة
١٥	٦ - إعداد الخطبة
١٩	٧ - هل الخطابة استعداد فطري أم ملكة تكتسب؟
١٩	٨ - الصفات المفضلة للخطيب عند الخطبة
٢١	٩ - زخرفيات الخطبة بصفة عامة
٢٣	١٠ - عيوب الخطبة
٢٦	١١ - الخطيب وجمهوره
٢٦	١٢ - أمثلة من خطب الأسوة الحسنة
٣٣	١٣ - انتكاسة في تاريخ الخطب المنبرية
٣٥	الوسيلة الثانية : الدرس
٣٥	١ - بيان عام
٣٧	٢ - مسؤولية حامل الرسالة
٣٨	٣ - الدروس التعليمية ومنهجيتها المفضلة
٤٠	٤ - وصايا للمدرّس ينبغي أن يتعهّد مراعاتها ما أمكنه

الصفحة	الموضوع
٤٦	الوسيلة الثالثة: المحاضرة
٤٦	١ - التعريف
٤٦	٢ - هدف المحاضرة
٤٧	٣ - مستويات المحاضرات
٤٧	٤ - كبرى المهمات
٤٧	٥ - إعداد المحاضرة وأداؤها
٤٨	٦ - الأسئلة والمناقشات والاعتراضات
٤٨	٧ - عنوان المحاضرة
٤٨	٨ - خطبة في محاضرة
٤٩	٩ - نفعُ المحاضرة الدينيّة
٥٠	الوسيلة الرابعة: الحديث والمحادثة
٥٠	١ - التعريف
٥٠	٢ - القرآن حديثٌ بين الله وبين عباده
٥٢	٣ - أهمية الحديث
٥٤	٤ - الأحوال التي يظهر فيها الأثر الأكبر للحديث
٥٨	الوسيلة الخامسة: مجالس السؤال والجواب
٥٨	١ - البيان العام
٦٠	٢ - مسؤوليّة حامل الرسالة
٦٢	٣ - خاتمة
٦٣	الوسيلة السادسة: الكتاب
٦٣	١ - الأمة الإسلاميّة أمة (اقرأ)
٦٥	٢ - الكتاب قديماً
٦٦	٣ - الكتاب بعد انتشار المطابع
٦٧	٤ - الدعوة إلى القراءة
٦٨	٥ - حُسن اختيار الكتاب الذي ينبغي أن يُوجّه لقراءته

الموضوع	الصفحة
٦ - صفات الكتاب الجدير بالاعتبار والتقدير .....	٦٩
الوسيلة السابعة: المقالة .....	٧٧
الوسيلة الثامنة: الشعر .....	٧٨
الوسيلتان التاسعة والعاشر: القصة والتمثيل .....	٨١
■ الفصل الخامس: أدوات التوصيل الإعلامي ومسؤولية حَمَلَة	
الرسالة بالنسبة إليها .....	٨٣
وفيه ثلاث فقرات:	
١ - استعراض تاريخي .....	٨٥
٢ - أدوات التوصيل الحديثة .....	٨٨
٣ - مسؤولية حَمَلَة رسالة الهداية والإصلاح .....	٩٠
٤ - الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة .....	٩٢
■ الفصل السادس: المنهج الربّاني للسياسة الحكيمة الموجهة	
للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته .....	٩٥
وفيه مقدمة عامّة وواحد وعشرون تعليماً:	
المقدمة العامة: وفيها ثنتان وثمانون وصية أخذاً من اثنين	
وعشرين نصّاً .....	٩٧
أولاً: أخذاً من سورة (ق) .....	٩٧
ثانياً: أخذاً من سورة (الأعراف) .....	٩٨
ثالثاً: أخذاً من سورة (الجن) .....	٩٩
رابعاً: أخذاً من سورة (يس) .....	١٠٠
خامساً: أخذاً من سورة (الفرقان) .....	١٠٠
سادساً: أخذاً من سورة (النمل) .....	١٠٢
سابعاً: أخذاً مما جاء في سورة (يونس) .....	١٠٤

الموضوع	الصفحة
ثامناً: أخذاً ممّا جاء في سورة (الحجر) .....	١٠٤
تاسعاً: أخذاً من سورة (الأنعام) .....	١٠٦
عاشراً: أخذاً من سورة (الصفات) .....	١٠٦
أحد عشر: أخذاً من سورة (غافر) .....	١٠٦
اثنا عشر: أخذاً من سورة (فُصِّلَتْ) .....	١٠٧
ثلاث عشرة: أخذاً من سورة (الزخرف) .....	١٠٨
أربع عشرة: أخذاً من سورة (الذاريات) .....	١٠٨
خمس عشرة: أخذاً من سورة (المؤمنون) .....	١٠٩
ست عشرة: أخذاً من سورة (السجدة) .....	١٠٩
سبع عشرة: أخذاً من سورة (الطور) .....	١١٠
ثمانية عشرة: أخذاً من سورة (المعارج) .....	١١١
تسع عشرة: أخذاً من سورة (الروم) .....	١١٢
عشرون: أخذاً من سورة (الأحزاب) .....	١١٢
إحدى وعشرون: أخذاً من سورة (الرعد) .....	١١٣
اثنان وعشرون: أخذاً من سورة (الإنسان) .....	١١٤
تفصيل التعليمات من السور .....	١١٦
١ - شرح التعليم الأول من سورة (ق/٥٠ مصحف/٣٤ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا .....	١١٦
٢ - شرح التعليم الثاني من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا .....	١٢١
٣ - شرح التعليم الثالث من سورة (الجنّ/٧٢ مصحف/٤٠ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا .....	١٣٣
٤ - شرح التعليم الرابع من سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) وقد اشتمل على وصيّة واحدة .....	١٣٧

الموضوع	الصفحة
٥ - شرح التعليم الخامس من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/	
٤٢ نزول) وقد اشتمل على اثنتي عشرة وصية.....	١٣٩
٦ - شرح التعليم السادس من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨	
نزول) وقد اشتمل على ست وصايا.....	١٤٥
٧ - شرح التعليم السابع من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١	
نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا.....	١٥١
٨ - شرح التعليم الثامن من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤	
نزول) وقد اشتمل على تسع وصايا.....	١٥٦
٩ - شرح التعليم التاسع من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥	
نزول) وقد تضمن هذا التعليم وصية واحدة.....	١٦٦
١٠ - شرح التعليم العاشر من سورة (الصفّات/ ٣٧ مصحف/	
٥٦ نزول) وقد اشتمل على وصيتين.....	١٦٩
١١ - شرح التعليم الحادي عشر من سورة (غافر/ ٤٠	
مصحف/ ٦٠ نزول) وقد اشتمل على ثلاث وصايا.....	١٧٢
١٢ - شرح التعليم الثاني عشر من سورة (فصلت/ ٤١	
مصحف/ ٦١ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا.....	١٧٤
١٣ - شرح التعليم الثالث عشر من سورة (الزخرف/ ٤٣	
مصحف/ ٦٣ نزول) وقد اشتمل على وصيتين.....	١٨٥
١٤ - شرح التعليم الرابع عشر من سورة (الذاريات/ ٥١	
مصحف/ ٦٧ نزول) وقد اشتمل على وصيتين.....	١٨٩
١٥ - شرح التعليم الخامس عشر من سورة (المؤمنون/ ٢٣	
مصحف/ ٧٤ نزول) وقد اشتمل على وصيتين.....	١٩٢
١٦ - شرح التعليم السادس عشر من سورة (السجدة/ ٣٢	



الموضوع	الصفحة
مصحف/ ٧٥ نزول) وقد اشتمل على وصيتين .....	١٩٧
١٧ - شرح التعليم السابع عشر من سورة (الطور/ ٥٢ مصحف	
مصحف/ ٧٦ نزول) وقد اشتمل على خمس وصايا .....	٢٠٠
١٨ - شرح التعليم الثامن عشر من سورة (المعارج/ ٧٠	
مصحف/ ٧٩ نزول) وقد اشتمل على وصيتين .....	٢٠٥
١٩ - شرح التعليم التاسع عشر من سورة (الروم/ ٣٠	
مصحف/ ٨٤ نزول) وقد اشتمل على وصيتين .....	٢٠٧
٢٠ - شرح التعليم العشرين من سورة (الأحزاب/ ٣٣	
مصحف/ ٩٠ نزول) وقد اشتمل على ثلاث وصايا .....	٢٠٩
٢١ - شرح التعليم الحادي والعشرين من سورة (الرعد/ ١٣	
مصحف/ ٩٦ نزول) وقد اشتمل على ثلاث وصايا .....	٢١٢
٢٢ - شرح التعليم الثاني والعشرين من سورة (الإنسان/	
٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) وقد اشتمل على خمس وصايا .....	٢١٦
■ الفصل السابع: المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً .	٢١٩
وفيه ثماني فقرات:	
١ - مسؤولية الأمة الإسلامية تجاه المنكرات فيها .....	٢٢١
٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .....	٢٢٤
٣ - تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر .....	٢٢٨
٤ - الراعي داخل الأسرة ومسؤولياته .....	٢٣١
٥ - المنكرات من الأحاديث الكفرية في مجالس الكافرين .....	٢٣٣
٦ - المنكرات ذات الخطر العام .....	٢٣٥
٧ - المنكرات الفردية التي لا تشكل خطراً عاماً على المسلمين .	٢٣٧
٨ - إنكار المنكر بالقلب واللسان وضوابط التغيير باليد .....	٢٣٩

الصفحة	الموضوع
٢٣٩	● أهم ما ورد من النصوص .....
٢٤١	● شروط العمل على تغيير المنكر .....
٢٤٢	● من المسؤول عن تغيير المنكر باليد .....
٢٤٣	● إنكار المنكر باللسان .....
٢٤٤	● إنكار المنكر بالقلب .....

### الباب الخامس

#### نماذج تطبيقية من هُدي الرُّسُل عليهم السلام ومن سار على هديهم

٢٤٧	وفيه أربعة فصول .....
	■ الفصل الأول: صور من سياسة الرُّسُل في أدائهم رسالات ربهم .
٢٤٩	وفيه ست صور: .....
	الصورة الأولى: لقطات من سياسة نوح عليه السلام في أدائه
٢٥١	رسالات ربه .....
	وفيه ست فقرات:
٢٥٢	الفقرة الأولى: سياسة نوح عليه السلام في دعوته .....
٢٥٥	الفقرة الثانية: سياسة نوح في دفع الاعتراضات التي وُجِّهت له
٢٦٢	الفقرة الثالثة: سياسة نوح في دفع الشتائم التي وُجِّهت له .....
٢٦٥	الفقرة الرابعة: سياسة نوح في مجادلته لقومه .....
	الفقرة الخامسة: سياسة نوح في الدعوة والتذكير على توالي
٢٦٧	الأيام .....
	الفقرة السادسة: سياسة نوح في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له
٢٧٠	بالإخراج أو بالقتل .....

الصفحة	الموضوع
	الصورة الثانية: لقطات من سياسة هود عليه السلام في أدائه
٢٧٣	رسالات ربّه .....
	وفيها خمس فقرات:
٢٧٤	الفقرة الأولى: سياسة هود عليه السلام في دعوته .....
٢٧٧	الفقرة الثانية: سياسة هود في دفع الاعتراضات التي وُجّهت له
٢٨١	الفقرة الثالثة: سياسة هود في دفع الشتائم التي وُجّهت له ..
٢٨٣	الفقرة الرابعة: سياسة هود في مجادلته قومه ونصحه لهم ...
	الفقرة الخامسة: سياسة هود في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له
٢٨٩	بالإخراج أو بالقتل .....
	الصورة الثالثة: لقطات من سياسة صالح عليه السلام في أدائه
٢٩١	رسالة ربّه .....
	وفيها ثلاث فقرات:
٢٩٢	الفقرة الأولى: سياسة صالح عليه السلام في دعوته .....
	الفقرة الثانية: سياسة صالح في دفع اعتراضات قومه وشتائمهم
٢٩٧	وتطيرهم وجدلياتهم .....
	الفقرة الثالثة: سياسة صالح في تحدي قومه له باستعجال
٣٠٠	العقاب .....
	الصورة الرابعة: لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام في أدائه
٣٠٣	رسالة ربّه .....
	وفيها ثلاث فقرات:
٣٠٤	الفقرة الأولى: سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته .....
٣٠٧	الفقرة الثانية: سياسة إبراهيم في حججه ومجادلته لقومه ...
	الفقرة الثالثة: صفات إبراهيم عليه السلام في ذاته وفي

الصفحة	الموضوع
٣٣٧	سياسته الدعوية.....
	الصورة الخامسة: لقطات من سياسة شعيب عليه السلام في أدائه
٣٤١	رسالات ربّه.....
	وفيها ثلاث فقرات:
٣٤٢	الفقرة الأولى: سياسة شعيب عليه السلام في دعوته.....
	الفقرة الثانية: سياسة شعيب في دفع اعتراضات قومه عليه
٣٤٦	وجدلّياتهم له واتهاماتهم وشتائمهم.....
	الفقرة الثالثة: سياسة شعيب في معالجة اضطهاد قومه له
٣٤٩	وللذين آمنوا به منهم.....
	الصورة السادسة: لقطات من سياسة موسى عليه السلام في أدائه
٣٥٥	رسالات ربّه.....
	وفيها أربع فقرات:
٣٥٦	الفقرة الأولى: كيف تلقّى موسى عليه السلام نبوّته ورسالته .
	الفقرة الثانية: كيف تلقّى موسى عليه السلام تكليفه أن يبلغ
٣٦١	رسالات ربّه إلى فرعون وقومه.....
	الفقرة الثالثة: تعليم الله عزّ وجلّ موسى وهارون كيف يدعوان
٣٦٤	فرعون.....
	الفقرة الرابعة: سياسة موسى في أدائه رسالته وفي مواقفه
٣٦٧	الجدليّة وفي معالجته الاضطهاد.....
	■ الفصل الثاني: نماذج دُعاةٍ من غير الرُّسل عرض القرآن الكريم
٣٨٣	دعوتهم ونصرتهم لدينه.....
	وفيه مقدمة وسبعة نماذج:
٣٨٥	مقدمة.....

	النموذج الأول: دعوة مؤمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى
٣٨٧	عليه السلام ولدعوته .....
٣٨٨	١ - نظرة إجمالية عامة .....
٣٩٣	٢ - منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله .....
٣٩٦	٣ - التدبّر التحليلي للنص .....
	النموذج الثاني: دعوة مؤمن أصحاب القرية التي جاءها
٤٢٤	المرسلون وانتصاره لهم ولدعوتهم .....
٤٢٥	١ - نظرة إجمالية عامة .....
٤٢٦	٢ - منهج مؤمن أصحاب القرية في الدعوة إلى الله .....
٤٢٩	٣ - التدبّر التحليلي للنصّ المبين قصة الرسل الثلاثة .....
٤٣٤	٤ - التدبّر التحليلي للنصّ المبين قصّة مؤمن أهل القرية ...
	النموذج الثالث: دعوة نفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم
٤٤٣	سورة (الجنّ) .....
٤٤٣	١ - نظرة إجمالية عامة .....
	٢ - المنهج الدعويّ الذي اتخذه نفر من الجنّ الذين
٤٤٤	أخبر الله عنهم في سورة (الجنّ) .....
٤٤٦	٣ - التدبّر التحليلي للنصّ .....
	النموذج الرابع: دعوة نفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم
٤٥٩	سورة (الأحقاف) .....
٤٥٩	١ - نظرة إجمالية عامة .....
	٢ - المنهج الدّعويّ الذي اتخذه نفر من الجنّ الذين
٤٦١	أخبر الله عنهم في سورة (الأحقاف) .....
٤٦٣	٣ - التدبّر التحليلي للنصّ .....

الموضوع	الصفحة
النموذج الخامس: صورة من دعوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر.. النص من سورة (الأحقاف).....	٤٦٧
١ - فكرة هذا النصّ .....	٤٦٧
٢ - شرح بعض الألفاظ.....	٤٦٨
٣ - التدبّر التحليلي .....	٤٦٩
النموذج السادس: قصة قارون والدّعاة من بني إسرائيل من سورة (القصص) وفيها صورتان.....	٤٧٢
● صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغى على قومه	
● صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنتهم مظاهر الحياة الدنيا التي آتاها الله لقارون.....	٤٧٢
١ - بيان حول قارون .....	٤٧٣
٢ - التدبر التحليلي للمقطع الأول من النصّ .....	٤٧٤
٣ - التدبر التحليلي للمقطع الثاني من النصّ .....	٤٨١
النموذج السابع: قصة الرجلين المتحاورين .....	٤٨٨
● صاحب الجنتين المستكبر بهما وبأولاده والمنكر ليوم الدين.	
● والآخر المؤمن الذي لم يؤت سعة من المال والولد والأنصار. وقد جاءت في الآية من (٣٢ - ٤٤) من سورة الكهف ..	٤٨٨
١ - القراءات .....	٤٨٨
٢ - تحليل النص وما جاء فيه من حوار .....	٤٩٠
الفصل الأول.....	٤٩٣
الفصل الثاني.....	٤٩٧
الفصل الثالث .....	٥٠٣
٣- التعليق الختامي .....	٥٠٦
■ الفصل الثالث: نماذج من وصايا الأباء للأبناء .....	٥٠٧

وفيها وصيتان:

- الوصية الأولى: وصية كل من إبراهيم ويعقوب لابنه، الآيات من  
 ٥٠٩ ..... (١٣٠ - ١٣٣) من سورة (البقرة)
- الوصية الثانية: وصية لقمان الحكيم لابنه، الآيات من (١٣ - ١٩)  
 ٥١٢ ..... من سورة (لقمان)
- البيان التحليلي. وفيه (١٤) قضية .....  
 ٥١٤ .....
- الفصل الرابع: صور ونماذج عامة .....  
 ٥٢١ ..... وفيه أربع عشرة صورة:
- الصورة الأولى: الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة  
 بالإنذار، بعد سبق التبليغ بما يكفي للبلاغ والعلم .....  
 ٥٢٣ .....
- دعوة الرسول ﷺ لليهود .....  
 ٥٢٣ .....
- الصورة الثانية: إقامة الحجّة على المخالف المراوغ من نصوص  
 ما يؤمن به .....  
 ٥٢٥ .....
- حوار الرسول ﷺ لبعض أئمة اليهود في حكم الرجم ..  
 ٥٢٥ .....
- الصورة الثالثة: حُسنُ الاستقبال والحوارُ بانتزاع الاعتراف  
 بالمقدمات التي تستلزم النتائج التي يراد الإلزام بها مع استعطاف  
 النفس بما تحبّ .....  
 ٥٢٧ .....
- قصة إسلام عديّ بن حاتم .....  
 ٥٢٧ .....
- الصورة الرابعة: تكريم الأسير وإطلاقه الحكيم من الأسر وأثرهما  
 ٥٣٣ .....
- قصة إسلام ثمامة بن أثال .....  
 ٥٣٣ .....
- الصورة الخامسة: تنزيل الناس منازلهم تأليفاً لقلوبهم .....  
 ٥٣٥ .....
- قصة إسلام وائل بن حجر .....  
 ٥٣٥ .....
- الصورة السادسة: امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق .....  
 ٥٣٧ .....

الصفحة	الموضوع
٥٣٧	● قصة إسلام الحبر اليهودي زَيْد بن سَعْنَةَ .....
٥٤٠	الصورة السابعة: الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسالة .....
٥٤٠	١ - رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى .....
٥٤٠	٢ - رسالة الرسول ﷺ إلى هرقل .....
٥٤١	٣ - رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس .....
٥٤١	٤ - رسالة الرسول ﷺ إلى النجاشي .....
٥٤٣	الصورة الثامنة: رسائل الأقربين للأقربين وأثرها .....
٥٤٣	● رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد .....
٥٤٥	الصورة التاسعة: الجرأة في الحق .....
	● قصة الصحابي عائذ بن عمرو بن هلال والأمير
٥٤٥	عبيد الله بن زياد .....
٥٤٦	الصورة العاشرة: من طلب الموعظة فتح أبواب نفسه لتقبلها .
٥٤٦	١ - هارون الرشيد وطلبه الموعظة من ابن السمّك .....
٥٤٧	٢ - عمر بن عبد العزيز وطلبه الموعظة من الحسن البصري .
٥٤٧	٣ - الخليفة العباسي (المنصور) وطلبه الموعظة من الأوزاعي
٥٤٨	٤ - معاوية وطلبه الموعظة من عائشة أم المؤمنين .....
٥٤٩	الصورة الحادية عشرة: الشجاعة الأدبية في إنكار المنكر .....
٥٤٩	● العزّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب .....
	الصورة الثانية عشرة: زهد العلماء بما في أيدي الأمراء
٥٥١	يمنحهم الجرأة في الحق .....
٥٥١	● سفيان الثوري، وأبو جعفر المنصور .....
	الصورة الثالثة عشرة: قوة تأثير الموعظة التي تنفذ إلى أعماق
٥٥٢	القلب .....



الصفحة	الموضوع
٥٥٢	● صالح بن بشير المرّي، والخليفة المهدي . . . . .
	الصورة الرابعة عشرة: شجاعة العالم الربّاني في أخطر المواقف
٥٥٣	● الإمام ابن تيميّة، وقازان طاغية التتر . . . . .
٥٥٦	الصورة الخامسة عشرة: ذكاء ودهاء العالم الداعية . . . . .
٥٥٦	● مناظرات الباقلاّني ودهاؤه في بلاد الروم وأساليبه البارعة
٥٦٨	الخاتمة . . . . .
٥٧١	الفهرس . . . . .

## آثار المؤلف

### أولاً: في سلسلة أعداء الإسلام

- ١ - مكايد يهودية عبر التاريخ ٤٤٠ صفحة
- ٢ - صراع مع الملاحدة حتى العظم ٥٠٠ صفحة
- ٣ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها «التبشير والاستشراق والاستعمار» ٦٨٠ صفحة
- ٤ - الكيد الأحمر «دراسة واعية للشوعية» ٤٠٠ صفحة
- ٥ - غزو في الصميم «دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام» ٣٣٤ صفحة
- ٦ - كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة ٧٥٠ صفحة
- ٧ - ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين مجلدان ١٤٠٠ صفحة
- ٨ - أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية العاملة تحت تنظيم الآباء البيض ١١٨ صفحة

### ثانياً: في طريق الإسلام

- ١ - العقيدة الإسلامية وأسسها ٨٠٠ صفحة
- ٢ - الأخلاق الإسلامية وأسسها مجلدان ١٥٠٠ صفحة

- ٣ - براهين وأدلة إيمانية (مع ديوان، آمنت بالله) ٥٠٠ صفحة
- ٤ - الصيام ورمضان في السنة والقرآن «دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنة» ٤٨٠ صفحة
- ٥ - أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ٤١٢ صفحة
- ٦ - روائع من أقوال الرسول ﷺ «دراسة لغوية وفكرية وأدبية» ٥٧٥ صفحة.
- ٧ - الأمة الربانية الواحدة ١٢٢ صفحة.
- ٨ - ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ٤١٦ صفحة
- ٩ - تيسير فقه فريضة الزكاة «تبيين وتقنين وترجيح» ٨٢ صفحة
- ١٠ - فقه الدعوة إلى الله وفقه النصيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجلدان ١٢٥٠ صفحة

#### ثالثاً: دراسات قرآنية

- ١ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل ٨٠٠ صفحة
- ٢ - تدبر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع ٤٥٠ صفحة
- ٣ - تفسير سورة (الرعد) في وحدة موضوع ٢٩٠ صفحة
- ٤ - أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ٤٠٠ صفحة
- ٥ - نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد «دراسة في طريق التفسير الموضوعي» ٣٧٢ صفحة

#### رابعاً: سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية

- ١ - مبادئ في الأدب والدعوة ١٧٧ صفحة
- ٢ - ديوان «آمنت بالله» شعر ٨٠ صفحة
- ٣ - ديوان «ترنيمات إسلامية» شعر للنشيد ١٢٥ صفحة

- ٤ - ديوان «أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدّعاة» ٢٥٥ صفحة
- ٥ - البلاغة العربية  
«أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها»  
بهيكل جديد من طريف وتليد  
مجلدان ١٢٠٠ صفحة
- خامساً: كتب متنوعة
- ١ - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ٤٧٠ صفحة
- ٢ - بصائر للمسلم المعاصر ٤٥٥ صفحة

وغير ما ذكر من متفرقات

\* \* \*



اقراً للمؤلف  
في آخر ما أخرج للناس من كتب

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَقَوْمُهُ

في القرآن المجيد

دراسة

في طريق التفسير الموضوعي

قَوْلُهُ

التَّيْبُ الْأَمِينُ

لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

تَأَمَّلْهُ

طَبْعَتُهُ ثَانِيَةً مَزِيدَةً زِيَادَاتٍ وَاسِعَةً

وَالرَّفْعُ

رَبِّهِ

# تَدْبِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ

فِي وَحْدَةِ مَوْضُوعٍ

وَهِيَ السُّورَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْأَرْبَعُونَ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ

تَدْبِيرٌ بِمَنْهَجِ كِتَابِي

قَوَاعِدُ التَّرْبِيَةِ الْأَمْثَلِ كِتَابُ التَّبَعْرِ وَجَلَّ

وَلِلْقَاهِ

دِينِي



